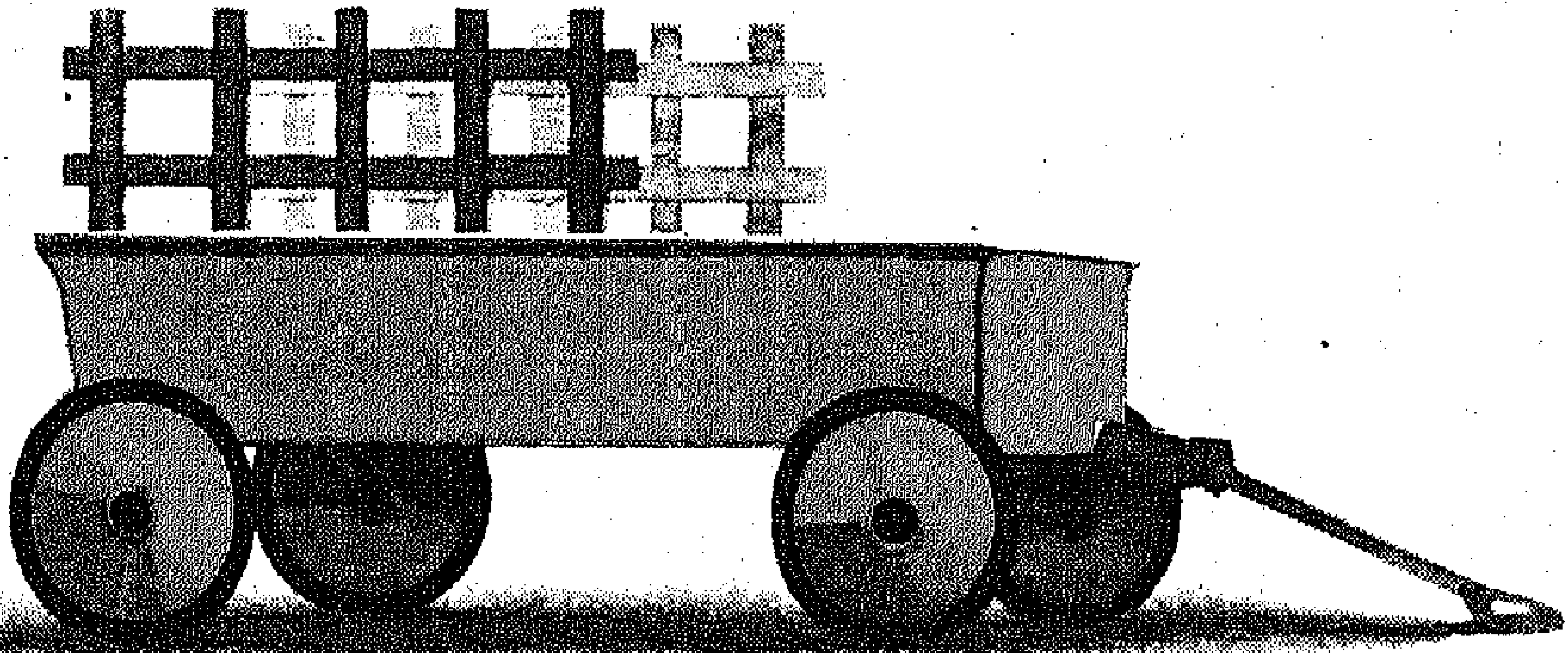
كتاب الشهر

فوق أجنحة الحمام





ملخص من كتاب
بقلم ر. رايت كامبل

في رحلة من عالم الرجولة الى عالم
الطفولة البعيد، فاضت الذكريات لا يعوقها عائق،
مركزة على السنة العاشرة من عمر
ذلك الفتى، وهي السن التي
شهدت انتقاله الى
عالم الكبار.

فوق اجنحة الحمام

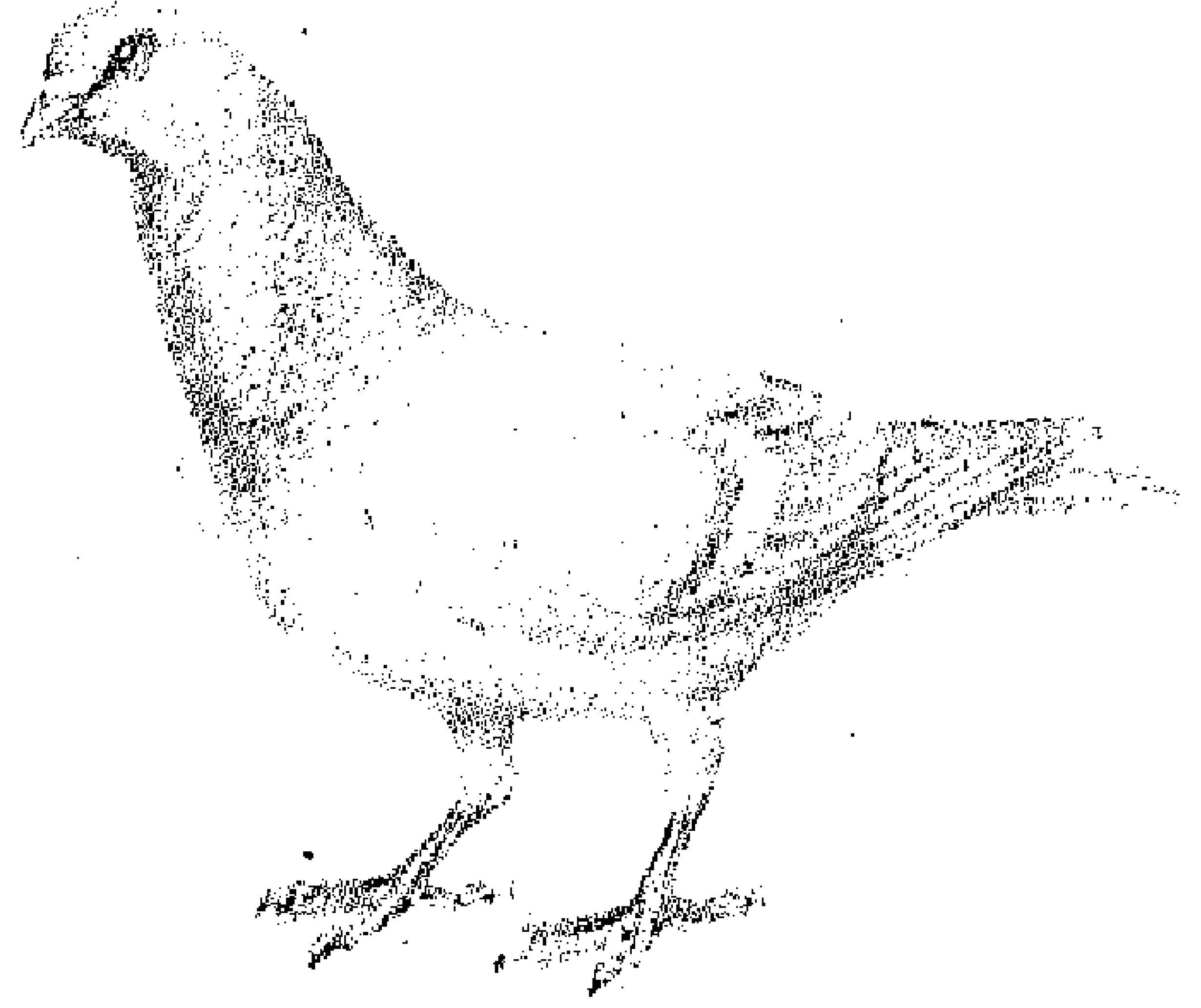
رواية ر. رايت كامبل
هذه تقص حكاية
فتى مع جده، بما تنطوي عليه من محبة وشرف ووفاء



عدت الى البيت الريفي الصغير المشرف على واحدة من السواقي الكثيرة التي كانت يوماً تغذي نهر جينيزي، بناء على دعوة اخرى من وكلاء البيع. هذه المنطقة العريقة التي ظلت حتى وقت غير بعيد شبه زراعية، ابتلعتها مدينة روشستر التابعة نيويورك. ومنذ ذلك الحين لم تعد ذلك الموضع الذي ألفته في طفولتي، بل تحولت مجموعة من المباني العصرية العادية التي تقوم فيها شقق السكن.

عدت وقد سرى في حس بالذنب غير قليل. انا الذي تركت بيت جدي للغرباء طوال السنوات العشرين الاخيرة. انا الذي أخليته وهجرته للاعشاب البرية والعفن. انا سبب هذه الحال من الاهمال والتداعي التي يعانيها المنزل.

لقد بعت، قبل وقت طويل، المنزل



الاكبر الذي تركه لي أبي وامي. الا اني لم اشأ التخلي عن هذا البيت الصغير الخرب الذي يبدو لي اليوم بيتي الحقيقي، على رغم اني لم اسكنه حقاً.

إنه لا يزال في مكانه. لكنه فقد ذلك الرواق الامامي. والاروقة المسقوفة في مداخل البيوت كانت شائعة ذلك العهد. ولم يبقَ من السلم العريضة عند المدخل سوى درجات واهية. وخيل الي ان الممر بين البوابة الكبيرة وباب المنزل اختفى. ولكن لم ألبث ان رأيت، بين ظلال الايام والسنين، ذاك الممر القديم وقد غطاه العشب واستطال فوقه. حقاً ان آثارنا لا تمحي بسهولة، كما قال لي جدي يوماً. وراودتني رغبة في السير الى الحديقة الخلفية قبل دخول المنزل.

هناك رأيت الساحة ملأى بالركام والمرأب مائلا وعلى وشك السقوط عند عصفة الريح الاولى. سقط ذلك المشهد كما الصخر على صدري. وكانت الاعشاب البرية مرتفعة وقد اصطبغت بألوان الخريف البنية والصفراء. اما اشجار الصفصاف والحور فقد اقتُلعت من جذورها. واختفت الساقية وحُوّل مجراها شبكة لمجاري المياه القذرة.

ورحتُ اركض على التلة وانا أخشى الانتقال من سني حياتي الخمسين الى السنة العاشرة المفعمة بالذكريات. وذهبت نحو بيت الحمام الذي ما زال حيث كان.

وكان هذا البيت، في ايام صاحبه هنري بودوم، فتنة الناظرين بأروقته الكثيرة ذات الاعمدة المستدقة وما يعلوها من اشكال مثلثة، وبنوافذه واطنافه المحفورة. وقد كُسيت سقوفه بألواح خشبية حمراء، وجُعلت فيها ابواب زرقاء. وأخبرني جدي ان ذلك الظل من الزرقة الضاربة الى الاحمر الرملي كان شائعاً في مسقط رأسه في بلجيكا.

اما اليوم فلم يبقَ في سقف بيت الحمام الا اللون الرمادي الكئيب. وفُقدت الواح كثيرة وسقط بعضها الى ارضية البيت ونتأ من جوانبه كما تنتأ الاضلاع من خاصرة حيوان جريح. وانتُزعت الاوتاد من معظم النوافذ وملئت العلب في الداخل بالركام... ركام على ركام.

وسمعتُ نفسي أقول: "آه يا جدي." وحمل الهواء عبير الرّشاد

والتوت البري من ضفة الساقية التي لم تعُد هناك. وشرق قلبي بالذكريات وطفح الدمع في عيني.
اني في العاشرة من جديد، السنة الحاسمة في حياتي. وفي تلك السنة يوم شهد نهاية طفولتي.

الحمام

استيقظتُ في ظلمة الفجر عند الساعة الرابعة. وكان شهر مايو (ايار) في ايامه الاخيرة، لكن الصباح حمل معه رعشة برد. ومررتُ امام غرفة والديّ على رؤوس اصابعي، من غير ان أدري ان بابها مفتوح جزئياً. وفجأة نادتني امي بحنان هادىء.
غير اني اكملتُ طريقي عبر درجات السلم المظلمة الى المطبخ حيث أشعلتُ النور. وتبعتني امي الى هناك بشعرها الاشعث والتجاعيد حول عينيها وفمها، وكانت هذه تظهر عادة في الصباح او بعد نوبة بكاء. واذكر ان جدّي اخبرني مرة ان الامهات يبكين ليلا ويتركن الابتسام للنهار. لقد كان جدّي احياناً ينطق عبارات شعرية غريبة. وهو اراد يوماً ان يكون أديباً او شاعراً.
رمقتني امي بابتسامة من عينيها الناعستين وازاحت الشعر عن عيني. وهمست: "انه يوم رائع. لكني لا أعرف البتة لماذا ينهض الرجال البالغون قبل بزوغ الفجر او في منتصف الليل ويتبعون سرباً من الطيور."
وأضافت وهي تتبعني الى الباب: "حافظ على دفء جسمك." ورفعت ياقة سترتي الى اذني وقبّلتني.
وانطلقتُ الى بيت جدّي الذي يفصله عنا نحو ثلاثة ارباع الكيلومتر.
وفي طريقي شاهدتُ مجموعة بنفسج على جانب الطريق، فاقتلعتُ بعضاً منها وأعطيتُها لجدّي من غير تحفّظ. وهو الذي علّمني ان الجمال واحد، وليست له قوانين تخص الذكور واخرى تخص الاناث.
وتناولنا معاً الشاي المعطّر الذي لا نشربه في بيتنا على الاطلاق. ثم ذهبنا الى بيت الحمام وحملنا ثلاثة فراخ هي جيني ومونبيم وديكنز ووضعناها في سلة ذات ثلاثة جيوب. وتركنا الباب مفتوحاً ذلك اليوم، متيحين للحمائم حرية التحليق والتنقل حيث شاءت. وانطلقنا في سيارة جدي ومعنا الطيور الثلاثة.
وكان هواة تربية الحمام بدأوا التوافد الى مبنى اتحاد روشستر الامريكي لسباق الحمام. ووصلنا في السادسة والنصف صباحاً وقد غصّت غرفة النادي بالناس. وامتلأ هواء الغرفة برائحة التبغ والقهوة.
وكان الرجال، وبينهم قلة من النسوة، يتزاحمون بالمناكب ويتحادثون بمودّة ويتفاخر كل منهم بالحمائم التي يقتنيها. وكان حديثهم بسيطاً، لكنه غريب احياناً. وسمعتُ احدهم يقول:
"لقد كانت حمامتي المفضلة. كانت تهزّ ذيلها على الدوام وتحب التمرّغ في الوحل، كما تؤثر التحويم بعيداً قبل الاياب. غير اني وضعتُ املا كبيراً فيها. وكانت عند حسن ظني بها في العام التالي، اذ فازت في سباق الـ ٣٠٠ كيلومتر والـ ٥٠٠ كيلومتر."

وأدركت ان الرجل يتكلم عن حمامة منحرفة الذيل، مكتنزة الكتفين، ملوّنة الريش، أرهقه تدريبها في السنة الاولى لانها كانت تغادر السرب، لكنها باتت حمامته المفضلة بعد فوزها في السباق.

ومن العادات السيئة لدى الحمام تحويمه بعيداً بدلا من العودة مباشرة الى بيته. والحمائم المنحرفة على هذا النحو لا تصلح للسباق او للتناسُل. والمربّون يضطرون الى ذبحها لا رغبة في القتل، بل حفاظاً على سلوك الحمائم الاخرى.

ومن قصص الهواة ما أثار الغيظ في زملائهم. ومنها القصة التي رواها جدّي قائلا انها تعود الى العام ١٩٣٠. ولم تكن ثمة حاجة الى ذكر التفاصيل، لكن جدّي اصر على ذلك. وقال بلهجته البلجيكية الوالونية:

"تعرفون ان سرعة الطائر تُقاس بدءاً باطلاقه وانتهاء بفك الربطة المعدنية من ساقه ووضعها في الساعة التي يحملها المدرب. وبعد حساب المسافة الفضائية بين نقطة الانطلاق وبيت الحمام، يُجرى حساب السرعة في الدقيقة."

وتمتم السيد فوكيت العجوز: "أنحتاج الى دروس في هذه المسألة؟" وكان فوكيت، بالاضافة الى، افضل صديق لجدّي في العالم.

وتابع جدّي: "في احد نوادي السباق..."

فقاطعه فوكيت: "اي ناد هو هذا؟"

ووضع جدي اصبعاً تحت عينه وأغمضها كما لو شاء ان يخفي سراً". وأضاف: "كان هناك رجل اسمه ديغان او ديتون او داغان او ما شابه، وكان يملك ذكر حمام اسمه سكيتر او تويتر او جيتر او ما شابه."

قال فوكيت: "ان ذاكرتك رائعة."

– اجل، أنا انسان متعقل... لقد أُشرك الطائر في سباق الـ ٨٠٠ كيلومتر. وكانت الجائزة الاولى مئة دولار. أما سكيتر...

"او جيتر او تويتر او ما شابه."

– فقد جاء الى ديغان.

"او داغان او ديتون أو ما شابه."

– الذي كان ينتظره في بيته... أجل، لقد بلغ الطائر بيته في الوقت المناسب لنيل الجائزة الاولى، لكنه رفض الدخول.

ترى اي منا، نحن الهواة، لم يفقد على اعصابه وهو ينتظر عودة طائره الى العش ثم دخوله الذي يسجل نهاية الشوط؟ ومن منا لم يخسر سباقاً او اثنين بسبب طائر سيىء الطباع؟

وتابع جدّي: "نحن في العام ١٩٣٠، والركود الاقتصادي في اوجه، وصاحبنا الهاوي بلا عمل ولا مال كي يسدّد حساباته، وها هو الطائر اللعين يعذبه في اللحظات الحاسمة الاخيرة التي تفصله عن كسب المئة دولار. ولم يحاول القبض على الطائر ووضعه في مكانه خوفاً من ان يطير. وكانت كل ثانية تقصي عنه المبلغ المنشود."

وأشعل جدّي غليونه وقد خلق جوّاً من الترقّب لدى المستمعين.

واخيراً سأله فوكيت بإلحاح: "وماذا

حصل بعد ذلك؟" طرح فوكيت السؤال على رغم سماعه الرواية مراراً.

وأضاف جدّي: "عاد الهاوي الى بيته حيث كان يحتفظ ببندقية رش. فأخرج الآلة من مكانها وحشاها بالخردق، ثم عاد الى بيت الحمام ورمى الطائر الذي سقط في العش. وانتزع العلامة عن ساقه ووضعها في الساعة، ثم قبض قيمة الجائزة."

وسأله فوكيت: "لماذا سترت جريمته؟"

- من انا كي أحكم على القسوة التي تدفعنا اليها الحاجة؟ لقد كانت لذلك الرجل طريقه. وليس لي ان أُصدر حكماً على طريقة اجتيازه تلك الطريق.

قال جدّي هذا وهو ينظر الي. والواقع اني تعلمتُ الكثير منه عبر الحكم والامثال. وهو كان يحب ان يروي القصص كما أُحب انا الاصغاء اليه.

وكان حديث الحمام يملأ النادي ويشنف اذني.

وسأله هاو آخر هو جون بورلي: "ماذا تقول يا بودوم؟"

- ماذا اقول عن اي شيء؟ أتعرف حفيدي يا جون؟

"أجل، أعرفه... أأنت مشترك في السباق يا هيو؟"

وأجبتُه: "نعم، وطائري هو ديكنز."

وهزّ جون رأسه، ثم التفت الى جدّي وكرّر السؤال: "ماذا تقول عن استخدام طريقة الطائر المترمل بالنسبة الى المسافات القصيرة؟"

- لا تتبع هذه الطريقة! فهناك قسوة وحماقة في تعريض الطائر للهياج الجنسي ثمّ حمله بعيداً عن أُنثاه... ماذا تقول يا جون اذا دخلوا عليك في ليلة باردة وحملوك بعيداً عن هارييت ودفء السرير؟

ولما قال جدّي هذا، ضحك الحاضرون كلهم وقد راقهم ما سمعوا.

اما طريقة الطائر المترمل فتقضي بإبعاد الذكر عن انثاه ثلاثة ايام او اربعة قبل موعد السباق، على ان يُحجَز منفرداً. وقُبيل نقله الى منصة الاطلاق يؤخذ الى الانثى في زيارة قصيرة. وهناك يباشر الدوران حولها وتملقها، لكنه سرعان ما يُحمَل بعيداً. ويدفعه شوقه القوي الى التحليق بأقصى سرعته خلال المباراة.

وقال جدّي بعد إبداء رأيه: "ان كثيراً من تلك الذكور المفصولة تفقد توازنها الطبيعي. وهذا الاختلال يلازمها بقية حياتها."

ثم سأله جون: "وما رأيك في طريقة اثارة الغيرة؟"

ونظر جدّي الي وقال: "لقد جرّبها هيو على طيوره قبل وقت قصير... ماذا تقول يا هيو؟"

انّ هذه الطريقة تختلف من حيث تنفيذها عن الطريقة السابقة. هنا يعزل الذكر في مكان يرى انثاه منه، ويوضع ذكر آخر مع الانثى. وتولّد الغيرة لدى الطائر انجازاً رائعاً خلال السباق، وقد أذكت اوارها التعاسة والخوف والغيظ.

وقلتُ وانا أحاول تقليد جدّي في الاقتضاب: "لا تتبع هذه الطريقة ايضاً. فهي لا تجدي الا مع الطيور السريعة الغضب."

ونظر جدّي الي بعينين نصف مغمضتين، كأنما أراد ان يقول: "اذا شاء هؤلاء الاصحاب ان يعرفوا شيئاً عن الحمام، فهم يأتون الى آل بودوم."

موهبة خاصة

سأل احدُهم جدّي: "كم طائراً ستطلق يا بودوم؟"

قـال: "ثلاثـة: جينـي، مونبيـم، ديكنز. وهذا الاخير يخص حفيدي هيو."

فأضاف الهاوي: "انا سأُطلق ١٢ طائراً."

"هذا عظيم جداً"، قال له جدّي، "ولكن هل ستحلق طيورك كلها؟"

وعلا الضحك بين الحضور. ونظروا كلهم الى جدّي بودّ وإعجاب. ولكم راقني ان أرى المربين والمدرّبين الذين يملكون مالا اكثر وبيوت حمام اكبر يقصدون جدّي للاقتداء به في الامور المتعلقة بعلم الحمام وفن السباق الخاص به.

وجاء صوت من الطاولة الكبيرة حيث جلس أمين النادي: "بودوم!" وهزّني جدّي كي أذهب الى مصدر الصـوت. وهنـاك سُلِّمـتُ ساعـة اوتوماتيكية مختومة، مع ثلاثة أغلفة معدنية. وكلما عاد طائر الى بيته، يجب فك الربطة عن ساقه وطيها ووضعها في الغلاف. ومن هناك تدخل تلقائياً في الساعة التي تسجل الوقت بدقة. وقد مهر ثلاثة اعضاء من ادارة النادي جميع الاختام بإمضاءاتهم منعاً لاي تلاعب. ذلك ان السباق الذي كنا نخوضه لم يكن عادياً، وانما كان سباقاً على ٩٥٠ كيلومتراً.

وَضعت الطيور في صناديق الشحن بعد ترقيم كل سلة بالطبشور. وشكا مونبيم امره قليلا، لكن جيني كانت سهلة القياد كعادتها. وفي اللحظة الاخيرة نظر ديكنز الي وراح يصيح بأعلى صوته. ومددت اصبعاً الى رأسه وأنا انفش ريشه ثمّ أَصففه من جديد.

ونظرتُ الى جدّي لأرى اذا كان راضياً عما أفعل، فقال: "انهُ سيتدبر امره. لقد كان هذا الطائر جيداً وهو داخل البيضة بعد!"

وتذكرت المجامعة التي أدّت الى مجـيء ديكنـز. لقـد اختيـر الذكـر والانثى على امل انجاب طيور تصلح للمسافات الطويلـة. وتمـت الخطبـة وسط محادثة بين رجل في السبعين وفتى في السادسة.

وراحت يدا جدّي اللتان صبغتهما الايام بلون جذوع السنديان تربتان جناحي الانثى، وهي الليدي فاليانت. ولـم تقاومـه الحمامـة. بـل سلمـت جناحيها الى اصابعه الرفيقة.

وقال جدّي: "أرأيت يا هيو؟ انها تطيع بلا تذمُّر. وهذا يعني ان علينا مزاوجتها بذكر يقاومنا لدى فتح جناحيه."

وأجبتـه علـى الـفـور: "هـنـاك ستاركروس الذي له هذه الصفة."

– هذا صحيح. الا ان ستاركروس طويل وعريض، في حين ان الليدي فاليانت قصيرة وثخينة. وليس من الحكمـة المزاوجـة بيـن جسديـن مختلفين الى هذا الحد.

"ماذا تقول عن انجل؟"

– انه افضل. والحق انه يهوى قطع المسافات. لنأتِ به اذاً.



ولما احضرناه، وجدنا ان عينيه قاتمتان كعيني الليدي فاليانت. عندئذ سألني جدّي: "أتعتقد انه افضل ان نزف الانثى ذات العينين القاتمتين الى ذكر ذي عينين فاتحتين؟"

وفكرتُ في الامر ملياً. وقد تعلمت من جدّي الا اتسرّع في الاجابة عن الاسئلة الحاسمة. واخيراً قلت: "اني لا أعتنق هذا المبدأ."

ووقفتُ أُراقب بإعجاب المزاوجة التي تمت بين انجل والليدي فاليانت عندما وُضعا في قفص واحد. لقد اقترب الذكر من الانثى، فجمدت مكانها وهي تنظر اليه بحذر. وانحنى ونشر ريش ذيله وجناحيه وأخذ يدور على قدم واحدة كراقص باليه. ولما استجمع القوة والجرأة، حاول ان يضغط جسده على جسدها. واذ لم يجد منها مقاومة ظلّ يتودّد اليها بأصوات عذبة.

وفجأة بادلته الليدي فاليانت الغزَل بالمثل، وكأنما شاءت ان تستسلم له بعنف. وتراجعت خطوة او اثنتين وهي تهزّ رأسها، ثم عادت نحوه بحماسة لا تقل عن حماسته. وأدخلت منقارها في منقاره واستغرقا في قبلة طويلة لم يقطعها سوى حاجتهما الى التنفّس. ودارت وأقعت وسلمت نفسها. وهكذا تمّ التزاوج الذي قُيِّض له ان يدوم مدى الحياة اذا لم يقطعه حادث قاهر.

وبعد عشرة ايام وضعت الليدي فاليانت البيضة الاولى من اصل اثنتين. نزلت البيضة الثانية، وهي التي راهنتُ عليها والتي حملت ديكنز، في الثانية عصر اليوم التالي. ولئن يكن صحيحاً ان الحمائم كلها كانت لجدي ولي معاً، الا ان الملكية بالنسبة الى الصغير تأتيه عن طريق الكبير بحيث لا يشعر انها له حقاً.

لكن تلك البيضة كانت لي وحدي. ورحتُ أنظر اليها في بياضها العاجيّ الناصع. وكنتُ على يقين من انها اكبر من سابقتها، وان لم تكن اكبر كثيراً. لكن ذلك كان كافياً كي اشعر بالتفوّق. ولولا خشيتي من ضحك جدّي عليّ، لقلت ان تلك البيضة التي تخصني كانت تلمع قليلا، وانها كانت مسحورة.

في تلك الايام كنت اجلس وجدّي قرب بيت الحمام نصغي الى هديله الناعس تحت حرّ الشمس. وهناك كان جدّي يسرد عليّ قصصاً من التاريخ، منطلقاً من اهتمامي بالحمام.

كان جدّي في نحو التاسعة من عمره خلال الحرب الفرنسية - البروسية. وكان في تلك السن من هواة تربية الحمام الذين يعرفون كل شاردة وواردة عن تلك الطيور. وامتلأت صفحات الجرائد البلجيكية

بالاخبار عن حصار باريس. وقبل وصول الالمان الى اسوارها، تلقت المدينة ٨٠٠ رأس حمام من نواد في شمال البلاد. واعتادت الحمائم بيوتها الجديدة وأصبحت تؤوب اليها بعد كل رحلة.

وعزل سكان باريس عن العالم، ومنعهم غياب وسائل الاتصال من معرفة تطورات الحصار. وفي صبيحة يوم من سبتمبر (ايلول) ١٨٧٠، غادر المنطاد "نبتون" المدينة محملا بالرسائل الرسمية والمدنية. لكن المسؤولين لم يعرفوا مصيره. لذلك تقرر تحميل المنطاد التالي "فيل دو فلورانس" بالحمائم التي يمكنها ان تعود ومعها الاجوبة.

وهكذا حملت المناطيد الستون التالية التي أطلقت من باريس بعد ذلك الوقت ما يزيد على ٨٠٠ طائر حمام زودت بالرسائل في ذهابها وإيابها. وفي الشتاء القاسي من تلك السنة، كانت الارض مغطاة بالثلج معظم الوقت، مما أربك الطيور لدى عودتها. وضلت حمائم كثيرة طريقها وسقط بعضها تحت وطأة العوامل الجوية والبعض الآخر ببنادق الصيادين في الارياف.

ولدى سماعي تلك القصة للمرة الاولى انهمرت الدموع من عيني، على رغم اعتقادي ان البكاء علامة ضعف. ووضع جدي يده في يدي وناولني منديلا نظيفاً من جيبه كي أمسح به دمعي.

وخفف عني قائلا: "لا عليك يا عزيزي هيو! ان تلك الطيور الباسلة تستحق ثناءنا على هذا النحو."

بتلك الطريقة اعانني جدي على اقامة علاقة انسانية بيني وبين الطيور. وبت على قناعة بأن الحمام يطير ليس بدافع الغريزة، بل استجابة لنا. وهذه الطيور تبلي حسناً في السباق لان كرامتها عزيزة عليها.

وشعرت، وانا أجلس في ذلك المكان نفسه بعد تلك السنوات الطويلة، اني اكتسبت قوة نفسية متجددة. لقد غدوت طفلا من جديد، وسلمت حواسي الى عالم مسحور يجوز فيه حدوث أي شيء.

الحياة الثمينة

بقيت وجدي في النادي حتى ختمت الطيور وحملت في الشاحنات التي توجهت بها نحو نقطة الانطلاق في هيلزبورو، وهي بلدة من اعمال ولاية ايلينوي تبعد ٩٥٠ كيلومتراً. وراودني هاجس الانفصال عن طيور أحببتها ولن اسمع خبرها الا بعد ايام.

وسألني جدي ونحن نخرج نحو سيارته: "أهناك ما تود فعله هذا النهار؟"

- ثمة عمل نقوم به في بيت الحمام.

وضحك جدي وقال: "السباق لم يبدأ بعد. أتظن ان في امكانك الانتظار اياماً بلياليها خارج بيت الحمام؟ ان امك ستسلخ جلدي اذا حصل هذا. ولكن دعنا قبل كل شيء نسد رمقنا."

وانطلقت السيارة في محاذاة نهر جينيزي نحو بيت جدي. وهو ظل صامتاً بعض الوقت. ثم لاح لنا منزله، فقال: "الجسد لا يرتاح الا بالاياب الى بيته. أليس هكذا؟"

وأدركتُ حب جدّي لمنزله الصغير، بفنائه الخلفي والساقية المترقرقة هناك، لبيت الحمام والاشجار والحديقتين الصغيرتين اللتين غرس الاعشاب العطرية المغذّية في احداهما والخضر في الاخرى.

وبلغنا المنزل واتجهنا فوراً نحو بيت الحمام. وكانت الطيور في مواضعها بإرادتها. وأوعز اليها جدّي بأن تخرج من مخابئها، فتجمعت خارجاً ثم طارت كلها معاً. وملأت الفضاء وقد تلاصقت اجنحتها وعلا هديلها. وأتلعت عنقي لأراها في الوانها البيضاء والرمادية والزرقاء. وخفق قلبي بهجة. ترى: أيمكنني الضجر من منظر كهذا؟ وتقدّمت بضعة خطوات الى جدي الذي كان ينظر الى البعيد كما يفعل البحارة وسكان السهول.

وتدفق الحب في قلبي وادركت ان جدّي يعاني مشاعر مماثلة، انه هو الآخر لا يمكنه الضجر من منظر كهذا. واخذت يده فقال لي: "لنترك الطيور تلهو كما تشاء ونتناول الطعام."

ودخلنا المنزل من ناحية المطبخ، وفي غرفة خلع الاحذية نفضنا عنا الغبار. ثم دخلنا المطبخ التقليدي الذي ملأته اشعة الشمس. وكانت امي لا تضع الستائر الا منشّاة، فيحتج جدّي على تلك اللطائف الانثوية.

وطالما كانت تحاول اثارته بقولها: "اتتظاهر بأنك اعزب دهر وقد عشت خمساً وثلاثين سنة من الحياة الزوجية؟"

لكنه كان يجمجم تعبيراً عن سخطه. وبعد مغادرة امي وقد خلّفت شيئاً من عطرها الانثوي في الغرفة، كانت تهدأ ثائرته وتتألق عيناه. اما انا فكنت اعرف انه يفكر في جدّتي جيني وفي الوقت الذي سكنا فيه ذلك المنزل للمرة الاولى وليس لهما الا سرير وطاولة.وبعض الكراسي. ترى لو عادت اليه الآن صبية مفعمة بالحياة، ذات شعر كسنابل القمح كما وصفها لي مراراً، أكان يأسرها بين ذراعيه القويتين ويمنحها قبلة الحياة الثمينة كما يفعل ابي وامي بين وقت وآخر؟

وكنت اسعل او أُصدر صوتاً آخر لاعادة جدّي من الماضي الى الحاضر، وقد عانيت الغيرة من ماض لم يكن لي دور فيه.

اما الآن فكان واقفاً عند النافذة، ينظر الى الطيور وقد هبّت نسمة من النهر. وسعلتُ لأقطع حبل افكاره، فهزّ رأسه وابتسم. ثم ذهب الى بيت الثلج وأخرج رأس بندورة (طماطم) كبيراً وبعض الخس، وقلى شرائح لحم وقطّع الخبز وحمّصه. وأحضر بعض التفاح وزجاجة حليب، فيما تناولت كوبين من خزانة الشراب قرب المغسلة.

وجلسنا نأكل معاً وقد غمرتنا البهجة والرفقة وأخيلة الحمام. وتناولنا طعامنا بصمت كما يفعل الاصدقاء القدامى.

وما ان شرب جدّي الجرعة الاولى من الحليب البارد اللذيذ حتى رفع يده الى شعره وصرخ كما لو تلقى ضربة على رأسه: "يا الهي!" وسقط كوب الحليب من يده وانسكب على غطاء الطاولة. وحاول جاهداً ان يبقى منتصباً في مكانه، على كرسي بلا ذراعين، وهو ينظر الي عله يحصل

على جواب عن سؤال مهم. وما لبث ان خسر المعركة وسقط بثقله الى الارض.

العاصفة

احسستُ ضعفاً في بطني ورجلي. وحاولتُ ان اتحرّك فلم استطع. وكنت احمل كوب الحليب بين يدي. وظل ذاك الشلل المذهل يكبّلني لحظة بدت طويلة، قبل ان أضع الكوب على الطاولة وأغرق في بكاء مرّ. وهويتُ عن مقعدي وجثوتُ على ركبتي بالقرب من جدي وانا ابكي لما أصاب الرجل العجوز. واخذتُ يده الكبيرة بيدي كمن يقبض على عصفور خوفاً من فراره.

وتفحّصتُ وجهه، فوجدته منحرفاً الى ناحية واحدة وقد انطبقت احدى عينيه فيما انفتحت الاخرى بترقّب وذهول. واضطجع على الارض وراح يحرّك احدى رجليه بضعف محاولا ان يستعيد كرامة جسده. وهم بالكلام، فخرجت من فمه أصوات مختلطة غير واضحة دفعتْ خوفي الى اقصاه.

وصحتُ فيه: "ما الامر يا جدّي؟"

لكنه أجابني بعينين ترجوانني ان افهم ما يريد. وأجهد عينيه في اتجاه الهاتف وقد بات وجهه اكثر مدعاة الى الخوف.

وأدركت ما يبغي، فذهبت لتوّي الى الهاتف وخابرت والدي في مكتب الصحيفة حيث يعمل. لكنهم قالوا لي انه ترك ليتناول الغداء. ثم خابرت محل رادنز حيث تعمل امي في قسم المحاسبة. وأصغت الي وانا أصف ما حلّ بجدّي. وقالت لي بصوتها المطمئن ان أنتظر ريثما تجيء.

ودخلتُ غرفة نوم جدّي ورفعتُ عن سريره وسادة وغطاء عدت بهما الى المطبخ لأرى عينيه مغمضتين وقد علت أنفاسه. ورفعت يده الواهية مرة اخرى ووضعتها على صدري. ورحت افكر في ديكنز.

لقد وضعت الليدي فاليانت بيضتها الاولى بسهولة. وكان انجل يدخل عليها من وقت الى آخر ويجلس فوق البيضة. ولكن بعد وضع البيضة الثانية، لازم انجل العش وحضنا البيضتين سويّاً. وكنت امضي وقت فراغي بعد المدرسة أراقب العملية في انتظار فقس البيضتين. وقال جدي لامي آنذاك ان الليدي إنجل لها ثلاث اخوات هن امي وانجل وانا.

وفي اليوم السابع عشر ظهرت البوادر الاولى للفقسة، وهي ثقب صغير في منتصف البيضة. وحصل ذلك للبيضتين في الوقت نفسه تقريباً. وكان علامة حظ بالنسبة اليّ لانه جاء قبيل عيد ميلادي السادس. وكانت ولادة طائري الخاص يوم ميلادي بالذات تعني انه طائر فريد في كل شيء.

وصبيحة بلوغي السادسة هرعتُ الى بيت جدّي حيث وجدتُه نائماً في كرسيه الهزّاز أمام المنزل. وأيقظتُه وانا أناديه وأشدّه بقوّة.

وذهبنا نراقب البيضتين وهما تهتزان وترتجفان. ورفع جدّي البيضة التي تخصني وأدناها من اذني لأسمع صوت الحياة ينبعث منها.

وفقّست البيضتان قبيل الظهر، في حدود الساعة التي ولدتُ فيها قبل ست سنوات. وصببتُ اهتمامي على الفرخ الذي لي. وكان عارياً من

الريش، لكنه رطب وفيه بعض زَغَب.

وابتسم جدّي لما رآه يكسر البيضة ويخرج، وسألني: "ماذا تريد ان تسميه؟"

وفكرتُ ملياً في تلك المسألة التي تعني لي الكثير. وكان جدّي، في تلك الآونة، يقرأ عليّ قبل النوم مقاطع من كتب تشارلز ديكنز "اوليفر تويست" و "ديفيد كوبرفيلد" و"الصرصور على الموقد." فقلت له: "سأدعوه ديكنز."

ووافقني قائلا: "حسن! اسم مناسب."

ذلك المساء أخذني والداي الى بيت جدّي للاحتفال بعيد ميلادي. ولما هنأني هنأ ديكنز في الوقت نفسه.

وأُديرت المرطبات مع الحلوى والهدايا. وأهدى اليّ جدّي عربة حمراء كبيرة تدور على عجلات ولها جوانب خشبية. وكان هيكلها المعدني مكسوّاً بالمينا الصّقيلة، كذلك أغطية عجلاتها. وهي تحمل رسم جناحين أصفرين علامة مميزة لها.

وقال جدّي وهو يسلّمني الهدية: "انها عربة مفيدة ومسلية في آن. وفي إمكان هاوي الحمام ان يحمّلها طيوره، بعد وضعها في سلالها، إذا شاء نقلها من بيتها الى موضع التدريب."

وأضاف أبي: "انها من الضخامة بحيث تتسع لشخص يفوق هيو بضعفين."

ورمقني جدّي بعينيه الزرقاوين الصافيتين وسأل: "أيمكنك ان تجرّها يا ولدي؟"

وأجبتُه بعد تفكير: "أجل، بمساعدتك يا جدّي."

كانت تلك الذكريات مصدر عزاء لي وأنا قابع بالقرب من جدّي المبتلي. ونظرتُ الى بحيرة وينيبيغ في مانيتوبا، فاذا بالنسائم تحرّك الامواج الصغيرة على سطحها. ومع مرور الدقائق قوي الهواء وأخذت الامواج تتلاطم من ضفة الى اخرى.

وعرفتُ من الغيوم المتلاحقة في طبقات الجوّ العليا ان الرياح العالية كانت تتحرّك بسرعة تفوق سرعة الرياح المنخفضة. وفي ذلك علامة على ولادة عاصفة. وأدّت حرارة الشمس الى تبخّر الماء وولّدت تيارات ناقلة للحرارة. ومع ارتفاع الهواء الرطب من البحيرة مئات الامتار، تكوّنت الغيوم التراكمية الضخمة. وبدأ الجوّ يضطرب والريح تهبّ الى الجنوب الشرقي.

معنى الحرّية

لم أفهم الا قليلا من الحديث الذي دار بين طبيب العائلة ووالديّ. وجلستُ في ركن من ردهة المستشفى وأنا أشعر بالضياع ولا أصدّق ما حدث. وقد راودني دافع الى البكاء، لكنني لجمتُه خوفاً وحياء. وراح الدكتور ساند يهمس لوالديّ كلمات متعلقة بتخثّر الدم حول الدماغ وبنزف الدم حول الغشاء الدماغي. وأوضحُ ما قاله الطبيب كان الآتي: "ليس ممكناً بعد ان نشخّص حاله ونصف ما حلّ به."

اما انا فكنتُ متأكداً من امر واحد، وهو ان جدّي تعرّض لاهانة جسدية ومعنوية اسمها السكتة



الدماغية. وها هو الآن في سرير غريب لا يخصه، الامر الذي آلمني كثيراً. وطالما افاض جدّي في الحديث عن متعة خلود المرء الى سريره. وهو أمضى سنوات يعمل في البيع ويجول في انحاء البلاد ويأوي الى أسرة غير مألوفة. ومرّة قال لي: "اذا كان ثمة علامة تميّز الانسان المتحضر، فإنما هي حقه وامتيازه في إلقاء رأسه على السرير الذي اعتاده وبات جزءاً منه." وفي رأيه ان السرير اهم ما يميز البيت، وانه محور الحياة. وهذا يصحّ على معظم المخلوقات.

وبعد انقضاء نهارين وليلة ازدادت المخاوف العائلية. ولم أكن معتاداً تلك المواقف. فالمرض زائر غريب بالنسبة الى آل بودوم.

وفتح جدّي عينيه. ولهنيهة خُيّل اليّ اني اقرأ الرعب والاضطراب فيهما. ثم تحوّلتا اليّ كما لو كانتا تخاطبانني.

وانحنت امي فوق جدّي وحاولت ان ترفعه قليلا. وجاء ابي عن النافذة كي يساعدها. عندئذ أطبق جدّي عينيه، وعرف والدي انه لا يريد لهما القلق على حاله. واخيراً قالت امي: "حسناً يا ابي، فليكن ما تريد." وانسحبت.

وعاد جدّي يوجه أنظاره اليّ، فذهبتُ الى السرير ووضعتُ يده في يدي. وحاول الكلام، فبدا صوته أشبه بصوت حيوان جريح. وكان ذلك مثيراً للشفقة.

وما لبثتُ ان أدركت رسالة جدّي: "السباق يبدأ صباحاً يا هيو. وطائرك ديكنز سيكون الفائز." فهمتُ ذلك على رغم ان الاصوات التي تفوّه بها جدّي كانت بعيدة جداً عن هذا المعنى. لقد أحب واحدنا الآخر حتى بات يفهمه بلغة الايماء. وهززت رأسي وشددت على يده وانا أقول: "سأقوم مع الشمس يا جدّي. وسآتي لأخبرك عن وقت إطلاق الطيور وعن الاحوال الجوية وكل ما يتعلق بالسباق."

ارتقى أعضاء ادارة النادي المنصة فيما كانت الحمولة تنزل من العربات. وفتحت السلال وأطلقت الطيور في لمعان الصباح. واندفع ٤٢٦ طائراً الى الفضاء، وباتت تشكل زمراً لدى ارتفاعها الى نقطة أعلى من رؤوس الاشجار.

إن الحمائم الطائرة تسعى الى رفقة أفراد من جنسها. وهذا دافع طبيعي قوي لديها. وعلى المدرب ان يبتكر وسائل لتحرير طيوره من هذه العادة. فالطائر السريع، لدى عثوره على سرب من جنسه، يتباطأ ويخسر السباق.

أما الطائر المثالي فهو الذي يسعى الى الارتفاع ويتغاضى عن السرب،

ثم يختار أقصر طريق الى بيته. وطائري ديكنز من هذا النوع. فهو كان يحلق عالياً فوق الطيور مثل سهم خفيف الحركة. وكان يتلمس طريق عودته سريعاً في طيات الهواء.

لقد بدأ تدريب ديكنز وهو لم يبلغ اسبوعه الثامن. وكنت احمله على راحة يدي وارفعها حتى يواجه رأسه أعلى ذراعي. وفي جولة التدريب الاولى حملته على هذا النحو وحمل جدي الطائر الآخر سكرودج، رفيق ديكنز في عشه. وملأنا ثلاث سلال بفراخ الحمام ووضعناها في عربتي الحمراء وانطلقنا الى مكان غير بعيد حيث باشرنا تدريب تلك الطيور.

وقال جدي فيما كنا نجر العربة ويحمل كلٌ منا طائره: "اليوم تبدأ مسؤولية ديكنز تجاه نفسه. إنه لم يختبر سوى الحرية. وهذا عظيم. غير ان بعض المخلوقات، أعني بعض الناس، لا تعرف معنى الحرية."

وسألته: "أليست الحرية حقك في أن تفعل ما تشاء؟"

– تعني في أي وقت، ودونما اكتراث؟

"اكتراث لأي شيء؟"

– لتحصيل خبزك ومعيشتك بصحبة الآخرين...

"أتعني الواجبات اليومية يا جدي؟"

– أقصد أن تفعل ما تستطيعه حين يمكنك ذلك، وأن تشق طريقك بنفسك.

"إني لا أزال صغيراً يا جدي بالنسبة الى شق طريقي."

– حقاً يا ولدي. إلا ان ديكنز، على حداثته، سنعلمه الآن أن يطير في وقت معين، كما سنلقنه بعضاً من الحرية التي يقدر عليها.

"اننا نريد تلقينه ان يعود الى بيته. أليس كذلك؟ فنحن لا نريد له أن يطير بحيث لا يرجع."

– أجل. فهو قد يذهب ولا يؤوب. وعلينا أن نختبر ارادته في العودة الى بيته. فهذه الارادة من علامات الحرية. والكائن الحي يعود الى بيته للخير الذي ينطوي عليه ذلك البيت. وكل مخلوق ينبغي ان يعطى حرية ارتياد السموات العُلى حتى حدودها.

"وهل بحثت عن حدود السموات يا جدي؟"

هنا ابتسم جدي بهدوء وراح ينظر بعيني بحار ويتكلم من غير أن ينظر الى مكان معين:

"الخمسون هي سن اختبار في عمر الانسان. الصبايا يدعينك "سيدي" ويقبلنك في زاوية فمك من غير تلبث هناك. لكنهن أحياناً يطلن البقاء في تلك الزاوية كما لو اكتشفن فيها الفتى الذي كنته يوماً.

"لقد كنت في الثالثة والخمسين، اقاوم الهموم التي تراكمت علي عبر نصف قرن. وكانت عماتك تزوجن وابتعدن عني، كما تزوج والدك، وفتح بيتاً خاصاً به. وكان لي عملي بالطبع. غير أني، ما أن اؤوب الى المنزل في عطلة نهاية الاسبوع، حتى احسه مقفراً وكئيباً عصر السبت وطوال الاحد. ولم يكن لدي ما يسليني في وحدتي، الى أن صنعت جدتك عشاً صغيراً للحمام وأعطتني إياه بعدما وضعت فيه ذكراً وانثى."

وقاطعته قائلا: "هذا عظيم."

– اجل! لكني قاومت الفكرة بادىء

الامر، واخذت اجازة من عملي ورحلت الى الجانب الآخر من الجبل.

"إلا أنك عدت الى البيت."

ـ نعم، وبسرعة فائقة. فالابتعاد عن البيت لم يعد يلائمني. وهكذا بت كطائر حمام: حراً في ان أطير بعيداً، أما سعادتي فكانت في الاياب.

الصقر

بلغنا منتصف حقل التدريب حيث كان العشب يغطي جدي حتى الركبتين ويغطيني أنا حتى الخصر. هناك فتحنا السلال واعتقنا الطيور. أما ديكنز وسكرودج فأطلقناهما من يدينا. وقال جدي: "انظر اليهما ينطلقان بجلبة كما الاولاد من مدرسة. ثمة حاجة الى تعديل هذه العادة لديهما، عادة الانضمام الى السرب."

واخبرني عن المرة الاخيرة التي عاد الى البيت، كطفل بالغ يؤوب الى عشه الآمن. لقد ذهب عندئذ الى بيت الحمام حيث شاهد عشرة طيور وأكثر تجثم باختيال أمام الباب.

وخرجت اليه زوجته جيني وهي تقول: "انها جلسة جميلة للطيور. أليس كذلك؟"

ـ كنت أظن أنك تفضلين الكناري المغرد الذي تقتنين!

"الكناري طائر بيتي لا يمكن اطلاقه من محبسه. أما هذه الحمائم فيمكن، بل يجب، اطلاقها من وقت الى آخر. ومن النادر جداً ان تذهب بحيث لا تعود."

ـ أتحاولين أن تعلميني عبرة ما؟

وما أن قال هذا حتى قبلته جدتي على خده وهي تضحك.

لكن جدي الآن حبيس جسد لا يستجيب لارادته. ولدى دخولي غرفته ووقوفي وراءه، أصدر صوتاً يحاكي صيحة قلق. وللحال وقفت أمامه ونظرت الى وجهه فاسعدني ان أرى أنه يحاول الضحك لفكرة سرته. وضحكت أنا أيضاً. بعد ذلك رفع يده اليمنى قليلا وغص حلقه بالكلام. إنه الحديث عن الطيور.

وقلت له: "لقد فهمت ما تقول يا جدي. الطيور أطلقت في السادسة والنصف هذا الصباح. وكانت الرياح خفيفة وتهب الى الجنوب الشرقي عبر سماء صافية."

وقال جدي: "قليلا وستجد نفسك منتصراً وسط لقاء حاشد في النادي." قال هذا في مقاطع طويلة مضطربة، ثم أطبق عينيه خجلا من ضعفه.

وشددت على يده ثم جثوت على ركبتي أمام السرير وخاطبته: "اواه يا جدي! يجب أن تبقى معي ولا تذهب بعيداً."

وشرق مرة اخرى بالكلام، وفتح عينيه ونظر الي. وتابعت: "إنك ستشهد حتماً نهاية السباق."

وهبت الريح معتدلة ومنعشة، بسرعة ٢٠ الى ٣٠ كيلومتراً في الساعة تتخللها عواصف خاطفة. وراحت الريح ترقص عبر بحيرة هورون وهي في طريقها الى ملاقاة هبّة قطبية باردة آتية من الشمال.

في قطاع آخر من الفضاء كانت هناك انثى صقر تعبر وادي الواباش، غرب تيرهوت في ولاية انديانا، بسرعة ٣٠٠ كيلومتر في الساعة. وكانت هي وذكرها يبسطان سلطانهما على فضاء مساحته ٢٠ كيلومتراً مربعاً في التلال وأسفل النهر

حيث تقوم أشجار حور هنا وهناك. وارتفعت انثى الصقر فوق الامواج الحرارية وقد زادت خفق جناحيها لتركب الغيم.

ولو كانت تلك الانثى على الارض، ترتاح بعض ساعات النهار في عشها أو تغتذي على طريدة قتلتها، لتجاسرت الطيور العابرة، من جميع الاصناف، على التحليق في نطاقها. أما وجودها في الفضاء فكان يبعد الطيور الاخرى عنها. فهي تتفحص كل مقدار ضئيل من جوها طولا وعرضاً علها تقع على فريسة.

وبعد ساعتين من بدء المباراة وصل ديكنز الى جوائها.

تشبث بالحياة

اخيراً تركنا جدي وحده في غرفته البيضاء وقد تسللت أشعة الغروب الواهية من نافذته. وأحسست فيها وطأة وهي تسقط على ارض الغرفة. ولا أدري اذا كان جدي اختبر شعوراً مماثلا...أم تراه كان مستغرقاً في الضربة التي اصابته او في المرض الذي أودى بجدتي؟

وتذكرت أني اخبرت كيف حاول أن يرد عنها الموت. فقد قصت علي امي ذات مرة كيف ان جدي "نسج عباءة من قوة الارادة، وأدخل عليها ترقيعات كثيرة حتى غدت كالاسمال وبها قيد زوجته أطول مايمكن."

وأخبرتني عن جدتي وهي مضطجعة على سريرها في غرفة النوم الصغيرة المشرفة على النهر، وهي تسمع الحمام يسجع عند الغسق. ولم تكن الستائر ترفع الا في تلك الساعة، لان ضوء النهار كان يؤذي عينيها.

واذ ذاك كان جدي يضمها اليه، فتتكيء على صدره وهي تصغي اليه يهمس في شعرها.

وقد دخلت امي عليهما غير مرة في ذلك الوضع المؤثر. ومرة سمعت جدي يعد جدتي بأنه سيحفظ عهده معها في الحياة وبعد الحياة.

اعود الى ديكنز...

لقد شاهدته انثى الصقر، فاستجمعت قواها للانقضاض عليه. وهبطت عمودياً وسط أشعة الشمس التي سلبته البصر.

واندفعت بقوة الى أسفل. ورأى ديكنز ظلها يحمل الموت، وقد أرخت مخالبها استعداداً للاجهاز عليه. وتلبث قليلا ثم انحرف جانباً.

ولحقت به، ففقد سيطرته قليلا. لكنه لم يرتبك أو يُصب بأذى.

وتابعت اندفاعها العنيف حتى كادت ان تبلغ الارض. وأضاعت ديكنز من مرمى نظرها، فعادت تخترق طبقات السماء حتى بلغت ارتفاع ٣٠٠ متر. ونشرت جناحيها وسط تيارات الهواء الصاعدة وراحت تبحث عن ديكنز تحتها.

أما ديكنز فكان يطير بلا احتراز، وقد تجاوز مجموعة أشجار نحو خلاء مكشوف.

وشاهدته انثى الصقر، فاستجمعت قواها وانحدرت من السماء مثل حجر ساقط.

ولجأ ديكنز الى ادراكه وبراعته، فحول اتجاهه الى مجموعة من أشجار الصفصاف



عند ضفة أحد الروافد النهرية. وهذا أحبط خطة انثى الصقر، لكنها تابعت طريقها اليه. واشتد خوفه، لكنه ثابر على الهرب منها. فالاشجار على بعد دقيقة أو أقل منه. وهناك الامان.

ودنت انثى الصقر من الارض مرة اخرى، ثم استأنفت التحليق وقد اغاظها ان تضيع ديكنز هذه المرة أيضاً.

ولم يبقَ لديكنز سوى الاشجار امامه، وكان يلزمه بعض قوة لبلوغها. وأخذت جذوع الاشجار واوراقها تظهر له بوضوح وهو يسمع اندفاع انثى الصقر وراءه.

اخيراً وصل ديكنز الى الاشجار الظليلة واختفى بين اغصانها وهكذا تحققت سلامته.

الغنيمة

اليوم التالي غادرتُ المدرسة ظهراً ولم أعد اليها. وذهبتُ الى بيت الحمام انظفه من الداخل والخارج واغير ماءه واطلق الطيور. ووقفتُ اتفحص طيات السماء علّي أرى طيفاً لديكنز أو مونبيم أوجيني، لا لاني كنتُ انتظر عودتها في هذا الوقت السريع، بل لاني أردتُ أن أحمل أخباراً جديدة الى جدي لدى زيارتي له مساء برفقة والدي.

واتصلت بمركز النادي، فأخبرني أمينه السيد انغلند أنّ عاصفة اعترضت طريق الطيور المتبارية. وقال أن معظم الطيور عبرت الطريق قبل هبوب العاصفة، لكنّ بعضها ربما انجرف بها.

وبادرته على الفور بالآتي: "هذا يصحّ على الأسراب، وليس على ديكنز".

وسألني السيد إنغلند: "أتَوَدّ أن اخباركَ اذا بدأت الطيور طريق الاياب؟"

ورجوته أن يفعل. وفي الثالثة والدقيقة السادسة والعشرين، خابرني ليقول أنّ طائر السيد فوكيت، ويندهيل، بدأ طريق العودة. ولكن لن يُعرَف الفائز قبل وصول الدفعة الاولى الى بيوتها. إلا أنه من المؤكّد أنّ طيورنا الثلاثة لن تربح السباق لانها لم تُشاهد بعد في طريق العودة، ولأنّ بيتها هو أقرب البيوت الى نقطة الانطلاق، مما يجعله الابعد في طريق العودة.

وطفر الدمع الى عينيّ. وأنّبتُ نفسي على الاهتمام بتلك المسائل فيما جدي يعاني الآمرّين.

ووصل مونبيم الى بيته بعد ساعة، وتبعته جيني. لكنّ ديكنز لم يظهر له أثر. ووقفتُ ابكي ظناً مني أن طائري فُقد وأنّ ذلك علامة على وشوك موت جدّي.

ونقلتُ اليه الانباء السيئة عندما زرناه ذلك المساء. ونقر على السرير يدعوني الى جانبه. وأخذ يدي وشدّ عليها حتى كدت ان أصرخ ألماً. لكنّ قوته اسعدتني. وما أن ترك يدي حتى مدّدتُها الى جيبي وأخرجتُ هدية حملتُها اليه.

وكانت هديتي نواة خوخ كان جدي نفسه نَحَتَ منها رسماً لقرد يقبل قردة، مصراً آنذاك على أنّ القردة تقبل بعضها بعضاً. وهو اعطاني تلك الهدية في وقت سابق، بعد تحليق ديكنز في مباراته الاولى.

وقبل اطلاق ديكنز في ذلك السباق، زاوجناه مع حمامة مترملة اسمها ثاليا. وعلى رغم أني ألفت تزاوج الحمام، إلا أني كنت أحب مشاهدة تلك العملية على الدوام، واجد فيها ما يدهش. وربما كان تفسير ذلك أن جدي، الذي يكبرني كثيراً، ما انفك هو الاخر يحب مراقبة الحمائم في مغازلتها ومجامعتها.



ووضعت ثاليا فقسة البيض بعد عشرة ايام من المجامعة. وحضن الاثنان البيض وجاءت الفراخ في وقتها الطبيعي. ولدى بلوغها اليوم الثامن، اخذنا ديكنز من العش ووضعناه في السلة، ثم حملناه الى نقطة الانطلاق ليشارك في سباق الـ٥٠٠ كيلومتر.

ثمة حمائم نادرة يمكنها أن تبلي حسناً بالنسبة الى جميع المسافات. ولكن يبدو أن ديكنز كان مؤهلا للمسافات الطويلة وحدها. وفي ذلك السباق لم يأت ديكنز في الطليعة، مما أثار حنقي عليه. وأتى جدي من بيت الحمام الى ضفة الساقية حيث كنت جالساً أغسل حزني. وكان يحمل في احدى يديه سكيناً وفي اليد الاخرى نواة خوخ جافة. وراح يحز النواة، فيصدر عن ذلك صوت حاد.

وبادرني جدي: "يبدو أن ديكنز لم يحلق حسناً".

وقلت وأنا أسمع الحزن في نبراتي: "كلا".

- ولكن أتظن أنه بذل قصارى جهده؟

"أجل، لقد فعل".

- إذاً ما الذي خسرته اذا كان ديكنز لا يزال في بيته يستعد للجولة المقبلة؟

"لقد خسرت الغنيمة".

وابتسم جدي ووضع النواة في يدي وهو يقول: "خذ هذه الهدية، لك ولديكنز معاً، فهو أنهى السباق، سواءٌ أربح أم خسر".

وهكذا وجدتني، بعد أشهر طويلة احمل الهدية الصغيرة الى جدي، تلك الهدية التي صنعها إكراماً لسباق أكمل. وحدق اليها وحاول أن يبتسم. أما أنا فقلت له: "خذها يا جدي". ولم أتمكن من متابعة الكلام.

من ناحيته، وجد ديكنز نفسه ضمن الرياح والعواصف التي حملته بعيداً الى الجنوب. وراح يشق طريقه كورقة خريف، باذلا كل طاقته ليبقى عالياً. وحلق فوق وادي نهر كمبرلاند في ولاية كنتكي وعبر الحدود الى تنيسي. وهناك استطاع ان يفلت من العاصفة العاتية وقد بلله الماء وأصابه الارهاق. وأوى الى ارض سبخة تبعد ٥٥٠ كيلومتراً عن وجهته. واستراح هناك قبل أن يتابع طريقه.

لم يكن الموت غريباً عن عالمي. لقد نفقت الحيوانات على مرأى مني والطيور بين يدي. أما موت البشر المقربين فكان أمراً عاينته من بعد. وأقرب شخص شاهدته ميتاً كان السيد واتكنز، كبير أعضاء النادي الذي مات وهو في عامه السابع والتسعين.

وذهبت الى دفنه، وكان جدي ترك لي الخيار بعدما قال إن أحداً لن يعتب

عليّ إن لم أذهب، خصوصاً لان السيد واتكز كان من المعارف أكثر منه صديقاً. لكنّ جدّي أضاف أنّ مشاركتي من شأنها أن تترك أثراً طيباً لدى عائلة الفقيد. ولقد ذهبتُ فعلا، تدفعني رغبتي في أن أرى رجلًا ميتاً عن كثب.

ولم أجد هناك ما يثيرني، وإن تكن هواجسي هاجت قليلا. وركعتُ على لوحة خشب أمام سرير الميت وتلوتُ صلاة صغيرة هي أقصر ما أعرفه. ورفعت عينيّ الى السيد واتكنز إذ ظننت أنه ينظر الي، لكن عينيه كانتا مطبقتين. ولكن أقلقني كثيراً أن أرى شفتيه صبغتا بأحمر الشفاه. وخيل اليّ انه بدا كالمغفل.

وأخبرت جدي عن شعوري ونحن عائدان، فقال: "إنها دقائق، يا هيو، تغطي رهبة الموت قليلا. لكنها، كما لاحظت، تدلّ على حماقة".

وقلتُ متلعثماً: "ينبغي أن يأخذ معه وجهه الحقيقي". وأخذتُ افكر في ما تعنيه كلماتي.

وشدّ جدي على كتفي وقال: "سوف تحرص على أن آخذ وجهي الحقيقي معي! اليس كذلك يا هيو؟"

ونظرتُ اليه مشدوهاً. وظلّ يربت كتفي ونحن نتابع طريقنا ويقول: "وجهي الحقيقي... بذلتي الحقيقية... أجل، اني لا اريد بذلة جديدة خاصة للمناسبة. واحرص على أن يضعوا حذائي في قدمي وان لم يظهر".

ورفع يده عن كتفي وراح ينفش شعري ويقول: "ما بالي اضع الهموم على عاتق طفل"؟

لكني أجبتُه: "لا عليك يا جدي!".

أ- ثمة أمر آخر. لقد ابصرت النور على سرير في البيت. وشاهدتُ اولادي يأتون الى الحياة بالطريقة نفسها. وأني اريد أن اموت على هذا النحو. إنّ الاسرة الغريبة لا تحسن المنية فوقها.

كان ذلك كلّ ما عرفته عن الموت آنذاك. لكني احسسته قريباً، بين الاشجار والظلال، فيما كان جدي طريح الفراش وديكنز بعيداً في المجهول. وخيل الي أن ديكنز لقي موته، وانه أرسل ظله في اثر جدي.

الهرّ

وجد ديكنز سطح مرأب يقضي الليل فوقه، وراح يجر قائمتيه على الالواح الخشبية حتى بلغ الحصى وجثم عليها وقد هده الضنى. وفجأة اجفل على حسّ غريب. ولما لم يتبين شيئاً أمامه، خلد الى الراحة من جديد.

وكان الهرّ أليفاً بالنسبة اليه، وقد حمل جسده ندوباً من معارك سابقة معه خرج فيها منتصراً.

وراح هر اشقر غريب يمشي بتؤدة مثل سيدة حريصة على نظافة ملابسها الانيقة، وقد تشمم رائحة كائن حي في الجوار. وسرعان ما رأى ديكنز تحت ظلمة السماء يطل من حافة سطح المرأب.

وأخذ الهر يرود طريقه الى أن رأى سياجاً يحيط بناية قصيرة. وبلغه بقفزة واحدة تشبه قفزات مهرجي السيرك. وانتفض ديكنز وقد استشعر الخطر الداهم، لكنه لم يستطع مبارحة مكانه.

وظل الهرّ يمشي على السياج حتى

استجمع قواه وقفز عالياً، فاستقر على السطح وراء ديكنز مباشرة. وأحس ديكنز الحضور المخيف خلفه. وطار قليلا ثم عاد الى مكانه، ومد الهر قائمة امامية مفتوحة البراثن الى فريسته. وتحرك ديكنز قليلا الى الوراء، لكنه اصيب في عينه التي سال منها الدم على ناحية رأسه. وزعق ألماً وراح يضرب بجناحيه ويخرمش الجدار وهو يهوي من السطح الى الارض.

وتبعه الهر سريعاً وهو يتفحصه بعينيه المتوهجتين. ولاذ ديكنز تحت كومة اخشاب مبللة. وكان المرأب في الداخل احلك سواداً، وملأت رائحة الوقود حنجرة ديكنز ورئتيه. لكنه شعر بالامان، وإن لبرهة.

وسمع ديكنز الهر يوسع بمخالبه ثقباً في الجدار. وظل الهر يموء الى ان فتحت كوة خرج منها.

في روشستر أصيب جدي بنوبة دماغية اخرى ايقظته من النوم وجعلته يطلق صوتاً تردد صداه في اروقة المستشفى.

ورن الهاتف في منزلنا قرابة الثالثة فجراً. وسمعت حركة والدي وهو يرتدي ثيابه ويهمس في اذن امي ألا تنهض من السرير. ودخلت غرفة والدي. ولما رآني أبي هناك قال بصوت طبيعي أنه لا داعي الى الذهاب معه أنا وأمي.

قال هذا وهو يبتسم لكي يطمئنني. لكن ابتسامه جاء واهياً ومغتصباً. ورحت أبكي، واخذتني امي اليها وهي في السرير وأخذت تعاملني كطفل ظننت أني تجاوزته قبل زمن.

وفي الصباح ذهبت وأمي الى المستشفى، ولما رآنا أبي في البهو سار نحونا وقد ثقلت عيناه من قلة النوم، لكنه كان يبتسم. وقال أن جدي ما زال يقاوم على رغم اصابة دماغه بنوبة ثانية.

وجاء الدكتور ساند وانتحى والدي للتحدث معهما. وتقرر الا يطول بقاء جدي في المستشفى. فهو يحتاج الى عناية خاصة تفوق طاقة المؤسسة. وليس من العملي أخذه الى البيت حيث العناية التمريضية المنزلية تكلف غالياً. ولم يكن عملياً أيضاً حمله الى بيت ابنه، لان امي وأبي يحتاجان الى عملهما أكثر من اي وقت مضى. لذلك لم يكن هناك بد من ارساله الى مصح خاص. وهذا ما أثار هواجسي على نحو لم أعرفه من قبل طوال مرض جدي.

وسمعت معظم ما دار من حديث، وكنت أود أن اقول أمامهم جميعاً أني اعتني بجدي، وان اقتضى ذلك ان امسك يده نهاراً وليلا لئلا يضيع مني.

وأخيراً دخلنا الغرفة كي نراه، وكان متكئاً على وسائده في ذلك الوقت الباكر من الصباح. واتجهت عيناه الي كما لو شاء ان يذكرني بعهد قطعته على نفسي.

وإذ أتذكر تلك المرحلة، أرى أن اعظم ما يميز الانسان هو قطع الوعود وحفظها. وربما كانت العهود والمعاهدات برهاناً لغلبة الانسان على تقادير الحياة.

أجل، لقد قطعت عهداً على نفسي بيني وبين جدي.

بعدما علمتُ ان القرار اتخذ حول نقل جدي، فور ابلاله من النوبة الثانية، ليس الى بيته أو بيتنا بل الى مكان غريب يتمّ فيه تمريضه، انتابتني كآبة ثقيلة وجفاني النوم.

ولم أتفوّه بكلمة واحدة في طريقنا الى المنزل، بل جلستُ بين أمي وأبي في مقعد السيارة الامامي. ورفعت أمي منديلا الى فمها لتتقي البكاء، لكنّ عينيها كانتا جافتين وهي تنظر الى المنازل على الطريق.

وتكلم أبي قليلا، بعبارات قصيرة، عن امور سبقت معالجتها، وحاول أن يقنع نفسه بأن المصح هو خير مكان لجدي في هذه المرحلة.

ولدى بلوغنا البيت أحضرت أمي القهوة لها ولابي وكوباً من الحليب لي. غير أننا جلسنا هناك من غير أن نمد يداً الى شيء. وبدا الارهاق والضياع في عيني أبي، بينما بدت أمي كأنها كفت لتوها عن نوبة بكاء. وأمراني أن اذهب الى السرير.

وسرعان ما سمعتهما يستعدان للنوم. وانتابني ألمٌ شديد لان ثمة عجوزاً يخصني لا سرير له يأوي اليه.

وتوجه والداي الى مخدعهما. وعرفتُ من صوت السرير أنهما غير قادرين على النوم، مثلي أنا. وبعد برهة سمعتُ بكاء خفيفاً، وارتعدتُ إذ عرفتُ أنه صادر عن ابي، لا عن أمي. وما لبثا أن اغلقا باب الغرفة بهدوء.

وسمعتُ ساعة الحائط في غرفة الجلوس تدقّ مؤذنة بمرور الوقت. ولما بلغت الرابعة فجراً، نهضتُ وارتديتُ ثيابي على مهل. ولبستُ المعطف والقبعة ونزلتُ على رؤوس اصابعي وأنا أسير في محاذاة الجدران لئلا يسمع حسي. ومع تباشير الضوء الاولى الضعيفة في الشرق، خرجتُ من المنزل واتجهت الى بيت جدي حيث كانت عربتي الحمراء.

وربما نهض ديكنز في تلك اللحظة عينها وقد تسللت بعض خيوط النور عبر الواح المرأب الخشبية. وشقّ طريقه من جديد الى الفضاء وهو يغالب النعاس والارهاق ويصرّ على العودة الى البيت. ولم يفارقه الالم وهو يحلق في أعالي الفضاء مستهدياً بحسه الداخلي.

أما أنا فتابعتُ طريقي عبر شوارع البلدة المظلمة، اجرّ العربة ورائي. وكانت احدى عجلاتها تصدر صوتاً حاداً كما الطيور. واتجهتُ نحو المستشفى وأنا أخاف أن يراني أحد، فيتساءل عن الغاية التي ينشدها فتى في العاشرة في هدأة الصباح الباكر، ثم يوقفني ويأخذني الى البيت. الا أني لم أصادف أحداً في طريقي. وخُيل اليّ أن كل من في البلدة نائم ما عدا اثنين: أنا وجدّي الذي ينتظرني وهو لم يذق طعم الرقاد في سرير غريب.

ودخلت المستشفى من حديقته الخلفية. وتركتُ العربة الحمراء تحت اغصان شجرة قيقب منخفضة وتابعتُ طريقي في الممرّ الصامت. ووقفت تحت نافذة جدي التي كانت مغلقة الستائر، لكنني عرفتُ أنه هناك، وأن وجهه على النافذة. وقفزتُ الى حوض الازهار وحاولتُ فتح النافذة، لكنها كانت مقفلة، ونقرت الخشب منبهاً جدي الى حضوري.

ورأيتُ مدخلا جانبياً الى المستشفى، وكنتُ أعرف انه يؤدي الى البهو الذي يفضي الى غرفة جدي. الا ان الباب هناك كان مقفلا ايضاً. وعدت الى الحديقة حيث تركت العربة، ووضعتها بين الاشجار قرب المدخل.

ولم أشاهد احداً هناك. لكنّ ردهة المستشفى كانت مضاءة وفيها امرأة ذات ملابس بيضاء تجلس وراء طاولة. وبدت متبرمة وهي تكتب على دفتر امامها وتنظر الى ساعة الحائط. وما لبثت ان وضعت القلم وحملت حقيبتها وأسرعت عبر باب خلفي.

وإذ ذاك تسلّلتُ من الباب الامامي الى البهو. وكان حذائي المطاطي يصدر اصواتاً خشيتُ أن يسمعها احد . ونظرتُ أمامي عبر زجاج باب فاصل، فوجدت المكان خالياً. وفتحت الباب بهدوء وتابعت طريقي. وفتح باب جانبي، فاختبأت تحت تجويف في الجدار يؤوي براداً للماء. وكانت هناك فسحة تكفيني.

وابصرتُ ممرّضة مكبة على لائحة في يدها وهي تسير عبر ممر جانبي. وخرجتُ من مكاني ومشيتُ بحرص الى حيث تلتقي الممرات، وشاهدتُ الممرضة جالسة وهي تقرأ اللائحة تحت نور مصباح خافت. وعبرتُ في لمح البصر الى الممر الذي تقوم فيه غرفة جدّي، ودخلت الغرفة.

كان مضطجعاً في سريره وظهره يواجه الباب وهو ينظر الى النافذة، واقتربتُ من ناحيته، فوجدتُ عينيه واهيتين. ورفع يده اليمنى من تحت الاغطية ومدها اليّ. فأخذتُها وأنا أبتسم أو أحاول الابتسام.

ورفعتُ الغطاء عنه، فبرز جسده القويّ وقد تضاءل بفعل المرض. وحاول أن يُدني قدميه الى الارض ويجلس منتصباً، لكنه لم يَقوَ على ذلك. ووضعت ذراعه على كتفي وركعت ارضاً حتى بات جسمه يغطيني. وكدنا ان نسقط معاً. غير أننا تقوينا واسترحنا قليلا عند حافة السرير. وكانت الخطوة التالية احضار العربة الى الغرفة.

وسألتُه: "أيمكنك ان تبقى كما أنت دقيقة واحدة يا جدي؟"

وهزّ رأسه موافقاً. ورأيتُ عضلة تتحرّك عند فكه، وهي في العادة تسبق أي جهد يستعدّ لبذله سواء أكان كبيراً او صغيراً.

واسرعتُ عبر البهو بعد تأكدي من أن الممرضة ليست هناك، وخرجت من الباب الجانبي الذي انفتح بسهولة، وحملت العربة الى الداخل، حيث اصدرت عجلاتها صريراً قوياً بين الجدران. ورفعتها بين يديّ وعدت الى غرفة جدي الذي كان حيث تركته، ثابتاً كصخرة.

ووضعتُ العربة تحت قدميه. ووجدت صعوبة في الباسه رداء الحمام. لكنني افلحتُ في ذلك الامر، وأتبعتُه بوضع الحزام المزين بشرابة حول خصره، ثمّ بادخال جوربين وخفّين في قدميه. ونظرتُ اليه وانا ابتسم كي اطمئنه الى أنّ الامور تتمّ على أفضل حال. وبادلني بضحكة كبيرة، فضحكتُ أنا ايضا أمام تلك المغامرة التي كنا على وشك استهلالها.

كانت المرحلة العسيرة من العملية. وأعنتُ جدّي على إنزال قدميه الى

الارض عن ذلك السرير المرتفع. ووضعتُ ذراعيه حول كتفيّ، وأخذتُ نفَساً عميقاً قبل ان أُنزل ثقله عليّ. وبعد جهد ملحوظ امكنني ان أضعه على مقعد العربة.

وهمستُ في اذنه: "اثنِ ركبتيك يا جدّي." وكان العرَق يتصبب من أنحاء جسمي. ولو كنت ألهو وجدّي، لكنتُ ضحكتُ طويلا على ركوبه عربة أطفال. غير ان المسألة كانت بعيدة جداً عن المزاح. ونظر اليّ وهو فخور بما أنجزناه معاً.

وحاولتُ ان اثبته اكثر في مكانه، لكنّ العربة كانت تتحرّك وحدها الى الامام. ووضعتُ وسادة بين العجلات كي اوقفها، ثم رفعتُ رجليه حتى باتت ركبتاه على مستوى ذقنه. ووضعتُ يديه على جانبي العربة. وتشبث بأرضية العربة وناحيتيها، وعضلات خدّيه تتسارع بفعل الجهد الذي يبذله.

وجررتُ العربة الى الباب. وإذ لم أجد احداً في الخارج، تابعتُ طريقي عبر البهو وقد خفت صوتُ العجلات بسبب الثقل. وفي لحظة فتحت الباب وأغلقتُه من غير أن يراني أحد.

وكانت الشوارع مظلمة وأنا اجرّ العربة نحو بيت جدّي الذي يبعد كيلومتراً ونصف كيلومتر. وأخذ الظلام ينجلي وينقشع عن الاشجار. وكنت أرى سيارة تمرّ بين وقت وآخر. الا ان احداً لم يتوقف ليسأل ماذا يفعل صبي مع عجوز بثياب حمّام وفي عربة اولاد عبر الشوارع الخالية.

وتابعت طريقي مجهداً والعجلات تتابع صريرها الرّتيب، وقد فاحت رائحة الصباح وباشرت العصافير الصُّداح. ووصلنا الى المنزل القائم عند ضفة الساقية التي تصبّ في نهر جينيزي. وبلغ مني الضّنى مبلغاً لم أعرفه قبل ذلك الحين.

وراح جدّي ينظر اليّ وقد اختلطت مشاعر الشفقة لديه بمشاعر الفخر والاعتزاز. شاهدتُ ذلك في عينيه وأنا آخذ مفتاح الباب من حوض الزهر تحت النافذة. وفتحتُ الباب وجرَرتُ العربة الى غرفة الاحذية ثمّ الى المطبخ وغرفة الجلوس، ووقفت عند أسفل السلم المؤدّية الى فوق. وطفر الدمع الى عينيّ وانا افكر في طريقة حمل جدّي الى غرفة نومه في الطبقة الثانية.

ونطق جدّي بمشقة، ففهمتُ ان السرير يكفيه، وان الغرفة نفسها ليست غايته. وتسلقتُ السلم ورفعتُ الفراش عن السرير، وعدتُ به الى أسفل، الى الشرفة الصيفيّة المسقوفة. وصعدتُ مرة اخرى لاحضار الاغطية والوسائد. وبعد ترتيب الفراش كما ينبغي، جررتُ العربة اليه.

ولم يكد جدّي يرى فراشه حاضراً حتى نهض من العربة وسقط فوقه. عندئذ أدركتُ الألم الذي عاناه طوال الطريق في تلك العربة الصغيرة. وحرّكتُه برفق حتى صار في وسط الفراش وهو يحرّك يديه ورجليه مثل سرطان بحري. وألقيتُ رأسه على الوسائد ورفعتُ الشعر الضئيل عن عينيه، فيما رفع هو يده علامة الشكر. ووضعتُ يدي في يده، فشدّ عليها بما بقي له من قوّة واهية.

وتدفق الدمع من عينيّ بعد انحباس طويل. وقبل ان ادير ظهري

نظرتُ الى جدّي لأقرأ الرضا العميق في عينيه وهو يطبقهما. وهرعتُ الى حيث الحمّام ودمعي ينهمر مدراراً. وبقيت أشهق وأبكي كطفل وانا اتكىء على بيت الحمام وقد ملأتني ذكريات حبيبة عن تلك الطيور. وبعد قليل مسحتُ دموعي استعداداً لاطلاقها.

وسرّحتُ النظر في بيت جدّي، وأدركتُ انه سيعيش في امان هناك الى ان تحين منيّته. وعلت الشمس فوق المدخنة ودخلت اشعتُها عيني وانا فخور جداً بما فعلت. ثم أدَرتُ نظري ناحية السماء الغربية.

وفي البعيد شاهدتُ نقطة قاتمة تتحرّك عبر الفضاء. وأخذت تكبر وتكبر وهي تشق العباب الازرق. وفي الوقت نفسه أحسستُ قلبي يكبر.

وسمعتُني أصيح: "آه يا جدّي! انظر! انظر!"

وما انفكت تلك النقطة تكبر وسط الفضاء بلونيها الابيض والازرق القاتم.

وصرختُ مرة بعد اخرى: "ديكنز! ديكنز!"

إنه ديكنز نفسه عاد الى البيت. لقد خسر المباراة، لكنه أكمل السباق حتى نهايته.

هذه حقاً قصة تلك المباراة كلها وذكريات الايام الحاسمة التي شهدتها السنة العاشرة من عمري.

اما جدّي فمات على سريره ضمن منزله، في غرفة النوم فوق حيث وُلد أطفاله وماتت زوجته. وقد توفي بعد ايام قليلة من عودة ديكنز الى البيت.

وعاش ديكنز اشهراً قليلة بعد ذلك، ثم استسلم للجروح التي عاناها في رحلته البطولية تلك وقد استنزفت قواه... لقد مات في بيته هو ايضاً.

■ ر. رايت كامبل

اعمار الحيوانات

جمع مدير حديقة الحيوان في هلسنكي، عاصمة فنلندا، قائمة بمتوسط أعمار عشرات الحيوانات اللبونة والاسماك والطيور والزحافات. وفي ما يأتي نموذج عن اطول الاعمار المسجلة:

□ الثدييات: الفيل ٧٥ سنة، الحصان ٥٥، البرنيق: ٥٤، الشمبانزي ٥١، وحيد القرن ٤٨، الدب ٤٧، فقمة غرينلاند ٤٢، الغوريلا ٤٠، قرد الاوران ـ اوتان ٣٧، الثور الامريكي (البيسون) ٣٣، السعدان ٣٣، النمر ٣١، الاسد ٢٩، الزرافة ٢٨، الخفاش الكبير ٢٥ والخفاش الصغير ١٥.

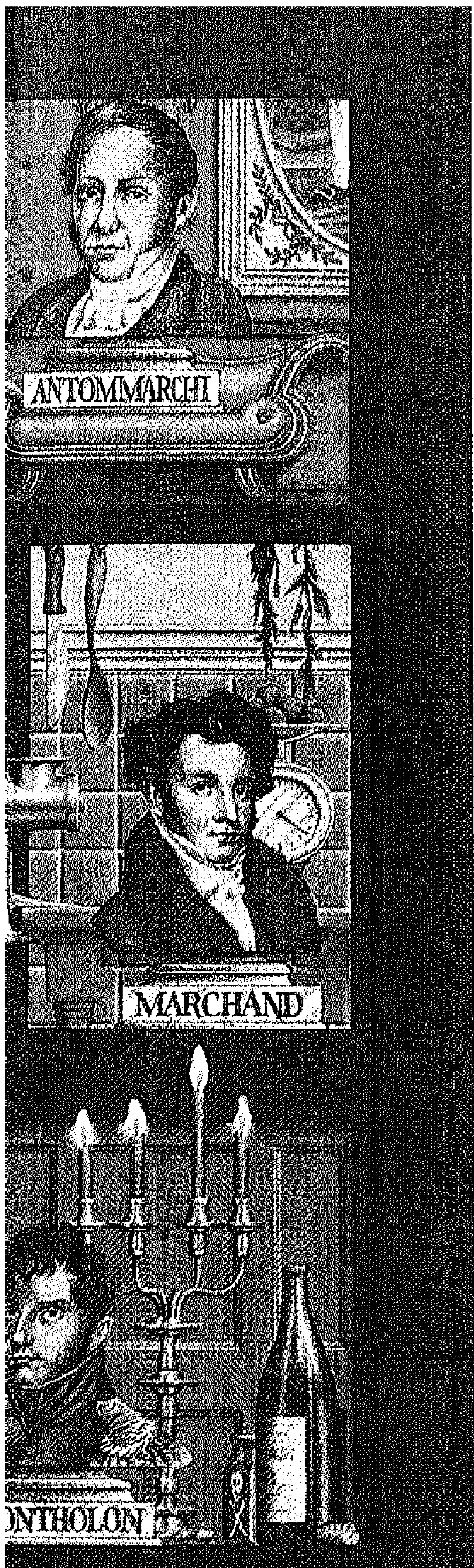
□ الاسماك: السلور ٦٠ سنة، الكراكي ٥٠، الشبوط ٥٠ والقد ٢٥.

□ الطيور: الببغاء ذو العرف (الكوكاتو) ٦٩ سنة، الغراب ٦٩، البومة ٦٨، النسر الامريكي (الكندور) ٦٥، النعامة ٦٠، البجع ٥٢ والغرنوق (الكركي) ٤٣.

□ الزحافات: القاطور (التمساح الامريكي) ٦٢ سنة، العظاءة العمياء ٥٤، تمساح النيل ٥٠، ثعبان الاصلة ٣٤ وأفعى الاناكوندا ٣٢.

ويضيف التقرير أن سلحفاة مدغشقر وجزر الغلاباغوس قد تعمر حتى المئتين. وهذا يعني أنها الوحيدة بين الحيوانات التي تفوق الانسان عمراً، علماً أن العمر الاقصى المسجل للانسان هو ١١٠ سنين.

صحيفة "ديلي اميركيان"، روما

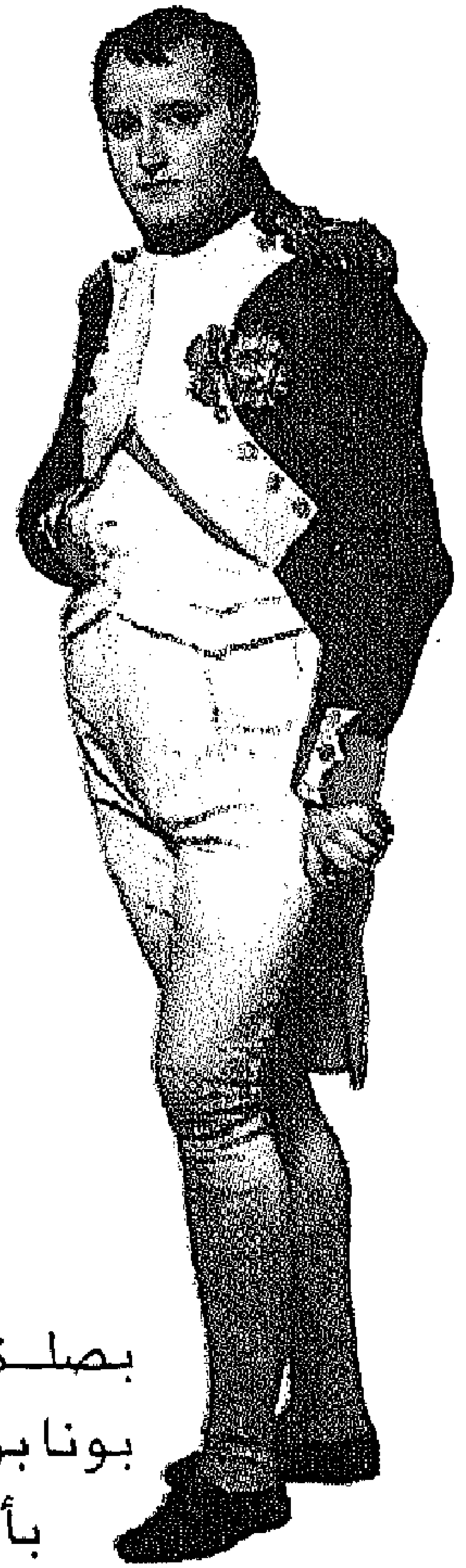




مَنْ قَتَلَ نَابُولِيُون ؟

ملخص من كتاب
بن وايدر
وَديفيد هابغود

من قتل نابوليون ؟



في العام ١٩٥٥ استهلّ طبيب أسنان أسوجي، وهو في الوقت نفسه هاو لعلم السموم ومن كبار المتحمسين لكلّ ما يمتّ بصلة الى الامبراطور الفرنسي نابوليون بونابرت، تحرّيات واسعة لبرهان ظنه القائل بأن نابوليون مات مسموماً عام ١٨٢١.

وثابر الطبيب المذكور على ملاحقة المسألة طوال ٢٣ سنة، على غرار رجال التحريات الجنائية وكتّاب الروايات البوليسية الكبار. واستخدم أحدث الطرائق القضائية والمخبرية لدعم حججه. وكان عليه، بادىء الأمر، أن يبيّن أن جريمة القتل حصلت فعلا، وأنّ نابوليون لم يمت بسرطان المعدة كما شاع في كتب التاريخ وبين الناس.

وما أن أقام الحجة على ذلك حتى شرَع يبحث عن الجاني بين أفراد حاشية نابوليون الذين رافقوه الى منفاه الأخير في جزيرة القديسة هيلانة.

Condensed from «The Murder of Napoleon», copyright (c) 1982 by Ben Weider, David Hapgood, Sten Forshufud & Mitchell Press, Ltd., published by Gongdon & Lattes, Inc. New York, N.Y. Illustrations: Allen Carroll. Detail from the painting «Napoleon in His Study,» by Jacque-Louis David, courtesy National Gallery of Art, Washington D.C., Samuel H. Kress Collection.

عند الفسق انطلق مدفع الحامية البريطانية على جزيرة القدّيسة هيلانة. واذ تنهّد الامبراطور، وقف طبيب الى جانبه وعينه على ساعته، وهو يحصي الثواني انتظاراً لتنهّدة اخرى. ومرّت خمس عشرة ثانية، ثم ثلاثون، ثم دقيقة انقطع بعدها النبض. لقد فارق نابوليون الحياة.

والقيت واجبات دفن الميت، بعد تنفيذ وصيته، على عاتق لوي مارشان، وهو شاب في الثلاثين خدّم نابوليون بونابرت طوال سني بلوغه. وفي الأشهر الأخيرة من حياة سيده، أمضى معظم ساعات صحوه قرب سريره. وكان نابوليون طلب من طبيبه ما يأتي: "أودّ أن تشرح جثتي عقب وفاتي." وحدّد موعد التشريح بعد ظهر اليوم التالي، وطفق لوي مارشان يحضر له طوال الصباح.

وتقرر أن يتم التشريح في غرفة البليار، حيث كان الامبراطور ينشر خرائطه المحببة ويعيد "خوض" معاركه فوقها. واختيرت تلك الغرفة لأنها بين غرف "لونغوود هاوس" الثلاث والعشرين، حيث حلّ نابوليون، أكبرها وأكثرها انارة. وحملت الجثة عارية ومدّدت فوق ملاءة بيضاء وُضعت على الطاولة.

وقبيل الثانية عصراً أخذ المشتركون والمراقبون يفدون الى الغرفة بهدوء. والحق أن التشريح كان حدثاً سياسياً خطيراً، اذ كيف يعقل أن يموت رجل في الحادية والخمسين، كانت صحته الجسدية وطاقته مضرب مثل؟

ان نابوليون ما فتئ يضعف باطراد خلال السنوات التي أمضاها منفياً. وغدت مشاكله الصحية مثار جدل بين أفراد حاشيته الفرنسيين والمسؤولين الانكليز. ووضع الفرنسيون اللوم على مناخ الجزيرة، واتهموا الحكومة الانكليزية بأنها أرسلت نابوليون الى هناك لاهلاكه. وكان السير هدسون لو، حاكم الجزيرة الانكليزي، يخشى كل ما من شأنه القاء تبعة تدهور صحة نابوليون عليه أو على حكومته. وهذا حداه مرة على محاكمة طبيب عسكري انكليزي أعلن أن الامبراطور مصاب بالتهاب في الكبد. فهذا المرض من شأنه أن يردّ الى مناخ الجزيرة.

وكان سبعة من الأطباء الثمانية الذين أجروا التشريح بريطانيين، وكلهم يعون الأهمية السياسية لما يفعلون. أما ثامنهم، فرنشيسكو أنتومارشي، فهو كورسيكي في الحادية والثلاثين كان طبيب نابوليون الخاص طوال الأشهر التسعة عشر الأخيرة. وعُهد اليه في اجراء التشريح، على أن يتولى الأطباء الانكليز المراقبة.

غير أن الأطباء، في النتيجة، لم يتفقوا على سبب الوفاة، بل رفعوا أربعة تقارير مختلفة. والواقع أنهم أجمعوا على وجود قرحة في المعدة وصفها أنتومارشي بأنها "سرطانية"، فيما وجد الأطباء الانكليز فيها أجزاء صلبة قابلة للتسرطن. وهذا أدى الى الاقتناع بأن نابوليون توفي من جراء سرطان في معدته، على رغم أن أحداً من

الأطباء لم يذكر هذا الأمر صراحة. لكن هذا الحكم يعفي هدسون لو والانكليز من أي مسؤولية.

أما التقرير الذي وقعه الأطباء الانكليز فجاء فيه أن "الكبد أكبر من الحجم الطبيعي،" الأمر الذي لم يشأ لو أن يسمعه لما له من علاقة بالأحوال المناخية والصحية الخاصة بالجزيرة. ولهذا طلب من الأطباء حذف الكبد من تقريرهم. واذعن هؤلاء على مضض، لكنّ أحدهم باح بحقيقة ما حصل عقب مغادرته الجزيرة.

وبعد ثلاثة أيام، أي في ٩ مايو (أيار) ١٨٢١، دُفن نابوليون في بطن واد في جزيرة القديسة هيلانة. وانتظر أفراد حاشيته ثمانية عشر يوماً انطلقوا بعدها في طريقهم الى انكلترا. وفي ٢٥ يوليو (تموز)، وهو اليوم التاسع والخمسون في البحر، اجتمع لوي مارشان، أحد منفذي وصية نابوليون، بالمنفذَين الآخرَين: الكونت هنري - غراتيان بيرتران الذي كان يوماً كبير ضباط البلاط، والكونت شارل - تريستان دو مونتولون، بهدف قراءة الوصية. وهذان الأخيران هما الضابطان الوحيدان اللذان لازما نابوليون طوال سنيّ منفاه. وشهدت تلك السنوات الشاقة تنافساً قوياً في ما بينهما على كسب ودّ الامبراطور. وفي الأشهر الأخيرة حقق مونتولون بغيته. وهكذا انتصر هذا الاريستوقراطي الوسيم على بيرتران، ذي الطبع الرّزين الهادىء الذي أمضى سنوات أطول كثيراً في خدمة نابوليون.

وفضلا عن الجانب الشخصي للوصية، القائل بتوزيع جميع مقتنيات نابوليون كتذكارات، كان هناك جانب موجه الى الشعب. فقد كتب نابوليون الآتي: "اني أموت قبل أواني وقد اغتالتني حكومة القلة الانكليزية وعميلها المأجور."

ولدى وصولهم الى فرنسا، وجد المنفيون العائدون أمة صامتة. والحق أن عواطف الشعب كانت كبيرة حيال نابوليون. لكنها بقيت كالجمر تحت الرّماد، لا يجرؤ أحد على التعبير عنها في ظِلّ سلالة البوربون العائدة بشخص مليكها لويس الثامن عشر. وكان نابوليون، قبل ست سنوات، عاد من منفاه الأول في جزيرة البا وخلع آل البوربون من غير مشقة. ومن السهل جداً أن يتكرر الأمر ما بقي نابوليون حياً. وما فتىء آل البوربون، طوال سنوات نفيه الى جزيرة القديسة هيلانة، يعزون الى نابوليون وصحبه مؤامرات لا وجود لمعظمها الا في مخيلاتهم.

واستقر لوي مارشان في بلدة اوسير الفرنسية. وبصفته كبير خدام نابوليون، كان عليه تنفيذ وصية سيده حتى النهاية. وكان في حوزته صندوق يحوي الشعر الذي قُصّ من رأس الامبراطور بعد وفاته. وقسم مارشان ذلك الشعر خصلا، ووزعها على أفراد عائلة نابوليون الكبيرة بعد ربط كل منها بشريط ذهبي. وضماناً لعدم خلط الشعر بسواه، حرص مارشان على أن يتم العمل كله في بيته.

واحتفظ بخصلة من الشعر لنفسه،

انتقلت الى ابنته ومعها مذكرات مارشان المخطوطة.

شاهد جديد

غوتبورغ مدينة أسوجية ساحلية ذات نصف مليون نسمة، تشرف على مضيق كاتيغات في الدانمرك وعلى البرّ الاوروبي. في احدى ضواحي تلك المدينة يسكن رجل طويل، ناحل، أشقر، اسمه ستين فورشوفود. وفي خريف ١٩٥٥ كان في مطلع الخمسينات من عمره، وقد وزّع نشاطه بين طبابة الأسنان، وهي المهنة التي كسب عيشه منها، والبحوث البيولوجية. كما كان لديه اهتمام كبير بعلم السموم.

ولم يخفَ على زوار فورشوفود أن اهتماماته كانت تتجاوز اختصاصه العلمي. وكانت غرفة الجلوس في منزله ملأى بالأشياء التي تذكر بالامبراطور الفرنسي. ففوق الموقد لوحة تمثل نابوليون بالرّداء الملكي. وأمام مرآة أثرية ضخمة مطلية بالذهب، وُضع تمثال نصفي يمثل نابوليون الشاب الطويل الشعر في منصبه كحاكم أوّل. وفوق الطاولة حيث الساعة تمثال آخر يبدو فيه نابوليون على صهوة جواده. وفي خزانة التحف مجموعة خزفية تحمل طابع النحلة، وهي شارة نابوليون الشخصية. أما الرسوم المعلقة على الجدران فكانت كلها ذات علاقة بمراحل حياة نابوليون.

تلك الأمسية كان فورشوفود يطالع مذكرات لوي مارشان، وهو آخر كتاب ينشر لشاهد عيان وصف حياة نابوليون على جزيرة القديسة هيلانة. والواقع أن مارشان كتب مذكراته لابنته "لكي أُريك ما كان الامبراطور بالنسبة اليّ". وبقيت هذه المذكرات من غير نشر حتى أفرج عنها حفيد مارشان، وهو ولد ابنته الوحيد، في وقت لاحق من هذا القرن. وكان فورشوفود يطالع الجزء الثاني من المذكرات وقد لفظته المطبعة حديثاً.

وفي رأي الطبيب الأسوجي أن سقوط نابوليون ووفاته المبكرة كانا من أكبر مآسي التاريخ طرّاً. وهذا حداه على استطلاع آراء الخبراء وأحكامهم حول موت نابوليون. وما فتىء الأطباء والمؤرخون يقدّمون نظرية تلو اخرى، معيدين صياغة تخمينات قديمة بُنيت كلها على التشريح الذي تمّ عقب الوفاة. ووجد فورشوفود تلك النظريات كلها غير مقنعة، ولم يصدّق أن نابوليون توفي من جراء السرطان. وراح يقرأ مذكرات مارشان، علّه يعثر فيها على بصيص نور.

ذلك المساء طالع فورشوفود يوميات نابوليون بين شهري يناير (كانون الثاني) ومايو (أيار) من العام ١٨٢١، أي في الأشهر الأخيرة من حياته. وقد وَصف مارشان، على نحو بسيط ومقنع، ما كان نابوليون يفعله ويشعر به يومياً، بما في ذلك وصف المريض نفسه لأعراضه وردود فعله على العقاقير التي كان يتناولها وعلى الطعام الذي كان يقدم اليه عند كل وقعة.

وما لبث فورشوفود أن وقع على

خيط يربط تلك الأحداث بعضها ببعض. ذلك أن نابوليون، في تلك الفترة الأخيرة، كان يترجح بين النعاس والأرق. وتذمر من انتفاخ قدميه وقال: "ان رجليّ لا تحملانني." وفي وصفه الأيام الأخيرة، تكلم مارشان عن أثر بعض العقاقير في نابوليون.

وفيما هو يتأمل تلك الحقائق، تذكر فورشوفود ما يعرفه حول السم. أيعقل أن يكون نابوليون قضى مسموماً؟

اذا صحّ هذا، فالشواهد تشير الى أن التسمم لم يتم مرة واحدة، بل على مراحل. فحصوله دفعة واحدة لا بد من أن يكون كشف خلال تشريح الجثة أو في شهادات الأشخاص الذين عاينوا الوفاة. ألا يمكن، اذاً أن يكون نابوليون أُهلك على دفعات، وخلال أشهر بل سنوات؟ ان الموت البطيء آنذاك كان يتم عبر مادة سمية هي الزرنيخ.

ما أن طرأت تلك الفكرة على ذهن فورشوفود حتى تبين له أن النعاس والأرق وتورم القدمين والانحطاط الجسدي العام وتضخم الكبد ما هي الا عوارض للتسمم المزمن والبطيء بالزرنيخ.

وقد شاع هذا السم في فرنسا في القرون القليلة التي سبقت مجيء نابوليون الى الحكم. وكان يدعى "مسحوق الارث" لأنه يُستخدم في حل النزاعات الناشئة عن توزيع الحصص على الوُراث. ومن السهل مزجه بأي طعام أو شراب لرقته وانعدام رائحته. كما يمكن استعماله بكميات ضئيلة لقتل الضحية ببطء، عبر أشهر أو سنوات.

والحسنة التي تنطوي عليها طريقة التسميم البطيء أنه لم يكن ممكناً اكتشافها أيام نابوليون. لأن أعراضها شبيهة بأعراض مرَضية اخرى. ويقول فورشوفود ان اعطاء الشخص عقاقير اخرى، خصوصاً الملح المقيىء والزئبق المسهل، من شأنه محو أثر الزرنيخ من معدته لدى اجراء التشريح. وبما أن هذين العقارين كانا شائعين آنذاك، يضيف فورشوفود، فلم يكن مستبعداً أن يكون الطبيب نفسه أنهى حياة الضحية من غير أن يدري. وهي جريمة مثالية من وجهة نظر المخطّطين. والواقع أن نابوليون أعطي ملح الطرطر المقيىء وزئبق الكالوميل في أيامه الأخيرة.

ان نظرية التسميم البطيء بالزرنيخ من شأنها الاجابة عن أصعب المسائل المتعلقة بوفاة نابوليون. واذا كان نابوليون مصاباً حقاً بالسرطان، فهذا يحتم الهزال الجسدي مع تقدم مراحل المرض. الا أن الامبراطور اكتسب المزيد من السُّمنة في أيامه الأخيرة. والبدانة ظاهرة شائعة بين ضحايا التسمّم البطيء بالزرنيخ.

هذه النتيجة التي توصل اليها فورشوفود لم يبحثها الا مع زوجته. وما لبث ان طرحها جانباً لأنها خارجة عن اهتماماته المباشرة. وقد زيّن لنفسه أن الجواب عينه يجب ان يكون بديهياً بالنسبة الى علماء الأمراض والسموم.

تقع جزيرة القديسة هيلانة في المحيط الاطلسي، وقد اكتشفها البرتغاليون عام ١٥٠٢ وامتلكتها شركة شرق الهند البريطاني في القرن التاسع عشر. وهي تبعد ٢٨٠٠ كيلومتر عن كيب تاون في جنوب افريقيا و٢٩٠٠ كيلومتر عن امريكا الجنوبية و٦٤٠٠ كيلومتر عن انكلترا. وأقرب أرض اليها هي جزيرة اسانسيون التي تبعد عنها ١١٢٥ كيلومتراً. وهذه الجزيرة "المجاورة" يملكها الانكليز أيضاً، وهي بقعة بركانية وسط المحيط. وقد اختار الانكليز جزيرة القديسة هيلانة منفى للامبراطور الفرنسي المخلوع لموقعها النائي.

هذه الجزيرة الصغيرة التي يبلغ طولها ١٧ كيلومتراً وعرضها عشرة كيلومترات ونصف كيلومتر، كان يسكنها ٤٠٠٠ نسمة، بما في ذلك الحامية الانكليزية التي كان عدد أفرادها ألفاً ثم ازداد ثلاثة أضعاف على أثر مجيء نابوليون. ولقد وصل الامبراطور في ١٧ اكتوبر (تشرين الاول) ١٨١٥ ومكث أولا في ضيافة وليم بالكومب، وهو متعهد تموين لسفن شركة شرق الهند. وكان آل بالكومب، وهم ستة أشخاص، يعيشون في دارة فخمة شيدوها فوق احدى تلال الجزيرة. وبعد سنوات نشرت بتسي بالكومب في لندن مذكراتها حول الفترة التي أمضتها مع نابوليون، ضيف العائلة، وهي في الخامسة عشرة من عمرها:

"اذ اتذكره اليوم، أستعيد شعوراً اختلط فيه الخوف بالاعجاب. فلقد نشأت على الخوف الشديد لدى ذكر اسمه. ان منظره على صهوة الجواد كان غاية في الجلال. حتى الحيوان الذي اعتلاه كان نبيل المحتد بسواده الحالك. واذ كان يطأ الأرض باعتزاز، خُيِّل اليّ أنه يليق بذلك الشخص الذي قُيض له أن يكون يوماً حاكم العالم الاوروبي كله.

"اني لم أشاهد قطّ أحداً بتلك البنية الجسدية العظيمة. ان الرسوم التي أُنجزت له تعطي فكرة عامة عن ملامحه، لكن بسمته وتعابير وجهه لا يمكن أن يحويها مثال. وفي تلك الامور عينها كان يكمن سحر نابوليون."

تلك الفتاة التي عرفها نابوليون كانت شقراء الشعر، وردية الخدين، ذات جسد ينتقل الى طور البلوغ. وكانت، في العادة، تضع فوق شعرها الأشعث وقاء من الشمس، وترتدي صِداراً ذا قبة مزركشة معقودة برباط وتنورة قصيرة فوق سِروال يتدلى الى قدميها. ولم يحبّ نابوليون ذلك الزيّ على الاطلاق، بل أخبر بتسي ان في وِدّه منعه لو كان حاكماً للجزيرة.

وسرعان ما نشأت صداقة بين تلك الفتاة المراهقة والامبراطور الذي لم ينقضِ سوى أربعة أشهر على اندحاره في واترلو. ووجد الاثنان، على فارق السن والعرق، حساً مشتركاً من المرح. وتقول بتسي في مذكراتها:

"بُعَيْد قدومه، جاءت فتاة صغيرة تزورنا. وكانت المسكينة سمعت أخباراً مخيفة عن بونابرت. وما أن أعلمتُها بوجوده عندنا حتى

لاذت بي وهي في قمة الهلع. ويبدو اني نسيت مخاوفي الاولى، فهرعت خارجاً لأخبر نابوليون أن هناك طفلة تخاف منه، وأرجوه أن يدخل. وسار نحوها وهو يملّس شعره بيده ويهزّ رأسه ويبدّل تعابير وجهه على نحو غريب. وأتبع ذلك بصوت يشبه عواء حيوان بري. وأخذت الصغيرة تشهق وتبكي بلا انقطاع، فأخذتها امي خارج الغرفة خوفاً عليها من الجنون. أما نابوليون فضحك كثيراً لفكرة كونه مصدراً للرعب، ولم يصدّق ما أخبرته اياه عن فزعي السابق منه."

والواقع أن ضباط نابوليون وافراد بطانته اشمأزوا من تلك الفتاة الانكليزية المرحة، بل حسدوها. وهم كانوا معذورين في ذلك. فعلاقتهم الشخصية بالامبراطور كانت تحدّدها لياقات رسمية صارمة. ولا يمكن ضابطاً الدخول عليه الا بعد استدعائه من قِبَل خادم. ومتى دخل لا يجوز له الجلوس أو الكلام الا باذن من سيده. ولا شك في ان أفراد الحاشية كلهم كانوا يخاطبون نابوليون بلقب "صاحب الجلالة." لكن أياً من هذه القواعد لم ينطبق على بتسي التي كانت تدعو صديقها "بوني."

وذات مرة احتجزها أبوها في غرفة صغيرة "لخدعة حقيرة.":

"في تلك الأثناء كان الامبراطور يجد سلواه الكبيرة في محادثتي من وراء قضبان نافذتي. وكان، معظم الأحيان، يحملني على الضحك بتقليد التعبير الكئيب على وجهي. ومرّة قال: "ألا ترين أننا، نحن الاثنين، سجينان؟ فلماذا أنتِ تبكين وأنا لا أبكي؟"

ـ أنت؟ لقد بكيتَ حقاً.

"أجل، لقد بكيت. غير أن السجن بقي سجناً. لذلك من الأفضل ان نعمل وننسى ونضحك."

ومكث نابوليون في دارة آل بالكومب نحو شهرين. ثمّ أُحيط علماً بأن دارة "لونغوود" التي تبعد ثمانية كيلومترات الى الداخل أصبحت جاهزة. وكان في تلك اللحظة يلعب وأطفال العائلة. وهكذا انتهت أسعد فترة أمضاها في جزيرة القديسة هيلانة.

وكان آل بالكومب يزورونه في مسكنه الجديد مرة في الاسبوع، فترى بتسي رفيقها القديم، كما سمته، الذي "كان المرح يلتمع في عينيه من وقت الى آخر،" وان "بات كئيباً معظم الوقت."

خَيْط واحد

انقضت أربع سنوات على الأمسية التي كوّن فورشوفود قناعته ـ بعد قراءة مذكرات لوي مارشان ـ بأنّ نابوليون مات مسموماً. ولم ينفكّ، خلال تلك السنوات، يطالع كلّ ما ينشر حول نابوليون من مقالات علمية وسير عمومية، عل وحياً يهبط عليه. وأخيراً جاء الفرج. فقد ظهر مقالان في مجلة أسوجية حول موت نابوليون، أقنعا فورشوفود بأن حقيقة الامر، اذا كانت ستظهر يوماً، فعلى يديه. ولم يشر أي من الكاتبين الى امكان موت نابوليون بالسم، كما لم يذكر كتاب مارشان الصادر حديثاً.

وأخذ فورشوفود يمضي معظم أوقاته الشخصية في مكتبه في الطبقة الثالثة، يعمل على ما سماه "قضية نابوليون." وتراكمت لديه الشواهد. ووضع جنباً الى جنب التقرير الصادر عن لجنة تشريح الجثة وسجل فرنشيسكو آنتومارشي، طبيب نابوليون الخاص، ووصف مارشان اليومي لحال المريض. وعبر مقارنة هذه الشواهد بعدها ببعض، تبين له أن اثنين وعشرين عرضا على الاقل ظهرت لدى نابوليون في أيامه الاخيرة، من أصل ٣٢ عرضاً يحدثها التسمم بالزرنيخ.

الا أن فورشوفود كان يفتقر الى الشواهد المادية الملموسة. والبرهان الوحيد لا يأتي الا عن طريق فحص الرفات. غير أن جثة نابوليون نقلت الى باريس بعد ١٩ سنة من وفاته، وهي الآن في ضريح الـ"انفاليد" تحت ٣٥ طناً من حجار الرخام البراقة. وضحك فورشوفود طويلا اذ عبرت ذهنه فكرة الطلب الى السلطات الفرنسية أن تسمح لدارس أجنبي مغمور بفحص رفات بطل الامة ليرى ما اذا مات بالسم.

لكن ثمة أمراً آخر ممكناً، هو فحص شعر نابوليون. تلك الايام كان المشاهير يهدون خصلا من شعورهم تذكاراً الى من يحبون. والمعروف عن نابوليون أنه قدم خصلا كثيرة من شعره. والشعر يظهر ما يحتوي عليه الجسم من زرنيخ.

وهناك طريقة لتحليل الشعر اعتُمدت طوال عقود من السنين. لكنها تقتضي كمية كبيرة نسبياً من الشعر، وهي خمسة غرامات، أي ما يعادل خمسة آلاف شعرة قصيرة. ولكن انى لطبيب الاسنان الاسوجي أن يحصل على هذه الكمية؟ أليس هذا مستحيلا كرفع ٣٥ طناً من المرمر عن ضريح الامبراطور؟

الا أن ضربة الحظ أصابت فورشوفود في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٩، عندما وجد في مكتبة غوتبورغ نسخة من مجلة "الكيمياء التحليلية" تحوي وصفاً لطريقة حديثة لكشف نسبة الزرنيخ في الشعر بناء على تحليل شعرة واحدة. ومبتكر الطريقة هو الدكتور هاملتون سميث، أحد العلماء في دائرة الطب الشرعي في جامعة غلاسكو الاسكوتلندية.

وعلى الفور كتب فورشوفود رسالة الى الأمير نابوليون، الوارث الحالي في سلالة الامبراطور. وأجابه هذا داعياً اياه الى طرح الأسئلة التي يريد. وفي شهر مايو (أيار) ١٩٦٠ سافر فورشوفود الى باريس، ترافقه زوجته أولابريتا.

وما أن وطىء أرض العاصمة الفرنسية حتى خابر الأمير. لكنه لم يبلغه الا عبر وُسطاء. وبعد بضعة أيام اتضح أن سليل نابوليون لا يريد رؤيته.. عندئذ اتصل فورشوفود بالكومندان هنري لاشوك، وهو خبير بارز في الشؤون المتعلقة بالامبراطور وعضو سابق في مجلس ادارة المتحف العسكري في الـ"انفاليد" وأحد منقحي مذكرات مارشان. وسأله فورشوفود اذا كان يرغب في استقباله هو وزوجته للكلام حول نابوليون.

وفي منزل الكومندان في منطقة مونمارتر الباريسية، عرض فورشوفود نظريته ووصف طريقة هاملتون سميث في تحري الزرنيخ وختم بالآتي: "هذا ما جاء بي اليكم. اني ابحث عن شعرة من رأس الامبراطور."

وأجابه لاشوك: "لديّ بعض خصل من شعره."

وكان متحف لاشوك الخاص مليئاً بمخلفات الامبراطور، بما فيها علبة الخشب الصغيرة التي حفظ فيها مارشان مذكراته. وكان داخل العلبة مغلف أبيض كتب عليه كبير الخدم بخطه: "شَعْر الامبراطور،" وهو يحوي خصلة ناعمة ذات لون بني ضارب الى الحمرة، قُصَّت من رأس نابوليون في اليوم الذي أعقب وفاته.

وقدّم لاشوك المغلف الى اولابريتا التي تناولت ملقطاً صغيراً انتزعت به شعرة واحدة وضعتها داخل غلاف من النايلون مدّه زوجها اليها. وقال لاشوك: "تفضّلي يا سيدتي، اسحبي المزيد من الشعر." لكنها أحجمت عن ذلك بحياء، ولم يصر زوجها عليها كي تفعل. وهو أمر ندم عليه لاحقاً.

خلافات المنفى

لم تكن دارة لونغوود بالمكان المريح. فالمطر كثير فوق ذلك السهل الأعزل والمنزل دائم الرطوبة. وكانت الملابس تلتقط الرطوبة وينتشر العفن على الجدران. والأسوأ من هذا أن المنزل كان يعج بالجرذان.

وكيفما نظر نابوليون حوله كان يرى الأسر يحيط به من كل جانب. وعلى مرأى منه كان يقوم مخيّم يؤوي ٥٠٠ جندي. كما صَفّ الحراس بستراتهم الحمر الطويلة على امتداد الجدار الحجري الذي يحدّ لونغوود. وكان الحراس على قمم التلال ينقلون أخبار الأسير بعضهم الى بعض عبر الاشارات بالأعلام. وكان في امكان نابوليون أن يبصر السفن الحربية الانكليزية الخمس المرابطة عند مداخل الجزيرة.

وكان هدف نابوليون المباشر أن يُبقي اسمه حياً في العالم الذي سيطر عليه يوماً. ومن أجل ذلك كان على أفراد حاشيته اختراق جدار الرقابة التي فُرضت على جميع المراسلات الى لونغوود ومنها. ولم يكن نابوليون يغادر المنزل الا نادراً، الا ان الآخرين أكثروا الذهاب عبر الكيلومترات الثمانية الى مرفأ جيمستاون الصغير، حيث كانوا يتسقطون الأخبار ويختلطون بالبحارة. وكان فرنشيسكي تشيبيرياني، ذلك الكورسيكي الشجاع القاتم البشرة الذي لاذ بعائلة بونابرت منذ حداثته، أبرعهم في تحري الأخبار، بينما كان الخادم لوي اتيان سان دوني مسؤولا عن نسخ الرسائل المهرّبة الى الخارج.

وفي منتصف الصباح، بعد انتهاء نابوليون من ركوب الخيل، كان طبيبه باري اوميرا يستدعى أحياناً. غير أن الامبراطور لم يحس حاجة ملحة الى مهارة اوميرا في تلك الأيام الاولى من منفاه، اذ ان صحته كانت حسنة. لكنه كان يعوّل على اوميرا كمصدر للاشاعات المحلية.

وكانت الجماعة تتناول الغداء قرابة الحادية عشرة، في غرفة نابوليون أو في الحديقة اذا سمح الطقس بذلك. وكان الطعام يُعَدّ في مطبخ لونغوود على أيدي طباخين اصطحبهم نابوليون معه. واقتصرت مسؤوليتهم على اعداد الطعام الذي كان يقدمه لوي مارشان بنفسه مع مساعدَين أمينَين.

وحاول نابوليون تناول الغداء بصحبة ضباطه، لكن مناوشاتهم المستمرة كانت تزعج أعصابه. ومرة قال لهم: "انكم حفنة أشخاص في طرف العالم. أفلا يمكنكم، على الأقل، ان تحبوا بعضكم بعضاً؟" لكن نصيحته بقيت بلا صدى في نفوسهم. والواقع ان مشكلة اولئك الضباط كانت انعدام المسؤولية. فالعمل قليل جداً، وقد نال القسط الأكبر منه الكونت ايمانويل دو لاس كازس، أكبرهم سناً، الذي كان نابوليون يملي عليه رسائله. وانضمّ لاس كازس الى نابوليون في الأيام الأخيرة من حكمه، على أمل أن يصبح مؤرخه.

وكان "الغران مارشال" بيرتران مغتاظاً لأن مونتولون انتزع مكانته لدى الامبراطور. وكان ذلك الضابط الكئيب المزاج يلازم عائلته كلما أمكنه ذلك. وهو لم ينقطع عن نابوليون منذ أيام ملكه على ايطاليا، وفي باريس غدا كبير ضباط القصر. وقد خوّله منصبه تسلم شؤون المنزل. لكنه، بالحاح من زوجته فالي الطويلة الشقراء التي شاءت أن تبقى بعيدة عن نابوليون، سكن خارج لونغوود. أما نابوليون الذي جرح ذاك التصرف كبرياءه، فقد عهد الى مونتولون في تدبير الشؤون المنزلية. وهو شاب وسيم اجعد الشعر لازم الامبراطور طوال فترة نفيه.

وجاء تعيين وليم بالكومب، والد بتسي، كمتعهد تموين ليطمئن نابوليون. وهو كان على يقين من أن الانكليز يريدونه ميتاً، وأنهم لن يدّخروا جهداً للقضاء عليه. ولم يكن احتمال التسميم بعيداً عن ذهنه. وقال ان الأطباء والصيادلة حذّروه من الخمر والقهوة على نحو خاص. لكنه ضرب بذلك التحذير عرض الحائط نظراً الى الظروف المستجدة: "ليس هناك خطر من دس السم. ذلك أن بالكومب الذي يؤمّن الطعام واوميرا وبوبلتون (وهو الضابط الانكليزي المقيم في لونغوود) اناس شرفاء لا يمكن ان يقترفوا عملا كهذا."

لقاء في غلاسكو

بعد عودته من باريس الى اسوج (السويد) خابر فورشوفود هاملتون سميث في غلاسكو وطلب منه فحص شعرة رأس بطريقته، من دون اعطائه أي معلومات اخرى. ووافق سميث من غير أن يطرح أسئلة هو الآخر.

وغلف فورشوفود الشعرة بعناية وأرسلها الى اسكوتلندا في البريد المضمون. وفي يوليو (تموز) ١٩٦٠، جاءه الجواب الآتي:

"هذا النموذج يحوي ١٠،٣٨ ميكروغرام من الزرنيخ في الغرام الواحد من الشعر، مما يعني أن

صاحبه كان عرضة لكميات كبيرة من الزرنيخ."

ان كمية الزرنيخ الطبيعية في شَعر الانسان هي نحو ٠،٨ في المليون. أما شعر نابوليون عند وفاته فكان يحوي ١٣ ضعف هذه الكمية.

وغبط فورشوفود نفسه لتلك النتيجة ثم راح يتأمّل في المستقبل. ان ثمة طريقاً طويلة أمامه. وقد تبادر الى سمعه سلفاً احتجاج المشككين: "انه اختبار مفرد، قائم على تحليل مقدار ضئيل. والجائز أن يكون الشعر ملوّثاً، أو أن يكون الزرنيخ أتى لاحقاً من مصدر خارجي. كما يعقل أن يكون هذا الشعر من رأس غير رأس نابوليون."

أجل، ثمة عمل كبير ينبغي انجازه. فهناك حاجة الى المزيد من الشعر والمزيد من الاختبارات. يُضاف الى ذلك ما يمكن وما لا يمكن استنتاجه من الفحص. وأهمّ ما في الأمر الكلام الى هاملتون سميث وجهاً لوجه.

وطار فورشوفود الى غلاسكو في اغسطس (آب). وبعد جولة في مختبر سميث، جلس الاثنان أمام كوبين من الشاي التقليدي فيما راح سميث يشرح طريقته. ووُزن النموذج وخُتم في وعاء من البوليثيلين. ثم عولج بالأشعة مع محلول عادي من الزرنيخ خلال ٢٤ ساعة. وعبر مقارنة النموذجين، تبين وجود الزرنيخ في جسم صاحب الشعر. ولا شك في صحة طريقة سميث التي استُخدمت مرة بعد اخرى بنجاح. والذي يؤسَف له أن الاختبار يقضي على الشعر بحيث لا يمكن تكراره.

وكان لدى هاملتون سميث سؤال واحد يطرحه على ضيفه: "هل لكَ أن تخبرني عن اسم الضحية؟"

وأجاب فورشوفود بهدوء: "هذا الشعر هو للامبراطور نابوليون الأول."

ويتذكر فورشوفود لاحقاً أن وجه سميث ابيض لدى سماعه الجواب، بل أصبح "باهتاً كجثة." وطرأ على ذهن فورشوفود أن سميث كان يفكر في امكان عزو الجريمة الى الانكليز. أفلا يغتاظ بريطاني من غريب يلقي تهمة قتل على عتبة داره؟

ومن أجل طمأنة مضيفه، قال فورشوفود: "انـي على ثقة بأن الانكليز لم يرتكبوا تلك الجريمة."

وما أن سمع سميث ذلك حتى ثارت ثائرته على نحو لا مواربة فيه، وصرخ قائلاً: "وهل تظن أن ذلك يهمني؟ ما شأني بالانكليز أنا الاسكوتلندي؟"

وعلى الأثر انفجر الاثنان ضاحكين.

وحان دور فورشوفود ليطرح سؤالاً: "أيمكن ان يكون الزرنيخ جاء نتيجة تلوث من مصدر خارجي؟"

واذ ذاك تكلم سميث عن تطوّر في طريقته، وهو الفحص المقطعي لنموذج من الشعر. واذا كان الزرنيخ أتى من الخارج - من غرفة الشخص المعنيّ مثلا - فالتحليل يُظهر الكمية نفسها تقريباً في جميع المقاطع. أما اذا دخل الزرنيخ الجسمَ عبر فترات زمنية مختلفة وبكميات كبيرة نسبياً، فان مقاديره تختلف من مقطع الى آخر بحيث تظهر في الرسم البياني على هيئة قمم ووهاد. وفي الامكان حساب الوقت بين قمة واخرى، علماً

ان الشعر ينمو نحو ٠،٣٥ مليمتر يومياً٠

وفي حال نابوليون، هذا يعني امكان معرفة الكميات التي تناولها من الزرنيخ في كل مرحلة، بناء على التحليل المقطعي للشعر بالمقارنة مع المذكرات اليومية التي تصف ما كان يعانيه٠

الا أن المسألة تحتاج الى نماذج اخرى من شعر الامبراطور٠ وخُيل الى فورشوفود أن لاشوك الذي أمدّه بالشعر سابقاً، لا بد من ان يهب الى نجدته الآن٠

وعرض فورشوفود المسألة أمام الدائرة التاريخية للجيش الفرنسي، وذلك في العاشر من ابريل (نيسان) ١٩٦١٠ وكان أعضاء الجانب الفرنسي، وهم طبيبان عسكريان وكبير صيادلة الجيش، يصغون اليه بهدوء، مما ولّد انطباعاً بأنهم يهتمون لنظريته ويؤيدونها٠ والواقع أن لاشوك وعد باعطاء خصلة من شعر الامبراطور لتحليلها، وأعدّ فورشوفود العدة لفحص النموذج على يد خبير فرنسي٠ غير أن لاشوك بدل رأيه في اللحظة الأخيرة واسترد الخصلة٠

وخُيل الى فورشوفود أنه يعرف السبب٠ فلا بد من أن يكون الفرنسيون طرحوا على أنفسهم السؤال الآتي: "من كان المجرم؟" ومن المغري الصاق التهمة بالانكليز٠ لكن ظروف الحياة على جزيرة القديسة هيلانة لم تكن تسمح للانكليز بتسميم نابوليون وحده من دون تسميم أفراد الحاشية جميعاً٠ وهذا يعني أن بطل فرنسا العظيم قضى عليه واحد من قومه، الأمر الذي لا يروق الفرنسيين التفكير فيه٠

ووجد فورشوفود نفسه مرغماً على نشر نظريته، وان ناقصة، علّه يجد من يكملها في أرض الله الواسعة٠ ذلك ان عشرات الخصَل من شعر نابوليون تمّ اهداؤها خلال حياته وبعد وفاته٠ ولا بدّ من أن يوجد بين مالكي تلك الخصَل الحاليين من هو مستعد للتضحية ببعض ما يملك اكراماً للعلم والتاريخ٠

"المناخ القاتل"

في الحادي عشر من يوليو (تموز) ١٨١٦ زار نابوليون وواحد من ضباطه، وهو غاسبار غورغو، السيدة آلبين دو مونتولون التي سبق أن وضعت مولودة انثى قبل أسابيع٠ ودخلا عليها وهي تقرأ قصة المركيزة دو برانفيلييه التي تؤرخ احدى أكبر الجرائم في تاريخ فرنسا٠

ففي العام ١٦٧٦، تحت حكم لويس الرابع عشر، اتُّهمت المركيزة وحُكم عليها بالاعدام لتسميم والدها وأخويها بالزرنيخ٠ وقبل تنفيذ الحكم فيها أدلت باعتراف مفصَّل أصبح الى جانب اعتراف شريكيها في الجريمة، مادة للكتاب الذي كانت آلبين دو مونتولون تطالعه٠

والحق أن الكتاب كان وصفاً مرحلياً مفصلا لطريقة القتل بالزرنيخ على نحو لا يثير الشبهات٠ ومن الأعراض الاولى التي عاناها ضحايا المركيزة الصداع وفقد الشهية للطعام والتقيؤ والحكة وآلام الصدر٠ وعندما حاولت المركيزة تسميم زوجها، شكا

ضعفاً في رجليه جعل الوقوف والمشي عسيرين عليه.

ولقد كان غاسبار غورغو أشد ضباط نابوليون تذمّراً لقلة أعماله. ذلك أن لاس كازس كان له ما يفعله، في حين أمضى كل من بيرتران ومونتولون معظم الوقت مع زوجته وأولاده. لكن غورغو كان أعزب. وهو شاب في مطلع الثلاثينات ضخم البنية وقاتم البشرة ومفعم بالحيوية والنشاط والعاطفة التي لم تجد متنفساً لها.

وعهد نابوليون الى غورغو في العناية بجياده الاثني عشر. غير أن سوّاس الخيل أنجزوا العمل عنه بحيث لم يستلزم عمله في الاسطبل سوى القليل من الوقت والجهد. وكان يركب جواده ويستحثه بنزق حول سهل لونغوود، ويتخاصم معظم الوقت مع مونتولون ويشتكي الى نابوليون حول كل شيء.

أما علاقة نابوليون بحاكم الجزيرة الجديد هدسون لو الذي وصل في ربيع ١٨١٦، فكانت سيئة منذ البداية. وكان الحاكم القلق يخشى ان يؤدي تلكؤه عن القيام بمسؤولياته الى فرار نابوليون بعد اثارة الشغب في صفوف السكان وافراد الحامية. ومنعاً لحدوث شيء من هذا القبيل، أصدر قوانين جديدة وأحيا قوانين قديمة لم يكترث سلفه لها.

ومعظم هذه القوانين كان يهدف الى قطع العلاقة بين نابوليون وسكان الجزيرة ومنعه من الكتابة الى العالم الخارجي. وعلماً منه أن أفراد الحاشية يهرّبون الرسائل باستمرار تحت أعيُن الرقباء، أصدر لو قانوناً يجرّم بموجبه أي ساكن للجزيرة يتعامل مع جماعة لونغوود من غير اذنه الخاص. وقلّص المساحة التي يمكن ان يتجوّل فيها نابوليون على حصانه من غير مرافق. كما أحيا قانوناً قديماً لم يطبّق حتى ذلك الوقت، يخضع نابوليون بموجبه لمراقبة ضابط انكليزي مرتين يومياً.

أما أكثر اجراءات لو تفاهة فكان ذاك الذي يدعو جماعة لونغوود الى اختصار موازنتهم السنوية من ١٢ ألف جنيه الى ثمانية آلاف. ووجد نابوليون في ذلك الاجراء فرصة لارباك السلطات الانكليزية، فأمر ببيع الفضة الامبراطورية. وانتظر تشيبريانى احتشاد الناس على رصيف الميناء قبل عرض الصحون والأواني الفضية. وعندما سُئل عن حال الامبراطور أجاب: "ها هو يعرض سلعه الفضية للبيع كي يتمكن من العيش." وكان نابوليون يأمل ان تبلغ هذه الأنباء لندن، فتكسبه عطف الشعب الانكليزي.

ووجد نابوليون في اجراءات لو التعسّفية مجالا لتحدّيه. ولدى تقليص المساحة التي يحق له ركوب الخيل فيها، أخبر طبيبه اوميرا (وهذا لا بدّ من أن ينقل الخبر الى الحاكم) أن حرمانه الرياضة يؤدي الى موته الذي تقع تبعته على الانكليز. أما مراقبته مرّتين يومياً من قبل ضابط انكليزي فقد تجنبها نابوليون ببقائه أياماً في غرفتيه في لونغوود لا يبارحهما.

الا ان نابوليون دفع غالياً ثمن

خصومته مع لو. فقد كانت دائرة أسره تتقلّص يوماً بعد يوم. وخفّ عدد زواره كثيراً بعدما نشأ خصام حول من يوقع لهم اذن المرور. وكانت صحة الامبراطور تسوء باطراد. وفي شهر مايو (أيار) شكا من النقرس (داء المفاصل) وقال للدكتور اوميرا: "ان رجليّ ترفضان العمل من أجلي." وكان يشعر بالبرد على الدّوام ويُصاب بالتهاب في اللثة، ولاحظ اوميرا أنها غدت "طرية كالاسفنج وباهتة اللون وتنزف لأقلّ سبب." وعزا اوميرا تلك الأعراض المتكررة جزئياً الى "المناخ القاتل،" وهو تفسير واسع يشمل كل ما يستعصي تفسيره بالطرق الاخرى.

مقارنات باهرة

اشترك فورشوفود وهاملتون سميث وآندريس فاسن، وهو عالم سموم أسوجي، في كتابة مقال يصف الاختبار الذي أجراه سميث. ونُشر هذا المقال في عدد ١٤ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٦١ من المجلة العلمية البريطانية "الطبيعة" مع ذكر اسم نابوليون صراحة. وجاءت ردود الفعل الاولى من خبراء الدراسات النابوليونية الذين رفضوا النظرية جملة وتفصيلا. وهذا عين ما كان يتوقّعه فورشوفود.

وبعد اسبوعين من صدور المقال، تلقى فورشوفود مخابرة من صاحب معمل نسيج سويسري اسمه كليفورد فراي، قال انه يملك خصلة من شعر نابوليون تحوي خمسين شعرة، وانها كانت في الأساس خاصة جان ابرهام نوفيراز، الخادم الذي قص شعر الامبراطور في اليوم التالي لوفاته. وعبّر فراي عن رغبته في تقديم كمية من ذلك الشعر لاجراء الاختبار عليها، وتولى بنفسه ارسالها الى غلاسكو.

وفيما كان فورشوفود ينتظر تقرير سميث، وضع وصفاً مفصّلا للأشهر السبعة الأخيرة من حياة نابوليون، بين أواخر سبتمبر (أيلول) ١٨٢٠ ويوم وفاته في ٥ مايو (أيار) ١٨٢١. ودوّن جميع الأعراض الصحية التي شكا منها الامبراطور نقلا عن شهادات الدكتور آنتومارشي ومارشان وشخص ثالث. وبلغ طول الورقة التي سجّل عليها فورشوفود تلك الملاحظات متراً. وقد ظهر عليها مرض نابوليون الأخير في ضوء الأشهر السبعة كلها. ولم تكن الأعراض مستمرة، بل مجموعة في فترات زمنية متقطعة تفصل بينها مراحل من الابلال. وأشارت الدلائل الى أن نابوليون عانى، خلال تلك الأشهر السبعة، ست اصابات حادة، آخرها في شهر مارس (آذار). وأبلّ جزئياً في أواسط ابريل (نيسان) عندما كتب وصيّته. وبعد ذلك ظهر مرضه الأخير الذي دام اسبوعين.

ووصل تقرير سميث في مطلع ديسمبر (كانون الاول). وكان سحب من الخصلة عشرين شعرة، أجرى على بعضها اختباره القديم الذي يقيس كمية الزرنيخ الاجمالية. وتبين ان تلك الشعرات تحوي نسبة من الزرنيخ تراوح بين ٣،٢٧ و٣،٧٥ في المليون، أي بزيادة أربعة الى خمسة أضعاف

على كمية الزرنيخ الطبيعية في شعر الانسان.

واقتطع سميث شعرتين، طول احداهما ١٣ سنتيمتراً والاخرى تسعة سنتيمترات، لاجراء التحليل المقطعي عليها. وثبّت سميث الشعرتين على ورقة وجعلهما في مقاطع بطول خمسة مليمترات للمقطع الواحد. وبعد ذلك قاس كمية الزرنيخ في كل مقطع. وجاءت النتيجة، بالنسبة الى الشعرة الأطول،متدرّجة من ٢،٨ الى ٥١،٢. أما الأخرى فتدرّجت من٦،٠١ (وهذا ليس بعيداً جداً عن المعدّل الطبيعي) و١١. وبلغ عدد الاختبارات التي أجراها سميث على تلك الخصلة من شعر نابوليون المئة والاربعين. وأظهرت الرسوم البيانية التي وضعها أنّ نابوليون لم يمت عَرَضاً، وأنّ الزرنيخ في شعره لم يكن تلوّثاً مصدره الهواء.

وتناول فورشوفود الجدول الذي وضعه لحال نابوليون الصحية في الأشهر السبعة الأخيرة من حياته، ونشره أمامه على الأرض مع تقرير سميث. وراح يحسب من اليوم الذي قُطع فيه الشعر، وهو السادس من مايو (أيار) ١٨٢١، الى الوراء. وكان كلّ مقطع من خمسة مليمترات يقابل ١٥ يوماً من حياة نابوليون. وأجرى فورشوفود مقارنة بين فترات مرض نابوليون وابلاله من ناحية، وكميات الزرنيخ بالنسبة الى تحليل سميث المقطعي من ناحية اخرى. فجاءت النتيجة مطابقة، مما يعني ارتفاع نسبة الزرنيخ خلال فترات المرض وانخفاضها في فترات الابلال.

ونجحت محاولة فورشوفود لتعزيز شواهده اذ تلقى، بعد وقت قصير، رسالة من المؤلفة الاوسترالية السيدة مابل بروكس حفيدة اخت بتسي بالكومب. وكانت مابل طالعت المقال المنشور في مجلة "الطبيعة." كما كانت تملك خصلة من شعر نابوليون، أهداها بنفسه الى بتسي خلال زيارتها الوداعية الى لونغوود في ١٦ مارس (آذار) ١٨١٨. وقرّرت ارسال نموذج منها الى غلاسكو.

وتولى سميث تحليل النموذج الجديد عبر قسمة خيوطه مقاطع ثلاثة يبلغ طول كل منها سنتيمتراً واحداً. وراوحت نسبة الزرنيخ بين٦،٧ اجزاء و٢٦ جزءاً في المليون. وهذا برهان اضافيّ على التسميم المتعمّد. وبما أن مذكرات بتسي تقول ان الخصلة أُعطيت لها لدى زيارتها الأخيرة الى لونغوود، فهذا يعني أن الشعر الذي تتكوّن منه نما في العام ١٨١٧ أو في مطلع ١٨١٨. وهذا جعل فورشوفود يرفع الشك عن اولئك الذين دخلوا جزيرة القديسة هيلانة في وقت لاحق، وبينهم الدكتور أنتومارشي الذي وصل عام ١٨١٩.

وقد سُرّت السيدة مابل كثيراً لتلك النتائج، علماً أنها كانت دائماً على قناعة بأن وفاة نابوليون لم تكن طبيعية، بل كانت تنطوي على جريمة.

نقص الحاشية

تدهورت صحة نابوليون. وفي اكتوبر (تشرين الاول) ١٨١٧ شكا الى اوميرا ألماً تحت غضروف القفص

الصدري يعانيه للمرة الاولى. وشخّص اوميرا الألم على أنه نتيجة التهاب الكبد. وبعد اسبوعين دوّن في تقاريره ان نابوليون يعاني على الدوام احساساً مزعجاً في جانبه الأيمن، وان شهيته تقلصت والتورّم لم يبارح رجليه، خصوصاً في الليل.

وعندما زاره آل بالكومب ذلك الوقت، دوّنت بتسي في مذكراتها ما يأتي عن مرضه: "لقد أحدث فيه أثراً شديداً بحيث بات النظر اليه محزناً. فوجهه غدا باهتاً كلون الشمع الأصفر بالتمام، وغار خدّاه، وانتفخ رسغا قدميه حتى خرج اللحم من حذائه. وبلغ منه الضعف مبلغاً لم يستطع معه الوقوف من غير القاء يد على الطاولة واخرى على كتف أحد ملازميه. ولاحظت أمي، ونحن نغادره، أن الموت كان مرتسماً على قسماته."

وكان مرض نابوليون المتكرر يحيي لديه أحياناً الخوف من التسمّم، خصوصاً عبر دس السم في الشراب. وفي يونيو (حزيران) وجد غورغو طعماً غريباً في زجاجة من خمر الامبراطور الخاصة. ونصحه باشراك صَحْبه جميعاً في شرب تلك الخمر، لأن أحداً لن يجرؤ على تسميم الحاشية كلها خوفاً من افتضاح الأمر.

والحق أن صحة نابوليون كانت جانباً واحداً من همومه. فمن ناحية اخرى كان أفراد حاشيته يتضاءلون عدداً. ذلك أن غاسبار غورغو غادر الجزيرة في فبراير (شباط) ١٨١٨، بعد سنة كاملة من الخصام المر مع صَحْبه. وكان لاس كازس ترك في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨١٦. ونظراً الى حداثة سنه وحدّة طبعه، لم يتمكن غورغو من تحصين لسانه. وعندما تذمّر أمام نابوليون من كونه أعزب، أجابه سيده: "ماذا تقول؟ النساء؟ اذا لم تفكر فيهن، فانك لن تحتاج اليهن! لماذا لا تكون مثلي؟"

غير أن غورغو لم يصدّق ما قاله سيده، لقناعته بأنه اتخذ آلبين دو مونتولون خليلة له. وهو لم يخبىء قناعته تلك عن نابوليون. ومرة فاجأ السيدة وهي في طريقها الى نابوليون الذي كان عارياً في غرفة نومه. ولما أسرّ الى زوجها بما حَدث، أجاب مونتولون متلعثماً: "لا أدري. وفي الوقت نفسه لا أنفي."

وجاءت النهاية في مشهد عاصف. كان الحديث يدور على مونتولون وزوجته. وقال نابوليون انه سيعاملهما على النحو الذي يروقه. واذ ذاك قرّر غورغو ان يغادر الجزيرة، متذرعاً بسوء حاله الصحية.

وفي اواخر فبراير (شباط) حلت خسارة اخرى وأكبر بالامبراطور. ففي أثناء العشاء ذات مساء سقط تشيبرياني فجأة على الأرض وهو يتلوّى ألماً. ومات بعد يومين. وجاء في تقرير اوميرا أن سبب الوفاة كان "التهاباً في الأمعاء". ولم يُجْرَ أيّ تشريح للجثة لأن صاحبها كان خادماً. وهكذا طُويت وفاة تشيبرياني المفاجئة.

وفي الشهر التالي غادر آل بالكومب الجزيرة بحجة مرض السيدة بالكومب. لكن السبب الحقيقي كان أن حاكم الجزيرة هدسون لو غاظته العلاقة الحميمة بين نابوليون وتلك

العائلة الانكليزية. ومع ذهاب وليم بالكومب، فَقَدَ نابوليون صلة وصل مهمة مع العالم الخارجي، كما فَقَدَ كل من له من أصدقاء انكليز في ذلك المكان.

وتبع اولئك جميعاً باري اوميرا. وأسف نابوليون كثيراً لمغادرة ذلك الطبيب الشاب الذي بات، مع قلة ضئيلة، مصدراً لمعلوماته بعد وفاة تشيبرياني ورحيل آل بالكومب.

وبعد سنة حزمت آلبين دو مونتولون أمتعتها ومضت ومعها أولادها الثلاثة، مخلّفة أسئلة لا تزال حتى اليوم بلا جواب: هل كانت عشيقة نابوليون كما ادّعى غورغو؟ هل كانت ابنتها "نابوليون" التي وُلدت على الجزيرة ثمرة تلك العلاقة؟

مهما تكن علاقة آلبين بالامبراطور، فلا شك في أن ذهابها جعل أيامه تبدو أكثر فراغاً. ولدى معرفته بعزمها على الذهاب، أخبر زوجها أنه يأذن له بالذهاب معها. غير أن مونتولون رفض. فهو أقرب أفراد البطانة الى الامبراطور بعدما انتزع تلك المكانة من بيرتران الكئيب الطبع، المنكفيء على ذاته، الذي عبّر عن رغبته في الذهاب أيضاً. وما أن أصبح مونتولون وحيداً حتى بات يقضي أوقاته مع الامبراطور من غير أن يتذمّر البتة.

أجوبة للمشككين

طوال فترة تحرّياته ودراساته ووجه فورشوفود بالكثير من الأسئلة الحادة التي تتحدى نظرته. وقد جاء بعض تلك الأسئلة من المشككين وبعضها الآخر منه هو. ولدى اثبات نظريته عام ١٩٧٤ حول وفاة نابوليون، بات مستعداً للاجابة عن تلك الأسئلة بالكثير من اليقين.

١. ثمة دلائل عدة تشير الى تسمّم نابوليون بالزرنيخ فلماذا لم يحاول أحد قبلك اجراء تلك التحريات؟

– السؤال نفسه طرحتُه على هنري غريفون، الخبير في السموم في مختبر الشرطة في باريس. فأجاب أنه ما من حادث تسمّم بالزرنيخ تمّ تحرّيه بدقة وفي الوقت المناسب، مشيراً الى أنه اشترك في تحريات عدة من هذا القبيل. فالأعراض التي ترافق هذا النوع من التسمّم تلازم أمراضاً كثيرة اخرى. وعلى الطبيب المسؤول أن يفصل في الأمر. ولا شك في أن تشخيص الأمراض العادية أسهل كثيراً من تشخيص التسمّم بالزرنيخ.

٢. لكنّ الدكتور أنتومارشي هو الذي أجرى التشريح، والقتل بهذه الطريقة كان شائعاً جداً آنذاك. فلماذا لم يطرح ذلك الامكان؟

– يجب الا ننسى التمييز بين التسمّم المزمن وغير الحاد بالزرنيخ والتسمّم الحاد والفوري بهذه المادّة. والنوع الأول الذي تعرّض له نابوليون، ذو نتائج لم يكن الأطباء يعرفونها تماماً آنذاك. والحق أنها لم تُعْرَف جيداً قبل العام ١٩٣٠.

٣. ماذا تقول، اذاً، عن الأطباء والمؤرخين الذين عالجوا المسألة حديثاً؟

– لم يقم هناك اي دليل ملموس على موت نابوليون بالسم الى أن ابتكر هاملتون سميث طريقته في

تحليل الشعر، والمذكّرات التي سلّطت الأنوار الكاشفة على أيام نابوليون الأخيرة لم تُنشَر الا حديثاً. فكتاب بيرتران ظهر عام ١٩٤٩، وكتاب مارشان عام ١٩٥٥. وهذان الكتابان لا يجيبان عن نظرية الوفاة بالسم لأنهما لا يطرحانها. ولكن ظهرت نظريات اخرى حول وفاة نابوليون، وكان لكل نظرية أتباعها.

أما غلاة المعارضين لنظرية الوفاة بالزرنيخ فقد وضعوا كتباً ومقالات يدافعون فيها عن النظريات القديمة الشائعة. وعلى حدّ علمي، ليس هناك أي عالم سموم أو عالم أمراض عارض نظريّتي، كما لم يعارضها أي خبير بالجرائم أو بالطب الشرعي. والعديد من هؤلاء أيّدني.

٤. ان نقّادك أثاروا شكوكاً حول مصدر الشَّعْر. فكيف نعلم حقاً أن الشعرات التي تم تحليلها كانت من رأس الامبراطور؟

– نحن نعرف ذلك من لون الشعر والشبه بين النماذج واحتوائها جميعاً على الزرنيخ. وهذه النماذج جميعاً تلائم الوصف الذي نعرفه لشعر الامبراطور. ولئن يكن هذا يدلّنا على أن صاحب الشعر واحد لكنه ليس بالضرورة نابوليون، فمن حقّنا أن نتساءل كيف وصلت تلك النماذج الى أيدي أناس لا يعرف بعضهم بعضاً، مثل لاشوك في باريس وفراي في سويسرا والسيدة مابل في اوستراليا، فضلا عن شخصين آخرين؟

٥. لماذا استغرقت عملية التسميم ذلك الوقت كله، ولم يتمّ قتل نابوليون بجرعة قوية واحدة؟

– من أجل فهم ما حصل، علينا أن نعرف ما الذي كان يخشاه آل البوربون. لا شك في أنهم كانوا يحسبون حساباً كبيراً لنابوليون، لكنهم خشوا كثيراً الحركة البونابرتيّة.

ولكن لنفترض أن الكونت دارتوا، ولي عهد سلالة البوربون، اوعز الى مجرم بدس السم للامبراطور السابق للقضاء عليه مرة واحدة. هذا من شأنه طرح مسألة التسميم كأمر واقع، وتشريح الجثة بناء على هذه الفرضية. واذ ذاك يُكتشَف وجود الزرنيخ. الا أن هذا قد يؤدي الى قيام ثورة شعبية عارمة ضد آل البوربون لدى وصول الأخبار الى فرنسا – ثورة من شأنها أن تقضي على حكمهم الى الأبد. من الضروري، اذاً، تسميم الضحية على مراحل لكي تبدو الوفاة امراً طبيعياً.

ومن حسنات التسميم البطيء أيضاً أنه يحد من نشاط نابوليون.

أخيراً، ثمة اعتبار مهم بالنسبة الى المجرم، وهو الحرص على عدم افتضاح الجريمة خلال وجوده على أرض الجزيرة. فذلك يدفع أنصار نابوليون الى الاجهاز عليه.

الخيط الأخير

بعد الاجابة عن تلك الاسئلة جميعاً، بات فورشوفود على استعداد لكشف هوية المجرم. وكان استبعد، منذ البداية، الأشخاص الذين عاشوا خارج دارة لونغوود التي أوت نابوليون وبطانته. فليس في امكان اولئك دس السم للامبراطور وحده من غير

تسميم أفراد الحاشية الآخرين. وهذا يعني وضع الانكليز وبيرتران خارج نطاق الشك .

واستبعد فورشوفود كذلك الأشخاص الذين لم يلازموا نابوليون من بداية نفيه الأخير حتى نهايته، بعدما بيّن اختبار النماذج المختلفة من الشعر أن التسميم حصل طوال مدة النفي في جزيرة القديسة هيلانة، وهي خمس سنوات ونصف سنة. وهذا يعني استثناء لاس كازس وغورغو واوميرا وآلبين دو مونتولون وتشيبرياني والدكتور آنتومارشي.

ان الطريقة المعهودة للتسميم بالزرنيخ هي دسّه في الطعام أو في الشراب. والواقع أن بيارون، كبير الطهاة، بقي في لونغوود طوال مدة النفي. ومن السهل أن يكون سمم نابوليون، ولكن ليس نابوليون وحده، بل سائر المرافقين. ذلك ان بيارون أشرف على تحضير الطعام، لكنه لم يكن هو المسؤول عن تقديمه. ولم يكن نابوليون يتناول طبقه الا من الخدَم. وكيف لكبير الطهاة أن يعرف سابقاً أي جزء من الطعام سيُقدَّم الى الامبراطور؟

اذاً ، أيكون القاتل واحداً من الخدام الثلاثة: مارشان، سان دوني، نوفيراز؟

انّ الاسمين الأخيرين يمكن حذفهما لأنهما لم يقدّما الطعام باستمرار. ولقد كان نوفيراز طريح الفراش خلال احدى فترات تسميم الامبراطور.

هذه التصفية تُبقي اسمين اثنين: مونتولون ومارشان، أقرب الناس الى نابوليون. وهذا ينطوي على مفارقة، لكنه أمر طبيعي. فليس لغير القريبين أن ينفذوا عملية من هذا النوع.

وراح فورشوفود يدرس سيرة المشبوهين ويتساءل عن سبب ذهابهما الى جزيرة القديسة هيلانة. وكان مارشان خدم نابوليون منذ شبابه بعدما خدمت امه في البلاط وذهبت الى فيينا، عند النفي الاول للامبراطور، للعناية بابنه. ولم يكن لعائلة مارشان ولا له هو اي صلة بالاسرة المالكة، لذلك كان طبيعياً أن يرافق الامبراطور.

أما مونتولون فكان من الأريستوقراطية القديمة. وهو كان ضابطاً لم يحارب قطّ . وقد رفض نابوليون أن يمنحه ترقية، كما عارض زواجه بآلبين. ولما تزوجها تخلى عنه. وبعد تنحية نابوليون ونفيه الى البا، سعى مونتولون الى نيل خطوة لدى آل البوربون.

وكان الكونت سيمونفيل، زوج والدة مونتولون، قريباً للكونت دارتوا، شقيق الملك لويس الثامن عشر. ولا ريب في أن تلك الصداقة هي التي أوصلت مونتولون الى رتبة جنرال على أثر استعادة آل البوربون الحكم. لكنه، قبل ممارسة صلاحياته، اتُّهم باختلاس مبلغ ٥٩٧٠ فرنكاً من رواتب جنوده، وهو جرم كبير. لكنه لم يمثل أمام المحكمة العسكرية على الاطلاق.

ثم ظهر مونتولون مع حاشية نابوليون في أعقاب معركة واترلو، كمسؤول عن مخدع الامبراطور. ترى

ما الذي حدا ذاك الشاب المحب للمتعة على خدمة قضية خاسرة؟ ما الذي يفسر حماسته للذهاب الى جزيرة القديسة هيلانة؟ لماذا ارتضى ترك مباهج الحياة في فرنسا، حيث تحكم جماعته، ليمضي أجمل سنيّ حياته فوق جزيرة نائية في خدمة شخص لا يعني له شيئاً؟

وأتبع فورشوفود تحرياته بدراسة سلوك مونتولون في الجزيرة. لقد رفض التدخّل في علاقة زوجته مع نابوليون، حتى بعدما نبهه غورغو الى ذلك بهزء. كما أنه لم يتذمر البتة ولم يطلب اعفاءه من مهمته. ولم يجد فورشوفود في ذلك السلوك الغريب سوى أمر واحد، وهو أن مونتولون أُرسل بمهمة اغتيال الامبراطور. والمؤكّد أن الكونت دارتوا هو الذي أعطى الأمر، والمعروف أنه خطط غير مرة للقضاء على نابوليون. ومن المعقول أن يكون هدّد مونتولون بأن احجامه عن تنفيذ ذلك الأمر يحتم ارساله الى السجن بتهمة السرقة.

وتوصّل فورشوفود الى المزيد من الأدلة. فقد كان مونتولون مدير الخمور في لونغوود، وفي يده مفتاح الغرفة التي حُفظ فيها الشراب. وكانت الخمور تُنقل الى لونغوود في براميل خشبية. ومن السهل ان يلقي مونتولون الزرنيخ في البرميل نفسه، قبل تفريغه في القناني. وهذا أسهل وأكثر اقصاء للشبهات من دس السم في الطعام، الذي يجب ان يحصل كل مرة بمفردها. أما وضع الزرنيخ في البرميل فيعني تسميم نابوليون طوال الأسابيع أو الأشهر اللاحقة. وقد تمّ التسميم ببطء لأن نابوليون لم يكن شرّيب خمر مفرطاً. ومرة أهدى زجاجة من خمره الخاصة الى غورغو، فشكا هذا الأعراض نفسها التي كانت تصيب الامبراطور.

الا أن لبّ المسألة يكمن في المرحلة الأخيرة من حياة نابوليون، وهي الأشهر الاولى من العام ١٨٢١ التي تبنى المجرم خلالها الطريقة التقليدية لتسميم ضحيته. فقد طلب من أحد الأطباء وصف عقاقير غير مؤذية، لكنها ضارة جداً في حال التسمّم بالزرنيخ. وفي تقارير شهود عيان خلال تلك الأشهر الأخيرة، وجد فورشوفود البرهان القاطع على أن نابوليون مات قتلاً، وأن قاتله كان مونتولون.

الضربة القاضية

مع بداية ١٨٢١ كان نابوليون شديد الضعف وهو يعاني نوبات من الانحطاط الجسدي والالم المبرح في معدته. وطوال تلك الفترة، ما انفكّ مونتولون يقول لحاكم الجزيرة هدسون لو ان آنتومارشي ليس كفياً لابراء نابوليون في تلك المرحلة من مرضه، وان سيده يودّ استقدام طبيب من باريس. وكرر مونتولون رجاءه أمام آنتومارشي نفسه، قائلا: "ليكن القرار في يد الملك الفرنسي."

وكان وجود آنتومارشي لا يلائم المجرم من ناحيتين. فهو، أولا، مختص بعلم التشريح، وفي إمكانه أن يبزّ الأطباء الآخرين في هذا المجال. وبما أنه كورسيكي، من

ناحية اخرى، فلم يكن له ولاء لاي من التاجيين البريطاني والفرنسي، وبالتالي لم يكن يخشى نشر تقريره عن وجود السم. أما في حال إرسال طبيب فرنسي من قبل العائلة المالكة، فأن هذه المخاوف تزول، اذ لا بدّ من أن يحاط علماً بأن مهمته تتجاوز التشريح.

وأرتأى فورشوفود أنه من غير المعقول أن يسلم نابوليون نفسه الى طبيب اختاره آل البوربون، علماً أنه كان يخشى الأطباء الانكليز أنفسهم. ولا بدّ من أن يكون مونتولون كذب على حاكم الجزيرة اذ أخبره أنّ نابوليون يطلب احضار طبيب من فرنسا.

وفي أواسط فبراير (شباط) طرأ تحسّن على صحة نابوليون قبل أن تنتكس فجأة. وسجل آنتومارشي الآتي: "سعال جافّ. تقيؤ. سخونة في الامعاء يعسر احتمالها." والواقع أنّ تحليل الشعر أظهر سمية مرتفعة في تلك الاثناء. وفي مارس (آذار)، بعد إلحاح بيرتران ومونتولون وآنتومارشي، تناول الامبراطور عقاراً مقيئاً للتغلّب على تلك الأعراض.

وكان الأطباء في ذلك العهد يصفون المقيىء على أنه الخلاص الوحيد من أمراض لا سبيل آخر الى طردها. وكان ملح الطرطر الشائع مركباً من عناصر يؤدي اجتماعها الى التهاب الغشاء المخاطي، وأحياناً يملع عملية التقيؤ التي تنجزها المعدة تلقائياً لطرد السموم.

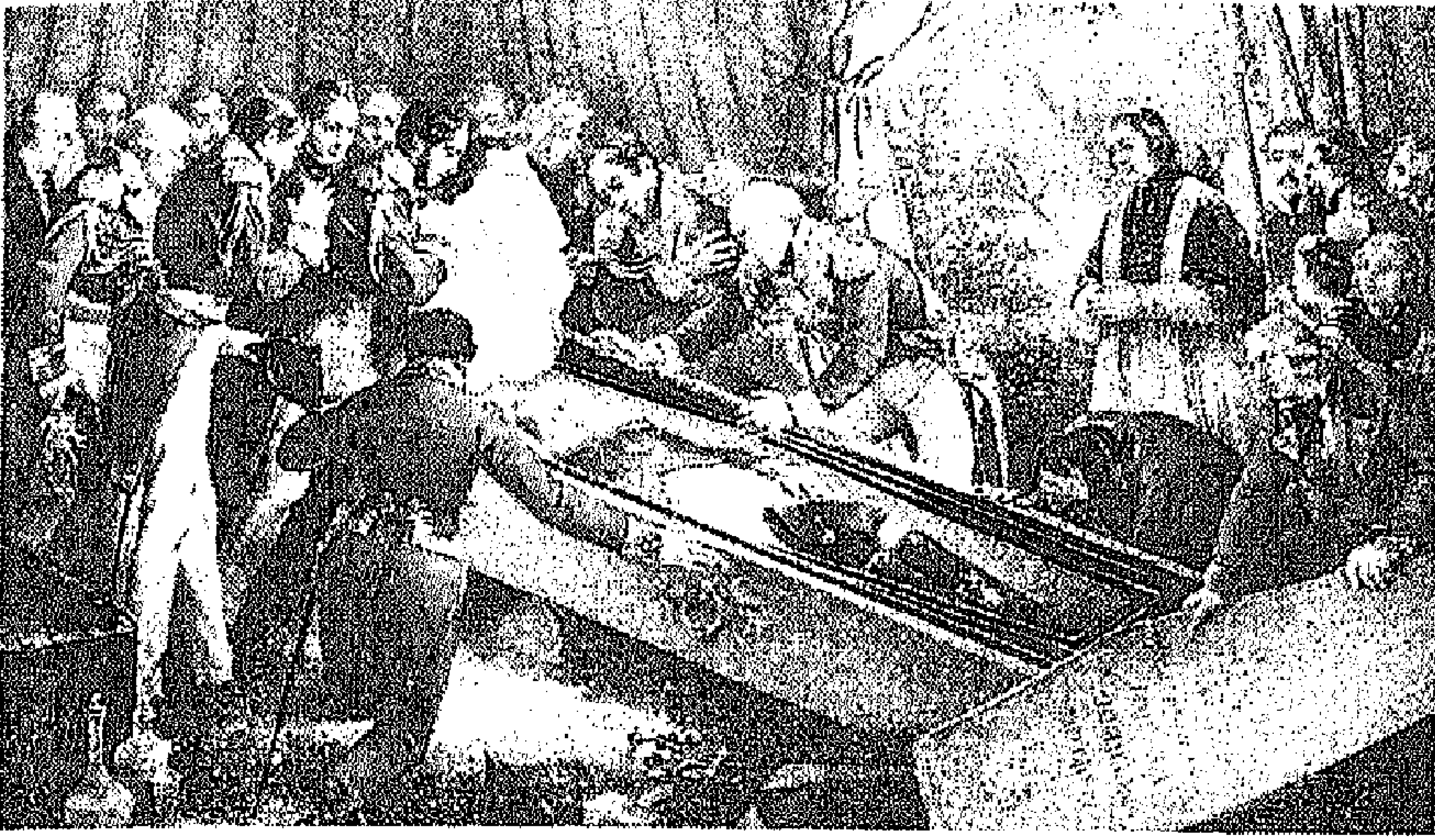
وقد فحص هاملتون سميث بعض الشعر الذي قُصّ من رأس نابوليون عقب الوفاة، فوجد ارتفاعاً في كمية الحمض المذكور.

وفي أواخر ابريل (نيسان) قرّر نابوليون وقف شراب السوس لتناول شراب اللوز غير الكحولي. وهذا شراب يتمّ بنقع اللوز الحلو، مع اضافة بعض اللوز المرّ للنكهة. ولولا اللوز المرّ لكان الشراب المذكور غير مؤذ. لكن اضافة هذا العنصر إليه، فضلا عن زئبق الكالوميل، تحوّله سماً ناقعاً.

في تلك الأثناء تحسّنت حال نابوليون قليلا، فراح يضع اللمسات الأخيرة على وصيته. وفي وقت لاحق من الشهر أرسل إليه الحاكم صندوقاً من اللوز المرّ. وغدا شراب اللوز الذي كان يتناوله آنذاك سماً زعافاً.

وفي ٣ مايو (أيار) أرسل هدسون لو طبيبين إنكليزيّين لفحص نابوليون. ووصفا له الكالوميل من غير أن يرياه، اذ لم يسمح لهما مونتولون بذلك. واعترض آنتومارشي على الوصفة بحجة أنها ترهق المريض من غير أن تأتي خيراً. لكن بت الأمر كان في يد مونتولون الذي أيد رأي الطبيبين الانكليزيين. وهكذا أُعطي الدواء.

وكان الكالوميل بمثابة العقار السحري آنذاك. فالاطباء كانوا يصفونه، فضلا عن الملح المقيىء، لعلاج أي مرض لا يمكن التصدي له بالطرق الاخرى، خصوصاً امساك المعدة. والكالوميل، في ذاته، لا يؤذي. لكن امتزاجه بشراب اللوز الذي كان نابوليون يتناوله، مع ما ينطوي عليه من لوز مرّ، يسفر عن أوخم العواقب. فاللوز المرّ يحتوي



نبش تابوت نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة.

على الحمض الهيدروسيانوجيني الذي يستخرج السينانيد الزئبقي السام من الزئبق الكامن في الكالوميل. وسرعان ما تفقد الضحية الوعي بعد تناول هذا الخليط الفتاك. ثم تُشل العضلات الارادية، وتفقد الضحية البصر والسمع.

وربما تدخلت معدة الضحية لحمايتها من التسمم اذا لفظت المادة السمية عبر التقيؤ. غير أن الافراط في تناول الملح المقيىء يمنع هذا الامر ويؤدي، معظم الاحيان، الى الوفاة.

أما كمية الكالوميل التي أعطيت لنابوليون، وهي عشر حبات، فيمكن وصفها بالعمل البطولي أو العمل الجنوني. والشائع ذلك الوقت أن يعطى المريض حبة او اثنتين على مراحل. وعلى أثر تلك الجرعة انهار نابوليون كلياً ولم يتمكن من مبارحة فراشه. واستحال برازه أسود، وهذه علامة على تلف المعدة ونزفها. وبعد يومين، في الخامس من مايو (أيار)، توفي في تمام الخامسة والدقيقة التاسعة والاربعين عصراً.

شهادة نابوليون

وقف ستين فورشوفود وحيداً فوق ضريح نابوليون الخالي، حيث كان الصمت رائناً على الوادي الذي بقيت فيه جثة الامبراطور المسممة ١٩ سنة. وكان الضريح لوحاً حجرياً خالياً من الكتابة، يحيط به سياج معدني بسيط. وكان فورشوفود الزائر الوحيد ذلك اليوم من يونيو (حزيران) ١٩٧٤.

وهو وصل الى جزيرة القديسة هيلانة قبل اسبوع، وينتظر أن يغادر في اليوم التالي. ولم تكن الرحلة سهلة على الاطلاق. ذلك أن بلوغ الجزيرة اليوم أعسر منه في أيام نابوليون. فقد فقدت الجزيرة وظيفتها المميزة كنقطة استراحة للسفن المتجهة شرقاً، بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩. وسكانها

اليوم يتقاضون تعويضات مادية كبيرة من الحكومة البريطانية. ولخلوها من أي مطار، فالطريقة الوحيدة لبلوغها هي سفينة شحن بريطانية في طريقها بين ميناء بريستول الانكليزي وميناء كيب تاون في جنوب افريقيا.

وفيما وقف فورشوفود يحدق الى اللوح الحجري، اتجهت أفكاره الى اكتوبر (تشرين الاول) ١٨٤٠، الشهر الذي كانت جثة نابوليون البرهان الاخير لحقيقة موته مسموماً. وفي وقت سابق من تلك السنة، كان الملك لوي فيليب وافق، بضغط من الحركة البونابرتية الناهضة في فرنسا، على تنفيذ رغبة نابوليون في نقل رفاته ليستريح على ضفاف السين. ودعي جميع رفقاء المنفى الى تشييع جثمان سيدهم الى مثواه الاخير.

وقبل معظمهم الدعوة، وذهبوا الى جزيرة القديسة هيلانة. وكان بيرتران، وقد وخطه الشيب ونهكته سنوه السبع والستون، هناك مع أحد أبنائه. وأرسل لاس كازس ابنه ايمانويل لتمثيله بعدما أُصيب بالعمى وبلغ الثمانين. وجرى هناك نقاش بين غورغو الذي لم يفقد شيئاً من حدة طبعه، وايمانويل عوضاً عن أبيه؛ وفي ذلك الوقت كان مارشان في منتصف عمره وقد غدا في عداد الطبقة البورجوازية وجمع ثروة من وصية نابوليون. وهو كان هناك أيضاً مع معاونيه السابقين سان دوني ونوفيراز. أما الطبيبان اوميرا وآنتومارشي فماتا قبل ذلك الوقت.

ولم يكن مونتولون هناك، بل في السجن. فبعد عودته من المنفى بقيت حياة مونتولون مثاراً للاستفهام. وكان جمع ما يربو على المليون فرنك بفضل وصية نابوليون، وهو مبلغ طائل بدده كله قبل العام ١٨٢٩. وما برح ينضم الى الجيش ثم يخرج منه وهو أبداً على الاطراف، لا ينتمي قلبياً الى مكان. وعُرف أن مقابلة سرية تمت عام ١٨٢٧ بينه وبين الملك شارل العاشر (الكونت دارتوا سابقاً). والملك لم يكافىء مونتولون علناً. فالحكومات لا تكافىء اجراءها الذين تكل إليهم تنفيذ أعمالها الحقيرة.

وفي العام ١٨٤٠ لاذ مونتولون بالأمير لوي نابوليون الذي غدا لاحقاً نابوليون الثالث. وفي اغسطس (آب) من ذلك العام، قاد مونتولون حملة طائشة انطلقت من انكلترا لاطاحة الحكم الفرنسي لمصلحة سيده الجديد. لكن الجيش الفرنسي الذي بلغته أخبار المحاولة أرسل قوة الى بلدة بولون على الساحل الفرنسي المقابل لانكلترا، وقفت للآتين بالمرصاد. وما أن نزلوا على الشاطىء حتى قبضت عليهم جميعاً. وحُكم على مونتولون بالسجن عشرين سنة، أمضى ستاً منها في الأسر ثم أُطلق ليموت بعد ١٣ سنة من غير أن يترك أي اعتراف كتابي بجرمه الكبير.

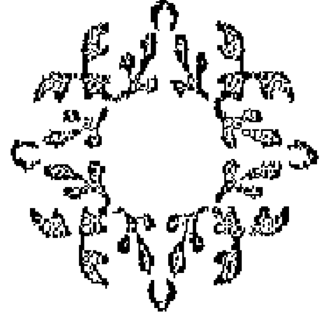
ويقول فورشوفود إن غياب مونتولون عن الاحتفال الذي أُقيم في جزيرة القديسة هيلانة عشية نقل الرفات كان من حسن حظه. وتجدر الاشارة الى أن جثمان نابوليون لم يُحنّط، لكنه وضع بعد تشريحه ضمن نعوش أربعة، بينها نعشان

معدنيان٠ ووقف العمال يفتحونها واحداً بعد آخر٠ ولدى فتح النعش الأخير، توقع أعضاء الوفد أن يبصروا هيكلا عظمياً٠

ألا ّ أن جثمان نابوليون كان محفوظاً بالتمام، وبدا صاحبه كأنه نائم٠ وفي تلك السنوات التسع عشرة، كان التغيير الذي طرأ على وجهه أقل كثيراً من ذاك الذي طرأ على وجوه الناظرين اليه٠ أما التفسير الذي أعطاه فورشوفود لتلك المعجزة الظاهرية فكان: الزرنيخ٠ ذلك أنّ الزرنيخ القاتل يحفظ أنسجة الجسم من التلف بعد الوفاة٠ والمتاحف تستخدمه لحفظ البقايا الأثرية لديها٠ وتحلل الجثة البشرية يتم ببطء شديد اذا كان صاحبها عرضة للتسمّم البطيء المزمن بالزرنيخ٠

والنتيجة الأخيرة التي استمدّها فورشوفود كانت أنّ جثة نابوليون نفسها شهدت بصمت على جريمة قتله٠

■ **بن وايدر وديفيد هابغود**



الامس واليوم

يقدر باحثو مختبرات "بل" الامريكية أن عدداً واحداً من صحيفة "نيويورك تايمس" يحوي من المعلومات أكثر مما كان يعرفه شخص من القرن السادس عشر طوال حياته٠

"المختار العلمي"

حذار البطاريات المستعملة!

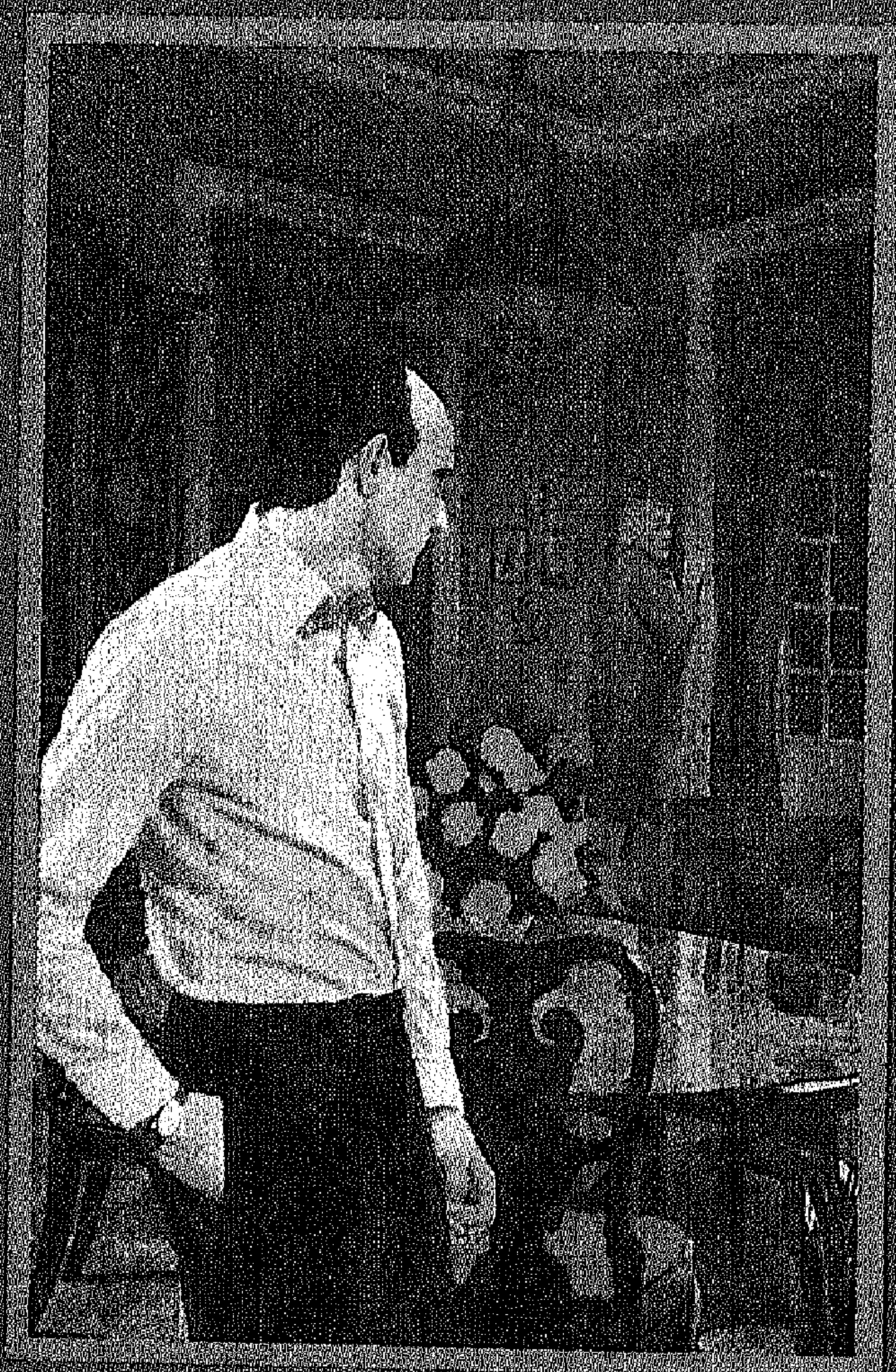
في فرنسا مؤسسة مختصة بالتخلّص من النفايات واعادة استعمالها اذا أمكن٠ وقد حذرت هذه المؤسسة أخيراً من الأخطار الناجمة عن رمي البطاريات الصغيرة التي تستخدم في آلات التصوير وساعات اليد والادوات السمعية وسواها من الآلات الصغيرة٠ وكل من هذه البطاريات يحوي مقدار غرام على الأقل من الزئبق، مما يعني أنّ البطاريات الصغيرة التي تختلط سنوياً بالتراب في فرنسا ـ وعددها عشرة ملايين ـ تخلف عشرة أطنان من الزئبق في الارض٠ ولا يلبث هذا المعدن أن يتسرب من البطارية المستعملة بفعل التأكسد، ويختلط بالماء ويتحوّل عن طريق البكتيريا الى مثيل الزئبق، وهي مادة يُظن أنها تؤدي الى داء "ميناماتا" الخطر٠

وقد باشرت المؤسسة المذكورة تنبيه المعنيين إلى خطورة هذا الأمر، وتزويد المحلات التي تبيع آلات التصوير والساعات وأدوات السمع بعلب تتسع الواحدة منها لستمئة بطارية مستعملة، على أمل ارجاعها الى المؤسسة لاعادة استخدامها٠ كما بوشرت حملة مماثلة بالنسبة الى موازين الحرارة، علماً أن خمسة ملايين منها تتكسر سنوياً في مستشفيات فرنسا وتُرمى، بما فيها من زئبق، في سلال المهملات من دون غطاء٠

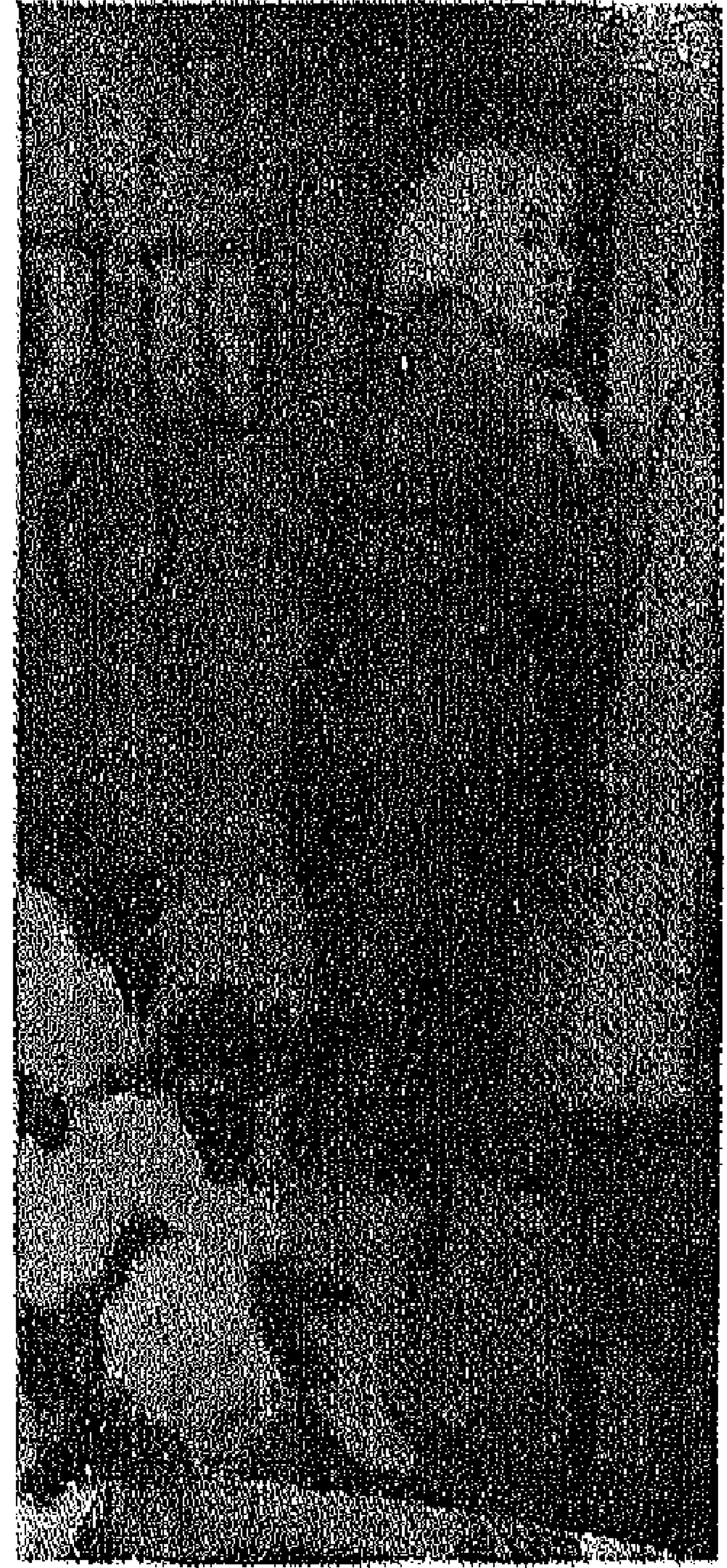
صحيفة "لو فيغارو"، باريس

كتاب الشهر

أمي

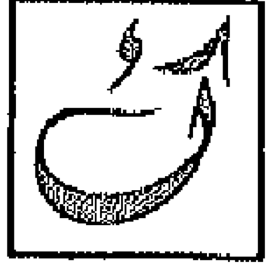


ملخص من كتاب
بقلم هنري ادواردز



"اني سَقَطتُ في الهوة،
لكني صعدتُ منها،
ولن أسقط مرة اخرى."
هذا ما تقوله والدةُ الكاتب أمام أصدقائها ومعارفها. لقد بدأت محنتها بسماع أصوات وهمية تناديها باسمها. وكان لا بد من ادخالها مستشفى للامراض العقلية واخضاعها لأنواع من العلاج.
هذا الكتاب يروي قصة ارتيادها عالماً يقع وراء المعقول، ثم عودتها الى عالم الواقع.
انها قصة ملأى بالمغامرة والألم والشجاعة والمرح والحب وأعمق المشاعر الانسانية.

أمي



كانت الأزمة النفسية التي عَصَفت بأمي صيف ١٩٧٦ مفاجأة مخيفة لنا جميعاً. وكانت مخيلتها في الاشهر الماضية تعمل فوق طاقتها. فبعد قدوم جيران جدد الى البناية وصدور تصرفات غير ودية عنهم، بدأت امي تسمع أصواتاً معادية من شقتهم فضلا عن ضجيج دائم مصدره، كما قالت، آلة خاصة لاصدار الأصوات وضعوها قصداً لازعاجها. لكن أمي أشارت الى تلك المسائل على نحو مَرِح جعلنا نأخذها من دون مبالاة.

ذلك الصيف كانت تغمرني الغبطة. فقد حققت رغبة قديمة اذ امتهنت الكتابة بعدما كنت مدرّساً للغة الانكليزية. ومن الموضوعات التي عالجتُها في كتاباتي نقد الموسيقى الشعبية الحديثة. وكُلفتُ كتابة نص لشريط سينمائي. وبت اقضي عطلات نهاية الاسبوع في جزيرة برمودا، في منزل يخص المخرج روبرت ستيغوود، وأنا أعمل على انهاء النص.

ذات صبيحة من شهر اغسطس (آب) كنتُ جالساً بجانب البركة حين أُخبرتُ أن أبي على خط الهاتف. ولم يكن سام (والدي) معتاداً استعمال الهاتف للمخابرات البعيدة.

و"قرأتُ" في نبراته الذعر الواضح وهو يقول: "أمك تظن أنكَ متَّ. تحدث اليها الآن وقل لها انك بخير وسلامة."

وقالت استير (أمي) بتردد: "آلو."

فأجبتُهما مرتبكاً: "أنا هنري، واني بخير."

ـ كلا! هذا ليس أنت.

وقطعت أمي المخابرة. وانتابني الرعب، فطلبت للحال رقم والديَّ في بروكلين، نيويورك. وأجابني سام، لكني سمعت استير تصرخ فيه: "لا تتكلم اليه." وتحدثت الى والدي مراراً، لكنها كانت تقاطعه كل مرة. وفي المساء خلدت امي الى النوم، فاستطعنا الكلام بهدوء.

بدأت محنة أمي في اليوم السابق اذ خرجت وأبي للتبضُّع. فهي قفزت فجأة عن الرصيف وأخذت تركض وتصيح: "هناك شاحنة هادرة تتبعني بأصواتها المزعجة. ألا تسمع الأصوات تدعوني؟"

ونظر أبي حوله، فلم يرَ أثراً لشاحنة أو لأحد يدعو أستير. وقال لها وقد اختلطت مشاعر الاضطراب والخوف والغضب في ذاته: "ليس هناك من صوت. فالاصوات كلها في داخلك." وحدّقت اليه وهي على قناعة الآن بأنه واحد من ملاحقيها.

وقال سام: "لقد أصابها انهيار عصبي تام. وخلال نومي الليلة الفائتة، قامت وخرجت من المنزل. وعثرتُ عليها تركض في الشوارع وتستنجد بالمارة كي يساعدوها. وأمضيتُ معظم النهار محاولا ابقاءها داخلا. ولم استطع اقناعها باستشارة طبيب. وعليك ان تأتي لتعينني على هذا الأمر."

ـ اني آت في أسرع ما يمكن.

كان والدي معلماً للرياضة البدنية تقاعد قبل سنتين. وبدا، وهو في الثامنة والستين، محافظاً على شبابه وتناسق جسمه وقوته. الا اني، لدى بلوغي المنزل، صُعقتُ لرؤيته مسناً.

ولم تمنعني همومي على أمي من الوقوف باعجاب أمام غرفة الجلوس التي رتّبتها على أحسن حال وهي البارعة في التنسيق، وحملتها رغبتها في جمع الاشياء الجميلة على تزيين المنزل بأكواب على هيئة بشر وبطاقات تهنئة من العصر الفيكتوري وسلع تذكارية قديمة صُنعت في شكل أحذية صغيرة، وبهذا كله حوّلت الفوضى نظاماً فنياً بديعاً، وكانت في الرابعة والستين وقد خلا وجهها من الغضون كما حافظت عيناها العسليتان على بريقهما، وعلى رغم ان شعرها اكتسى لوناً رمادياً، الا أنها تغاضت عن ذلك وراحت تطلي شفتيها بالأحمر آناً وبالمرجاني آناً آخر، ولقد كانت امرأة محبّة وذات معنويات عالية، وكانت هواياتها جمع السلع القديمة واللبس الأنيق والوقوف طويلا أمام واجهات المحلات وتجريب ضروب جديدة من الطبخ وحضور السينما والمسرح.

وأحبها سام من كل قلبه وعاش حياته لارضائها، غير ان التقاعد لم يحمل معه السعادة والراحة اللتين توقعهما والداي طويلا، بل جاء فترة انتقالية مشبعة بالقلق، ومما زاد الطين بلة ان أصدقاء العائلة الذين تقاعدوا أيضاً نقلوا سكنهم الى فلوريدا أو كاليفورنيا، وبعد ٣٨ سنة من الحياة الزوجية، لم يكن لوالديّ أحفاد، وكان عليهما ان يتعلما العيش معاً طوال الوقت، وما انفكت أمي تتذمر قائلة: "انه، كعهده، لا يملك ما يمكن الاعتماد عليه، وماذا يسعنا فعله ونحن في الحضيض؟"

لدى وصولي مساء قال سام ان أمي نائمة، وما أن دخل المطبخ ليحمل اليّ كوباً من الصودا حتى لاحظتُ حركة في زاوية غرفة الطعام، تلك كانت حركة أمي المختبئة هناك، وركضتُ على الفور وطوّقتُها بذراعي، لكنها صرّت أسنانها وشدت قبضتي يديها، وشاهدت في عينيها نظرة قاسية لم أرَها قطّ قبلا، وأجلستها على المقعد وأخذت يدها في يدي.

وهمست والدمعُ يملأ عينيها: "يا له من كابوس."

وفجأة تجمدت أوصالها وقالت: "هل هو في المطبخ؟ عليّ الابتعاد عنه." وهمت نحو الباب، فتبعناها، عندئذ خرّت على ركبتيها وأمسكتني من رجل سروالي وهي تستغيث باكية: "أرجوك ان تأخذني من هذا المكان."

وأعدتها الى المقعد وطوّقتها بذراعي، الا أنها دفعتني بعيداً بقوة غير معهودة.

ولكي نحوّل أفكارها، أحضرنا مجموعات الصور العائلية ورحنا نقلّب صفحاتها بتؤدة، وأظهرت أستير صفاء ذهنياً رائعاً وهي تتذكر تفاصيل دقيقة من حياتنا العائلية، ونظرت الى صورة أخذت لنا عندما كنت في السنة الثالثة من المدرسة الابتدائية، وتذكرت أنها التقطت يوم عدتُ الى البيت باكياً لأن رفقاء الصف سخروا من اسم عائلتي، "كاز." آنذاك قالت لي أمي مازحة: "لا تنسَ ان اسمك الاوسط هو ادوارد، فلماذا لا تدعو نفسك هنري ادواردز بينما يبقى اسمك القانوني هنري كاز؟" ومنذ

ذلك الحين بات اسمي المستعار هنري ادواردز.

في تلك الجلسة كان يغلب الحس الموسيقي على أمي من وقت الى آخر ونحن نقلب الصور، فتغني بصوت مرتفع يطغى عليه المرح:

"ديزي، ديزي،
أعطيني جوابَكِ، اعطي!
أما ترين أني نصف مجنون
من فرط حبي لك؟"

وأخيراً قبلت، على مضض، ان تتناول حبتين من دواء مسكن. ثم تملقها سام للذهاب الى غرفة النوم.

وجلستُ وسام نتحدث، فقال: "الأيام الثلاثة الاخيرة كانت اكثر أيام حياتي رعباً." وانتابنا حس الذنب لتقاعسنا عن طلب النجدة لدى سماعها الأصوات الغريبة. ودخل سام غرفة النوم فيما تمددت أنا على كنبة في الدار آملا ان أغفو.

وفي ظلام الليل سمعت أستير تهمس في اذني: "اني ذاهبة الآن." وما ان اتجهت نحو الباب حتى أشعل سام النور. وانفجرت استير باكية وسقطت الى الارض وجسمها يهتز.

وكان الامر نفسه حدث الليلة الماضية. ولما كان طبيب استير في اجازة، فقد استدعى سام طبيباً من وكالة اسعاف محلية. وخابر الوكالة نفسها، فوصل بعد نصف ساعة طبيب شاب. وأعطى استير حقنة كلوربرومازين، وهو مسكن قوي يُستخدم لمعالجة الاضطراب العقلي. وحاولت أستير النهوض، لكنها كادت ان تنهار عندما أسرعنا الى نجدتها وحملناها الى السرير.

وجلستُ وأبي على أحد مقاعد الدار وقد وضعتُ يدي في يده. وعرفنا نحن الاثنين ان حال استير لا تحتمل الارجاء، وانه ينبغي نقلها الى المستشفى صباحاً.

"بنت حَرام"

استشرت طبيباً نفسياً مرموقاً في الأمر، فنصحني بأخذ أمي الى مستشفى تشلسي (★) الذي وصفه بأنه "أحد أفضل المستشفيات في مدينة نيويورك، بل في الولايات المتحدة كلها، للأمراض النفسية." ولما خابرتُ ذلك المستشفى قيل لي ان العلاج يكلف ٢٥٠ دولاراً يومياً. ومن حسن الحظ ان سام يفيد من تأمين طبي، حكومي وخاص، من شأنه تغطية النفقات جميعاً. وكان علينا استئجار سيارة اسعاف خاصة لان المستشفى لا يتكفل بنقل المَرضى. ولدى بلوغ استير المستشفى، يجب ان توقع بنفسها معاملات دخولها، للبرهان على ان ذلك يتم بارادتها.

ووضع سام يده برفق على كتف استير، فوقفت وهي ترتجف. ولمستُ وجهها بأصابعي ثم أمسكتها بيديها وأنا أخبرها أننا سنأخذها الى المستشفى.

وابتسمت أمي بفرح اذ ادركت انها ستُعْتَق من سجنها. وأخذت تغني.

في العاشرة تماماً وصلت سيارة

(★) أسماء المستشفيات ومراكز العلاج والاطباء والمعالجين والمرضى الآخرين أُبدلت كلها بأسماء مستعارة. كما تمت استعادة بعض الاحاديث من الذاكرة.

لاسعاف. وتبعتنا أستير بحماسة خارج المنزل وهي ترتدي أفضل معطف وأحسن قبعة لديها وتحمل حقيبة يدها المحببة. وأسرعت لسيارة بنا، وأمي لم تنقطع عن الغناء طوال الطريق.

في المستشفى كانت المسؤولة عن استقبال المرضى، السيدة غريفيث، في انتظارنا. وبادرت سام بسؤاله عن سبب ادخال استير المستشفى. ثم نظرت الى أمي وقالت لها بصوت حازم: "الآن، أخبريني أنت عن سبب مجيئك الى المستشفى."

وتقلصت عضلات وجه استير وهي تسعى الى جواب. وما لبثت ان قالت: "أنا بنت حرام. ولقد دخلت المستشفى للحصول على وثيقة ميلاد."

والواقع ان ميلاد استير لم يسجل في حينه بسبب هفوة ارتكبها طبيب متقدم في السن آنذاك. وهي لم تحصل على وثيقة ميلاد الا عند بدئها الدراسة. وما انفك ذووها وأصدقاء العائلة يصفونها بالولادة غير الشرعية.

وأكبّت استير على قسيمة الدخول وكتبت: "أنا بنت حرام." ونظرت الى سام وأخذت تبكي. وقالت له: "ما كان ينبغي ان تتزوج بنت حرام. لقد اخبرتك أن ذلك سوف يجر عليك المتاعب."

ولما سمع سام ذلك اغرورقت عيناه بالدموع. أما أنا فأشحت نظري عنه سريعاً.

وبعد توقيع اسمها قالت امي للسيدة غريفيث: "لم أذكر عائلة زوجي لأني لم أكن زوجة وأماً صالحة." وبعد انهاء المعاملة ابتسمت وقالت للمسؤولة: "اني لا اعرف السعادة الا في المستشفيات. هذه المرة السابعة التي أدخل المستشفى. ولقد كنت سعيدة في المرات السابقة جميعاً."

وصعدنا السلم برفقة ممرض شاب. وما أن خرجنا من المصعد حتى وجدنا أنفسنا قبالة بوابة حديد ضخمة. ووقف حارس يحدّق الينا من ثقب البوابة. ولم يدر في خلدي ان استير ستسجن خلف بوابة مقفلة. ودخلنا الجناح ورأينا في الممر عدداً من المرضى يذرعون المكان وقد غاب التعبير من أعينهم وهم يحدّقون كما الى اللاشيء، وبعضهم يتمتم.

وذهبت وسام الى مركز التمريض في ذلك الجناح بينما كانت استير تفك أمتعتها وتخلع ثيابها بمساعدة ممرضة شابة اسمها روزا. وتولت السيدة ستانتون، مديرة القسم، تعريفنا على طبيب استير، وهو شاب يدعى جوناتان كونراد. وكان المرضى يحيطونه وبعضهم يدعوه باسمه، فيما يحاول آخرون الاقتراب منه ولمسه.

وقال لنا قبل ان ينصرف: "سيكون لنا لقاء."

لكني تبعته لأسأله: "متى؟"

- لا ادري. عليّ أولا ان أدرس حالها. خابرني غداً.

وشاء سام ان يرى استير قبل ان يغادر المكان. وسمعها تغني وهي في سريرها الجديد: "ديزي، ديزي، اعطيني جوابك أعطينيه". ولما قلنا لها "وداعاً" تجاهلتنا.

وتركنا الجناح بعد تدقيق الحارس في هويتينا خوفاً من فرار المرضى. وفي الخارج قال لي سام: "لا أصدق ان هذا يحدث لنا نحن." كذلك لم أصدق أنا.

وفي الصباح التالي خابرني الدكتور كونراد قائلا: "ثمة نبأ مزعج. لقد سقطت امك الليلة الماضية وكُسر رسغ قدمها في ثلاثة مواضع."

وبدا ذلك غريباً. وسألته بغضب: "لماذا لم يعتنوا بها؟ ألم تعرف أننا أدخلناها المستشفى لأنها تغادر المنزل ليلا؟"

– اننا نفعل غاية جهدنا. لكن المرء لا يستطيع التنبوء بما يمكن ان يقدم عليه المرضى العقليون.

وذهبنا الى المستشفى سريعاً، فوجدنا استير مشدودة باحكام الى سريرها وقد وُضعت رجلها في قالب جص من القدم حتى الفخذ. ودعوناها باسمها، فلم تُجب لأنها أعطيت مسكناً قوياً. ولما طبع سام قبلة على جبينها، أخذت تحدّق أمامها وهي لا تفقه شيئاً.

وتبين أن الممرضة المسؤولة لم تكن في الجناح لدى حصول الحادث. كما كان الدكتور كونراد غائباً. ولم يمكن احداً ان يفيدنا. وأخيراً تركنا رسالة للطبيب وانصرفنا. وبدأت أدرك ان أستير، بالنسبة الى المستشفى، ليست أستير، وانما هي مريضة أخرى أو عدد يضاف الى الأعداد السابقة.

عندما بدأت محنة أمي قبل أيام، كانت وأبي يستعدان للانتقال الى شقة جديدة وجَدَاها في سيدرهيرست، نيويورك. وتم تأجير الشقة القديمة وهي في المستشفى، فتعين على أبي ان ينتقل وحده الى المسكن الجديد.

ذلك المساء بدأنا نحزم الأمتعة. وأمضينا الأيام الثلاثة التالية ونحن ننقلها الى البيت الجديد. ولدى تعليق الصورة الأخيرة على الجدار، جلس سام وهو يتساءل عن وقت عودة امي الى المنزل – ان كانت ستعود على الاطلاق – كي تراه.

الصدّمة الكهربائية

لم أعرف ان ما حدث لأمي كان امراً شائعاً. ذلك ان نسبة المتقدمين في السن الذين يعانون أزمات عقلية تراوح بين ١٥ و٢٥ في المئة. وقد قال لي طبيب نفسي خابرتُه من برمودا: "معظم الحالات الحادة تعود الى اضطراب متعلق بالجهاز العصبي. وعندما يتقدم بعضهم في السن، تظهر لديه



أمراض مزمنة كالتهاب المفاصل. وتظهر لدى بعضهم أمراض في الدماغ تستحيل معالجتها معظم الأحيان، فيما تتضاءل قدرتهم على مواجهة المتطلبات اليومية."

وكرر الدكتور كونراد هذا الرأي عندما عثرتُ عليه أخيراً في المستشفى. وأضاف ان عليه أولا معرفة ما اذا كان مرض أمي عضوياً (جسدياً) أو وظيفياً (ذهنياً أو نفسياً). وقبل ان يسرع في طريقه، قال: "علينا ان نُجري فحوصاً كثيرة لهذه الغاية، وهي تأخذ وقتاً. وبعد حصولي على تقرير كامل للفحوص الجسدية، أُصدِرُ قراري وأحيطك علماً به."

وجلستُ في غرفة أستير بعضاً من الوقت وأنا أنظر اليها تحدّق الى اللاشيء. وفي طريقي الى غرفة الاستراحة صادفتُ الممرضة روزا وسألتها أن تخبرني كيف كسرت أمي رسغها. فقالت: "كانت تذرع الممر وتتنصت الى الجدران عندما زلت قدمها. والغريب في الأمر أنها لم تحس أي ألم ولم تصرخ."

وأضافت روزا ان أستير كانت أُعطيت حقنة كبيرة من الكلوربرومازين. وتذكرتُ كيف أن الجرعة الصغيرة من هذا العقار أفقدتها الوعي ذلك المساء وهي في المنزل. وخامرني الشك. أيعقل ان تكون أستير أعطيت جرعة كبيرة من المسكّن وتُركت من غير مراقبة؟ وحاولت طرد شكوكي واقناع نفسي بأن أمي في أيد أمينة. وأقصيتُ عن ذهني فكرة رداءة المستشفى، على رغم انه كان مكاناً غير ودي على الاطلاق.

أما أستير فكان ذهنها مضطرباً أكثر من أي وقت مضى، ولم تعرف أين هي أو لماذا هي هناك. وغالباً ما كان الدكتور كونراد يطرح عليها أسئلة كالآتية: "أين أنت الآن؟ في أيّ يوم من الاسبوع نحن؟ كم هو عمرك؟ ما اسم رئيس الولايات المتحدة؟"

وكانت أستير تمقته وتكره الاجابة عن اسئلته. وكنا، أنا وسام، نزورها يومياً ونحمل اليها المجلات والحلوى وأدوات الزينة التي كانت تتجاهلها كلها. وكانت عادة تأمرنا بأن نترك الغرفة أو تتظاهر بالنوم.

وتساءلت عن سبب تكبيلها بالسرير. وحين قلنا لها ان ذلك كان بسبب الكسور في رسغها رمتنا بالكذب وقالت انها تبغضنا نحن الاثنين. وخُيل اليها أن ثمة دافعاً يجعلنا نكذب عليها، فنستر عنها حقيقة اصابتها بالسرطان ووشوك اجراء جراحة لها.

وبعد ثلاثة أسابيع استدعانا الدكتور كونراد قائلا ان الفحوص التي خضعت لها استير، بما فيها تخطيط الرأس واختبارات الاشعة، أظهرت أنها في وضع طبيعي اجمالا. وهذا يشير الى ان مرضها عقلي أو نفسي وليس جسدياً. لكن هذا لا يعني غياب الاضطرابات الجسدية تماماً. فالنوعان من الاختلال يترافقان.

وكان كونراد يعالجها بعقار اسمه هالوبيريدول. وهذا أزال كثيراً من

اضطرابها الذهني، وان يكن خلّف لديها انحطاطاً جسدياً شديداً. وأضاف كونراد: "ينبغي الآن ان نكتشف سبب هذا الانحطاط الجسدي عبر معالجتها." وخاطبني قائلا: "علينا ان نبدأ، انا وأبوك وأمك، سلسلة لقاءات عائلية اسبوعية لمساعدة والدتك على ادراك المسائل التي تجعلها تعاني ما تعانيه."

وأجبتُه أنني أشك في جدوى الاجتماع مرة واحدة في الاسبوع. وتنهد كونراد ونظر كمن أصابه ارهاق شديد.

وتابع: "ان أمك مبتلية بداء لا يقل عن السرطان خطراً وخبثاً. والتصدي لهذا الداء يستغرق وقتاً. انه مسألة يومية علينا، في نهايتها، ان نجد العلاج الناجع."

وخاطب سام قائلا: "سنبدأ لقاءاتنا بعد اسبوع." ثم تناول أوراقه بسرعة وهرّع نحو الباب.

وتوالت الأيام من غير نتيجة مجدية، الى ان سألني كونراد أن أحضر لقاء يغيب عنه سام.

وبادرني قائلا: "ان حال أمك تسوء باطراد، مما لا يساعدها على بدء العلاج. واذا بقيت هكذا خلال الاسبوع المقبل، فأرجو الحصول على اذنك لاجراء علاج كهربائي لها."

وأكد لي كونراد أن الصدمة الكهربائية ستجرى تحت أثر المخدّر، وأن أمي لن تتذكر شيئاً من ذلك. وأضاف ان هذا النوع من العلاج يؤتي ثماره لدى ٨٠ الى ٩٠ في المئة من المرضى. وراح يصف الحسنات والسيئات. ولكن بدا لي ان الصدمة الكهربائية لا يجوز اعطاؤها الا بعد افلاس جميع الوسائل الأخرى. وقلت للطبيب: "آسف، اذ لا تمكنني الموافقة على اقتراحك في هذه الظروف."

وهنا تدخلت مارغريت كار، وهي مرشدة اجتماعية مسؤولة عن أمي، بقولها: "اذا لم تسمح لنا بالعلاج الكهربائي، فلا بُد من ارسال والدتك الى دار للعواجز."

وقاطعتُها: "لا أظن أن الاقامة الدائمة في دار العواجز هي العلاج الملائم لأمي."

الا ان الآنسة كار تابعت كأنها لم تسمع ما قُلتُ: "اذا بقيت أمك على حالها، مشلولة في سريرها وسط انحطاط جسدي بالغ، فلا سبيل الى ابلالها واطلاقها. ولا بد، والحال هذه، من ان تضطر أنت ووالدك الى ملازمتها طوال النهار والليل. وسوف تدركان، في المدى الطويل، أنه كان أجدى وضعها في المكان الملائم حيث تنال العناية اللازمة، ولكن من غير ان يعود وضعها كما كان لأن هذا مستحيل."

ونهضتُ وقطعتُ الممر الى غرفة استير. ودخلتُ عليها قائلا: "أنا هنري." وشددتُ يدها. أما هي فقبعت هناك دونما حراك ولم تتفوه بكلمة. ووددت ان أهزها بعنف علها تصحو وترجع كما كانت.

ولما أخبرتُ سام ذلك المساء ما حصل، قال: "هذا مستحيل، لا يمكن ان نرضخ لما يقولون."

وبعد تأمل قصير، قال: "أتعرف ماذا؟ عوضاً عن ارسالها الى دار

العواجز، سأعود بها الى البيت. عليّ أن أحاول ذلك."

- اذا كان هذا ما تريده حقاً، فيا لها من فكرة رائعة. وكن على ثقة من تأييدي لما تقول.

وهكذا تمّ اتفاقنا على رفض العلاج بالصدمة الكهربائية. ووضعنا حداً أقصى لبقاء امي في مستشفى تشلسي: فان لم تتحسن حالها بعد شهرين، علينا تأمين مكان آخر وعلاج آخر من شأنه ان يُجدي.

خوف وخيبة

بعد أربعة أسابيع أُبدل قالب الجصّ الكبير في رجل أمي بقالب أصغر. وكانت الممرضات يأخذنها مرتين يومياً للمشي في الممر. وفي الأسبوع الخامس أصبح في امكانها المشاركة مع سام في الاجتماع العائلي الأول.

وقال لها الدكتور كونراد: "اذا عرفنا مشاكلكِ، ففي امكاننا ابتكار طرق لجعل حياتك أسهل وأبهج. أخبريني الآن، يا أستير، ما الذي يزعجك؟"

وفتحت امي عينيها على سعتهما وهي لا تقول شيئاً. وألحّ عليها الطبيب أن تتكلم، فقالت: "انهم يرفضون تزويد سريري بوعاء تبويل."

وسألها كونراد: "وماذا غير ذلك؟ هل أزعجكِ سام حين صرخ في وجهك؟"

ولم تقل شيئاً، فعاد يسألها: "هل ضايقك بعد تقاعُده؟"

وهزّت أستير رأسها على مهل. وأخيراً قالت: "أريد العودة الى السرير." وأغمضت عينيها. وبعد ثوان نامت في مقعدها النقال.

وخلال الاسبوع اللاحق جاءتها هنيهات من صفاء الذهن، لكنها لم تدم طويلا. وظلت تلازم سريرها ساعات طويلة من غير ان تظهر رغبة في شيء مما يحدث حولها.

وذات يوم فقدت طبعها الهادىء وأخذت تصيح وغرزت اظفارها في يد احدى الممرضات. وبللت الفراش وأخذت تتذمر بلا انقطاع لأنهم لم يعطوها وعاء التبويل الذي طلبته. الا أن الممرضات أنكرن رفض طلبها.

وفي اللقاء العائلي الثالث بدأت أستير تتكلم. ولما سألها كونراد عن أسباب انزعاجها، قالت انها كانت تخاف نفاد مدّخرات سام وحاجتهما الى المال. وطرح عليها السؤال مرة اخرى، فقالت انها كانت تخشى انتقالهما الى شقة جديدة. لكنها صمتت بعد السؤال الثالث.

وأخيراً قالت من غير تفكير: "لقد فقدتُ وزناً كثيراً. فأنا مصابة بالسرطان وليس في مقدوري فعل شيء سوى الانتظار في هذا السرير."

وفجأة وقفت وأضافت: "ان سام لن يتبدّل. فهو لا ينفك يغلق الابواب بقوة كلما ضايقه شيء. انه لن يتحملني البتة."

وغادرت غرفة الاجتماع وهي تتهادى نحو غرفتها. وهناك صعدت الى السرير. وتبعها سام، لكنها رفضت التحدث اليه.

وبعدما أمضت استير ثمانية أسابيع في المستشفى، شاركت

خلالها في أربعة لقاءات، فقدت هدوءها وباتت لا تقوى على الجلوس. وأوضح كونراد أن ذلك من أعراض مرضها وأنه قد يتلاشى مع الوقت.

وبينما هي تذرع المكان سألها الطبيب: "ما رأيك في تمضية نهار في منزلك؟" ونظرت اليه استير نظرة شك وسألت بحدة: "متى؟"

ـ الأربعاء، أي بعد غد. سيأخذك زوجك في العاشرة ويعيدك قبل العشاء.

ثم قال الطبيب على مسمع سام ومسمعي: "اذا سار كل شيء كما يرام يوم الأربعاء، ففي امكانها الذهاب الى البيت في نهاية الاسبوع أيضاً. وبعد أسبوع من ذلك التاريخ، يمكن ان تغادر المستشفى. وسوف نحيلكما على وكالة محلية للمساعدة. وفي امكانكما استقدام ممرضة بيتية.

"لقد وصفتُ لها جرعة وقائية من الهالوبيريدول لابعاد الأخيلة عن رأسها. وليس لدينا ما نستطيعه فوق ذلك في هذا المكان."

كانت استير تنتظرنا لدى وصولنا الأربعاء. وكانت ممرضة أعانتها على تصفيف شعرها وتجميل وجهها. الا ان شيئاً لم يكن ليخفي تلك النظرة الزجاجية التي لازمتها منذ اليوم الأول لتناولها العقاقير.

وانطلقنا في السيارة الى سيدرهيرست. وهناك ساعدها سام على النزول وقادها الى البناية ثم فتح باب الشقة. وكان نسق قطع الأثاث وجميع مقتنيات أستير المحببة كما كانت في البيت السابق. وكان أثر ذلك عظيماً في نفسها.

وقالت بهدوء والدمع يملأ عينيها: "هذا جميل."

وجلسنا بينما وقف سام يحضر القهوة. ولاحظتُ أن يدي أستير ترتجفان، كذلك عنقها وان على نحو اقل، وكانت من وقت الى آخر تنهض وتذرع الغرفة وهي غير قادرة على تركيز أفكارها أو الهدوء في مكانها.

وقالت: "لنذهب ونتنزه."

وقادنا سام وسط الحي التجاري. لكن استير التي طالما اغراها الوقوف أمام النوافذ لم تُبدِ اكتراثاً لأي من المحلات. ومن الطبيعي ان تكون حركتها الدائمة سببت لها ارهاقاً. وأخيراً أعلنت أنها جائعة. وفيما نحن ننتظر تقديم الطعام في أقرب مطعم مررنا به، وقفت وأخذت تذرع المكان. وحدّق الناس اليها ثم راحوا يتهامسون.

وعندما قُدّم الطعام كانت يدا استير ترتجفان بحيث اضطر سام الى تقطيعه لها. وتناولت بضع لقمات ثم دفعت الصحن وباشرت ذرع المكان. وبعد ذلك عادت لتطلب قطعة حلوى كبيرة سرعان ما التهمتها.

وعدنا الى المنزل حيث استأنفت استير حركتها حول المكان. وفجأة قالت: "أظن ان الوقت حان كي نعود." ويبدو ان حريتها أخافتها، فشاءت الرجوع الى القيد. وذلك اقلق سام كثيراً.

وخابرتني أستير ذلك المساء وقالت: "لقد أمضيتُ نهاية اسبوع ممتعة في منزلي."

ـ لكنه الأربعاء. واليوم الذي تقصدينه يأتي بعد غد.

"اني لن أذهب، فأنا خائفة، والحق ان ثمة خطأ في الأمر، وان أحداً لم يفعل شيئاً لمساعدتي."

"ان حالي تسوء"

تمت زيارة نهاية الاسبوع كما كان مقرراً، بحيث أمضت استير الوقت كله مع سام بناء على مشورة الطبيب. الا انها كانت مضطربة ودائمة الحراك كسابق عهدها. وما أن عادت الى المستشفى حتى غطت في نوم عميق. وبدا عليها الارهاق أكثر من أي وقت مضى، الأمر الذي استدعى ابقاءها في المستشفى مدة أطول.

وانقضى أسبوع وهي لا تقوى الا على التلوي في سريرها كمن أصابته حمى قوية. وجلس سام على السرير بجانبها. ونهضت فجأة وصاحت فيه: "أنت لا تحبني."

وقال سام: "هذا ليس صحيحاً."

عندئذ انفجرت أستير غاضبة: "اخرج من هنا! اني لا أريد ان أرى بجانبي شخصاً يسعى الى التخلص مني." وبدت منفعلة الى حد جعل سام يرضخ لطلبها.

وفي وقت متقدم من عصر ذلك اليوم ظهرت أستير في غرفة الممرضات والدمع يسيل فوق خديها. وهناك ذكرت ما قالته لزوجها.

وأجابتها روزا: "لماذا لا تخابرينه وتعتذرين؟" وأخذتها الى الهاتف وطلبت لها الرقم لأن ارتعاش يديها منعها من ذلك.

واذ سمعت زوجها على الخط الآخر، قالت أمي: "أنا أستير. اني متأسفة. لقد كنتُ على خطأ حين قلتُ انك تسعى الى التخلص مني. أعرف أن ذلك ليس صحيحاً. أتقبل اعتذاري؟"

ـ أجل. اني أحبك.

"أنا أحبك كذلك."

ـ لكم يسعدني انكِ ستأتين الى البيت.

"هذا يُسعدني كثيراً."

قالت أستير ذلك وأنهت مخابرتها، ثم نظرت الى روزا وقالت: "انه يحبني."

وبعد أربعة أيام أُخرجت من المستشفى.

ومع عودة استير الى البيت واستقرارها هناك، وجدتُ أنْ في امكاني العودة الى لوس أنجلس لوضع اللمسات الاخيرة على نص "سارجنت بيبر." ومن هناك كنتُ أخابر سام لا أقل من أربع مرات يومياً. ويبدو ان حال أمي الجسدية لم تتحسن. وكان عليه ان يساعدها في غسل وجهها وارتداء ملابسها. ولدى مواجهتها أقل صعوبة، كانت تلوذ بالسرير.

وفي عيد الشكر طرتُ الى منزلنا لتمضية تلك الأيام من أواخر نوفمبر (تشرين الثاني) بالقرب من والديّ. وعندما خرجت أستير من غرفة نومها، وجدتُ أن الرعشة ازدادت في يديها، بل انتشرت في جسمها كله. وقالت لي: "ان حالي ليست حسنة اطلاقاً."

وحين خرج سام ليشتري طعاماً جاهزاً للعشاء، جلستُ وإياها الى طاولة الطعام. وأمسكتها من يديها، فاذا بهما يابستان. وقالت: "ان حالي تسوء. ماذا أفعل لو مات أبوك قبلي؟"

وأجبتها برفق: "سأكون أنا هنا وأعتني بكِ."

- يؤسفني أن أكون مريضة الى هذا الحد. لكن مرضي النفسي القاهر ليس في يدي.

وعندئذ وقفت وراحت تذرع الغرفة على نحو دائري. وعرفتُ أنه ليس في امكانها وقف ذلك الحراك. ولكن يجب وضع حد للمسألة سريعاً، اذ لا يمكن لأي منا أن يحتمل هذا الامر طويلا.

وعاد سام ووضع الطعام على الطاولة التي جُهّزت بأفضل آنية وأجمل غطاء. ورفعت أستير الشوكة والسكين، ولكنها ما لبثت ان أعادتهما الى الطاولة لارتجاف يديها. ويبدو ان ذلك زادها غيظاً، فوقفت في مكانها وقالت: "ماذا سيحدث لي اذا مت قبلي؟"

وأوقفنا أكلنا. وأحضر سام صندوقاً مليئاً بالأوراق ووضع محتوياته على الطاولة أمامه. وراح يقرأ وصيته وصكوك التأمين وما يتعلق بمراسم الدفن، وأرانا أسهمه في الشركات وعوائد الشيخوخة الحكومية ونظام التقاعد. وكان كلما عرض وثيقة، شرح القوانين المتعلقة بها.

ونظرت أستير اليّ وقالت: "عِدني ان تعتني بي اذا حصل اي سوء لوالدك." ولما وعدتها تابعت: "هذا لن يكون بالأمر السهل. فليس في وسعي ارتداء ثيابي أو نزعها. ولا يمكنني أن أتذكر شيئاً. ان حالي سيئة. انظر الى يدي. لماذا ترتجفان هكذا؟ ما العلة بي؟"

وكانت ادارة مستشفى تشلسي نصحت سام باستشارة مركز مابل هيل للأمراض العقلية، وهو قريب من سكن والديّ، اذا اقتضى الأمر. واذ وجد أن أمي لم تستعد ذاكرتها، أخذ موعداً لمقابلة مدير المركز الدكتور بنجامين سدهالتر. وطرتُ لحضور المقابلة.

وأحببتُ سدهالتر على الفور، وهو شخص حساس شرح قضية أستير بلغة أمكننا أن نفهمها. وبعد اجتماعه بأمي على انفراد سألنا أن ننضم اليهما. وقال لأبي: "ان بعض أعراض زوجتك الحالية ليس نتيجة لاضطراب عقلي، بل نتيجة جانبية لعقار الهالوبيريدول." ثم قال لأمي: "أظن ان هذا الدواء هو سبب الارتجاف والحركة الدائمة. والكثير منه يؤدي الى تغشية البصر وسرعة التأثر والارهاق الجسدي. كم من الوقت تناولتِ هذا الدواء؟"

وأجاب سام: "لقد اخذته طوال اثني عشر اسبوعاً، أمضت عشرة منها في المستشفى."

ونظر سدهالتر الى استير وقال: "عليّ أولا سحب الملف الخاص بكِ من مستشفى تشلسي. لكني على يقين من أن العلاج الجديد سيكون مفيداً."

شارع في عزّ الظهيرة

أظهرت الاوراق التي أرسلتها ادارة تشلسي أن الأطباء هناك، خلافاً لما قالوه لنا، كانوا على قناعة بأن مرض استير جسدي أولا. ودعانا الدكتور سدهالتر الى اجتماع وقال: "لن نعطيها الهالوبيريدول بعد اليوم.

وينبغي أن نعيد وضعها الجسدي الى ما كان قبل تناول العقاقير لتشخيص المرض من جديد."

وذعر سام لدى سماعه هذا الكلام. وتذكر مغادرة أستير البيت ليلا والصعوبات التي عاناها لابقاء عينه عليها. لكن الدكتور سدهالتر أخبره أن الرعشة في يديها، مع الأعراض الاخرى، قد تصبح دائمة اذا هي ثابرت على تناول ذلك الدواء.

والواقع ان أستير استعادت بعضاً من نشاطها ومعنوياتها. وبعد اسبوعين فارقها الارتجاف، ولكن عاودها الانحطاط الجسدي وعادت تسمع أصواتاً وهمية وطرقاً على الباب. ووصف لها سدهالتر جرعات قليلة من الكلوربرومازين، الا أن ذلك لم يكن ناجعاً. وقرر الطبيب، على مضض، أنه يجب ادخالها مستشفى من شأنه تأمين مراقبة دائمة لاكتشاف العلاج الفعّال:

"سنبدأ باعطائها جرعات خفيفة من عقّار اسمه اميتريبتيلين، وهو مزيل للارهاق ومسكّن في آن، وقد برهن عن فعاليته في حالات كثيرة. وازالة الاعراض في الغالب تعني عودة الذهن الى حاله الطبيعية.

"وعلى رغم ضآلة الجرعات التي سنعطيها اياها، الا ان العقار قوي. ونظراً الى أن السيدة كاز تعاني الربو وارتفاع ضغط الدم، فمن الأفضل ان تتم معالجتها في مستشفى حيث تكون محاطة بجميع التسهيلات الضرورية."

أما انا وأبي فكنا نشك في جدوى المستشفيات نظراً الى خبرتنا في تشلسي. واذ أعربنا عن رأينا قال الدكتور سدهالتر:

"إن تشلسي مستشفى تعليمي يدرّب الأطباء على طريقة التحليل النفسي. الا ان هذه الطريقة لا تلائم بالضرورة بعض المرضى المتقدمين في السن. أما أمك فتحتاج الى طبيب نفسي مختص بالمسنين من ناحيتي العلاج والدواء."

وتجدر الاشارة الى أن مستشفى مابل هيل في نيويورك، حيث يعمل الدكتور سدهالتر، هو من أبرز المؤسسات الطبية في المدينة. وقد اضاف الطبيب:

"هناك ستوضع امك في قسم يعمل وفق طريقة علاجية تعتبر المريض كفرد، وكواحد من جماعة. لذلك نجمع المرضى والممرضين كلهم في جلسات علاجية خلال ساعة أو اثنتين اسبوعياً. وفي تلك اللقاءات نصغي الى اقتراحات المرضى كما لو كانوا هم الأطباء. وأظن ان وضع والدتك سيتحسن هناك."

وفي صباح اليوم المحدد لذهابها، فضّلت أستير البقاء في البيت وأخذت تبكي وتقول: "أنتم الاثنين تريدان التخلص مني وارسالي بعيداً. فهذه هي طريقتكما في التخلي عني نهائياً."

وقلتُ لها: "ان ادخالك المستشفى يكسر قلوبنا نحن الثلاثة جميعاً. ولكن ينبغي ان تذهبي."

وحملتُ حقائبها وشققتُ الطريق خارجاً. وفي السيارة سرّحت آستير أنظارها في البعيد، رافضة أن تنظر الى سام أو اليّ.

وعندما رأينا بوابة الحديد الموصدة في احدى طبقات المستشفى العليا، أيقنت أن هذا المكان لن يكون خيراً من تشلسي. غير أن المرضى داخل الجناح كانوا يمشون في الممرات، وكان بعضهم جالساً أمام جهاز راديو وأحدهم يعزف الغيتار وآخرون يغنون. وبدا المكان مثل شارع في عز الظهيرة، يعج بالحركات والأصوات. وهو كان ممتلئاً بأناس من مختلف الأعمار والأعراق. وكان الصوت والحركة كبيرين، لكنني لاحظت الاطباء والممرضات يطوفون بين المرضى على نحو طبيعي.

المريضة المعجزة

كانت غرفة استير شبه الخصوصية تحوي أربعة أسرّة. وأخذ سام يفرغ الحقائب وهي تنظر الى الخارج. ولاحظت هناك، في الردهة، عازف الغيتار وفتاة سوداء في الخامسة عشرة على بعض خشونة في المظهر وشاباً أكبر منها يتخلل رأسه شعر أشقر. وعادت امي الى الغرفة لتقول: "لا أريد البقاء هنا."

أما أنا فقلت لأبي: "أظن أنه يحسن بنا أن ننصرف."

وتبعتنا أستير الى الردهة وهي تصرخ: "لا، لن أبقى هنا. أرجوكما أن تأخذاني الى البيت."

ووصلنا الى الباب، وفتح لنا الحارس. لكن أستير ما انفكت تستغيث قائلة: "خذاني الى البيت." وسمعنا بكاءها عندما أغلق الحارس الباب.

وقال لي سام: "ان الأمر يتفاقم ومهما فعلنا، فالمسألة تزداد سوءاً."

وكلما زرت أستير خلال الأسبوع الاول، كنت أراها أقل هيجاناً. لكنها ظلت منطوية على نفسها. وبدأ مزاجها يتحسن في الاسبوع الثاني. غير أن شيئاً لم يمهد للمخابرة الهاتفية التي تلقيتها آخر ذلك الاسبوع.

"لقد استعادت نفسها القديمة،" قال سام بحبور، "كما طلت وجهها بالمساحيق وصففت شعرها. وهي لا تزرع الغرفة الآن، بل تتذكر الماضي. أجل، ان أستير عادت الينا من عالمها الآخر."

وهرعت الى مابل هيل حيث رأيت أستير تجلس بهدوء في مقعدها وهي تطالع مجلة. وبادرتني بقولها: "أهلا يا حبيبي،" وطبعت قبلة على خدي.

ولبرهة ظننتني أحلم. وسألتها: "كيف حالك؟"

- جيدة جداً. هذا مستشفى رائع، قابلت فيه أناساً طيبين أخبروني قصصاً شائقة. ولكن ماذا عن قصتك أنت؟ متى تذهب الى لوس أنجلس بخصوص الشريط الذي تعمل عليه؟

وأدهشني حديثها المنطقي، وقلت: "في آخر الشهر."

وأجابت وهي تطفح سروراً: "انني فخورة بك."

وبعد قليل أضافت: "لا أتذكر سوى القليل عن مستشفى تشلسي وعن عودتي الى البيت قبل مجيئي الى هنا. غير أني لست أذكر شيئاً عما حصل قبل ذلك. ويُخيّل اليّ أنّ سنة كاملة من حياتي باتت طيّ النسيان."

وقال لها الطبيب المشرف على الجناح، الدكتور موريس بول: "أما شرحتُ لكِ أن هذا ليس امراً غريباً بالنسبة الى مرضك؟ وكلما تحسنت حالك ستستعيدين ذاكرتكِ اكثر."

وتابعت: "لكن هذا غريب. أعرف ان ثمة أناساً ظنوا أني سأصبح معاقة مدى الحياة. الا اني طوال ذلك الوقت كنتُ مقتنعة بغير ذلك، كما كنتُ أدري جيداً أن ابني وزوجي يترّيان ما أراه. أليس جميلا ان يثق بك محبوك؟"

وهزّ بول رأسه ايجاباً.

ومدّت أستير يدها اليّ وقالت: "دعنا نذهب في نزهة. فأنا أريد ان تقابل أصدقائي الجدد."

بين شركاء استير في الغرفة كانت فتاة في التاسعة عشرة اسمها مارلين كارتر، وهي مصابة بالمخاوف والأوهام. وقد دخلت مستشفيات عقلية كثيرة منذ حداثتها. وأينما ذهبت لاحقتها الوحشة



والمتاعب والهواجس. وبقيت ترتدي كنزات الصوف واحدة فوق اخرى لأن الشعور بالبرد لا يبارحها. ولم تكن تكف عن الكلام، مما دفع المرضى الآخرين الى تجنّبها. لكن أستير رأت ذلك خطأ وقررت ان تدير أذناً صاغية الى مارلين.

وكانت الفتاة تستهل كلامها بالآتي: "عندما أغادر هذا المكان أراهن على أني سأكون مثل أي شخص آخر. وسوف احصل بلا ريب على وظيفة. ومن يدري؟ فقد أجد صديقاً أيضاً."

وتصمت الفتاة لتتنفس، فتقول لها أستير: "لو كنتُ صبية اليوم، لعقدت العزم على ما أريده. أجل، لكنتُ دخلتُ المدرسة لتعلم الديكور الداخلي لأني أهوى ترتيب قطع الأثاث واضافة أشياء تلائمها. ولكن في صباي لم اكن افكر الا في الزواج. أما أنتِ فصغيرة، ولديك حلم. ومن المهم جداً أن يكون لدى المرء حلم. فهذا يعني أنّ لديه طريقاً لتحقيقه."

وتجيبها مارلين: "كلما تحدّثت اليك أحسستُ أني أفضل حالا."

وكانت لأمي شريكة اخرى في الغرفة هي نيل دوفال. هذه كانت في أواسط العشرينات وتعاني فقداناً للشهية وارهاقاً جسدياً. وفي الوقت نفسه، كانت يداها ترتجفان على غرار استير. وكان العديد من المرضى يزعجونها باستمرار. وقالت استير للجميع: "ان نيل رائعة حقاً. فهي أصغر مني سناً وأضعف جسماً وأقوى مرضاً، غير ان اليأس لا يعرف اليها

سبيلا." وأعطيت نيل لقب "المريضة المعجزة،" وهو لقب لم يفارقها.

وذات يوم وجدت أستير ان شريكة اخرى أدخلت الغرفة، وهي كارين بيشوب. وقد رأتها مضطجعة على السرير وهي تبكي، فقالت لها: "لا يجوز أن تضطربي هكذا. فهذا المستشفى مكان جميل حقاً."

- انها المرة الخامسة أدخل مستشفى. ولم يتحسن وضعي ابداً. ثمة شيء في داخلي يحملني على الانتحار. ولقد حاولت ثلاثاً وأخفقت فيها جميعاً. فأنا عاجزة حتى عن هذا الأمر.

قالت امي: "أنا هنا بسبب ذاكرتي. فليس في امكاني أن أتذكر اسم رئيس الولايات المتحدة أسمعت عن بلد تسجنين فيه ما لم تتذكري اسم رئيسه؟"

ولم تستطع كارين ان تتمالك نفسها عن الضحك. وضحكت أستير كذلك. وأخذت يد كارين وقالت: "تعالي لنأخذ طعاماً خفيفاً. الطعام الخفيف يحسن حالي على الدوام."

والواقع ان العلاج الجماعي أبقى استير منشغلة طوال الوقت. وهي شاركت في ثلاثة لقاءات اسبوعية مخصصة لبحث مشاكل المرضى النفسية. وشُجّع الجميع - المرضى والموظفون - على تقديم آرائهم ومقترحاتهم. وعُقد لقاء اسبوعي رابع لبحث مشاكل المرضى الاجتماعية. وانضمت استير الى اجتماعات اخرى بحسب السن والجنس ونوع المرض. وكان ذلك يحصل مرتين اسبوعياً.

وهكذا عجّ المستشفى باللقاءات التي كانت تنتج منها ضروب المعالجة بالعمل والتسلية فضلا عن الدواء. وكان المرضى والموظفون يتغدون معاً كلّ يوم ثلثاء. كما كانت تعرض افلام سينمائية مساء كل جمعة، وتقام حفلة عصر الأحد يُدعى اليها الأهل والأصحاب.

وعلى رغم هذا التقدم الهائل الا ان أستير بقيت تعاني بعضاً من فقد الذاكرة. وقالت: "أخشى ألا يخرجوني من هنا لأني لا أحفظ رقم هاتفنا الجديد وعنوان المنزل وأموراً اخرى لا أستطيع تذكّرها."

وقررت شريكاتها في الغرفة كتابة الأجوبة وفحصها فيها من وقت الى آخر طوال الأسبوع.

وفي الخامسة بعد ظهر يوم جمعة استعدّت أستير لمقابلة الدكتور بول. لكنها رجعت مكتئبة وهي تقول: "اللحظة التي دخلت مكتبه نسيت كل شيء."

في الخزانة

إن أصعب المرضى في ذلك الجناح كان بول بنسكي. وهو شاب مسعور، طويل الشعر، يتوهم أنه من عظام نجوم الروك. وكان يعزف الغيتار دونما انقطاع، مع اغنيات من تأليفه ينقصها الجرس الموسيقي وتدور على حرب النجوم وجرائم محطات القطار والعزوبية والغرام وأمور اخرى. وكانت كلّ اغنية تدوم نحواً من عشرين دقيقة. أما حال بنسكي النفسية فكانت مزيجاً من الهوس والكآبة. وهو كان أحياناً ينزع الى

الانتحار، وأحياناً اخرى تبلغ هجوميّته حدّ العنف. وطالما أعلن أن علاجه الوحيد هو الاستماع الى بوب ديلان نفسه يغني.

وكان بنسكي في حضور الرجال يثير مناقشات تؤدي الى المشادة اليدوية. أما الفتيات فكنّ يَمْقُتْنَه لاسماعهن بذيء الكلام ومحاولته إمساكهن بقوة كلما تَسَنّى له ذلك. غير أن أستير، من جهتها، كانت تظن أنه "يحتاج الى من يكترث له." واذا شاء مقابلة بوب ديلان، فينبغي أن يقابله.

ومرة قالت له: "اسمع يا بول! إنّ ابني يعمل ناقداً لموسيقى الروك. وهو قابل فرقة رولينغ ستونز، فضلا عن ليد زيبيلين والتون جون. ويحسن بك أن تعزف الغيتار أمامه. فهو يعرف عدداً كبيراً من الاشخاص النافذين."

وما أن سمع بنسكي تلك الاسماء حتى تفوه بكلام سفيه وقال: "إني أفضل من اولئك مجتمعين."

وأجابته أستير: "إني لا أعرف شيئاً عنهم. والوحيد الذي أحبه بينهم هو أليس كوبر، لانني أعتبره ذا مستوى."

وسألها بنسكي وهو لا يصدق اقتراحها: "أصحيح أن ابنك سيُصْغي إليّ؟"

- وكيف له أن يرفض طلب ام مضطربة عقلياً؟

بعد ذلك مشى بنسكي الى غرفته وأوصد الباب وراءه. وسرعان ما سمعته أستير يغني. وللحال أدركت أن كلامها لم يبقَ بلا أثر.

وخابرتني امي لتخبرني ما حصل ووعَدْتُها بتحقيق طلبها.

ووصلت الى مابل هيل في الوقت المحدد. وابتسمت استير بفرح اذ شاهدتني هناك. وكان بنسكي ارتدى سروالا مكوياً وقميصاً نظيفاً. وكان شعره مغسولا وممشطاً ووجهه حليقاً. وأمضى أياماً ولیالي يتمرن على أغانيه.

وتناول غيتاره وباشر العزف. وكانت اثنتان من اغنياته رديئتين. أما الثالثة فكانت معقولة. وفرغ من وصلته بعد ساعة وراح يحدق إليّ. وقلت له: "هذا شائق جداً." وانبرت استير قائلة: "انه سيساعدك. يكفي ان يقول لك ان غناءك شائق. وهذا يعني أنك ستغادر هذا المكان قريباً."

وأخبرتُ بول انه، عندما تتحسن أحواله، سآخذه الى شركة موسيقية لتسجيل أغانيه. وهناك يمكنه الحصول على مشورة مهنية. وسألني: "أتعني ما تقول؟" فأكدت له ذلك.

ولم يبقَ أحد في الجناح الا صفق بحماسة.

وللحال أعلنت أستير: "لقد حان وقت الطعام." وسارت من غرفة الاجتماع النهارية، فيما تبعها الآخرون.

وكان في طرف الردهة خزانة لوضع المكانس، تفتحها المسؤولة عن التنظيف في الثامنة صباحاً لتأخذ منها العدة وتعمل بها طوال الساعتين اللاحقتين.

وذات صباح تسللت مارلين وبنسكي الى الخزانة وأقفلا بابها. وصادف

مرور ممرضة من هناك، فجمدت أوصالها الاصوات المتصاعدة من الداخل. وفتحت الباب على الفور وأخذت بنسكي ومارلين الى الدكتور بول.

وعلى رغم الغضب الذي ووجه به الامر، الا أن تلك الخبرة كانت رائعة بالنسبة الى الاثنين. ومنذ ذلك الحين بدأت مارلين تُعْنى بنظافتها وهندامها، كذلك بنسكي.

وأخبرتنا استير عن تلك المسألة، وشدت يد سام وقالت: "أما وقد دخلا الخزانة، فقد تحسنت حالهما كثيراً."

وضحك الجميع لذلك.

وتابعت أمي: "في تشلسي لا أحد يفكر في دخول خزانة. فالكل هناك من الارهاق بحيث يبقى مقيَّداً الى سريره."

وفي شهر فبراير (شباط) قرر الدكتور بول انه يمكن اخراج استير من المستشفى.

ولما ذَهَبْت مع سام لاخذها، كانت في غرفتها القديمة تودع كارين ونيل وتقول لهما: "أنتما ستخرجان قريباً أيضاً. واذا استطعتُ أنا تذكر عنوان بيتي، ففي امكانكما فعل أي شيء."

وقالت لها نيل: "الاحرى أن تكوني أنت المريضة المعجزة." وتعانقت الاثنتان واتفقتا على الاتصال.

وبعد ذلك ذهبت استير الى بنسكي وأمسكته من ذراعه وأخذت تمشي واياه في الرواق. وقالت له: "ارفع سماعة الهاتف وخابرني كلما شئت ذلك. وأعلمني عن موعد مغادرتك المستشفى، ولا تنسَ الشريط الذي ستسجله لابني هنري."

ــ لا، لن انسى أيتها العمة أستير.

وقَبَّلَتْ بنسكي على خده ثم سارت الى الغرفة النهارية لوداع الآخرين. وانطلقت الاصوات تقول: "أعطينا خطاباً."

وقالت استير بحماسة: "لقد أمضيت وقتاً رائعاً في هذا المكان. والحق أنه أفضل مستشفى بين المستشفيات الكثيرة التي اختبرتها."

وحملنا أمتعتها الى الباب. وعندما فتح وغادرت، ظهرت على وجهها ابتسامة كبيرة وسط الدموع التي سالت من عينيها.

عزيزتي السيدة غوردي

توجهت استير لتوها الى السرير لدى بلوغها المنزل. ولما أفاقت كانت لا تزال متعبة. وكان يرهقها الجلوس مع الزوار والقيام بأدنى نشاط، فتعود الى سريرها. وقلقتُ كثيراً لهذا الارهاق المستجد. ترى أيكون انتكاساً بعد شهر من الراحة في المستشفى؟

وطمأننا الدكتور سدهالتر بقوله: "ان بعض المرضى الذين يتناولون العقاقير يبدون أحسن حالا في المستشفى وهم مع آخرين يعانون الاعراض نفسها. وما أن يعود أحدهم الى البيت، حيث الآخرون لا يعانون خللا عصبياً مماثلا، حتى يشعر ببعض الاضطراب. والتكيُّفُ مع المحيط الجديد يستغرق وقتاً ربما امتد بضعة أشهر."

ووجد سام نفسه مرة أخرى مضطراً

لى أداء دور الممرضة. وكنت عدت
لى لوس أنجلس، فخابرته وحثثته
لى طلب مساعدة. ورفض طلبي أول
لامر، ظناً منه أن أحداً سواه لا يخدم
ستير على النحو اللائق. لكنه أخيراً
وعدني باستشارة وكالة محلية وطلب
ممرضة منزلية.

وبعد يومين طلبت الوكالة الى سام
أن يقابل امرأة اسمها مينا غوردي
في محطة القطار. وكان عليه
التفتيش عن امرأة سوداء قصيرة
القامة ترتدي زي ممرضة. ولم يجد
سام أي صعوبة في معرفة تلك المرأة
ذات الجسد الناحل والشعر الرمادي.
لكنه لم يكن يتوقع أن تكون هرمة
وضعيفة الى ذلك الحد.

وكانت السيدة غوردي في منتهى
اللياقة والتهذيب. وكان صوتها
الناعم أقرب الى الهمس ومع بعض
صفير في تنفسها. وبدت أضعف
صحة من أستير، الأمر الذي جعل سام
يقلق ويشك في امكانها تأدية عملها.

ولدى بلوغهما المنزل خرجت استير
من غرفتها، ووقفت السيدة غوردي
لتحيتها. وامكن أستير ان تسمع
صوت التكسّر في مفاصل تلك المرأة
المبتلية، وللحال شعرت بالشفقة
حيالها. وفكرت أنها لو لم تكن
تحتاج الى المال لكانت هي الاخرى
طريحة الفراش.

وبعد تعارف المرأتين راحت
الواحدة تحدث الاخرى عن طفولتها
وأحلامها ومشكلاتها وقلقها بالنسبة
الى المستقبل. وبذلت كل منهما
جهدها لتتحلى بالشجاعة والصبر.

وكانت السيدة غوردي انتقلت، في



أعقاب وفاة زوجها قبل عشر سنين،
الى منزل ابن أخيها جيم وزوجته
سالي. وعاشوا معاً في وئام الى أن
توفي جيم قبل ثلاث سنوات وتزوجت
سالي رجلا آخر. غير أن ويلي، الزوج
الجديد، كان يغار من زوج سالي
السابق وكل ما يمتّ اليه بصلة،
ولا سيما السيدة غوردي. ولم يمكنه
تحمّل القليل القليل الذي تستهلكه من
طعام ومكان وكهرباء.

هذا كله جعل السيدة غوردي تشعر
بالغربة في ذلك المكان. وكانت، في
الثالثة والستين، تعاني تضخّماً في
القلب والتهاباً في المفاصل. إلا أنها
أرغمت نفسها على العمل لتحصيل
بعض المال، علها تتخلص من ذلك
الجحيم.

وسألتها أستير لماذا لم تبحث
مشاكلها مع اصدقاء العائلة.
فأجابت: "لكل شخص مشكلاته يا
سيدتي، ومعظم المصاعب الاخرى
أسوأ مما أعانيه أنا."

وكانت السيدة غوردي، قبل

مغادرتها منزلنا يومياً، تعد أمي بالصلاة من أجل شفائها. وهي كانت تبر بوعدها كل يوم.

ومرة قالت أستير لابي: "أظن أن توظيف السيدة غوردي كان فكرة رائعة. انها امرأة فاضلة حقاً."

وأجابها سام: "هذا رأيي أيضاً." لكنه هزّ كتفيه... صحيح أن وجود تلك المرأة في المنزل مكنه من الخروج بضع ساعات يومياً لممارسة كرة المضرب أو الغولف أو كرة اليد، الا انه بات يدرك أن لديه الآن مريضتين، لا مريضة واحدة.

لكن نظاماً يومياً نشأ في البيت. فكان سام يستيقظ أولا ويتناول فطوره، ثم يخرج لدى وصول السيدة غوردي في التاسعة. وعند العاشرة كانت الممرضة توقظ أستير وتساعدها في غسيلها ولبسها وأكلها. ثم في الحادية عشرة والنصف كانت الاثنتان تخرجان معاً.

وتتكىء الواحدة على الاخرى وهما شابكتان ذراعاً بذراع وسائرتان في خطى وئيدة ومتوقفتان من حين الى آخر لالتقاط الانفاس. وأخيراً تبلغان الحديقة العامة وترتميان على مقعد وقد أعياهما التعب، لكنهما، على ذلك، كانتا مَرِحَتَيْن لا تصدقان أنهما قطعتا تلك المسافة. ومع الوقت اصبحت المرأتان تقطعان مسافة أطول، فتصلان الى الوسط التجاري حيث تتوقفان أمام الواجهات ثم تدخلان الاروقة التي تباع فيها الحلوى والمثلجات والفطائر والمآكل الغريبة. وهناك تتحدثان مطولا ثم تعودان الى البيت لتناول غداء خفيف أحضره سام. وبعد ذلك تشاهدان التلفزيون. وفي الثانية تغادر السيدة غوردي المنزل، فيما تخلد استير الى النوم.

حبوب عملاقة

انقضت ثلاثة أشهر وأستير لما تزل فاترة الهمة. وكان لارهاقها المستمر أثر في اضعاف معنوياتها. ومرة قال لي سام عبر الهاتف: "إنها قريبة جداً الى الشفاء، غير أنها لا تفعل شيئاً سوى المكوث في السرير. وعلينا أن نجد سبيلا لاعادتها الى حياتها الطبيعية."

وكان لي أصدقاء في كاليفورنيا سبق أن جربوا ما يسمى "العلاج الحديث" الذي استهلته حركة "علم النفس الانساني" والذي يقوم على معالجة الجسد والعقل في الوقت نفسه. وتوصلت عبر اولئك الاصدقاء الى أن أُعَرِّف سام على شابة مختصة بمعالجة المسنين وفق هذه الطريقة، واسمها ماري نورتون. وكان سام يشك في ذلك كله، لكنني ثابرت على اقناعه. وقلت له: "إني لا أقل تشكيكاً عنك. ولكن بعد اختبارنا الوسائل التقليدية دعنا نختبر الجديد، عل فيه خيراً أكبر."

كانت ماري نورتون قريبة الى القلب ومنفتحة في علاقاتها مع الآخرين. ونشأ بينها وبين استير اعجاب متبادل. وهي كانت تجلس على حصيرة كبيرة في شقتها المشمسة الملأى بالنباتات الجميلة، وتجلس استير بمشقة، لكنها تقهقه لفرط ما تبذل من جهد. ثم تقوم

الاثنتان بتمارين للتنفس. وسرعان ما أخذت أستير تتنفس على نحو أعمق وتشعر بالاسترخاء.

بعد ذلك باشرت ماري علاجاً آخر يدعى "مراجعة الماضي." وكانت أستير، وقد راقها توجيه الاهتمام اليها شخصياً، تجلس وتسرد ذكريات من أيامها الخوالي، تدور قصصها في الغالب على طفولة سعيدة خالية من الهموم. وقالت انها تلقت مقداراً من العلم أقل مما تلقاه أخوها واختها، وذلك يؤسفها لانه أفقدها وظيفة لائقة. لكنها في آخر المطاف ليست نادمة أو حزينة. فهي تحب زوجها وابنها. ولقد كانت حياتها معهما سعيدة طيبة.

وراحت ماري تركز على الامور الايجابية وتحث أستير على وضع لائحة تمتد عبر السنوات والاشخاص. وطلبت اليها بعد ذلك ان تسترجع المشاعر الحسنة التي رافقت تلك الايام واولئك الاشخاص.

وركزت أستير جهدها على ذلك الفرض ثم ضحكت وقالت: "الحق أن نفسي ملأى بالمشاعر الطيبة والذكريات الجميلة. واني أكاد أنفجر سعادة."

وفي نهاية اللقاء الاول تحدثت ماري على انفراد مع سام وسألته كيف يتصرف حيال زوجته. فقال انه يحاول حمايتها وتغطية أخطائها أمام الناس. لكن ماري أوضحت له أن "أستير يجب أن تستعيد الثقة بنفسها في علاقاتها بالناس."

وكجزء من ذلك البرنامج العلاجي الجديد، ذهبنا الى مركز لونغ آيلند الطبي للعلاج الغذائي، الذي يعتمد طريقة نفسية - غذائية. وبعد تحليل شامل لتاريخ استير الغذائي، وصف لها علاج لمعالجة نقص السكر والفيتامين والمعادن.

ووصف لها الطبيب النفسي الدكتور فردريك جونسون وجبة غنية بالبروتيين، ومنع عنها السكر والدقيق الابيض والحلويات والمثلجات. ووصف لها اثنين من مستحضرات المركز القوية بالفيتامين، مع حبوب الكلسيوم والمغنيسيوم.

ولدى عودتها الى البيت وضعت استير تلك الحبوب أمامها على الطولة، وهي حقاً ضخمة، وقالت بقرف: "يا لها من حجار كبيرة. انها صخور." وراحت هي والسيدة غوردي تنظران الى تلك الحبوب ولا تصدقان أنها عقاقير.

وكان على أستير ان تصارع تلك "الصخور" في الصباح والمساء. وكانت تدعو سام وتقول: "إنني أحسها في معدتي. وكلما خطوت تحركت من الشمال الى اليمين."

ترى أيكون لتلك الادوية العملاقة فعل ايجابي؟ من يدري؟

وفي صبيحة أحد الايام قال سام: "ثمة ريح قوية خارجاً. والافضل أن تبقيا في المنزل اليوم."

غير أن أستير كانت فخورة بنزهاتها اليومية. وظنت أنها، اذا هي تخلفت عنها يوماً واحداً، فلن تقوى على الخروج بعد ذلك. ولهذا انتظرت أن يغادر سام، ثم خرجت هي والسيدة غوردي.

وعصفت الريح، ولما بلغتا حدود الحديقة أصبحت أقوى، ولاذت المرأتان إحداهما بالاخرى، وبذلتا غاية جهدهما للتقدم، ولكن من غير جدوى.

وتضرعت السيدة غوردي قائلة: "يا إلهي! لا تجعل ذلك اعصاراً."

وقالت استير بكل ما فيها من مرح: "لا، لن تهزمنا العاصفة." وما كادت ان تنهي كلامها حتى هبت ريح قوية أوقعتها أرضاً ومعها السيدة غوردي.

ولم تصب المرأتان بأذى، لكنهما خافتا كثيراً. ولم تكن لاحداهما القوة على النهوض. وأخذتا تتحركان يميناً ويساراً، ظناً منهما أن تلك الحركة من شأنها أن تعطيهما القوة على الوقوف. غير أن ذلك لم يجدِ، وأدركتا ان سام كان على حق. ولم يكن في الحديقة شخص لينقذهما.

وأخذت الاثنتان تبكيان. ثم صلت السيدة غوردي قائلة: "يا إلهي، ارفع هذه الكأس عنا. لقد كنت انا الممرضة، واللوم يقع علي. ولكن لا يجوز أن نقضي بهذه الطريقة."

وبقيت المرأتان هناك خائفتين ومرتبكتين ولا تستطيعان حراكاً، وإحداهما تحاول تعزية الاخرى.

وفجأة فارق الخوف أستير وقالت: "يكفي هذا! واذا لم يكن هناك أحد لمساعدتنا، فلا بد من اعتمادنا على نفسنا."

وأخذت تزحف على يديها وركبتيها والريح تعصف من كل جانب. وامتلأت عيناها دمعاً لكنها لم تستسلم. وحاولت تصوّر منظرها وهي تدب على العشب، وحملها ذلك على الضحك عالياً. وأخيراً وصلت الى مقعد وتمسكت به ووقفت على قدميها. وإذ ذاك شعرت بنشوة النصر. وصرخت: "ها أنا مؤهلة لدخول الالعاب الاولمبية."

وسارت الى حيث السيدة غوردي ومدت يدها نحوها. وبذلت كل قوتها لتساعدها في النهوض.

ولم تكف الريح عن الهبوب، لكنهما لم تكترثا لها. وسارتا الى رواق الحلويات في الوسط التجاري وطلبتا قطعتين من الحلوى الساخنة.

وعندما أخبر سام بتلك المغامرة، أدهشه ان استير وجدتها مسلية. وعلق بقوله: "كان ممكناً أن يصيبك أذى. أرأيت ماذا يحدث عندما لا تعيرين أذناً صاغية لكلامي؟"

وضحكت المرأتان أكثر. وقالت استير: "لقد أحببت كل ثانية من تلك المغامرة."

من غير مساعدة

بعد شهر من بدء علاجها الجديد اصبح منظر استير أفضل من قبل وباتت تتكلم أكثر وتؤجل موعد نومها قليلا وتخرج مع سام مرّات متكررة، على رغم تعبها السّريع. وإذ لم تتقيد بنظام الحمية الجديد كما ينبغي، أرسلتها ماري نورتون الى معالج نفسي مختص والى مدرّب يتبع طريقة تسمى "تمارين فلدنكرايس." وكانت الغاية أن تتحسن نظرة استير الى الأمور لدى ازدياد وعيها لها.

وانسحب المعالج النفسي من الساحة بعدما زاد وزن استير

كيلوغرامين ونصف كيلوغرام في خمسة أسابيع. ألا أن التمارين الاخرى أكسبتها مرونة. وكانت كل يوم تقول: "لقد حان وقت التمرين." ثم تتوجه مع السيدة غوردي الى حصيرة الدار، حيث ينضم إليهما سام الذي كان متحمساً لتلك التمارين. وبعد انقضاء الدقائق العشر الاولى، كان سام وحده يبقى على الأرض فيما تراقبه أستير ومينا وهما تعدان النقاط بصوت مرتفع. وتبرر أستير انسحابها بالآتي: "التمارين التي لا أمارسها على الأرض أنفذها في ذهني. لقد انقضت سنوات لم أستعمل ذلك المكان فوق على الإطلاق."

وذات أمسية خابرت منزلنا الوالدي من لوس أنجلس. وقالت لي أستير بصوت ملؤه التأمل: "أظن أني لن أتحسن بعد اليوم، وأني بذلت ذروة جهدي."

ـ ما الذي يجعلك تقولين هذا؟

"إني أبذل طاقتي كلها ولا أصل الى مكان. لقد كنت عبئاً عليكما نحواً من سنة. وما يحدث لي يحزنني كثيراً، لكن العذاب الذي تعانيه أنت وسام من أجلي يحزنني أكثر. ومن الأهمية بمكان أن تنجز عملك على خير وجه في لوس أنجلس من غير أن تقلق على حالي. وكن على ثقة من أن وضعي هذه الأيام لا يحسنه سوى أخبارك الطيبة."

غير أن سام وصف تلك المرحلة بأنها "جميلة جداً، لأن أستير تحسنت بمقدار النصف. فقبل سنة لم يكن هناك أستير. أما اليوم فلدينا أكثر من نصف أستير. وأني أشكر الله على ذلك وأريد التمتع بكل لحظة من هذا الشعور البهيج."

وقصدت السيدة غوردي الشقة ذات صباح وعيناها متورمتان من فرط البكاء. وأدخلها سام ثم توجه نحو أستير وهمس في اذنها: "ثمة مشكلة في حياة هذه المرأة."

ـ اذهب أنت الى حقل الغولف ودعني أتولى الأمر بنفسي.

ولم تصدق أستير ما تسمعه وهي تصغي الى السيدة غوردي تصف ما حصل بينها وبين ويلي. فقد اتهمها بأنها تحاول تأليب زوجته ضده. وفي فورة غضب حظّر على سالي والاولاد التعاطي مع مينا. وصاح قائلا: "على هذه العجوز الشمطاء أن تغادر المكان خلال اسبوعين." ثم اقتحم غرفة مينا وهو يصرخ: "اخرجي من هنا يا عجوز الشؤم."

وأخذت السيدة غوردي تنتحب وتقول: "أني امرأة متقدمة في السن، وليس لي مكان أذهب إليه." وهدأت أستير من روعها وقالت: "عندما يعود سام سنخرج للتفتيش عن شقة تلائم دخلك."

وأمضت الاثنتان أياماً تبحثان عن شقة. وأخيراً عثرتا، بمساعدة وكالة محلية، على مكان صغير في مبنى يخص المواطنين المتقدمين في السن. وسرّت السيدة غوردي لأن ذلك كان في حدود امكاناتها المالية.

وفي أواخر اغسطس (آب) ١٩٧٧ بدأ تصوير فيلم "سارجنت بيبر." وخلال الأشهر الاربعة التالية كثرت أعمالي بحيث لم يبق لدي وقت

للتفكير· وكان علي إدخال تعديلات على النص كلما برزت مشكلة· وفي نهاية المطاف أصبح لدينا شريط من ثلاث ساعات، وبدأنا نستعد لتعيين موعد الافتتاح·

وتقرر عـرض الفيلـم فـي لـوس أنجلس مساء ٢١ يوليو (تموز) ١٩٧٨، وبعد يوميـن يطيـر المنتـج روبـرت ستيغوود وسائـر المشتركيـن، بمـن فيهم اعضـاء فرقـة الـ"بـي دجيـز" وجورج بيرنز وأليس كوبر و"ايرث، ويند، فاير،" الى نيويورك لحضور العرض الاول للفيلـم فـي السـاحـل الشرقي للولايات المتحدة·

كما تقرر أن يتم العرض الاول في نيويورك في قاعة "راديو سيتي" وحُدد ثمن بطاقة الدخول بمئة دولار وأن يتلو عرض الشريط عشاء عند منتصف الليل وحفلة راقصة من الثانية فجراً حتى الصباح· وأردتُ أن تكون أستير وسام هناك ليلة الافتتاح· وكانت استير قالت لي انها تتمنى حضور حفلة من ذلك النوع· غير أنها كانت مضطربة· وأعلنت على مسمع سام ما يأتي: "أعرف أن عليّ الاعتماد على نفسي من غير مساعدة· لكن ثمة اموراً لا تُحصى أخشى مواجهتها·" وهكذا جلست هي وسام الـى طاولـة الطعـام ووضعـا لائحـة بالهواجـس والمشكـلات مـع خطـة للتصدي لها·

وظلت استير طوال اسبوع تنهض في الثامنة والنصف صباحاً ولا تعود الى سريرها الا في الليل· ولكن متى شعرت بالارهـاق كانـت تخلـد الـى الراحة ساعة فقط· وكانت كل ليلتين تسهر لتسمع أخبار الحادية عشرة على التلفزيون· وباتت ترافق سام أكثر من السابق، محاولة التغلّب على ارتباكها بين الناس· وبعد ذلك باتا يدعوان واحداً أو اثنين من أصدقائهما عصرَ كل أحد·

ومرة قالت أستير: "اذا كان علينا أن نرقص في تلك الحفلة، فيجب الاستعداد لذلـك بـأخـذ دروس فـي موسيقى الديسكو·"

وسألها سام على الفور: "أتحبين البدء غداً؟"

ـ يا لك من رقيب لا يرحم!

كان ذلك في شهر مـارس (آذار)، أي قبل أربعة أشهر من موعد الحفلة·

"لنذهب الى المجهول"

دقّ منبه الساعة تمام الثامنة والنصـف صباحـاً، فقامـت استيـر وانحنت على سام توقظه: "ماذا تفعل في السرير؟ انهض لمواجهة مشاكل هذا اليوم·"

ونزلت من سريرها وتهادت الى المطبـخ· وهنـاك حضـرت الفطـور بنفسها للمـرة الاولـى فـي عشريـن شهـراً· واغتسلـت وارتـدت ثيابهـا وطلت وجهها بمساحيق التجميل·

ولما وصلت السيدة غوردي قالت وهـي لا تصدّق ما تـرى: "مـاذا تفعلين؟"·

ـ أتمرن على الحياة الطبيعية·

ويبـدو ان تصميـم أستيـر علـى حضور ليلة الافتتاح أمدّها بالقوة وجعلها ترسم مخططاً وتعمل على تحقيقه· وها هي الآن في صباح يوم جديد ينبغي أن تملأه عملاً·



كانت أستير حققت بنود برنامجها كلها، في ما عدا دعوة الاصدقاء الى العشاء.

ومرة قالت: "لنذهب الى المجهول." ودعت جميع الاصدقاء والمعارف الى البيت الجديد. وتعجب أصدقاؤها القدامى لرؤيتها تعافت، بعدما زارها العديد منهم في مستشفى تشلسي وظنوا أنها لن تعود كما كانت على الاطلاق. وأمضى الجميع وقتاً ممتعاً. وفي آخر السهرة غنوا بصوت واحد: "يا لهما من زوجين ودودَيْن."

وبعد أسابيع استأنفت الذهاب الى أسواق الأسهم المالية ومعارض السّلع القديمة. ومع الوقت استعادت قوتها على تركيز أفكارها، وبات في أمكانها سماع الموسيقى والقراءة من جديد. وكانت قوتها تزيد بازدياد اهتماماتها. وباسترداد قوتها أخذت تستعيد ذاتها القديمة.

وبعد شهر من اعتماد أستير على نفسها انضمت مع سام الى ناد اجتماعي محلي. وبعد ذلك أصبحا يشاركان مجموعة من الناس في السهر خارجاً مساء كل سبت، لتناول العشاء في مطعم أو لحضور أمسية موسيقية. وبعد ذلك يذهب الجميع الى منزل أحدهم لتناول القهوة والحلوى. وفي نهاية الاشهر الثلاثة

ووقفت أستير قائلة: "شكراً لكم جميعاً: لأولئك الذين عرفوني قبل مرضي والذين عرفوني بعده. كل ما يمكنني قوله لكم هو أني لن أسقط في هُوّة المرض بعد الآن."

وبُعيد ذلك الاحتفال المنزليّ البهيج ارتأت أستير أنها لم تعد في حاجة الى السيدة غوردي.

الصُّعود من الهُوّة

خابرتني أستير قبل ثلاثة أسابيع من ليلة افتتاح "سارجنت بيبر" لتقول أنها أمضت الشهرين الاخيرين متحررة تماماً من أعراضها السابقة، وأن الدكتور سدهالتر راقه ذلك وخفّف لها جرعة الدواء. وأضافت: "لا يمكنني الانتظار كي أراك."

وعاد المرح الى صوتها، ذلك المرح الذي خشيت ألا ألمسه بعد محنتها.

وحان اليوم الموعود، يوم وصول فرقة "سارجنت بيبر" الى نيويورك. وتردد سام واستير في البداية ظناً منهما أنه سيكون يوماً محموماً. لكن أمي غيّرت رأيها وأعلنت الآتي: "أود أن أرى هنري فور وصوله. دعنا نذهب الى المطار."

وهناك توجها الى منطقة الشحن حيث كانت طائرتنا مزمعة على الهبوط. وكان مُنتظراً أن يعجّ المكان بأنصار الرّوك من الشباب. لذلك انتشر رجال الامن في أرجاء القاعة وهم يحملون أجهزة الارسال والاستقبال. وقالت أستير وهما يدنوان من البوابة: "دع الكلام لي."

وعلى الفور سألهما أحد الحرّاس: "أين أوراقكما؟".

وأجابته أمّي: "ليست في حوزتي أوراق من أي نوع. لكنني على لائحة الضيوف. والواقع أن هذا الاحتفال كله ما كان ليقوم بدوني. فأنا والدة المؤلف."

ونظر الحارس اليهما وهو يقول لنفسه: "هب أنهما يحتالان عليّ. أفلا تكفي حماستهما للروك، وهما في هذه السن المتقدمة، لادخالهما دونما تشدد؟" وقال لهما: "هيا ادخلا الى مكان هبوط الطائرة."

وأسرع الاثنان الى المنصة التي كان يعتليها خمسون شخصاً على اهبة الاستعداد لقرع الطبول والأبواق لدى نزول أفراد الفرقة من الطائرة. وكان السيد فرنسيس بليمبتون، ممثل المحافظ لشؤون التشريفات، واقفاً هناك وفي يده مفتاح المدينة الذي يُعطي للضيوف المرموقين. كما وقف مصورو التلفزيون ورجال الاذاعة والصحافة ينتظرون وصول الطائرة وحولهم مئات المدعوين.

وأخيراً نزلت طائرتنا، ونظر روبرت ستيغوود من النافذة وقال: "هذا مفتاح المدينة." ونظرتُ أنا أيضاً وشاهدتُ بليمبتون وسط الجموع.

وبعد هنيهة سمعتُني أقول مندهشاً: "يا إلهي! أن والديّ يقفان بجانبه."

وفي اليوم التالي حملت سيارةُ الليموزين سام واستير الى فندق بلازا. وكانت امي تطفح فرحا وهي ترتدي تنورة طويلة من الحرير وقميصاً أبيض وقد استعادت بشرتها نضارتها المعهودة وأشرقت عيناها. ووقف الوف المتحمسين على طول الطريق المؤدية الى قاعة الاحتفالات الموسيقية "راديو سيتي." وشققنا طريقنا وسط الحشود بمساعدة رجال الشرطة.

وبعد عرض الفيلم أخذتنا السيارة الى روزلند للعشاء. ودخلنا القاعة وسط موسيقى آسرة. وهناك تعرّفت استير وسام على جورج بيرنز الذي أحباه قبل أن يعرفاه، والتُقطت لهما صورة مع أليس كوبر.

وكان سروري لمشاهدة استير وسام على تلك الحال من الجذل لا يعادله سرور آخر في حياتي. وبعد العشاء توجّهنا الى الحفلة الراقصة. وفي الرابعة فجراً أقلت سيارة الليموزين سام وأستير الى منزلهما.

وعندما دخلتُ عليهما في وقت متقدم عصرَ اليوم التالي، قالت استير: "أننا لا نزال نعيش نشوة الليلة الماضية. لقد كانت من أسعد أوقات حياتنا."

وسألتني أستير وهي تُحضر الطاولة: "كيف تراني الآن؟"

وأجبتُها وأنا أعني كل كلمة أقولها: "أنكِ أفضل حتى مما أخْبَرتني."

- شكراً لكَ! لقد فقَدتُ السيطرة على نفسي قبل سنتين. وبعد ذلك باتت هذه السيطرة وقفاً على العقاقير التي وُصفت لي: على مقاديرها وأنواعها. إلا أن سيطرتي على نفسي عادت اليّ تدريجاً. وهذا يجعلني أتذوّق كلّ خطوة أقوم بها. صدّق أو لا تصدق: إنني، عندما أُرتب الطاولة، أفعل ذلك عن وعي تامّ لحركاتي وأُعْجب بذلك إذ كنتُ محرومة منه قبل سنة واحدة.

وبعد وضعها الشوكة الأخيرة في مكانها على الطاولة، تقدمت استير مني وطوقتني بذراعيها.

وفيما هي تُنهي إحضار العشاء، خرجتُ مع سام لشراء قالب حلوى خاص. وما انفك يخبرني عن فرحه باستعادة استير عافيتها ونشاطها. وقال: "نحن نمشي على ثلج رقيق كل يوم من حياتنا. واذا خشينا متابعة الطريق لئلا ننزلق، فان ذلك يدفعنا الى الجنون ويجعلنا نزلّ فعلاً. وهذا ما حصل بالنسبة الى استير. لكننا تعلّقنا بها نحن الاثنين. وعلى رغم أن الصعود من الهوة ليس ممكناً على الدوام، ألا أننا صعدنا. وراح واحدنا يساعد الآخر على الصعود. واني سأبقى شاكراً ما فعلناه طوال حياتي."

وبعد عودتنا الى المنزل بقيت كلمات سام ترن في أُذني: "...الصعود من الهوة ليس ممكناً على الدوام، ألا أننا صعدنا."

كان كل شيء رائعاً تلك الأُمسية - الطعام، الحديث، الجوّ. وكان طبيعياً وعادياً. أجل، تلك كانت الوقعة الطبيعية الاولى التي نتناولها نحن الثلاثة معاً خلال سنتين.

ولقد اكتسى العادي الآن لون الدهشة. وشعرتُ بالشكران، كما شعر به أبي أيضاً.

■ هنري ادواردز

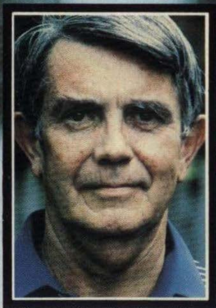
الاخلاق العائلية

الفكرة القائلة بأن ما يفعله البالغون في السر يخصهم وحدهم هي فكرة خاطئة. فما نفعله سراً يؤثر في كياننا، وكياننا يؤثر في الآخرين. من هنا كان لما نفعله داخل بيوتنا أثره المحتوم ليس في سلوكنا تجاه ذواتنا فحسب، بل في سلوكنا تجاه الآخرين أيضاً. وان أي تبدل في نظام حياة العائلة يترك أثره في المجتمع الاوسع.

هـ.ف.

كتاب الشهر

نهاية جراح



بقلم جون بيكانين

ويحتاج الى من يحادثه ،وانه لم يكن طبيعياً تماماً. اخبرني انه تعرض في طفولته لصدمة قوية على رأسه ، وانه امضى معظم سنوات عمره في مؤسسة للرعاية الاجتماعية . واضاف انه حالياً يزور اخاه وانه خرج في نزهة قصيرة قبل العشاء . وسألني عن سبب وجودي في القاعة ، فأخبرته عن زواج ابنتي . وبسحر يطغى عادة على وجوه الاطفال سألني اذا كنت اسمح له بالحضور قليلا لاستراق النظر الى الحفلة . وشعرت بحاجته الى كسب ود الناس ،فأجبته بأني سانتظر حضوره .

شهر يوليو (تموز) في كيب تاون (جنوب افريقيا) بارد وعاصف في العادة . ولكن في يوم السبت ذاك تسربت اشعة الشمس من خلال الغيوم لتلقي بوشاحها الاصفر الدافىء على الارض .

كثيراً ما بكيت في الاعراس . واعرف أن دقات قلبي تسارعت حين رأيت ابنتي المتألقة بجانب عريسها . لكن نظرة واحدة الى وجهها اقنعتني بان هذا العرس يجب ان يكون خالياً من الدموع .

وانتهت مراسم الزفاف وقطع العروسان قالب الحلوى . ووسط الصخب جاءني نادل يقول ان رجلا في الباب الخلفي يبغي مقابلتي . وكان هو ، متأنقاً وخجولا . ودعوته الى الدخول فاعتذر بحياء . وعدت الى الداخل واحضرت له قطعة من قالب الحلوى عليها وردة . وبدا التأثر على وجهه ، ومد يده بتردد بالغ يسلمني الهدية التي كان يحملها .

"للعروس ." قالها بفخر واعتزاز .

كانت رزمة صغيرة غلفت بورق بني خشن وربطت بخيط . فوضعتها على الطاولة بين هدايا كثيرة اخرى . ولوح لي الغريب مودعاً وغادر المكان .

بعد حفلة الاستقبال واكبنا بعض الاقرباء والاصدقاء الى البيت . وتولت ابنتي الصغرى مهمة فتح الهدايا . وأسهبت في تحديد صاحب كل هدية . ولكن حين وصلت الى الرزمة البنية الصغيرة احتارت وأعياها مصدرها ففتحتها .

كان في الرزمة ابريق حليب عادي صغير من النوع الذي يستخدم في المستشفيات والقطارات... وفي مؤسسات الرعاية الاجتماعية .

حينذاك بكيت . بكيت لفرحة ابنتي ، ولوحدة ذلك الرجل ، ولبادرة الحب هذه التي مست حياتي وحياة ابنتي .

وهكذا اضيف الى قائمة الهدايا "ابريق صغير من السيد الغريب ."

وكانت ابنتي ورثت عن جدتها خزانة جميلة لعرض الفضيات التي جمعتها خلال سنواتها الطويلة . واتفقنا على وضع الابريق الصغير شامخاً بين الاواني الفضية الجميلة ، هدية خاصة من عالم اليأس الى عالم الامل وعربون محبة من الحياة الى الحياة .

■ ريتا دوتوا

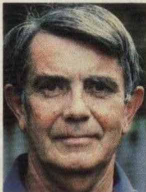


عندما أجد مالا في جيبي ، أتخلص منه بأسرع ما يمكن لئلا يجد طريقه الى قلبي .

جون ويسلي

نهاية جراح

كان الدكتور بول آدكينز استاذاً للطب ومن ألمع جراحي الصدر في الولايات المتحدة عندما تبيَّن، في صورة بالاشعة أُخذت لصدره في شهر ابريل (نيسان) ١٩٨٠، أنه مصاب بسرطان الرئة. ووقف ينظر الى الصورة كمن يقرأ نعيه بعينيه.



هده الصفحات تروي سيرة رجل تزخر بالانسانية والشجاعة، رجل وقف أمام الموت من غير أن يرتعش... الا قليلا. ومن أجل كتابة هذه السيرة، كرس الدكتور ادكينز وقتاً طويلا من أشهر حياته الاخيره، اجاب فيه عن أسئلة الكاتب الطبي المرموق جون بيكانين. انها قصة تتخللها المأساة. غير أن أدكينز شاء أن تكون حياته عبرة للآخرين. ويقول بيكانين: "كان بول ادكينز معلماً أولا وآخراً، هدفه انقاذ حياة الآخرين. والوقت الذي أعطاني اياه هو أعظم امثولة تركها لنا."

Condensed from The Washingtonian (December '80) (c) 1980 by Washington Magazine, Inc., Washington, D.C. Photo of Dr. Adkins by the author. X - Ray courtesy GWU School of Medicine



كان ذلك في يناير (كانون الثاني) عندما احس الدكتور بول ادكينز ان في الامر خطراً. وكان في الرابعة والخمسين وقد اكتسب شهرة في أرجاء الولايات المتحدة كجراح للصدر ورئيس لقسم الجراحة في مستشفى جامعة جورج واشنطن في العاصمة الامريكية. وهو لم يُعانِ أي مرض قوي طوال السنوات الثلاثين التي أمضاها طبيباً.

وحاول تجاهل الارهاق واقناع نفسه بأن ما أصابه ليس أكثر من عارض. ولكن من الغريب أن الشخص الذي لم يكن يحتاج الى أكثر من سبع ساعات نوماً بات يغط في مقعده من وقت الى آخر عصراً. وكانت أفكاره الباطنية، تلك الافكار التي يحيلها الوعي على الظل، تزين له أموراً ليس الى انكارها من سبيل.

ذلك الشهر كان، من نواح عدة، تتويجاً لعمل ادكينز. ففي الثاني والعشرين منه، كان عليه القاء الخطاب الرئاسي أمام جمعية جراحي الصدر. وراح يصوغ خطابه متنوقاً في الكلام. فهو منذ طفولته محب للّغة، وما زال يحفظ مقاطع طويلة من أشعار كيتس وشلي وملتون. وكان جيرانه في بلدة بيت حسدا من أعمال ولاية ماريلاند يعتبرونه شاعر المنطقة، واليه يلجأون كي ينظم لهم الأبيات الساخرة في بعض المناسبات.

غير أن ادكينز احتفظ بخصوصياته لنفسه، ولم يفضح حساسيته الشعرية ومرحه الا قليلاً. وكانت صورته في المستشفى صورة جراح عنيد صارم، على ثقة كبيرة بالذات، وفي الوقت نفسه على مقدار وافر من الحياء. وطالما أحب تعليم المتخرجين المقيمين في المستشفى الذين دعوه "المعلم" وكانوا، طوال سنواتهم الثلاث الاولى هناك، يخشونه أيما خشية. وهو كان يقمع الثرثرة، وكانت سخريته لاذعة ونظراته مرعبة.

أما في محادثاته العادية، فكان ادكينز يصغي بتهذيب الى مخاطبه وينظر اليه بثبات. وكان شعره مخططاً بخصل رمادية وهو لا يرتدي من الملابس وربطات العنق الا التقليدي. وكان نزاعاً الى البساطة وقد وزع حبه على عائلته وعمله ورياضة الغولف.

وبعد خطابه أمام جمعية جراحي الصدر في أطلنطا (ولاية جورجيا) الذي قوبل بحماسة، دار الدكتور ادكينز على المحتفين به وهو يحيي أصدقاءه القدامى ويتقبل التهنئات. ثم توجه وزوجته فيث لتمضية خمسة أيام في ولاية فلوريدا المشمسة. وهناك لاحظ زوجان آخران معهما أن أدكينز لم يكن على ما يرام، وأنه فقد بعضاً من اندفاعه.

وبعد اسبوعين من عودتهما الى بيت حسدا، أصيب أدكينز بزكام حاد رافقه غثيان وحمى وتقيؤ واسهال. وزالت تلك الأعراض بعد أيام، ليحل محلها سعال شديد وارهاق لم يعرف له مثيلا. وأرغمه ذلك على النوم بعد العشاء مباشرة، على رغم نومه عصراً. وفي الصباح كان يشعر بحاجة الى البقاء في السرير. وعسر عليه أن يمارس عمله العادي في الجراحة من غير أن يهده التعب.

وكان سعاله يلعلع من أعماق صدره وازداد قلقه بعد اخفاق العقاقير العادية في تحسين حاله.

لكن الدكتور ادكينز كان يعرف أن تاريخه يقف ضده في هذه الحال. صحيح أن جسمه ما زال محافظاً على وسامته الرياضية، الا أنه لم ينقطع عن التدخين منذ السن الخامسة عشرة. وأضحى أكثر ادماناً بعد خدمته كجراح في مستشفيات عسكرية ابان الحرب الكورية. ولم يخفَ عليه ما يعنيه تدخين ثلاثين سيجارة يومياً طوال أربعين سنة. ذلك أنه استأصل بيده نحو ألفي ورم سرطاني من منطقة الرئة. غير أن تبعات عمله المتواصل منعته من تطبيق معرفته وخبرته على نفسه.

وبذل جهداً شاقاً للتخلي عن التدخين. وهنأه زملاؤه على قوة ارادته، وهم طالما أبدوا عجبهم حيال جراح صدر يدخن السجائر. ولم تعد اجتماعات الاساتذة تقاس مدتها بعدد المنافض التي يملأها باعقاب السجائر.

وخف سعاله، ولكن لم يختفِ. وكان ابنه الثاني مارك، وهو طالب طب في سنته الأخيرة في جامعة جورج واشنطن، انتقد والديه كثيراً على التدخين وحثهما على هجر تلك العادة السيئة. وفي مساء من منتصف مارس (آذار) قال مارك لوالده "ينبغي أن تخضع للتصوير بالأشعة".

واذ لم يحصل على جواب كرر اقتراحه. وأخيراً قال أدكينز: "أجل، سيكون ما تريد". كما وعد زوجته باجراء فحص طبي شامل.

وغدا ادكينز سريع التأثر. وتورم وجهه كما لو كان وزنه زاد على نحو غير طبيعي. ولدى اصابته بنوبة سعال وتقيؤ جديدة أواخر ذاك الشهر، اضطر الى أمر لم يلجأ اليه قط من قبل. فخابر سكرتيرته سيندي فيسك ليقول انه مريض ولا يمكنه الذهاب الى المستشفى، وأضاف أن الأمر متعلق بالانقطاع عن التدخين.

وسرت سيندي لقطعه التدخين. وطالما شعرت بالارتباك لدى تعبير المرضى عن دهشتهم من وجود ذلك العدد من المنافض في عيادة جراح للصدر. وهي لم تصرح البته بأن المنافض هي للجراح نفسه.

أما رفض بول أدكينز الخضوع لتصوير صدره يوماً بعد يوم وهو يمر أمام دائرة الأشعة في المستشفى، فربما كان سببه مزيجاً من الخوف والتفاؤل. ولكن بعد ازدياد حدة التعب والسعال، لم يجد أدكينز بداً من الطلب الى سيندي أن تحدد له موعداً لاخذ الصورة.

لسعة أفعى

ذلك الصباح أجرى الدكتور ادكينز جراحة لمريض واستأصل ورماً من صدره. وتوجه بعد ذلك الى مكتبه في الطبقة الثامنة من بناية مقابلة للمستشفى. وفي العصر ركب المصعد متوجها الى قسم التصوير بالاشعة في المبنى نفسه.

واستغرق تصوير الصدر، أمامياً وجانبياً، ثواني قليلة. ونظر ادكينز وهو يزرر قميصه، الى الموظف وهو يعلق الصورة فوق لوحة ضوئية.

وثبت عينيه على اللوحة،ثم تقدم لالقاء نظرة فاحصة. وشاهد في الفلقة العليا لرئته اليمنى بقعة رمادية كبيرة كالظل . وكان شكلها غير مألوف، وهي في حجم بيضة. أما في الصورة الجانبية فشاهد مجسات كالخيوط ممتدة الى رئته وهي على وشك تطويقها. ثم أجال النظر فرأى ظلا عريضاً في المَنْصِف، وهو الحيز الصدري الذي يضم القلبَ وكل ما في الصدر باستثناء الرئتين، وذلك على جانبي الرُغامي أي القصبة الهوائية، حيث توجد العقد اللمفاوية. ورأى ظلا آخر في الناحية اليسرى فوق الوتين (القوس الأورطي).

بعد ذلك نظر ادكينز الى ساعة الحائط فوق اللوحة الضوئية، وكانت تشير الى الثالثة والدقيقة العاشرة من بعد ظهر الاربعاء الواقع فيه الثاني من ابريل (نيسان) ١٩٨٠. وقال لنفسه: "لقد قرأتُ نعيي".

وحاول السيطرة على أعصابه وهو يأخذ الصورة ويضعها في غلاف كبير. ثم خرج بهدوء. وفي عيادته راحت أفكاره، تدوِّم في رأسه:ألا يعقل أن يكون شاهد في الصورة ما ليس فيها حقاً؟ألا يعقل أن يكون خياله نسج الأوهام؟

ودخل عيادة جاره الدكتور بنجامين آرون، رئيس دائرة جراحة القلب في جامعة جورج واشنطن، قائلا: "لديَّ شيء أُريد أن تراه. ما قولك في هذا؟".

وثبت آرون الصورة على اللوحة الضوئية وأجاب بسرعة: "يبدو هذا سرطاناً خبيثاً في الرئة".

- انها صورة رئتي" بالذات.

وللحال وضع آرون يده على كتف الرجُل الذي أدخله المستشفى. وسبق أن حلل الاثنان صُوراً لا تُحصى من هذا القبيل. ولم يشك أيٌ منهما، وهو ينظر الى تلك الصورة، أنها تكشف عن سرطان في مرحلته الاخيرة، لا يمكن اجراء جراحة عليه.

وراح الدكتور ادكينز يقول ويعيد: "اللعنة، اللعنة." وهو يضرب قبضته على طاولته. كيف يحصل هذا الأمر بعدما أنجز ما أنجز؟

وغادر آرون عيادته، فيما أخذ ادكينز يذرع المكان. وهو لم يكن يلفظ عبارة "سرطان" أمام مرضاه، بل كان يلجأ الى عبارات مثل "ورم" أو" بقعة خبيثة" تخفيفاً للصدمة. وكان يحاول التأكيد لهم أن في امكانه أن يفعل الكثير من أجلهم، وأن المعجزات ممكنة. أما هو فلم يحصل من زميله على جواب مطمئن، بل سقطت عليه الاخبار كلسعة أفعى.

غير أنه شاء الحصول على رأي خبير آخر هو الدكتور ديفيد روكوف، رئيس دائرة تشخيص الصور الصدرية في الجامعة. وما أن ثبت روكوف الصورة على لوحته الضوئية حتى غرق ادكينز في مقعده وقال بنبرات خائفة: "ديف، لقد قُضي عليَّ".

ونظر روكوف الى الصور، ثم تكلم وفي صوته ألم كثير: "أتريدني أن أُخبرك ما أراه، أم تفضل أن أستدعي شخصاً آخر؟".

- لا، بل تحدث أنت.

وكان أخطر ما في الأمر انتشار

السرطان من الرئة اليمنى الى اليسرى وانتقاله الى العقد المفاوية. وكانت الشعبة الرئيسية اليسرى، وهي ممر هوائي بين الرغامى والرئة، متقلصة جداً بفعل الورم. وهنا يكمن سبب السعال.

وأرغم الدكتور ادكينز نفسه على الاصغاء الى كل كلمة.

وبعد انتهاء الحديث اقترح روكوف أن يأخذ صديقه الى المنزل في سيارته، علماً منه أن خبراً كهذا يخل بالتوازن النفسي. لكن أدكينز رفض ذلك، وشاء أن يقابل طبيبه الخاص الدكتور تشارلز طومسون، هو اختصاصي بالامراض الداخلية يعمل في عيادة خاصة بعدما أمضى أكثر من ثلاثين سنة استاذاً للطب في جامعة جورج واشنطن. وكان ذا وجه شبيه بالبوم وشعر رمادي. وما زال، في سنه الخامسة والستين، يتكلم بصوت هادر ويرد على المخابرات الهاتفية بنفسه سائلا: "من يكون هذا المزعج؟"

لكن تلك الفظاظة الخارجية كانت تخفي وراءها انساناً مرهف الاحساس، سريعاً الى التأثر وحتى الى البكاء. ذلك أن تشارلز وولترز طومسون طبيب يكترث لحال مرضاه ويصارع الاقدار من أجل راحتهم وسعادتهم. وقد تعرّف على ادكينز وتصادقا منذ الخمسينات. وعلى رغم اختلافهما في الاسلوب، الا أنهما آمنا بقيم طبية واحدة.

وكان بول ادكينز خابر صديقه في اليوم الفائت يشكو حاله. وحثه طومسون على أخذ صورة بالاشعة

واجراء فحص طبي شامل. وخابر ادكينز من جديد ليقول ان الصور في حوزته ويستشيره حول ما يجب فعله "لدي سرطان جانبي خبيث في الرئة، لا يمكن اجراء جراحة له."

– تعال اليّ فوراً.

وجلس الاثنان وجهاً لوجه وأخذ يتكلمان. ولام أدكينز نفسه على التدخين. لكنه في الوقت نفسه عبّر عن ارتياحه لتمكّنه من تأمين نفقات أبنائه الأربعة. وكان كبيرهم ديفيد في التاسعة والعشرين، وهو خبير في بورصة واشنطن. وكان مارك (٢٦ سنة) في كلية الطب، وبول (٢١ سنة) في سنته قبل الأخيرة في جامعة باكنل. أما صغيرهم بيل البالغ السابعة عشرة، فكان تلميذ في مدرسة ثانوية خاصة.

وأدرك تشارلز طومسون أن ثمة حاجة تتجاوز المهارة الطبية في حال صديقه. وأخذ يفتح كوة على الأمل فقال ان انتشار السرطان ربما كان محدوداً. لكن التأكد من ذلك تلزمه فحوص نووية. وجسّ النبض في عنق ادكينز، ووجد في ذلك علامة مشجعة وهي خلو العقد اللمفاوية هناك من الاصابة. وسرعان ما أخذ ادكينز يتكلم بتفاؤل.

ولما طُرح السؤال عمن يود أن يُعنى به، أجاب أدكينز من غير تردد: "أنت يا شارلي". ووافق طومسون على رغبة صديقه.

حلم مزعج

انقضت أربعون سنة على لقاء في... وبول أدكينز. كان بول شاباً طوي...

ووسيماً وشديد الحياء، وعضواً في فريقي كرة القدم وكرة السلة في المدرسة الثانوية في العاصمة واشنطن. كما كان تلميذاً لامعاً حافظ على المرتبة الاولى في صفه.

أما فيث فكانت صبية جذابة ورقيقة وسوداء الشعر وذات سرعة بديهة. وكان منزلاهما متجاورين، على رغم أن منزله يقع في العاصمة ومنزلها هي في بلدة سيلفر سبرينغ في ولاية ماريلاند. وبالحاح من احدى زميلات المدرسة، ذهبت اليه يوماً وسألته بجرأة أن يرافقها الى حفلة في المدرسة. فابتسم وقبل الطلب.

وتراسلا خلال دراسته الطب في جامعة جونز هوبكنز في بالتيمور (ماريلاند). وتم زواجهما عام ١٩٤٩ وهو يتابع تخصصه بالجراحة في المستشفى التابع للجامعة ويتقاضى ١٦،٦٦ دولاراً في الشهر. ومن أجل معيشتهما، أضافا الى المبلغ ما كانت تحصله فيث كباحثة بيولوجيةفي أحد مستشفيات بالتيمور.

وبعد خدمته طبيباً في الجيش الامريكي في كوريا واليابان، عاد الدكتور ادكينز الى واشنطن عام ١٩٥٢ وانضم الى مستشفى جامعة جورج واشنطن كجراح عام ثم كجراح مختص بالصدر. وتخلت فيث عن مهنتها لتكرس حياتها للمنزل، فتعتني بزوجها وأولادها وحديقتها وتعزف على البيانو في أوقات فراغها. وفي وقت لاحق بدأت تمارس رياضة الغولف بتشجيع من بول الذي شاء أن يكونا معاً وقتاً أطول.

وهو كان خارج البيت معظم الوقت، وكان عليها أن تتعهد أربعة أبناء أقوياء البنية والشخصية. لكن العائلة بقيت مترابطة، وكانوا يسافرون معاً كلما سنحت لهم الفرصة. وما فتىء بول يردد يوماً بعد يوم على مسمع فيث: "هل قلت لك اليوم أني أحبك كثيراً؟" أما هي فلم تمل سماع تلك العبارة.

ودُهشت فيث أدكينز ذلكالاربعاء لدى رؤيتها سيارة زوجها الكبيرة تدخل الباحة عصراً. فالساعة كانت الرابعة والدقيقة الخامسة والخمسين، وهو لا يؤوب عادة قبل السادسة والنصف أو السابعة.

وأسرع نحو الدرج وطوقها بذراعيه وشدها اليه. ثم باح لها بكل شيء من غير زيادة ولا نقصان، كما سمعه تماماً. وهي كانت تدري أنه مريض، وان لم تدرك مدى مرضه. غير أنها صعقت لما سمعته.

وتابعا الكلام. ومنذ تلك اللحظة قبلت فيث الامر من غير أن تنسج حوله الاوهام. فهي امرأة ذات شجاعة غير عادية. وسمعت بأذنيها الكلمات الآتية: "سرطان رئة غير قابل للجراحة." وأخذت تبكي وهي تدرك أن زوجها، منذ تلك اللحظة، سيحتاج اليها اكثر من أي وقت مضى.

وأخبر الاولاد بالامر. وفي الصباح التالي قال مارك لوالده: "ما أخبرتني اياه مساء أمس... قل لي إنه حلم مزعج رأيته."

وأجابه أبوه بهدوء: "ليت لي أن أخبرك هذا."

وفي نهاية ذلك الاسبوع، لاحظ الدكتور ادكينز أنه لا يستطيع تزرير قميصه عند العنق. فقد تضخمت رقبته وامتلأ وجهه. وشخص المرض بنفسه: "إنه انسداد الوريد الاجوف."

والوريد الاجوف هو الوريد الرئيسي الذي يعيد الدم الى القلب. وما قد أتى عليه الورم بحيث سده، فأعاق رجوع الدم كله اليه وسبب بذلك انتفاخاً في العنق والوجه. وقلق ادكينز للسرعة التي حصل بها هذا الامر.

وفي الاثنين الواقع فيه السابع من ابريل (نيسان)، توجه أدكينز الى المستشفى كالمعتاد. الا أنه، هذه المرة، دخل المكان كمريض لاستئصال قطعة من نسيج جسده ودراستها مجهرياً.

وبدأ الدكتور آرون يقيس نبض عنقه. ووجد بعض تضخم في العقد اللمفاوية لم يكن هناك قبل خمسة أيام. وهذا امر حسن لتحليل النسيج، إذ لا يقتضي شق الصدر. لكنه من ناحية اخرى يعني انتشار المرض سريعاً.

وفي اليوم التالي أخضع بول ادكينز لتخدير موضعي، ثم فتح الدكتور آرون شقاً قرب الترقوة. وحز اللحم بمشرطه حتى العقد اللمفاوية، حيث وقع على عقدة متورمة. وكانت قاسية وبيضاء ومحاطة بنسيج واق، ولكن يبدو أن الدم لا يأتيها الا بمقدار ضئيل. وانتفخت أكثر حين قطعها ليأخذ منها عينة. وعرف آرون أنه يقطع ورماً خبيثاً.

واستغرق زرع العينة نصف ساعة.

وبعد دقائق ظهرت نتيجة التحليل مبينة أن ذلك الورم ان هو ا السرطان.

وكان مارك ادكينز الذي يتابـ تخصصه بالجراحة في الطبقة السادسـ من المستشفى، حيث أمضى والد عشر سنين سيداً للجناح، ينتظر خار غرفة الجراحة. وتحدث باقتضاب الـ والده في غرفة النقاهة قبل أن يختلـ بالدكتور آرون. وقال له هذا، رداً علـ سؤاله، ان المصابين بهذا النوع مـ المرض يصمدون أشهراً قليلة. وشكر مارك على صراحته.

أطباء الغد

ان تدريب الاطباء الجدد علـ الجراحة هو من أشد الامور د وتعقيداً. وكانت خطة الدكتور ادكيـ تعتمد إتاحة أكبر مقدار ممكن مـ الحرية لهم لكي يتعلموا من التجربة شرط أن يفعلوا كل شيء لمصلـ مرضاهم. وبعد صراعهم مع إحد المسائل كان يشرح لهم كيف ينبغي أ يتصدوا لها. وما أن يفرغ من الجراد حتى يقول لهم: "توخوا النظافـ والدقة، ولكن من غير بهرجة." وأجمع الطلاب المختصون على أ أفضل استاذ للطب في الاستفتاء الذ أجري عام ١٩٧٥.

وكان في وسع الدكتور ادكينز أ يفتح عيادة خاصة خارج المستشفـ ويضاعف دخله أربع مرات. لكنه أحـ أن يبقى ما هو وحيث هو. وكان يجـ متعته الكبيرة في تخريج أفوا الاطباء وإرسالهم الى العالم.

ومرة أسر الى صديق بأنه لم يقصـ



"المعلم" الدكتور بول ادكينز خلال جراحة.

قط التهويل على طلابه، وأن الصرامة كانت من طبعه. وكان أحياناً يرمي قلمه فيصيب أحد الطلاب. غير أن الطالب لم يكن يحنق، لمعرفته أن المعلم لم يقصد إهانته البتة.

الا أن أدكينز لم يكن بالشخص البارد أو الجامد الذي تصوره الكثيرون. والصلابة التي تميز بها انما كانت من مقتضيات مهنته. فالمرء لا يدرب الاطباء بتساهله معهم.

وفي المساء الذي أعقب استئصال العقدة وزرعها وتحليلها، غصت غرفة الدكتور ادكينز في المستشفى بالزوار من ممرضين وممرضات وأطباء مقيمين وزملاء، وقد أتوا جميعاً لتحيته وتمني الشفاء العاجل له. وشرب بعض طلابه نخب صحته، فيما رويت الحكايات والنكات.

وكان لذلك أثره العظيم في نفس أدكينز، اذ هزه من الاعماق. ولم يكن يدري أن هذا العدد من الناس يكن له المحبة والتقدير.

تدابير جذرية

في الايام الخمسة التي أمضاها الدكتور ادكينز في المستشفى، لم تظهر فحوص العظم والكبد والرأس انتشاراً للمرض. ومما شجعه أكثر أن علاج الاشعة الذي بدأ قبل خمسة أيام قلص الورم بحيث بات ممكناً إجراء جراحة لصدره بهدف استئصال الورم. واستعاد عنقه ووجهه الحجم الطبيعي. وتقرر متابعة العلاج بالاشعة خلال الاسبوعين اللاحقين، ثم معاودته في شهر مايو (أيار) واتمامه في يونيو (حزيران).

وأظهر تقرير طبي مفصل أن السرطان الذي ابتلاه هو ذو مصدر غدي. وهذا نوع من سرطان الرئة يعزى الى التدخين. ولم يشك ادكينز البتة في أن التدخين سبب مرضه.

فهو كان مطلعاً على النظرة القائلة بأن التدخين قد يؤدي الى التهاب إحدى الخلايا الرئوية، وان هذه الخلية تتحول مع الوقت سرطاناً خبيثاً ينقسم باستمرار الى أن يستحيل ورماً ضخماً.

أجل، ان أخطار التدخين لم تخفَ على ادكينز، لكنه لجأ الى حجة الوراثة. فأبوه كان مدخناً مدمناً عَمَّرَ حتى حدود التسعين. وأمه بلغت التسعين ولم تزل تدخن بلا انقطاع وهي في أحد بيوت التمريض في بلدة بيت حسدا. وكان يحمل اليها زاداً من السجائر كلما زارها.

ولئن هيمنت أفكار المرض على ادكينز في الايام التي أعقبت صورة صدره الاولى، الا انه تناسى ذلك بعدما عاوده بعض البأس، وحول أفكاره الى امور أكثر إشراقاً. وقد شاء ذلك الشخص المحب للنظام أن يصد عنه الشعور بالشفقة على الذات ويعيش حياة طبيعية من يوم الى يوم.

وما لبث زملاء ادكينز جميعاً في انحاء الولايات المتحدة أن سمعوا بمرضه. وبينما كان يبل في المنزل، تلقى مخابرة هاتفية من رفيق قديم هو الدكتور ادوارد بيتي كبير الاطباء في مركز سلون كيتيرينغ التذكاري للسرطان في مدينة نيويورك، يدعوه فيها الى المركز لاجراء مزيد من الفحوص.

في تلك الاثناء كان ادكينز استعاد بعضاً من نشاطه. لذلك اقترح أن يقابل بيتي في اللقاء السنوي للجمعية الامريكية لجراحة الصدر،

الذي تقرر عقده في سان فرنسيس (كاليفورنيا) في الايام الثلاث الاخيرة من ابريل (نيسان).

وحضر بول ادكينز اللقاء كي يبره لنفسه، في المقام الاول، أن ف وسعه أن يعيش حياة طبيعية. وهنا أكد لصديقه الدكتور بيتي أنه سيت لخبراء مركز سلون كيتيرينغ اجر المزيد من الفحوص له.

ولدى عودته الى واشنطن، خض لتصوير إشعاعي محوري يمسح جس مقطعاً مقطعاً. واظهر الرسم حد الورم وعمقه وموقعه بدقة متناهي وكان هناك ضغط على الشعب الرئيسية اليسرى أكثر من السابق.

وفي صباح سبت مشمس من مط شهر مايو (أيار) طار بول وفي ادكينز الى نيويورك لمقابلة الدكت بيتي وفريقه. واقترح، بعد تحل الصور، مباشرة العلاج بالاشع وبالمواد الكيميائية، على أن تكو هذه المواد خليطاً، بمقادير كبي جداً، من البلاتين والفينديزي لمكافحة الخلايا السرطانية المنقسم واذا أظهر العلاج فعاليته خلال شهر أو ثلاثة أشهر، فالاشعة لن تقتص على القسم الخارجي من الصدر ستسلط الى الداخل.

ونظراً الى الخطر الملازم لاجتم العلاج الاشعاعي والعلاج الكيميائ والجراحة، فقد بحث بول أدكينز ف الامر مع زوجته وطبيبيه طومس وآرون، كذلك مع مستشفيات امريك اخرى. وتجدر الاشارة الى أن تسل غاز الرادون المشع داخل الجسم ك طريقة حديثة نسبياً في العلاج. و

انها سجلت ٤٠ في المئة من النجاح عبر السنوات الثلاث الماضية، لكان أدكينز قبلها دونما تردد.

وقر قراره أخيراً على البقاء في جامعة جورج واشنطن مع أناس أحبهم وأحبوه، وقبول ضروب المعالجة التي طالما أجراها على مرضاه. وهذا معناه الخضوع للعلاج الاشعاعي، حتى اذا استنفدت تلك الوسيلة لجأ الى العلاج الكيميائي اذا كان جسمه يتحمله. أما الآن فلا حاجة الى ذلك لانه لا علامة على انتشار المرض. وقد وجد ادكينز عزاء كبيراً في هذا الامر.

وحثه الاصدقاء على السفر الى تاهيتي أو باريس أو أي مكان آخر للاستجمام. لكنه خشي أن يؤدي ابتعاده عن المألوف الى تركيز انتباهه على مرضه. وشاء الاستمرار في عمله كالمعتاد لئلا يكسر الوتيرة. وطلب الى الدكتور نيوفيتوس تسانغاريس أن يكون رئيساً مشاركاً لقسم الجراحة ويعاونه في الشؤون الادارية. وهكذا قرر أن يأتي يومياً الى مكتبه، وهو المكان الذي شاء أن يبقى فيه.

وفي وقت متقدم من ذلك الصيف، بثت احدى شركات التلفزيون برنامجاً عن امرأة قررت وضع حد لحياتها بمساعدة عائلتها وأصدقائها، خوفاً من مواجهة عواقب سرطان الصدر الذي مُنيت به. وتساءل ادكينز: "كيف يمكنها ان تفعل هذا؟" فهو عالج مئات ضحايا السرطان في مراحل مرضهم الأخيرة، ولا يتذكر ان أياً منهم أقدم على الانتحار باستثناء واحد ابتُلي بسرطان الرئة.

وعلق ادكينز على الأمر بالآتي: "ليس الانتحار، في رأيي، اختياراً عملياً".

وفي أواخر مايو (أيار) بقي الدكتور أدكينز يعاني بعض الغثيان من جراء العلاج بالأشعة. الا انه شعر بتحسُّن عام مع بعض قوة، وان يكن فَقَدَ عشرة كيلوغرامات من وزنه الذي كان ٧٨ كيلوغراماً، كما فقد شهيته. واتسعت ملابسه وبات يكره قول الآخرين له انه يبدو في حال جيدة في حين كان يعرف ان الأمر ليس كذلك.

وفي ٢٣ مايو (أيار) تخرّج ابنه مارك في كلية الطب في جامعة جورج واشنطن. وكان ذلك تتويجاً لمرحلة شاقة في حياة مارك وفرَحاً عظيماً لوالده الذي كان افتخاره كبيراً بابنائه الاربعة.

وأُقيمت احتفالات التخرج عصر يوم جمعة مشمس ودافىء. وبدأ بول ادكينز يتحسس اكثر من ذي قبل الأشياء الأليفة التي طالما أخذها كأمور مفروغ منها.

وقُرىء اسم مارك أدكينز أولاً. وما ان سمعه ابوه الجالس على المنبر ببزته الجامعية حتى علت وجهه ابتسامة افتخار لم تفارقه فيما كانت نظراته ترافق مارك وهو يرتقي المنصة لتسلّم شهادته.

وفي مطلع يونيو (حزيران) فقد ادكينز بعضاً من قوته، لكنه قدّر ان في امكانه ان يعيش حياة طبيعية طوال سنة او أكثر. وكان يلعب

الغولف في نهاية الاسبوع ويؤدي كثيراً من واجباته في المستشفى، بما فيها الجراحة.

وفي يوم اثنين، بينما هو يغادر اجتماعاً ومعنوياته مرتفعة، قال لزميله ديفيد روكوف الذي كان يسير الى جانبه: "أتعرف يا ديف ان العلاج بالأشعة مفيد لممارسة الغولف؟" وهو قال هذا لأنه سجل انتصاراً رياضياً في اليوم السابق.

وباشر الدكتور ادكينز علاجاً بمادة اسمها "ثيموزين". وقد استخدمها للمرة الاولى على نفسه بعدما سُمح له، مع مجموعة من البحاثة الطبيين، باختبارها لمعالجة سرطان الرئة.

"صيف آخر جميل"

كان الوقت باكراً عندما نزل طبيب شاب الى جناح الأشعة الخاص بمرض السرطان في مستشفى جامعة جورج واشنطن، حيث كان الدكتور ادكينز ينتظر دوره. وهم الطبيب الشاب بتحيته، لكنه رأى مشهداً تجمدت له أوصاله. فقد كان ادكينز يدخن. وتابع الطبيب طريقه من غير ان يقول كلمة.

وفي وقت لاحق من ذلك الاسبوع اعترف ادكينز لأحد اصدقائه، جواباً عن سؤاله، بأنه ما زال يدخن. وأضاف انه أدمن التدخين بحيث عجز عن قطعه كلياً على رغم معرفته انه سبب مرضه. وقال: "لقد قُضي الأمر ولم يعد في الانقطاع منفعة."

غير انه في الوقت نفسه كان يعرف ان قطع التدخين في تلك المرحلة من شأنه تحسين طاقته على التنفس.

وفي ١٣ يونيو (حزيران) كا
الدكتور ادكينز أُعطي مقداراً م
الأشعة لا يمكن تجاوزه بالنسبة ال
المنطقة الصدرية. وكان ذلك يو
جمعة. وما ان حلَّ الأحد حتى اشت
عليه الغثيان وأحس التهاباً ف
المريء صاحبته حرقة وألم.

وحمله الارهاق على صَرف نهاي
الاسبوع كلها في السرير وقد ال
الألم على معدته. وكان حدَّد الاو
من يوليو (تموز) موعداً لبداي
جديدة، ظناً منه ان أثر الاشعة سيزو
وانه سيستطيع استئناف معظ
اعماله. وعلى رغم الانتكاس الذ
اصابه، الا انه ظل متمسكاً بذلك
التاريخ كنقطة تحول. فهو شا
العودة الى المداواة والجراحة والتعلي
والغولف خلال "صيف آخر جميل".

الا انه واجه مشكلتين جديدتي
تفاقمتا مع الوقت. فقد لاحظ تقرح
في شفته بَدا أنه يكبر باطراد، كم
لاحظ ألماً في ظهره للمرة الاولى.

واحضر له ابنه مارك اطعمة طبي
مغذية، لكنه لم يُطق طعمها. وأخير
وجد مارك مستحضراً اسمه "ميريتين
امكن والده ان يتحمله. وكانت فيث
ادكينز تضيف سراً الى ذلك
المستحضر، وهي تمزجه بالحليب
بعضاً من البيض والقشدة. فقد هالها
ان ترى زوجها على ذلك المقدار من
النحول.

وفي اواخر يونيو (حزيران) غادر
مارك منزله في واشنطن الى نيويورك
بعدما قبلته جامعتها المرموقة
للتخصص بالجراحة. وكان عليه
التكيُّف لبرنامج شاق يعطيه اجازات

قليلة يمكنه خلالها زيارة المنزل، وطمأنه والده الى ان البرنامج الجديد لن يكون قاسياً كما تصوره، وان جميع المتخصصين الجدد يضطربون وهم على عتبة العمل. وراود الأب وابنه شعور حزين هو الخوف من ان تكون تلك مواجهتهما الأخيرة. وكان بول ادكينز يخشى اشتداد العاطفة الذي قد يدفعه الى البكاء. لذلك قطع الكلام سريعاً وودع ابنه.

وفي ٢٧ يونيو (حزيران) اخذت صورة جديدة لعظم الدكتور ادكينز وكبده، تبين على اثرها ان المرض باق في مكانه. لكن تقرح شفته بقي على ازدياد، كذلك الألم في ظهره. وكانت فيث تدلك ظهره بتؤدة بعد العشاء، وهي حزينة الى حد يفوق الوصف لرؤية جسد زوجها، الذي كان قوياً يوماً، ينهار أمامها.

وجاء الاسبوع الاول من يوليو (تموز) على نقيض ما رجاه ادكينز. فقد ساء التقرح في شفته العليا ولم يُجْدِ فيه المرهم.

وظنّ الدكتور ميرفين الفارت، رئيس دائرة الامراض الجلدية في الجامعة، ان ذلك النتوء الأحمر هو من قبيل سرطان الجلد. واقتطع جزءاً منه لتحليله مجهرياً، فظهرت له خلايا سوداء كبيرة وراء القشرة الخارجية اكدت له، وهو يقارنها بتحليل العقد اللمفاوية الذي أجري في ابريل (نيسان)، ان في الأمر سرطاناً. والمخيف ان المرض بدأ ينتشر مع الدورة الدموية.

وبعد ثلاث ساعات من بدء التحليل قال الفارت لزميله: "يؤسفني، يا بول، ان أخبرك ان التورم في شفتك يبدو امتداداً للمرض".

ولم يكن الدكتور ادكينز يشك في ان الخلايا الخبيثة التي وصلت الى شفته يمكن ان تنتشر في انحاء جسمه جميعاً. وهذا يعني ان المرض يدب فيه عضواً عضواً ولا يترك له وقتاً طويلاً.

ولم ينم بول ادكينز كما ينبغي في الليالي التي اعقبت ذلك الفحص، بل كان يقبع في السرير وهو يفكر كيف سيستطيع احتمال العذاب من غير ان يجفل. والحق انه استمد حس الصبر من مرضاه الذين، بمعنى، اعطوه أكثر مما أعطاهم. فهم علموه كيف يواجه المرحلة الأخيرة بشجاعة وصبر.

وفي عصر يوم من مطلع يوليو (تموز) أحس ضيقاً في تنفسه بينما كان يرتقي السلم. وفي مساء اليوم نفسه غدا تنفُّسه شاقاً بعد اصابته بنوبة سعال قوية. وقلقت فيث ادكينز لذلك، لكن بول طمأنها، في حين ان خوفه لم يقل عن خوفها.

وتناول الكودييين الذي خفف سعاله ليلاً. وكان قرر اجراء جراحة لاحد مرضاه في الصباح التالي، وأزمع على المضي بها. والمريض امرأة في الستين اصابها السرطان في رئتها اليمنى حيث أصابه هو تماماً.

وكانت غرفة العمليات أفضل مكان يمارس الدكتور ادكينز خير مهاراته. وهي كانت تحدد معنى حياته، فضلا عن كونها الجدار الذي يعزله عن العالم ويمنحه الخصوصية. وربما كان في تلك الجراحة العتيدة عون له على فهم مرضه أكثر.

لكن الدكتور ادكينز أحس تعباً شديداً وانقطاعاً في النفس وهو في غرفة العمليات صباح الاثنين. وفكر احد الطبيبين المعاونين في اخذ العبء عنه، من غير ان يجرؤ على التعبير عن رأيه. وثابر ادكينز على عمله،وان يكن على نحو أبطأ من المعتاد،لكنه انجز الجراحة بدقة بالغة وبكل ما أوتي من براعة. وفي وقت لاحق عاد المريضة في غرفتها وطمأنها الى ان النتيجة ممتازة وأنه سعيد جداً لحالها.

وضاق نفسه باطراد طوال ذلك اليوم. وفي آخر العصر بات عاجزاً عن المشي عبر الغرفة. واشار عليه الاختصاصيون بدخول المستشفى كمريض. غير انه خابر تشارلز طومسون وطلب اليه ان يأتي لفحصه، وأضاف: "بربك يا شارلي، لا تُدخلني المستشفى." فهو كان يخشى الا يغادر المستشفى مطلقاً ان هو دخله.

واقتناعاً منه بأن ضيق النفس ناجم عن ذات الرئة التي هي، بدورها، من نتائج العلاج بالأشعة، وصف الدكتور طومسون الكورتيزون لصديقه. وسار معه الى صيدلية المستشفى لشراء كمية كبيرة من ذلك العقار. وتركه طومسون قافلاً الى منزله وهو يخشى ان يكون اخطأ في تشخيصه. وما لبث ادكينز أن خابره في الثامنة مساء ليقول ان الكورتيزون حسَّن حاله.

وخف ضيق النفس، لكنه لم يزل. وحمل الدكتور ادكينز قارورة اوكسيجين معه الى البيت، وبات يتنشق منها صباحاً لفتح قصبته

الهوائية، ويكرر العملية ظهراً في المستشفى ومساء بعد عودته ال المنزل.

مقامرة

اظهرت الصورة التي أجريت في 1 يوليو (تموز) أن ذات الرئة زالت غير ان عسر التنفس لم يذهب معها ومعنى ذلك واضح، وهو ان الرئ تقلصت حجماً وانسدت الشعبتا الرئيسيتان على نحو اكبر.

ورفض الدكتور ادكينز مراراً، في الآونة الاخيرة، ان يلقي نظرة عل صوره الصدرية لأنه شاء ان يجنب نفسه المزيد من القلق. وبالاتفاق م مدير المختبر، قرر الدكتور طومسو حجب النتائج الأخيرة عن ادكينز.

وأدرك الدكتور أدكينز ان ثمة امر غريباً، لكنه عزا قصر النفس ليس ال المرض بل الى العلاج. وهذا جل م بقي له من أمل بعد زوال توقعات المتفائلة.

ولم يعتم ان قطع التدخين كلي بعدما بات يحتاج الى كل مقدار ضئي من الهواء الداخل الى رئتيه. ومرت أيام في يوليو (تموز) شعر تحسن ملحوظاً لولا ضيق النفس. ومرة طلب منه زميل ان يعاين مريضاً، فوافق على الفور رغبة منه في أن يؤك ذاته.

وكان المريض امرأة متوسطة الس أجريت لها حديثاً جراحة في الدماغ لاستئصال ورم مصدره سرطان في الرئة. وقدّر الدكتور أدكينز ان تلك المرأة ستعمر ستة اشهر. وبينما ه يتحدث اليها، اخذت تبكي وتشك

طبيباً شاباً قال لها انها ستقضي الصيف كله في المستشفى وان احداً لا يدري ما سيحدث لها.

وبذل ادكينز قصارى جهده لتهدئة المريضة. ثم توجه الى عيادته وخابر طبيبها، شاكياً الطبيب الشاب الذي اخافها بكلامه. وكان ذلك السلوك غير مشروع وسيئاً خُلقياً في نظر أدكينز. وهو طالما وبخ الأطباء على امور كهذه في السابق.

وفي وقت متقدم من ذلك العصر، ذهب الى مختبر الأشعة من أجل تقرح شفته السرطاني الذي أخذ يتقلص. وأعطي حقنة أخرى من الثيموزين. وفي نهاية الاسبوع لعب الغولف وسجل رقماً حسناً.

وتجدر الاشارة الى ان بول ادكينز كان يمقت العلاج الكيميائي ولا يفكر في اللجوء اليه الا كحل اخير. لكن قرار الخضوع لهذا العلاج بات وشيكاً في حاله ولا يحتمل التأجيل.

وفي أواخر يوليو (تموز) قصد تشارلز طومسون. وقد قويت صداقتهما بعدما اصبحت علاقتهما يومية. وسأله طومسون ان كان اتخذ قراراً بالنسبة الى العلاج الكيميائي. أما ادكينز فحوّل السؤال الى صديقه، سائلا اياه ماذا يفعل اذا كان الأمر متعلقاً به هو. فقال طومسون انه يخضع للعلاج الكيميائي لانه يحمل فرصة النجاة الوحيدة.

وخضع ادكينز لفحوص عدة، تبين على اثرها ان صدره صاف وان اعصاب جمجمته نظيفة ولا اثر فيها للورم الذي يسهل صعوده من الرئة الى الدماغ. لكنه كان يحس جسمه قوياً يوماً وضعيفاً يوماً آخر. الا ان قوته كانت نسبية وظلت على تضاؤل.

وقال له طومسون وهما يفترقان: "لا تنسَ يا بول ان لديك حظاً في الشفاء. واذا لم يُجدِ العلاج الكيميائي، فلسوف نشرب نخب صداقتنا وننسى الشقاء."

وكان عيد ميلاد بول ادكينز الخامس والخمسون - والأخير كما يعرف هو جيداً - يصادف الحادي والعشرين من يوليو (تموز) وهو يوم اثنين. وتقررت اقامة احتفال على شرفه يوم الجمعة التالي، على ان يبدأ العلاج الكيميائي في الثامن والعشرين من ذلك الشهر. أجل، لقد رضخ للأمر، ولكن على مضض. وهو لم يعرف طعم النوم الحقيقي طوال الأسابيع الاخيرة التي قويت أعراضه.

وخابرته سكرتيرته صباح الجمعة لتذكره بموعد الصورة الصدرية عصر ذلك اليوم. وهو، في العادة، يتذكر كل شيء. لكنه بات ينسى اموراً كثيرة في الآونة الاخيرة، ومنها ذلك الموعد.

أتراه كان يود الغاء الاحتفال بعيد ميلاده؟ كلا... لكنه صار متبرماً بوضعه وشاء التصرف على هواه.

وفي مختبر التصوير، قبل ساعتين من موعد الحفلة، وجد الدكتور روكوف ان الشعبة الرئيسية اليسرى - وعرضها الطبيعي عشرة مليمترات - تقلصت الى ثلاثة، فيما تقلصت الشعبة اليمنى حتى أصبح عرضها ستة مليمترات. وكان الورم يحيط الشعبة اليمنى ويضغط عليها، فيعوق تسرب الهواء واشباع الدم

بالاوكسيجين. ولا محالة ان نقص الاوكسيجين في الدماغ كان سبب ضعف الذاكرة الذي أصاب أدكينز. واذ عرف الدكتور روكوف ان ادكينز غير مكترث للاطلاع على نتيجة الفحص، ستر الحقيقة عنه قائلا ان الوضع لم يزل على حاله.

وفي ذلك المساء جاء اكثر من مئة مدعو الى الاحتفال، وهم من الأصدقاء القدامى والأطباء المقيمين والممرضات والزملاء. وبقي ادكينز على حاله وقتاً طويلا، لكنه لم يلبث ان اهتز من الأعماق لدى معاينته تعابير المحبة والاخلاص والاحترام تتدفق عليه من كل جانب.

وراح يخبر تشارلز طومسون، وهو يأخذه بسيارته الى البيت بعد ارفضاض الحفلة، عن زوجته فيث وقدرتها على تحمّل الوضع وماذا ستفعل بعد وفاته. وكان بول ادكينز يعرف جيداً ان النهاية تقترب، من غير ان يطلع بنفسه على الصور الجديدة.

علامة الهزيمة

قبل يوم واحد من بدء العلاج الكيميائي، لعب ادكينز الفولف. وشجعه طومسون، حاثاً اياه على الاستمتاع بأيامه ما أمكنه. وذكره ان الاقدام على العلاج الكيميائي ضرب من المقامرة التي لا تُعرَف نتائجها والتي قد تعني الحظ بالنسبة الى اللاعب.

استغرق حقن البلاتين والفينديزين سبع ساعات ونصف ساعة ملأى بالملل والألم. واسترخى ادكينز على اريكة في قسم الدم وهو يتلقى الدواء عبـ الاوردة. وبلغ اضطرابه مبلغاً منعه مـ القراءة أو النوم، ولدى انتهاء العلا الكيميائي في الرابعة بعد الظهر هرع الى الدكتور طومسون يخبره ا ألم ظهره بات مبرحاً وانه لا يشعـ بأي علة اخرى. وسمح له طومسو بمغادرة المستشفى، فذهب مع زوجتـ الى البيت.

وكان مرتاحاً معظم الثلاثاء. لكنـ تلك الليلة بعد العشاء أفرغ كل مـ أكله وظل يتقيأ كل ما يتناوله مـ طعام أو شراب طوال اليومين التاليين. وخارت قواه وغدا عسير عليه النهوض من غير ان يفقـ الوعي.

وأُخذ الى قسم الدم في المستشفى حيث أعطي على الفو حقناً وريدية تعويضاً عن الماء الذي فقده جسمه. وجاء اليه ثلاثة زملا يخففون عنه. وراحوا يروون النكات وهو ينتظر دخول السوائل جسمه.

وتحسن قليلا على اثر ذلك العلا وخفت نوبات الدوار القوية. وعلى رغم ان الضعف العام لم يفارقه، الا انه استأنف عمله الطبي والاداري وعاد يجيب عن الرسائل والمكالمات الهاتفية.

وساء ضيق نفسه. وازداد الألم في ظهره بحيث صار مرغماً على اخذ حمام ساخن مرتين خلال الليل. وكان يضع مرهماً مسكناً بعد الحمام، فيما تدلكه زوجته ليلاً. ولم يتأكد ما الذي يقض مضجعه: أهو السرطان أم العلاج الكيميائي؟ وقرّ رأيه على قطع العلاج والاستعاضة عنه بحقن



فيث وبول ادكينز وابناهما بول وبيل، يوليو (تموز) ١٩٨٠.

اسبوعية من الفينديزين. ولم يلبث ان اوقف هذه ايضاً.

وظهر عارض آخر هو التهاب الشغاف، أي الجيب المحيط بالقلب. ووجد ادكينز ذلك أمراً جانبياً ولم يشأ تحري أسبابه.

وعلى رغم احساسه ان الامور تشارف نهايتها، الا انه لم يستسلم لفكرة الموت كمنقذ من الضيق. وتقبل واقعه وخفت حدة الكآبة والغيظ والغم لديه. لقد بات السلام قريباً.

وقال لزوجته يوماً: "ان جسدي مختل برمته." لكنه طلب منها ان تأخذه في السيارة الى العمل، معللا ذلك بقوله: "ان الأمر يصبح مقضياً اذا نحن تلكأنا."

وأظهرت صور الأشعة التي أخذت للصدر في الاسبوع الأول من شهر اغسطس (آب) تقلصاً اضافياً في حجم الرئتين. وبات ادكينز يشهق من الهواء أكثر مما يمكن ان يزفره. وهذا يحصل لدى الانتفاخ الرئوي.

وفي نهاية ذلك الاسبوع جاءه أصدقاء من ريتشموند في ولاية فرجينيا، مصممين على اصطحابه مع أصدقاء آخرين للعشاء خارجاً. الا أن ادكينز لم يقوَ على ذلك، وأخبر زوجته أن قواه تتلاشى.

وانقطع نفسُه وهو في السرير ليلة الأحد. وهي المرة الاولى التي يحصل ذلك وهو نائم. وأدرك ان صيفه الأخير لن يكون كما تصور.

وبعد عمله في المستشفى يوم الاثنين الواقع فيه الحادي عشر من اغسطس (آب)، ذهب عصراً لمعالجة شفته بالأشعة. وغدا تنفسه من العسر

بحيث اضطر الى التمسك بالجدران وهو يتجه نحو غايته. وما ان بلغ المكان حتى ادرك انه فقد قدرة الاعتماد على نفسه. واستدعي الدكتور طومسون. ولما وصل بادره ادكينز بعلامة الهزيمة. وفي الرابعة والنصف من عصر اليوم نفسه، ادخل الدكتور بول ادكينز كمريض الى قسم جراحة الصدر في الطبقة السادسة، وهو القسم الذي هيمن عليه زمناً. وكان وجهه يعكس الكآبة والقهر.

ودخل عليه طبيب ناشىء هو الدكتور ريتشارد كوين، ليأخذ عينة من دمه لتحليلها. فصرخ فيه ادكينز: "دعك من الدم الآن وأعطني الاوكسيجين." وكان رفض الاوكسيجين قبل ساعات وهو في قسم الأشعة لأنه لم يشأ ان يراه الناس في تلك الحال. ورضخ الدكتور كوين للأمر لأنه صادر عن رئيس دائرة الجراحة.

الاستسلام

كان الدكتور طومسون يأمل ان يبين فحص الدم نقصاً في كمية الماء، مما يفسر ضيق النفس والضعف الجسدي. لكن أمله خاب اذ جاءت النتيجة طبيعية. وهذا يعني ان العلة صادرة عن الرئة.

وأظهرت صور الصدر مزيداً من تضخم القلب خلال الاسبوع الاخير. وقد تجمعت السوائل في الجزء الاعلى من الرئة اليمنى وأطبق الهواء على الرئتين معاً. وهذا كله يعقد الوضع ويقرّب النهاية.

وكان للاوكسيجين فعله الايجابي في

تمكين ادكينز من التنفس والتحد
من غير مشقة. وهرع اليه كل الذي
عملوا معه. ووجد زواره أنه لم يفق
روح النكتة حتى في أحلك الظروف
وقال أمام مجموعة منهم: "اذا أخذ
جميع الأمور معاً، فأفضل كثيراً للمر
ان يكون طبيباً من ان يكون مريضاً."
وخابره ابنه مارك من نيويورك
فقال له بعناء شديد ان سوائل جسد
استنزفت مرة اخرى، لكنه يأمل ا
تتحسن حاله في أيام على اثر اعطائ
الماء. وصدّق مارك حديث والده
لكنه اختصر الكلام لئلا يزعجه.
تلك الليلة قبع الدكتور ادكينز ف
سريره فيما الأنابيب تنقل الي
الاوكسيجين عبر الأنف. وكان منزعج
فلم ينم حسناً.
وأتاه الزوار أفواجاً يوم الثلاثاء
لكنه ظل يغفو ويصحو معظم النها
تحت أثر الكوديين الذي تناول
لتسكين الألم في ظهره. وأعطا
الدكتور طومسون جرعة من الفاليو
المسكن، وبقي الى جانبه حتى
منتصف الليل محاولا التفريج عنه.
وكان ادكينز ذلك المساء بذ
قصارى جهده لدخول الحمام. ول
خرج منه ساعده طومسون ف
النهوض الى سريره. وتلاقت يداهما
وشد ادكينز يد صديقه - وهو ف
العادة أقل الناس اظهاراً لعواطفه
وقال بصوت يقارب الهمس: "اشكر
يا شارلي على العناية بي."
وفي الاولى فجر الاربعاء حا
الوقت الذي عجزت رئتاه عن امدا
الدم بالاوكسيجين. وهذا يعني
انهيار الجسم عبر اختناقه. ولتعويض

ذلك أخذ قلبه يسابق الرئتين في ايصال الاوكسيجين الى الانسجة المحرومة.

وشاء أدكينز ان يحارب، ولكن لم يبقَ له ما يحارب به. وكان اتفق مع طومسون على الا يتم احياؤه اصطناعياً بعد سقوطه في غيبوبة.

وتولت الممرضة الليلية استدعاء الدكتور كوين الذي لم يذق النوم طوال الساعات العشرين الماضية. واذ عرف ان أدكينز يحتاج الى الاوكسيجين، أعطاه أنقى جرعة ممكنة فضلا عن بعض العقاقير التي تبقيه حياً ما أمكن.

وقال له أدكينز هامساً: "اسمع، اني لا اطلب سوى الراحة."

وأعطي مزيداً من المسكنات. وكمثل غريق حرِم الهواء، راح يصارع لتنشّق كل نسمة.

وفي السابعة صباحاً وصل الدكتور طومسون. في تلك الاثناء كان قلب ادكينز يخفق بمعدل ١٦٠ ضربة في الدقيقة، اي بزيادة ضعفين وأكثر عن المألوف. وعرف طومسون ان النهاية وشيكة، كما عرف ادكينز ذلك. وكان الاثنان قالا "وداعاً" الليلة الفائتة. وبعدما اعطاه طومسون دواء الديميرول المسكن، خرج الى عيادته الملأى بالمرضى. ولم ينقض وقت طويل حتى استدعي الى المستشفى.

ولم يسع ادكينز ان ينطق الا بالهمس والزفرات. ودفعته غريزة البقاء الى سؤال صديقه عن غرفة العناية الفائقة وان كان يجدر نقله اليها، على رغم اتفاقهما السابق.

وأجابه طومسون: "كلا يا بول. فأنا لا أريد ان يصلوك بالأنابيب ويزعجوك."

وهزّ أدكينز رأسه وفهم كل شيء. وشكر صديقه.

ثم تفوه طومسون بكلماته الاخيرة أمام الصديق المريض الذي اعتنى به طوال اشهر: "سأعطيك بعض راحة يا بول."

وهز ادكينز رأسه موافقاً للمرة الأخيرة. واستغرق في سبات عميق بعد حقنه بالديميرول.

وكانت فيث ادكينز وصلت الى المستشفى وأخذت تستدعي أبناءها. وتحلق الأطباء والممرضات والعديد منهم يبكي. وبقيت فيث على السرير وهي تبكي احياناً، لكنها ظلت محافظة على قوتها. وكانت تعرف ان زوجها يتلاشى، لكنها لم تتوقع ان تكون النهاية سريعة الى هذا الحد.

وفي وقت باكر من العصر، دخل الغرفة صديق قديم هو الدكتور ملتون غوساك. ونظرت اليه فيث ادكينز وقالت: "أنت تعرف يا ملتون انه أعطاني قلبه ووهبني حياته كلها. غير أنه لم ينتظر شيئاً في المقابل من أحد." وبكى الاثنان معاً.

وفي الرابعة الدقيقة الخامسة بعد الظهر، أخبر الدكتور طومسون عائلة ادكينز ان الوفاة باتت وشيكة: "لا اعرف بالضبط في اي وقت. لكن الأمر قد يدوم عشر ساعات."

وبعد عشرين دقيقة أخذت فيث ادكينز تذرف الدمع بهدوء. فقد توقف زوجها عن التنفس بعد دخوله الغيبوبة منذ الحادية عشرة قبل الظهر. وفي الرابعة والنصف أعلن

الدكتور طومسون وفاة بول أدكينز، بعد انقضاء ٤٨ ساعة على دخوله المستشفى. وقد جاءه الموت بعد أربعة اشهر وأحد عشر يوماً من مشاهدته صور صدره التي قال انه قرأها كمن يقرأ نعيه.

وقبيل وفاته، اسر بول أدكينز الى صديق اختلى به اموراً على جانب من التأمل الفلسفي. فقال انه نال ما ابتغاه من حياته. وهو كان يود ان يصرف وقتاً أطول مع عائلته، لكن الطب حتم عليه ان يعمل ساعات طويلة.

واضاف انه فخور بالاصلاحات التي أدخلها على امتحان الدخول الخاص بجراحي الصدر في الولايات المتحدة، كذلك بتعليمه في جامعة جورج واشنطن وبدائرة الجراحة التي اسسها

هناك. ولكن يؤسفه ان يقضي قبل [...] يتقاعد وقبل ان يرى احفاده.

ولم يراوده الندم على رفضه العلا[...] وفق طريقة مركز سلون كيتيري[...] الحديثة. لكنه ندم على الرضوخ للعلا[...] الكيميائي، قائلا انه كان عقيماً ف[...] حاله. وتابع: "لقد شاء الله تعالى [...] أقضي هكذا، وأنا أجد الحياة [...] المرض اسوأ من الموت."

وتشعب الحديث بين ادكين[...] وصديقه. وكان ذهنه مليئاً بأفكار [...] يتسنّ له ان يقولها كلها. وسا[...] الصديق ان كان نادماً على ام[...] اخرى، وتعجب حين هز بول ادكي[...] رأسه بالايجاب وهو يقول:

"اجل... يؤسفني اني لم اقط[...] التدخين قبل عشرين سنة."

■ جون بيكامي[...]



الكتب لغرفة الطعام!

المثقّفون يحفظون جزءاً من كتبهم في غرفة الطعام. وقد لاحظ الشاعر الانكليزي الكبير ت.اس. اليوت، وهو أحد كبار المثقّفين في عصره، أن معظم المناقشات يبدأ مع الفطور أو الغداء أو العشاء، وأنه لا بد من أن يضع المرء كتبه المهمة في متناوله.

ا.ك.ز.

استاذ أدب

كان استاذنا في مادة الأدب يعيد أوراق الامتحانات المصحّحة على نحو طريف. فهو يصنفها من حيث العلامات، بحيث يوزع الأوراق ذات العلامات الاولى ويده على مستوى رأس كل طالب. ويوزع الأوراق ذات المرتبة الثانية على مستوى الطاولة، ثمّ يتدرج حتى يصل الى أرضية الصف. وتبقى ورقتان أو ثلاث، يقول لأصحابها ان في امكانهم أخذها في منتصف الليل من مكان ما تحت الارض يتم تحديده لاحقاً.

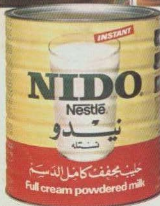
ر.ن.

أمّنوا لأولادكم نمواً صحيحاً









نيدو السريع الذوبان هو حليبٌ كامل الدسم يحتوي على كافة العناصر الغذائية التي توفر لأولادكم نمواً متكاملاً . فالبروتين والكالسيوم وفيتامينات "أ" و"د" وغيرها من العناصر الضرورية المتوفرة في نيدو السريع الذوبان تجعل عظامهم صلبة وأسنانهم متينة وأبدانهم صحيحة قوية .

نيدو السريع الذوبان هو حليب بقري صافٍ ونقي من الجراثيم ، يخضع قبل تجفيفه وتعبئته الى عدة تحليلات مخبرية دقيقة ليصبح خالياً من كل شائبة .

نيدو السريع الذوبان طعمه لذيذ ، يحضر بسرعة ، ويحبه أولادكم بارداً أو ساخناً في الصباح وفي المساء وفي أي وقتٍ من النهار .

نيدو السريع الذوبان

ليَنموَ اولادكم وينعموا بالعافية

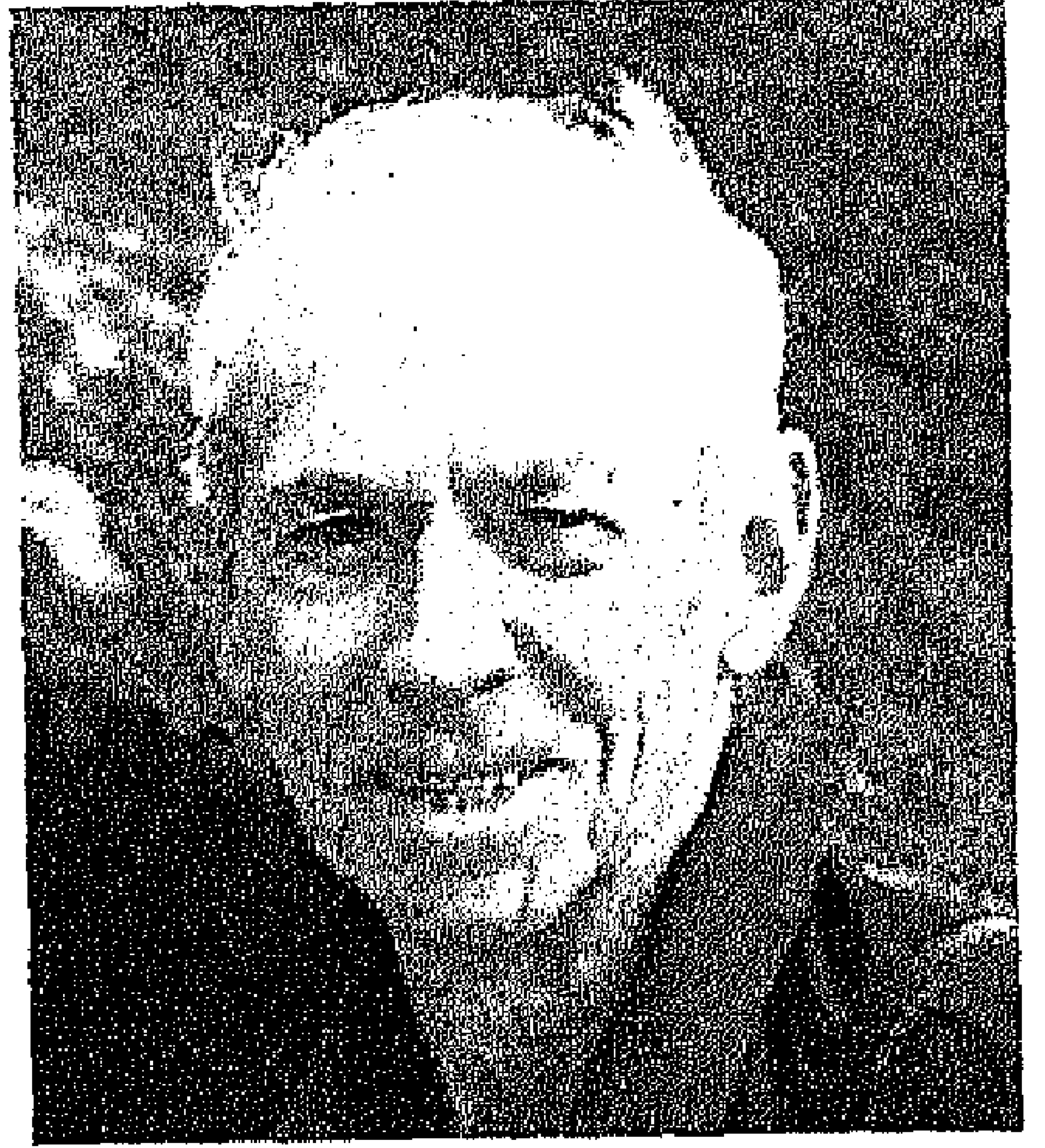
Nestlé. تضمنه نستله

كتاب الشهر

الجدار العظيم



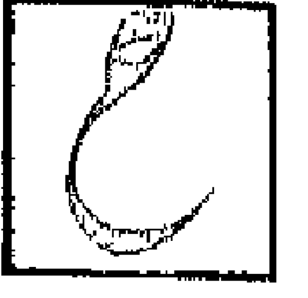
بقلم البريغادير جنرال
روبرت لي سكوت



الجدار العظيم

كان روبرت لي سكوت في الرابعة عشرة عندما أقدم على مغامرته الاولى اذ حلق في طائرة شراعية صنعها بنفسه وحط في شجرة. وفي السنة التالية شارك في بناء طائرة حقيقية وباشر تعلم الطيران. وفي الثلاثينات غدا ضابطاً في سلاح الجو الامريكي. ثم أهلته خبرته في هذا الحقل لقيادة الفوج الثالث والعشرين في الصين خلال الحرب العالمية الثانية. وسرعان ما اصبح واحداً من أعظم طياري الولايات المتحدة في المعارك ضد اليابان.

الا أنه انتظر طويلا قبل تحقيق حلم حياته وهو مشاهدة جدار الصين من طرفه الغربي حتى الطرف الشرقي. ولدى انفتاح الولايات المتحدة على الصين أيام رئاسة ريتشارد نيكسون كان سكوت تجاوز الستين من عمره ولما ينطفىء حلمه بعد. وحين تسنى له تحقيقه أخيراً على النحو الرائع الذي يصفه في ما يأتي، كان تجاوز السبعين.



حطت بنا الطائرة في مطار كاي تاك في هونغ كونغ. ونظرتُ حولي داخل طائرتنا البوينغ ٧٤٧ فلم أجد سوى السياح الذين كنت أحدهم في المرحلة الاولى من رحلتي الصينية، ومعظمهم متقدّم في السن. ولا بد من تذكير نفسي باني لم اكن أشذ عنهم في هذه الناحية، علماً أني أبصرت النور في الثاني عشر من ابريل (نيسان) عام ١٩٠٨.

وما أن فتح باب الطائرة حتى كنت من أوائل الخارجين. ووقفتُ أحدق الى السماء فوق قمة جبل فيكتوريا. هناك، قبل نحو ٣٨ سنة، تقدمتُ سرباً من سبع طائرات "كورتيس ب ـ ٤٠" للاجهاز على اليابانيين الذين احتلوا هونغ كونغ، وكنا على ارتفاع ٥٥٠٠ متر. في قبة تلك السماء كدتُ ألاقي مصرعي، والى تلك القبة عينها وقفت أنظر وأتذكر.

كان هدفنا فرقة يابانية بحرية توقعنا وجودها في المياه القريبة من هونغ كونغ. وكآمر لسرب الطائرات المقاتلة كانت مهمتي مرافقة عشر طائرات اخرى من نوع "ب ـ ٢٥" الراجم للقنابل. وفي تلك المرحلة الباكرة من الحرب العالمية الثانية كنا ما نزال أسرى الفكرة القائلة بتفوق العدو علينا عدداً.

وبُعيد الظهر انطلقت الطائرات بعدما حددتُ لها موقع القصف. لكن الهدف اختفى من حيث كان إذ ابحرت السفن اليابانية.

وحلقت في اتجاه "فندق شبه الجزيرة" على قمة جبل كولون بعدما أخبرتُ أن الجنرالات اليابانيين يسكنون شققاً على سطحه. وما أن حدتُ قليلا عن مجال القصف حتى نظرت تحتي لأرى طائرات العدو تندفع بسرعة عن المدرج وترتفع الى الفضاء تباعاً. ونظرت الى الناحية الاخرى فاذا بسرب آخر يأتي من الغرب. وأخطرت عناصري بالأمر قبل أن أنقض على طائرة يابانية واعطلها وهي على وشك الاقلاع.

ومع ارتفاعي ببطء اصيبت طائرتي في مؤخرها. وعلى رغم اني كنت أقي نفسي بدرع مصفحة إلا أن الضربة كانت من القوة بحيث أفقدتني لحظة عن الوعي. وبعدما رجعت الى نفسي وجدت أن طائرتي تكاد تنهار. وكان في ذلك إنقاذ لحياتي إذ أبعدني عن خط النار. غير ان الدم كان يسيل على وجهي من جروح لا تحصى احدثتها شظايا الزجاج في رأسي. ووجدت ثقباً في اللوح الزجاجي أمامي كافياً لأقحام رأسي عبره. ومددتُ يدي الى أسفل محاولا التقاط خوذتي الساقطة وقناع الاوكسيجين. وتلمست أرضية الطائرة التي أتى الدم على كل ما فيها. والواقع أن جرحي لم يكن بالغاً، لكنّ الجرح مهما صغر ـ خصوصاً اذا كان جرحك أنت ـ يكفي لتغطية كلّ ما حولك دماً.

ومددتُ يدي الى ذراع مخنق الطائرة، وإذ وجدتُها الى الوراء فهمت لماذا هبطت الطائرة الى ذلك الحد. ودفعتها قليلا الى الأمام وتوجهت الى قاعدتنا في بلدة غويلين الصينية. ولم أبرح طوال المسافة

ألمس ظهري، فأدركت أنّ الجسم الذي أصابني اخترق الدرع.

وكان موقعنا في غويلين ضمن واد صغير تحيط به سلسلتان من الجبال الفاتنة التي تحوي تنوعات كثيرة من اللون الأخضر. ولم أجد صعوبة في الهبوط لكنني وصلت متأخراً. وكان الدكتور فريد مانجيت في انتظاري ومعه ممرض صيني، وهو أضخم صيني رأيتُه في حياتي. هذا حملني من مقعدي كما لو كنت طفلا وركض بي الى كهف في سفح الجبل.

ولم يكن لدينا مستشفى بل كنا نستخدم ذلك الكهف كغرفة اجتماعات وتخطيطات وكمستوصف. ووضعني الصيني العملاق على أريكة من قصب فيما باشر الدكتور مانجيت عمله تحت نور مصباح ضئيل. وكانت أمامنا في السقف مجموعات من الهوابط القديمة وهي رواسب كلسية تتدلى من سقوف بعض المغاور.

ولم يكن هناك أي نوع من المخدرات أو الكحول لتخفيف الألم. وطلب الدكتور مانجيت من الممرض الصيني أن يتكلم إلي وهو ممسك بيدي خلال المعالجة. وأخبرني أن الجرح ليس عميقاً. لكنّ هناك خدشاً كبيراً أحدثته القذيفة اليابانية التي يبلغ عيارها عشرين مليمتراً. وهي ضربت ظهر المقعد المصفح فاخترقت شظاياه ظهري.

وراح الطبيب يخرج الشظايا واحدة واحدة ويضع كلا منها في يدي. وما فتىء الصيني الضخم يقول لي: "سيدي الكولونيل، أنت تقود الطائرة وتطلق القذائف وتشغل جهاز الارسال وتحارب البرابرة... بمفردك؟" وبقيت أهزّ رأسي بالايجاب وأنا أكاد لا أسمع كلماته.

ووضع الدكتور مانجيت الشظية السابعة عشرة والأخيرة في يدي وهو يقول: "إن صاحبنا مخطىء. فلو كنت وحدك هناك لما عدت اليوم حياً."

وطلى جروحي بمحلول حارق قال انه يعجل في شفائها. وربت كتفي لكي أنهض. ونظرت الى عتمة ذلك الكهف وقد تراءت لي التماعات تشبه الحروف بين رواسبه المدلاة. وأغمضت عيني لكنّ الحروف ظلت تلتمع فيها وقد تحولت كلمات. وأدركت أنّ تلك الكلمات هي خير عنوان لكتاب يروي فيه المرء سيرته. وعاهدت نفسي إن عدت الى الوطن حياً أن أدون قصة حياتي تحت عنوان: "الله هو طياري المساعد."

عمل لصوصي

عشت بنعمته تعالى لأكتب تلك السيرة التي استحالت أحد أروج الكتب كما غدت فيلماً سينمائياً. وبعد مهمتين اخريين في الصين عدت الى واشنطن عام ١٩٤٥ لأتسلم وظيفة في وزارة الدفاع. وبعد ذلك عينت آمر قاعدة في المانيا الغربية ومن هناك قصدت ولاية أريزونا لمهمة أخيرة قبل إحالتي على التقاعد. وكرت السنون قبل أن يتوقف الزمن على نحو مفاجىء مرة اخرى، وكان ذلك في شهر مايو (أيار) ١٩٧٨ بُعيد بلوغي السبعين.

وعلى رغم اني كنت أعيش بالقرب من قاعدة لوك الجوية في أريزونا

حيث يوجد مستشفى عسكري، فاني كنت اقصد الساحل الشرقي للولايات المتحدة لاجراء فحوصي الطبية السنوية. وبما ان وزارة الدفاع الامريكية كانت تجمع معلومات حول الطيارين الذين سجلوا اعمالا ملحوظة فقد كان علي الذهاب الى الطبيب نفسه في مدينة آيكن من اعمال ولاية داكوتا الجنوبية، وهو الجراح جيمس ديلوتش المختص بشؤون الطيارين.

وقد جاءت فحوصي متشابهة طوال عقدين مما حدا الدكتور ديلوتش على التعليق بأني زبون لا فائدة منه. إلا أن الأمور تبدلت هذه السنة، لا من ناحية ضغط الدم الذي بقي طبيعياً ولكن من ناحية صور الأشعة التي أخذت لصدري. وأشار علي الجراح باجراء المزيد من الصور التي لم أعرف نتيجتها قبل أيام ثلاثة إذ وجه ديلوتش أنظاري الى اللوحة المضاءة وقال: "انظر الى ذلك الخط غير المحدد. إنه قمة كليتك اليمنى. ثم انظر الى الكلية الاخرى لترى كم هو خطها منحن. ثم أن ضبابية الكلية اليمنى تبعث لدي القلق."

وفي الأيام العشرة اللاحقة نشدت رأياً آخر وثالثاً ورابعاً. ولدى إجماع الآراء وقعت وثيقة أتيح بموجبها استئصال كليتي اليمنى إذا وجد أنها مصابة بالسرطان. ولم أحاول خداع ذاتي. فان أي جراحة لشخص في مثل سني تنطوي على أخطار، فكيف وهي جراحة رئيسية كالتي كان علي مواجهتها؟ كما ان السرطان لم يكن بغريب عن بيتي. فقبل سنوات سبع ماتت زوجتي كاترين ريكس غرين بهذا الداء العضال بعد حياة زوجية دامت ستاً وثلاثين سنة. وكانت أحست ألماً في جانبها ذات مساء من ١٩٧١ تبين على أثره أنها تعاني سرطاناً في الكبد. وقضت بين ذراعي بعد اثنين وخمسين يوماً.

وفي العاشر من مايو (أيار) أخذت عبر ممرات داخلية معقمة الى غرفة العمليات. وكنت أحس ترهلا في عضلاتي لم أعرفه قبل ذلك الحين. ثم سمعت صوتاً يناديني: "بوب." وكان ذلك صوت الدكتور ديلوتش الذي سألني: "أتشعر بالخدر والنعاس؟ اختر إذاً رقمك المفضل وابدأ منه العد العكسي."

وبدأت بالرقم ٢٣ الذي له تأثير السحر فيّ. فكل شيء بارز حدث لي كان متعلقاً به. ومن هذا أنّ فرقتي الكشفية خلال الحداثة كانت الثالثة والعشرين. وهو أيضاً التاريخ الذي لقيت فيه كيتي ريكس. وبعد ذلك كان رقم الفرقة التي حاربت فيها في الصين. يضاف الى ذلك كله العام ١٩٢٣.

تلك السنة كنت في الخامسة عشرة وقد عقدت العزم على تحقيق أفضل ما يمكن كشافاً متقدماً أن يحققه. وذات يوم زرت عيادة طبيب ليجري علي كشفاً يخولني الحصول على جائزة اضافية. وبينما كنت في غرفة الانتظار تناولت عدد فبراير (شباط) من مجلة "ناشونال جيوغرافيك". وما ان فتحتها حتى تدلت منها صفحات وسطى تبين لي أنها رسم كبير لجدار الصين العظيم.

وكان من اثر ذلك الرسم ان

طبع في ذهني صورة لا تُمحى لجزء من ذلك الجدار العظيم يمثل بضعة كيلومترات تتخللها أبراج المراقبة البارزة هنا وهناك كملوك رقعة الشطرنج. وفي المسافة بدا الجدار متلوياً بين التلال كتنين رمادي ضخم.

وعندما أخبرت أنّ الطبيب على استعداد لكي يراني سرى فيّ دافع لصوصي من غير أن أنسى ـ وأنا الكشاف الذي بلغ مرتبة "النسر" ـ أحد المبادىء الكشفية الاثني عشر الذي يقول: "الكشاف أمين." غير أن دافعاً أقوى اجتاحني. وانتزعت رسم الجدار من المجلة تاركاً بقية العدد لقارىء آخر.

ولم يدر في خلدي آنذاك أن فكرة الوقوف أمام الجدار ستستحوذ علي. أجل، يجب أن أكشف ذلك البناء يوماً وألامس حجاره. بل أكثر من هذا: يجب أن أشاهد طرفي ذلك الاستحكام الطويل الذي يدعوه الصينيون "وانلي تشانغتشينغ" اي الذي يمتد عشرة آلاف لي، واللي وحدة مسافات صينية تعادل ثلث الميل أو ربع الكيلومتر. ولن أكتفي بالطرفين، بل أريد رؤية كل ما يقع بينهما.

قفزة فوق التاريخ

تسنى لي خلال تأدية واجباتي العسكرية في الصين أن ألمح أجزاء من الجدار العظيم، لكنها كانت ضمن الأراضي اليابانية. وحصل ذلك عن ارتفاع عظيم لم اتبين منه معالم الجدار بوضوح. والحق أن معظم الجدار العظيم ليس مبنياً بتلك الحجار الرمادية الكبيرة التي تبرزها الرسوم السياحية. وهو على مسافات طويلة مصنوع من الطين المكبوس الذي تآكلت أجزاء كثيرة منه على مر القرون واضمحل بعضها.

وذات يوم خلال رحلتي العسكرية الثالثة تلقيت أمراً بقيادة سرب من الطائرات الـ"موستانغ ب ـ ٥١" المقاتلة من تشينغدو عبر نهر يالو وما يسمى اليوم كوريا الشمالية، وذلك بغية قصف مصنع ياباني للفولاذ. وبعد تنفيذ المهمة كان علي الانحراف بالطائرات الثماني الى الجنوب الغربي للتزود بالوقود في منطقة كسيان قبل العودة الى قاعدتنا في كونمينغ. وفي طريقنا الطويلة تلك حلقنا نحو ١٦٠ كيلومتراً فوق شبه جزيرة مثلثة تمتد جنوباً الى البحر الأصفر ومسافة مماثلة فوق البحر نفسه.

وفجأة وجدتُني أبدل خط العبور من الجنوب الغربي حتى بتنا في اتجاه بكين. وحرتُ من أمري ونحن لا نستطيع التحليق فوق تلك المدينة حيث كانت مدفعية اليابانيين المضادة للطائرات واقفة لنا بالمرصاد. ولم يجدِ التصحيح الذي حاولته في تعديل وجهة الطائرات.

ومع هبوطنا الى ارتفاع منخفض أمكنني رؤية المسابح على الشاطىء. ورأيت أمامي مباشرة معلماً بارزاً يهيمن على الأفق. وفي تلك اللحظة كادت طائراتنا أن تلامس المياه. ونظرت الى الخريطة أمامي فعرفت أنّ ذلك الرعن هو رأس التنين القديم أي النقطة التي يتلاقى عندها طرف الجدار الشرقي والبحر

الأصفر، وتولدت لدي قناعة مؤداها أن العناية الالهية لا المصادفة هي التي وجّهتني في تلك الطريق عبر ساحل الصين الشرقي.

وعبرنا فوق برج للمراقبة في أقل من لمح البصر وقد ترددت أصداء محركاتنا في أرجاء الجدار، ورأيت بقايا الجدار تتعرج عبر الحقول لتتسلق التلال الساحلية، وحلقنا فوق تلك التلال التي ترتفع نحو كيلومتر، ومن هناك ابصرت الجدار الممتد بضعة كيلومترات كما في ذلك الرسم الذي انتزعته يوماً من المجلة، وتولدت لدي حماسة عظيمة لتفحص الجدار على مهل، وأحسست وأنا اعبر القمم واحدة تلو اخرى وورائي زملاء السلاح أن حلمي القديم يتحقق.

وقادنا الجدار نحو ١٦٠ كيلومتراً شمال بكين ونحن في مأمن من الأعداء، لكني أشهد أني كنت على استعداد لملاحقة الجدار حتى في الشارع الرئيسي لعاصمة الصين مهما يكن من امر العدو، لو كان الامبراطور كين شيهوانغدي أقامه هناك.

ومن هناك حتى البحر الأصفر تبعت الجدار العظيم ٧٢٥ كيلومتراً، وخيل إلي أني أنظر الى تنين دهري رمادي ضارب الى الزرقة وان حراشفه هي تلك الحجار الضخمة التي صمدت على مر القرون، وبدا أن طائرتي المقاتلة استمدت نفاد الصبر مني فراحت تقفز فوق التاريخ وهي تكاد تصدم ابراج المراقبة، واستحال ظلها وظلي واحداً وأنا أتفحص كل شعب يخترقه الجدار، وكلما ارتفعت الطائرة فوق قنة بدت كأنها تطلق معي صيحة التهليل قبل أن تنحدر مرة اخرى نحو الوهاد الخضر، وكاد الحبور ينسيني أني ورفقائي هناك في مهمة حربية وقد تجاوزنا خطوط الأعداء... أتراه حلمي القديم اصبح حقيقة؟

وكدت أشرق بريقي وقلت في نفسي: "أشكرك أللهم على توجيهي الى هذا المكان، لكني أتضرع إليك أن تعيدني يوماً الى هنا كي أمشي حيث يمشي ظلي الآن."

كنت لا أزال تحت أثر المخدر في غرفة العمليات حين سمعت أحدهم يهمس في اذني: "أأنت صاح يا بوب؟ أتسمعني؟"

وبذلت غاية جهدي كي أجيب، لكن النطق كان يشبه رفع ثقل كبير.

وأحسست يد الطبيب تنزل من معصمي الى قبضة يدي حيث وضع شيئاً صلباً وبارداً، وللحظة خلتني داخل ذلك الكهف في غويلين حيث وضع الدكتور مانجيت شظايا المعدن في يدي، فقد كان ثمة شبه بينها وبين ذلك الشيء.

وضع خطة

قال الطبيب: "هذا هو السرطان يا بوب، هذا كل ما وجدناه وما كان يتعذر إخراجه من جسمك وأنت في الصين."

وضحكت فيما تابع الطبيب: "لقد نما كيس حول ذلك الجسم المعدني استحال مع الوقت جيباً يملأه سائل لزج، وهذا يفسر الغموض الذي وقعنا عليه في الصورة، إذاً ليس في الأمر سرطان."

هذا يعني أنّ الفرصة متاحة لي لكي أمشي حيث مشى ظلي يوماً.

أمضيت يومين ثقيلين في غرفة العناية الفائقة. ولكن سرعان ما سُمح لي بالنهوض والسير بضع خطوات. ولم ألبث أن أقنعت الأطباء بأن سواي يحتاج الى تلك الغرفة أكثر مني. وهكذا عدت الى غرفتي في المستشفى.

وبعد إعتاقي من الأنابيب الممدودة الى قلبي وداخل أوردتي رحتُ أنظر حولي في الغرفة. ثم نهضت وقطعت المسافة بين سريري والحمام وبعدها سبع خطوات الى حافة النافذة، ثم جلت بين السريرين قبل أن أعود من حيث بدأت. وكان مجموع ما قطعته ثلاثين متراً. وهذا يعني أن علي تكرار الأمر ٣٣ مرة ليصبح المجموع كيلومتراً كاملا. وللحال شرعت في ذلك وكانت سرعتي تزداد مرة بعد مرة.

وكنت أدري على الدوام أن المكان الذي أقصد زيارته في الصين لا يمكن المرء الذهاب اليه كسائح. ومعظمه يقع ضمن أرض برية منعزلة. لذلك كان علي قطع بعض المسافات وعلى ظهري عدة تخييم وتوابعها. ولقد حاولت منذ إحالتي على التقاعد الحفاظ على صحتي الجيدة التي تمتعت بها طوال أيامي. ولم أفتأ خلال السنوات الخمس الأخيرة أمارس الركض وأقطع في نصف أيام الاسبوع مسافة تراوح بين الكيلومترات الخمسة والعشرة كل مرة. أما في الأيام الباقية فكنت أقصد نادياً للرياضة البدنية حيث أرفع الأثقال وامرن عضلاتي بالانبطاح والنهوض. واشتريت أدوات تمكنني من متابعة التمارين في البيت خلال أوقات فراغي.

واستغرق هذا العمل معظم وقتي. وفي الأوقات المعترضة كنت أكتب الرسائل وأدرس اللغة الصينية. ووجهت رسالتي الاولى الى السفارة الصينية في واشنطن وأتبعتها برسائل متواصلة الى السفير وسائر المسؤولين أحدد فيها الأمكنة التي أود زيارتها وأصف سنيّ الحرب التي أمضيتها في الصين.

وحل العام ١٩٨٠ من غير أن أحرز أي تقدم ولم أتلقَ في مقابل الرسائل الاثنتي عشرة أو نحوها التي وجهتها الى مسؤولين صينيين سوى ردين قصيرين يعلمانني بتحويل طلبي الى بكين. وصممت على مضاعفة جهودي بعدما تبين لي أن تلك لم تكن سوى طريقة مهذبة لتثبيط عزيمتي. واعتزمت شرح قضيتي أمام كل عضو أعرفه في مجلسي الشيوخ والنواب في الولايات المتحدة. وإذا برهنت تلك الوسيلة عن عدم جدواها، فلن أتوانى عن طرق أبواب البيت الأبيض.

والواقع أن الموجة السياحية قويت كثيراً بعد زيارة ريتشارد نكسون الى الصين. غير أن السياح كانوا يتقيدون ببرنامج الرحلة المقرر سلفاً والمقتصر على زيارة أمكنة محددة لا يتجاوز معظمها المنطقة السهلية الساحلية. ولم يكن برنامج أي رحلة ينطوي على زيارة أقصى الغرب حيث يبدأ الجدار العظيم. وربما كان ذلك عائداً الى

كون الأجانب يشترطون الاقامة في فنادق مريحة وان هذا النوع من الفنادق لا وجود له إلا في الجانب الشرقي من الصين·

لكن غايتي كانت غير ذلك· وكنت أحضرتُ كيس النوم وجهزته مراراً كأني ذاهب غداً· وارتأيت حمله بعلاقة اليد كما لو كان حقيبة على أن أضع ضمنه أحذية وثياباً وأغذية وخرائط وبوصلة وآلة تصوير وقدراً وفنجاناً وعدة نوم· وكان وزن تلك الأمتعة كلها لا يزيد على ٣٢ كيلوغراماً مما يسهل حمله علي ويتيح لي النوم في أي مكان على امتداد الجدار·

وحرصت على إطلاع المسؤولين الصينيين على هذا الأمر بأدق تفاصيله· وكانت النتيجة بعد ثمانية عشر شهراً أني كتبت نحو مئتي رسالة ولم أحصل على شيء· ويبدو أن علي الانتظار الى أن يفتح الصينيون فنادق على طول الجدار·

وأفقت من نومي ذات ليلة على حلم رأيت فيه الجدار العظيم وعقدت العزم على دخول الصين بأي ثمن، حتى اذا صرتُ هناك تملصت من رحلتي السياحية وانطلقت الى بغيتي متنكراً في زي صيني·

وفي التاسعة كنت في طريقي الى أقرب وكالة سفر· وهناك عُرض علي برنامج رحلة تختلف عن كل ما رأيته سابقاً· فهي تستغرق ثلاثين يوماً يؤخَذ خلالها السائح الى معظم انحاء الصين بما فيها المناطق الغربية النائية·

تلك كانت الرحلة الاولى من نوعها وقد حجزت مقاعدها جميعاً قبل وقت ليس بقصير· لكن أحدهم ألغى حجزه قبل يوم واحد فأخذت مكانه وجاء رقمي ٢٣· وهكذا وجدتُ نفسي في هونغ كونغ ذلك اليوم من يوليو (تموز) ١٩٨٠· واذا لم أجد طريقة للتملص من الرحلة خلال أيامها الثلاثين، فاني لا أستحق زيارة ذلك المكان كما أشتهي·

خيبة

دخلنا الصين بالقطار عبر غوانغجو (كانتون) حيث أمضينا ليلة وضحاها نجول في المكان· وبعد ذلك ركبنا طائرة "اليوشن" ذات محرك توربيني وتوجهنا نحو الشمال الغربي مخترقين البر الصيني الواسع· وكنا نقصد كسيان وهي من المواقع التي كنت اقصدها خلال الحرب للتزود بالوقود· وفي العام ١٩٧٤ عثر حفارو الآبار على كنز أثري ثمين هناك وهو تماثيل خزفية لـ ٧٥٠٠ جندي وجواد تعود الى ٢٢٠٠ سنة خلت وتعلو ضريح امبراطور الصين الأول (★)· ووقفت مندهشاً حيال تلك التماثيل التي كشفت وجوهها عن تنوع غني·

وحطت طائرتنا مرة اخرى في لانجو على بعد ٤٨٥ كيلومتراً للتزود بالوقود في طريقها الى اورومكي التي تبعد ١٦٠٠ كيلومتر فوق الجدار بما في ذلك طرفه الغربي حيث "بوابة الأبطال" الشهيرة في مدينة جيايوغوان· وراقني ذلك كثيراً إذ

(★) راجع "امبراطور الصين جيشه من خزف" "المختار" عدد سبتمبر (ايلول) ١٩٨٠·

كنت مزمعاً على الانطلاق من تلك النقطة والسير ٢٧٥٠ كيلومتراً في محاذاة جدار الصين العظيم حتى البحر الأصفر حيث يقوم رأس التنين القديم الذي حلقت فوقه قبل سنوات طويلة.

وعقدتُ العزم على اورومكي للتملُّص من رحلتي السياحية. من ذلك الطرف الغربي سأنطلق



لاستكشاف الجدار على حقيقته متجنباً المعابد والقرى والمعالم السياحية العادية.

وكانت هناك سكة حديد تمتد الى الجنوب الشرقي حتى جيايوغوان التي تبعد ٨٠٠ كيلومتر. واعتزمت التنكر في زي صيني أزرق من العنق حتى القدمين حاجباً عينيّ المستديرتين وراء نظارتين قاتمتين ومتوجهاً الى أقرب محطة قطارات لشراء بطاقتي. ودار في خلدي أن أتظاهر بالبكم وأكتب ما أود قوله على ورقة.

إلا أن تلك الطريقة البسيطة لم تكن مجدية حتى وان كنت صينياً ولد في ذلك المكان، إذ لا يمكن أياً كان في اورومكي شراء بطاقة سفر أو التنقل بأي طريقة ما لم يحصل على ترخيص بالسفر تمنحه الحكومة. وهذا القانون يسري على المواطنين والأجانب.

وفي ثلاثة أيام من الخمسة التي أمضيناها في اورومكي اعتذرتُ عن الانضمام الى الرحلات السياحية بحجة اصابتي بالزكام. وكنت أنتظر مغادرة الحافلة للتوشح بالسروال الصيني الأزرق والذهاب الى محطة القطارات وعدتي على ظهري والنظارتان على عيني وقد أخفيت آلة التصوير. ووجدت تعويضاً لأخفاقي في هجر تلك الفكرة والبحث عن خطة عمل للمستقبل.

وبعد رؤية مفاتن اورومكي وإخفاق خطتي عدنا الى لانجو وقد حلقنا فوق حصن جيايوغوان من جديد. إلا أن الغيم كان يغطي المكان الذي سبق أن مررت فوقه ليلا خلال الحرب. وخيل الي أن القدر كان يلعب ضدي حاجباً عني ما وددت مشاهدته أكثر من سواه.

ذلك المساء في لانجو رق لي قلب

دليلتنا السياحية. وكنت أوضحت لها أني أود استئجار سيارة لرؤية ذلك الجزء من الجدار الذي يبعد ١١٠ كيلومترات شمال المدينة. ودبرت لي لقاء في اليوم التالي مع محافظ لانجو ومسؤول محلي آخر. لكن ذلك لم يسفر عن أي نتيجة. وقال لي المترجم: "الرفيق المحافظ فهم كل ما قلته. إلا أن الجدار العظيم منهار ولا أحد يود أن يرى جداراً متداعياً."

وأدركت أن حلمي الطفولي ذاك يسبب متاعب جمة. لذلك شكرت المسؤولين وعدت أدراجي الى سائر أفراد المجموعة لنرى دب الباندا النائم في حديقة الحيوان.

"هوانغ هي" هو النهر الأصفر الذي يأتي من جبال مقاطعة كينغهاي بالقرب من التيبت وينحدر الى لانجو قبل أن ينعطف شمالا الى منغوليا الداخلية ثم شرقاً وأخيراً جنوباً ليغدو على هيئة حدوة حصان يبلغ طولها ١٦٠٠ كيلومتر وتعرف باسم المنعطف العظيم. وكان برنامج الرحلة يقضي بركوب القطار في محاذاة النهر شمالا الى منغوليا الداخلية. ويخترق القطار فرجة في الجدار على بعد ١١٠ كيلومتراً حيث وددت الذهاب في سيارة، ومن هناك ينحرف قليلا الى الشرق ويحاذي الجدار عبر ١٦٠ كيلومتراً أو نحوها قبل التوجه شمالا واختراق الجدار من جديد في مدينة يينتشوان. ولا بد من أن تتاح لي الفرصة لرؤية الجدار في أحد تلك الأمكنة.

وأعددت آلة التصوير لكل منظر طريف يعرض لي. لكننا عبرنا النقطة الاولى من غير أن أقع على ما يستحق التصوير. ومع استدارتنا يميناً نحو الشرق انتقلت من جانب في القطار الى آخر علي أبصر ما يملأ عيني. غير أني لم أرَ شيئاً يشبه الجدار. وكنت أجيل نظري في الافق عندما توقف القطار في يينتشوان التي تبعد ٣٢٠ كيلومتراً عن لانجو.

ولم أصدق كيف نزلت من القطار. وهرعت الى برج إشارة تسلقت درجاته المعدنية فيما موظفو القطار ينظرون إلي بارتياب. وعند تلك النقطة من رحلتنا الشمالية كان مقرراً أن نخلف الجدار وراءنا لنتابع الطريق شرقاً عبر سهل الاوردوس الواقع ضمن المنعطف العظيم. ووقفت في أعلى البرج لكني لم أرَ أثراً للجدار.

وخبأت آلة التصوير وتابعنا الطريق الى منغوليا حيث أمضينا ليالي ثلاثاً ضمن خيمة لباد منصوبة في شكل كوخ قبي. ومن هناك توجهنا الى داتونغ حيث كان مقرراً أن نمكث بضعة أيام نأخذ بعدها القطار الى تيوان (يانكو) ومنها نركب الطائرة الى بكين حيث تنتهي رحلتنا.

في ذلك اليوم من العام ١٩٤٤ عندما قدت سرب الطائرات المقاتلة فوق الجدار كانت داتونغ النقطة التي انعطفت منها الى موقع التزود بالوقود. لذلك كنت أعرف جيداً أن الجدار يتحول من حجر الى طين في ذلك المكان. وما أن انطلقنا الى داتونغ حتى أعددت آلة التصوير.

وتمت رحلتنا ليلا ولم تبقَ لدي سوى فرصة أخيرة. ومن مكتب للبريد في منغوليا الداخلية كنت أرسلت

برقية الى ليونارد وودكوك سفير الولايات المتحدة في بكين. وكان لدى السفارة ملف خاص بي بعدما أغرقتها برسائلي. وأعلمت السفير أني دخلت جمهورية الصين الشعبية واني سأكون في بكين في الحادي والعشرين من اغسطس (آب). وسألته بخفر أن يحصل لي على اذن من السلطات الصينية يخولني قطع الجدار من جيايوغوان الى رأس التنين القديم بالقرب من شانهايغوان. وركبنا القطار الى تايوان وأنا لم أفقد تفاؤلي وما برحت أقول لنفسي: "لا بد من أن يكون السفير تبلغ رسالتي."

"هل حياتك قطار سريع؟"

في بادالينغ جزء من الجدار يبعد ٦٥ كيلومتراً شمال بكين. انه الجزء "السياحي" من جدار الصين وهو جميل. وقد تم ترميمه ليبدو كما كان أصلا. وينتمي الى سلسلة جدران داخلية تختلف عن الجدار الخارجي القديم وتتعرج نحو مئة كيلومتر شمالا. الا أن السياح يؤخذون الى بادالينغ التي ملأت رسوم جدارها الكتب السياحية. وسرني أن أرى ذلك الجزء من جدار الاحلام وتفحصت الكيلومترات الخمسة التي رُممت وركضت فوق المعبر الذي يعلوها. وتابعت طريقي عبر عشرين كيلومتراً لم يأتِ عليها الترميم واستحال الجدار بعدها ركاماً.

ولما وصلنا الى بكين وجدت أن الصينيين رقوا لحالي. وهناك كان في انتظاري ترخيص بالسفر يمنحني فوق ما طلبت. وعوضاً عن الانطلاق من البوابة الغربية في جيايوغوان التي تبعد ١٦٠٠ كيلومتر بالطائرة عن بكين سمح لي البدء بمدينة كاشي التي تبعد ٣٤٠٠ كيلومتر عن العاصمة وتقع في أقصى غرب البلاد. ومن هناك أتوجه شرقاً الى البوابة الغربية وأتابع طريقي حتى البحر الاصفر.

وربما بدا من قبيل الجنون اضافة هذه المسافة الطويلة الى رحلتي المضنية. الا أن الذهاب الى كاشي من شأنه اضفاء المزيد من السحر على مغامرتي وعندما كنت طالباً في مدرسة "وست بوينت" العسكرية في نيويورك شئت اعداد اطروحتي حول جدار الصين. غير أن الادارة خيبتني بعدم موافقتها وطلبت مني اختيار موضوع آخر. ووقع اختياري على رحلات ماركو بولو. وهذا يعني الانطلاق من البندقية. ولكن بما أن ذلك الرحالة الشهير تابع طريقه شرقاً عبر درب الحرير غرب الصين ففي امكاني التصدي للجدار، كون الدرب المذكورة تحاذي الجدار من دونهوانغ الى لانجو مروراً برواق غانسو.

وهكذا وجدت حماسة في تحري درب الحرير. وبعد تخرجي في "وست بوينت" عام ١٩٣٢ أبحرت الى فرنسا حيث اشتريت دراجة نارية في شيربور وركبتها الى البندقية. ومن نقطة انطلاق ماركو بولو تابعت طريقي حتى بلغت جبل أرارات الارمني بالقرب من الحدود الايرانية.

وفي مراحل حياتي اللاحقة حاولت تحري طريق ماركو بولو أكثر فأكثر. وهكذا عبرت ايران وتسلقت الجبال

العالية على الحدود بين افغانستان وباكستان والصين. وكنت في العام ١٩٧٦ عبرت الحدود الصينية من دون تأشيرة دخول وأمضيت أياماً في كاشي على درب الحرير. وهناك أعلمت السلطات المختصة بوجودي فأعادتني الى باكستان بعد التدقيق في أوراقي. ومهما يكن فقد سرني أني بلغت ذلك الحد، اذ ان الذهاب الى كاشي ومن هناك شرقاً يعني اكمال طريق ماركو بولو.

والحق أن شغفي بالاسفار لم يرق كيتي ريكس التي تزوجتها عام ١٩٣٤، ناهيك بغيابي القسري عن البيت خلال سنوات الحرب التي أمضيتها في الصين وبورما. كما ان معظم عملي في سلاح الطيران بعد الحرب كان من قبيل العلاقات العامة مما حتم علي الانتقال من بلد الى آخر.

وهذا الانقطاع دفعني وزوجتي الى كتابة مئات الرسائل حتى اننا لم ننفك عن الكتابة وأنا في البيت. وكانت كيتي ريكس تعود الى تلك الرسائل خلال غيابي وتجد فيها عزاء كبيراً. ولا أنسى رحلتي الاخيرة قبيل اصابة زوجتي بالسرطان. فقد تبعتني الى السيارة وقبلتني ثم اعطتني رسالة وهي تقول: "لا تفتحها قبل المساء."

وفي تلك الرحلة ألقيت نحو ٧٥ خطاباً خلال تسعين امسية في أربعين ولاية أمريكية. ولدى عودتي الى الفندق كل مساء كنت أضع خطاً أحمر حول المدينة التي تكلمت فيها وبعد ذلك أسترسل في قراءة كلمات زوجتي:

"سكوتي الحبيب،

"أعرف تماماً أن السفر الدائم هو من صميم طبعك. ولكم أود لو كان لديك نصف هذا النزوع الى المكوث معنا في البيت. هلا تجاسرت على القول لنفسك انك سعيد لأن اولئك الذين حولك هم سعداء أيضاً؟ أتكون حياتك قطاراً سريعاً وأنت مسافر بسرعة ودونما توقف؟ ألا صبر لديك على الوقوف؟

"ان" القلوب التي تخفق لك، القلوب التي تحبك، لن تجدها البتة مرة أخرى. والايام القصيرة هذه ستمر سراعاً. فلماذا لا تتوقف، وان مرة واحدة، لتستريح قليلا من هذا الرحيل؟

"حبي لك على الدوام. كيتي ريكس."

تلك كانت رسالتها الاخيرة الي. ولقد قرأتها مرات لا تحصى.

كهوف وكنوز

ما أن حصلت على ترخيص السفر حتى طرت الى اورومكي للمرة الثانية. هناك أخبرتني الشابة التي تمثل المكتب الصيني للسياحة الدولية أن علي استئناف الرحلة بالحافلة. فليس هناك خط جوي يخترق جبال تيان شان.

لذلك، فبدلا من أن تأخذ الرحلة ساعتين جواً استغرق السفر بالحافلة النهار بطوله وردحاً من الليل. وكاد صبري أن ينفد من رحلة بدت بلا نهاية. ووسط ذلك القنوط تراءت لي منازل مبنية بالطين واشارة تحمل اسم "كاشي".

وصحوت من نومي في منتصف العصر وأنا في غرفتي في الفندق. ونظرت من نافذتها الوحيدة الصغيرة لأرى عالماً جديداً. لدى زيارتي الاولى غير الشرعية قبل أربع سنوات كان

الطقس شتاء وقد غطى الثلج الشوارع بأوساخها وغبارها. لكني الآن رأيت كاشي على حقيقتها: مدينة صحراوية تعجّ بالمناجم والمصانع التي تنفث الدخان والضباب والغبار عند سفح أعلى جبال العالم.

وعلى رغم نشاط السفن التجارية الصينية في الخليج العربي خلال القرن التاسع عشر، فقد كانت تجارة الصين تعتمد في المقام الاول على قوافل الجمال عبر آسيا الوسطى. وكانت طريق القوافل تفضي من واحة الى اخرى مروراً بممالك صغيرة وبمدينة كاشي أيضاً. ولا تزال شوارع المدينة تعج بالحركة اليوم وقد اختلطت الجمال بالشاحنات والحافلات والدراجات الهوائية.

وغادرت المدينة بعد يومين من التجول فيها، وركبت حافلة في اتجاه خوتان أحد مراكز الحرير الرئيسية. واخترقت الحافلة خطاً متعرجاً في الصحراء طوله ٥٣٠ كيلومتراً يتصاعد منها الغبار، وكانت خوتان المرحلة الاخيرة في خطوط الحافلات والبرامج السياحية مما يعني أن الخطوة التالية في رحلتي كانت شاقة، اذ كيف لي أن أقطع مسافة ١٤٥٠ كيلومتراً شرقاً على درب الحرير في محاذاة سفح جبال كونلون؟

وتذكرت صورة انطبعت في ذهني لدى مشاهدتي رسم مجلة "ناشونال جيوغرافيك" عام ١٩٢٣. وكان في ذلك الرسم فتى في مثل سني آنذاك يقود قافلة من الجمال ذات السنامين على حافة الجدار، وبت كلما شاهدت جمالا على درب الحرير أتمنى أن يتاح لي اختراق الصحراء الى البوابة الغربية في جيايوغوان ضمن قافلة تعيد الي طيوفاً من رحلة ماركو بولو التي تمت قبل قرون.

ولكن قيل لي ان ذلك مستحيل. "فبعد انشاء الطرق المعبدة حلت الشاحنات محل الجمال." غير أني لم أفقد الأمل في العثور على جمّال عنيد لو لم تكن الرحلة بهذه الطريقة تستغرق وقتاً أطول مما يخولني اذن السفر.

وانضممت الى قافلة من عشر شاحنات تحمل كل منها طنَّين من الحرير وهي في طريقها الى البوابة الغربية. وبقينا خمسة أيام من غير توقف يذكر، وكنا نقطع نحو ٣٢٠ كيلومتراً يومياً.

وفي اليوم الخامس بلغنا كهوفاً تبعد عشرين كيلومتراً خارج أسوار مدينة دونهوانغ. وكان جزء من الجدار يمتد الى هناك ويتجاوز جيايوغوان ولكن لا يمكن نعته بـ"العظيم" لأنه مصنوع من الطين المدكوك وقد تآكل الكثير منه بعد مضي قرون عليه. وكان بناؤه تم خلال حكم الامبراطور وو من سلالة هان وذلك بين العامين ١٤١ و٨٧ قبل الميلاد.

ورأيت علماً يلوح أمام مبنى. وقال مدير القافلة انه المكان الذي يستقبل فيهزوار تلكالكهوف.واذ وقفتأسأل عن غرفة وقع نظري على تشانغ جين وهو مسؤول في مكتب السياحة كنت رأيته قبل شهر في لانجو. وعرفني للحال وحصل لي على اذن بزيارة الكهوف قبل أن أطلب ذلك، علماً أن

لعلماء الآثار وحدهم حق زيارة ذلك المكان.

وفي تخوم دونهوانغ جرف يرتفع نحو ١٦٠٠متر وتتخلله كهوف تبلغ الخمسمئة وتحوي ما يزيد على الفي تمثال فضلا عن رسوم رائعة على الجدران والسقوف. وأخبرني عالم آثار يعمل على حفظ تلك الكنوز القصة الآتية التي ترجمها دليلي تشانغ جين:

"لمئات السنين بقيت قوافل الجمال تنطلق من دونهوانغ أو تقف فيها للتزود بالماء والحاجات الاخرى. وكان التاجر الثري يشتري ألف جمل ويكتري مئة رجل لقيادها والعناية بها ثم يحملها حريراً فاخراً قبل انطلاقها في رحلتها الشاقة. وطوال ثماني سنوات من مغادرتها دونهوانغ كانت أخبار القافلة تنقطع عن التاجر.

"وذلك حدا التجار على تكليف النحاتين اقامة نُصب لبوذا علّ الرحلة تتكلل بالنجاح. وبدلا من ابقاء التماثيل معرضة للعوامل الطبيعية التي لا ترحم فانها جُعلت ضمن كهوف تقيها."

وبعد زيارة الكهوف رافقني تشانغ جين في احدى الشاحنات الى جيايوغوان وقطعنا الطريق في محاذاة الجدار. وتبين لي أن معظم الجدار الذي أقامه الامبراطور وو في ذلك الطرف الغربي اختفى وبقيت أجزاء متقوضة منه هنا وهناك وقد بُنيت بالطين الذي جففته الشمس. ووجدنا عدداً من أبراج المراقبة التي تدل الشواهد على أنها كانت أساساً من طبقتين أو ثلاث طبقات قبل أن تتداعى وتنهار.

ولم تخفّ خيبتي على تشانغ جين، لكنه حثني على تشديد نفسي. ووعد بأن يأخذني اليوم التالي الى الحصن الذي تم ترميمه. وبالقرب من ذلك المكان قرية يقطنها الجمّالون مع جمالهم. وقال دليلي انه سيؤمن قافلة جمال لمرافقتي. وأويت الى النوم تلك الليلة وقد عاد الي حلمي القديم. وعقدت العزم على اكتراء قافلة جمال ذات سنامين مهما يكن الثمن، لأخلد بعض رحلتي برسم يشبه ذلك الذي انتزعته من المجلة الجغرافية عام ١٩٢٣.

القافلة

عند ذلك الحصن يبدأ جدار مينغ وهو الاسم الذي أطلق على ذلك الجزء من جدار الصين تمييزاً له عن جدار الامبراطور وو. ولا يزال جدار مينغ محافظاً على أهميته الاستراتيجية التي كانت له منذ بنائه عام ١٣٧٠.

وبر دليلي بوعده فأخذني الى الحصن في الصباح التالي. وكانت جمالي كلها هناك وهي قافلة من أحد عشر جملا من ذوات السنامين.

ولدى بلوغنا الحصن تم تعريفي على رجل صيني متوسط السن يرتدي سروالا من قطن أزرق خشن وفوقه سترة "ماو" خالية من أي شارة تدل على وظيفته الرسمية. لكني توقعت أن يكون مسؤولا رفيعاً في "جيش التحرير الشعبي". وبدا أنه يعرف الكثير عني وعن مهمتي العسكرية في الصين إبان الحرب العالمية الثانية. وتوجه الى غرفة في الحصن عاد منها بقبعة عسكرية صينية تبرز في

مقدمها نجمة حمراء كبيرة، وأعطاني اياها وقال بالصينية ما معناه: "ها أنذا أجعل منك عضواً فخرياً في جيش التحرير الشعبي."

وانتزعت قبعة البيسبول الأمريكية عن رأسي ووضعت تلك الهدية مكانها. والحق أنها أعانتني في الايام اللاحقة.

امضينا اليوم الاول في جوار الحصن، وقد التقطت لي صور وأنا أركب الجمل الامامي وورائي الجمال العشرة الباقية في خط مستقيم أمام أسوار جدار الصين العظيم.

وسرعان ما وجدتني اطلع على خصوصيات الجمال وولعها بالمشاكسة. وكانت الفتاة التي تقود القافلة تنيخ جملي كلما شئت الركوب. وإذ اتقدم نحوه تشد الحبل وتتفوه بكلمات يبدو ان الجمل كان يعافها. فهو كان يشرئب ويصدر صوتاً مروعاً لم اعرف مثيلا له في حياتي. وكان صراخه يرتحل مسافة كيلومترات وأحياناً تنضم اليه الجمال الاخرى.

وفي النهاية كان جملي يرضخ على مضض، فيحني رأسه ثم يتنفرس في صخور الصحراء أمامه قبل ان يخر على وجهه. وبعد ذلك كان ينزل قائمتيه الخلفيتين بعد ثنيهما، فأمتطي تلك الفجوة بين سناميه وأنا العن نفسي لما سببته لذلك المخلوق من عذاب وشكوى.

ولم يكن النزول عن ظهره بأخف مشقة من الصعود. وكنت في آخر النهار أتمنى لو كان لي سلم انزل عليها. وما البث ان ادعو الفتاة الى نجدتي وأنزل عن ظهر الجمل متحدياً قواعد الركوب والنزول التي مارسها



القوم آلاف السنين. ولا انسى كيف نظر الي كل من هناك بدهشة حين سألت الفتاة ان تمسك برأس الجمل فيما ركضت اليه من مسافة ستة أمتار وقفزت وتمسكت بقمة سنامية قبل ان مرر رجلي اليمنى فوق السنام الخلفي وأثبت وضعي في تلك الفرجة الطبيعية بين السنامين.

ولكن يبدو ان صعودي الى ظهره وهو غير بارك لم يرقه. وكثيراً ما أدار رأسه واستغرق في نواح طويل وهو ينظر الي باشمئزاز محاولا أن يبصق في وجهي من بين اسنانه الصفراء. وحاولتُ تمسيد عنقه استلطافاً لكنه عضني غير مرة.

وفي اي حال فقد كان اليوم الاول بمثابة امتحان للصبر والصمود. أما الرحلة الحقيقية فلم تبدأ قبل اليوم الثاني. وسرنا فوق الدرب الصفراء في محاذاة الجدار الذي تصلب بفعل الشمس والمطر عبر القرون. وفي بعض المواضع كان متآكلا الى حد كبير.

وعلى رغم خيبتي من جراء تداعي الجدار فقد سررت ايما سرور لعبوره ولمسه بيدي الاثنتين مرة بعد مرة. ولدى وقوفنا لالتقاط الصور كنت انزل عن الجمل وأقفز الى قمة الجدار وأمشي فوقه قليلا.

وسرعان ما وصلنا الى الشعاب الجبلية التي كانت بادىء الامر فجوات صغيرة. ولكن ما ان بلغنا الواحة الاولى ذلك المساء حتى اختفى الجدار على نحو غير متوقع. وفي وقت باكر من الصباح التالي تناولنا البطيخ والشاي القوي وتابعنا طريقنا. غير أننا لم نصادف تتمة الجدار حتى الظلام.

وفي اليوم الثالث تبعناه مسافة ٥٥ كيلومتراً قبل ان يختفي من جديد. وأُريت على الخريطة ان معظم ما بقي من الجدار شمالا حتى لانجو لا يتجاوز بعض حجار متداعية. ونُصحت باعادة الجمّالين من حيث أتوا.

وأمن تشانغ جين سيارة تابعنا فيها الرحلة. وعقدنا العزم على اتباع الخط الرئيسي المعبد حتى نبلغ نقطة في الشمال ما زال الجدار فيها قائماً. ومن هناك نبحث عن طريق شمالية فرعية تفضي بنا الى الجدار، حتى إذا وجدته سرتُ على القدمين في اتجاهيه.

وهكذا كان. وعدت أمرر يديّ على الجدار وأنا اقطع كيلومتراً هنا وثمانية هناك، والتقط بعض الحجار الصغيرة تذكاراً.

وفي اليوم الرابع وصلنا، انا وتشانغ جين، الى السكة الحديد التي عبرتُها سابقاً نحو منغوليا الداخلية. هناك كانت لانجو الى الجنوب والجدار الى الشمال. وانعطفنا الى ممر ضيق اجتزنا عبره بضعة كيلومترات افضت بنا الى تلك الثغرة التي قفزتُ عندها من جانب الى آخر في القطار لتصوير الجدار عبثاً. وعرفت إذذاك سبب عدم رؤيتي الجدار، الا وهو عرض الثغرة الذي يبلغ تسعة كيلومترات.

كنا هناك في وقت متقدم من العصر ولكن كان علينا اكتشاف المكان. ووجد السائق ممراً في

محاذاة الجدار فيما نزلت وتشانغ جين من السيارة وتسلقنا الجدار ورحنا نقطعه ركضاً. ونظرت الى اسفل فتراءى لي النهر الأصفر وقد انعطف شرقاً ثم شمالا في رحلة الألف ميل التي تكون المنعطف العظيم. وبدا الجدار متعرجاً وهو ينحرف شمالا مع النهر، لكنه وراء ذلك تبع ضفة النهر نحو الافق في خط مستقيم. ولمست سطح الجدار العظيم مرة اخيرة قبل ان نتوجه في السيارة الى لانجو.

ورحت أرسم خطة لليوم التالي، حارصاً على الا يفوتني شيء من الجدار. ترى الذهب في سيارة اخرى تأخذني حتى الثغرة العريضة ومن هناك اتبع خط القطار قبل متابعة طريقي الى يينتشوان حيث تقوم ثغرة اخرى تسلقتُ عندها برج الاشارة في محطة القطارات؟ ومن هناك يتوجه القطار شمالا، فيما يتابع الجدار خطه شرقاً عبر سهل الاوردوس. اذاً يمكنني اتباع الجدار في سيارة.

في الظل

ما ان اشرقت شمس الصباح حتى ادركتُ اخفاق خطتي. ونزلت الى غرفة الطعام التي كانت تعج بالسياح. وقبل ان يأتيني خبر مكتب السياحة عرفتُ انه يستحيل على اجنبي بمفرده ان يأخذ سيارة وان جميع السيارات محجوزة.

وتكونت خطة بديلة في ذهني. وسألت مكتب السياحة ان يحصل لي على بطاقة تخولني ركوب القطار الى بكين مع التوقف في داتونغ. والمدينتان مذكورتان في ترخيص رحلتي. لكن المشكلة كانت أنني قطعت الطريق نفسها مع السياح الامريكيين قبل شهر من غير ان ارى اثراً للجدار. غير اني الآن بت اعرف شيئاً وان قليلا عن طريقة عمل القطارات الصينية.

وفي انتظار البطاقة اليوم التالي رحت انظم صرتي بعناية. وارتديت قميصاً "سياحياً" ملوناً واعتمرت قبعة البيسبول ثم توجهت الى محطة القطار وقد حملت الصرة الزرقاء كما لو كانت حقيبة ثياب. وفي ذلك لم ابد مختلفاً عن اي سائح آخر من اولئك الذين كانوا يملأون الباحة. وتوجهت الى موظفة شابة مسؤولة عن مراقبة البطاقات وكانت آلة التصوير تتدلى من عنقي. وبعد الصعود الى القطار كان على الموظفة نفسها ان تجمع البطاقات مما يعني ان الراكب يبقى اسير القطار حتى بلوغ غايته.

وهرعت الى مقصورتي في القطار مقفلا الباب ومنزلا الستائر. وانتزعت سروالي القطني الازرق من الصرة ومعه سترة "ماو" والقبعة العسكرية الصينية. وارتديت تلك الملابس بسرعة وخبأت شعري الرمادي تحت القبعة. ثم وضعت النظارتين الشمسيتين على عيني وانطلقت خارجاً الى الممر من غير ان يأتي احد سائلا عن اوراقي.

وعلى رغم كون الصين جمهورية شعبية إلا ان "الشعب" لا يتاح له ركوب تلك الاجزاء من القطار المخصصة للأجانب. اما الأجزاء المخصصة للركاب الصينيين فهي غير

مريحة وتقتصر على مقاعد خشبية او تختفي منها المقاعد كلياً. واخترقت بضع مقاصير سياحية حتى بلغت الجزء الصيني من القطار. وهناك اقتعدت الأرض رافعاً ركبتي وخافضاً رأسي.

وزويداً رويداً امتلأ المكان بالصينيين رجالا ونساء واطفالا يرتدون ثياباً كثيابي ويحملون اكياساً على غرار صرتي الزرقاء. وإذ اهتز القطار استعداداً للانطلاق انزلت قبعتي قليلا على وجهي.

وبقيت هناك ٣٢٠ كيلومتراً من غير ان يشك احد في امري. وعلى بعد ثلاثين كيلومتراً من يينتشوان رفعتُ رأسي لأرى رجل أمن ببزته البيضاء واقفاً هناك. وسمعت دقات قلبي داخل سترة "ماو". الا ان الضابط توجه الى القاطرة الملاصقة وعاد ليتحدث الى احد الاطفال قبل ان ينصرف.

وقبيل منتصف الليل خفت سرعة القطار استعداداً للوقوف. وترجلتُ وسط المسافرين الذين راحوا يجمعون امتعتهم. وحرصت على ان ابقى بينهم بعد خروجي الى المحطة. وهناك شاهدت رجل أمن آخر وهممت بالابتعاد عنه ما استطعت. لكنه لم يوقف احداً. وفي الباحة لم اجد اي حافلة او سيارة. وسار رفقاء الطريق شرقاً وعرفتُ الوجهة من النجوم. وتبعتهم وأنا احاول المشي بثقة خوفاً من افتضاح امري.

ولم انظر الى خريطتي طوال الرحلة لئلا يفشى سري. غير اني تعرفت على يينتشوان وضواحيها قبل وقت طويل. وكانت محطة القطار تبعد نحو تسعة كيلومترات ونصف كيلومتر غرب المدينة. وسرنا ساعتين قبل بلوغ المدينة وأنا حريص على البقاء وسط الجماعة من غير كلام. ووجدت فندقاً خاطبت موظفيه كما لو كنت حجزت مكاناً لنفسي قبل اشهر. وكنت احمل جواز سفري وترخيص الرحلة وقد انتزعت القبعة والنظارتين. وطرح علي الموظف الذي كاد النوم يغلب عليه سؤالا بالصينية فهمت منه انه يود ان يعرف ما اذا كنت احد افراد الرحلة السياحية. ويبدو ان الحظ اسعفني بوصول جماعة سياح في الوقت نفسه. فهززت رأسي ايجاباً واخذت منه مفتاح احدى الغرف.

وفي الصباح التالي كنتُ اتناول فطوري من كعك الرز والشاي عندما صادفت احد افراد الرحلة وهو ياباني. وبخليط من الانكليزية المكسرة واليابانية تناولنا برنامج رحلته. وافرحني جداً انهم ذاهبون من يينتشوان الى يولين في محاذاة الجدار. والمسافة بين المدينتين ٤٣٥ كيلومتراً في حين ان الجدار متقوض في نصفها على الأقل. وكان في حافلة صديقي الجديد بعض مقاعد خالية بسبب مرض اصاب عدداً من جماعته.

وهكذا انضممت الى الرحلة اليابانية لدى انطلاقها من يينتشوان بعد يومين. وسحبت خريطتي ودار حديث مفعم بالحيوية بيني وبين صديقي وأنا ادله على النقاط التي زرتها. وكثيراً ما ترجلنا من الحافلة والتقطنا الصور التذكارية أمام

الحطام. ومهما تكن حال الجدار، فهو كان يعني لي الكثير في اجزائه جميعاً.

وبلغنا يولين منتصف العصر واخذني اصدقائي اليابانيون الى فندق هناك. ولما غادرت حافلتهم نظرت لأرى ذراعين او ثلاثاً تلوح لي من كل نافذة.

جاسوس!

انطلقت صباحاً وأنا احاول ملاصقة الجدار والابتعاد عن الطريق الرئيسية. إلا ان الجدار ابى ان يرافقني طويلاً. وسرت بايقاع عسكري نشط يشمل ١٢٨ خطوة في الدقيقة. وهذا يعني قطع ستة كيلومترات ونصف كيلومتر في الساعة. غير ان الجدار نفسه انتهى بعد ثلاثة كيلومترات وربع كيلومتر.



وإذ ذاك دنوت من الطريق الرئيسية حيث اقتصرت حركة السير على عدد من الشاحنات. وجدير بالذكر ان منطقة الاوردوس قفر يملأه الغبار وتتناثر فيه قرى قليلة تحوي عدداً من اكواخ الطين المتجاورة.

وكنت كلما لمحت جزءاً من الجدار، مهما ساءت حاله، انحرف عن الطريق لأراه عن كثب. وذلك استغرق اليوم الاول كله في يولين. وافضى بي حطام الجدار الى نهر صغير فيما الشمس تغرب.

وعلى بعد ٤٠٠ متر من هناك شاهدت سحابة من الدخان تعلو احد الأكواخ. وتركت صرّتي وتوجهت الى ذلك المكان وهو منزل مؤلف من غرفتين بدا لي انهما شيدتا بالطين الأصفر نفسه الذي بني به الجدار. ووقف رجل امام البيت ينشل الماء من بئر، وحول المنزل مزروعات قليلة وبعض طيور الدجاج والحيوان التي اقيم حولها سور من طين. ودنوت من الرجل وأنا احييه بتلويح يدي واقول بالصينية: "بطيخ... ارجوك." وكنت اكلت البطيخ في كل مكان في الصين ووجدت انه يقويني طوال النهار.

ويبدو ان كلماتي الصينية التي جاءت بلكنة الجنوب الامريكي لم تعنِ شيئاً لذلك الرجل. وعندئذ اشرت بيدي الى البطيخ في حديقته واخرجت من جيبي اوراقاً نقدية صينية لاقول له اني اقصد شراء البطيخ. وفي تلك الأثناء تحلق حولي عدد من الأطفال. واخرجت بعض قطع الحلوى من جيبي مشيراً نحو الاولاد. وقطع الرجل رأس بطيخ من حديقته واعطاني اياه. واجزلت له الشكر وعدت الى حيث صرتي.

وغرفت الماء من النهر واشعلت النار في قطع من الحطب والاخشاب. ووضعت وعاء فيه ماء فوق النار واضفت الشاي الى الماء. وكان عشائي ذلك الشاي وبعض البطيخ. ثم تناولت من صرتي كيساً من دقيق الشوفان وبعض رقائق الشوكولاته

التي صنعت خصيصاً لي في اريزونا اعتماداً على وصفة في حوزتي. وبعد ذلك سحبت كيس النوم وغفوت سريعاً.

وفي الصباح تناولت البطيخ والحلوى قبل ان اشرع في استكشاف الجدار. وارتضيت بالقليل الذي رأيته منه ذلك اليوم. ونحو المغيب توجهت الى منزل آخر واتبعت طريقة مماثلة للحصول على البطيخ. واكلت ونمت كما في الليلة الفائتة. وانقضى اليومان الثالث والرابع كسابقيهما. واذ اختفى اثر الجدار كله تقريباً رحت اسائل نفسي عن جدوى بقائي في تلك المنطقة.

وفي وقت متقدم من اليوم الرابع بلغت بلدة فوغو الصغيرة بعدما سرت مئتي كيلومتر على القدمين فضلا عن المسافة التي قطعتها مع السياح اليابانيين. وبذلك اجتزت معظم المنعطف العظيم على النهر الأصفر. واذ لم يكن هناك جسر عبرت النهر بقارب قديم يدفعه حبل في الماء.

وبعد ايام ثلاثة مشيت شرقاً ووصلت الى بلدة اخرى لم اجد في تخومها اثراً للجدار. في الأيام الذهبية القديمة كان الجدار يشكل حاجزاً من الشرق الى الغرب يصد هجمات الاعداء الشماليين. لكن اقساماً اخرى منه اقيمت بين الولايات المتناحرة. ومعظم تلك الاقسام يمتد من الشمال الى الجنوب. وظهر على خريطتي ان واحداً من تلك الاقسام ليس بعيداً عن حيث انا وانه جزء من جدار داخلي كبير رمم ايام حكم سلالة مينغ بين ١٣٦٨ و١٦٤٤. ووصلت الى ذلك الجزء ظهر اليوم الرابع الذي تلا انطلاقي من النهر الأصفر. وارتفعت معنوياتي كثيراً اذ رأيت ان ذلك الجدار مبني من الحجر وان ارتفاعه، كذلك عرضه، سبعة امتار ونصف متر. وبلغت بي الحماسة حداً جعلني اخرج السكين من صرتي وأحفر اسمي بالصينية مع ذكر العام ١٩٨٠ مستخدماً حجراً كمطرقة.

وبلغت عصر ذلك اليوم بلدة شوكسيان وفيها خط مزدوج للسكك الحديد يذهب الى داتونغ المدينة الثانية المذكورة في ترخيص السفر. وتبادر الى ذهني باديء الامر ان في امكاني اخذ القطار الى داتونغ بسهولة كأن الامور كلها جرت كما ينبغي. الا ان شوكسيان لم تكن ضمن برنامج رحلتي الرسمي مما يعني انه لا يحق لي اخذ القطار منها الى داتونغ. ولم يكن لدي اي تفسير للطريقة التي وصلت فيها الى شوكسيان. لذلك رجوت ان يسعفني الحظ لأجد المخرج اللائق.

واستطعت اكتراء سيارة مع سائقها من غير إثارة الشكوك. وفي اليوم التالي قطعت ٦٥ كيلومتراً شمال الجدار حتى وصلت الى ياوزيشانغ وهي منطقة حلقت فوقها خلال الحرب. ووجدت نفسي مرة اخرى أمام الجزء الحجري من الجدار. وكانت هناك أبراج مراقبة تم ترميمها على غرار ما حصل بالنسبة الى جزء الجدار الواقع شمال بكين. ولم أستطع مقاومة رغبتي في حفر اسمي بالصينية في أفضل تلك الأبراج جميعاً، وكان ذلك وراء ياوزيشانغ.

وأمضيتُ بقية النهار استمتعُ بالمنظر وأنا أسير على قمة الجدار وألتقط بعض الصور.وبلغنا داتونغ مساء. وخلفت ورائي خمسة آلاف كيلومتر من الصين قطعت الكيلومترات المئتين الأخيرة منها على القدمين. ودخلت الفندق وأنا اتشوق الى الاستحمام والاستراحة يوماً أو اثنين. وقدمت أوراقي في مكتب السياحة وأنا على أتم استعداد لاستئناف رحلتي. ولكن ما أن دخلتُ المكتب حتى سمعتُ المترجم يذكر اسمي مرتين على الهاتف. ووقفت أصغي حسناً الى ما يقول. وسرعان ما دخل شخص في زي رجل أمن. وإذ ذاك بدأت أسوأ أيامي الصينية التي دامت نحو أسبوع.

"كيلروي مر من هنا"

اعترفت للمترجم بأنني بدلت ملابسي لدى ركوبي القطار في لانجو مؤكداً حسن نيتي التي لم تتجاوز استكشاف الجدار. ورحت أدله على الطريق التي قطعتها والخريطة أمامي. ودهشت حين أخذ رجل الأمن يقيس المسافات على خريطته هو. ثم تذكرت أنّ تلك المنطقة التي تبعد بضع مئات الكيلومترات عن يينتشوان حيث تركت القطار ربما كانت المجال الحيوي للقذائف الصينية ذات الدفع الذاتي.

إذاً، لم تكن مديرية الأمن الداخلي لجمهورية الصين الشعبية تعالج أمر سائح غادر القطار بلا إذن، وإنما كانت تقف وجهاً لوجه أمام "جاسوس"!

في الأيام اللاحقة -لم أكف عن إعطاء تفسيرات حول وصولي الى يينتشوان وكيف ركبت القطار مرتين الى منغوليا الداخلية وكيف تركت القطار لتتبع الجدار العظيم شرقاً. وأخذ المترجم وقتاً لفهم الرواية قبل نقلها الى الضابط.

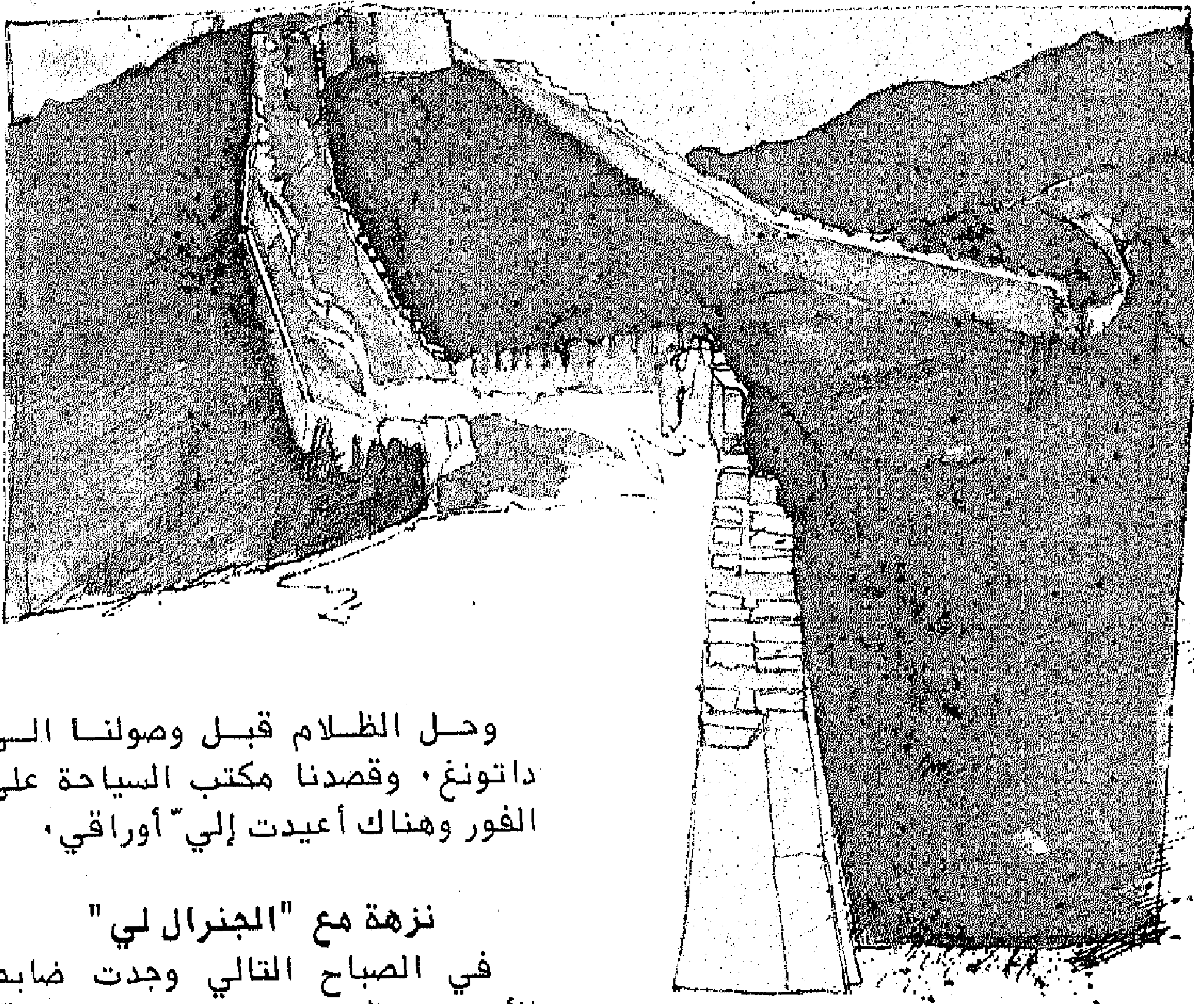
وعرفت في ما بعد أن المسؤولين عن الأمن خابروا الفنادق التي حللت فيها في يينتشوان ويولين وشوكسيان. وفي هذه المدينة الأخيرة حيث اكتريت سيارة مع سائقها تمّ استجواب السائق.

ويبدو أنّ ضابط الأمن اهتمّ لخريطتي خصوصاً العلامات التي وضعتُها حيث حفرت اسمي. وأوضحتُ له اني قلدت بذلك ما رأيته في أجزاء الجدار الواقعة شمال بكين.

وفي الصباح التالي أوقظت من النوم باكراً. وظننت أنني بت في قبضة العدالة الصينية. وطلب مني المترجم أن ارافقه هو وضابط الأمن في سيارة ذات لون كاكي لجيش التحرير الصيني. ولم يذكر أي شيء عن وجهتنا.

ودهشت لرؤية مرافقي يتصرفان على نحو هادىء ولائق. وجلست معهما في المقعد الأمامي فيما الضابط يتبع خريطتي غرباً خارج داتونغ. وبدا أنه كان متجهاً الى برج المراقبة الذي حفرت اسمي على حجاره.

وتذكرت عادة درج عليها الجنود الأمريكيون خلال الحرب العالمية الثانية إذ كانوا يكتبون على الجدران "كيلروي مر من هنا." وبذل المترجم



وحل الظلام قبل وصولنا الى داتونغ، وقصدنا مكتب السياحة على الفور وهناك أعيدت إلي أوراقي.

نزهة مع "الجنرال لي"

في الصباح التالي وجدت ضابط الأمن ينتظرني، وبعد تحية حارّة عرفني على رجل صيني يرتدي ملابس زرقاء تشبه ملابسي، ولم يكن ذلك "السيد لي" بمدني، والواقع أنّ خمسين سنة في الجيش كانت كافية لئلا أخدع من عسكري آخر، وكان اسمه كاسمي الأوسط وسميته بيني وبين نفسي "الجنرال لي"، وكان أحياناً يبدو في الثلاثين وأحياناً في مثل سني على رغم خلو رأسه من أيّ خصلة شعر بيضاء.

ووضعت صرتي في المقعد الخلفي من سيارة "جيب" صينية حيث جلس السيد لي فيما جلست أنا في المقعد الأمامي مع السائق، ولم ادر الى أين

غاية جهده لنقل تلك الفكرة الى الضابط.

وبلغنا ذلك البرج ظهراً وتقدمت رفيقيّ الى حيث حفرت اسمي، ووقف الضابط يتفحص الكتابة ثمّ استدار نحوي مصافحاً وقائلاً: "كيلروي مر من هنا،" وأخذ يضحك بمرح.

وعدنا الى السيارة العسكرية، لكننا لم نذهب مباشرة الى داتونغ، بل الى الأماكن الاخرى حيث حفرت اسمي، وما انفك الضابط يتحدث الى المترجم الذي قال لي إن صاحبنا يذكر له أماكن صينية اخرى يجب ألا تفوتني.

كنا نذهب. وتبادر إلي أنهم يسوقونني الى بكين تحت نظر السيد لي. ولكن عوضاً عن الذهاب شرقاً نحو العاصمة انطلقت السيارة الى الشمال. وتنفست الصعداء وقد وضعت خريطتي أمامي. واتكأ السيد لي الى الأمام وخاطبني للمرة الاولى بلغة انكليزية ممتازة.

قال: "أنا الآن دليلك يا جنرال. تريد مشاهدة الجدار العظيم؟ فليكن لك ما تريد. ان جمهورية الصين الشعبية تودّ تحقيق رغبتك."

وظهر خط الجدار الرمادي الأزرق وأخذ يزداد وضوحاً. وسرعان ما أصبحنا على مسافة ١٢٠٠ متر منه. وأشار السيد لي الى الجبال أمامنا التي تقع ضمن الجدار وترتفع ٢١٠٠متر. وأضاف أن السيارة لا تستطيع اختراق ذلك الحصن: "من هناك علينا تدبّر أمرنا شخصياً."

وأنزلنا حمولتنا ولاحظتُ أن مع رفيقي صرة شبيهة بالتي معي. وخيل إلي أنه رافقني الى هناك ليرى إن كان في استطاعة ذلك "الأمريكي المجنون" أن يجتاز الجدار فعلا.

وكان امتحاني الأول في تسلق الجبال. وعلى رغم أن المرحلة الاولى أوصلتنا الى ارتفاع ١٨٠٠ متر فان ذلك بدأ ثلاث مرات أكثر نظراً الى وعورة الأرض. وسرت على قمة الجدار ودليلي أمامي. وكلما بلغنا نقطة متداعية كنا ننزل ونبحث عن معبر للماشية نقطعه حتى النقطة التالية.

وعند الغروب وصلنا الى برج مراقبة في حال جيدة. وأنزل السيد لي صرته ووقف ينظر حوله. كانت الشمس تنحدر مثل كرة نار فوق ذلك الطرف من الجدار المسمى "رأس التنين". ووقفنا أمام ذلك المشهد الرائع.

وسحب السيد لي من صرته وعاء للشاي ومنصباً ثلاثي القوائم يعمل على الغاز المضغوط. وكان معظم عشائنا من الحلوى الأمريكية. ثم اضطجعنا ونمنا داخل البرج. ولم يحمل السيد لي معه أي طعام. وأظن أنه شاء اختبار قدرتي على الجوع أيضاً.

وفي الصباح مشينا حول البرج وقسنا قاعدته التي بلغت مساحتها ١٢ متراً مربعاً. وأوضح دليلي كيف تولى مهندسو سلالة مينغ صنع أساس البرج وذلك بحفر خنادق متوازية في الصوان يبعد أحدها عن الآخر سبعة أمتار ونصف متر، قبل أن يضعوا بينها حجاراً يبلغ طول كلّ منها أربعة أمتار وعرضه متراً وكثافته نصف متر. ولا عجب أن يبقى البرج قائماً على ذلك الأساس الصلب.

واستمرت رحلتي مع "الجنرال لي" أحد عشر يوماً على هذا المنوال، أمضينا ليلة واحدة منها في فندق وليلة اخرى لا أنساها ضمن اخدود تحت الجدار المتهدّم لجأنا إليه عند نقطة مرتفعة وقاية من البرد والمطر الغزير. وقطعنا نحو ٤٠٠ كيلومتر في أطرف أجزاء الجدار وأجمل المناظر طراً في الأرض.

ونادراً ما كنا نتحدّث ونحن نغذّ السير في محاذاة الجدار. لكننا كنا نبحث في أمور كثيرة بعد أن نحط رحالنا مساء. وكان السيد لي يتكلم

كمعلم شارحاً تاريخ المنطقة وطبيعتها، وفي المقابل أخبرته عن إعجابي بالجدار طوال حياتي، خصوصاً في ذلك اليوم من أيام الحرب عندما حلقتُ فوق رأس التنين القديم على البحر الأصفر وتبعت ظلي عبر الجزء الذي نجتازه الآن. ولدى عبوري السريع فوق رأس التنين ذلك اليوم شاهدت خمسة حروف صينية عملاقة على بوابة برج. وإذ لم أعرف قراءتها التقطتُ صورة لها، وحمض الشريط بعد عودتنا الى القاعدة. واضطر مترجمنا الميجور شو الى الاستعانة بالقاموس ليفهم معنى ذلك وهو: "البوابة الاولى في العالم."

وبدا أن "الجنرال لي" فهم كل ما قلته، وأوضح لي أن الصين كانت تعتبر نفسها هي العالم وتعد بكين مركز ذلك العالم. وبهذا المعنى ربما صح أن تلك البوابة على البحر الأصفر هي بوابة العالم الاولى. وهي كانت هكذا بالنسبة إلي.

وبلغنا نقطة تبعد ٣٧٠ كيلومتراً عن البحر الأصفر ولكن كان علي العودة الى بكين لتجديد إذن السفر. ورافقني السيد لي الى القطار حتى المقعد ولم يسلمني بطاقتي الجديدة الى أن صفر القطار إيذاناً بالرحيل.

رأس التنين القديم

استغرق إصدار الأذن الجديد وقتاً أطول مما توقعت، لكنه وصل أخيراً. وبفضل رسالة كتبها السيد لي حصلتُ على مساعدة جيش التحرير الصيني خلال البقية الباقية من رحلتي. وأخذوني الى النقطة عينها حيث قضيت ليلتي الأخيرة بمعية السيد لي. ومن هناك أمضيت أياماً ثلاثة قطعت خلالها ١١٠ كيلومترات الى بلدة صغيرة اسمها غوبيكو حيث كان الكابتن تشو في انتظاري.

ورفض في البدء السماح لي بقطع مسافة الـ ٣٧٠ كيلومتراً على القدمين قائلا ان هناك شاحنة تعبر المسافة يومياً. وأوضحتُ له هدفي فبدا أنه قبل. وبت كلما وصلت الى فرجة في الجدار تخترقها طريق وجدت إحدى شاحنات الكابتن تشو العسكرية في انتظاري.

وكنت أقطع مسافة تراوح بين ٤٥ و٤٨ كيلومتراً يومياً. ومع وشوك تحقيق هدفي وجدت أن حلمي القديم ينتهي في حين لم أشأ له الانتهاء.

واتجهت أفكاري الى مئات الكيلومترات التي خلفتها ورائي وقد سرني أني لم أتوانَ في أي مرحلة منها. وهكذا كانت حياتي كلها فعلا: ألا أتمهل حين أستطيع الركض. أما الآن فوجدتني أفعل كل ما في وسعي لأطالة الرحلة، فأتوقف مثلا لالتقاط صورة حيث لا شيء يدعو الى التصوير.

وتوجهت نحو جياوشانغوان أي "المعبر الجبلي المقرّن" وهو قمة تبعد ٢٥ كيلومتراً عن الساحل كنتُ حلقتُ فوقها عام ١٩٤٤. وقررت أن اقضي ليلتي الأخيرة نائماً هناك.

وكنت كلما ارتقيت قمة توقعتُ أن أرى البحر الأصفر منها، وأخيراً جاء على غير انتظار. وكان الوقت مساء والسير على قمة الجدار حذراً. لذلك أنزلت الصرة عن ظهري ووقفت هناك

مكباً على رأس التنين الحجري الذي تبعته كل تلك المسافة.

وجلست استعداداً للنوم وفي نفسي صراع بين مشاعر الانتصار ومشاعر الندم. وتملصت مراراً من كيس النوم وارتقيت الجدار العظيم بتؤدة لئلا يفوتني شيء من المشهد. وكنت أرقب الأنوار المتذبذبة في المدينة الساحلية عندما عبرت في خلدي صورة زوجتي كيتي ريكس. لقد مر على وفاتها تسع سنوات. وأظن أني كنت ألجأ الى تلك الامور الغريبة لكي أنسى واقعي. ولم تبرح صورتها مخيلتي طوال تلك الليلة المؤرقة. وكنت اغمض عيني علي أراها وأسمع ما تريد قوله لي. والحق أني سمعت كلماتها الأخيرة وأدنيت اذني الى شفتيها وهي تقول: "أعرف أنك تود تحقيق تلك الامور على طريقتك. واني أفهم ذلك... أنا أفهم."

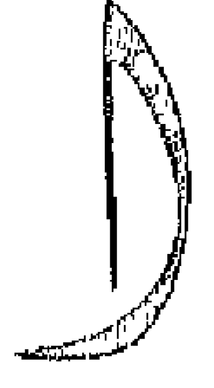
وانطلقت نحو سفح الجبل قبل شروق الشمس. وكان السير فجراً ضرباً من الغباء إذ كدت ان أهوي مراراً. أليس من الغباء أن أزل وأكسر رجلي في تلك المرحلة الأخيرة؟ ولما طلعت الشمس كنت قريباً من السفح. هناك كان معظم الجدار ركاماً الى أن بلغت الحصن في شانهايغوان وهو من الأمكنة التي أعيد بناؤها. هناك وقفت أمام الأحرف الصينية التي حفرت قبل خمسمئة سنة: "البوابة الاولى في العالم."

وانتهى الجزء المرمم بعد مسافة قصيرة ملاصقة للطريق الساحلية العامة التي استحال الجدار خلفها أكواماً من طين. وقطعت ثلاثة كيلومترات ثم سرت خطوتين فخطوة أخيرة. ووجدتني واقفاً فوق شرفة رأس التنين القديم التي تعلو البحر. وسمعت الأمواج تتكسر على بعض الحجار القديمة التي كانت جزءاً من الجدار.

ورفعت قبعتي الزرقاء ولوحت بها تلويحة النصر أمام السماء التي كانت أكثر زرقة منها. وبعد ذلك ركضت فوق كثبان الرمل من رأس التنين القديم الى حيث تتكسر أمواج البحر الأصفر على جدار الصين العظيم.

■ روبرت لي سكوت





اليوم الاخير من حياة اليانور ريان براوتي، وهو السبت الواقع فيه الرابع والعشرون من مايو (أيار) ١٩٨٠، بدأ قبل شروق الشمس وقد خيم السلام والهدوء على منزل آل براوتي الذي بني قبل ١٢٠ سنة. وكانت اليانور تحب كثيراً ساعات الضحى تلك لأنها تعتقها من الواجبات المنزلية كما تتيح لها القراءة. وهي حتى وقت قصير عملت صحافية في مجلة "ريدرز دايجست" وظلت بعد تقاعدها على علاقة غير رسمية بالمجلة. ودأبت كل صباح على تنقيب عشرات المخطوطات بحثاً عن مادة للكتابة.

وما أن طلعت الشمس حتى ارتدت اليانور ثياب نهاية الاسبوع وهي سروال أزرق وقميص قطني طويل مرفوع الردنين وحذاء خفيف من قماش. واستهلت رياضتها الصباحية وهي العدو الوئيد مسافة ثلاثة كيلومترات عبر ممرات بلدة سومرز الريفية في ولاية نيويورك.

في السابعة والستين ظلت اليانور محافظة على مقدار من الجمال الذي أغدقته عليها الطبيعة. وكاد شعرها الأشقر الذي قُص حتى الكتفين والتفّ نحو الداخل أن يخلو من الشيب. والتمعت عيناها لاستقبال يوم جديد بحماسة تتحدى أرقام الزمن.

وتجاوزت الساعة الثامنة صباحاً فيما اليانور تنتظر قدوم ولدها نورمان الابن (٤٤ سنة)، وهو أكبر أبنائها الثلاثة، من منزله المقابل ليساعدها في غرس أزهار الربيع. لكن مهمة صعبة كانت تنتظرها في الداخل قبل وصوله. ففي غرفة نومها في الطبقة الثانية يستريح جسد عاجز كان يوماً رجلا وسيماً قوياً قبل أن يقعده داء تصلب الأنسجة العضال. ذلك زوجها نورمان براوتي الأب الذي راح يقلب رأسه فوق الوسادة، وهو الجزء الوحيد في جسمه الذي تمكنه السيطرة عليه، وقد انطفأ النور في عينه اليسرى.

وتوقعت اليانور ان يأتي احد ابنائها في وقت لاحق لغسل والده. لذلك اكتفت بمسح وجهه ويديه ثم ركزته بين مسندين لاطعامه الفطور. وبعد ذلك نقلته من كرسي بجانب السرير الى كرسي معلق بحافة السلم ومن هناك الى الطبقة الارضية. وعلى كرسي ثالث نقال اخرجته الى ساحة البيت المشرفة على الحديقة.

وكانت تلك الخطة التي انتهجتها جزءاً من مساعيها الرامية الى ابقاء ذهن زوجها حياً ومهتماً بالعالم حوله. والواقع انها اخذته في رحلات بعيدة وراء البحار. وقبل اسابيع قليلة عادت واياه من رحلة الى الفيليبين وديار اخرى في الشرق الأقصى.

وبما ان تصلب الانسجة مرض متعلق بالجهاز العصبي، فقد تصاحبه اعراض نفسية. وهكذا عرفت حياة نورمان وجهاً مشرقاً بلغ ذروته في غبطة تجل عن الوصف، ووجهاً آخر قاتماً طالما عبر عن نفسه في نوبات غضب تستحيل السيطرة عليها.

وكانت تلك النوبات تنفجر في أي وقت ومكان: أمام افراد العائلة

والاصدقاء وحتى أمام الغرباء. وفي كرسيه الى طاولة العشاء كان نورمان يصب جام غضبه على ابنائه واحداً بعد آخر مستثنياً ابنته المفضلة باتي معظم الأحيان. وفي الستينات كانت باتي واخواها نورمان الابن وجون في الجامعة، فتحول غضب نورمان الى ابنه ديفيد وهو في صفه الثانوي الاخير. أما جيم اصغر اولاده فكان في بداية دراسته الثانوية.

كان ذلك في العام ١٩٦٣ وثورة الطلاب في الولايات المتحدة تنتشر من مكان الى آخر. وبلغ ديفيد السابعة عشرة وقد استمد من ابيه الوسامة والاقدام والابتهاج التي كانت له يوماً وركب تلك الموجة "العصرية" برفقة اترابه. وعلى نقيض اشقائه الذين خولهم انجازهم الدراسي دخول افضل الجامعات لم يكترث ديفيد للتحصيل العلمي.

وخلال العشاء ذات امسية نظر نورمان الأب الى ديفيد وقال: "من الأفضل أن تفكر جدياً في تبديل أصدقائك." وسرعان ما استحال الحديث تقريعاً مسهباً نزلت كلماته كضرب مطرقة على ذلك الفتى الحساس الذي كان يعاني الاضطراب الملازم للانتقال من الحداثة الى الرجولة، يرافقه حس بالذنب لعيشه على أمجاد إخوته العلمية. واعترى لونه الشحوب ثم نهض عن الطاولة وقد امتلأت عيناه دمعاً.

واستيقظ ديفيد باكراً صبيحة اليوم التالي وقاد سيارة العائلة الى الكنيسة في قرية كاتونا من أعمال نيويورك حيث اعتاد في طفولته الجلوس بجانب امه وهي تعزف على الارغن خلال قداس الأحد. هناك صلى بحرارة طالباً المغفرة على ما هو مزمع أن يفعل. وفي الثانية عصر اليوم نفسه وضع ديفيد خاتمة لحياته برصاصة اخترقت صدغه الأيسر وهو على طاولة المطبخ في منزل ذويه.

وكما يحدث في حالات الانتحار ترك ديفيد عائلة ينهشها حس الذنب. وبقي نورمان الأب سنوات رافضاً حقيقة موت ابنه. وبعد ولادة الحفيد الأول، وهو ولد نورمان الابن، بقي جدّه يناديه باسم ديفيد علماً أنه سُمي بروكس. وهذا يعني أن ولده ديفيد ظل حياً بالنسبة إليه.

وحاولت اليانور التكفير عن الذنب عبر مد يد العون الى الأحداث المضطربين، وعددهم ليس بالقليل. وعلى بعد كيلومترين ونصف كيلومتر من منزلها تقوم مؤسسة باسم "لينكولن هول" وهي "مركز لمعالجة الصبيان" الذين تراوح أعمارهم بين الحادية عشرة والسابعة عشرة.

وكيف لتلك السيدة أن تعرف أن ذلك سوف يطيل المأساة؟

حلم يصبح كابوساً

الواقع أن لينكولن هول مدرسة إصلاحية. وهي أسست عام ١٨٦٣ في مدينة نيويورك كمأوى لأيتام الحرب الأهلية الأمريكية.

ولدى خلو المؤسسة من أيتام الحرب الأهلية راود إدارتها تحقيق حلم غرس بذوره المصلحون في أواخر القرن التاسع عشر، وهو يدور على إنقاذ معشر السوء بابعادهم عن

المدينة وتدريبهم على الزراعة لتطهير نفوسهم. وقد تولى أحد المصلحين، واسمه برنابا ماكدونالد الذي اشتهر في مطلع هذا القرن كخبير بشؤون الأحداث، نقل المؤسسة الى مركزها الحالي في لينكولنديل في بلدة سومرز على بعد ٦٥ كيلومتراً شمال مدينة نيويورك، وبدل اسمها ليغدو "مدرسة لينكولن الزراعية". وفضلا عن المزرعة أحدث برنابا الاكواخ الحميمة الصغيرة بدلا من البنايات الكبيرة التي لا روح فيها ولا أنس.

إلا أن حلم "علماء الأحداث" الأوائل ما لبث أن استحال كابوساً في العقود الأخيرة من القرن العشرين. وعلى رغم كون المشروع مؤسسة خاصة فان اعتماده المادي على الهبات شبه تام. وهو يحتاج، من أجل استمراره، الى ٢٢٠ تلميذاً سنوياً. وقد بلغت المساعدة المقدمة لاعالة كل تلميذ ٢٥ ألف دولار عام ١٩٨١. ولم تزل حكومة نيويورك تستخدمه كمأوى للأحداث الشاردين واولئك الذين يقترفون تجاوزات خفيفة. غير أنه اضطر مع الوقت الى استقبال أعداد أكبر من الأحداث الجانحين.

وهكذا غدت تلك المؤسسة مكاناً يؤوي الأبرياء والمجرمين معاً. وفي أواخر السبعينات بات النشالون واللصوص والمجرمون الأحداث في لينكولن هول يشكلون ٩٠ في المئة من النزلاء، مما فرض جواً من الجريمة على المكان.

ويوم باشرت اليانور براوتي عملها هناك ذلك الصباح من شهر مايو (أيار) كان ناظر في "هيلسايد كوتاج"، أحد بيوت المؤسسة الأحد عشر، يمشي بين الأسرة ويهز الأغطية لايقاظ الأحداث.

ووقف الناظر متردداً أمام فتى قرر افتراش الأرض. ذلك أنه تبعه، بعدما حاول إيقاظه ذات صباح، وفي يده عصا غليظة. ولكن يبدو أنه استيقظ من تلقائه هذه المرة ورفع عينيه الى الناظر من خلال شعر أحمر كث منفوش. كان تيري لوسيكو فتى أبيض من شمال ولاية نيويورك يكن إعجاباً لفقراء مدينة نيويورك السود ويحاول تقليدهم.

كان تيري الذي يناديه النزلاء الآخرون باسم "تي" في السادسة عشرة، لكن بنيته الجسدية مكتملة النمو. فكتفاه العريضتان اللتان تملأهما العضلات تشبهان كتفي رافع أثقال، مع ذراعين طويلتين تكادان تبلغان ركبتيه ورجلين منتفختين عند ربلة الساق.

وهو يقول انه بدأ سرقة المنازل في الثالثة عشرة. وقد وجد نفسه في أواخر شهر مايو (أيار) في حاجة ماسة الى المال وهو على وشك الانتقال الى إصلاحية اخرى في مقاطعة برونكس قبل تسريحه أخيراً من المؤسسات. والمؤسسة الجديدة، واسمها "كاميلوس هاوس" فرع من لينكولن هول. ومن هناك تقرر إرسال تيري الى مدرسة خاصة في مقاطعة كوينز. وهو كان يعول كثيراً على ذلك الانتقال لأنه يتيح له التجول بحرية في شوارع المدينة الكبيرة. إلا أن

حاجته الملحة الى المال حتمت عليه أن يفعل شيئاً تلك الليلة.

واستيقظ ذلك الصباح وفي رأسه سؤال كبير: "أهناك كلب في المنزل؟" والوحيد الذي يستطيع الاجابة عن سؤاله هو غاري، الفتى الأسود الذي تعرّف عليه تيري في لينكولن هول وهو كذلك في السادسة عشرة.

وكان غاري آخر فتى من المؤسسة تعرفت عليه اليانور براوتي بعد موت ابنها ديفيد. وفي حين كان الجيران يعرضون أعمالا وقتية على تلاميذ المؤسسات الاصلاحية اعتادت اليانور أن تكافئهم بما هو أكثر من المال. فكانت تعدّ لهم المآكل والحلوى وتمكث معهم وقتاً خلال الغداء تصغي الى مشكلاتهم وهمومهم وتساعدهم في إنجاز فروضهم.

وفي نظر اليانور لم يكن غاري – كما وصف نفسه – مجرماً صغيراً ارتكب حتى بلوغه الخامسة عشرة أربع سرقات من شأنها إرساله الى السجن لو كان بالغاً. لكنها نظرت إليه كحدث مضطرب يستحق العطف والتوجيه لكي يستطيع مواجهة رجولته بروح المسؤولية.

وفي عيني غاري الذي لم يعرف من البيوت سوى المساكن الفقيرة التي تغص بأربع شقيقات وأربعة أشقاء، كان منزل آل براوتي الفسيح مثلا صارخاً على البحبوحة والرفاه. فالمطبخ وغرفة الطعام وحدهما أكبر من الشقة التي تسكنها امه. ومن الأمثلة الاخرى على الغنى المبلغ الذي تدفعه له السيدة براوتي وهو خمسة دولارات على الساعة، علماً أن أترابه في المؤسسة يتقاضون نصف هذا المبلغ من العائلات التي يخدمونها.

وقبل بضعة أشهر ما انفك تيري يطرح على غاري جميع أنواع الأسئلة المتعلقة بذلك المنزل. وكان غاري يجيبه باعتزاز، لكنه رفض مشاركته في سرقة المنزل عندما اقترح عليه ذلك. غير أن تيري لم يتخلّ عن خطته، بل عرضها على آخرين. وسرعان ما غدت السر الأهم في "لينكولن هول".

خرجت اليانور تلك الامسية لحضور عشاء راقص في ناد محلي وعادت الى البيت بعد ثلاثين دقيقة من منتصف الليل، فوجدت حفيدها بروكس (١٥ سنة) ما زال ساهراً على جده. وجلست اليانور تتحدث الى بروكس وقتاً يزيد على الساعة، وهي بالنسبة إليه رفيقة تمارين كرة المضرب والركض والأمينة على أسراره. وكما يقول: "ان لها الاثر الاكبر في حياتي". ثم غادر بروكس منزل جديه الى منزله الوالديّ عبر الطريق فيما أوت اليانور الى السرير.

من جهته أفاق تيري لوسيكو في الاولى بعد منتصف الليل. وأيقظ رفيقين كان أخبرهما بخطته، إلا أن أياً منهما لم يشأ الذهاب. ثم استدار نحو الفتى النائم في السرير المجاور له موقناً أنه لن يخذله، وإن بقي مشككاً في قدرته على تأدية دوره في السرقة.

وسأله: "هيا يا ديف! أتريد أن تتبعني للسطو على منزل؟"

وكان ديفيد هوليس دخل المؤسسة بايعاز من امه التي شكت من تغيبه عن المدرسة ورجوعه الى البيت في وقت متقدم من الليل. كما عرفته الشرطة لعدد من أعمال الشغب البسيطة. وعلى رغم بلوغه الخامسة عشرة فانه كان يمقت العراك والفوضى. وما لبث بعد دخوله لينكولن هول أن أصبح هدفاً لسخرية رفقائه. وكلما حاول الدفاع عن نفسه ضربوه. وهكذا سعى الى رفقة لوسيكو لحمايته. وكان تيري زعيم هيلسايد كوتاج بلا منازع.

ورفض ديفيد بادىء الأمر اقتراح تيري. لكنه سرعان ما أذعن بعدما أكد له حاميه أن أحداً لن يكون في المنزل. وقال لاحقاً: "ظننتُ أن حصولي على مال من السرقة من شأنه أن يكسبني احترام الآخرين وإعجابهم."

الاقتحام

أعاد لوسيكو وهوليس تجهيز سريريهما ليبدو أن في كل منهما صاحبه. ثم فتحا نافذة وقفزا منها. وسارا في محاذاة بركة صغيرة أفضت بهما الى غابة. وبعد ساعة بلغا الطريق العام المؤدي الى منزل آل براوتي. وأخذ لوسيكو يركض بخطى ثقيلة يتبعه هوليس ذو الساقين الطويلتين بسهولة.

ولدى بلوغهما المكان زحفا تحت سياج الى حافة بركة سباحة وتابعا طريقهما وسط أزهار الأزاليه الى ساحة المنزل.

وقال هوليس في ما بعد: "بدا المنزل خطراً كمنازل الأشباح المعزولة حيث تحدث المآسي".

أما لوسيكو فلم يراوده أي شعور بالخطر: "فأعمال السطو التي ارتكبتُها حصلت كلها ليلاً. لذلك لم أجد أي غرابة في الأمر."

وحاول لوسيكو اقتحام الباب الأمامي لكنه كان مقفلاً. ثم انتقل الاثنان الى بقية الأبواب فوجداها مقفلة أيضاً.

ومن كومة حطب عند باب المستودع تناول لوسيكو عصا قصيرة ذات عقيفة في أحد طرفيها مفكراً في استخدامها كهراوة إذا دعت الحاجة. وقال لرفيقه: "ربما صادفنا كلباً في الداخل."

ثم سار الاثنان حول المنزل بحثاً عن نافذة غير مقفلة. وشاهد لوسيكو نافذة مشقوقة بالقرب من الباب الرئيسي، وفتحها بمساعدة هوليس الذي تبعه في تسلقها.

وقال لوسيكو لاحقاً: "ما أن أصبحت داخلا حتى تحققتُ من ضخامة المنزل وتمنيتُ لو يكون لي."

لكن أحلامه قطعها الشخير الآتي من فوق. وكان هوليس سمع الشخير أيضاً وأدرك أن رفيقه خدعه بقوله أن المنزل خال. وسأله: "ما ترانا نفعل الآن يا تيري؟" فقال: "لا تقلق."

وصعدا السلم ودخلا الغرفة حيث الشخير. وقال هوليس في ما بعد: "على جانب كان رجل وعلى الآخر امرأة. وهوى لوسيكو على الرجل بالعصا".

وفي وقت متقدم من ذلك اليوم وجد الأطباء أن تلك الضربة كسرت

عظمة الخد الأيمن للسيد براوتي في موضعين وشعرت العظمة السفلى التي نزلت قليلا الى أسفل.

ووصف هوليس ما حصل: "راح الرجل يئن لكنه لم ينهض. ونهضت المرأة فركض لوسيكو أمامي وقبض عليها."

وهكذا اقتُلعت اليانور من سريرها لتواجه شبحاً مخيفاً يحمل هراوة في يده اليمنى ويعلو رأسه شعر أحمر كث.

وأخذت المرأة تصرخ فأكد لها الفتيان، بحسب قولهما، انهما لن يؤذياها: "كل ما نريده هو المال الذي نحتاج إليه."

وكان هوليس أشعل النور. وقالت لهما اليانور: "انزلا الى الطبقة الأرضية وسأعطيكما بعض المال."

وقال هوليس لاحقاً: "تحدثت المرأة بصوت هادئ كأن كل شيء كان على أحسن حال."

وخرجت اليانور أولا من الغرفة ووقفت أمام كرسي زوجها المعلق بحافة السلم وعليه سروال له. ومدت يدها الى الجيب الأيمن وأخرجت محفظة سحبت منها عشرة دولارات. وأعطت هوليس المبلغ لدى بلوغهم أسفل السلم.

وقالت اليانور للفتيين: "اخرجا من الباب الأمامي وسأرمي إليكما الباقي." غير أن لوسيكو أمر هوليس بالعودة الى غرفة النوم ليرى ما يمكن أن يجده ويتأكد "مما يفعله العجوز."

وركض هوليس الى فوق دونما نقاش.

هناك كان الرجل على سريره بلا حراك. وقلب هوليس مجموعتين من الادراج مبعثراً الثياب في أرض الغرفة. لكنه لم يجد نقوداً أو مجوهرات، بل وجد محفظة نسائية صغيرة على كرسي وفيها عشرون دولاراً. وأعاد النظر فوق الادراج فوجد ساعة يد. ووضع النقود والساعة في أحد جيوبه وأسرع الى السلم.

"ربما عرفتنا"

بعد الأمر الذي أصدره لوسيكو الى هوليس عرفت اليانور أن اللصين لن يبارحا المنزل سريعاً. وحاولت التملص مراراً من قبضة لوسيكو وأشعلت النور في الردهة. ثم هرعت الى غرفة الطعام وأخذت تضيء الانوار وتطفئها عل أحداً في منزل ابنها يرى ذلك فيهب الى نجدتها.

وتبعها لوسيكو وهو يصيح: "أطفئي الأنوار!" فرفعت وعاء زجاجياً ثقيلا عن طاولة الطعام ورمته نحوه. غير أنها أخطأت الهدف.

وكانت قوة لوسيكو الجسدية لا تقل عن قوة مصارع، لرياضته اليومية في رفع الاثقال. وقبل شهر واحد من عيد ميلاده السابع عشر كان وزنه يزيد على ٧٧ كيلوغراماً. وقبض على اليانور وقذفها ثلاثة أمتار في أرض الغرفة. وبعد هنيهة انقض عليها وراح يجرّها من عنقها خارج الغرفة. ووصف ذلك لاحقاً بقوله: "سحبتها الى الردهة وطرحتها أرضاً ورفستها بضع مرات."

وكان هوليس في منتصف السلم عندما صرخ في لوسيكو: "ماذا تفعل؟" وهو قال: "لم يجبني البتة،

بل أمرني باطفاء بعض الأنوار، وأطفأت نور الردهة، واذ لم أجد الزر الكهربائي لغرفة الطعام تناولت شمعداناً ورحت أطرق به المصابيح حتى كسرتها واحداً واحداً".

"ولما خرجت من غرفة الطعام وجدت المرأة مضطجعة أرضاً وهي تحشرج من أنفها وفمها".

وتوقف لوسيكو عن ضرب ضحيته وأمر هوليس بتفتيش غرفتي الطعام والجلوس، فيما دخل هو غرفة صغيرة بالقرب من الردهة حيث وجد مبلغاً من المال وضعه في جيبه.

وترك الغرفة ومعه نحو ٢٥ دولاراً، وذهب الى غرفة الجلوس بعد خروج هوليس منها، وأعاد تفتيشها، فلم يعثر على شيء كما أخبر هوليس الذي يتابع: "ويمكنني التأكيد أني لم أجد شيئاً في تلك الغرفة. ولما أصبحنا بالقرب من المرأة أمام المنزل اقترح لوسيكو أن نغادر المكان".

ويضيف لوسيكو: "عبرنا من حافة البركة الى مرج معشب ومن هناك الى الطريق حيث شرعنا في الركض".

وما لبثت المرأة "المضروبة في ردهة ذلك المنزل الكبير" ان بدأت تعذب ضمير هوليس وهو يركض حيناً ويمشي حيناً آخر بجانب لوسيكو. وأخيراً التقط أنفاسه وسأل رفيقه عن سبب تعذيبه المرأة فقال: "ألم تر يا ديف أنها أشعلت جميع الانوار مما يتيح لها التعرف علينا؟ لقد ضربتها لذلك السبب بالذات".

ووصل الاثنان الى المؤسسة نحو الرابعة فجراً. وكانت اليانور براوتي في تلك الاثناء قضت اختناقاً.

وبلغت حصيلة السرقة ٥٥ دولاراً وساعة يد.

حياة لهو

لما كانت جرائم كثيرة تأتي على يد أحد أنسباء الضحية أو معارفها، فقد وقع الشك باديء الأمر على نورمان الابن وأفراد عائلته. كما أن الطريقة التي حصلت بها الجريمة أبعدت امكان السرقة وقوت فرضية الشجار. ووجد رجال الشرطة أن جهاز التلفزيون والموسيقى والفضيات - وهي أهداف شائعة للسرقة - بقيت كلها حيث هي في حين لم تنزع المجوهرات من عنق الضحية. وعثر على محفظة نورمان الأب بجانب الجثة وفيها ٦٥ دولاراً.

وفي بداية التحقيق استجوبت الشرطة فتى واحداً من لينكولن هول، هو غاري الذي عمل أخيراً في منزل آل براوتي. ولم تلق افادته أي ضوء على الجريمة. كما بينت سجلات المؤسسة أن أحداً لم يكن متغيباً وقت الجريمة. وأفاد النظار الليليون أنهم لم يشاهدوا أحداً خارج سريره.

وعلى رغم الارهاق الذي اصاب لوسيكو فأنه شعر بغبطة لا توصف في اليوم التالي. ولم يسعه الانتظار ليروي أخبار مغامرته التي أفضى بها أولا الى أحد الرفيقين اللذين رفضا الاشتراك، واصفاً كيف ضرب اليانور بالعصا ومضيفاً أنه حصل ورفيقه هوليس على مبلغ يراوح بين ٢٠٠ و٣٠٠ دولار.

ومن جهته لم يستطع ديف هوليس كتمان الأمر، بل أطلع عليه اثنين من



لينكولن هول .

زملائه نقلاه بدورهما الى آخرين. وسرعان ما انتقل الخبر الى نحو عشرين من نزلاء لينكولن هول، لكنّ أحداً منهم لم يسربه خارجاً.

وحملت الايام القليلة اللاحقة أملا واحداً بالنسبة الى تيري لوسيكو، وهو اطلاقه الى مؤسسة كاميلوس هاوس في مقاطعة برونكس، المختصة باعادة تأهيل الفتية الخارجين على القانون لجعلهم مواطنين صالحين.

والمؤسسة المذكورة تحتل بناء ضيقاً يغلفه الآجر ويقع ضمن مجموعة من المباني المماثلة في ضاحية تقطنها الطبقة العاملة. وكان لوسيكو يتوق الى حريته الوشيكة التي ستتيح له أن يفعل ما يشاء خارج أوقات الدوام التي تشمل صفوف الدراسة بين التاسعة صباحاً والثالثة عصراً وساعة العشاء بين السادسة والسابعة مساء ثمّ بعد العاشرة ليلا اذ عليه أن يأوي الى المهجع.

وقد جاء في نشرة أصدرتها لينكولن هول حول مؤسساتها الانتقالية على غرار كاميلوس هاوس ما يأتي: "هنا يتابع الفتية تقدمهم فيما هم يقيمون ضمن وحدات عائلية تدربهم، على المسؤوليات الاجتماعية."

وما أن وصل لوسيكو الى المؤسسة الجديدة حتى استهل "مسؤولياته الاجتماعية" باستكشاف الجيرة. ولما حان وقت العشاء كان قد عرف من أين يحصل على المشروبات والكحول والمخدرات، كما اكتشف جزءاً من اهتماماته الحيوية ألا وهو فتيات الليل.

ودرجت المؤسسة على أن تدفع للشاب مبلغاً اسبوعياً يراوح بين ٨ دولارات و١٦ دولاراً، بناء على سنه. الا أن ذلك لم يكف لوسيكو الذي راح يبيع المخدرات ويسرق المنازل المجاورة التي تسنى له دخولها، واتخذ شريكاً جديداً من كاميلوس هاوس اسمه لاري وعمره ١٨ سنة.

أما في لينكولن هول فلم تكن حياة ديف هوليس على هذه السهولة. فما

أن أطل شهر يونيو (حزيران) حتى دب الخوف في أحشائه. وهو لم يشك في قرب اعتقاله. ومن أجل النسيان صرف أوقات فراغه في نشاطات المؤسسة الرياضية، مما جعل المسؤولين يلاحظون التبدل الذي طرأ عليه اذ كان خاملا ومنطوياً على نفسه قبل ذلك.

وسمح للاحداث بتمضية عطلة عيد الاستقلال الامريكي الموافق للرابع من يوليو (تموز) في بيوت أهلهم اذا كان لهم أهل. وفي البيت لاحظت والدة هوليس ذلك التبدل أيضاً. وفي وداعه اياها عانقها بحرارة لم يظهرها قط قبل ذاك الحين.

واذ ربت الناظر كتفه يوم الاثنين التالي للعطلة أدرك ديفيد أن انتظاره انتهى. وقيل له ان الأخ ليو مدير النزل الذي يقيم فيه يود رؤيته. وبقي نصف ساعة من غير أن يتفوه الأخ ليو بكلمة واحدة، على غير عادته. وبعد ذلك دخل المكتب ثلاثة رجال وقف أطولهم عند زاوية الطاولة في مكتب الأخ ليو قائلا انه روبرت لويل كبير المحققين في شرطة الولاية. ونظر الرجل من عل الى الصبي الخافض الرأس وقال بهدوء: "انك غارق حتى الاذنين يا بني... أليس كذلك؟".

وكان التحقيق استمر طوال شهر يونيو (حزيران) من غير احراز تقدم ملموس. واستجوب لويل ومعاونوه أكثر من ألف شخص لم يفيدوه بشيء. ولكن حدث في عطلة الرابع من يوليو (تموز) أن خابر غاري، الفتى الذي يعمل لدى آل براوني، مقر الشرطة من منزل ذويه في مدينة نيويورك من أجل البوح بأمر مهم. وحدد له لويل موعداً أفضى خلاله بتفاصيل الجريمة كما قصها عليه لوسيكو.

ومن جهته خرج لوسيكو ورفيقه لاري من كاميلوس هاوس في آخر يونيو (حزيران) بلا اذن رسمي وفي حوزتهما ٢٠٠ دولار غنماها من سرقتهما الاخيرة. وذهبا في قطار المترو الى منطقة كوينز ومن هناك توجها الى حديقة عمومية. وبقيا سبعة أيام يعيشان على هواهما، فيتعاطيان المخدرات عصراً ويغزوان المنازل ليلا ويطارحان الفتيات الغرام في ركن منعزل من الحديقة.

وفي اليوم الثامن وجد لوسيكو أن الوقت حان لانطلاق كل منهما في طريقه، على أن يذهب لاري الى بيته أو حيث يشاء بينما يتوجه لوسيكو الى رصيف الميناء في منهاتن السفلى بحثاً عن باخرة يختبىء على متنها للذهاب الى ايطاليا. وكانت ايطاليا من الاحلام التي نسجها لنفسه ظناً منه أن وجوده هناك يجعله رجل عصابات كبيراً.

لعبة تافهة

عاد الصديقان أولا الى جوار كاميلوس هاوس حيث كان رجال الشرطة يبحثون عن لوسيكو. وتم اعتقاله في بيت رفيق ثالث قصداه للاغتسال والراحة من دوار المخدرات.

واعترف لوسيكو وهوليس بالجريمة على الفور. وكانا، ولاسيما لوسيكو، على أحر من الجمر لرواية القصة

كاملة. وقال أحد رجال الشرطة انهما "تكلما بسهولة كما لو كان الأمر متعلقاً بالطقس.

قال تيري لوسيكو، الذي عاش في ١٤ بيت حضانة وثلاث مؤسسات للجانحين، انه لم يرَ البتة ولا يتذكر والدته. لكنه يتذكر أنه عاش يوماً في مقاطعة وارن في منطقة تبعد ٨٠ كيلومتراً شمال آلباني عاصمة ولاية نيويورك. وكان ذلك الخبر مفتاحاً لاعادة بناء حياته.

وضعت بيتي والدة لوسيكو مولودها الاول سفاحاً وهي في الثانية عشرة. وطردها أبوها من البيت عقاباً فلاذت باحدى أخواتها وأعطت الطفل للتبني. وبعد انجبت سبعة اولاد، كان سادسهم تيري الذي وُلد في ٢٩ يونيو (حزيران) ١٩٦٣. وتتذكر شقيقته ماري آن، وكانت في السابعة آنذاك، أنهم عاشوا في قطيرة طولها ثلاثة أمتار ونصف متر. وقد مُدت اليها الكهرباء لكن الماء والمراحيض بقيت خارجاً.

وعاشوا حياة هادئة وان تكن فقيرة بعضاً من الوقت. الا أن الوالد كف عن المجيء الى البيت في أعقاب ولادة الطفل السابع. وسرعان ما بدأت الوالدة تنتقل من مكان الى آخر وتبقى أياماً خارج البيت في بعض الاحيان، الى أن غادرت يوماً ولم تعد. وأخذت ماري آن وشقيقتها الكبرى تعتنيان باخوتهما. ولما وجدتا من العسير الاعتناء بالطفلة الصغرى ديبي شكت ماري آن همها الى الجيران الذين خابروا وكالة الاعاشة المحلية. وعلى الاثر وزع الاخوة والاخوات على امكنة عدة وفقدوا الاتصال بعضهم ببعض. ولدى وقوع الجريمة لم تكن ماري آن شاهدت تيري طوال ١٣ سنة.

الا ان تيري كان، بمعنى، محظوظاً، اذ ان امه تركته في عهدة "العمة" بيرل وهي نسيبة بعيدة تسكن محافظة وارن. وتلك القريبة امرأة قوية الشخصية رفضت اعتماد الصدقات التي تأتي عبر الوكالات وان اضطرها ذلك الى التسكع في الشوارع. وكانت تربي أولادها الستة، فأضافت اليهم تيري واحدى شقيقاته وفتاة اخرى على رغم ان تيري كان في الثانية من عمره ولم يتعلم بعد استخدام المرحاض. وهي تقول: "كان طفلا جميلا ذا شعر جعد أشقر ضارب الى الحمرة."

وعاش تيري وقتاً مع زوجة أخ بيرل لكنها ما لبثت أن أعادته اليها. وكان لها جاران هما مارتن مايرز وزوجته فيرنا. وكلما مرت أمامهما ومعها تيري كانت فيرنا تقول: "آه كم هو جميل... ليته كان ابني." وظناً منها أن جارتها قد تقوم بالواجب كما يرام وافقت بيرل على اعطائها الصبي. وكانت فيرنا امرأة ضعيفة البنية لم تستطع تحقيق رغبة زوجها بانجاب صبي.

ويقول مارتن: "كان طفلا جميلا يستأهل الحب والدلال. وكان يجلس ساعات على ركبتي أمام التلفزيون. واذا خرجت لاصلاح السيارة، كان يناولني العدة، وطالما أخذته الى البحيرة لمراقبة القوارب. والحق أني لم أتبين العنف في مستقبله."

وماتت فيرنا مايرز بعد خمس سنوات مما أحزن تيري وترك مارتن بلا عزاء. وشاءت الاقدار أن يتزوج مارتن بعد ستة أشهر. وكان لزوجته الجديدة ابنة حملتها معها ومحضتها حباً يفوق حبها للطفل الذي في عهدة زوجها، وهذا أمر طبيعي جداً. أما تيري الذي هاله موت "امه" فقد وجد في المرأة الجديدة التي دخلت المنزل عدواً له. وزاد الطين بلة لجوء مارتن مايرز الى تعاطي الكحول.

ويقول مايرز: "زاد الشجار بيني وبين زوجتي حول تيري الذي راح يكلمها ببذاءة ويقاومها بكل قوته." ولم يتورع عن تلطيخ جدران الحمام ببرازه.

وخوفاً من انحلال زواجها الجديد طلبت السيدة مايرز الى زوجها الاستغناء عن تيري. وارتاع مارتن للفكرة وأخذ يترك الصبي في عهدة الجيران والاقارب والاصدقاء أياماً بل أسابيع. واذ لم يبقَ في الأمر حيلة، أعاده الى بيرل حيث وجدته زوجته الاولى فيرنا قبل ست سنوات.

غير أن ذلك الحل برهن عن عدم جدواه. فقد رحبت العمة بيرل بالفتى أيما ترحيب فاتحة له ذراعيها وقلبها. لكن زوجة مارتن مايرز لم يرقها أن تجد زوجها يزور تيري كل مساء عوضاً عن العودة اليها. وأخيراً نفذت تهديدها بمخابرة وكالة الاعاشة المحلية.

ويقول مايرز: "تلك كانت غلطتي. والواقع أن زوجتي شاءت ايقافي عن الشراب وارخاء العنان لذلك الفتى كي يفعل ما يشاء." ولما عاد اليها بعد سنة تبدلت الحال. وحاول الاثنان معرفة مكان تيري وتبنيه. غير أن طلب التبني رفض اذ لا حق لهما في ذلك. وهكذا غدا تيري رقماً في وكالة الاعاشة، تنقله وهو في التاسعة من مكان الى آخر.

ويقول تيري: "كنت في الثامنة أو التاسعة. ولكن لم يخفَ علي كيف يتقاذفني الناس ذات اليمين وذات اليسار كأني لعبة تافهة في أيديهم."

وبات انجازه المدرسي أكثر تخلفاً. ولاحظت المعلمات أنه كسول ويقرأ بعسر وتنقصه الثقة بالنفس ويسعى أبداً الى كسب اهتمام الآخرين.

وعلى رغم معرفة الوكالة بعائلته الاصلية فانها أبعدته عن اخوته وأخواته. ومرة ترك في عهدة رجل وزوجته سبق أن تعهدا على غرار بيرل عدداً من الاولاد بينهم احدى شقيقات تيري. ولما تنبهت الوكالة الى ذلك نقلته الى مكان آخر.

وحاولت بيرل اعادته اليها لكن الوكالة لم تسمح لها بذلك لأن في بيتها عدداً كافياً من الاحداث. وأُرسل تيري الى بيت آخر كان مثالياً من نواح عدة. فالابوان محبان كثيراً ولديهما ابنة اسمها أماندا. وطالما تاق الرجل الى ابن يرافقه في رحلات التخييم وصيد السمك.

وتقول الام: "كان تيري أول الأمر لطيفاً ومتمتعاً بروح المسؤولية. ولقد سر زوجي كثيراً بمرافقته الى رحلات التخييم. وبات كأخ أكبر لابنتنا أماندا. غير أنه بدأ يتصرف كمن أصابته آفة مفسدة. وأظن أن شعوره

بعدم الامان دفعه الى مقاومة أماندا التي وجدها محاطة بحصن حصين من العطف والحب، الامر الذي حُرمه هو."

ودخلت المناوشات الجو. وفي احداها حمل تيري مقصاً وراح يلوح به مهدداً مربيته. وانتهى الحادث بسلام. غير انه في مناسبة لاحقة جرح مربيه بسكين جيب.

وتقول الام: "اصبح ينتابني الخوف كلما فكرت في أن تيري قد يأتي الى المنزل لدى بلوغه الثامنة عشرة ويحضر المفتاح من المرأب حيث يعرف مكانه. واذ ذاك قد تكون أماندا وحدها. وربما اقتحم المنزل مهدداً."

بعد ذلك تم تبني تيري بقدرة قادر.

سمعتُ هذا قبلا

المتبني كان رجلا في الخامسة والثلاثين اسمه انطوني لوسيكو. وهو عصامي ولد لمهاجر ايطالي وحصل مالا وفيراً بعدما هاجر والداه الى الولايات المتحدة ومعهما اثناعشر ولداً. وما انفك انطوني بعد دوام مدرسته الثانوية يعمل في مهن شتى. ثم نال منحة حكومية لدراسته الجامعية وتخرج في التجارة وادارة الاعمال. وبعد ذلك عمل في شركة كيميائية وغدا نائباً لرئيسها. وكانت حياته تدور على همين: عمله وصراعه ضد المؤسسات التي تعنى برعاية الاحداث.

وبدأ يغرس بذور المستقبل عندما كان في جيش المشاة خلال الحرب الكورية (١٩٥٠ ـ ١٩٥٣). وطالما آلمته رؤية الاطفال المشردين وهم يطوفون على غير هدى في الطرق المزروعة بالقنابل. وجمع الرقيب لوسيكو المال من الجند واشترى ثياباً لأيتام الحرب وفعل كل ما يمكنه من أجلهم.

وتلاشت صورة اولئك الاحداث من ذهنه بعد عودته الى الوطن لمتابعة دراسته وتحري مهنة تجارية. لكن تلك الصورة عادت حية في ذاكرته لدى زيارته مركزاً تجارياً في مسقط رأسه، وكان بلغ الثانية والثلاثين وأسس عملا ناجحاً وفسخ زواجه الذي دام سنة واحدة.

هناك شاهد نحو ثمانين فتى متشرداً من مؤسسة في مقاطعة روكلاند اسمها مدرسة سانت آغنس للصبيان (لم يعد لها وجود اليوم). وكان الصبية ينشدون ترانيم الميلاد.

ويتذكر انطوني لوسيكو ما حصل آنذاك: "اشتريتُ المثلجات للصبيان الثمانين جميعاً. وهكذا وجدت نفسي منغمساً في مشاريع تلك المؤسسة من غير أن أدري. فكنت أقصد المدرسة مرتين اسبوعياً لاعطاء دروس خصوصية في القراءة وانشىء صداقات مع الاطفال المحرومين ومع الراهبات القائمات على المكان."

وفجأة تبدلت العلاقة. فقد طلب انطوني من الراهبات السماح له بتبني أحد الاولاد، لكن الجواب جاءه أنهن غير مخوّلات تعاطي هذا الأمر. وعلى ذلك يعلق بالآتي: "شعرت أنهن لا يحتجن الى خدماتي أو يرغبن فيها بعد ذلك. والذي يؤدي عملا تطوعياً

يغيب عن باله أن مكاناً كهذا ينطوي على جانب تجاري، وان التخلي عن أحد الفتية يعني خسارة الهبات التي تأتي باسمه."

وساهم انطوني لوسيكو في تأسيس مجلس نيويورك للتبني للتسريع في تخليص الفتية من المؤسسات التي لا قلب لها. وكلف محامياً رفع دعاوى ضد عدد من مؤسسات رعاية الاحداث. وأنفق عشرة آلاف دولار على محاربة هذه المؤسسات التي ترفض أن تمنح ولداً للتبني. وكان ربحه الدعوى سابقة جعلته يتبنى ثلاثة فتية أحدهم تيري.

ويصف تيري السنوات التي أعقبت تبنيه: "لم أعرف شيئاً من قوانين التبني. وظننت أني سأمكث نحو سنة هناك أطرد بعدها الى مكان غريب آخر. ومع أن والدي الجديد قال لي اني الآن في بيتي الا اني لم آخذ كلامه على محمل الجد اذ سبق أن سمعت كلاماً كثيراً مثله.

"وكانت علاقتنا طيبة لفترة. وشاء أن يراني دائماً في المنزل لدى عودته لنأكل سوياً. وعندما آوي الى السرير كان يجلس بجانبي ويكلمني ويضمني اليه سائلا: كيف أمضيت النهار؟

"وبعد مرور سنة على انضمامي الى عائلة لوسيكو بدأت الامور تأخذ وجهاً آخر. والسبب الرئيسي كما أظن هو "أخواي" والمدرسة. فقد اعتاد أخي الأكبر تعاطي المخدرات وما شابهها. وبات يشركني في ذلك، فأذهب الى المدرسة والضباب يغشي رأسي. وما لبثت ادارة المدرسة أن أرسلت تقريراً الى البيت يشكو من عملي المشوّش وتغيبي عن المدرسة من غير اذن أحياناً. وذلك حدا أبي على تأنيبي: ما الذي جعلك تتصرف على هذا النحو فجأة؟ ما هي الامور التي تفعلها والتي تشكو المدرسة منها؟ ألا تعرف أن أعمال الشغب هذه من شأنها أن تقودك الى السجن يوماً؟

"ثم ترك أخواي المنزل ووجدتُ نفسي وحيداً. وبت أقطع طريقاً طويلة لزيارة أصدقائي الذين كان لهم مقدار من الحرية يفوق ما أُتيح لي. والحق اني أحببت كل مزايا أبي ما عدا الصرامة. وكنت في الرابعة عشرة وهو يفرض علي الاياب قبل التاسعة ليلا فيما الآخرون يبقون خارجاً حتى الحادية عشرة.

"ورويداً رويداً بت أتغيب عن المنزل والمدرسة معاً. ثم فررت من المنزل ولم أطأ المدرسة سنة كاملة. لقد أردت أن أكون حراً طليقاً.

"وكان لاصدقائي كوخ دعوه حصناً. هناك أمضيت معظم الصيف والشتاء، ولجأت الى سرقة الطعام من محل للأغذية، وكان رفقائي يحملون اليّ بعض الطعام أيضاً. وبعد ذلك بدأنا السطو على المنازل وسرقنا نحو مئة وخمسين منزلا.

"ولم يعرف أبي ما يفعل بي. واقتادني الى محكمة الاحداث بعدما عيل صبره. وبعد ضبطي وأنا أسرق منزلا أرسلتُ الى مأوى في بلدة سبرينغ فالي. لكنني بقيتُ حراً لأذهب كيفما أشاء.

"وبعد فراري مراراً من ذلك المكان أُرسلتُ الى مركز أكثر تشدداً اسمه

"هايلاند" حيث كانوا يقفلون الابواب ليلا ·

"وكان في ذلك المركز أحداث اعتقلوا لجنح شتى، بينهم فتى اغتصب امرأة مسنة وآخر ضرب رجلا بمجرفة· أما أنا فكان كل ذنبي اني سرقت بيتاً· وقلت لنفسي: يا ألله! كيف يضعوني مع حفنة مجرمين؟ ومن هناك أحالوني على لينكولن هول·"

أمر قاس

يصف انطوني لوسيكو سنواته الأربع مع تيري كما يأتي:

"عندما تتبنى طفلا او تأخذه على عاتقك من مأوى، تختبر اولا ما أسميه مرحلة افتتان· فتكون لطيفاً جداً تجاه الفتى ولا تطلب منه اي شيء في المقابل· وتذوي تلك المرحلة بعد وقت ويغدو الفتى جزءاً من العائلة· وإذ ذاك تنتظر منه تأدية دوره· غير ان تيري لم يكترث لواجباته ابداً·

"وكنت اعانق اخويّ تيري تحبباً من غير ان يقاومني أي منهما· لكن الحال كانت مختلفة مع تيري· فهو قاوم العطف ربما ظناً منه اني أب وقتي لن البث ان اسلمه لمؤسسة او عائلة اخرى·

"ولما بدأ يسيء التصرف في المدرسة حاولت السيطرة على الموقف· وقلت له ان سلوكه الرديء لا ينم عن رجولة، بل عن طيش· واشرت الى رأسي قائلا ان الرجولة الحقة هي في العقل والشعور لا في العضلات·

"وقدرتُ ان يكون سبب كسله وراثياً· ولما راجعت المسؤول عن مشكلات التلاميذ النفسية كان الوقت فات بعدما أخذ تيري يهرب من البيت والمدرسة ويقع احياناً في ايدي رجال الشرطة· وذلك سبب لي صعوبات اضخم·

"وبعد ذلك اوكلت أمره الى محكمة الأحداث· لكن ذلك كله لم يثنه عن الفرار من المدرسة والسطو على المنازل·

"وحاولتُ احالة تيري على طبيب نفسي· وكلما حددت له موعداً كان يتخلف عن الحضور·

"واخيراً نفد صبر محكمة الاحداث وواجهتني باحتمالين: اما احتجازه في سجن للأحداث واما نقله الى لينكولن هول· ومن الطبيعي ان يرفض الأب فكرة ادخال ابنه السجن· لذلك وافقتُ على الحل الثاني بعدما قيل لي ان تلك المؤسسة تعمل وفق برامج مدروسة· لكنه صدمني عند زيارته الاولى للمنزل بعد اشهر من دخوله المؤسسة· ورأيت شعره مقصوصاً على الطراز الافريقي وهو يتكلم الامريكية بلهجة السود· أما انا فلم اكن معتاداً تلك الامور· وتأكدت من ان خللا ما حصل في لينكولن هول·"

اما قضية ديفيد هوليس فكانت مختلفة· وهو لم يعرف سوى ابيه وامه الحقيقيين· وكما يقول ديفيد وامه كان الوالد عاملا في مصنع وابا مثالياً· وكان يمارس لعبة الكرة مع ديفيد في ساحة المنزل ويعلمه ركوب الدراجة ويأخذه الى مباريات كرة القدم·

واعتاد الأب التغيب عن عمله ايام الاثنين وسحب مبالغ من الودائع

العائلية ليدين اصدقاء له لم يفوا الدين الا نادراً. وبعد انفاقه بضعة آلاف من الدولارات على تجديد محرك سيارة انفجر لدى اشعاله للمرة الاولى انحل زواجه وانتقل الى منزل آخر. وكان ديفيد وهو في التاسعة يقطع خمسة كيلومترات على الدراجة لزيارة والده في نهاية الاسبوع. ولكن سرعان ما خرج الوالد من عالم ابنه بعد زواجه الثاني.

ونحا ديفيد باللائمة على والديه كليهما وقال ان والدته عاجزة عن التصرف مع الرجال وحتى مع الاحداث.

ولا تحاول باتريشيا هوليس مغالطة ابنها، بل تقول: "الخطأ كله كان خطأي. ولو منحت ديفيد المزيد من الحب والعناية، لربما تمكنت من ردعه عن ارتياد هذه الطريق. اما عجزي الشخصي فيعود الى طفولتي يوم لم يكن لي مثال احتذيه."

المغفلون الكبار

كان ديفيد في الرابعة عشرة وقد تزوجت امه وطلقت ثلاث مرات. وذلك ادخل الاضطراب على حياته. وشهد نموه الجسدي فورة مفاجئة جعلت طوله ١٨٥ سنتيمتراً. وباستثناء بعض الحول في عينيه كان بهي الطلعة اجمالا. الا انه كان خجولا ومحباً للوحدة. ومن اجل كسب ود اترابه كان يشتري لهم الشراب. لكن المشكلة انه اعتاد ابتياع الهدايا بأوراق نقدية من فئتي الخمسة دولارات والعشرة دولارات كان يختلسها من محفظة امه.



ديفيد هوليس. Patent Trader Newspaper

اضف الى ذلك انه بات يبقى خارج المنزل حتى وقت متقدم ليلا ويعود مترنحاً ولا يستجيب لتأنيب امه وصياحها. وذلك اضطرها الى احالته على محكمة الاحداث في بفالو (نيويورك) بحجة انها فقدت السيطرة عليه. وهكذا غدا ديفيد في الرابعة عشرة تحت وصاية الدولة.

وطالما ندم ديفيد على الامكانات التي لم يحققها. والواقع انه استطاع شق طريقه الى المدرسة الثانوية

وأحب برنامج الدراسة، وكانت مدرسته تضم قاعة للرياضة ومسبحاً، وهناك أتيحت له رفقة اصدقاء اكبر منه سناً واكثر نضجاً. وفي مشغل المدرسة حيث كانت له حصتان يومياً احب العمل واكتسب ثناء المدير وصداقته. ولئن لم يستطع التخلص من عادته المتأصلة، الا وهي الفرار من المدرسة والتهرب من واجباته، الا انه فرض على نفسه ملازمة الصفوف اربعة ايام من اصل خمسة في الاسبوع.

ولكن سرعان ما تبين انه في السنة السابقة كان يحتاج الى موضوع اضافي ودورة صيفية للانتقال الى الصف الثانوي الاول. واشار عليه رئيس المدرسة بعد اسبوعين من بدء الدروس ان يعود الى الصف المنتهي في المرحلة المتوسطة.

وطلب بحرارة ان يتاح له التعويض عما فاته. لكن جهوده وجهود مدير المشغل في هذا الخصوص ذهبت ادراج الرياح. وقال هوليس لاحقاً ان تلك المرحلة كانت نقطة تحول في حياته. الا انه أُرغم على العودة الى المدرسة المتوسطة.

وما كاد يبدأ ذلك حتى عاد الى التلكؤ ولبث يتغيب احياناً اسبوعين بكاملهما، ووقع غير مرة في قبضة الشرطة، ومرة ضبط وهو يحاول مع بعض اترابه سرقة آلات كاتبة من احدى دوائر الحكومة. غير ان المسؤولين في محكمة الاحداث آثروا حل المسألة من دون احالتها على العدالة.

وكان الحل فصل ديفيد عن بيته



تيري لوسيكو

وامه وجدته وبيئته ووضعه ضمن مؤسسة.

ويقول المسؤول الذي اختار لينكولن هول مكاناً لايواء ديفيد انه جمع معلوماته حول تلك المؤسسة من منشوراتها، ومنها انها تؤمن "التقدم الدراسي والخلقي في اشراف هيئة من المرشدين المكرسين الذين ينوبون عن الاهل والمربين،" وان ذلك يحصل في جو شبيه "بمدرسة اعدادية في الريف."

الا ان لينكولن هول تجهل عدد خريجيها الذين عاشوا حياة "قويمة" وعدد اولئك الذين انتهوا الى السجون والاصلاحيات. فهي لا تحفظ سجلات احصائية. لكن ثمة مسؤولا هناك كان في السابق احد تلاميذ المؤسسة، وهو يعطينا صورة تقريبية عن الوضع.

المثال

الشخص الذي نقصد هو كينيث جاكسون الذي ادخل المؤسسة عام ١٩٥١. وبعد فراره منها اعتقل اكثر من عشرين مرة بتهمة السرقة والسطو وامضى اربع سنوات ونصف سنة في السجون. وبعد انتهاء فترة عقوبته تعرف على مدمني كحول سابقين تابوا وساروا في طريق الصلاح. واحتذى حذوهم وبات عمله مورد عيش لعائلته. ومنذ ذلك الحين القى جاكسون محاضرات كثيرة حول اصلاح السجون وانضم الى اللجنة الاصلاحية التابعة لولاية نيويورك. وخلال الاشهر الستة الاولى من العام ١٩٨١ عمل مديراً مساعداً لمؤسسة لينكولن هول.

وهو يقول ان "نصف الصبيان الستمئة الذين دخلوا المؤسسة بين ١٩٥٠ و١٩٥٣ اقتيد الى السجون." ويقدر ان ثلث النصف الباقي قضى من جراء تعاطي الكحول والمخدرات وان اقل من ثمن معاصريه في المؤسسة عاش حياة قويمة بعد مغادرتها.

اما ديفيد هوليس الذي غاظه كثيراً ان يقتلع من بيته وهاله ما ينتظره هناك، فقد وصل الى المؤسسة في خريف ١٩٧٩.

كان تيري لوسيكو دخل المؤسسة قبل اشهر قليلة واشتهر بسرعة. وفي ارتياده اصلاحيتين قبل ذلك الحين اتقن فن الهجوم في الشوارع حيث يلجأ الجاني الى الضرب والعض والرفس وغرز الأصابع في العيون. وما لبث ان اضاف الى تلك "المكتسبات" فن الملاكمة وهو في لينكولن هول.

وكما تعتمد السجون سواعد نزلائها الأقوياء لفرض انظمتها، هكذا يحتاج تلاميذ المدارس الاصلاحية الضعفاء الى من يحميهم من الأقوياء. والقوي يبرهن عن جدارته عملياً.

ويقول احد مرشدي لينكولن هول: "الحق ان نزلاءنا الأقوياء يساعدوننا في فرض النظام." وما لبث لوسيكو، بفضل عضلاته المفتولة وقبضته الحديدية، ان اصبح سيد هيلسايد كوتاج، النزل الذي يقطنه.

وبات الآخرون يخشون فورات غضبه المفاجئة التي تهب وتخمد من غير توقع لكنها تهدد كثيرين بين ظهورها وكمونها. ومرة عمد احد المرشدين، وهو يفوق لوسيكو بنحو عشرة سنتيمترات طولا و١٨ كيلوغراماً وزناً، الى صفع تلميذ ضعيف اسمه بدرو، فما كان من لوسيكو الا ان دفع المرشد الى الجدار وحصر عنقه بين يديه حتى جحظت عيناه وكاد يفقد وعيه. ثم تركه يمضي، خوفاً من ان يموت.

ذلك كان الجو الذي وجد هوليس نفسه ضمنه.

وبين زملاء النزل الآخرين سرعان ما اكتشف فتى مهووساً باشكال الحرائق وآخر مصاباً باضطراب عقلي

وعدداً من المتنمرين الذين يسطون على مقتنيات الضعفاء ويرغمونهم على غسل ثيابهم فضلا عن نشالين ولصوص وبائعي مخدرات. ووجد هوليس ان عشرة هؤلاء مفروضة عليه فرضاً.

وكانت محكمة الأحداث في قرارها المتعلق بارسال ديفيد الى مؤسسة استشارت احد الاختصاصيين النفسيين لديها الذي قال ان المؤسسة تتيح للصبي "سنداً نفسياً" تعجز والدته عن منحه اياه. ولم يعتم ذلك "السند" ان اتاه وهو يغتسل للمرة الاولى هناك.

وكان صدر ديفيد بارزاً تبعاً لعلة في جهاز الهرمونات لديه. واكتشف بعض الزملاء ذلك وهو في غرفة الحمام. وتلك كانت بداية عذاب اليم في حياة ديفيد.

وراح الفتى اريك، وهو من اول الذين رأوه، يصيح: "تعالوا وانظروا الى هذين النهدين." وهرع اليه ستة منهم يصخبون ويصيحون. اما ديفيد فانكمش مرتعداً. وما لبث الزملاء كلما رأوه في النزل او في الملاعب يُسمعونه بذيء الكلام.

وكما لو نُخس بمهماز كان ديفيد يحمر غيظاً لكنه يلجم نفسه وينكفيء على ذاته انقاذاً لكرامته. الا ان احد زملائه يتذكر انه "كان احياناً يجن جنونه ولا يكف عن الصراخ والوعيد." وميزت تلك العلاقة التصادمية الأشهر الاولى التي امضاها ديفيد هناك. وبسبب نفور صدره وحيائه وضآلة موهبته في مصاحبة الآخرين وجد نفسه معزولا بل منبوذاً بينهم. وفي محاولته التحرر من ربقة العذاب امطر المرشدين بوابل من الأعذار كي يتيحوا له الذهاب الى البيت. لكنهم كانوا كل مرة يرفضون لسبب او آخر.

وادرك ان الخلاص من العزلة والعذاب يقتضي كسب احترام الآخرين.

وهكذا وجد في لوسيكو مثالا يحاكيه. واذا استطاع كسب وده، فهذا قد يؤمن له الحماية. وهكذا راح ديفيد يتقرب الى تيري، فيلازمه في غرفة الطعام ويجلس بجانبه في صالة السينما عصر السبوت والآحاد. وما لبث ان نقل سريره ليحاذي سرير لوسيكو في قاعة النوم.

ويتذكر احد الزملاء ان "ديفيد كان يقدم ما فاض من طعامه الى لوسيكو، وان لم يطلب هذا شيئاً." وهو لم يكن يتناول قطعة الحلوى بعد الطعام الا اذا وجد ان لوسيكو لا يريدها.

وهكذا غدا لوسيكو الزعيم وهوليس التابع، حتى وان كان الامر يتعلق بايقاظه في منتصف الليل ليعمل معاوناً له في عملية سطو.

المحاكمة والحكم

اعترف لوسيكو بجريمته ثلاثاً: أولا بعد قبض الشرطة عليه وثانياً خلال سوقه من مقاطعة برونكس الى الثكنة في سوميرز وثالثاً أمام شرطي بلباس مدني تولى طبع الاعتراف على الآلة الكاتبة قبل توقيع لوسيكو عليه.

وارتأى محامي الدفاع وضع الأمر في عهدة القاضي وحده وحرمان لوسيكو حقه في هيئة محلفين، مما جعل قضيته مختلفة عن قضية هوليس

الـذي اتبعـت فـي حالـه الطريقـة العادية٠

واشتمل ملف الدعوى على ١٧ تهمة بينهـا القتـل المتعمـد والاغتصاب والسرقة والسطـو وأعمـال لصوصيـة متفرقة٠

ودامـت المحاكمـة أربـعـة أيـام استمعت الهيئة خلالها الى شهادة بروكس براوتي، وهو الحفيد الذي شاهد اليانور حية للمرة الأخيرة، واخته اونور (عشر سنين) التي رأت جثة جدتها صباحاً حين اتت لزيارتها ومرافقتها الى الكنيسة، كما أدلى نورمان الابن ووالده بشهادتيهما٠ واعترف ثلاثة من زملاء لوسيكو في المـؤسسـة بمعرفتـهـم السـابـقـة بالجريمة، وقال أحدهم انه أخبر مرشده بالأمر رافضاً أن يبوح باسم واضع الخطة أو باسم المنزل الذي قرر اقتحامه٠

وثبت القاضي جرم لوسيكو في ١٤ تهمة وأصدر حكمه بعد أربعة أسابيع٠ وجاء في كلامه ما يأتي: "لا أذكر طوال خبرتي أني اطلعت على جريمة أكثر وحشية ودناءة من هذه، حيث الضحية عجوز مقعد وزوجته هوجما في حرمة بيتهما٠"

وصدر الحكـم بالسجـن ٢٧ سـنـة ونصف سنة على الأقل ومدى الحياة اذا اقتضى الامر٠

أما محاكمة ديفيد هوليس فلم تتم بهذه السهولة٠ وعلى رغم اعترافه التام فانه لم يقر بارتكاب جريمة قتل٠ غير أن قانون ولاية نيويورك يعد الشريك مساوياً للمجرم الرئيسي في حال وفاة الضحية٠

لكن ثمة بنداً يتعلق بما يسمى "الدفاع الموجب" الذي يشكل منفذ أمان٠ وهـذا يشتـرط اقنـاع هيئـة المحلفين بأمور أربعة هي الآتية:

- □ هوليس لم يكن القاتل٠
- □ هوليس لم يحمل سلاحاً قاتلا٠
- □ لم يعرف هوليس أن القاتل تيري لوسيكو كان يحمل سلاحاً قاتلا٠
- □ لم يعرف هوليس أن لوسيكو كان يعتزم استخدام سلاح من هذا النوع٠

وكما في حال لوسيكو أُحضر بعض أفـراد عـائلـة بـراوتـي لـلادلاء بشهاداتهم٠ وكان منظر نورمان الأب مؤثراً جداً عندما أُدخل في كرسيه المتحرك وراح يسرد أحداث تلك الليلة المشؤومة بصوت متهدج٠

وترك كلامه أثراً بالغاً ليس في المحلفين وحدهـم، بـل فـي ديفيـد هوليس أيضاً وقد أدرك للمرة الاولى منذ ١١ شهراً أن دوره في الجريمة سبب العذاب لكثيرين٠ وفي ما بعد تكلم اثنان من المحلفين حول "عاطفة الحفيد والحفيدة تجاه الجدة وعاطفة الابن تجاه الام، " تلك العاطفة التي خُيبت٠

ولدى اعادة هوليس الى السجن في نهاية اليوم الثاني لمحاكمته ذهب نحو لوسيكو الذي كان الحكم قد صدر عليه وطلب اليه، بناء على مشورة محاميه، أن يعلن مسؤوليته التامة عن القتل٠ وكان هوليس، فضلا عن سعيه الى تلطيف الحكم عليه، يريد أن يعرف آل براوتي أنه ليس المصدر المباشر لعذابهم٠

وما أن سمع لوسيكو ذلك حتى خفض رأسه بعناد وقال: "كلا٠"

وأثار رفضه غيظ هوليس الذي دفعه الى الصراخ والبكاء. ولم يتورع عن مهاجمة لوسيكو الاقوى منه مما حدا الحراس على دخول الغرفة لفض النزاع. وفي زنزانته التي تفصلها عن لوسيكو أربع زنزانات اخرى ظل هوليس معظم ذلك الليل يطلق بذيء الكلام على مخطط الجريمة ومنفذها.

لم يقف هوليس قط في منصة الشاهد. لكن محاميه، في الدفاع عنه، قال انه لم يقترف الجريمة ولم يكن مزوداً بسلاح قاتل. وأضاف أنه لم يعرف أن لوسيكو كان يحمل سلاحاً من هذا النوع (علماً أن اليانور براوتي قضت ليس بضرب العصا بل اختناقاً) وانه لم يخطر في باله أن رفيقه قد يعمد الى قتل الضحية بعدما قال له ان آل براوتي خارج المنزل.

ودامت المحاكمة ثلاثة أيام أعطى القاضي بعدها تعليماته الى هيئة المحلفين التي اجتمعت للتشاور. وتبين أن أفراد الهيئة اختلفوا حول مسألة "الدفاع الموجب" وانهم طلبوا من القاضي، ست مرات خلال الساعات اللاحقة، أن يوضح الموقف. ويمكن اختصار تعليمات القاضي بالآتي: "اذا وجدتم المتهم غير بريء من الجريمة، ففي امكانكم اعتماد المبدأ المذكور."

غير أن العقل العادي لا يسعه سوى الارتباك أمام هذا الأمر: أن يكون الشخص الواحد مجرماً وبريئاً في الوقت نفسه.

وفي جولة التصويت الاولى تبين أن خمسة محلفين آثروا تبرئة هوليس من تهمة القتل مع الاصرار على التهم الاخرى. ومع مرور الوقت ساعة بعد ساعة من غير حصول على جواب شاف من القاضي حول مبدأ الدفاع الموجب، بات بعض المحلفين على قناعة بأن انقسامهم قد يفسد الدعوى وينتقص من عدالة الاجراءات. وبعد ثماني ساعات أجمع المحلفون على تثبيت جميع التهم بما فيها القتل. ويتذكر أحدهم ما حصل قائلاً: "لقد ذرف دمع كثير في تلك الغرفة. ولم يسر الحكم أحداً على الاطلاق."

وبعد خروجهم من الغرفة ومقابلتهم القاضي تروي امرأة في اللجنة ما حدث بالآتي: "لقد أدرك القاضي عدم رضانا وصرح بمعرفته أن ديفيد مختلف عن لوسيكو مؤكداً أنه سيأخذ ذلك في الاعتبار لدى اصدار الحكم. لكنني صعقت لدى قراءتي الحكم بعد شهر."

ويقضي قانون الولاية على شريك المجرم بالسجن مدة ادناها ١٥ سنة حتى المؤبد واقصاها ٢٥ سنة حتى المؤبد. اما هوليس فحكم عليه بالسجن ٢٠ سنة حتى المؤبد اذا اقتضى الامر، من غير ان يتاح له حق الاطلاق بكفالة قبل انقضاء السنوات العشرين كلها. والواقع ان الدعويين احيلتا على محكمة الاستئناف.

أنماط

اقتيد الفتيان الى سجن متشدد جداً في الجزء الشمالي من ولاية نيويورك اسمه "اصلاحية الميرا". وهو اشتهر يوماً بكونه سجناً نموذجياً لكنه بات يحفل بالعنف والمخدرات. وبعد

سنتين هناك لجأ كل من هوليس ولوسيكو الى مواجهة الوضع بطريقته.

ويقول لوسيكو: "بعدما أدركت أني مرغم على البقاء ضمن هذه الجدران رحت اراقب طريقة عمل السجن."

وكمثل نزاعات الرعاع في الشوارع تحل مشاكل السجون بالسلاح، ولكن بأسلحة يدوية مرتجلة لتعذر الحصول على سواها. ولا بد لكسب احترام الآخرين من أن ينضم السجين الى احدى الزمر أو أن يشكل زمرة يدعو اليها الأتباع.

ويقول لوسيكو: "لقد وجدت جماعتي. ونحن نمد بعضنا بعضاً بالامان فلا يجسر أحد على الحط من شأننا."

وكما في الأزقة أيضاً يكسب السجين احترام زملائه عبر طريقة تصرفه، أي بمقدار مواجهته الامور بعناد وقوة. واستغل لوسيكو مواهبه القتالية مما أتاح له الحفاظ على رشاقته الجسدية: "اذا شتم أحدهم امك ولم ترد عليه، ظنك الآخرون ضعيفاً. ولكن اذا صفعت وجهه ووطئته، فأنت رجل حقيقي. لذلك لا تظن أني ألجأ الى العنف كغاية في ذاته، بل لتأكيد رجولتي والدفاع عن موقفي."

وفي خلال سنتين جعل لوسيكو من نفسه سجيناً "ناجحاً" اذ بات في امكانه التوسط للآخرين والحصول على المخدرات متى شاء. ويتابع القول: "ان لي تأثيراً كبيراً في السجن. واذا بقيت هنا عشر سنين اخرى، فسأغدو مجرماً عظيماً من جراء ما أتعلم.

"لقد استغلني جميعهم طوال حياتي حتى اليوم. لكني امرؤ لا يستطيع تزوير الواقع. واذا خرجت الى العالم في هذه اللحظة، فهل تدرون كم احصل من المال؟ لا، لن ألجأ الى السرقة بنفسي، بل سأجعل آخرين يسرقون لحسابي. واذ ذاك سأعيش الحياة التي طالما تقت اليها، ألا وهي حياة رئيس عصابة."

أما هوليس فواجه الامور على نحو آخر. وهو يقول: "على السجين أن يتجنب اعتداء الآخرين ما أمكنه، خصوصاً بحفظ لسانه والبقاء في الظل."

الا أن ذلك يعني العزلة. والواقع أن هوليس انصرف الى الدرس ونال درجة معادلة لشهادة الدراسة الثانوية بمعدل تسعين من مئة في الامتحان. واكتشف عالم القراءة بدءاً بروايات اغاثا كريستي البوليسية وانتهاء بقصص مارك توين الساخرة التي فاتته في حداثته. واشترك في بعض المجلات وكان يقترض صحيفة "نيويورك تايمس" من جاره المثابر على المطالعة كما طلب قاموساً يعينه على كشف الكلمات الصعبة. وما لبث أن حصل على وظيفة مرشد في مشغل السجن ثم تخلى عنها ليتابع دورة جامعية للسجناء اللامعين مدتها سنتان. ومن أجل طرد الهموم والحفاظ على سلامة عقله استعداداً لليوم البعيد الذي سوف يشهد استعادة حريته، وجه اهتمامه الى الدين. وهو يقول: "ثابرت على قراءة الكتاب المقدس أكثر فأكثر. وكلما واجهت مشكلة نفسية بت أسعى الى حلها هناك وأجده. والكتاب المقدس

يمنح كل سائل جواباً اذا أحسن النظر.

"في لينكولن هول لم تكن علاقتي بالله تعالى حسنة. لكني هنا بدأت ادرك أن ثمة من يتحسس وضعي ويحاول أن يبلغني شيئاً. ولم أسمح له بالدخول بادىء الامر. لكنه ما لبث أن دخل وأعطاني القوة. وبت أعرف أنه هناك، وهو لن يدع أي سوء يمسني."

وكان الأخ بريان كارتي من القيمين على لينكولن هول خلال وجود لوسيكو وهوليس هناك. وهو يقول: "في العامين ١٩٧٧ و١٩٧٨ وجدنا اننا مضطرون الى قبول أحداث لم نعرف أمثالا لهم قبل ذلك الحين. وقد أتوا الينا من عالم تسوده الفوضى وارتكبوا أعمال عنف كثيرة. أضف الى هذا أن اولئك الاحداث كانوا دون المستوى المقبول من الناحيتين العلمية والعقلية."

ترى كيف لمؤسسة أن تضبط هذا الفيض من المجرمين الوافدين وتفتدي اولئك الذين ينبذهم المجتمع؟

ويتابع الأخ بريان: "أمضينا الساعات الطوال نتداول في الطرائق الواجب اتباعها. وبذلنا كل ما لدينا لوضع اولئك الفتية على الطريق القويم."

غير أن الاخ بريان وزملاءه سرعان ما وجدوا أن طرائقهم الحديثة اصطدمت بنظرة لينكولن هول التربوية المستمدة من الماضي وبالتحديد من أشخاص ارتأوا، على غرار الأخ برنابا في القرن التاسع عشر، أن مرشد النزل هو الركيزة التي يجب أن يتم بناء كل شيء فوقها. الا أن مرشدي المؤسسة كانوا يأتون ويذهبون موسمياً ولا يقر لهم قرار. وفي العام ١٩٨٠ بلغ راتب المرشد السنوي ٩٣٠٠ دولار مع علاوة بمقدار ٧٠٠ دولار. لذلك راح المرشدون يبحثون عن وظائف تدر عليهم ربحاً أكبر.

وخلص الأخ بريان الى القول بأن لينكولن هول "مؤسسة تخطاها الزمن." وعندما اقترح الاخوة بعض التعديلات، ومنها استقدام موظفين أفضل خبرة وتحسين المعاملة في جميع مرافق المؤسسة، رفضت الادارة ذلك رفضاً قاطعاً. فما كان من الاخوة الا أن خرجوا من لينكولن هول في شهر يناير (كانون الثاني) ١٩٨١.

لكن المحاكم العائلية في ولاية نيويورك بأسرها لا تزال ترسل الأحداث الى تلك المؤسسة. وقد أقر القاضي الذي أرسل ديفيد هوليس الى هناك أن المؤسسة تضم المتهربين من واجباتهم المدرسية جنباً الى جنب مع النشالين واللصوص والمجرمين. غير أنه يضيف أن المؤسسة التي كانت يوماً وكراً للثعابين باتت اليوم أفضل كثيراً بفضل المسؤولين والمرشدين الجدد. لكن من المؤسف ان هذا الرأي ليس عين الصحة. وفي ما يأتي بعض أمثلة عن أحداث وقعت أخيراً:

□ خلال العام ١٩٨٢ اتهم أحد فتية لينكولن هول بجريمة قتل. وهذا يعني، اضافة الى هوليس ولوسيكو، ثلاث تهم ضد تلاميذ المؤسسة في ظرف سنتين.

□ من أصل عشرة أحداث أقاموا في النزل نفسه مع هوليس ولوسيكو هناك سبعة اوقفوا في أوقات مختلفة بتهمة خرق القانون.

□ طارد أحد زملاء هوليس ولوسيكو، وهو الآن في التاسعة عشرة، فتى مراهقاً في شارع من مدينة نيويورك، وما زال يرميه بالنار حتى أصاب طفلا ذا أحد عشر شهراً، ولكن لحسن الحظ في ساقه. وفي مطلع ١٩٨٣ كان ذلك النزيل ينتظر المثول أمام المحكمة بتهم متعددة كالاعتداء على الآخرين وحيازة الاسلحة النارية والاعمال الطائشة التي تعرض حياة الناس للخطر.

□ ما فتىء التلاميذ يفرون من لينكولن هول بمعدل واحد كل يومين. وفي سجلات الشرطة أن ٢٦ نزيلا غادروا المؤسسة من غير اذن خلال شهري سبتمبر (أيلول) واكتوبر (تشرين الاول) ١٩٨٢. وتوجه بعضهم فوراً الى "تايمس سكوير" وسط المدينة حيث، كما يقول أحد المرشدين، باشروا "ازعاج السياح وبيع المخدرات."

□ ما فتىء المرشدون الذين رفع راتب الواحد منهم الى ١١٥٠٠ دولار سنوياً منذ يوليو (تموز) ١٩٨١ يبحثون عن وظائف اخرى.

يقوم ضريح اليانور براوتي على تلة تشرف على مقبرة نقشت على شاهداتها تواريخ تعود الى ما قبل الحرب الاهلية الامريكية. أما الضريح المستكن على جانب التلة فقد حاول جيم براوتي، صغير أبناء اليانور، أن يراعي في شأنه تقليداً حرصت امه على مراعاته في حياتها.

لقد أحبت اليانور فصل الربيع. وكانت كل خريف تغرس البصل حول منزلها فيفرع في الربيع مواكب من الزعفران والنرجس والياقوت تشكل حصيرة تختلط فيها الالوان. فهنا الارجواني وهناك الأحمر، هنا الازرق وهناك الابيض، هنا الذهبي وهناك الفضي... انه عرس ألوان حقاً.

وهكذا غرس جيم براوتي الزعفران حول قبر امه. واليوم تقف شاهدة من رخام أبيض فوق ضريح اليانور براوتي الذي يتوسط جزيرة دائمة الخضرة، فيما حجار الاضرحة الاخرى حال لونها بفعل الزمن... هكذا تقف تلك الشاهدة الناصعة شاهدة على عنف هذه الايام.

■ **لستر فيلي**

الديموقراطية وليدة العداء!

ان الشرط الاهم لكي ينمي المرء حس الديموقراطية في داخله هو ان يختبر عداء الآخرين. ولقد علمتني التجربة ان الشخص الذي لا يقاسي من العداء لا يرق قلبه لاولئك الذين يعانونه. ومن يختبر عداء الآخرين يصبح اشد عطفاً من الذين تنقصهم هذه الخبرة.

هاري ترومن

يوميات امرأة محتضرة



في شهر مايو (أيار) ١٩٧٦، بعد أشهر قليلة من مباشرة جين هاميرون العمل مع المرضى المحتضرين في أحد المستشفيات، ظهر لديها داء عضال - السرطان. الا أنها عقدت العزم على متابعة عملها لتخفيف آلام المحتضرين وكآبة أنسبائهم. ومنذ ذلك الحين ادرجت تقاريرها ودراساتها في مؤتمرات طبية عدة، كما ظهرت هي في برامج تلفزيونية في كندا وبريطانيا والولايات المتحدة وألقت محاضرات كثيرة. وهذه المذكرات المقتطعة من كتابها "من أجل ما كان" تقدم الينا وصفاً حياً لانتقالها الى عالم المحتضرين.

عملت خمسة أشهر في جناح تسكين الآلام التابع لمستشفى فيكتوريا الملكي في مونريال، حيث كنت أصغي وأتحدث الى الناس في المراحل الأخيرة من مرضهم. وكان كلامهم يدور على السرطان كما على هواجسهم والناس الذين سيخلفونهم والآمال التي بقيت لهم وخبرة الموت.

وبمحض المصادفة اكتشفت نتوءاً صغيراً في صدري. ولم أجد في ذلك

Illustration: Alan Daniel

نذيراً، اذ عرفت شيئاً مثله قبل ذاك اليوم ظهر وزال. لكنني كنتُ على موعد مع الطبيب بعد الظهر وقررت أن أذكر الأمر أمامه. وجاء تشخيصه باعثاً على القلق وأحالني على جراح مختص صبيحة اليوم التالي.

وعدت الى المستشفى وأمضيت ساعات مع المرضى وعائلاتهم. وأتذكر أنني جلست على حافة سرير وفي رأسي صوت يقول: "هذا مستحيل! هذا لا يمكن أن يحدث لي... على الأقل ليس الآن وأنا منغمسة في هذا العمل. الناس هنا يحتاجون الي."

الخطر الكبير

هكذا بدأ السرطان لدي. وخلال العلاج الكيميائي الذي تلا الجراحة طلبتُ من ادارة المستشفى أن تسمح لي بمتابعة عملي في قسم تسكين الآلام. وتلقيت من زملاء القسم سنداً لا يقدر، وقيل لي أن أتابع عملي من المنزل عبر الهاتف. وعندما استأنفت ذهابي الى الجناح كان أحدهم يوافيني عند المدخل بكرسي نقال ويعيدني آخر الى البيت في سيارته.

وأتاح لي مرضي أن أرى العمل من وجهة نظر اخرى. وللمرة الاولى استحالت النظريات والكلمات حقائق ملموسة وبات في امكاني مشاركة المرضى في آلامهم من داخل بعد زوال المسافة التي تركتها "الصحة" بيني وبينهم.

وعلى رغم اختباري الخطر سابقاً فان رد فعلي على الخطر الجديد بدا مختلفاً. ففي حين لم أتورع عن الاعتراف بأني مصابة بحمى ناجمة عن التهاب المفاصل أو بخلل في عضلة القلب، وجدتني أحجم عن ذكر اصابتي بالسرطان أمام الآخرين. فعندما يعرفون بمرضك هذا تراهم يتراجعون أو يرتبكون قائلين: "اني آسف لسماع هذا،" ويبدلون الموضوع بسرعة وربما وجدوا عذراً غير مقنع للانصراف.

والحق اني لم أكن مستعدة في البداية لمواجهة ردود الفعل هذه. وخابرتني صديقة اعتادت أن تشاركنا في غداء عيد الميلاد لتقول انها لن تستطيع المجيء هذا العام. لكنها جاءت على حين غرة بعد أسابيع وجلست في أبعد مكان عني بالقرب من نافذة مفتوحة. وأدركت خوفها ولم يفاجئني الأمر. وتحدثنا أولا في مسائل عمومية ثم فتحت موضوع السرطان وقلت لها ألا تقلق. وما لبثت أن نهضت وهي تهم بالانصراف. وتوقفت هنيهة واستدارت نحوي وضمتني بذراعيها وقبلتني دامعة وخرجت. ولم أنس تلك البادرة قط: أعني شجاعة تلك الصديقة التي دفعتها الى زيارتي ومعانقتي.

في البداية لم ينذرني خبر السرطان بالموت. فما هذا الداء سوى واحد من الاخطار التي عانيتها في حياتي. ولكن سرعان ما أُقيم الدليل على انتشار المرض. وجاء وقت لم يعد يكترث الجراح لمخابراتي الهاتفية اذ شاء ادخار وقته الثمين للمرضى الذين يمكن شفاؤهم. وأدركت عندئذ أني في عداد الميؤوس من أمرهم.

وتذكرت المرضى وذويهم الذين عبروا أمامي عن خيبتهم لتخلي الاطباء عنهم. غير اني وجدت نفسي أفضل منهم حالا، اذ لم أحرم العناية الطبية البتة. كما علمتني وظيفتي أن الالم تمكن السيطرة عليه في معظم الحالات. واذا تولت مؤسسات الضمان الصحي الجانب المادي من الأمر، ففي وسع الاهل والاصدقاء انجاز الباقي. وشكرتُ الله على أن الامرين مؤمنان في حالي. وهكذا أخذت مخاوفي تتقلص.

ان المصاب بمرض كهذا يقف موقف الدهشة حيال أشياء اعتاد أن يأخذها كأمور مفروغ منها. وذات يوم ربيعي، بعدما قال الاطباء ان مرضي دخل مرحلته الاخيرة، هبت عاصفة جليد غير متوقعة. وفجأة هزني دافع قوي الى الوقوف وسط العاصفة. وهرعتُ خارجاً ورحت أنظر الى الثلج يتساقط حولي. وفيما أنا هكذا تساءلت: "أتكون هذه المرة الأخيرة؟" وعرفتُ فرحاً عظيماً وأنا انظر الى جمال الثلج وكأنَّ ذلك يحدث للمرة الاولى. وهذا النوع من الفرح رصيد ثمين لساعات الألم والعذاب.

الليلة الاخيرة

وجدتُ قوة أيضاً في ذكرياتي مع المرضى المائتين. ولا أنسى كيف توفيت سيدة في المستشفى سبق أن انفصلت عن زوجها وعاشت مع ابنتيها الصغيرتين حياة عاطفية حميمة. لذلك كانت همومها تشتد مع اشتداد المرض.

وفي الليلة الأخيرة من حياتها جاءت ابنتاها الى الجناح ومعهما غيتار وحفنة من الاصدقاء المراهقين. ودخلتا غرفة والدتهما وقبلتاها ثم جلست كل منهما على جانب من السرير. ولم تنطق أي منهما بكلمة، ولكن استهلت احداهما لحناً شجياً على الغيتار وانطلقت الاثنتان تشدوان اغنيات والدتهما المفضلة. وبينما هما تفعلان ذلك طفح وجه الأم بالسلام والسكينة ولفظت أنفاسها الأخيرة وهي تبتسم.

ان مريض السرطان لا يلبث أن يعتاد العيش مع مرضه. وكلما ظهرت أعراض جديدة أو اشتدت أعراضه القديمة استشار طبيبه. وربما تبين بنتيجة الفحوص أن الداء أخذ يستشري. وهذا ما ظهر في وضعي اذ امتد المرض من صدري الى العنق والكتفين والنخاع الشوكي والحوض والرئتين. ولن يطول الوقت حتى يصرعني.

وليس انتقال الداء الى رأسي بالامر المستبعد. غير أني احيل هذا الخوف على الظل كلما انتابني اذ أتمنى ألا أفقد الوعي يوماً، بل أود أن أعرف على الدوام متى يأتيني الألم وكيف أستطيع السيطرة عليه. ولكن ما لبث الخبر الفظيع أن سقط علي في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٠، وهو المتعلق بانتشار المرض حتى الدماغ مما يواجهني بخطر فقد الوعي في أي وقت.

وكان رد فعلي الفوري قراري بألا أُخبر أحداً. واجتاحني ذعر لم أعرف مثيلا له ومصدره وشوك صيرورتي

عبئاً على الآخرين، يراقبونني في المرحلة الأخيرة من عذابي. وبعد ذلك عدلتُ قراري قليلا، فارتأيتُ أن أبوح بالامر لاصدقائي الخُلّص الذين لا أجد حرجاً في أن يشاهدوا ضعفي وانهياري.

ثم تحققتُ أن لا شيء يخيف في الواقع كمثل الخوف منه. والمفرح أن الثقة بالآخرين تبقى. وها أنا أعتاد رويداً رويداً قبول فكرة العطاء القليل والأخذ الكثير. ومع تلاشي القوة الجسدية يأتي فيض من الفرح والسلام ليملأ الفراغ.

وظل جرس الهاتف يرن في أي وقت ليأتيني من الطرف الآخر صوت شخص يعاني العذاب والألم ويطلب تخفيف محنته بالمحادثة. وذلك بالنسبة الي يخفف كثيراً من أهوال الرحلة، رحلتي الشخصية.

ألم مبرح

مع تقدم مرضي غدا الألم المشكلة الرئيسية، وبات تسكينه أهم جانب من العلاج الذي لن أنسى فضل أصحابه عليّ.

وخشيت أول الامر أن تسبب لي المسكنات النعاس وتعتم على ذهني. ولم تبارح الطاولة على جانب سريري زجاجة من عقار "مزيج برومبتون" الذي تحوي كل جرعة منه عشرة مليغرامات من المورفين. غير أن الزجاجة بقيت نحو شهر غير مفتوحة لأني شئت مقاومة الألم دونما اعتماد عليها. ولم ألبث أن بلغت مرحلة عجزت فيها عن مواجهة الألم المبرح الذي أجهز علي من كل ناحية.

وهكذا تناولت الجرعة الاولى من الدواء. وأتى علي النعاس كما توقعت لكن الألم زال. وظللت أياماً ثلاثة أغفو وأصحو ولا أدري تماماً ما يحصل حولي. وأخيراً زال الألم والنعاس معاً.

ولا أستطيع وصف الراحة التي شعرتُ بها وامتناني لأطبائي. وخرجت مرة اخرى من قوقعتي الى العالم، أتفاعل مع الناس وافكر في ما يمكنني أن أفعل لهم.

وعندما شب حريق قبل ثلاث سنوات في البناية التي أسكنها وراح السكان يتدافعون خارجاً، حرصت على أخذ شيء واحد معي قبل مغادرة شقتي، ألا وهو زجاجة مزيج برومبتون الثمينة.

وكان في العام ١٩٧٧ أن أخبرت ان الاجراءات الجديدة في المستشفى لا تتيح لي العمل في الجناح. وفهمت ذلك الأمر، على قسوته. غير اني ما فتئت أعمل في البيت عبر الهاتف، فأُجيب عن أسئلة المرضى وأكتب التقارير حولهم. وذات يوم وقفت في الباب ممرضة سبق أن لاحظت أني بت أستعمل الآلة الكاتبة بمشقة. وكانت تحمل معها آلة كهربائية ثقيلة ولكن سهلة الاستعمال، قالت ان ادارة المستشفى استأجرتها لي كي اؤدي عملي عليها من غير صعوبة.

وبقيت أحضر اجتماعات المستشفى وأجدها ضرورية للاطلاع على الجديد في حقل عملي. وأدركت أني غدوت مراقبة أكثر مني فاعلة، وأن الزملاء باتوا ينظرون الي كمريضة على وشك الموت. وعبارة "الموت" هذه، كعبارة

"السرطان"، تولد انفعالات قوية لدى الآخرين. فالمصاب بهاتين الآفتين يصبح شخصاً معزولا بمعنى. وفي هذه التنحية النفسية والاجتماعية ظلم كبير. انها الوفاة قبل أوانها. وهكذا وجدت نفسي اصارع لرد الظلم عني.

وبينما أنا كذلك تلقيت رسالة من الأب بينيديكت فانيير حدث ان قوّت عزيمتي غير مرة. ومما جاء في تلك الرسالة: "اياكِ أن تدعي رغبتك في مساعدة الآخرينَ تتغلب عليك وتتحول الحاحاً والتزاماً، بل اتركيها على سجيتها وخففي عنك. واذ ذاك ستجدين في مساعدتك المتعبين شهادة على حضور الله تعالى. وهذا سيقرب الآخرين اليك على نحو افضل."

العزاء

ذات يوم سألتني ممرضة ان كنتُ أود الكلام مع أمرأة تحتضر، وحثتني على الموافقة لتقديرها أن في استطاعتي عون المرأة. ووافقت على المحاولة. واذا بي أمام شابة متزوجة تدعى ميلاني، كان ذلك مرضها الاول. ومن منا لم يختبر المرض مراراً؟ ووجد أنها مصابة بسرطان عضال في الرئة. أما هي فوجدت صعوبة كبيرة في قبول فكرة المرض والموت المحتم.

ووقفت أمام شابة جذابة جلست في سريرها تتحدث الى طالب طب. وهي كانت تتوقع مجيئي، وعرفت الطالب علي بالآتي: "هذه السيدة كانت تؤدي خدمات اجتماعية هنا، لكنها الآن مثلي تنتظر ساعة وفاتها."

وصعقني ذلك التعريف هنيهة، ثم فهمت مغزى كلامها. فهي لم تنتظر مني أي مهارة مهنية، بل شاءت أن تستمد مني العزاء، كوني مائتة مثلها.

وفي الاسابيع التالية بحثنا اموراً كثيرة: أفكارها ومشاعرها وتطور المرض لدينا نحن الاثنتين والامور التي تحدث في حياتها. وبدت خائفة جداً من مواجهة الموت. وأخبرتها عن الوفيات التي حصلت في حضوري وعما يفعله موظفو الجناح لتعزية المرضى والتخفيف عنهم.

ومع اشتداد المرض عليها أخذت تعلق على باب غرفتها ملاحظات تقول انها لا تود أن تستقبل زائراً سواي. وأدركت أنها باتت تشعر بقربها مني وانها تتحدث الي من غير عائق. وعرفت في الوقت نفسه ان سواي من الزملاء حاول مؤاساتها. وذات يوم قالت لي: "كلهم عاملوني بمنتهى المودة. لكن صحتهم منعتني من تمتين العلاقة بيني وبينهم من أجل الطرفين معاً، اذ انني سأتركهم بعدي. أما الحال معك فمختلفة. فأنت وأنا منطلقتان في رحلة واحدة."

وماتت ميلاني في مساء يوم غير بعيد، وحزنت كثيراً لفقدها. لكن تعارفنا كان نعمة لنا معاً.

ان الموت ليس بالامر الغريب. وان هو الا الخاتمة الطبيعية لحياتنا جميعاً. لكن العيش وقتاً طويلا في حال من الاحتضار يحمل خبرة غير عادية. وطالما سمعت زملاء لي يقولون: "ليس ضرورياً أن يكون المرء

فقيراً ليفهم الفقر." أما أنا فلا أشك أن هذا يساعد على ذاك.

نحن الذين نعاشر الموت ننزع الى رؤية الاشياء من زاوية مشتركة. وفي الأقل يمكننا التحدث بعضنا الى بعض بحرية ونلطف شيئاً من شعور العزلة الذي يحمله الموت.

لقد تسنى لي أخيراً أن أتحدث الى مريضة بسرطان الدم اسمها ماري ولها ابنة ذات تسعة عشر ربيعاً. وهذه الفتاة، باميلا، طالبة باهرة حصلت على منحة نادرة لمباشرة دراستها العليا في جامعة بعيدة. الا أنها وجدت نفسها بين خيارين: أتترك تلك الفرصة الذهبية وتمكث مع امها، أم تدع امها تصارع المرض وحدها لئلا تضيع على نفسها فرصة العمر؟ وكان من غير الممكن تمديد صلاحية المنحة أو ارجاؤها.

وقالت ماري: "عبرت باميلا عن رغبتها في البقاء معي ورفض المنحة. ولكن من قائل انها، على رغم تعلقها الشديد بي اليوم، لن تحملني غداً عبء القضاء على مستقبلها؟ لذلك لم أشأ أن تتخلى باميلا عن نصيبها. ولكن هب أنها ذهبت الى الجامعة ومت أنا، أفلن يخلف ذلك حساً بالذنب لديها؟"

وتكلمنا طويلا في ذلك، وكانت ماري تقارن بين ألمها الجسدي والنفسي من ناحية وفرحها وافتخارها بابنتها من ناحية اخرى. وهي عرفت ماذا تريد من غير تردد. ودبرت الأمر بحيث تلازمها ممرضة مما يتيح لابنتها الانتقال الى الجامعة. ولم تتوانَ عن اسكات الجيران الذين راحوا يقرعون تصرف باميلا بحجة أنها أنانية وقاسية الفؤاد.

ثمن الحب

من جملة الاعمال التي أنجزها على الهاتف الرد على مخابرات الاشخاص الذين يلازمون فرداً مريضاً من عائلتهم في المنزل. وكانت لي محادثات عدة مع امرأة تشهد أيام زوجها الأخيرة. وهما مهاجران متقدمان في السن لا أنسباء لهما، بل بعض أصدقاء ومعارف. لذلك كان اعتماد أحدهما على الآخر قوياً. ومع اشتداد المرض على الزوج اصبحت الزوجة أكثر اضطراباً. وذات صباح خابرتني قائلة: "لقد غاب زوجي عن الوعي، وأمضيت الليل بطوله أبكي وارجوه ألا يتركني وحدي. لكن جميع معارفي حثوني على الكف عن هذا الكلام وتركه يستريح."

وسألتها هل تظن أنه يدرك ما تقول. فأجابت أنها متأكدة من ذلك لأنها تراه في عينيه. وعدت أسألها: "أتظنين أنها المرة الأخيرة التي سيفهم ما تقولين؟ اذا كان الأمر هكذا، فربما كان لديك كلام خاص تسمعينه اياه قبل فوات الاوان."

وفي الصباح التالي خابرتني باكراً وقالت: "أتعرفين ماذا فعلت؟ لقد أمضيت الليل كله بجانبه وأنا امسك يده وأخبره بحبي له، وبأن السنوات الثلاثين من حياتنا معاً هي نعمة العمر التي لن أنساها."

وأضافت: "لو كان وضعه طبيعياً، لما كلمته على هذا النحو اذ ان ذلك يثير عجبه. الا أن وضعه الخاص أزال

ولا أظن أن ذلك الرجل الشهم سيدرك يوماً أهمية ما فعله من أجلي. فالجهاز نفسه لم يكن في مقدوري شراؤه لارتفاع ثمنه. والموسيقى التي أصغيت اليها ساعات وساعات خففت عني الكثير من الضعف والألم. وأهم من هذا وذاك البادرة نفسها التي جاءت من شخص غريب شهادة على اللطف وكرم النفس.

وفي وقت آخر تلقيت مخابرة هاتفية قبيل عيد الميلاد من سيدة قالت انها أعدت شيئاً للمناسبة وتريد حمله الي. ودخلت وفي يديها عدد من الأكياس. وهي كانت تعيش وتعمل في مؤسسة لرياضة اليوغا، وأخبرتني أن كل الذين هناك قرروا أن يعدوا لي شيئاً خاصاً بالعيد، وانهم جميعاً، حتى الاولاد، أمضوا يوماً كاملا في الطهو وتحضير المأكولات.

وما أن أخرجت الاشياء من علبها حتى رزحت الطاولة تحتها، وفيها من الطبخ والحلوى والفاكهة ما لذ وطاب. وفيما أنا أتأمل المتعة التي استمدها اولئك الاخيار من خدمة شخص لن يرود، قالت زائرتي: "لا شك انك تريدين تقديم بعض هذه العلب كهدايا. لكن هناك ما يكفي لكي تدعي زواراً الى بيتك طوال فترة العيد."

دورة الحياة

دام مرضي أطول مما كان أحد يظن، بمن فيهم أنا نفسي. وبت أتساءل ان كان الخطر ولى. غير أن ثمة أعراضاً قوية ما زالت تأتي وتذهب، وكل منها يزين لي وشوك النهاية.

غير أن الكلام عن الموت يبدو أقل الحاحاً مع مرور الايام. فقد وقف الموت مراراً على عتبة داري حتى بات في امكاني النظر بلا خوف الى حضوره الأليف.

ان معاناة السرطان لا تعني الحزن والغم على الدوام. فأحياناً يأتي الضحك والمرح على غير انتظار وفي أحلك الساعات. وكنت شهدت أوقاتاً كهذه في جناح المستشفى كما في خبرتي الشخصية. والحق أن الألم يحمل في أحشائه الفرح. ولقد وصف الكاتب البريطاني كلايف لويس هذا الشعور المزدوج في كتابه "الحزن المنظور" الذي يتكلم فيه عن احتضار زوجته: "لا يصدق المرء كم من السعادة والمرح اختبرنا أحياناً كثيرة بعدما ظننا الرجاء ولى الى غير رجعة."

وهناك سيدة بريطانية اسمها ديانا غولت ثابرت على كتابة يومياتها حتى في آخر صيف من حياتها، متحدية الآلام المبرحة: "أشعر أن الحب يغمر كياني ويغرقني حتى ليخرج من أذني. ولعمري أن هذا الصيف هو من أجمل فصول الصيف في ذاكرتي، وان كنت الآن لا أقوى على السباحة أو على المشي بسهولة."

واذ أقرأ هذه السطور فاني أفهم تماماً ما قالته الكاتبة. فالحب الذي تتحسسه في كيانها آت من عطف الآخرين عليها وعنايتهم بها، اولئك الذين تجدهم في عونك كلما احتجت الى معونة. فعندما ينظر اليك الآخر بمحبة تشعر كأن قذارة المرض زالت من أعضائك ويبدو كل يوم جديد هبة

من السماء الكريمة ينبغي ان تتذوقها حتى النهاية•

الرجاء لا يموت، لكنه يتبدل قليلا من وقت الى آخر، في الرحلة الاولى لمرضي رجوت الا ينتشر السرطان، لكنه انتشر•أما الآن فقد تبدل رجائي• وها أنذا أتمنى ان اصمد لأرى أزهار حديقتي تخرج من براعمها في الربيع المقبل•

الرجاء هو القوة التي حملتني الخريف الماضي على غرس البصول في الحديقة• وها هي الآن تفتح مع الربيع• وبينما أنا أغرسها كان الناظرون اليّ يقولون: "أنت غارقة في المرض حتى الأذنين• فلماذا تفعلين هذا؟" وكانوا يحجمون عن التتمة المنطقية لفكرتهم: "لماذا تفعلين هذا وأنت لن تعمري حتى تبصريها أفرعت مع الربيع؟"

أما الجواب فبسيط• اني أحب الازهار التي تنمو في حديقتي• وربما لن أكون هنا لأراها، لكنها ستعود مع الربيع وستكون جميلة• واذا عشت كي أراها، فهذه نعمة عظيمة• أما اذا قضيت قبل موسمها، فسيراها سواي ويستمتع بها• ترى ماذا أسمي البادرة التي جعلتني أغرس تلك البذار؟ أهي نوع من الرجاء مختلف عن المألوف؟

لقد عادني يوماً طبيب وجلسنا نتحدث عن عمله مع المحتضرين• وسألني كيف استطعت قبول ما يحدث لي من غير غضب ولا مقاومة• وأضاف: "أتؤمنين؟" ولما أجبتُ "نعم" قال: "كيف يمكنك الحفاظ على الايمان وسط هذا الألم والعذاب؟ كيف تؤمنين بالظلم الى هذا الحد؟"

وطرأت على ذهني الفكرة الآتية: نحن لا نتردد في اعتبار الألم والعذاب ظلماً، لكن الظلم يزول اذا افتداه الحب• ومتى كف المرء عن النظر الى هذه الامور من زاوية قاتمة، طغى الفرح على الغم• وحاولت أن أشرح لسائلي أن ثمة معنى في حياتي أكبر من المرض والعذاب والألم، وان كنت لا أتبينه بوضوح في حالي الراهنة•

ويبدو لي أني لن أفهم هذا المعنى ما بقيتُ حية• ولكن يبدو لي في الوقت نفسه ان الايمان والرجاء والمحبة هي الزاد الحقيقي في رحلتنا•

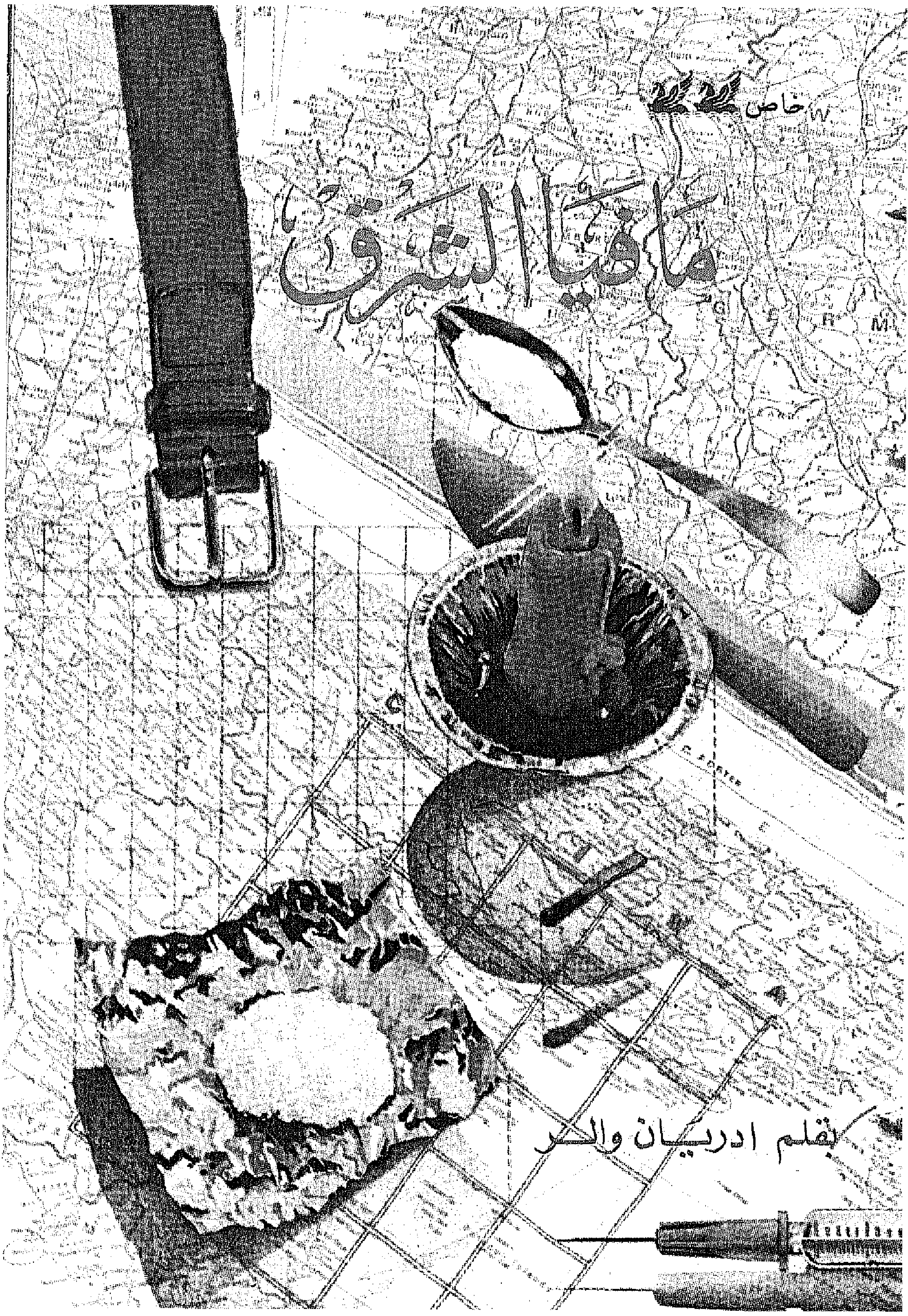
والواقع اني أتطلع بشوق الى ما سيأتي• أما الآن فأود أن أعيش أيامي بملئها• واني لا أنسى كلمات الأب بينيديكت "الحياة رحلة حجّ، وليس لنا ههنا مدينة باقية• اننا قصادون مكاناً ما، ومعنا رفيق لا يخذُل•"

■ جين كاميرون



اذا ضحكت كثيراً في شبابك، فستجد عندما تكبر ان تجاعيد وجهك في مواضعها الصحيحة•

ا•م•



خاص
مافيا الشرق
بقلم ادريان والكر

مافيا الشرق

بعدما دوخت عصابة رهيبة اجهزة مكافحة المخدرات في امريكا واوروبا اوكلت الشرطة الكندية الى تحريتين شابتين مهمة سرية محفوفة بالخطر، وكان يترتب عليهما معاونة العصابة في تهريب المخدرات ومعاونة الشرطة في القبض على المهربين.

في ٢٠ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٧٨ تلقى العريف ألكس ماكيزاك (★) من شرطة تورونتو المركزية مكالمة هاتفية من مُخبر يدعى روني (٣١ سنة)، وهو مدمن هيروييين يعمد بين حين وآخر الى السرقة وبيع المخدرات.

قال روني: "ان لدي معلومات ثمينة جداً لكنني لا أستطيع ذكر أسماء على الهاتف." فبدا للشرطي أن لهذا الكلام علاقة بتاجر جديد للمخدرات ظهر على المسرح المحلي قبل بضعة أسابيع. وهو شاب من هونغ كونغ اشتهر بكونه "خطراً جداً". ويقال انه جاء الى تورونتو ليستأجر مهربين لنقل الهيروييين في اطار عملية دولية.

وافق ماكيزاك على لقاء روني ووافاه الى مقهى في فندق "هاربور كاسل هيلتون" حيث يتردد القادم الجديد. وما لبث المخبر أن أشار الى رجل صيني يجلس الى منضدة ويرتدي سترة ثمينة من الجلد الناعم وسروالا جيد الصنع ثم قال: "هذا هو الرجل. وهو يدعو نفسه فيليب شانغ."

ظل ماكيزاك يراقب الرجل الصيني يومين، حتى انه حجز غرفة قريبة من غرفته في فندق "بوند بالاس". وهو علم بواسطة مخبره أن اسم شانغ الحقيقي هو تسي وو كونغ وأنه يبحث عن امرأتين جذابتين أنيقتين يمكنه الاعتماد عليهما في عمليات التهريب من دون اثارة شبهات رجال الجمارك. وتحصل كل منهما بعد انتهاء مهمتها على ٥٠٠٠ دولار فضلا عن رحلة مجانية حول العالم.

وبدا واضحاً من كلفة عملية التهريب ان بضاعة الهيروييين تساوي ملايين الدولارات. وبات على الشرطة

(★) جميع اسماء الشرطيين السريين مستعارة.

الكنـدية ان تعالـج هـذه الـقضـيـة مستعيـنـة ببراعـتهـا وبعلاقـاتهـا الدولية.

وأحيط الرقيب الاول في الشرطة الكندية ارني وايت علماً بالأمر، وهو مـن قدمـاء المحققيـن فـي شـؤون المخدرات. وأرسلت برقيات لشرح هذه القضية الى مراكز الشرطة في أنحاء العالم. وفي الايام التالية علم وايت ان تسي ووكونغ (٣٥ سنة) ولد في هونغ كونغ وعمل في شرطتها غير أنه تحول الى التهريب واعتقل فـي أمستـردام (هولنـدا) لحيـازته الهيـرويـيـن وحكم عليـه بـالسجن سنتين، فقضى منهما ١٦ شهراً وأطلق في فبراير (شباط) ١٩٧٨.

ويبدو أنه كان أحد منظمي شبكة لتهريب المخدرات نشأت بعد انهيار "الحلقة الفرنسـية" الشهيـرة عـام ١٩٧٠ واتخـذت آسيـا مـركزاً لهـا. وكانت هذه الشبكة ترسل الى أوروبا وشمال أمـريكا كميـات كبيـرة مـن الهيروويين تنتجهـا جبـال "المثلث الذهبي" المكسوة بالاشجار والتي تمتـد علـى حـدود تايـلانـد ولاوس وبورما. وكثيراً ما كان يتولى عمليات التهريـب أعضـاء مـن عـصـابـات "الثالوث" الرهيبة.

وتقدر الشرطة عدد افراد هذه العصابات بثمانين ألفاً موزعين على ٣٣ "جمعية" نشطة لهـا عـلاقـات بالجاليات الصينية حول العالم.

ولدى انضمام عضو جديد الى احدى هذه الجمعيات يؤخذ بعض الدم من خنصر يده اليسرى ويـمزج بعصير العنـب ودم ديـك أبـيـض ويشـرب الحاضرون جميعاً من هذا الخليط. وعلى من يقسم بحفظ التعاليم الستة والثلاثين ان يتعهد بقتل كل من يقف في طريق الجمعية. ومن بين قوانين الثالوث ان "من يحنث بيمينه يـُقتل بعشرات السيوف."

وحاولت الشرطة الكندية التغلغل الى حلقات "الثالوث" لايقاف شحنات الهيروويين الآتية من آسيا الى كندا عبر هولندا فمنيت بالاخفاق. لكن ذلك لم يمنعها من ان تحاول ثانية مستعينة بالعريف ماكيزاك. فكلما اتصل فيليب شانغ بفتاة ليزيـّن لها حسنات معاونته في عمليات التهريب أتى الشرطي متظاهراً أنه بائع مخدرات وأقنعها بما في الامر من خطر. وبدأ الصيني يقلق لأنه كان يود تنفيذ خطته قبل استنفاد ماله المتضائل.

وفـي أثنـاء اجتمـاع فـي مـركز الشرطة قال المفتش والي كوالتشوك (٣٨ سنة) المسؤول الثاني في قسم المخـدرات فـي شـرطة تورونـتـو: "حسناً. سوف نساعده قليلا."

وكان والي ابا صبوراً أسود الشعر يدأب على العدو الوئيد ويحتل موقع الاوسط فـي فريـق الهـوكي التـابع للشرطة الكندية. وهو قضى ١٢ سنة من سني خدمته التسع عشرة في ملاحقة المجرمين ومروجي المخدرات. وخطرت في باله الفكرة الآتية: اذا كان تسي يريد الاستعانة بنساء في عمليات التهريب التي ينفذها، فلماذا لا يكنّ شرطيات في الدائرة؟ وما الحائل دون ان يتعقبهن فريق من رجال التحـري لضمـان سلامـتهـن ومساعدتهن في القبض على المهربين

عندما يصل الهيروييين الى محطته الأخيرة؟ ستكون هذه الخطة باهظة الثمن وخطرة من دون شك لكنها تبدو جديرة بالتجربة.

أما اميل بوليو رئيس قسم المخدرات فخاف مغبة الأمر، لكنه أخيراً أقر الخطة قائلا: "يجب اجهاض العملية للحال اذا تعرضت الفتيات للخطر."

وسرعان ما اقترح اسم الشرطية جوانيتا بيريز (٢٦ سنة) لاداء المهمة. وهي فتاة هيفاء فاحمة الشعر جميلة الوجه حلوة العشرة يبلغ طولها نحو ١٦٠ سنتيمتراً. وقال لها والي: "اذا أديت المهمة فقد تزورين هونغ كونغ على نفقة تسي." فأجابت جوانيتا: "حسناً. فأنا لم أذهب الى الشرق من قبل."

وكانت جوانيتا خضعت لتدريبات خاصة تتعلق بأعمال المباحث وأمضت أربع سنوات في الشرطة السرية. وكثيراً ما تظاهرت بادمان المخدرات وبيعها لتحصل على دليل تقبض بموجبه على أحد تجار المخدرات.

وتسنى لها لقاء تسي في فندق هاربور كاسل هيلتون ليلة ٢ يناير (كانون الثاني). فقد جلست الى طاولة قريبة منه وجلس قربها أحد رجال المباحث. وأسبغ عليها ثوبها الاخضر الباهت رونقاً وجمالا وتدلى شعرها الاسود بنعومة على كتفيها. وأحس تسي أنها تتفحصه فأمال رأسه فوجدها تبتسم ابتسامة خفيفة، فأزاح عنها بصره ثم عاد ينظر اليها. ولم يبدر من جوانيتا ما يجعله يخفف اهتمامه بها. وأخيراً سألها: "هل لي أن أقدم لك فنجاناً من القهوة؟"

فقبلت ودعت تسي الى الجلوس قربها. وتحادثا بحرية تامة عن الحياة في هونغ كونغ. وزعمت جوانيتا أنها تشغل وظيفة سكرتيرة. وضحكا كثيراً أثناء الحديث واتضح ان جوانيتا بيريز راقت تسي فطلب مزيداً من القهوة ثم نظر اليها وقال: "ادعيني فيليب. فهذا الاسم أسهل عليك من اسمي الصيني."

ولمَّح فيليب الى أنه يحتاج الى امرأتين لتأدية "عمل خاص." فتجاهلت جوانيتا تلميحه. فأطرق وقال: "عمل خاص جداً." فرمقته جوانيتا قليلا ثم سألت: "ما نوع هذا العمل الخاص؟" فقال: "اني أتطلع الى فتاتين كنديتين لطيفتين وذكيتين لحمل بعض الاشياء."

— بعض الاشياء؟

"مخدرات."

في هذا اللقاء الاول لخص فيليب خطة العمل وقلما تجاوز صوته حد الهمس. وتقضي هذه الخطة باخفاء المخدرات (لم يذكر الهيروييين الا في ما بعد) في حقائب تتسلمها الفتاتان في منتجع بينانغ أو في سنغافورة أو ربما في هونغ كونغ. ولم يكن دقيقاً في كلامه. لكنه أضاف أن على الفتاتين التوجه الى هونغ أولا لتلقي التعليمات النهائية. وابتسم ابتسامة عريضة ثم قال: "ان أي شرطي يتعقب الفتاتين سيضيع في زحمة هونغ كونغ، وهي الى ذلك مكان مثير للسائحتين الكنديتين." فابتسمت جوانيتا قائلة: "أظنها كذلك وأظن أن الرحلة ستكون رائعة لمن يهمه

الأمر." وخيم الصمت عليهما ثم أجال فيليب طرفه في المكان فلم يجد أحداً على مسمع منه فسألها: "هل ترغبين في تولي هذه المهمة؟ أظن أنك تصلحين لأدائها وستجدين الحماية التي تريدينها."

وأضاف أن في الجمعية رجال تحر موزعين في كل مكان لمراقبة من يتعقب الفتاتين.

ثم أكد ما ذكره من قبل أن كَلا من الفتاتين ستحصل على نفقات الرحلة كلها وتنزل في افخم الفنادق. وسيدفع لكل منهما مبلغ ٥٠٠٠ دولار عند تسليم البضاعة في أوروبا.

فقالت جوانيتا: "قد أكون راغبة في ذلك لكنني لست واثقة بعد."

فقال فيليب: "سوف تحتاجين الى صديقة."

فأجابت: "يمكن تدبر هذا الأمر."

ورجعت الشرطية الى قسم المخدرات في دائرة الشرطة فأخبرت والي وارني أنه بات في امكانها تولي المهمة ان شاءت. وأضافت بجرأة مماثلة لجرأة فيليب عندما كشف لها عن خطته: "أود القيام برحلة الى الشرق، فقد سئمت شتاء كندا."

فقال والي كوالتشوك: "حسناً، ليكن ما تريدين."

فتاتا فيليب

بعد ثلاثة أيام التقت جوانيتا فيليب في مقهى فندق "هوليداي ان" وبصحبتها "صديقتها المطلقة" براندا جونز (٢٧ سنة). واستمعت براندا الى الخطة بتركيز شديد فبدت كأنها لم تسمع بها من قبل.

وكان والي وارني أسندا اليها دور سكرتيرة عاطلة عن العمل عمدت الى صرف شيكات زائفة مما أوقعها في متاعب قانونية. ومثلت دورها بمهارة كما فعلت جوانيتا. وكانت هي أيضاً أمضت سنوات عدة في العمل السري. وقد صادقت انواعاً مختلفة من الناس ومن بينهم مدمنو المخدرات والبغايا لمساعدة رجال التحري في القبض على تجار المخدرات. والى كونها اجتماعية النزعة وذكية فقد كانت تملك قدرة عجيبة على تشجيع الناس على الكلام.

وشرعت براندا تسرد "ملفها الاجرامي" فوجد فيليب عنصراً مسلياً في مراوغتها وفي الوميض العابث في عينيها البنيتين. وهو كان جالساً قبالة الامرأتين كأنما يحاول ان يتخيلهما سكرتيرتين في اجازة. وأخيراً قال: "انتما تصلحان لهذا العمل لانكما ذكيتان وهادئتان وجذابتان، والوظيفة من نصيبكما."

فظهرت براندا غير واثقة من قبول العرض لكنها قبلت بعدما حثتها جوانيتا على ذلك. فطرق فيليب الطاولة وقال: "من الآن فصاعداً ستُدعوان فتاتي فيليب."

وفي ما بعد التقت الفتاتان فيليب مرات عدة لتؤكدا له انهما ستنجزان العمل ببراعة فكان يقول: "من الافضل أن تفعلا ذلك اذ لا سبيل الآن لتحنثا بوعدكما."

وأحست جوانيتا بقشعريرة تسري في عمودها الفقري. فالعمل الذي ستؤديه ليس دوراً سينمائياً ويمكن أن تصاب بأذى كبير. وما لبثت ان

شجعت نفسها مكررة ما سمعته في مركز الشرطة: "لا تقلقي، فاننا لن نتخلى عنك."

وفي ١٢ يناير (كانون الثاني) أعطى فيليب فتاتيه بطاقتي سفرهما و٥٠٠ دولار لصرفها في أثناء الرحلة. وأبلغهما انه حجز لهما غرفة في فندق هيلتون في هونغ كونغ وأن عليهما الانطلاق من منتجع شلالات نياغارا في ولاية نيويورك الامريكية في ١٧ يناير (كانون الاول). ثم ابتسم مودعاً وأضاف: "خذا معكما بعض الثياب الشتوية، فقد تلزمكما."

وفي ١٥ يناير (كانون الاول) سبقهما الى هونغ كونغ فريق من رجال التحري قوامه ستة عناصر بقيادة كوالتشوك ووايت. وكانت مهمتهم اقتفاء أثر الشرطيتين ومساعدتهما في الاحتفاظ بمعنويات عالية والتغلب على الصعوبات المفاجئة التي تعترضهما. وقد توزع هؤلاء الرجال على فندق هيلتون والفنادق المجاورة له وانتحلوا شخصيات رجال أعمال كنديين ليتسنى لهم مقابلة جوانيتا وبرندا في المقاهي والمصاعد والمخازن على ألا تتكرر هذه اللقاءات الى حد يثير الريبة.

وكانت أولى مهمات والي طلب المساعدة السرية من شرطة هونغ كونغ ومن الشرطة المحلية في كل مدينة تستدعي عملية التهريب التوقف فيها. والى ذلك ينبغي توصية موظفي الجمارك بعدم اللجوء الى اعتقالات مبكرة في حال اكتشاف الهيرويين أثناء أعمال التفتيش العادية لأن خطة الشرطة الكندية تقضي بافساح المجال للبضاعة كي تبلغ غايتها المنشودة. فكلما قطعت مسافات أطول تورط مزيد من أعضاء الجمعية وتعرضوا للاعتقال.

وفي مساء ١٧ يناير (كانون الثاني) انطلقت جوانيتا وبرندا الى هونغ كونغ. وجلس في الجهة الخلفية من الطائرة زميلان لهما لمعرفة ما اذا كان فيليب بين ركابها، لكنهما لم يجدا له أثراً. وكانت الفتاتان تجلسان معاً قرب جناح الطائرة وتحدثان المسافرين حول هذه الرحلة التي طالما حلمتا بها. ولكن حين أقلعت الطائرة غمرت الكآبة برندا لتركها أمها وحيدة للعناية بأبيها المريض. أما جوانيتا ففكرت في خطيبها. فهل تراه ثانية؟ ومتى تراه؟

رحلات مكوكية

لزمت الفتاتان فندقهما في اليوم الاول بعد وصولهما الى هونغ كونغ. ثم عزمتا على الذهاب في نزهة بحرية قصيرة الى كاولون الواقعة في البر الصيني. وما ان وصل المركب المزدحم الى الرصيف حتى اندفع الركاب على الممر الخشبي ومضت الفتاتان وسط الزحام فأضاعهما رجال التحري.

وما لبثوا ان وجدوهما قرب الرصيف تتأملان واجهة أحد محلات المجوهرات. وأكد لهما ما حدث ان عليهما في التصرف كسائحات بالنسبة الى فيليب وفي الوقت نفسه تحاشي اثارة الصعوبات لرجال التحري الذين يراقبونهما.

وفي ٢٠ يناير (كانون الثاني) اتصل بهما فيليب وقال انه وصل من تورونتو، ثم فاجأهما في الفندق ودعاهما الى السهر في أحد الملاهي.

فرفضت برندا بلباقة وقالت: "ليس هذا من شروط العمل."

وبقي فيليب ساعة فروى لهما بعض الحكايات ومازحهما وأخبرهما أنهما ستتسلمان الهيروييين في بينانغ، وسوف تغادران هونغ كونغ الى هنالك في ٢٢ يناير (كانون الثاني) وتنزلان عند وصولهما في فندق "رازا سايانغ".

وفي يوم الرحيل طلب منهما موافاته الى مطعم في الثامنة والنصف مساء، غير انه اتصل بهما قبل مغادرتهما الغرفة واعتذر عن لقائهما. وتبين لرجال التحري أنه كان وصل قبل الموعد المحدد بخمس واربعين دقيقة فشرب فنجاناً من الشاي ثم انصرف.

وازداد قلقهما عندما اتصل فيليب مرة ثالثة وهو يقول: "ان رجال الشرطة يضايقونني، فهم يظنونني نشالا." واخبرهما في ما بعد أن تنفيذ الخطة سيتأخر بعض الوقت مما يعني أنهما لن تذهبا الى بينانغ قبل الرابع والعشرين من يناير (كانون الثاني). وخشي والي اذا تأخرت الرحلة ان ينكشف أمر معاونيه الذين كانوا يتناوبون العمل على حماية زميلتيهما.

واتقاء لمراقبة الشرطة أمر فيليب الفتاتين بحزم أمتعتهما والذهاب في سيارة أجرة الى مطار "كاي تاك" في في الجهة الثانية من المدينة ثم مغادرة المطار في سيارة أخرى والنزول في فندق "شيراتون"، فاتبعتا تعليماته بدقة. وبقي فيليب متوارياً لكنه كان يتصل بهما كل يوم مرات عدة ليتأكد من التزامهما الوظيفة.

وظلتا تتصرفان على أساس انهما سائحتان خاليتا البال، غير أن كلا منهما بدأت تضيق بصاحبتها في غرفتهما الصغيرة. فقد باتت أعصابهما منهكة بسبب قلقهما من خطوات فيليب المقبلة. ولم تستطيعا التباحث في الأمر خوفاً من ان يكون أحد رجال العصابة يسترق اليهما السمع. وسألت كل منهما نفسها: ماذا يحدث اذا اخفقنا في مهمتنا أو تعرضنا لخطر مفاجىء؟ وكانتا تنزلان أحياناً الى ردهة الفندق لتتأكدا من أن حماية الشرطة الكندية لا تزال قائمة.

وأخيراً أبلغهما فيليب أنهما ستغادران الى بينانغ في ٢٦ يناير (كانون الثاني) وأنه سيوافيهما الى هناك بعد بضعة أيام. ولم يتأخر موعد سفرهما هذه المرة فتنفس الفريق المساند لهما الصعداء.

ووصلت جوانيتا وبرندا ذلك المساء الى فندق "رازا سايانغ" الفخم المطل على الشاطىء. وكان والي كوالتشوك سبقهما الى الفندق نفسه.

وقضت الفتاتان معظم اليوم التالي مستلقيتين قرب بركة السباحة. وعند الظهر غطست جوانيتا في الماء. وفيما كانت تسبح على ظهرها برز فيليب فجأة فأجفلت وسألته: "ماذا تفعل هنا؟" فقال: "لنذهب ونتحادث

خارج الماء، فاني أريدكما أن تلتقيا أحد الاشخاص."

وكان العضو الثاني في العصابة وصل قبل خروجهما من البركة، فلما رآهما مد يده مصافحاً وقال: "اسمي بول." والواقع أن اسمه الحقيقي هو كو تشي كيونغ. وهو شاب في الحادية والعشرين ناحل رياضي يرتدي سروالا قصيراً للسباحة. وكان رجال التحري متمددين في الشمس يراقبون الاربعة الذين جعلوا يناقشون المرحلة المقبلة في عملية التهريب.

وبدا واضحاً من التعابير الظاهرة على وجهي المهربين أنهما كانا يصدران أوامر جديدة. وأبلغا الفتاتين أن عليهما نقل الهيروويين جواً الى زوريخ في سويسرا. وعندما تصلان الى هناك تتدبران أمر الحجز في أحد الفنادق. وأضاف فيليب: "لا تقلقا، فاذا احتجتما الى اي مساعدة، فستكون متوافرة." وبعد وصولهما الى زوريخ عليهما الذهاب في اليوم التالي بقطار ليلي الى باريس والنزول في فندق "سوفرين لاتور."

واستأذن الرجلان الفتاتين في الذهاب وقال بول: "احتفظا برباطة جأشكما وسوف تتسلمان البضاعة هذه الليلة."

لحظات الجزع

مضت الليلة من دون ان تتسلما شيئاً. فظهر لهما أن كلام بول كان وسيلة لامتحان قدرتهما على الاحتمال والتحقق من (امكان) مراقبة الشرطة لهما.

وفي اليوم التالي ذهبت جوانيتا وبرندا برفقة والي وارني في رحلة بحرية تبعها عشاء ونزهة على الشاطىء. وعلى رغم هذا الجو الشاعري فقد بدت برندا كئيبة وقالت والدمع يترقرق في عينيها: "أتعرفون مقدار ما نجنيه على هذين الشابين؟ أتعلمون أننا سندفنهم ١٥ سنة؟ ولا أظن أنهما يستحقان هذا كله."

فقال والي: "فكري في الأمر ثانية." والحق ان سحر فيليب وتهذيبه لا يشفعان له لأن الهيروويين الذي يهربه له تأثير مدمر على كثير من الناس.

وفي صباح الرابع من فبراير (شباط) اتصل فيليب وقال: "لاقياني الى الردهة في الثالثة بعد الظهر اذ ينبغي مغادرة الفندق لتتسلما البضاعة لأن نقلها الى هنا محفوف بالخطر." وفي الردهة رأى رجال التحري فيليب يرشد الفتاتين الى احدى سيارات الأجرة ويركب بعدهما. وبعد ثوان قليلة انطلقت السيارة شمالا في محاذاة الشاطىء.

وتبعهم رجال التحري في سيارة أخرى. وقال أحد زملاء والي محذراً اياه: "لا تدعهم يسبقوننا كثيراً لئلا نضيعهم."

وما لبثت سيارة فيليب أن اندفعت بسرعة وسط الزحام وتوارت عن الانظار. ولم يستطع والي اللحاق بها. وفكر في الفتاتين وقد اقتيدتا الى قرية بعيدة لتتسلما البضاعة كما فكر في مطاردة السيارة في الأحياء المحلية. غير أنه ما لبث أن تخلى عن الفكرة الثانية لأن تحقيقها قد ينسف خطته بكاملها.

وبعد دقائق خفق قلبه اذ أبصر السيارة ترجع من حيث ذهبت فاستدار بسيارته ليسرع في أثرها، ودهش لرؤيتها تقف أمام فندق "بالم بيتش" الملاصق لفندق "رازا سايانغ." ونقلت الفتاتان أمتعتهما الى الغرفة ٤٢٧ في الفندق الجديد.

وشعرت جوانيتا وبرندا بالارتياح لعودتهما الى المنطقة السياحية لكنهما خشيتا أن تنجح خطة فيليب المفاجئة في تبديل الفندق. فهل يمكن أن يكون زملاؤهما قد أضاعوهما؟ ومع حلول الظلام تمددت برندا على سريرها وهي تحدق الى سقف الغرفة وقالت في نفسها: ماذا يحدث اذا بقينا وحدنا؟

وتبددت مخاوفها بعيد العاشرة ليلا اذ انبعث من الممر الخارجي صفير يرنم أغنية "مغيب الشمس في كندا" وهي احدى اغنيات ارني وايت المفضلة. وبدأ الصوت يعلو ثم أخذ يخف الى أن اختفى بانغلاق أحد الابواب على نحو مفاجىء. فحمدت الفتاتان الله وجعلتا تضحكان.

وبات رجال التحري في وضع يمكنهم من مراقبة عملية تسليم الهيرويين. وأعد والي كوالشتوك العدة ليطير الى أمستردام ويعلم الشرطة الاوروبية وموظفي الجمارك بأن البضاعة ستنطلق في وقت قريب.

الرجل الثالث

في وقت متقدم من بعد ظهر الخامس من فبراير (شباط) دخل فيليب غرفة فتاتيه وهو بادي القلق. ثم أعطاهما ٣٠٠ دولار وقال: "يجب ان تنتقلا الى مكان آخر لتسلم الهيرويين." وأضاف أن المخدر وضع في ثلاث حقائب موجودة في أحد فنادق الحي الصيني في بينانغ.

وللحال تخيلت جوانيتا وبرندا المشكلات التي يولدها هذا الانتقال لزملائهما. فقالت جوانيتا باصرار شديد: "لن نذهب ابداً الى فندق يعج بالبراغيث. تذكر انك وعدتنا بالنزول في فنادق جيدة، ثم انه يفترض ان نكون سكرتيرتين في عطلة."

واضافت برندا: "هذا صحيح، ويجب ان نبقى مع السياح كما تقولين."

فوقف فيليب واخذ ينظر من النافذة ثم قال: "حسناً، سنبحث عن طريقة أخرى." وغادر الغرفة ليعود بعد دقائق ويقول: "رئيسي لا يرى ضرورة في انتقالكما الى مكان آخر وسنحضر البضاعة الى هنا."

وفي السادس من فبراير (شباط) وصل فيليب الى فندق بالم بيتش في الثامنة والنصف صباحاً لكنه بقي نحو ١٥ دقيقة في سيارته ينتظر بول ورجلا صينياً آخر يتولى قيادة السيارة. وحمل هو وبول حقيبتين بنيتين متماثلتين الى الغرفة ٤٢٧. وفتحت جوانيتا الباب فدخلا مسرعين. ووضع فيليب الحقيبتين الى الحائط قرب باب الحمام وقال مخاطباً برندا: "انهما لك وعليك البدء بحزم أمتعتك الشخصية."

ثم نظر الى جوانيتا وقال: "ليس لك سوى حقيبة واحدة وسوف تتسلمينها في ما بعد." وأخذ الرجل الحقيبتين اللتين جلبتهما الفتاتان من تورونتو وذهب في سبيله.

ورأى ارني وايت ما جرى من خلال منظار في الغرفة المقابلة. وحين التقى الشرطيتين الى العشاء كرر لهما القول: "ان الامور تسير على ما يرام ولا تجزعا أياً يكن السبب."

وفي تلك الليلة أتى فيليب الى الفندق وهو يرتدي بذلة بيضاء أنيقة وطلب من جوانيتا مرافقته الى سيارته. وكان على المقعد الأمامي حقيبة بنية اخرى فأعطاها جوانيتا لتأخذها الى الغرفة. وباتت شحنة الهيروبيين كلها (ستة كيلوغرامات) في حيازة فتاتيه. وقد وضع الهيروبيين في أكياس من البلاستيك ووزعها على الحقائب الثلاث بالتساوي.

وكان فنيو الجمعية عمدوا الى فك الاجزاء الداخلية للحقائب لتثبيت الأكياس خلف البطانات. وبعدما اطمأن فيليب الى سير الأمور تأهب للذهاب قائلا: "لا تنسيا ان عليكما التصرف على نحو طبيعي، وتذكرا أنكما سائحتان."

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي اتصل ليتأكد من انهما لم تهربا، وقال بصوت هادىء: "هل انتما على استعداد للرحيل؟ حسناً. أراكما اذاً في باريس في مقهى فندق هيلتون حيث أكون في انتظاركما لدى وصولكما في العاشرة والنصف صباحاً."

وفي الخامسة بعد الظهر ذهبت الشرطيتان الى مطار بينانغ لتركبا طائرة للخطوط الجوية الماليزية الى سنغافورة ومن ثم تأخذان طائرة اخرى الى زوريخ. وتبعهما الى المطار اثنان من رجال التحري الكنديين. وشاهد الرجلان في مقهى المطار عضواً ثالثاً في الجمعية هو تسانغ شينغ واه.

وكان تسانغ ذكياً ومهذباً كشركائه. وفي الطائرة جلس أمام الفتاتين واخذ يقرأ ويشرب الشاي. وجلس خلفهما مباشرة إرني وايت وزملاؤه.

البضاعة الحقيقية

هبطت الطائرة في الثامنة صباحاً بتوقيت زوريخ وانتظر تسانغ حتى اخذت الفتاتان أمتعتهما من العربة وتبعهما مضطرباً الى مركز الجمارك ومن ثم الى المحطة حيث كانت تنتظرهما احدى سيارات الأجرة. وفوجئت جوانيتا وبرندا بأن سائق السيارة هو من رجال التحري. وقد نبههما الى ذلك بواسطة رمز سري. فلئن يكن فيليب اعطى فتاتيه حرية التصرف في أثناء اقامتهما القصيرة في زوريخ، فقد قرر والي ان يجعل هذه الاقامة مجدية للشرطة.

لبس التحري قبعته السوداء وأشار الى الفتاتين بالصعود الى السيارة ثم وضع الحقائب في صندوقها وانطلق. وقبل ان يمضي الى المدينة على الطريق الرئيسية دار مرات عدة حول منطقة تجارية قرب المطار "ليطهر الطريق" على حد تعبير رجال الشرطة. وكانت الشرطة السويسرية احيطت علماً بالخطة ووضعت عوائق في الطريق بحيث تيسر مرور هذه السيارة وتؤخر مرور السيارات الأخرى. وفي التاسعة الا ربعاً وصلت

جوانيتا وبرندا الى فندق زوريخ وقد تخلصتا من تسانغ وسواه من متعقبيهما كما تخلصتا من اتصالات فيليب واوامره الغريبة للمرة الاولى منذ ثلاثة اسابيع.

وأحس زملاؤهما أيضاً براحة موقتة. وفيما ذهبت جوانيتا وبرندا في رحلة الى الجبال السويسرية وجد إرني وايت الفرصة سانحة لفحص البضاعة والتأكد من حقيقتها. فهل هي فعلا من الهيرويين أم هي بديل من الطحين أو مسحوق التالكوم لجأت اليه العصابة على سبيل التجربة؟ ودخل غرفة الفتاتين هو والعريف ارت ماك غوير في حين بقي عدد من معاونيه خارجها للمراقبة. ووضع ارت الحقائب على المنضدة فيما فتح إرني محفظته وأخرج منها قنينة تحوي مادة المركيز التي تستخدمها شرطة مكافحة المخدرات في العالم كله. وهذه المادة هي مزيج من احماض عدة يغلب عليها حامض الكبريت. وتكفي حبة او اثنتين من الهيرويين لجعل هذا السائل أرجواني اللون.

وأخذ ارت من المحفظة ابرة فغرزها في بطانة الحقيبة الاولى حتى خرقت احد أكياس البلاستيك ونفذت الى المسحوق الناعم. وعلق بالابرة كمية قليلة جداً من المسحوق لكنها كانت كافية لتغيير لون السائل في بضع ثوان.

وفحص الرجلان الحقيبتين الأخريين فوجدا فيهما كمية كبيرة من الهيرويين يمكن بيعها بملايين الدولارات اذا خلطت بالكافيين او الكينين.

وفي اليوم التالي في ٩ فبراير (شباط) عادت جوانيتا وبرندا الى العمل اذ كان عليهما وفاقاً للخطة المرسومة الذهاب الى باريس بالقطار الليلي. وسبقهما رجال التحري الى المحطة حيث كان تسانغ شينغ واه في انتظارهما ليساعدهما في حمل الحقائب. وجلس تسانغ في مقصورة قريبة من مقصورتهما كما جلس بالقرب منهما ايضاً اثنان من الشرطة الكندية. أما رجال الشرطة الآخرون فجلسوا في مقطورات قريبة.

وبينما كان القطار يهتز وسط الظلام اعترى الشرطيتين حنين الى الوطن. وتمنت برندا لو تستطيع الاتصال ببيتها لتطمئن الى صحة أبيها. وشرعت جوانيتا تفكر في خطيبها. غير ان الاتصال بكندا كان مستحيلا. وفيما أخذت الرحلة في الانقضاء من دون ان تستطيع الفتاتان التناقش في مهمتهما انتابهما القلق وخطر لهما السؤالان الآتيان: ألا يزال اعضاء الجمعية يثقون بنا؟ وما الخطوات المقبلة التي سيأمرنا فيليب بتنفيذها؟

وتوقف القطار في باريس في محطة الشرق في السابعة صباحاً يوم العاشر من فبراير (شباط). وأخذ والي كوالتشوك وبعض رجال التحري الفرنسيين يراقبون تسانغ عن كثب. واسرع تسانغ في مغادرة القطار وذهب الى كشك قريب حيث وقف متظاهراً بالنظر الى البطاقات البريدية. وعند مرور الفتاتين قال لهما هامساً: "اتركا الحقائب في المحطة واذهبا الى الفندق."

فنفذت جوانيتا وبرندا الأمر. ثم ذهبتا للقاء فيليب في مقهى قريب. وبعد دقائق وصل تسانغ وهو يبتسم راضياً. وعلى مقربة منهم جلس رجال التحري الكنديون يشربون القهوة برضا مماثل. وقال فيليب للفتاتين: "سوف تمكثان هنا أربعة أيام او خمسة ثم تنتقلان الى بلدة صغيرة قرب أمستردام."

وامرهما باسترداد الحقائب من محطة الشرق وعدم مغادرة غرفتهما يومياً بين العاشرة والحادية عشرة صباحاً لأنتظار مكالماته الهاتفية. وطلب منهما الاطلاع على مواعيد رحلات سيارات النقل بين باريس ولاهاي وروتردام وامستردام. وبعد تنفيذ هذه الأوامر قضت الفتاتان اليومين التاليين في التجول في أنحاء باريس. أما الفريق التابع للشرطة الكندية فكان على أهبة الاستعداد للانتقال الى أي مكان.

ضياع الأثر

في ١٣ فبراير (شباط) اتصل فيليب بالفتاتين ودعاهما الى ملاقاته في مقهى فندق هيلتون في الخامسة بعد الظهر. وعند وصولهما في الموعد المحدد اصطحبهما الى مقهى خافت الأضواء في الفندق نفسه وجلس معهما في احدى الزوايا. وسحب من جيب سترته عشرة آلاف دولار كندي وقال: "هذا لكما ولكن لن اعطيكما اياه الآن." ثم اعاد المال الى جيبه.

وأخبرهما فيليب ان عضواً رابعاً في العصابة يريد رؤيتهما ليستطيع التعرف اليهما في ما بعد. وغادر الثلاثة المقهى وذهبوا في نزهة الى برج ايفل. وفي اثناء ذلك اعلن فيليب للمرة الاولى ان المحطة الاخيرة هي روتردام وانهما ستذهبان الى هناك في قطارين منفصلين اذ "ان على المرء الا يجازف بكل ما يملكه دفعة واحدة."

وتقضي الخطة بأن تغادر برندا أولا ومعها حقيبتان فيلاقيها تسانغ في محطة روتردام ويقودها الى حيث تنتظرها سيارة مفتوحة الصندوق. وعليها ان تضع الحقيبتين في الصندوق وتقفله ثم تذهب الى فندق هيلتون وتحجز فيه غرفة. وسيكون بول ايضاً هناك لمساعدتها. وظهر اليوم التالي تتسلم أمتعتها الشخصية ويصبح في امكانها العودة الى باريس للحصول على حصتها من الدولارات. وبدا الأمر سهلا. غير انه بات عليها ان تسرع في ذهابها اذ كانت الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر ويجب وصولها الى المحطة قبل السابعة الا ربعاً كي لا يفوتها القطار.

ورأى رجال الشرطة الكندية برندا وهي تعدو راجعة الى فندق "سوفرين لاتور" لتحزم أمتعتها فتبعها أربعة منهم توزعوا في سيارتين.

وركب في احدى السيارتين والي كوالشتوك وجورج هنري (٢٦ سنة). وكان جورج شرطياً قصير القامة مكتنزاً لطيفاً برع قديماً في لعبة كرة القدم. وفي محطة الشمال أسرع رجال التحري الى الرصيف لاهثين متأخرين عن برندا ومراقبها الجديد لي تانغ مينغ بضع دقائق فقط. ثم توجهوا

الى باب الحافلة التي فيها برندا وتانغ. لكن والي شك في ان يكون تانغ رآه من قبل فركب هو وجورج حافلة أخرى.

وجلس لي تانغ مينغ في مقصورة أمام مقصورة برندا وجلس الشرطيان وراءها. اما حقيبتا الهيروييين فوضعتا على رف فوق مقعد برندا. وما ان وصل القطار الى بروكسيل في بلجيكا حتى توقفت احدى السيارات خارج المحطة لتنقل الفتاة. ولم يكن الشرطيان تحسبا لذلك فأضاعا السيارة.

وعلى رغم هذه الانتكاسة ظلت الخطة تسير في طريقها الصحيح. فقد كان إرني وايت اتصل بقسم مكافحة المخدرات في شرطة روتردام وأعلم المسؤولين هناك بأن حقيبتي الهيروييين هما في طريقهما المرسوم وان والي وجورج سيحتاجان الى مساعدة.

وبات عليه الآن معرفة الجهة التي يزمع فيليب إرسال الحقيبة الثالثة اليها. غير انه لم يكن يملك اي اشارة الى ذلك.

وعند وصول القطار نحو التاسعة مساء الى بروكسيل حيث تستقل برندا ومرافقوها قطاراً آخر الى روتردام، وصل فيليب فجأة الى غرفة جوانيتا في باريس وطلب منها حزم امتعتها بسرعة. ثم اخذها في السيارة الى محطة الشمال حيث اخضعت حقيبتها للتفتيش.

وبعد ذلك اصطحبها لتناول العشاء في مطعم صيني حيث اجرى اتصالا هاتفياً ورجع ليكشف لها عن الخطوة الآتية القاضية بمغادرتها باريس بقطار الحادية عشرة والربع. إلا ان عليها ان تمضي ليلة في بروكسيل في فندق شيراتون قبل التوجه الى روتردام. وسوف يتصل بها فيليب في المساء الباكر ليحدد لها الوقت الملائم لاستئناف الرحلة الى هولندا.

وفي هذه الأثناء ركب والي وجورج القطار الاول الى هولندا بعدما لمحا لي يتمشى على الرصيف ليتأكد من متابعة برندا رحلتها الى روتردام. وفي بروكسيل ايضاً صعد الى القطار اثنان من رجال التحري الهولنديين. والتقى الشرطيون الأبعة في مطعم الحافلة ووضعوا خطة لاعتقال المهربين تقضي بأن يقبض احدهم على لي ويقبض آخر على بول ويقبض ثالث على تسانغ. اما الشرطي الرابع فيعتقل سائق السيارة المنتظرة في روتردام. واتفقوا على أنه يستحسن اتمام الاعتقال تلك الليلة. لكن الامر يبقى متوقفاً على ما يجري في باريس.

القاء الشبكة

في العاشرة والربع مساء. أوصل فيليب جوانيتا الى محطة الشمال وفي اثره سيارة للشرطة تحمل لوحة مدنية. وفي المحطة اشترت الفتاة بطاقة السفر واستعادت حقيبتها. ووقف على بعد عشرة أمتار منها أربعة من رجال الشرطة الكندية فيما توزع خمسة من شرطة باريس في أماكن أخرى من المحطة.

وفي العاشرة والدقيقة الاربعين وصل إرني وايت وهو لا يزال يجهل



محطة جوانيتا الجديدة. وكان عليه ان يعلم ذلك قريباً. وظهر على المسرح مراقبان جديدان من أصحاب فيليب هما فونغ فوك وينغ وشانغ وينغ وو. وكثيراً ما كان هذان الرجلان يشاهدان مع فيليب وتسانغ في مقهى فندق هيلتون. وكان كل منهما يضع يديه في جيبي معطفه ويقف بعيداً عن صاحبه مسافة ١٥ متراً للايهام بأنهما لا يعرفان احدهما الآخر. وبين حين وحين كان كل منهما يلقي نظرة الى ساعة المحطة ونظرة أخرى الى جوانيتا. وكانت المحطة مزدحمة والقطارات تمتلىء والوقت ينقضي بسرعة.

وبات من الملح ان يعلم رجال الشرطة الى أين تذهب جوانيتا ومن يجب ان يرافقها منهم. ولم يكن اقل أهمية ان تبقى جوانيتا على مرأى من هؤلاء وهي نفسها تعرف ذلك.

وفي العاشرة والدقيقة الثالثةوالاربعين دخلت جوانيتا حمام السيدات. وبعد دقيقة او اثنتين دخل المكان نفسه "خطأ" احد رجال الشرطة من دون ان يتنبه له المراقبان الصينيان. وكانت الثواني التي يحتاج اليها لتصحيح "غلطته" كافية.

وهمست له جوانيتا بصوت مبحوح: "بروكسيل! لدي بطاقة الى بروكسيل! ويريدني ان أبيت هناك!"

فوعدها قائلا: "لا بأس، نحن معك."

وبلغت هذه المعلومات إرني وايت



فعقد اجتماعاً فورياً مع اثنين من رجال المباحث الاوروبية تحت الساعة الضخمة. واشارت الساعة الى العاشرة والدقيقة الخمسين فقال إرني: "لماذا ننتظر؟ ففي امكاننا اعتقال المراقبين الصينيين وفيليب هذه الليلة قبل ذهابهم الى بروكسيل." فوافقاه قائلين: "حسناً، ليكن ذلك الآن."

وباشارة من الرجل الكندي بدأت شبكة من ١٢ رجلا تتحرك من زوايا المحطة جميعاً وحملت جوانيتا حقيبتها وتوجهت الى الرصيف. واخذ فونغ وشانغ يراقبانها عن كثب وقد فاتهما ملاحظة الحلقة التي احكمت الطوق عليهما. وتقدم المفتش ألان بواديه من مكتب باريس لمكافحة المخدرات ووقف بينهما فيما اقترب معاونوه لمباغتتهما.

وقال المفتش بواديه بهدوء: "لا تتحركا فأنتما موقوفان." وانجزت المهمة من دون ان يشهر احد سلاحه اذ كان عنصر المفاجأة كافياً لشل حركة الصينيين والتمكن من تكبيلهما بالأغلال والانطلاق بهما الى السجن. وكان هذا العنصر كافياً أيضاً للقبض على فيليب عندما اقتحم غرفته ثلاثة من رجال التحري.

وأصبحت الساعة الآن الحادية عشرة والدقيقة السادسة مساء وهذا هو وقت وصول قطار برندا الى محطة روتردام حيث ينتظر تسانغ وبول.

رافق تسانغ برندا الى مخرج المحطة الخلفي خلافاً لما هو متوقع. وهاله ألا يجد في انتظاره سيارة مفتوحة الصندوق فأخذ يذرع الرصيف مضطرباً ثم غمغم: "أين هي؟ أين تلك السيارة اللعينة؟"

فلاذت برندا بالصمت ولمحت والي يحوم حول موقف سيارات الأجرة. وبعد دقائق ظهر بول ولي. وكان بول يحمل حقيبة مماثلة لحقيبتي برندا وقال مخاطباً تسانغ: "لنركب احدى سيارات الصف الأمامي." فرد تسانغ بحدة: "كلا، فهذا مخالف للخطة." فقال: "افعل ما بدا لك."

وأوقف بول سيارة أجرة وصعد اليها هو ولي. وما كادت السيارة ان تتقدم قليلا حتى أوقفتها الشرطة الهولندية واعتقلتهما. أما كوالتشوك وهنري فبقيا لتولي شأن تسانغ وحقيبتيه وبقي معهما رجال من الشرطة الهولندية.

وظل تسانغ يذرع الارض ويغمغم واخيراً توجه الى برندا وقال بصوت مفعم باليأس: "اذهبي الى فندق هيلتون وسأراك في ما بعد."

ما الخطب؟

اما بالنسبة الى رجال التحري فكانت الحال على خير ما يرام. فقد تلقى والي مخابرة هاتفية من باريس وعلم بما حصل هناك. وقريباً سيعلم تسانغ ايضاً بذلك. وبات ضرورياً اعتقال تسانغ بعد دقائق. غير ان قانون المخدرات في هولندا يمنع هذا الاجراء ما لم يعثر على الهيرويين في حيازته.

ووصلت برندا الى فندق هيلتون روتردام في الحادية عشرة والنصف ليلا. وقبل ان تجد وقتاً كافياً لتمشيط شعرها اتصل بها تسانغ وقال بنبرة محمومة: "ان في الخطة خللا، فأنا لم استطع الاتصال بأحد." واخبرها انه لم يحظَ بفيليب واعوانه في باريس ولم يجد لي وبول في روتردام. واستنتجت برندا من صوته المتعب انه بات وحيداً فعزمت على الضغط عليه وقالت معترضة: "تعالَ الى هنا الآن! فاذا كنتم وقعتم في ورطة فأنا أريد الخروج منها ولا أود ان تشاهد البضاعة في حوزتي ايا يكن السبب. فتعال خذها والا ذهبت في سبيلي."

وفي الثانية عشرة والربع بعد الظهر أنزلت برندا حقيبتي الهيرويين الى ردهة الفندق وانتظرت هناك. وبعد سبع دقائق اندفع تسانغ من الباب الدوار. وعندما لمحها حدق اليها كالمسعور وسألها: "ماذا تفعلين بهاتين الحقيبتين ها هنا؟ ارجعي بهما الى غرفتك." وكان وجهه مصفراً من الخوف وغدا شخصاً مختلفاً عن الشاب الدمث الذي مد لفتاتي فيليب يد المساعدة في زوريخ. فقالت برندا بتحد: "لن آخذهما الى أي مكان آخر. خذهما أنت."

فأخذ تسانغ الحقيبتين وخرج غاضباً. ثم صعد بهما الى سيارة كانت في انتظاره وأومأ الى برندا لتأتي معه. فترددت قليلا كي تمنح رجال التحري وقتاً كافياً للتأهب. وعندما شعرت انهم أصبحوا على استعداد تام اندفعت الى الخارج من الباب الدوار وصعدت بصرها في

تسانغ ثم رجعت الى الردهة. فصرخ تسانغ: "اذهبي الى الجحيم!" وأمر السائق بالانطلاق.

وما كادت السيارة ان تتقدم قليلا حتى اعترضتها سيارة للشرطة بلوحة مدنية وأجبرتها على الوقوف. ونزل اربعة من رجال التحري الهولنديين وفتحوا سيارة تسانغ وجروه الى خارجها فشرع ينظر اليهم يائساً وهم يأخذون الحقيبتين من المقعد الخلفي. وما لبثوا ان قبضوا عليه.

واتصل والي كوالتشوك بزملائه في تورونتو وقال ببساطة: "اعتقلنا ستة رجال والفتاتان في أحسن حال." اما برندا التي خالجها احساس مزدوج بالراحة والتعب فاتصلت بزميلتها جوانيتا في باريس وسألتها وقد اغرورقت عيناها بالدموع: "ألست سعيدة لانتهاء المهمة؟" فأجابتها جوانيتا: "بلى، والحمد لله ان في وسعنا الآن الرجوع الى وطننا."

وفي ١٥ فبراير (شباط) اجتمع فريق الشرطة الكندية الى زميلتيه في باريس. والحق ان هذه العملية اظهرت براعة فائقة في التخطيط والتنفيذ وأدت الى نتائج باهرة اذ اسفرت عن اعتقال ستة مهربين ومصادرة ستة كيلوغرامات من الهيرويين يبلغ ثمنها عشرين مليون دولار.

ولم يصدق تسي وو كونغ المعروف بأسم فيليب شانغ ان فتاتيه هما شرطيتان. وعندما جاءتا تزورانه في زنزانته بقي معهما برهة ثم قفل راجعاً.

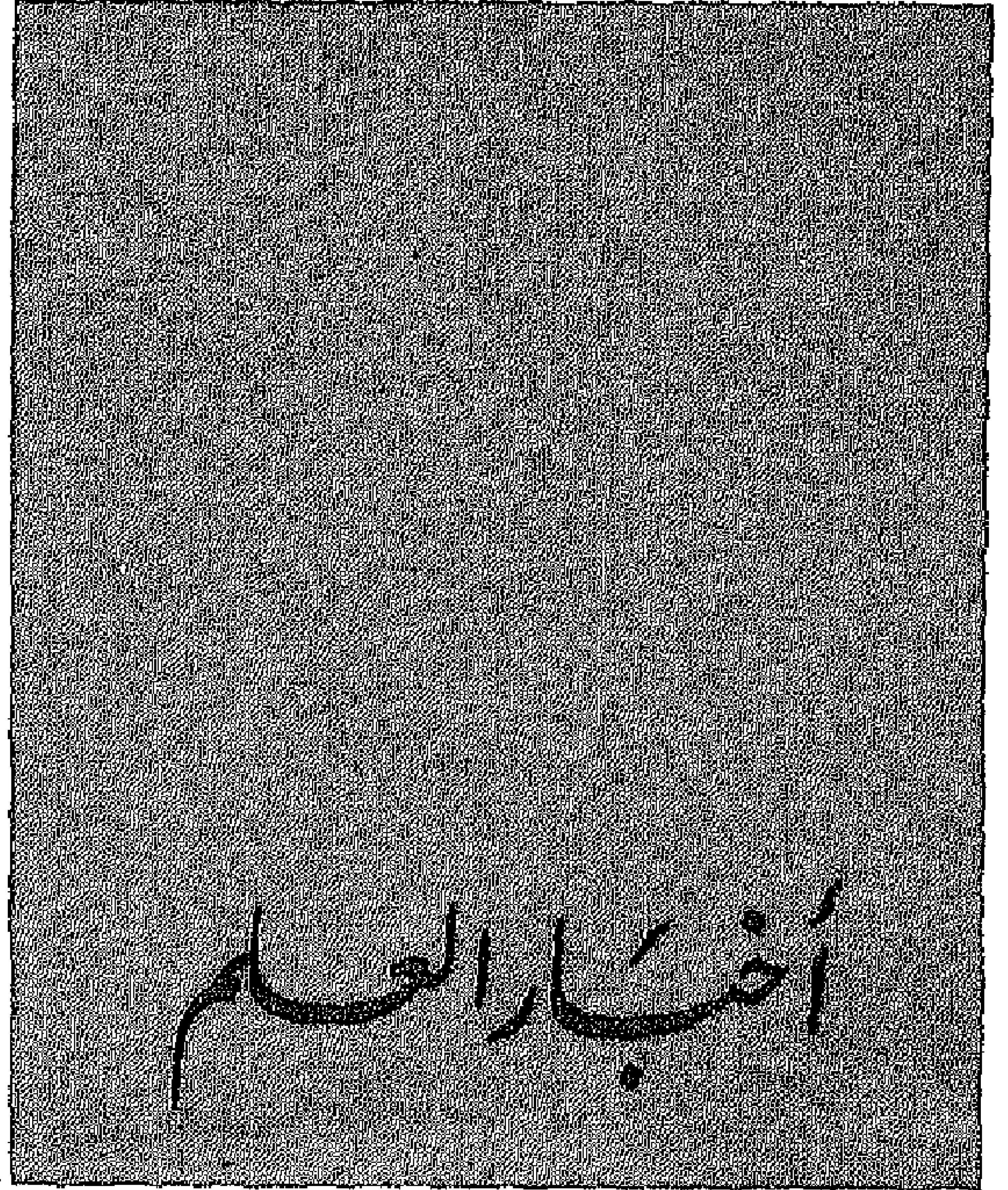
وفي مؤتمر صحافي عقد في تورونتو قال الرقيب دونالد هيتون رئيس قسم المخدرات ان بعض الذين اعتقلوا "بلغوا مرتبة عالية في حلقة للتهريب تنطلق من الشرق." وانهال المديح على الشرطة الكندية من أنحاء العالم. وقد وصفت الشرطة الجنائية الدولية (الانتربول) هذه العملية التي بلغت كلفتها مئة الف دولار بأنها "نصر كبير." وخلصت صحيفة "غارديا دي فيننتسا" الايطالية الى القول ان هذه العملية "أصابت احد أهم مصادر الهيرويين في العالم اصابة قاتلة."

وفي ١٨ فبراير (شباط) عادت جوانيتا بيريز وبرندا جونز الى تورونتو. وبعد بضعة ايام رجعتا الى مزاولة عملهما الامني المحفوف بالخطر.

ودانت احدى المحاكم الفرنسية المهربين الستة بالتآمر بقصد استيراد الهيرويين وتصديره الى هولندا. وقد حكم على كل من تسي وو كونغ وشانغ وينغ وو وكو شي كيونغ بالسجن عشر سنين وعلى كل من فونغ فوك وينغ وتسانغ شينغ واه بالسجن ست سنوات. أما لي تانغ مينغ الذي أبعد من هولندا الى بريطانيا فقد حكم عليه غياباً بالسجن ثماني سنوات.

■ ادريان والر

على رغم أن اللسان البشري خفيف الوزن، فمن العجب أن يقوى بعض الناس على حمله.
و.١٠و.



المظاهر والباطن

بعد ابتكار وسائل لتحليل الصور التي التقطتها المركبات الفضائية لكوكبي الزهرة والمريخ، بات في وسع العلماء التمييز بين الاصلي والمزيف من الاعمال الفنية.

وقد أجري الاختبار على لوحة زيتية تعود الى القرن السابع عشر، رسمها فنان فلمنكي مجهول وأعطيت اسم "الصلب". وعلى أثر تصوير اللوحة بالاشعة، تبين أن القماش يحمل صورة مزدوجة، وان الصورة المحجوبة هي لرجل وامرأة يجلسان الى طاولة.

وهذه التقنية قد تؤدي الى كشف التحف الفنية المستوردة. أما سبب استخدام قطعة القماش الواحدة لرسم لوحتين فيظن أنه عجز الفنان عن شراء قطعة ثانية للتعبير عن أفكاره اللاحقة. وليس غريباً أن تخبيء احدى لوحات بيكاسو ثلاث لوحات اخرى تحت اللوحة الباقية.

صحيفة "نيويورك تايمس"

الورقة الالكترونية

يحاول الانسان تقليد الطريقة التي تعتمدها الاوراق الخضراء لحل الماء الى عنصريه الهيدروجين والاوكسيجين. والنبات يلجأ الى هذه الطريقة ليحول ثاني اوكسيد الكربون مواد سكرية ونشوية لا بد منها لنموه. اما الكيميائيون المعاصرون فيطمحون الى تحقيق ذلك بغية الحصول على الهيدروجين، وهي الخطوة الاولى لايجاد بدائل للمسمدات الزيتية واللدائن والوقود.

وهذا يفسر المفاجأة التي وقعت على الاوساط العلمية لدى اعلان مجموعة باحثين من جامعة كاليفورنيا في باركلي ابتكارها "الورقة الالكترونية" التي تحل الماء الى عنصرية بكلفة زهيدة. وهذا يبدو من افضل الابتكارات في حقل انتاج الهيدروجين مباشرة من الشمس.

اما توليد الهيدروجين والاوكسيجين من الماء فقد اعتمدته الصناعة منذ سنوات. لكن فصل احدى المادتين عن الاخرى يلزمه جهد قوي نظراً الى ان الرابط الجزيئي بين الهيدروجين والاوكسيجين في الماء هو من اقوى الروابط الكيميائية. غير ان الورقة النباتية تتولى فصل احدى المادتين عن الاخرى بـ"مطرقة" انيقة جداً هي الفوتون، أي وحدة الكم الضوئية.

وقد اتبع فريق كاليفورنيا بقيادة الاستاذ غابور سومورجاي طريقة بارعة لانتاج ورقة الكترونية تحاكي ورقة النبات الطبيعية. واساسها خلية كهربائية - ضوئية مؤلفة من صفيحتين من اوكسيد الحديديك اي الصدأ. وعندما تلامس أشعة الشمس الخلية يتولد تيار بين الصفيحتين يبدأ فوراً حل الماء الى عنصرية. ويقول سومورجاي ان هذه الآلة ستبدأ توليد الاوكسيجين بكلفة زهيدة خلال السنين العشر الآتية.

مجلة "ايكونوميست"

اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٨٣ المختار السنة الخامسة (سلسلة جديدة)
مقالات وكتب مقتبسة توفر لكم متعة دائمة

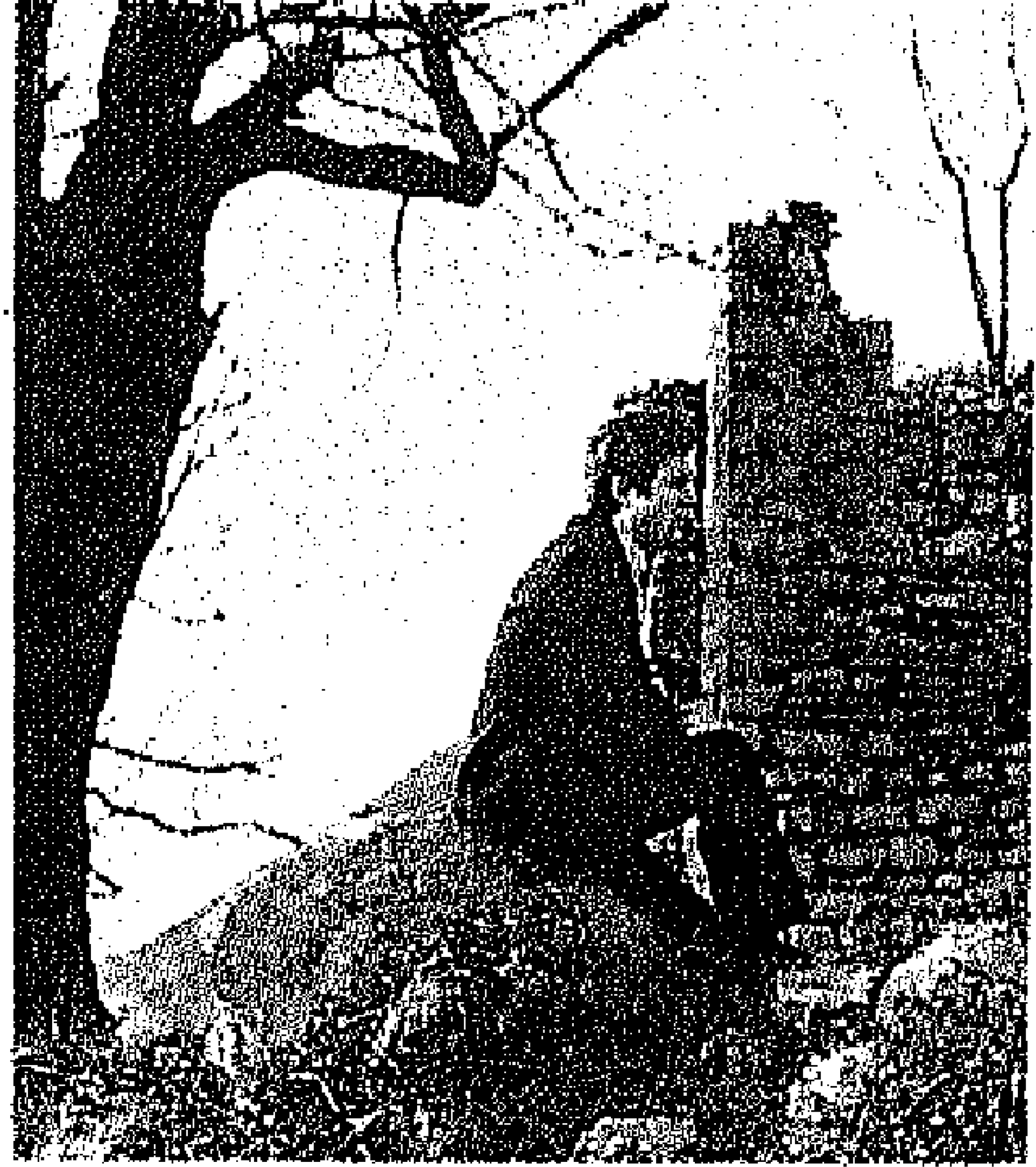


كتاب الشهر

القسم الأول

مأساة أم

ملخص من كتاب
بقلم نيكولا غاتس

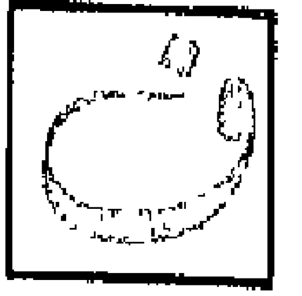


فبراير (شباط) ١٩٨٣: الكاتب امام اطلال منزل امه في ليا ·

مأساة أم

تقع بلدة ليا الجبلية
على تلة فوق واد
شمال غرب اليونان ·
هناك كانت تعيش امرأة
اسمها ايلاني غاتزويانيس،
وهي رقيقة الطبع
وذات شعر بني
حال لونه قليلا بفعل الشمس ·
وفي ليا تزوجت تلك المرأة
وأنجبت أربع بنات
وصبياً واحداً اسمه نيكولا،

خلال فترة عصيبة من الاجتياح
الخارجي والحرب الاهلية
الداخلية ·
وقضت في ليا على أيدي الثوار
الذين أعدموها بتهمة
تهريب اولادها ·
مؤلف هذا الكتاب هو الصبي
نفسه، نيكولا ·
وقد تمت عودته الاولى الى
مسقط رأسه قبل عشرين سنة
حيث اقتفى بعض آثار امه ·
وبعدما أصبح مراسلا لصحيفة
"نيويورك تايمس" استأنف
البحث
عن قاتلي امه، يحدوه دافع
الثأر
الذي يعتقد الجبليون
انه من الواجبات المقدسة للرجال ·
وجاءت نتيجة تحرياته
هذه الرواية المؤثرة المفعمة
بالعناصر الملحمية والملأى
بالاجلال لذكرى
ام ماتت ليحيا اولادها ·
والقصة تنشر على مرحلتين
في هذا العدد والعدد المقبل ·



في الثامن والعشرين من شهر اغسطس (آب) ١٩٤٨، وفي بلدة ليا اليونانية، كانت بعض النسوة القرويات ينحدرن عن تلة مرتفعة وفوق ظهورهن احمال حطب. وكانت الساعة الثانية عشرة والنصف في تلك الظهيرة القائظة التي لم تخترقها نسمة هواء. والقرية مجموعة منازل متجاورة بنيت بالحجر الرمادي على ناحية جبل متاخم للحدود مع البانيا. وفيما اقتربت النسوة من مشارف القرية صادفن مسيرة كئيبة، في مقدمها ومؤخرها رجال يمتشقون البنادق وهم من الثوار الذين احتلوا القرية خلال الأشهر التسعة الأخيرة من الحرب الأهلية اليونانية. وكانوا يقتادون في الوسط ثلاثة عشر اسيراً يسيرون حفاة وقد اسودّت سيقانهم وانتفخت من التعذيب. وهم رجال ونساء يسيرون الى الاعدام، وبينهم من ليا نفسها ثلاثة رجال وامرأتان. وكانت كبرى المرأتين عمتي وصغراهما أمي. وهي في الحادية والاربعين واسمها ايلاني غاتزويانيس، وقد توسطت رأسها عينان زرقاوان وعلاه شعر بني فاتح.

ارتقى الأسرى الجبل واختفوا وراء الأفق. وما هي الا دقائق حتى سمع دوي رصاص تبعته رصاصة رحمة على كل ضحية بمفردها. وتركت الجثث في الوادي حيث سقطت.

واذ تبين للثوار بعد ستة عشر يوماً أنهم يتقهقرون امام الجيش اليوناني الشرعي، جمعوا من تبقى من سكان ليا واقتادوهم الى البانيا. وامحت ليا من الوجود بعد تاريخ دام ٢٥ قرناً.

وعلمت بمصرع امي بعد ٤٣ يوماً، وكنت مع ثلاث من شقيقاتي في مخيم للاجئين أوينا اليه. على اثر فرارنا من القرية. وعلى رغم ان والدتنا هي التي صممت الفرار فانها أرغمت على البقاء في اللحظة الأخيرة. وبعد اشهر خمسة ركبنا باخرة توجهت بنا الى الولايات المتحدة حيث انضممنا الى ابي الذي قطعته الحرب العالمية الثانية والعصيان الذي تلاها عن اليونان. وكنت في التاسعة عندما رأيته للمرة الاولى.

وكصبي نشأ في بلدة وستر من اعمال ولاية مساتشوستس، لم اجد ما اقوله عن امي وظروف وفاتها كما فعلت اخواتي. وكن يتكلمن عنها دونما انقطاع ويروين احلاماً رأينها فيها تنقل اليهن رسالة من عالم الموتى. اما في احلامي انا فكانت حية على الدوام، وهي تؤدي احد اعمالها المعهودة كأن تخبز او تقطف الثمر من شجرة التوت في حديقتنا او تضحك لتصرفاتي البريئة. والواقع ان اخواتي قبلن حقيقة موتها فيما ظللت انا ارفض تلك الحقيقة.

لقد كنت ولدها المفضل ومحور حياتها. وهي احبتني بقوة، كما تحب قروية يونانية ابنها الوحيد. وعرفت انها ماتت من اجل ان احيا. ولم يكن في وسعي ان افعل شيئاً لتعويض تضحيتها سوى ان ارجو الله تعالى معاقبة اولئك الذين خانوها وعذبوها واغتالوها.

ولم البث ان تحققت ان ثمة تباشير


ايليني واولادها واختها نيتسا في صورة من العام ١٩٤٦. في الصف الخلفي (من اليمين): اولغا وغليكريا ونيتسا وكانتا. في الصف الامامي: نيكولا وايليني وفوتيني.

ومركز اعدام ومقبرة. وارغمت نفسي على ولوج الباب الامامي والنظر الى المطبخ حيث كان افراد عائلتي ينامون حول الموقد. وحاولت تذكر الايام السعيدة، غير ان عذاب امي طغى على ذكرياتي كلها. وغادرت المنزل عارفاً اني لن اعود اليه. لقد خانتني الشجاعة لمواجهة تفاصيل عذاب امي.

وفي العام ١٩٦٩ عزمت اثنتان من اخواتي على العودة الى القرية لاقامة خدمة تذكارية لأمنا. ورافقتهما في تلك الرحلة. ولدى بلوغنا القرية تبعتهما حتى ارضنا، لكني رفضت دخول المنزل معهما ولبثت خارجاً حتى غادرتاه باكيتين.

وفي اليوم التالي التأم سكان القرية جميعاً في كنيسة القديس ديمتريوس لاقامة الخدمة التذكارية. ووضعت عظام امي وعمتي في صندوق صغير بعد اخراجها من المقبرة الجماعية. ونهض معلم مدرسة والقى كلمة جاء فيها: "ان وفاة المرأة التي نقيم تذكارها اليوم لم تكن عادية. فهي أُعدمت لأنها حاولت انقاذ اولادها."

امل تلوح امامي. وبات في امكاني ان اكتب ما حدث في ذلك الوادي عام ١٩٤٨، واتحدث عن الفاعلين. ولما انجزت دراستي الجامعية عام ١٩٦٣ كنت ادخرت مبلغاً من المال يكفي لزيارة ليا. وعقدت العزم على ان اتحرى تفاصيل مقتل امي.

وفي اليوم الأول لوصولي عبرت الطريق نحو بيتنا القديم الذي يتجنبه القرويون لأن الثوار حولوه معتقلا

ووقفت على بعد امتار من عظام امي وقد اخترق عويل شقيقتي جدار السيطرة على الذات الذي رفعته لنفسي. فقد حاولت على الدوام ابقاء حزني في الداخل. الا انه انفجر دمعاً وصراخاً ونوبة اضطراب عجزت معها عن تمالك ذاتي. وراح جسدي يرتعش مثل قصبة في الريح، وغشي بصري واصطكت ركبتاي. وامسكني رجلان من ذراعي .واقتاداني خارج الكنيسة واسنداني الى جذع شجرة.

ولما زال اضطرابي اكتشفت قوة جديدة فيّ مكنتني من الاصغاء الى روايات اهل القرية حول مصير امي.

وامضيت معظم صيف ١٩٦٩ في ليا، ولكن سرعان ما تبين لي ان اجزاء مهمة من سيرة امي ما زالت خارج نطاقي. فالعديد من سكان القرية الذين خانوها ما برحوا في المنفى. اما اولئك الذين ارتضوا الادلاء بشهاداتهم حول سنوات الحرب وايام امي الأخيرة فقد رووا أخباراً متناقضة ولم يتذكروا الثوار الا بأسمائهم المستعارة. وهكذا، على رغم استعدادي النفسي لسماع قصة امي فانني لم استطع الوصول الى اشخاص الرواية الرئيسيين ولم تكن لي المهارة لاستخراج الحقائق منهم.

وقفلت عائداً الى نيويورك لأغرق في تفاصيل الحياة العملية. وتزوجت امرأة عرفتها منذ فترة دراستي الجامعية. ورزقنا ثلاثة اولاد، اولهم ذكر سميناه خريستوس تيمناً بأبي. وكان له اختان اطلقنا على اولاها اسم امي، ايلاني.

وباشرت العمل في صحيفة "نيويورك تايمس" محرراً في قسم التحقيقات الجنائية، مما اعطاني صفة الصحافي والمحقق في الوقت نفسه. وتعلمت فن استخراج الحقائق المخبوءة وحمل الشهود على الكلام. ورحت الاحق المتهمين واتسقط الاسرار. وما هي الا سنوات حتى وجدتني شغوفاً من جديد بملاحقة رواية امي، الامر الذي يحتم علي العودة الى الوادي حيث لقيت مصرعها.

بداية البحث

مع انهيار الحكم العسكري في اليونان في يوليو (تموز) ١٩٧٤، فتحت البلاد ابوابها للمنفيين كي يعودوا الى مسقط رأسهم. وهذا يعني ان الكثيرين ممن شئت استجوابهم باتوا على وشك العودة. وفي العام ١٩٧٧ اقنعت رؤسائي في الصحيفة بارسالي الى اثينا كمراسل في منطقة شرق البحر الابيض المتوسط.

وما ان حططت رحالي في عاصمة اليونان حتى شرعتُ في البحث عن اولئك الذين سجنوا امي وعذبوها وحاكموها. الا ان الجو السياسي المتفجر آنذاك لم يترك لي كبير مجال لتحري اعمالي الخاصة. ومع حلول العام ١٩٨٠ ايقنت ان علي التفرغ لرواية امي، والا فلن اعرفها البتة. وقررت التخلي عن وظيفتي وتكريس نشاطي كله لذلك المسعى.

وجاءني مدخل الرواية من قروي سابق اسمه انطوني ماكوس انتقل ليقطن في احدى ضواحي اثينا. واخبرني ماكوس انه كان يشرب من

عين مـاء يـوم اقتيـدت امـي الـى الاعدام، واضـاف انـه شاهـد احـد حراسها بعد عشرين سنة في احدى حانات مدينة يانينا الشمالية، وان اسمه تاكي كوتيس.

ركبتُ الطائرة الى يانينا واسرعت في اثر كوتيس، وعين لي موعداً لمقابلته بعدمـا عرفتـه عـن نفسـي كمؤلف حول الحرب الأهلية اليونانية، وتشنجت احشائي وانا انظر الى وجه احـد الذيـن شـاهـدوا امـي تلـفظ انفاسها، وكان تاكي رجلا قصيراً ضعيف البنية يشبه اقزام الخرافات، واخبرني لتوه ان قيادته ارسلته الى قرية ليا في تلك الاثناء.

وسألته عما اذا كان حكم الاعدام نفذ بخمسة مواطنين من ليا.

فاعترف بذلـك قائـلا انـه شهـد الاعدام بنفسه وانه كان احد الحراس المسؤولين، واضاف ان منفذي الحكم كانوا مـن الثـوار المتمركزيـن فـي الجبال الذيـن استدعـوا الـى مركـز التنفيذ في السفح.

ولم يستطع كوتيس تذكر اسم القاضي الذي رئس المحكمة، وعندما الححـت عليـه لاعطـاء المزيـد مـن التفاصيل عما حدث خلال حراسته خارج السجن في ليا اقر بأنه شاهد اسيرة تستجوب في الحديقة، ووصفها بأنها ذات شعر كستنائي فاتح وانها صاحبة المنزل الذي جعل سجناً، وفيما ضربها بعض الثوار امسكها احدهم من كتفيها وشد ركبته على ظهرها.

ونظرتُ اليه مشدوهاً طالباً ايضاح الامر، واصابته قشعريرة وهو يشير الي كي انهض، وابتسم باعتذار ووقف ورائي، ورفع ذراعي تحت الكتفين قليلا وحشر ركبته في الجزء المستدق من ظهري، ثم نخع ذراعي نحوه حتى كاد ان يقتلعهما واقحم ركبته في عمودي الفقري، ولم يلجأ الى القوة لأن غايته كانت الايضاح، الا ان الضغط على الفقار كان كافياً ليجعلها تهتز كسمكة اخرجت من الماء، واحسست الألم ينتقل من كتفي حتى اسفل جمجمتي.

واعتقني كوتيس وعاد الى مكانه حيث استأنف الكلام، لكني لم اسمع شيئاً مما قاله، وانهمر عرقي وسمعت دوياً في رأسي، وتركني ذلك الألم العابر ضعيفاً كطفل، خصوصاً عندما زين لي خيالي ان امي تعرضت له تكراراً ويوماً بعد يوم.

لكن ذلك الألم نفسه بخر الأوهام مـن رأسـي، وتحـقـقـت ان كشـف التفاصيل التي رافقت عذاب امي لن يكفي، بل ينبغي ان يدفع المجرمون ثمن جريمتهم.

ومع مشاعـر الثـأر الاولـى التـي استيقظـت فـيّ احسسـت دافـعـاً يحدوني الى سحق وجه تاكي المبتسم على الطاولة المرمرية بيننا، غير اني اكرهت ذاتـي علـى عـدم الحـراك، اقتناعاً مني بأن تاكي لا يستحق ذلك لتفاهة دوره في تلك العملية، لكن منظره قلب احشائي، ولم اره قط بعد ذلك الحين.

قاض اسمه "كاتيس"

قبل مغادرتي يانينا عرجت على شقـة تسكنهـا امـرأة اسمهـا دينـا

التتمة في الصفحة ١٤١

تتمة المنشور في الصفحة ١٨

مأساة أم

فينيتيس. هذه استجوبت مع امي لكنها أُطلقت في ما بعد. وقد شئت مفاتحتها حول القضاة الذين تولوا التحقيق.

وكانت دينا امرأة ذات مقام اجتماعي رفيع وقد وخطها الشيب. وقالت انها لا تتذكر سوى القاضي الذي رأس الجلسة وانه ذو صوت اجش مخيف "كأنما هو الموت عينه." وقد عرفه سكان القرية بأسم "كاتيس".

ووقع الاسم علي كما لو كان صفعة. وهو اسم مستعار لرجل وصفه لي العديد من اهل القرية. وكان يعمل قاضياً لدى الثوار فيجمع الأدلة ويتولى التحقيقات ويصدر الأحكام ويشرف على جلسات التعذيب. وهو كان القاضي الرئيسي خلال محاكمة امي. اذاً علي اكتشاف "كاتيس" بعد معرفة اسمه الحقيقي.

وتتبعت عدداً من الثوار الذين سمعوا بذلك الرجل، لكن معظمهم قال انه مات منفياً. وظننتني على وشك تحديد هوية ذلك الشخص حين اخبرني احد الثوار السابقين عن محام متقاعد يعيش بالقرب من يانينا، قائلا انه ربما عرف "كاتيس" خلال الحرب وان اسم ذلك المحامي هو ديميتريس غاستيس. وطرت الى يانينا وتوجهت على الفور الى منزل المحامي.

وكنت اخبرت ان غاستيس الذي عمل قاضياً لفرقة الثوار الحادية عشرة في جبال غراموس اصدر

احكاماً عدة بالاعدام، لذلك توقعت ان اصادف مجرماً، غير اني وجدت نفسي في حضرة رجل مسن عليه امارات التهذيب والكياسة، واصغى الي بانتباه وانا اقدم نفسي كمؤلف حول الحرب الاهلية اليونانية، واخذ لتوه يسرد تفاصيل المحاكمات العسكرية التي تولاها.

وسألته ان كان يتذكر قاضياً بأسم كاتيس يقال انه لقي حتفه في المنفى.

فأجاب غاستيس بثقة: "لا، لم يمت." وباح بأسمه الحقيقي وهو اخيلياس ليكاس واعطاني اسم شخص يظن انه يعرف عنوانه.

وهكذا بات الرجل الذي اصدر حكم العذاب والموت على امي في متناولي. وفيما رعدت السماء شكرت غاستيس على الوقت الذي منحني اياه واسرعت خارجاً وقد انهمر المطر غزيراً. ولما بت خارج القرية انتابتني قشعريرة وانا افكر في ما افعله لدى عثوري على "كاتيس".

وفي ذلك اليوم وجدت ان الشخص المذكور يعيش في يانينا. وقدت السيارة الى البناية التي يقطنها ووقفت احدق الى الطبقة الرابعة حيث هو. وخيل الي انه يجلس في داره وقد بدت عليه علامات الصحة والرضا وظن ان جرائمه اتت عليها السنون. ووددت ان اشق طريقي الى الداخل واخبره ان ثمة من يتذكر ما اقترفه في ليا.

وكانت كل معلوماتي تشير الى ان "كاتيس" هو المسؤول الأكبر عن اغتيال امي الذي ما زال على قيد الحياة. لكني على رغم ذلك لم استطع تنفيذ رغبتي. ووجدت انه يجدر تحديد درجة مسؤوليته اولا. اتراه صاحب الرأي والمبادرة في تعذيب امي واعدامها، ام انه كان آلة في يد سواه؟ اذاً، كان علي تقرير نوع العقوبة التي تنسجم وجرائمه. وهكذا قفلت عائداً الى وسط يانينا لأجد فندقاً آوي اليه. وفي الصباح وجهتني افكاري الى قريتي وارتأيت ان اعود اليها لاستكمال التحقيق وتحري حياة امي.

وتبين لي ان امي لم تذهب الى المدرسة طويلا، وانها وضعت الحجاب وهي في الحادية عشرة اسوة بسائر القرويات. ولم تتجرأ منذ ذلك الحين على مخاطبة اي رجل، الى ان حان اليوم الذي اختير لها فيه عريس لم تعرفه. وكانت تجهل كلياً الوضع السياسي المتفجر الذي ادى الى وفاتها.

لقد كان عالم ايلاني "خاصاً" بها، غير ان تلك "الخصوصية" لم تكن كافية لنجاتها هي واطفالها من الحرب التي اجتاحت جبالهم. وعندما تبين لها ان العيش وفق تقاليد القرية الصارمة لا يكفل لها ولأولادها الحياة، وقعت في ذاتها على كنز من القوة لم يعطَ لكثيرين.

ووجدت منزلنا ركاماً يعلوه اللبلاب المعترش وتقفز السحالي فوق حجاره بعدما اطبق سقفه على ارضيته وهبط الاثنان الى القبو. ورأيت جرافة تعمل على شق طريق وقد اتت على بعض ما كان حديقة لمنزلنا وكادت ان تقتلع شجرة التوت الوحيدة التي تحمل الكثير من ذكريات طفولتي.

وحباً مني ان تبقى تلك الشجرة قائمة، اشرت الى سائق الجرافة كي يبتعد عنها. وجعلتني تلك الشجرة والذكريات المعلقة باغصانها ادرك ان تحرياتي من شأنها ان تمدني بالفرح كما بالحزن. فهذا المنزل الذي عانت فيه ايلاني العذاب والموت هو المنزل عينه الذي ادخلت اليه عروساً في التاسعة عشرة، وهو المكان الذي فيه ولدنا ونمونا وفي ارجائه لعبنا انا واخواتي.

وايقنت ان علي ان إعيد بناء ذلك المنزل حجراً حجراً في خيالي قبل ان اتمكن من مواجهة "كاتيس"، كما علي ان استعيد عالم ايلاني الضائع الذي حالت الوانه كما تحول الوان حصيرة من القرون الوسطى. اجل، سأنسج ما بلي من تلك الحصيرة بعد ان اجمع اجزاءها من افواه عشرات الشهود.

قبل ذلك لن يقر قراري. واذ ذاك سوف اعرف ما ارادت امي ان اعرفه وهي تغادر بوابة ذلك المنزل للمرة الاخيرة. وينبغي ان اتصل معها عبر هوة الموت لأدرك ما اذا كانت، وهي تغذ الخطى نحو ذلك الوادي المشؤوم، نظيرة انيتغوني في مواجهتها الموت بالقبول لأنها رفعت قانون القلب فوق كل قانون آخر، او نظيرة هيكوبا التي راحت تصرخ طلباً للثأر. وذلك الادراك يحتم علي العودة اربعين سنة.

نعم الحياة

في اواخر صيف ١٩٤٠، حضرت ايلاني غتزويانيس مراسم اخراج عظام حماتها فوتيني غاتزويانيس من القبر في بلدة ليا.

وكانت ايلاني عاشت مع فوتيني نحواً من عشر سنين، اي منذما اتخذها خريستوس، ابن فوتيني الخامس، زوجة له وادخلها بيت امه. ويوم ماتت فوتيني عن ٨٤ سنة وخلفت تسعة اولاد، اغمضت عينيها عن هذه الحياة وبد كنتها في يدها. ولدى اخراج بقاياها من الأرض، كانت خمس سنوات انقضت على وفاتها. ولم يكن من السهل على ايلاني ان تراقب العظام وهي تؤخذ من الضريح لتغسل ثم توضع في صندوق خاص داخل سرداب الكنيسة. الا ان الأرض المخصصة للمدافن في اليونان، حتى في بلدة ليا الجبلية الصغيرة التي لم يتجاوز عدد سكانها الـ٧٨٧ نسمة، كانت صغيرة ووقتية.

وعندما اخذت ايلاني اولادها الى المدفن وراء كنيسة القديس ديمتريوس، كانت الندابات سبقنهم الى هناك ورحن يعولن مثل سرب غربان. وانضم اليهن الأب زيسيس. وسلمت ايلاني ابنها الرضيع نيكولا الى ابنتها البكر اولغا (١٢ سنة) التي وضعته على احد جنبيها وقد اضجرها المشهد. ورفضت اختها الكسندرا (٨ سنوات) الملقبة "كانتا" الانضمام الى الحفل، فيما شقت اختها غليكيريا (٦ سنوات)، الفتاة السمينة ذات الشعر الجعد، طريقها الى الأمام لتكون اول من ينظر الى بقايا الجدة. ونسيت وسط حماستها ان ترعى اختها الصغيرة فوتيني ابنة السنتين التي جلست على مقبرة مجاورة.

وادت ايلاني دورها في جرف التراب الى ان لاح الكفن الاسود. والتقطت النادبات انفاسهن خوفاً من الا تكون الجثة انحلت كلياً.

ولكن من حسن حظ فوتيني وذويها ان جثتها انحلت كما ينبغي. ورفعت النسوة العظام الى وعاء نحاسي حيث غسلنها.

اما ايلاني التي كانت مستغرقة في التفكير، فلم تعر ذلك اهتماماً. وكانت افكارها منصبة على حماتها بوجهها المستدير الباسم. وهي قروية امية لم تتذمر قط من الحياة على رغم كؤوس المرارة التي سقتها اياها، اذ مات اربعة من اولادها التسعة قبل سن البلوغ وشاهدت السرقات والحرائق على ايدي الاتراك وعانت المجاعة التي اخذت في طريقها حياة كثيرين. وفقدت ابنتها الجميلة فاسيليكي وهي في السادسة عشرة. وولد ابنها الرابع قسطنطين اصم وابكم. ومني زوجها نيكولا الذي كان يعمل صفاحاً، بذات الرئة وخلفها ارملة وفي احشائها طفلة ماتت قبل عمادتها.

الا ان فوتيني ربت خمسة صبيان اعانوها على تحصيل العيش. وهجر ولدها المفضل خريستوس القرية وهو في السابعة عشرة، وقد اعتمر طربوشاً على غرار الأتراك المحتلين، قاصداً الولايات المتحدة الامريكية. وعاد بعد ١٤ سنة اصلع يرتدي قبعة وبذلة مقلمة. ولم تعرف فوتيني ذلك الوافد بادىء الأمر، الى ان رأت ندباً على رأسه خلفه سقوطه من شجرة جوز.

ولما ان وصل ذلك الشاب الأعزب ذو السنوات الاحدى والثلاثين من الولايات المتحدة حيث يدير اعمالا مزدهرة حتى بات محط انظار العائلات التي تود تزويج بناتها. والحت عائلة خريستوس عليه ان يختار عروساً من القرية قبل عودته الى المقلب الآخر من الأرض. واجمع مدبرو الزيجات على فتاة في السابعة عشرة اسمها ايلاني هايديس، وهي الابنة الثانية لأغنى طحان في ليا، كيتسو هايديس. وطالما اطروا جمالها الخارق وفضيلتها ورقتها.

ولم يكن كيتسو هايديس تكلم مع ابنته حول رغبتها في الزواج، ولا هي تبادلت كلمة واحدة مع خريستوس. الا ان السعادة لم تفارقها لدى زيارته المنزل ذات مساء لشرب القهوة. ولما رفع الفنجان الذي قدمته اليه وضع على الطبق ورقة نقدية من فئة العشرين دولاراً وقال: "هذه لك." واذ ذاك ادركت ان مستقبلها رسم لها. ولما سمعت رواياته لاحقاً عن عجائب الدنيا وراء جبال ليا، ايقنت ان والدها وفق ايما توفيق في اختيار ذلك العريس لها.

وقفل خريستوس عائداً الى الولايات المتحدة بعدما وعد بالرجوع ومعه افخم ملابس العرس. وبر بوعده وعاد في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٢٦. وقبيل الزفاف اخبرته ايلاني وهي تبكي بعدم تمكنها من مرافقته الى القارة الامريكية، اذ ان امها ميغالي هددت بالانتحار يوم تغادر ابنتها القرية.

وحزن خريستوس كثيراً من غير ان



ولبث خريستوس في القرية سنة بعد زواجه، واقام وزوجته في منزل امه المكون من غرفتي نوم، مضيفاً غرفتين اخريين بات معهما ذلك المكان اكبر مساكن ليا. وقبل عودته الى امريكا عام ١٩٢٨ انجبت ايلاني طفلة سميت اولغا. وفي زيارتين طويلتين عبر السنين العشر اللاحقة انجبت الزوجة اربعة اطفال آخرين. وعاشت ايلاني وحيدة مع اولادها بعد وفاة حماتها، وهي تعتمد على حوالات زوجها الشهرية. وكانت تدرك انه اذا انقطع ذلك المورد او اذا اختفى زوجها في القارة الامريكية ولم يعد اسوة ببعض المغتربين من بني قومه، فان بناتها الأربع سيغدين مستعطيات في حين لن يرى ابنها الوحيد نيكولا وجه ابيه.

وكانت عينا ايلاني تغرورقان بالدمع كلما لاح لها طيف ابنها نيكولا. وطالما صلت وحماتها لكي يرزقها الله ذكراً. وكانتا تضيئان الشموع كل يوم وتضعان الثوم تحت وسادة خريستوس خلال زياراته وتحملان الأعشاب "السحرية" وتصنعان منها شراباً مراً. لكن تلك الحيل كلها لم تجد. وكلما وُلد لها فتاة كان اهل القرية يسخرون منها يغضب او يدهش. فهو كان يدري تماماً ان رابطة الدم تقوى على كل رابطة اخرى. وليس غريباً في تلك الجبال ان يعيش كل من الزوجين في مكان. والواقع ان معظم رجال ليا صفاحون متجولون يعيشون بعيداً عن منازلهم معظم ايام السنة، مخلفين زوجاتهم للعناية بالمزروعات والأطفال والأهل.

قائلين: "ليكن لك ذكور من البشر واناث من الماعز." الا ان فوتيني احبت حفيداتها وكانت تحملهن وتنشد لهن اغاني الأعراس.

وعاشت الكنة والحماة على وفاق دائم وقد وحدتهما الأفراح والهموم. لكن ايلاني اسفت كثيراً لان حماتها لم تعمر لتبصر الحفيدة الرابعة التي اعطيت اسمها، واخيراً الصبي المنتظر الذي كان استجابة لصلواتهما...

تلك الذكريات كلها ثارت في نفس ايلاني خلال خدمة نقل العظام.

عاصفة رعد

بعد ثلاثة ايام من تلك المناسبة ولت الآثار المتبقية من صيف ١٩٤٠ وانهمر المطر مدراراً على سطح المنزل الاردوازي الذي تسكنه ايلاني واولادها في اعلى منطقة من ليا، وهي معروفة بأسم "بيريفولي" اي البستان. وتقع المنطقة المذكورة عند قمة مثلث اخضر ينحدر بين هضبتين كلسيتين من سلسلة جبال مورغانا تقوم عليهما منازل ليا الحجرية وعددها مئة وخمسون. وتحتل منطقة البستان الناحية الغربية من القرية، اما الناحية الشرقية وفيها ساحة القرية فهي ادنى ارتفاعاً. وتتدرج المنازل حتى السفح. وقد ارتفعت قمم مورغانا لتسد الناحية الشمالية وتشكل حدوداً بين اليونان والبانيا.

في ذلك اليوم الثامن والعشرين من اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٤٠ طغى رعد قوي على صوت المطر. وهرعت ايلاني الى شرفة منزلها الامامية لترى التماعات حمراء في الأفق. وعادت تقول لأولادها: "هذا ليس رعداً، بل هو دوي المدافع. لقد بدأت الحرب."

وكانت خمسةالوية من الجيش الايطالي عبرت البانيا الى اليونان بناء على اوامر بنيتو موسوليني وهي تتوقع نصراً سريعاً مبيناً. غير ان تلك الألوية تقهقرت بفعل الشتاء الباكر وقدرة المحاربين اليونانيين الذين نزلوا الى المعركة في ثياب الرعاة ومن غير تنظيم. لكن ذلك النصر اليوناني كان قصير الأمد. ففي العام ١٩٤١ ارتأى هتلر ان يحشد القوات على طول الجبهة الجنوبية استعداداً لغزو روسيا. وسير الى اليونان ١٣ لواء من المدرعات والمشاة بحيث باتت المقاومة اليونانية مستحيلة.

وقطع الاحتلال الالماني الامدادات الخارجية عن اليونان. وفي الشتاء الاول الذي تلاه قضى نحو ٣٠٠ الف مواطن في اثينا من جراء المجاعة. الا ان ايلاني واولادها الذين ظلوا في ليا فلم يصبهم شيء من ذلك بفضل الدقيق الذي امنته مطحنة والدها. اما الذين لم يحالفهم الحظ فقضوا جوعاً اسوة بالكثيرين. ولم يكف ناقوس الموت عن القرع وسط القرية.

وكان في ربيع ١٩٤٢ ان اعلن ثائر اسمه آريس فيلوخيوتيس العصيان على قوات الاحتلال. وسرعان ما تحلق حوله اتباع كثيرون باتوا يشكلون "جيش التحرير القومي الشعبي" الذي عُرف باسمه اليوناني المختصر "ايلاس". وفي حين أعلن فيلوخيوتيس نفسه زعيماً لليسار، قام

زعيم يميني هو الكولونيل المتقاعد نابوليون زيرفاس وجمع حوله متطوعين اطلق عليهم اسم "الجبهة الديموقراطية القومية اليونانية "التي عرفت بأسمها المختصر "ايديس"٠

وفي شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من ذلك العام شنت مجموعتا "ايديس" و"ايلاس" هجمات مشتركة ضد قوات الاحتلال٠ وتلك كانت المرة الاولى والأخيرة تحارب الفئتان جنباً الى جنب قبل ان تنصب جهودهما خلال السنوات الأربع اللاحقة على محاربة احداهما الاخرى سعياً الى الاستئثار بحكم اليونان بعد ان تضع الحرب اوزارها٠

وفي مارس (آذار) ١٩٤٣ استولت قوات "ايلاس" على مركز الشرطة في ليا واخضعت البلدة لحكمها٠ وتم ذلك بقيادة رجل من القرية نفسها اسمه بروكوبي سكيفيس سبق ان عاش في بلدة فيلا٠ وما ان تمت له السيطرة على القرية حتى استدعى السكان الى الساحة ووقف على كرسي وهو يتفرس في وجوههم التي قلصها الصقيع قبل ان يخطب فيهم قائلا:

"يا سكان ليا! افرحوا لأن فتيان بلدتنا الشجعان رفعوا السلاح اليوم في وجه الغزاة٠ واننا لن نلقي سلاحنا قبل ان ننال الحرية٠"

وامتدح سكيفيس منظمة "ايلاس" وتحدث عن نظام جديد قائم على العدالة والمساواة٠ وتابع وهو يصيح: "ان صراعنا هذا هو من اجلكم انتم، من اجل رفعكم من الفقر والضعة وجعلكم رجالا٠"

وانطلقت عاصفة من الهتاف ايقن سكيفيس معها ان الشعب يقف الى جانبه٠ واستطرد قائلا بصوت راعد: "ولكن احذروا ان تنشأ مقاومة في صفوفكم، وثقوا ان الحركة ستتخذ اعنف التدابير ضد كل من يعارضها٠"

والحق ان ظهور الثوار في حركة "ايلاس" واسمهم في اليونانية "اندارتس" اعطى سكان ليا املا جديداً في مطلع الاحتلال القائم٠ ودعوا للانضمام الى اللجان المولجة بالادارة والأمن والعدالة والتموين٠ فأقبلوا بحماسة وهم يظنون ان الاحتلال سينتهي على ايديهم٠

ولجأ الثوار احياناً الى المسرحيات الهزلية القصيرة لتلقين سكان البلدة مبادىء حركتهم٠ وبدا ذلك بالنسبة الى صبي في الرابعة من عمره غاية في التسلية والمرح٠ وهكذا وجدتني احيي ابطال المقاومة وارجو ان اصبح واحداً منهم يوماً٠ غير اني كنت من الحداثة بحيث لم افهم سبب انكفاء امي عن الضحك لنكاتهم٠

ضرب عديم المعنى

نفذت منظمة "ايلاس" وعيدها بمعاملة المنحرفين على نحو سريع وصارم٠

وذات يوم تسلقت ايلاني الجبل مع جارتها الفقيرة انستازيا ياكو وابنتها٠ وحدث ان صادفن ميتسي بوليس وهو ثائر يافع وزوجته٠ وراح يحدثهن عن قروية شابة قضت جوعاً متأسفاً لأنها لم تعش لتجني ثمار الثورة٠ واضاف: "الفقراء هم الذين سيجنون الفائدة الكبرى من صراعنا٠"

وبادرته انستازيا ياكو: "ما هي الفوائد التي تتكلم عنها؟ اني فقيرة كما كنت دائماً، بل افقر حالا مما كنت بعدما صادرتم حليب ماعزنا يومين في الاسبوع من غير ان تعطونا ما يقابل ذلك من حبوب."

وأجابها ميتسي: "على كل منا ان يضحي من اجل اقامة نظام جديد. الا ترين ما أنجزناه حتى الآن؟"

وراح يتلو اسماء قطاع الطرق والمتعاونين مع العدو الذين تم اعدامهم على ايدي ثوار "ايلاس"، مضيفاً ان المنظمة شنت حملة واسعة لانقاذ الشباب من مفاسد الشراب والمقامرة والفسق... "اتذكرين ذلك الخائن الذي اعدم في بيروميري. لقد اعدم لا لخيانته فحسب بلا لانه اعتدى على اخته".

وبدت امارات الاستهجان على وجوه النسوة. وانبرت ايلاني: "كيف يعقل ان يقوم احد سكان هذه الجبال بفعل شنيع من هذا النوع؟ هل شكتنه اخته اليكم؟.

– بالطبع لم تفعل. فهو اخوها اولا.

"وهل اعترف بذلك هو نفسه؟"

– اتظنين ان احداً يقر بجرم من هذا النوع؟ الا ان جميع سكان قريته عرفوا ذلك. والقضاة الذين اصدروا الحكم عليه كانوا كاهناً وضابط جيش ومعلم مدرسة... اتعتقدين ان هؤلاء يكذبون؟

وهنا قالت انستازيا: "الأفضل ان تصلي كي يبقى هذا النوع من العدالة بعيداً عن بلدتنا يا ميتسي. ولو كان مصيرك رهناً بما يقوله الآخرون في القرية عنك، لكنت مت من زمان."

وفيما دخل ميتسي وزوجته بوابة منزلهما، التفتت ايلاني الى صديقتها قائلة: "صحيح انهم حرروا هذه الجبال من قطاع الطرق وان الايطاليين انسحبوا منها. لكنهم نفذوا عمليات اعدام كثيرة بحيث بات القتل طيعاً لهم."

وحدث في السبت الذي قبل الفصح ان اعطت ايلاني جاراً لها مقداراً من الذرة في مقابل جزء من تيس ماعز كان وزوجته على وشك ذبحه. والعائلات التي تستطيع ذبح الماعز لمناسبة عيد الفصح قليلة جداً. وبينما هي تعد اللحم لشيه حصلت جلبة على الطريق العام واسرع الجميع نحو مصدر الصوت. وهناك وجدوا فرقة جديدة من ٢٧ جنديا تدخل القرية. وبعدما زالت دهشتهم رأوا ان اولئك الرجال من ابناء ليا نفسها وانهم عادوا اليها في قيادة بروكوبي سكيفيس وقد بدل التدريب ملامحهم.

وبدلا من الملابس المتنافرة الألوان ارتدوا كلهم بزات رمادية جديدة وتدلت من اكتافهم احزمة عريضة ذات جيوب لوضع الرصاص. واعتمروا قبعات لينة ذات طرفين مستدقين وقد زينتها شارة نحاسية حُفر عليها اسم "ايلاس". وامتشق كل منهم بندقية حربية حديثة. وتراكض اطفال القرية في اثر الثوار الوافدين.

وفي المساء نفسه تحلق القرويون في الكنيسة وفي يد كل منهم شمعة جديدة استعداداً لاضاءتها من شعلة الأب زيسيس لحظة تذكار القيامة. وهكذا تعاد المسرحية القديمة التي

تثير مشاعر الناس كلما حان الفصح.
وقبيل منتصف الليل حصل اضطراب في باحة الكنيسة سرعان ما انتقل الى الداخل. وتراجع المصلون لكي تشق عصبة من الثوار طريقها. وبرز منهم واحد تسلق كرسي المطران فيما سرت ضجة في صفوف الناس. فهذا الكرسي الذي تعلوه ظلة خشبية حفر عليها رسم يمثل تاج الأسقف، لا يجوز ان يرتقيه احد من الناس، حتى الأب زيسيس نفسه. وهو ينظف من الغبار ويلمع على الدوام استعداداً ليوم يزور مطران يانينا بلدة ليا ليتفقد رعيته هناك.

وشخصت انظار الجموع الى الكاهن لترى ما عساه يفعل حيال ذاك الانتهاك الفاضح لحرمة الكنيسة والمؤمنين. الا ان الأب زيسيس وقف ينظر بصمت الى الثائر الذي شرع يخاطب الناس قائلا انه يدعو اهل ليا في ذلك اليوم المقدس كي يكرسوا انفسهم لأخطر القضايا واقدسها، الا وهي قضية تحرير اليونان من الطغاة. وانهى حديثه بالآتي: "اذا كنتم معنا بكل قلوبكم وكان لديكم الاستعداد لاراقة دمكم على مذبح حريتنا المقدسة، فاننا لن نهزم البتة." وتململ الجمهور ونظروا مرة اخرى الى الكاهن.

وفي اليوم التالي، وهو احد الفصح، التأم سكان القرية لرفع الشكر الى الله تعالى لأنه اعطاهم الصمود خلال سنة اخرى من الجوع والحرب. واستطاع حتى افقرهم شراء بعض البيض وصبغه بالأحمر. وقصدوا الكنيسة عصراً لاقامة خدمة الفصح مرة اخرى. وبعد تلاوة الصلاة نهضوا جميعاً وراح يعانق احدهم الآخر.

الا ان لحظة الاخوة تلك عكرها زعاق آت من المدرسة المجاورة. وخرجت ايلاني الى ساحة الكنيسة لتجمع اولادها حولها، الا انها وجدت ابنتها غليكيريا في مقدم الحشد الزاحف وسط الساحة.

ووقف ثائران مسلحان يسدان بوابة المدرسة فيما سمع صراخ من الداخل: "ارجوكم ان تكفوا. اني بريء ولا املك حتى بندقية."

ورداً منه على تساؤلات الناس قال حارس من الثوار ان في الداخل صبياً اسمه انطونيس كوليوس يجري "تأديبه" لأن في حوزته سلاحاً لم يصرح به للجيش الشعبي. وللحال فهموا جميعاً ما يجري. فذلك الفتى كان في الثامنة عشرة وقد كرس وقته للهزل والمزاح، لكنه لم يقترف شائناً او يؤذ احداً. وكانت عائلته تملك حقولا مجاورة لحقول ستافروس دافلاكيس، وهو فلاح متقدم في السن بات لا يبصر جيداً.

وقد دار بين عائلتي دافلاكيس وكوليوس نزاع دائم على حدود الملكية. وطالما اقتحم دافلاكيس اراضي آل كوليوس متذمراً من ان مزروعاتهم تمتد الى حديقته. وكان انطونيس يحب ان يروعه بتلويحه عصا تشبه بندقية. وبسبب ضعف بصره لم يقوَ العجوز على التمييز بين البندقية والعصا. ولا شك في انه رفع ظلامته الى الثوار الذين قبضوا على الفتى لمصادرة "سلاحه".

وخمد الصراخ وبرز نحو ستة ثوار، وفتح لهم القرويون طريق المرور ثم اسرعوا الى المدرسة حيث وجدوا انطونيس على الأرض فاقداً الوعي وقد سال الدم على ملابسه من جراء الجروح التي احدثها القضيب الشائك. ورفعوه وحملوه بعيداً وهم لا يعرفون كيف تنطبق كلمات بروكوبي سكيفيس الحماسية على ذلك الضرب الخالي من المعنى.

وفي شهر مايو (ايار) زحفت جماعة سكيفيس لمحاربة قوات "ايديس" المتقدمة. وقتل اثنان من منظمة "ايلاس" خلال مناوشة. ولما عرفت ايلاني بذلك من جارة لها نظرت الى ولدها نيكولا النائم في حضنها مكتئبة لمقتل ابناء جيرانها تحت راية الثورة. وقالت بهدوء: "لكم هو خير لي ان اموت من ان ارى احد اولادي يؤخذ مني عنوة."

ثراء أمريكي

في الثامن من سبتمبر (أيلول) ١٩٤٣ أعلنت الهدنة بين ايطاليا والحلفاء. وراح الألمان، ومعهم مجموعتا المقاومة اليونانيتان، يتسابقون للاستيلاء على الاسلحة الايطالية الثمينة. وكان لمنظمة "ايلاس" حصة الاسد، اذ أطبقت على مخلفات لواء بينيرولو من رشاشات ومدافع. وهذا جعلها تتفوق على منظمة "ايديس" اليمينية في حيازة السلاح الناري. وفي اكتوبر (تشرين الاول) نشبت في اليونان حرب أهلية واسعة النطاق.

وتحول حلم بروكوبي سكيفيس في الثورة والحرية كابوساً. ودب الذعر في نفوس سكان ليا بعدما تناوبت عليها المنظمتان المتنافستان. وفي النهاية انتصرت "ايلاس". غير أن المحتلين الالمان كانوا كلما ظنوا أن بلدة تؤوي ثواراً فرضوا عليها عقاباً لا يرحم، حتى تجاوز عدد القرى المحروقة المئتين بين اواخر ١٩٤٣ وأوائل ١٩٤٤. وذلك كان مصير ليا بسبب عطف أهلها على ثوار "ايلاس".

ومع تقدم الالمان أخذت ايلاني أولادها وتوجهت مع سكان البلدة الى الجبال بالقرب من الحدود الالبانية. هناك القوا رحالهم في العراء وتضاموا طلباً للدفء. وعادوا الى القرية بعد مغادرة الالمان. ووجدت ايلاني منزلها كما تركته. لكن معظم المنازل أحرق على أيدي النازيين، كذلك الكنيسة التي تتوسط الجزء السفلي من القرية.

وفي نهاية ١٩٤٤ بدت النهاية جلية. ففي سبتمبر (أيلول) من ذلك العام باشرت قوات هتلر انسحابها من اليونان. وفي ١٥ اكتوبر (تشرين الاول) نزل البريطانيون على شاطىء بيرايوس الاثيني. وكانت "ايلاس" في تلك الاثناء أهم قوة عسكرية في البلاد. لكن نفوذها حده اتفاق سياسي تم الربيع السابق ومنحت بموجبه حكومة الملك المنفي جورج الثاني اليساريين خمسة مقاعد في الوزارة الجديدة. ولكن، ظناً منهم أنهم خدعوا وأن النصر الذي حققوه يخولهم كسباً أكبر، شن جماعة "ايلاس" عدداً من الهجمات على

القوات البريطانية واليونانية في أثينا وعلى فلول منظمة "اديس". وانطلق جماعات الثوار في أرجاء العاصمة اليونانية تطرق الابواب وتقتحم المنازل وتعتقل المواطنين وتعدمهم بالآلاف.

وأرغم نابوليون زيرفاس زعيم "ايديس" على الفرار الى جزيرة كورفو. ومع سيطرة البريطانيين على الوضع في أثينا هزم اليساريون ووافقوا على القاء السلاح. وعاد ثوار "ايلاس" الى منازلهم بعد تجريدهم من السلاح والسماح لهم بممارسة نشاطهم المدني.

وبدا الاتفاق بالنسبة الى ايلاني غاتزويانيس وسواها من القرويين نهاية للحرب وبداية للرجاء. وللمرة الاولى في السنوات الاربع الاخيرة راحت تزرع الحقول وتعتني بشؤون بيتها كما ينبغي وتنتظر البريد من الولايات المتحدة يحمل اليها رسائل خريستوس. وكانت تقول لاولادها: "الناس كلهم بدينون في أمريكا، حيث توجد آلات لعمل أي شيء حتى لالتهام الغبار من المنازل." وطالما ألهبت تلك الكلمات حماسة الاطفال وخيالهم.

وفي مايو (أيار) ١٩٤٥ توجهت ايلاني الى فيلياتيس لتسلم اعانتها العائلية من وكالة الغوث التابعة للامم المتحدة. وهناك وجدت رزمة رسائل متأخرة في انتظارها. وقد كتب خريستوس في احداها: "حبيبتي ايلاني... أحبك وأطلب الى الله تعالى أن تكوني وأولادنا الاحياء في خير. كيف حال ابننا؟ أيسألك عن أبيه؟ اني اقبل عينيك وعيون أولادنا الابرياء."

وكان خريستوس يعيش آنذاك في جزيرة ستاتن التابعة لمدينة نيويورك كما جاء في رسالة له. وأخبر ايلاني أنه يأكل في مطعم رخيص وانه يحصل على تسعين دولاراً في الاسبوع. وأضاف أنه ينتظر كلمة منها لتحويل مبلغ من المال اليها.

ووجدت في تلك الرزمة بطاقة بريدية عليها رسم ناطحة السحاب الشهيرة "امباير ستيت" وكلمة من خريستوس تقول: "هذه أعلى بناية في العالم. ويمكنني أن أرى منها المحيط الاطلسي وتمثال الحرية... هكذا تبدو أمريكا لي."

وقرأت ايلاني الرسائل كلها ثم أخذت ورقة وقلماً وأخذت تكتب: "زوجي العزيز، أشكر الله على أنك معافى بعدما ظننتك ميتاً." وأخبرته أنها في حاجة ماسة الى المال والملابس، وأنهت الرسالة بالآتي: "لقد علمتني الحرب أنه من الخطأ الكبير أن يكون كل منا في جهة من الارض. واني أتوسل اليك كي تدبر أمر ذهابنا فوراً، وأسألك هذا من كل قلبي."

وتلقت ايلاني جواباً سريعاً من زوجها الذي قال ان أربعة صناديق كبيرة محملة بالملابس والهدايا في طريقها اليها. وأضاف أن رصيده المصرفي نقص كثيراً بعد جراحة أجريت له لاستئصال الزائدة الدودية وبعد شرائه تلك الاشياء، وان ذلك أخر ارسال الاوراق الضرورية لاستدعاء العائلة اليه. لكنه وعد

بانجاز معاملة الهجرة فور تأمينه المبلغ المطلوب.

وانتظرت ايلاني والاولاد بفارغ الصبر وصول الصناديق فيما هم يحصدون القمح ويزرعون البطاطا. وأخيراً جاءهم خبر من يانينا بوصول الشحنة. وذهبت ايلاني الى هناك لحمل الهدايا على ظهر بغل. ولما عادت ودخلت بوابة منزلها، وجدت الجيران متحلقين في الساحة. وراح كل منهم يسأل عن محتوى الصناديق. ونظروا باعجاب حتى الى الحبال التي ربطت بها البضاعة. انها حبال أمريكية في ثخن أفعى. وفكوها بتؤدة وتوزعوها في ما بينهم وهم يكبرون بلاد الذهب التي جاءت منها تلك الحبال الرائعة. وكان في الصناديق ملابس وأحذية ومناديل وجوارب حرير لكل واحد. وراحت خيرات العالم الجديد وسحره تنهال أمامهم.

وحصلت بنات خريستوس على ربطات العنق التي أرسلها والدهن الى حميه، وعقدنها حول خصورهن على اساس أنها أحزمة. أما أكثر السلع غرابة فكانت اضمامة من الريش على طرف عصا. ولم يدر أحد ما هي، لكنها كانت تتلألأ بظلال برتقالية وحمراء. وتناولت ايلاني زهرية وضعت فيها تلك العصا الجميلة وسط غرفة الجلوس.

وأخذ الناس يتوافدون حتى من القرى المجاورة لتهنئة ايلاني على تلك النعمة. وكانت تقودهم الى غرفة الجلوس حيث وضعت ممسحة الغبار تلك رأساً على عقب، فقدروا أنها من الزهر الذي لا يذبل وأبدوا اعجاباً عظيماً بكل شيء أمريكي.

ووجدت ايلاني في الصناديق ما ترضي به جميع زوارها، من جوارب ومناديل وقطع قماش وحبوب أسبرين. وظل الزوار يتوافدون أياماً لابداء اعجابهم وهم يقولون: "يا لها من أشياء مدهشة. انكم أسعد عائلة في القرية."

مهر اولغا

ما أن وضعت الحرب أوزارها حتى فر الالوف من أنصار "ايلاس" من اليونان الى البلدان المجاورة شمالا. ولكن مع اندلاع الحرب الاهلية من جديد في مطلع ١٩٤٦ رجع الكثير من المنفيين الى اليونان وهم متحمسون لاستئناف الحرب في اعالي الجبال.

وفي ليا رحب الاهالي بالثوار. وخبأت ايلاني اثنين منهم في منزلها فيما كانت القوات الشرعية تطارد أعضاء المنظمة. الا أن القتال كان يدور بعيداً عن القرية التي مل أهلوها الحرب.

وجاءت رسالة من خريستوس يعبر فيها عن قلقه حيال عفة بناته لدى استقدامهن الى العالم الجديد الذي يؤمن سكانه بمذهب المتعة. وحث زوجته على اختيار عريس ملائم لابنتهما البكر اولغا قبل هجرة العائلة الى الولايات المتحدة، قائلا انه سيرسل المهر المطلوب في حينه.

غير أن اولغا، كلما طرح عليها اسم أحد الشبان الريفيين، كانت ترفضه وتهدد بالفرار من البيت. وعندئذ تقول امها: "اذا لم تتزوجي، فسأزوج

اختك كانتا قبلك وتصبحين عانساً٠"

وفي خريف ١٩٤٦ ارتفع عدد الثوار المحاربين تحت امرة الجنرال ماركوس فافياديس الى ١٣ ألفاً، بعد فرض التجنيد الاجباري٠ وأطلق على تلك القوات اسم جديد هو "جيش اليونان الديموقراطي" (داغ)٠ وذلك حدا الرئيس الامريكي هاري ترومان، في مارس (آذار) ١٩٤٧، على منح اليونان مبلغ ٣٠٠ مليون دولار لمحاربة هذا المد الثوري الذي يعززه جيرانها ٠ وكان لذلك القرار أثره السلبي في ليا ، اذ ألب الاهالي ضد التأثيرات الامريكية كلها٠

ولم تنجُ ايلاني من ذلك الشعور المعادي، وبات القرويون يطلقون عليها لقب "الامريكية٠"

الا أن ذلك لم يقلل من عدد طلاب يد اولغا٠ لكن رفضها التفكير في أي منهم كاد ان يدفع والدتها الى حافة الجنون٠ ولما طفح كيلها صممت على زيارة عرافة محلية٠

وبعيد زيارة العرافة حمل ساعي البريد الى ايلاني مغلفاً يحوي معاملات هجرة العائلةالى الولايات المتحدة٠ وأسرعت بالاوراق الى عمدة بلدة فيلياتيس لتجد أن المبلغ ينقصه مئتا دولار٠ ذلك أن خريستوس لم يرسل سوى ٣٠٠ دولار لشراء جهاز اولغا٠ وراجعت ايلاني أولوياتها فوجدت أن زواج أولغا الاهم، وان خريستوس سوف يحول المبلغ المطلوب للهجرة لاحقاً٠

وعندما غادرت منزل العمدة صادفت معلم مدرسة سابقاً من ليا وشكت اليه همها٠ فأجابها: "اذا لم تصممي على الهجرة يا ايلاني، فأنصحك بأن تخرجي وأولادك حالا من ليا٠ فالثوار يقوون مواقعهم في جبال مورغانا٠ واذا صادفوكم في القرية لدى بلوغهم اياها ،فلن تكون الحال كما يرام٠ لقد قتلوا العديد من رجال الشرطة ومن يعدونهم يمينيين في هذا الجزء الشمالي كله من اليونان٠"

وقالت ايلاني: "اننا عائلة من امرأة وأطفالها٠



فلماذا يؤذوننا ونحن لم نقترف ذنباً ضدهم؟"

الا أن كلمات الرجل ضايقتها، وكتبت رسالة الى خريستوس ترجوه فيها أن يرسل المال المطلوب الى العمدة، وأخبرته بحديثها مع معلم المدرسة. وختمت الرسالة بسؤالها: "ماذا تريدني أن أفعل؟"

وفي يونيو (حزيران) ١٩٤٧ تلقت جواباً من زوجها بعد مضي شهر على الكتابة اليه. وقد جاء فيه: "لا شأن لك في المجيء الى هنا أو في مغادرة البلدة. واذا كانوا يحاربون على العين في جوار البيت، فابقي مع اولادك داخلا ولا تخرجوا... ثم من هم اولئك الثوار؟ أليسوا من قومنا اليونانيين الذين يحاربون من أجل حقوقهم المشروعة؟ فلماذا يضايقوننا؟"

وفي نهاية الصيف كان صندوق اولغا مليئاً بقطع الملابس والجهاز التي صنعتها هي وأمها. وفي مطلع اغسطس (آب) ذهبت الام والابنة الى يانينا لشراء بقية الجهاز. وبقيتا يومين تتجولان من محلات مختلفة. وقبل اكتراء سيارة لتقل الاغراض توقفتا في مقهى لتناول وقعة أخيرة. وبينما هما تأكلان السمك سمعتا ضجة في الشارع. وشاهدتا من حيث هما جماعة من الفلاحين ينتظرون شيئاً. وما لبث الحشد أن تفرق لدى عبور شاحنتين عسكريتين وسطهم.

وكان في الشاحنتين صبايا في سن اولغا يبكين وينتحبن وقد خدشن خدودهن بأظفارهن. وخرجت ايلاني للتحقق مما يجري، ثم عادت مكفهرة الوجه. وقالت لابنتها: "انها مجموعة فتيات من قرى مقاطعة بوغوني شمال غرب يانينا. وقد أخذهن الثوار بالقوة قبل شهرين ودربوهن على القتال وأجبروهن على ارتداء البزات العسكرية. واولئك اللواتي ترينهن على الطريق استطعن الفرار."

ونظرت الى اولغا وهي ترى أن اولئك "الثائرات" أطفال مثلها، لكن أعينهن بدت هرمة من الغم... ترى ما يكون موقفها لو حاول الثوار تجنيد بناتها؟ لكن خريستوس أصدر أمره النهائي الصارم بعدم مغادرة المنزل. وراحت ايلاني تدرس ذلك القرار في ذهنها.

وفي اواخر نوفمبر (تشرين الثاني) كان مد الحرب قد أعاد الثوار الى ليا. وذلك وضع حداً للحياة اليومية العادية.

التشويه ليس الموت

الثوار الذين دخلوا ليا في قيادة سبيرو سكيفيس شقيق بروكوبي كانوا أحد ستة ألوية تجتاح جبال مورغانا، من أصل جيش غير نظامي يبلغ عدد أفراده الاجمالي ٢٥ ألف محارب.

وراح الثوار يجوسون الشوارع زمراً ويقرعون الابواب طلباً للحطب والخبز والمأوى. وما عتم كل منزل ان استحال مأوى للثوار. وكلفت ايلاني ايواء عائلة الياس غاغاس وهو معلم مدرسة أتاها مع زوجته وابنتيهما المراهقتين وابنهما الصغير. وذلك اضطرها الى السكن وعائلتها في الجزء القديم من المنزل وهو مؤلف من المطبخ وغرفة المؤن.

وحول غاغاس احدى غرف المنزل مدرسة.

ومنذ وصول الثوار أصرت ايلاني على أن تضع كل من اولغا وكانتا حجاباً أسود يستر الوجه سوى الانف والعينين، كما فعلت النسوة اليونانيات على الدوام لحجب مفاتنهن عن الغزاة. وكان وجه كانتا شاحباً بينما كان وجه اولغا متورداً. لذلك ذرت عليه والدتها الرماد.

وكان معظم رجال القرية بمن فيهم بعض مؤيدي "ايلاس" رحلوا لدى دخول الثوار. وارتأى سبيرو سكيفيس أن يقتص من اولئك "الخونة" باحراق منازلهم وتشريد عائلاتهم. ومن الذين فروا كيتسو والد ايلاني بينما تعرضت والدتها ميغالي للضرب على أيدي الثوار، وانتقلت للعيش مع ابنتها. أما نيتسا شقيقة ايلاني فتلقت تهديداً بعد هرب زوجها مما حداها أيضاً على الانتقال الى منزل شقيقتها. وكان على النسوة الثلاث والاولاد الخمسة أن يحشروا أنفسهم في غرفتين لا تتجاوز مساحة الواحدة منهما الاثني عشر متراً مربعاً.

وعلى رغم العذاب الذي عاناه الجميع فان ايلاني بدأت تظن أنها مستهدفة على نحو خاص. وفي مطلع شهر ديسمبر (كانون الاول) طرق بابها ثائر شاب سائلا أن تسمح له باتقاء المطر. وفيما هو يجفف ثيابه قرب الموقد لاحظ رسم خريستوس ضمن اطار. وقالت ايلاني ان ذلك الرسم هو لزوجها الذي يعيش في الولايات المتحدة.

وقالت لنفسها: "لماذا يبحثون عن السلاح في هذا البيت؟ لا شك في أن ثمة وشاية دنيئة لفقها أحد سكان البلدة حسداً."

وبعد أيام روع السكان اذ شاهدوا عدداً من الثائرات يزحفن على بلدتهم. وكن قرويات مراهقات امتشقن البنادق وارتدين - ويا للعار - سراويل الرجال. وهذا في نظر الاهالي يوازي العري التام.

وأمرت الفتيات بالوقوف تحت منزل آل غاتزويانيس. ودنت ايلاني من احداهن وسألتها: "ألست خائفة؟ اذا شاءت بناتي الانضمام الى الجيش، فلن أسمح لهن بذلك... لا شك في ان امك قلقة البال عليك."

وأجابتها الفتاة: "أتظنين أن والدتي كان لها الخيار في ذلك؟".

وفكرت ايلاني في ما يمكن أن يحصل لو أخذت ابنتها اولغا الى الجبال للمحاربة والمكوث جنباً الى جنب مع الرجال. ووجدت أنه من الافضل أن تشوه اولغا وتبقى حية، وان ذلك خير لها من أن تموت او تغتصب. وان الثوار لن يجندوا اولغا اذا كانت لا تقوى على المشي. وهكذا قررت صب الماء الساخن على قدم ابنتها وايهام الثوار بأن حادثاً حصل لها.

ووضعت ابريقاً على النار. ولما غلى ماؤه امرت اولغا بأن تكم فمها بقطعة قماش لئلا ينبه صراخها الجيران. ورفعت قدمها الى طاولة صغيرة فيما همت ايلاني بصب الماء وهي مغمضة العينين.

ومن دون أن أدري وضعت قبضتي

في فمي كما وضعت اولغا قطعت القماش في فمها • وأخذت امي نفساً عميقاً وسكبت الماء على القدم الممدودة أمامها بينما شدت خالتي نيتسا ساق اولغا لئلا تسحبها • وكانت برهة صمت تبعها صراخ يشبه عويل صغير الماعز وهو يساق الى الذبح •

وشخصت أنظارنا الى قدم اولغا وهي تمسح دموعها • وتبادلت أمي وخالتي النظرات بعد تحققهن من اخفاق الخطة • فقد كانت قدما اولغا قاسيتين من مشيها حافية حتى لم تؤثر فيهما الحرارة كثيراً • وهذا لن يمنع الثوار من تجنيدها •

كوابيس

جلست امي والهم ينهشها • ورأيت عينيها تحدقان الى القضيب المعدني الذي تذكى به نار الموقد • ونهضت ووضعته في النار • ولدى احمرار طرفه سارت به نحو اولغا التي جلست تبكي بهدوء • وانحنت امي نحو قدم اختي من جديد، لكنها سرعان ما نهضت وهي تقول بحزن: "اني لا أستطيع ذلك •"

وقطعت جدتي الصمت بقولها: "أنا أستطيع ذلك اذا كان ينجي حفيدتي •" وتناولت العجوز الضعيفة القضيب وأعادته الى الموقد • وأخذت اولغا تتقلب على الارض تحسبا للالم، فسمرتها خالتي في مكانها •

وأزّ الحديد على جلد اولغا وصعدت رائحة شواء في الغرفة • وزعقت اختي وتلتها امي • واذ ذاك رفعت جدتي القضيب المتأجج عن قدم اولغا التي لفت بخرقة •

سمع الثوار بالحادث وأرسلوا طبيباً لمعاينة قدم اولغا • وبدا انه لم يشك في الامر، مما طمأن ايلاني الى نجاة ابنتها الكبرى • غير أن اثنين من الثوار دخلا المنزل بعد يومين وهما يقولان: "جهزي ابنتك الثانية كانتا للانضمام الى الجيش الديموقراطي غداً صباحاً •"

وجلست الوالدة وابنتها تلك الليلة وهما لا تقويان على النوم • وراحت ايلاني تملس شعر كانتا • وقالت لها: "أخبريهم أنك تخافين البنادق••• ترى كيف يمكنهم ارسال طفلة مثلك الى أرض المعركة؟" وعلى رغم مرور عيد ميلادها الخامس عشر فقد بدت كانتا طفلة • وحاولت ايلاني أن تطرد من ذهنها صورة كانتا وهي تغتصب أو تقتل •

وأخيراً غفت الفتاة • وغطتها ايلاني برفق ونهضت تجهز ملابسها وكنزاتها وجواربها على أحسن وجه • ولما لاحت تباشير الضوء الباكرة في سماء الشرق أفاقت كانتا على كابوس مخيف • وهرعت ايلاني نحوها تهدهدها كما لو كانت طفلة • وفيما أفراد العائلة يشربون الشاي شقت هدوء الصباح صرخة أطلقها الثوار الى الاهالي لكي يحضروا بناتهم •

وأخذ النداء يقترب أكثر فأكثر الى أن اقتحم الثوار بوابة آل غاتزويانيس • ونهضت كانتا وقالت بهدوء: "اني حاضرة •" وعلى رغم ارتعاش شفتها السفلى فانها صافحت أفراد العائلة ورفعت صرتها وسارت بضفائرها المكشوفة وقد تركت المنديل في المنزل •

وتلقت نحو ثمانين مجندة تدريبهن في ليا طوال اسبوعين على التدريب البدني والتصويب والرماية· وعلمن استخدام المدافع والقنابل اليدوية وحفر الخنادق·

وبعد أيام من تجنيد كانتا غادر المعلم الياس غاغاس وعائلته المنزل بعدما وقع اختيار الكولونيل خرونيس بتريتيس على منزل آل غاتزويانيس كمقر لقيادة الثوار· وكان أفراد العائلة يفيقون كل ليلة على صراخ بتريتيس، ذلك الرجل القوي ذي الشعر الاسود الجعد، وهو يصدر أوامره عبر الهاتف· وقبيل عيد الميلاد ازدادت مسؤولياته· وكان الجيش الديموقراطي أعلن تشكيل حكومة موقتة لليونان الحرة في رئاسة الجنرال ماركوس فافياديس، على أن تكون عاصمة "الحكومة" الجديدة بلدة كونيتسا التي تبعد ثمانين كيلومتراً عن ليا، هذا اذا استطاع الثوار السيطرة عليها·

وفي يوم عيد الميلاد للعام ١٩٤٧ هجم فافياديس على كونيتسا ومعه قوة من عشرة آلاف رجل· وهكذا غدت القرى الواقعة في جبال مورغانا وسط دوامة الحرب· وفي تلك الليلة عينها أمرت المجندات بالتوجه الى فاتسونيا لتلقي المزيد من التدريب· وذهبت كانتا معهن وعلى ظهرها رشاش ثقيل·

وفي اليوم الثامن من التدريب في فاتسونيا وقف ضابط من الثوار يحاضر للفتيات حول هجوم الجيش الديموقراطي: "لقد عرفتم الكثير عن الحرب



المجيدة التي نشنها٠ وعلى رغم أن الجنرال فافياديس لم يتمكن من الاستيلاء على كونيتسا فانه اوقع بالعدو خسائر فادحة٠"

وصمت الملازم ثم أضاف: "لقد شارف تدريبكن النهاية٠ وبعد أيام سنرسلكن الى مواقع مختلفة على طول الجبهة٠ وقد حان الوقت لنستأصل من صفوفنا اولئك اللواتي لا يستطعن القتال٠" وقرأ أسماء عدة بينها اسم كانتا التي قال لها: "احزمي صرتك استعداداً للعودة الى المنزل٠"

وظناً منها أن في الامر خدعة وأنها يجب ألا تنساق الى التجربة، احتجت كانتا على القرار باصرارها على البقاء٠ فما كان من الملازم الا أن رمقها بشفقة وقال: "انك صغيرة وضعيفة جداً ولا تستطيعين حمل البندقية كما ينبغي٠ وفي معركة كمعركة كونيتسا يمكن هفوة صغيرة أن تكلفنا الكثير٠"

ولما وصلت المجندات المرفوضات الى ليا ورأت ايلاني ابنتها كانتا ركضت نحوها وهي فاتحة ذراعيها٠ وظلت طوال الطريق الى المنزل تلمس وجه ابنتها غير مصدقة وتمسح الدمع من عينيها٠

وفي الاشهر الاولى من ١٩٤٨ بات صوت المدفعية القصي جزء من حياة ليا اليومية، كما رنين أجراس المعزى وصياح الديكة عند الفجر٠ وانطلق الثوار يحصنون مواقعهم الجبلية ويزيدون عدد المعاقل في القرية٠ ووجد الاولاد سلوى لهم في الاستعدادات وراحوا يلعبون لعبة الحرب٠ لكن رد فعل البالغين كان الخوف المطرد٠ وكانت جلجلة المدافع تزداد في اذني ايلاني كل ليلة٠ وشقت مخاوفها الواعية الطريق الى نومها٠ وذات ليلة شاهدت نفسها في الحلم وهي تجيب قرعاً على الباب٠ ورأت في الممر حماتها فوتيني تقف باسمة تحت ضوء القمر٠

ومدت العجوز يدها الى ايلاني ولمست خدها بأصابعها الثلجية وهي تقول بصوت يحاكي حفيف الاوراق اليابسة: "أهلا يا عروسي الصغيرة٠ اني مشتاقة اليك٠ أعدي أشياءك لأني سآتي اليك قريباً٠"

ولم تأخذ ايلاني ذلك الحلم على محمل الجد٠ لكن اختها نيتسا قالت: "يبدو أن حماتك تسبب لك المتاعب٠"

ضياع في الجحيم

بدأ الهجوم المضاد لجيش الحكومة على جبال مورغانا في ٢٥ فبراير (شباط) ١٩٤٨ عندما ضرب الجيش اليوناني معاقل الثوار عند الميمنة والميسرة٠ وفيما الجيش الشرعي يستعد لدخول القرى أخذت فلول الثوار تتراجع الى أعالي الجبال٠ وأدركت ايلاني أن في امكانها الفرار مع أولادها وراء الجيش اليوناني اذا هو دخل القرية٠ وقررت أخذ الاولاد الى منزل امها في الجزء السفلي من ليا لتكون على مقربة من الجيش اليوناني الزاحف٠

ولكن فيما هم على وشك الذهاب صباح اليوم التالي وقف ثائر في الباب سائلا: "الى أين تظنون أنكم ذاهبون؟"

وأجابته ايلاني: "اننا ذاهبون الى منزل امي لنكون في مأمن من القذائف."

وقال غاضباً: "نحن نحارب من أجل حياتنا جميعاً، ورجالنا يحتاجون الى طعام، وعلى كل بيت أن يؤمن لهم الخبز هذا اليوم. هيا الى العمل."

وما أن انصرف حتى وجهت ايلاني أولادها الى بيت امها طالبة منهم انتظارها هناك على أمل الانضمام اليهم بعد فراغها من الخبز. واذ ذاك سيتسنى لهم الانطلاق بعد حلول الظلام. ومشت ميغالي ونيتسا أمام الاولاد، وكانوا يلوذون بعضهم ببعض كلما عبرت قذيفة فوق رؤوسهم.

ولما وصلوا الى المنزل دخلوا القبو. وعند الغروب سمعوا طرقاً قوياً على الباب. وفتحت اولغا لترى ثائرين يحمل كل منهما رشاشاً، وصاحا فيهم: "اننا نخلي الجزء السفلي من القرية لأن الفاشيين باتوا على مقربة منا... قوموا انطلقوا فوراً."

وعقد الاولاد العزم على اللجوء الى منزل مجاور يخص انستازيا بوتساريس أملا في أن تجدهم ايلاني هناك. واذ خرجوا من الباب تسربت رائحة الحرائق الى انوفهم، وكان قصف المدفعية يزلزل الارض تحت أقدامهم. ودخلوا منزل آل بوتساريس الذين رحبوا بهم كثيراً.

أما ايلاني فقد لجأت خلال القصف الى مخزن للمؤن تحت مطبخ أحد الجيران، حيث انتظرت لحظة هدوء تمكنها من الفرار. ولفت وجهها بمنديل أسود وخرجت وسط الظلام. وعندما بلغت منزل امها وجدته خالياً.

وراحت تنتقل مذعورة من بيت الى بيت والمدافع لا تكف عن الدوي. وأخيراً انحدرت عن التلة نحو منزل ابنة حميها أليكسو. واذ لم تجد أحداً هناك عادت من حيث أتت وهي ترتجف خوفاً. وفجأة اعترضها شبح قاتم وسأل: "الى أين أنت ذاهبة؟"

- اني احاول العثور على أولادي.

ودنا الشبح منها فرأت على رأسه قبعة مستدقة الطرفين تحمل شعار التاج اليوناني. وتابع قائلا: "لا يمكنك التقدم خطوة واحدة. فالثوار يملأون النصف الاعلى من القرية مما يعني أن المسافة من هنا الى هناك هي مجال رماية. والافضل أن تنتظرني حتى الصباح ريثما نكون استعدنا القرية."

وتظاهرت ايلاني بالعودة الى أسفل. ولكن ما أن أدار الجندي وجهه حتى تابعت طريقها صعداً. وتجاوزت حدود الثوار الذين رأتهم تحتها يطلقون النار الى أسفل. ثم رأت قبساً من نور في منزل آل بوتساريس، فأسرعت نحو القبو تطرق على بابه. واصطكت ركبتاها اذ شاهدت اولغا هناك. أما نيكولا فاندفع بين ذراعيها.

غير أن قوات الحكومة هزمت تلك الليلة. ومع الضحى انطلق الثوار في شوارع ليا يرددون هتافات النصر على "الفاشيين". وظنت ايلاني أن الفرار بات مستحيلا.

جمع الاولاد

في منتصف مارس (آذار) ١٩٤٨، عندما باشر سكان ليا غرس الحبوب

والبصل، عمد الثوار في التلال الى زراعة من نوع آخر وهي غرس الالغام الارضية. وصمموا على تحصين جبال مورغانا بحيث لا يستطيع أحد الخروج منها أو الدخول اليها. وعززوا مراكز الحراسة وأسسوا مركزاً للامن لم يجدوا خيراً من منزل "الامريكية" ليؤويه.

وذات صباح فتحت ايلاني البوابة لترى سوتيريس درابيتيس، الرجل ذا العينين الافعوانيتين الذي نقب منزلها يوماً بحثاً عن السلاح، واقفاً هناك. وأعطاها مهلة ٢٤ ساعة لتؤمن لنفسها مسكناً آخر. ولم يكن لها مكان تذهب اليه سوى منزل ذويها المؤلف من غرفتين. وحملت ايلاني رسم خريستوس وبعض الاشياء الاخرى وخرجت بهدوء من البيت الذي أمضت فيه ٢٢ سنة هي عمر زواجها.

وترك مركز الامن المستحدث اثراً في القرية كلها. وبعدما كانت الثرثرة القروية غير ذات بال أعطاها هذا المركز أبعاداً غير منظورة. وبات في استطاعة أي مواطن أن يقصد المركز ويشكو جاراً له لأنه، مثلاً، يحوز الذرة فيما الآخرون يفتقرون اليها. وفي اليوم التالي يتوجه فريق من الثوار لمصادرة المؤونة. ومنح الثوار التسهيلات لكل من شكا مواطناً لا "يتعاون" واياهم. وما فتئت الطريق الى منزل آل غاتزويانيس مكتظة بالقرويين المتوجهين يومياً الى مركز الامن لرفع ظلاماتهم التي كان سوتيريس درابيتيس يدونها بدقة.

وأخبرت ايلاني أن أموراً شنيعة تحصل في منزلها. وامرت الاولاد بعدم التوجه الى هناك. وذلك كان تحدياً كبيراً بالنسبة الى غليكيريا العنيدة البالغة الخامسة عشرة. وذات عصر زحفت على التلة حتى الجدار الذي يعين حدود ملكهم. وهناك سمعت صوت حفر في الارض.

ورفعت غليكيريا رأسها فوق الجدار وشاهدت ثائراً يحفر خندقاً. وعند الطرف الآخر وقف رجلان وقد وضع كل منهما يديه وراء ظهره. وللحال عرفت أنهما على وشك تلقي الاعدام، وان الثائرين يحفران قبراً لجثتيهما. ثم رأت الحديقة ملأى بالمستطيلات الترابية وعرفت أنها مقابر حديثة العهد. وعندئذ أسرعت عائدة.

ولما سمعت ايلاني رواية غليكيريا راودها شعور بأن حرمة بيتها انتهكت بعدما حول مسرحاً للقتل والدفن. وكانت قد صدقت ما قاله خريستوس لها من أن الثوار انما يحاربون من أجل حقوقهم. أما الآن فباتت على قناعة بأن فظاعاتهم لا تقتصر على الجنود الاسرى بل تتعداهم الى النساء والاطفال.

وفي مطلع ابريل (نيسان) دوى بوق القرية معلناً الآتي: "نداء الى جميع الامهات اللواتي تراوح أعمار أولادهن بين الثالثة والرابعة عشرة: المطلوب التوجه الى الكنيسة فوراً."

وأسرعت النسوة الى هناك وهن يتهامسن حول ما يمكن أن يكون الامر. وأطلت ثائرة شابة من الكنيسة تدعوهن الى الداخل. ووقفت تصيح فيهن: "يا امهات ليا! لقد

استدعيناكن لان اولادكن في خطر. لكن محبتنا العظيمة لهؤلاء الاطفال لا تسمح لنا بتركهم. وقد وجد زعماؤنا طريقة لانقاذهم."

وصمتت برهة على غرار الخطباء المفوهين ثم تابعت: "ان دول العالم الديموقراطية، بما فيها الدول المجاورة البانيا ويوغوسلافيا وبلغاريا، فتحت أبوابها لاستقبال أطفالنا! وما عليكن الا توقيع هذه الاوراق لتأخذ الدول المذكورة تغذية اولادكن وتربيتهم على عاتقها. وبعد أن تنتهي الحرب فسوف يعودون اليكم أصحاء وسعداء."

وتبادلت نساء القرية النظرات المذهولة وشددن قبضاتهن على الاطفال. تلك الثائرة اذاً تطلب اليهن التخلي عن اولادهن! ورحن ينظرن الى القسيمة التي تحملها كما لو كانت أفعى.

والواقع أن خطة تجميع الاولاد التي لجأ اليها قادة الثوار كانت تهدف الى تبليغ العالم أن مآسي وأخطاراً كثيراً تحصل على أيدي القوات اليونانية المسلحة، وبالتالي الى كسب التأييد لقضيتهم. يضاف الى ذلك تأمين ولاء الاهالي بعد أخذ أولادهم بعيداً.

وأضافت الثائرة بحماسة: "اريد أن تعطيني كل منكن أسماء أولادها واعمارهم. وسيباشرون حياتهم الجديدة بعد قرابة الشهر."

واذ لم تنبر أي ام لطلبها قالت الثائرة بهدوء: "لماذا تترددن؟ أينبغي أن تتشبثن هكذا بأولادكن وتتركنهم عرضة للقتل من أجل ارضاء نزعاتكن البورجوازية؟" وخاطبت أقرب امرأة اليها قائلة: "أيتها الرفيقة كسانثو، أتوافقين على منح اولادك فرصة لحياة خالية من الخوف؟"

وأجابت المرأة الهزيلة دونما تفكير: "لن توافق أي منا على ابعاد اولادها."

وراحت الثائرة تتفرس في الام ثم دونت شيئاً على ورقة.

وأخيراً تقدمت امرأتان، وكانت احداهما شاهدت منزلها يحترق على أيدي الثوار وأولادها يتضورون جوعاً. أما الاخريات فمكثن بلا حراك. وقالت الثائرة: "اريد أن تذهبن جميعاً الى بيوتكن وتعدن التفكير في ما عساه يكون أفضل حل لمستقبل اولادكن."

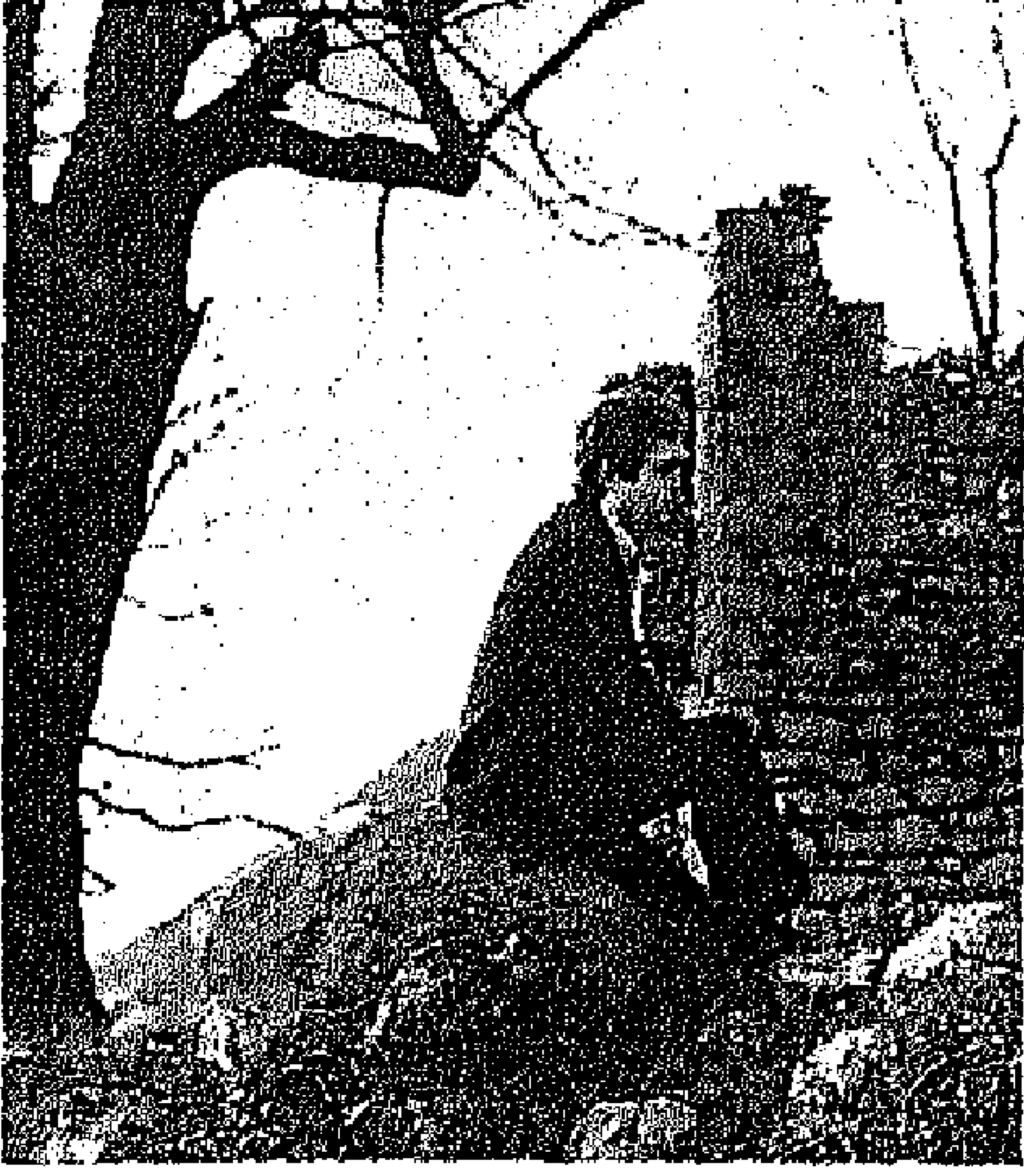
وأدركت ايلاني أن الثوار سيأخذون ابنتها وابنها الصغيرين عبر الحدود فيما سيجندون الابنتين الكبريين. وباتت على قناعة من أن الخضوع للثوار لم يحقق لهم شيئاً. وصممت على الخروج من القرية وان تحت الخطر قبل أن يشتت الثوار أفراد عائلتها. وراحت تضع تفاصيل خطة لم يتجرأ أي من سكان جبال مورغانا على الاقدام عليها، ألا وهي الفرار الجماعي.

وأخذت تحدث نيكولا بهدوء وتعده بأن أحداً لن يستطيع ابعاده عنها، ورفع الصبي عينيه نحوها وهو واثق من قدرتها على حمايته.

■ **نيكولاس غاتس**

القسم الثاني في العدد المقبل


كتاب الشهر
ـسم الثاني
ملخص من كتاب
بقلم نيكولا غاتس



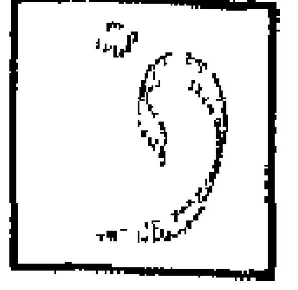
الكاتب على اطلال بيت امه
في ليا، فبراير (شباط) ١٩٨٣

مأساة أم

القسم الثاني

كاتب هذه الرواية الملحمية التي تدور على الحرب والمحبة والثأر هو نيكولا غاتزويانيس الذي ولد في قرية ليا الجبلية اليونانية قبيل اجتياح الألمان لبلاده. ومع طرد الغزاة قامت حرب أهلية بين الثوار وأنصار السلطة. ولثماني سنوات لم يستطع والد نيكولا المهاجر الى الولايات المتحدة الحاق عائلته أو الالتحاق بها. ونما الصبي مع امه ايلاني وشقيقاته الاربع اللواتي يكبرنه سناً.

في الجزء الاول من الرواية وصف الكاتب سنيّ حداثته وتوقف عند عزم امه على مغادرة البلدة بعدما أصبحت معقلا للمحاربين. وهو، في هذا الجزء، يصف المحاولات الشاقة التي بذلتها العائلة لتحقيق ذلك الامر، والاحداث المأسوية التي أسفرت عن اعدام امه. ويتابع كلامه عن محاولته الثأر وكيف انتهت بانتصار المحبة، القضية التي قضت ايلاني من أجلها.



ذات عصر فيما العائلة تأخذ قيلولتها داخل المنزل، تسلل نيكولا خارجاً الى مزاره السري، وهو حقل اللوبياء القريب. وكان ذلك المنزل المؤلف من غرفتين حيث يعيشون يخص جده والد امه الذي غادر القرية، شأنه شأن معظم رجالها، لدى دخول الثوار. وقد حول هؤلاء بيت نيكولا الوالدي مركز شرطة. وحذرته امه من الذهاب الى هناك بعدما جعل القبو غرفة تعذيب وحفرت القبور في الساحة الصغيرة.

وطالما أحب نيكولا التمدد على ظهره فوق أديم الارض الاحمر الدافىء، وحيداً بين صفوف اللوبياء المتطاولة نحو السماء. وكان يسمع حوله أصوات القرية الهادئة: فهنا نهيق حمار وهناك صياح ديك تملكه جدة عجوز وهنالك رنين الاجراس المعلقة في أعناق المعزى.

وجاء اقصاء نيكولا عن منزل امه بمثابة المزقة الاولى في ثوب حياته. صحيح أن الاجتياح العسكري والقنابل وحملات الاعدام والمجاعة ضربت قرية ليا في السنوات الثماني التي عاشها، الا أنه كان يفتح عينيه كل صباح ليرى الجبال نفسها تحاوط القرية، ويغمضهما كل مساء قرب الموقد الى جانب امه وشقيقاته الاربع. والحق أن انتقاله الى منزل جده على بعد بضع مئات الامتار الى أسفل كان أكثر ازعاجاً من انتقاله اللاحق الى الولايات المتحدة. فهو لم يعد يهتم الى أين يذهب بعدما بدا له أن العالم كله خال من أي ركن آمن.

وكاد نيكولا أن يغفو تحت الشمس في حقل اللوبياء ذلك العصر عندما سمع صوت جياد. ونظر من بين الزروع فرأى طيفين يقتربان. وعرف أحدهما، وهو سوتيريس درابيتيس ضابط الاستخبارات اللئيم الذي طردهم من منزلهم. أما الآخر فلم يعرفه. لكنه أدرك، من طريقة اصغاء سوتيريس اليه، أنه ذو شأن. وربما كان ضابطاً من القيادة العليا للثوار. فالعديد من هؤلاء ينتمي الى ليا والقرى المجاورة، وهم أصلا انبروا لمقاومة الالمان والايطاليين خلال الحرب العالمية الثانية، ثم نظموا أنفسهم باسم "جيش اليونان الشعبي."

وبدا أن الضابط الزائر راح يعنّف سوتيريس بقوله: "ان أثني عشر ولداً من ليا لا يكفون."

وكان الضابط الوافد يشير الى حملة جمع الاولاد. ولدى وصول الثوار الى ليا استولوا على مؤن أهلها ثم على بيوتهم. وبعد ذلك جندوا الاحداث اجبارياً في صفوفهم وأخذوا الفتيات بعد الفتيان. وها هم الآن يطالبون بجمع الاولاد بين الثالثة والرابعة عشرة وارسالهم الى احدى الدول المجاورة. والهدف اقناع العالم بأن ثمة أخطاراً جسيمة يتعرض لها الثوار على أيدي القوات المسلحة اليونانية. ومن أغراض البرنامج أيضاً تأمين ولاء الاهلين داخل قراهم، فضلا عن اعداد جيل جديد يدين بالمبادىء الثورية ويؤدي الى انتصارها في اليونان.

وخفض نيكولا رأسه لئلا يكشف أمره، وظل يصغي. وسمع سوتيريس

يجيب: "لقد جربنا كل الوسائل، بما فيها اغراؤهم بالطعام. الا أن اولئك نسوة أميات. ولو كن يغرقن في البحر، فلن يفلتن الاولاد من أيديهن."

قال الرجل الغريب: "سواء أرغبن في اعطاء اولادهن أم لم يرغبن، فسنرغمهن على ذلك. وأنت المسؤول عن تحقيق هذا الامر مهما تكن الطرق المتبعة.

وجاءت كلمات الضابط الغريب تأكيداً للكابوس الذي ما فتىء يلاحق نيكولا. اذاً، انهم سيأخذونه عنوة. وما أن خفت وقع حوافر الحصانين حتى هرع الى المنزل مخلفاً وراءه الغبار. وأخذ يصرخ: "ماما! ماما!" وهو بعد خارجاً. ونهضت ايلاني مذعورة عن حصيرة النوم. وارتمى نيكولا بين ذراعيها وهو يصيح: "انهم سيأخذونني. لقد سمعتهم يقولون ذلك. أجل، سينفذون خطتهم رغماً عنك."

والواقع أن تلك المحادثة التي تناهت الى اذني نيكولا ذي السنوات الثماني، وهو مختبىء في حقل لوبياء ذات عصر من شهر ابريل (نيسان) ١٩٤٨، بدلت مصائر أفراد عائلة غاتزويانيس جميعاً. وفي محاولتها تهدئة روع ابنها، أدركت ايلاني أنها على مفترق طرق حاولت تجنبه حتى ذلك الحين. وهي لجأت الى جميع الوسائل التي تعرفها لتتملق الثوار وتحافظ على وحدة عائلتها. لكنها أيقنت الآن أن تلك الوحدة ستتمزق.

والواقع أن أيلاني، المرأة الريفية التي تبلغ الحادية والاربعين، لم تحد قيد شعره عن العادات والتقاليد المحلية التي كونت عالمها. وكان زوجها خريستوس المهاجر الى الولايات المتحدة يعيش في عالم آخر سمعت عنه قليلا وتاقت اليه كثيراً، الا ان الحرب وقفت عائقاً بينها وبين الذهاب الى حيث زوجها، خصوصاً الحرب الاهلية التي نشبت بين الثوار والجيش اليوناني واجتاحت جبال مورغانا التي تؤوي بلدة ليا.

وكتبت ايلاني الى خريستوس: "ماذا تريد أن أفعل؟" فأجابها: "امكثي في بيتك مع اولادك." واطاعته وهي تدري تماماً ان عليها ان تتحدى الثوار اذا هي شاءت الحفاظ على وحدة عائلتها.

وأدركت ايلاني أنه يتعذر اخراج أولادها من القرية من غير أن يكتشف الامر او من غير أن يطأوا حقل ألغام. لذلك كانت تحتاج الى مساعدة رجل. والرجل الوحيد المؤهل الذي بقي في القرية هو الحداد لوكاس زياراس الذي يعيش مع عائلته بالقرب من أنقاض كنيسة هدمها الالمان عام ١٩٤٤. وهناك أقام الثوار نقاط مراقبة نهارية وليلية وسيروا دورياتهم الكشافة. لذلك كان لوكاس يعرف المعابر التي تؤدي من أرضه الى التلال تحت، وأيضاً مناطق الالغام. ومن غير اثارة أي شك كان يخرج من منزله بعيد الغروب الى حيث يدخن سيجارة ويفتح حديثاً مع الثوار يعرف من خلاله وجهة دورياتهم تلك الليلة.

وقبل أن تخمد عزيمتها قصدت

ايلاني منـزل لوكـاس وهـي تمنـي النفس بأن يقبل مرافقة اولادها خارج القرية٠ ولدى عودتها الى البيت أخبرت أفراد العائلة بالخطة التي لم يعتـرض أحـد عليهـا، وفـي الاقـل نيكولا٠ ولئن أخافته فكرة الفرار ليلا خفية عن أعين الثوار المرابطين، الا أنها كانت أقل هولا من فكرة سلخه عن امه وأخواته واقتياده الى البانيا٠

"سننجح المرة الثانية"

باشر لوكاس زياراس استعداداته٠ وكان عليهم اختيار ليلة صاحية غاب قمرها، على أن تملأ العائلتان وقتهما حتى ذلك الحين بالامور الاعتيادية٠ فتعمل ايلاني في حقل اللوبياء كل صباح، وتقصدها سولا زوجة لوكاس في اليوم الذي يختاره زوجها٠ وفي مساء ذلك اليوم ترسل ايلاني أفراد عائلتها، اثنين اثنين، الى طاحونة والدها المهجورة في الوادي، على أن تذهب كل مجموعة في طريق ويتلاقوا جميعاً في قبو المبنى٠ ومن هناك ينطلقون عبر الوادي حتى سفح الجبل ويرتقون سلسلة التلال التي يسيطر عليها الجيش الشرعي٠

وفي الايام المعترضة بدا الانتظار ممضاً بالنسبة الى المعنيين بالامر كلهم٠ فما الفائدة من العناية بزروع لن يحصدوها؟ غير أن ايلاني ما برحت تذهب الى حقل اللوبياء كل صباح٠ وفيما هي تعمل كانت تتصور طريق الهرب والاخطار الملازمة لتنفيذ الخطة٠ وأدركت أن الخطر يأتي من اختها الحبلى نيتسا ومن امها ميغالي أكثر مما يأتي من الاولاد٠

وبعد قرابة اسبوع من زيارتها منزل آل زياراس شاهدت سولا تأتي نحوها ذات صباح٠ وفيما انحنت المرأتان فوق الزروع همست سولا في اذن ايلاني: "هذا المساء، مع حلول الظلام٠"

وعلى رغم الانتظار الطويل لم يكن أفـراد العائلـة علـى استعـداد تـام للانطـلاق٠ وكانـت ايلانـي نبـهـت أولادها الى عدم أخذ شيء معهم٠ الا أن ابنتها البكر اولغا التي تبلغ التاسعة عشرة راحت ترتدي أفضل ملابسها طاقاً فوق طاق٠ وبينما هي تلبس زوجاً آخر من الجوارب المطرزة سخرت منها اختها كانتا (١٦ سنة) بقولهـا: "انـك تبديـن مثـل دميـة محشوة٠" وأسرعت نيتسا الى المطبخ وهي تأكل كل ما في طريقها٠ وقالت: "لا يجوز أن نترك طعاماً في المنزل٠ والحق أني آكل لاثنين: لي وللجنين في أحشائي٠" وعبأت فوتيني، وهي في العاشرة، عقد شعرها وخواتمها المعدنية ولعبها الصغيرة في أكياس٠ أما ميغالي فقبعت في احدى الزوايا وهي تئن خوفاً من أن يتركوها وحدها في الطريق اذا لم تستطع اللحاق بهم٠

وما أن غاب الضوء الأخير حتى أسرعت ايلانـي فـي ارسـال نيتسـا وميغالي وغليكيريا (١٥ سنة) الى المكان المتفق عليه، على أن تذهب اولغا وحدها٠ وعدت ايلاني بصمت حتى المئة ثم أشارت الى كانتا لكي تنطلق مع فوتيني٠ وبعد ذلك أخذت نيكولا من يده وخرجا٠

وهناك، فـي الطاحونـة، وقفـت

النساء والاولاد جنباً الى جنب فيما لوكاس يكرز عليهم نصائحه بصوت أجش خافت. قال ان المرحلة الاولى هي الاكثر خطراً لانها تقع ضمن نطاق مراقبة الثوار. لكن بلوغهم سفح الجبل يعني زوال الخطر الأعظم، في ما عدا بعض الدوريات والالغام.

وأشار لوكاس الى كانتا وابنته ماريان بالخروج أولا، نظراً الى تلقيهن التدريب في مخيمات الثوار. وانتظر الآخرون دقائق ثم انتظموا صفاً يتقدمه لوكاس. وكان الليل مظلماً وبارداً. وبينما هم يعبرون الوادي ضربتهم عصفة ريح. وأفاق ابن سولا الصغير، وهو ألكسي ذو السنتين، من فراشه المحمول على ظهر امه وراح يزعق بأعلى صوته كهر جريح.

وأسرعت ايلاني ورفعت الصبي من الجعبة وهي تحاول تهدئة روعه. الا أن صراخه ازداد حدة. وحاولت تهدئته مرة اخرى باعطائه حلمة صدرها، لكنه رفض ذلك وظل يصرخ. وهرع لوكاس نحو ابنه وقد بدل الخوف سحنته. وهمس في اذن زوجته: "ضعي يدك على فمه." وما أن فعلت سولا ذلك حتى ران صمت عميق. وتنفس الجميع الصعداء ونظروا حولهم وهم يتوقعون بروز الثوار من كل جانب. وأخذ الطفل يتلوى باهتياج فيما لون وجهه يستحيل أزرق.

وتنهدت سولا قائلة: "لن أستطيع الاستمرار في كبته. فهو يكاد يختنق." وما لبثت أن رفعت يدها فاستعاد الصبي أنفاسه وزعق على نحو أقوى من قبل. واذ ذاك قال لوكاس: "عودوا سريعاً الى الطاحونة."

وعادوا أدراجهم عبر الوادي متوقعين أن يدهمهم الثوار. ولدى دخولهم القبو أشعلوا سراجاً ووقفوا ينظرون في نوره الى كتلة اللحم الصغيرة الحية التي أبطل صراخها خطتهم.

وقال لوكاس بصوت صارف: "أعطوني اياه لأخنقه." ونظر كلهم اليه ظناً أن ما يقوله نكتة أو طرفة. غير أنهم رأوه جاداً في ما يقول. وما أن وصل الى الطفل حتى أدارت سولا ظهرها هلعاً وهي لا تصدق أن زوجها، الذي كان أباً عطوفاً على الدوام، يمكن أن يفكر في أمر كهذا.

وقبضت ايلاني على ذراعه وهمست: "ما الذي تقوله؟" ثم رفعت صوتها قليلا بعدما أستأنف الصبي البكاء وقالت بحزم: "علينا أن نعود من حيث أتينا. انه لن يكف عن البكاء. وسنعيد الكرة بعد يوم او اثنين، على أن نعطي الطفل منوماً."

وكانت المحاولة الثانية التي جرت بعد اسبوعين أشد هولا بالنسبة الى نيكولا، وقد تضخمت في مخيلته أهوال المحاولة الاولى ومنها تذمر جدته وصراخ الطفل والذعر الذي أصاب البالغين.

وما أن غادر وعائلته البيت حتى أيقنوا أن الطقس تبدل. فالهواء بات بارداً ودبقاً وقد انحدر الضباب من التلال نحو الوادي. وكان ذلك الضباب، في نظر نيكولا، تجسيداً للخوف الذي ما برح يطارده خلسة.

وشد على يد امه وهم ينزلون الى الوادي.

ولما بلغوا الطاحونة قالت ايلاني بصوت لا حياة فيه: "يبدو أننا لن نستطيع الانطلاق في هذا الجو الضبابي. وعلينا تأجيل الفرار مرة اخرى."

ونظر نيكولا الى لوكاس فرآه يتضاءل تحت ذلك الضباب. وجاء صوته المنهزم يقرع ناقوس الموت: "ربما قيض لنا ألا نغادر هذا المكان يا ايلاني."

وراح نيكولا يرتجف، واستشعرت ايلاني خوفه فانحنت هامسة له: "أعدك بأننا سننجح المرة الآتية."

وصدق كلام امه، وفارقه الخوف.

الوداع الاخير

في اليوم التالي وقف الضابط المسؤول عن تبليغ الرسائل في باب ايلاني ومعه ثائران، وقال لها ان القيادة في حاجة الى امرأة من عائلتها للذهاب الى فاتسونيا والتطوع لحصاد القمح والشعير في القرى المجاورة. وينبغي أن يبلغ عدد المتطوعات الاربعين في ظرف ثلاث ساعات.

دعت ايلاني أفراد عائلتها وروت لهم ما حدث وهي تنظر من وجه كالح الى آخر مثله. واستثنيت اختها نيتسا وامها، لأن الاولى حبلى والثانية متقدمة في السن. ولم تبقَ سوى اولغا وكانتا. لكن الخوف هو أن يجندهما الثوار فور انتهاء الحصاد. ثم جاء صوت غليكيريا ابنة الخامسة عشرة يقول: "أرسليني أنا يا أماه! فأني صغيرة على الجندية وكبيرة على حملة جمع الاولاد. وفي امكاني الهرب من فاتسونيا بمفردي."

وأدركت ايلاني أن ما تقوله ابنتها صواب. ولم يكن طول غليكيريا يزيد على ١٥٢ سنتيمتراً. وكان عملها اليدوي من الخراقة بحيث لن يحتاج اليها الثوار، بل سيعيدونها من حيث أتت. وقالت ايلاني وهي تبكي: "يا فتاتي! انك شجاعة حقاً وثقي أننا لن نذهب ونتركك." ووضعت لها طعاماً في كيس. وبعد ذلك ذهبت غليكيريا.

وفي الاسابيع الاولى من يونيو (حزيران) تحول خطر جمع الاولاد حقيقة، اذ أرسلت الدفعة الاولى عبر الحدود. وسرت اشاعة تقول ان مجموعة اخرى سترسل في الايام القليلة التالية. واذ ذاك أيقن الجميع أن قرية ليا، سواء أشاء أهلوها ام أبوا، ستفرغ من أولادها قريباً.

وأرسلت سولا زياراس الى ايلاني لتبلغها أنهم لا يستطيعون انتظار عودة غليكيريا وقتاً أطول، وان عليهم الانطلاق في ثلاثة أيام. والواقع أن القمر يدخل يوم الاحد التالي في العشرين من يونيو (حزيران) طور المحاق.

وفي اليومين التاليين ما برحت ايلاني تنظر الى قمم التلال عل علامة تأتي من ابنتها الغائبة. وطرق ضابط التبليغ بابها مرة اخرى يوم السبت، قبل يوم واحد من تنفيذ خطة الهرب الجديدة، وقال: "المعذرة يا سيدتي، لكننا نحتاج الى امرأة اخرى من عائلتك." ذلك أن الثوار أعلنوا

حاجتهم الى أربعين امرأة اخرى للعمل في البيادر.

وأغلقت ايلاني الباب وغرقت في أحد المقاعد... اذاً، عليها أن تضحي بفرد آخر من العائلة. واذ أدركت أنه لا خيار أمامها قالت لابنتها اولغا: "سأذهب أنا نفسي، فيما تأخذين أخاك نيكولا واختيك الى منزل آل زياراس."

وانبرت اولغا: "اننا لن نذهب من دونك، بل سننتظر هنا الى أن تعودي."

وأجابتها ايلاني: "هذه العائلة لم تكتب لها الحياة، اذاً."

وبعد الاتفاق على خطة العمل أخذت ايلاني ابنتها البكر جانباً لتغدق عليها مسؤولياتها الجديدة. قالت: "لدى بلوغكم السلسلة الكبرى أوقدوا النار علامة على وصولكم الى منطقة الجيش. وفي امكاني أن أرى الدخان من فاتسونيا، فأعرف أنكم وصلتم بسلام الى الجانب الآخر."

وهزت اولغا رأسها.

واستغلت ايلاني ما بقي لديها من دقائق لتضفر شعر فوتيني للمرة الاخيرة. ثم شدتها الى حد الوجع وهي تقول: "لا تقلقي يا حبيبتي، اذ سنعود أنا واختك غليكيريا. وسرعان ما سنكون في طريقنا الى الولايات المتحدة."

وطلبت الى كانتا ونيكولا أن يذهبا معها الى منزل آل فينيتيس الذي حوله الثوار مركزاً لخزن المؤن، ويبقيا الى جانبها حتى اللحظة الاخيرة، على أن تلبث اولغا وفوتيني في المنزل لئلا تثار الشكوك.

ولما همت ايلاني بالانصراف قبضت اولغا على ذراعها وقالت وهي تبكي: "انتظري يا ماما، فاني أود أن اقبلك مرة اخرى." وحرفت ايلاني وجهها. لكن اولغا دنت لتقبيلها ورأت في عينيها دمعاً حاولت اخفاءه بمنديل. وقبلتها كما شاءت من غير أن تنطق احداهما بكلمة.

وسارت ايلاني مع كانتا ونيكولا صعداً نحو مركز المؤن من غير كلام. وهناك تجمعت النسوة في الساحة. وصعقت ايلاني حين رأت الكسو زوجة أخيها معهن، كذلك ماريان زياراس ابنة لوكاس. وكان مقرراً أن تنضم اريتي ابنة الكسو الى جماعة لوكاس. وتبادلت المرأتان النظرات الوجلة بلا كلام خوفاً من ان يلاحظ الثوار ذلك ويتذكرونه بعد اكتشافهم مسألة الفرار.

وجلست ايلاني على سلم المنزل ووضعت نيكولا في حضنها. وأحبت كثيراً أن تلمس شعره وتلامسه، لكنها اكتفت بالتحديق اليه كأنما تحاول أن تخط ملامحه في ذاكرتها. وهمست في اذنه: "مساء غد عليك أن تمسك يد كانتا وتكون شجاعاً جداً." وأحست رأسه يهتز على صدرها علامة الموافقة.

وفي تلك اللحظة برز ثائر وصاح: "قفن جميعاً، فأننا مغادرون الى منزل أثينا ماكوس."

وصعد الجميع التلة. وأمسكت ايلاني يد نيكولا. وأمام بيت ماكوس أحست أن العالم كله تحت أقدامهم وأن في استطاعتهم النظر الى أقصى الشرق حيث ستختفي النسوة خلف

الجبال٠ ثم نظرت الى نيكولا فأيقنت أنه يحاول الابتسام غصباً عنه٠ وقال لها: "سأكون شجاعاً يا ماما٠"

قالت هي: "قبلني، هذه المرة فقط٠" وقفز الى ذراعيها وهي تقول: "يا قلبي وحياتي٠" ثم وضعت يد نيكولا في يد كانتا وأدارت وجهها٠

ومن حافة الهوة الكبيرة وقفت واختي كانتا ننظر الى صف النساء الاسود ينحدر حتى اختفى وسط أوراق الشجر الخضراء على ضفة النهر في أسفل الوادي٠ وبعد نحو خمس دقائق برز الخط الافعواني من جديد على الناحية الاخرى وهو يزحف مثل رتل من النمل فوق التلة المقابلة٠ ولو لم أعرف أن امي هي الاخيرة في الصف، لما خيل الي أنها ذلك الشبح البني والاسود الضئيل الذي يقف من وقت الى آخر كي ينظر وراءه٠ وقبل أن تختفي تماماً عن أنظارنا رفعت يدها فوق رأسها٠

وفي السنوات التالية عرفت لحظات، بل أياماً، كانت فيها ملامح امي تضطرب في عين ذاكرتي٠ غير أن منظرنا وهي تلوح لي للمرة الاخيرة ذلك الصيف لم يفارق مخيلتي البتة٠

في قلب الظلام

مع ذهاب ايلاني وجد أولاد غاتزويانيس أنفسهم كفراخ من دون الدجاجة الام وهم يحاولون الاستعداد للفرار٠وتظاهرت اولغا وكانتا بحصد القمح في حقل العائلة٠ ويوم الاحد عادتا باكراً الى البيت٠ وأحست اولغا ضخامة المسؤولية الملقاة على عاتقها، فوقفت أمام النافذة تراقب غياب الشمس الى أن حان الوقت لارسال كانتا ونيكولا وفوتيني٠ وفيما كانتا تقود اخاها واختها راحت فوتيني تبكي بكاء مراً ونظر نيكولا مرة أخيرة الى المنزل٠

كان منزل آل زياراس حل محل



الطاحونة كملتقى للجماعة. ودهشت كانتا لدى رؤيتها كاليوبي ميتروس هناك وقد انحنت مع سولا فوق مهد الطفل ألكسي لاعطائه مقداراً من الشراب المسكر. ووقف لوكاس يدخن بعصبية. وتقدمت كانتا منه وسألته بهمس غاضب عن سبب وجود كاليوبي هناك وعما اذا كان أخبرها بخطة الفرار. ورمى لوكاس السيجارة أرضاً وداسها وهز كتفيه وهو يتجنب النظر الى عيني كانتا.

وأنبته قائلة: "أما وعدت امي بأنك لن تخبر أحداً؟"

وبعيد الغروب وصلت ميغالي ونيتسا. وتبعتهما امرأة من القرية هي خريسولا دروبويانيس مع ابنتي أخيها مما أقنع كانتا بأن لوكاس المهذار أفشى الخطة لنصف سكان القرية. وأخيراً وصلت اولغا ثم تاسي ميتروس زوج كاليوبي. وباتت الغرفة الصغيرة تؤوي عشرين شخصاً: تسعة بالغين وأحد عشر ولداً.

وشرح لوكاس الخطة: على الاطفال أن يتظاهروا بأنهم يلعبون لعبة الاختباء بعضهم على بعض ويتجمعوا في الاخاديد التي حفرتها المياه الجارية تحت المنزل. ومن هناك يزحفون بهدوء الى الشجيرات على تخوم الغابة. وبعد ذلك تنادي الامهات اولادهن ويتظاهرن بالبحث عنهم، فيذهبن هن أيضاً حتى حدود الغابة. وعندئذ ينضم لوكاس الى الجماعة ويسير بها الى حقل الحنطة الذي يفضي الى أجمة من الاشجار الواقية.

وأشار لوكاس الى الاولاد بالخروج من المنزل. وحاول نيكولا أن يقتدي بأترابه في اطلاق الهتافات الخاصة باللعبة، لكن صوته خانه.

وما أن اصبحت النساء والاولاد في الخنادق حتى طلب منهم لوكاس خلع أحذيتهم لئلا تحدث صوتاً. وقفز أمامهم الى معبر كان اختاره في وقت باكر من ذلك اليوم. وقطع أنفاسه وسار خافض الرأس حتى بلغ وجماعته حقل القمح الذي غطاهم جميعاً.

في تلك الاثناء عمد أحد جيران تاسي ميتروس الى اخبار الثوار أنه رأى منزل آل ميتروس خالياً في حين ان قطيع المعزى الذي يملكونه ما زال يرعى في الحقول. وللحال أخذ سوتيريس درابيتيس، ضابط الاستخبارات، يبث النداءات عبر هاتف يدوي طالباً من دوريتين تتألف كل منهما من خمسة أشخاص اللحاق بالهاربين.

وعند طرف حقل القمح كان يقوم منحدر عار يفضي الى غابة كثيفة. وكانت نيتسا مغطاة بالسنابل عندما زلت قدمها بحجر كبير وتدحرجت الى أسفل. وسمع تاسي ميتروس تلك الضجة وهو على بعد بضعة أمتار منها، فقال: "هيا أسرعوا! انهم الثوار." وانطلق الجميع نحو الأيكة وقد سقطت أحذيتهم وبعض ما يحملونه هنا وهناك. ومن حسن حظ نيتسا أن اولغا وكاليوبي ميتروس شاهدتا ما حل بها فرفعتا المرأة الحبلى عن الارض واقتادتاها معهما. وكانت نيتسا فقدت حذاءها فراحت تئن مع كل خطوة تخطوها. ودخلت

الثلاث الغابة ولم يتوقفن حتى أصبحن تحت شجرة سنديان كبيرة. وأخذت كل منهن تنظر الى الاخرى بخوف اذ لم يسمعن أصوات الجماعة. والسبب أنهن انحرفن غرباً في حين ان لوكاس زياراس أخذ اتجاهاً آخر. لقد ضعن اذاً.

وتقدمن بشرود الى أن اكتشفت اولغا الخطأ، فاتجهت بهن نحو الشرق. وفجأة جلست نيتسا تتذمر قائلة: "لا أستطيع متابعة المشي، اذ ان قدمي ممزقتان."

وأخرجت اولغا من جيبها صبغة اليود والاربطة التي أعطتها اياها امها لحال كهذه وعالجت قدمي نيتسا. ثم همست لها: "قومي وامشي، والا مت هنا وحدك."

وتابعت اولغا الطريق الشرقية. نزولا حتى بلغت مجموعة أشجار خفيضة. وقررت الوقوف هناك للتفكير في الخطوة اللاحقة. وبذلت جهداً قوياً لرفع خالتها الى شعب شجرة. وجلست معها هناك وأشارت الى كاليوبي للانضمام اليهما.

وصادف أن أفراد دورية الثوار شاهدوا، لدى مرورهم غرباً، الاربطة التي تركتها اولغا عندما ضمدت جروح خالتها. فقال القائد: "انهم أمامنا مباشرة." وبينما كانت اولغا ونيتسا وكاليوبي في شعب الشجرة سمعن وقع خطى وصوت رجل يكيل السباب.

وأخذت الخطى تقترب فيما اولغا جالسة بلا حراك وقد حبست أنفاسها. ثم انحنت قليلا ونظرت الى الطيوف المقتربة وقالت: "انه تاسي ميتروس يشتم ويلعن. وها هو رأسه الأصلع."

وقفزت كاليوبي ميتروس عن الشجرة لتجد نفسها محاطة بابنيها. أما اولغا، وهي بين اختيها، فقالت لهما: "لقد روعني شرودنا حتى بت لا أنزف دماً اذا جرحت."

وراح نيكولا يرتجف ويتكىء على كانتا لفرط ارهاقه. وكان قد أضاع حذاءه وجرحت قدماه بالشوك والحجار. الا أنه صرّ أسنانه وصمت. وذلك كان جزءاً من امتحان الشجاعة الذي فرضه على نفسه بعد وصية امه.

السلسلة الكبرى

فيما الكل يبتهج بعودة المفقودين وقف لوكاس ينظر الى النهر ويفكر في طريقة عبوره، وهو الحاجز الأخير الذي يفصلهم عن السفح المؤدي الى السلسلة الجبلية الكبرى. وعلى رغم أن ارتفاع الماء لا يتجاوز الخصر فأن التيار قد يكون جارفاً. واخيراً أصدر أمره الى كل بالغ لكي يمسك ولداً بيده، وسار هو في الطليعة.

ووجدوا التنقل فوق الصخور الزلقة أعسر مما تصوروه. وسقطت ميغالي في الماء فأسرعت خريسولا دوربويانيس في اثرها وجرتها نحو لوكاس لكي يحملها. ثم صعدوا جميعاً من الماء وقد هدهم العياء ليجدوا أنفسهم عند السفح الذي يفصل الثوار عن الجيش. حتى قائدهم لوكاس نفسه لم ينجُ من التعثر، وسقط في احدى الحفر التي أحدثتها القنابل والالغام. وشهقت اولغا بخوف: "اننا في حقل ألغام."

وقال لوكاس: "كلا، لا تخافي. فهذه الحفر أحدثتها القذائف."

ورفعوا أعينهم وسط الظلام ليروا السلسلة الكبرى تغطيهم. وهمس لوكاس: "ينبغي انتظار شروق الشمس. لأنه لو تقدمنا الآن، لظننا الجيش من الثوار وأطلق النار علينا." واقتعدوا الارض تحت الشجيرات الكثيفة وقد تضاموا طلباً للدفء.

وعند الفجر تطوعت اولغا وخريسولا للسير اولا وهما تلوحان بعلم أبيض علامة الاستسلام. وحملتا خرقاً علقتاها بغصن شجرة. وتقدمتا الجماعة وهما تلوحان وتقولان: "ايها الجنود! ايها الاخوة! انقذونا."

وظهر عسكري فوق وصاح: "قفوا! من أنتم؟"

وصاحت اولغا مثله: "نحن نسوة وأولاد من قرية ليا."

قال الرجل: "اصعدوا حالا الى هنا بعد أن ترفعوا الاسلاك الشائكة وتعبروا من تحتها. وهكذا تصبحون في منجى من الالغام."

وقطعت خريسولا واولغا من تحت السلك باضطراب وتبعهما لوكاس والآخرون. وكلما نهض أحدهم من مخبأه خلف الصخور كان الجند ينظرون غير مصدقين.

وكان يتبع تلك المسيرة الغريبة خمسة ثوار اختبأوا بين الاشجار. وراح قائدهم يراقب ما يحدث وقد فغر فاه، فيما قال زميله وهو يرفع رشاشاً: "ها هم في العراء الآن." فأجابه القائد: "اننا بعيدون عن مركزنا. واذا فتحنا النار فلا بد من أن يحصدنا الفاشيون بقنابلهم... أتصدق أن لوكاس زياراس امكنه أن يقود جمعاً كهذا؟"

وما لبثوا أن بلغوا جميعاً قمة الجبل وخضعوا لاستجواب الجند. وحضر لهم هؤلاء الشاي الساخن بعدما لاحظوا الارهاق على وجوههم. ولما رأتهم اولغا أوقدوا ناراً لغلي الماء تقدمت من أحدهم قائلة: "أرجوك يا سيدي أن توقد ناراً كبيرة، اذ ان ثمة اناساً في الجانب الآخر ينتظرون اشارة لوصولنا سالمين."

فأجابها الضابط: "هذا مستحيل! أفنعطي الثوار دعوة مفتوحة لكي يسحقونا بكل مدفع لديهم؟"

أما في الناحية الاخرى فقد وصلت ايلاني الى البيادر بعد سير يومين، وهناك انضمت الى ابنتها غليكيريا. ولبثت تلك الليلة كلها صاحية تحدق الى السلسلة الكبرى من أقصاها الى أقصاها علها تلمح ناراً. لكن النار لم تظهر البتة. وفي أي حال انتفت الحاجة اليها. ففي ذلك اليوم جاء ثائران على جوادين واختارا نصف النسوة لأخذهن الى حقول اخرى تنتظر الحصاد. وكانت غليكيريا بين اللواتي وقعت عليهن القرعة. ولم يعد في امكان ايلاني الفرار خوفاً من التدابير الانتقامية التي قد يلجأ اليها الثوار ضد ابنتها. وفي مساء اليوم نفسه تم اعتقال ايلاني وألكسو زوجة أخيها وماريان زياراس وأخذن الى ليا.

وفي الصباح الذي تلا الفرار أعلم الهاربون ان بعض افراد الجيش سيرافقونهم الى قرية آييس بانديس التي تبدأ عندها الطريق المعبدة، ومن هناك سينقلون في شاحنات عسكرية الى أماكن مخصصة للاجئين.

وظهرت الشمس من وراء غيمة وتسللت أشعتها الى أجسادهم تبث الدفء فيها. ومن الوادي ارتفعت غمامة كالبخور حاملة معها شذى الثمار البرية وطيب الغار والصفصاف. وفجأة أدرك اللاجئون أنهم أحرار حقاً. وارتفع صوت صبية في الهواء راحت تنشد اغنية حفظتها منذ طفولتها.

وأخذ الاولاد يضحكون ويشبكون الايدي وهم يسيرون على وقع الاغنية. وما لبثوا أن اشتركوا جميعاً في الغناء. وفجأة ارتفع صوت سولا زياراس كنذير شؤم فوق الموسيقى: "كفوا عن الغناء. فهذا لا يجوز لنا وقد بقيت ابنتي ونسيبتي ايلاني هناك. ترى ما الذي سيحل بهما؟"

ولدى سماع كلماتها استدار نيكولا نحو ليا. الا أن السلسلة الكبرى حجبت منظر الجبال. ورأى ان عالمه انقلب. فهو اعتاد الوقوف فوق سطح العالم والنظر الى الاودية والتلال تحته. لكنه الآن يمشي في هوة وسط حافتين من الجبال الغريبة التي خيل اليه أنها على وشك طمره. لقد جمدت كلمات سولا أوصاله وأدرك للمرة الاولى أن امه ربما لم تستطع الفرار أبداً. وانفجر الدمع الذي حبسه طويلا منذ فراق امه.

الخيانة

لدى وصول ايلاني والكسو وماريان الى ليا موثقات اقتدن على الفور الى منزل ايلاني القديم الذي حول مركزاً للشرطة. واعتقلن اسبوعاً هناك حيث كان سوتيريس درابيتيس يستجوبهن يومياً مرات عدة وهو يهددهن أحياناً بمسدس وأحياناً بالصفع، ولكن دونما لجوء الى التعذيب. وتمسكت كل منهن بروايتها الاولى القائلة بأنها لم تعرف شيئاً عن خطة الفرار. واعتقاداً منه أنهن جزء من مؤامرة واسعة، اطلقهن درابيتيس في اليوم الثامن علهن يجرين اتصالات بالمحرضين الرئيسيين.

وسرت أخبار الهروب في جبال مورغانا كلها وبلغت القيادة العليا للثوار. وذهل كبار المسؤولين لحدوث ذلك الفرار على رغم أعين الرقباء. ووجدوا في نجاح تلك العملية حطا كبيراً من شأن مفرزة الامن التي أرسلت الى ليا لمنع حدوث أعمال من ذلك النوع.

ومن أجل تحري خيوط الكارثة أرسلت القيادة الى ليا رجلا يحمل اسماً مستعاراً هو "كاتيس." وعلماً منهم انهم يخسرون الحرب، راح الثوار يبحثون عن كبش محرقة لقضيتهم المتقهقرة. وما أن وصل كاتيس حتى بادر سوتيريس بقوله: "لقد أرسلت الى هنا للتحقيق في ظروف ذلك الاخفاق الذريع، ولكي أجعل من الخونة عبرة لكل من تسول له نفسه الانحراف عن عقيدتنا."

وأبقيت ايلاني تحت المراقبة بعد اطلاقها. وكانت تسير في القرية وهي تتجنب النظر أو الكلام الى صديقاتها ومعارفها لئلا تجر عليهم المتاعب. وفي اواخر يوليو (تموز)، بعد مرور شهر على اطلاق ايلاني والكسو وماريان، لم يجد الثوار أي قرينة ضدهن. وعندما سلم سوتيريس

اضبارات الاستجواب للقاضي كاتيس، أنبه هذا بقسوة قائلا ان صبر القيادة يكاد ينفد من جراء تصرفاته المائعة.

وكان سوتيريس سمع اشاعات مفادها أن النسوة من آل دوربويانيس يعرفن شيئاً عن الفرار، وان احداهن، واسمها خريسولا، انضمت الى الفارين ومعها ابنتا أخيها. ولم يعرف درابيتيس أن زوجة أخيها الآخر، واسمها الكسندرا، اشتركت في محاولة الفرار الثانية المخفقة. غير أنه أصدر أمراً باحضار الكسندرا وكونستانتينا، ام البنتين، للاستجواب.

وتولى كاتيس نفسه التحقيق. وبعد ساعات قليلة باحت كنتا آل دروبويانيس بالمحاولتين الاوليين ودور ايلاني الرئيسي فيهما. وهكذا اعتقلت ايلاني من جديد في مطلع اغسطس (آب).

وما برح أفراد جهاز الامن طوال الايام السابقة يملأون السجن بالاسرى من ليا. وكانت دينا فينيتيس (٢٨ سنة) أول الاسرى ومن القلائل الذين عمروا ليصفوا معاملة المساجين صيف ١٩٤٨.

وكلما اقتادوا سجيناً من القرية كانوا يعزلونه باديء الامر في احدى غرف الطبقة الثانية ثم يأخذونه بعد أيام الى الساحة الخلفية حيث يتم ضربه واستجوابه في الحديقة قبل طرحه في القبو.

وبات القبو الصغير يؤوي ٢٥ سجيناً أو أكثر مما اضطرهم الى النوم وقوفاً. واتسخت أجسادهم وملأتها البراغيث. وكان الثوار يقودونهم جماعياً الى الخارج مرة أو اثنتين يومياً. لكن ذلك لم يكن كافياً لقضاء حاجاتهم. وامتلأت زوايا القبو بالبول والبراز وصعدت منها الروائح الخانقة. وكانوا يعطونهم الحساء الرقيق في صحون من تنك مرة واحدة في اليوم، ويدفعونها اليهم بين القضبان.

وكان سوتيريس وسواه من الطاقم الأمني يدخلون القبو كل مساء تقريباً ويختارون أسيراً يركلونه ويضربونه على مرأى من الآخرين.

وعندما يحين اليوم لتنفيذ الاعدام في أحدهم، كانوا يدعونه مساء ويقتادونه الى فوق ليختفي نهائياً عن أعين زملائه. وكانت نيران الرشاشات توقظ أهل القرية من نومهم. وباتت حديقة ايلاني ملأى بالمقابر.

واسوة بالآخرين اقتيدت ايلاني خارجاً وتم رفسها وضربها. وكان سوتيريس يصيح أنها هربت أولادها وكانت بين مخططي العملية الرئيسيين. الا أن ايلاني ظلت متمسكة بروايتها الاولى، على رغم رفس الاقدام ولسع السياط. واقتيدت بعد أيام في الممر المؤدي الى البيت الذي استخدمه كاتيس. وهناك واجهها القاضي بكل ما يعرف عن المحاولتين الاوليين. لكنها أنكرت كل شيء.

ولدى اعادتها الى السجن - منزلها القديم - راحت تفكر في من عساه يكون الخائن الذي أفشى سر المحاولتين... لا شك في أن كونستانتينا دروبويانيس عرفت عنهما من سلفتها الكسندرا التي

اشتركت في المحاولة الثانية. غير أن الكسندرا، في رأي ايلاني، لا تفشي سراً كهذا وان قطع عنقها.

ولما دخلت ايلاني بوابة المنزل نظرت لترى امرأة في زي الثوار تخرج من الباب. تلك كانت ميليا دروبويانيس، احدى أقوى المتحمسات كلامياً لقضية الثوار. وتذكرتها ايلاني وهي تزعق عبر مكبرات الصوت قبيل التحاقها بالوحدات المقاتلة وتقول: "يا أهل ليا! ان الجيش الديموقراطي أعطى حياتي هدفاً. ولم يبق لي أب ولا أم ولا أخوات، بل غدا الجيش الديموقراطي عائلتي."

لكن حقيقة الامر أن ميليا لها أم، وأن أمها هي الكسندرا دروبويانيس بالذات، الأسيرة تلك اللحظة داخل السجن. وفجأة أدركت ايلاني من هو الشخص الذي عرف بالمحاولتين السابقتين وبات مستعداً، بل متحمساً، لكي يفشي السر. وفيما عبرت ميليا أمام ايلاني وبندقيتها على كتفها تلاقت نظراتهما. وللحال أدركت ايلاني أنها امرأة مائتة.

وبوشر تعذيب ايلاني بهدف تجريدها من كل مقاومة، علها تعترف بدورها أخيراً.

ويتذكر ثائر اسمه تاكي كوتيس أنه رأى امرأة في مطلع الاربعينات ذات شعر كستنائي يتم استجوابها: "جروها الى الساحة الخلفية حيث ضربوها. وهناك اعترفت بكل شيء."

أجل، لقد وضعت خطة الفرار بالاشتراك مع لوكاس زياراس. وانه لحق أن الجماعة حاولت مرتين وأخفقت.

وبعد اسبوعين نزل سوتيريس الى القبو ونادى مساجين ليا. وبعد وقوفهم جنباً الى جنب قال: "ان مصائركم اليوم ستوضع في يد العدالة الشعبية. ومن حسن حظكم أن محاكمتكم ستجرى أمام أهل القرية جميعاً."

المحاكمة

في أعلى القرية جرف ينحدر حتى الوادي المورق. وعلى حافة الوادي مغارة حفرتها المياه المتساقطة عبر القرون ويبلغ حجمها حجم غرفة كبيرة. هناك وضعت طاولة القضاة وحولها مقاعدهم، فيما أجلس المساجين على حجار مسطحة قبالتهم. وأمر سكان القرية بالجلوس على المرتفعات المدرجة وراء المساجين.

وفي الحادي والعشرين من اغسطس (آب)، وهو اليوم الثالث للمحاكمة، بقي على هيئة المحكمة الاستماع الى ايلاني. والتهمة الرئيسية التي وجهها كاتيس ضدها كانت تنظيمها محاولتين للفرار وتهريب أولادها وحثها امهات اخريات على الاقتداء بها. وأضاف كاتيس أن تلك الافعال أضعفت كثيراً جهود الجيش الشعبي الديموقراطي في ليا.

وبصوت جهوري رنان ألقى كاتيس اعترافاً طويلا كتبته شابة من البلدة قائلة ان ايلاني فاشية معروفة وانها رفضت ارسال أولادها الى الدول

الشعبية الديموقراطية. الا أن تلك الشابة رفضت الاجابة حين سئلت عن صحة اعترافها. فصاح فيها كاتيس: "لا تخافي! أين هي الشجاعة التي أظهرتها حين أدليت باعترافك؟".

غير أن الفتاة اكتفت برفع عينين دامعتين وهزت رأسها.

وذلك أربك كاتيس الذي نظر الى ايلاني وصاح متهكماً: "وأنت، لقد أظهرت حقدك على الثورة بتنظيم عملية ارتداد أفراد عائلتك و١٣ مواطناً آخرين عن عقيدتنا. ولدينا شاهد مستعد لقول الحقيقة في وجهك."

وهنا دعا كاتيس الثائرة القصيرة الممتلئة الجسم ميليا دروبويانيس التي وصفت المحاولتين الاوليين المخفقتين على نحو مفصل ومقنع، بما في ذلك عودة القافلة الاولى بسبب بكاء الطفل والثانية بسبب الضباب. وأعلنت ميليا: "لقد تولى الفاشي لوكاس زياراس اقناع امي وأخواتي بالفرار. غير اني اكتشفت الامر وأخبرتهن أن الجيش الديموقراطي سيكون في مواجهتهن أينما ذهبن، وان العلم الأحمر سيخفق قريباً فوق أرض اليونان كلها."

وضربت الفتاة عقب بندقيتها على الارض وصاحت: "أقسم بهذه البندقية أن والدتي وأخواتي تخلين عن فكرة الذهاب مع ايلاني وعائلتها بعد اقناعي اياهن."

وشدد كاتيس عزيمته باعتراف ميليا ونظر الى ايلاني مرة اخرى وقال: "اذاً، حاولت منذ البداية تأليب أهل هذه البلدة ضدنا."

وغدا وجه ايلاني بلون الرماد، لكنها حافظت على هدوئها وهي تقول: "هذا غير صحيح. اعطني اماً واحدة قلت لها الا ترسل اولادها عبر الحدود."

ونظر كاتيس حوله وسأل: "من منكن ستجيبها؟ انهضن وتكلمن."

وران صمت مطبق على المكان. وبعد دقائق نظر كاتيس نحو ايلاني بغضب وقال: "ليس من الضروري استخدام الكلام للتأثير على الآخرين. فأنت، برفضك تطويع بناتك وتشبثك بابنك، خنتنا جميعاً."

وخاطب كاتيس الجمع قائلا: "قبل ان تنسحب هيئة المحكمة للمشاورة، هل ثمة من يود الكلام حول هذه التهم؟"

واخذ الناس يجيلون انظارهم ويسعلون، الا ان احداً لم يتكلم. واخيراً نهض غريغوري تسافوس، وهو صانع براميل متقاعد، وقال بحزم: "اعرف أن ايلاني غاتزويانيس لم تؤذ احداً في هذه القرية. على العكس، لقد توخت على الدوام..."

وقاطعه كاتيس بقوله: "هذا يكفي. اجلس مكانك."

الا ان ذلك لم يثن أربعة رجال آخرين عن الكلام لمصلحة ايلاني. وادراكاً منه ان طلبه من القرويين الكلام كان خطأ، اعلن كاتيس: "ان هيئة المحكمة ستلتئم الآن." ونهض القضاة الثلاثة واصطفوا وراء شجرة كبيرة.

وبعد وقت ليس بطويل عادوا، فيما تجمدت اوصال المساجين. ووقف كاتيس في الوسط معلناً الحكم بقوله

ان الشهادات المقدمة ضد ايلاني وأربعة متهمين آخرين لا يمكن دحضها . "والمحكمة اثبتت جرمهم وحكمت عليهم بالموت."

"أولادي!"

سرعان ما سمعت القيادة العليا للثوار بأن الحكم على المتهمين الخمسة لم يلاق تأييداً من اهل البلدة . لذلك كان ضرورياً تحقير المتهمين في اعين مواطنيهم قبل تنفيذ الحكم. ويجب تجريد ايلاني على الأخص من كل تقدير يكنه لها الآخرون.

ودعا كاتيس محققيه من جديد واستؤنف التعذيب، خصوصاً الطريقة المسماة "فالنغا" التي منيت بها ايلاني اكثر من سواها . وهي تنفذ على ايدي ثلاثة رجال يجردون المتهم من حذائه وجوربيه ويمددونه على الأرض. ويتولى اثنان منهم وضع القدمين العاريتين بين ماسورة بندقية وطوقها، ويديرانها حتى يشد الطوق على نتوء القدمين. ويثبت الرجلان البندقية باحكام بينما يتولى الثالث ضرب باطن القدمين بقضيب معدني او خشبي.

ومن حسنات هذه الطريقة، بالمقارنة مع سواها من طرق التعذيب، انها لا تترك اثراً في الجسم. ولكن يبدو، في حال ايلاني، انه أسيء تطبيقها، لأن القرويين الذين شاهدوها المرة الثانية رأوا ان رجليها انتفختا حتى ضعفي حجمهما الحقيقي واسودتا من فرط الضرب. ولم تقو على المشي وباتت تتكلم بصعوبة . وربما لم تنقض ايام كثيرة على ذاك المنوال حتى اعترفت ايلاني بجميع التهم التي وجهها كاتيس ضدها .

وفي ايامها السبعة الاخيرة لم تجد ايلاني ملاذاً من الجنون غير ذكرى اولادها . وبعيد صدور الحكم عليها وجدت طريقة لتبليغهم رسالة تصل اليهم بعد موتها . ويبدو انها كتبتها وهي تنتظر دورها لجولة تعذيب. فبعد تركها قليلا في غرفة المؤن التي كانت لها يوماً، سعت ايلاني نحو علاقة الايقونات في الركن الشرقي من الغرفة. وهي لم تسمح قط لأولادها بمسح الغبار عن تلك الأيقونات، تاركة مسؤوليتها في عهدتها وحدها . ونظرت الى احداها وتذكرت ان ضمن اطارها رسوماً ورقية كثيرة. وأخرجت احدى تلك الرسوم وتوجهت نحو الطاولة التي يستخدمها طاقم الأمن. ومن هناك تناولت قلماً وكتبت قطعة صلاة قصيرة ومهرت الورقة بامضائها: "ايلاني غات."

وكانت غاية امضائها أنها تود وضع قطعة الصلاة تلك كشاهدة على ضريحها . واذا وجد الثوار الورقة، فلن يعرفوا انها كتبتها حول نفسها . اما اذا عثر عليها اولادها فسيعرفون ما قصدت بعد تعرفهم على خطها . واضافت الى الصلاة كلمات كتبتها بأحرف صغيرة: "لا تقلقوا، فأنا سعيدة." وبحروف اصغر اضافت تحت: "الماما ."

ولدى سماعها وقع خطى مقتربة اقحمت ايلاني الورقة وراء اطار الايقونة .

وبعيد ظهر السبت ٢٨ اغسطس

(آب) اخبر ١٣ سجيناً في قبو منزل آل غاتزويانيس، وبينهم سجناء ليا الخمسة، انهم سينقلون الى سجن ميكرالكسي الذي يبعد ثلاث ساعات سيراً. وكان التسلق الى ذلك المكان مجهداً، لكن السجناء صعدوا بأقدامهم العارية وأرجلهم السوداء المنتفخة، يرافقهم بعض الثوار المسلحين.

وما لبثت الجماعة ان اقتربت من نبع سيولي حيث اعتادت ايلاني الذهاب يومياً طلباً للماء. وصادف ان الفتاة كانتا بوليس ذات الاحدى عشرة سنة كانت نازلة من هناك. فلما رأت الثوار واسراهم صاعدين انحرفت قليلا عن طريقهم ليعبروا. وللحال تعرفت ايلاني على رفيقة ابنتها فوتيني وسألتها بالحاح: "قليلا من الماء يا كانتا." وهز احد الحراس رأسه وتوقفت القافلة.

وتتذكر كانتا بوليس ذلك الحدث بالآتي: "لم اقل لها كلمة واحدة، اذ كنت مرتاعة. وكانت يداها ملطختين بالأسود والأزرق وارتجفتا وهي ترفع بهما الابريق. وكانت ناحلة وشاحبة كأنها خارجة من قبر. وبعدما شربت تكراراً نظرت الي بعينين موجعتين وقالت: "آه يا فتاتي! اين هي ابنتي فوتيني الآن؟" ثم اخذت تبكي. واذ ذاك انتزع حارس الابريق من يدها واعاده الي وهو يقول: اذهبي! اذهبي."

وفيما تابع السجناء صعودهم المضني صادفوا مجموعة نساء من ليا عائدات من خدمة الحصاد الالزامية. وكانت بينهن جورجينا فينيتيس وهي امرأة ثرثارة تركت زميلاتها لتتبع المسيرة.

ووقف الأسرى عند نقطة مشرفة على مقبرة جماعية تنتظر ايواء جثثهم في الوادي بالقرب من جدول صغير. وأدركوا ان رحلتهم ستنتهي ليس في ميكرالكسي، بل في ذلك الوادي الذي يملأه صداح العصافير وخرير الماء. وفي تلك اللحظة نزل نحو ثلاثين ثائراً عن تلة قريبة وتقدموا اليهم.

ولما بلغت جورجينا فينيتيس المكان تجمدت اوصالها لهول الصرخة التي سمعتها من احدى النساء، وهي أهول صوت تسمعه حتى ذلك الحين. وكانت تلك الصرخة الأليمة تجمع احزان العالم وآلامه في كلمتين اثنتين: "يا اولادي."

وتلا ذلك وابل من رصاص.

معاً في النهاية

في الثاني عشر من سبتمبر (أيلول) اخليت بلدة ليا وأرغم سكانها على تسلق الجبال بما يمكنهم حمله من مقتنيات، نحو البانيا. وبقي معظم الثوار هناك، ظناً ان في استطاعتهم الدفاع عن مرتفعات مورغانا وتحويلها "ستالينغراد" يونانية. الا ان قوات الحكومة دخلت القرية بعد ستة ايام فقط ومعها عدد من اهالي ليا الذين غادروها قبل سنة. ومن هؤلاء كيتسو هايديس والد ايلاني الذي أخذ الى المقبرة الجماعية حيث تعرف على جثة ابنته من شعرها الكستنائي الفاتح.

وبعد يومين ذهب الى

ايفومينيتسا، البلدة الساحلية التي وضع فيها أولاد ايلاني في شقة للاجئين. وكانت اولغا واختها كانتا واقفتين على الشرفة عندما ظهر لهما جدهما المنحني الظهر يرتقي التلة. ومن غير ان تقول احداهما كلمة واحدة للاخرى رأتا الشعر نامياً على وجه جدهما، وذلك علامة الحداد. واذ ذاك امسكت احداهما بيد الاخرى وقالت اولغا بحذر: "ربما لم يجد موسى حلاقة يقشّ بها الشعر عن ذقنه." وما ان ولج البوابة حتى هرعتا اليه تسألانه: "ماذا حدث للماما؟"

ونظر اليهما كيتسو بتعب وقال: "لقد اخذوا غليكيريا الى البانيا. وهي لا تشكو أي سوء."

واصرت كانتا: "وماذا عن الماما؟"

وأجال العجوز نظره الى البحر المائج كالذهب المطرّق تحت الشمس الآفلة من غير ان يقوى على التفوه بالكلمات الصحيحة. وكرر قوله: "ان غليكيريا حية، وهي لا تشكو أذى." وللحال أدركت الاختان ما حدث.

أما خريستوس غاتزويانيس فقد تلقى نبأ مقتل زوجته في رسالة وصلت الى الغرفة التي استأجرها في مدينة وستر في ولاية مساتشوستس. ووصف انطباعه لاحقاً بالآتي: "كنت وحدي. ولما قرأت الرسالة جن جنوني وصرخت: قتلوا زوجتي؟ لأي قضية؟ لماذا؟"

وكتب الى اولاده يخيّرهم بين ثلاثة امور: اما ان يعيشوا مع جديهم في ليا واما ان يفتح لهم بيتاً في العاصمة اثينا واما ان يستقدمهم الى الولايات المتحدة. واجمعوا كلهم على الخيار الأخير، كما شاءت امهم. ووصلوا الى مدينة نيويورك في ٢١ مارس (آذار) ١٩٤٩. ووصف خريستوس مشهد لقائهم بعد ٢٥ سنة، وكان له من العمر واحد وثمانون عاماً: "وقفت على رصيف الميناء انتظر وصول السفينة. وعرفتني اولغا على الفور، ولوحت لهم بيدي. وحمل احد اللاجئين ابني نيكولا لكي اراه، وهي المرة الاولى اراه فيها. وفي تلك اللحظة انهمرت دموعي."

وفي ليلة ٢٤ اغسطس (آب) ١٩٤٩ ابصرت اولغا حلماً خلال نومها في غرفة واحدة مع كانتا وفوتيني. فقد ظهرت امها في المنام واوصتها ان تطلب من اخوتها خلع ملابس الحداد السوداء ومباشرة الغناء والرقص لأن غليكيريا حية ترزق.

وفي اليوم التالي وصلت برقية تقول ان غليكيريا اخذت الى مخيم في البانيا وطوعت في صفوف الثوار. وفي ١٠ اغسطس (آب) ١٩٤٩، بينما كانت تحارب في فيتسي حيث خاض الثوار احدى معاركهم الاخيرة، اختبأت في واد بعد رؤيتها عناصر الجيش الزاحفة. وهناك استسلمت وروت قصتها.

ووصلت غليكيريا الى نيويورك في ١٠ فبراير (شباط) ١٩٥٠. واخذها خريستوس فوراً الى المنزل الذي استأجره في وستر. ولبث الاولاد الخمسة ذلك الليل يتحدثون بشغف ويضحكون ويبكون وهم يخبرون بعضهم بعضاً بما حدث خلال الاشهر العشرين التي فصلت بينهم. وعلى

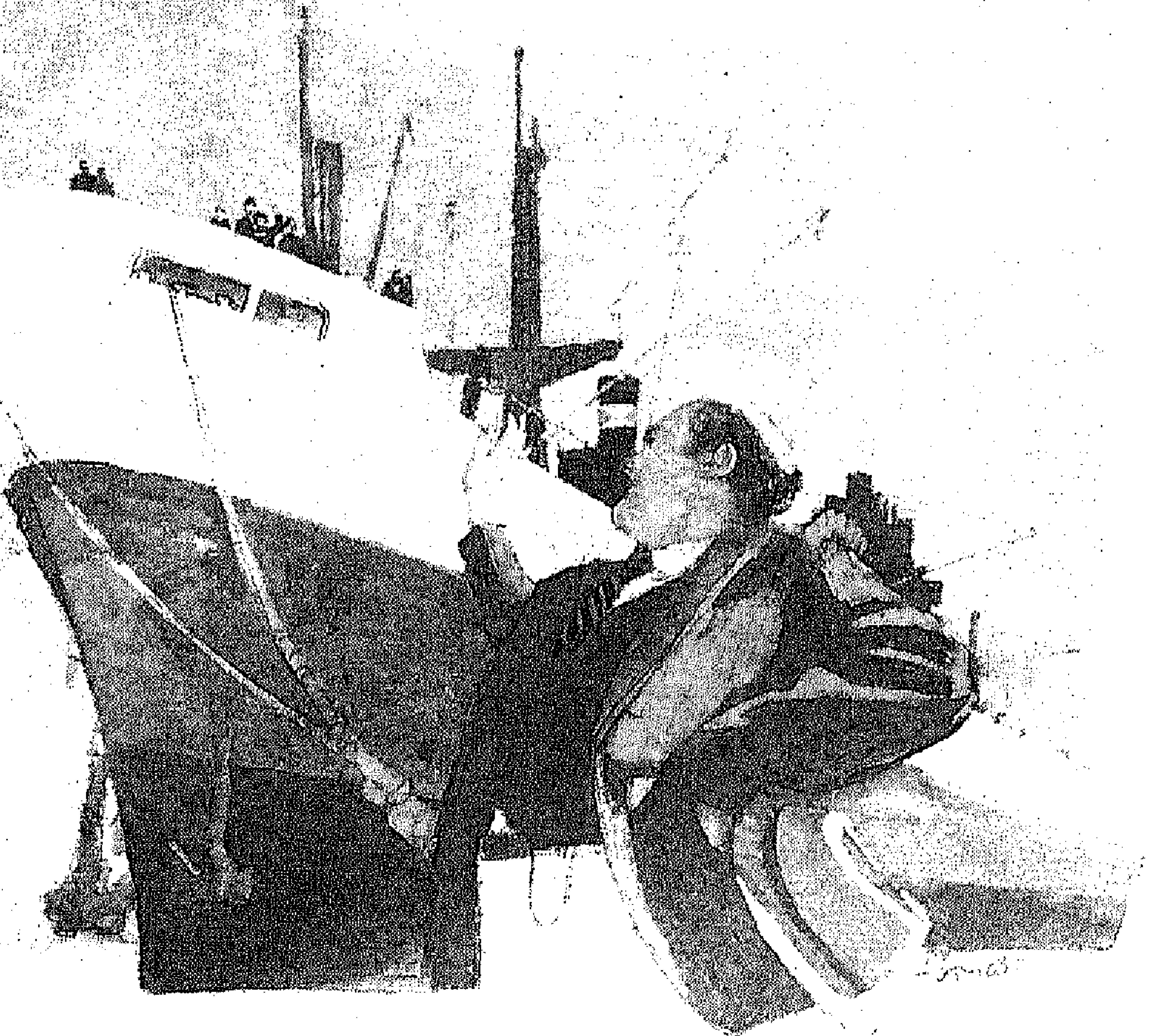
رغم ان والدهم جهز الغرفة بثلاثة اسرة فانهم لجأوا جميعاً الى سرير واحد وناموا فيه متضامين كما اعتادوا ان يفعلوا في ليا بالقرب من موقد المطبخ الى جانب امهم. ولئن لم تكن ايلاني معهم، فانها حققت الهدف الذي صارعت من اجله عقداً كاملا خلال الحرب والثورة، ثم ماتت من أجله ايضاً.

اجل، لقد وصل اولادها احياء الى الأرض التي لم تعش كي تراها.

الثأر

المسؤوليات العائلية الجديدة التي القيت على عاتق والدي منحته نضجاً وافراً. وكفل هجرة الانسباء الذين تبعونا واحداً واحداً الى وستر. ولم يلبث خريستوس غاتزويانيس ان غدا اباً لجماعة كبيرة من لاجئي ليا.

وكان، في السبعينات والثمانينات من عمره، يتربع في جلال ملك خلال نزهة مغتربي ليا الصيفية السنوية في وستر. ويدور حوله صف افعواني من الراقصين والراقصات، ثم يحييه مئات المهاجرين الذين اكتسبوا حياة جديدة بفضله. وعلى رغم ان نسوة كثيرات حاولن خطب ود ذلك الارمل فانه لم يفكر قط في الزواج مرة



اخرى، ولا انا سمعته يتكلم عن اي امرأة غير امي.

وتمت رحلتي الاولى الى ليا بعد تخرجي الجامعي عام ١٩٦٣. وعدت اليها لاحقاً على اثر وفاة جدتي ميغالي لأزورها من جديد كمراسل لصحيفة "نيويورك تايمس" بعد اقناع رؤسائي بجعل مركزي في اثينا.

وقصدت ليا مرات عدة خلال السنوات التي امضيتها صحافياً في اليونان. وكنت ارى البلدة تذوي على مهل، بحيث لم يبق فيها سوى بضع مئات من المتقدمين في السن. اما الأحداث فقد قصدوا الحواضر الكبرى سعياً الى ظروف حياة افضل. وباشرت برامج لاعادة احياء القرية، ومنها تأمين اعتماد حكومي لفتح مجاري مياه جديدة وتأسيس جمعية تتلقى هبات المهاجرين الى الولايات المتحدة من اجل اعادة بناء معالم البلدة وفتح فندق ومطعم ومحل لبيع الأشغال اليدوية المحلية.

وعندما حاولت التفكير في دوافعي الحقيقية وجدتني احاول، على نحو غير واع، اقامة نصب لأمي ليس كالانصاب التقليدية، نصب لا يستطيع احد هدمه. فالمشاريع التي سعيت الى تحقيقها هي خير شاهد على حياة امي وتعنيف لاولئك الذين خانوها فاخفقوا في القضاء على ايلاني غاتزويانيس واولادها.

والحق ان شقيقاتي لم يشاركنني في ذلك التعلق باليونان، اذ اعتبرن اهالي البلدة مسؤولين عن مقتل امي. لذلك ادرن الظهور لأرض لقين فيها صنوف العذاب.

وجاءت مسألة الثأر لأمي لتقسمنا هي الاخرى. فاعتقاد اخواتي كان ان الله سوف يعاقب المجرمين في الوقت المناسب. اما أنا فلم اكتف بذلك. ولقد علمت منذما وطئت قدماي ارض الولايات المتحدة ـ وانا في التاسعة فقط ـ ان يوماً سيأتي حين آخذ ثأر امي من قاتليها.

ولدى وصولي الى اليونان عام ١٩٧٧ مراسلا لصحيفة "نيويورك تايمس" كان في نيتي البحث عن قتلة امي. غير ان الاحداث الساخنة في الشرق الاوسط ابقتني معظم الوقت خارج اليونان. ولدى معرفتي ان احد اولئك المجرمين مات من غير ان اتعقبه قررت الاستعفاء من وظيفتي وتكريس وقتي كله لقضيتي الشخصية. واخيراً نفذت تلك الفكرة بعد معرفتي ان بطل الجريمة المدعو كاتيس ما زال على قيد الحياة.

وبعد ذلك حصلت على مسدس أدخلته الى اليونان مع بعض مقتنياتي بعدما أخفيته في تجويف مكنسة كهربائية. ولم أدر تماماً ما أريد فعله بالمسدس، غير أني لم أشأ مواجهة كاتيس الا وهو في حوزتي.

وكان من أثر ذهابي الى اليونان عام ١٩٧٧ أنه ايقظني من سبات عميق. وبعد الترخيص للحزب الشيوعي في اليونان عام ١٩٧٤ ورفع الحظر عن جميع الجرائم التي اقترفها الثوار خلال سنوات الحرب، عادوا الى اليونان أفواجاً وأخذوا يروون أخبار الحرب كما شاؤوا، جاعلين من قادة الحركة الثورية أبطالا شعبيين.

ولـم يفتـأ الطـلاب المتـحمسـون يطرقون باب منزلي في نهاية كل اسبـوع ويعطونـنـي منشوراتـهـم الدعائية ويدعونني الى اجتماعات الشبيبة. وكلما سألت احـداً منهم عـن حملة جمع الاطفال وحملات اعدام المدنيين والفظاعات الاخرى التي ارتكبها الثوار خلال الحرب، كان يهز رأسه ساخراً من جهلي ثم يشرح بتؤدة أن تلك الامور لم تحصل البتة.

وحاول الثـوار مـن خـلال حمـلات منظمة، محو ذكرى الافعال الشنيعة من ضمائر اليونانيين.

في تلك الاثناء كنت استعفيت من الصحيفة وكرست وقتي كله لتحري ظروف مقتل امي. والسنوات التي أمضيتها في اليونان كشفت لي عن ضرورة تدوين تلك السيرة ليس من أجلي ومن أجل أخواتي فحسب، بل تنويراً للجيل اليوناني الذي تلا الحرب والـذي قـد لا تتسنـى لـه معـرفـة ملابساتها.

وأسفرت المساعي التي بذلتها عن التحقيق مع أكثر من ٤٠٠ شخص، بينهم القرويون والجنود الذين حاربوا مع الطرفين. وأخذتني تحرياتي الى طول اليونـان وعرضهـا، فضـلا عـن بريطانيا وكندا وبولونيا وهنغاريا (المجر) وتشيكوسلوفاكيـا. وراحـت الرواية تتكشف لي قطعة قطعة.

أسوأ اهانة

تفرغت كليـاً لكـتـابـة الـفصـول الاخيرة من قصة امي: محاكمتها وتعذيبها وقتلها. وما أن فرغت حتى تبين لي أني حققت أحد أهدافي: لقد عرفت امي كما كانت حقاً، بعيداً عن ذكرياتي الطفولية المحدودة.

فالى ان هددت الحرب أعز ما لتلك المرأة، ألا وهو أولادها، بقيت امرأة ريفية عادية مليئة بالشكوك والمخاوف والمعتقـدات التـي غرستهـا فيهـا تربيتها. ولكن ما إن رأت خطر الابادة محيقاً بعائلتها حتى اكتشفت في أعماق ذاتها رؤية واضحة لما تريد وقوة كافية لتحقيقه. تلك كانت لحظة الملء في حياتها.

وأدركـت أن مـلء الـزمـن حـان بالنسبة الي أيضاً. وفيما اكتملت الصورة التي جمعت أجزاءها واحداً واحداً، عرفت أن جزءاً واحداً - هو كاتيس بالذات - بقي خارجاً لامتحان قدرتي. أما المسؤولون الآخرون عن مقتل امي فقد مات العديد منهم. وعرفـت مـن أهالـي البلـدة الذيـن قابلتهم أن الذين ما زالوا أحياء لم يكونوا أكثر من دمى في أيدي قادة الثوار. لذلك وجدت أن الحقد يكفيهم وأنهم لا يستحقون العقاب. غير أن وضع كاتيـس كـان مختلفـاً، كونـه المسؤول الاول. وبدا كالمنارة التي تجذبني نحو ذاتها.

اسمـه الحقيقـي كـان اخيليـاس ليكاس، وهو يسكن بلدة كونيتسا. وأخذت الطائرة الى يانينا، وهناك استأجرت سيارة قدتها في اتجاه منزله. وكنت أرخيت لحيتي أشهراً وقد وخطها اللون الرمادي عند الذقن. وبدوت أكبر من سنواتي الاثنتين والاربعين، لكني عرفت ان حلاقة ذقني ولبسي السروال الازرق كفيلان بتبديل منظري.

وكان منزل ليكاس مشرقاً ومؤلفاً من طبقتين، وأوقفت السيارة وقرعت الجرس، ففتحت الباب امرأة مكتنزة في أواخر الخمسينات ذات شعر صبغ بلون الحناء، تلك كانت زوجة ليكاس، وهي قادتني الى غرفة جلوس فسيحة.

وظهر ليكاس على نحو مسرحي، وكان أطول قامة مما تصورته، وقد لبس بذلة رمادية ثقيلة على رغم حرارة الطقس، وحافظت سنواته الثماني والسبعون على عضلات مفتولة وعينين حادتي النظر، فيما قصّ شعره الابيض قصيراً على غرار العسكر.

وسألني: "ماذا يمكن أن أفعله لك؟"

فأخبرته أني أحتاج الى معلوماته وآرائه من أجل الكتاب الذي أعده حول ممارسة الجيش الديموقراطي الشعبي للعدالة العسكرية.

وأجاب: "اسمع، لقد كنا نرسل ملفات الدعاوى كلها الى القيادة قبل تنفيذ الاحكام، على أمل تعديلها، لذلك لا يمكن القاء اي مسؤولية علينا."

وتابعت ببطء: "لقد جرت محاكمة مدنيين في بلدة ليا، وكنت طرفاً فيها."

– كلا، كلا، لم أحاكم مدنيين.

"ان ثلاثمئة شخص من ليا حضروا تلك الجلسة."

وأجاب وقد بدا عليه الانزعاج: "لقد أخطأ من قال لك هذا."

وقلت: "جميع الثوار الذين قابلتهم قالوا انك كنت تدعى كاتيس، وهذا اسم اخيلياس ليكاس المستعار، وليكاس هذا من كونيتسا."

– ليست لي علاقة بأحد يحمل اسم كاتيس، وأهم ما في الامر أن تلك المسائل كلها كانت تسوى في القيادة.

ونهض بعجل كما لو كان يدعوني الى الانصراف، وأضاف كمن له سلطان: "هذا كل ما في الأمر... أتعد ما قلته لك من قبيل الاكاذيب؟".

وأخذ كرهي للرجل يسدل غشاوة على أفكاري، وخاطبته بهدوء: "اسمع يا ليكاس: لقد تمت في ليا محاكمة خمسة أشخاص، هم ثلاثة رجال وامرأتان، وذلك جرى في مكان فوق البلدة."

– لا أعرف شيئاً عن محاكمة تمت في مكان كهذا.

"كان عمري ثماني سنوات آنذاك، وقد أخذوا امي وحاكموها ثم اقتادوها الى التلال وقتلوها رمياً بالرصاص... هذا حدث حقاً، وأنت تتظاهر بأنك لا تعرف شيئاً؟"

قلت كلماتي الاخيرة بصوت مرتفع وتابعت متلعثماً: "ايلاني غاتزويانيس... اسم امي ايلاني غاتزويانيس."

– لم اسمع بها البتة، ولا أدري ان كان سواي حاكمها.

"أنت نفسك رأست الجلسة."

– لا تلق علي تبعة قتل أي امرأة، ان هذا يهينني.

"تقول انه يهينك؟ انك أنت المسؤول."

وعرفت اذ ذاك أني أود أن أقتل

كاتيس. الا أن الجزء المنطقي من أفكاري بين لي أن ثمة مخرجاً واحداً للمدينة. ولكي أستطيع الهرب، علي قتل زوجة كاتيس أيضاً، وهي كانت تصغي الي بعطف، كذلك ابنته التي كانت مع طفلها في احدى غرف المنزل. أما اذا أقدمت على قتل كاتيس وحده، فان زوجته وابنته ستعلمان الشرطة.

وكان طيف أولادي عبر ذهني وأنا اجادله. وذلك ثناني عن تنفيذ رغبتي التي ألحت علي من جديد عندما لاح لي جدي وهو يبحث عن جثة امي. ووقفت عندئذ وبصقت في وجه كاتيس. ولفظت ما يكفي من اللعاب ليغطي وجهه المرتعش وينزل الى قميصه النظيف وسترته، علماً أن أكبر اهانة يمكن أن يوجهها امرؤ الى آخر في اليونان هي أن يبصق عليه.

ولهنيهة ظن كاتيس أنه ذلك القاضي القديم في عنفوان مجده. ورعد قائلا: "أتبصق علي؟ ألا تعرف من أنا؟" ولكم وددت أن يرفع يده ويصفعني كي أجيبه بطلقة مسدس. الا أن زوجته نهضت من مكانها نحونا، ربما بعدما رأت المسدس يتدلى من خصري.

وصرخت في زوجها: "قف يا أخيلياس! لا تتحرك."

وفتح قبضة يده على مهل وغرق في مقعده ووجهه ما زال يغطيه البصاق.

وتوجهت نحو الباب وصفعته بشدة حتى شابه صوته صوت طلقة المسدس التي لم أطلقها.

وصية ايلاني

لم أشك البتة في أن كاتيس يستحق الموت. لقد شاهدت تهور المجرمين ولامبالاتهم في عينيه. وقطعت عهداً على نفسي بمواجهته من جديد بعيداً عن الانفعال وعن تدخل أفراد عائلته. وهذا ما حصل.

وبعد أربعة أشهر وجدت نفسي في مرفأ ايغومينيتسا على البحر الأيوني، حيث علمت أن كاتيس وعائلته استأجروا شقة لفصل الصيف. وانتظرت خارج المبنى حتى رأيت زوجته وابنته وصهره وحفيديه يخرجون ويتوجهون الى الشاطىء. ومرت زوجته بجانبي من غير أن تعرفني لأني كنت حلقت لحيتي.

ودخلت الشقة بعدما فتحت بابها ببطاقة بلاستيكية. ومشيت على رؤوس أصابعي فوجدت كاتيس أمامي نائماً. ولم أشعر بأي شفقة نحوه، على رغم سنه وكونه وحيداً في تلك اللحظة.

وكان المسدس معي، لكني أدركت أن في امكاني خنقه بوسادة. ومتى عاد أفراد العائلة ظنوا أنه قضى خلال النوم. وهكذا لن يشك أحد في أمري.

ووقفت دقائق أحدق الى الرجل الذي قتل أمي. ثم أدرت ظهري وأغلقت الباب وغادرت بهدوء.

ومنذ مغادرتي ايغومينيتسا وأنا أسأل نفسي عما حداني على الاحجام عن قتل كاتيس. أعرف أن الخوف أوقفني عن ذلك: خوف الانسلاخ عن أولادي وخوف فتح مسلسل الثأر جيلا بعد جيل. لكن ثمة دافعاً آخر رد يدي عنه، وهو فهم حقيقة أمي الذي اكتسبته من امتحاني لحياتها.

أجل، ففي كشفي عن جوانب تلك الحياة عرفت شيئاً من كلماتها

الاخيرة وهي على عتبة الموت. فعندما أدخلت انجليكي بوتساريس لمواجهتها في اليوم السابق لاعدامها، لم تتكلم امي عن آلامها وعذابها، بل قصرت الكلام على شوقها الى معانقة أولادها مرة أخيرة.

وقبل أن يمزق صدرها الرصاص، لم تكن صرختها الاخيرة لعنة على قاتليها، بل تذكرة بما ماتت من أجله، ألا وهو المحبة. لهذا صرخت وهي تموت: "يا أولادي!" اذاً لم تبذل امي طاقتها الباقية في لعن معذبيها، كما فعلت هيكوبا في المسرح الاغريقي القديم. لكنها، كمثل انتيغوني، وجدت الجرأة لمواجهة الموت لأنها أدت واجبها تجاه من أحبت. فالكلمات التي وضعها سوفوكليس على لسان أنتيغوني لتقولها أمام خالها الملك الذي حكم عليها بالموت: "ان طبيعتي هي المشاركة في المحبة، لا في البغض" تنطبق على امي.

تلك كانت طبيعة ايلاني. وكشجرة التوت في ساحة بيتنا في ليا، التي ما زالت صامدة أمام بقايا المنزل، مدّ الحب جذوره فينا، نحن أولاد ايلاني، وامتد منا الى أولادنا أيضاً.

ان قتل كاتيس من شأنه اعتاقي من الألم الذي ملأ نفسي سنوات طويلة. لكني وجدتني عاجزاً عن ارضاء ذاتي على هذا النحو. ان محبة امي - وهي دافع حياتها الاساسي - لا تزال تجمعنا، وما فتىء حضورها يملأ حياتي كواقع ملموس. أما استجماع الحقد الضروري لقتل

كاتيس فمن شأنه تقويض الجسور بيننا والقضاء على ذلك الجزء مني الذي يجسد ايلاني.

■ **نيكولاس غاتس**



قبيل انتصاف الليل سمع صوت رهيب لتكسر الواح الخشب وتدفق الماء الى المركب الشراعي على أثر اصطدامه بحيد صخري، ومع غرق المركب بات ركابه الثلاثة تائهين وسط محيط لا يرحم

ثلاثة في طوف وسط المحيط



بعد ثلاثة أيام من مغادرة المركب الشراعي "فامونوس"، الوحيد الصاري والبالغ الأحد عشر مترا طولا، ميناء راروتونغا هبت عليه ريح بسرعة عشرين عقدة (٣٧ كيلومترا في الساعة) ثم أطلت الشمس من بين حجب الغيم. وكان ذلك بعيد الظهر عندما أحضر الربان روبرت آروس، الرجل الخمسيني الرشيق الناحل، آلة سدس الى مؤخر المركب لقياس بعد المركب عن خط الاستواء، ومنعه ترجح المركب من الرؤية الدقيقة. لكنه انتظر الى أن لاحت له الشمس والافق معا. وإذ ذاك نادى بأعلى صوته: "مارك!"

وفي قمرة القيادة سجلت زوجته مارغريت (٣٠ سنة) الوقت، وقارنت ذلك مع تاريخ النهار والارقام المسجلة على آلة السدس، ثم أجرت حسابا بالخطوط الطول والعرض بالاعتماد على دليل بحري دقيق.

وبعد فتحه الخريطة الملاحية قال آروس: "لقد انحرفنا درجة على الاقل شمال خطنا القويم." وحك بيده لحيته التي وخطها اللون الرمادي وهو يتصور ذلك الانحراف الذي يعني، بالارقام، مئة كيلومتر. ويبدو أن انطلاقه في خط جنوبي غربي من راروتونغا في جزر كوك، شمال نيوزيلندة، تم دونما اعتبار لتيارات جنوب المحيط الهادىء والرياح التجارية.

ومن غير أن ينتابه اضطراب زاد زاوية الاتجاه جنوبا لتصحيح الخطأ. وفي تقديره أنه خلف راروتونغا على بعد ٨٠٠ كيلومتر وراءه، وان جزر تونغا تقوم على بضع مئات الكيلومترات غربا. وبدت أقرب نقطة يابسة على الخريطة جرف هاران، وهو حيد مرجاني صغير الى الشمال الغربي. وكان ذلك بالنسبة الى بوب شاطىء الأمان.

وضبط وضع دوارة اتجاه الريح على دفة المركب فيما جلست مارغريت تطالع رواية في قمرة القيادة. وقبع كريستيان، ابن بوب من زوجته الاولى وهو في السابعة عشرة، في حجرة النوم يعزف على الغيتار. ولم يكن من عمل لأفراد العائلة، عصر تلك الثلثاء في التاسع من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٢، سوى الاسترخاء فيما المركب يمخر عباب اليم وقد أسلم شراعه للريح.

وبعد عشاء باكر جلس الثلاثة يتحادثون كعادتهم في شؤون الحياة العميقة. ثم باشر كريستيان، الفتى الناحل ذو الشعر الاسود، نوبة المراقبة الليلية الاولى بين السادسة والتاسعة. وأيقظ مارغريت لتأخذ دورها وأوى الى سريره شاكراً. وكان ابوه غافيا في تلك الاثناء.

وراحت مارغريت كل عشر دقائق تستجلي الافق وهي في قمرة القيادة، لعل سفينة شردت عن خطها واعترضت "فامونوس". وكانت حبال الاشرعة تئز في الريح والرذاذ يتطاير وقد أطل القمر بدرا أصفر في قبة السماء. وظلت مارغريت ساعتين تقرأ روايتها في نور المصباح. ولن تمضي ساعة اخرى إلا ويعتقها بوب من تلك المسؤولية.

وفجأة ارتفع مقدم المركب عاليا في الهواء قبل أن يصدم الماء بقوة وجلبة كبيرتين. ولدقيقة انحرف الى الميمنة ثم الى الميسرة. وسقط بوب من مضجعه بفعل الصدمة، ونهض لتوه وتسلق السلم الى حيث زوجته التي شلتها الصدمة. وبرز الصاري نحو السماء على زاوية بمقدار ٤٥ درجة، واخذت الاشرعة تصطفق وهي لا تقوى على الاحتمال. ورأى بوب المياه تندفع من ثقوب الالواح الخشبية في بدن المركب والبحر حوله يرغي ويزبد. ووقف مذهولا وقال بصوت أجش: "لقد اصطدمنا بجرف مستور!"

وكان كريستيان متكئا في سريره ينظر الى الامواج المتلألئة تحت ضوء القمر وهي تقذف "فامونوس" من جانب الى آخر. ثم رأى ناحية قاتمة من الجرف على عمق نصف متر تحت الماء.

وقال له والده: "انفخ طوف النجاة يا بني." وبالصوت الحازم نفسه خاطب زوجته: "حاولي طلب النجدة يا مارغريت."

وهرعت مارغريت الى حجرة النوم وأدارت جهاز الارسال. والتمع نوره الأحمر مرتين قبل أن ينطفيء. وقالت: "الجهاز لا يعمل." ووجدت أمامها صندوق طعام انفتح من جراء الصدمة. وأسرعت الى وضع المعلبات في غطاء وسادة.

أما على الدفة فوق فأكب بوب وابنه على منفخ يعمل بالدوس لملء طوف نجاة رمادي يبلغ طوله نحو مترين ونصف متر. وتمايل المركب أكثر فأكثر وهو تحت رحمة الريح على سطح الجرف. وصرخ كريستيان: "ينبغي أن ندلي الياطر." واندفع الى الأمام وأنزل المرساة. واذ لم تعلق بالصخور أحضر بوب مرساة اخرى قفز بها ابنه الى الماء بحثاً عن ثقب تعلق به العقيفة.

ولم يكن كريستيان يلبس غير سروال قصير. الا أن والده جهز نفسه بسترة غوص مطاطة وقفز في أثره وهو يدري أن أمل النجاة الوحيد يكمن في ابقاء المركب على الجرف والتشبث به، علّ أحداً يصادف عبوره من هناك فينقذهم. وراح الاب والابن يصارعان الامواج ويبحثان عن فجوة تقيهما الانجراف عن تلك الصخور الملساء. وانزلق المركب منهما في اتجاه حافة الجرف.

وقال بوب: "دعنا نصعد الى المركب، اذ لا نفع من بقائنا هنا."

ولما صعدا الى الدفة كان المركب يتابع اتجاهه نحو المياه الأكثر عمقاً عند طرف الجرف. ونزل بوب الى حجرة النوم حيث غمرته المياه حتى الخصر وطفت الكتب والامتعة حوله. ووجد كيس النوم وفيه عدة النجاة من ادوات لصيد السمك وسكاكين وابر للفق الاشرعة ومصابيح وصندوق للاسعاف الاولي. وكانت مارغريت أنقذت علب الطعام وماء الشرب.

وعلى مقدم المركب وقف كريستيان يتفحص البحر، فوجد على مسافة ١٥ مترا أمامه، المحيط القاتم الرهيب. وصاح: "يا أبي، اننا نكاد نسقط في هوة المحيط."

وقال بوب: "ليضع كل منكما سترة

نجاته. وأرجوكما أن تساعداني في تحرير القوارب الصغيرة." وأنزل بوب وكريستيان قاربا من البلاستيك علق بسقف غرفة النوم، وحملا معهما أيضا اللوح المعد لركوب الامواج. وشدت القوارب الثلاثة بعضها الى بعض بالحبال. ثم حمل أفراد العائلة بقية المعدات وأسرعا الى سطح المركب وقد استقل كريستيان طوف المطاط فيما استقل بوب ومارغريت قارب البلاستيك. وأبعدتهم الريح عن المركب في الوقت المناسب. وما هي إلا ثلاثون ثانية حتى انحدر المركب عن حافة الجرف وهوى الى اسفل وقد نتأت قمة الصاري فوق الماء. وبعد قليل غاب تماما عن البصر.

وراح بوب يصور لنفسه الاخطار التي تتهددهم. وقال إذ تملكه الغضب: "انه الاهمال المحض، إهمالي أنا بالذات."

وهدأت مارغريت من حدة غيظه قائلة: "كلا يا حبيبي. فالخطأ ليس منك وحدك. ألا تذكر أني كنت أنا في غرفة القيادة لدى وقوع الحادث؟"

وغمر بوب زوجته بذراعه وقال: "حسنا يا مارغريت! أظن أننا متجهون الى تونغا."

ـ تونغا؟ ألا نستطيع الانتظار هنا؟

"لنقل ان هذا ممكن. الا أننا قد ننتظر طويلا قبل أن تأتينا النجدة، وربما بعد فوات الاوان."

الحلم الهادىء

كان لكلمات بوب فعل بعث الاطمئنان في نفس مارغريت، فهو لا يقول شيئا من غير أن يفعله.

بدأ روبرت آروس حياته العملية بستانيا في لوس انجلس في ولاية كاليفورنيا الامريكية. ومع الوقت استطاع تأسيس محل ناجح لبيع الازهار وأدوات الحدائق، بما في ذلك بيع أدوات جز العشب وإصلاحها. وأمن حياة هانئة لزوجته الاولى ليندا وأولادهما الخمسة.

ومع ازدهار تجارته وجد بوب الوقت لممارسة بعض هواياته خارج المنزل. وغدا خبيرا في التزلج ومدربا لفريق الانقاذ الوطني في أحداث التزلج. وطالما حط رحاله في مرتفعات سييرا خلال دورات التدريب. وقد أمدته خبرته بعبرة مفادها أن مفتاح النجاة يكمن في ارتجال الحلول انطلاقا من طبيعة الموقف ومعطياته.

وفي العام ١٩٧٥ تم طلاقه من زوجته التي نالت محل الازهار فيما نال هو محل الادوات وابنه الاصغر. ومع الوقت بدأ يتعرف الى النساء، الى أن وجدت إحداهن، وهي مارغريت سميث التي تصغره بعشرين سنة، طريقها الى قلبه.

وكان بوب أتقن الابحار في المراكب الشراعية. وأمضى مع مارغريت شهر العسل في مارس (آذار) ١٩٧٦ على ظهر مركب شراعي طوله سبعة أمتار ونصف متر أبحر بهما الى جزيرة كتالينا التابعة لولاية كاليفورنيا. وقطع على مارغريت العهد الآتي آنذاك: "إننا سنعبر المحيط الهادىء." وابتسمت زوجته وهي تقول لنفسها: "ولم لا؟" والواقع أن هذا الحلم الذي راود ألوف البحارة

على ساحل كاليفورنيا الجنوبي لم يجد بطريقه الى التحقيق إلا لدى قلة منهم أشرعت مراكبها للريح٠ إلا أن مارغريت وبوب حضرا دورات خاصة بالملاحة٠ وفي فبراير (شباط) ١٩٨١ اشترى بوب مركبا جديدا اسمه "فامونوس"، ومعنى ذلك في الاسبانية "دعنا نذهب"، وقد صنع من خشب الماهوغاني الفاخر الذي طلي باللون الابيض٠ وجهز المركب بالعدة الضرورية لقطع المحيط٠ وبعد تسعة أشهر من الاستعداد قال بوب: "الآن يمكن أن نذهب٠"

ووافق ديفيد ابن بوب البكر على ادارة محل والده في غيابه، على أن يأخذ ابنه الآخر كريستيان إجازة من المدرسة الثانوية لمرافقة أبيه وزوجته٠ وفي ٣٠ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨١ انطلق آل آروز وسط هتاف الاصدقاء وتحياتهم من خليج آلاميتوس في لونغ بيتش نحو كابو سان لوكاس في المكسيك٠ وأمضوا الفصل العاصف وهم يبحرون على امتداد ساحل المكسيك الغربي٠ وحملوا معهم القوارب الاضافية لاستخدامها في ظروف طبيعية من غير أن يتوقعوا أي خطر حقيقي٠ وعند اتجاه "فامونوس" غربا في ابريل (نيسان) كانت الشمس سفعت البحارة الثلاثة وقوت عضلاتهم وأعدتهم لتذليل المحيط الهادىء٠

وبعد ٢٥ يوما من الابحار الجميل عبروا خط الاستواء وصولا الى جزر بولينيزيا الفرنسية٠ وأمضوا شتاءهم الجنوبي متنقلين من جزيرة الى اخرى٠ وبعد توقف أطول في جزيرة بابيت من أعمال تاهيتي انطلقوا في اتجاه نيوزيلندة، حيث كان أصدقاء في اوكلاند ينتظرون وصولهم في أواخر نوفمبر (تشرين الثاني)٠

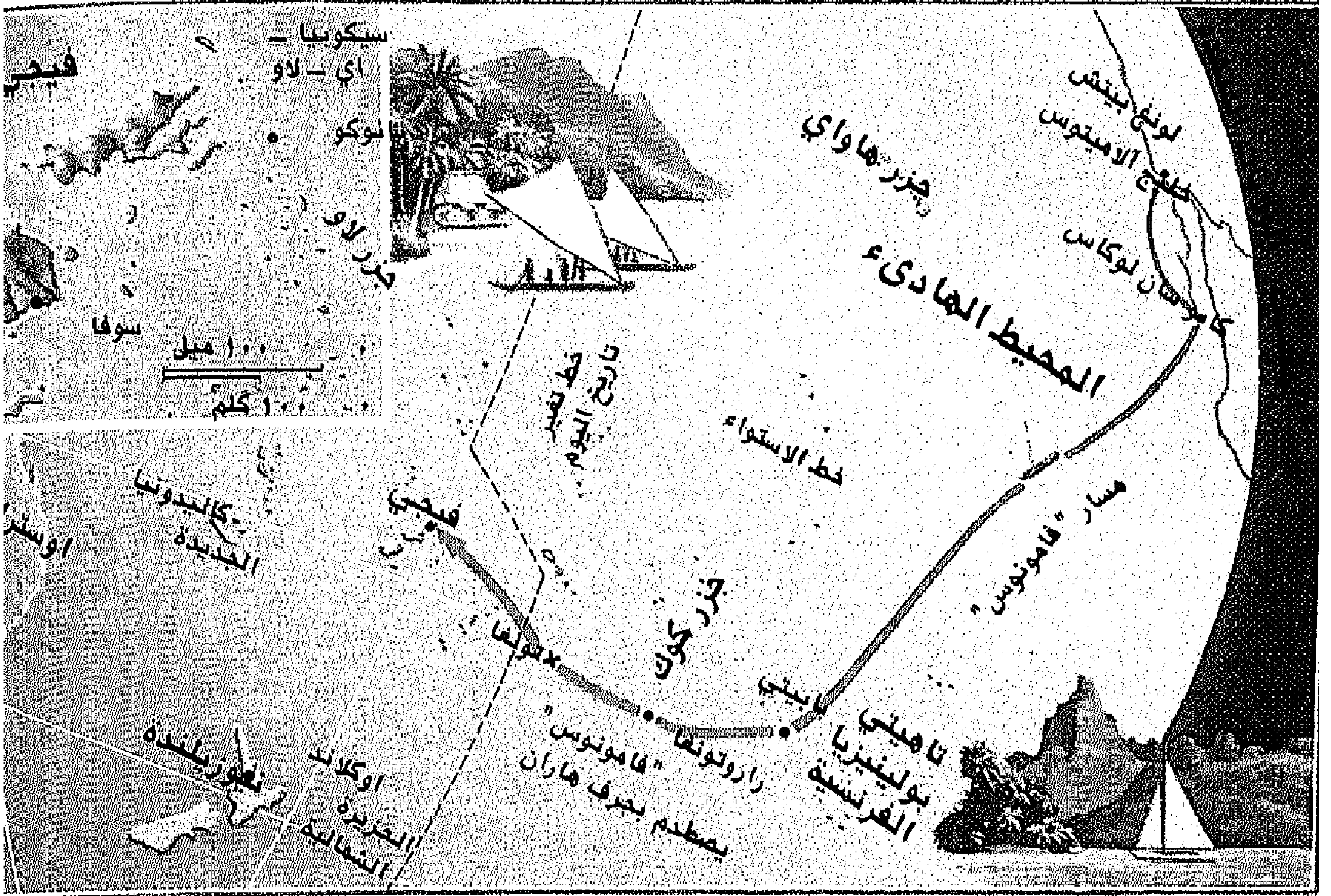
وبات كريستيان ينتظر بلوغ اوكلاند بفارغ الصبر، خصوصا بعد وقوفهم في راروتونغا بعد بابيت وتعرفه على اناس قرروا هم أيضا الذهاب الى اوكلاند٠ وكان قلب الوالد يغني في داخله عندما رفع المرساة في يوم غائم من نوفمبر (تشرين الثاني) وانطلق في عرض البحر لقطع الكيلومترات الـ٢٧٠٠ التي تفصلهم عن نيوزيلندة٠

عذاب أيوب

طلع الفجر في الرابعة والنصف وقد ألقى نوره على صحراء من اليم لا نهاية لها٠ وراحت القوارب الصغيرة تترجح وسط الموج والمياه تنسكب على آل آروس٠

وأدرك بوب من مراقبته الخريطة أنهم في منطقة جرف هاران٠ وحسب المسافة غربا فتبين له أن أقصى جزائر تونغا المرجانية جنوبا تقوم على مسافة ٥٠٠ كيلومتر٠ ولا بد من أن توجه الرياح التجارية القوارب نحو الشمال٠ وإذا أمكنه هو زيادة الزاوية شمالا، فلسوف يستطيعون بلوغ مجموعة جزر تونغا الجنوبية٠ أما اذا أمكنهم رفع شراع، فهذا يؤمن لهم الابحار بسرعة تراوح بين عقدة واثنتين (★) مما يعني الوصول الى

(★) العقدة قياس للسرعة يعادل ١٨٥٢ مترا في الساعة٠



تلك الجزر في مدة أقصاها ١٢ يوما ... هذا إن لم يبلغوها في سبعة أيام فقط.

وقالت مارغريت: "سوف ننجح في الوصول."

وتفحص كريستيان الخريطة بخوف وألم، ولاحظ المسافة الكبيرة القائمة بين مجموعتي تونغا الجنوبية والشمالية. وقال متمتما: "اننا سنبحر في الوسط، بين المجموعتين." فأجابته مارغريت: "لا تكن سلبيا الى هذا الحد."

وقرر بوب اكتشاف مكان وجودهم بدقة ووضع مخطط للابحار. ومد يده الى كيس النوم بحثا عن العدة الضرورية. لكنه، لخيبته وذعره، لم يجد البوصلة ولا التقويم البحري. ولم يعثر الا على آلة السدس التي لا نفع لها في غياب البوصلة والدليل الحسابي. واحمرت مارغريت خجلا لأنها نسيت ذينك الشيئين المهمين في المركب.

وقال بوب وهو يحاول إخماد غيظه: "حسنا، يمكننا أن نقدر وجهتنا بناء على الظن."

وجاءهم خبر آخر صاعق، إذ تبين أن قارورة الماء التي تتسع لعشرين ليترا لم يحكم إقفالها فرشح معظم ما تحتويه وبقي القليل فضلا عن سبع قناني بلاستيك يستوعب كل منها ليترا واحدا. والادهى من هذا أن كريستيان استخدم القناني كوسادة لأراحة رأسه، فرشح الكثير منها وتبين لدى إفراغها في القارورة أن أربعة ليترات أمكن إنقاذها.

ولم تكن حال الطعام بأفضل من حال الماء. وكان لديهم في غطاء الوسادة ١٧ علبة من حبوب وخضر وفاكهة مختلفة، يضاف إليها عشر علب صغيرة من الفستق في كيس النوم وأربعة أكياس من الطعام المجفف. وقنن بوب الاستهلاك اليومي بـ٤٥٠ غراما من الطعام المعلب وكمية مماثلة من الماء. وكانوا من وقت الى آخر يفتحون علبة لوبياء أو سواها فتستخدم مارغريت أصابعها لتأكل ثلث محتواها ثم تشرب قليلا من عصيرها، ويأتي بعد ذلك دور كريستيان فوالده.

وقال بوب: "دعونا ندخر الماء لما بعد غروب الشمس."

وتذكر بوب صاري لوح ركوب الامواج وشراعه. ونشر الصاري، وكثافته ثلاثة أمتار ونصف متر، بسكين غوص حتى جعله اثنين. وثبت كل نصف في تجويف المجذاف عن كل من جانبي القارب البلاستيكي. ووصل الشراع بكل من النصفين بعد تفصيله ليلائم التصميم الجديد. واستعملت مارغريت جزءا من الشراع كظلة للقارب ترد عنهم بعض الريح والبرد ليلا.

ولئلا يشرد القاربان أحكم ربطهما. وتناوب كريستيان وبوب التجذيف لأمالة القاربين درجات قليلة الى الشمال الغربي.

ولدى حلول الظلام اهتدى بوب بنجم منكب الجوزاء الذي لاح في الافق الشرقي، فخلفه وراءه وانطلق متبعا مسار الشمس. وكان يرخي المجذاف لينام فترات قصيرة.

وفي الصباح طرأت له فكرة ربط مؤخر القاربين مع القارب البلاستيكي في الامام. ووضع لوح ركوب الامواج وراء القارب الآخر للحماية. واتبع الثلاثة نظاما صارما تناوب كريستيان وبوب بموجبه على المجذاف فيما أعانتهم مارغريت في نزح المياه الآتية من الموج العارم. واستخدموا حبوب الذرة الباقية من الفطور طعما للاسماك، ودليت خيوط الصيد عن جانبي القارب. ولئن لم يحصلوا على السمك، الا أن ذلك طرد عنهم القنوط وقوى ثقتهم بما يبذلونه من جهد للوصول الى تونغا حيث الامان.

وفي الصباح التالي ضربتهم موجة عاتية وقلبتهم. ووجدت مارغريت نفسها في جيب هوائي تحت طوف المطاط. وأخذت نفسا عميقا وأبرزت رأسها خارجا لتجد بوب وكريستيان سالمين فوق الماء وهما يناضلان لأعادة قاربيهما الى الوضع الطبيعي. وبعدما تسنى لهما ذلك حاولا إنقاذ كل ما أمكن من العدة والعتاد. ورفعا اثنين من المجاذيف الثلاثة وستر النجاة ومنفخ الزورق، فيما غاصت سكين ومعها آلة السدس في جوف الماء. ومن حسن الحظ أن بيت الوسادة المليء بالمآكل وكيس النوم المحشو حوائج وقارورة الماء علقت كلها في مكان آمن بين قاربي المطاط والبلاستيك. وبينما هم ينقذون الضاريين وعدة صيد السمك من الغرق قال بوب: "علينا أن نحذر الامواج العاتية ونتوقع هبوبها في أي لحظة."

وأشرقت الشمس ساطعة بين

الغيوم المبعثرة وخلع الثلاثة ثيابهم لتجفيفها وقد أشبعت أجسادهم بالماء حتى ظهر فيها طفح أحمر. ولم يتحمل بوب احتكاك الثياب الجافة بجسمه. فلبس أحد قمصان ابنه المبللة التي انقلبت مع الزورق. وكان سروال كريستيان ضيقا عليه ففكت مارغريت دروزه وجعلته في قطع مثلثة لاستخدامها وقاء من الشمس.

وخوفا من هبوب الامواج العاتية مع الظلام، ربط الثلاثة مقتنياتهم بحبل وقبعوا مرتقبين حدوث أي طارىء ولما طلع الصباح لم تبدُ قروحهم أحسن حالا. وانحشر الثلاثة في زورق المطاط.

وقال بوب: "الآن يمكننا أن ندرك شيئا عن عذاب أيوب." وكانت مارغريت من حين الى آخر تقرأ مقطعا من الكتاب المقدس الذي حملته معها.

ولم يشك أي منهم في قرب الوصول الى جزيرة ما. وكانت كل ساعة تقربهم الى تونغا. ومن الاهمية بمكان أن يتحملوا الجوع والعطش خلال الايام القليلة الفاصلة.

البحر القاسي

كانت الامواج أحيانا من الارتفاع بحيث تحمل القوارب ١٢ مترا الى فوق. وفقدوا مجذافا آخر ونسخة الكتاب المقدس وسكينين، اضافة الى المنفخ وبات عليهم نفخ الزورق بالفم.

ولكن ما أن أطل اليوم السابع حتى سكنت الريح وارتفعت آمالهم.

وأمضوا النهار كله يبحثون عن اليابسة، إلا أنهم لم يجدو سوى البحر من كل جانب. ورفضت مارغريت الاستسلام وقالت: "غدا نرى اليابسة." لكن اليوم التالي انقضى كسابقه، كذلك اليومان اللاحقان.

وتفحص بوب السماء والافق وقال: "يجب أن يعرفوا أننا تهنا. وهذا يعني أن ننتظر وصول طائرة استكشافية." غير أن كل ما أمكنهم رؤيته في الفضاء كان الطائر البحري المعروف باسم"الأطيش"لبلاهته. ولم يكن بوب ينتظر المعجزات. لكنه رفع الصلاة الآتية: "إذا كانت مشيئتك يا ألله أن نصل الى اليابسة، فلنبلغها اليوم."

وفي الليلة الثانية عشر، الموعد المظنون لبلوغهم جزائر تونغا الجنوبية، بدأ الشك يراود بوب في أنهم عبروا ذلك الطرف من غير أن يروه. وكان يدري أنه لا شيء جنوبا سوى اوستراليا التي تبعد ٣٢٠٠ كيلومتر بل اكثر. ولا يمكن أن يقطعوا تلك المسافة من غير ان يأتي عليهم الجوع والعطش. الا ان بوب رفض تسليم افكاره للمستحيل. وزين لنفسه أنهم يقطعون المحيط ببطء وان بلوغهم مجموعة تونغا الغربية تأخر اياما.

وهبت عليهم موجة من الشمال وقلبتهم مرة اخرى. ولما أعادوا القوارب الى وضعها وجدوا أن الصاري الايمن فقد...ها هو البحر، إذاً، يسلبهم ما يملكون من غير أن يمنحهم شيئا في المقابل.

وكريستيان ينزحان الماء لتخفيف وزن القوارب لمحا التماعا في المياه التي قذفتها الامواج٠ وإذا به ثلاث من الاسماك الطيارة التهم كل منهم إحداها٠

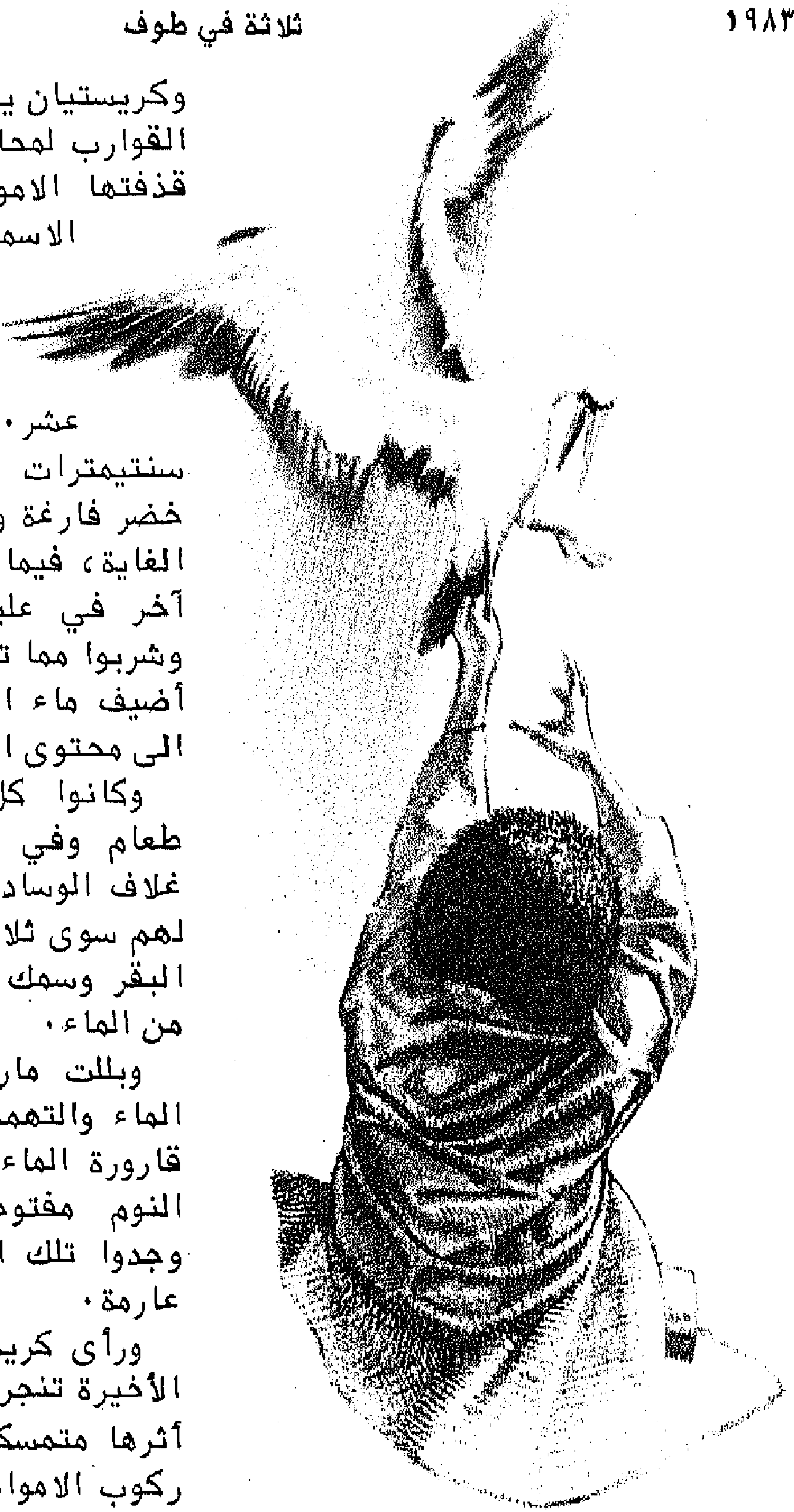
ولم تمطر السماء إلا في اليوم الرابع عشر٠ وجمع بوب ثمانية سنتيمترات من ماء المطر في علبة خضر فارغة وضعها تحت الشراع لتلك الغاية، فيما جمعت مارغريت مقدارا آخر في علبة علقتها تحت الظلة٠ وشربوا مما تجمع في وعاء بوب بينما أضيف ماء المطر من وعاء مارغريت الى محتوى القارورة٠

وكانوا كل يوم يستهلكون علبة طعام وفي اليوم الثامن عشر فرغ غلاف الوسادة ونفد الفستق ولم يبق لهم سوى ثلاث وقعات مجففة من لحم البقر وسمك التونة مع ليتر أو نحوه من الماء٠

وبللت مارغريت التونة بقليل من الماء والتهمها الثلاثة بنهم٠ وبقيت قارورة الماء دقائق بلا غطاء وكيس النوم مفتوحا٠ ومع فوات الاوان وجدوا تلك الاشياء تنقلب مع موجة عارمة٠

ورأى كريستيان سترة النجاة الأخيرة تنجرف مع التيار،فأسرع في أثرها متمسكا بحافة الزورق نحو لوح ركوب الامواج٠ وعلى الناحية الاخرى أمسكت مارغريت الحبل وانطلقت خلف قارورة الماء٠ وإذ أخطأتها أطالت مدى الحبل وأخذت تسبح في اتجاهها الى أن حصلت عليها٠

وكان بوب وهو في الماء رأى كيس



وفي الصباح الثالث عشر أخذوا ينظرون الى الشراع الباقي لهم وقد أدركوا أنه أخر تقدمهم بمقدار النصف٠ وبينما راحت مارغريت

النوم ينجرف بعيدا، وتبعه مسافة مترين وأحكم قبضته عليه. وعندئذ شاهد زوجته تسبح وابنه راكبا لوح الامواج ومعه سترة النجاة. فصاح فيه: "اذهب يا كريستيان وأنقذ مارغريت!"

وجذف كريستيان نحو زوجة أبيه التي صعدت الى اللوح القوي وهي تلهث بمشقة. وخاف كريستيان لدى رؤيته الزورقين الآخرين على بعد عشرين مترا. وفي تلك اللحظة هبت موجة قوية رفعت القارب الى العلاء ثم هوت به. ولما ارتفع القارب مرة اخرى أمكنهما أن يريا الزورقين، وفي أحدهما بوب الذي آتى عليه الخوف. وصرخ كريستيان مذعورا: "اقلبهما يا أبي!"

إلا أن بوب لم يسمع شيئا ما عدا صوت الريح والبحر. لكنه أدرك أنه يجب الحد من سرعة الزورقين. وقفز الى الماء وأخذ يجرهما نحو اللوح. وفي الوقت نفسه تعاونت مارغريت وكريستيان على التجذيف لتقليص المسافة. وما أن بلغا القاربين حتى خارت قواهما. إلا أن الثلاثة تعانقوا وأخذوا يبكون فرحا ويشكرون الله.

وفي العصر التالي، والافق أمامهم ما زال صحراء لا تنتهي من المياه، شرب آل آروس البقية الباقية من الماء وذلك بعد انقضاء ١٩ يوما على اصطدام مركبهم وغرقه.

صلاة في البحر

قالت مارغريت: "لنتذكر انه لم يبق لدينا من ماء الشرب سوى مقدار ملعقتين صغيرتين."

وغرفوا بايديهم، واحد بعد الآخر، قليلا من ماء البحر وشربوه. وكان مدربهم في مقاومة الغرق أخبرهم أن الجسم البشري يمكنه الصمود ثلاثة أيام فقط من غير ماء.

وابتلع بوب الماء المالح واستأنف التجذيف. وإذا صح أنهم انحرفوا عن طرف تونغا الجنوبي، فيجب أن يكونوا في مكان بالقرب من جزر فيجي. غير أن اليأس تملك بوب الذي راح يصلي: "يا ألله، إذا كان قدرنا ألا نبلغ اليابسة، فاننا نقبل به."

وفي تلك اللحظة خيم ظل فوق رؤوسهم وسمعوا اصطفاق أجنحة. وحط طائر بحري من فصيلة الاطيش على حافة الزورق وراء مارغريت.

وهمس كريستيان: "اقبضي عليه."

وانقضت عليه بسرعة البرق وأمسكته من قائمته. وأنشب منقاره في معصمها المقرح، لكنها لم تفلته. وانهال بوب على رأسه بالمجذاف وحز عنقه. ونتفوا ريشه وألقوا أحشاءه خارجا واقتسموا لحمه. ثم علقوا هيكله على الصاري ليجف. واستخدموا الاجزاء غير الصالحة للأكل طعما للاسماك. ولكن لم تعلق أي سمكة في عقائف الصيد. وكانوا في الروايات التي قرأوها عن السفن الغارقة وجدوا طرق الناجين البحرية ملأى بالسمك. غير أن البحر، بحرهم، بدا خاليا من الحياة.

وجلس بوب صامتا بعد تلك الوقعة التي جاءت على غير انتظار، وراح ينظر الى البحر. ثم شرق وجهه الهزيل وقال كما في حلم: "انظرا!

انهم هنا على رصيف الميناء، وسيأخذوننا الى القرية."

وأجابته مارغريت: "إننا في عرض البحر يا بوب، وما من أحد هنا سوانا. فانزع هذا الحلم من رأسك يا حبيبي." واستعاد بوب صحوه. لكن مارغريت أدركت أن الجوع والعطش والتعرض للعوامل الطبيعية أرهقته. وتساقط الجلد من أخمص قدميه كالقطن المندوف. أما كريستيان فكان يزداد اكتئابا وجزعا. وكان على مارغريت أن تحميهما معا.

وقالت لهما بتودد: "لقد صمدنا عشرين يوما، فلماذا لا نصمد ثلاثين؟"

ودهش كريستيان لقوة عزيمتها. وهي لم تتذمر على رغم أن الشمس نفخت ساقيها ضعفي حجمهما الطبيعي.

والواقع أن خشية الموت فارقت كريستيان وبات ينظر الى الموت كمعتق من عذاب النهار والليل والريح والموج. وقرر أن يعتمد في البحر على يد والده في اليوم التالي. ومع بزوغ شمس الصباح نزل الى الماء وقد أمسك حبل النجاة بيد ولامس باليد الاخرى ذراع أبيه وهو يقول: "اريد أن أعتمد على يدك في هذه اللحظة يا أبي."

وأمسك بوب ابنه من شعره ودلاه تحت الماء ثم رفعه وهو يطلب من الله أن يقبل إيمانه.

بلوغ الشاطىء

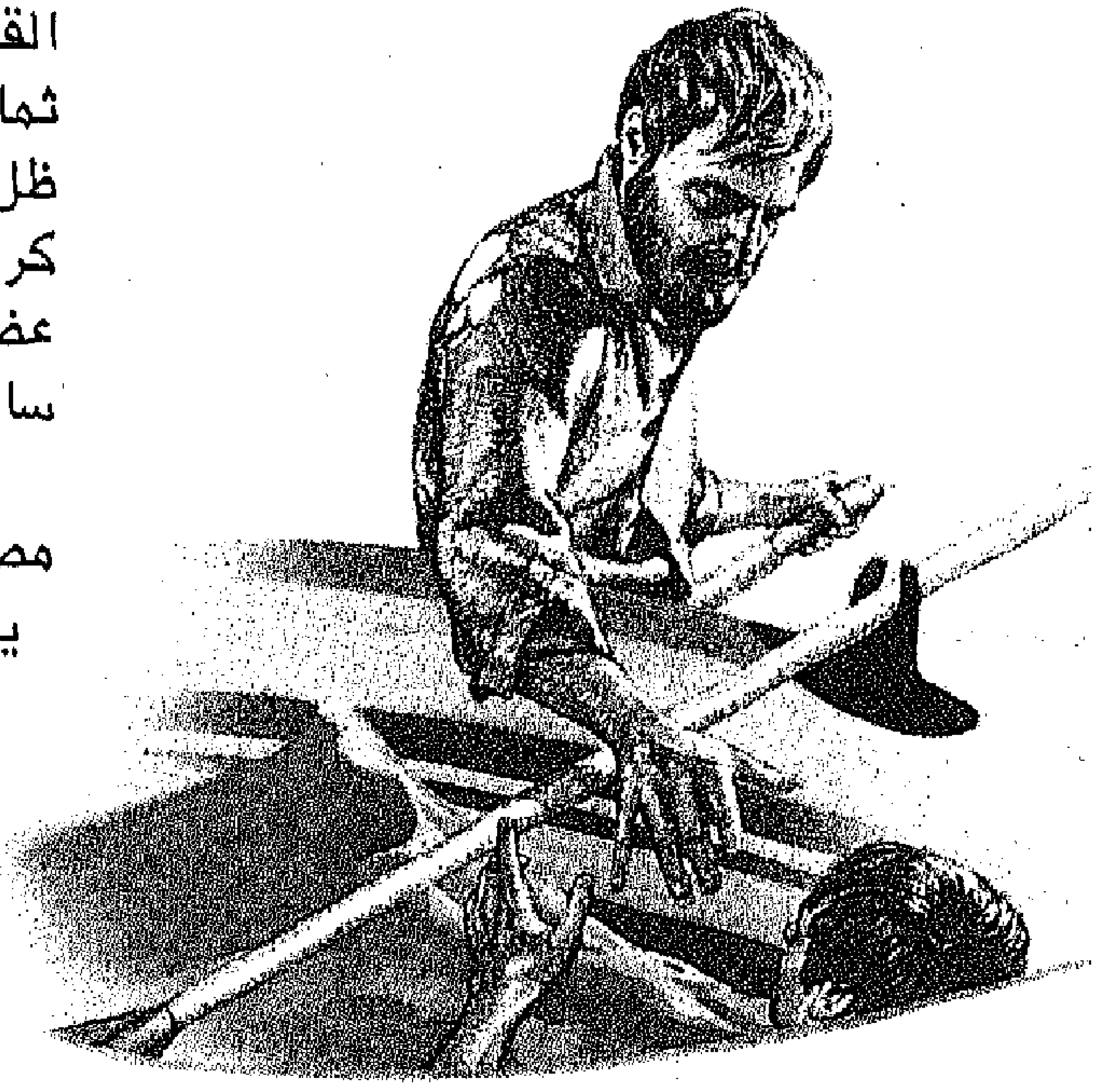
في الرابعة عصرا صرخت مارغريت: "إني أرى أرضا! انظر يا حبيبي."

ونظر الثلاثة الى الافق الغربي عن يمينهم وأدركوا أن ما يرونه قطعة من اليابسة لا محالة.

ومع حلول الفجر تحولت تلك البقعة القاتمة جزيرة خضراء كبيرة على بعد ثمانية كيلومترات منهم. إلا أن التيار ظل يقذفهم بعيدا عنها. وأكب كريستيان على المجذاف حتى تشنجت عضلاته. وأخذ بوب مكانه نحو ربع ساعة قبل أن يعود الى التجذيف.

وتناوب الاب والابن ساعات على مصارعة البحر. إلا أن التيار ما انفك يأخذ الزوارق شمالا. واذ عجز بوب عن متابعة التجذيف قال لابنه: "اننا نحاول عبثا." والقى الثلاثة نظرة يائسة على الجزيرة وهي تنحسر.

وقالت مارغريت: "انظرا! هناك جزيرة ثانية، وثالثة." غير ان التيار ما برح يبعدهم عن اليابسة.



وهمس بوب لابنه: "خذ طوف المطاط يا كريستيان واسبقنا الى الشاطىء طلبا للنجدة."

وأجابته مارغريت بهدوء: "كلا... ألا تراه من الضعف بحيث يعجز عن ذلك؟"

وهز بوب رأسه ندما على فكرته الحمقاء، وهي أقرب الى الهذيان منها الى الواقع.

وعند الغسق ركب الثلاثة طوف المطاط والجزيرتان الخضراوان تبعدان نحو عشرين كيلومترا عن يسارهم. وأمضوا ليلتهم بلا نوم وهم ينزحون الماء ويرتجفون من البرد واليأس. وطلعت الشمس والجزيرتان ما زالتا هناك. ولكن بدا أن القوارب تتحرك في خط مواز لهما.

ولفت كريستيان اضطراب في الماء على بضع مئات من الامتار. وقال: "انظرا! إننا ندنو من مرتفع رملي".

وكان ذلك رابية مستديرة بقطر يبلغ نحو خمسين مترا وارتفاع مترين في الوسط. ولم يكن من نبت ظاهر فيها لكنها كانت أرضا في أي حال. واقتربت الزوارق من طرفها الجنوبي لكنها ظلت بعيدة عنها قرابة مئة متر. وفي تلك الاثناء شاهد كريستيان حيدا مرجانيا بعمق متر ونصف متر. وللحال قفز إليه وهو يحمل حبلا لربطه في ثقب صخري.

وعند منتصف العصر همدت الامواج. وارتأى الثلاثة أنها فرصتهم الاخيرة لبلوغ الاكمة الرملية. وأخذ بوب الصاري الاخير واستخدمه مجذافا وهو جاث على ركبتيه في مؤخر طوف المطاط، فيما أخذ كريستيان مكانه في الامام وفي يده المجذاف الآخر. ونزلت مارغريت الى الماء وفكت الحبل. وراح بوب وابنه يجذفان وهما يبذلان ما بقي لهما من قوة.

وانحدرت الزوارق عن الجرف وانطلقت بسرعة في اتجاه المرتفع الرملي. وبعد قليل أوقفتها الرمول. فنزل الثلاثة وجروها بجهد جهيد الى الشاطىء وهم يسقطون في الماء ثم يقومون. وأخيرا، بعد عذاب دام ٢٣ يوما في عرض البحر، بلغا نقطة يابسة في مكان ما جنوب المحيط الهادىء.

وقلبوا زورق المطاط وأسندوه بالمجذاف وجلسوا في ظله احتماء من الشمس. وبعد قليل نهض كريستيان لتفقد ذلك المكان. وارتفعت الطيور البحرية الراخمة على وقع قدميه ولم يستطع القبض على اي منها. لكنه رأى في الرمل مئات البيوض، فالتقط ما تحويه يداه منها وعاد لتوه الى أبيه وزوجته. وجلس الثلاثة يثقبون البيض ويلتهمونه حتى لم تعد معدهم تستوعب المزيد.

وحفر كل منهم حفرة في الرمل ليستريح فيها. وخروا نائمين من غير أحلام خارج الماء بعد انتظار طويل.

"لماذا أتيت؟"

في الصباح تناولت العائلة فطورها من البيض. ثم اقترحت مارغريت تأدية بعض التمارين الرياضية لتقوية عضلاتهم الضامرة. وذهب الثلاثة الى حافة اليابسة وألقوا أيديهم على الرمل ثم أنزلوا أرجلهم في المياه

لدافئة وراحوا يحركونها طلوعا ونزولا نحو خمس دقائق·

واستأنف كريستيان تحرياته وعثر على ثمرتين صغيرتين من جوز الهند، ونقعتهما مارغريت في مجمع مياه ضحلة وأزالت قشرتهما الخارجية· ثم أخذت تطرقهما بقطعة مرجان حتى كسرتهما ·وكان معظم مائهما جف في الداخل، لكنهم استطاعوا استخراج بعض السائل قبل التهامهم اللب الابيض الذي سروا به كثيرا·

وراح بوب يتأمل وضعهم بعينين حزينتين غائرتين· وقال: "علينا أن نترك هذا المكان سريعا· إنه شرك مميت·" إلا أنه عدم الوسيلة التي يقهر بها التيارات البحرية ويمنح الزوارق السرعة· ولكن مهما يكن فقد قر رأيهم على التوجه نحو الجزيرتين·

غير أن ذلك لم يكن ممكنا من غير مجذاف آخر· وأمضى بوب النهار وهو يصنع مجذافا من جذع شجرة صغيرة وبعض رقائق خشبية وجدها كريستيان هناك· واستعدوا للانطلاق عصر اليوم التالي بعد هدوء التيارات· ومرنوا عضلاتهم من جديد واستراحوا حتى الصباح·

ونحو الساعة العاشرة أحضرت مارغريت عددا آخر من البيض· وجلسوا يأكلون ويحدقون الى البحر في اتجاه الجزيرتين·

وفجأة سألت مارغريت: "أهذا قارب؟"

ونهض كريستيان ونظر حيث تنظر· وقال: "أجل·" واستحال صوته صراخا وهو يتابع: "أجل، إنه قارب!"

ونهضت مارغريت هي الاخرى وراحت تلوح بيديها ثم تضم كريستيان وترقص فرحا· أما الصبي فركض الى حافة اليابسة وخلع قميصه ولوح بها فوق رأسه وهو ينادي·

ومن سطح الزورق الآلي الذي كان على بعد ٨٠٠ متر لاحظ الرجل الطويل ذو الشعر الرمادي الطيور البحرية تنهض أسرابا، وشاهد إنسانا وحيدا يسير في اتجاه نقطة سوداء وسط المرتفع الرملي· وإذ ذاك قال ليونارد تولهيرست لرفقائه الخمسة الفيجيين: "انظروا! ثمة أحد هناك·" ونظروا ليروا شخصين يلوحان في اتجاههم·

وقال تولهيرست: "انهم يحتاجون الى مساعدة·"

وما أن بلغوا الشاطىء حتى قبضت مارغريت على ذراع تولهيرست وقالت: "نشكر الله على مجيئك·" ثم شاهد الفتى الهزيل وخلفه الرجل الاعجف مستريحا في ظل القارب· وأدرك أنهم يعانون نقصا فادحا في الماء· وللحال حمل إليهم هو وجماعته قناني الماء وثمار الموز والببايا·

وسأل بوب: "أين نحن؟"

فجاءه الجواب: "في جزر فيجي·"

وأعين آل آروس على الصعود الى المركب الذي أسرع بهم على الفور الى جزيرة سيكوبيا - اي - لاو إحدى أكثر الجزر ازدهارا في مجموعة جزر فيجي الشرقية· ومددهم الفيجيون على حصر فوق العشب وأطعموهم وغسلوهم· وطلب تولهيرست نجدة طبية عبر جهاز الارسال· فجاء طبيب ومعه مضادات حيوية وحليب مجفف ومياه معدنية·

وكان ذلك يوم الاثنين، السادس من ديسمبر (كانون الاول) ١٩٨٢، وهو اليوم السادس والعشرون منذ بدء محنتهم. وقد شردوا مسافة ١٠٦٠ كيلومترا في المحيط الهادىء وتجاوزوا جزائر تونغا حتى بلغوا مرتفعا رمليا منعزلا يعرف باسم "نانوكو". وكانت الطائرات الاستطلاعية من نيوزيلندة بحثت عنهم من غير جدوى. ذلك ان "اسطولهم" من الصغر بحيث يسهل ضياعه في عرض المحيط.

وأخيرا طرحت مارغريت سؤالها على تولهيرست: "لماذا أتيت؟"

وأوضح الرجل الاوسترالي انه رئيس دائرة اللاهوت في كلية فولتون بالقرب من سوفا عاصمة جزر فيجي، وكان يمضي عطلة يمارس خلالها هوايته البحرية من مراقبة الطيور وجمع الاصداف. وقرر التوجه نحو مرتفع نانوكو بعدما أخبر أن طيورا كثيرة تستريح هناك. ولكن لماذا ذهب ذلك الصباح بالذات؟ إن تأخره ساعات قليلة معناه انطلاقهم نحو الجزيرتين من غير أن يراهم.

وأجاب مارغريت بيقين: "لقد أرسلت استجابة لصلواتكم."

وفي الصباح التالي وصلت طائرة مروحية تابعة للحكومة الفيجية ونقلت أفراد العائلة الى مستشفى سوفا حيث أمضوا اسبوعين للعلاج والنقاهة. وأخبر الاطباء مارغريت أن زوجها كان عرضة للانهيار خلال ٤٨ ساعة. أما هي وكريستيان فكانت حالهما أحسن قليلا.

وفي ١٣ يناير (كانون الثاني) ١٩٨٣ تجمع ثمانون صديقا وقريبا في مطار لوس انجلس الدولي لاستقبال آل أروس الثلاثة. وتبعوهم في مسيرة منتصرة حتى منزلهم في لونغ بيتش حيث رفعت يافطة ترحيبية تقول: "أهلا وسهلا بكم إننا نحبكم."

وجمد بوب ومارغريت وكريستيان في مطبخ المنزل وهم في شبه غيبوبة جميلة وسط رائحة الطعام الفاخر وشذى الازهار النضرة التي ملأت أرجاء البيت. ثم وقفوا يصافحون المهنئين ويشكرون الله على نعمة الحياة والمحبة التي أغدقها عليهم.

■ **بيتر ميتشلمور**



تصويب .

في كتاب حول الطبخ ذكر التصويب الآتي:
ـ الصفحة ٩٥، السطر ١٤: اقرأ: "٢٢٠ ثانية بالضبط" عوضاً عن: "١٢ دقيقة بالضبط."
ـ الصفحة ١٤٥، السطر ١٦: اقرأ: "ارفع الشحم" بدلا من: "ارفع اللحم."

صحيفة "وول ستريت جورنال"

في نطاق العلاقات العائلية، ثمة كلمتان لا تقلان أثراً عن: "اني احبك"، وهما: "الحق معك".

١٠١.

فجر جديد فوق ديترويت

خاص [logo]



في وقت ما شغف الامريكيون بالسيارات الضخمة التي تلتهم الوقود التهاماً، وكانت مدينة ديترويت في ولاية ميشيغان عاصمة صناعة السيارات في الولايات المتحدة، وفيها قامت شركات كثيرة وازدهرت، ولم يكترث أصحابها للخطر الى ان ارتفعت اسعار الوقود وحل الانحسار الاقتصادي مكان البحبوحة وغزت السيارات اليابانية اسواقهم، الا ان ديترويت بدأت استعادة عافيتها، ويبدو انها ليست بعيدة عن مرحلة ازدهار جديدة.



كلما دخل روبرت ليتل، رئيس القطاع ١٨٢ من اتحاد عمال السيارات الامريكي، مكتبه في دار الاتحاد في بلدة ليفونيا من اعمال ولاية ميشيغان، تذكر بمرارة الأزمة التي اصابت صناعة السيارات في الولايات المتحدة. فعلى مقربة من مكتبه افتتحت وكالة لشركة سيارات "داتسون". وبينما هو يرغي ويزبد غيظاً يرى الزبائن، الذين لم يرضوا في الماضي الا بالسيارات الامريكية، يتزاحمون بالمناكب لدخول الوكالة اليابانية ويغادرونها في سياراتهم الجديدة.

وخيبة روبرت ليتل آتية ليس من انحسار صناعة السيارات الامريكية فحسب، بل من ازدهار سوق السيارات اليابانية في بلاده ايضاً. وبعدما سجل بيع السيارات في الولايات المتحدة رقماً قياسياً عام ١٩٧٨ بلغ احد عشر مليوناً، هبط هذا الرقم الى ما دون الملايين الثمانية عام ١٩٨٢. ومن هذا الرقم مليون و٨٠٠ الف سيارة، اي ٢٢،٦ في المئة، من صنع اليابان.

والولايات المتحدة هي البلد الصناعي الرئيسي الوحيد في العالم الذي فتح ابوابه على مصاريعها للسيارات اليابانية. ذلك ان بريطانيا حدت ما تستورده من اليابان بنسبة ١١ في المئة من انتاجها المحلي، في حين جعلت فرنسا هذه النسبة ٢،٥ في المئة واكتفت ايطاليا بـ٢٢٠٠ سيارة يابانية سنوياً. وهناك اتفاق اختياري بين الولايات المتحدة واليابان يتيح وضع حد اقصى للاستيراد. وقد اعلنت اليابان انها ستنهي ذلك الاتفاق من جانبها في مارس (آذار) ١٩٨٤. وتجدر الاشارة الى ان اليابان صدرت مليوناً و٧٦٠ الف سيارة العام الماضي الى الولايات المتحدة في مقابل ٣٥٦٢ سيارة امريكية فقط بيعت في اليابان.

لقد مرت عقود كانت خلالها الولايات المتحدة منتج السيارات الأول في العالم. لكن الأمر تبدل اليوم. فمنذ ثلاث سنوات تحتل اليابان مكان الصدارة. وبلغت صناعة السيارات من الانحسار في الولايات المتحدة حداً دفع بعض المراقبين الى القول ان هذه الصناعة في امريكا تشهد افولا قبل زوالها التام. وهناك عشرات المصانع التي اقفلت ابوابها، والبعض منها حديث العهد. وبعدما كان عدد العمال المياومين ٣٢٠ الفاً، بات ٢١٠ آلاف. وانخفض عدد الشركات التي تجهز مصانع السيارات بالقطع الصغيرة من ٦٥٠ الفاً الى ٦٠٠ الف.

يضاف الى هذا ان الشركات خسرت مليارات الدولارات في السنوات الأخيرة. وبعدما بقيت شركة "كرايزلر" وقتاً على حافة الانهيار، انقذت في الوقت المناسب اذ منحتها الحكومة قرضاً بمبلغ مليار ومئتي مليون دولار. أما شركة "فورد" فخسرت لسنتين متواليتين مليار دولار في السنة. ودخلت شركة "رينو" الفرنسية شريكاً مع "جنرال موتورز".

وغدت مدينة ديترويت، عاصمة السيارات، مسرحاً مؤاتياً لرواية تصور البطالة وصعوباتها. وتبلغ نسبة

Photo: Andrew Sacks/ Black Star

البطالة في تلك المدينة ١٩٠٧، في المئة، كما كانت في عز أزمة ١٩٣٣ الاقتصادية الخانقة. ويعيش أكثر من ثلث سكان المدينة على الصدقات الحكومية. وقد خسر اتحاد عمال السيارات الامريكي، اكبر النقابات الامريكية وأقواها، ربع اعضائه.

وكان لقطاع روبرت ليتل نصيبه من تلك المحنة. فقد سرح الفان من اعضائه، استنفد معظمهم رواتب البطالة وبات عالة على المعونات الحكومية ومساعدات الأهل والأصدقاء وبعض الوظائف الوقتية.

ويبلغ ليتل الثامنة والخمسين. وهو رجل دمث الأخلاق أنيس المعشر يحافظ على عادات ولايته كنتكي غير المتكلفة. وهو ولد على أرض مزرعة بالقرب من لكسينغتون وانضم الى البحرية الامريكية خلال الحرب العالمية الثانية. وبعد مرور ايام قليلة على الاستسلام الياباني عام ١٩٤٥، نزل ليتل الى شاطىء هيروشيما ومعه مجموعة علماء امريكيين اخذهم في سيارة جيب عبر المدينة المنكوبة. ولو اخبره احدهم آنذاك ان هيروشيما سوف تبز يوماً ديترويت في صناعة السيارات، لظنه ليتل مخبلا. الا ان هيروشيما تؤوي اليوم مصنعاً كبيراً ينتج سيارات "مازدا" الفخمة.

وفي العام ١٩٥٢ وُظّف ليتل عاملا على آلة في مصنع "فورد" في ليفونيا. وكان العمل في مصانع السيارات مجهداً ذلك الحين. وكان تنظيم العمل يحث المشرفين على اتباع الصرامة مع العمال، ظناً ان هؤلاء لا يعملون الا اذا ارغموا.

وكان المشرف العام في قسم ليتل يصرف العمال الى منازلهم يوماً على الأقل في الاسبوع بحجة ان العمل الاسبوعي انجز. وذلك يعني عدم دفع الاجرة لذلك اليوم. ووجد ليتل في تلك الممارسة ظلماً فاضحاً. وباشر نشاطه في الاتحاد العمالي، وسرعان ما أصبح الناطق العنيد باسم زملائه العمال والمدافع عنهم في وجه أرباب العمل والادارة.

عامل صناعي

في العام ١٩٥٥ انضم الى مصنع "ليفونيا" عامل في الخامسة والعشرين اسمه مارفن كريغ، باجر مقداره دولار و٧٥ سنتاً في الساعة. واقتضى عمل كريغ ان يتعاون وعاملا آخر على رفع أجزاء مصنوعة يزن الواحد منها ١٤٠ كيلوغراماً ووصلها بعقائف تحملها على امتداد خط التجميع. وأحس الماً قوياً في عضلاته خلال اسبوع العمل الأول، حتى لم يبق في استطاعته رفع ذراعيه لادخال كمّي سترته.

ولاحظ كريغ وجود رافعة ذات سلسلة في موقعه لا يستخدمها احد. وفي منزله وضع مخططاً لملزم يضاف الى الرافعة بحيث يتمكن عامل واحد من رفع القطع بلا مشقة. وبعد ذلك صنع الملزم وذهب به الى مدير عمله وقال: "اليك بهذه الفكرة لتحسين نوعية العمل."

ورمقه المراقب بنظرة عدم تصديق وقال: "أتريد ان تعمل أيها الشاب، ام انك لا تهوى العمل؟ اننا لم نوظفك لهذه الأمور."

والحق ان ثمة طرائق كثيرة كانت ممكنة لتطوير العمل، الا ان احداً لم يكترث. فشركات السيارات تجني أرباحاً كبيرة، والامريكيون يتهالكون على شراء سيارات ديترويت الفخمة التي يبلغ طول الواحدة منها خمسة أمتار ونصف متر ووزنها ١٨٠٠ كيلوغرام وهي ذات ثماني اسطوانات دافعة (سيلندرات). وماذا يضير اذا كان معظمها يستهلك ليتراً من البنزين كل أربعة كيلومترات؟ ففي الامكان ملء مستودع الوقود بخمسة دولارات فقط. لذلك حصر المنتجون هممهم في ناحية الزخرف والشكل الخارجي، لا في الناحية الاقتصادية. وكلما كثر طلاء الكروم في السيارة وارتفع جناحاها عند المؤخر اشتد تهافت الزبائن عليها. وكانت السنوات تكر من غير تقدم تكنولوجي يذكر. وجل ما فعلته مصانع ديترويت لسياراتها كان تجميلها الخارجي لاضفاء مظهر عصري عليها، مع تعزيز حملات الدعاية سنة بعد سنة.

واقتصر هم الادارة على ابقاء العمل جارياً بأي ثمن. ويتذكر احد العمال هذا التحذير من مديره: "اذا أوقفت خط التجميع لحظة واحدة، بل اذا عبرت في ذهنك فكرة وقفه، فان الله سيعاقبك." وراح المراقبون، بناء على الحاح الادارة، ينهالون على العمال بالصراخ للاسراع في تنفيذ عملهم: "حركوا هذه الأجزاء من غير تمهل." وقلما دققوا في نوعية تلك الأجزاء أو حتى في السيارات المعطوبة.

وفي مصنع "ليفونيا" الضخم درجت الادارة على تجاهل احتجاجات اتحاد العمال. ومعظمها نقد للمارسات الادارية ولظروف العمل. وفي الفترة السعيدة التي شهدتها صناعة السيارات بلغ عدد موظفي ليفونيا ٦٥٠٠ رجل يعملون على ثلاث نوبات. وكان المصنع يحوي نحو ٢٨٠٠ آلة تأخذ الأجزاء المختلفة فتطرقها وتضغطها وتثقبها ثم تضفي عليها شكلها النهائي. وذلك كاف لتوليد مقدار من الهدير يصعق المراقب الخارجي. غير ان الادارة وجدت في الصخب والضجيج اجمل أنواع الموسيقى.

أما العمال فقد وجدوا في نظام العمل ما ينتقص من انسانيتهم. وهذا النظام قائم على التجميع، بحيث تجمع الأدوات والأجزاء ويؤدي كل عامل دوره على سلعة ناقصة الى ان يتم صنع السلعة في نهاية خط العمال. وقد قال احد عمال ليفونيا: "المرء يقصد النقطة نفسها يومياً. ولئن أمكنه الكلام الى زميله عن اليمين أو عن اليسار، الا انه ينبغي إبقاء يديه في حركة دائمة مكرراً الحركات عينها في كل الأوقات وعلى مر السنين. وبعد حين يجد انه بات اشبه بالآلة منه بالانسان."

وتفشت مشاكل الكحول والمخدرات في صفوف العمال، وبات الكثيرون يتخلفون عن العمل يومي الاثنين والجمعة من كل اسبوع. ويقول مراقب سابق في شركة "كرايزلر": "كان علينا اكتراء عمال موقتين في تلك الأيام. وجاءت النتيجة مزيداً من السيارات المعطوبة." وبات الزبائن

حذرين حيال السيارات التي يتم انتاجها أيام الاثنين والجمعة٠

وكان للادارة شكواها هي ايضاً ضد قادة الاتحاد العمالي٠ فالعديد منهم، في نظرها، يسعى الى فتح مشكلات بينها وبين العمال بدلا من السعي الى حل المشكلات الحقيقية٠ وقد اصدر الاتحاد قوانين عشوائية أرغمت الادارة على توظيف عدد ضخم من العمال يتجاوز ما يتطلبه انجاز العمل٠ ومن تلك القوانين ان العامل لا يتدخل في اصلاح اي عطل مهما يكن صغيراً في الآلة التي يعمل عليها، تاركاً ذلك الأمر لذوي الاختصاص وان توقفت الآلة أربع ساعات متواصلة قبل وصول الاختصاصي٠

ومن قوانين الاتحاد الاخرى ما يجعل طرد الموظفين المتمارضين مستحيلا وما يرفع الاجور على نحو غير معقول٠ وبات العامل العادي غير الماهر يتقاضى ١٢ دولاراً في الساعة٠ واذا اضيفت الفوائد والضمانات الاجتماعية والصحية الى هذا المبلغ، ارتفع ما تدفعه الادارة الى ٢٢ دولاراً للساعة الواحدة٠ وهذا يعني ان اجور صناعة السيارات في الولايات المتحدة تزيد بمقدار الثلث على ما هي في اليابان وبمقدار الثلث ايضاً بالنسبة الى الصناعات الاميركية الاخرى٠

وفي حين ثار العديد من العمال على شكل الحياة في المصنع، فقد وجد فيها مارفن كريغ متعة كبيرة، وهو الذي أحب المبتكرات الآلية على الدوام٠ واذ وجد نفسه وسط آلات عملاقة، رغب في ان يكتشف اسرارها واحدة واحدة٠

وتبين ان مديري كريغ انفذ بصيرة من مراقب عمله٠ وسرعان ما رقوه من عامل مياوم الى موظف ذي راتب، مسؤول عن مراقبة النوعية٠ وانطلق كريغ يجول في المصنع لتحليل الأخطاء واكتشاف الحلول٠ لكنه وجد ان المسؤولين الكبار لم يعيروا ملاحظاته اي اهتمام٠ ولم يكن زملاؤه في دائرة المراقبة اكثر حماسة٠ وكلما اقترح افكاراً لتحسين سير العمل، كانت اعينهم تمتلىء شكوكاً ويسألونه: "ما الذي تحاول فعله؟ الا تدري ان اقتراحاتك من شأنها خفض عدد العمال؟"

وتسلق كريغ السلم درجة درجة حتى غدا مراقباً ثم ناظراً عاماً فمشرفاً على الانتاج٠ وتابع دروساً مسائية في كلية هنري فورد واتم دورة في ادارة الأعمال٠ وفي العام ١٩٦٧ نقله المسؤولون الكبار في شركة "فورد" من بلدة ديربورن الى مصنع في انديانابوليس، حيث اصبح مع الوقت مديراً للمصنع٠

وكان مصنع انديانابوليس شهيراً بسوء ادارته٠ ولعب كريغ دوراً رئيسياً في تحسين الامور مما رفع سمعته اكثر فأكثر٠ ولما تبين ان الوضع في مصنع ديربورن لم يعد يطاق، وجه أرباب العمل انظارهم نحو كريغ الذي دخل مصنع التجميع في ليفونيا ذات صباح من اغسطس (آب) ١٩٧٩ كمدير جديد٠ وكان آنذاك في الخمسين وقد وخطه الشيب٠ وتذكر اليوم الذي كان فيه عاملا بالساعة في ذلك المكان قبل ربع قرن٠

في تلك الاثناء كانت صناعة السيارات الامريكية آخذة في الانهيار والبلاد تعاني أزمة اقتصادية، وبدأت مصانع السيارات تقفل واحداً بعد آخر، وأدرك كريغ ان مصنع ليفونيا يعاني آلام المرحلة الاخيرة من مرض مزمن، وانه لن تمضي سنوات حتى ينمو العشب البري في ساحات المصنع المقفل ويجد العمال انفسهم تحت رحمة البطالة والمعونات الحكومية. الا ان كريغ لم يشأ الاستسلام، ورفض التفكير في امكان حلول اليابان محل الولايات المتحدة في صناعة السيارات.

وطرأت على ذهن كريغ فكرة ايجابية بحثها مع روبرت ليتل الذي بات رئيس لجنة المفاوضة في الاتحاد العمالي. ونظراً الى انعدام الثقة بين العمال والادارة في ليفونيا، بدت الفكرة مستحيلة التنفيذ اول الأمر. غير ان الأشهر التالية كانت حاسمة في تاريخ صناعة السيارات في الولايات المتحدة، واعطى التعاون بين كريغ وليتل ثماره المرجوة. وكانت تلك الفكرة المنقذة، في جوانب منها، تقوم على خبرة اليابانيين في هذا المجال.

مدينة طوابير

في مشغل وراء منزله في جادة باغلي (ديتوريت) ركب هنري فورد السيارة الاولى باستخدام أربع عجلات دراجة وبعض قصاصات الحديد وجرس باب عادياً. وباتت تلك السيارة جاهزة للتجريب في الرابع من يونيو (حزيران) ١٨٩٦، الا ان فورد لم يستطع الانتظار حتى الصباح. وفي الثالثة فجراً ادار المحرك البدائي، فانطلقت السيارة خارج المشغل الى الشوارع. وكان لذلك الابتكار فعل تبديل وجه امريكا والعالم.

وانتج فورد سياراته الاولى من الصفيح عام ١٩٠٨. وعلى رغم انه لم يكن مخترع السيارة في المعنى الدقيق للعبارة - اذ ان العربات الآلية ظهرت اواسط القرن التاسع عشر - فان طريقة التصنيع التي احدثها جعلت من الممكن جمع اجزاء السيارة في ٩٣ دقيقة. ومع العام ١٩١٣، بات في امكان المصنع انتاج ٢٠٠ الف سيارة سنوياً. ومع تقدم التقنية وارتفاع المبيعات عمد فورد الى خفض ثمن سيارته، فأضحى ٢٩٠ دولاراً عام ١٩٢٤، اي ما يعادل ١٦٨٠ دولاراً اليوم.

ما من بلد في العالم بلغ ولعه بالسيارات مبلغ الولايات المتحدة. وما أن أطل العام ١٩٣٠ حتى كان عدد السيارات على الطرق الامريكية ٢٣ مليوناً، أي بمعدل سيارة واحدة لكل خمسة أشخاص. وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية غدت السيارة الكبيرة ذات الاسطوانات الثماني التي تلتهم الوقود التهاماً، العلامة الامريكية المميزة في هذا النطاق. ولم يقم لشركات السيارات الامريكية أي منافس في الاسواق الداخلية. ومع الازدهار التجاري للشركات غدت أقل اكتراثاً للجمهور.

من ناحية اخرى استهلت اليابان صناعة السيارات في العشرينات من هذا القرن. غير أن القنابل الامريكية

خلال الحرب العالمية الثانية أتت على مصانع كثيرة، ومع استئناف الانتاج بعد الحرب جاءت النوعية هزيلة، لكن اليابانيين أكبوا على العمل من أجل تحسين صناعتهم، مركزين على السيارات الصغيرة التي تحتاج اليها بلادهم ذات الكثافة السكانية الكبيرة والطرق الضيقة وأسعار الوقود المرتفعة.

وكان أن تلقى العملاق الامريكي الضربة الاولى عام ١٩٧٣، بعدما قطع العرب نفطهم عن الولايات المتحدة في أعقاب حرب اكتوبر (تشرين الاول) وعلى أثر ذلك التدبير ارتفع ثمن غالون البنزين العادي المرصص من ٣٩،٣ سنتاً الى ٥٣،٢ سنتاً (أي من ١٠،٤ سنتات الى ١٤،١ سنتاً الليتر) عام ١٩٧٤. وهكذا هبط بيع السيارات الكبيرة.

غير أن ذلك لم يدم طويلا، اذ عاد الامريكيون عام ١٩٧٥ الى حبهم الاول. وفي العام ١٩٧٨ حققت مبيعات شركة "جنرال موتورز" مبلغ ٦٣ مليار دولار وسجلت رقمها القياسي في الارباح. وهذا الرقم يفوق مجمل الانتاج الوطني لمعظم دول العالم.

وجاءت أزمة النفط التالية على أثر لجوء شاه ايران الى المنفى في يناير (كانون الثاني) ١٩٧٩. وتلك كانت أشد وطأة من الاولى. وانخفض انتاج ايران من النفط مما أثر في الاسواق العالمية. واضطرت منظمة الدول المصدرة للنفط (اوبيك) الى رفع الاسعار. وبعدما كان ثمن الليتر العادي المنقى من الرصاص ١٨،٢ سنتاً في الولايات المتحدة عام ١٩٧٨، ارتفع الى ٣٣ سنتاً عام ١٩٨٠. وتهافت الامريكيون من جديد على السيارات الصغيرة. واذ لم تستطع الشركات المحلية تلبية طلباتهم، هبت اليابان لعرض خدماتها. ووجد الامريكيون في السيارات اليابانية ما يروقهم من حيث النوعية والصنع. والذي بدأ وشلا استحال فيضاً.

وأخذت مصانع السيارات الامريكية الضخمة تنهار واحداً واحداً. ومن تلك المصانع مركز فورد للصب في ميشيغان، الواقع في فلات روك على بعد ثلاثين كيلومتراً جنوب ديترويت. وكان ذلك المصنع، الذي إفتتح عام ١٩٧١ بكلفة ٢٠٠ مليون دولار، تحفة صناعية تعج بأفضل انجازات التكنولوجيا المتطورة المصممة لصنع محركات السيارات الكبيرة وصب قوالب اخرى. وكان تحويل المصنع لتلبية حاجات السيارات الصغيرة شبه مستحيل لأنه يكلف الكثير. واضطر ذلك المصنع الى اقفال أبوابه في ديسمبر (كانون الاول) ١٩٨١. وتبعته مصانع اخرى كثيرة.

ومن الذين سرحتهم شركة "ليفونيا" قبل سنتين من ذلك الحين ريتشارد فيشر (٣٦ سنة). ودامت تعويضات البطالة ستة أشهر لديه، ثم انطلق يومياً يبحث عن عمل. لكن أفضل ما حصل عليه من عروض كان العمل الوقتي في جمع أوراق الشجر المتساقطة وجرف الثلج. ولبث في منزله معظم الوقت يعتني بأولاده وهو قلق على امكان خسارة منزله وقيمته

٤٢ ألف دولار ــ لأنه عجز عن دفع الضرائب٠

ويقول فيشر: "انها تجربة قاتلة للمعنويات٠ فالمرء يتخلف أشهراً عن دفع فواتيره٠ وهو يتلقى المخابرات الهاتفية اليومية من دائنيه٠ ولا يمكنه ان يعدهم بدفع خمسة دولارات لانه لا يملك هذا المبلغ٠ لذلك يضطر الى الكذب على الناس في حين لم يكذب قط سابقاً٠ ويشعر أحياناً أنه على حافة الجنون٠" يقول فيشر هذا الكلام والدمع يسح على خديه٠

لقد غدت ديترويت مدينة طوابير٠ فالالوف فيها يصطفون أمام دوائر البطالة حتى يغص بهم الشارع٠ ويلفهم جو رهيب من الصمت٠ ولا تبدر من أحدهم كلمة وهم يتقدمون لعرض مشكلاتهم٠ حتى اذا رفضت الاستجابة لطلب أحدهم انهال بالشتائم وسقط في أيدي رجال الشرطة٠

وفي الصباح الباكر من كل يوم يقف طابور آخر طويل أمام مؤسسة تجارية في شارع جوي رود، معظمه من عمال السيارات المسرحين٠ وهم يأتون في الحافلات او يوقفون السيارات الخصوصية (أوتو ــ ستوب) او سيراً على الاقدام لبيع عينات من دمهم في مقابل عشرة دولارات للعينة الواحدة٠ وتلبي المؤسسة طلبات ٧٠٠ عامل في الاسبوع٠ أما الآخرون فترسلهم على أعقابهم٠

وهناك طوابير من الناس الذين يتلقون هبات غذائية٠ وفي الاشهر الستة الاولى من العام ١٩٨٣ وزع المساعدون الاجتماعيون في ديترويت ٧٥٠ ألف وجبة على المحتاجين٠ وثمة عائلات تقف بكامل أفرادها أمام مركز الآباء الكبوشيين في جادة ماونت اليوت٠ هناك يلتهم الاطفال الطعام بنهم بعدما كانوا يتنعمون يوماً بما لذ وطاب٠ وبينما هم يفعلون ذلك يشيح والدوهم أنظارهم حياء٠

لقد ولى النعيم الذي كان لعمال السيارات الامريكية٠ ومعظم المسرحين لن يروا مصنع سيارات آخر من الداخل بقية حياتهم٠ ومما زاد الاوضاع سوءاً الاعتماد الزائد على الآلات٠

تعاون العمال والادارة

لدى عودته مديراً الى "ليفونيا" دار مارفن كريغ على المصنع في جولة تفقدية٠ وسار نحوه زميل سابق وقال: "لقد اشتريت لنفسك مشكلة يا مارفن بقبولك المجيء٠"

والواقع أن مؤسسة "ليفونيا" كانت تعاني مشكلتين، لكل منهما القدرة على أن تتحول مشكلة قاتلة٠ فقد بلغ سوء ادارة المؤسسة مبلغاً جعل شركة "فورد" على وشك اقفالها درءاً للخسائر٠ والمشكلة الثانية لجوء "ليفونيا" الى صنع أجزاء مسننة مضاعفة السرعة وذات كفاية عالية٠ غير أن تلك المسننات صممت لتلائم السيارات التي تعتمد على حركة عجلاتها الخلفية، في وقت كانت الصناعة تنتقل الى السيارات التي تتحرك بعجلاتها الامامية٠ وأدرك كريغ ان سوق تلك الاجزاء ستتقلص عاماً بعد عام، مما سيجبر المصنع على الاغلاق في ظرف خمس سنوات٠

الا أن مارفن كريغ لم يعدم مخرجاً، وتجدر الاشارة الى أن مسنناً مضاعف السرعة لحركة العجلات الامامية كان قد تم ابتكاره ليلائم السيارات ذات الحجم المتوسط، ولا شك أن في امكان "ليفونيا" انتاج هذا المسنن، وكانت العادة أن تتعاقد شركة "فورد" مع مؤسسة اخرى لتزويدها بمثل هذه القطع، وأدرك كريغ أن منافسته الحقة هي مع اليابانيين، خصوصاً مؤسسة "تويو كوغيو" في هيروشيما منتجة سيارات "مازدا" التي تمتلك "فورد" ٢٥ في المئة من اسهمها، وقد بدت فكرة منافسة الصناعة اليابانية غير واقعية، خصوصاً من شركة هرمة مثل "ليفونيا"، الا أن كريغ اعتمد على جرأته وسعة خياله للمضي قدماً،

وعقد كريغ سلسلة اجتماعات مع روبرت ليتل الذي وافق على أن الامل الوحيد لابعاد جماعته عن شبابيك البطالة يكمن في تحسين النوعية وخفض التكاليف، واتفق الاثنان على العمل معاً وسد الثغرات التقليدية بين الادارة والعمال،

واقترح ليتل أن يعمم رسالة على العمال حول "وضع المصنع"، الا ان أحد المحاسبين اعترض على ذلك قائلا: "اصبر هنيهة! ان معدل ما ندفعه للموظف، بما في ذلك الفوائد والضمانات، عشرون دولاراً في الساعة، واذا دام كل اجتماع مع العمال، وهم خمسة آلاف، ساعة فقط، فهذا يعني خسارة مئة الف دولار،"

الا أن كريغ أجاب: "اسمع يا صديقي! اننا نخسر الاموال الطائلة هنا كل دقيقة باجتماع ومن دون اجتماع،"

ودعي العمال على دفعات يتألف كل منها من بضع مئات، وقال لهم كريغ: ستسمعون اموراً لن تروقكم، غير أنها الحقيقة، فنحن هنا ننتج أجزاء تناسب السيارات التي تتحرك بعجلاتها الخلفية، في حين تتجه الصناعة نحو حركة العجلات الامامية، واذا بقينا على هذا المنوال، فلن يكون لدينا غير سنوات قليلة، ولئن يكن لهذا المصنع أمل في المستقبل، فهذا وقف عليكم، وليس في امكاني أن أفعل شيئاً من دونكم، ولكن ينبغي أن نكف أولا عن خلافنا حول من يحفز من على العمل، ان اليابانيين حققوا فوزاً عليكم في النوعية وفي الاسعار على السواء، واذا عجزنا عن العمل كفريق، فارجوكم اطفاء الانوار بعد التأكد من انهيار مصنعكم،"

ووقف العمال وهم يصفقون،

ورسم كريغ برنامجاً يقول ان النوعية منذ ذلك الحين فصاعداً، تأتي في المقام الاول قبل السرعة في التنفيذ، وعلى رغم اصدار قرارات مماثلة في السابق فانها لم تنفذ وبقي المصنع ينتج أجزاء معطوبة، وأعلن كريغ اعتزامه ايقاف سير العمل اذا كان ذلك ضرورياً لضبط النوعية،

ومرة رن الهاتف في مكتبه وقال له أحد العمال: "ثمة قطع رديئة لدينا في آخر الخط، وربما كنت تود التأكد بنفسك من ذلك،"

وأسرع كريغ الى ذلك المكان حيث عرض عليه العمال كباساً معطوباً

يحدث ثقوباً في قطعة موصولة مانعة للتسرب. ولم يكن الخطأ المذكور مقتصراً على ذلك الكباس وحده، بل تعداه الى كل كباس آخر هناك. وفجأة ظهر المشرف وقد هاله وجود المدير العام في قسمه. وبادره كريغ وهو يشير الى الكباس: "هذه القطعة معطوبة."

وأجابه المراقب على الفور: "كلا، انها سليمة."

فانبرى له كريغ: "أقفل خط العمل حالا."



وأدار المراقب زراً فسكتت الجلبة على الفور. ولم يصدق العمال ما يحدث. فخط العمل يتعطل في العادة. لكنها المرة الاولى التي يغلق ارادياً لأن ثمة قطعة غير سليمة.

ونظر كريغ حوله. وعلى بعد ثمانية أمتار رأى النقطة التي عمل فيها قبل سنوات طويلة. وتذكر عداء المراقبين له كلما اقترح طريقة لتحسين العمل. وأسف اذ رأى أن الامور لم تتبدل خلال السنوات الخمس والعشرين الفاصلة.

عز بعد فاقة

وكما يزور الحجاج الاماكن المقدسة، ازداد عدد المسؤولين في مصانع السيارات الامريكية الذين يقصدون اليابان للاطلاع على بعض اسرار صناعتها. وذهب كريغ الى هناك مرتين، معرضاً المصانع اليابانية لفحصه الدقيق، بما فيها مؤسسة "تويو كوغيو" في هيروشيما.

وكان يدري أن في امكان الصناعيين اليابانيين بناء سيارة صغيرة وشحنها الى الولايات المتحدة وبيعها بمبلغ يقل ١٥٠٠ دولار عن ثمن كلفتها هناك. وما ارتفاع اجور العمال الامريكيين بنسبة الثلث سوى سبب واحد من أسباب المشكلة. ومن الاسباب الاخرى الفوارق الضريبية والفوارق في تحويل العملة بين الدولار والين.

ويرى كريغ وآخرون سبباً أهم من هذه جميعاً، وهو أن ادارة المصانع اليابانية تتم بمقدار أكبر من الكفاية. وبناء على تقدير خبير الحساب جيمس هاربور، ففي امكان اليابانيين انتاج السيارة الصغيرة بجهد ١١٥ ساعة عمل، في مقابل ١٩٥ بالنسبة الى الولايات المتحدة. ويضيف هاربور أن تفوق اليابانيين ليس آتياً من تفوق التكنولوجيا لديهم، كون التكنولوجيا الامريكية لا تضاهي في مجال آخر.

ما سر النجاح الياباني اذاً؟

العديد من الخبراء يعزو هذا السر الى الكفاية الادارية العالية والتعاون الوثيق بين قطاعي الادارة والعمل. ويتولى المديرون اليابانيون الاشراف

على كل شاردة وواردة في عملية الانتاج، ساعين الى كمال الصنع على الدوام. كما يوظف اليابانيون طريقة يدعونها "كانبان" ومعناها في لغتهم: "في الوقت المحدد". ويحرص المراقبون على خط العمل أن تتم كل مرحلة بأقصى ما يمكن من دقة.

أضف الى هذا أن عمال السيارات اليابانيين يعملون بحماسة قل نظيرها في ديترويت. وفي مصانع كثيرة يذهب العمال صباحاً قبل الدوام ويؤدون تمارين رياضية أمام آلاتهم، حتى اذا حانت الثامنة باشروا العمل بحزم وثقة.

وفي حين ان العمال الامريكيين ألفوا الاستماع الى رأي مسؤوليهم القائل بأنهم يتلقون رواتبهم للعمل لا للتفكير في طرائق اخرى، نجد أن نقيض ذلك يحصل في اليابان. ويقول سويشيرو هوندا، العامل الميكانيكي السابق الذي وفق الى تأسيس الشركة التي تحمل اسمه: "الصناعة لا تزدهر الا متى فكر كل عامل فيها كيف يدفعها الى الازدهار". وجدير بالذكر ان ادارة تويوتا، كبرى شركات السيارات اليابانية، تلقت في العام ١٩٨١ مليوناً و٤٠٠ ألف اقتراح من موظفيها، أي ما نسبته ٣٠،٥ اقتراحاً للموظف الواحد. والاهم من هذا أن ٩٤ في المئة من تلك الاقتراحات وجدت طريقها الى القبول.

وقد فهم كريغ نفسية العمال وتعاطف معهم لانه بدأ عاملا في أسفل السلم. وهو أثار غيظ بعض زملائه بتحميله الادارة مسؤولية الكثير من النقص. ومرة أعلن الآتي: "ثمة معرفة غزيرة هناك على خط العمل. فمن ذا الذي يعرف شيئاً أكثر ممن يمارسه يومياً؟ وعلينا أن نستمد تلك المعرفة من العمال اذا شئنا توجيههم بصحة واقناع."

وأبرم عقد بين اتحاد العمال وادارة "فورد" مُنح كريغ بموجبه حق التعاون والعمال على اكتساب خبراتهم وتبني اقتراحاتهم الايجابية. واحتوى العقد بنداً ثورياً يمكن الاتحاد والادارة من العمل المشترك على برنامج أُطلق عليه اسم "تعاون العمال". وبموجبه تشرك الادارة الموظفين بالساعة في عملية صنع القرار وتتعهد تحسين ظروف العمل ما استطاعت. ومن ناحيته، يبذل الاتحاد جهده لرفع الانتاج عبر خفض التكاليف واستثمار الجدارة.

ولقي البرنامج أول الامر معارضة من الطرفين. فهناك اداريون كثيرون يفضلون اصدار الاوامر على بحث الامور مع العمال، يقابلهم عمال كثيرون يرفضون مبدأ التعاون مع "العدو".

غير أن البرنامج ما لبث أن لقي نجاحاً باهراً في "ليفونيا". وشكلت ثمانون لجنة مشاركة ضمت أكثر من ٧٠٠ موظف. وبات رؤساء اللجان يجتمعون مرة في الاسبوع مع ممثلي الادارة لعرض ما يرونه خطأ في أقسامهم المختلفة، فتصدر الادارة في الاسبوع اللاحق تقريراً حول ما أنجزته لاصلاح الخطأ. ويقول عامل بالساعة: "كان أسوأ ما في العمل أن يكرر الواحد منا واجباته اليومية وهو يدري أن ثمة طرائق أفضل لتأديتها. ولكن ها هي الادارة تعطي شكاوانا

آذاناً صاغية بعدما كانت ترفض الاصغاء الى صوت العمال."

وكما في اليابان باتت الادارة تقدر المبادرات الفردية للعمال وتكافئها. وفي العام ١٩٨٢ وزعت شركة "فورد" على عمال "ليفونيا" ما قيمته ٦٠٠ ألف دولار من نقود وسيارات جديدة في مقابل أفكارهم المبتكرة التي وفرت ثلاثة ملايين و٧٠٠ ألف دولار للمؤسسة. كما أسفر التعاون بين الموظفين والادارة عن تحسن بيّن في النوعية. وبعدما كان ٤٣ جهازاً لنقل الحركة (ترانسميسيون) من كل مئة جهاز ينتجها المصنع،تحتاج الى اصلاح خلال السنوات الماضية، انخفض هذا العدد الى ١١ في المئة بعد تطبيق برنامج التعاون. ويأمل كريغ في أن ينخفض هذا الرقم أكثر فأكثر.

ومما حققه هذا البرنامج اضعاف حدة الملل والتغيب. وللمرة الاولى شعر العمال أنهم أعضاء فريق وليسوا رجالا آليين، وأن الادارة تقدرهم. وبعدما بلغت نسبة المتخلفين ٦ في المئة عام ١٩٧٩، انخفضت الى ٣،٨ في المئة على أثر تطبيق البرنامج. ولم تعد مشكلة تجهيز المصنع بالماء المبرد ومكيفات الهواء تستهلك حيزاً كبيراً من الوقت على طاولة المفاوضات، بل أصبحت تحل بهدوء عبر اللجان المسؤولة.

ومن أهم الخطوات التي اتفق عليها كريغ وليتل ادخال تعديلات لخفض التكاليف، ومنها تحميل كل من يعمل على آلة مسؤولية مراقبة نوعية القطع التي تنتجها آلته بعدما درجت العادة على دعوة مفتشين لتأدية هذه المهمة. وذلك التوفير في المصاريف مكن المؤسسة من ابرام اتفاقها لصنع المسننات التي تحرك العجلات الامامية.

وبموافقته على تلك التعديلات وضع روبرت ليتل وظيفته كرئيس للاتحاد العمالي موضع الخطر. وعلى رغم أن النقد انهال عليه من كل جانب فانه بقي قائداً نقابياً محترماً. ولدى التصويت على تلك التعديلات منحه العمال ٩١ في المئة من أصواتهم. واذ ذاك حمل كريغ وليتل قائمة القوانين المعدلة الى رئاسة الشركة، فقدر الخبراء الماليون أن ذلك من شأنه خفض المصاريف بنسبة ٢٥ في المئة.

أما العامل الثاني في ابرام الاتفاق الجديد حول المسننات فكان انقاذ كل ما يمكن انقاذه من الآلات القديمة، علماً ان المصانع، لدى انتقالها الى نظام جديد، تتخلى عن مجمل آلاتها المستعملة. وكان من آثر ذلك التدبير خفض الكلفة من مليار ونصف مليار دولار الى مليار واحد.

وفي ١٢ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨١ تلقى كريغ مخابرة هاتفية من مكتب جون بيتي نائب رئيس "فورد" المسؤول عن القوة الدافعة وهيكل السيارات، يعلمه الآتي: "السيد بيتي يود عقد مؤتمر صحافي في مصنعك هذا الصباح."

وظهر بيتي أمام عدسات التصوير التلفزيوني وأعلن أن مصنع "ليفونيا" نافس مؤسسة "تويو كوغيو" في عقد تلك الصفقة. ووقف الجميع يصفقون.

وفي دقائق عم الخبر المصنع كله.

وأعلن كريغ: "لقد تغلبنا على عملاق حقيقي. أرأيتم كيف ان تضامننا يجعل منا قوة لا تقهر؟"

غد مشرق

لقد رفعت مؤسسة "ليفونيا" معنويات صناعة السيارات الامريكية. وكانت المرة الاولى يـُهزم اليابانيون من حيث عطيتهم الرئيسية، الا وهي الجدارة. وبرهن انجاز "ليفونيا" ان العمال الامريكيين، اذا نظمت صفوفهم ووجدت لديهم الدوافع على العمل، يمكنهم مواجهة اليابانيين بكفاية عالية. كما برهن هذا الانجاز ان التعاون بين الادارة واتحاد العمال يجب ان يبقى وثيقاً. ويقول رئيس مجلس ادارة "فورد" ان مشاركة العمال في اتخاذ القرار كان لها الاثر الاكبر في تحسين النوعية. ويضيف: "هذه ليست معركة تكنولوجية ضد اليابانيين. فهم لا يتفوقون علينا في اي من الجوانب التكنولوجية. لكن الامر الحاسم هو حفز العنصر البشري على العمل."

وها هي شركة "كرايزلر" ايضاً تنهض من كبوتها. وقد اعلنت ربحها الصافي عام ١٩٨٢ بعدما عانت خسارة مستمرة منذ ١٩٧٧. وظل خط الربح مطرداً خلال ١٩٨٣.

وقد تم ابلال "كرايزلر" بفضل خفض مصاريفها الى الحد الادنى وفي الوقت نفسه تم رفع النوعية. ومن أصل ستين مصنعاً تملكها الشركة، تم اقفال عشرين مصنعاً او بيعها. وبعدما كان عدد العمال ١٥٧ الفاً عام ١٩٧٨، اصبح اليوم ٧٤ الفاً.

وخفضت الرواتب الادارية كثيراً. وظل رئيس مجلس الادارة لي ياكوكا سنتين يعمل من غير راتب ويتقاضى دولاراً واحداً في السنة كمبلغ رمزي. ووافق اتحاد العمال من ناحيته على تجميد الرواتب والتخلي عن بعض العلاوات والاجازات المدفوعة. وكانت الشركة في ما مضى تنتج مليونين و٤٠٠ الف سيارة سنوياً لئلا تقع في خسارة. أما اليوم فيكفيها انتاج مليون ومئة الف سيارة لتحقيق هذا التعادل.

وتبين ان الغزو الياباني كان خير دافع للصناعة الامريكية لكي تجدد ذاتها وتنطلق قدماً. فهذا الغزو جعلها تعي نقائصها الفادحة فتتجنبها وتخطط من جديد للمستقبل. وبفعل هذه المنافسة اليابانية خصص مبلغ ٨٠ مليار دولار بانتاج سيارات أصغر حجماً وأقل استهلاكاً للوقود وبتطوير هندسة السيارات ومقاييس الانتاج.

ومع نهوض صناعة السيارات الامريكية من محنتها القاسية ارتفع مبيع السيارات المصنوعة في الولايات المتحدة، خلال النصف الأول من العام ١٩٨٣، بنسبة ١٣٫٤ في المئة عنه في الوقت نفسه من العام السابق. وعاد توق الامريكيين الحبيس الى سياراتهم يعبر عن نفسه.

ويتوقع معظم الخبراء ان يستمر الاكتساح الياباني لسوق السيارات الصغيرة. فصناعة السيارات الامريكية لم تبتكر بعد الطرائق التي تدر عليها الارباح في هذا المجال.

لكن أرباب هذه الصناعة أدركوا ان عدم التكافؤ لا يعني الانكفاء، وانه من الخير لهم الانضمام الى اليابانيين بدل منافستهم. من هنا باتت شركة "ميتسوبيشي" تصنع سيارة "كولت" لحساب "كرايزلر". وقياساً بمستوى الكلفة في اليابان، يستطيع عملاء "دودج" و"بلايموث" بيع سيارة "كولت" بمبلغ ٤٩٩٥ دولاراً فقط. وقد وقعت شركة "جنرال موتورز" اتفاقاً مع "تويوتا" تعهدت الشركتان بموجبه انتاج ٢٠٠ الف سيارة صغيرة سنوياً في احد مصانع "جنرال موتورز" العاطلة عن العمل في كاليفورنيا. كما تعهدت الشركة الامريكية استيراد ٢٠٠ الف سيارة "ايسوزو" و٨٥ الف سيارة "سوزوكي" سنوياً لبيعها في اسواق الولايات المتحدة.

ولكن يبدو في الوقت نفسه ان الطلب عاد الى الارتفاع بالنسبة الى السيارات الكبيرة، خصوصاً بعد اضافة الزوائد اليها. وعلى رغم ان العام ١٩٨٢ كان الأسوأ في صناعة السيارات الامريكية خلال العقدين الأخيرين، فان بيع السيارات الكبيرة ذلك العام ارتفع بالنسبة الى ١٩٨١. فشهدت مبيعات "كاديلاك" ارتفاعاً بمقدار ٨ في المئة. وفي النصف الاول من ١٩٨٣ ارتفعت هذه النسبة ٢٤،٤ في المئة عما كانت في الفترة نفسها في العام السابق.

وفي مراكز المصانع التقنية نجد سيارات المستقبل تكتسب اشكالها. ويمكن القول ان اكبر سيارات ١٩٨٥ حجماً ستكون اصغر من نظيرتها للعام ١٩٨٣. ولكن بما ان معظمها سيعمل بحركة العجلات الأمامية وستركب محركاته جانبياً، فان حجمها الداخلي لن ينقص عما كان عام ١٩٨٣. وسيزداد استخدام البلاستيك المقوى بالزجاج الليفي المغزول (فايبرغلاس).

ويتوقع روبرت ايتون نائب رئيس "جنرال موتورز" المولج شؤون الانتاج المتطور والتصميم ان تكون سيارات ١٩٩٠ اقل استهلاكاً للوقود بمقدار ٢٥ في المئة. وفضلا عن كونها أخف وزناً، ستكون اعلى كفاية من حيث خفض مقاومتها للهواء. كما يتوقع ايتون ان تعمل معظم سيارات العقد الأخير من هذا القرن على أربع اسطوانات، وان يحل الحقن الالكتروني محل المكربن (كاربوراتور) الحالي الذي يمزج الهواء بالوقود. وهو يقدر ايضاً ان يقوم الاشعال الالكتروني مقام طريقة الاشعال الحالية عبر الموزع. وسوف تستطيع السيارات الصغيرة قطع عشرين كيلومتراً باللیتر الواحد من البنزين.

ان التبدلات التي طرأت على صناعة السيارات تظهر بوضوح في احد مصانع "فورد" في وين (ولاية ميشيغان) بالقرب من ديترويت. وهذا المصنع هو من مصانع فورد العملاقة، إذ يحتل مساحة ١٩ هكتاراً. هناك يعمل نحو ٣٩٠٠ موظف ينتجون سيارة "اسكورت" ونظيرتها "لينكس". وقد تم ادخال "اسكورت" عالم السيارات عام ١٩٨١ بعد صرف ٣ مليارات دولار على عملية انتاجها.

وهي اليوم أقوى السيارات مبيعاً في الولايات المتحدة. وينتج مصنع وين. ١٠٥٦ سيارة "اسكورت" يومياً.

ويقول جون لاتيني مدير المصنع المذكور: "انه أعظم وقت تمر به صناعة السيارات. فالأفكار المستجدة معنا على الدوام. وللمرة الاولى يقوم تعاون بين الادارة والعمال... صحيح أننا لم نحل جميع الخلافات العالقة او الطارئة بيننا، ولكن بات في امكاننا بحثها."

وقد تمكن لاتيني من خفض مصاريف الشركة عبر اغلاقه دائرتين غير ضروريتين واتخاذه خطوات فاعلة في اتجاه تحسين النوعية. وهو يقول:

"اننا اكثر الناس ابتكاراً في العالم. ففي سنتين تمكنا من مجاراة "داتسون". ونحن نقف على قدم المساواة مع "تويوتا" و"هوندا". والفرق بيننا ليس في جودة الأجزاء، بل في الشكل واللمسة النهائية. وأظن ان سنوات قليلة تقف بيننا وبين حيازة الأولية في العالم من حيث النوعية."

ويتوقف لاتيني لحظة عن الكلام ليلامس سيارة "اسكورت" تم صنعها، ثم يتابع: "لقد اخبرت اليابانيين انهم ايقظوا كلباً نائماً، وانه على وشك ان يعضهم."

■ **ديفيد ريد**



لا شيء يعمل

لم يقل استمتاعي بالعطلة خلال الاسبوع الثاني عما كان في الاسبوع الاول. والسر اني لم افعل شيئاً بل تجاهلت طلبات زوجتي العناية ببعض شؤون المنزل. ولم اعرف مدى انزعاجها الى ان توقفت آلة تجفيف الثياب عن العمل، كذلك المكواة وآلة الخياطة. اما القشة التي قصمت ظهر البعير فكانت الخلل الذي طرأ على المكنسة الكهربائية. وبدت زوجتي من الكآبة بحيث بات لزاماً ان اقول لها كلاماً يلطف من حدة ذلك الجو، فقلت: "لا ضير يا حبيبتي، فأنت ما زلت تملكينني."

ورفعت الي عينين يملأهما الدمع وقالت: "اجل، لكنك انت الآخر لا تعمل".

ج.ل.

فيلمان دفعة واحدة

وصلتُ واختي متأخرتين الى قاعة السينما، فتلمسنا طريقنا وسط الظلمة. وخلعتُ معطفي ورميته على المقعد أمامي. وما هي الا دقائق حتى أخذ مشهد الشاشة يختفي ليبرز شخص من تحت المعطف. واستدار ذلك الرجل الي وقال بلياقة: "ظننت بادىء الامر أن هذا آخر مبتكرات الرقابة."

ر.أ.ف

كتاب الشهر

المنفى



المنفى

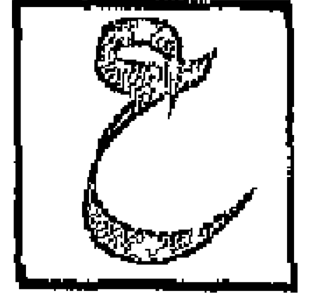
انها سيبيريا ، أرض المنفى واللارجوع والصراع المرير من أجل البقاء ...

وسط الشتاء السيبيري عام ١٩٤٢ ، وجدت حفنة من أسرى الحرب الايطاليين ظروف الحياة قاسية جداً أمامها . وكان أفراد تلك المجموعة ـ والكاتب أحدهم ـ مبتوري الاطراف .

الا أنهم صمدوا ، لا بل وجدوا لأنفسهم مكاناً في قلوب شعب كان يملك كل ذريعة لمقتهم . ولكن ما الذي قرب بين الايطاليين والروس في ذلك المكان النائي ؟

من عوامل ذلك التلاقي رفعة الخُلُق الروسي والحس الانساني العميق لدى الطليان . يضاف الى هذا وذاك تعلق الروس بالفن الايطالي وشمس المتوسط الدافئة التي لا تشرق على فلاديفوستوك ونوفغورود .

Condensed from Vengo dalla Siberia (c) 1973 by Carlo Silva and published by Bietti Milan
Illustrations by Joe Krush



عند الفجر حملني جنديان من غرفة الجراحة الميدانية التي أقامها أطباؤنا العسكريون في بلدة شيرتكوفو المتنازع عليها، والتي تبعد ٨٠ كيلومتراً أو نحوها غرب نهر الدون.

كان ذلك بعد مضي يومين على عيد الميلاد للعام ١٩٤٢، وقد توقفت فرقتنا الايطالية الصغيرة لاستراحة موقتة في شيرتكوفو، وهي تكوّن مؤخر جيش قوي، عدده عشرون ألف جندي من المان وطليان، أمروا بالتراجع غرب الدون.

وكانت جدعة ساقي اليسرى تؤلمني كثيراً. وقد بتر جزء منها على أثر قضمة صقيع أصابتها خلال تراجعنا عبر السهوب الروسية الجليدية. وعلى رغم أن رجلي قُصت من تحت الركبة، فقد خيل الي أني احس الألم في الاعصاب والاوتار والعضلات، وان ذلك الالم يمتد عبر ربلة ساقي الى أصابع قدمي التي لم تبق حيث كانت.

وحملني الجنديان الى غرفة صغيرة، حيث مددانى على أرضيتها بالقرب من أربعة زملاء بتر لكل منهم أحد أطرافه.

وبادرني أحدهم، وهو رجل ضئيل الجسم بترت ساقه اليمنى: "أهلا وسهلا. أنا تونينو فانتي من ساباوديا.... من أنت ومن أين اتيت؟"

فقلت له: "اسمي كارلو، وأنا من ميلانو."

وكنا جميعاً مرهقين ألماً. غير أن تعارفنا تم في تلك اللحظة. وبدا أن تونينو فانتي من الاشخاص الذين يمكنهم بث الفوضى في لواء كامل من جماعة القوازق. وهو كان قبيح المنظر، ملحاً في طلبه، أو ربما كان الحاحه متنفساً لحيويته وحماسته. لكنه، في الوقت ذاته، كان كريم النفس قريباً الى القلب.

وكان بين الجماعة جيوفاني من نوفارا، وقد بترت قدمه اليسرى و٢٥ سنتيمتراً من رجله اليمنى. كذلك انطونيو بريزيو من ليتشي الذي فقد ذراعاً. أما تونونو، من نابولي، فقد احتفظ بأطرافه الاربعة. الا أن رجله اليمنى مزقتها الشظايا وما زالت في داخلها.

وعند الظهيرة جاءنا جندي بالطعام من البسكويت واللحم المعلب والشوكولاته. واذ لم أكن جائعاً، ظللت بعيداً عن الطعام. فانبرى تونينو قائلا: "ينبغي أن تأكل، وان أرغمت نفسك. وحين نعود الى ايطاليا يوماً سأدعوك الى منزلي للطعام. ان امي تصنع المعجنات بنفسها، وهي خبيرة في هذا المجال. ان الحروب لا يجوز أن ينتصر فيها غير ذواقي الطعام، لأنه عندئذ يكسب حتى الذين هزموا."

وابتسمت ورحت أنظر اليه وهو يلتهم وقعته وقد تدلت نظارتاه فوق أنف يحمل طابع سيرانو فيما بدا وجهه كوجوه مهرجي البلاط تحت ضوء الشتاء البارد.

وأطلت السنة الجديدة كالحة كسابقتها ونحن نترقب الهجوم الروسي الذي أدركنا أن لا مناص عنه. وكان في مساء ١٥ يناير (كانون الثاني) ١٩٤٣ أن قذيفة مدفعية انفجرت على السطح فوقنا.

وسمعنا في الشارع دوي الانفجارات والصياح وجلجلة الاحذية الثقيلة.

وفتح الباب وظهر جندي. وترك لنا خمسة أكياس من البكسويت وخمس علب من اللحم قبل أن يعود من حيث أتى.

وصاح فيه تونينو وهو يدير ظهره: "خذنا معك."

الا أن وقع خطى الجندي غاب في الممر، وتلاه صمت نظرنا وسطه بعضنا الى بعض.

وقال انطونيو: "كل من يستطيع المشي غادر المكان."

وعلقت أنا: "ترى من سيفتح هذا الباب تالياً؟".

ومع اطلالة النور الاولى رأيت فانتي يفتح علبة سردين بسكين لا يبارحه. وفجأة توقف ووقعت العلبة من يده وسال زيتها على غطاء سريره. ومن الخارج سمعنا نشيداً عسكرياً بدأ خافتاً ثم ارتفعت نبراته... انهم الروس!

وصرختُ في زملائي: "انهضوا حالا من أسرتكم. ولنخرج الى العراء ليعرفوا أننا مشوهون."

وجلسنا على القش، خمسة رجال متداعين ألقوا ظهورهم على الجدار وفتحوا أعينهم نحو الباب. وانطلقت المسدسات في الممر وفتح الباب على مصراعيه استجابة لرفسة قوية.

ودخل رجل ضخم يلبس معطفاً من فرو أسود وقد شد حزاماً حول خصره علق فيه سيفاً معقوفاً. وتدلى عن جانبي أنفه الكبير شاربان طويلان. وحمل في يده مسدساً ايطالياً.

وصاح فينا: "أأنتم ألمان؟"

وأجابه تونينو: "كلا، بل نحن طليان."

ولم يجرؤ أي منا على التنفس. وتفرس الجندي فينا وبصق على الارض. ونظر الى جروحنا وهز رأسه الضخم وتمتم كلمات غير مفهومة. ثم صوب طلقتين من مسدسه الى السقف وصرخ: "طليان." وخرج صافعاً الباب.

وقال تونينو: "انه روسي. واذا لم يسحبنا خارجاً ويقتلنا، فان أحداً سواه لن يفعل." ونظر الي وأضاف: "أتريد شيئاً من السردين؟"

وكنت أمضغ لقمتي الاخيرة عندما فتح الباب مرة اخرى. ودخل هذه المرة رجل قاسي الملامح متوسط الحجم يرتدي بذلة سوداء. وحدق الينا ملياً وهو يصر أسنانه. ثم ابتسم قليلا وقال بلغة ايطالية مكسرة: "أصحيح أنكم طليان؟"

وأجابه فانتي: "نعم."

- حسناً. الايطاليون ليسوا كالالمان. فهم أقوى عاطفة وأشد احساساً!

وهززنا رؤوسنا معاً، كأنما شئنا القول: "انك لم تتفوه بعبارة أصدق من هذه."

وأضاف: "أنا مفوض سياسي في الجيش السوفييتي. ثقوا أن الروس لا يقتلون الاسرى. وهم يحترمون الجرحى والمبتوري الاطراف. أجل، انكم لن تموتوا، بل ستعودون يوماً الى بلادكم لتخبروا بني قومكم أن الروس شعب قويم. ابقوا هنا ولا تخافوا.... والى اللقاء."

وأجاب فانتي عنا جميعاً: "الى اللقاء."

وخرج المفوض الروسي ووقع خطاه يتبعه.

بقينا طوال ذلك الشهر طريحي

الارض في غرفتنا الصغيرة ونحن نفكر في ما عساه يكون المستقبل. ولم يكن الجيش الاحمر قرر بعد أن يأخذنا على عاتقه. الا أن العديد من المدنيين الروس عادوا الى شيرتكوفو. وكان بين اولئك نسوة حملن الينا الخيار والملفوف والخبز تحت ستراتهن المضربة.

كانت النساء متقدمات في السن وقد أخفين شعورهن تحت المناديل. ولم يتكلمن البتة، بل اكتفين بمد أيديهن الينا لنأخذ ما حملنه، كما هززن رؤوسهن بابتسام ليبعثن فينا الطمأنينة. لقد كن امهات، تشهد على ذلك طريقة نظرهن الى جروحنا بلا خوف ولا اشمئزاز. وكن، بعد تأديتهن ما جئن من أجله، يغادرن بهدوء وقد اختبأن ضمن معاطفهن المتسخة. ثم يقفن هنيهة عند الباب وينظرن نحونا قائلات: "الى اللقاء."

وذات مساء من يناير (كانون الثاني) فتح باب غرفتنا وبرز فيه ضابط من الجيش الاحمر. وأمر بنقلنا على حمالات الى مركز صحي، حيث غسلنا وحلقت ذقوننا وأزيل القمل من شعرنا. وبعد ذلك أخذنا الى المستشفى الخاص بأسرى الحرب.

كان المستشفى عبارة عن ثكنة خشبية كالحة. وما فتئت الحمالات تأتي من المبنى المجاور وتعود اليه، وفيه أقام الروس غرفة جراحة. هناك كانت الاصابع والايدي والاقدام تستأصل من أجسام أصحابها، عضواً بعد آخر على نحو سريع، حتى أطلقنا على تلك الغرفة اسم "براد اللحوم". ان عذاب الآخرين لم يعد يعني لنا شيئاً. وأتت علينا اللامبالاة.

وكان المدنيون الروس يدخلون المكان بحرية وقد أخفى الواحد منهم تحت ثيابه رغيفاً يزن نصف كيلوغرام. ومن الممر حيث يصطفون، كانوا ينظرون نحونا ويشيرون الى ما يحملون. أما نحن فنذهب اليهم بحذر ويسأل الواحد منا أحدهم: "أتحب قلم الحبر هذا ايها الصديق؟".

وهكذا تتم الصفقة، فيعطي الروسي رغيفه ويأخذ في مقابله أي شيء: قلم حبر أو ساعة أو عقداً أو سواراً أو محفظة نقود أو خاتماً أو ولاعة أو سكين جيب أو زوج أحذية. وذلك، لعمري، مكسب أغلى ثمناً من رغيف أسود.

وأخيراً جاءت الاوامر بنقلنا الى مخيم خاص بأسرى الحرب. وفي صبيحة ٢٦ فبراير (شباط) الجليدية الدكناء، حمل بعضنا وظلع البعض الآخر الى محطة السكك الحديد القريبة. وانهالت أوامر الضباط الروس على رصيف المحطة: "بسرعة! اصعدوا الى القطار! اقفزوا اليه سريعاً."

وفي نصف ساعة أو نحوها، ملأنا قاطرات شحن القطعان التي غصت الواحدة منها بسبعين أو ثمانين رجلا. ومن حسن حظي أني صعدت الى قاطرة أقل ازدحاماً من سواها. هناك كنا نحو خمسين أسيراً ابيضت وجوههم كالطبشور. وما أن اصبحنا داخلا وصرّ الباب الصدىء حتى سمعنا رنين قفل وصوت جندي روسي يقول: "لقد أوصد الباب."

وكانت فوق رؤوسنا أربع كوى مشبكة يدخل عبرها نور ضئيل. وراحت عيوننا المئة تنظر بعضها الى

بعض بصمت، ولم يتحرك أي منا، لكن فانتي سرعان ما شق طريقه على رجل واحدة الى احدى الكوى، وأطل من بين قضبانها ليخاطب حارساً: "أيها الصديق، الى أين نحن ذاهبون؟"

وجاء جواب غير مبال من الرصيف خارجاً: "الى سيبيريا."

وأبقى توتينو فانتي رأسه هناك الى أن تحرك القطار أخيراً... في اتجاه سيبيريا!

بقينا ٢٩ يوماً نقطع السهوب الروسية في قطار شحن القطعان، واذ أتذكر تلك المرحلة من حياتي اليوم، لا يأتي الى ذاكرتي أكثر من ستة وجوه، الا أن حدثين يوميين لا يبارحان مخيلتي.

كانت حصتنا من الغذاء توزع قرابة الحادية عشرة يومياً، بعد وقوف القطار وسط السهوب الخالية. وكان الباب يفتح نصف فتحة، ويأتي اثنان من الاسرى يرافقهما حارس، ويفرغان كومة وسخة من الخبز الروسي العفن على أرضية القاطرة. وأحياناً كان يبلغ عدد الارغفة الخمسة، وهي من النوع الالماني الطويل الاسود، ويزن الواحد منها كيلوغرامين.

ويقتضي الانصاف القول اننا، في مناسبتين اثنتين، تسلمنا بعضاً من سمك الرنكة المجفف، والشحم المدخن.

والحق أن عملية توزيع الخبز كانت أهم احداث النهار، وهي عملية دقيقة. كان الخبز طعامنا اليومي الوحيد، وحصة الواحد منه ٢٢٥ غراماً. لذلك كنا ننظر وننتظر بخشوع تقطيع الارغفة خمسين كسرة. وكانت المشكلة الاولى التأكد من أن كل قطعة تأتي في حجم الاخرى، علماً



أن بعض الكسر يقتصر على القشرة وبعضها على الاطراف.

واختير تونينو فانتي مقسماً للخبز وأنا معاوناً له. وعلى رغم انتخابنا شعبياً فان الشعب لم يثق بنا اطلاقاً. وكانوا كل صباح يتحلقون حولنا، ثم ترتفع رؤوسهم، وعددها ثمانية وأربعون، كلما أعمل فانتي سكينه في رغيف. وكانوا يلاحقون يد فانتي بأنظارهم حتى خيل الي أن أعينهم هي التي تقطع الخبز، لا نصل السكين.

وكان تونينو، في الايام القليلة الاولى، يقدر حجم الكسر بالنظر. ولما أقررنا بأن العين البشرية تخطىء، أبدلنا طريقة التقدير بميزان. وكان الميزان بدائياً، صنع من قطعتي خشب علقت احداهما عمودياً بالاخرى من الوسط، وجعل للقطعة الافقية كفتان.

ووضعت في الكفة اليسرى القطعة الاساسية التي شذبت بدقة ليغدو وزنها ٢٢٥ غراماً. أما في الكفة الاخرى فكنت أضع كل قطعة يعطيني اياها تونينو، ثم اضيف اليها أو آخذ منها لتعادل القطعة الدقيقة وزناً.

وبرهن المتحذلقون بيننا أن تلك الطريقة لا تروقهم أيضاً. وأخيراً قر الرأي على الطريقة الآتية: يقطع الخبز ويوزن أولا، ثم تصف الكسر الخمسون على جدار القاطرة، وبعد ذلك يتم التوزيع: وهذه الخطوة الاخيرة كانت الاكثر طرافة، اذ اقتضت أن أتناول بكل يد كسرة وأضع يدي وراء ظهري، ثم يطرح تونينو على كل زميل، بحسب التسلسل الابجدي للاسماء، السؤال الآتي: "أي قطعة تختار: اليسرى ام اليمنى؟"

وكان الجواب يأتي بعد طول تأمل، كأنما نحن في مباراة دولية. وبعد ذلك نجلس للأكل بسلام وهدوء، على غرار النساك الممتنعين عن الكلام. وكان كل منا يعلك اللقمة حسناً، ويقلبها يمنة ويسرة في أنحاء فمه قبل أن يدخلها معدته. وهكذا كانت الوقعة، وقوامها كسرة خبز من ٢٢٥ غراماً لكل منا، تدوم لا أقل مما تستغرقه مأدبة في قصر باكنغهام الملكي البريطاني.

أما الحدث اليومي الآخر فكان يرافق نهاية كل "وقعة" ووشوك اغلاق الابواب. اذ ذاك كان يأتينا النداء الآتي من رصيف المحطة: "أهناك موتى معكم في القطار؟"

ومع الوقت فقد ذاك النداء وقعه علينا. ومع اشتداد جوعنا وعطشنا في تلك القاطرة المتسخة، وليس لنا سوى موقد صغير على الحطب يقينا صقيع سيبيريا، قوي لدينا الاعتقاد أن ثمة باباً واحداً يفصل الاحياء عن الاموات. وكانت بعض القاطرات أقل حظاً من الأخرى. والحق أن قاطرتنا، التي شهدت وفاة رجل واحد طوال ٢٩ يوماً، كانت من القطارات السعيدة. الا أن المغضوب عليها كانت أكثر عدداً. ولم ينقض صباح واحد الا مع وفاة أربعة رجال أو خمسة ودفن جثثهم في مقبرة جماعية حفرت بسرعة قرب السكة. وكنا، من كوانا الصغيرة، ننظر الى الرؤوس الممرغة بالتراب والحجار فيما تجر الجثث الى مثواها الأخير ككلاب مسعورة قتلت بالرصاص. وبعد وضعها في الحفرة كان التراب يهال عليها بالمجارف.

وكان الهالكون، معظم الاحيان، يدفنون عراة، وأحياناً في قمصان قطنية ولكن من غير بزات أو شارات عسكرية.

وكنا نحدق مذهولين الى كومة التراب التي ترتفع قليلا ثم تغور وسط سهوب لا تنتهي. وربما عبرت الفكرة نفسها أذهاننا آنذاك، وهي أسفنا لاولئك الرجال يموتون ويدفنون في أرض غريبة بعيداً عن بلادهم وأحبائهم.

مستشفى في سيبيريا

بلغنا منطقة شوميخا في ليلة قاسية البرد في أواسط شهر مارس (آذار). وكنا عانينا الأمرين، جسديا ونفسياً، على أثر ٦٩٦ ساعة أمضيناها في القطار، وكادت عظامنا ان تخرج من جلودنا. وأتى علينا الخوف وبتنا سريعي الغضب. أما اللحى التي نمت على وجوهنا فاحالت أسفلها أقنعة سوداء. وغلفتنا القذارة وغزت جحافل القمل شعورنا واجسادنا وثيابنا. ولم يبقَ من طريقة لقتلها سوى الشد عليها بين ظفرين.

أما شوميخا فهي بلدة صغيرة جنوب سيبيريا، تنتمي الى السهوب الشرقية المنحدرة من جبال الاورال. ولم يكن من طريق تؤدي إليها أو منها سوى معابر للمشاة ضاعت وراء خط القطار.

ولما فتحت أبواب قاطراتنا أخيرا، كانت الحرارة خارجا ٤٠ درجة مئوية تحت الصفر. ولم يقو أحدنا على الخروج إلا بعدما انتابت حارسا أوكرانيا نوبة غضب وانهال علينا بالصراخ. وكنت وفانتي، وكلانا برجل واحدة، بين الذين انتظروا حتى النهاية. وأعاننا أكبر أفراد فريقنا سنا، وهو جوزف بريتي، ذو العينين المشرقتين والبشرة النضرة. وفيما نحن نظلع نحو رصيف المحطة، أشار الحارس الى عربتين يجرهما حصانان اوقفتا هناك، وقال انهما للمبتوري الاطراف. وكانت المسافة بيننا وبين العربة ٢٥ مترا، غير أن الخطى الاولى في صقيع سيبيريا تمت ببطء ومشقة.

وقال لي بريتي: "أسرع وإلا فقدت رجلك الاخرى." ووضع ذراعه على صدري ليسندني وأنا أقفز. ثم ساعدني لتسلق إحدى العربتين. وما أن أصبحت فوق حتى لذت بزملائي طلبا للدفء. ولكن حتى ذلك لم يكن كافيا لدرء الصقيع. فقد اجتاحت الريح الجليدية أمعاءنا. وفي ثوان معدودات استحال جلدنا قاسيا وأزرق. وسالت دموع الالم من جروحنا المفتوحة، كما من جلدنا المجلد وأعيننا.

وقال تونينو فانتي للحارس، "بربك دعنا نذهب من هنا." وأضفنا صراخنا الى صراخه. وربما أثارت وجوهنا الصفراء كالموت عطف الحراس فاحصونا سريعا وأمروا الحوذي بالانطلاق. واذا بنا وسط شوارع البلدة غير المضاءة. وكان عسيرا تخيل اناس "حقيقيين" نائمين في تلك المنازل الصغيرة المعتمة. ولم نلبث حتى توقفنا خارج مبنى كبير من خشب. وترجلنا وقفزنا الى الداخل. وهناك استحممنا تحت

وشل من الماء الفاتر. وبعد إزالة القمل من أجسادنا، أجري لنا كشف طبي سريع، ثم أخذنا الى بناية من طبقتين هي مستشفى الاسرى في شوميخا. وظهرت، بحجارها الامامية من الآجر الاحمر، كقلعة ملطخة بالدم وسط السهوب وبين المنازل الخفيضة.

وسمح الروس للاصدقاء أن يبقوا جنبا الى جنب. ووجدتُ، مع فانتي وبريتي وآخرين، مأوى لنا في غرفة كبيرة في الطبقة الارضية خالية من الاسرة. وكانت تحوي فرشا من قش، غطيت كل منها بحرام خشن ولحاف محشو قشا. وكان في الغرفة نافذة صغيرة يدخل عبرها النور.

لم يكن ذلك بالمكان الانيق المريح، لكنه المكان الاول، منذ القبض علينا، نسند فيه رؤوسنا الى وسائد حقيقية ألقيت على جدران حقيقية. وكان ذلك مكسبا عظيما، يضاف إليه حصولنا على أربع حصص من الطعام يوميا، وإن لم تكن أي منها تشكل وقعة تامة.

ففي التاسعة صباحا، كانوا يحملون إلينا أكوابا من الشاي الروسي القوي مع ٤٥٠ غراما من الخبز الاسود لكل منا. وفي الحادية عشرة والنصف كان يأتينا حساء الملفوف المخلل مع مغرفة كاشيا، وهي عنصر غذائي روسي مصنوع من دقيق الذرة أو الرز ومطهو بشحم الجمل. وكان الروس يضيفون الى الكاشيا كتل اللحم المسلوق. غير أننا لم نذق طعم اللحم سوى مرة في الاسبوع. وفي الرابعة كانوا يأتوننا بفنجان آخر من الشاي، يتبعه في السابعة طبق آخر من حساء الملفوف المخلل.

ويبدو أن أحدا منا لم يحب ذلك الحساء بورق الملفوف الطافي فوقه. وكنا دائما نعد الاوراق، فلا تتجاوز العشر أو الاثنتي عشرة. وكانت رائحتها الكحولية القوية تقلب أمعاءنا. لكن حسنتها السخونة.

وجاءنا نبأ جعلنا ندرك كم نحن محظوظون. ففي أواخر مارس (آذار) أخبرنا حراس السجن بما حل بزملائنا الآخرين الذين ركبوا قاطرات القطعان من شيرتكوفو. فقد تركوا في القطار المتوقف في محطة شوميخا لأن مستشفى البلدة هو من الصغر بحيث لا يستوعبهم جميعا. وتحت أثر البرد الشديد أتى عليهم داء التيفوس وحصدهم كلهم.

ولم يعطنا أحد الرقم الحقيقي للقتلى. ولكن يبدو أن ثلث الاسرى الايطاليين قضوا من جراء ذلك الحادث. وكان من أثر ذلك النبأ أن انقسم نزلاء غرفتنا فريقين متضادين، يقول أحدهما ان الروس لم يفعلوا شيئا لمنع انتشار المرض، بينما يقول الآخر ان الروس أنفسهم هم الذين سببوا الوباء. وفي أي حال، ربما عجز الروس عن رد المرض إما لأنه فاجأهم وإما لأن الحرب حجرت مشاعرهم الانسانية. ويجب ألا ننسى أن الروس قدَريون بطبيعتهم.

سحب الملفوف المخلل

نحو منتصف شهر مايو (أيار) غدا الصقيع السيبيري أخف حدة والحياة أسهل. وفي العشرين من ذلك الشهر ربت الطبيب الروسي ظهري علامة الصداقة. وهو كاد يرميني أرضا، إلا

أن الصداقة الروسية تعبر عن نفسها هكذا. وابتسمت له ورحت أقفز على رجل واحدة كالنغارو.

وصاح الطبيب: "انتظر." وذهب الى عيادته ثم عاد ومعه عكازان جديدان، لكل منهما سناد مبطن بثوب رمادي اللون. وقال: "خذ هذين العكازين اللذين أتمنى أن تذهب بهما الى وطنك صحيحا معافى."

ونظرتُ الى عينيه، وقرأ شعوري من غير مواربة حين شاهد الشكران في عيني لا للعكازين بمقدار ما هو لكلماته الانسانية العميقة، وهي الاولى من نوعها أسمعها من شخص روسي وترد فيها عبارات الوطن والصحة والعافية.

وفي اليوم نفسه تلقى تونينو عكازين هو الآخر. وكانا أجمل من عكازي انا وأكثر ملاءمة، إذ كان عكازاي أطول من المطلوب.

وسألته: "كيف حصلت عليهما؟"

فأجاب: "إن لي سحرا أفرضه على الممرضات. ففي هذا المكان، يا صديقي، هناك أمران مهمان: كونك ايطاليا، خصوصا إذا كان منظرك كمنظري، ومعرفتك الروسية الى حد. وبهذين الرصيدين أستطيع كل شيء بواسطة الممرضات، فأغازلهن أو أغمزهن أو اغني مقطعا من احدى أغاني نابولي الشهيرة لديهم، ثم امطرهن بوابل من الاكاذيب، فتمطرني السموات عصيا أتكيء عليها والكثير غير العصي..."

وبقي يتكلم دونما انقطاع بلهجته الغريبة المهجنة، وهي خليط من لهجة روماغنا حيث ولد ولازيو حيث عاش. وأصغيتُ إليه باعجاب بعدما سمعت صوتا خفيا وراء كلماته المتلاحقة وهزله غير المرتبك وتعابير يديه الجنوبية، ألا وهو صوت الامل. والامل ذاك كان مفتاح شجاعتنا.

ومع تحرر حياتنا في شوميخا من بعض قنوطها، انتقل حديثنا من حياة السجن الى موضوعات أخف وطأة، كالأفلام والكتب والرياضة والنساء، والطعام. ويمكن القول ان بديهتنا أخذت تطغى على جوانب حياتنا المظلمة. وفي غياب البديهة لا يبقى شيء مستطاعا.

صحيح أن طعامنا كان حقيرا. غير أننا ابتكرنا "شرائح الملفوف المخلل"، وهي لعبة سهلة التنفيذ، وجل ما تقتضيه أن يقدر المرء عدد أوراق الملفوف الطافيةَ في صحن تيزيو اليوم وفي صحن كايو غدا وصحن سمبرونيو بعد غد. وكان كل منا يختار رقما لا يتجاوز الـ١٥، يدون الى جانب اسمه. وما أن يصب الحساء حتى يتولى فانتي عد الأوراق.

ولنقل ان العدد الصحيح في صحن من وقعت عليه القرعة هو(١٠هذا يعني أن كل من اختار الرقم المذكور يمكنه إضافة الى صحنه، أن يشرب مقدار مغرفة من قاع الطنجرة الغني بالخواص، مع قطعة خبز إضافية. وذلك كان مناً من السماء ينزل في أحشائنا على الرحب والسعة.

التخرج في المستشفى

هكذا أعانتنا الاحاديث المسلية والطعام الافضل وجريدة الحائط التي ابتكرناها وصفوف تونينو فانتي المضحكة في مبادىء اللغة الروسية على تمضية الوقت حتى في شوميخا.

وفي نهاية سبتمبر (أيلول) جاءت الاوامر بنقلنا · فالصيف لا يدوم طويلا في سيبيريا، ومعظمه بات وراءنا · وكانت السماء تحمل رائحة الثلج، فيما أشجار البتولا ذات القضبان تنحني لأقل الرياح الشمالية · وعلى أبراج المراقبة كنا نرى الحراس يضرب بعضهم أكف بعض وقد غلفوها بالقفافيز طلبا للدفء ·

وانطلقنا من معتقلنا، أولا في القطار ثم في شاحنات · وبعد وقوف قصير في نقطة لجمع أسرى الحرب في جوار كاراغندا، على الطرف الجنوبي لسلسلة سهوب كيرغيز، تابعنا طريقنا نحو باختا ـ آرال في اوزبيكستان ·

وبعد ثلاثين يوما من السفر في شاحنات القطعان ذات الرائحة الكريهة، شل الألم عضلاتنا وعظامنا وسحقت نفوسنا في داخلنا · ثم انحرف خط الاسرى الطويل نحو الجنوب الروسي الواسع المليء بالغبار، ومشوا مجهدين على الضفة اليسرى لقناة واقعة ضمن جدارين من الاسمنت المسلح، يرتفع الواحد منهما ثلاثة أمتار · وقد بنيت تلك القناة لري منطقة شبه قاحلة، تزرع فيها الحبوب وأشجار القطن · وكانت قوافل الجمال تعبر بين الفينة والاخرى، وقد امتطى بعضها رجال من الاوزبيك ذوي الوجوه العريضة والبشرة الصفراء، وحمل بعضها الآخر بالات من القطن ·

كان ذلك في شهر فبراير (شباط) ١٩٤٤ · وعلى رغم حدة الطقس، إلا أن الربيع أشبع الهواء وفاحت رائحته من العشب الدافيء · وبقينا نتبع القناة بتعرجاتها · وقال لنا الحراس ان طريقنا تؤدي الى مجموعة معتقلات أقيمت في منطقة باختا ـ آرال · وما لبث الطابور أن توقف عند الجسر الاول على القناة ·

وجعلنا الروس في خمسة صفوف، قادوا أربعة منها عبر الجسر · أما الصف الخامس، وأنا منه، فقد تابع سيره المجهد في محاذاة القناة · وراح كل منا يصيح في الآخر: "أهلا وسهلا ·" إلا أن الارهاق كان أقوى من تأسيس الصداقات في تلك اللحظة · ومن حسن الحظ أني وفانتي ما زلنا معا ·

وقال لي: "أنت وأنا أسيران توأمان ·"

وأخيرا، بعد مسيرة ثلاث ساعات، صرخ أحدهم: "هذا هو المعسكر ·" وجاء صوته كأصوات مرافقي كولومبوس لدى اكتشافهم اليابسة ·

وتوقفنا خارج بوابة المعتقل · وظهرت خلف الاسلاك الشائكة وجوه ألمانية، كانت عشرة ثم ارتفعت الى عشرين فالى خمسين · وقد ارتدى اصحابها بزات نظيفة وأنيقة، ولاحظنا أنهم لم يغفلوا تعليق الشارت والاوسمة ·

وتساءل تونينو: "كيف يمكن أن يحدث هذا؟" وقفز عبر الاسلاك الشائكة وفتح حديثا مع مجموعة منهم · ثم عاد ليخبرنا ما سمع: "انهم المان كانوا في ستالينغراد · وقد سمح لهم الروس بالمحافظة على شاراتهم وأوسمتهم وكل ما له علاقة ببزاتهم العسكرية···"

ـ وكذلك أكياس المؤونة الميدانية؟

"أجل، هذه أيضا."

وسرعان ما سرى الخبر في صفوفنا. وسمعت حولي أصواتا تبينت فيها خدعة وشيكة. وتمتم تونينو، كأنما هو يتكلم الى نفسه: "لا شك في أني أود رؤية ما تحويه هذه الاكياس."

مزحة اكياس ستالينغراد

فتح الروس الابواب وهرعنا كما القطعان الى حظيرة. وبينما وقف الحراس ينادوننا بأسمائنا، ظهر آمر المعسكر، وهو ضابط في الجيش الأحمر متوسط السن ضئيل الجسم.

وقبل إلقاء كلمته فينا، أرسل المسؤول الروسي في طلب الضابط الالماني الذي أنيط به الاشراف على النظام داخل المعتقل. ووصل هذا بسرعة في مظهره المعصوم عن الخطأ، وقد ارتفعت سترته العسكرية حتى بلعومه وعلق شاراته على كتفيه وأوسمته على صدره، والتمع حذاؤه كمرآة. وضرب الارض بعقب قدمه وحيا. ورد الآمر التحية، فوقف الضابط الالماني على نحو طبيعي.

واستهل الآمر خطابه،وهو موعظة تقليدية حول النظام والمهمات التي تنتظرنا في حقول القطن والفاشية التي جرتنا الى وضعنا الحالي البائس وامور اخرى.

وخلص بالآتي: "تذكروا هذا الامر حسنا: انكم في هذا المعسكر تحت إمرة ضابط ألماني، وعليكم أن تمحضوه طاعتكم العمياء."

وما أن غادرنا الآمر الروسي حتى قرر الضابط الالماني أن يؤوينا جميعا في قبو واحد كبير، حيث كان الاسرى الالمان يحتلون الاسرة العالية. وهذا يعني أن على الاسرى الطليان النوم في أسرة الطبقة الدنيا، حيث يسقط الغبار والقش من فوق باستمرار.

وكان الالمان فوقنا ينامون على فرش من قش، وقد وضع كل منهم صرته الميدانية وسادة تحت رأسه. وظهرت تلك الوسائد واضحة لأعيننا من بين ألواح الخشب التي تفصل الطبقتين.

وبمشاهدتنا تلك الاكياس المنتفخة، طرأت للعديد منا، وربما لمعظمنا، الفكرة الآتية: "الألمان لديهم كل شيء، ونحن لا شيء لدينا. والواقع انهم يبذلون كل ما في وسعهم لتعسير امورنا. ولقد حان الوقت لتحصيل شرفنا الضائع."

وهكذا امتدت الايدي الرشيقة تلك الليلة، بما فيها من خناجر ومدى، الى الصرر وأعملت فيها حزوزا صغيرة أخرجت عبرها المقصات والمبارد والولاعات ومحافظ علب السجائر ومعدات الحلاقة والصابون وسواها من الاشياء الصغيرة. ووصلت الايدي الموهوبة عميقا واستخرجت الملابس الداخلية وكنزات الصوف والجوارب والمناشف والمناديل. وبدت صرر الالمان ضروع أبقار تحلبها أيدي الطليان.

إلا أن العمل كان بطيئا وشاقا. والى ذلك، كان ينطوي على خطر تنبيه الالمان الى ما يحصل مع هبوط الوسائد تحت رؤوسهم. لذلك انطوى العمل على مقدار عظيم من الدقة والبراعة، لا يقل عن دقة الجراح وهو يشق بطنا. ودامت العملية ساعة كاملة، كانت خلالها طيوف الحراس

تتحرك باستمرار في أرجاء القبو.
وأفاق الالمان صباحا ليجدوا رؤوسهم تتكىء على أكياس فارغة. وانهالت الشتائم واللعنات على الفور. غير أننا انتظرنا ولم نتفوه بكلمة واحدة.
وبدا واضحا كالشمس أن مقترفي ذلك الفعل الشنيع كانوا اولئك القابعين في الاسرة الدنيا. وأدرك الروس حقيقة ما حدث عندما دعاهم الضابط الالماني المكلف بالنظام. إلا أن التفتيش الفوري أظهر أن أحدا منا لا يحمل أو يخفي سلعا المانية. أين هي، إذا، الاشياء المنهوبة؟
وأخرجنا من القبو لتمشيطه على نحو أدق وأتانا ضابط شاب ضعيف الجسم وقال ببراءة شجاعة: "أتأتون بما سلبتموه فورا، أم تذهبون الى الداخل؟"
ونظر أحدنا الى الآخر من هول تلك الكلمة. فالداخل يعني الزنزانة... أيعقل وضع خمسين شخصا ضمن زنزانة؟
وكان آمر المعسكر أشد عنفا إذ قال: "إلى أن تظهر كل السلع المسروقة، سيقصر طعام الطليان على وقعة واحدة من خبز وماء."
تلك كانت صفعة قاسية. غير أن قلوبنا بردت لدى إدراكنا أن آمر المعتقل، وهو روسي يكن مشاعر معادية للألمان، لم تضايقه مزحة نهب الاكياس حقا. وقبل أن ينقضي النهار غسل يديه من المسألة وقال: "ستبقون أياما ثلاثة على وقعة الخبز والماء، نرى بعدها ما نقرر."
وعند انتهاء أيام الصوم الثلاثة عاد طعامنا كما كان، وأيقنا أن الآمر لم يقصد أن ينفذ تهديده. ولم يدر في خلده ـ أو ربما بدا لنا الامر هكذا ـ أن يأمر رجاله تفتيش ميازيب الماء المنتفخة تحت سطح القبو. ومن حسن الحظ أن المطر نادر في باختا ـ آرال. وقبل انقضاء الشهر كان أسرى الحرب الايطاليون يحلقون ذقونهم بالشفرات الالمانية.

مدير فني مرتجل

في باختا ـ آرال أرسل جميع الرجال القادرين جسدياً الى حقول القطن. وكانوا ينطلقون مع طلوع الشمس ويعملون النهار كله، متناولين حصتهم من الطعام في الحقل، ثم يؤوبون نحو الخامسة منهكين وقد رزحت أجسادهم تحت وطأة الارهاق.
وكان الارهاق نتيجة لاستحواذ فكرة "مقياس العمل" على عقول الروس. وبالمقياس عنوا الحد الادنى من الحصاد الذي يؤهلنا للحصول على الطعام والعناية من لدنهم.
أما الاسرى المرضى فمكثوا داخل المعتقل، ينظفون المكان ويصنعون فرعات الاحذية النسائية. وكان ذلك عملا مملا، لم أستطع اتقانه البتة. بل خرجت جميع الاحذية من بين يدي اما منحرفة واما غير صالحة قياساً، وهي لا تلائم حتى أقبح الاقدام. لكن اخفاقي لم يكن مبعث قلق بالنسبة الي لولا نقد المراقب الروسي المستمر واشارته الى اني أفعل ذلك عمداً من أجل التخريب.
وذات يوم، وهو يتذمر كالمعتاد، سمعتني أقول: "اصغ يا صديقي: اني لا اخرب شيئاً على الاطلاق. وثق أن هذا العمل يتجاوز معرفتي ويختلف

تماماً عن اعدادي المهني. فأنا فنان، ولست صانع أحذية."

ـ فنان؟

"أجل، فنان اذاعي." قلت هذا لأستر كذبتي، وتابعت: "والفنان لا يستطيع صنع الاحذية ... والمهم الآن أن يعرف الآمر بالمسألة."

وبعد عودة الاسرى من حقول القطن قرابة السادسة مساء، استدعيت الى مكتب الآمر الذي نظر من وراء طاولته بابتسامة مدروسة وقال وأنا واقف أمامه: "اذاً لا يمكنك صنع الاحذية لانك فنان... أهذا صحيح؟"

ـ نعم يا سيدي.

"حسناً! أتعزف على الغيتار؟ "

ـ كلا، بل أقرع الطبول. ألديكم طبول هنا يا سيدي؟

ولحسن حظي أني اخترت الآلة المناسبة، أي تلك التي لا وجود لها في المعسكر. وتابعت وقد قواني النجاح: "الواقع يا سيدي ان المسرح هو اهتمامي الفني الاول. فأنا اغني وأكتب الاسكتشات. وهذا، في ايطاليا، يعد الكمال الفني بعينه."

وسأل: "حسناً! ما تظن أنك تستطيعه هنا؟"

ـ في امكاني تنظيم عرض متنوعات للاسرى كل يوم أحد، كذلك لرجالك يا حضرة الآمر اذا شئتم ذلك.

وبقي الآمر برهة لا يعرف ماذا يقول. وراح يسكب لنفسه ببطء كوباً من شراب الفودكا. ثم قال: "فنان... حسناً.... اذاً لنجرب الطريقة الآتية: أنا أزودك بغيتار وآلة بلالايكا، وأنت تجمع المغنين والموسيقيين وتنظم حفلة ليوم الاحد. فاذا كانت ناجحة، أعتقتك من مصنع الاحذية. واذا كانت سيئة فاني سأضعك عندئذ في الثلاجة! أتوافق؟ "

ـ أجل، أوافق. وأشكرك يا سيدي الآمر.

وحييته وسرت نحو الباب. الا أن صوته تبعني: "احرص على أن تكون الاغاني من نابولي."

ان الروس لا يدخرون فرصة للتباهي باطلاعهم على حضارة الغرب. أما معرفتهم ايطاليا فتقوم على عناصر أربعة: الفن والاوبرا وغاريبالدي وأغاني نابولي. ومن هذه الاربعة، يحبون غاريبالدي، ربما لقميصه الاحمر، لكنهم يعشقون أغاني نابولي. ومرد ذلك الى ألحانها أولا، ولكن كذلك الى ذكرها الشمس والمدائن البيض المتألقة على شاطىء البحر. والشمس، بلا شك، هي شمس ايطاليا الكريمة التي لا تشرق على فلاديفوستوك أو مينسك.

تم اتفاقنا يوم خميس. وللحال باشرت البحث عن موسيقيين، وهذا ليس بالامر العسير في جيش يعزف ثمانون في المئة من جنوده على آلة الهارمونيكا أو الغيتار. الاصعب من هذا كان اختيار الموسيقيين. فليس من السهل أن نقصد رجلا أمضى عشر ساعات في حصاد القطن ونسأله: "أتعطينا اغنية؟" غير اني، بمساعدة فانتي، اقنعت الزملاء المؤهلين بأن نجاحنا الفني من شأنه اعتاقنا من الاشغال الشاقة: "ان الروس يضعفون أمام الفنون. ومن يدري ما قد يحدث اذا نحن استطعنا النجاح والتأثير عليهم؟ "

ويبدو اننا اتبعنا المنطق الصحيح.

وكان لصلواتي ولالحاح فانتي أكبر أثر في الاتفاق مع مغنين من نابولي، واستهللنا وضع برنامج على الفور. وأعد فانتي لوحة اعلانية مزخرفة وأضاف اسمه اليها، لما له من شهرة شعبية، كمشرف على نظام المسرح. وما أن جاء الاحد حتى كنا كلنا على أتم استعداد للافتتاح الكبير.

وفي الثالثة تماماً دخل الآمر، يتبعه ضابط الصف المسؤول عن نوبات العمل، مع عدد من الحراس وعشرة مدنيين من رجال ونساء. وكانوا كلهم، بمن فيهم الآمر، يحملون الكراسي الصغيرة.

وأخذ فانتي على عاتقه مهمة مدير التشريفات. وحيا الزوار ثم سأل الضابط: "سيدي الآمر، أين تريد أن نضع خشبة المسرح؟"

ونظر الآمر حوله ثم أغمض عينيه نصف اغماضة بفعل شمس ابريل (نيسان) وأشار الى جدار القبو وقال: "هناك."

وأجابه فانتي بشهامة: "عظيم يا سيدي الآمر."

وجاء دوري للكلام فقلت: "اجمع الاسرى يا تونينو."

ـ بمن فيهم الالمان؟

"أجل، اذا شاؤوا المجيء."

لكنهم لم يشاؤوا. وهكذا كان معظم الحضور من الاسرى الطليان.



وأعطى الآمر كلمته، وبدأ العرض المسرحي في باختنا ـ آرال.

افتتحت الحفلة بمناجاة هزلية قصيرة، لكنها، كما أظن، بليغة وزاخرة بالقوة. ثم أدى المغني النابوليتاني الاول، موناتشيلا، اغنيتين: "او سولي ميو" و"سانتا لوتشيا". وتبعته بمونولوغ شعري حزين. وأدى المغني الآخر سكوغنا ميغليو عرضاً قصيراً، تلاه بأغنية "او زابوتوري." وختم موناتشيلا الحفلة باغنية ذات لحن متنوع من خليج نابولي.

واستمر العرض ما يزيد على ساعة. والحق أن الحفلة كلها لم تحو ما يستحق الكتابة عنه الى أهلنا وأصدقائنا في الوطن. الا أني ما زلت أتذكر شيئاً مهماً منها.

حدث ذلك عندما افتتح موناتشيلا وفرقته اغنية "او سولي ميو"، محافظاً على أدق التفاصيل المتعلقة بالتنهدات وتوقيع النغمات التي يحرص عليها أهالي نابولي في تأدية اغنيتهم المفضلة. واذ ذاك نهض المدنيون الروس معاً على أقدامهم احتراماً لحسن الاداء، وظلوا هكذا حتى انتهاء الاغنية، مما أذهل الايطاليين. وربما ظنوا أنهم يستمعون الى نشيد مملكة نابولي القومي.

رجل عصامي

في نهاية شهر مايو (أيار) ١٩٤٤ بدل الروس سياستهم تجاه أسرى الحرب. وولت الأيام التي شهدت مناكفات بين الايطاليين والالمان.

ولا يستبعد ان يكون معسكرنا أحدث اثره في القرار الروسي. وكان الشجار ينشب يومياً بيننا وبين الالمان، ويستخدم فيه كلا الطرفين قطع الأثاث. وتنتهي المعارك وقد لويت مفاصل أصابعنا وجرحت رؤوسنا ورضت أعيننا وأنوفنا.

ولم ندر ما الذي حدا الروس ذات صباح على اخراجنا نحن الخمسين مع أمتعتنا من القبو وصفنا في محاذاة الاسلاك الشائكة استعداداً لنقلنا الى مكان آخر. وكان الوداع بيننا وبين الالمان قبيحاً.

ووجدنا أنفسنا نقطع الطريق التي جئنا عليها قبل ثلاثة أشهر. غير أننا، هذه المرة، لم نشعر بوطأتها. فعندما يمشي المرء وسط الحقول الواسعة في صبيحة يوم من مايو (أيار) وتحت شمس قوية ويشم النسيم المشبع برائحة السنديان والمياه الجارية ويسمع حفيف الاوراق في كل مكان حوله وتختفي الاسلاك الشائكة كلياً عن أنظاره، ترتفع معنوياته ويرقص قلبه في داخله. واذ ذاك يفارقه قلق السجن وتغمره حاجة الى الغناء.

وهكذا بدأت الاصوات ترتفع. لا، لم تنطلق الحناجر كلها بأغنية واحدة. لكن كلا منا اختار الاغنية المحببة في منطقته. وفجأة ارتسمت خريطة ايطاليا على مياه القناة الجارية بالقرب من باختنا ـ آرال، صاعدة من ألحاننا المتقاطعة.

وكان معسكرنا الجديد قريباً من هناك. وهو لم يكن بديع الجمال، لكنه بدا على هيئة قرية بمنازله البيضاء الصغيرة المتناثرة هنا وهناك والتي اقيمت على مقربة من القناة.

وأضاف الجسر المتحرك، المبني من الواح خشب ذات عقد طبيعية، جواً ساحراً على المكان.

وتابعنا مسيرتنا أمام أجنحة النوم والمستوصف والمطبخ والمراحيض والمشغل وغرفة الحرس قبل أن نتوقف. وفي انتظار عملية عدنا، وقفنا ننظر الى معسكرنا الجديد وجواره. وفجأة انصبت أنظارنا على مكان واحد. فالى جانب المطبخ كان هناك كوخ متداع لا يتجاوز المترين ونصف متر طولا ومثلها عرضاً، وقد علقت اشارة تحمل كلمة ايطالية على بابه المكسور. والكلمة تعني: "حداد".

وسرعان ما عرفنا أن ذلك الكوخ يخص شخصاً من نابولي. وسأسرد قصته تماماً كما رويت لي: هذا الرجل، واسمه فينتشنزو، كان جندياً في فرقة مشاة تورينو. وقد عمل في حقول القطن بحماسة منقطعة النظير، لكنها أمر طبيعي بالنسبة الى أهالي نابولي. وفضلا عن حماسته الفطرية، كان رأسه مستودعاً لا ينضب للافكار العميقة.

وفي ليلة من شهر مارس (آذار) نهض فينتشنزو من سريره ورفع كميه واختلس أربعة الواح خشب، متوخياً ألا يحدث أي صوت، ثم غادر المهجع وبنى كوخاً لنفسه.

وعلق الاشارة التي تحمل عبارة "حداد" فوق الباب، بعدما خط الكلمة ببراعة. واستخدم ما بقي له من خشب لبناء طاولة صغيرة أمام الكوخ. وفي السابعة صباحاً، عندما بدأ الاسرى يصطفون استعداداً للذهاب الى حقول القطن، جلس صاحبنا على طاولته.

وكان الضابط الروسي المسؤول عن نوبات العمل حديث السن قليل الخبرة. ورفع نظره الى الكوخ الذي لم يكن قائماً في اليوم السابق، والى فينتشنزو الجالس أمامه.



نحوّل همسك صراخاً...



النهار العربي والدولي

إنطلاقاً من قناعتها بأنها مجلة القارئ أولاً، تفتح النهار العربي والدولي صدر صفحاتها منبراً تستطيع أن تعرض آراءك من خلاله بحرية كاملة فتصبح، وأنت في موقعك، واحداً من محرريها.

عالج أي موضوع تشاء - في السياسة أو الاجتماع أو العلم أو الأدب أو الفن أو شؤون المرأة وارسل مقالاتك (في ٣ أو ٤ صفحات بالآلة الكاتبة) وأرفقها بصورتك إلى العنوان التالي:

صندوق البريد ١١٦٨٨ بيروت-لبنان P.O.BOX 11689 BEIRUT-LEBANON

ولم يزعجه الكوخ أول الامر، فالاكواخ تأتي وتذهب لاسباب شتى. كذلك لم تزعجه الكلمة التي لم يفهم معناها. لذا ركز نظره على فينتشنزو وصاح: "انهض على قدميك، وانضم فوراً الى نوبة العمل."

وأجاب الايطالي برصانة: "لا أستطيع. ومن الآن فصاعداً لن أذهب البتة الى حقول القطن."

واذ فوجىء الضابط الشاب بجواب يسخر من جميع القوانين المعروفة، تابع كلامه: "ماذا تقصد قوله؟ أأنت مريض؟"

- وهل تظن أني أحتاج الى المرض أيضاً؟

"اذاً ما الامر؟"

- ألم تقرأ العبارة فوق الباب؟

"وما الذي تعنيه العبارة؟"

- ألا تستطيع قراءتها؟

"قل لي ماذا تعني."

- حداد.

"اذاً؟"

- اذاً من اليوم فصاعداً، ستؤوي الجياد هنا.

"لكن الجواد الوحيد في المعسكر هو جواد الآمر."

- ألا تدري أن الخطوة الاولى هي أصعب الخطوات؟ ثم لا تنس أن هذه الخدمة لم تكن مؤمنة في هذا المكان قبل اليوم. لكنها ليست الخدمة الوحيدة التي أستطيع تأديتها. فمنذ اليوم سآخذ على عاتقي تصليح جميع أقفال المعسكر.

"أقفال؟ لا أقفال البتة لهذا المعسكر."

- هذا خطأ. يجب صنع أقفال.

وضاق الضابط الروسي ذرعاً بما يسمعه. وربما اكتشف أن الرجل الايطالي يحاول الكذب عليه وخداعه بالاعيبه المهنية. وفي محاولته العثور على مخرج تابع فينتشنزو: "ألا ترى، يا سيدي، أنه بعد ابرازي هذه الخدمات الى حيز الوجود، لا يجوز أن أضيع وقتي وأوقات الآخرين في حقول القطن؟ ان مستقبل معسكرنا معقود على هذا الكوخ."

- وماذا في الداخل؟

"لا شيء. لا شيء اليوم. ولكن انتظر حتى الغد ..."

- ما الذي تزمع على فعله غداً؟ أتريد أن...

"أجل."

في تلك الاثناء كان جميع الاسرى قد اصطفوا استعداداً للانطلاق. ووجد الضابط أن عليه اتخاذ قرار سريع. فقال: "حسناً. يمكنك البقاء هنا اليوم. لكنني سأرفع المسألة الى الآمر."

ومهما يكن من شأن اقتناعه أو عدمه، فقد فضل الضابط الروسي ابقاء المسألة حيث هي. وفي أي حال، للآمر وحده حق اتخاذ القرار.

وبما أن الآمر محض حصانه الحب كله، فقد حل الأمر بسهولة. وهكذا غدا الدون فينتشنزو من نابولي حداد المعسكر المطلق الصلاحية.

"ميداغليا"

كنا خمسمئة أسير ايطالي في المعسكر ٣/٢٩، وكنا كلنا نطلق على الآمر اسم الكولونيل ميداغليا. واذا كان له اسم حقيقي، فأني لم أعرفه البتة. وقد دعوناه "ميداغليا" لأنه نال ميدالية بعد خوضه الحرب على

جبهة اوكرانيا. وتذهب الرواية الى أنه حصل على الوسام بعد معركة خاضها ضد الفرقة الايطالية وخلفته جريحاً لا يستطيع القتال مدى حياته.

ولم يقل ميداغليا كلمة عن الأمر. ولكن بدا لنا أن تلك الاشاعة لم تكن عارية من الصحة لأن ميداغليا، كلما سمع ضباطه يتحدثون عن الجيش الايطالي، كان يقول: "الايطاليون؟ انهم فنانون وليسوا محاربين... باستثناء فرقة بيرساغلياري" وهي الفرقة التي خاض المعركة ضدها.

وبدا ميداغليا، ذو القامة الطويلة والوجه الجاف الخالي من العاطفة، أقرب الى اللورد الانكليزي منه الى الجندي، بعدما أضفت عليه بزته التي صنعها خياط أسير من صقلية الكثير من الوسامة والاناقة. كما جعلته مشيته الرزينة يشبه الاشراف الانكليز.

وكان ميداغليا يعشق المسرح. وما أن أعلم أن بين الاسرى الوافدين حديثاً فرقة فنية حتى استدعاني وقال: "اننا نود، في المخيم ٣/٢٩، أن نقيم حفلة فنية من وقت الى آخر. ولكن من الافضل ان تأتي البادرة من..."

ـ لقد فهمت يا سيدي الكولونيل. ولكن أتريد مسرح محترفين؟

"أجل، ليكن هكذا."

وكان يحسن اللغة الايطالية، وهو لم يكن بالمغفل حتماً. وسألته: "أنقيم حفلة، اذاً، كل يوم أحد؟"

ـ ولم لا؟

"لا أجد مانعاً لذلك. ففي ذهني أفكار كثيرة لمقاطع استعراضية ومسرحيات غنائية. وفي امكاني تأليف مسرحيات عادية أيضاً. وأظن أن في امكاننا مباشرة "ال بايزي دي كمبانيلي."

ـ وما هذه؟

"انها مغناة قصيرة جميلة. وهي مسلية وفيها موسيقى جيدة. وقصتها تدور على ملاحين حسني المنظر وحوريات هولنديات فاتنات."

ـ بايزي دي كنتانيلي؟

"كمبانيلي... ألا تسمع رنينها؟"

ـ اعمل عليها اذاً.

"هذا يعني أننا نحتاج الى ملابس."

ـ لماذا؟

"لأن الملابس هي جوهر هذا العمل المسرحي."

ـ الملابس غير ممكنة.

"لماذا؟"

ـ من أين نأتي بها؟

"أليس ثمة أقمشة في باختا ـ آرال؟ اعذرني يا سعادة الكولونيل، ولكن أليست هذه جمهورية القطن؟ وحيث القطن، هناك الاقمشة."

ـ هذا صحيح. لكن القطن ملك الدولة.

"لا شك في هذا. ولكن لننس بايزي دي كمبانيلي التي كان يمكن أن تكون مسرحية رائعة يا سعادة الكولونيل.... أتعرف أن هناك سفينة تأتي الى المسرح؟"

ـ سفينة بأكملها؟

"أجل، جانب كامل من سفينة. وفي امكاني تشييدها على مرحلتين، ثم..."

ـ لا، لن تكون هناك أقمشة.

"ينبغي أن يؤمن لنا ما نحتاج اليه... ألا تستطيع يا سيدي

الكولونيل؟ الا يمكنك كتابة طلب خطي؟"

ـ هذا مستحيل.

"اذاً لنحصل على القماش بلا طلب."

قلت هذا سريعاً، وبالروسية لكي أتجنب سوء الفهم. ونظر ميداغليا مباشرة الى عيني وقد اختفى التعبير من وجهه ... أتراه فهم ما قلت أم لم يفهم؟ وتراءى لي أنه من الدهاء بحيث لا يمكن أن تفوته ملاحظة كهذه. الا أنه بقي من غير حراك على عادة الروس. وقال باصرار: "بلا ملابس." فأجبت: "آسف سعادة الكولونيل. ولكن صدقني أن افتقار المسرحية الى الملابس الخاصة من شأنه ان يقضي عليها. وسأحاول التفكير في شيء آخر.

ـ حسناً. أفعل ما تشاء.

وحييته وأدرت ظهري وعدت الى المهاجع. لكنه استدعاني مرة اخرى ظهراً، وبادرني بالآتي: "حسناً. ماذا فعلت؟"

فأجبت: "ما زلت أبحث عن بديل يا سعادة الكولونيل."

ـ انس البديل، وقل لي كم من القماش تحتاج؟

"لنقل عشرة أطوال."

ـ خمسة.

"اذاً خمسة أطوال."

وكان يذرع مكتبه جيئة وذهاباً. ووقف وأشار الي باصبعه كي أتقدم نحوه. ولما دنوت منه قال: "أتعرف الرجال في هذا المعسكر الى حد الثقة بهم؟"

وأجبته بسرعة: "سيدي الكولونيل، هناك خمسمئة ايطالي موالون في هذا المكان. وأياً تختر منهم، تكن على صواب."

ـ أنت، اذاً، تختار. وأود أن تأتيني بثلاثة رجال وتوافوني الى مكتبي هنا في السابعة من مساء هذا اليوم، بعد العشاء. أتفهم حسناً؟

"حسناً سيدي الكولونيل... في السابعة."

وفي السابعة الا عشر دقائق وقف ثلاثة أسرى أمام مكتب ميداغليا، وكنت وفانتي في انتظارهم. وهو شاء مرافقتي لأن القصة راقته بحيث لم يستطع ألا أن يأخذ دوراً فيها.

وعند السابعة تماماً وصل ميداغليا. ونظر الينا، ثم تفرس ملياً في فانتي وقال لي: "رجلان كسيحان..."

وقاطعته: "هذا خبير، سيدي الكولونيل. وهو يضاهي خمسة رجال، وان يكن أبتر."

ـ جيد. لنباشر مهمتنا فوراً.

وكانت خارج المعتقل عربة يجرها حصان. وتسلقنا العربة، وجلس ميداغليا الى جانب الحوذي المدني.

وبعد عشرين دقيقة توقفنا خارج معمل قماش. وقال لنا ميداغليا: "تعالوا معي." ودخل وأخذ يتكلم بلا انقطاع مع أحد المراقبين. وقدم اليه ورقة ممهورة بامضاء، وأظن أنها طلب اذن مزور. وأخيراً دعانا وقال: "أنقلوا سبعة أطوال من هذا الثوب الى العربة."

سبعة؟ لا بد انه بدل رأيه. الا أننا، نحن الايطاليين، ترجمنا السبعة الى عشرة. وهكذا حملنا عشرة أطوال قماش الى العربة التي انطلقت بنا من حيث أتت.

وفي طريق العودة توقفنا أمام محل

أغذية. وقال ميداغليا: "تعالوا معي. يجب أن نأخذ كيساً من السكر يحوي ٢٥ كيلوغراماً."

وبعد محادثات شبيهة بتلك التي أجريت في مغزل القماش، خرجنا سريعاً بكيسين من السكر، أي بخمسين كيلوغراما وانطلقنا وكان الليل أرخى سدوله والهواء رائقاً وعاطراً. وعن ضفتي القناة سمعنا زيزان الحصاد تطلق صيحات ثاقبة. ولم يتكلم أحد منا طوال الطريق. ولكن ما أن دخلنا المعسكر حتى ذهبت ثلاثة أطوال من القماش الطحيني مع كيس من السكر الى مكتب ميداغليا، فيما حملنا الاطوال السبعة والكيس الآخر داخل الاسلاك الشائكة.

وتنهد فانتي وقال: "من كان يحلم أن ...؟"

فأجبته: "انه المسرح يا عزيزي تونينو... انه المسرح."

ـ وماذا عن السكر؟

"حسناً. أليس من يقسم بالقسطاس هو الانسان المستقيم؟"

وهكذا حصل ميداغليا على المسرح الذي سعى اليه.

"أحبني، يا ألفريدو"

لم يكن المعسكر ٣/٢٩ يفتقر الى الاشخاص الغريبي الاطوار، وفي طليعتهم الطباخ الجنوي برونو بيفا. وهو رجل قصير ممتلىء الجسم، ذو خصلة شعر متدلية فوق جبهته النافرة. وكان دائماً على وشك فقدان أعصابه، ومستعداً للصراخ في أي لحظة.

الا أن برونو لم يكن بالرجل البخيل الخسيس. وجل ما في الامر أنه سريع الى الغضب لادنى الاسباب. وويل لمن يفوته رد تحية برونو أو تصدر منه ايماءة غريبة نحوه أو يخاطبه بعبارة غير مفهومة. أما في أوقاته الهادئة فهو صديق كريم مسعف. وينبغي الاقرار بأن غضبه لم يقتصر على زملائه الأسرى، بل تعداهم الى الروس أيضاً.

ولم تلبث موهبة برونو على الرقص والتمثيل أن جعلت منه نجم المعسكر ٣/٢٩ في تأديته احدى القطع المحببة كل يوم أحد. وغالباً ما لعب دور المرأة، يعنيه على ذلك منظره وطبعه. وأدى أدواره بنجاح، علماً أنه مارس التمثيل الغنائي في ايطاليا. وكان في امكانه تأدية أي ضرب من الرقص، سواء أكان الرومبا أم الكاريوكا أم الفالس. الا أن مهارته تجلت أكثر الامر في الباليه. وكلما ظهر فوق الخشبة ليدور على رجل واحدة وهو في تنورة الباليه المنتفخة القصيرة، كان المكان ينفجر بالتصفيق، مما يدفع برونو على متابعة دوره بمهارة منقطعة النظير. وسواء أكان دوره كلاسيكياً أم غنائياً، فأنه كان ينهيه من غير وجل، مجتذباً هتاف الروس والطليان.

وسرعان ما تجمعت لدى برونو خزانة ملأى بالمعدات المسرحية: ثلاث تنانير باليه وأردية مسائية وقفافيز رقص وأحذية وفضيات لترصيع الملابس وشالات وقبعات عريضة الاطراف. ومرة قال في تفسير ذلك: "اذا فرض علي تأدية دور المرأة، فيجب ألا أبدو كالرجل."

وقر رأيي على تقديم المشهد الثالث من مسرحية "لا ترافياتا"، على أن أعطي النظارة فكرة موجزة عن المشهدين السابقين قبل ارتفاع الستارة. وذروة المشهد لحن "أمامي الفريدو" الذي يعزف على كمان منفرد. وكنت دونت كلمات الحوار كما علقت في ذاكرتي، مبتكرا ما نسيته منها ليلائم الموقف. ووزعت الادوار الرئيسية، على أن يلعب برونو بيفا دور فيوليتا ومونا تشيلا دور الاب وأنا شخصيا دور ألفريدو.

الا أن مشكلة واجهتنا، وهي من أين نأتي بشعر فيوليتا لنضعه على رأس برونو. ولم تواجهنا المشكلة قبل ذلك الحين، لأن برونو اعتاد ستر رأسه على الدوام بقبعة أو منديل لتأدية أدواره الانثوية. غير أن فيوليتا لا تستغني عن الشعر. فدورها يقتضي أن تضطجع على سرير وهي مريضة وفي حال النزاع. وكيف يمكن أن تموت امرأة وهي تلبس قبعة؟

وحللنا المسألة بالطريقة الآتية: كان لدي "مساعد شخصي" وهو أسير سرديني قليل المواهب اسمه كونغيو. وكان على استعداد ليفعل أي شيء من أجلي، لأن وظيفته كمساعد خولته الحصول على المزيد من الطعام.

وذات صباح دخل ميداغليا بجواده عبر بوابة المعسكر، وربطه في الظل وتوجه الى مكتبه. ولم يكن ذلك بالامر المألوف، اذ أن آمر المعتقل اعتاد ربط حصانه خارج مكتبه. ووجدت في ذلك فرصة ذهبية وناديت كونغيو: "تعال وانظر! أيمكنك أن ترى ذيل الحصان؟"

ـ أجل، اني أرى الحصان.

"صدقني، ان لهذا الحصان ذيلا."

ـ وما معنى هذا؟

"معناه أن تذهب وتأتيني بالذيل."

ـ أتريده كله؟

"لنقل ٤٥ سنتيمتراً منه."

وأبسرع كونغيو الى المهاجع لاحضار مقص، ثم ذهب نحو حصان الكولونيل وقد أبقى عينيه مفتوحتين لئلا يبصره صاحب الحصان أو الحراس. وعاد وقد خبأ قصاصة الذيل ضمن سترته. وقال: "أين أضعها؟"

ـ لفها جيداً واذهب بها الى تونينو.

وسأل كونغيو الذي كان موظف بريد في سردينيا: "أتريد جواباً منه؟".

ـ كلا.

وما أن خرج كونغيو حتى ظهر ميداغليا خارج مكتبه. وانضم الي دلفو بيليتي، وهو من قدامى الاسرى في المعسكر. وبادرني: "انه صباح جميل يا كارلو." فأجبته: "سنرى."

وفي اللحظة عينها وصل ميداغليا الى حصانه المشوه. وللحال نادى بيليتي، وهو عملياً معاونه كونه الضابط الوحيد بين الاسرى الايطاليين في المعسكر ٠٣/٢٩.

واذ لم يعرف شيئاً عن السرقة، لم يكن ثمة ما يقوله لميداغليا. الا أن حذقه التوسكاني جعله يتوقع ما حدث، كما تذكر ما قلته له بعد كلامه عن جمال الطقس. ونظر الى عيني ميداغليا مباشرة وقال: "لا بد، يا سعادة الكولونيل، من أن يكون أحد ضباطك لعب معك هذه المزحة."

ورفع ميداغليا حاجبيه شكاً وقال: "أتظن الامر هكذا؟"

فأجابه: "ان أحداً منا، يا سيدي

الكولونيل، لا يجرؤ على هذا العمل."

وبعدما استعاد ميداغليا هدوءه هز كتفيه بتؤدة. وربما ظن أن اقتطاع ٤٥ سنتيمترا فقط من ذيل حصان لا يكفي لرفع دعوى. وعندئذ حل وثاق الحصان وأخرجه عبر البوابة.

وسألني دلفو: "أين هو ذلك الذيل؟"

- إنه مع تونينو.

وابتسم دلفو وتابع: "إذا ستموت فيوليتا تحت ذيل حصان؟ حسنا، لنقو إيماننا بالله."

- كذلك بصديقنا سكوغنا ميغليو الذي يصنع من الذيل شعرا مستعارا.

وفي اليوم التالي كان الشعر جاهزا. وإذا به ضفائر فاحمة السواد تتدلى بكثافة من فروة. وجاء الشعر رائعا، لا يضيره ظهور الفروة هنا وهناك. لكنه يلائم فيوليتا وبرونو معا.

وكان المسرح مكتظا ذلك الاحد، لأن النظارة سمعوا جميعا بتلك القطعة، وبعضهم عرفها حق المعرفة.

وفي تمام الثالثة والنصف عزفت الفرقة لحن "لاترافياتا" الافتتاحي. ومشيت في محاذاة أضواء الخشبة الامامية وأنا في زي الفريدو وهيئته. وبصوت خفيض وتعابير مسرحية، أعطيت الجمهور فكرة عما سيأتي، حتى مرض فيوليتا القاتل. ولما ضمنت انجذابهم بالرواية، أشرت الى الفرقة الموسيقية كي تباشر العزف.

وقلت بصوت متهدج: "أيها السادة، إليكم أمامي ألفريدو."

وانطلق اللحن وارتفعت الستارة لتكشف عما بدا كمحبس راهبة، مع سرير وكرسي بجانبه. وقد اضطجع بيفا على السرير ووقفت خادمته آنينا الى جانبه. وتلا حوار موجز:

- كيف حالك يا سيدي؟

"حسن."

- هذا يسعدني جدا.

وفيما خفت اللحن، ظهر موتشيلا على الخشبة في دور والد الفريدو وهو يعتمر قبعة تيرولية، وهي أفضل ما أمكننا الاتيان به لاعطاء صاحب الدور مسحة الشخص الآتي من مكان بعيد.

ومثل المشهد العاطفي الصارخ على خير وجه، فيما الوالد جاث أمام السرير وفيوليتا قابعة بلا حلاك وقد التصق شعرها الاسود بالوسادة. ثم غادر العجوز الغرفة ترافقه آنينا الى الباب. وبينما الفرقة الموسيقية تؤدي لحن "أمامي ألفريدو" للمرة الرابعة، ظهرت على الخشبة وأنا انادي: "فيوليتا." وأجابت هي: "ألفريدو."

وكان ينبغي أن يبقى بيفا، وهو يمثل دور فيوليتا، حيث هو بلا حراك. لكن من يمثل دورا مسرحيا ينزع الى نسيان الاعتبارات العادية. وهكذا رفعت رأس بيفا قليلا وأنا اكرر النداء: "فيوليتا" وأهم بتطويقها. وأحسست ثقلا في يدي. ونظرت لأرى خصل الشعر الفاحمة تسقط من يدي الى الارض. وفجأة بات رأس برونو عاريا. وعلت صيحات الاستنكار من النظارة. وقفز ميداغليا على الفور الى الخشبة وتوقف الموسيقي الذي كان يعزف لحنا منفردا على الكمان عن عزفه.

وأشار ميداغليا الى رأس بيفا وقال: "هذه ليست لا ترافياتا... إنها ذيل حصاني."

وكان العقاب احتجازي أياما في زنزانة معزولة.

ميلاد مجيد

لا شك في أن المعسكر ٣/٢٩ كان أفضل سجن عرفته. وربما كان من حسن حظنا الوصول إليه في تلك المرحلة الاخيرة من الحرب، بعد انقضاء الفظاعات التي كانت المعتقلات السوفييتية مسرحا لها في وقت سابق.

ويبدو أن الاشهر التي أمضيناها هناك بدلت المكان على نحو ملحوظ. والواقع أن الايطاليين، بعد عملهم النهاري في حقول القطن، لجأوا الى العمل خلال الليالي وأيام الآحاد، فأحدثوا مستشفى ومستوصفا ومحلا للخياطة وآخر لصنع الاحذية ومخبزا. وهذه كلها أضيفت الى البيوتات الصغيرة التي كانت أساسا لدى وصولنا.

أما إنشاء مخبز خاص بنا فكان نهاية عهدنا بالخبز الاسود الرديء. وهكذا أدخل الخبز الايطالي الخفيف الى المعسكر ٣/٢٩ بفضل فريق من أسرى روماغنا الذين صمموا الافران واستطاعوا، بمهارتهم، التغلب على رداءة الدقيق الروسي.

وكما فعلنا كلنا، هلل برونو بيفا للخبز الايطالي، واقترح أن يطهو لنا وقعة خاصة بعيد الميلاد للعام ١٩٤٤. وعرض على ميداغليا أن يعطينا، للخامس والعشرين من ديسمبر (كانون الاول)، ثلاثة أضعاف ما نحصل عليه عادة من الطحين والسكر والرز واللحم والخبز ودهن الجمال والخضر، على أن نعوض هذه الكمية بعملنا خلال شهر يناير (كانون الثاني):

وتردد ميداغليا وحار جوابا. فالميلاد "عيدنا" نحن، لا عيد السوفييت. وربما اعترض أحد المسؤولين في موسكو على هذا السلوك "الرجعي" داخل المعتقل. إلا أن ميداغليا لم يستطع مقاومة توسلات الطباخ الجنوبي طويلا. وبعد إبقائه طلب برونو معلقا أياما، وافق أخيرا عليه. وبدأت الاستعدادات. ولم يقتصر ذلك على المأدبة. فقد نسي ميداغليا أن تنازله للايطاليين باعطائهم ثلاثة أضعاف ما كانوا يحصلون عليه يعني قبول النتائج وهكذا، في الايام القليلة التالية، حصل بيليتي على إذن التعطيل يومين، هما ٢٥و٢٦ ديسمبر (كانون



الاول)، كما حصل طبيبنا الخاص، الدكتور فيلومينو بيلوسيو على اذن باقامة مغارة الميلاد، وسمح لرفيقنا فانتي بانجاز الاضاءة.

وحل مساء الرابع والعشرين من ديسمبر (كانون الاول) ١٩٤٤ كأمسية شتاء في حوض البحر الابيض المتوسط، ولم يكن في السماء نجم ليهدي المجوس الى المذود، إلا أن الدب الاكبر لاح من البعيد وسط سماء حالكة الزرقة، وتجمعنا في العراء، منتظرين نصف الليل، إذ كان بيلوسيو مزمعا أن يفتح المغارة ويلقي عظة الميلاد، وذكرتنا أنوار فانتي بزينة الميلاد في شوارع ايطاليا، وفاحت رائحة الطعام الشهية من مطبخ بيفا، حيث كانت المأدبة في الطور الاخير من الاعداد.

وفي منتصف الليل تماما دخل بيلوسيو محل الاحذية حيث بنى المغارة والمهد وصنع شخوصا تمثل مولود بيت لحم ومن له، وتبعه نحو ثلاثين أسيرا، وإذ لم يستوعب المكان عددا أكبر، بقي معظمنا عند الباب، وكنت وتونينو من الذين ظلوا خارجا، وخلعنا قبعاتنا خشوعا.

وبارك بيلوسيو المكان، ثم توجه الى الجمع وطلب منا المشاركة في الصلاة، وجاءت كلماته لا لتمثل كلام كاهن أو محارب، ولا حتى كلام مواطن إيطالي، وإنما كانت كلمات إنسان طيب يؤمن بالله كما يؤمن - على رغم الحرب والاسر - بالارداة الصالحة لبني البشر.

وخلص بالدعاء الآتي: "...من أجل أن تعودوا كلكم سالمين الى بيوتكم." فقلنا جميعا: "آمين."

ومن غير سابق تصميم، انطلقنا بفم واحد ننشد ترنيمة ميلادية والغصة في حلوقنا جميعا، وران صمت بعد انتهاء الانشودة، لكن احداً لم يتحرك، وما برح بيلوسيو جاثيا أمام المهد، وبقي الرجال في الداخل واقفين كما هم، والذين في الخارج أبقوا أنظارهم داخلا بلا حراك.

وبينما نحن كذلك، وكل منا مستغرق في أفكاره، تقدم الضابط المسؤول نحونا ثم ألقى نظرة من النافذة وبعد ذلك نظر الى رؤوسنا المطأطأة، ولم يعن ذلك شيئا له، لكنه أدرك أنه يحمل إلينا معنى كبيرا.

وراح يمشي جيئة وذهابا وهو لا يدري ما يفعل، ووقف ثم مشى بضع خطوات في الاتجاه المعاكس، ليعود بعد ذلك نحونا وينظر إلينا، ومخط في منديل، وأخيرا رفع يده اليمنى بتحية عسكرية صارمة.

وبينما نحن نستعد للتوجه الى المأدبة، تقدم الضابط من تونينو وسأله: "ماذا تقولون في ايطاليا في هذه المناسبة؟"

- نقول "بون ناتالي" (ميلاد مجيد).

"إذا، بون ناتالي."

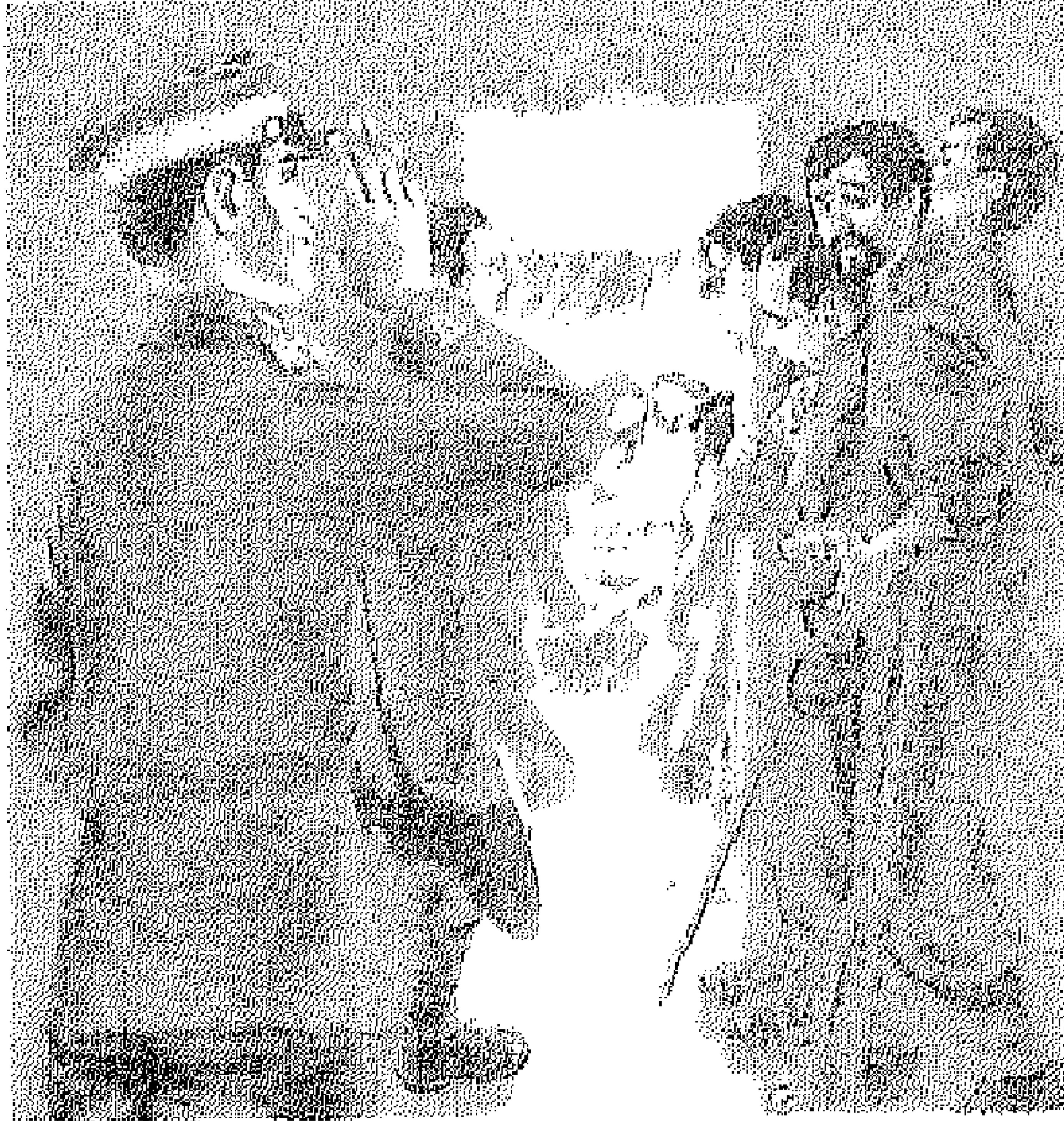
قولوا لايطاليا سلاما

في يوليو (تموز) ١٩٤٥ سرت في المعسكر اشاعة تقول ان الروس على وشك إطلاقنا وإعادتنا الى بلادنا، وعلى رغم معرفتنا بانتهاء الحرب في اوروبا فان أحدا منا لم يصدق الخبر، إذ ان الاشهر الاخد والثلاثين التي أمضيناها في الاسر جعلت منا أناسا مشككين وهازئين.

ولكن فيما نحن مصطفون لعد الرؤوس صبيحة ٢٩ يوليو (تموز)، قرأ الضابط المسؤول أسماء خمسين أسيرا مبتوري الاطراف، بمن فيهم تونينو وأنا، وأمرنا بالوقوف في صف على حدة.

وجاء ميداغليا نحونا وقال: "حسنا. اننا سنرسلكم الى موسكو للحصول على عناية طبية لائقة ونحن نتمنى لكم جميعا حظا سعيدا."

وكان كلامه شديد الاقتضاب ذلك الصباح. وخاطبني تونينو: "ألم أقل لك ان عذابنا لم ينته؟ ان الذهاب الى موسكو يعني أربعين يوما في القطار... أوليس هذا موسم السياحة يأتينا من جديد؟"



واستعددنا من غير حماسة. فالوقت الذي أمضيناه في المعسكر ٣/٢٩ لم يكن سيئا. والاسير يعتاد نمطا من الحياة بحيث لا يرغب في تبديله.

ومن أجل ملاحقة شؤوننا في القطار، عين ميداغليا مهاجرا ايطاليا اسمه ساسي، عاش في روسيا منذ ١٩٢٥. وكان الرجل توسكانيا كما أظن. وقد أحبه بعضنا فيما أبغضه البعض الآخر، لأسباب سياسية في الدرجة الاولى. وكان حقق أمرا أو اثنين لراحتنا داخل المعسكر، ولم يحاول إزعاجنا بمبادئه السياسية.

ولما حان وقت الانطلاق ظهرا، وقفنا خارج البوابة على ضفتي القناة. وبينما نحن نودع زملاءنا وراء الاسلاك الشائكة، بدوا أكثر سعادة منا. ورأيت بيليتي بينهم يلوح علما ايطاليا. فقلت له: "الى اللقاء يا دلفو." وأجاب بأعلى صوته: "الى اللقاء."

وقادنا حارسان يحمل كل منهما بندقية. وكان الجو حارا والمعنويات منخفضة. وحرص ساسي على أن يقف في أول الطابور كل عشر دقائق ليؤكد لنا أن محطة القطارات قريبة جدا.

وأخيرا بلغنا ما يشبه المحطة، حيث العشب يحجب السكة. وهناك رأينا قاطرات القطعان تنتظر.

وأشار فانتي الى اثنتي عشرة قاطرة مكتظة بالركاب وقال: "هناك آخرون إذا."

وأجاب ساسي: "أجل انهم يأتون من معسكرات اخرى."

وسأله فانتي: "أنت آت معنا؟"

- نعم، ولكن بعض المسافة.

وكنا قد حفظنا طريقة عمل القطار. فبعد صعودنا أقفلت البوابة الحديد وجلسنا على الارض المفروشة قشا. وما أن أقفل الباب حتى أخذ القطار يتحرك.

وقال فانتي: "إنهم في عجلة من أمرهم هذه المرة."

وبدا هذا صحيحا، إذ راح القطار ينهب الارض نهبا وسط السهوب.

وقال أحدهم: "لا يمكن أن يبقى القطار هكذا على غير هدى."

وفجأة فتح الباب ليظهر ساسي ومعه حارس. وكان وجه ساسي مختلفا عن الاول، وقال: "لدي أخبار طيبة أيها الاولاد. فمنذ الآن يمكنكم إبقاء هذا الباب مفتوحا إن شئتم. كما تستطيعون النزول في المحطات إذا كان لديكم روبلات تصرفونها. ولكن احرصوا على عدم البقاء خارجا، لأني لا أدري متى يوجه الروس قطارا آخر الى ايطاليا."

وصاح تونينو: "ماذا تقول؟"

ـ أجل، ايطاليا. فانكم لم تبقوا أسرى حرب. أنتم أحرار الآن. وها هم الحراس سيعودون من حيث أتوا، وأنا أيضا. وسيبقى معكم مراقب آخر لتنسيق اموركم، مع خمس ممرضات. لا تقترفوا أي حماقة، بل ابقوا جنبا الى جنب. وسيأخذكم هذا القطار الى فرنكفورت. وهناك تعرفون كيف تتابعون الطريق الى ايطاليا... حظا سعيدا أيها الصبيان. ولا تنسوا أن تقولوا لايطاليا سلاما.

وصرخنا كلنا: "سينيور ساسي! سينيور ساسي."

وسألنا: "ما المسألة؟"

غير أننا لم نقل شيئا. فالمرء لا يستطيع أن يتكلم ويبكي في آن.

■ **كارلو سيلفا**



ارملة روزفلت

يتذكر مايكل بورك، الرئيس السابق لفريق "نيويورك يانكيز" للبيسبول، أنه أمضى أحد فصول الصيف مع عائلة الرئيس الامريكي الراحل فرانكلين روزفلت في بلدة هايد بارك من أعمال ولاية نيويورك:

كان الاطفال يملأون المكان، وبينهم ولدانا ولم يسمح لأحد بالسباحة قبل الثالثة عصراً، حين يتبع الاولاد اليانور روزفلت، أرملة الرئيس، الى حوض السباحة. وعلى رغم بلوغها أواخر السبعينات، فانها كانت تتقدم الاطفال كل يوم وتقفز بجرأة الى الماء.

ومرة قلت لها: "هذه شجاعة عظيمة يا سيدتي! لا شك أنك تحبين الغطس."

فأجابت: "لا بل أكرهه. غير اني اريد اعطاء مثل صالح للاولاد."

ج.ج.

ميزة الاعتذار

كلما أجلت التفكير في نزعة الناس الى الاعتذار، تبين لي أنها ربما كانت أهم الميزات الحضارية التي يتمتع بها الانسان.

ا.ل.

كتاب الشهر

الجريمة الغامضة



تقرير خاص

بقلم موريين شادبولت

الجريمة الغامضة

خارج محكمة اوكلاند في نيوزيلنده، راحت الجموع تقاوم رجال الشرطة والريفيون الطيبون يطلقون الهتافات المعادية للسلطة، فيما النسوة ينتحبن ويزعقن: "أين العدالة؟" وقال أحد المراقبين الهلعين ان المشهد ذكره بما قرأه عن الثورة الفرنسية.

وحقيقة الامر أن المحكمة جرّمت مزارعاً نيوزيلندياً لطيفاً يدعى آرثر توماس في قضية مقتل رجل وزوجته، في حين كانت الشواهد ضده موضوع شك. واليوم، بعد انقضاء ١٣ سنة على الحادث، لا تزال شواهد التهمة حيث كانت، والآلاف المؤلفة من مواطني توماس مقتنعة بان هذا الرجل امضى تسع سنوات في السجن لجريمة لم يقترفها.

والقضية التي نروي تفاصيلها هنا أثارت لغطاً واسع النطاق حول عدالة السلطة القضائية وباتت قصة ذات أبعاد ملحمية وإنسانية عميقة.

الزمان أمسية عاصفة في منتصف فصل الشتاء، تحجب فيها الغيوم المسننة قمراً عمره اثنا عشر يوماً. والمكان منزل من طبقة واحدة بني بالآجر فوق مزرعة في مقاطعة بوكيكاوا الريفية التي تبعد سبعين كيلومتراً غرب اوكلاند. الريح والامطار المتقطعة تسوط المنزل الذي تملكه جانيت وهارفي كرو، وكلاهما في الثلاثين.

ربما هيمن جو من الغضب على ذيّاك المنزل مساء ١٧ يونيو (حزيران) ١٩٧٠. ومما لا شك فيه أن الاصوات لعلعت ثم جاء شخص ثالث. وأطلقت رصاصتان على الأقل، استقرت إحداهما، وعيارها ٢٢ مليمتراً، في جمجمة جانيت بعدما اخترقت جانب رأسها الأيمن. وكان وجهها سحق ضرباً. أما الرصاصة الاخرى فأصابت هارفي خلف أذنه اليسرى وانتشرت شظاياها داخل رأسه. وما لبثت الجثتان النازفتان ان لفتا بملاءات بيضاء وحزمت كل منهما بأسلاك وحملت خارجاً.

وفي إحدى غرف المنزل راحت طفلة تنشج.

وبعد أيام خمسة من المقتلة، في الثاني والعشرين من ذلك الشهر، وجدت روشيل ابنة المغدورين ذات الاشهر الثمانية عشر وحيدة في المنزل وهي حية. ولا بد من أن شخصاً ما تولى إطعامها والعناية بها في ذلك المنزل الخاوي إلا من بقع الدم.

وفي غرفة الجلوس كانت وقعة من السمك لاثنين فوق طاولة. كما كان هناك ما حمله البريد في السابع عشر من يونيو (حزيران)، ومعه بضع فواتير، في مواجهة كرسي ثالث. ووجدت على الارض إبرة حياكة معقوفة ورماد في الموقد. ولم يبقَ إلا علامات ضئيلة لمحاولة محو آثار الجريمة.



آرثر توماس يغادر المحكمة العليا في اوكلاند في حراسة رجال الشرطة بعد اعادة محاكمته وتجريمه.

Photo New Zealand Herald / Weekly News

ولما استدعي رجال الشرطة الى المكان حاروا أمراً في الأدلة. فهناك شخصان مفقودان وطفلة حية في مهدها.

ترى كيف تسنى للطفلة روشيل أن تصمد خلال تلك الأيام الخمسة القارصة البرد؟ حقاً ان الطبيب الاختصاصي الذي عاينها لم يجد عليها أثراً لاهمال شديد، على رغم ما عانته من نقص بسيط في الوزن واستنزاف سوائل الجسد والبثرة الحمراء المتقلصة التي ظهرت على بشرتها. من ذا الذي اعتنى بالطفلة وأمدها بالطعام والسوائل وبدل أقمطتها؟ فقد وجدت أقمطة متسخة فوق الثلاجة وواحد في سريرها، في حين لم يبقَ في المنزل قماط واحد نظيف.

وأخذت الالغاز تزداد. فالزوجان شوهدا حيين للمرة الأخيرة يوم الأربعاء الواقع فيه السابع عشر من يونيو (حزيران)، عشية الذكرى الرابعة لزواجهما، في بلدة تجارية قريبة، ومنذ ذلك الوقت لم يمس أحد قوارير الحليب والرسائل والصحف على عتبة منزلهما. ولم يستجيبا للمخابرات الهاتفية بدءاً من السابعة مساء ذلك اليوم.

إلا أن شهوداً سرعان ما برزوا ليقولوا إنهم رأوا امرأة خارج مزرعة آل كرو يوم الجمعة في التاسع عشر من ذلك الشهر، وانهم قرابة السابعة والنصف من مساء اليوم نفسه رأوا دخاناً متوهجاً يتصاعد من مدخنة المنزل، كما لاحظوا في اليوم التالي طفلا في سن روشيل يعدو خارجاً.

ومما زاد الحيرة أن كلاب المزرعة لم يظهر عليها الجوع. ووصفها أحدهم بأنها بدت "سمينة كالفقم" وانها لو لم تطعم للفت نباحها الناس الى المنزل في وقت مبكر. وعلى رغم أن الابقار راحت تخور جائعة فوق سياج المزرعة المجاورة، فقد بدا أنها نالت حصتها من التبن ليوم الجمعة.

وبوشر البحث عن الجثتين، وقد أفرزت له طائرات مروحية من سلاح الجو فضلا عن عدد من رجال الشرطة والبحرية. وبلغ عدد الرجال مئتين، بين عسكريين ومتطوعين مدنيين، انطلقوا في أرض مساحتها ألف كيلومتر مربع من المزارع والأنهر حول بلدة بوكيكاوا.

ثراء غريب

على رغم اخضرارها وهدوئها تبدو بوكيكاوا مكاناً منعزلا. ولم تكن تحوي عام ١٩٧٠ إلا محلا واحداً ما لبث أن أقفل، بعدما كان يرتاده كبارها الذين يقاربون المئتين. وكان في البلدة أيضاً مرأب سيارات ومدرسة صغيرة ومكتبة محدودة ودار بلدية. وربما عبر السائح ذلك المكان من غير أن يلاحظ وجود تلك الدسكرة على الاطلاق.

وهناك نهر وايكاتو العريض ذو الضفتين المزروعتين صفصافاً الذي يعزل القرية عن الطرق الرئيسية المزدحمة. وبالقرب من ذلك النهر شمالا تقوم مزارع صغيرة لانتاج الألبان وحدائق عمومية. أما المزارع الأكبر حجماً وازدهاراً فهي في الجنوب حيث منزل آل كرو، وحيث


الزوجان المغدوران هارفي وجانيت كرو.

تسرح وتمرح آلاف الاغنام والأبقار. وبين الشمال والجنوب تقوم تلة ترتعي فيها الماشية وترتفع ٢٧٥ متراً. تلك هي تلة بوكيكاوا في مقاطعة ماوري، وهي أعطت البلدة اسمها ومعناه "التلة الأليمة."

وكان أحدهم تكهن في أواخر القرن التاسع عشر بأن تشتهر المنطقة بالمآسي. وهذا عين ما حصل. ففي العام ١٩٢٠ أردي المزارع سيدني آر قتيلا من خلال نافذة مخدعه. وقبض على رجل كان يوماً عشيق زوجته، بعدما بينت الأدلة، وهي حوافر حصان وغلاف قذيفة، علاقته بالجريمة. وبعد تبرئته في المحاكمة الاولى جرم في الثانية وأعدم شنقاً وهو يصرخ انه بريء. وها هي جريمة ١٩٧٠ تظهر، بعد خمسين سنة، شبهاً قوياً بين اليوم والأمس.

والواقع أن أقلية من مزارعي الجيرة الذين شاركوا في عملية التفتيش عن الجثتين عرفوا هارفي وجانيت كرو عن كثب، بمن فيهم أقرب الجيران. فقد كان الزوجان منكمشين حتى الانعزال. ولئن قبلا دعوة الى طعام أو شراب، فهما لم يبادلا الداعي بالمثل. ولم يتردد على منزلهما حتى أقدم الأصدقاء.

وكانت جانيت الابنة البكر للمزارعين اللذين يملكان الارض المجاورة، وهما لينارد وميزي دملر.

وفي العاشرة من عمرها ورثت جانيت واختها الاصغر هيذر أرضاً من عم أعزب تبلغ مساحتها ١٣٧ هكتاراً. وتلقت الشقيقتان علمهما - وهما على مقدار لائق من الثراء بالنسبة الى المقاييس المحلية - في إحدى مدارس نيوزيلنده المتميزة. وامتهنت جانيت التعليم وسافرت الى اوروبا، ثم عادت لتصبح مدرسة في القرى. وتعرفت على هارفي كرو، وهو راع طويل القامة يمارس الرياضة. وفي العام ١٩٦٦ تزوجا وأخذا مزرعة جانيت التي انتقلت إليها بالوراثة. واستدان هارفي مبلغاً كبيراً لشراء حصة هيذر.

وانقضت سنوات أربع على زواجهما وغالبية أهل الجيرة لا تعرف الوافد القوي البنية الذي يبلغ طوله ١٨٥ سنتيمتراً، ولم يرقه ما بلغه منهم، وهو أنه تزوج جانيت طمعاً بالمزرعة. والواقع ان هذه أسرّت مرة الى صديقة ان غناها لم يفعل خيراً لحياتها الزوجية. وراح هارفي يعمل بكد ومثابرة ليبرهن عن نفسه مزارعاً جديراً. والقليلون الذين رأوه - ومعظمهم مقاولون زراعيون وتجار ماشية - فاجأتهم أحياناً حدة طبعه. ومرة صب جام غضبه على تاجرين لأنهما حضرا عشر دقائق... قبل الموعد! وطالما نعته عارفوه بعبارات من نوع "فظ" و"جاف" و"عنيف" و"سريع الغيظ."

أما جانيت التي كانت تقيم وزناً للصداقة قبل زواجها فقد أقصاها الزواج عن الناس. وبعضهم يقول انها غدت عصبيةالمزاج.وقبل المأساة الاخيرة شهدت مزرعة آل كرو أحداثاً غريبة، إذ تعرضت للنهب عام ١٩٦٧ وللحرق عامي ١٩٦٨ و١٩٦٩. وشب الحريق الاول في المنزل والآخر في حظيرة التبن. والغريب في الأمر أن هارفي أصر - متحدياً الشواهد - على أن حريق المنزل نتج من عطل كهربائي. واسدعت حماته ميزي دملر محرر الصحيفة المحلية وطلبت منه عدم نشر تفاصيل حول السرقة والحريق. وهي فعلت ذلك من غير تعليل.

وفي العام ١٩٦٩ حصل خلل عائلي من نوع آخر إذ أقدمت هيذر، شقيقة جانيت الأكثر انفتاحاً، على الزواج برجل مطلق ومفلس مما أثار حفيظة امها فعمدت الى حرمانها حصتها من الارث. ونتيجة لذلك ثار الأب فحرم ابنته جانيت حصته هو. وما هي إلا أشهر قليلة حتى قضت ميزي بالسرطان، وكان ذلك في فبراير (شباط) ١٩٧٠.

وفي ١٦ يونيو (حزيران)، قبل يوم واحد من اختفائها، زارت جانيت محاميها وحصلت على نسخة من وثيقة الملكية التي تمنحها نصف مزرعة أبيها. وهذا يعني أنها عندما ماتت في اليوم التالي كانت تملك ما يزيد على ١٥٠ ألف دولار أموالا غير منقولة. وكان لها ثلاثة حسابات مصرفية شخصية تبلغ قيمتها ٤٦٤٠ دولاراً، فضلا عن حساب مشترك مع زوجها قيمته ١٦٦٧ دولاراً. أما رصيدا هارفي الخاصان فبلغ مجموعهما ٣٤ دولاراً.

أيعقل أن تكون الخلافات المادية

أسفرت عن فورة غضب ذلك المساء؟

مما لا شك فيه أن المال كان أحد الموضوعات التي تكلم فيها الزوجان خلال عشائهما الأخير، كما تشهد الفواتير والحسابات على طاولة الطعام.

غير أن منزل جانيت لم يحمل أي علامة تشير الى انه ملك امرأة ثرية أو سعيدة. وعلى رغم أن الاصدقاء يتذكرون جانيت كفتاة "أنيقة" و"ربة منزل قديرة"، فان بيتها الحقير لم يشهد على ذلك. فالجدران خالية من الرسوم وبعض النوافذ لا تغطيه الستائر. ولم يعثر في البيت على صور زفاف أو على أشياء تذكارية جمعتها جانيت في رحلاتها. ولم يكن من المجلات الصغيرة الا ما ندر، علماً أن السلع الانثوية، كالعطور وأدوات التجميل، لا أثر لها على طاولة غرفة النوم. أما غرفة الطفلة فلم تبد أحسن حالاً. وكانت الملابس المتسخة مرمية على الارض، وليس في الغرفة الجرداء أي أثر لشخصية جانيت أو هارفي. وهذا يعني اختفاء الزوجين ليس بالمعنى الجسدي فحسب، بل بالمعنى المجازي أيضاً.

جمع الادلة

لم يخف رجال الشرطة انطباعهم الاول، وهو القاء التهمة على والد جانيت لينارد دملر، الرجل الناحل الأعجف البالغ الحادية والستين، تدفعه الى جريمته الخلافات العائلية والانتقام من خطوة زوجته الراحلة. أما نقاط الدم التي وجدت في سيارة الأب مطابقة لدم ابنته القتيل فقال لينارد انها من جرح في اصبعها.

وتجدر الاشارة الى أن المسافة بين بوابة دملر وبوابة كرو هي ٩٠٠ متر.

يضاف الى هذا أن سلوك لينارد بدا مربكاً. فهو الذي لفت الشرطة أولا الى الجريمة. وقال ان تاجر ماشية خابره يوم الاثنين في ٢٢ يونيو (حزيران) شاكياً هاتف آل كرو الذي لا يعمل. وتعجب دملر لذلك وقاد سيارته نحو مزرعة صهره. ودخل المنزل ليجد الدم الجاف في كل مكان ويكتشف اختفاء ابنته وزوجها. وهناك رأى حفيدته بقماطها المتسخ وقد غطى الدمع وجهها.

الا أنه لم يستخدم هاتف ابنته لاعلام الشرطة بالامر، بل ترك الطفلة المسكينة كما وجدها وعاد الى منزله. ومن هناك خابر تاجر ماشية كان مزمعاً على تحميل بعض الرؤوس من مزرعة آل كرو لالغاء موعده. واذ لم يجد التاجر في منزله، انتظر رجوعه بعد عشرين دقيقة. وبعد ذلك اصطحب لينارد جاراً له وعاد الى مزرعة ابنته.

وقال الجار لاحقاً انه سمع الآتي من لينارد: "لقد قتلها ابن الحرام ثم قضى على نفسه... اني متأكد من أن هارفي قتلها." ودخل الاثنان غرفة الجلوس ثم غرفة الطفلة. وفيما الجار يتفقد بقية أرجاء المنزل انتظره دملر خارجاً. وأخيراً تولت زوجة مزارع من الجيرة أمر روشيل واستدعيت الشرطة. وعاد دملر الى مزرعته لفرز عدد من رؤوس الماشية.

ولم يشأ لينارد الاشتراك في عملية البحث عن الجثتين. وفي السادس من

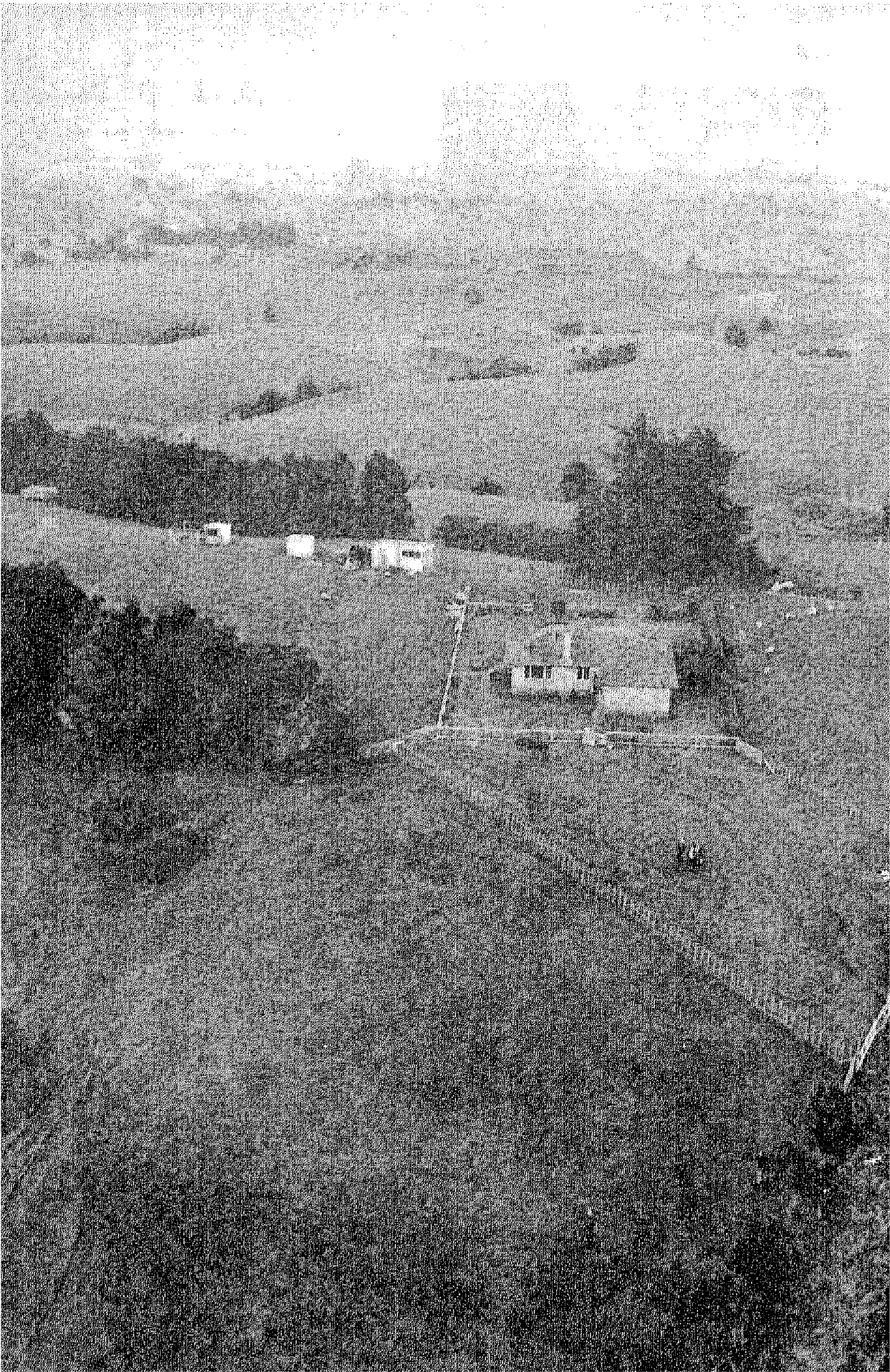
يوليو (تموز) احتفل بعيد ميلاده كالمعتاد مع عـدد مـن الانسـبـاء والاصدقاء، بينمـا فريـق التفتيـش يمشط الامكنة المحيطة بالمزرعة وقد بلل أفراده المطر. واستجوبه رجال الشرطة مطولا مرة بعد اخرى الى أن وكّل محامياً للدفاع عنه.

وكان بروس روديك، وهو مساعد زراعي خجول في الرابعة والعشرين، أخبر الشرطة أنه شاهد امرأة غامضة المنظر خارج منزل آل كرو في التاسع عشر من يونيو (حزيران) بعد يومين من اختفاء الزوجين. واستجوبه رجال الشرطـة بدقـة وعنـف. واحتفظـوا ببصماته وحذروه من مغادرة البلدة وتركوه فاقداً معنوياته.

وفي مكان آخر من البلدة تم استجواب أكثر هدوءاً. ففي الثاني من يوليو (تموز) توقفت سيارة شـرطة أمام منزل آرثر توماس وهو مزارع سهل المعشر في الثانية والثلاثين يملك أبقاراً حلوباً ويسكن على بعد ١٥ كيلومتراً من مزرعة آل كرو. وقد أراد المحقق حمل آرثر على الاعتراف بأنه عرف جانيت وحاول خطب ودها يوماً. وأقر الشاب سريعاً بذلك قائلاً انه حصل قبل ثماني سنوات وهو لما يعرف زوجته بعد. الا أنه لم يستطع مقابلة جانيت التي بخلت عليه بموعد واحد.

وحين سئل هل عرف المزرعة أجاب بالايجاب، قائلا ان متعهداً زراعياً وظفه للعمل هناك قبل انتقال الارض الى ملكية الزوجين المغدورين. وهو لم يعرف هارفي كرو شخصياً، لكن ما سمعه عنه يشهد على أنه رجل خلوق.

منزل آل كرو حيث وقعت الجريمة الغامضة وامامه سيارات الشرطة.
Photo from police evidence



ولم يمانع آرثر في أن يفتش رجال الشرطة سيارته ويحتفظوا ببصماته.

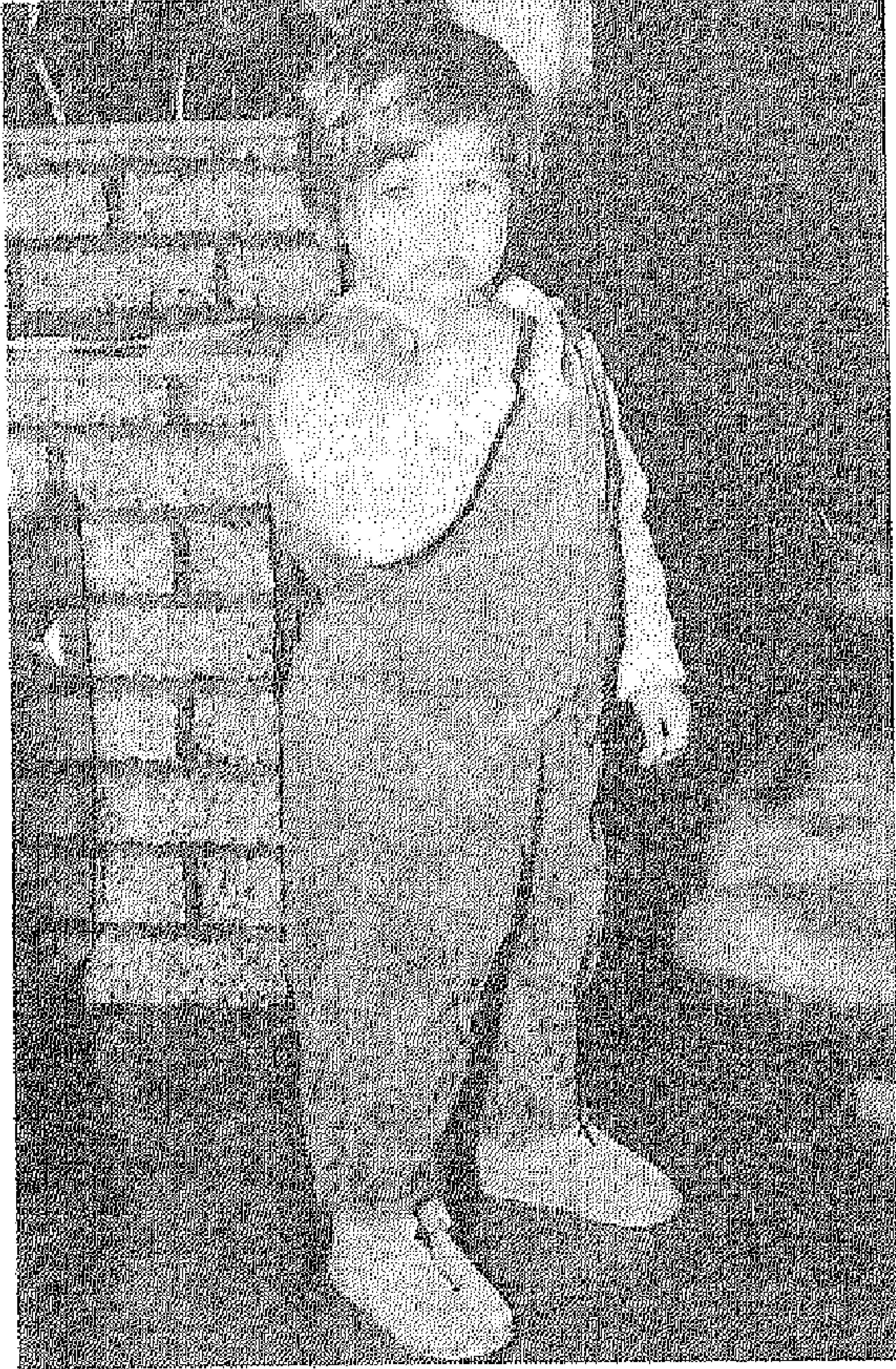
وتحدث مع المحقق بمرح. وغادر المسؤول وقد نسي الدفتر الذي دون عليه الملاحظات هناك، فيما استأنف توماس علف أبقاره الحاضنات.

وبعد مضي اكثر من شهر جاءه محقق آخر، وذلك في ١٢ اغسطس (آب) بعد العثور على عدة تمشيط وتصفيف شعر في منزل آل كرو. وكانت العدة في علبتها المغلفة بورق خاص بهدايا عيد الميلاد، وضمنها بطاقة كتب عليها: "من آرثر."

وللحال قال آرثر توماس: "أجل، هذا هو أنا. وقد أهديت اليها تلك العلبة عام ١٩٦٢ كما أذكر، وذلك قبل زواجي."

سمع المحقق ذلك الكلام وغادر. وبعد أربعة أيام ظهرت قرائن جديدة، اذ طفت، على أثر فيضان استثنائي لنهر وايكاتو، جثة جانيت المنتفخة وهي ما زالت ملفوفة بالملاءة ومعصوبة بأسلاك. وكانت ملابسها غير ممزقة ولم يظهر عليها اي اثر لاعتداء جنسي. واستقدم دملر الى ضفة النهر وشهد على أن تلك الجثة لابنته جانيت، من غير أن يظهر عليه أي انفعال. وتلا ذلك استجواب طويل لم يفصح خلاله الأب عن أي شيء ايجابي.

الا أن رجال الشرطة تأكدوا من وسيلة القتل، وهي قذيفة بندقية من عيار ٠،٢٢ صوبت الى رأسها. وشرعوا يجمعون البنادق من هذا العيار من جميع البيوت التي تقوم على شعاع ثمانية كيلومترات دائرية


Photo from police evidence

الطفلة روشيل كرو بعد ايام من العثور عليها في البيت الملطخ بالدم.

من مزرعة آل كرو. وتجاوزوا تلك المسافة في بعض الاتجاهات فوصلوا الى منزل آرثر توماس الذي يملك بندقية من النوع نفسه. وأظهرت التحريات اختفاء بندقية من مزرعة المغدورين.

وفيما رجال الشرطة يفحصون البنادق المصادرة في اوكلاند، اعلن الربيع بشائره في بلدة بوكيكاوا. والواقع ان المزارعين المحليين الذين شغلهم الموسم الجديد استبعدوا ان يكون في الامر جريمة. لكن رجال الشرطة زادوا نشاطهم في مزرعة آل كرو. وأخذوا يزيلون العشب ويمشطون

المكان بحثاً عن كل غلاف قذيفة من عيار ٢٢، وبعد ذلك نخلوا التراب ولكن لم يحصلوا على شيء.

وهب الى نجدتهم غريم هيوسون الذي قطع مسافة ٥٦٠ كيلومتراً الى بوكيكاوا مع عم هارفي يوم انتشر خبر الاختفاء، وهو جاء بناء على طلب لينارد دملر للاعتناء بالمزرعة، وكان غريم من أصدقاء هارفي القدامى، وقد شاء أن يكتشف الجاني ويعاقب.

ولم تقل عنه حماسة دوائر الشرطة، ففي العام ١٩٧٠ ارتفع عدد جرائم القتل الغامضة في نيوزيلنده، وولد ذلك جواً ضاغطاً لدى رجال الشرطة.

وفي السابع من سبتمبر (أيلول) شعر آرثر توماس بذلك الضغط على كاهله هو أيضاً، فالبنادق الاربع والستون التي تم اختبارها استبعدت كلها ما عدا اثنتين، وكانت احداهما تخص عائلة آرثر التي تسكن على بعد كيلومترين من منزل آل كرو، وفي تلك العائلة شاب أصم يعاني تخلفاً في النطق، وهو ميكي البالغ الثامنة والعشرين والذي عمل يوماً في مزرعة آل كرو وعرف حدة الطبع التي تميز هارفي، وقد شوهد ميكي يطوف الطرق ليلا وفي يده أحياناً بندقية، ومن غرائب المصادفة أنه حفيد المزارع الذي اغتيل في بوكيكاوا عام ١٩٢٠.

أما مالك البندقية الاخرى فكان آرثر توماس، وتوجه محققان الى منزله وطلبا منه أن يرافقهما بضع دقائق، فوافق آرثر من غير تردد، وفي دائرة الشرطة وجه اليه الكلام الآتي: "يبدو أن بندقيتك، يا آرثر، قتلت آل كرو، فما جوابك؟"

وقال توماس على الفور: "طبقوا علي أي امتحان أردتم، وسترون أني لست الفاعل... أليست لديكم آلة لاكتشاف الكذب؟"

واستجوب توماس بعضاً من الوقت قبل أن يعيده المحققون الى منزله وهم يقولون: "كنا نختبر ردود فعلك." وسألوه وهم يغادرون: "أتدري ما اذا كان لينارد دملر يملك بندقية؟"

وفي اليوم التالي أعيدت اليه بندقيته، مع قول أحد الرجال: "ليست هذه البندقية التي نبحث عنها."

القذائف ذات الرقم ٨

في تلك الاثناء كان لينارد دملر المتهم الرئيسي، الا أن غواصي الشرطة الذين كانوا يفتشون قاع النهر عثروا على جثة هارفي ضمن ملاءتها في ١٦ سبتمبر (أيلول). ووجدوا تحت الجثة، ولكن بانفصال عنها، محور عجلة لسيارة "ناش" من العام ١٩٢٩.

وأصبح لدى الشرطة شظايا قذيفة من نوع تخطاه الزمن، لكنها كانت تحمل الرقم ٨، فضلا عن الاسلاك التي ربطت بها الجثتان، ولكن أيكون المحور الذي وجدوه أخيراً شاهداً بيناً؟

في ١٣ اكتوبر (تشرين الاول) قرع محقق باب آرثر توماس ليريه المحور مع رسم قديم غائم لقطيرة يظن أن تلك القطعة المعدنية تنتمي اليها، ولم يكن آرثر رأى المحور من قبل،



نهر وايكاتو يلفظ اشلاء هارفي كرو ملفوفة بملاءة، والمفتش هاتون يحمل محور سيارة انتشل من النهر.

غير أن القطيرة بدت كتلك التي كانت لوالده آلان توماس الذي يملك اليوم مزرعة على بعد ١٥٠ كيلومتراً شمالا والذي نقل ملكية مزرعته في بوكيكاوا الى ابنه آرثر قبل أربع سنوات. وطالما قصد هواة المركبات القديمة مزرعة آرثر طلباً لقطع الغيار، علماً ان الابن والاب يحبان العمل الآلي، وقد اشتهر الوالد بعدم رميه كل قديم توقعاً لقيام الحاجة اليه لاحقاً.

وسأل المحقق عن نماذج من الاسلاك المعدنية، فأجابه آرثر: "خذ ما شئت." وحين طلب قذائف من عيار ٠٫٢٢ مليمتراً أجابه: "اليك بها كلها." وذكر المحقق علبة تصفيف الشعر التي أهداها آرثر الى جانيت. فهز توماس كتفيه وقال: "انها ما زالت في ورقتها على حد علمي." ودون المحقق ذلك الجواب مركزاً على عبارة "على حد علمي" التي استخدمت لاحقاً ضد توماس.

أما آلان توماس فقال للشرطة ان قطعة من ذلك النوع كانت فعلا في سيارته التي تعود الى العام ١٩٢٩، لكنها ابدلت عام ١٩٦٥. وربما أبقيت القطعة القديمة لدى المهندس الذي أبدلها. ويعقل أن تكون وجدت

طريقها مرة اخرى الى المزرعة وأن تكون توابعها هناك.

وانطلق آرثر والمحقق يبحثان عن تلك التوابع واذ لم يجدا شيئاً ذهبا الى مستودع المزرعة. وأحضرت فيفيان توماس زوجة آرثر الشاي. ولم يعثر الرجلان على شيء.

وفي مزرعة آل كرو، على بعد ١٥ كيلومتراً جنوباً، أخذ رجال الشرطة يعجون من جديد. وكان المسؤول الاول عن عملية التحقيق منذ البداية المفتش الصارم بروس هاتون (٤١ سنة) الذي سبق أن كشف عن ثلاثين جريمة قتل. وقد اشتهر هاتون لاقدامه وطموحه والترقيات السريعة التي حصل عليها. وطبيعي ألا تكنّ عصابات الاجرام في اوكلاند أي حب له.

وها قد انقضت أربعة أشهر على دخول المحقق المذكور منزل آل كرو من غير أن يثبت اتهامه ضد أحد. ولا بد من أن يكون رجاله، في سعيهم الى الشواهد، قارنوا جريمة اليوم بجريمة ١٩٢٠. وقد قتل سيدني آر آنذاك باطلاق النار عليه من خلال نافذة. فلماذا لا يكون امر مماثل حصل اليوم؟ وهكذا وضع رجال الشرطة هذه الفرضية: لقد قتل هارفي كرو، وهو لا يدري، عبر نافذة في المطبخ. وبعد ذلك ضربت جانيت بعنف وقتلت هي الاخرى.

في جريمة ١٩٢٠ كان الدافع الى القتل هو الغيرة. وأخذ رجال الشرطة يقنعون أنفسهم بأنّ الدافع الى الجريمة الجديدة هو الغيرة أيضاً. وقد عاشرت جانيت قبل زواجها عدداً قليلا من الفتيان. وها هو آرثر توماس الذي كان يسعى الى ودها وان صدته.

وفي ٢٠ اكتوبر (تشرين الاول) عاد المحققون الى مزرعة توماس طلباً للمزيد من الاسلاك، واخذوا البندقية مرة اخرى من غير تعليل. وراحوا، بينما فيفيان تدير عليهم المرطبات، ينقبون مستودع المزرعة من جديد تحت حر الربيع. وفتشوا المكان دونما جدوى. وساعدهم آرثر في قلب الركام بمجرفة معدنية مسننة يستخدمها لتنظيف المجاري. واذ لم يعثر على ما طلبوه استأذنهم قائلا: "دعوني أستأنف حلب الابقار".

وبعد قليل أعلن رجال الشرطة أنهم وجدوا ما يبحثون عنه، وهو قطعتان معدنيتان تطابقان تلك التي عثر عليها في قاع النهر. ولم تؤخذ صورة في حينه لتينك القطعتين، ولا أعلم آرثر وزوجته بالامر.

وفي اليوم التالي عاد رجال الشرطة أفواجاً وفي حوزتهم أمر بالتفتيش. ونقبوا منزل آل توماس بدقة وحملوا معهم قطعاً من الحديد ودفتراً وحزمة رسائل تلقاها آرثر من صديقاته القدامى قبل زواجه. ومما عثروا عليه في المرآب قذيفة بندقية من عيار ٢٢، غير مطلقة. ولدى فتح القذيفة وجدت في قاعدتها العلامة ٨. وهي القذيفة الوحيدة من نوعها التي وجدت في المزرعة.

"أنت في مأزق"

مساء السبت ٢٤ اكتوبر (تشرين الاول) ذهب آرثر توماس وزوجته فيفيان الى سهرة راقصة لمناسبة

ختام الموسم الرياضي وعادا متأخرين. وفي الصباح التالي نهضا باكراً لحلب الأبقار. وإذ ذاك قدم رجال الشرطة وأخذوهما الى دائرة للشرطة بالقرب من اوكلاند حيث أخضعا لاستجواب مطول، كل منهما على حدة. وتم استجواب آرثر على يد المفتش بروس هاتون ودام خمس ساعات.

سأله هاتون: "ألم تخرج في السيارة مساء السابع عشر من يونيو (حزيران)؟"

- كلا. وفي إمكانك التأكد مما أقول من طريق طرح السؤال نفسه على ابن عمي بيتر الذي يعيش معنا. فهو كان في المنزل تلك الليلة.

وعرضت على توماس بندقيته والاسلاك والقطع المعدنية، وقيل له انها كلها وجدت في مزرعته. وبعد ذلك وضعت أمامه عدة تصفيف الشعر.

وإذ ذاك قال المزراع الصريح لمستجوبه: "أجل، هذا يذكرني بشيء حملته إليك." وسحب من جيبه رسالة كتبتها اليه جانيت من لندن، ولم يكن رجال هاتون وجدوها في منزل توماس. وتناولها هاتون مندهشاً وهو يقول لنفسه ان احتفاظ آرثر بالرسالة تسع سنوات لم يكن عبثاً.

وراح المحقق يتحدث مع توماس عن الضائقة المادية التي عاناها صغار المزارعين تلك السنة. وسأل توماس عن زواجه، فقال انه سعيد وراض. وطرح عليه أسئلة حول جانيت وثروتها، مستأنفاً أسئلته عن أمسية السابع عشر من يونيو (حزيران). ومرة أخرى قال توماس انه لبث في مزرعته يعالج بقرة مريضة وضعت عجلا، علماً أنه كان لا بد من قتلها بالرصاص بعد خمسة أيام. وأمضى السهرة برفقة زوجته وابن عمه الصغير.

وأحس آرثر وهو يغادر مركز الشرطة أن لدى هاتون قناعة باقترافه الجريمة. ولكن ما أن عاد وزوجته الى مزرعتهما حتى طمأنها قائلا: "من الواضح أن جريمة وقعت، لا بل جريمتان. والواضح أيضاً أن رجال الشرطة يؤدون واجبهم كما ينبغي."

وأمضى رجال الشرطة نهاية ذلك الاسبوع في زيارة جيران آل توماس لسؤالهم عما إذا رأوا آرثر ليلة السابع عشر من يونيو (حزيران). وهذا يعني أن المزارع الشاب بات أحد المتهمين بالجريمة وذلك أزعج بريان موراي وهو جندي سابق انتقل الى العمل في البلدية. وقد عرف آرثر منذ صغره فتى متهللا مهذباً، وهو الولد الثاني في عائلة من تسعة أولاد. ولم يكن آل توماس بالعائلة الغنية، لكنهم حازوا احترام جميع عارفيهم. وكان آرثر شاباً نشطاً مقداماً يمكن اعتماده، وهو يتمتع بحس لاذع من المرح. كما كان محبوباً في المناسبات الاجتماعية، حيث لا يتورع عن حمل الغيتار والغناء. وعرف عنه تعلقه بزوجته البريطانية فيفيان... لذلك كله لم يصدق موراي أن آرثر يرقى إليه الشك في جريمة كتلك.

وزار آرثر وفيفيان ذلك المساء ووجدهما أمام شاشة التلفزيون، وقد غفت قطتا فيفيان السياميتان على الارض بالقرب منها. وبادر موراي

صديقه بصراحة: "أنت في مأزق، ولا يستبعد أن تلصق بك الشرطة تلك التهمة. وهذا يعني أنك تحتاج الى محام."

وأجاب آرثر: "تلك مضيعة للوقت والمال. والواقع أن المفتش هاتون تولى الأمر. وعلى رغم ان القطع المعدنية التي عثر عليها قد تكون من مزرعتي، فذلك لا يعني علاقتي بالأمر."

لكن موراي رفض مبارحة المكان قبل أن يعده آرثر وزوجته بأنهما سيوكلان الأمر الى محام.

ودخل محققان مزرعة آل كرو صبيحة السابع والعشرين من اكتوبر (تشرين الأول) وشرعا يفتشان حوض زهر في المزرعة. وقالا ان جميع الأحواض نقبت بدقة في ما مضى إلا هذا الحوض. وهو كان على بعد خمسة أمتار فقط من النافذة التي ظن أن طلقة البندقية صرعت هارفي عبرها.

وجاءت نتيجة البحث إيجابية حين وجد الرجال على عمق ١٥ سنتيمتراً غلاف قذيفة من عيار ٠٫٢٢ بعد نخل التراب بأيديهم. وكان تراب الحوض رطباً. لكن أحد المحققين قال لاحقاً ان التراب داخل الغلاف كان جافاً.

وفي ٢٤ ساعة أصدر المحققون قرارهم الظني القائل بأن الرصاصة القاتلة أُطلقت من بندقية آرثر توماس التي صادرها رجال الشرطة قبل اسبوع.

وبذلك تكون نقاط الشبه اكتملت مع جريمة ١٩٢٠ التي جاء دليلها القاطع من غلاف قذيفة.

وفي ٣٠ اكتوبر (تشرين الاول) وقفت فيفيان توماس في صف طويل من النساء لتثبيت علاقتها بالمرأة الغامضة التي اعتنت بالطفلة بعد الجريمة. ولم يستطع بروس روديك ربط فيفيان أو أي امرأة اخرى بتلك التي رآها خارج منزل آل كرو.

وكان ذلك الحادث حافزاً لآل توماس على توكيل محام. ووقع اختيارهما على أحد كبار محامي اوكلاند وهو بول تيم الذي وصل اليوم التالي للبحث في المسألة مع آرثر توماس ووالده آلان. وتبين للرجال الثلاثة أن استجواب آرثر أمر هامشي وان التهمة بعيدة عنه كثيراً.

وإذ راح الوالد وابنه يذرعان المزرعة في وقت لاحق من اليوم نفسه، نظر آلان الى رؤوس الماشية القوية وهنأ ابنه على براعته في ادارة شؤون المزرعة. الحياة اذاً تتجاوز رجال الشرطة وملاحقاتهم.

"ما الذي دهاك؟"

الايام العشرة الاولى من نوفمبر (تشرين الثاني) كانت فاتحة صيف حار باكر. وإذ توقفت زيارات رجال الشرطة أعلن آرثر أمام أحد جيرانه: "انهم الى جانبي الآن." واستأنفت فيفيان حياتها الطبيعية. وكانت كلما خابرت جارتها القريبة مارغريت سميث حدثتها عن الطبخ وشؤون المزرعة اليومية والعناية بالحديقة.

وفي ٧ نوفمبر (تشرين الثاني) ذهب آرثر وفيفيان الى اوكلاند لحضور مهرجان للموسيقى المحلية والغربية. وكان معهما الصديقان دوغ فيزي وزوجته روز من العاصمة.

وأمضى الأربعة سهرة جميلة راح آل توماس في ختامها يحيطان آل فيزي علماً بآخر ما استجد بالنسبة الى قضية بوكيكاوا، بما في ذلك الاستجوابات التي أخضعتهما الشرطة لها. وتذكر دوغ فيزي لاحقاً تلك الأمسية بقوله: "إذا كان آرثر هو حقاً صاحب تلك الجريمة المزدوجة الذي ينتظر إلقاء القبض عليه عاجلا أم آجلا، فلا بد من أنه يضع الممثل الكبير السيد لورنس اوليفييه في جيبه."

وكان أن قصد المفتش هاتون مزرعة آل توماس في الحادي عشر من نوفمبر (تشرين الثاني) وهو يوم حار وعاصف. وكانت فيفيان على وشك أن تأخذ قطاً لها الى طبيب بيطري ولما سئلت عن آرثر قالت انه "في الحديقة الخلفية يمد أنابيب ماء." وانطلقت في سيارتها من غير أن ينتابها أي قلق.

وبعد قليل كان آرثر نفسه، وهو غير قلق أيضاً، في طريقه الى اوكلاند بعدما طلب منه الذهاب مرة اخرى الى دائرة الشرطة. ولوح بيده للجيران فيما السيارة تغادر. ولكن ما أن وصل الى هناك حتى تبدلت الامور، إذ وقف يصغي الى قرار اتهامه بقتل هارفي وجانيت كرو.

وقال للمفتش هاتون: "إني بريء. وسوف تتحقق من هذا الأمر."

وفي تلك الاثناء سمعت مارغريت سميث جارة آل توماس من صاحب حانوت محلي أن رجلا قبض عليه بتهمة قتل آل كرو. فخابرت فيفيان وقالت لها: "يمكنك أن تستريحي الآن... لقد قبض على المتهم."

وأجابت فيفيان وهي مصعوقة: "أجل، أعرف ذلك لقد أوقفوا آرثر!"

وفي تلك الليلة لم تعرف الجارة طعم النوم. ودونت الآتي في مفكرتها: "إنه يوم مروع. والحق أني لا أصدق ما حصل." إلا أن أياماً مروعة اخرى كانت على الطريق وحملت الكثيرين على نسيان محنة آل كرو نفسها.

أما المزارع الشاب فقد احتجز في سجن ماونت إيدن في اوكلاند، وهو قلعة بنيت في أواسط القرن التاسع عشر لتلك الغاية ولم يمكنه أن يرى شيئاً من غرفته المعزولة. ولكن سمح له باستقبال الزوار. وبادره أخوه راي لدى دخوله: "أحقاً انك اقترفت ذلك العمل؟"

وأجاب آرثر: "لو كان ذلك حدث حقاً، لتوقعت أن أبيت هنا." ونظر الى زوجته وسألها عن المزرعة وعما إذا كانت امورها تجري كما يرام. وظهر عليه الأرق والشحوب، ودمعت عيناه. وسأله أبوه: "أتتذكر ما كنت تفعل في ١٧ يونيو (حزيران)؟" وغادر الوالد السجن أبيض الوجه وهو لا يفقه حقيقة الامر، وإن يكن واثقاً من أن ثمة خطأ فادحاً ارتكبه رجال الشرطة، وانهم لا بد مكتشفون خطأهم قريباً.

أما دوغ فيزي الذي سهر وزوجته مع آل توماس قبل أيام فكان يؤمن بعصمة الشرطة، خصوصاً بعد استجواب دام خمسة أشهر. وسأل آرثر: "قل لي ما دهاك يا آرثر، وما الذي دفعك على تلك الفعلة؟"

الا ان فيزي غادر السجن مقتنعاً ببراءة صديقه ومصعوقاً الى اقصى الحدود، وهو يتأسف في السريرة والعلن للوضع السيىء الذي آل اليه المجتمع.

ولم ينقطع الجيران عن استجواب فيفيان وبيتر توماس، ابن عم آرثر، عما حدث تلك الليلة. ووقف الاثنان موقفاً صلباً بتأكيدهما ان آرثر لم يبارح المنزل تلك الليلة.



توماس في حفلة قبل وقوع الجريمة بسنوات.

هذا كله أبقي بعيداً عن بول تيم، كذلك لم يعلمه رجال الشرطة بأن آرثر احتفظ برسائل الفتيات اللواتي عرفهن قبل الزواج، بما في ذلك رسالة جانيت. وكانت الشرطة صادرت تلك الرسائل.

وهكذا عندما باشرت المحكمة البدائية جلساتها في منتصف ديسمبر (كانون الاول) للاستماع الى الشهادات ضد آرثر توماس، وجد

وفي تلك الاثناء واجه المحامي بول تيم عراقيل كثيرة. ذلك بان دائرة الشرطة حجبت عنه إضباراتها التي تعطيها عادة لمحامي الدفاع للاطلاع عليها. وفي حين حجب رجال الشرطة الحقائق، فقد أعطوا محامي الدفاع معلومات خاطئة. ولم يعرف تيم إلا بعد سنوات أن أحد جيران آل كرو اعترف بأنه سمع ثلاث طلقات نارية ليلة السابع عشر من يونيو (حزيران)، أو انه شاهد الدخان يتصاعد من مدخنة المنزل قرابة السابعة والنصف من مساء ١٩ يونيو (حزيران) بعد يومين من المقتلة. وربما كان في ذلك دليل على أن أحداً تولى إحراق اثباتات الجريمة. وفي ذلك الحين كان آرثر وفيفيان في الطريق لحضور حفلة على مسافة بعيدة.

محامي الدفاع نفسه مضطراً الى استجداء الوثائق للحصول على أبسط المعلومات. وأنكر أحد كبار مصوري الشرطة التقاط أي صورة لبقع الدم في سيارة لينارد دملر. ومنعت ادارة الشرطة المحامي تيم من رؤية الجثتين، كما حجبت عنه القائمة التي دون فيها ما تم استخراجه من النهر. والواقع أن تيم لم يشاهد تلك الاشياء قبل شهر فبراير (شباط) لدى رفع الدعوى الى المحكمة العليا.

وقوي الاتهام عندما أعلنت شاهدة عيان انها رأت آرثر توماس في حفلات راقصة في بوكيكاوا عامي ١٩٥٦ و١٩٥٧ وهو في ثياب متسخة،من غير أن يكف عن ملاحقة جانيت وإظهار "عاطفته" أمامها علناً. وقصدت الشاهدة بكلامها ذلك

ان "عاطفة" الفتى ذي الثماني عشرة سنة استحوذت عليه وقادته الى اقتراف جريمته النكراء بعد ١٤ سنة.

وفي فترة استراحة قصيرة وجه آرثر الى شقيقه راي السؤال الآتي: "هل فرغت من مد مواسير الماء في حديقتي الخلفية؟ وماذا تخبرني عن المزرعة؟"

ولما جاء دور لينارد دملر للادلاء بشهادته تفوه بكلام غريب. فبعد قوله مراراً انه كان في مزرعة آل كرو يوم الاربعاء في ١٧ يونيو (حزيران)، عاد ليصحح التاريخ بحيث بات السادس عشر. وحول تعرفه على جثة صهره قال: "الواقع أني لم أعرفه من ملابسه، بل من حذائه المطاط الطويل."

وتجدر الاشارة الى أن جثة هارفي كرو أخرجت من غير حذاء، بل بقي في قدميه جوربان.

والغريب في الامر ان تلك التناقضات لم تعنِ شيئاً لرجال الشرطة وهيئة المحكمة. الا أن غلاف القذيفة بدا برهاناً قاطعاً لالصاق التهمة بالمزارع الشاب.

أيعقل إذاً أن يكون غلاف القذيفة أقحم في حوض الزهر الذي استخرج منه؟

في جوابه عن هذا السؤال قال المحقق مايكل تشارلز إن الفكرة لم تطرأ على ذهنه لدى عثوره على الغلاف. غير أنها طرأت لاحقاً.

وبعد هذه الشهادة بدا كل شيء ثانوياً. وهي كانت كافية لاحالة آرثر توماس على المحاكمة.

وصادف خلال انعقاد المحكمة البدائية أن جورج ماغواير رئيس بلدية تواكاو، وهي بلدة صغيرة على ضفة النهر المقابلة لبلدة بوكيكاوا، زار محل صائغ برفقة زوجته ايلا في قرية بوكيكوهي القريبة. وراح الثلاثة يتحدثون حول الجريمة. وكان على طاولة الصائغ مجلة محلية مصورة نشرت رسم آرثر وفيفيان توماس في الحفلة الراقصة مساء ٢٤ اكتوبر (تشرين الاول). وطرح الزوجان، فضولا، السؤال الآتي على صاحب المحل: "اتعرف آرثر توماس؟" فأجاب الصائغ: "كلا، لم أبصره البتة." ولكن لم يمضِ وقت طويل حتى قصد ذلك الرجل دائرة الشرطة وأدلى بشهادة مناقضة لما قاله لرئيس البلدية وزوجته.

المحاكمة

بدأت محاكمة آرثر توماس في محكمة اوكلاند العليا يوم الخامس عشر من فبراير (شباط) ١٩٧١ الشديد الحرارة والرطوبة. وتجمع أهالي بوكيكاوا من جديد في قاعة المحكمة. إلا أن انقساماً بيناً ظهر في صفوفهم هذه المرة. فالمزارعون الذين يقطنون جنوب التلة حيث يعيش آل كرو ودملر وآر نزعوا الى تصديق الاتهام. أما الذين يقطنون الشمال والذين يعرفون آرثر توماس فلم يراودهم شك في براءته. وتعجبوا كثيراً لدى ملاحظتهم أن القاضي في الأيام الرطبة اللاحقة أخذ يميل الى جانب الاتهام.

ولكن ما الدليل ضد آرثر؟

أين بقع الدم؟ أين بصمات

الأصابع؟ أين خصل الشعر ـ شعره هو أو شعر الهررة التي تربيها فيفيان؟ أضف الى ذلك أن أحداً لم يشاهده أو يسمع صوته خارجاً ليلة الجريمة، علماً أن لسيارته أعظم هدير في الجيرة وان محركها يوقظ النائمين أينما مرت. وفي تلك الليلة كان العديد من أهل القرية عائدين من لقاء في دار البلدية.

إلا أن البندقية كانت هناك، وهي خير دليل. لكن حقيقة الأمر أن بنادق اخرى في الجيرة كان ممكناً كذلك أن تطلق القذائف القاتلة أن أكمل التفتيش. وهناك أيضاً الاسلاك التي لفت بها الجثتان والتي تحاكي تلك التي وجدت في مزرعة آرثر وإن لم تطابقها تماماً. كما وجدت القطعة المعدنية من القطيرة وهي، أو ما يشابهها، كانت يوماً متصلة بقطيرة والد آرثر وإن اختفى أثرها منذ ١٩٦٥. لكن تلك القطعة لم تكن متصلة بجثة هارفي، بل وجدت تحتها في قاع النهر.

ولكن أين هي الشواهد التي لا تُرد في هذا كله؟ نعم، هناك غلاف القذيفة الذي يطابق بندقية آرثر، بغض النظر عن احتوائها التراب الجاف وامتناع الصدأ عنها بعد انقضاء أشهر على الحادث. لكنها كانت هناك، وهي وجدت في مزرعة آل كرو.

ولكن ما الدافع الى الجريمة؟

الحسد. انه الحسد على البحبوحة المادية. وهناك أيضاً "عاطفة" آرثر نحو جانيت، كما جاء في شهادة تلك المرأة المبنية على ملاحظة تعود الى العام ١٩٥٧ أو ١٩٥٦. ولم تعر هيئة المحكمة اهتماماً شهادات الكثيرين الذين قالوا ان آرثر لم يرتد الحفلات الراقصة آنذاك لجهله الرقص، ولا لشهادات عارفي جانيت الذين قالوا انهم يجهلون كل شيء عن تلك "العاطفة". وأقر آرثر نفسه بأنه حاول خطب ود جانيت عام ١٩٦٢، وقدم اليها هدية أو اثنتين، كما احتفظ برسالة كتبتها إليه من لندن.

أما عدة تصفيف الشعر التي أهداها يوماً الى جانيت، فقد اعترف آرثر نفسه أمام أحد المحققين بأنها "لا تزال في ورقتها على حد علمي." فكيف علم ذلك لو لم يلمحها في منزلها ليلة اقتحمه، بعد قتل زوجها، ليضربها ثم يقتلها؟

وتابع محامي الاتهام قوله ان عاملين سيطرا على آرثر قبل الجريمة: عاطفته تجاه جانيت وعدم ازدهار عمله. وأقنع نفسه بأنه لو تزوج جانيت لكان في مكان هارفي، مزارعاً غنياً. وذلك حداه على التخلص منهما معاً وطرح جثتيهما في النهر.

ولكن من ذا الذي أطعم الطفلة؟

لا شك في ان فيفيان توماس تولت ذلك، وهي المرأة الحانية و"المخلصة لزوجها والقوية الارادة"، وقد شاءت تخفيف حدة المأساة. ولم تعر هيئة المحكمة اهتماماً كون العامل الزراعي الذي قال انه شاهد امرأة خارج المنزل لم يتعرف على فيفيان توماس حين رآها لاحقاً.

وتمت محاكمة غير رسمية داخل المحاكمة. فقد وجه الدفاع سؤاله الى لينارد دملر حول أوضاعه المالية

وعلاقته مع ابنته وزوجها. وأقر دملر بأن أصابع الشك وجهت إليه بادىء الأمر. وسئل عن مصير البندقية التي كان يملكها، وهي من عيار ٢٢،٠ وعن ذخيرتها، فلم يستطع جواباً. وقال انه لا يعرف شيئاً عن قطعة سلاح فقدت من منزل آل كرو. كما قال انه اعتاد زيارة ابنته دورياً، لكنه لم يذهب البتة الى منزلها بين ١٧و٢٢ يونيو (حزيران).

وبرز شاهد غير متوقع في قاعة المحكمة وهو الصائغ وليم ايغلتون. قال ان رجلا في قميص داخلي أسود دخل محله في بوكيكوهي بعد اسبوع من حدوث الجريمة، وفي يده ساعة ذهب مغطاة بالدم واللعاب، شاء بيعها. وأضاف الصائغ أنه تعرف على الرجل نفسه في صورة شاهدها لاحقاً في مجلة، وان الرجل ما هو إلا آرثر توماس (★). والواقع أن أحداً لم يشاهد ساعة من ذلك القبيل في حوزة آرثر توماس أو هارفي كرو. وعلى رغم أن الصائغ لم يحتفظ بأوراق تثبت عملية شرائه الساعة، إلا أن شهادته هزت المحكمة.

كما ان الشهادة عينها هزت رئيس بلدية تواكاو وزوجته اللذين توجها الى اوكلاند وطلبا مقابلة المفتش بروس هاتون في أحد مكاتب المحكمة. وهناك قالا له: "إن شهادة الصائغ لا يمكن أن تقوم لها قائمة. فهو أخبرنا في ديسمبر (كانون الأول) أنه لم يشاهد آرثر توماس في حياته قط."

وكان جواب هاتون على حد قول جورج ماغواير وزوجته ايلا: "هذا أمر لا يهمني." إلا أن المفتش ينكر أن يكون أجاب هكذا.

وما كان من رئيس البلدية وزوجته إلا أن غادرا المكتب هلعين لما يحدث.

وارتقى آرثر وفيفيان توماس منصة الشهود يصفا ما فعلاه في السابع عشر من يونيو (حزيران). فقد باشرا النهار بزيارة عيادة طبيب الأسنان، ثم أسرعا عائدين للاعتناء ببقرة مريضة. وتناولا العشاء مع بيتر ابن عم آرثر. ثم سهرا أمام التلفزيون قبل أن يأويا الى السرير. وجاءت شهادات الجيران لتؤكد رواية البقرة المريضة، كذلك عدم سماع سيارة آرثر تهدر على الطريق تلك الليلة.

ووقف وكيل الاتهام من غير أي دليل ثابت يتلو قراره الأخير أمام لجنة المحلفين: "هذا غلاف القذيفة التي صرعت هارفي كرو. وهذه هي البندقية التي أطلقت منها القذيفة."

أما وكيل الدفاع فطرح إمكان الجريمة الانتحارية، مما يعني أن هارفي قتل زوجته ثم أطلق النار على نفسه، وان شخصاً ثالثاً رمى الجثتين لحماية الطفلة روشيل، ثم أطعمها واعتنى بها. وأشار بول تيم الى الوضع الزوجي الغريب الذي عاشه آل كرو والى أن الخلافات المالية من شأنها أن تؤدي الى أسوأ العواقب، مستغرباً ألا يكون غلاف القذيفة ظهر

(★) في ١٢ يناير (كانون الثاني) ١٩٧١، بعد ستة اشهر من وقوع الجريمة وقبل شهر من المحاكمة، اصلح ايغلتون ساعة ذهبية لرجل يدعى جون فيشر، وكانت الساعة ملوثة بالدم واللعاب، فقد كان فيشر جزاراً. واعاد ايغلتون الساعة الى صاحبها.

إلا بعد أربعة أشهر من بدء التفتيش.

لكن ذلك كله لم يبدل قرار القاضي. وهكذا وقف آرثر توماس في قفص الاتهام، في الثاني من مارس (آذار)، يستمع الى قرار المحكمة الأخير وقد أصابه الدوار وجف حلقه بعد إلصاق الجريمة به وصدور حكم بسجنه مدى الحياة.

الضغط الشعبي

اقتناعاً منهم ببراءة المتهم لم يستطع الأصدقاء والجيران من آل موراي وسميث وفيزي وباين الوقوف مكتوفين. واولئك جماعة لم تشترك في أي تظاهرة قبل ذلك الحين أو تشك في نية السلطة وقدرتها. غير أنهم استهلوا حملة لجمع التواقيع ضد القرار ولتجميع شواهد من شأنها إثبات براءة آرثر، على رغم ما ينطوي عليه ذلك من تعريض أنفسهم للملاحقة ووضع سمعة أولادهم موضع الشك. إلا أنهم استطاعوا تأليب مئات المواطنين النيوزيلنديين، وفي ما بعد الآلاف، من مزارعين وعمال وأصحاب حوانيت وحتى من رجال شرطة متقاعدين للتظاهر معهم. وبعد أسابيع ملأت عرائض الاحتجاج الشوارع.

وأخفقت محاولتهم في دعوة المحكمة العليا الى الالتئام من جديد. لكنهم ما لبثوا أن جمعوا ٢٢ ألف توقيع على عريضة تطالب بإعادة المحاكمة. وفي سجن باريموريمو، حيث كان توماس يمضي فترة عقوبته، وقع ١٥٠ سجيناً عريضة تقول ان ذلك الرجل لا مكان له بينهم.

وعلق أحد الكتاب الصحافيين بالآتي: "صحيح أن محاكمة آرثر توماس انتهت، لكنها خلفت محاكمة جديدة، المتهم فيها هو النظام."

وكان غريم هيوسون الذي اعتنى بمزرعة آل كرو منذ حصول الجريمة من المؤمنين بالنظام، وحتى من القائلين بأن المجرم يستحق الشنق فوراً عوضاً عن السجن المؤبد. لكنه ما لبث أن شاهد كتيباً يتحدث بانفعال عن الجريمة ويحوي رسماً أزعج هيوسون كثيراً، وهو يظهر الحوض الذي وجد فيه غلاف القذيفة في ٢٧ أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٠.

وتذكر هيوسون أنه ساعد رجال الشرطة في نقب ذلك الحوض نفسه ونخل ترابه في شهر اغسطس (آب) فور العثور على جثة جانيت. إلا أن شيئاً لم يظهر آنذاك. وحداه ضميره على الاتصال باولئك الذين يدافعون عن آرثر توماس.

وطلب النائب مارتن فينلي، وهو محام، أن يرى وثائق المحاكمة كاملة، إذ لم يستطع تصديق نظرية الشرطة القائلة بأن هارفي كرو قتل عبر النافذة. فالمنطق يشير الى أن إطلاق النار حصل داخل المنزل. وهو لم يعرف تفسيراً البتة لظهور غلاف القذيفة في ذلك الحوض على بعد خمسة أمتار من النافذة.

ووجدت فيفيان توماس صعوبة في قيادة الحملة الشعبية وتعريض نفسها للأضواء، وهي السكرتيرة البريطانية الخجولة التي هاجرت الى نيوزيلندة وتزوجت مزارعاً جيد الطبع لم تلبث أن وجدته متهماً بارتكاب جريمة.

وبات لزاماً عليها أن تتعلم الكلام في لقاءات عمومية وتجيب عن أسئلة المراسلين الصحافيين المبطنة وتظهر أمام عدسة التلفزيون، فضلا عن تلقيها مخابرات هاتفية تقول: "يجب أن تسجني أنت أيضاً أيتها..." أضف الى هذا كله مسؤوليتها عن المزرعة، بمعاونة عائلة آرثر طبعاً.

وبذلت فيفيان جهدها لابقاء جذوة الأمل في نفس زوجها. وهو لم يفقد اهتمامه بالمزرعة. وكان يتألم كلما سمع أن الأبقار شردت ويصرخ في وجه زوجته. وإذ باتت على شفير الانهيار ولم يبقَ العلاج الطبي مجدياً في حالها، نصحت بنسيان شؤون المزرعة كلياً. وفي مايو (أيار) ١٩٧٢ سافرت في رحلة قصيرة الى بريطانيا.

وفي تلك الاثناء أدلى بعضهم بشهادات خطية ممهورة بإمضاءاتهم. ومن اولئك غريم هيوسون وجورج وإيلا ماغواير. كما أرسل تقرير من خبراء وزارة الداخلية البريطانية يقول انهم لم يستطيعوا تثبيت علاقة بندقية آرثر توماس بالجريمة، وان في حوزة الوزارة ١٥ بندقية من عيار ٠،٢٢ يمكن وضع الشك في أي منها. وعلى رغم قوة تلك الشهادات لم تتورع محكمة الاستئناف النيوزيلندية عن رفض مبدأ إعادة المحاكمة غير آبهة بالتظاهرات الشعبية.

والواقع أن إعادة المحاكمة تعني تعريض سمعة اولئك الذين أصدروا الاتهام للخطر، كذلك سمعة النظام السياسي برمته. لذلك وجد اولو الأمر أن تجريم آرثر توماس يجب تثبيته بأي ثمن.

شهادات جديدة

عين موعد بدء المحاكمة الجديدة في السابع والعشرين من مارس (آذار) ١٩٧٣. وفي حين ان مراجعة قائمة المحلفين عملية اعتيادية، إلا أن دائرة الشرطة أولتها عناية استثنائية قبل أسابيع ثلاثة من موعد الجلسة. وزار المحققون جميع أعضاء الهيئة متطرقين الى قضية آرثر توماس.

من جهة اخرى لم يحصل جانب الدفاع على تلك القائمة إلا قبل يوم واحد من موعد الجلسة. والقانون لا يجيز الطعن إلا في ستة أسماء من أصل تسعين اسماً. أما جانب الاتهام فقد أتيح له رفض أي اسم أبدى صاحبه تعاطفاً مع قضية توماس. وكانت النتيجة هيئة محلفين من اختيار الشرطة، في محاكمة وضعت فيها سمعة الشرطة نفسها موضع اتهام. وهذا يعني كسب الدعوى سلفاً.

وجعل المفتش بروس هاتون مقراً له خارج مبنى المحكمة لكي يتسنى له الاشراف على كل شاردة وواردة. ووضع رجاله على اهبة الاستعداد للذهاب الى موقع الجريمة وكل ما يمت إليها بصلة من أجل الحصول على دلائل جديدة قد تدعو الحاجة إليها. أما آرثر توماس فلم يكن من يعمل له سوى المحاميين الأخوين كيفين وجيرالد ريان. وهما أعلنا لاحقاً أن خط الهاتف في مكتبهما عطل وأن

محادثاتهما الخاصة وقعت كلها في أيدي المحققين في ذلك المركز الذي أقاموه خارج المحكمة.

وأظهر قرار الاتهام تعديلا بيناً، اذ أنكر أن شخصاً غامضاً اطعم الطفلة روشيل. وقد احتفظ المحققون بتقرير من طبيب أطفال يؤكد انها أطعمت من غير أن يذكروا ذلك التقرير أمام محامي الدفاع. وغاية ذلك التحول واضحة، وهي تجنب الامور التي لا يمكن برهانها، ومنها أن فيفيان توماس اعتنت بالطفلة.

ولم يكف شهود الاتهام عن تبديل شهاداتهم. فها هو لينارد دملر يدعي أنه مد يد العون "مرتين أو ثلاثاً" للتفتيش عن الجثتين. وذلك مناقض حتى للشواهد التي يملكها رجال الشرطة. كما أنكر دملر أنه تقاضى أي مبلغ من المال في مقابل نقل نصف ملكية مزرعته الى اسم زوجته عام ١٩٦٤. الا أن حجة النقل القانونية ما زالت موجودة، وهي تشهد على المبلغ الذي تسلمه دملر وهو ٩٥٤٠ دولاراً.

وها هو أيضاً يقف في منصة الشهود ليقول ان ابنته جانيت قصدت عام ١٩٦٣ مدينة وانغانوي التي تبعد ٥٢٥ كيلومتراً جنوباً للعيش فيها هرباً



الامساك بعم توماس لتهدئته وسط موجة الاستياء والغضب التي عمت الجمهور بعد اعادة تجريم توماس.

من ملاحقات آرثر توماس. ولكن لماذا لم يتذكر دملر هذه الحقيقة المهمة في محاكمة ١٩٧١؟ السبب، كما قال، انه لم يفكر فيها.

والواقع أن ذلك الاعتراف، وان ناقض ما قيل سابقاً، كان له وزنه آتياً من والد الضحية.

واتضح هذه المرة أن أحد ضباط الشرطة أخبر آرثر توماس في ١٢ اغسطس (آب) ١٩٧٠ أن هديته الى جانيت ما زالت ضمن غلافها. واذ ذاك بدت ملاحظة توماس أمام ضابط آخر وفي وقت لاحق غير ذات خطر، وهي اقراره بأنه يعرف أن الهدية ما زالت في غلافها. فهو يعرف ذلك لأن أحدهم أخبره. والمؤسف أن القاضي عول كثيراً على ذلك التعليق في اصدار حكمه.

وظهرت أدلة جديدة تدحض علاقة الاسلاك بتلك التي وجدت في مزرعة توماس. وتبين أن الشبه بين أسلاك توماس والاسلاك التي لفت بها الجثتان لا يتجاوز قولنا ان ثمة "تشابهاً" في الطول بين رجل طوله ١٥٠ سنتيمتراً وآخر طوله ١٨٠ سنتيمتراً.

أما آرثر توماس الجالس في قفص الاتهام فلم يستطع تحمل المزيد من تلك المساخر. وهو أمضى الاسبوعين الاخيرين في زنزانة خالية الا من مصباح قوي دائم الاشتعال، مما حرمه النوم وأضنى جسده ووجهه. وصاح في وجه هاتون: "كلا... هذه أكاذيب." وما كاد يقول هذا حتى انهار. وفي الوقت نفسه التأمت هيئة المحكمة.

على بعد ٥٠٠ كيلومتر جنوب اوكلاند كان يقوم محل لبيع الأسلحة يملكه محقق سابق في الشرطة اسمه جاك ريتشي لم تقنعه الرسوم التي نشرت للقذيفة وغلافها اثر المحاكمة الاولى كبرهان على صحة التهمة. فقد قيل آنذاك ان تلك القذائف التي تحمل الرقم ٨ قديمة الصنع وان إنتاجها اوقف. لكن ريتشي وآخرين وجدوا أنها لا تزال متداولة، وهي على الأقل تباع في محل ريتشي نفسه.

وامتحن ريتشي بعض النماذج التي في حوزته. ودلته عينه الخبيرة على فروق في الأحرف التي تحمل اسم الصانع والتي نقشت في قاعدة القذائف من عيار ٠٫٢٢. وإذ وجد وجد أن هناك أنواعاً مختلفة من القذائف ذات الحجم نفسه، راح يقارن في ما بينها. وتبين له أن أحد الانواع لا يحمل الرقم ٨ على غلافه، وان ذلك النوع عينه هو الذي عثر عليه في حوض الزهر خارج منزل آل كرو. وهذا يعني أن غلاف القذيفة الذي استخدم كذريعة لا يقدم أي برهان على مقتل هارفي وجانيت كرو.

وجهز جاك ريتشي بعض نماذج من أغلفة القذائف من عيار ٠٫٢٢ وارسلها في البريد الى لجنة الدفاع عن آرثر توماس التي تلقت نماذج كثيرة من أنصار آخرين في انحاء البلاد.

جلبة

في قاعة المحكمة كان بات بوث مساعد رئيس تحرير "اوكلاند ستار"، أوسع صحف نيوزيلندة المسائية انتشاراً، جالساً على مقعد مخصص

بالصحافة. وهو خبير في محاكمات المجرمين، إذ شاهد العديد من الذين حكموا بالاعدام يوم كان هذا الحكم قائماً. إلا أنه لم يشهد اتهاماً أكثر تجنياً من ذلك الاتهام. واعترف بانه اضطر الى حرف عينيه لدى استجواب آرثر توماس الذي، وإن تلعثم أو ارتبك، بدا صادقاً طوال الوقت.

ولكي يرد التهمة التي رماه بها والد جانيت، وهي أن ملاحقته لها أرغمتها على الذهاب الى وانغانوي عام ١٩٦٣، قال توماس: "اني أقول الحقيقة الخالصة يا سيدي. ولا شك لدي في ما اقوله، إذ اني أتكلم عن نفسي بالذات."

وإذ ذاك سأله المحقق: "وهل تعرف أحداً يمكنه أن يحسد هارفي كرو أكثر منك؟"

وعجب الصحافي بات بوث من جانب الدفاع كيف لم يتصد لذلك السؤال ويرفضه لخلوه من المنطق.

غير أن آرثر توماس، الذي أربكه السؤال وأدرك أنه يستطيع التخلص من الجواب، قال أخيراً: "كلا، يا سيدي، لا أعرف."

واستخدم المدعي العام ذلك الجواب في قراره الأخير، واضعاً إياه على لسان توماس كالآتي: "لا أحد في بوكيكاوا لديه دافع أقوى من دافعي على حسد هارفي كرو." وعد ذلك دليلا قاطعاً ضد توماس، في حين انه لا يشكل دليلا من أي نوع.

وبدأ شهود الدفاع يتقدمون واحداً واحداً.

واعتلت فيفيان توماس التي عادت من بريطانيا المنصة لتؤكد من جديد أن زوجها كان يعتني ببقرة مريضة في ١٧ يونيو (حزيران). وأكد طبيب الاسنان أنهما زارا عيادته ذلك النهار وانهما رفضا القهوة بحجة الاسراع لمعالجة تلك البقرة. وشهد بروس روديك الذي قال انه شاهد امرأة غامضة خارج منزل آل كرو في ١٩ يونيو (حزيران)، ان تلك المرأة ليست فيفيان توماس أو أي شخص آخر من عائلة توماس. كما شهد محبو السيارات القديمة أنهم نقبوا مستودع المزرعة قبل أشهر ثلاثة من وقوع الجريمة من غير أن يعثروا على قطعة معدنية كالتي وجدت في حوض النهر تحت جثة هارفي كرو، وانهم لو وجدوا قطعة كتلك لأخذوها حالا. وقال ثلاثة شهود إنهم اعتادوا أن يروا الشاب المتخلف ميكي آريمشي ليلا وفي يده بندقية. وقال آخرون انهم رأوه يعامل الحيوانات بقسوة، اذ رفس مرة كلباً هائجاً حتى الموت وخنق مرة اخرى حملا جامحاً.

ولكن كما حصل المرة السابقة توجهت أفكار هيئة المحكمة هذه المرة أيضاً الى غلاف القذيفة. وأصر هيوسون وكيل مزرعة آل كرو على انه ساعد رجال الشرطة في تنقيب ذلك الحوض نفسه الذي قالوا انهم وجدوا الغلاف فيه، من غير أن يجد شيئاً. إلا أن المحققين أنكروا أن يكون هيوسون فعل ذلك.

وفي وقت لاحق تولى الدفاع فحص النماذج التي أرسلها إليه ريتشي، محيلا أغلفة القذائف على جيم سبروت الذي وظفه كخبير كيميائي. وراح هذا ينظر بدهشة الى الانواع المختلفة

للقذائف ذات الحجم الواحد، ولكن لم يبق وقت للبرهان عن صحة نظرية ريتشي القائلة بأن الغلاف الذي وجد في حوض الزهر في مزرعة آل كرو ليس من النوع الحامل الرقم ٨ والذي قتل الضحيتين.

وطلب جانب الاتهام أن يجتمع قليلا من الوقت. وفي ذلك الاجتماع تم الاتصال هاتفياً بصانعي تلك القذائف في مدينة ملبورن الاوسترالية. وبناء على الجواب الذي تلقته اللجنة من أحد موظفي المصنع، وهو لا يملك معلومات موثوقاً بها، عاد أعضاؤها ليؤكدوا أن ثمة نوعاً واحداً من تلك القذائف. وجاء ذلك التأكيد على لسان الخبير الكيميائي المعتمد لدى الحكومة. ولكن أنى لهيئة المحلفين أن تحل مسألة تقنية من ذلك القبيل؟

وسرعان ما وقف الناطق باسم الاتهام لالقاء كلمته الأخيرة في المحكمة. وعلى رغم نبرته الخطابية فهو لم يقدم أي دليل حسي على كون آرثر توماس صاحب تلك الجريمة. بل ان المتكلم خرج على جميع الأدلة القائمة ليشير الى احتمال تعرض جانيت كرو للاغتصاب في ساعات حياتها الاخيرة على يد آرثر توماس.

وصعق الدفاع بذلك الخطاب الرنان. ووجد في رد تلك التهمة تأكيداً على أهميتها. لذلك ارتأى المحامي كيفين ريان عدم التطرق الى تلك النقطة في دفاعه.

ولكن ما أن نهض ريان ليلقي كلمته حتى قرأ في أعين المحلفين أنهم أصدروا حكمهم سلفاً وانه أمام قضية خاسرة. وذكر على مسامعهم الآتي: "إذ يعسر على فرد أن يحارب الدولة، احذركم من أن تدعوا شبح آرثر توماس يقرع أبوابكم."

ولم ينقض وقت طويل حتى أصدرت اللجنة قرارها بتجريم آرثر توماس. وارتفعت الجلبة في قاعة المحكمة وخارجها. وراحت النسوة يبكين وينتحبن. واغتاظ الرجال وقد سال دمعهم بلا خجل أو وجل. واختلط العويل الذي وصفه أحد الصحافيين بأنه يشبه "انتحاب النظارة في أعقاب كارثة منجم." ونهضت والدة آرثر توماس وقالت وهي تبكي: "لا، ليس من عدالة في هذا المكان." وهرعت فيفيان توماس نحو المحلفين وصاحت فيهم: "أي نوع من الناس أنتم؟ ألم تعرفوا أن هذا الانسان بريء، وان حكمكم عليه إنما هو الجريمة الفعلية؟"

وسمح لها بالبقاء قليلا مع زوجها في زنزانة تحت قاعة المحكمة قبل أن تحمله سيارة شرطة الى السجن. ولم ينفك آرثر عن القول بينما هو وزوجته يتعانقان ويبكيان: "إني لا أفهم شيئاً! ترى ماذا حدث، وما الذي يحدث الآن؟"

وحاول محاميه لاحقاً أن يعزيه قائلا: "انك تكاد تنهي نصف فترة عقوبتك يا آرثر."

فأجاب بمرارة: إنها نصف عقوبة شخص آخر."

شك منطقي

جاء قرار المحكمة خيبة أمل كبيرة بالنسبة الى آلاف النيوزيلنديين الذين

تتبعوا القضية بحماسة والذين أصروا بعد اصدار الحكم الجديد على ايصال صوتهم· وفي مدينة نابيير الصغيرة اشترك ١٠٠((مواطن في مسيرة احتجاج وسط أحوال جوية رديئة· واجتمع نحو ألفي محتج في مركز بلدية اوكلاند، فيما بقي المئات خارجاً لأن القاعة لم تستوعبهم· وأجرت جريدة تصدر أيام الآحاد استفتاء بين قرائها حول الأمر، فتبين أن ٩٨،٤ في المئة مقتنعون ببراءة آرثر توماس·

وارتأى الصحافي بات بوث أن الحقيقة يجب اعلانها خارج قاعة المحكمة· وشرع يعمل بصمت وصبر على جمع الأدلة حول القضية، وقابل أصدقاء للمغدورة جانيت كرو وبحث عن براهين جديدة ووثائق مفقودة وشواهد حجبت سابقاً عن العموم· ونشر مجموعة مقالات في "اوكلاند ستار" جمعها لاحقاً في كتاب بعنوان "محاكمة أم مكمن؟" وهي تشير الى المغالطات والتناقضات التي سقطت فيها المحكمة· وأعلن شكه في قرار الشرطة الظني حول الجريمة· وقال انه لا يعقل أن يفتح شباك المطبخ في ليلة ماطرة وباردة كتلك التي حصلت فيها المقتلة· الا أن تلك النافذة كان لا بد منها لانجاح فرضية الشرطة وادخال القذيفة المزعومة عبرها·

وانضم الى الصحافي بوث في مسعاه الى تبرئة ساحة آرثر توماس الخبير الكيميائي جيم سبروت الذي حاول، في اللحظة الاخيرة، اقناع هيئة المحكمة بأن الغلاف الذي وجد في حوض الزهر لم يحو قط القذيفة القاتلة·

ومنذ ذلك الحين لم ينفك سبروت عن فحص الوف القذائف من عيار ٢٢،٠ وبمساعدة المصنع الذي ينتج تلك القذائف في ملبورن تمكن من البرهان على ان ثمة أربعة أنواع من تلك القذائف وان الاغلفة التي تحمل الرقم ٨ بطل انتاجها منذ ١٩٦٣· أما الغلاف الذي وجد في حديقة آل كرو فلم يباشر المصنع انتاجه قبل ١٩٦٤·

وتولى مارتن فينلي فحص تلك الادعاءات بعدما اصبح مدعياً عاماً ووزيراً للعدل في نيوزيلندة· ودعا الى اعادة النظر في غلاف القذيفة الذي خدم دليلا للاتهام· ولكن من الغريب ان ذلك الغلاف اختفى· والمعلوم انه نظف بعد المحاكمة الاولى لعرضه في متحف الشرطة في ويلنغتون· ومر ذلك العرض من غير اكتراث· ولم يبق منه سوى الرسوم·

واذ ذاك أعلن المدعي العام "الأسى والأسف العميق حيال ذلك" قائلا انه لا يستطيع أن يفعل شيئاً·

وفي تلك الاثناء كان آرثر توماس، السجين الاشهر في تاريخ بلاده، يجلس في زنزانته وسط الحراسة المشددة بينما زوجته فيفيان تعيش في شقتها في المدينة· ومع مرور الزمن شقت فيفيان لنفسها طريقاً خاصة من غير أن تألو جهداً في تكريس جهدها ووقتها الخاص للجنة اوكلاند المخصصة بالدفاع عن قضية آرثر والسعي الى اطلاقه· الا أن طلاق الزوجين تم عام ١٩٧٨ وتزوجت فيفيان رجلا آخر·

وفي يناير (كانون الثاني) ١٩٧٥ احيلت قضية توماس من جديد على محكمة الاستئناف في نيوزيلندة بعد ظهور الأدلة الجديدة حول أغلفة القذائف. وكان ثلاثة من القضاة الخمسة الذين رأسوا تلك الجلسة على علاقة بالمحاكمة السابقة.

وارتأوا، "في حدود المحتمل"، أن تكون فرضية بوث - سبروت صحيحة. الا أنهم في الوقت نفسه وجدوا من "المحتمل والمعقول" أيضاً أن يكون غلاف القذيفة الذي عثر عليه هو الذي احتوى على الطلقة الجانية.

ورأى المدعي العام فينلي شكاً منطقياً في الشواهد الجديدة. لكنه شك ظل بلا جواب. وفي وقت لاحق من ذلك العام، بعد انتهاء مدة وظيفته، وجد فينلي نفسه في حل من ارتباطه بالسلطة القانونية. لذلك تحدى قرار محكمة الاستئناف قائلا ان البرهان على الجريمة وقف على الاتهام لا على الدفاع.

وفي العام ١٩٧٦ كان الكيميائي المتعقل جيم سبروث امتحن ٢٥ ألف قذيفة من غير أن يجد أي علاقة حتمية بين الغلاف الذي عثر عليه في الحوض والقذيفة التي تحمل قاعدتها الرقم ٨. وفي حين عرف المسؤولون في المصنع في ملبون ذلك الأمر، فان عمل سبروث الشاق جاء برهاناً قاطعاً على ذلك. وهكذا، بفضل نشاط سبروت وبوث، باتت شواهد الاتهام ضد آرثر توماس في حاجة الى برهان.

وفي تلك الاثناء كان المفتش بروس هاتون استقال من الشرطة واتخذ الزراعة مهنة، على رغم الترقية التي نالها بناء على "الاجتهاد والحماسة" اللذين بذلهما في قضية آل كرو. أما لينارد دملر فتزوج ثانية واعتزل الزراعة وهجر بوكيكاوا. ومن جهته بات بروس روديك لا ينام الا وقد وضع سلاحاً تحت سريره بعدما هيمن على أفكاره طيف تلك المرأة الغامضة خارج منزل آل كرو. وهو كذلك غادر المقاطعة ليختفي عن الانظار في اوستراليا.

وما برح النيوزيلنديون في العام ١٩٧٦، بعد مضي ست سنوات على مقتل هارفي وجانيت كرو، يعقدون الاجتماعات وينظمون التظاهرات احتجاجاً على احتجاز آرثر توماس. ولما أرسل بوث وسبروت نسخة عن تقريرهما الى مجلس الوزراء، تبين ان قضية توماس ما زالت تشغل بال الجسم السياسي. وبعد تأجيل القرار مراراً ارتأت الحكومة عام ١٩٧٧ ألا تتخذ أي خطوة حول الامر. وفي وقت لاحق أطرى رئيس الوزراء، روبرت ملدون تحريات بات بوث وأعلن "عدم الاقتناع" بنتائج القضية، لكنه لم يشأ أن يتحدى القرارين الصادرين فيها عن المحكمة.

وفي الوقت نفسه تولت شرطة نيوزيلندة تحقيقاً برأت نفسها فيه من اختلاف الشواهد ومن وقوعها ضحية أخطاء في قضية تجريم آرثر توماس. وكتب بات بوث آنذاك: "انه انتصار القوانين على العدالة... وهل أكثر من هذا يطمح اليه المرء؟"

وشعر بوث بالارهاق بعدما ذهبت جهوده سدى. غير أن الكاتب

البريطاني ديفيد يالوب حل مكانه وراح يجمع الشواهد ويقابل الشهود من جديد. وفي العام ١٩٧٨ صدر كتابه "أبعد من الشك المعقول؟" الذي لقي رواجاً منقطع النظير في نيوزيلندة. وتخللته نبرة انسانية عميقة خلفت العديد من رجال الشرطة والقانون والدولة في حيرة من أمرهم بوضعها سمعتهم موضع الشك.

أما النتيجة التي خرج بها يالوب فهي هذه: "المسألة ليست فقط أن آرثر آلان توماس ليس مذنباً، بل انه بريء الى ابعد من حدود الشك. والواقع أن آرثر توماس لم يقتل هارفي وجانيت كرو."

جرأة خلقية

قبل اسبوعين من صدور كتاب يالوب نقل آرثر توماس الى سجن مفتوح، وهو مزرعة في قلب نيوزيلندة البركاني. ومن خلال كوة في قطيرة السجن التي أقلته الى هناك أمكنه أن يلمح مزرعته وقد أشرق اخضرارها تحت شمس الربيع عبر نهر وايكاتو.

غير أن تلك الرؤية الجميلة غامت لدى وصوله الى سجنه الجديد على بعد ٣٣٠ كيلومتراً جنوباً. لكنه ما زال يشعر بدوار جميل خلفته في نفسه رؤية الارض الطيبة والعشب تحت قدميه في مزرعة السجن الجديد. كما ابتهج لرؤية الاشجار والعصافير والنهر الجبلي الذي يخترق تلك الارض.

وراح المدعي العام السابق فينلي يطالب باطلاق توماس "بهدوء ومن غير ضجة"، كما تعهد رئيس الوزراء ملدون فتح تحقيق جديد في قضية مقتل آل كرو.

وأخذ آرثر توماس يستعيد قوته الجسدية على أثر تعرضه للشمس والهواء بعد تسع سنوات من العزلة. وبدأ ينسى مرارة الماضي بفعل الصداقات التي جسدها مئات الوافدين اليه. وكان الزوار يصلون بالعشرات ويتنزهون معه في مزرعة السجن في ظل قوانين أقل تشدداً من سابقتها. وكانت الرسائل تفده بمعدل ستين رسالة في الشهر. ولم يتورع بعض المسؤولين في السجن عن الاسرار اليه بأنهم مقتنعون ببراءته. كما لم يكف مواطنو نيوزيلندة عن تنظيم الحملات لاعلان براءة توماس. وكان ذلك التأييد العارم حكماً شعبياً رائعاً لا يغض النظر عنه البتة.

وأعجب أصدقاء توماس القدامى من بوكيكاوا بقوة عزمه وارتفاع معنوياته. وقال ديفيد باين لزوجته يولاند: "قبل تسع سنوات كان آرثر شاباً غير مجرب. أما اليوم فهو رجل."

وبدت صلابة آرثر توماس جلية في الحادي والعشرين من مارس (آذار) ١٩٧٩، يوم ظهر أمام لجنة كانت تتوقع الاستماع اليه وهو يدلي بوعد شرف يتعهد فيه عدم مغادرة البلاد بعد اطلاقه المشروط. وكان جميع المراقبين يتوقعون ان يمنح توماس حرية غير مشروطة للتأييد الذي ناله من الامة بأسرها. وكان توماس، البالغ الحادية والاربعين، تحدث أمام أصدقائه عن مشاريعه لدى مغادرة السجن وعن عزمه على العودة الى

مزرعته والاعتناء بها من جديد، من غير أن ينسى زيارة محبيه وشكرهم على كل ما فعلوه من أجله طوال تلك السنوات.

ولكن ما أن أعطي دوره للكلام حتى أذهل الجميع بما قاله وباتخاذه موقفاً لم يسبق له مثيل في تاريخ بلاده الجنائي. فقد أعلن أنه يرفض العفو المشروط ولا يقبل بأقل من الحرية المطلقة.

وقال أمام لجنة العفو وهو يرفض الجلوس الا بعدما امر بذلك: "اني لم أقترف ذنباً كي أنال عفواً مشروطاً. ولا بد من أن تظهر الحقيقة يوماً. وحتى ذلك اليوم، سوف أبقى في السجن."

ونقلت وسائل الاعلام، من اذاعة وتلفزيون وصحف، موقف آرثر توماس الى الامة. وعبر له مسؤولون في السجن وزملاؤه الاسرى عن حسن نيتهم تجاهه. وانهالت عليه برقيات الاعجاب ورسائل التأييد من كل حدب وصوب.

وبالنسبة الى بات بوث وآخرين كان ذلك الموقف خير برهان على ما آمنوا به طويلا: انهم امام رجل على مقدار عظيم من الشجاعة والجرأة الخلقية. ولم تمض تسعة اشهر حتى اثمر موقفه الحازم وانجلت الحقيقة واخذت العدالة مجراها. ففي ١٧ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٧٩ منح آرثر توماس عفواً ملكياً لعدم توافر الادلة القاطعة على ضلوعه بالجريمة.

وفي يوم مشمس من آخر الصيف، بعد مرور قرابة ثلاثة آلاف يوم على سجن آرثر توماس، قدت سيارتي جنوباً الى سجنه، وذلك في نهاية الاسبوع التي تلت رفضه العفو المشروط. ولم تكن تلك زيارتي الاولى له. ففي اعدادي هذه القصة أمضيت مع توماس ما يزيد على عشر ساعات ونحن نتحدث في شؤون تخص حياته والجريمة التي الصقت به. ولم تعد براءته موضع اهتمامي، اذ باتت حقيقة لا تقبل الجدل بالنسبة الي.

وذهب آرثر ليلعب كرة المضرب قليلا ثم عاد. وكانت زوجتي مدت الطعام الذي أعدته على طاولة تحت شجرة، وبادرته بسؤالي: "حسناً يا آرثر. أخبرني، لماذا رفضت مبدأ العفو؟".

وتردد قليلا ثم قال وهو يبتسم: "بعد تفكير في الأمر تبين لي أن الحرية والعدالة تسيران جنباً الى جنب. انهما توأمان. وأنا أرفض الحرية من غير عدالة، وأريد الاثنتين معاً."

وفي طريق عودتنا انا وزوجتي الى اوكلاند عرجنا على بوكيكاوا التي ما زالت آثار جريمة ١٧ يونيو (حزيران) ١٩٧٠ بادية في طرقها. فكم من صداقة دامت ثلاثين سنة قضت عليها مواقف أصحابها المختلفة من تلك القضية. وكم من عائلة تفرق شملها للسبب نفسه. ويقول بعضهم ان جراح بوكيكاوا لن تبرأ قبل انقضاء جيل كامل على الجريمة وذيولها.

ودنوت من أرض توماس بعد اجتيازي التلة، ثم من مزرعة آل كرو التي انتقلت الى مالك آخر. واذا بالاشجار ارتفعت حول المنزل الذي كان يقف عارياً وسط تلك المزرعة،

واذا بالحديقة التي لعبت الطفلة روشيل كرو يوماً فوق تربتها الجرداء ينبت فيها الزهر. وها هي تلك الفتاة في الخامسة عشرة من عمرها تعيش مع خالتها بعيداً عن بوكيكاوا.

ويبقى السؤال الملح: من أطعمها خلال تلك الايام الخمسة من العام ١٩٧٠؟ أيكون هو الشخص نفسه الذي اعتنى بالكلاب، وربما بالقطيع أيضاً، في المزرعة؟ ثم أيكون هو القاتل عينه؟

وفيما أوقفت سيارتي على الطريق خارجاً تراءى لي أن ذلك الشخص الغامض لا بد من أن يكون عرف الضحيتين حق المعرفة في حياتهما الشخصية المنعزلة، كما عرف أنه من العسير اكتشاف الطفلة روشيل سريعاً بعد المقتلة. ولا يعقل أن يكون ذلك الشخص يسكن أبعد من مسافة كيلومترين عن منزل آل كرو. فان أحداً وراء تلك المسافة لم يعرف الكثير عنهما. وهذا يقصي آرثر وفيفيان كرو عن المشهد، وهما بعيدان جغرافياً واجتماعياً عن الضحيتين.

وأسلمت سمعي الى الريح الراحلة فوق أعشاب الصيف، فترددت في ذهني تلك الطلقات التي أودت بحياة هارفي وجانيت كرو، كما أودت بسنوات من عمر آرثر توماس.

ورن في رأسي السؤال القديم عينه: "من قتل آل كرو؟"

■ **موريس شادبلوت**

تولت لجنة حكومية برئاسة القاضي المتقاعد روبرت تايلور التحقيق في ظروف توقيف آرثر توماس وتجريمه عام ١٩٨٠. وجاء في تقريرها ان "آرثر توماس اتهم وسجن لان الشرطة لفقت دلائل ضده واخفت معلومات مهمة في الدفاع عنه." وبناء على توصية اللجنة دفعت حكومة نيوزيلندة لآرثر توماس مبلغ ٩٥٠ الف دولار بدل عطل وضرر. واشترى آرثر بالمال مزرعة في مقاطعة وايكاتو حيث يعيش اليوم. كذلك دفعت تعويضات لافراد اسرته ولآخرين ممن طاولتهم القضية.

الصحيفة المذنبة

تسلمت معلمة مدرسة العذر الآتي من والده احدى تلميذاتها: "أرجوك ان تغضي النظر عن تغيب هيام عن صفها البارحة. فقد نسينا أخذ صحيفة الاحد من أمام المنزل. ولما وجدناها صباح الاثنين، ظننا أنه الاحد."

ر.ك.

مكاتب سائبة

قال زائر لمضيفه وقد اعجب بمكاتبه الكبيرة: "كم شخصاً يعمل في هذا المكان؟"

ـ آه! نصفهم تقريباً.

د.ش.

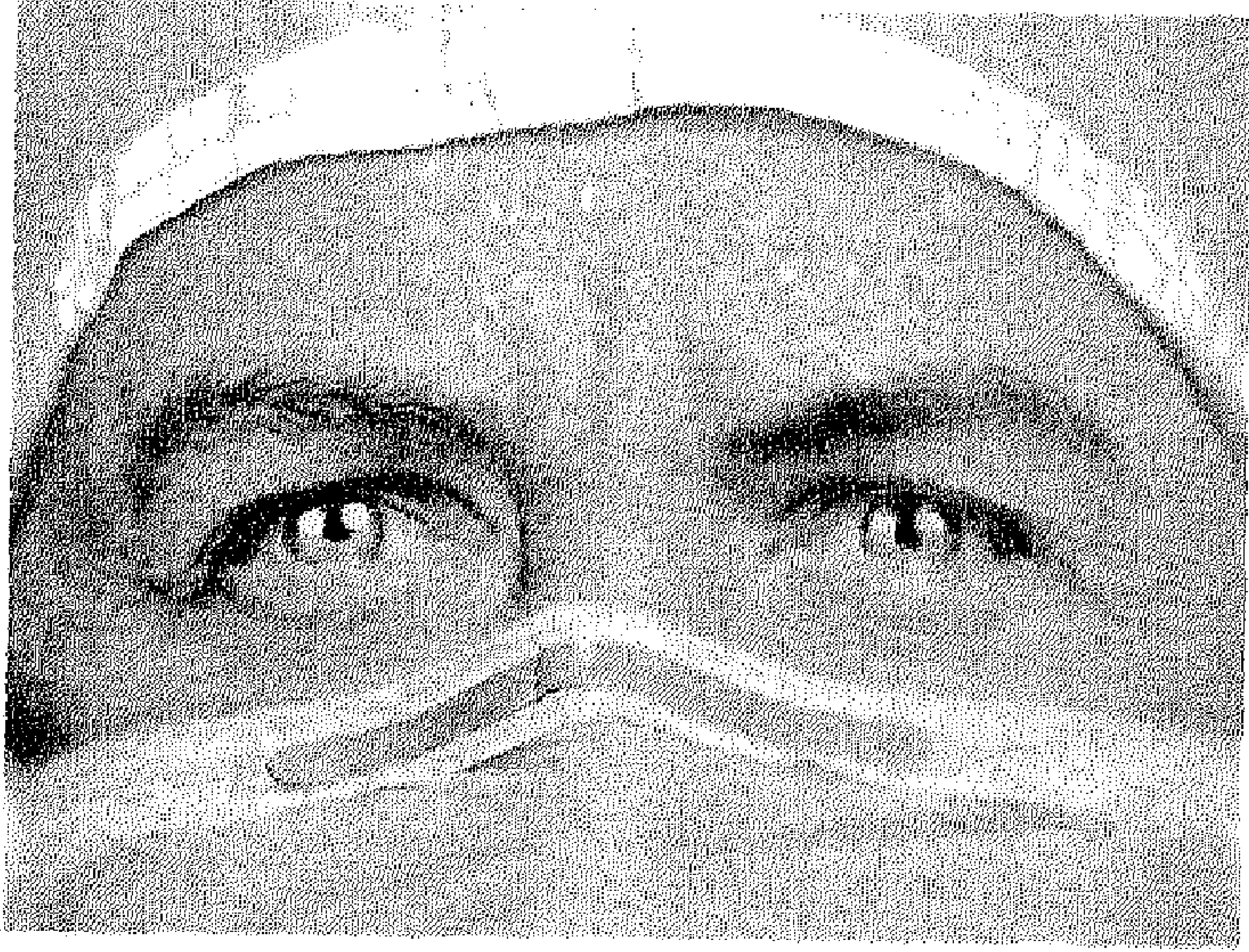
كتاب الشهر



رحلة عبر مجاهل الدماغ البشري

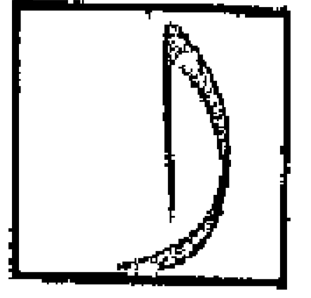
ملخص من كتاب
بقلم جون فرانكلين وآلان دوليب

رحلة عبر مجاهل الدماغ البشري



ان جميع الأطباء يعملون ضمن تخوم المعرفة الطبية، مهما توغّلوا في العلوم الخاصة بالجسم البشري. اما جرّاح الدماغ فيختلف عن سائر زملائه بكونه، كلما رفع مبضعه استعداداً لولوج ذلك العالم الغامض، يتجاوز حدود المعرفة.

في هذا الكتاب الجديد يأخذنا الصحافيان الطبيان جون فرانكلين وآلان دويلب في رحلة عبر ذلك الكون العجيب الذي لا يقل روعة وخطراً ووعداً عن الفضاء الخارجي.


اضطجع الدكتور توماس داكر في سريره وقد اخذته يقظة الصباح والمنبه لم يرنّ بعد، وهو في العادة ينهض قبل رنين المنبه يوم يكون عليه إجراء جراحة.

وراح الطبيب يفكر في الفتى جوش ذي السنوات السبع الذي وقف في عيادته متفرساً في عينيه، علّ الطبيب يشفيه بحيث يتمكن من ممارسة رياضة البيسبول (كرة القاعدة) مرة اخرى.

وكان جوش اقتحم زجاجاً تحطم بفعل الصدمة ودخلت إحدى شظاياه ذراعه. وتولى طبيب أعصاب محلي رتق طرفي عصبه المتوسط. وأخذ الحس يعود إليه تدريجاً في أسابيع، بحيث استطاع تحريك ذراعه وثلاث من أصابع يده.

وما لبث التحسن أن توقف. وتلك علامة على أن العصب المتعلق بعظم الزند مصاب أيضاً. ومن السهل نسبياً معالجة العصب ساعة تمزقه. لكن هذه السهولة تزول مع الوقت.

وبناء على نصيحة طبيب من الأقرباء اتصل والدا جوش بالدكتور داكر، رئيس قسم جراحة الاعصاب في مستشفى جامعة بالتيمور في ماريلاند. وكان داكر اكتسب سمعة من جراء معالجته الاعصاب الخارجية خلال حرب فيتنام. وفي وقت لاحق كتب مؤلفاً في الموضوع.

وبعد أسابيع وقف الطفل جوش في عيادة الدكتور داكر يرجوه أن يفعل شيئاً يتيح له أن يلعب البيسبول من جديد. ووافق الطبيب على إجراء الجراحة التي حدد موعداً لها في غرفة العمليات الثانية عشرة من ظهر هذا اليوم.

وفي المستشفى توقف الدكتور داكر هنيهة ليطل من زجاج الغرفة الرقم ١١. ورأى على الطاولة امرأة مخدرة وقد وقف الدكتور مايكل سالكمن يتحدث مع الممرضات اللواتي أحطن بها. والدكتور سالكمن في مطلع الثلاثينات من عمره، وهو معاون داكر في قسم جراحة الاعصاب. والمرأة الممدّدة على طاولة الجراحة مصابة بسرطان فتاك في الرأس. وربما استطاع سالكمن منحها ستة أشهر اضافية أو سنة. لكنه لن يستطيع إبراءها تماماً.

وكان الورم في رأس تلك المرأة قريباً جداً مما دعاه سالكمن، ذو اللغة الشعرية، "المناطق البليغة"، وهو يعني تلك المناطق التي تعطي الشخصية اتجاهها. وكان عليه إزالة كل جزء من الورم بمنتهى العناية، إذ قد يكون الورم، بلغة الطبيب نفسه، متصلا بشيء يتصل بدوره بشيء متصل بشيء آخر مرتبط بالنفس البشرية.

وشق الدكتور داكر طريقه الى غرفة التعقيم التي تصل الغرفتين الحادية عشرة والثانية عشرة. وكان جوش ممدداً على طاولة بعد تخديره هو الآخر. وجلس الطبيب المعاون الذي باشر تخصّصه في الجراحة بجانب أحد طرفي ذراع الصبي فيما جلس داكر بجانب الطرف الآخر. وقال داكر لمعاونه ان غاية الجراحة دَسّ طرفي العصب تحت النسيج. وحذره من صعوبة العثور على هذين الطرفين.

وانحبس الدم عندما قطع داكر تحت الجلد، وعاد الى الوراء بينما راح المعاون يخيط الاوعية النازفة بميسم كهربائي ذي قطبين.

وقال داكر مستأنفاً عمله: "ربما بدا عصب الزند مثل قطعةمعكرونة،إلا ان وظيفته كخط ناقل تتجاوز وظيفة أكثر خطوط الهاتف تعقيداً. والرسائل تُحمَل بواسطة محاور عصبية هي عبارة عن شعيرات تنمو عند طرفي كل خلية عصبية، وتبدو هذه الشعيرات مثل خط هاتفي إذا تأملناها وهي نظيفة."

وأقحم الطبيب المعاون ميسمه في الجرح وقال: "إني لا أرى شيئاً."

وقال داكر: "أعطوني المبضع." وهو شاء أن يدسه تحت الجرح ليتبع العصب عبر الذراع.

وأضاف الجراح: "صحيح ان العصب لا يعيد توليد ذاته، إلا أن المحاور العصبية، أي الشعيرات، تستطيع ذلك. وأحياناً تعيد الجراحة فتجد كتلة من الشعيرات نمت فوق الجرح مباشرة بعد محاولتها النمو في مكانها الطبيعي، إلا أنها لم تتمكن من اختراق الجرح."

وفي استطاعة جراح أعصاب متمرس أن يشق مكان الجرح من جديد ويصل طرفي العصب أحدهما بالآخر، وإذا نجح في ذلك، فإن الشعيرات تعود الى مكانها الطبيعي وتكمل نموها هناك.

وسلم داكر مبضعه الى المعاون وقال: "هيا، افعل ما تراه مناسباً."

وانقضت دقائق ولم يعثر المعاون على العصب المذكور، وسرعان ما ابدى تذمره، وانبرى داكر: "تابع بحثك، واعلم أن عصب الزند يشبه أشياء اخرى كثيرة. فإذا نسيت ذلك الجزء من علم التشريح المتعلق بهذه النقطة، فمن السهل جداً إضاعته أو شرطه بالمبضع."

ـ كلا، لا يمكنني أن أراه.

وتابع داكر: "اصبر عليه... تملقه لكي يأتي... دس المبضع هنا وهناك، إذ لا تدري أين يكون هذا العصب مخبوءاً."

أسئلة أساسية

في يوم ما بعد سنوات سيغدو هذا المعاون جراحاً للأعصاب اسوة باستاذه، شرط ان يحافظ على هدوئه ويدرس حسناً ويرضي داكر وسائر الاساتذة على الدوام. ولكن لا يكفي الجراح الجديد أن يكون بارعاً وطموحاً. فما أن يدخل التلميذ مدرسة الطب حتى يجد كل من حوله بارعاً وطموحاً.

وفي كلية الطب في جامعة ماريلاند يدرس الطلاب مادّة تشريح الاعصاب خلال الفصل الثاني من السنة الاولى. وهو موضوع صعب جداً يحسب له الطلاب اكبر حساب في الامتحان، خصوصاً ما تعلق منه بالدماغ. إلا أن الدماغ ليس عضواً فحسب، لكنه معضلة تواجه الشخص بأسئلة فلسفية عميقة. لهذا كانت أقلية ضئيلة من الطلاب، بعد حضورها مادة تشريح الاعصاب، تختار جراحة الرأس موضوع اختصاص.

ولكن ما هي تلك المادة البروتيينية، تلك الكتلة الهلامية

الرماديّة التي تعي ذاتها؟ ان الدماغ عضو كبقية أعضاء الجسد. لكنه يختلف عنها في كونه يولد أفكاراً. ولكن ما هو الفكر؟ مَن أنا؟

هذه أسئلة أساسية يطرحها المرء على نفسه. والكل يقف منها موقف دهشة، حتى طالب العلوم والطب الذي لا يدري كيف أن ذلك المزيج العجيب من الاعصاب يولد الافكار والعلوم والفنون والحب.

ويقوم طالب الطب بجولات الى المستشفى حيث يراقب ويصغي. لكنه، إذ يقف عند سرير ام شابة اختل عمل دماغها، تنحسر تلك الاسئلة الفلسفية ليحل محلها الالم والموت في حضورهما العاري.

وما أن يغدو طالب الطب طبيباً ثم معاوناً يعمل في إشراف الدكتور داكر حتى تغيب تلك الاسئلة الكبرى من ذهنه.

أجل، ثمة حقيقة كبرى، لكنها ليست لغزاً. وهو اكتسبها ليس من الكتب، بل من غرفة العمليات.

فالأدمغة التي حللت في الصف كانت كلها محنطة. أما الادمغة فوق طاولة الجراحة فهي تخفق وتنبض وتدمى وتموت.

شيء تجدر معرفته

جلس الدكتور على كرسيه يراقب، فيما المعاون منحن فوق ذراع جوش يبحث عن عصب الزند من غير أن يجده.

وفجأة أمره داكر بأن يتوقف. وقال: "انه هنا... ألا تراه؟ انه صغير لأنه ضامر. لكنه العصب الذي تبحث عنه."



Fred Ward / Black Star

الدكتور توماس داكر.

وأجاب المعاون متأتئاً: "آسف، غير أني..."

وأشار داكر باصبعه الى العصب.

وقال المعاون: "اللعنة عليّ."

وتابع داكر: "انظر إليه ملياً لكي تعرف منذ هذه اللحظة كيف يكون عصب الزند."

وكان العصب ضمن غشاء رقيق. وأخرجه المعاون بعناية من غلافه، لكن نصف ساعة انقضت وهو يفعل ذلك. وبدأ بالطرفين ثم انتقل الى بقية العصب.

وأوضح داكر أن الغاية هي قطع الاطراف القديمة من العصب ثم وصل الاطراف الجديدة بعضها ببعض. وذلك من شأنه تقصير العصب. ولتعويض ذلك سيعاد العصب الى مكانه عبر العضل في تجويف المرفق، بحيث يكسب نحو ثلاثة سنتيمرات.

ووصلت الممرّضة المتجوّلة وفي يدها نظارات جراحية للطبيبين. وأضيفت عدسة من التي يستعملها الصاغة الى قاع كلّ منها.

وحثّ داكر معاونه على دراسة

طرف العَصَب الذي كانت تغطيه الانسجة الدامية. وأوضح داكر طريقة قطع أجزاء من العصب، باستخدام أداة تنحية خشبية معقمة. وإذ ذاك تبرز مقاطع عرضية لخمسة "أسلاك" رمادية كخطوط الهاتف.

وقشر المعاون حافة الطرف الآخر من عصب الزند. ولم يجد هناك أسلاكاً، بل ثقوباً فارغة. وكانت الشعيرات التي فصلت عن خلاياها الاصلية فوق قد جفت وماتت وباتت جزءاً من النسيج. أما الثقوب فكانت ثلاثة، لا خمسة، إذ ضمر أثنان منها. وهذا يعني أنه لا مجال لنمو الشعيرات كلها. لكن داكر قال ان ما سينمو منها يكفي لممارسة رياضة البيسبول كما شاء جوش.

وفحص داكر طرفي العصب العاريين. وعلق إبرة مجهرية بمحمل وأدخلها عبر أحد الطرفين ثم عبر الآخر. وراح يخيط الجرح وهو ينظر بعدسة الصائغ.

وأشار داكر الى المعاون لكي يأخذ عنه، فالتقط هذا الابرة بيد مرتجفة. وقال له: "حسناً، تابع برفق." ولم يجد الطبيب أي مانع يعوق جوش عن لعب البيسبول بعد سنة من ذلك الصيف. واسترخى وهو يراقب عمل معاونه. وليس قليلا أن يتمكن طبيب مثله من الاسترخاء خلال عملية.

ولو كان العمل في الدماغ، لما تسنى له شيء من الراحة، إذ هناك ما يفاجىء على الدوام حتى وإن تمت الجراحة على أفضل وجه. أما في حال جوش وأمثاله فالمفاجىء بعيد جداً. وأسوأ ما يمكن حصوله ألا يتمكن الفتى من ممارسة لعبته المفضّلة. لكنه لن يموت.

اقتراح أو إشارة

في مكان آخر من المدينة، في مستشفى جامعة جونز هوبكنز، كان الدكتور دونلين لونغ على اهبة الاستعداد للانضمام الى الدكتور كينيث مواري خبير الاورام إذا هو احتاج إليه. وكان لونغ يحتل كرسياً مرموقاً في جراحة الاعصاب في تلك الجامعة، ومفكرته تزدحم بالمواعيد مع الجراحين والعلماء والطلاب والمرضى والمحامين ورجال الاعمال.

وفي غرفة الجراحة وقف مواري أمام لوحة التصوير بالاشعة. وعلى طاولة معدنية مبطنة وراءه اضطجع جو تروت تحت تأثير تخدير قوي. وهو شاب في العشرين يتابع دراسته الجامعية في معهد جورجيا للتكنولوجيا. وكان تروت قلقاً من الطنين في اذنه اليسرى الذي تحوّل صمماً وتلاه الحَوَل وفقدان التوازن والصداع.

في الاسابيع الماضية أنعم موراي ولونغ النظر في صور الاشعة التي أخذت للمريض. ولم يجدا مشقة في العثور على الورم عند جذع الدماغ. وقد اعتاد موراي أن يعالج الحالات المماثلة بمفرده. الا ان تلك الحالة كانت من الطرافة بحيث شاء لونغ ان يراها، ومن الخطر بحيث ألح عليه موراي بالحضور.

ربما كانت مشكلة جو تروت تنخرط في باب الاكال السمعي. والأورام هنا تنشأ من عصب الجمجمة الثامن

الخاص بالسمع، وهو يصل الاذن بالدماغ. والمعروف عن الاورام السمعية أنها لا تصاب قط بالسرطان، وانها اذا استؤصلت لا تنمو مرة اخرى. لكن التحدّي أن يتمكن الجرّاح من إخراجها. فالغشاء الذي يغلف عصب السمع محكم الالتصاق بكل ما حوله. وإذا كانت الحال هكذا، فلا بد من أن يعمد موراي الى استدعاء لونغ.

ومرّ النهار ببطء. وفي الرابعة عصراً تلقى لونغ مخابرة زميله وانطلق تواً نحو غرفة العمليات. ورفع موراي عينيه عن المجهر وانتصب وهو يلوي ظهره وكتفيه ويقول: "لقد جئت في الوقت المناسب."

وأضاف أنه حفر ثلاثة أرباع الورم من الداخل. ولاحظ لونغ أن قلب المريض كان يخفق بقوة وثبات. ثم نظر عبر المجهر فيما نظر موراي من فتحة المراقبة. وتبين أن النسيج الاصفر يطغى على وسط الفجوة العميقة في رأس المريض. واستطاع لونغ أن يشاهد الجزء الاعلى من جذع الدماغ، أما الجزء الاسفل فاختفى خلف الورم. ولا يُستبعد أن يكون غشاء الورم ملتصقاً بذلك الجزء من الدماغ.

أوضح لونغ لزميله موراي ولاثنين من الاطباء المعاونين أن مفتاح المسألة يكمن في العثور على خط الانفصال الطبيعي بين الغشاء وما هو متصل به. وإذا وجد ذلك الخط، ففي الامكان فصل الغشاء واستئصال الورم، ولكن بعد مسه برفق واعتماد أقصى الدقة.

واستغرق لونغ على الفور في الأمر. وراح ينخس الغشاء مرة بعد اخرى. ويمكن تشبيه عملية قشر غشاء الورم بقشر بيضة مسلوقة، إذ ينبغي نزع القشرتين الخارجية والداخلية من غير سحق البيضة نفسها.

وهناك ماسورة الامتصاص التي يشكل إتقان استخدامها فناً قائماً في ذاته. وفي تلك الماسورة، من ناحية اليد، ثقب إضافي ينبغي أن يسدّه الجراح بإصبعه وإلا جاء الامتصاص ضعيفاً. والجراح الماهر يرفع إصبعه



الدكتور كينيث موراي.

عن ذلك الثقب ثم يغطيه تبعاً لكمية الامتصاص المرجوة.

ونظر لونغ الى ساعة الحائط. كان المريض أمضى تسع ساعات فوق طاولة العمليات. وعلى رغم أهمية الاسراع في الجراحة فان الدقة أهم من السرعة، إذ انّ "قصّ" الاغشية الرقيقة قد يعني نهاية المريض. وظلّ لونغ يفتش عن خط الانفصال، ولكن من غير جدوى.

وإذ ذاك حاول طريقة اخرى بتوجيد أنظاره الى أسفل الورم. هناك وجد اعصاب الجمجمة التاسع والعاشر والحادي عشر ولاحظ النقاط التي تتداخل عندها مع الورم ووخز سطح الورم بحذر، فانزاح الغشاء ومعه الاعصاب. وبدا واضحاً أن الورم متشبث بمكانه.

وتابع الدكتور لونغ عمله بالمقدار نفسه من الدقة والحذر، وأخيراً أخذ الورم ينقشر.

في تلك الاثناء لاحظ طبيب التخدير شيئاً تجمدت له أوصاله، وهو أن قلب المريض بات يعمل ببطء. فما كان من لونغ إلا أن أوقف عمل آلاته ثم رفعها من مكانها، ونظر الى الساعة فإذا هي السادسة مساء إلا دقيقة واحدة.

وتبين له أن ذلك الورم محكم الاتصال بكل شيء حوله، وانه أكبر عصب سمعي رآه في حياته. واتخذ قراراً سريعاً بأن يوقف محاولته لذلك اليوم وينسحب بينما المريض ما زال على قيد الحياة.

ورفع المجهر من مكانه وسلطت الانوار القوية على المريض، وتقدم الدكتور موراي ليرى الجرح. وأدرك الدكتور لونغ أن ذلك لن يروق جو تروت... إلا أنه الخيار الوحيد المعقول.

السناجب والأمل

في مكان آخر كان الطقس دافئاً والشمس تشرق على الزوارق الشراعية فوق شاطئ البحر الكاريبي الأزرق. ولو كان توم داكر هناك لركب قاربه وانطلق به عبر الماء... إلا ان توم داكر لم يكن هناك، بل كان جالساً الى طاولة في الطبقة الثانية عشرة من مستشفى جامعة ماريلاند.

كان الوقت منتصف الصباح وقد انهى تفقد مرضاه، ودفع كرسيه الى الوراء ثم تردّد اذ تذكر البرد الذي ينتظره في علبة الجليد الكبيرة، حيث الحرارة خمس درجات مئوية. ونهض الجرّاح بعدما أدرك ان التأجيل لن يجدي.

قليلون هم الاطباء الذين يجرون جراحات ضمن ثلاجة، لذلك لم تكن هناك عدة مناسبة لذلك الضرب من الجراحة، كالقفازات المقاومة للصقيع مثلا. وفي عملياته الاولى هناك كادت اصابع داكر ان تتجمد من شدة الصقيع.

وكان عمل داكر في ذلك النوع من الجراحة تتمة لما انجزه الدكتور لويد غوث وزملاؤه في كلية الطب التابعة للجامعة. وقد تبين لهم ان السناجب النائمة شتاء تنمو شعيراتها العصبية، خلال السبات، في النخاع الشوكي المعطوب.

وليس من الأكيد ان تسفر هذه الأبحاث عن نتائج ضاعقة. اما اذا استعاد سنجاب تعطل نخاعه الشوكي قدرته على المشي، فلا شك ان هذا يسجل تقدماً هائلا في جراحة الأعصاب بعد تطبيق الطريقة نفسها على الانسان.

وفي غرفة اختبارية قريبة من باب الثلاجة خلع داكر ثيابه العادية ولبس سروالا داخلياً طويلا وكنزة صوف، ثم وضع فوقها رداء معقماً وأدخل قدميه في حذاء دافئ طويل.

وكان في احد اطراف الغرفة المبرّدة رفوف وضع على كل منها قفص شفاف يحوي سنجاباً مُسْبتاً. وجلس داكر في كرسي الى طاولة جراحية صغيرة وجهز المجهر. وودّ لو كان الفصل ربيعاً لكي يبحر.

لا بد لكل جراح اعصاب من ان يدرك في مطلع حياته العملية اهمية تمضية العطل بعيداً عن اجواء عمله، وما لم يتسن له هذا الأمر في وقته الطبيعي، فهو قد يحس حاجة اليه خلال الجراحة.

اما دونلين لونغ فكانت له حديقته في جونز هوبكنز، وهي اغدقت عليه سلاماً كثيراً. واما مايكل سالكمن فكان يكتب الشعر في اوقات فراغه ويزور المتاحف والمعارض الفنية برفقة زوجته. ومن ناحيته، وجد توم داكر اشباع هواياته في الابحار.



الدكتور دونلين لونغ.

وبعدما ركز المجهر في مكانه الصحيح تناول مبضعاً.

كان داكر قبل وقت طويل اشترك في سباق الزوارق. اما اليوم فهو لا يحتاج الى جوائز، اذ وجد تعويضاً لذلك في الشفاء الذي قد يتمكن من اهدائه الى جوش والسناجب.

الا انه كان في امس الحاجة الى الابحار، ونحن ما نزال في مارس (آذار).

تسخين الدماغ

لم يدع جراحو الاعصاب طريقة الا جرّبوها لمعالجة السرطان الجذعي الدبقي المتعدد الاشكال (★). غير ان معدل الوفيات الناجمة عنه بقي مئة في المئة. ولم يكن المرض يُكتشَف معظم الأحيان الا في مراحله المتطورة. وكان المريض يدخل المستشفى وقد ضغط الورم على جمجمته وفقد الكثير من وعيه او نظره او اصيب بنوبات صداع قوية.

وكان في الجراحة الهادفة الى ازالة الورم المنظور راحة للمريض، وان الى حين ولا يلبث الورم ان يملأ مكانه مرة اخرى متيحاً للمريض ان يعمر ستة اشهر فقط بعد الجراحة الاولى.

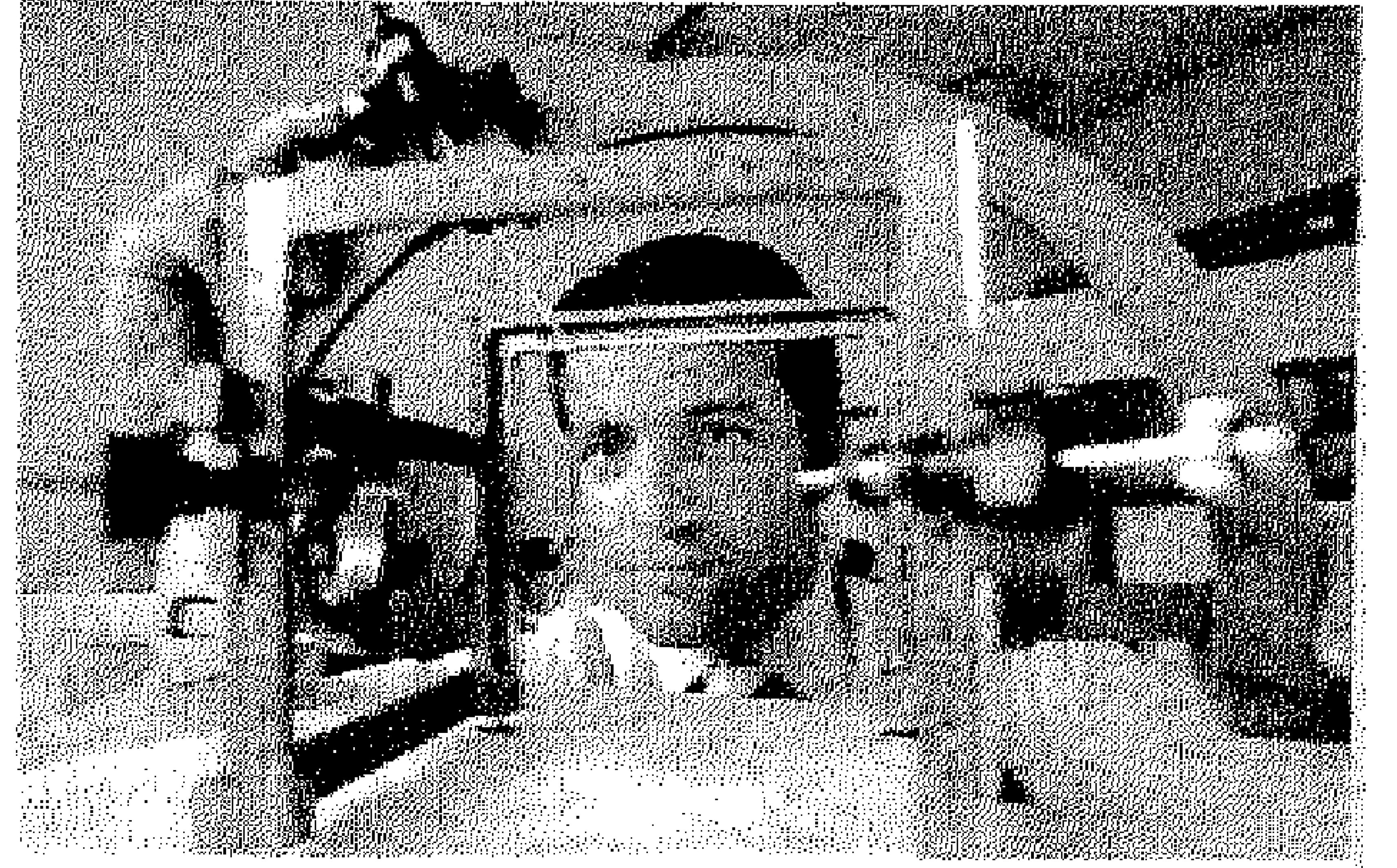
وقد حاول العديد من الاطباء التصدي لذلك الأمر. ومن اهم الجهود في هذا النطاق ما بذله برنامج بالتيمور لابحاث السرطان في مستشفى جامعة ماريلاند، بتمويل المعهد الوطني للسرطان. ولجأ المستشفى الى جميع الطرائق المعروفة لمعالجة سرطان الدماغ، ولكن من غير تسجيل تحسن ملحوظ.

وذلك اقلق توم داكر كثيراً. وتولدت لديه قناعة بأن احداً يجب ان يعين اولئك المرضى. وكانت النتيجة ان اصبح معاونه، الدكتور مايكل

(★) Glioblastoma multiforme

سالكمن، خبيراً في سرطان الدماغ. وتعهد سالكمن ان يبذل ما في وسعه. غير انه كان يرى المرضى يموتون امامه.

الا ان املا جديداً نشأ لديه. ففي حين اعتمد الجراحون العين المجردة وآلة الامتصاص لرفع النسيج المصاب، كان سالكمن من الاطباء الأوائل الذين استخدموا اشعة الليزر لتبخير الورم، بمساعدة مجهر. والليزر يمكن الطبيب من العمل على


Fred Ward / Black Star

الدكتور مايكل سالكمن.

الدماغ من غير ان يمسه، ومن تكرار عمله.

وعلى رغم ان الطريقة الجديدة لم تؤمن للدكتور سالكمن ابراء المصابين بهذا النوع من السرطان، الا انه بات مقتنعاً بانه متجه في الطريق الصحيح. واذا استطاع اطالة اجل المريض سنة، فلماذا لا يطيله ١٨ شهراً، او سنتين، او...؟

في تلك الاثناء كان المهندس البيولوجي جورج سماراس يدرس السرطان في مستشفى ماريلاند، من ناحية تأثر الاورام بالحرارة، علماً ان الخلايا السرطانية تغدو اكثر تقبلا للعقاقير مع ارتفاع حرارتها. وهناك مرضى شفوا تلقائياً[1] بعد اصابتهم بحمى مرتفعة.

وكان سماراس منشغلا في صناعة قضبان حرارية تعمل على الموجات القصيرة لتسخين الأنسجة. والورم الأكثر طواعية للتسخين من ناحية نظرية هو ذو الشكل الدائري، على غرار معظم السرطانات الجذعية الدبقية التي تضرب الدماغ.

وبحث سماراس نظريته مع سالكمن، عله يتيح له اختبار آلته على دماغ مريض. ووافق المعهد الوطني للأمراض العصبية على تمويل الاختبار. لكن الفحوص الأولية التي اجراها العالمان بينت ان الموجات الكهرطيسية القصيرة لا يمكن ان تسخن داخل الدماغ ما لم تكن من القوة بحيث تسفع فروة الرأس وتحرق الجمجمة. وربما كان افضل ادخال القضيب الرأس ليمس الثقب الذي بقي مكان الورم المستأصل. الا ان ذلك طرح مشكلة اخرى: ماذا يحدث اذا لم يسخن القضيب كفاية؟ او ماذا يحدث ان هو سخن فوق ما يلزم؟

ولا بد من مراعاة منتهى الدقة في صنع المولد الحراري الذي يضبط سخونة القضيب. ولكن لم يبقَ من المنحة ما يكفي من المال لانجاز تلك الآلة. لذلك صُنع المولد الأول محلياً من الاسلاك والسبائك والأجزاء المنتقاة والمستعارة من هنا وهناك، واستغرق انجازه ساعات عدة.

وأثار استعماله للمرة الاولى ضجة كبيرة في الاوساط العلمية والصحف.

وما لبثت المكالمات الهاتفية ان انهالت على الدكتور سالكمن من انحاء الولايات المتحدة.

برج الجدي

من الذين قرأوا عن آلة الدكتور سالكمن السيدة جين ماسترو ستيفانو من بنسلفانيا. وكان زوجها طوني اصيب بسرطان جذعي دبقي في الدماغ بعد ثلاثين سنة من زواجهما. واتصلت بسكرتيرة الدكتور سالكمن، لكنها لم تجد تشجيعاً كبيراً بادىء الأمر. فالمشروع ما زال في مرحلته التجريبية. لكن ذلك لم يسلب جين الأمل، فأرسلت نسخة من سجل زوجها الطبي الى سالكمن ليقرر ما اذا كان من الملائم اخضاعه لذلك الاختبار.

وانقضت اشهر قبل ان تتلقى جين رداً ايجابياً، ولكن مشروطاً. فقد وافق الدكتور سالكمن على فحص طوني، وبنتيجة الفحص سيقرر اجراء الاختبار او عدمه.

وكان جورج سماراس سُرّ للنتائج الأولية لآلته. الا ان الشكوك اخذت تراوده بعد اجراء ثلاث جراحات. واوضح ان تلك الآلة هي الاولى من نوعها، وان فاعليتها لا بد من ان تخفق قبل وقت طويل. وهو سيكون حاضراً لاصلاح الخلل. ولكن ينبغي ان يبتكر آلة اخرى يسهل استخدامها على يد شخص ليس مهندساً.

وظل سماراس ومجموعة المهندسين العاملة في اشرافه يجتمعون يومياً لتدارس المشكلات المحتملة وابتكار حلول لها. وبنى سماراس خطته بحيث ينفذها عبر اربعة ادمغة الكترونية: واحد لتشغيل الآلة نفسها، وآخر لمراقبة الحرارة على الدوام، وثالث لضبط عمل الدماغين الاولين باستمرار، والرابع، وهو الاهم، لمراقبة كل شاردة وواردة نحو الف مرة في الثانية الواحدة وعرض اشارة فورية الى الخلل.

وسميت الآلة "كابريكورن" (برج الجدي) تيمناً بالبرج المقابل للسرطان في الفلك.

وبعد انقضاء تسعة اشهر على استخدام آلة سماراس في جراحات ثلاث، تلقت جين ماسترو ستيفانو مخابرة من سكرتيرة سالكمن تقول لها ان الآلة جاهزة.

اخفاق وظيفي

لم يبدأ صباح اليوم المخصص بالجراحة كما اشتهى الدكتور سالكمن. وكان عقد النية على احراق جزء من الورم في دماغ ماسترو ستيفانو بواسطة الليزر. غير ان آلة الليزر تعطلت. لذلك لم يكن سالكمن في احسن حالاته وهو يعبر غرفة العمليات الى حيث يجلس سماراس امام آلته.

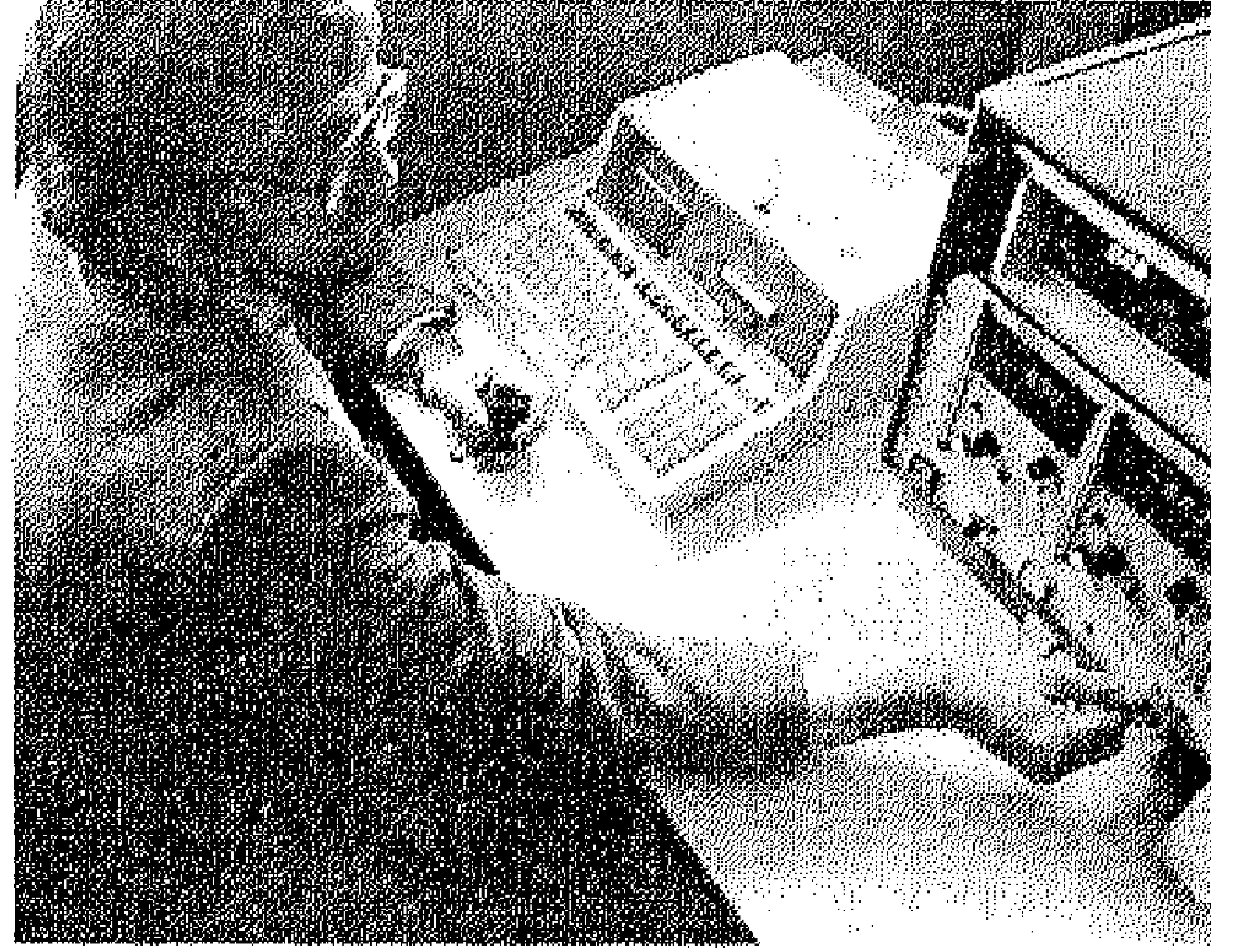
ولما سأله عن "برج الجدي" نظر سماراس الى الآلة وابتسم. وقال للطبيب انه سيختبرها قبل بدء الجراحة. وضغط الزر الرئيسي، فظهرت كلمات على الشاشة جعلت المهندس البيولوجي ينظر كمن لا يصدق عينيه. وشك اولا في ان تكون الآلة وصلت بالكهرباء عبر الجدار. ولكن كيف تظهر الاحرف المضيئة على الشاشة من غير كهرباء؟ اذاً، ثمة

خطأ في الآلة. وسأله الجراح: "ايمكنك اصلاح هذا الخطأ؟"

فأجاب: "لا ادري. اعطني نصف ساعة." وجرّ الآلة على عربة الى غرفة الخزن ليدرس الخلل الذي اصابها.

وسار الدكتور سالكمن نحو لوحة التصوير بالأشعة، وقال من غير ان يخاطب احداً بالذات: "اظن اني على وشك ان اتقيأ احشائي."

في الثامنة والنصف صباحاً جهز



المهندس البيولوجي جورج سماراس وجهازه المبتكر.

المريض للجراحة. وسدل سالكمن قناعاً جراحياً على انفه وفمه وعاد الى غرفة العمليات. وقال لفريقه الطبي: "اذا لم تُصلَح الآلة، فسنولج القضيب المحمى في اي حال." وما هي الا دقائق حتى برز سماراس من الباب واعلن: "الآلة تعمل حسناً يا مايكل." ونظر سالكمن ملياً الى رأس المريض وقال: "الدماغ البشري يمكن الاعتماد عليه اكثر كثيراً من الدماغ الالكتروني. وهو على مقدار اعظم من الكفاية."

وفي تمام الثامنة والدقيقة الاربعين اعمل المعاون الرئيسي مبضعه في فروة رأس ماسترو ستيفانو. وعلى الفور سال الدم غزيراً، فتقدم معاون آخر وفي يده كلاب ذو قطبين. وكان احد جراحي الاعصاب شق تلك الجمجمة عينها قبل خمسة اشهر وازال كل ما يمكن ازالته من ورم بواسطة الليزر. الا ان الورم تكوّن من جديد، وعلى نحو اكثر انتشاراً.

فتح المعاون فروة الرأس وغشاء الدماغ وراح يزيل كتل الورم بالكلاّب وماسورة الامتصاص. ولدى ظهور النسيج الطبيعي تقدم المعاون الرئيسي ليأخذ دوره. وأزال المزيد من التورم وهو يعمل بدقة لئلا يقتلع شيئاً من المادة البيضاء المتوهجة التي يتميز بها النسيج الطبيعي في هذه المنطقة من الدماغ.

لكن الدكتور سالكمن هو الذي رأى الأنسجة البيضاء تلتمع في مكانها. وقال لمعاونه: "توقّف." وعلّق العمل فيما راح سالكمن يغلف المجهر في كيس بلاستيك معقّم بمساعدة ممرضة التعقيم والمعاون الرديف.

التمام والكمال

قبل دقائق من انتصاف النهار كانت آلة "برج الجدي" جاهزة. وتوخى سماراس وثلاثة من معاونيه الاشراف على اجزائها المختلفة بدقة بالغة.

من ناحيته، وقف سالكمن ينظر عبر

المجهر الى بقعة ورم صغيرة باقية. ولما كانت ملتصقة بعصب الحركة، فقد خشي الجرّاح ان يمسها. فما معنى ان يعيش المريض ايامه الاخيرة كسيحاً؟ لكن سالكمن وضع امله في العلاج الحراري. وقال: "سنقحم القضيب في تلفيفة الدماغ العليا." ورفع القضيب ليرى معاونوه انه رُقم بالسنتيمتر. وبعد وضعه فوق النقطة المطلوبة في الدماغ، قال انه ينبغي ادخاله ستة سنتيمترات.

وعلى بعد امتار ادار جورج سماراس آلته. غير ان الأحرف اضاءت من جديد على لوحة الأخطاء. وتحلق المهندسون حولها يتهامسون.

وانضم سالكمن اليهم لبضع دقائق، ثم تنهد وادار ظهره وابتعد... حسْبه انه انجز الجزء المتعلق به من العملية. وهذا يتيح للمريض ان يعيش سنة اخرى خالية من المشاكل.

وراح المعاونون يرتقون الغشاء بتؤدة تاركين فجوة لايلاج القضيب. ثم استخدم المعاون الرئيسي آلة كهربائية صغيرة ليحدث ثقباً في نسيج الجمجمة وآخر مقابلا له في فروة الرأس، بحيث باتت الثقوب الثلاثة مفتوحة بعضها تجاه بعض. وأدخل سالكمن القضيب عبرها بسهولة، وانزله ستة سنتيمترات في الدماغ. وانسحب سالكمن تاركاً مكانه للمعاون الرئيسي.

في تلك الأثناء كان الفريق الهندسي يعمل بغير طائل على آلته. واخيراً قال معاون سماراس الرئيسي بغضب: "لا بد من ان تكون كهرباء غرفة العمليات هي السبب، ولا شيء سواها." واذ ذاك احضر شريط اضافي مدّه سماراس الى غرفة التعقيم المجاورة وادار الآلة. فاذا بها تعمل بالتمام والكمال.

وقال سماراس بصوت مرتفع: "اود ان اعلن انه لا عطل البتة في آلتي. والخلل من كهرباء غرفة العمليات."

وبعد دقائق سرت الحرارة في اجزاء الآلة وفي القضيب الموصول بدماغ المريض، وارتفعت بسرعة الى ٤٣ درجة مئوية وبقيت هكذا. واستغرقت جولة العلاج الاولى ربع ساعة.

الجزء السهل

ما زال الورم متمكناً من دماغ الطالب جو تروت. وكانت الجراحة الاولى أجريت له في الربيع على نحو ناقص. وتوقع جو أن يستأنف دراسته في الخريف. الا أنه أمضى فصل الصيف مع الآلام والغثيان والهذيان. وأخضع لفحوص كثيرة ظلّ الدكتور موراي خلالها على اتصال بالدكتور لونغ. وعبر الاثنان عن قلقهما لحال الشاب.

وكان الورم ينمو بجنون حتى غدا حجمه أضخم من المعتاد وأخذ ينتأ من ثقب ترك مفتوحاً في مؤخر جمجمة جو. ومع الوقت بلغ النتوء حجم بيضة إوزة. ولم يجد الطبيبان بداً من اجراء جراحة جديدة.

كانت الساعة الثامنة والدقيقة العاشرة صباحاً. ولاحظ اختصاصي التخدير بدء أعراض اللاوعي، واستعدّ كل من أعضاء الفريق الطبي لتأدية مهمته. وانطلق بعضهم يجهز

ملزم "مايفيلد". وهذا جهاز متدل مصنوع من صفيح ذي مفاصل ومجموعة كماشات. وبعد حلاقة رأس جو رفع قليلا وأحني عنقه وأمسك بشدة فيما باشر الملزم عمله عبر فروة رأسه.

ودخل الدكتور دونلين لونغ الغرفة والفريق على وشك انهاء الاستعدادات الاولية. وظهر في قفا عنق المريض نتوء أقلق الطبيب: أيكون ورماً أم انتفاخاً في المخيخ أم محض سائل تحت الضغط؟ وتمنى لونغ ألا يكون ذلك النتوء أكثر من سائل مضغوط.

ولم يراوده أي شك في كون الورم ملتصقاً بكل شريان وعصب في الحفرة الخلفية، فضلا عن جذع الدماغ الذي يحوي سر البقاء. وتكفي ازاحة ذلك الجذع قليلا من مكانه أو عطب أصغر شريان يؤدي اليه لاحداث انفصال مريع بين دماغ جو ووعيه. فهو لن يصحو بعد ذلك الوقت، وان عمر أطول ما يمكن.

وقال لونغ لمعاونيه: "جهزوا الكافيترون، فاننا لن نلبث أن نحتاج اليه." والجهاز المذكور شبيه بالليزر، بمعنى أن غاية الاثنين ازاحة النسيج الرقيق. غير ان طريقة هذا تختلف عن طريقة ذاك. ويتكون جهاز "كافيترون" من مقبض جراحي موصول بسلك تسقية وامتصاص يصله بآلة ضابطة. ويشبه المقبض قلماً طويلا منتفخاً. وفي رأسه انبوب يهتز بسرعة تتجاوز سرعة الصوت وتؤدي حركته الى تفتيت نسيج الورم. ويأتي رشاش الماء المعقم لازالة المادة المفتتة، ويليه الامتصاص للذهاب بالماء والاثفال جميعاً.

في التاسعة والدقيقة الثامنة والاربعين صباحاً وقف لونغ ومعاونه ينظران الى النتوء الكبير في مؤخر عنق جو. وأخيراً لمس لونغ النتوء بيده، ثمّ تراجع فيما أعمل المعاون مبضعه في النتوء.

وسرعان ما تبين لهما صعوبة التعرف على حقيقة الاشياء. فأغشية العنق وعضلاته نمت من جديد واختلطت بالانسجة التي تغطي الجرح القديم. ولم يكن هناك شيء يشبه ما تحويه كتب التشريح من رسوم. وهذا خطر ملازم لكل جراحة مكررة.

وانشقّ اللحم الذي يغطي النتوء بسهولة. ومدّ لونغ يده المغلفة بقفاز ووضع اصبعاً في الغشاء تحت الورم. ووجده مرناً مثل بالون مليء ماء.

وسأل لونغ: "اهناك أي تبدل في حال المريض؟"

وتفحص طبيب التخدير آلاته، فوجد ان خفقات القلب ثابتة على ٧٥ في الدقيقة، وان ضغط الدم محافظ على وضعه الطبيعي. وقال للجراح: "ليس من تبدل على الاطلاق."

ثقب لونغ الغشاء بمحقنة ثم أفرغ محتوياتها بتؤدة. وما أن دخل ذلك السائل الغائم الغشاء حتى خفّ ضغطه وأخذ يتدلى تدريجاً الى أن ارتخى تماماً في العاشرة والدقيقة الرابعة. وتنفس لونغ الصعداء بعدما زالت احدى العقبات من طريقه.

بعد ذلك طلب لونغ من معاونيه أن يعطوه مبضع التشريح المجهري. وأخذ ينظر عبر العدسة الى نقطة

يمكن تحديدها في رأس المريض، مثل عصب الجمجمة الخامس المسؤول عن وظائف الوجه. الا أن لونغ بقي يحدق دقائق من غير أن يعثر على ذلك العصب. وربما كان مخبوءاً داخل الورم.

وتراجع لونغ قليلا وركز انتباهه على الخط الفاصل بين الورم وغشاء الدماغ. وحين وجد أن الورم متشبث بقوة هناك خشي أن يهزه يميناً أو يساراً.

واذ ذاك قال: "لنبدل طريقتنا ونحاول العمل على مستوى أعمق." لكنه ما لبث أن أدرك أن ثمة طريقةواحدة ممكنة وهي حفر الورم نفسه. وراح لونغ يتلمس طريقه بحذر وهو يضع ماسورة الامتصاص تارة هنا وتارة هناك، علها تقع على ثقب في ذلك الغشاء الاصفر البراق، علماً ان أغشية الاعصاب بيضاء وهي أكثر نعومة من نسيج الورم.

بعد دقائق ظهر مقدار ضئيل من البياض. وسحب لونغ الآلات مليمتراً او نحوه ثم وضعها من جديد داخل النتوء وهو يقدر أنه لامس العصب الخامس الذي يُمدّ الوجه بالحسّ. واذا كان ذلك العصب داخل الورم، فطبيعي أن يكون السادس هناك ايضاً، كذلك الثالث والرابع. وهذا يعني أن يومه سيكون طويلا جداً.

وكان لونغ وهو يزيل أجزاء الورم بماسورة الامتصاص يقع على شرايين وأوردة صغيرة هنا وهناك، فيحرقها أحياناً قبل أن تنفجر، لكنها تنبجس أحياناً اخرى وينفر منها الدم.

وأخيراً وصل الى العصب السابع وحرفه جانباً ووسده بالقطن. وتفحص الدكتور لونغ الورم تحت المجهر، ثم تنفس عميقاً وقال: "حسناً، أعطوني آلة كافيترون ولنغامر مهما كلف الأمر."

كان رأس الآلة الاسود يتحرك بسرعة قصوى تحت المجهر بحيث لا تراه العين الا ثابتاً. وبعد قليل اتجهت الآلة نحو جدار الورم فلامسته واستأنفت حركتها مخلفة خندقاً. وانقضت ساعة على هذا المنوال وجد الجراح بعدها عصباً آخر نحاد جانباً ليجد سواه. وأعاد الكرة.

أخذ الثقب يغور في اتجاه العمق الكالح للشريان القاعدي وجذع الدماغ. وما لبث لونغ ان رأى جدار الورم وحجاب النسيج الذي راح يرتفع وينخفض مع آلة قياس عمل القلب. وشاهد ما كان يخشاه، وهو الغشاء ملتصقاً جزئياً بالشريان القاعدي. وقال من غير أن يخاطب أحداً: "ربما استأصلنا سبعين أو ثمانين في المئة من الورم حتى الآن، وهذا هو الجزء البسيط من العمل!"

شبه معجزة

حول الدكتور لونغ انتباههالى البصلة الوداجية التي تقود الى الوريد الوداجي. وكان بعض الورم متصلا بذلك الموضع ودرس خياراته قليلا ثم قرر أن يدع تلك البصلة حتى النهاية. واذا شقت البصلة خطأ، فربما أمكنه انقاذ الموقف عبر تطويقها بمادة ليفية تخثر الدم. لكنّ ذلك يحتم عليه انهاء الجراحة فوراً. لذلك ارتأى ترك البصلة الوداجية حتى النهاية

والعودة الى الاجزاء الاخرى من الورم. ووقف ينظر الى الشريان القاعدي وهو يتمنى ألا يواجه عملية مماثلة مرة اخرى.

وكانت غرفة الجراحة باردة جداً. الا أن حبيبات العرق ظهرت على جبين لونغ وهو يعمل بالقرب من الشريان القاعدي. وأخذ يشق طريقه رويداً رويداً عبر غشاء الورم، فيقص هنا ويتفحص هناك ويتلمس هنالك، الى أن ظهر جذع الدماغ والتمع تحت الانوار وقد اتصل به بعض من الورم.

وانقضى النهار وهو ما زال يعمل على استئصال ذلك الورم. وأخيراً تدلى الجزء الباقي منه بعيداً من الوريد الوداجي. وقال لونغ مبتهجاً: "عظيم! لقد بدأ يرتخي... يا له من يوم سعيد." وظهر بوضوح الخط الفاصل بين الورم والوريد. وفي ثلاثين دقيقة فصل النصف الاسفل من الوريد نهائياً عن الورم.

وجه لونغ المجهر نحو النصف الاعلى. وما أن أعمل فيه مبضع القص حتى انتفض جو. ورفع الطبيب الآلات حالا كما لو أصيب برعشة كهربائية وصرخ: "ما الذي حصل؟"

وأجاب اختصاصي التخدير وهو يعاجل المريض بحقنة مخدر: "لقد تحرك!"

كادت عينا لونغ تخترق زميله وهو يصرخ فيه: "لا أريد أبداً أن يتحرك مريض تحت العملية."

والحق أن هذه المسألة قديمة ومعروفة: فطبيب التخدير يستعمل أقل مقدار ممكن من البنج من أجل سلامة المريض، والجراح يطلب أن يبقى المريض بلا حراك طوال العملية.

واتجه عقربا الساعة نحو الخامسة عصراً. وهذا يعني سبع ساعات منذ بدء الجراحة. وطوال السنوات الخمس عشرة التي أمضاها لونغ جراحاً للاعصاب، اعتاد ان يتجاهل الالم في عضلاته خلال الساعات الطويلة التي يصرفها في غرفة العمليات. غير أنه في تلك الساعة أحس ألماً مبرحاً لم يستطع معه متابعة العمل. فطلب من المعاون الرئيسي أن يأخذ مكانه بعدما دله على جزء من الورم ما زال متصلا بجذع الدماغ، وألقى ثقله على كرسي وراح يدلك ذراعيه واصابعه.

ونهض بعد ست دقائق واستأنف التفحص والتملق والحز. الا أن الورم بقي متشبثاً في مكانه بعناد من غير أن يهتز الا قليلا جداً. وانقضت دقائق، ثم نصف ساعة، ثم ساعة كاملة.

وقال لونغ فجأة بصوت ملؤه الغبطة: "ها هو الورم يتحرك... انظر، أطرافه كلها بدأت تنفصل."

غير أن عملية الانفصال كانت في بدايتها. وانقضت دقائق اخرى قبل أن ترتخي البقية الباقية من الورم. واذ أخرجت من الدماغ بدت أصغر حجماً مما كانت في الداخل.

وقال لونغ وهو يبتسم: "حسناً! للمرة الاولى هذا اليوم أعتقد أن في امكاننا ابراء هذا الفتى."

وعاد من جديد ينظر عبر المجهر. وأشار عقرب الساعة الى السادسة ثم تجاوزها. وبعد تحرير جذع الدماغ من الورم ركز لونغ انتباهه على العوامل

التي من شأنها تشويه جو. فالعصب السابع مثلا ما زال يحيطه الورم من نواح، وطلب لونغ احضار آلة كافيترون من جديد بعدما قرر تحرير ذلك العصب من الورم لئلا يحرم جو بعض مباهج الحياة، ومنها الابتسام للفتيات الفاتنات.

واخيراً نظف العصب ولم يبق سوى مقدار ضئيل من الورم فوق البصلة الوداجية، وركزت عدسات المجهر على الكيس الاحمر المنتفخ، ومدت الآلات نحو الورم وباشرت عملها، وأزيل ما بقي من نسيج أصفر، وصاح لونغ مبتهجاً: "بحقّ السماء، لقد انتهينا."

ونظر في غرفة العمليات حوله، ثم تفحص الدماغ عبر المجهر، ولم يعثر على اي ذرة من ورم، وبدت أعصاب الدماغ داخل الجمجمة نظيفة تماماً، والبعض منها يلزمه أشهر كي ينمو من جديد، لكن المهم في الامر ان حياة جديدة كتبت لصاحب تلك الاعصاب، جو تروت، والحق أن ما أنجزه لونغ وفريقه الطبي ذلك اليوم كاد ان يكون معجزة، أو سمه شبه معجزة.

العودة

جرت العادة ان تنقطع العلاقة تدريجاً بين الطبيب والمريض بعد اجراء جراحة ناجحة في الرأس، الا أن جو تروت بقي على اتصال بمعظم أطبائه في المستشفى بعد انقضاء أشهر على عمليته، وأخيراً عاد الى الجامعة، وما لبثت علاماته ان ضمنت له مكاناً على لائحة الشرف.

أما طوني فقد عاد الى البيت بعد علاجه الاخير بآلة كابريكورن (برج الجدي) ليستعيد نشاطه ويستأنف السباحة في بركة جاره، وانقضى الصيف على هذا المنوال من غير أن تعاوده نوبات الصداع.

وقال لأصدقائه: "اني مصمم على قهر هذا المرض."

وكانت زوجته جين تشدده على الدوام وترافقه الى بالتيمور لمراجعة الدكتور سالكمن، وانقضت سنة على الجراحة من غير أن تعاوده الآلام، وشغل ذهنه بأمور اخرى، مثل عمله وكرة القدم وزوجته جين.

أما جوش فقد وقف الدكتور داكر ينظر اليه وهو يهز يده، وسأله الطبيب: "اسمعت بشخص يدعى دوغ ديسانس؟"

ولا شك في أن جوش سمع بنجم البيسبول الشهير في فريق "اوريول".

وراودت داكر فكرة، وهي ان يجمع جوش بذلك البطل الذي عرفه كمريض.

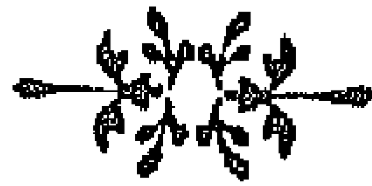
وفي الموعد المضروب ذهب جوش وذووه والدكتور داكر الى ملعب بالتيمور التذكاري، وامسك الطبيب يد جوش فيما هم يدخلون، وانتظروا دقائق في أسفل مقاعد النظارة، ثم برز دوغ ديسانس من باب غير منظور، وبادره الدكتور داكر: "يا دوغ، هذا هو جوش."

ومدّ بطل البيسبول يده مصافحاً بحرارة وهو يقول: "حسناً يا جوش! لقد عرفت ان في امكانك لعب البيسبول من جديد."

وهز جوش رأسه بهدوء.

وتابع ديسانس وهو يبتسم: "تعال يا جوش لنبحث عن كرة نلعب بها، ودعني أجمع لك بعض تواقيع الزملاء."
وفي وقت لاحق أخذ الجميع أمكنتهم المحددة، وطلب الدكتور داكر من جوش أن يريه يده اليسرى. وانتزع الصبي سترته بهدوء ورفع ردن قميصه ومدّ يده. وفحصها الطبيب وهو يركز نظره على الجرح النظيف المختوم ويضغطه ليرى ما اذا كان الفتى استعاد حسه كاملا. وأعلن داكر لوالدي جوش: "أظنّ انه سيبرأ."
في تلك الاثناء كان ديسانس يسجل انتصاره. ونهض جوش وهو يصفق ويطلق صيحات الظفر.

■ **جون فرانكلين وآلان دويلب**



عظيم!

ابتهج آل كامل عندما رزقوا صبياً بعد انتظار طويل. وشاؤوا أن يختاروا له أحسن الاسماء. وبعد مراجعة أسماء كثيرة واستشارة العديد من الاصدقاء والكتب والمجلات، قرّ رأيهم على تسمية المولود "عظيم".
وعاش عظيم كامل طفولة سعيدة لم يعكرها شيء سوى سخرية أترابه من اسمه. وهكذا شبّ على كره هذا الاسم الذي لم تكن له يد في اختياره. ثم تزوج وأنجب أولاداً وأسس تجارة ناجحة، لكنه ما انفك يمقت اسمه حتى النهاية. ولما تقدمت به السنّ أصابه داء عياء. وذات يوم استدعى زوجته وقال لها: "احسّ أن أجلي قريب. وعندما توافيني المنية، أرجو ألاّ يُذكر اسم "عظيم" على شاهدة ضريحي، وأن يكتفى بكامل."
ومات صاحبنا. وكانت زوجته أمينة على رغبته. لكنها رأت ان عبارة "كامل" وحدها لا تكفي، فأضافت اليها الآتي: "لقد عاش حياة زوجية طويلة من غير ان ينظر الى امرأة اخرى."
واليوم، كلما مرّ أحد بضريحه، وقف متمتماً: "عظيم!"

ل.غ.

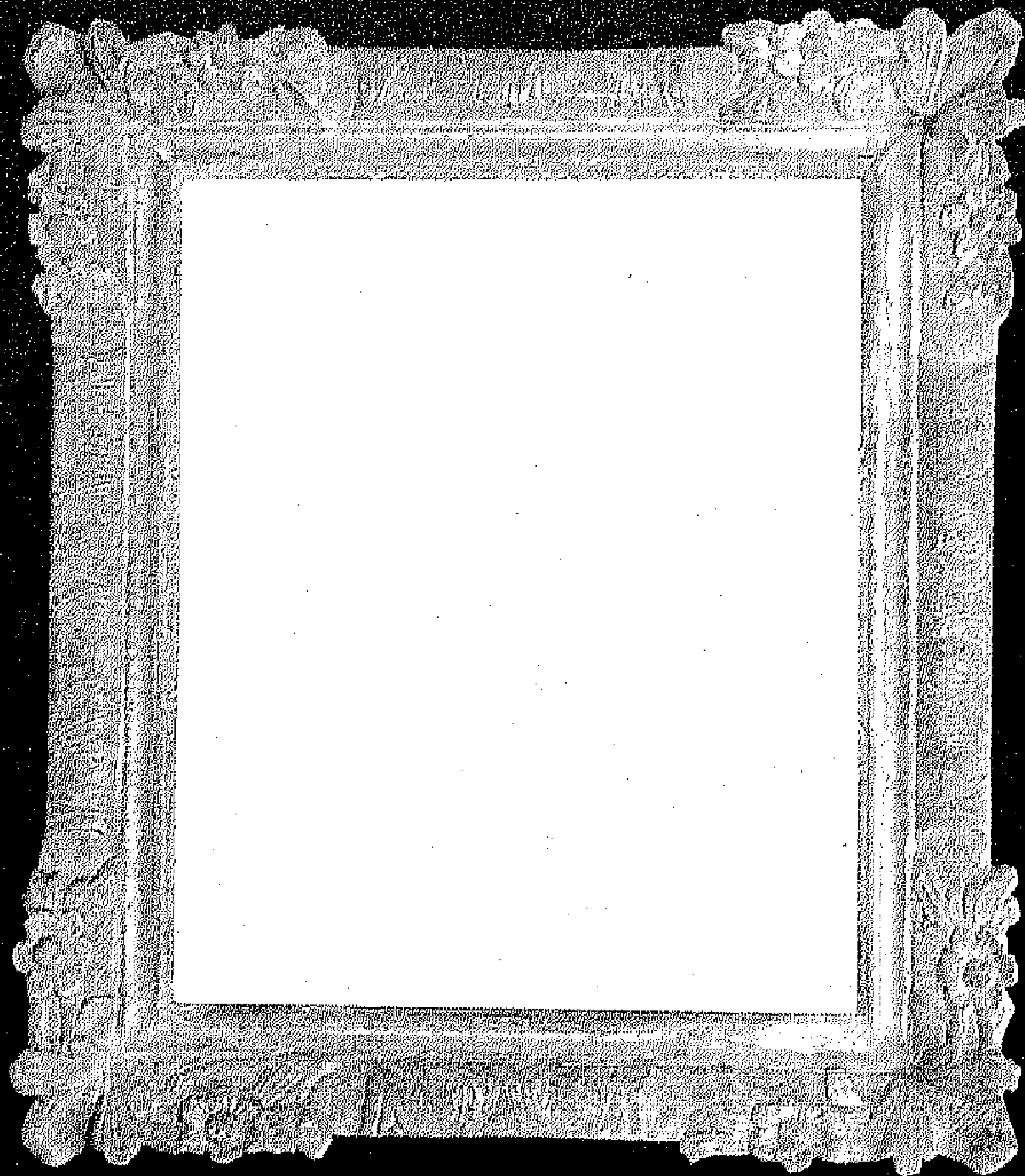
...يتبعهم الغاوون!

بينما وقف المحامي يقرأ مرافعته وسط جلسة حامية، حصلت هزة أرضية ارتجت لها قاعة المحكمة. لكنّ المحامي تابع القاءه بحدة. وبعد ثوان عاد الهدوء، فنظر الى القاضي قائلا: "يبدو ان هناك أحداً يؤيد رأيي يا سيدي." فأجاب القاضي: "هذا صحيح! ألا تدري أن الزلازل تهب من تحت الارض؟"

م.ف.

الحسد ينبع من انعدام الثقة، لا بالآخرين بل بالذات. ر.ك.

كتاب الشهر



يوم سرقت الموناليزا

مُلخص من كتاب
بقلم سيمور رايت

https://t.me/megallat
oldbookz@gmail.com

يوم سرقت الموناليزا

قبل قرن ونيف كتب المؤرخ الفرنسي جول ميشليه عن الموناليزا: "هذه اللوحة تغريني وتدعوني وتقتلعني من مكاني وتحتويني، وإني أذهب إليها رغماً عني، كما يذهب العصفور الى الافعى."

والواقع أن هذه اللوحة أغرت عدداً لا يحصى من محبي الفنّ طوال قرون، ودعتهم إليها واقتلعتهم من أمكنتهم واحتوتهم. وفي مطلع القرن الحالي في باريس، تملكت تحفة ليوناردو دافينشي جوّالا من الارجنتين الى حدّ أنه قرّر إنزالها عن عرشها.

هنا يخبرنا سيمور رايت، في كتابه المنشور عام ١٩٨١، كيف حصلت تلك السرقة الجريئة التي هزّت العالم، ولاسيما متذوّقي الفنّ. ويقول رايت: "لا نجد سرقة فنية مهمة سوى هذه أقامت الارض لدى حدوثها، ولكن لم تلبث أن أقعدتها. وقد حان الوقت لاخراج رواية هذه السرقة من الظل."



Condensed from The Day They Stole The Mona Lisa, copyright (c) 1981 by Seymour V. Reit, published by Summit Books, 1230 Avenue of the Americas, New York, N.Y. 10020

أخذ لوي بيرو علبة الالوان وحامل اللوحات بيد، وباليد الاخرى لوحة غير تامة، وهرع نحو متحف اللوفر الباريسي الشهير. وقد شاء مباشرة عمله هناك في أسرع وقت ممكن، قبل ازدحام المكان بالزوار.

وكان الرسام الشاب الناشىء أصاب حظاً حسناً في بيع لوحاته التي نسخها عن الروائع المعلقة على جدران المتحف. وباع له صاحب صالة العرض في الطبقة الارضية، واسمه فيليب، عدداً كبيراً منها، وكان ينتظر منه المزيد. وقال له: "أريد كل ما يمكنك تزويدي به من لوحات، ولكن سريعاً. فما أن يعود السياح الى أوطانهم حتى تعود الاموال معهم."

ذلك الصيف من العام ١٩١١ اشتد القيظ في باريس حتى أحالها فرناً. إلا أن نسمة عليلة هبت آنذاك عبر نهر السين الذي يشطر المدينة. وأحب بيرو أن يتنزه قليلا وسط ذلك الجو المنشط، غير أنه تذكر طلب فيليب وظل يحث الخطى نحو اللوفر.

وبرهنت فكرة بيرو في رسم مشاهد من داخل المتحف عن جدواها. وفي استطاعة معظم الرسامين محاكاة بدائع المتحف التي كثر الطلب عليها تلك الايام، قبل ابتكار طريقة النسخ الآلي بالألوان. أما رسم الغرف نفسها، مع الكنوز المعلقة على جدرانها، فكان أمراً نادراً.

وألقى بيرو مسنده على أرضية الطبقة الاولى، ووضع عليه قماشة الرسم وشرع يهيىء الالوان. وكان البهو المربع يتألق بروائع المبدعين الأولين. وراح بيرو يتفحص أعمال رفاييل، وبينها "عرس قانا"، وهي لوحة خالدة تحتل جداراً كاملا وترقى الى المرحلة الفيرونية في حياة الرسام العظيم.

ولعن بيرو حظه إذ لم يجد اللوحة التي كان يبحث عنها، والتي تتوسط لوحة كوريجيو "زواج كاترينا السرّي" ولوحة تيتيان "الرّمز".

واستدار بيرو نحو أقرب الحراس إليه وسأله: "أين الجوكوندا يا بوباردان؟"

وهزّ الحارس المتقدم في السن كتفيه واشار باصبعه الى فوق وأجاب: "إنها في المشغل، حيث يتم تصويرها آلياً هذا الصباح... وإلا فأين يمكن أن تكون؟"

وخفق قلب الرسام الشاب. ترى لماذا اختار الموظفون في مشغل التصوير الفوتوغرافي في أن ينزلوا الموناليزا بالذات، وأن ينزلوها هذا الصباح؟ وكان بيرو أبقى قماشته الاخيرة لنسخ رائعة ليوناردو دا فينشي. أما الآن فعليه أن يتحلى بالصبر والانتظار.

ومرت ساعة، ثمّ اخرى. ونحو الحادية عشرة أخذ السياح يتوافدون الى البهو المربع. وتقدّم العديد منهم الى بيرو يشكو غياب الموناليزا التي تجتذب الاكثرية. وذهب الرسام في أثر بوباردان، فوجده يغط على مقعد خشبي. وهزّه من كتفه ورجاه قائلا: "اسألهم فوق لماذا تأخروا في إنجاز مهمتهم، وقل لهم أن يعيدوا اللوحة سريعاً الى مكانها."

وتنهد بوباردان وتوجه متذمراً الى سلم الموظفين. وبعد دقائق ظهر من

جديد وذهب نحو بيرو بخطى راعشة وعينين جاحظتين. ونظر إليه بيرو بدهشة وسأله: "ما الذي قالوه لك؟"

وبلع الحارس ريقه وقال بصوت أجَش: "الجوكوندا ليست هناك، ولم تكن هناك البتة. والمصورون الفوتوغرافيون لا يعرفون شيئاً عنها... لقد اختفت."

السرقة

قبل ٤٨ ساعة من ذلك الوقت، أي يوم الاحد الواقع فيه العشرون من اغسطس (آب) (١٩١١)، كان رئيس عمال اللوفر، جورج بيكيه، يتكىء على حافة رخامية في إحدى طبقات المتحف العليا وينظر الى الجموع فيما هي تتزاحم بالمناكب نحو قاعات العرض.

وكان اللوفر يستقطب مئات الزوّار يومياً. وقد بناه الملك فرنسيس الاول قبل ٤٠٠ سنة كقصر ملكي. وهو الملك عينه الذي رعى ليوناردو دافينشي وابتاع لوحته الخارقة الموناليزا. وفي تلك الاثناء كان اللوفر يضم، الى جانب تلك اللوحة، آلاف الاعمال الفنية الموزعة على قاعاته الفسيحة الانيقة. ويقال ان الجولة على صالات العرض وحدها كانت تستغرق ساعتين كاملتين.

وربما كان جورج بيكيه بين القلائل الذين أنجزوا جولة تامة في المتحف. غير أنه لم يشعر بالفرح وهو ينظر الى الزوار المتوافدين. فهم، في نظره، اناس يطأون أرضه ويلطخون جدرانه ويغرزون اظفارهم في منحوتاته ويتلفون لوحاته مع الوقت باللمس والتّنفّس. ولكن بعد ساعات قليلة ينتهي عذابه وقتياً. وفي اليوم التالي، وهو الاثنين، يقفل المتحف أبوابه للزوار ويأتي الموظفون للتنظيف وإصلاح الاعطال وإعادة تنسيق اللوحات. أجل، إنه يومه هو الذي يعتني خلاله بأرجاء المتحف جميعاً.

ووقف بيكيه يتثاءب. كان ذلك الاحد مملا كآلاف الآحاد التي شهدها. إلا أنه، لمرّة واحدة، أخطأ التقدير. فنحو الثانية والنصف من عصر ذلك الاحد، دخل فينسنزو بيروغيا المتحف من بوابة دينون وهو يبدو كسائر زوار نهاية الاسبوع وقد ارتدى بذلة سوداء واعتمر قبعة قشّ. وضاع ذلك الشاب الايطالي البدين وسط الحشود وهو يتسلق السلم نحو صالات العرض ويشدّ معصمه على انتفاخ ضئيل تحت سترته.

وفي الوقت نفسه دخل المتحف الاخوان لانسيلوتي، فينسنزو وميشال، من بوّابة جناح سولي. وصعدا الى صالة لاس كازس وعبرا أمام أعمال واتو وبوشيه. وكانا يرتديان ثياباً انيقة أيضاً.

وقبيل الثالثة تلاقى بيروغيا والاخوان لانسيلوتي في غرفة صغيرة أنيقة، اسمها صالة دوشاتل. وبينما هم يمشون باتئاد وبعض اضطراب أمام اللوحات، نظر بيروغيا الى ساعة يده... بعد ساعة واحدة يغلق المتحف أبوابه. وإذا أسعفه الحظ، فهذه الساعة كافية لتحقيق غرضه.

وكان المسؤولون في اللوفر عام ١٩١٠ وضعوا بعض اللوحات ضمن

أغلفة من زجاج خوفاً من أعمال السرقة. ولقي ذلك التدبير استنكار بعض المتزمتين الذين احتجوا بأن طبقة الزجاج تحجب أصالة اللوحة وتفاصيلها الدقيقة. إلا أن المسؤولين تجاهلوا تلك الصرخة ودعوا شركة غوبييه الباريسية لتتولى تنفيذ الامر. وكان بين الزجاجين ايطالي شاب اسمه بيروغيا ويعمل طرّاش منازل.

وبدا بيروغيا والاخوان لانسيلوتي مستغرقين في التفكير وهم يتأملون لوحات عصر النهضة في صالة دوشاتل. وأبقى بيروغيا عينيه على مدخلي الغرفة المقوّسين، وأحدهما يؤدي الى الردهة حيث تباع الرسوم والنسخ والكتب الفنية، والآخر يفتح مباشرة على البهو المربّع.

وكان بيروغيا، خلال الساعات الطوال التي أمضاها في العمل على غلاف الموناليزا الزجاجي، تعلم الكثير عن أوقات ازدحام الزوّار وبرامج الحرس ومداخل الخدّم والابواب التي تبقى موصدة. كما لاحظ غرفة الايداع الصغيرة حيث يبقي الرسامون عدّتهم ليلا. ومثله مثل متاحف كثيرة، سمح اللوفر على الدوام للرسامين بمحاكاة الاصول المعروضة في بعض الصالات، لكنه لم يتح لهم تقليد الحجم منعاً للتزوير. وكانت غرفة الايداع عبارة عن حجرة ضيقة وراء باب أنيق التصميم في الحائط الغربي من صالة دوشاتل. وفي ذلك الوقت كان فينسنزو بيروغيا تعلم طريقة فتح ذلك الباب ـ اللوحة عبر قفله المحجوب.

وبسبب ازدحام الزوّار، لم يُسمح للرسامين بالعمل في صالات اللوفر أيام الاحد بسبب الازدحام وايام الاثنين بسبب إغلاق المتحف. وهذا يعني أنه لم يكن ثمة دافع لأحد كي يدخل غرفة الايداع بين الخامسة من مساء السبت وصباح الثلثاء.

وفي تمام الرابعة والدقيقة الرابعة والثلاثين عصر ذلك الاحد، أعلن الحرّاس إغلاق الابواب في وجه الزوّار الجدد، وراحوا يوجهون الزوار في الداخل نحو المخارج. وبعد قليل خلا المتحف من كل زائر، باستثناء ثلاثة وقفوا في غرفة الايداع وراء صالة دو شاتل، وهم بيروغيا والاخوان لانسيلوتي الذين حاولوا الوقوف حَسَنًا بين المحامل وعلب الالوان وأقمشة الرسم واللوحات غير المنتهية.

وأخرج الرجال صرراً من تحت ملابسهم وتبادلوا النظرات. وراح بيروغيا يهزّ رأسه بصمت وقد جلس القرفصاء وألقى ظهره على فجوة الجدار. لقد ساعده الحظ حتى ذلك الحين، ولكن عليه أن ينتظر حتى الصباح.

المحتال الأكبر

فيما بيروغيا والاخوان لانسيلوتي يتحرّكون بحذر في تلك الغرفة، كان الرجل الذي صمم تحركاتهم يرتدي ثيابه استعداداً لعشاء في فندق باريسي فخم.

ذلك هو ادواردو دو فالفييرنو الذي ولد في بوينس آيرس عاصمة الارجنتين في الخمسينات من القرن الماضي، لأب مزارع من أصل

كاستيلي. وانتحل فالفييرنو لقب "ماركيز" وأعال نفسه ببيع اللوحات الفنية التي ورثها عبر السنين من أفراد عائلته.

ولما خلت غرفه من اللوحات والسلع النادرة والاثرية، ارتأى "الماركيز" أن يصنع أعمالا جديدة ويجد لها سوقاً. ووسع دائرة معارفه في بوينس آيرس لتضم عدداً من نبلاء سان باولو وريو دوجانيرو في البرازيل، فضلا عن بعض الحديثي النعمة والسياح الاثرياء من أمريكا الشمالية. وسرّ اولئك الزبائن بتلك "الاثريات التي لا تقدّر بثمن" والاعمال "النادرة" التي حملها إليهم فالفييرنو المهذب الذي نظروا إليه كصديق مساعد أكثر منه تاجراً.

وكان فالفييرنو قبل ذلك الحين تعاون مع جامع ومرمم فني من مرسيليا، اسمُه ايف شودرون. وأمن الماركيز الاتصالات الاجتماعية، فيما قدّم شودرون المتواضع موهبته واجتهاده. وبمساعدة بعض المقرّبين الكتومين أسس الشريكان تجارة مزدهرة للاعمال الفنية المصغرة التي قال فالفييرنو إنها كانت تضاهي الاصل جودة.

وفي العام ١٩٠٨ نقل الماركيز مقرّه الى العاصمة الفرنسية. وهناك عام ١٩١٠، حداه عاملان على تنفيذ أكثر إنجازاته إثارة. العامل الاول هو اهتمامه بالخطة الرامية الى تغليف روائع اللوفر، ومنها الموناليزا، بالزجاج الواقي. أما العامل الثاني فكان وجود شريكه السابق شودرون في باريس. ومن أجل تنفيذ خطته، كان الماركيز يحتاج الى شخص قدير داخل المتحف.

وقال الماركيز بخفة لصديقه شودرون وهما جالسان في مقهى "فاشيت": "يجب أن يكون معاوننا شخصاً عمل في اللوفر سابقاً وعرفه حَسَناً."

وبعد ساعات قليلة في المقاهي والمطاعم القذرة التي يرتادها العمال في الدائرة التاسعة عشرة من باريس، وبعد تحريات دقيقة مدروسة، عثر فالفييرنو على فينسنزو بيروغيا.

وفيما الماركيز يرتدي ثيابه استعداداً للعشاء مساء ذلك الاحد، لم يتمالك النظر الى ساعة يده تكراراً. وكان ذلك كل ما استطاعه. وإذا جرت الامور كما هو مصمم، فهذا يعني أن بيروغيا ومعاونيه الايطاليين مختبئون في غرفة الايداع في تلك الساعة.

ولم يكن فالفييرنو راضياً تماماً عن بيروغيا. فهو في رأيه رجل بسيط، وإن أمكنه اعتماد الدهاء أحياناً. لكن دهاءه القليل ومعرفته بالمتحف عنصران إيجابيان أديا الى تكليفه. ومن أجل تقوية إمكانات النجاح، عمد فالفييرنو الى تدريب بيروغيا وقتاً طويلا. وكانت معرفة الماركيز بسجل عميله العدلي غير الناصع واعتقاله سابقاً على يد الشرطة حافزاً له على إخضاع بيروغيا وضمان طاعته.

أما الماركيز نفسه فكان في مأمن أكيد. وإذا تمّ اعتقال الرجال الثلاثة في اللوفر، فليس ثمة دليل واحد على علاقته بهم. وهم لا يعرفونه إلا باسم "سينيوري" (السيد) كما يجهلون

مخططه الحقيقي بالنسبة الى الموناليزا.

والحق أن فالفييرنو كان على وشك تنفيذ أهم أفعاله الاحتيالية.

وتجمدت أوصال الثلاثة إذ سمعوا وقع خطى خارج غرفتهم. وانحسر الصوت حتى اصبح في نهاية الصالة الكبرى. وشرع فينسنزو لانسيلوتي يقضم قطعة من الجبن. وقوّم بيروغيا شاربيه بنزق، وراح يهوّي وجهه بقبعته ويقاوم حاجته الى العطس.

وللمرّة المئة استعاد في ذهنه تعليمات السينيوري التي لقنه إياها مرة بعد اخرى، وهي تخص التوقيت وخرائط الطبقات ومفتاح الباب في ممرّ الطبقة الارضية. ولم ينس الماركيز تزويد عميله بلوح خشب قُص بالحجم المناسب لوضع اللوحة بعد إخراجها من إطارها. ولم يكن ذلك بالامر الضروري، نظراً الى أن بيروغيا عرف اللوفر جيداً خلال الاسابيع التي أمضاها عاملا فيه. إلا أن السينيوري عامل رجاله كاغبياء يعجزون عن اتخاذ القرار الصائب. والواقع أن بيروغيا كان مؤهلا لتنفيذ عمله.

وراح بيروغيا يفكر في ما آل إليه. وهو جاهد طوال سنوات ليجعل من نفسه دهاناً منزلياً قديراً. فاحتمل الوحدة والعمل الشاق والبعد طويلا عن الوطن من غير مستقبل مضمون مع راتب يومي ضئيل. أما الآن فالحظ ينتظره بالمرصاد. ولقد دفع له السينيوري بعض المال نقداً ووعده بمبلغ إضافي. وإذا سارت الامور حسناً يوم غد، فلسوف يؤوب الى بيته الحبيب في بلدة دومنزا اللومباردية الايطالية، حيث سيكون أغنى سكانها.

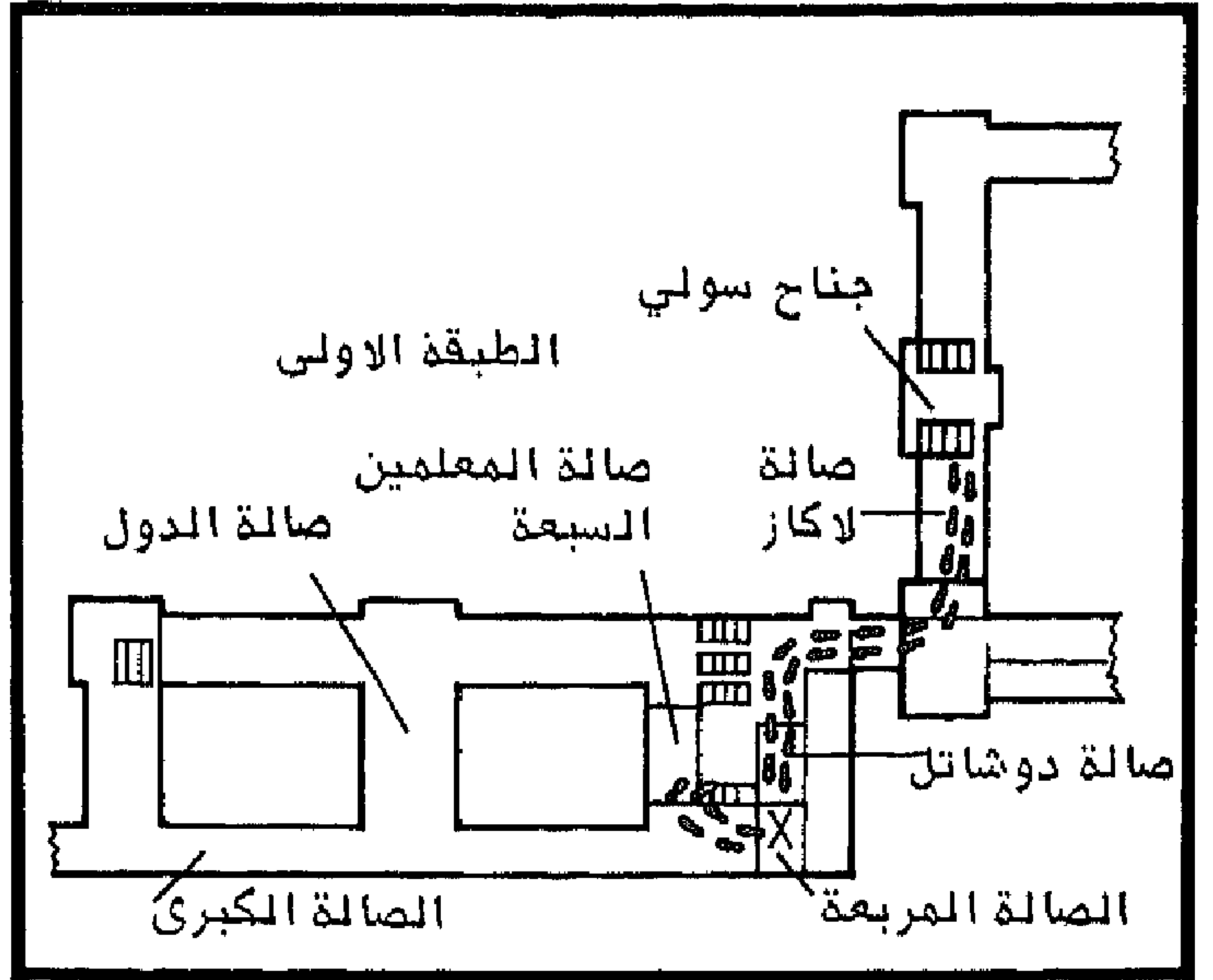
أما أصدقاء بيروغيا في باريس فكانوا أناساً مقتلَعي الجذور مثله، وبينهم النجار والبناء والرسام ومقلم الحجار وسوى هؤلاء، من الحرفيين الذين تركوا قراهم في البرّ الايطالي وفي صقلية طلباً للعمل والمال في باريس. وطالما سخر الفرنسيون الذين عمل بيروغيا معهم من طريقة لفظه الكلمات الفرنسية وسموه "آكل السباغيتي". وكلما أدار ظهره كانوا يسرقون عدّته ويسكبون الملح والفلفل في شرابه. وتكوّنت لديه حجة تقول بأن نابوليون بونابرت نهب نصف اللوحات التي يحويها اللوفر من ايطاليا. وها قد حان الوقت، بفضل السينيوري، كي تستردّ ايطاليا أفضل أعمالها الفنية طرّاً. والمسألة كلها وقف على التقيد بأوامر السينيوري.

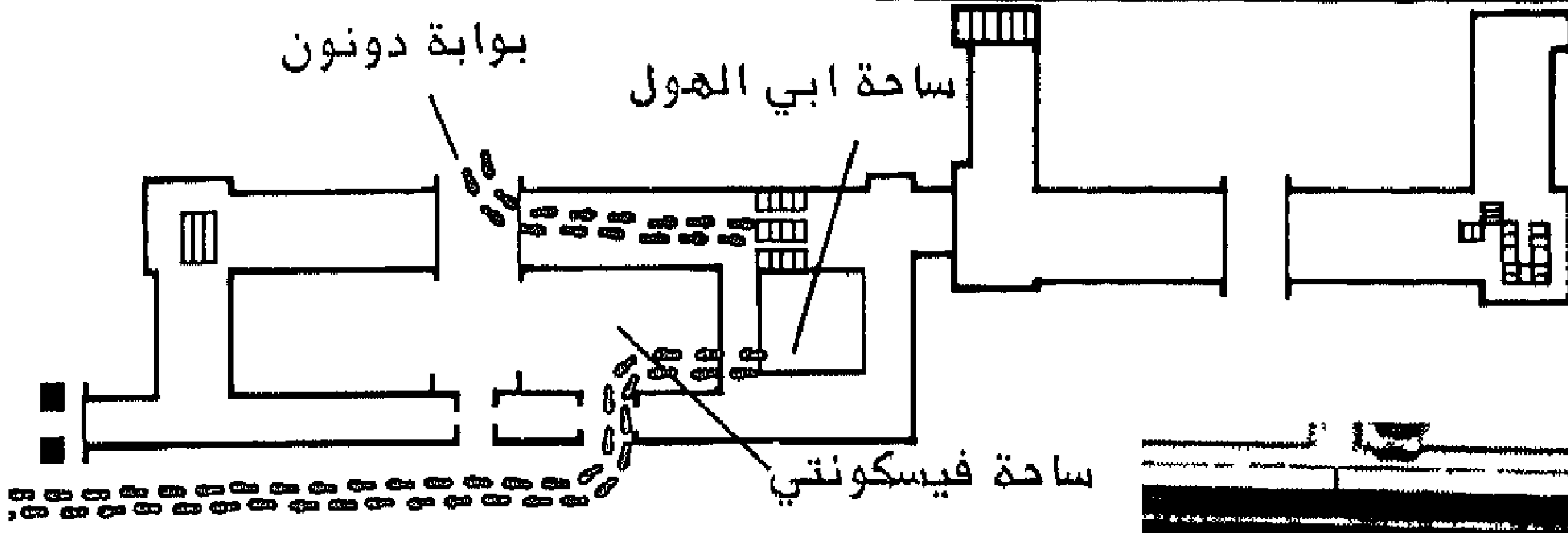
إخراج الموناليزا

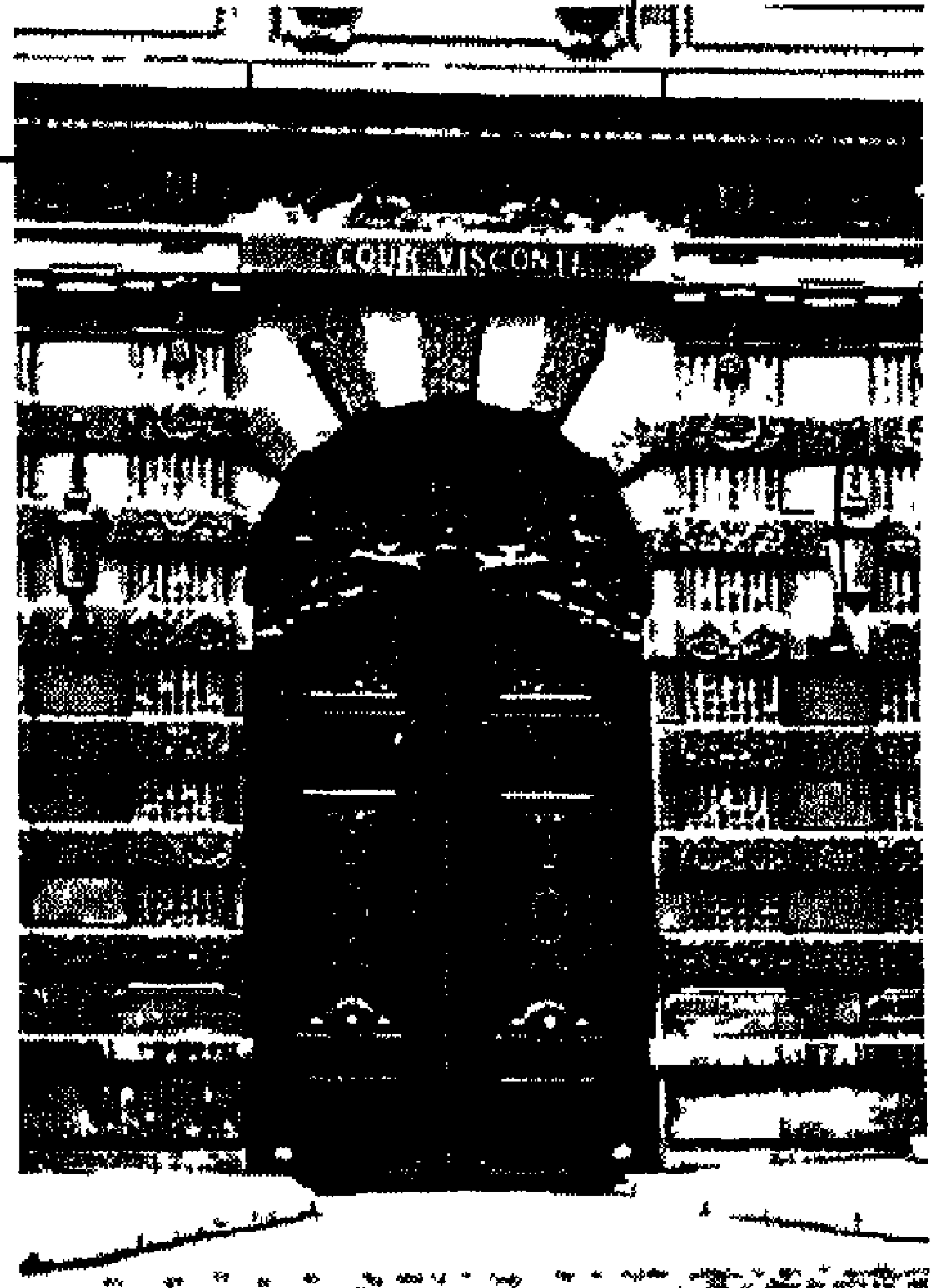
أيام الاثنين تدب الحياة في اللوفر باكراً جداً، إذ تفتح الابواب في السادسة والنصف صباحاً ليدخل موظفو الصيانة الذين يعملون في إشراف جورج بيكيه.

وفي غرفة الايداع الضيقة فتح كل من المغامرين الثلاثة صرّته وسحب منها سترة فوقية حتى مستوى الركبتين وارتداها ليبدو كالعمال في بزاتهم البيض.

وفي السابعة والدقيقة الخامسة







خرج الثلاثة الى صالة دوشاتل الخالية. وكانت على الجدار مكنسة ذات مقبض طويل، أخذها فينسنزو لانسيلوتي وشرع ينظف الارض بحماسة. وتناول أخوه ميشال خرقة من جيبه وتظاهر بأنه يمسح الغبار عن أُطر اللوحات والاثاث. وتوجه بيروغيا نحو البهو المربّع ثم عاد سريعاً إذ رأى جورج بيكيه مع فريق من الموظفين الجدد أمام الموناليزا. وتسلم ميشال وظيفته كمراقب عند الباب الاقصى.

وبعد دقائق ثلاث خلا ذلك الجدار

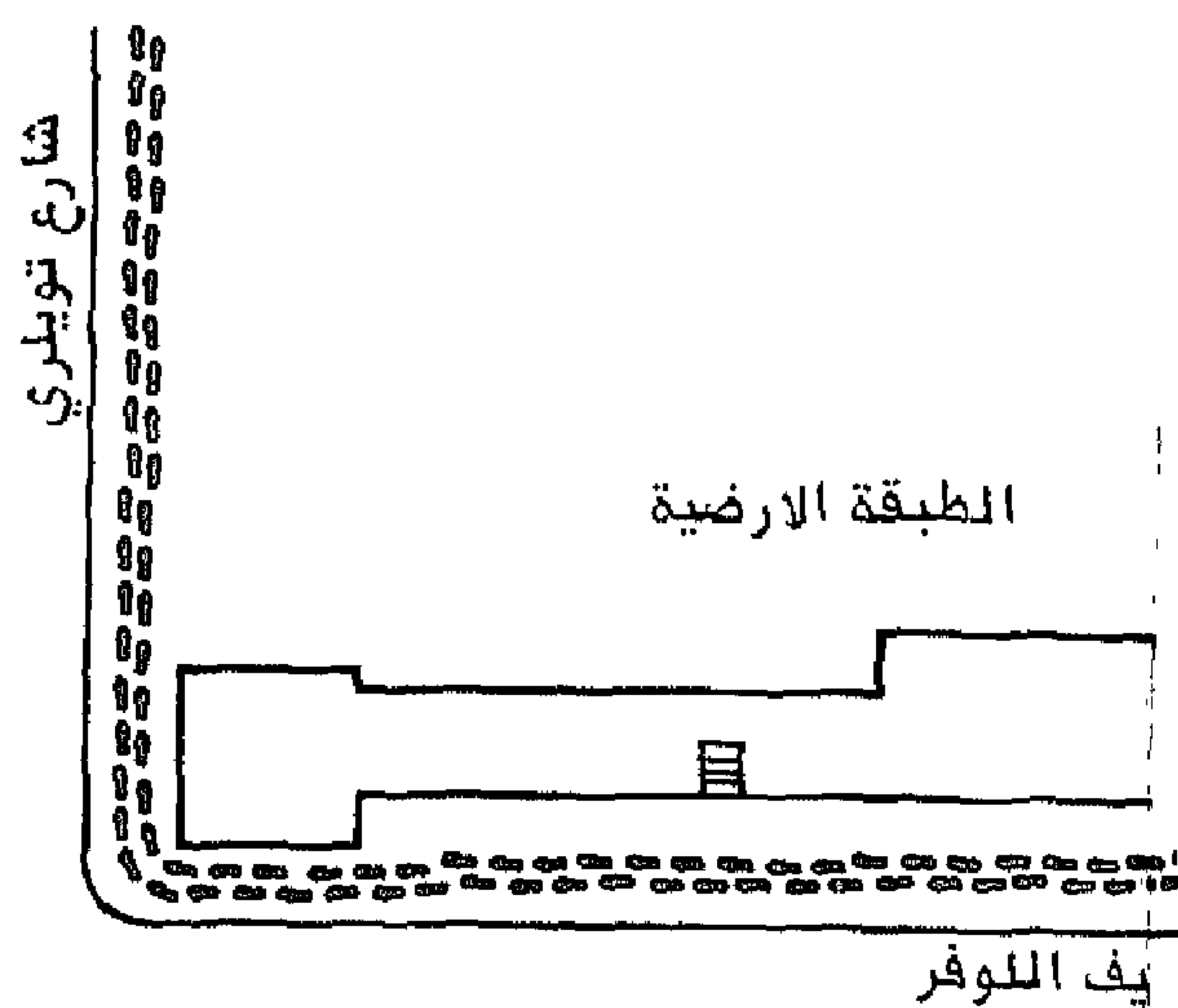
العادة أن تُنقل بعض اللوحات أيام الاثنين من مكان الى آخر ليعمل عليها المصورون والمرممون وأمناء المتحف.

وبعد إنزال الجوكوندا من جلالها في الصالة المربعة، حملها اللصوص كما هي عبر الصالة الكبرى وصالة "المعلمين السبعة"، ثم عبروا بها فتحة تؤدي الى سلم الخدمة ذات النور الضئيل.

والموناليزا رسمت على لوحة ملساء من خشب الحور كما شاع بين رسامي النهضة الايطاليين. وإذ وجد بيروغيا نفسه في مأمن وراء الباب في أعلى السلم، نزع الاطار الثقيل عن اللوحة ووضعه، مع زجاجها الكثيف، في زاوية هناك، ثم تأبط اللوحة الثمينة ونزل عن السلم وفي أثره الاخوان لانسيلوتي.

وما أن صارت الجماعة تحت حتى دّق ناقوس الخطر. فقد أُقفلت جميع أبواب الطبقة الارضية المؤدية الى الخارج لأسباب أمنية. وكان السينيوري زوّد بيروغيا بمفتاح لتلك الغاية. غير أنه نسي أن يجرّب المفتاح قبل حين. ولما وضعه في القفل لم يستطع تحريكه. وكانت كل ثانية تمرّ تضاعف الخطر، فضلا عن استحالة عودة الثلاثة من حيث أتوا واللوحة معهم.

ولبضع دقائق تبين أن خطة السينيوري المحكمة ستؤول الى إخفاق في أسفل تلك السلم. وطلب بيروغيا من رفيقيه ان يصعدا الى فوق لمراقبة الوضع فيما اقتلع مقبض الباب ووضعه في أحد جيوب سترته. وظهر ميشال والهلع على وجهه. وقال



في الصالة المربعة من أشرف اللوحات التي يتباهى بها اللوفر والامة الفرنسية.

وفي صالة العرض الكبرى المجاورة، راح اثنا عشر رجلا على الاقل يعملون على تركيب لوح زجاجي جديد مكان آخر مكسور في إحدى النوافذ. وكان عليهم إزاحة بعض اللوحات كيما يتمكن العمال من مباشرة مهمتهم. ولم يتنبه أحد للعمال الثلاثة في ستراتهم البيضاء وهم يحملون الجوكوندا بهدوء من أحد أبواب تلك الصالة. وقد جرت

بصوت خفيض: "انتبه، ثمة وقع خطى في اتجاهنا."

وعند حسن ظن الماركيز بد، أخفى بيروغيا الموناليزا تحت سترة الخدمة البيضاء وثبتها في مكانها بمعصمه وأدار تلك الجهة لئلا يلاحظها القادم الجديد وهو ينحدر عن السلم حاملا عدّته.

وكان ذلك الرجل سوقيه السمكري. وللحال تلبس بيروغيا دور المبادر وصرخ: "ثمة مغفل سرق مقبض هذا الباب... ترى كيف نخرج من هنا؟ أنزحف تحت العتبة؟"

وهدأ سوفيه روعه قائلا: "لا عليك يا أخي." وأخرج مفتاحاً من جيبه فتح به الباب وقال: "اخرجوا من هنا، ولكن اتركوا هذا الباب مفتوحاً لئلا يزعج إقفاله سواكم."

وخرج الاخوان وراء بيروغيا الذي ما زال يحس ألماً في ذراعه لاحتضانه الكنز. لكنه مشى متشامخاً حتى غدا ورفيقيه في ساحة داخلية صغيرة معروفة باسم "ساحة أبي الهول." وبحسب الخطة، عبروا مبنى ملاصقاً أفضى بهم الى ساحة فيسكونتي. وعند الجانب الجنوبي من تلك الساحة المربعة ردهة ذات باب مفتوح على الشارع. ووجد بيروغيا نفسه، والكنز تحت سترته، على بعد أمتار قليلة من الحرية. لكنه خاف إذ رأى حارساً يسدّ المدخل.

ومرّة اخرى ابتسم الحظ للرجال الثلاثة. فالحارس المولج بذلك الباب كان غائباً. ووقف الحارس البديل ينظف الباب بخرقة. وحمل دلوه وسار الهوينا نحو غرفة الخدمة ليأتي بالماء النقي. وأبقى باب الردهة مفتوحاً. وخلع الثلاثة سترهم البيضاء. ولف بيروغيا اللوحة المسروقة بسترته ووضعها تحت قبعة القش التي تدلت من خصره. ولم تكن الساعة بلغت الثامنة حين وجد اللصوص أنفسهم في شمس الشارع الصباحية الرائعة.

وساروا بنشاط وخفة واستداروا يميناً الى رصيف اللوفر. وأحس بيروغيا ثقل المقبض في جيبه. ومن غير تفكير في الامر، أخرجه ورماه في حفرة. وصادف أن شاهد موظف حانوت تلك العملية التي لم تَعن له شيئاً.

وعند منعطف في شارع تويلري، المعروف اليوم باسم جادة الجنرال لومونييه، وقفت سيارة تنتظر وقد رشي سائقها ليبقي فمه مطبقاً بعد أخذه ثلاثة ركاب من هناك. وتبادل الثلاثة الابتسام فيما هم يركبون السيارة. وراود بيروغيا شعور بالظفر وهو يجلس وفي حضنه الرزمة البيضاء المستطيلة. ونظر الى ساعته، فوجد أن سرقة الموناليزا استغرقت ساعة كاملة بعد خروجه ورفيقيه من معتصمهم في غرفة الايداع.

العصابة

كان المقصد الاول لأفراد العصابة بعد السرقة غرفة عشيقة فينسنزو لانسيلوتي الواقعة في أعلى إحدى بنايات شارع مستشفى سان لوي في دائرة باريس العاشرة. وكانت فرنسواز سيغنو، صاحبة الغرفة، في نحو الاربعين، وهي تنتمي الى جيش

نسائي جرار يمتهن خدمة المنازل. وكانت حجرتها البالية المجهولة تلائم أهداف فالفييرنو. وترك بيروغيا اللوحة هناك وهرع الى عمله مع متعهد دهان في شارع موبوج. وإذ بلغ عمله بعيد التاسعة ذلك الصباح، عوضاً عن السابعة، اعتذر بحجة النوم طويلا. وقبلت حجته من غير تفكير. والشائع بين الموظفين أن يتأخروا قليلا عن أعمالهم صباح الاثنين.

وبعد العمل أسرع بيروغيا الى شارع مستشفى سان لوي. وما لبث الماركيز نفسه أن وصل بناء على موعد. وراح يتفحص بسمة الموناليزا الاسطورية بغبطة ويصغي الى بيروغيا وهو يقص عليه أحداث ذلك الصباح. ولفّ فينسنزو لانسيلوتي اللوحة بقطعة مخملية حمراء اشترتها عشيقته. وسحب فالفييرنو مبلغاً نقدياً كبيراً دفعه لعملائه، من غير أن ينسى السيدة سيغنو التي أبقت عينيها مفتوحتين على كل شيء. واستحلفهم جميعاً ألا يقرّوا بكلمة. ثم خرج مع بيروغيا في نزهة تخللها حديث خطير. فقد قال له السينيوري أن يتوقع زيارة من الشرطة بما أنه خدم في اللوفر سابقاً. ونبهه الى أن تلك الزيارة لا تشكل اتهاماً، طالباً منه ان يستقبل رجال الشرطة ويجيب عن أسئلتهم بترحيب. وحذره من نقل اللوحة الى غرفته في شارع مستشفى سان لوي قبل أن يتركه المحققون وشأنه. واقترح عليه السينيوري أن يخبئها في مكان أمين، ربما خلف جدار سري في الخزانة. وأضاف: "سأسافر لمدّة قصيرة، لكني لن أقطع أخباري عنك... احفظ الجوكوندا بعناية وانتظر تعليماتي. وفي هذه الاثناء اذهب الى عملك بكلّ هدوء كالمعتاد."

وحرص الماركيز على تذكير بيروغيا بمآزقه السابقة مع القانون. وحذره من الوقوع في أي خطأ هذه المرّة، بالقول أو بالعمل. ثم افترق الرجلان.

وفي طريقه الى فندقه توقف الماركيز في مكتب تلغرافي لارسال برقيات الى بعض الاشخاص في مدينة نيويورك. وفي الفندق حجز مكاناً لرحلته على متن باخرة متوجهة الى الولايات المتحدة. وبعد ذلك دخل شقته وجلس يتصفح عدداً من صحف العصر.

ولم يجد في أي منها ذكراً لاختفاء أعظم عمل فني تملكه فرنسا. ورمى فالفييرنو الصحف جانباً بانزعاج وهو يفكر في تفسيرين ممكنين: إما أن تكون السرقة غير مكتَشَفة بعد، وهو أمر يفوق التصديق لكنه ليس مستحيلا، وإما أن تكون إدارة اللوفر سترتها عمداً.

والتكتم حول الامر لم يكن في مصلحة فالفييرنو. فهو كان يحتاج الى إسقاط النبأ كمفاجأة مذهلة من أجل المضي في مخططه. ذلك أنه من الضروري أن يعرف العالم خبر سرقة رائعة ليوناردو من اللوفر في وضح النهار.

وفي مكان آخر شديد القذارة من العاصمة الفرنسية، تمدد فينسنزو بيروغيا فوق سريره الصارّ وراح ينقر أوتار آلة الماندولين التي يملكها.

وأعانته الموسيقى على تركيز أفكاره.

ترى لماذا ترك السينيوري اللوحة النادرة في حوزة فينسنزو لانسيلوتي بدلا من أن يأخذها معه؟ لقد كان بيروغيا متأكداً من أن معلمه سيحمل اللوحة ويبيعها في صفقة سرية. والحق أن كل شيء تم كما شاء المعلم. وما على بيروغيا الآن سوى الانتظار. غير أن قلقه لن يزول قبل أن يضع الجوكوندا في غرفته.

وكان بيروغيا أخبر صديقاً في ايطاليا قبيل مجيئه الى فرنسا: "اني ذاهب على القدمين، وسوف أعود في سيارة." وخيل إليه الآن أنه يقود سيارة "ديملر" كبيرة في شارع دومنزا الرئيسي وينقر بوقها النحاسي المثبت الى جانب كرسي السائق. وفكر في والديه وشقيقته وأشقائه الثلاثة، وكيف ستجحظ أعينهم لتلك النعمة.

لكن المهم الآن أن يكون المرء عملياً. ولئن يكن من العسير فهم السينيوري على حقيقته، إلا أنه أبدى كرماً واسعاً تجاهه. ولا شك في انه رجُل أفكار ومبادىء، وانه موضع ثقة. لذلك قرّ رأي بيروغيا على أن يتصرف كالمعتاد ويترك الباقي لمعلمه.

خطة فالفييرنو

في نهاية ١٩١٠ كان فالفييرنو قصد اللوفر برفقة صديقه شودرون لفحص الموناليزا.

وسأله الماركيز: "أفي إمكانك أن تصنع نسخة طبق الاصل عنها؟"

وبعد فحص دقيق، أجاب شودرون: "المشكلة الرئيسية هي في خطوط ليوناردو الناعمة وإتقانه تدرّج الألوان. لذلك كان التقليد عسيراً جداً، لكنه غير مستحيل."

وأمسك فالفييرنو ذراع الفنان الناحلة وقال: "دعنا ندرس الامر في مكان آخر."

وفي زاوية قصية في مقهى "لا فاشيت" أفضى الماركيز بخطته الذكية.

في الايام الماضيات في أمريكا الجنوبية، لجأ الماركيز مراراً الى بيع لوحات من أعمال موريلو وسواه وهي معلقة على جدران المتاحف بالتفاهم مع الزبون على إرسال اللوحة إليه في أقرب وقت بعد إجراء الصفقة. وبرهنت تلك الطريقة عن جدواها، نظراً الى ان ضحاياها كانت اشخاصاً لا تحتمل عودتهم في زيارة ثانية الى البلاد. وكان فالفييرنو يستدعي الزبون الى المتحف ويريه اللوحة التي يودّ شراءها. وعبر رشوة الحرّاس، كان يزيح جانباً من الاطار ويدعو الزبون الى توقيع اسمه أو رسم إشارة خاصة على ظهر اللوحة ليتمكن من التعرف عليها لاحقاً، ويكون ذلك برهاناً على ان الماركيز انجز مهمته. لكن حقيقة الامر أن إشارة الزبون كانت ترتسم على نسخة ممتازة من صنع شودرون وضعت وراء اللوحة الاصلية. وكانت النسخة تُرسَل الى الزبون لاحقاً على أنها اللوحة الاصلية المدموغة بطابعه.

ومع اللوحة، كان الماركيز يرسل الى ضحيته قصاصات صحف أمريكية

جنوبية مزوّرة تقول ان أحد أعمال موريلو أو سواه سُرق من هذا المتحف أو ذاك. وإذا حدث أن عاد زبون الى المدينة ووجد التحفة الاصلية حيث كانت على جدار المتحف، قيل له ان تلك نسخة اضطرت ادارة المتحف الى تعليقها لايهام الزوّار باستعادة ما سُرق.

وكان الماركيز يطمئن زبونه القديم بقوله: "اللوحة التي تراها معلقة هي تقليد رائع يحاكي الاصل. لكنك، يا سيدي العزيز، صاحب الاصل الآن." وكان يقول ذلك بطريقة تقنع الزبون.

واقترح فالفييرنو على شودرون اللجوء الى ما يشبه الخطة القديمة في شأن الموناليزا، على أن تباع مراراً وليس مرّة واحدة.

وحدّق إليه شودرون وهو لا يصدق ما سمعته أذناه، وقال: "ماذا يا ماركيز؟ أتظن أن باريس مثل أمريكا الجنوبية؟ أوَنَسيت أن الموناليزا أشهر لوحة في العالم كله، وان مئات الناس يقصدون اللوفر يومياً لا لشيء سوى الوقوف أمامها؟ وهم يرونها قبالتهم على الجدار في البهو المربع... إن سرقة الموناليزا مستحيلة، والناس لا يصدقون حصولها."

وهزّ فالفييرنو رأسه وقال: "كلامك صحيح. ولهذا السبب بالذات لن نتظاهر بأننا سرقنا الموناليزا. ولسوف نعمد، يا عزيزي شودرون، الى طريقة اخرى، فلا نلصق نسخاً وراء الاصل ولا نجهز قصاصات مزيفة. إننا سنسعى الى عناوين صحافية واقعية ومقالات مثيرة تقنع زبائننا. ولكن علينا أولا أن ننجز لكل زبون نسخة تضاهي الاصل."

واستهل شودرون عمله سريعاً. وكان عليه بادىء الامر أن يذهب الى اللوفر وينجز نسخة طبق الاصل عن الموناليزا. وراح يتفحص اللوحة بعدسة مكبرة كيما يتسنى له تقليد الالوان. وأنجز المهمة في أيام قلائل.

وبعد إنهائه الرسم المصغر الذي ينسجم وقوانين المتحف، تعين عليه أن يجد ألواحاً خشبية قديمة لنقل الرسم الى كل منها. وأتى فالفييرنو بسرير ايطالي قديم قُطعت أخشابه ألواحاً مستطيلة بالقياس المناسب، وهو ٧٧ سنتيمتراً طولا و٥٣ سنتيمتراً عرضاً.

ولنقل الموناليزا من الورق الى الخشب، استخدم شودرون آلة ضوئية تعكس الرسم وتكبره. وراجع الوثائق المحفوظة في مكتبات باريس حول الطرائق التي اعتمدها اساتذة الرسم القدامى. وقد اعتاد فنانو عصر النهضة الكبار، أمثال ليوناردو ورفاييل وتيتيان، طلي اللوحة بطبقات من الاصباغ وإضافة طلاء أملس صقيل لأضفاء انطباع عمقي متعدد الابعاد مكان الرسم التقليدي المستوي. وقد لجأ كبار فناني النهضة الى عشرات الاصباغ والالوان التي لم يستطع شودرون مجاراتهم فيها. إلا أنه حاول تقليدهم ما أمكنه. وكان يتقيد بألوان السالفين ما استطاع وينبذ ما شاع بعدهم. وفي حين أخطأ سواه من المقلدين في بعض التفاصيل، ومنها استخدامهم

المسامير المصنوعة آليا، تجنب شودرون تلك الاخطاء في نقله الموناليزا الى الواح الخشب القديمة.

وما أن فرغ من الرسم حتى واجهته مشكلة اخرى، وهي إضفاء انطباع القدم على لوحاته، وذلك عبر تشقيقها ليظهر مرور أربعة قرون من الزمن عليها. ولتلك الغاية أضاف طبقتين من الطلاء، أدناهما بطيئة الجفاف وأعلاهما سريعته. وبوضعه كلا من اللوحات تحت مروحة، حصل على النتيجة التي اراد. وبعد ذلك كله رشّ نثاراً من غبار الغرافيت الرصاصي هنا وهناك.

واليوم يعتمد الخبراء وسائل عدّة لكشف هذا النوع من التزوير. لكن الطريقة الوحيدة في مطلع القرن كانت أحكام الخبراء الذوقية والعودة الى سجلات التاريخ.

وهكذا صنع شودرون ستّ لوحات مزيّفة للموناليزا. وفي يونيو (حزيران) ١٩١١ كان فالفييرنو نقلها كلها الى نيويورك وأودعها مكاناً أميناً. وكان الاثرياء عبر الاطلسي اعتادوا ابتياع نسخ مصغرة من لوحات رمبراندت وروبنز وفرمير وكورو ورفاييل وسواهم. لذلك لم يكن اجتياز نسخ الموناليزا حدود الولايات المتحدة بالامر المستهجن.

ومن أجل تأمين زبائن أثرياء، عمل فالفييرنو مع خبيرين محنكين لم يعرفْ أحد هويتهما الصحيحة على الاطلاق. وتعاون الثلاثة للعثور على زبائن في أمريكا يهمهم اقتناء أشهر لوحة في العالم إذا أمكن تهريبها الى بلدهم بطريقة ما. وبعد أسابيع من النشاط المكثّف عثروا على ستة شارين ظنّ كل منهم أنه الشاري الوحيد.

وحان موعد الفصل الاخير من المخطط، ألا وهو انتشار خبر سرقة الموناليزا. وإذا نجحت هذه السرقة، فهي ستزود فالفييرنو بالمفاجأة المذهلة التي يسعى إليها. وإذا أخفقت، فستبقى في حوزته ست نسخ ممتازة عن الموناليزا، تبلغ قيمة الواحدة منها مئات الدولارات.

نجاح الخطة

حين اكتشف الرسام لوي بيرو وحارس اللوفر بوباردان غياب الموناليزا عن جدار الصالة المربعة، كان قد انقضى نحو ٢٧ ساعة على اختفائها. وكانت الساعة الحادية عشرة من صباح الثلثاء ٢٢ اغسطس (آب) عندما راجع بوباردان مشغل التصوير ونبه رئيس العمال، جورج بيكيه، الى الامر. وللحال تم الاتصال بمدير شرطة باريس لوي ليبين الذي تولى بدوره إعلام مديرية الامن الوطني ووزير الداخلية بالامر قبل أن يسرع الى اللوفر ليبدأ التحقيق بنفسه.

وفي الثالثة عصراً أصدر ليبين أمراً الى رجاله وحراس المتحف باخلاء الغرف وإقفال جميع المخارج لمباشرة العمل. وأخرج الزوار من اللوفر بذريعة انفجار انبوب ماء ينبغي اصلاحه حالا.

وانضم عدد كبير من الصحافيين الى الحشود المنتظرة بدهشة في الخارج. وبقوا هناك طوال الساعات

التي أمضاها فريق الشرطة والحَرس مفتشاً الاروقة والسلالم والخزائن والمستودعات والغرف. ولم يعثر هؤلاء إلا على الاطار ولوح الزجاج اللذين ألقاهما بيروغيا في أعلى سلم الخدمة. وفي الرابعة عصراً أفضى مدير اللوفر المساعد الى الصحافيين بالنبأ المثير: "لقد اختفت الجوكوندا." ولم يكن لدى التحقيق أقل فكرة حول هوية الفاعل.

وفي صباح اليوم التالي، وهو الاربعاء الواقع فيه الثالث والعشرون من اغسطس (آب)، سقطت القنبلة التي كان ينتظرها فالفييرنو على باريس والعالم. وحملت الصحف العنوان الآتي: "من يصدّق؟ لقد اختفت الجوكوندا من اللوفر!" وسرعان ما غدا هذا الحدث حديث الباريسيين في المقاهي والمطاعم والمحلات والحدائق العمومية. وأبرزت صحف اوروبا وأمريكا تلك الفضيحة على صفحاتها الاولى. ومما قالته صحيفة "نيويورك تايمس" تحت عنوان "الجوكوندا تُسرَق في باريس":

"مهما بدا ذلك الامر مستحيلا، فان رائعة ليوناردو دافينشي، الموناليزا، سُرقت أمس من اللوفر، حيث كانت، طوال السنوات الخمس الاخيرة، معلقة في الصالة المربعة الشهيرة."

وهذا جلّ ما تمناه فالفييرنو. لقد أُزيحت الملكة عن الجدار، وحان الوقت لانهاء اللعبة عبر بيع لوحات شودرون الست على أن كلا منها هي الموناليزا الحقيقية. ولكن يجب أن تنقضي أسابيع أولا ليقتنع كل زبون بأن التحفة "هُربت" من فرنسا. وربما تمكنت الشرطة الفرنسية في تلك الاثناء من اكتشاف أمر بيروغيا واعتقاله، الامر الذي يعني إخفاق المخطط. وقال الماركيز لشريكه شودرون: "ينبغي، في الاسابيع القليلة المقبلة، أن نضع ثقتنا بعدم جدارة الشرطة الفرنسية."

وفيما هزّت الصدمة فرنسا من أقصاها الى أقصاها، أوكلت السلطات الفرنسية الى القانوني اللامع هنري دريو إجراء تحقيق رسمي في الامر. وعُززت الحراسة على حدود البلاد. وكان رجال الشرطة يفتشون حقائب جميع المسافرين في القطارات والسفن. وما لبث أن قام أناس في المانيا وبلجيكا وانكلترا والولايات المتحدة ادّعوا أنهم رأوا الموناليزا المسروقة.

وحصل التحقيق على بصمات جميع موظفي المتحف. واستجوب العشرات منهم، وبينهم بوباردان وبيكيه والسمكري سوفيه. كما أدلى عامل الحانوت الذي شاهد بيروغيا يرمي مقبض الباب في الخندق بشهادته. ولدى تفتيش ذلك المكان عُثر فعلا على المقبض وما لبث المحققون أن استنتجوا، من المعلومات التي تكونت لديهم، ساعة حصول السرقة والطريق التي اجتازها اللصوص. وأصدرت مديرية الشرطة نداء الى سكان باريس يدعو كل من رأى رجلا في جوار اللوفر نحو السابعة والنصف من صباح الاثنين الى الشهادة. وجاء في النداء أن الرجل متوسط القامة، قويّ البنية، يراوح عمره بين الاربعين

والخمسين، وانه كان يرتدي بذلة سوداء وقبعة قش ويحمل رزمة على هيئة لوح خشب.

لكن بيروغيا كان أصغر سناً، وإن انطبقت عليه بقية الصفات، علماً أنها تنطبق، في الوقت نفسه، على نصف رجال باريس في ذلك العصر.

وكان لدى كل معني بالامر نظرية حول الدوافع الى سرقة الموناليزا. فقد ظن بعضهم أن سارقها شاء جرّ الحكومة الى أمر ما. وقال آخرون ان اللص لن يلبث أن يعيد نسخة ممتازة عن اللوحة. وذهب رأي ثالث الى أن السارق صحافي شاء أن يخلق حَدثاً مثيراً. واستُدعي المنجمون للادلاء بآرائهم. وخصصت صحيفة "لو ماتان" الباريسية مكافأة بمقدار ٥٠٠٠ فرنك لأي منجم أو قارىء كفّ أو راء يمكنه اكتشاف مكان الموناليزا باللجوء الى علم الغيب. وانبرى السحَرة زرافات ووحداناً. ولكن سرعان ما تبين أن عملهم يعسر مهمات التحقيق أكثر مما يسهلها.

وفي آخر اغسطس (آب) أُعيد فتح اللوفر للزوار. وتدفق الآلف الى الصالة المربعة ليقفوا أمام الجدار الذي شرفته الموناليزا، وبينهم كثيرون لم يدخلوا المتحف قط حين كان يؤوي التحفة المختفية. ووضع أحد الزوار باقة ورد على الارض أمام الجدار. وجاء في مقال صحافي يثير الشكوك حول كفاية الشرطة "ان أحدهم سوف يسرق أبراج كاتدرائية نوتردام يوماً، من غير أن يعثر رجال الشرطة على أثر للسارق ولا للأبراج."

وكُتبت مقالات اخرى تلقي اللوم على نظام الحراسة في اللوفر. ولم يكن داخل المتحف أكثر من عشرة حراس يوم سرق بيروغيا ورفيقاه الكنز، وهو عدد ضئيل بالنسبة الى كنوز الفن التي يؤويها اللوفر.

ومما زاد الطين بلة أن المسؤولين داخل الشرطة كانوا على خلاف في ما بينهم. وكانت صلاحيات شرطة باريس تشمل المدينة وضواحيها، فيما كانت مديرية الامن الوطني تتولى الحفاظ على الامن ومكافحة الاجرام في بقية الاراضي الفرنسية. وكان التعاون ضعيفاً جداً بين المديريتين، واعتادت الواحدة أن تلقي تبعة الاخطاء الجسيمة على الاخرى، وأن تحجب عنها المعلومات والوثائق التي تملكها حول الاحداث وفا عليها.

ووسط ذلك كله استطاع عالم الجريمة الفرنسي المرموق الفونس بيرتييون الحصول على بصمة انطبعت على الزجاج الذي كان يقي التحفة المسروقة. ولا شك أنها من إصبع أحد أفراد العصابة. ولو عرف فالفييرنو أو بيروغيا بذلك الامر لانتابه قلق شديد، إذ أن بيروغيا سبق اعتقاله مرتين على يد شرطة باريس، وذلك في يونيو (حزيران) ١٩٠٨ بتهمة محاولة سرقة، وفي فبراير (شباط) ١٩٠٩ لحيازته خنجراً ممنوعاً. وكانت ملفات الشرطة تحوي مجموعة كاملة من بصماته.

إلا أن البصمات التي حُفظت في دائرة السيد بيرتييون في مديرية شرطة باريس، وهي تعود الى ٧٥٠ ألف مجرم (بينهم بيروغيا)،

اقتصرت على أصابع اليد اليمنى كما كان شائعاً آنذاك. ولكن تبين أن البصمة الوحيدة التي بقيت على زجاج اللوحة ملطخة، وبالتالي تستحيل مقارنتها بالبصمات التي في حوزة الشرطة.

ولأسباب لا يعرفها أحد لم يعنّ على بال أي من مسؤولي اللوفر استدعاء بيروغيا، الذي سبق أن عمل هناك، لأخذ بصماته من جديد. كما غاب اسمه عن السجل الذي أعدته مديرية الامن بأسماء أصحاب البصمات لتتم المقارنة بين بصماته والبصمة المنطبعة على الزجاج. ومن غرائب الامور أن مديرية الامن لم يكن لديها علم البتة بأن بيروغيا عمل مرّة في اللوفر. واكتفى شاهد العيان الحقيقي الوحيد، وهو سوفيه، بتقليب مئات الصور علّه يعثر بينها على شبه للرجل الغامض الذي صادفه في أسفل السلم. الا ان رسم بيروغيا لم يكن هناك.

والحق أن الحظ ابتسم لشركاء الجريمة كلهم منذ أن باشر فالفييرنو تنفيذ مخططه الذكي. ولكن كان لا بدّ من إلقاء اللوم على أحدهم. وما أن رفع القاضي دريو تقريره الى الحكومة في أواخر اغسطس (آب) حتى وقع الاختيار على كبير أمناء اللوفر لاعفائه من منصبه،فيما اكتُفي بلوم الحراس وسائر الموظفين، بمن فيهم بيكيه. الا أن تحفة فرنسا الاولى بقيت ضائعة.

قبل مغادرة فالفييرنو فرنسا عقد اجتماعاً أخيراً مع بيروغيا. وقال الماركيز مودّعاً: "كن حريصاً هذه الايام على كل شيء تقوله أو تفعله. وانتظر التعليمات الجديدة التي سأرسلها اليك قريباً."

شواغل بيروغيا

ولم يكن فينسنزو بيروغيا على علمٍ بالهدف الحقيقي للسرقة، ولا نوّر فالفييرنو ذهنَه في هذا الخصوص. لذلك افترض أن السينيوري سيبيع اللوحة المسروقة أو يعيدها الى الحكومة الفرنسية في مقابل تنازُل معيَّن. ومهما يكن الامر، فسيحصل جميع الاطراف قريباً على المزيد من المال.

ولم يسمع بيروغيا الطرقة على الباب التي أخبره السينيوري أن يتوقعها حتى أواخر نوفمبر (تشرين الثاني)، بعد مضيّ ثلاثة أشهر كاملة على السرقة. ولما فتح الباب ظهر مفتش من دائرة ليبين ومعه شرطي قالا إن لديهما أمراً باستجوابه وتفتيش شقته. ودعاهما الدهان الى الدخول وقدّم الى المفتش كرسياً مخلعاً. وجلس هذا يطرح عليه الاسئلة فيما الشرطي يتفحص المكان بدقة.

وعلى بساطته، كان ذلك الايطالي على شيء من الدهاء. كما كان ممثلا موهوباً، في إمكانه افتعال الحيوية والمرح متى شاء. وحين سُئل عن سبب تأخره عن العمل صبيحة السرقة، هزّ كتفه وقال: "لا أذكر إن كنتُ تأخرت ساعتين عن العمل صباح الاثنين ٢١ اغسطس (آب). غير أن هذا ممكن. وإذا حصل فعلا، فتفسيره أني نمتُ أكثر من المعتاد، كما يحصل أحياناً أيام الاثنين."

وكانت طريقته في الكلام صادقة وضحكته حارّة، الى حدّ أن المفتش برأه فوراً على رغم الحجة ضده، وهي عمله كزجاج ومعرفته بالمتحف والشبه بينه وبين "الرجل ذي قبعة القش" الذي وصفه نداء الشرطة الى سكان باريس.

وهكذا انتهى عذاب بيروغيا. وانتظر أياماً ثم حمل الموناليزا في ثوبها المخملي الانيق الى مخدعه الحقير. وبمعاونة فـيـنـسـنـزو لانسيلوتي، صنع صندوقاً صغيراً ذا قعر مخفيّ لايواء التحفة. ووضع فوقها بعض الادوات والملابس للتمويه. ثم أدخل الصندوق غرفة الخَزن الصغيرة تحت النافذة. وأخيراً استرخى على مقعده وراح يفكر في السينيوري وما عساه يطلب إليه فعله قريباً.

وانتهت تلك السنة بطقس بارد وماطر. وفي ربيع ١٩١٢، بات معظم الباريسيين يسلم بأن الموناليزا ولت الى غير رجعة. وعمد المسؤولون في اللوفر الى تعليق لوحة مكانها من أعمال رفاييل، وهي تمثل بلداسار كاستيليوني أحد رجالات البلاط في عصر النهضة. وكان ذلك قراراً أليماً، معناه أن فرنسا لم تعد تنتظر عودة ابنتها الضالة.

أما فينسنزو بيروغيا، حارس الموناليزا الجديد، فقد انتظر بقلق وصول تعليمات السينيوري. لكنها لم تصل على الاطلاق.

وفي تلك الاثناء حمل فالفييرنو وشريكاه لوحات شودرون الرائعة وانطلقوا بها في أرجاء الولايات المتحدة لاشباع نـَهم الزبائن. وتذكر الماركيز لاحقاً أن الاتصال بالزبائن تمّ على خير وجه. فكان الوسيط يعرض عليهم أولا الصحف بعناوينها التي تتكلم عن السرقة، ثمّ يلي ذلك لقاء سرّي يتمّ خلاله تسليم اللوحة الملفوفة بأقصى عناية. وما أن يفضّ الشاري غلاف التحفة حتى يقف مذهولا. وأخيراً يسحب من جيبه المبلغ المتفق عليه نقداً، فيحمله الوسيط ويخرج برباطة جأش. وكان كل زبون، بحسب قول فالفييرنو، "على يقين بأنه مالك الموناليزا الاصلية." ومن الطبيعي أن يخشى عرضها على خبير، لأن اقتناءه إياها يعني أنه بات شريكاً في جريمة سرقتها.

وادّعى فالفييرنو لاحقاً أنه شاء على الدوام إعادة الموناليزا الى اللوفر سراً. وهو لم يبح قط بالمبالغ التي تلقاها ثمناً لروائع شودرون. إلا أن مصادر مقرّبة منه قالت ان كل شار دفع مبلغ ٣٠٠ ألف دولار. وإذا صحّ هذا، فالمبلغ الاجمالي يكون مليوناً و٨٠٠ ألف دولار، أي ما يعادل ١٨ مليون دولار هذه الايام.

وعندما اجتمع فالفييرنو وشريكاه في نيويورك لاقتسام الاموال نال الماركيز حصة الاسد. وكان ايف شودرون أخذ حصته من فالفييرنو، إلا أن حوالة إضافية ضخمة حـُولت الى حسابه في فرنسا.

وبعد ذلك اختفى الماركيز مدة طويلة أمضاها في أفخم منتجعات افريقيا الشمالية والشرق الاوسط. وهناك تجاهل بيروغيا، ولم يفكر في

إرسال مبلغ من المال إليه ليحافظ على الصمت ويتمكن من ايفاء ديونه.

ومعظم تلك السنة، اعتصم بيروغيا بالأمل الذي زينه لنفسه حول عودة السينيوري الى باريس بجيوب منتفخة. غير أن أفكاره حول فالفييرنو بدأت تتبدل، وهو لا يصدّق كيف يستحيل رجل قوي الشخصية كاذباً من هذا العيار. واقتنع بيروغيا بأن سيده اختفى ومعه المال الذي بدّده على طاولات القمار والنساء.

وظل بيروغيا يتساءل حيناً عما إذا كان السينيوري مات. لكنه ما لبث أن أدار ظهره للامر، مقتنعاً بأنه هو نفسه بطل الموناليزا وانه، في أي حال، مالكها الحالي.

ها هو الدهان المنزلي البسيط، اذاً، يخلق حول نفسه هالة من العظمة وملحمة هو بطلها الاوحد. وفي تلك الرواية أبقى السينيوري وحتى الاخوين لانسيلوتي الامينين خارجاً. وصور لنفسه أنه بطل قومي عمد الى إخراج الموناليزا من اللوفر لاعادتها الى وطنها الأم، وطنه هو. ومع نهاية العام ١٩١٣، كان بيروغيا كوّن أفكاره الخاصة حول الموناليزا.

الى ايطاليا

يوم الاربعاء في العاشر من ديسمبر (كانون الاول) لفّ البرد مدينة فلورنسا الايطالية التي بدت خالية من سكانها. واختلط الثلج بسحب الدخان المتصاعدة من قطارات المحطة الرئيسية للسكك الحديد. وبين الوافدين باكراً من الشمال عامل مربوع القامة يرتدي معطفاً أسود ويحمل على كتفه صندوقاً خشبياً كان مطلياً باللون الابيض قبل ان يتسخ ويبلى.

وعبر بيروغيا بصندوقه الساحة وسار نحو فندق قديم في شارع بنزاني، اسمه "نزل طرابلس - ايطاليا". وفي ردهة الفندق القذرة دوّن اسم "السيد ليونارد" في قائمة النزلاء، وصعد الى غرفة حقيرة في الطبقة الثانية. وهناك خلع حذاءه وتمدد على السرير. ها هو، إذاً، مع المادونا في ايطاليا. وقرر ان يستريح قليلا ثم يزور السيد جيري.

وألفريدو جيري هذا رجل ممتلىء الجسم، مرح المعشر، وصاحب صالة الفن القديم والحديث في الرقم ١٢ من شارع بورجو اوغنيسانتي في فلورنسا، ومن أشهر تجار اللوحات الاثرية في المدينة. وكان هذا تسلم رسالة من باريس تحمل تاريخ ٢٩ نوفمبر (تشرين الثاني)، كتبت بخط رديء ومهرت بتوقيع "ليونارد". وأسر كاتبها ان لوحة الموناليزا في حوزته، وأنه يرغب ان يعيد الى بلاده أحد الكنوز الكثيرة التي سرقت ايام نابوليون. وذكر الكاتب صندوقاً بريدياً باريسياً لمراسلته عليه.

وراود جيري شعور برمي الرسالة في سلة المهملات على أنها ادعاء جاهل. ذلك ان الموناليزا لم تسرق في المرحلة النابوليونية، بل باعها الفنان نفسه للملك فرنسيس الاول. ولكن بما ان اللوحة فقدت طوال السنتين الاخيرتين، أيعقل ان تكون حقاً بين يدي المدعو ليونارد؟

وعرض جيري الرسالة على صديقه

جيوفاني بوغي، مدير صالة اوفيتزي الشهيرة في فلورنسا، الذي نصحه بأن يتحرى كاتبها مهما تبين له من غروره وادعائه، وأن يبوح له برغبته في فحص اللوحة قبل اتخاذ أي قرار.

وبعد تبادل عدد من الرسائل والبرقيات، تلقى جيري برقية في ٩ ديسمبر (كانون الاول) تقول ان ليونارد في طريقه اليه.

وفي لقائه الاول مع الفريدو جيري مساء تلك الاربعاء راح بيروغيا يقصّ عليه رواية السرقة، ناسباً دور البطولة الى نفسه. واتفق الاثنان على مبلغ نصف مليون لير ثمناً للوحة، وضربا موعداً تالياً عصر اليوم اللاحق، على ان يقصد جيري الفندق بمعية "خبير فني" للكشف عن اللوحة.

وفي وقت باكر من عصر الخمسين تسلق جيري وبوغي السلم المؤدية الى غرفة بيروغيا. وأغلق بيروغيا الباب ثم سحب الصندوق الابيض من تحت سريره. وفتحه وأخرج منه كومة من الملابس المتسخة الرديئة الرائحة والاحذية القديمة وفراشي الدهان وآلة ماندولين، وضعها كلها على الارض. ثم أزاح القعر الزائف وأخذ اللوحة التي ما زالت في غلافها المخملي الاحمر.

وبعد انتزاع الغلاف يتذكر جيري ما حدث: "وقفنا ننظر مشدوهين اذ لاحت لنا الجوكوندا الخالدة وقد حُفظت على أتمّ وجه. وحملناها نحو النافذة لمقارنتها بصورة فوتوغرافية أحضرناها لهذا الغرض. ولما فحصها بوغي لم يخالطه ايُ شك في أنها الموناليزا الاصلية بالذات."

واذ وقف بيروغيا يتبسم برضا كما لو كان هو نفسه ليوناردو، طلب اليه بوغي أن يأخذ اللوحة الى مكتبه لاجراء فحوص أكثر دقة عليها. وأكد له ان الحظ سيبتسم له اذا تمّ كل شيء كما يرام. ووافق فينسنزو على الفور، ولفّ اللوحة من جديد. وأخذها الرجال الثلاثة بالحافلة الى صالة اوفيتزي.

هناك اخذ بوغي وجيري يدققان في اللوحة. وبدا ان تفاصيلها جميعاً تلائم ما كتب عنها، بما في ذلك الشقوق على الوجه واليدين وفي ناحيتها الخلفية. واذ ذاك زالت شكوكهما الاخيرة حول أصالتها... انها تحفة ليوناردو دا فينشي بالذات.

ومن أجل كسب الوقت، عمد البروفيسور بوغي الى اخبار بيروغيا انه ينبغي الحصول على "تعليمات روما" قبل المضيّ في الامر المتفق عليه. وطلب اليهما فينسنزو ان يسرعا في بتّ المسألة لانه يحتاج الى المال. وعبر الرجلان عن حسن نيتهما، وصافحاه بحرارة وشكراه على بادرته الوطنية القيمة. وودعهما فينسنزو وقفل عائداً الى نزل طرابلس - ايطاليا.

وما أن أدار ظهره حتى وجه بوغي وجيري برقية الى كورادو ريتشي المدير العام لوزارة الفنون الجميلة الايطالية، الذي أسرع من روما الى فلورنسا للاشراف على المسألة شخصياً. وفي اليوم التالي الواقع فيه ١٢ ديسمبر (كانون الاول) فحص ريتشي اللوحة وأقرّ بأصالتهما. وما

هي الا ساعات حتى اعتقل بيروغيا في فندقه بتهمة سرقة الموناليزا، ونقله رئيس شرطة فلورنسا واثنان من معاونيه بسرعة الى سجن موراتي المحلي، وحان وقت اعلان الخبر المثير: "لقد تم العثور على الجوكوندا." وأحدث الخبر الذي نشرته عناوين الصحف حول العالم صبيحة اليوم التالي ضجة كبرى. الا انه لم يصعق أحداً مثلما صعق الذواقين الستة عبر الاطلسي والماركيز الارجنتيني المحتال الذي كان يمضي اجازة في مراكش.

عودة الابن الضال

انهالت رسائل التهنئة على فلورنسا، وأعلنت الحكومة الايطالية أنها ستعيد التحفة المسروقة الى بلدها بالتبني "كعلامة للصداقة والتضامن بين الامتين." الا أنها استأذنت الحكومة الفرنسية لعرضها أولا في ايطاليا. ووافق الفرنسيون على ذلك الطلب، مع أسمى آيات الود والشكران.

وأعلن ان بيروغيا الايطالي الجنسية لن يسلم الى بلد اقامته، بل ستجري محاكمته في ايطاليا. ومرة اخرى وافقت السلطات الفرنسية. اما بيروغيا نفسه فجن جنونه لوضعه في السجن، وسرعان ما خرج عن صمته ليخبر الشرطة اسمه الاصلي وتفاصيل حياته في باريس. غير انه زور حقائق عدة عن السرقة ليبقى بطلها الاوحد بلا منازع.

وكان عطف الناس يزداد عليه، وشغفوا بذلك المواطن الريفي الساذج غير المثقف الذي حول فحول علماء الجريمة في اوروبا أغبياء. وتحت عنوان: "بيروغيا في سجن موراتي" نشرت صحيفة "ناسيوني" (الامة) كلمات فينشنزو الآتية: "لقد أديت خدمة جلى لايطاليا، اذ اعدت اليها كنزاً لا يقدر بثمن. وعوضاً عن شكري على ذلك، ها هم يضعونني في السجن."

أما في باريس فقد أسفر تفتيش الشرطة غرفة بيروغيا عن اخراج دفتر خاص ومفكرتين صغيرتين. واحتوت المفكرتان على اسماء بعض تجار الفن وجامعي اللوحات الاثرياء في ايطاليا وبريطانيا والولايات المتحدة، ولكن لم يكن من ذكر لفالفييرنو أو لأي من الآخرين الذين اشتركوا في السرقة. وكذبت تلك القائمة زعم بيروغيا انه لم يلجأ الى السرقة طلباً للمال، وبينت انه وجد فيها سبيلا الى الثراء. ومن غرائب الامور ان تلك المفكرة ما لبثت ان اختفت الى غير رجعة. فلا هي وجهت آنذاك الى المدعي العام في فلورنسا، ولا أثر لها اليوم في مركز الشرطة في باريس.

وبقيت الموناليزا معلقة بجلال ملكي اياماً في صالة اوفيتزي، تحميها مفرزة كبيرة من الشرطة الايطالية ورجال الامن. وعرضت بعد ذلك في روما وميلانو. وأينما وجدت، كانت الالوف المؤلفة من الناس تتبعها كي تلقي نظرة على أعظم كنز خرج من ايطاليا. وأخيراً، في ٣١ ديسمبر (كانون الاول) عبرت رائعة ليوناردو الحدود وسط ابتهاج

الفرنسيين العظيم. وفي احتفال مؤثر في الرابع من يناير (كانون الثاني) ١٩١٤ أعيدت الى الصالة المربعة في اللوفر، وذلك بعد مضي سنتين وأربعة أشهر و١٤ يوماً على سرقتها.

بيروغيا في المحكمة

في فلورنسا اخضع الدهان العاثر الحظ لسلسلة من الاستجوابات الصارمة. وفي لحظة ضعف انهار وباح بأسماء شركائه الثلاثة: الاخوين لانسيلوتي وفرنسواز سيغنو. وما لبث ان سحب اعترافه، مكتفياً بالقول ان فينسنزو لانسيلوتي ساعده في اخفاء اللوحة أياماً، ثم في صنع الصندوق، وان الاخوين رافقاه الى محطة القطار وهو في طريق عودته الى الوطن.

والواقع ان السلطات الفرنسية اعتقلت الاشخاص الثلاثة في باريس في ٢١ ديسمبر (كانون الاول) ١٩١٣،

لغز الموناليزا... لغز الموناليزا... لغز الموناليزا... لغز الموناليزا

على رغم تجاوزها الـ٤٥٠ عاماً، فثمة أسئلة محيرة لا تزال تطرح حول الموناليزا. وربما لم تثر لوحة اخرى هذا المقدار من الجدل الذي أثارته الموناليزا منذ أول عهدها. ويقول المؤرخ الفني الامريكي روي ماكمولن: "اللوحة لا تحمل توقيعاً ولا تاريخاً. وليس هناك أي أثر لتكليف فنان معين برسمها أو وثائق حول مبلغ تقاضاه. كما لا نجد اشارة الى العمل في المراسلات الايطالية الكثيرة التي ترقى الى مطلع القرن السادس عشر."

ويعتقد معظم الخبراء ان ليوناردو دا فينشي بدأ رسم اللوحة عام ١٥٠٣، وانه أمضى سنوات طويلة لانجازها، الامر الذي يبين استحواذها عليه. ولكن من كانت المرأة التي يمثلها الرسم؟

أقدم اجابة عن هذا السؤال نجدها في سيرة ليوناردو التي كتبتها جورجيا فاساري عام ١٥٥٠، والتي جاء فيها ان "ليوناردو تعهد امام فرنشيسكو دل جيوكوندو برسم زوجته موناليزا." وعبارة "مونا" تلك الايام تصغير لعبارة "مادونا" التي تعني "سيدتي". وعائلة زوجها، جيوكوندو، تفسر لماذا أطلق الفرنسيون اسم "لاجوكوند" والايطاليون اسم "لا جيوكوندا" على اللوحة. وتضيف السيرة: "عمل ليوناردو على تلك اللوحة أربع سنوات، ثم تركها من غير أن ينهيها، وهي اليوم في فونتينبلو، في حوزة صاحب الجلالة فرنسيس ملك فرنسا."

ومن فونتينبلو وجدت اللوحة طريقها الى متحف اللوفر في باريس. الا ان رواية فاساري تحوي عقبتين خفيتين. فعندما باشر ليوناردو رسم اللوحة، كانت ليزا دل جيوكوندو في الرابعة والعشرين. لكنّ العديد من المراقبين يجد ان لوحة اللوفر تظهر امرأة في اواخر الثلاثينات او مطلع الاربعينات من عمرها. أضف الى ذلك ان لوحة اللوفر مكتملة حتى في اصغر تفاصيلها، في حين ان رواية فاساري تتكلم عن لوحة غير كاملة.

وهكذا أثير الشك حول فرادة لوحة اللوفر منذ البداية. وثمة نظريات اخرى

ووجهت اليهم تهمة "الاشتراك في جريمة سرقة بتسلمهم عملا فنياً مسروقاً من متحف رسمي." الا ان أحداً منهم لم تجر محاكمته، لان الدليل الوحيد ضدهم هو شهادة بيروغيا الموجود في ايطاليا على بعد ١١٤٠ كيلومتراً، والذي بدت اعترافاته مثقلة بالاخطاء على نحو مطرد. يضاف الى ذلك ان فتح محاكمة، في هذا الخصوص من شأنه اربـاك السلطات الفرنسية وفضح ضعفها الذي سهل حصول السرقة. فلماذا تفتح الجروح القديمة وقد أعيدت الجوكوندا الى مكانها في اللوفر وسط حراسة عززت كثيراً.

وفي تلك الاثناء كان بيروغيا قد غدا بطلا قومياً. وحملت زوايا القراء في الصحف مئات الرسائل التي اعلن كتابها إعطفهم عليه. وراقه ذلك بادىء الامر، لكن القلق آخذ طريقه

حولها، تقول احداها ان ليوناردو ربما أنجز لوحتين او ثلاثاً أو أكثر للسيدة ليزا، وتقول اخرى انه ربما أنجز رسمين لامرأتين متشابهتين، وثالثة ان الموناليزا ليست رسماً لامرأة واحدة، بل لمجموعة نساء نبيلات اعجب بهنّ الفنان وأعاد تكوين ملامحهن في عين مخيلته، ورابعة انها تمثل امرأة اشتهرت في بلاط نابولي، وانها كانت حبلى لدى رسمها.

ومهما يكن الامر، فان رسم ليزا دلجيوكوندو وجد ضمن المجموعة الفنية للملك فرنسيس الاول، وارتحل من مكان الى آخر، بما في ذلك غرفة نوم الامبراطور نابوليون في قصر تويلري عام ١٨٠٠، في طريقه البطيء الى متحف اللوفر.

ويقول جوزف فيتش كاتب مقال الموناليزا في الموسوعة البريطانية: "هناك اثنتا عشرة لوحة على الاقل تمثل بامتياز عمل ليوناردو دا فينشي المعروف بال"موناليزا". والكثير من هذه اللوحات أنجزها تلاميذ ليوناردو. وقد ادعى بعض مالكيها، في وقت او آخر، انه صاحب العمل الاصلي."

وفي العام ١٩٥٥ نظم المفوّض الفرنسي غي اينار، وهو اكبر مرجع قانوني في فرنسا حول الرسوم المنحولة، معرضاً دولياً في باريس تحت شعار: "الزائف في الفن وفي التاريخ". وحصل معاونوه على اثنتي عشرة نسخة ممتازة للموناليزا.

وليس سهلا على الاطلاق فصل القول في أيها تكون الموناليزا الاصلية. فهناك نماذج في المجموعات الخاصة والمتاحف وصناديق المصارف حول العالم. يضاف الى هذا مجموعة من الاوروبيين والامريكيين التي تدعي سراً أنها تحوز اللوحة الحقيقية. ومعظم هذه اللوحات قديم، الا ان ثلاثاً منها تستحقّ الذكر:

١. موناليزا هيكينغ

هذه اللوحة ابتاعها تاجر الفن الهولندي ريمون هيكينغ وابنه جان من محل للاثريات عام ١٩٥٤، وأودعها مصرفاً في الجنوب الفرنسي. وقد تمّ نسخ اللوحة من

اليه مع تأجيل موعد المحاكمة مرة بعد اخرى. وكلما أثير موضوع الموناليزا امامه، كان يضطرب ويتكلم من غير تفكير.

لكن بيروغيا أصرّ على كونه الفاعل الوحيد. وبعد ذكره الاخوين لانسيلوتي كفّ عن ذكر أي شريك آخر.

وكان منذ البداية ترك فالفييرنو خارجاً حتى بات على قناعة بأنه بطل المغامرة الاوحد. ولم يبارحه الامل قط بأنه لا بدّ من أن يُبرأ في قاعة المحكمة.

أما لغط العامة فخمد بعد شهر او اثنين. وحين بدأت محاكمة بيروغيا في ٤ يونيو (حزيران) لم يحضر من اولئك القوم الا حفنة ضئيلة. وتميزت شهادة بيروغيا بنوبات من الغيظ والهذيان، خصوصاً عندما طلب اليه جانب الادعاء ايضاح دوافعه. وبلغ

ليزا... لغز الموناليزا... لغز الموناليزا... لغز الموناليزا...

الخشب الى القماش في اواخر القرن التاسع عشر، ولكن تبين ان انجازها الاصلي تمّ سريعاً، وهذا لا ينطبق على فن ليوناردو. وفي أحسن الحالات، يمكن أن تكون اللوحة أُنجزت في مشغل ليوناردو.

٢. جيوكوندا بوليتزر

هذه يطلق عليها ايضاً اسم "صيغة آيلوورث". وفي خصوصها تقول دائرة المعارف الامريكية: "بما أنه لا يوجد تصميم أصلي للموناليزا، فلا يستبعد ان يكون ليوناردو رسم النسخة الاولى على قماشة قبل ان ينجز اللوحة النهائية. وفي رأي كثيرين ان صيغة آيلوورث في بريطانيا أجمل من تلك المحفوظة في اللوفر." وفي هذه الصيغة تبدو امرأة أصغر سناً وأكثر جمالا وجلالا. الا ان خصائصها الفنية تقل عن ابداع ليوناردو.

٣. موناليزا فيرنون

هذه أهم اللوحات خارج اللوفر. وقد أدخلها أمريكا وليم هنري فيرنون عام ١٧٩٧، وهي الآن مودعة أحد مصارف نيوجرزي. وتبدو بطلة هذه اللوحة أصغر سناً وأكثر حيوية وجمالا، ولا تقلّ دقة تفاصيلها الفنية عنها في لوحات ليوناردو الاخرى. وقد اخضعت لوحة فيرنون لفحوص علمية جاءت نتائجها كلها ايجابية من حيث كون ليوناردو أنجزها. وأهم الدلائل ان واضع اللوحة أعسر، مثل ليوناردو. ومن الدلائل الاخرى احتواء لوحة فيرنون على عمودين جانبيين، عرف أنهما أزيلا من لوحة اللوفر. وهذا يعني ان ثمة براهين قوية تشير الى أن لوحة فيرنون تمثل ليزا الشابة، وهي المرأة نفسها التي تبدو أكبر سناً في لوحة اللوفر. ونظراً الى هذه البراهين، لم يتورّع محررو مؤسسة "تايم - لايف" عن القول، في مجلد فني أصدروه عام ١٩٦١ في سلسلة "المكتبة العالمية"، ان صيغة فيرنون هذه هي الموناليزا الاصلية.

اضطرابه حداً لا يوصف عندما سئل عن رحلة قام بها الى لندن خلال اختفاء الموناليزا (ربما لتدبير شار لها)، كذلك عندما ذكر مبلغ الخمسمئة الف لير الذي اتفق عليه مع الفريدو جيري.

الا ان السلطات الايطالية لم تحرم العطف الدهان الشاب الذي أعاد تحفة ليوناردو الشهيرة الى مسقط رأسها وذكر العالم بأمجاد عصر النهضة في ايطاليا. ولم تكن هناك رغبة حقيقية في معاقبة بيروغيا أو فضح دوافعه الحقيقية.

ولفظت المحكمة حكمها على فينسنزو بيروغيا بالسجن سنة وخمسة عشر يوماً. وباستئناف الدعوى انزلت مدة العقوبة الى سبعة أشهر. وبما أنه كان أمضى في السجن تسعة أيام زيادة على الاشهر السبعة، فقد أطلق سراحه فوراً. وهكذا، في ٢٩ يوليو (تموز) ١٩١٤، وجد بيروغيا نفسه في فقر مدقع وبلا هدف،وليس له سوى الحرية. وبعد نحو ثلاث سنوات أسدل ستار على الرواية، وعاد هو والموناليزا من حيث انطلقا.

وسأله المحامي: "أين ستذهب الآن؟"

وهزّ بيروغيا كتفيه وقال: "الى مسقط رأسي في دومنزا. غير اني مُتعب. وسأبيت هذه الليلة في الفندق عينه حيث أمضيت ليلتي الاولى."

وأجابه محاميه: "لكنك ستُفاجأ بأمر، وهو أن اسم الفندق لم يبقَ "طرابلس - ايطاليا"، بل "نزل الجوكوندا" الآن".

خاتمة

اليوم لم تعد الموناليزا في الصالة المربعة، لكنهافي صالة الدول، حيث وضعت ضمن تجويف بني خصيصاً لها للحافظ على الرطوبة والحرارة المناسبتين. كما وضعت ضمن وقاء زجاجي كثيف. ولم يتبدل الا القليل القليل داخل اللوفر منذ ذلك اليوم الحاسم من شهر اغسطس (آب) ١٩١١.وما زالت حجرة الايداع التي أمضى فيها بيروغيا والاخوان لانسيلوتي تلك الليلة في مكانها، خلف الباب المرتفع على هيئة لوحة في صالة دو شاتل. وفي امكان الزائر ان يقتفي بعض آثار افراد العصابة وهم يحملون الجوكوندا من الصالة المربعة الى الباب في اسفل سلم الخدمة عبر الصالة الكبرى. ومن الامور التي تبدلت ان عدد الحراس بات كبيراً جداً اليوم بالنسبة الى تلك الايام.

ولا أحد يعرف شيئاً عما فعله لوي بيرو والاخوان لانسيلوتي وفرنسواز سيغنو وسائر ابطال الرواية الثانويين بقية ايام حياتهم. لكن الفنان المزور شودرون أمضى حياته بهدوء وراحة في مزرعته بالقرب من باريس. واعتزل العمل بعد ذلك الاحتيال الضخم. الا انه، على ذمة الماركيز، عاونه في بعض العمليات اللاحقة.

اما فالفييرنو فتوفي عام ١٩٣١، ولكن بعدما روى القصة من جانبه. وقد افشى بها الى صديقه القديم الصحافي الامريكي كارل ديكر، وذلك في يناير (كانون الثاني) ١٩١٤ حين كان الماركيز يمضي فصل الشتاء في

مراكش بعد مرور اسابيع على اعتقال بيروغيا ·وهو باح لصديقه بجميع ملابسات الرواية بعدما استحلفه ان يكتم الامر ما دام حياً· وحفظ ديكر العهد وقد راودته شكوك كثيرة حول صحة ادعاء فالفييرنو·

واستنكر الماركيز ذهاب بيروغيا الى ايطاليا، قائلا انه حماقة عظيمة· غير ان فالفييرنو لم يكن له ما يخشاه شخصياً، لانه حرص على سر هويته ومكان وجوه، ولأن بيروغيا اختار، لاسبابه الخاصة، أن يبقيه خارج اللعبة· ولم يشك في أن يكون بيروغيا صنع هالة من البطولة والعظمة حول نفسه· وذلك لم يزعج الماركيز البتة·

وبعد تسع عشرة سنة نشر كارل ديكر المعلومات الجديدة عن تلك السرقة الكبرى· الا أن روايته لم تحدث الضجة المرجوة في عالم اغرقته الازمة الاقتصادية الخانقة·

وأما فينسنزو بيروغيا فعاد الى دومنزا حيث استقبلته عائلته استقبال الابطال، وانضمّ اليها معظم السكان المحليين· وما لبث ان انخرط في الجيش الايطالي واشترك في الحرب العالمية الاولى، ثم وقع اسيراً في أيدي الاعداء· وبعد اعتاقه في نهاية الحرب عاد الى دومنزا لفترة وجيزة· واذ لم يجد عملا هناك، قرر التسلل الى فرنسا، متحدياً خوفه من الوقوع في قبضة العدالة· واستخدم اسمه الاوسط بييترو لئلا تكشف الشرطة أمره، واستقرّ في بلدة سان مور دي فوسي، احدى ضواحي العاصمة الفرنسية·وفي اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٢١ زار دومنزا للمرة الاخيرة،حيث تزوج فتاة من عائلته وعاد واياها الى فرنسا· لكنه عمر اربع سنوات اخرى، مات على أثرها بنوبة قلبية· وهكذا، في اكتوبر (تشرين الاول) من العام ١٩٢٥، لفظ خاطف الموناليزا أنفاسه الاخيرة وله من العمر ٤٤ سنة·

■ سيمور رايت



حرية الاختيار

المجتمع العادل هو مجتمع منفتح، حيث الافراد يختارون ما يوافقهم من ضمن تعاقد حرّ يحدد المسؤوليات والمحدوديات بين الفرد والفرد من ناحية، وبين الفرد والدولة من ناحية اخرى·

من هنا كان لا بد من بعض غموض في كل نظام تعاقدي، اذ ان الغموض هو الوجه الآخر لحرية الاختيار· ولقد قيل ان البرهان على نضج الفرد هو قدرته على أن يحيا وسط الغموض· والمجتمع العادل يقوم على استطاعتنا ان نعيش مع الغموض، مدركين ان الامور الواضحة قليلة جداً، وأن أصعب مواقف الحياة هي المواقف الغامضة، علماً ان أعمق طموحات المرء تتساوى من حيث الثمن والفائدة، وان الخير المطلق والشر المطلق لا وجود لهما في المجتمع·

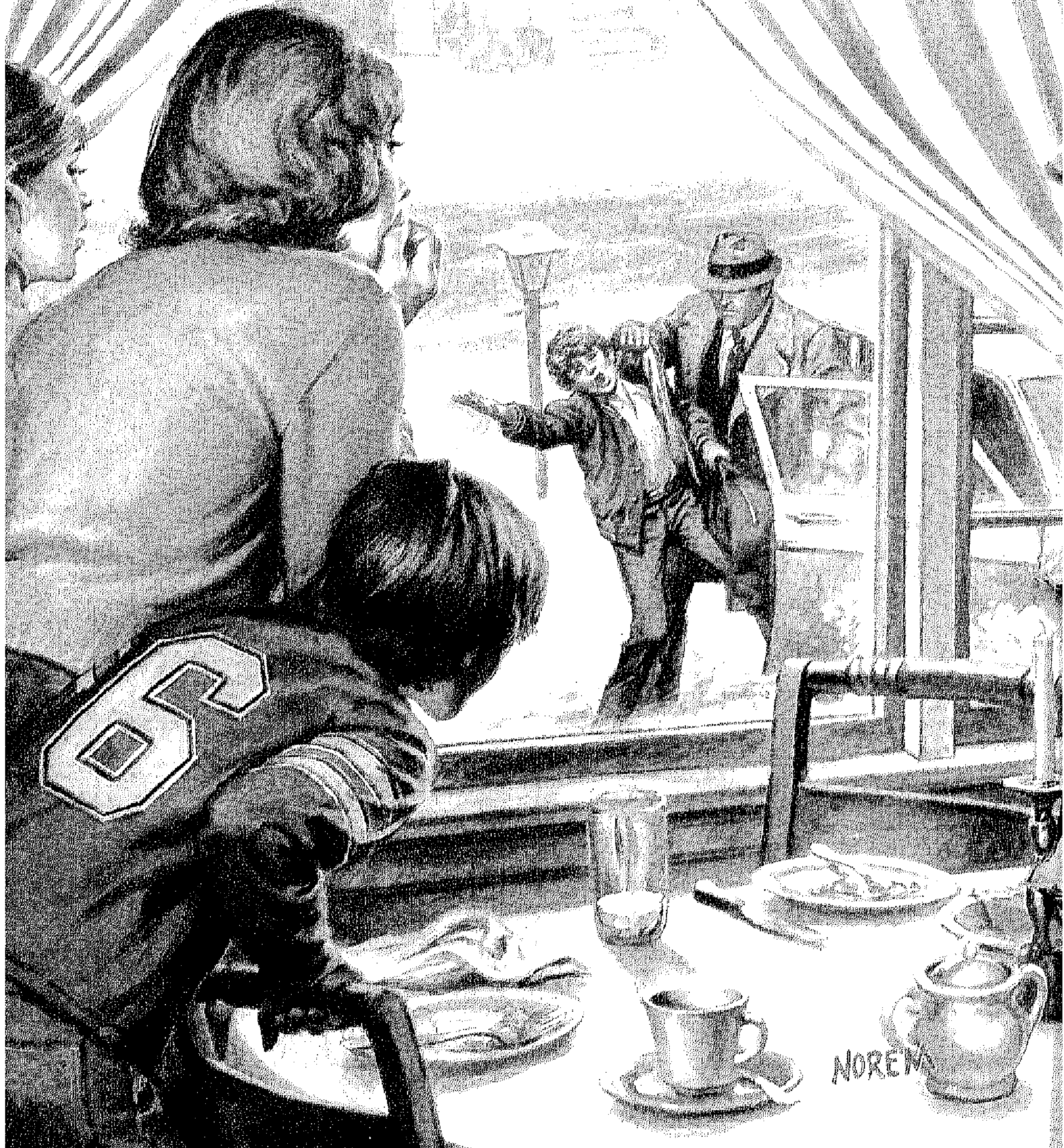
وبكلمة اخرى، يمكننا القول ان المجتمع العادل يرتكز على ادراكنا حرية الاختيار والدفاع عنها· والاختيار يوسع رؤانا البشرية، وهو يقتضي التفكير والالتزام والمخاطرة، وما يلازم ذلك كله من عدم يقين· أما نقيض الاختيار فلا يقتضي الا الطاعة·

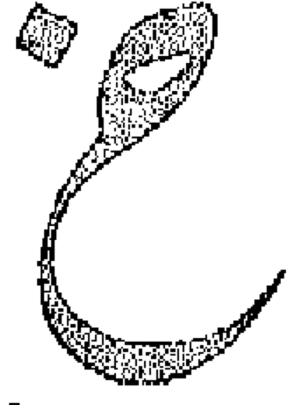
الاقتصادي ليو تشيرن

كتاب الشهر

ليس بالحب وحده

بقلم: سوزان هولت بورتر





خبأ الفتى وحشته وأساه خلف ظاهر عنيف معاند، وإذ لم يكن له أب ولا أصدقاء، شعر أن أمه لا تحبه، وهكذا صب جام غضبه على عالم معاد لم يكف عن معاقبته.

وفي هذه الرواية الصادقة لصراع عائلتها من أجل البقاء، تخبرنا الكاتبة قصة الفتى الذي لم يستطع النمو والأم التي، في إحدى مراحل حياتها، فقدت موهبة الادراك والتمييز، ومحاولتها الجاهدة هي وأفراد عائلتها لايجاد منفذ يضعهم خارج ذلك النفق المظلم.

ما أن انعطفنا عن الطريق المفروشة بالحصى حتى أخذ يزعق: "لا، أريد الذهاب. ليس في إمكانك أن تصنعيني من جديد. وأقسم أني سأهرب وأنتحر."

ولما بلغنا مدخل البناية ذات الآجرّ الاحمر، داس زوجي كابح سيارته بسرعة وأطلق الزمور. وكنا خابرنا الادارة قبل مغادرتنا المنزل، ولا بدّ من أن المسؤولين ينتظروننا. وأسرع شابان قويا البنية من الباب الامامي نحو سيارتنا. وما زال بادي، ابني الغاضب، غارقاً في نوبة بكاء. وأمسك يديّ على نحو يرثى له وقال: "كلا يا امي، أرجوك، لا تتركيني هنا. وأعاهدك أن أكون عند حسن ظنك... لا، يا امي، أرجوك."

وفتح الشابان باب السيارة الخلفي وسحبا بادي وجرّاه داخل البناية.

واقتربت امرأة طويلة رمادية الشعر في مطلع الستينات من عمرها. إنها السيدة تابور التي سبق أن قابلناها حين وقعنا الاوراق. وبادرتنا: "حسناً! تذكرا أنكما تأتيان به الى هذا المكان لأنه يحتاج الى أن يكون هنا. اذهبا الى البيت الآن."

غير أني بقيت أسمع صراخ ابني بعد اختفاء السيدة تابور داخل البناية. ترى كيف يسعني أن أترك ابني - أجل، ابني بالذات - في مؤسسة لرعاية المراهقين المضطربين نفسياً؟ لقد قدّر الاطباء أن فترة علاجه تستغرق ١٨ شهراً. وتردّدت كلمات طبيب في ذهني: "اضطراب من نوع عصبي... علاقات عائلية سلبية."

يا إلهي! أيكون ذلك الطبيب على حق؟ أتراه الحب لا يكفي وحده؟

وتلاشى الصراخ. وبقيتُ وزوجي وحيدين في الفناء المعشب المحيط بمؤسسة الفتيان. وقال دك: "لقد حان الوقت يا سوزان للعودة الى البيت."

وعدنا أدراجنا بصمت. وعلى الطريق رحت أفكر في وضعي الحرج. لقد أخفقتُ في تربية أولادي، الامر الذي ولد لديّ الحيرة والغضب ومشاعر الذنب. وكان الدكتور جورج كروبر، الطبيب النفسي المسؤول في تلك المؤسسة، قال لي: "ابنك بادي في الثالثة عشرة جسدياً. لكنّ سنه الحقيقية، أي النفسية، لا تتجاوز السابعة. وهي تقف هناك، على حافة الخطر. وما لم تساعديه في تجاوز وضعه، فلسوف يلازم ذلك المكان طوال أيامه."

سبع سنوات؟ كان بادي في السابعة عندما مات أبوه...

وقطع حبل أفكاري كلام دك: "لقد وصلنا الى المنزل." وبعد وضعه السيارة في المرأب أضاف: "ألن تدخلي؟"

وقلت: "انتظر دقيقة." وأخرجت رأسي من النافذة ليلفحني هواء المرأب المشبع بالرطوبة والحرارة. وأغرقتني الذكريات وحملتني الى زمان مضى.

كان الفصل صيفاً آنذاك. إلا أن النسائم الآتية من الساحل الشرقي للولايات المتحدة لطفت حدّة الشمس قليلا. وذهب زوجي بول مع أصدقائه في مركب شراعي، فيما أخذتُ الاولاد الى حديقة الحيوان. ولما

عدتُ الى المنزل وجدتُ رجال الشرطة في انتظاري. وللحال أخبروني عن الحادث: لقد غرق بول، إلا أنهم لم يعثروا على جثته.

كنتُ في التاسعة والعشرين آنذاك. غير أني لم أختبر العيش بمفردي على الاطلاق. فقد نشأت في كنف عائلتي التي تركتها لأذهب الى الجامعة، ومنها الى منزلي الزوجي. وكان بول شق طريقه في عالم التجارة والاعمال. وطوال عشر سنين كنتُ زوجة سعيدة وربة منزل وأُماً.

وكان بادي ولدنا الاوسط، وهو جاء بعد سنتين من ولادة اخته كاتي. وكان طفلا رائع الجمال، ذا عينين زرقاوين كبيرتين وغمازتين في خديه وشعر معقوص. وأحبه بول حباً لا يوصف. وحين ولد تومي بعد سنتين أحبه والده هو أيضاً. وأذكر حين كنا جالسين في الفناء المشمس ذات عصر فبادرني بول: "ثمة أمر غريب في بادي يجعلني أظن أنه سوف يعاني مشكلات خلال نموه. إنه مفرط الحساسية. وهناك شعور خاص يشدني إليه."

وطمأنني تعلق بول به، لأنني أدركت أن لولدنا بادي أحياناً حاجات لا أعرف كيف احققها.

أما كاتي فكان إدراك مشاعرها سهلا، وأمدتني تربيتها ببهجة كبيرة. وكان الصغير تومي يحتاج الى عناية خاصة. وقبل أشهر من حديثنا في فناء المنزل، عرفنا أنه شديد الحساسية وبطيء الاستيعاب. لذلك كله سرني أن يرفع بول عن كاهلي بعض مسؤولية بادي.

إلا ان وفاة بول المفاجئة أحالت جميع المسؤوليات علي، من غير أن يكون لديّ الوقت الكافي لتدبر كل أمر بمفرده. واستأنفتُ دروسي الجامعية بعد ترملي لاتمام درجة البكالوريوس والحصول على الماجستير. وكان المبلغ الذي خلفه تأمين بول على حياته كافياً لاعالتنا. لكني أدركت أنه لا بدّ لي من العمل عاجلا أم آجلا.

واستغرقت دراستي سنوات ثلاثاً لا أستطيع تذكرها اليوم إلا من خلال غشاوة. وحاولت التعويض لأولادي عن فقدهم والدهم، فكنت آخذهم الى الخارج وأخيم معهم أحياناً في الطبيعة الجميلة. غير أن كاتي تذكرني كيف كنت ألجأ غالباً الى إغلاق باب غرفتي لكي أدرس، فيما هم يتناولون العشاء وحدهم وسط نور ضئيل يأتيهم من جهاز التلفزيون.

ولا أذكر حسناً من تلك المرحلة سوى تومي الذي بدا أكثرهم حزناً على أبيه. وكان يمكث ساعات ومعه آلة هاتف صغيرة حمراء، ويتظاهر أنه يحادث ربان سفينة. وبعد ذلك يأتيني قائلا: "لقدْ تكلمت مع القبطان، وفي رأيه أن أبي لم يغرق وانه لن يلبث أن يعود إلينا."

لكن الاسابيع مرّت ولم يعد بول الى البيت وذات يوم ارتمى تومي بين ذراعي باكياً وهو يقول: "إنه لن يعود البتة... أليس كذلك؟ إنه تحت الماء، في القاع، مع السمك. وسيبقى هناك الى دهر الداهرين."

وبعد ذلك كنا نبكي وننشهق معاً.

وكانت كاتي تبكي أيضاً. لكن

طبيعتها القوية الواقعية أعانتها على التسليم بالامر والرضوخ. أما بادي فلم يظهر عليه الحزن أبداً. وذلك أزعجني، بل أغاظني، لأنه كان ولد أبيه المفضل. ولم يدر في خلدي أن أفتك َ الحزن د َفينـَه.

وأهلتني درجة الماجستير في إدارة الاعمال للحصول على وظيفة لدى شركة في الوسط الغربي من الولايات المتحدة. وقبلت ُ العرض ببعض خشية.

وبينما نحن نشق طريقنا في السيارة وسط حقول الفول والذرة، راح الاولاد يحدقون بأعين ملؤها الدهشة الى المناظر التي تختلف تماماً عما عهدوه على الساحل الشرقي.

وقال تومي: "لا أدري إن كنت سأحب هذا المكان... أين هو البحر؟"

وأجبته: "ليس من بحر هنا على الاطلاق. لكن هناك بحيرات كثيرة، وجياداً كذلك."

ولم يقل بادي شيئاً حتى بلغنا منزلنا الجديد في المدينة، وهو مؤلف من ثلاث غرف نوم ومتاخم لثلاثة منازل اخرى مشابهة. وهرع الاولاد الى الداخل طلباً للراحة والاستقرار. غير أني لمحت بادي ينظر بكآبة من نافذة غرفة النوم في الطبقة العليا. وسألته: "ما الامر يا بادي؟"

ونظر إليّ بهدوء وقد أخفى حزناً كبيراً خلف وجهه وسنيه العشر، وأجاب: "ما الذي اخبره للناس في هذا المكان عن أبي؟"

ولهنيهة حرت ُ جواباً. وأخيراً قلت: "أخبرهم أن أباك مات، وكفى."

ونظر من النافذة مرة اخرى وقال بصوت بارد: "إني أكره هذا المكان."

المنبوذون

بعيد انتقالنا الى هناك وجد تومي وكاتي أصدقاء لهما بين أولاد الجيرة. لكني سمعت أن بادي أمضى معظم وقته في شجار، وحتى في قتال، مع الاولاد الاصغر منه سناً. وبعد مضيّ شهرين على انتقالنا، اقتربت مني جارة اسمها ماري هاموند وأنا أترجل من سيارتي بعد العمل. وبدا الغضب في صوتها وهي تقول: "ابنك الكبير الفظ ضرب ابنتي ليزا اليوم وأذاها."

– أصحيح ما تقولين؟ أتظنين أن ابني بادي يجهل قواعد اللياقة؟

"دعيني أصارحك يا سوزان بأن ابنك يقدم على امور كثيرة لا تحلّ له. وإذا مكثت وقتاً أطول في المنزل، فستتأكدين من ذلك."

وشعرت بالدم يصعد الى وجهي. وراودني إحساس بالذنب لتركي أولادي وحدهم بعد المدرسة. ودخلت ُ المنزل لأجد غرفة الجلوس متسخة كالعادة، وقد بعثرت فيها أدوات الاولاد من علب طعام وكتب مدرسية وتفاحة نصف مأكولة والعاب تومي ومقص كاتي. وكان التلفزيون يزعق بحيث لم يلاحظ أحدهم دخولي.

ورفعت صوتي فوق الضجيج المقيت لأقول: "ما الذي يحدث هنا؟"

وقفز تومي على قدميه وسأل: "ماذا سنأكل للعشاء يا امي؟"

– لا أصدّق ما أراه حولي... لماذا لا تنظفون الغرفة أولا؟

ونظر بادي إلي وقال: "إني أرفض ما تقولين. والاجدى أن تطلبي من كاتي وتومي إزالة الاوساخ التي خلفاها."

وأكملت عنه الكلام: "...بينما تخرج أنت لتبحث عمن تضربه؟"

وأردف بادي: "إني لم أضرب ليزا ضرباً مبرحاً، بل خفيفاً. فهي سخرت من الخصل في شعري ونعتتني بالمخنث."

- اسمع يا بادي: الصبيان لا يضربون البنات. أسرع الى غرفتك، ولكن بعد إنجاز قسطك من الترتيب.

لكنه قال: "الافضل أن ترتبي أنت امورك." وأسرع من أمامي نحو الباب الرئيسي، وصفعه بقوة وهو يركض الى الخارج.

وغاب عشرين دقيقة. ولما عاد وجدت أن غيظي ما زال يغلي في أحشائي. فقلت له ببرود وقد تجاهلت التوسل في وجهه: "إنك صاحب مشاكل. اذهب وتناول الطعام في غرفتك." ووقفنا برهة طويلة يحدق واحدنا الى الآخر. ثم صعد بادي الى غرفته وهو يرفس الارض بخطاه. وسمعته يتمتم شيئاً فسألته: "ماذا قلت؟"

- لقد قلت انك ام تافهة، واني أتمنى أن تموتي وتتبعي أبي.

وخُيل إلي إذ ذاك أني غدوت مع ابني بادي على قمة تلة، وان الطريق الوحيدة أمامنا هي الانزلاق نزولا.

لم ينقض اسبوعان حتى أخبرني اختصاصي بالجراحة التقويمية تولى فحص كاتي أن لديها انحرافاً جانبياً في العمود الفقري. وراودني البكاء حين عرفت ماذا يستتبع هذا الامر. فقد تعين أن تلبس ابنتي وثاقاً من العنق حتى الوركين ليبقى ظهرها مستقيماً ورأسها مرفوعاً، وأن تبقى على هذا النحو ٢٢ ساعة يومياً طوال سنتين.

وبعد عيد الميلاد بدا أن أشهر الشتاء التي قيدتنا وقتاً أطول داخل المنزل زادت من حدّة الشجار. كما زاد عدد المخابرات الهاتفية التي جاءتني من ام غاضبة أو من أب عاتب. وقالت مديرة المدرسة التي يرتادها بادي: "إن ابنك يبدو غاضباً على نحو غير معقول. أما فكرت في طلب المساعدة؟"

- صحيح أن ولدي حادّ الطبع. لكن هذا لا يعني أنه يجب أن يحال على طبيب نفسي أو مستشفى مجانين!

"اسمعي يا سيدة هولت... إني لم أقصد ما تقولين على الاطلاق."

غير اني تعاميت عن طلبها ولم أسمع من كلامها سوى الجانب الاتهامي. ترى لماذا عجزت عن كبح جماح بادي؟ وتولاني الغيظ وجن جنوني من ذلك الفتى، ومن ذاتي، ومن مديرة المدرسة... وحتى من زوجي بول لأنه مات. ومع المساء ازداد غيظي. وما أن بلغت المنزل حتى فتحت الباب بقوة. وإذا بي، مرة اخرى، في غرفة جلوس مقلوبة رأساً على عقب.

وصرخت بأعلى صوتي: "بادي... تعال الى هنا."

وقال: "ما الامر يا امي؟"

وشددت ذراعه ودفعته نحو خزانة البهو. وهناك قلت له: "لقد جاءتني

مخابرة اخرى من مدرستك. وأجدني الآن مضطرة الى فعل شيء لم أفعله طوال أشهر." وظللت متمسكة بذراعه فيما أنا أسحب حزاماً جلدياً قديماً من الخزانة. وقلت له: "ربما كان العنف طريقة لتعليمك اجتناب المشاكل."

وصرخت كاتي وتومي: "لا يا امي، لا تضربيه."

أما أنا فقلت: "لا تتحرك يا بادي، بل انحن قليلا."

وتابع الآخران: "لا يا امي، لا تضربيه."

وأخذ يقفز ويصرخ، بينما حاول أخوه واخته تهدئتي والتوسل إلي لئلا أضربه. غير أني لم أسمع منهما. وعلى رغم عدم قوة ضرباتي فان نوبة بكائه اللاهثة اخافتنا جميعاً.

ورفعت يدي عن بادي فأسرع الى غرفته. ودخلت أنا غرفتي ورحت أشهق وأبكي. وراودني شعور باليأس وقد أحسست أن عائلتي أفلتت من قبضتي. ولم أعرف ماذا أفعل. وسجلت اسمي في دورة من ثمانية أسابيع حول أساليب التربية البيتية. وفي تلك الاثناء صادفت دك بورتر. وكان دك مطلقاً، لكنه أحب ولديه اللذين يكبران أولادي. وبقي الولدان في رعاية امهما. وأخذ دك يتردد على منزلنا حتى بات واحداً منا. وساعد تومي في تصميم الطائرات الورقية. ووعد كاتي بأن يجد لها كلباً صغيراً حددت أوصافه. وغالباً ما كان يراقب بادي وهو يمارس لعبة البيسبول (كرة القاعدة).

وذات يوم من صيفنا الثاني في الوسط الغربي كان بادي يمسك المضرب وهو يلعب البيسبول. وراح دك يراقبه فيما تبعه زميله ليعلمه، بتهذيب، أنه خرق أصول اللعبة. ووقف بادي مسعوراً وهو يكاد يقحم رأس زميله في الارض.

وقال لي دك لاحقاً: "لم أر فتى على هذا المقدار من الغضب. والواقع أن أسباب غضبه تتجاوز البيسبول. إنه غيظ في الاعماق...ألم تفكري البتة في..."

- إياك أن تتابع كلامك.

"حسناً إذاً. لنقطع الحديث."

وكان يفصل عيد ميلاد بادي الثاني عشر بضعة أسابيع عن ذلك الوقت. وقلت له: "ما رأيك في الاحتفال بعيدك؟ يمكنك أن تدعو ستة أصدقاء الى البيتزا والمثلجات."

وفجأة برزت ابتسامة على وجهه مكان العبوس. وأشرقت عيناه الزرقاوان. وأمكنني، لهنيهة، أن أرى فيه الطفل السعيد ذا الشعر المعقوص الذي ابتهجت به يوماً.

وأجاب: "فكرة عظيمة."

وبلغت المنزل مع دك يوم عيد بادي بُعَيد الخامسة. وما أن دخلنا حتى شعرت أن ثمة خطأ في الامر. وكان بادي واقفاً وحده وسط غرفة الجلوس وهو، على رغم بنيته القوية وسنيه الاثنتي عشرة، على وشك البكاء. وتبين أن أحداً من الفتية الستة الذين دعاهم رفض أن يلبي دعوته. ووقفنا بعض الوقت لا ندري ما نفعل. ثم قطع بادي حبل الصمت بقوله: "يا لهم من صبية أغبياء... لماذا جئت بنا الى هذا المكان يا أمي؟"

ـ أرجوك يا بادي، لا تصب غضبك علي.

"ألا ترين خطأك؟ إني اريد العودة الى كونتيكت."

ـ اهدأ قليلا يا بادي!

"اذهبي الى الجحيم."

وهنا تنهدت كاتي وقالت: "لماذا لا نقر" بالحقيقة؟ لقد غدونا أهل الجيرة المنبوذين الذين لا يدنو منهم أحد."

وهممت بالاعتراض. لكني أدركت صحة كلامها. إلا أن بادي كان شريكي في المسؤولية. وكانت مديرة المجمع السكني خابرتني تشكو أمره إلي. وأحسست أن بادي غدا فاعل شر بارادته، وانه عقد العزم على تنغيص حياتي. والواقع أني عجزت عن رؤية الولد الذي يستر وحشته خلف قناع خارجي من الغيظ.

كوابيس

حان عيد الاستقلال في الرابع من يوليو (تموز) بعدما انتظره فتية الجيرة طويلا. وكان المساء رائقاً يحلو فيه الجلوس على الشرفة ومشاهدة الالعاب النارية. وراح الاحداث يشعلون القضبان التي تستحيل نارها نجوماً.

وفجأة دوّى انفجار اهتز له الحي، وتبعته صيحات كثيرة. ويبدو أن أتراب بادي شجعوه على نسف انبوب لتصريف المياه بوضع مفرقعة ضخمة داخله. وسرعان ما وجدتني محاطة بالاهل الغاضبين وهم يقولون: "ألا تعرفين خطر الالعاب النارية؟ ألا تستطيعين ضبط إبنك؟ أتعجزين عن ذلك حتى لمرة واحدة؟"

وانتابني الخجل، وسحبت بادي الى المنزل وأشرت عليه بالذهاب الى سريره حالا.

غير أن المسألة لم تنته عند ذلك الحد. ففي اليوم التالي قرعت مديرة المجمع الباب وبادرتني: "الواقع أن مساء أمس حمل معه القشة التي قصمت ظهر البعير. لقد تعطل انبوب تصريف الماء بسبب ابنك."

ولم أستطع الاخذ والعطاء معها. فقد أصدرت إدارة المجمع قراراً بطردنا من هناك وأحسست خجلا يتجاوز طاقتي.

وهكذا انتقلنا الى مكان آخر. ومن حسن الحظ أني عثرت على منزل في جوار المدرسة نفسها. وساعدنا دك على الانتقال. وعرض علي، ونحن على الطريق، فكرة الزواج. وأغراني الامر، إذ عنى أننا سنعود عائلة من جديد. ألا يحتاج بادي الى أب أكثر من حاجته الى طبيب أو مرشد نفسي؟ لقد جاءه الاب أخيراً.

إلا أن دور الابوة، كما فهمه دك، كان ينطوي على مقدار كبير من الصرامة. وبعيد زواجنا عبر عن تذمره من بادي قائلا: "إن بادي يريد شخصاً يمنحه الهدايا على الدوام ولا يسأله شيئاً. غير أني لست حامل الهدايا السحري يا سوزان."

في تلك الاثناء كنت حصلت على وظيفة جديدة كمديرة في شركة. وكان الراتب حسناً، لكن العمل مرهق. وفي الوقت نفسه أعلن مدير شركة دك إفلاسه. وهكذا وجد زوجي نفسه يبحث عن عمل جديد. وعلى رغم هذا كله استمرت المشاحنات مع

بادي. وغدت امسياتنا في البيت أشبه بالكوابيس.

فما أن نباشر العشاء حتى يقول له دك: "ضع المنديل على حضنك يا بادي. أتظن أنك حيوان في حظيرة؟ لماذا تضع رأسك في الصحن؟ ألا تعرف شيئاً من الآداب العامة واللياقة؟"

وكان بادي يستحق تلك الملاحظات. غير أن انتقاد دك له ولد لديه الاشمئزاز والتحدي. وغالباً ما كان يجيبه: "إنك لست أبي. أنت الرجل الذي تزوج امي. ومن حقي التام ألا أسمع كلامك."

وطالما قلت له: "لا يجوز يا بادي أن تخاطب دك على هذا النحو."

لكنه كان يجيب: "قولي له ألا ينتقدني، وكفى."

وتنبري كاتي لتقول: "لم أعد أتحمل. إن كل ما نفعله في هذا البيت هو الجدل والعراك."

واستمر الوضع على ذلك المنوال. وكان للشجار الدائم أثر سلبي في جميع أفراد العائلة وازداد حنقي على ولدي.

وبدأنا نتلقى المخابرات من المدرسة التكميلية التي شكت إدارتها تدني علامات بادي. وباشر التدخين متجاهلا احتجاجاتنا. وتساءلنا عما إذا كان يتعاطى الماريوانا أيضاً. وأخيراً اقتنعت بأننا نحتاج الى مساعدة من الخارج.

واتصلنا بالدكتور ستيفن برو، وهو شخص أجلح طويل القامة يبدو أقرب الى سائق الشاحنة منه الى الاختصاصي بعلم النفس المتعلق بالاحداث. لكنه عرف جيداً كيف يخاطب مرضاه. وأخبرنا أن بادي مفعم بالغيظ: "لقد عاقبة الله، أولا، بأخذ والده. وهذا يعوق علاقته الطبيعية مع دك. ثم انه ولد كرهاً تجاهك، أنت أمه بالذات. لقد نقلته عنوة الى الوسط الجنوبي من البلاد، حيث لا أحد يعرف شيئاً عن أبيه وحيث لا أصدقاء له، علماً أنك تقضين معظم الوقت في العمل. غير أنك في الوقت نفسه امه، وهو يكن لك حباً جماً، لكنه حب يخالطه خوف عظيم. فهو يشعر أنك لا تحبينه حقاً. وهو فقد أحد والديه. فماذا يحصل اذا فقد الآخر؟ هل فكرت في ما يمكن أن يحدث له داخلياً اذا قضيت أنت أيضاً؟"

وبعدما سمعت كلماته شعرت بالشفقة على ابني.

وحملت تلك السنة بعض تحسن في علامات بادي المدرسية. واشترك في فريق كرة القدم المدرسي. وحصل على وظيفة لتوزيع الصحف في اوقات فراغه. كما كوّن صداقة خاصة مع جارتنا السيدة وينفريد شيهان، وهي أرملة بدينة في الستين من عمرها. وربما ذكرت بادي بجدته. وغالباً ما كان يزورها بعد المدرسة، ويتحادثان فيما هي تحضر الحلوى. وسرني ذلك الامر، ووددت لو تمنح بادي ما لا يمكنني أن أمنحه إياه.

لكنه، كلما حقق خطوة الى الامام، كان يتقهقر اثنتين. وازداد الخصام في البيت. وضبط مرة وهو يحاول سرقة بعض السلع من أحد المحلات.

وجاء الصيف ومعه المدرسة

لصيفية. وكان عليه ارتيادها إذا هو شاء الترفع في الصف. وكان ابتاع دراجة بما ادّخره من بيع الصحف، وقرّر أن يذهب عليها الى المدرسة التي تبعد عن منزلنا عشرة كيلومترات. وهنأناه على مبادرته.

وبدت معنوياته مرتفعة خلال اليوم الاول من المدرسة الصيفية. وقال: "سأحصل على أعلى علامة."

وتجمع التلاميذ لافتتاح الدورة الصيفية. وأعلن المدير: "إن قوانيننا سهلة. إلا أن ثمة أمراً لا نسمح به البتة، وهو التدخين في المدرسة. فهذا يعني الطرد."

وبعد ثلاثة أيام مشى بادي مختالا نحو المدير وفي فمه سيجارة.

ولما شكي أمره صرخت في وجهه: "لماذا؟ لماذا تضع نفسك في هذه المآزق؟ لو كان والدك حيا، لما أحبك كما أنت اليوم."

أما هو فصرخ قائلا: "فليذهب أبي الى الجحيم. ألا يعرف أنه كان ينبغي ألا يموت؟" وأسرع خارج الغرفة.

وبعيد ذلك جاء حفيد جارتنا السيدة شيهان لزيارتها. وهكذا وجدت الجارة نفسها منشغلة بولد آخر. ولم يعرف أحد مقدار الاضطراب الذي أصاب بادي لشعوره أنه ترك وحده.

وكان ذهني متجهاً نحو امور اخرى ذلك الصباح الحارّ من شهر يوليو (تموز) وأنا ذاهبة الى السيارة. وفجأة لاحت لي ظلال من الالوان. ونظرت جيداً لارى بقعاً من الطلاء الاحمر متناثرة على سيارة السيدة شيهان وقد أتى الحريق على صندوقها البريدي وتناثرت أوراق المراحيض من الاشجار أمام منزلها. وقلت لنفسي: "لا، ليس بادي من فعل هذا." غير أني كنت واثقة من أنه اقترف تلك الاعمال."

وفي ذلك اليوم نفسه اقترح الدكتور برو وضع بادي في بيت خاص بالاحداث المضطربين.

شعور بالذنب

وقفت مع دك في الممر الاصفر الكئيب خارج مكتب السيدة تابور. وكانت تلك زيارتنا الاولى بعد أخذ بادي الى هناك. وخالجني شعور بالذنب والكآبة.

وكانت تلك المؤسسة تضم نحو ستين فتى بين الثانية عشرة والثامنة عشرة. وهي لم تكن بالمصح العقلي، إذ ان أحداً من اولئك الاحداث لم تنقطع صلته بالواقع. غير أنه كان مكاناً يهيمن عليه الالم النفسي العميق. وقد راودت اولئك الفتيان مشاعر الغضب والرفض من الآخرين وعدم تقدير الذات. وفي معظم الحالات كان الكيان العائلي منهاراً.

وفتح باب المكتب ودعتنا السيدة تابور الى الداخل. وهي كانت طويلة ومليئة العظم ورمادية الشعر، وعملت مع الاحداث المضطربين مدة تتجاوز العشرين عاماً. وقد وصفها بادي لاحقاً بأنها "عجوز صارمة". والحق أن صرامتها لم تكن خالية من الحب.

في تلك الزيارة الاولى لم يسمح لنا أن نرى بادي. وتناولت بيدين مرتجفتين الرسالة التي كتبها إلي: "امي العزيزة. إني أمقت هذا

المكان. وأنت وعدتني باخراجي منه إذا لم احبه. لذلك أتوسل إليك أن تخرجيني من هنا. مع محبتي، بادي... لكني أحجب هذه المحبة إذا أنت أبقيتني هنا."

قرأت ذلك ورفعت نظري الى السيدة تابور التي قالت: "على رغم ما قرأت، فاننا قانعون بما أنجزه بادي حتى الآن. إن ابنك في المكان الملائم.. تذكري هذا الكلام."

وهكذا استهللنا طريقة حياة جديدة منطلقة من بيت الاحداث. وكنا أيام الثلثاء نقابل السيدة تابور، وأيام الاربعاء يجتمع الاهل في رعاية الدكتور كروبر حول طاولة مستديرة في غرفة الطعام. وكان الاستاذ الجامعي آرت ليمان وزوجته بيتي يجلسان على ناحية من الطاولة، وقد ارتدى آرت ثياباً خفيفة ووضع نظارتين على وجهه المتقد ذكاء. وبدت زوجته كالباحثين أيضاً، لكنها كانت خجولة جداً.

وعلى النقيض منهما كان هاري ستاكر وزوجته كورا. فقد بدا هاري مثل أبطال الرسوم الساخرة، فيما بدت زوجته، وقد نتأ فمها الخالي من الاسنان خارج وجهها الممتلىء، مدعاة الى الضحك. وهي لم تكترث لذلك، بل قالت بدعابة: "اني أدخر المال لشراء أسنان."

واكتملت المجموعة بآخرين هما هوارد بوينتون وزوجته ميلي. وبدا هوارد بكرشه المنتفخ وبذلته المؤلفة من قطع ثلاث مثل مديري الشركات، بينما بدت ميلي ربة منزل تقليدية.

وقال الدكتور كروبر: "حسناً. كيف كانت زيارتكما خلال نهاية الاسبوع يا كورا؟".

وابتسمت كورا وأجابت: "انها تمت على خير وجه. أليس هكذا يا هاري؟ لقد عانق هاري ولدنا بنجي وهو يودعه."

وانبرى هاري قائلا: "لقد وددتُ دائماً ان يعانقني أبي، لكنه لم يفعل. ولم اعرف ابداً اني حرمت ابني هذا العطف ايضاً."

تكلم الكلّ ذلك المساء، ما عدا ثلاثة هم دك وأنا وهوارد بوينتون الذي تسمر في مقعده وشبك ذراعيه حول صدره وقد بدا على وجهه شيء من الامتعاض. وفي نهاية الجلسة نظرت اليّ كورا. وشاع من بسمتها العطف على رغم خلوّ فمها من الاسنان. وسألتني: "ما عمر ابنكِ يا سوزان؟"

وشعرت أعين الجالسين جميعاً متجهة نحوي. وتملكني شعور بالاختناق. وبينما انا أتنفس اجاب دك عني: "ثلاث عشرة سنة."

وأضافت كورا: "هذا مكان حسن. وأظنّ أنكما ستقدران خدمته، كما نقدرها أنا وهاري."

وفجأة لم أعد أتحمل المزيد. ترى ما الذي أفعله هنا؟ لقد ربيتُ على أن أفعل كل أمر كأفضل ما ينبغي. وبذلتُ جهدي كله في تربية أولادي. غير أن الكل يقول اني كنت اماً مخفقة. وانتابني شعور فادح بالذنب. ورفعت شعري عن وجهي وأسرعت خارج الغرفة. ووجدني دك أنتهد على حائط الممر الاصفر.

وأظن ان الانقباض أخذ طريقه

اليّ منذ ذلك الحين، أو ربما طفا الى السطح آنذاك. وبقيتُ اسابيع لا أستطيع النهوض من السرير صباحاً كالمعتاد. وفي المكتب كنت أضع قوائم المبيعات أمامي وأنا لا أقوى على تركيز أفكاري. وكنت أذهب الى السرير قبل العشاء وأنام نوماً عميقاً من غير أحلام، لأستيقظ في الصباح كما لو كنت تحت تأثير مخدر قوي.

وبعد حين استعدت نشاطي، وأعانني الدكتور كروبر. وفي أحد لقاءاتنا قال: "صدقوني، لقد رأيت العديد من الاهل يضحون بكلّ ما لديهم من غير ان يمكنهم رفع الاضطراب عن ولدهم. ومن الخطأ أن يشعر أحد الوالدين بالذنب اذا وقع ولده ضحية اضطراب نفسي. ومتى تخلص الآباء والامهات والمجتمع من هذا الشعور، استطاع الاولاد المحرومون نفسياً الحصول على مقدار أكبر من العناية."

"صدقوني"، قال الدكتور كروبر.

"اكره كوني أماً"

عاش الصبيان في تلك المؤسسة حياة يحدها النظام من كل جانب. ولم تنقض لحظة واحدة من غير عمل او مراقبة. وكان بادي يجتمع بالسيدة تابور، التي تولت علاجه النفسي، خمس مرات في الاسبوع. أما بقية وقته فقسمت على الدراسة والرياضة والتسلية وتأدية الواجبات اليومية. وأخبرتنا السيدة تابور ان بادي لن يستطيع اختبار مشاعره وأفكاره الحقيقية الا بعد ضبط أمور حياته ضبطاً حسناً.

ومن أجل اعطاء الفتية فكرة ملموسة عن تقدمهم لجأت المؤسسة الى نظام الدرجات. وكان القادم الجديد يبدأ بالدرجة الاولى. وبعد وقت معين كان عليه ان يتقدم بطلب خطي يشرح فيه الاسباب التي تدفعه الى طلب الترقي الى الدرجة الثانية، وهكذا حتى السادسة. وكانت كل درجة تحمل مكافآت. فالفتى في الدرجة الثانية، على سبيل المثال، يستطيع مغادرة المؤسسة في بعض المناسبات. ولكن لا يحق له الذهاب آخر كل اسبوع ما لم يبلغ الدرجة الثالثة. ويحقّ للادارة انزال المرتبة بناء على السلوك.

وقالت لنا السيدة تابور: "نظام الدرجات هذا يتيح لنا أيضاً ان نراقب تطور الفتى. فبقاؤه طويلا في المرتبة نفسها يعني ان على الادارة اعادة النظر في طرائقها أيضاً." وأضافت ان زيارة المنزل ليست مقتصرة على الدرجة. غير انها نبهتنا الى أن بادي لن يسمح له بالخروج قبل ستين يوماً على الاقل، ليزورنا للمرة الاولى.

وصرخت: "هذا وقت طويل! ولكن لا بدّ من أنه يستطيع...".

- اسمعي أيتها السيدة بورتر: لقد كانت الحياة جحيماً بالنسبة الى بادي، كذلك بالنسبة الى عائلته. والحق ان كلا منكم يحتاج الى فسحة للتنفس.

وفي الاسابيع الاولى كتب بادي رسائل كثيرة، لم أتوقع محتواها. قال بعيد رسالته الاولى الغاضبة: "امي الحبيبة، اعذريني على رسالتي

الاخيرة. لقد تكلمت مع مدير المهاجع وقررت البقاء هنا."

وجاء في رسالة اخرى: "امي الحبيبة، انهم يضربونني لامور لم أفعلها. لقد حمل أحدهم السجائر الى غرفتي، لكنهم ظنوا أني أنا سرقتها. أرجوك ان تعيديني الى المنزل. مع حبي، بادي المجنون."

وبقينا وقتاً، أنا وزوجي، نزور السيدة تابور كل على حدة. ومرة كنا نتكلم عن بادي، فغيرت الموضوع وسألتني: "أتحبين كونك أماً؟"

وقلت لنفسي: "لكم هو سهل ان تنجب المرأة طفلا... لكن تربيته صعبة جداً."

وأجبتها بحدة: "اني أكره كوني أماً. أجل، اني احب اولادي. لكن المسؤوليات التي رافقتني طوال سنين، ومنها التخرج في الجامعة والحصول على وظيفة وارضاء رب العمل النيق، لم تترك لي وقتاً كافياً لرعاية الاولاد. واذا شئت معرفة الحقيقة، فاني أكره ان أكون أماً."

وانبرت: "وماذا تودين ان تكوني عوضاً عن ذلك؟".

وابتسمت قائلة: "صديقة... اني أفضل ان أكون صديقة لاولادي، فأمرح وألهو معهم."

وقبل أن أتابع كلامي فتح الباب. ووقف بادي هناك. ولم أكن رأيته طوال أسابيع. ووددت لو اسرع نحوه وأعانقه، الا أن شيئاً ما ردعني وأبقاني مكاني. وقلت له: "انك تبدو على ما يرام."

وابتسم وجلس، ثم قال: "السيدة تابور ترى انه يمكنني الذهاب الى البيت ثلاث ساعات يوم الاحد المقبل."

وصححت السيدة تابور كلامه بقولها: "اذا..."

اما هو فأضاف: "اذا استطعت بلوغ الدرجة الثانية قبل نهاية الاسبوع."

- قص على امك الاخبار الاخرى. ماذا عن اسمك؟

"أجل، ان لي اسماً جديداً الآن. والواقع انه اسم قديم... انه بول. ومن الآن فصاعداً أرجو ان أدعى بول."

...بول! انه اسم ابيه كذلك. وقد كنيناه بادي لعدم الالتباس.

وقالت السيدة تابور وهي تبتسم في وجهه: "المسألة رمزية. وهي تشير الى ولادة شخص جديد يثق بنفسه ويعرف كيف يسيطر على غضبه واحساسيه. أليس هكذا يا بول؟"

- أجل، اذا كنت تقولين هكذا.

وأخذنا بول الى البيت يوم الاحد. ولما وصلنا أسرع الى الداخل وذهب لتوه الى غرفته. ووقف في الباب دقيقة ثم توجه ببطء نحو سريره ولمسه، كما لمس صورة أبيه وجائزة السباحة التي نالها سابقاً في المخيم الصيفي. وكانت طريقة لمسه تلك الاشياء مؤثرة وأدرت ظهري سريعاً وذهبت الى المطبخ.

وبدا بول مرحاً خلال الغداء. وبعد ذلك جمع اشياءه القليلة واتجهنا نحو الباب. وقال دك: "لننتظر برهة."

ولمس جيوب بول كأنه يبحث عن شيء. فنهره بول قائلا: "ارفع يديك عني. اتظن اني سجين لديك؟"

وأجاب دك: "المعذرة يا بول. اني أبحث عن سجائر."

– انك لم تجد شيئاً اذاً! أرأيت يا امي؟ هذه هي الامور التي يجن جنوني حيالها. ارجوك، يا امي، أرجوك ان تسمحي لي بالبقاء في البيت.

وتملكني شعور بالذنب... هذا ابني، فما الذي نفعله به؟ غير أني هززت رأسي وصعدت الى السيارة.

وفي لقاء العائلات التالي، أراد جميع المشاركين ان نخبرهم عن زيارة بول الاولى الى البيت. وسأل الدكتور كروبر: "هل تمت كل الامور حسناً؟"

وأجاب دك: "ليس بالضبط. لقد فتشت جيوب بول قبل مغادرتنا المنزل بحثاً عن سجائر، مقتدياً بنصيحتك. لكنه عبر عن انزعاجه الشديد من ذلك، كما أزعجني الامر أنا ايضاً."

ونظرت الى دك مندهشة. فقال لي: "لقد تعبت من هذا الدور يا سوزان. ويبدو لي انك تخليت عن دورك في التربية بعد زواجنا."

– كيف تقول هذا؟

"هذا صحيح. وأشعر اني انا المسؤول عن وضع قواعد السلوك العائلي والسهر على حسن تطبيقها. أما أنت فلا تحاولين دعمي. ومعظم الوقت تقفين مع الاولاد ضدي."

– ليس صحيحاً أني تخليت عن واجباتي التربوية، وان صحّ اني أحلت بعضها عليك. فخبرتك كأب تتيح لك ان توفر لاولادي ما حرموه طوال سنوات.

"اذاً، اتركيني العب دور الاب، ولا تحاربيني كل مرة أضع قوانين. ان الاولاد مبلبلون الآن."

وكان ذلك الحوار الاول من نوعه. وتبعته حوارات كثيرة بيني وبين دك في المؤسسة وفي المنزل. وكنا نتناقش حول التربية ونحاول التوصل الى قواعد عملية.

وكانت للآباء والامهات الآخرين مشاكلهم أيضاً. وبدا ان هوارد بوينتون وحده لا يتكلم، بل يغرق في كرسيه بلا حراك. ومرة قال عن ابنه جين انه كسر بعض الاواني.

وذات مساء قلت لزوجي: "صحيح أن عائلتنا تعاني مشاكل، لكن ثمة احتمالا للتغيير. أما هوارد بوينتون فقال ان حال ابنه يائسة. وهذا أمر مؤسف حقاً."

ومدّ دك يده وأمسك يدي وقال: "انها المرة الاولى ألمس التفاؤل في كلامك عنا. أجل، اننا سنتغلب على الشدائد، ومعنا بول."

المواجهة

لمناسبة عيد الشكر في نوفمبر (تشرين الثاني) من ذلك العام سمح لابني بتمضية عطلة الاسبوع الاولى في البيت. وكانت خمسة أشهر مرت منذ ما نام في سريره للمرة الاخيرة.

وحذرتنا السيدة تابور قبل مغادرة المؤسسة: "اذا أبدى بول أقل سلوك غير قويم، فلتقطع زيارته فوراً."

قالت هذا على مسمع بول وهي تنظر اليه بعينين قاسيتين. ثم ابتسمت وعانقته وهي تقول: "اذهب الآن الى البيت واستمتع بزيارتك."

كان ذلك اليوم ملبداً بالغيوم، الا أن بول بدا مرحاً ونحن في طريقنا الى البيت، وما أن وطىء العتبة حتى مد يده الى جيب سرواله وأخرج حقيبة نقود جلدية صغيرة أعطاها لاخته كاتي، وقال بحياء: "هذه هديتي اليك، لقد صنعتها في المشغل."

وأجابت كاتي التي ما زالت في وثاقها بسبب عمودها الفقري: "أشكرك كثيراً يا بول." وحاولت بمشقة ان تعانقه.

وفي ساعة باكرة من صباح الخميس، ولما يكن أحد استيقظ بعد، وجدت بول في غرفة الجلوس وقد لف حراماً فوق ثيابه الداخلية، وقلت له بتعجب: "ما الذي تفعله في هذا الوقت؟ لقد ظننتك نائماً."

ولاحظت جرحاً نفسياً عميقاً في عينيه وهو يقول: "لكم هو جميل ان يكون المرء في بيته." وأنزلني الى الاريكة وضمني بذراعيه وأضاف: "اني احبك يا امي."

وعانقته أنا أيضاً وقلت: "وأنا كذلك يا بول، أنا احبك ايضاً."

وبقيت حرارة تلك البادرة معي طوال النهار، لذلك قلت ونحن نهم بالجلوس حول المائدة لتناول طعام العيد في الساعة الرابعة: "أشكرك يا الهي لانك جمعت شمل هذه العائلة السعيدة."

وكان دك أعدّ المحار البحري، فيما طهوتُ أنا البطاطا الحلوة وجهزت كاتي المائدة بأفضل الاواني، وتمنيت في تلك اللحظة ان يدنو وقت عودة بول النهائية الينا.

وحين جئنا بالحلوى والمثلجات قال: "يا لها من مائدة رائعة! لقد امتلأ بطني."

وقال له تومي بحبور: "لقد غدوت مثل ديك رومي محشو."

واذ ذاك رفعت شعري عن جبيني وقلت "بعد قليل يحين وقت جلي الاواني، فلماذا لا تأخذ نصيبك من العمل يا بول هذا المساء؟"

ونظر اليّ وقد قطب جبينه وقال: "أنا؟ لماذا؟ أنسيت أني ضيف زائر لايام ثلاثة فقط؟"

وانقبضت أعصاب معدتي وقلت: "أتظن أنه امر خارق؟ ان اخاك واختك سيساعدانك وكنت أحسب أن تحمل المسؤولية يروقك."

– هذا ليس عدلاً، فاني لا أعيش معكم، وأنت طردتني من البيت لانك لست معجبة بتصرفاتي.

"هذا غير صحيح، فأنا معجبة بك."

قلت هذا الكلام بصوت خافت، وأنا أدري أني احب ابني، لكني لست معجبة به، وعاودني ذاك الشعور القديم بالذنب.

وللحال انبرى دك قائلا: "أمامك خياران يا بول: إما أن تنظف الاواني وإما ألا تنظفها، إلا أن أي جدل فوق هذا يعني إعادتك الى المؤسسة فوراً. أفهمت؟"

– لا يحق لك أن تعطيني أوامر، انك لست أبي.

"حسناً يا بول، لقد أضعت الفرصة. هيا بنا الى المؤسسة."

وخرّ بول على ركبتيه وهو يبكي، وأمسك هدب ثوبي وقال: "كلا يا امي، لا تدعيه يفعل هذا، وأعدك

بأني سأغسل الصحون. إني أعتذر عما قلته، ولا أدري لماذا حصل ما حصل... أرجوك يا امي، أعطيني فرصة أخرى."

وترددت حيال استعطافه. إلا أن دك قال بحزم: "إنك عائد من حيث أتيت يا بول."

وجفت الدموع في عيني بول للحال. وأسرع نحو غرفته وعاد منها بحقيبته وفي يده سيجارة مشتعلة.

وقال له دك: "أحضر سترتك."

فأجابه: "قلت لك ألا تأمرني يا ابن الكلب."

وراح تومي وكاتي ينظران الى دك، وقد ملأ الخوف أعينهما، وهو يجر بول خارجاً الى السيارة. وأدار المحرك وانطلق وسط الجو العاصف.

وقال لي تومي: "ان دك شخص حقير. ألم يعرف أن بول كان على وشك أن يجلي الصحون؟"

ووافقت كاتي قائلة: "أجل، كان ينبغي إعطاؤه فرصة اخرى."

وأقحمت أظافري في راحة يدي... أحق ما تقوله كاتي وتومي؟ أكان يجب أن أمنع إعادة بول الى المؤسسة؟ وغمزني شعور باليأس.

وكانت الايام التي تلت عاصفة بالصراخ. وجعلت من دك كبش المحرقة بعد اقتناعي بخطأ موقفه وندمي على السماح له بتنفيذ وعيده.

وزعقت في وجهه: "الواقع أن الامر لا يهمك البتة. فأنت لست أباه."

وصاح دك فيَّ هو الآخر: "إنك لا تحبين ابنك عن طريق الرضوخ له... هذا ليس حبّاً."

- وماذا تعرف عن الحب؟

"بل ماذا تعرفين أنت؟"

وراح واحدنا ينظر الى الآخر فوق هوة من الغضب.

وحان يوم الثلثاء، وذهبت الى مكتب السيدة تابور للقاء بول كالمعتاد. ودُهشت إذ وجدته نادماً. وقال: "اني مسؤول عما حصل. ويؤسفني أن أكون أفسدت هذه المناسبة."

وسألته: "أأنت آسف حقاً؟"

وقالت السيدة تابور: "لقد شاء بول اختبارك. وهو مسرور جداً لأنك لم تذعني له."

وابتسم بول وقال: "المرّة المقبلة سأغسل الاواني من غير أن تطلبي ذلك."

وهكذا تعلمت درساً، كما تعلم بول درساً على ما أعتقد. واستمر العلاج لنا جميعاً.

"العائلة المهجورة"

كان المسؤولون عن الفتيان يجتمعون مرة كل ثلاثة أشهر لاعداد تقرير عن تطورات كل منهم. وكان اللقاء يتمّ في مكتب الدكتور كروبر، حيث تقرأ السيدة تابور، وهي مسؤولة عن العلاج، والسيدة ماجور، مسؤولة عن الدراسة، والسيد كونولي، مدير المهاجع، والدكتور كروبر الملاحظات التي أعدّوها.

وقالت السيدة ماجور: "إن استعداد بول للعمل ضعيف وغير ثابت ومشكلته الكبرى محاولته التغيب عن الصفوف. لكن في استطاعته، متى شاء، إنجاز واجباته وإظهار شخصية مرحة محببة. إلا أن

في إمكانه أيضاً أن يكون مشاغباً ومعادياً."

وهزّ جو كونولي رأسه وهو يراجع التقرير الذي أعدّه عن بول، وقال: "لقد أخبرني بول عن أحلامه. فهو يرى أباه وسط غابة. ثم لا يلبث أبوه أن يتركه هناك وحيداً هلعاً... إنني آسف لوفاة والده. لكن ذلك لا يدعوني الى التساهل حياله. وإذا احتجزته ربع ساعة في الغرفة، خرج بعد ذلك وهو يلعنني ويتهددني، على رغم قوتي وضخامة بنيتي."

وأضافت السيدة تابور: "لديّ ملاحظات مشابهة من حيث العلاج النفسي. فهذا الفتى يعجز عن رؤية الامور من حيث هي أسباب ونتائج. إنه يعيش كل لحظة بمفردها، ولا ينفك ينتظر المكافآت. إنه، ببساطة، يرفض أن ينمو."

وأخيراً قال الدكتور كروبر: "في إمكاننا مساعدة بول للتغلب على كآبته، وحتى على غضبه. أما شفاؤه في المدى الطويل فوقف على تبديل سلوكه الهدام. وعلينا أن نبتكر طريقة تحثه على الشروع في هذا التبديل."

وكنت ذات مساء أعمل على أوراقي فيما دك يعمل على أوراقه هو أيضاً. ولم يُسمع في الغرفة غير صوت الاوراق والاقلام. وكان ينبغي أن تمرّ تلك الامسية بسلام كالعادة. غير أن الخوف تملكني وأنا أنظر الى الارقام أمامي.

لقد أعانتنا مبالغ التأمين طوال الاشهر الاربعة الماضية على دفع مصاريف بول التي تبلغ ٥٥ دولاراً يومياً على مدار السنة. غير أن حصتنا في التأمين باتت على وشك النفاد.

ولم يكن في استطاعة دك أن يفعل شيئاً. فطلاقه أتى على مدخراته، والمكتب الاستشاري الذي أنشأه كان في بداية الطريق.

ورميت القلم على الطاولة وقلت: "اني في حيرة من أمري."

وارتسم الهم على جبين دك وهو يقول: "ما رأيك في طلب مساعدة من الدولة؟"

– كلا! ألم تسمع ما قاله الدكتور كروبر من أن طلب المعونة الحكومية يعني التخلي عن حقوقنا تجاه الولد؟

"لقد قال كروبر ان المسألة لا تتجاوز الشكليات. فلماذا ترفضينها يا سوزان؟"

– لا بدّ من أن تكون هناك طريقة أفضل.

ودعانا بعض الاصدقاء الى تمضية عطلة في منتجعهم الشتوي برفقة بول. وهو سُرّ كثيراً لفكرة التزلج، وبذل جهده للترفع الى الدرجة الثالثة قبيل موعد الرحلة. وكنا مرتابين في تصرف بول المنتظر، غير أنه فعل كل شيء على خير وجه. وذلك منحني أملا جديداً بوشوك إعادته الى البيت.

إلا أن أثر العطلة الثلجية ما لبث أن زال سريعاً. فما أن عاد بول الى المؤسسة حتى استأنف أساليبه الملتوية وتقهقر بسرعة الى الدرجة الاولى.

وذاب الثلج وأطل النرجس البري مبشراً بالربيع. وإذا بي في مكتب السيدة تابور التي قالت: "لقد بدأت أنت وبول تدركان طبيعة مشاعركما.

والواقع أن بول أخذ يعبر بالكلام عن غضبه حيال ترك والده اياه وحيداً. فهو يفهم موت أبيه على هذا النحو الطفولي. إلا أنه ما برح يجادل باستمرار ومن موقع السلطة. وهو لم يتوصل الى التفكير في عواقب أفعاله. ولن نسمح له بالذهاب الى البيت حتى نتمكن من حفزه على تبديل مجرى سلوكه."

ـ آمل ألا يستغرق هذا الأمر طويلا، أعني أكثر من ثمانية أشهر.

"لماذا تقولين هذا؟"

ـ إني أقوله بناء على ما سمعته من الدكتور كروبر حين حملنا بول الى المؤسسة للمرة الاولى. فهو قدّر المدّة كلها بثمانية عشر شهراً.

"ذلك لم يتعد كونه تقديراً. والامر متعلق بالتقدم الذي يحرزه بول. هذا ليس سجناً يا سيدة بورتر، لكنه مركز علاجي. ونحن نمدّ الاولاد بالعلاج ما احتاجوا إليه... ولكن هل قلت شيئاً لبول عن المهلة؟"

ـ أجل، لماذا تسألينني؟

"ألا ترين ما الذي يحصل؟ هذا يجعل بول يفكر في الوقت من غير أن يبذل جهداً حقيقياً لتحسين حاله. فهو يظن أن تمضية الاشهر الثمانية عشر كفيلة باعادته الى البيت، في حين أنه لا يزال ألصق بالسن السابعة التي توقف نموّه النفسي عندها. وهو يرفض أن ينمو."

ولم يكن مرّ في ذهني قط أن العلاج قد يستغرق أكثر من سنة ونصف سنة. وأرقتني الفكرة لغير سبب، ومن ذلك أن مدّخراتنا على وشك النفاد.

وفي ذلك المساء قلت لزوجي وأنا أتأمل في حسابنا المصرفي: "ما الذي نستطيع فعله؟"

وفي الصمت الذي تلا سؤالي توصلت بنفسي الى الجواب.

في الدائرة القضائية قادتنا مساعدة اجتماعية الى شقة القاضي الخالية من النوافذ. وقالت همساً: "تذكري أن المعاملة لا تعدو كونها شكلية."

أجل، الكلّ ذكرني بشكلية تلك المعاملة.

وأمسك دك بيدي وقال: "إذا كنا واثقين من حسن ما نفعله من أجل بول، فلن نحاول إعادته سريعاً الى البيت. إذاً لا تنسي يا سوزان أنك تفعلين ما تفعلينه الآن من أجل بول."

إلا أن القاضي ما لبث أن دخل الغرفة وتلا نص المعاملة، ومنه الآتي: "بعدما سمعت المحكمة طلب الحاضرين، قررت اعتبار الفتى بول هولت عالة مهجورة."

والواقع أن أحداً لم ينبهني الى هذا المقطع. غير أنهم قالوا لي لاحقاً ان هذا هو "الوجه الشكلي للمعاملة. ولا بدّ من استعمال هذه العبارة القانونية." لكني لن أنسى وقع تلك العبارة الرهيب عليّ: "...هذا الفتى عالة مهجورة."

ولما غادرنا القاعة خُيّل إلي أني تخليت عن ولدي ووضعته في عهدة الدولة.

المفتاح المفقود

مع ازدياد واجباتي المهنية أمضيت أمسيات عدّة أعمل حتى

ساعة متقدمة من الليل. واقترح دك ذات مساء أن نذهب الى حفلة استقبال. وهناك صادفت ما كنت أتوقع إذ وجدتني أمام وجوه غريبة ووسط سحب من دخان السجائر. وفجأة أتت نحوي امرأة ذات شعر قاتم ضارب الى الحمرة وقالت: "إني أعرفك."

تلك كانت ماري هاموند، جارتي السابقة التي ضرب بول ابنتها ليزا. وكان لها صبي اسمه مايك.

وسألتني: "أتتذرين مايك؟"

فهززت رأسي إيجاباً.

وما أن فعلت حتى انهمر الدمع من عينيها. ثم قالت: "لقد مات مايك." وكان وجهها مفعماً بالألم مما حداني على رفع أنظاري عنها. إلا أن كلماتها اللاحقة أعادت عيني إليها: "لقد انتحر قبل ثلاثة أشهر."

وسرت قشعريرة في جسدي. ووقفنا وسط تلك الحفلة الضاجة وقد نسينا الكلمات الغاضبة التي تبادلناها قبل سنوات. ومددت يدي نحوها مؤاسية، وأنا أم مثلها.

وتابعت: "كان ينبغي أن أعرف تصميمه. فهو هدّد بالانتحار، غير أني كنت منهمكة في العمل ولم أصدقه. وكنا نظنه سعيداً. ولم يصدر منه أي عمل مشاغب على غرار..."

قالت هذا وصمتت، فتابعت عنها: "على غرار بادي... ثمة من يعيننا اليوم على بادي."

– ترى لماذا لم نطلب نحن المعونة؟

وقلت لنفسي وأنا على الطريق مع دك: "لأن معونة من هذا النوع تقتضي أن يقترحها أحد علينا." وارتجف جسمي حين ذكرت أن المحنة التي يعانيها بول لم أكتشفها بنفسي، بل اكتشفها دك بمساعدة المسؤولين في المؤسسة. ولو لم نحصل على تلك المساعدة، لما كان مصير بول بأفضل من مصير ابن السيدة هاموند. والخطوة القانونية التي أجريناها أخيراً، كم تهون أمام مصيبة تلك الجارة القديمة!

وحان موعد اللقاء العائلي. وانضم إلينا عضوان جديدان هما رون ميريديث وزوجته فران. وفي ذلك المساء تأخر آرت ليمان وزوجته بيتي. ثم دخلت بيتي لتعلن بفرح عظيم: "لقد جئنا لنقول لكم وداعاً. فابننا عائد الى البيت."

وصاحت كورا: "يا له من خبر عظيم!"

وقال آرت: "نعرف جيداً أن الحلول البسيطة لا وجود لها. لكن ابننا تعلم الآن كيف يسيطر على غضبه."

وأضافت بيتي: "وأنا كذلك."

وانبرت كورا: "حقاً اننا نعرف هذا الامر." وضحكنا كلنا، وتذكرنا بعض اللقاءات الماضية حين كانت بيتي تصب حمم غيظها الذي لجمته طوال سنوات. ولكن ما أن تعلمت كيف تسيطر على نفسها حتى تبدلت علاقاتها مع الآخرين وفارقها الحياء الشديد الذي رأيته لديها في البداية.

وقالت كورا لزوجها: "لا بدّ من أن نبلغ هذه المرحلة يا هاري، أليس كذلك؟ ولكن علينا تلقين بنجي أن يحب نفسه."

ونظر الدكتور كروبر الى هوارد

بوينتون وقال: "انك لم تتكلم هذه الامسية يا هوارد. فما الأمر؟"

وابتسمنا كلنا، إذ انّ هوارد لم يسبق له أن تكلم البتة.

وأجابت عنه زوجته ميلي: "لقد أخذنا جين الى المنزل الأحد الماضي. وجلس معنا يراقب مباراة كرة القدم على التلفزيون... اننا أمضينا عصراً جميلا يا هوارد، أليس كذلك؟"

لكن هوارد نظر الى زوجته بشفقة وقال: "كل منا يمكنه التصرف على نحو طبيعي لثلاث ساعات أو نحوها يا ميلي."

ـ ولكن علينا يا هوارد أن نقرّ بأننا أحرزنا تقدماً ما. أليس علينا أن نبدأ من مكان معين؟

وقلت من غير تفكير: "انه لأمر صعب، ولا شك، أن يأتي المرء الى هذا المكان. وإني لم أقبل هذا الواقع بسهولة."

وقال آرت: "الواقع أني لم احب موقفك لأنك نظرت الينا جميعاً كما لو كنا حشرات."

وأضافت بيتي: "لكنك كنت قاسية جداً على نفسك. ويبدو أنك بت تقبلين الامور أكثر من ذي قبل. ونحن نقدرك كثيراً."

واثر فيّ كلامها. وأمكنني أن ألمس التبدل الذي طرأ عليها هي. وربما كان صحيحاً أني تبدلت أنا أيضاً.

وفي طريقنا الى البيت قلت لزوجي: "إذا عاد ابن آرت وبيتي الى المنزل، فلماذا لا يعود بول؟ دعنا نسألهم عن هذا الامر."

وقلت للدكتور كروبر لدى مقابلته اليوم التالي: "لقد انقضى اثنان وعشرون شهراً على وجود بول في هذا المكان."

ـ ألا ترين أن بول سجل تقدماً ملحوظاً؟ وأنت كذلك سجلت تقدماً.

"أعرف ذلك. ولهذا السبب أطلب منك أن تعتق بول وترسله الى البيت. إننا نحبه."

ـ لا شك في أنكم تحبونه. لكن المهم أن يحب هو نفسه. ومن لا يحب نفسه لا يمكنه أن يحب الآخرين. وإذا تزوج وهو على على هذه الحال، فقد يتنقل من زوجة الى اخرى ويسيء معاملة أولاده. وربما خسر وظائفه جميعاً لأنه لا يستطيع استخدام السلطة... أتذكرين زيارتك الاولى الى هذا المكان؟ لقد قلت لك آنذاك ان نموّ بول النفسي متوقف عند سنه السابعة، وهي السن التي بلغها عند وفاة أبيه. والواقع أنه، في امور حساسة كثيرة، ما يزال متحجراً هناك. ولم نجد بعد المفتاح المناسب لحفزه على التقدم. وإذا غادر بول المؤسسة سريعاً، فربما واجه صعوبات جمة لن يستطيع الوقوف لها."

ونظرت الى الدكتور كروبر ثم الى دك، وبعد ذلك الى يديّ المطبقتين. وقلت: "أتظن أنه سيعود الى البيت مع فصل الصيف؟

وهزّ كروبر كتفيه وقال: "إذا وجدنا المفتاح."

المسؤولية

ارتأت السيدة تابور أن المفتاح الضائع قد يكون في العلاج العائلي، أي في خضوع جميع أفراد العائلة

لدورة من العلاج النفسي· واقترحت أن نباشر نحن الخمسة الاجتماع بها ابتداء من مطلع الاسبوع المقبل·

وفي لقائنا الاول راحت كاتي تنظر بدهشة حولها· وكانت في السادسة عشرة؛ وقد انتزع الرباط من عنقها وظهرها· وكان شعرها جميلا وقد قومت أسنانها على نحو أنيق· ونمت حركاتها عن هدوء نفسي وطبيعة طيبة·

وغرق تومي في مقعده عابساً· وكان في الثانية عشرة؛ وقد خبأ بعض مشاعر القلق خلف ستار من الاختيال؛ كونه بلغ السنة الابتدائية السابعة بنجاح·

وحيانا بول بابتسام· وقال مبتهجاً وهو يتحرك في كرسيه: "لكم هو عظيم أن نجتمع كلنا أخيراً·"

وسألتنا السيدة تابور: "كيف تجري اموركم العائلية·"

وتردّدت كاتي قليلا قبل أن تقول: "لا يزال الشجار على أشده· ووالدتي تغضب كثيراً لأننا لا نرتب المنزل·"

– ولماذا لا ترتبان المنزل أنت وأخوك؟

"إني على استعداد للعمل المنزلي إذا أبدى تومي استعداده أيضاً·"

وغرق تومي أكثر فأكثر في مقعده. وقال: "امي لا تكف عن التذمر·"

وتنهد دك وقال: "هذا صحيح· والواقع أن سوزان تكرّر الكلام نفسه· وهي تلجأ الى التهديد والوعيد من غير أن تنفذ كلامها· وهكذا يفعل تومي وكاتي ما يريدان·"

وقلت: "شكراً لكم جميعاً· لقد نسيتم أن دك يبقى معظم الوقت خارج المدينة في رحلاته التجارية· أما أنا فأعود الى المنزل متأخرة ومرهقة· فلماذا لا تحاولان مساعدتي؟"

وأجاب دك: "لأنهما في مرحلة الطفولة أو المراهقة· وهما يريدان اختبارك يا سوزان· وعليك أن تكوني حازمة في مواقفك·"

وبقينا نحن الخمسة نجتمع طوال ذلك الربيع حتى مطلع الصيف؛ باحثين في الامور التي تحدث الخلاف بيننا· وذات مساء قلت وقد عيل صبري: "لم أعد أتحمل هذه التفاهات· فما علاقة لقائنا بعودة بول الى البيت؟"

وأجابت السيدة تابور: "ألا ترين أن عائلتك كالماء الذي يبقى على وشك الغليان؟ والامر ليس في تفاهة النقاش بمقدار ما هو في حدّته واستمراره· والحقيقة أن بول لا يستطيع الانسجام مع وضعكم العائلي المضطرب·"

إلا أن السيدة تابور لم تذكر شيئاً عن الاضطراب الذي ما زال بول يعانيه وهو ضمن المؤسسة· ويبدو أن مشكلته ذات علاقة بصديق جديد اسمه دوغ· وكان هذا في السادسة عشرة آنذاك؛ وقد رُقي الى الدرجة الثالثة بعدما راقته حسنات الترقية·

وقابلت دوغ ذات أحد ووجدت فيه فتى مهذباً ومرحاً ورقيقاً· وقلت لابني: "صديقك يبدو حسن المعشر·" وشئت أن يشجعه مثل دوغ على الاقتداء به·

لكن الغريب أن بول وقع في مشاكل جديدة· وقُبض عليه مرّة وهو يحمل

السجائر الى الفتية الآخرين. واضطر المشرفون على المهاجع الى ردّه مراراً عن أترابه. وفي إحدى تلك المرات هدّد السيد كونولي بالضرب. وسُمع يتفوه بعبارات إباحية على الهاتف مع فتاة تدعى جودي.

وسألت السيدة تابور وقد هالتني تلك الامور: "ما الذي يحدث؟"

ـ أظن أن هذا أثر دوغ.

"دوغ؟ لكن دوغ أبلى حسناً في دروسه. وأخبرني بول أنه على وشك الترقي الى الدرجة الخامسة."

الدرجة الخامسة."

ـ يخيل اليّ أن دوغ أوتي القدرة على استخدام الناس وترك نفسه محجوباً.

"أتقصدين أن دوغ هو الذي دفع بول الى...؟ ولكن من المسؤول عن دوغ؟"

ووضعت السيدة تابور القلم بين أسنانها وقالت: "لست أنا يا سيدة بورتر. ولكن لا تنسي أننا لم نبلغ الكمال في هذا المكان، مثلنا مثل أي مكان آخر. وأحياناً نواجه صعوبات. إلا أن أثر دوغ على بول لا يرفع المسؤولية عن ابنك."

وضربت يدي على الطاولة وقلت: "مسؤول؟ لقد غدوت مريضة من سماع هذه العبارة. كما مرضت حتى الاعماق من إبقاء بول هنا. ولقد مللت رؤيتك ورؤية سائر الاولاد يعادون الى بيوتهم باستثناء بول... إني أُصر على عودة بول الى البيت."

ـ سيدة بورتر...

"كلا! لا أُريد سماع المزيد من النصائح. لقد أمضى أبني سنتين لديكم. وهذا يكفي."

قلت هذا وانطلقت عاصفة خارج المكتب.

النموّ

لم يكن ذلك المزاج فارقني لدى حضوري لقاء العائلات التالي. وكان ذلك خارج المدينة، وراودني شعور بالبقاء في البيت. ولكن ربما كنت أبحث عن فرصة اخرى للتعبير عن غيظي.

وما أن جلسنا حول الطاولة حتى صرخت: "لقد تعبت من بقاء بول هنا... تعبت من سماع العبارات نفسها التي تقول ان الوقت لم يحن بعد لاخراجه. اني أُصر على إطلاق ابني الآن."

قلت هذا وأنا أنظر شزراً الى السيدة تابور والدكتور كروبر. ولم يقل أحد كلمة. وفجأة انحنى هوارد بوينتون قليلا وقال بتهكم: "إذاً ستأخذين ابنك الى المنزل، وستعرفون جميعاً السعادة الحقة بعد ذلك."

ونظرت إليه بتعجب. وأضاف: "ابنك ليس الوحيد الذي يحتاج الى النمو... أنت أيضاً تحتاجين الى النمو."

وتنهدت فيما تابع هوارد كلامه: "كلّ ما أسمعه منك هو الشكوى. فأنت تظنين أنك والدة مخفقة، كما تظنين أن المصائب بعيدة عن سواك، وتحاولين إحالة الامور على ذلك... بحق السماء، متى ستكبرين وتتصرفين كأم وليس كفتاة مدللة؟ إذ ذاك ربما وجد ابنك بول قدوة لينمو هو الآخر."

ولم أصدق ما سمعت، ونظرت حولي عل أحداً يدافع عني، إلا أني قرأت الاقتناع بكلام هوارد في أعين الآخرين.

وقطع الدكتور كروبر حبل الصمت ليقول: "أتظنون أن هوارد على حق؟"

وأخذ الآخرون يهزون رؤوسهم ايجاباً واحداً بعد الآخر، وسمعت أصداء المحادثات القديمة في أذن ذاكرتي: "اني أكره أن أكون أماً، وكل ما أريده هو أن أكون صديقة أولادي... من الشاق أن يكون المرء مسؤولا طوال الوقت، إني أعاني الاجهاد، ولدى بلوغي المنزل يكون الارهاق بلغ مني مبلغاً يمنعني من مواجهة الامور."

ألا يعني هذا كله أني وابني بول متشابهان؟ كيف غابت عني هذه الحقيقة قبل اليوم؟ اننا، نحن الاثنين، نهرب من المسؤولية، وكلانا ينتظر اللحظة السحرية التي يخرج بول فيها من بيت الاحداث.

والحقيقة أن طريقة الخروج مرتبطة بالواقع، لا بالغيب. وفجأة أدركت أن علي أن أنمو لأواجه مسؤولياتي كأم، لئلا تبقى عائلتنا كما قالت السيدة تابور "كالماء على وشك الغليان."

ويتعين على بول أن يتخلص من إلقاء تبعات أفعاله على موت والده أو على السلطة المفروضة عليه أو على أمه أو على أي شخص أو وضع خارج عنه.

والحق أن كلام هوارد غير المتوقع وغير المعهود هزني من الاعماق وجعلني أعي حقيقة وضعي.

وفي اغسطس (آب)، بعد مرور ٢٥ شهراً على إدخال بول بيت الاحداث، كتبت إليه هذه الرسالة:

"عزيزي بول،

تعرف كم كانت رغبتي قوية في أن تكون معنا هذا الخريف، غير أن الحياة ليست بالرواية الوهمية حيث تستحيل الاحلام حقائق. والواقع هو أني لا أستطيع الاتيان بك الى البيت، وإن كنت أرغب في ذلك حتى الوجع. إلا أني لن أعود بك الى البيت حتى يسمح الدكتور كروبر، والسيدة تابور بذلك. والامر يا بول وقف عليك أنت. فبطاقة العودة الى البيت في يدك، تبرزها ساعة تشاء. مع محبتي، أمك."

وعندما حان عيد الميلاد قال لي بول والتساؤل في عينيه: "إذاً لن تعيديني الى البيت؟ هل يعني هذا أني سأبقى خارجاً؟"

وفي فبراير (شباط) قالت لي السيدة تابور بحماسة: "لقد طرأ تبدل ملموس على سلوك بول خلال الاسابيع الاخيرة. وتقدم بطلب لبلوغ الدرجة الثالثة، كما سألني أن أساعده لوضع قائمة من الاهداف التي يجدر أن يعمل على تحقيقها. وقد باشرت تدريبه على أصول التعامل مع ذوي السلطة، كالأهل والمربين."

واستمر تقدمه. وفي مارس (آذار) قررت إدارة المؤسسة إرساله الى البيت في نهاية كل اسبوع على أساس تجريبي. وفي الشهر نفسه اختاره زملاؤه رئيساً للمهجع. وكان ذلك شرفاً كبيراً ومدعاة افتخار له. وبدا أنه أكسبه ثقة جديدة بنفسه.

وعندما تقدم بول بطلب للترقي الى

المرتبة الخامسة في مايو (أيار) من ذلك العام، قالت السيدة تابور: "لقد اجتزنا الخطر. وفي حين نجد من الضروري الاستمرار في العلاج العائلي، إلا أننا على استعداد لاعادة بول الى البيت."

وأخيراً نطقت تلك المرأة الصارمة، التي باتت جزءاً من حياتنا طوال السنوات الثلاث الماضية، بالعبارة التي انتظرتها طويلا: إعادة ابني الى عائلته.

ولم يستطع دك تمالك الدمع. وقال همساً: "أرأيت؟ لقد نجحنا أخيراً."

وكانت زيارتنا الاخيرة لبيت الاحداث يوم جمعة في مطلع شهر يونيو (حزيران). وأوقفنا السيارة على الحصى وقد تصاعدت صيحات الاولاد وهم يلعبون بين الاشجار.

وصعدنا الى مهجع بول. ورأيناه واقفاً مع صبي جديد ضامر وطويل القامة وصعب المراس كما يبدو من وجهه.

وسمعنا بول يقول له: "اسمع! ابحث في امورك كلها مع السيدة تابور. صحيح أنها امرأة صارمة، غير أنها تعرف تماماً ماذا تفعل. ولا شك في أن لها فضلا كبيراً عليّ."

وقلت لنفسي: "بل انّ فضلها علينا جميعاً. وهي أعانتنا حين تبين أن الحب وحده لا يكفي."

وحين عاد بول الى البيت كان في الصف الاخير من مرحلة الدراسة الثانوية. وهذا العام تخرج في الجامعة. وهو شاب وسيم، قوي البنية، حسن المعشر، وطوله ١٨٣ سنتيمتراً. وإني فخورة به حقاً. كما اني فخورة بنا جميعاً.

■ **سوزان هولت بورتر**

هدية الزوج

دخلت شابة محلا نسائياً شهيراً واختارت معطف فرو باهظ الثمن، طالبة من الموظفة أن تلفه في غلاف خاص بالهدايا، وقالت: "انه هدية مني الى زوجي في عيد ميلاده. ذلك أنه، في عيد ميلادي الأخير، قدّم الي لوحة أراد أن يقتنيها قبل وقت طويل".

ر.و.

اسأل مجرباً

بينما كان رجل يتنزه في الشارع قفز غلام عن جانبه ووقف في طريق السيارات. وأمسكه الرجل من كتفه وأعاده الى الرّصيف وهو يقول: "ما المسألة يا بنيّ؟ أتريد أن تتجنّب البلوغ ومواجهة مشاكل العالم؟"

ب.س.

قالت فتاة لصديقتها: "لن أتزوج إلا وقد بلغت العشرين".
فأجابتها الصديقة: "لن أبلغ العشرين إلا متزوجة".

ج.و.

كتاب الشهر

المنقذ

تقرير خاص

بقلم روبرت كولينز

المنقذ

لأكثر من ثلاث سنوات ظلّ الميجور الدكتور بن ويلر يدوّن يومياته خلسة عن أعين سجانيه اليابانيين خلال الحرب العالمية الثانية. وكان الطبيب الكندي الشاب على علم بالعقوبة الوحشية الملازمة لعمله، غير ان ذلك لم يثنه عن متابعته. وسرعان ما وجد في تلك اليوميات، التي جعل منها خطابا موجها الى زوجته، ما يستحق البقاء من أجله. وأمده ذلك بالسَّنَد المعنوي والجسدي الذي جعله يقدّم افضل عناية طبية وانسانية ممكنة لزملائه الأسرى، ويشدّد عزائمهم.

١٣

يناير (كانون الثاني) ١٩٤٣.

الوقت يمرّ على نحو او اخر بأيامه السريعة. غير ان اسابيعه تبدو اشهرا وأشهُره سنوات. ومن الصعب ألا تتثبّط عزيمة المرء. والواقع ان عملي عسير جدا بلا ادوية. ويوما بعد يوم تزداد الاصابات الناجمة عن نقص الفيتامين الغذائي.

ولقد اشتد الصقيع بعد سقوط الثلوج على القمم. لكن العديد من الرجال يعملون بسراويل قصيرة. وفي الأكواخ لا يسمح لهم بالاسترخاء او باستخدام الأغطية. واذا عصوا الأوامر عوقبوا بالضرب العنيف، بغض النظر عن حالهم الصحية. وكل يوم يفقد واحد او اثنان او ثلاثة منهم الوعي بفعل الهزال والتعرُّض لأحوال الطبيعة. وفي الايام العشرة الاخيرة أنقصت كمية الرز الى النصف او اقل. ولا يسعنا المضي على هذا المنوال طويلا.

يا الهي، متى تحين نهاية هذا العذاب؟ وكيف تراها تأتي؟ الا انه في امكاننا ان نعيش من يوم الى يوم من غير ان نفقد الشجاعة او الامل.

في كوخ حقير من الخيزران على جزيرة فورموزا (تايوان اليوم) التي يسيطر عليها اليابانيون، حرص الميجور بن ويلر حرصا شديدا على اليوميات التي كان يدوّنها خلسة، وحفظها بعيدا عن اعين سَجّانيه. وكانت تلك الايام اكثر ايام الحرب العالمية الثانية قتاما. فالمانيا ما زالت تستولي على معظم اوروبا واليابان على شرق اسيا.

وفي ذلك المخيم المخصص لأسرى الحرب في تايهوكو خارج البر الصيني، جعل الطبيب الكندي الشاب من مفكرته حبل سلامة ورجاء.

ولم تكن زوجته نل في بلدة ادغرتون الكندية عرفت شيئا عنه ولا هو تسلم رسالة منها منذ وقوعه اسيرا في سنغافورة قبل احد عشر شهرا. وما لبث العالم الخارجي ان حُجب عنه فترة طويلة. غير انه، من حيث الظاهر، لم يدع مجالا الا للرجاء، وان يكن في اعماقه خشي الا يرى زوجته وبلده البتة.

وظل، ليلة بعد اخرى، يخاطب زوجته نل على اوراق مفكرته، معبرا عن حبه والمه وتطلّعاته وأحداث يومه، وقد استخدم ريشة وحبرا عصره من الأماليد والاوراق والطين. والعقوبة الملازمة لكتابة المذكرات لم تكن اقل من الضرب المبرّح. لذلك خبأ ويلر مفكرته بين اوراقه الطبية التي سمح بها السجانون. وأعانته المفكرة وحبه لزوجته على البقاء، كما اعاناه على خدمة مئات الأسرى الذين وُضعوا في رعايته الطبية.

تلك الليلة من العام ١٩٤٣ كان بن ويلر في الثانية والثلاثين، وهو رقيق الكلام وذو عينين رماديتين حادقتي النظر وشعر بني مائل قليلا الى الوراء. وكان طوله ١٧٩ سنتيمترا ووزنه الطبيعي ٧٢ كيلوغراما قبل ان يصيبه الهزال على غرار زملائه في ذلك السجن القاسي.

وكان ويلر الكندي الوحيد في تايهوكو بين مئات الانكليز والايرلنديين والاسكوتلنديين والهنود والاوستراليين. وفي العام ١٩٣٦ حملته الأزمة الاقتصادية الى انكلترا مع

زوجته الحبلى. وكان تخرّج لتوّه في جامعة البرتا، وليس لديه اي مبلغ من المال ليفتح عيادة طبية. وهناك وُظف في اللجنة الطبية التابعة للهند. وفي لندن راح يدرس ١٨ ساعة يوميا لانهاء دورة قصيرة مكثفة في الطب الاستوائي، ذهب بعدها الى الهند في بداية العام ١٩٣٧.

وتبعته نل مع بكرهما هاري المولود حديثا. وكانت شقراء ناحلة ذات عينين زرقاوين وطبع مَرِح، الأمر الذي بعث الحبور في نفوس مواطنيهم هناك. والى حين، بدت الحياة طيبة في مجمّع الموظفين الأجانب بالقرب من المستشفى العسكري الهندي في كراتشي. وولد لآل ويلر ابنان اخران سمياهما كينيث وألان. وأسوة بسائر الضباط في ايام الامبراطورية البريطانية الاخيرة، أعطي آل ويلر منزلا مليئا بالأثاث والخدم. ومع اندلاع الحرب الثانية عام ١٩٣٩ بدا غريبا ان يكون المرء في ذلك المكان القصيّ.

وشهد العام ١٩٤١ نهاية الحياة الهانئة. وفي مارس (آذار) من ذلك العام أبحر ويلر مع فرقة عسكرية بريطانية الى كوالالمبور (ماليزيا) فيما استعدت نل للعودة الى كندا مع اطفالها الثلاثة. وفي ٧ ديسمبر (كانون الاول) اعلن اليابانيون الحرب على الحلفاء، وبدأوها بهجوم على قاعدة بيرل هاربور الامريكية في هاواي. وتابع العدو زحفه طوال الشتاء والربيع حتى استولى على الفيليبين والملايو وهونغ كونغ وجزيرتي ويك وغوام. وظن البريطانيون ان سنغافورة، بمدافعها القوية الموجهة الى البحر استعدادا لصد اي هجوم، غير قابلة للاختراق. غير ان اليابانيين تسللوا من الوراء وسحقوا اعداءهم في ايام. وكان ذلك بعد اسبوعين من وصول ويلر الى هناك.

١٣ فبراير (شباط) ١٩٤٢.

اليابانيون يطبقون علينا على هيئة نصف دائرة حول المرفأ الرئيسي، وهم يطلقون النار في كل اتجاه، خصوصا في الليل. وفي النهار ترتفع حجب الدخان الكثيفة من القاعدة البحرية المحترقة، وما تلبث ان تخيم على الجزيرة.

حاول ويلر مع صديقين الهرب بواسطة قارب مسروق. وقبل ان يبلغا الماء قتل احد الصديقين وأصيب الآخر في ذراعه، لكن ذلك لم يثنه عن النزول الى الماء. وحاول مع ويلر الانطلاق باحد القوارب، الا ان حركة الريح والماء عاكستهما. وزحفا باكتئاب الى الشاطىء استعدادا للاستسلام.

كان الخوف يملأ المكان، والغزاة ينطلقون من قرية الى اخرى ويقطعون رؤوس المسؤولين الصينيين الكبار ويعلقونها على أعمدة في الساحات العامة لتكون أمثولة للناجين. وفي سنغافورة اقتحمت القوات اليابانية مستشفى وطعنت بالحراب نحو مئتي مريض وموظف، وادّعت بعد ذلك انها كانت تدافع عن نفسها على اثر التعرض للنار من ذلك المبنى.

١٦ فبراير (شباط) ١٩٤٢.

الاضطراب يجرّ الاضطراب. ويظهر

امامنا اليابانيون، للمرة الاولى، بأجسامهم الصغيرة القذرة وسيقانهم القصيرة، وقد حمل كل ضابط منهم سيفا بطوله. ومن العسير ان يتصور المرء كيف امكنهم ان يغلبونا بهذه الجدارة والرشاقة.

احيانا كان بن يهيجه الشوق الى نل، فينظر عبر القناة الضيقة الى البر وهو يفكر في امكان عبورها ليلا. وبدت السباحة الى الضفة الاخرى ممكنة، لكن أدغالا واسعة كانت تقوم وراء الضفة على امتداد الفي كيلومتر. وتخلى بن عن تلك الفكرة، عاقدا العزم على اقصاء نل قليلا عن خياله.

٢٠ أبريل (نيسان) ١٩٤٢.

ماذا سيحل ببعضنا قبل نهاية هذه المأساة. اني، من ناحيتي، اتوقع اسوأ العواقب. ولكن لا جدوى من البكاء على ذلك... ترى ما الذي تفعله نل الآن؟

منذ ذلك الحين كثر ذكر نل في تلك المفكرة. وما لبث بن ان انتقل الى مخاطبتها على نحو مباشر. وغالبا ما كان يراها في احلامه. وفي يونيو (حزيران) سُمح لكل اسير بأن يرسل بطاقة بريدية واحدة الى بلده. وكتب بن: «يا نل الحبيبة! انهم يعاملونني كأسير حرب. لكني في صحة ممتازة وغير مصاب بجروح. بلّغي العائلة اطيب تحياتي، ولكِ ولاولادنا الثلاثة قبلاتي. مع حبي كله الى الأبد. بن.»

وتوقع ان تبلغها البطاقة مع عيد الميلاد. غير ان وصولها استغرق سنة كاملة.

رحلة في مركب قطيع

كان بن ويلر ونل بوزي في الثانية عشرة عندما تم لقاؤهما الاول في ادغرتون التي تبعد ٢٤٦ كيلومترا عن ادمونتون. وكانت هي من عائلة كبيرة وسعيدة وغنية، تعمل في الزراعة. اما ابوه الذي اعتاد التنقل من مكان الى آخر، فكان يبدّل عمله كلما بدّل اقامته. لكن والدته كانت معلمة وغرست لديه حب العلم. وادرك بن منذ حداثته انه يريد ان يصبح طبيبا.

وقد صادفته نل خلال زيارتها ابن عمها المقعد فيليب الذي كان على وشك الوفاة من علة في القلب. وقال لها فيليب وهو يقدّم بن: «ان لديّ صديقا مخلصا حقا، هو هذا الذي ترينه امامكِ.» ونظرت نل، فرأت بن في الخارج امام النافذة ومعه جواد فيليب الذي كان يعتني به وقد حمله اليه كي يراه.

ومنذ ذلك الحين نشأت صداقة بين بن ونل، وظل قريبا منها ما استطاع الى ذلك سبيلا. وكان، خلال فرص الصيف في مرحلة دراسته الثانوية، يعمل في مزرعة ذويها. وعندما احتاج الى المال لدخول الجامعة اقنعت عما لها باعطائه قرضا.

وفي العام ١٩٣٢ وجد بن ونل، وقد بلغا الحادية والعشرين، انه لم يعد في استطاعتهما الانتظار. وفي يوم ماطر من يوليو (تموز) استعارا سيارة وذهبا بها مسافة ٩٥ كيلومترا شمالا الى لويدمنستر حيث تزوجا سرا. وعاشا منفصلين طوال السنوات الثلاث اللاحقة، ولم يجتمعا الا في نهاية كل اسبوع.

وبعد تخرجه في الطب تدرّب في

مستشفى جامعة البرتا. وبعد ذلك تبعا الطريق التي قادته الى فورموزا.

. ٢٧ سبتمبر (ايلول) ١٩٤٢.

اليوم عيد ميلاد حبيبتي الـ ٣٢. آهٍ لو كان لي ان اكون معها... ولكن كيف لي الا انتف شعري والعن الاقدار حين افكر في هذا الوقت المهدر من حياتنا، وهو افضل الاوقات؟ اني محظوظ حقا بطبيعتي السهلة. ولكن ليس من السهل ان يبقى المرء هكذا، وهو ينظر الى الشهر ينقضي بعد الشهر ولا نهاية في الافق.

البارحة نظفت صور حبيبتي واولادي من الغبار اكراما لعيد نل.

ترى كم من الوقت سننتظر بعد؟

طويلا وسيئا سوف يكون الانتظار.

وفي شهر اكتوبر (تشرين الاول) من تلك السنة اقتيد يلر مع ١١٠٠ جندي بريطاني تابعين للفرقة الهندية الحادية عشرة الى مركب لنقل الماشية، حيث حُشروا في عنابره البالية التي تتصاعد منها روائح الرَّوث. ولم يكن المكان كافيا لكل منهم كي يستلقي على الارض. وظل المطر ينهمر يوما بعد يوم وبليت ملابسهم من الماء. وصادر اليابانيون احزمة النجاة منهم وحظروا الموسيقى والغناء، ولم يسمحوا لهم سوى مرات قليلة بالصعود الى سطح المركب. وكان طعامهم اربعة ليترات من الحساء ودلوا من الرز مرتين في اليوم لعشرين رجلا.

ولبثوا ثلاثة اسابيع في العنابر وسط حرّ شديد. وكان يقضي منهم واحد كل يوم او اثنين بفعل داء الديزنطاريا الذي يصيب الأمعاء. واستشرى الاسهال بينهم. ولم يكن في العنابر مراحيض او اوعية من اي نوع. واضطر بعضهم الى الصعود عشرين مرة يوميا لتفريغ محتويات امعائه. وحاول ويلر ان يساعدهم ما استطاع.

١٣ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٢.

انه يوم جمعة. وغدا ننزل الى اليابسة. البارحة مات زميلنا الذي اصابته حمى التيفوئيد، ودفناه في البحر. وهناك واحد فقط قد لا يصمد حتى الصباح. وانا احاول انقاذه بشتى الوسائل. وهذا يمنحني اسوأ شعور يمكن ان يختبره انسان... آه يا نل الحبيبة، اني اتساءل، للمرة الاولى، هل سأراكِ؟

أنزل القارب مراسيه في فورموزا تحت المطر الغزير. وبعد مسيرة خمسة كيلومترات الى مخيم تايهوكو راح اليابانيون ينخسون الأسرى ويصرخون فيهم ليخلعوا ثيابهم وسط الريح الباردة. ثم رشوهم بعقاقير ضد الالتهاب واعطوهم ملابسهم المبللة من جديد، مع قباقيب من خشب. وواظب ويلر على لبس قبقابه طوال السنوات الثلاث التالية. وأمكنه ان يخبىء مفكرته ويضيف اليها.

وكانت اكواخ السجن، التي يؤوي الواحد منها ثمانين رجلا، مبنية بالطين والخيزران، وهي غير مستورة عند قواعدها وزواياها، وقد جُعلت لها ابواب ونوافذ ملبَّسة بالقَصَب. وكانت الريح تقتحمها من

غير شفقة. وأعطي كل رجل اربع ملاءات رقيقة، مع منصّة للنوم طولها ١٨٠ سنتيمترا وعرضها ٦٠ سنتيمترا.

وفرض على المخيم نظام صارم. وكلما قابل الأسير حارسا تعين عليه الانحناء له. وكل انحناءة غير متقنة كانت تستوجب الضرب واللكم على الفور. وكلما بُدل الحراس كل ثلاثة اسابيع رافقت ذلك موجة جديدة من الضرب حتى تبين ان تبديل الحراس لا يحمل جديدا. وامضى احد الحراس معظم الصباح وهو يضرب الاسرى الذين لم يرقه انحناؤهم. وخلع سنّ احدهم نتيجة ذلك.

٢١ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٢.

حراب برّاقة وحرّاس يصرخون ورجال يسامون الضرب والهوان... ولكن لماذا؟

اني منهمك جدا. فنصف الاسرى اصابه الاسهال والتهاب الحلق. لكن العمل يبعد الافكار المقلقة. وهذا وصف لأحد الأرقام:

٦،٣٠ صباحا: الدعوة بالبوق. تسوية الاسرة. غسل الوجوه.

٧،٠٠ صباحا: عَد الرؤوس خلال نصف ساعة. تحية الضابط الآمر مرتين، ثم تحية القصر الامبراطوري.

٧،٣٠ صباحا: الفطور: الرز المسلوق والشعير والاوراق الخضراء المغلية والخضر.

٨،٠٠ صباحا: الخروج الى العمل. انا شخصيا اذهب الى المستشفى لمعاينة المرضى حتى الظهر.

١٢،٣٠ بعد الظهر: الغداء مثل الفطور.

١،٣٠ بعد الظهر: العودة الى المستشفى وعيادة المرضى في الثكنات.

٦،٠٠ مساء: العشاء مثل الفطور.

٦،٣٠ مساء: عَدّ الرؤوس. الوقوف بين نصف ساعة وساعة مع الانحناء. الذهاب بعد ذلك الى المستشفى.

٨،٣٠ ليلا: إطفاء انوار المخيم.

الحراس يتدفقون الى المخيم طوال الليل. وفي الخارج تبقى الانوار مضاءة. ولكن من الصعب ان ينام المرء بملء اجفانه، خصوصا فوق فراش من قصب. اما الضرب فهو من القوة بحيث نجونا من كسر الاطراف حتى الآن بنعمة الله. والحق اني امقت الانحناء اكثر من اي شيء آخر.

لا بد من ان تكون ادغرتون الصغيرة جميلة جدا اليوم. ولكم يعلمنا الأسر ان الحرية هي اكبر نعمة واكبر معنى للوجود.

لم يكن المستشفى سوى كوخ خالٍ من الادويةِ والتجهيزات. وكان نحو عشرين رجلا يحملون اليه يوميا فيما ينتظر نحو مئة خارجا. وقد أخذ بعضهم يفقد الحس في يديه وقدميه، وهذا من اعراض داء «البري بري» الناجم عن نقص الفيتامين «ب» من الطعام. وأصيب بعضهم بالتهاب في مشط القدم، وهو مرض عظمي يحرق القدم.

وأصيب معظم الرجال باسهال قوي. واستشرى التهاب الحلق في المخيّم. ولم يكن ثمة دواء مضاد للتسمم. غير ان ويلر ومعاونيه مسحوا حلوق جميع زملائهم الأسرى باليود. ولم يقضِ سوى خمسة مرضى من اصل ثلاثين. وأصيب عشرات

الرجال بالاستسقاء الناجم عن الجوع الشديد والمتجلي في انتفاخ الاطـراف والبطن. وتمكن ويلر من شفاء بعضهم بسحب السائل الفائض بابرة، وهي عملية مـوجعة جـدا. ومات معـظم مرضى الاستسقاء.

وفي غياب طبيب اسنان، اضطر ويلر من وقت الى آخر الى قلع الأضراس. وكانت عدته كلابا وقد استخدم الماء المقطر مكان البنج. وبعد عشر دقائق من حقن اللثة بالماء كان ويلر يسأل المريض: «أتحس شيئا؟» وغالبا ما كان المريض يقول: «كلا.» فيتابع عمله.

٢ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٤٢.

أتساءل عن سني الحقيقية. والواقع اني كبرت كثيرا من الناحية الذهنية... آهٍ يا نل، سيأتي يوم لقائنا. انتِ دائما في افكاري، واني محظوظ إذ احيا على امل العودة اليكِ. صلي الى الله لئلا افقد عقلي وسط هذه الظروف. لا، لن افقد عقلي. وهذا امر لا اطيقه.

لم تفقد نل الرجاء والصبر. وبعد سنين تذكرت تلك الايام قائلة: «لقد كان زواجنا قويا جدا.» لكن الواقع كان قاسيا عليها.

وفي ادغرتون كان ابوها اشترى لها المنزل الذي ملكته عائلة بن يوما. ولم تَخْلُ اي زاوية في كندا من آثار الحرب. فالشباب يجندون بالمئات وحفلات الوداع تنفطر لها الاكباد. وبدا للنساء انهن يلدن الاطفال لبريطانيا او اوروبا، وليس لهنّ.

غير ان الرجال الذين ذهبوا الى الشرق الاقصى باتوا طيّ النسيان، الا في افكار عائلاتهم. ونظر معظم الكنديين الى الحرب كما لو كانت حرب الولايات المتحدة. وشقّ على نل ان تتصور اين يمكن ان يكون بن، وهل هو حي.

وكانت تأتيها اعاشة شهرية ضئيلة من الحكومة البريطانية. ثم أجّرت غرفة في منزلها للمدرّسة اديث ماكروبيرتس التي غدت مثل فرد من العائلة. وباتت كل منهما تذهب الى مكتب البريد لتسلّم الرسائل. الا ان معظم الرسائل الواردة من آسيا كانت رسائل نل الى زوجها وقد أعيدت غير مفضوضة. واحيانا كانت اديث تذرف الدمع لمحنة صديقتها. لكن نل لم تيأس البتة.

كم أحبكِ!

كان افضل الا تعرف نل شيئا عن عذاب بن. وما لبث الحراس يعاملون الأسرى اسوأ معاملة، ولا يُظهرون لهم العطف إلا لماما. وفي مطلع ديسمبر (كانون الاول) سمحوا لهم بارسال بطاقة بريدية اخرى الى عائلاتهم. ويوم عيد الميلاد وزّعوا عليهم السجائر واتاحوا للعاملين بينهم ان يستريحوا فترة بعد الظهر. كانوا يعملون في اقامة الطرق واشغال البناء الاخرى تسعة ايام من أصل عشرة.

وكان الفطور والغداء يوم الميلاد كمية الرز والخضر العادية. غير ان العشاء كان متميزا جدا بحسب مقاييس تايهوكو، اذ أعطي كل رجل قطعة لحم. وفكر ويلر

طويلا في بيته، وتصور اولاده يفتحون الهدايا، ووعد نل ان يكون معها في عيد الميلاد التالي.

وفجأة عاد سجن تايهوكو الى سابق عهده. ووُضع عشرون مريضا في غرفة معَدَّة لستة. وكان ويلر يتفقدهم بالزحف بين الأسرَّة. ومنعت كل تسلية في المخيم. وأرغم المرضى الذين لم تستوجب احوالهم العلاج الفوري في المستشفى، على التمرين اليومي والعمل.

وكانت الاوامر على الدوام تُعطي بنبرة قوية، ويلازمها الصفع والضرب. وادرك ويلر آسفا دوافع سلوك اليابانيين. فهم كانوا ينظرون الى الاسرى البريطانيين على انهم من مرتبة دون البشر. ذلك انهم، بدلا من المحاربة حتى الموت او بقر بطونهم تخلصا من عار السجن، اتاحوا لليابانيين ان يقبضوا عليهم. غير ان ادراك ويلر حقيقة الامر لم يخفف المه او آلام زملائه. وكل ما فعله انه قوّى عزيمته وزاد قدرته على التحمل.

٢٤ يناير (كانون الثاني) ١٩٤٣.

مهما فعلوا، فهم لن يعطلوا تفكيري في وطني وفي حبيبتي التي اقطع آلاف الكيلومترات لكي اصل اليها... آه يا نل، كم أُحبكِ! لا تصدّقي انه يمكن ان نبقى منفصلين هكذا.

بعدما وضعت الحرب اوزارها قال السجين ماكنزي في زميله ويلر: «كان بن متيَّما بحب زوجته، الامر الذي منحه القدرة على الاحتمال. وكان لديه ايمان قوي، واستطاع ان ينقله الى الآخرين. واذا كان احد رفقاء الأسر يعاني الضيق، فيكفي ان يمكث بن معه بضع ساعات ويحدثه حتى يزول كَرْبه. وكان يعالج المرضى ولا دواء في حوزته، واستطاع شفاء الكثير منهم، لكنه بذل نفسه من اجل ذلك.»

ونقص وزن ويلر كثيرا حتى اصبح ٥٤ كيلوغراما. واصابه مرض العظم الذي يحدث حريقا في القدمين، كما عانى نقص الفيتامين «ب» كالآخرين. واحيانا كان يحاول الاستسلام للنوم، ولكن من غير طائل، وارغمه الاسهال على الذهاب الى المرحاض ست مرات نهارا ومرتين على الاقل ليلا. لكنه نادرا ما انقطع يوما عن عيادة مرضاه. وكان قد مرّ عام على اسْره.

١٥ فبراير (شباط) ١٩٤٣.

انها الذكرى الاولى لأسرنا... وقانا الله مجيء الذكرى الثانية ونحن هنا. اني افكر فيكِ اليوم اكثر من اي وقت مضى. يا نل العزيزة، آه لو كان لي ان احصل على سطر واحد منكِ.

الحرية... لكم كانت خارج الفكر عندما كانت لنا. اما اليوم فهي في افكارنا على الدوام. الحرية؟ ان تذهب حيثما شئت وتقول ما تريد وتخرج من غير ان تنحني أو تُصْفَع وتذهب الى النوم كما تشاء وتتناول طعاما كافيا وصالحا.

الا ان سنة كاملة من فقدان الحرية مرت على حياتي وانا لا ازال جسدا واحدا وعقلا واحدا. واظن ان نصف وقت اسْرنا

انقضى. لكنها كانت اسوأ سنة واطولها في حياتي.

الحق ان المدة التي امضاها ويلر اسيرا كانت اقل من نصف المدة الاجمالية. غير ان الحراس، في اواخر شتاء ١٩٤٣، هجروا على نحو مفاجىء وشبه تام اللجوء الى الضرب. ايعقل ان تكون اليابان عانت خسائر في الحرب؟

اجل، لقد حصل هذا الامر. ففي شهر فبراير (شباط) سقطت غوادالقنال في جزر سليمان في ايدي الجنود الامريكيين بعد ستة اشهر من الحرب وسط الادغال.

ولكن كيف لاسرى تايهوكو ان يعرفوا ذلك؟ فالصحف الوحيدة التي كانت تقع بين ايديهم احيانا هي صحف اليابان الصادرة بالانكليزية والتي تملأها الدعايات بحيث لا يستطيع المرء ان يقرأ بين السطور.

غير ان الحياة باتت اكثر احتمالا حين لجأ جورج هاريسون، فنان المخيم ومعاون ويلر الطبي، الى صنع ضروب الحبر الملوّن، مستخدما الطين والفحم والحشرات والعشب والزهر، فبات يستعمله الأسرى لكتابة رسائلهم الى ذويهم.

اول مارس (آذار) ١٩٤٣.

اسمعي يا نل! حين أعود الى الحرية لن تعرفي كيف تملأين الوقت كي ترضيني. إن أضحك شيء، ولكن اكثره اسعادا، في هذا المخيم هو أن المرء لا يعاف اكل الرز. واني متأكد من ان هناك اطعمة يستطيع المرء الاقتصار عليها. غير اني مشتاق الى بعض الطعام الحقيقي: الى اللحم والدهن والحليب والخبز. لكننا، منذ رأس السنة، لم نذق طعم اللحم.

لقد فقست بيوض البط في المخيم. لكن ٢٨ فرخا نفقت من اصل مئة فرخ. ربما كان البط لا يستطيع العيش على الرز.

حين تسلم ويلر حصته الاولى من معونة الصليب الاحمر سجل محتوياتها بالتفصيل: علبتان صغيرتان من السكر، علبة جبن صغيرة، ١١٠ غرامات من الشوكولاته، ٢٢٥ غراما من الزبدة النباتية، علبة حليب مجفف، علبة عصير، ٢٢٥ غراما من اللحم المعلّب، خضر ولحوم معلّبة، ٢٢٥ غراما من شرائح البيكون، علبة بندورة (طماطم)، علبة رز محلّي. وارتأى ويلر الاقتصاد في استهلاكها، لكنه لم يستطع لجم شهيته عن الشوكولاتة التي تناولها دفعة واحدة فانقلبت امعاؤه.

٢٢ مارس (آذار) ١٩٤٣.

يمكن ان يكون حدث الكثير في الايام الخمسة والاربعين الاخيرة. لكن النهاية لا تزال غامضة، وقد بات التفاؤل والابتسام اصعب من قبل... اني اريد العودة الى البيت، الى حبيبتي نل.

باشرت نل العزف على البيانو مع فرقة موسيقية اربع امسيات اسبوعيا تخفيفا لوحشتها وطلبا للمال. وكانت، اذ تنظر الى الراقصين والراقصات في القاعدة الفسيحة، تحاول الا تحسدهم على سعادتهم.

واستمدت نل قوّتها من ابنائها الثلاثة. وما برحت تحدثهم عن ابيهم كل يوم وتبقي سيرته حية في اذهانهم. واخيرا، في فبراير (شباط) ١٩٤٣، بلغتها رسالة من لندن عبر وزارة الدفاع جاء فيها: «ثبت ان الميجور بن ويلر، الذي يحمل الرقم م ز / ١٥٩٤١، سقط اسيرا في ايدي اليابانيين.»

وبعد ذلك وصلت بطاقة بن الاولى، وذلك في ٧ يونيو (حزيران). وكشفت لغتها المتكلفة انها كتبت على مرأى من العدو. لكن التوقيع كان واضحاً تماماً. ولم تعرف نل عن عنوانه اكثر من كونه «مخيم الملايو». وراحت ترسل اليه الرزَم البريدية التي ضاعت كلها في مكان مجهول.

الطعام، الطعام، الطعام،

في تايهوكو مرّت الايام على وتيرة واحدة. وأطلقت على الحراس اسماء مستعارة كشفت عن شخصياتهم: «وجه القمر»، مثلا، كان لطيفا على العموم، في حين كان «تروتسكي» رديئاً. ومرة ارتأى احد الآمرين ان يوثق ايدي مرضى الديزنطاريا علامة على مرضهم. ولدى نقله الى مخيم آخر القى خطبة وداع في الأسرى الستمئة، ثم قدّم اليهم بطتين علامة على كرم الامبراطور.

عقب ذلك سمح الحراس للأسرى بان يعزفوا على الآلات الموسيقية ساعتين كل مساء، كما اتاحوا لهم إحياء حفلة موسيقية يوم الفصح. وبعد يومين وضعوا ثمانية اسرى في السجن الانفرادي عقابا على مخالفات تافهة، وحظّروا التدخين في المخيم طوال الايام الاربعة التالية.

٦ مايو (ايار) ١٩٤٣.

كان طابور المرضى اليوم اطول من المعتاد. لكن امراضهم كانت حقيقية، والبعض منهم عانى كثيراً. وتقدم مني وكيل العريف المسؤول عنهم وصرخ فيّ وقد ابيض وجهه غضباً، كما لو كنت سبباً لمحنتهم. ثم اوقفهم في صف طويل وراح يزعق باليابانية ويضربهم واحداً واحداً. واختار احد الذين بلاهم المرض الشديد، وهو يعاني آلاما في جهازه الهضمي، وانهال عليه ضرباً حتى انهار. وابقي الأسرى في شمس الظهيرة من غير قبعات.

هرع الرجال بعضهم الى بعض وقد استمد احدهم قوّته من الآخر واكتشف لديه بأساً لم يختبره من قبل. وفي ايام العطل كانوا يحلقون ذقونهم بموسى جماعية صممت اصلا لسلخ جلود الحيوانات.

وكان اليابانيون ينقصون طعام المرضى بمقدار الثلث، بحجة ان المريض لا يستحق كمية طعام كاملة لأنه لا يعمل. لكن الأسرى الآخرين كانوا يهرّبون الطعام خلسة الى زملائهم المرضى.

ويتذكر جاك ادواردز، وهو رقيب في فرقة الرموز من مقاطعة ويلز البريطانية اصلا، تلك الايام بالآتي: «كنا نشترك في كل شيء - الدواء والغذاء وحتى القبور... انه المجتمع الاشتراكي المثالي اذا شئت ان تدعوه هكذا. ولم يكن هناك اي كلام عن النساء او حاجة اليهنّ. فالدافع الجنسي ذوى قبل وقت طويل. والمهم لدينا بات الطعام، ثم الطعام، ثم الطعام، والامل في البقاء.»

٥ يوليو (تموز) ١٩٤٣.

هل تفكرين معي يوم ذهبنا الى لويدمنستر قبل احدى عشرة سنة؟ هل تتذكرين الامطار والوحول والهموم؟، لا، لم يكن يوما مثاليا لحفلة زفاف. ولكن لا يمكن ان تجدي زوجين اسعد منا اذا تسنى لنا ان نكون معا. لقد بت احبكِ اكثر، وصرتِ تملأين حياتي على مر الايام، حتى في هذا المكان النائي. واني لا افكر في الحرية والحياة ولا في اي شيء آخر الا من خلالكِ.

تسرّب المزيد من الانباء الى المخيم. ومنها ان ديكتاتور ايطاليا، بنيتو موسوليني، أرغم على مغادرة قصره (صحيح)، وان هتلر قتل (خطأ)، وان روسيا دخلت معركة ضد اليابان (خطأ)، وان الولايات المتحدة استعادت الجزر الأليوشية (صحيح)، وان ضابطا بحريا يابانيا رفيع المستوى قتل (صحيح) وهو الاميرال ايزوروكو ياماموتو آمر الأسطول الياباني المشترك الذي اطلقت الطائرات الامريكية المحاربة النار على طائرة كانت تنقله.

غير ان الأسرى لم يستطيعوا تمييز الحق من الباطل. ولم يتأكد ويلر إلا من امر واحد، وهو نقله فجأة مع ١٢٠ سجينا الى مخيم آخر في فورموزا، اسمه كيناكازيكي.

المبضَع المسنون

١٠ اغسطس (آب) ١٩٤٣.

اوقظنا في الرابعة فجرا واوقفنا في الطابور، مع صراخ كثير، في السادسة صباحا. وأعطيت امتعة تزن ١٨ كيلوغراما لحملها. وبعدما ودعنا الزملاء الذين بقوا هناك، قطعنا مسافة خمسة كيلومترات على الأقدام، ثم ركبنا قطارا اوصلنا الى المحطة المقصودة ظهرا. وبعد ذلك تسلقنا مسافة عشرة كيلومترات وعرة. ولن انسى ابدا تلك الرحلة التي لم نسترح خلالها اكثر من خمس دقائق والتي رحت اتعثر في مرحلتها الاخيرة.

ولئن يكن سجن تايهوكو سيئا، فالسجن الآخر كان كابوسا. وهو يقوم على جانب تلة صخرية، وقد تلاصقت اكواخه الخشبية بعضها ببعض واحاطها سياج من آجر. وكان الأسرى ينامون على الواح عارية بعرض ٤٥ سنتيمترا. وتسرّب القمل الى ثياب معظمهم.

وطوال اشهر المطر الاربعة او الخمسة كانت ملابسهم مبللة على الدوام. وغدا سَدّ الثغرات في الأكواخ ضربا من الفن. وابتكر احد الأسرى، وهو الكابتن مايك براون، طريقة دقيقة لتصريف الماء، مستخدما انابيب من خيزران. لكن الجرذان كانت تقضمها ليلا، فيعود المطر الى الداخل كما كان. وقد سرحت الجرذان في كل ناحية واتت على كل شيء، بما في ذلك الصابون وفلين القوارير والثياب الملطخة بالدم.

ومع هزال الوافدين الى كينكازيكي، فقد لوّحتهم الشمس التي تعرّضوا لها من جراء اشغالهم الشاقة في تايهوكو. وبدا مرضاهم اشبه بالموتى السائرين فوق الأرض. اما قاتلهم الفعلي فكان منجم النحاس الذي أجبر القادرون بينهم على العمل اليومي فيه. وكان بلوغ قاع المنجم

يعني النزول ١٧٣٠ درجة منحرفة، ثم تسلقها بعد نهاية العمل. ولدى وصولهم الى تحت كانوا يحملون مصابيح الكربيد التي تخفت بسبب قلة الاوكسيجين. واحيانا كان بعضهم يهوي عشرة امتار ويصطدم بصخرة. وكثيرا ما حُملت الاجساد المكسورة على ملاءات لعدم توافر الحمّالات.

والذين لم تصبهم الجروح أُصيبوا بالتهابات في الشعَب الصدرية وتبقعت جلودهم بفعل كبريتات النحاس الناجمة عن تفاعل الماء بالمعدن الخام. وكلما انحدر المنجم عسر نقل النحاس الى فوق. ولكن لم يكن للأسرى مهرب من تأمين العمل اليومي وإلا ضُربوا بالمطارق. وأُصيبت اقدامهم بآلام لم تبرأ بعد ذلك الحين.

وكان الكابتن بيتر سيد، وهو طبيب ايضا، نقُل من قبل الى كينكازيكي. ولما رأى ويلر رحب به كثيرا واعترف بتفوّقه عليه في الجراحة. ولدى وصول بن صادر الحراس اوراقه الطبية جميعا، بما فيها يومياته. ومن حسن حظه انه ضمّن اليوميات ملاحظات طبية مستفيضة بحيث لم يستطع الحراس - وجلهم يجهل الانكليزية - قراءتها. واخيراً اعادوها كلها اليه.

وعلى عادته في تايهوكو، لم يتوقف ويلر عن كتابة رسائل احتجاج مهذّبة الى آمر السجن، واصفا فيها الأحوال السيئة التي يعمل فيها، وليس له شيء من العقاقير والمعدّات الطبية اللازمة. واغاظت تلك الرسائل المسؤولين في السجن وقال احدهم انه سيقطع رأس ذلك الطبيب الوقح.

وكان مفتش طبي ياباني يرتاد السجن من حين الى آخر لمراقبة عمل الأطباء الاسرى. واضطر ويلر وزميله سيد الى العمل بشروط المفتشين الجهلاء الذين اتخذوا من الجروح مقياسا وحيدا للمرض. وهكذا اضطر الطبيبان الأسيران الى جرح بعض المرضى لئلا يؤخَذوا عنوة الى العمل.

واخيرا اقنع ويلر اسياده باعطائه سبعين بطاقة بيضاء، على عدد المرضى الذين ينبغي اعفاؤهم من العمل، وخمس بطاقات حمراء، على عدد الذين يجب ادخالهم المستشفى. وهذا يعني تسليم اليابانيين بأن مئة اسير يمكن ان يمرضوا في وقت واحد. ولدى اصابة عدد اكبر بالمرض، كان ويلر وسيد يعمدان الى اخلاء المرضى السابقين الذين تحسنت حالهم قليلا من اجل ادخال المرضى الجدد. وكان المصابون بالاسهال والحمى يُخْرَجون بعد يوم او اثنين من معالجتهم. اما الجرحى فلم يكن هناك وقت لابرائهم نهائيا.

ومن اجل البقاء على صلة بالعالم الخارجي، ابتكر ادواردز خدمة صحافية طوّع لها عددا من العاملين في المنجم. وكانوا خلال النهار يختلسون قصاصات الصحف اليابانية ويعودون بها ليلا الى المخيم، حيث كانوا يفكون رموزها بمساعدة قاموس ياباني - انكليزي استولوا عليه. وكانوا احيانا يضيفون الى ترجماتهم خرائط تُظهر تقدم القوات الحليفة في المحيط الهادىء والبحر الابيض المتوسط.

ويقول ادواردز: «لقد رفع ذلك العمل معنوياتي. ولا بد للمرء من الصراع للبقاء. هكذا فعل الميجور بن ويلر الذي ضمن

استمراره من يوم الى يوم عبر محاولته شفاء امراضنا. اما انا فلجأت الى نشر الأنباء.»
واحيانا كانت اخبار ادواردز مفتقرة الى الدقة او قديمة جداً، لكنها ساعدت الأسرى في الصمود.

٢٣ اغسطس (آب) ١٩٤٣.
توفي زميل آخر - سميث، الذي قضى عليه البري بري والارهاق النفسي. لقد استسلم للموت، ولا يمكن لومه. وبدا، وهو في السابعة والثلاثين، كأنه في السابعة والستين بعدما استنفدت طاقته وابيض شعره.

ومما قاله سيد في زميله ويلر بعد الحرب: «لم يقل بن عن اي مشكلة انها مستحيلة. وكان يصر على وجود جواب عن كل سؤال، ويظل قلقا حتى يجد ذلك الجواب.»

. وأصيب احدهم بالقروح في انحاء جسمه. وغطاها ويلر بنبات الأشنة الذي جمعه بالقرب من المخيم وهو يقول: «لا بد من ان ينطوي هذا النبات على بعض اليود والحديد.» وزالت القروح فعلا. وظهر الحزاز على ارجل كثيرين، حاملا معه خطر التضخم واستئصال الساق. لكن ويلر اسرع الى معالجة المصابين عبر سفع سيقانهم بقضيب محمى. وشفي العديد منهم.

واسفرت ذات الرئة لدى اسير عن تجمّع القيح في تجويفه الصدري. وفتح ويلر حزا صغيرا في صدره. مستخدما شفرة ولكن من غير بنج، ثم صفى القيح خارجا عبر انبوب صنعه من عجلة دراجة قديمة. وبرىء المريض.

وجيء بأسير آخر سقط على صخرة، واسمه دوهيرتي - وقد شُلَّ نصفه الأسفل. ووضعه ويلر فوق سرير رملي اقامه بعض الأسرى البارعين. وبعد ذلك طلب من بعض المرضى تدليك رجلي دوهيرتي يوميا لابقاء عضلاته حيّة.

ويتذكر احدهم: «جلسنا هناك ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم ندلّك رجلي ذلك الرجل، حتى جاء يوم تحرّكت اصبع في قدمه. ووجدت نفسي على وشك البكاء من الفرح.»

وابتكر ويلر دراجة للتمارين الرياضية، صنعها من هيكل خشبي مع مقعد وجعل لها لوحا عن كل جانب مكان الدواستين. وراح دوهيرتي يحرّك «الدوّاستين» يوميا الى ان تمكن من الوقوف على قدميه والمشي.

١٣ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٤٣.
الحادثان الاخيران حملا اليّ رجلين كسرت جمجمة كل منهما. وكان كسر احداهما اكبر من كسر الاخرى. وتعين علينا ازاحة العظم ٣٨ مليمترا للوصول الى الدماغ. وعلى رغم بدائية اساليبنا فقد زال الخطر عن المريض بعد يومين.

والواقع ان الجرّاح يخشى معالجة هذه الحالات حتى في ظروف عادية. ولكن يبدو ان الضيق منحنا الشدة. ولا اخاف القول انه بات من الصعب ان يخيفني شيء بعد الآن.

الادوات الوحيدة التي استخدمها ويلر آنذاك كانت شفرة حلاقة وكلّاب اسنان. وكالعادة، أجرى الجراحة من غير بنج.

وكان كل يوم جديد يحمل المزيد من المرضى الذين اتى عليهم الضرب والقذارة الجسدية الى باب المستشفى، وهم يأملون في الحصول على بطاقة بيضاء او حمراء. وتذكر ويلر دوره في ما بعد على النحو الآتي: «كان عليّ ان اتصرّف كما لو كنتُ معصوما عن الخطأ، الأمر الذي امقته كثيرا.»

وتكرر مشهد الذهاب الى المقبرة كل اسبوعين وقد لُفّت الجثة بملاءة. واكراما للميت، حافظ اليابانيون على عاداتهم في الدفن، فكانوا يحملون الى المقبرة هدايا من الفاكهة والرز المحلى. ومعظم الوفيات كانت تحصل في المنجم. وخلال الدفن كان الاسرى الأحياء يقاسمون موتاهم الفاكهة. وكان الدفن يحصل سريعا قبل انحلال الجثث تحت حَرّ الشمس. واذ لم تكن المدافن عميقة تحت الارض الصخرية، كان المطر يعيد الجثث الى سطح الارض، فيضطر الأسرى الى اعادة حفر المقابر لمواراة موتاهم الثرى.

وذات يوم قال إدواردز بعد وفاة اسير: «ما سبب موته يا عزيزي الميجور؟»

ـ قد قضت عليه الديزنطاريا وسوء التغذية والاستسقاء الناشيء عن المجاعة. لكن السبب الأهم هو داء انعدام الرغبة.

«لم اسمع بهذا المرض البتة.»

ـ اسمع، اذا: انه الرغبة عن الحياة وحب الموت. وهو اهم الامراض في هذا المخيم.

كوخ الموت

بحلول عيد الميلاد للعام ١٩٤٣ استعاد الأسرى بعض ارادتهم في الحياة. واتاح لهم اليابانيون انشاد الترانيم الخاصة بالعيد واحياء حفلة موسيقية. ووزعوا عليهم ثمار الموز واللحوم والحلوى والشاي المحلّي.

لا عجب اني، طوالِ ذلك اليوم، رحت اتصوَّر البيت. واخرجتُ صورتك، يا نل، وصور الاولاد، ووضعتها امامي. وقد تسربت الرطوبة الى احدى زوايا صورتك، لكنها بقيت سليمة. لكني ما ان اضعها امامي حتى اعيدها الى السر، اذ لا اريد ان يعرف هؤلاء الحيوانات اسراري.

يؤسفني الّا يكون هذا اليوم سعيدا لمعظمنا. فهذا العيد يهيج الذكريات الحبيبة، وهي تحمل معها الرثاء لأنفسنا ونحن على هذه الحال.

اني اسأل الله، يا حبيبتي، ان تكوني على احسن حال هذا اليوم، انتِ واولادنا والعائلة كلها. آهٍ كم كنت اودّ مساعدتكِ وانتِ تملأين سلال الميلاد بالهدايا لأطفالنا الثلاثة. ولكن يحسن ان انزع هذه الافكار من رأسي واعود الى حالي الحيوانية، اي العيش من يوم الى يوم على بعض الطعام والماء... تصبحين على خير يا حبيبتي.

سرت اشاعة بين الأسرى حول سعي المانيا الى السلام. والحقّ انها كانت محض امنية، اذ ان الالمان ما زالوا يحتلون اوروبا، واستعادتها على ايدي الحلفاء لم تحصل الا بعد اشهر. وضيّق اليابانيون الخناق على الأسرى، اذ كانوا يعدّون الرؤوس اربع مرات يوميا خوفا من الهرب. وفقد اثنان منهم، ولكن سرعان ما أُعيدا مربوطَين مثل كلبين. ثم نفذ فيهما الاعدام. ولكن هبْ

ان احدا استطاع الخروج من فورموزا التي يملأها الجواسيس، فماذا يفعل بعد ذلك، والبرّ الصيني يعجّ باليابانيين ايضا؟

ووجد الأسرى انفسهم يلوذون بالميجور ويلر اكثر فاكثر، حتى غدا صخرتهم الامينة وسط ذلك البحر الجامح. وتذكر الأسير ماكنزي لاحقا: «في امكان ويلر ان ينفذ الى داخلك ويمنحك الرجاء. ولقد كان الرجاء موضوع كلامه الدائم. وهو لم يفقده قَط.»

٤ يناير (كانون الثاني) ١٩٤٤.

رأس السنة جاء وولى. وانا لم اتمنَّ شيئا لهذا العام. وهل ثمة مجال لأمنية؟ أَوَليس افضل ان نعيش من يوم الى يوم على خير وجه ممكن لقد باتت حياة الأسر حقيقية وطبيعية بالنسبة الينا. وكل ما عداها يبدو بعيدا جدا، كما لو كان عالما آخر او حلما... صحيح ان المرء يفكر في وطنه وبيته وكل من له، لكن هذه الافكار لم تعد واضحة كما كانت، بل غشّاها الضباب.

وصلت دفعة بريدية الى المخيم في شهر يناير (كانون الثاني)، ولكن لم يكن ضمنها اي رسالة الى الميجور بن ويلر. وفي الشهر التالي سمح اليابانيون للأسرى، للمرة الاولى، باستخدام ورقتين لكتابة رسائل الى عائلاتهم. ولكن ما عساهم يقولون؟ اليس الافضل ان تأتي الرسائل من الطرف الآخر؟

واخيرا وصلت الرسائل، بعد انتظار سنتين تقريبا.

١٨ فبراير (شباط) ١٩٤٤.

أحبائي! هذا اسعد يوم منذ وقوعي اسيرا. لقد بلغتني ثلاث رسائل منكم وواحدة من امي. اشكر الله على انكم جميعا بخير، وان الامور كلها كما يُرام. امي تقول انكِ تبدين اصغر واجمل. آه لو كان لي ان اراكِ وآخذكِ بين ذراعيّ وأُقبّلكِ، ثم نلعب ونلهو معا، يا حبيبتي، كما تقولين. لقد اشتاقت حاسة الذوق لديّ الى غير الرز.

قرأتُ الرسائل مرّتين حتى الآن، واريد اعادة قراءتها بتأن مرار. وها هي مع صوركم، وهي الكنز الذي أملكه في هذا المكان.

كُتبت تلك الرسائل في اواسط العام ١٩٤٣. وبعد شهر تسلم ويلر دفعة اخرى كُتبت عام ١٩٤٢. وعرف اين تعيش نل. وتخيل الساحة والحقول المحيطة بالمنزل، ونل في غرفة النوم على فراش وثير، كيف له مثله وهو ينام على الواح الخشب؟

الا ان خيالات البيت بثت فيه الحماسة والحيوية. وما زال عشرات الرجال يعانون مرض الديزنطاريا الأليم. ووصف لهم ويلر شرب الماء الذي غُلي فيه الرزّ. فهو مُغذٍّ وجيد للأمعاء الملتهبة. وحين برىء المرضى واصبح في استطاعتهم قبول الطعام وصف لهم الفحم المسحوق لتخفيف امكان الاسهال. وراح هو ومعاونوه يسحقون القضبان المحروقة ليجعلوا منها دقيقا أسود.

وقال احدهم لاحقا: «انه عبقري حقا.»

وابتُلي نحو نصف الأسرى بالديدان المعوية السلكية التي كانت تخرج عبر القيء او البراز. وقضى ١٣ رجلا في شهر واحد،

حتى أُطلق على المستشفى اسم «كوخ الموت.» وحين مرض ادواردز وحُمل الى هناك رَجا ويلر قائلا: «ارجوك يا سيدي ان تخرجني من هذا المكان.»

واجابه ويلر: «سأبذل ما في وسعي.» وذات مساء أخرج دودة طفيلية كبيرة من امعاء ادواردز بواسطة خيط وقد عاونه العريف ديفيد دونيلي.

. وقال ادواردز لاحقا: «عندما كنت في كوخ الموت اعتاد الميجور ان يأتي كل مساء ويتحدث الينا جميعا.»

وكان لكلمات ويلر فعل السحر لأنها فاضت من اعماقه. ولم يتورع عن كتابة الرسائل الى المسؤولين اليابانيين طلبا للدواء والادوات الطبية. واخيرا قابله طبيب ياباني زائر واقتنع بصدق كلامه.

١٢ ابريل (نيسان) ١٩٤٤.

جاءنا طبيب زائر آخر البارحة. وكان مهذبا وبدا منطقيا وذكيا، وقال انه سيحاول ارسال بعض العقاقير التي نحتاج اليها.

ربما ادرك اليابانيون، على غرار اسراهم، ان ويلر لا يمكن ان يستسلم. وهو تلقى الضرب واللكم والصفع كالآخرين، وكان عليه ان ينحني مثلهم لتحية السجانين. غير انه لم يفقد سيطرته على نفسه ولا كرامته.

وذات يوم كان هو والعريف المعاون في فرقة الرموز، جوش طومسون، يفحصان مصابا بالبري بري انتفخت خصيتاه. وصادف مرور حارس ارعن رفس المريض في اربيّة فخذه وكاد ان يُفقده وعيه. ونهض طومسون غاضبا لكن ويلر اوقفه قائلا: «قف مكانك يا جوش.» وتجمد طومسون مكانه، وربما انقذ حياته بذلك. وقال لاحقا: «يبدو ان لا شيء كان يزعج الميجور. وهو كان يتصرّف بكل رباطة جأش كما لو لم يكن اليابانيون هناك. ولم يكترث لهم، بل وضع اهتمامه كله في رفقائه الأسرى.»

مقامرة لا تُصَدَّق

٥ يوليو (تموز) ١٩٤٤.

لقد مضى على زواجنا اثنتا عشرة سنة يا حبيبتي. ويؤسفني اننا قضينا معظم هذا الوقت منفصلين. ولكن صلي الى الله لكي نكون معا في عيد زواجنا المقبل وفي كل عيد بعده.

اشاعة جيدة: لقد بدأ الحلفاء اجتياح فرنسا. صحتي جيدة، لكن السأم ينهشني والانتظار بات اعسر مما كان. ولكن ها هي الأمور الكبيرة بدأت... فهل نخرج من هنا قريبا؟

والواقع ان اجتياح فرنسا بدأ قبل شهر. وعلى الجبهة الشرقية كان السوفييت يحاولون اخراج الألمان. اما القوات الاوسترالية والامريكية فكانت تحاول استعادة غينيا الجديدة جنوب غرب المحيط الهادىء. ولكن ايستطيع اسرى كينكازيكي الانتظار طويلا؟

وشعروا ان نهاية الحرب وشيكة. وفرضت سلطات السجن تعتيمه ليلا. ولجأت الى اطلاق صفّارات الانذار احيانا خلال النهار. وباتت كميات الطعام المسموح بها اقل.

وكان الاسرى احيانا يسرقون القمامة في الحديقة الخلفية للسجن ويأكلونها.

وفي شهر اكتوبر (تشرين الاول) أرسل الأسرى الذين يعانون امراضا قوية، وعددهم مئة، الى مخيم آخر ربما كان احسن حالا من سابقه.

٢٥ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٤٤.

لا أريد ان ارى مشهدا كهذا بعد الآن. انهم اناس اتت الكسور والحروق على الاجزاء العليا من اجسادهم.

ليمنحنا الله نعمة النسيان.

في الوطن كانت عناوين الصحف تُشيع التفاءل في النفوس: «ماك آرثر يصرّح ان اسطول جاب حمّل العدو هزيمة ساحقة»... «النازيون يتراجعون عشرة كيلومترات»... «القوات السوفييتية عبرت الحدود الى النروج.»

أما في كينكازيكي فقد شاهد الأسرى عيد ميلاد آخر خلال شهر هطل فيه ٢٢٥ سنتيمترا من المطر. ووجد ويلر وقتا لتسجيل نسبة الامطار. وتلقى من رفقائه بطاقات صنعوها بأيديهم ودوّنوا عليها تحياتهم وتمنياتهم لمناسبة العيد. الا انه عمل طوال ذلك اليوم ونسي ان يدوّن مذكراته.

٢٩ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٤٤.

عيد الميلاد حل ورحل، كما يحل اي يوم ويرحل. وحاولت تصوُّر شجرة الميلاد التي لا بدّ من ان تكون نل هيّأتها للأولاد، كما تصوّرت الهدايا التي كنت احب ان اقدمها اليهم. ولا شك في اني سأفعل ذلك في العام المقبل. ومرّت في خيالي مائدة العيد، ونحن هنا نعيش على الرز والخضر المسلوقة يوما بعد يوم. لكنهم أضافوا اليها قطعة لحم واربع برتقالات للمناسبة.

لقد مات اخيرا ثلاثة رجال بالديزنطاريا. وهناك اثنان لن يصمدا أكثر من يوم وثلاثة يأتيهم المرض ثم يختفي ليعاودهم. وجميع المرضى مصابون بالاستسقاء من جرّاء المجاعة، كذلك بالاسهال الشديد. وهم لا يستطيعون هَضم الطعام ولا يتحملون البرد، مع ان الحرارة لا تنزل عن الدرجات العشر المئوية. ومراقبتهم وهم يتعذبون تفطر القلب.

ولدينا ١٤٠ حراما لاتقاء البرد، لكنها مبللة بالمطر على الدوام، ومن شبه العسير عَصْرُها. وليس هناك من صابون او فرشاة او ماء ساخن. وقد بلغت نسبة المطر في الايام التسعة الاخيرة ٦٦ سنتيمترا. والأسرى يموتون بأعداد كبيرة. والعديد منهم يرفض الطعام، ربما لانه اصيب بمس من جنون وسط هذه الظروف المأسوية. فهم يتوقعون النهاية التي لم تَحِنْ بعد.

وباتوا يسمعون اصوات القنابل من البعيد. ولكن كيف لهم ان يعرفوا ان الطائرات التابعة للاسطول الامريكي الثالث حطمت ما يزيد على مئة طائرة في مورموزا وحولها خلال شهر يناير (كانون الثاني)؟ وشن الاتحاد السوفييتي هجوما جديدا على طول الجبهة الشرقية. وفي اوروبا مال الميزان الى انتصار الحلفاء

المحتوم. وفي مطلع مارس (آذار) صبت ٢٧٩ طائرة امريكية القنابل الحارقة فوق طوكيو فقتلت أكثر من ثمانين الفا في ليلة واحدة.

أما في كينكازيكي فقد تساءل ويلر: هل ثمة عالم خارجي؟ والرسالة الأخيرة التي تلقاها من الوطن يعود تاريخها الى عام مضى. وحتى منتصف فبراير (شباط) كان قد رأى ١٨ رجلا يموتون في ستة اسابيع. وأصيب احد المرضى بالجنون وراح يغني ويصرخ طوال النهار والليل في كوخ يضم ٤٥ مريضا. وادّخر ويلر قارورة صغيرة من الأفيون الذي كان يعطي نقاطا قليلة منه للمنازعين كيما يخفف عنهم عذاب الساعات الاخيرة.

واصيب الطبيب الآخر، بيتر سيد، بمرض قويّ افقده ١٨ كيلوغراما من وزنه خلال اربعة اشهر. ترى ايمكن ابقاؤه حيا؟

وفي تلك الاثناء قلع طبيب الاسنان، الكابتن جون بادجيت، ضرسا لأحد الحراس، وكوفيء بقطعة لحم شهية. وقال بادجيت لاحقا: «فكّرت في بيتر الذي كان يعاني نقصا شديدا في البروتيين، وحملت شريحة اللحم اليه. غير اني تذوّقتها ـ واخجلاه ـ وأنا في الطريق اليه.»

وفي مارس (آذار) كان سيد على وشك الموت، الأمر الذي حدا ويلر على لعب ورقته الاخيرة تجاهه بنقل الدم اليه. وهو امر غير مضمون، لكنه المخرج الوحيد في تلك الظروف. ولم يكن لدى ويلر من معدات لنقل الدم سوى حقنة. وبقي، على مدى اسبوعين، يسحب كل يومين مقدار مئة مليليتر دما من احد الاسرى المتطوعين ويحقنها في شرايين سيد بعد اضافة محلول السيترات اليها منعا للتخثر. وهكذا انقذ حياة زميله.

وبعد اسبوعين نُقل الطبيبان والمرضى الستة والثمانون في سفينة الى مخيم آخر على الجزيرة. وقبل ويلر الأمر على مضض، لكن رفقاءه شجعوه.

الانتظار الممض

كان مخيم شيراكاوا ارحب من سابقه وقد ملأت باحاته الأشجار والعشب. ووجد ويلر في مستشفى المخيم سبعة اطباء آخرين، مما خفف عنه اعباء كثيرة.

هنا كانوا يتناولون وجبتين من الطعام يوميا، هو طعام اسوأ مما عرفوه في كينكازيكي. وغدا ويلر برما بسلوك بعض زملائه الضباط الذين ظنّ انهم ينبغي ان يكونوا قدوة للآخرين.

والحق ان السجن يُظهر اسوأ خصال الناس وافضلها. وكان ويلر في ما مضى، كلما وصلت دفعة جديدة من الحليب المجفف النادر حاول اقناع الاصحاء بتوزيعها على المرضى. لكن ذلك لم يكن يحصل الا بعد مناوشات طويلة. وعندما حصل على بعض حبوب الفيتامين «ب» رفض بعض الضباط المشاركة في دفع ثمنها.

٢٣ ابريل (نيسان) ١٩٤٥.

لاحظت اليوم اني اعيش مع اناس يحاولون الحصول على كل ما يمكن من سواهم بشتى الوسائل. انها قسوة الفؤاد التي

لم تفلح القشرة الخارجية الرقيقة في سَتْرها. واذا امضوا اشهرا او سنوات اخرى على هذه الحال، فانّ غالبيّتهم ستهبط الى مستوى الحيوانات.

جاء النصر الاوروبي في الثامن من مايو (ايار). لكن الاسرى لم يسمعوا به الا بعد انقضاء شهر. وتساءلوا عن نهاية حربهم وطريقة تصرف اليابانيين حيالهم. وكانت اقلية منهم - وبينها ويلر - على علم بقرار اتخذته القيادة اليابانية العليا حول تصفية جميع الاسرى في حال انتصار الحلفاء. وتأكدَ هذا الظن خلال المحاكمات التي تلت الحرب.

ولو عرف الاسرى عن ذلك القرار، لدفعهم يأسهم الى عدم الاكتراث له ذلك الصيف. واجبرتهم المجاعة على قتل كل كلب يدنو من المخيّم وطهوه وأكله.

٩ يوليو (تموز) ١٩٤٥.

مرة اخرى، ماذا اقول، والأيام تمضي وخلفها الاسابيع والاشهر؟ لقد بتّ لا استطيع الكلام عن السنين. واصابتني حمى الملاريا للمرة الاولى، وارتفعت حرارتي الى ٤١،٤ درجة مئوية.

لقد اخرجتُ صورتكِ، يا حبيبتي، وصور الاولاد ووضعتها امامي على الطاولة واطلقت العنان لأفكاري. ولكن يبدو ان الوقت توقّف. وكلما فكرتُ في اقتراب النهاية بدت ابعد.

لا شك في ان أذيّة ما اصابت اليابان. وفُرض نظام صارم على المخيم، حرّم على الاسرى الظهور في الباحات. وراح الحراس ينهالون على الرجال ضَرْبا بلا سبب. وأنقص مقدار الطعام اليومي حتى باتَ ٣٠٠ غرام رز مع القليل من الخضَر المسلوقة، يضاف اليها شيء من البطاطا الحلوة للرجال الذين يعملون خارجا. وزادت نسبة الوفيات.

٤ اغسطس (آب) ١٩٤٥.

ان وجودنا هنا دخل مرحلته الاخيرة. ولكن لا ندري ان كانت ستبقى اسابيع ام أشْهُرا، وما إذا كنا سنقوى على الصمود. وليس من الممكن ان يتحمل المرء هذا الشحّ في الغذاء طويلا.

بعد يومين، اي في السادس من ذلك الشهر، القت الولايات المتحدة قنبلتها الذرية الاولى التي اتت على ثلثي هيروشيما. وبعد ايام ثلاثة ألقيت قنبلة اخرى على ناغازاكي. وفي ١٥ اغسطس (آب) استسلمت اليابان.

١٩ اغسطس (آب) ١٩٤٥.

هل انتهت الحرب؟ لقد سرت اشاعات قوية جدا في اليومين الاخيرين. لكن التجارب التي عانيناها جعلتنا نشكك في كل شيء.

كانت تلك الكلمات آخر ما دوّنه ويلر. وفي ذلك اليوم كان وزنه ٤٥ كيلوغراما، اي ٢٧ كيلوغراما اقل من المعدّل الطبيعي. وبعد ثلاثة ايام اصدر آمر المخيم بيانا رسميا

جاء فيه: «لقد انتهت الحرب، واصبحنا اصدقاء بعدما كنا اعداء.»

وما هي الا ايام حتى حلقت طائرات على علو منخفض جدا فوق المخيم والقت صناديق تحمل مواد غذائية. لكن احدها صدم المستشفى، فقتل ثلاثة اشخاص وجُرح واحد وعشرون. وراح احد الناجين يصرخ باهتياج وقد شاهد بعض رفقائه يقضي على ايدي الأصدقاء بعدما تحمل الكثير من الاعداء.

واقتسم الأسرى الهدايا، وبينها الشوكولاتة والسجائر والطعام المعلّب. وتولى الميجور كروسلي والضباط الآخرون تجريد اليابانيين من السلاح، ثم اعادوا اليهم بنادقهم لتحية الامريكيين حين يأتون.

وفي تلك الليلة احسّ كروسلي هدوءا منقطع النظير. وكان رجاله، قبل يوم واحد، تعهدوا تمزيق سجّانيهم إرَبا فور تبدُّل السلطة. فأين الحراس الآن؟ ووجدهم كروسلي هنا وهناك مع الاسرى يشاركونهم في الحديث كما في السجائر والحلوى.

وكان بن ويلر جالسا مع بعض الاصدقاء. ولم يصدّقوا تماما ان السلام تحقق. واخيرا قال احدهم: «اما وقد صرنا احرارا، فدعونا نغني اناشيدنا الوطنية.»

لا عودة البتّة

طوال تلك السنوات لم تعرف نل مكان زوجها الحقيقي ولا هي تلقت اكثر من خمس بطاقات كتبها اليها. والآن بلغتها برقية تقول انه حيّ. وتبعتها رسائل. ووقف ويلر على ظهر سفينة راسية في فورموزا يراقب اخلاء رجاله. وحُدّد موعد وصول سفينته الى قاعدة فيكتوريا البحرية الكندية في شهر نوفمبر (تشرين الثاني). وذهبت نل والاولاد الى منزل والدي بن في ليدي سميث على بعد ٨٧ كيلومترا من فيكتوريا.

وقرّرت ان تنتظر السفينة على رصيف الميناء. لكن الزكام اصابها في اللحظة الاخيرة واضطرّها الى ملازمة الفراش. وذات عصر توقفت شاحنة محمّلة جنودا امام بوابة المنزل الرئيسية. وترجّل بن وودّع الرجال الذين تعرّف عليهم خلال الرحلة. ثم تقدم بجسمه الهزيل وطوّق نل، على نحو خجول، للمرة الاولى في خمس سنوات.

وما برحت تتساءل، في الآونة الاخيرة، هل اولادها سيستقبلون اباهم كما يليق به. وكان ألان في الخامسة وكين في السابعة وهاري في التاسعة وقد تعوّد ان يكون «رَجُل البيت». وهرعوا كلهم نحو ابيهم كما لو كانوا يعرفونه جيدا. وبعد استراحة في منزل ذويه، عاد ويلر وعائلته الى منزلهم في ادغرتون لاستئناف حياتهم.

وبما ان ويلر لم يخدم في القوات العسكرية الكندية ولا هو قبل دعوة المؤسسة الهندية للعمل معها من جديد، فهو لم يقبض اي راتب. والتعويض الاخير الذي تلقاه من بريطانيا بلغ ١٤٦ جنيها استرلينيا. وسُجّل اسمه في عداد قدامى المحاربين البريطانيين. اما حكومة بلاده فمنحته حق الاستشفاء المجاني طوال عام من الامراض

التي الحقتها به سنوات العبودية الطويلة.

الا ان المكافأة الحقيقية التي حصل عليها أتت عن غير طريق. فبعيد إطلاق الأسرى من اليابان عام ١٩٤٥ كتب ثلاثة منهم رسالة الى صحيفة كندية حول بن ويلر الذي دعوه «الرجل المرسَل من الله.» وجاء فيها كيف انه انقذ حياة كثيرين وملأ قلوب العديد منهم رجاءً بقوته الصامتة وأفعاله الطبية الخارقة التي ما زالت بارزة في الكثيرين من الذين كتبت لهم الحياة والذين يجلونه أيما إجلال.

ويقول فريد داون، وقد سكن مقاطعة ايسيكس البريطانية بعد تقاعده: «انظر الى الوراء واتساءل عما اذا كنتُ عرفتُ شخصا صالحا مثله.» ويقول جورج هاريسون، وهو اليوم تاجر فني يعيش في مقاطعة ساسكس البريطانية: «كنت على استعداد للذهاب معه حيثما شاء ولتنفيذ كل ما يطلبه مني.»

وظل بن ويلر وقتا طويلا بعد عودته ينهض خلال النوم وهو يصرّ اسنانه من البرد ويضطرّ الى الاستحمام لتعديل حرارة جسده. وظلّ يراجع المستشفى في شأن حريق قدميه الذي أرّقه وكثيرين سواه في فورموزا.

وفي البداية لم يكثر الكلام الى امه حول ايام الأسر. وكانت نل تصغي الى حديثه وهي في المطبخ. وحين لاحظت ان الكلام عن السجن يثير لديه الغضب دائما، تجنبت اثارة هذا الموضوع معه. ومرة قال لها: «مذكّراتي هناك لتقرأيها. وهي كُتبت من أجلك في أي حال.» لكنها لم تَقْوَ على ذلك، إذ ان تلك الاوراق انطوت على مآسٍ كثيرة وحرّكت اعمق المشاعر.

وفي العام ١٩٤٦ تلقى دعوة للادلاء بشهادته عن جرائم الحرب التي اقترفها اليابانيون. وذات مساء خرج افراد عائلته من المنزل قصدا وتركوه وحيدا عله يحزم امره. وعادوا ليجدوه على طاولته وقد بدا عليه الاضطراب الشديد وهو يرسم الوجوه وحوله اوراق الاسر مبعثرة.

ومكث صهره الدكتور هافيلوك ماكلينان لديه بعضا من ذلك المساء وهو يصغي الى اخباره. ولما انتهى ويلر كان ماكلينان غارقا في البكاء.

وفي تلك الليلة اتخذ ويلر قراره، وهو أنه لن يترك عائلته البتة. وبعد ذلك لم يتحدث عن عذاب الأسر إلا في ما نَدَر.

السنوات الذهبية

أخبر ويلر زميلا له ذات مرة ان السنة التي تلت عودته من الأسر كانت من أصعب سني حياته. فقد تدنت معلوماته الطبية بعدما شهد الطب قفزة كبيرة، كما كانت حال بعض العلوم الاخرى، خلال تلك السنوات. ومن الأمثلة على ذلك ان ويلر لم يعرف شيئا عن البنسيلين الا بعد عودته.

لكنه كان في الخامسة والثلاثين، وليس لديه استعداد كي يضحي بالوقت او المال لمتابعة بعض الدروس الجامعية. وانتقل مع عائلته الى ادمونتون، وانضم الى ماكلينان وزملائه في عيادة بيكر وراح يدرس في الليالي استعدادا لاجتياز امتحان تخصص

بالطب الداخلي. وطالما حثّته نل في نهاية بعض الأسابيع، وقد اشتد ارهاقه، على هجر تلك السبيل. الا انه ظل مثابرا حتى النهاية. ومرة قال زميل الأسر جاك ادواردز ان الناس يغادرون السجن كالخشب الذي يلفظه البحر وقد تلف خارجه، لكن لبّه ظلّ كما هو. وهكذا حال ويلر الذي لم يعرف مستحيلا.

وكان في الثامنة والثلاثين عندما ذهب الى شرق كندا لمتابعة دورة طبية مكثّفة. واجتاز الامتحانات الشفوية بعد الخطية وغدا عضو في الكلية الكندية للأطباء والجرّاحين. وفي المساء خابر نل وزفّ اليها البشرى: «لقد اصبحتُ طبيبا اختصاصيا.»

وفي ٢٣ سبتمبر (أيلول) ١٩٤٦ وُلدت لهما ابنة سمّياها آن. وابتهج بن الذي احبّ كثيرا ان تكون له ابنة وان يرافق نمو احد اطفاله منذ البداية. وطوال طفولتها لم تعرف آن شيئا عن دور ابيها في الحرب العالمية الثانية. فالأمر لم يبحث البتة في حضوره، ولم يتكلم عنه احد بالتفصيل.

إلا انّ الشواهد كانت حولها. ففي دهليز المنزل صندوق كبير يحوي بزة عسكرية وسيف وعملة يابانية وحقيبة طبية سوداء اتى عليها الزمن، وفيها كلّاب اسنان وعلبة تحوي اوراقا ودفاتر، فضلا عن قبقاب من خشب. ومرة ضيّع احد اشقّاء آن فردة من ذلك القبقاب، الأمر الذي احزن بن كثيرا وجعله يرسل جميع افراد العائلة في أثر تلك الفردة التي بقيت مفقودة.

وكانت البطاقات تنصبّ على منزل آل ويلر كل عيد ميلاد، ومصدرها بريطانيا، وفيها كلمات كالآتية: «اني مدين لكَ بحياتي.» واخذت آن ترتاد المكتبات بحثا عن كتب حول مخيمات التعذيب علّها تعرف شيئا عن خبرة ابيها. وسبّبت لها تلك التحرّيات احلاما مزعجة.

اما بالنسبة الى بن ويلر، فالسنوات التي أعقبت رجوعه كانت العهد الذهبي في حياته. فهو حصل على كل ما تمناه في السجن: نل والأولاد والسلام والعمل. وغدا عضوا مؤسسا في جمعية ألبرتا لاختصاصيي الطب الداخلي ورئيس اكاديمية ادمونتون الطبية واستاذ الطب العيادي ورئيس الاطباء في مستشفى الكسندرا الملكي في ادمونتون.

وكان ذلك الطبيب الذي يسعى اليه الجميع، وذلك بفضل مثابرته وصدقه. وكان يعمل طوال النهار في عيادة بيكر ويعود المرضى في منازلهم بعد العشاء واحيانا خلال الليل ويتفقد المستشفيات صباح كل سبت وأحد.

اما عصر الأحد فقد خصصه لعائلته. وغالبا ما كانوا يخرجون في السيارة للتنزه. واحيانا كان يأخذ ابنته الشقراء الى صيد السمك. وتقول آن: «كنا نجلس طوال النهار وقد القى السنانير في الماء. ونادرا ما كان ينطق بكلمة. لكن علاقتنا كانت أقوى من الكلام.»

وكانت في الثانية عشرة عندما اهدى اليها والدها فرسا. وذات ليلة ولدت الفرس مهرا. ولما رآه ابوها قال وهو يبتسم: «يا له من مهر جميل!»

وطوال تلك السنوات السعيدة ما برح

بن يذكر نل بالآتي: «يجب ان نستغل هذه الايام الى اقصى حدّ ممكن. فأسرى الحرب يقضون في سنّ مبكرة.»

والواقع انه مات في الثالثة والخمسين على اثر نوبة قلبية يعود بعض سببها الى القهر الذي عاناه ايام الأسر. وحصلت وفاته وهو يطبب مريضا في عيادته. وجاءت بعد يوم واحد من عيد ميلاد آن السابع عشر.

وبعد سنواتٍ اكبّت آن على مذكّرات والدها التي صفرها الزمن، وأيقنت انه كان بطلا حقا. واتخذت قرارا بالتعويل على تلك المذكرات لتروي سيرته على الملأ. ووجدت الوسيلة عبر المجلس الوطني للسينما في ادمونتون. ومن ضمن عملها في الانتاج والاخراج والكتابة انجزت في العام ١٩٨٠ شريطا حول عذاب بن ويلر نالت عليه الجائزة لأفضل فيلم وثائقي. ويدوم عرضه ٨٢ دقيقة.

وأرسلت الشريط الى الممثل الكندي دونالد ساذرلاند في هوليوود الذي لم تكن قابلته قطّ، وسألته هل يوافق على تسجيل صوته لقراءة المذكّرات.

وبعد اسبوع رنّ الهاتف في مكتب آن. وجاء صوت ساذرلاند عبر الخط ليقول انه يقبل العرض بكل سرور. وبعدما جاء صوته غاضبا في القراءة الاولى، عدّله قليلا في القراءة اللاحقة.

اما نل فقد تزوجت بعد ترملها واصبح اسمها اليوم نل ويلر هومر. وهي لم تستطع قراءة المذكرات كلها. فكلمات زوجها، حتى بعد مرور اربعين سنة على كتابتها، لا تزال تثير نشيجها.

وأما آن فلا تستطيع نسيان حادث جرى وهي مع والدها. ففي طريق عودتهما الى البيت ذات احد قالت له: «اتعرف يا أبي ان الانسان يذهب الى الجحيم ما لم تغفر خطاياه؟»

وأجاب بن ويلر برفق: «لقد ذهبتُ الى الجحيم يا حبيبتي.»

■ روبرت كولينز

اياك ان تطري احداً كما لو كنت تريد شيئاً في المقابل.

ب.ب.

عالم بلا ترقب

هل يمكن ان نتصور عالماً اختفت قصص الجرائم من صحفه وبات جميع اهله كليي القدرة بحيث غابت حرائق المنازل وحوادث السيارات والطائرات والخيانات، ولم يعد أيّ ملك يتخلى عن عرشه لارواء نزواته، وصار الجميع يحفظون العهود، ويضع كل لنفسه صورة وهو في العاشرة لما يريد ان يكون، ويحافظ عليها حتى النهاية؟...

ان عالماً كهذا تملأه الرتابة والملل وتختفي منه بهجة الترقب. وبموت الخطيئة والضعف البشري، يموت الادب ويذوي العمران وتنطفىء جذوة الحماسة في النفوس.

لين يوتانغ، فقيه صيني



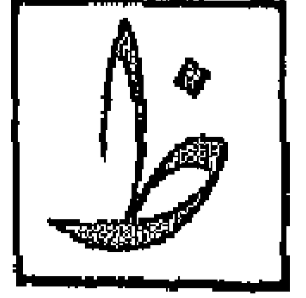
أربعاء الرماد

اشجار الصمغ المتوهجة في كوكاتو.

كثيرون ينظرون الى اوستراليا على أنها «البلاد المحظوظة». فقد أنعم الله عليها بالمساحات الواسعة والثروة المعدنية. الا ان حرائق الأدغال الهائلة تهب عليها أحيانا بفعل الريح والحرّ والنبات القابل للاحتراق.

ومن اسوأ هذه الحرائق طرّا ما طرأ يوم اربعاء الرماد في ١٦ فبراير (شباط) ١٩٨٣.

وكانت نتيجة الحرائق مقتل اكثر من سبعين شخصا وهدم ٢٤٣٦ منزلا وبناية واتلاف الف سيارة ونفوق ٢٨٠ الف رأس ماشية، فضلا عن احراق ٣٦٠٠ كلم٢ من الغابات والمزارع.

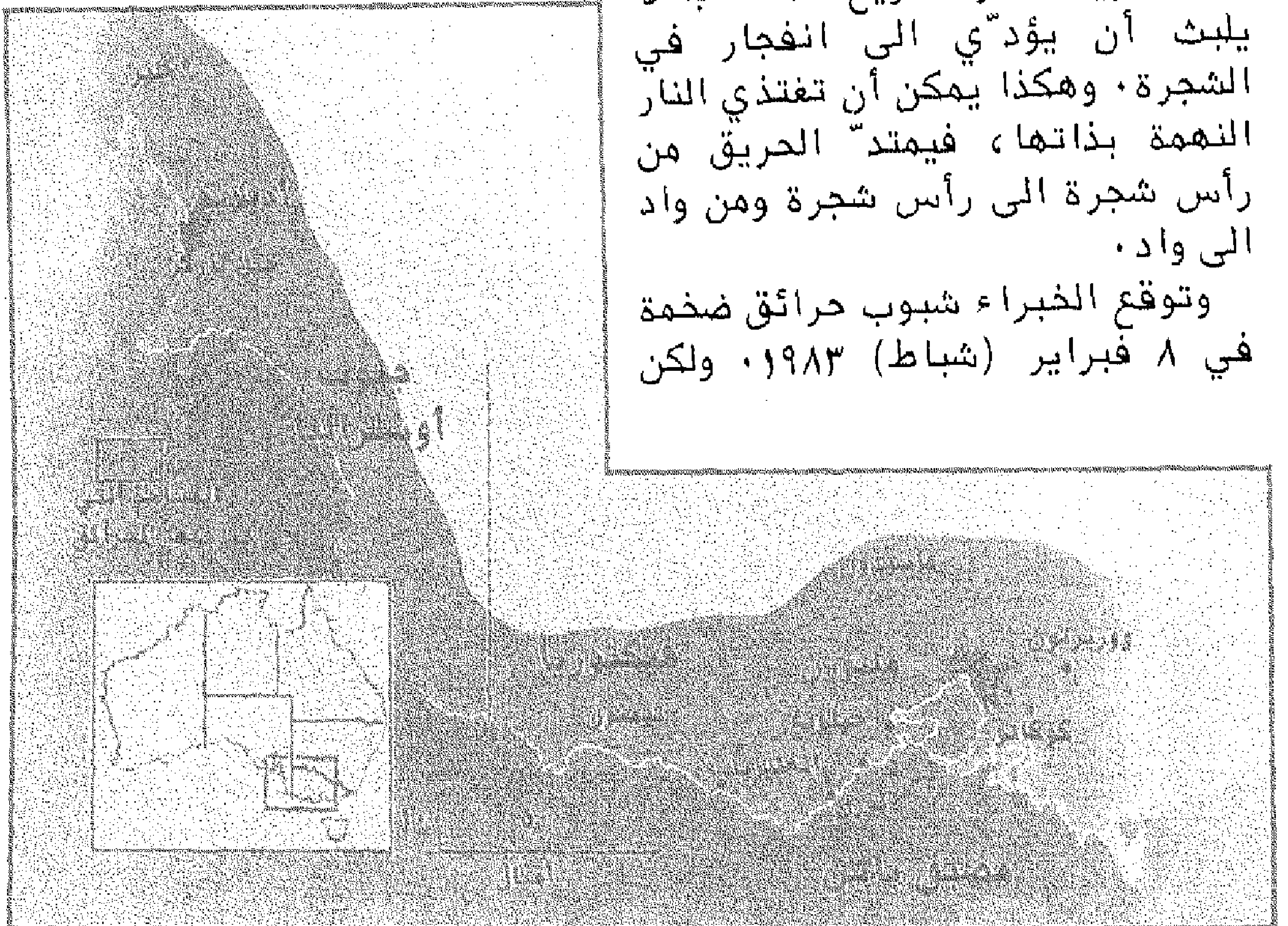


ظلّ بوب بوتس أياماً يتوقع الشدائد، وهو رجل ناحل طويل في التاسعة والثلاثين من عمره، ولسنوات بقي موظفاً في دائرة الاطفاء التابعة لبلدة مالفيرن في ضواحي مدينة ملبورن الاوسترالية، لذلك كان مؤهلا كي يعرف، أكثر من سواه، آثار الجفاف الذي شهدته المنطقة في السنوات الثلاث الأخيرة والذي أدّى الى نضوب البحيرات والسدود وأنقص مياه الأنهار والسواقي بنسبة ثمانين في المئة.

وفي الغابات الكثيفة كانت آلاف الأطنان من الاوراق والأماليد والغصون اليابسة تنتظر الشرارة الاولى. وقد عرف بوتس أن شجر الاوكاليبتوس الصمغي، إذا تعرّض لحرّ النار، تحوّل زيته غازاً سريع الالتهاب لا يلبث أن يؤدّي الى انفجار في الشجرة. وهكذا يمكن أن تغتذي النار النهمة بذاتها، فيمتدّ الحريق من رأس شجرة الى رأس شجرة ومن واد الى واد.

وتوقع الخبراء شبوب حرائق ضخمة في ٨ فبراير (شباط) ١٩٨٣. ولكن عوضاً عن ذلك هبت ريح شمالية حارّة تولدت منها عواصف غبار قوية اقتلعت نحو ١٤٠ ألف طن من التربة السطحية الغنية وحملتها من شمال غرب فيكتوريا الذي ضربه الجفاف الى ملبورن وسواها من مناطق الجنوب. وغدا النهار ليلا. ولم يعد في استطاعة السائقين أن يروا أضواء الشوارع. أما الذين تمكنوا من الخروج، وهم قلائل، فقد لفوا رؤوسهم اتقاء للغبار. وقد ظنّ بعضهم أنه يشهد نهاية العالم.

وفي منزلها في سانبوري الذي يبعد ٣٥ كيلومتراً شمال ملبورن أوكلت جاني، زوجة بوتس، الى اولادها، باستثناء رابعهم الصغير، ازالة الغبار الأحمر الناعم الذي سدّ منافذ الهواء وتخلل ثقوب النوافذ.



أما التوقعات الجوية بالنسبة الى السادس عشر من ذلك الشهر، وهو أربعاء الرماد، فلم تكن بأفضل حالا. وكان يُنتَظَر من ريح الشمال الحارّة الجافّة ان ترفع الحرارة الى أربعين درجة مئوية وتخفض الرطوبة الى أقلّ من ١٥ في المئة. وفي السابعة من صباح ذلك اليوم أعلنت دائرة الاطفاء حظراً تاماً لاضرام النار خارج البيوت، سواء أكان ذاك لشيّ اللحوم في الهواء الطلق أم لاشعال مواقد اللّحام أم للمشاعل التي يتسلى بها الاطفال.

وفي جنوب اوستراليا الذي أتى عليه الجفاف سفعت الشمس الاعشاب في حقول كثيرة وأحالت خضرتها بياضاً.ويبست الاشجار والخبيات وحملت ريح الشمال الغبار نحو مدينة اديلايد. ولاحظ العديد من السائقين الذين انطلقوا الى أعمالهم جوّاً حارّاً وجافاً غير معهود.

وكان بوتس، الذي انقضت عشرون سنة على تطوعه في دائرة سانبوري لاطفاء الحرائق، يعلم تماماً ما هي حال دوائر الاطفاء في تلك الظروف، وعددها ١٤٣٣ دائرة في الولايتين. وهي ظروف يتخلف فيها الكثير من زملائه المتطوعين، وهم نحو ١١٨ ألفاً، عن أعمالهم ويتوجّهون الى دوائر الاطفاء المحلّيّة. وهناك يخلعون ملابسهم العادية ويرتدون الملابس الصفراء العازلة والخُوذ بعد تفقّدهم العدّة، ثمّ يخابرون زملاءهم الذين لم يحضروا ليروا إن كان في إمكانهم الحضور، ويصغون الى الاذاعة الخاصة بمكافحة الحرائق.

وما برحت الدائرة تجتذب إليها المتطوّعين من فئات المجتمع جميعاً، ويتولى هؤلاء انتخاب رئيس لهم مع هيئة إدارية كلّ سنتين. وفي بعض حالات الطوارىء يُسمح لقائد مفرزة الحرائق بأن يعطي أوامر لرجال الشرطة. وفي حين أن الشرطي لا يستطيع إرغام شخص يتهدّده الحريق على مغادرة بيته، فهذا ممكن بالنسبة الى آمر فريق الاطفاء. كما يمكنه، لدى الضرورة، أن يقتحم المنزل بدبابة أو جرّافة. وقد شاعت عادة مكافحة الحرائق في أوستراليا. وفي صباح ذلك اليوم الموافق أربعاء الرماد أدرك بوب بوتس أن فرق المكافحة ستضطر الى الانتظار في مراكزها، لكنه تمنى ألا تنشأ حاجة إليها.

وظل بوتس في مكتبه طوال ذلك الصباح منهمكاً في وضع تقارير حول عشرين حريقاً شبت في المنطقة، إلا أنّ أياً منها لم يَستَدعِ إرسال فرقة إطفاء. وفي الثانية والدقيقة الثالثة والعشرين عصراً بلغته رسالة من غرفة الراديو تقول ان حريقاً نشب في ايست ترينتهام على بعد سبعين كيلومتراً شمال غرب ملبورن، وان سرعته صُنّفت "متوسطة" ولكن خارج نطاق السيطرة.

ومع اشتداد الريح الشمالية عرف بوتس أن الحريق لن يلبث أن ينتقل الى غابة ولاية ومبات الجنوبية المجاورة. وهذه الغابة ملأى بالاشجار القصيرة الجافة. ولا يُستبعَد أن تنفجر ويتعذر دخولها على رجال الاطفاء. وقال بوتس لزميله ديفيد

جوردان: "في تقديري أن حريق الغابات بدأ على نطاق واسع."

أبعد من التصديق

في تلك الاثناء كانت النار تضطرم أيضاً في تلال اديلايد. وفي طريقه الى اذاعة تقرير حول الحادث عبر إحدى محطات الارسال، سمع موراي نيكول، وهو نيوزيلندي في التاسعة والثلاثين، نداء عبر الراديو في سيارته يدعو جميع اطفائيي المنطقة الى التلال المنكوبة.

وأسرع نيكول الى محطة الاذاعة. وكان بيته يقوم على تلك التلال، وهو متطوع في فريق غرينهيل الاطفائي. وكانت عدّته كلها في سيارته التي أوقفها خارج مبنى الاذاعة، وهي "لاندروفر" صفراء قديمة.

وانتابه الغضب وهو يتجه نحو غرفة الاخبار، وراح يعتذر لزملائه لاضطراره الى الانصراف. وهي المرّة الاولى خلال عمل إذاعي دام ٢٣ سنة يتخلف عن واجبه. لكنه شاء أن يلبي نداء واجب آخر نابع من دوره كاطفائي. ولم ينسَ أن يحمل معه جهاز إرسال صغيراً.

وفي ذلك الوقت كان روبن كامينز يسرع نحو التلال في سيارة "هولدن" يعود صنعها الى العام ١٩٥٨. ولم يراود كامينز، وهو شاب ملتح في العشرين يبلغ طوله ١٩٠ سنتيمتراً، أي شك حول قوّة سيارته التي أعاد بناءها بنفسه، فركب لها محرّكاً أكبر وعجلة قيادة وسوى ذلك من أجزاء. وهي لم تخذله قطّ.

وصادف في الثالثة من عصر أربعاء الرماد أنه كان متجهاً مع أخيه بروس (٣٠ سنة) الى منزل بروس القريب من سمرتاون لحمايته. وما ان قطعا مسافة قصيرة على طريق غرينهيل المتعرّجة عبر التلال حتى شاهدا دخاناً كثيفاً، وكانت السيارات التي أنارت مصابيحها الامامية تنحدر عن التلة، لكن روبن قرّر المضيّ في طريقه.

وبعد منعطفين اصطدمت السيارة بحاجز من حجار، فانعطف روبن يساراً عبر طريق يارابي ليعود الى طريق غرينهيل على ارتفاع أعلى. ولما انحرف عند المنعطف التالي رأى النار تشرئبّ الى السيارة عن اليمين. وأدرك الشقيقان، وقد أحاطتهما النار من كل جانب، أن طريق العودة مستحيلة. وكانت الحرارة داخل السيارة لا تطاق. وبعد قليل شاهدا في الطريق هيكل سيارة محروقة.

ومع ازدياد كثافة الدخان لم يعد في استطاعة روبن تبيّن الطريق. وكان صوت السيارة تحته دليله الوحيد على وجوده فوق الطريق. وفجأة سمع صوتاً غريباً أحدثه ثقب في آلة تبريد المحرّك. وانتظر روبن هنيهة ثم أدارَ مفتاح الاشعال. واستأنفت السيارة طريقها عبر التلال، لكن الأبخرة بقيت تتسرّب من المحرك حتى خشي روبن ان يلتقط النار. ولكن لم يكن للأخوين بد من متابعة الطريق.

وفجأة برز طيف في الدخان يلوّح بشدّة. وكان أسوأ ما في الأمر فتح نوافذ السيارة وأبوابها. إلا أن بروس

لم يستطع غضّ النظر عن الناس الذين كانوا في الخارج. وما أن فتح الابواب حتى تدفقوا الى السيارة مثل حيوانات مذعورة. وقفز أحد الاطفائيين الى المقعد الأمامي بجانب بروس. وفوق درّاجة بروس على المقعد الخلفي جلست امرأة وصبي صغير وثلاثة اطفائيين آخرين. كان الارهاق يكاد يفقدهم الوعي عندما ظهرت سيارة روبن في الطريق.

وحين همّ روبن بالانطلاق صاح فيه أحد الاطفائيين: "اصبر قليلا أيها الصديق! هناك اطفائيان آخران."

وانطلق روبن من غير أن يجسر على عدّ الرؤوس في سيارته. وفيما بلغهم صوت الحريق من الخارج لم يجرؤ أحد على الكلام إلا روبن الذي ما انفكّ يقول: "هيا أيتها السيارة! هيّا يا عزيزتي! إني أعرف جيداً أن في استطاعتك قطع المسافة المطلوبة... انك لن تخذلينا."

وبعد ٤٠٠ متر انقشع الدخان قليلا وأمكن الركاب أن يروا سيارة اطفاء أمامهم. وقفز جميع الاطفائيين خارج سيارة روبن باستثناء واحد. وتابع روبن طريقه نحو ملعب كرة القدم في أورايدلا التي تبعد خمسة كيلومترات عن تلك النقطة. وهناك ترك سيارته كي تبرد. وسد ثقباً في خزان التبريد بعلكة ثم ملأه ماء. وفي المساء قاد السيارة ومعه بروس الى منزل أخيه ليجداه قائماً حيث هو. لكن سقفه الحطبي سقط.

وبعد أيام أصلح روبن مبرد السيارة وجدّد الكابح وركب بطارية جديدة وسدّ ثغرات الطلاء. وقد بات فخوراً بتلك السيارة التي ساهمت في إنقاذ حياة عشرة أشخاص.

في تلك الاثناء كان المذيع موراي نيكول يتشبث بجدار من حجر لحماية نفسه من النار والدخان. وتعجب للسرعة التي وصل بها الحريق الى مرتفعات اديلايد. وكان مع زملائه الاطفائيين وجهوا السائقين الهاربين نحو الطرف الجنوبي لطريق يارابي. ولكن ما هي إلا هنيهة حتى اسودّ الهواء بالدخان والرماد. وارتفع وهج أحمر على الافق الغربي. وسمع نيكول صوتاً يشبه هدير طائرات حربية مجتمعة. وهو صوت لم يعرف مثيلا له من قبل.

وهبت ريح صرصر من ناحية الحريق اقتلعت القارورة التي كان يحملها نيكول وفيها عشرون كيلوغراماً من الماء ورمتها مسافة ستة أمتار على درب فرعية. ووقف دي كالاهان، وهو مدير مزرعة قريبة، يصيح بأعلى صوته داعياً كل شخص هناك الى الاحتماء بجدار المزرعة الحجري. وكان عدد الناس يفوق العشرين، وبينهم الاطفائيون والنساء والاطفال. ومع اقتراب الريح التي تحمل النار طلب نيكول من اطفائي أن يرشّ الاطفال بالماء. ومع ازدياد عويل الريح أخذت امرأتان تزعقان.

والتقط نيكول جهاز الارسال وقد عقد العزم على وصف بعض جوانب تلك الفاجعة للمستمعين. وخابر غرفة الاخبار في أديلايد، فجاءه الجواب بأن يباشر إرساله. وراح تقنيو الاذاعة يصلون غرفة الأخبار بجميع

أنحاء اوستراليا: ملبورن وسيدني وكانبيرا وبريسبن، حتى شمل البث ٤٥ محطة تابعة لشبكة "مكاري".

وانطلق صوت نيكول عبر المذياع: "السماء تبدو حمراء ثم تستحيل بيضاء كما لو أصابها مَسّ من جنون. وها هي النار ترتفع ثلاثين متراً، لا بل أربعين، فوق طريق غرينهيل. وهناك ١٤٠ منزلا في تلك المنطقة تحت رحمة النار. ولا أدري كم منزلا منها قوضه الحريق... إنها لكارثة رهيبة حقاً."

وأخذ نيكول نَفَساً وسط الدخان الكثيف ثم تابع: "ليس في وسعنا أن نتبين أي منزل. والطريق غابت عن الانظار. ونحن نكاد نختنق من الرماد. وننظر حولنا، فيبدو الهواء أبيض بفعل الحريق الهائل."

وأخيراً سقطت عاصفة النار على المكان. وتداعى سطح المزرعة وهوى، غير أن أحد الذين كانوا يحتمون بالجدار لم يُصَب بأذى. أما المزرعة التي تبلغ مساحتها ٤٠٠ هكتار فاحترقت في عشر دقائق. وكان نيكول يحاول إطفاء حريق شب في كومة حطب حين أسرع دي كالاهان نحوه صائحاً: "لقد احترق منزلك."

وقطع نيكول مسافة ٤٠٠ متر الى طريق ياروبي ووصل الى منزله في خمس دقائق. ورأى أحد زملائه على سلم وهو ينضح السطح المحترق بخرطوم ماء. وتسلق نيكول السلم وهو حريص على ألا يدوس السطح المعدني. وأدرك أن منزله لن يلبث حتى تأتي عليه النار.

وسرعان ما نفد الماء لدى الاطفائيين. ولم يكن هناك خط مياه رئيسي في ذلك الجزء من أديلايد. ومع انقطاع التيار الكهربائي لم تبق ثمة وسيلة لضخّ الماء من الخزّان الخاصّ الذي تبلغ سعته ٢٢ ألف ليتر.

صعوبة الاتصال

ما أن نزل نيكول عن السلم حتى انتابه الأسى. فمنزله لن يصمد سوى لحظات. ولما رأى ستائر غرفة الجلوس تلوح قال لنفسه: "مسكينة فرانك"، وهي زوجته التي أمضت وقتاً طويلا لاختيار أنسب الستائر. وقد أنفقا أخيراً مبلغ ٣٠ ألف دولار أوسترالي (٢٧ ألف دولار أمريكي) على إصلاح المنزل الذي يعود الى ١٣٠ سنة خلت، وبذلك يشكل معلماً معمارياً في تاريخ اوستراليا. وهو المنزل الوحيد الذي اقتناه وزوجته فرانك خلال ١٥ سنة من الحياة الزوجية، والبيت الوحيد الذي عرفته ابنتاهما تيا (١٠ اعوام) وبيتا (٨ اعوام). وليس أمامه الآن إلا "التخلي عنه."

والتقط نيكول المذياع من جديد ليعلن أساه على ملايين المستمعين غير المرئيين: "أنا جالس على الطريق خارج بيتي الذي عشتُ فيه ثلاث عشرة سنة. ها هو السطح ينهار وألسنة النار تمتد الى الداخل، وليس في وسعي أن أفعل شيئاً... يا لها من تجربة مرّة تفوق التصديق. لقد ولى منزلي، ولا أستطيع النظر إليه وهو يهوي حجراً حجراً الى التراب."

وظل نيكول يجول المنطقة ساعة

ونصف ساعة وهو في شبه غيبوبة. وقد مات أربعة أشخاص من معارفه وتهدّم ثلاثون منزلا من المنازل المئة على جانبي طريق يارابي. وكان نيكول يعرف أن ابنتيه أخذتا مع أولاد الجيران الى أديلايد. ولكن ماذا عن فرانك التي تعمل مذيعة في محطة غرينهيل للاطفاء؟ أيكون الحريق ضرب المحطّة أيضاً.

وغدت الاتصالات عسيرة جداً. وكانت النار قطعت خطوط الهاتف واختلطت الرسائل عبر الشبكة الاذاعية لدائرة الاطفاء. وأصدر نيكول نداء أخيراً الى زوجته: "إذا كنت تستمعين الي يا فرانك، فاعلمي أني وابنتينا في حال جيدة. فاذا كانت حالك أنت أيضاً جيدة، هان الأمر وتمكنا من بناء منزلنا مرّة اخرى."

وفي منتصف عصر أربعاء الرماد كان عشرون حريقاً رئيسياً امتدّت مسافة ألف كيلومتر من بلدة كلير شمال أديلايد الى تلال دانديننونغ شرق ملبورن، عبر جنوب أوستراليا وفيكتوريا. ولكن كيف اندلعت تلك الحرائق؟

هناك أسباب مختلفة، كالاهمال وإضرام النار المتعمد والاحتراق التلقائي واصطدام أعمدة الكهرباء بعضها ببعض وسط الريح. وبانطلاق النار تعسر السيطرة عليها، خصوصاً مع هبوب تلك الريح الشمالية بسرعة ١١٣ كيلومتراً في الساعة. وفي بعض المناطق بلغت الحرارة ٤٣ درجة مئوية وهبطت الرطوبة حتى ٦ في المئة.

وبلغ عدد الاطفائيين الذين هبوا لمكافحة الحرائق في الولايتين ٣٠ ألفاً، يعاونهم ١٥٠٠ من موظفي الغابات. وقد استخدم هؤلاء ٨٠٠ سيارة إطفاء، مع الاستعانة بأي نوع من السيارات التي يمكنها نقل الماء عند الحاجة. وفي الجوّ انطلقت نحو ٢٥ طائرة مروحية تحمل المراقبين الذين حاولوا تنظيم العمليات. إلا أن الدخان والرياح العالية أبعدت معظم الطائرات عن خطها. أما النار فظلت تهدر في كل مكان وقد حملت غاز الاوكاليبتوس ودخان الاوراق والاغصان عالياً في الهواء. وتولدت حرائق فرعية من الحرائق الرئيسية حتى غدت النيران المضطرمة كابوساً ثقيلا. وحوّل الاطفائيون اهتمامهم من الممتلكات الى الناس.

وأخذ المواطنون يهربون بالالوف. ووجد المحظوظون بينهم وقتاً لارتداء الأحذية الثقيلة والسراويل الطويلة وكنزات الصوف ذات الأكمام، علماً أن الصوف أفضل عازل للنار. كما تركوا الماء يجري على سطوح منازلهم وحملوا مجوهراتهم ووثائق الملكية والتأمين والمعاملات القانونية قبل أن يتجهوا الى منبسطات واسعة من الارض، وهي في معظم الاحيان ملاعب كرة القدم المحلية. أما الاقل حظاً فلم يجدوا مناصاً من الهرب كما هم. وكالحيوانات المذعورة، هرع الكثير منهم الى الاقبية وخزّانات المياه والمستنقعات. وفي يارا العليا من اعمال ولاية فيكتوريا وجد ٨٣ شخصاً ملاذهم في قناة أحد السدود.

والأقلّ حظاً كانوا أولئك الذين واجهوا الحريق وهم خارجاً.

وسط الريح المندفعة بسرعة ثمانين كيلومتراً في الساعة اضطر مفوّض الشرطة ستيفن وليمس الى أن يدفع درّاجته النارية بجسده القوي عند المنعطفات ليبقيها على الطريق. وكان المفوض، ذو الشعر الادكن والبالغ الثامنة والعشرين، في نوبة خدمة على ساحل فيكتوريا الغربي. وفي توجّهه نحو الداخل سمع خبراً إذاعياً عن حريق في بلدة دينز مارش القريبة. وخفف سرعته وتناول مذياعه اليدوي وقال: "اني على بعد عشرة كيلومترات جنوب دينز مارش، وفي إمكاني المساعدة."

ثم أسرع نحو تقاطع ماونت سابين، ومن هناك تابع طريقه انحداراً بين التلال التي تغطيها الغابات. وأقبلت نحوه شاحنة اخترقت أنوارها القتام. وأطلّ منها أحد حراس الغابات وقال: "خير لك أن تعود أدراجك يا صاح. فالنار صاعدة عبر هذه التلال." وعلى بعد كيلومترين الى أسفل كانت تقوم بيوت للمزارعين. وسأل وليمس حارس الغابات عما إذا كانوا أخلوها، فقال إنه لا يعرف. وعندئذ طلب منه وليمس أن يذهب الى تقاطع ماونت سابين ويمنع كل سائق من نزول تلك الطريق.

أما هو فتابع طريقه نزولاً. وبعد قطعه ٨٠٠ متر استدار عند زاوية وأحسّ انقباضاً في معدته. وداس كابح دراجته النارية على نحو عفوي، ونظر ليرى على بعد مئة متر أمامه جداراً من النار يرتفع أربعين متراً ويعلو عشرة أمتار فوق أشجار الاوكاليبتوس. وإذ لم يجد تتمة للطريق أمامه، أدرك أنّ الحريق أتى عليها والتهمَ القار (الاسفلت).

وأدار الدرّاجة في الاتجاه المعاكس وانطلق بسرعة خمسين كيلومتراً في الساعة، فسبعين فثمانين فمئة. وأحسّ ضعفاً في جسده. وفكر وليمس في السنوات الثماني التي أمضاها في شرطة فيكتوريا وصادف خلالها أهوالاً، منها أنه طُعن بقنينة وبسكين وصادر بندقية من رجل أطلق النار على خصم له. لكنه في تلك الظروف جميعاً شعر ببعض الامان إذ كان في استطاعته السيطرة على مصيره. ولكن فيما هو يتابع طريقه صعوداً سمع صوتاً داخلياً يقول: "أهرب! أهرب! أهرب." وما لبث يذكر نفسه بأنه ضابط في الشرطة وانه مسؤول تجاه مؤسسته ومواطنيه.

وشاهد شاحنة صفراء تسرع نحوه. ولعن وليمس سائقها المغفّل الذي عبر التقاطع من غير أن يلاحظ شيئاً. وأصدر إشارة ضوئية من درّاجته، لكن سائق الشاحنة ظل متابعاً طريقه. فتعقبه وصاح به: "عد من حيث أتيت، وإلا أتى عليك الحريق في أسفل الطريق." واعترض الرجل بحجة أن عليه الذهاب الى دنيز مارش. لكن وليمس أمره: أدر شاحنتك الى الوراء، وأنا سأتبعك للخروج من هذا المكان."

وما أن فعل حتى شاهد وليمس حريقاً على بعد ٣٠٠ متر أمامه. وخفف سائق الشاحنة سرعته، لكن وليمس عرف أنه لا خيار سوى اقتحام النار،

لأن الحريق الآخر أشدّ هولا. وقال للسائق: "تابع طريقك يا أخي، واتبعني أنت هذه المرّة."

ولما دنا وليمس من الحريق زاد سرعة درّاجته وكاد أن يسقط عنها. ورأى شجرة اوكاليبتوس محترقة تهوي بثقلها نحو الطريق. وفكر في زوجته كاترين التي مرّ على زواجه إياها ثلاث سنوات. وأسف إذ لم يترك لها ولداً.

وسقطت الشجرة العملاقة وأحدثت دوياً عظيماً. وراتفع الشرر من أغصانها المحترقة. واخترق وليمس النار بسرعة ١٦٠ كيلومتراً. في الساعة فوجد نفسه خارجاً بعد انعطافه يَساراً.

وعلى مسافة ٥٠٠ متر صعوداً رأى نحو عشرين شخصاً متجمعين حول خمس سيارات عند تقاطع ماونت سابين. وأوقفت وليمس الدرّاجة وصاح بهم: "أخرجوا من هنا حالا، فالنار تشقّ طريقها." ووسط الذعر الذي خلفه الانذار سقطت إحدى السيارات الصغيرة في حفرة، فقفز أربعة رجال من شاحنة ورفعوها.

ونظر وليمس الى الطريق التي سلكها ثم قال عبر المذياع: "لقد أبعدت قافلة سيارات عن تقاطع ماونت سابين. فالحريق يشتدّ شمال هذا التقاطع ويتجه نحو لورن."

وعاد وليمس بحذر الى أسفل لكي يراقب الحريق من جديد. ولم يعثر على أثر للشاحنة الصفراء. ورأى شجرة اخرى تهوي. ولم يسعه أن يفعل شيئاً، فعاد قاصداً لورن الى الجنوب.

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم شوهد جون ميرلا، وهو في الحادية والخمسين، ميتاً بجانب شاحنته المحترقة.

وبعد ثلاثة أسابيع سمع وليمس وزوجته كاترين خبراً طيباً، وهو أن كاترين حبلى وان حملها بدأ قبل أربعاء الرماد.

"إنه ابني!"

شقّ صبي طريقه عبر الدخان وأسرع نحو الرقيب دون ويلسون فاتحاً ذراعيه وهو يطلب الامان. الا أن ويلسون لم يستطع احتضان الصبيّ، لأن كل لمسة من شأنها مضاعفة عذابه. وكانت ثياب الصبي احترقت والتصقت ببدنه، وأخفت النار ملامح وجهه. وكان مع غاريث اندرسون (١٠ اعوام) رجل تأكل النار ثيابه. ولم يجد ويلسون مناصاً من فكّ سرواله في محاولة اطفاء الحريق الذي خلف يدي الرجل وذراعيه وصدره وظهره في حال يُرثى لها. ووضعه ويلسون على مقعد سيارته الامامي ومدد الصبيّ في الوراء.

وطلب سيارة اسعاف وحدد موقعه عند تقاطع طرق على بعد ١١ كيلومتراً غرب تيمبون في ولاية فيكتوريا. وكانت الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والعشرين مساء. وفكر الرقيب الطويل البالغ الثانية والثلاثين في اولاده الثلاثة. ولم يكن في خبرته ما يجعله مؤهلا لسماع أنين طفل محروق. وراح ويلسون يهدىء روع الاثنين ما استطاع الى ذلك سبيلا.

ومن خلال سحب الدخان الكثيفة أبصر سيارة "لاندروفر" آتية نحوه، ولوّح للسائق كي يقف وقال له: "معي صبي أصابته حروق كثيرة. فهل تعرف طريقاً بعيدة عن النار لأسلكها؟"

وتقدم السائق من سيارة الشرطي ونظر الى الداخل، وظناً منه أنه يرى ابن اخيه قال: "أهذا أنتَ يا مارك؟" فأجابه الصبي: "لا، بل هذا أنا يا أبي، هذا أنا يا أبي." واستغرق في البكاء.

وتنهد ماكس اندرسون وقال: "يا إلهي! انه ابني." وكان جسم الفتى انتفخ اكثر من حجمه الطبيعي كثيراً، وحاول والده الصعود الى السيارة، ولكن لما رأى ابنه يتلوى ألماً سمع كلمة ويلسون ألاّ يصعد، وقال الشرطي: "لقد استدعيتُ سيارة اسعاف، وهي على الطريق." واذ ذاك عاد أندرسون الى شاحنته.

وفي سيارته، تلقى الرقيب ويلسون مكالمة تقول ان سيارة الاسعاف أبعدت بسبب الحريق، وفي تلك اللحظة ظهرت سيارة "لاندروفر" أخرى. ولما سأل ويسلون السائق عن طريق تيمبون، قال هذا ان في امكانه ان يوجهه الى هناك. وفيما ويلسون يقود سيارته وراء اللاندروفر سأل الرجل المنكوب الى جانبه عن اسمه، فقال انه كيفين غريغ من تمبلستو في ملبورن، وانه في الخامسة والاربعين وتاجر معدات زراعية وجرّافات.

وكانت الحرائق على جانبي الطريق، وأحسّ ويلسون ان عجلات سيارته تنغرز في القار الذائب. لكن غريغ الذي زادت النار حروقه ألماً رجاه قائلا: "تابع طريقك ولا تتوقف." ومن الوراء قال الصبيّ: "يا إلهي! اني سأموت."

وانفرج الجو قليلا بفعل انحسار الدخان، ولكن ما هو الا قليل حتى عادت سحب الدخان أكثف مما كانت، وتوقفت السيارتان. وفجأة سُمع صوت قوي وارتفعت سيارة ويلسون في الهواء، ونظر ويلسون ليرى سيارة أخرى وراءه وقد صدمته بفعل السرعة. غير ان أياً من السائقين لم يصبه أذى، وجُرح رأس غريغ لاصطدامه بالزجاج الامامي أما غاريث فلم يتحرّك. لكن سيارة الشرطة تعطلت تماماً.

وطلب ويلسون النجدة عبر جهاز الارسال، وأصابته قشعريرة اذ لم يتبيَّن منفذاً من النار. وكان معه مصابان ويحتاجان الى أسعاف سريع، لكن كثافة الدخان أخذت تزداد والريح تُعْوِل. وأخيراً وجد سيارة شرطة تتوقف في محاذاته، وتولى الشرطيان نقل المصابين بعناية فائقة.

ولما وصلوا الى المستشفى في تيمبون قال غريغ للمرّضين: "اعتنوا بالصبي أولا، اذ ان اصابته تفوق اصابتي." وصعدت طبيبة شابة الى السيارة لتعاين الفتى. وبعد لحظات عادت نحو زملائها لتعلن بأسف أنه قضى...

أما بالنسبة الى الوالد ماكس اندرسون، البالغ الرابعة والثلاثين، فقد بدأ الكابوس. وكان بعد مشاهدة ابنه في سيارة الشرطة توجه الى مزرعة أخيه جون وأخبره أنه رأى غاريث وقد أتت عليه الحروق وأنه بدا

مائتاً. ونصح جون أخاه بأن يبقى لديه في المزرعة، لكن ماكس تابع طريقه نحو مستشفى تيمبون. وهناك أكد له أحد الاطباء أن ابنه مات. ووقف يبكي وهو يفكر كيف سيفضي بالنبأ الى زوجته نيلي. وكانت نيلي مع غاريث لدى مغادرة المزرعة.

وبينما هو يقود سيارته نحو منزله في نيراندا ايست أوقفه صديق ورجاه ألا يعود على طريق تيمبون - نولاوار. ولكن لم يجد ماكس بداً من عبور تلك الطريق لأن الطرق الأخرى أتت عليها النار. وقبيل حلول الظلام مرّ بجانب سيارة سوّد الحريق هيكلها. وعلى جانب الطريق تحلّق الرقيب دون ويلسون وعدد من المساعدين حول جثة نيلي. ولم يتوقف ماكس، بل أسرع نحو مزرعته ليكون مع ابنته لويز ذات السنوات الثماني.

وأخبرها لاحقاً بشجاعة غاريث في اليوم الأخير من حياته. فحين أتى صوت النار من بعيد جال على دراجته حول المزرعة التي تبلغ مساحتها ٢٠٠ هكتار لتفقّد الماء في جميع الاحواض. وأعان أمه في سوق القطيع المؤلف من خمسين رأس بقر الى مرعى أكثر أمناً. وبعدما قرأ الحزن في وجه والده على أثر الحريق الذي أتى على جزء من المزرعة أدرك ان عليهم التخلي عن فكرة العطلة على الشاطيء.

قائمة النكبات

كانت السيدة ماري ادواردز (٦٩ عاما) متطوعة في الصليب الاحمر ممتلئة الجسم لا يفارقها الابتسام. وهي من أوائل الناس الذين ظهروا على مسرح الحرائق. واتجهت على الفور الى مركز الانقاذ الذي أقامته مصلحة الانعاش الاجتماعي في بناية عصرية في بلدة ماونت بيكر على بعد ٣١ كيلومتراً جنوب شرق أديلايد. وعلى رغم كونها رئيسة اقليمية لفروع الصليب الاحمر العشرين في مرتفعات أديلايد، فان السيدة ادواردز كانت على استعداد تام لتأدية أي عمل.

وجاءتها امرأة بستاني تقول ان زوجها نُقل الى المستشفى بعد اصابته بجروح بالغة مما اقعده عن العناية بالبستان الذي يملكانه. وقد حملتها احدى بناتها الى المركز. لكن الصدمة حالت بينها وبين الاجابة عن أسئلة السيدة ادواردز.

وكانت السيدة رأت اناساً كثيرين في أوضاع مماثلة بدءاً من العام ١٩٣٦. وفي معظم الحالات كانت الحرائق سبباً لمحنتهم. وطالما أخبرت السيدة ادواردز أولادها الثلاثة وأحفادها الخمسة أنها نشأت "وسط الحرائق" في مسقط رأسها غيبسلاند شرق ولاية فيكتوريا. وكان زوجها محللا كيميائياً في مناجم الذهب. وعاشا طويلا في منطقة تينانتس كريك الشمالية. وهناك ساعدت في ادارة مؤسسة لعمال المناجم المتقاعدين وقدمت خدمات جلى الى ضحايا ثلاثة اعصارات حلزونية قوية. وبعد اصابة زوجها بداء رئوي انتقلا الى مرتفعات أديلايد. ومات زوجها قبل ثلاث سنوات. وذاقت السيدة ادواردز طعم المأساة مباشرة.

وطالما استطاعت أن تأخذ المعلومات من احدى ضحايا الحرائق بوضعها يداً حانية على الضحية، أما المرأة التي كانت أمامها في المركز فلم يمكنها ان تجيب عن معظم أسئلة البطاقة الخاصة بالمنكوبين، وعددها ستة عشر سؤالاً.

والبطاقة مؤلفة من نسخ ثلاث، احداها صفراء يحتفظ بها الشخص المنكوب ويقدمها الى مصلحة الخدمة الاجتماعية للحصول على تعويضاته القانونية، كذلك للحصول على الغذاء من الصليب الاحمر وعلى الكساء من مؤسسة "جيش الخلاص". وهناك نسخة خضراء يحتفظ بها مركز المنكوبين المحلي ونسخة بيضاء تذهب الى سجلات الصليب الاحمر في أديلايد وملبورن. وكان هناك فريق من خمسين متطوعاً يتولى الاجابة عن المخابرات والاستعلامات الآتية من أوستراليا والعالم الخارجي.

وفي الخامسة والربع عصر اربعاء الرماد أعلن حاكم جنوب أوستراليا، السير دونالد دنستان، حال طوارىء. وفي مثل هذه الحال تتيح قوانين الولاية للمسؤولين الاشراف على جميع الممتلكات والمقتنيات واخلاء الناس ووقف حركة السير وقطع التيار الكهربائي. وقالت التقارير الواردة من فيكتوريا ان الكثير من المتطوعين انضمّ الى الاطفائيين لدى اشتداد الحريق.

وبين التاسعة ليلة أربعاء الرماد والثانية فجر اليوم التالي تلقت قيادة الشرطة في ملبورن ٥٧،٥٠٠ مخابرة هاتفية حول الحرائق. وانقطعت خطوط الهاتف في بعض المناطق لاشتداد الضغط عليها. لكن الخبرة علمت الشرطة ان تحيل الكثير من المخابرات على الصليب الاحمر الذي تلقى ٣٢،٥٠٠ مخابرة وسجل أسماء ٤٢ ألف ضحية. لكن قلة من الناس، بينها السيدة ادواردز التي كانت تحاول اخراج الاجوبة من صدر المرأة المنكوبة أمامها، أدركت مقدار الوقت والجهد اللازمَيْن لملء تلك القسائم.

البلدة الممزّقة

بالنسبة الى بيل بوب (٣٦ عاما) كانت محاولة الوصول الى لورن من أمرّ الخبرات التي عرفها طوال سنواته العشرين في فرقة انغليزيا للاطفال التي بات آمراً لها. وانطلق بوب في سيارته غرباً تتبعه ١٤ شاحنة أخرى على طريق غرب فيكتوريا الساحلية. وقد جمعت القافلة من أماكن عدة وجاءت بعض الشاحنات من مسافة ٦٥ كيلومتراً. وكان بينها شاحنات عصرية تزن الواحدة منها ١١،٥ طناً وتتسع لـ٢٧٠٠ ليتر من الماء.

لكن الانطلاق جاء متأخراً. وعلى بعد ثلاثة كيلومترات شرق لورن ووجه الاطفائيون بالنار التي قطعت عشرين كيلومتراً من دنيز مارش الى البحر مباشرة. واضطرّوا الى الوقوف على الطريق الساحلية، ولم يتمكنوا من فعل شيء سوى الاصغاء الى الراديو للاطلاع على سير العمليات التي ينفذها ثلاثون اطفائياً في لورن في محاولتهم انقاذ البلدة.

وفي السادسة والدقيقة العشرين أذاع أحد المسؤولين بياناً جاء فيه أن تبدلا سيطرأ على وجهة الريح الجنوبية نحو الساعة الثامنة. وهذا يعني أن السنة الحريق التي اندلعت من الشمال يمكن ان تتجه شرقاً، ولكن على جبهة أوسع تبلغ خمسة عشر كيلومتراً عرضاً.

وعقد الاطفائيون العزم على التوجه شرقاً على الطريق الساحلية نحو موغز كريك. وفي السادسة والدقيقة الخامسة والثلاثين تلقى بوب رسالة عاجلة من محطته: "من قاعدة انغليزيا الى آمر الفريق: منارة أوتواي تتوقع تبدلا في وجهة الريح عند السادسة والنصف مساء. ستكون الريح غربية، وسرعتها نحو مئة كيلومتر في الساعة."

وكانت منارة أوتواي على بعد ٥٧ كيلومتراً الى الجنوب الغربي. وهذا يعني ان التبدل في حركة الريح حصل قبل الوقت المتوقّع. ومع انطلاق القافلة اسوّدت السماء. ورأى بوب النار تسرع شرقاً على قمم التلال المجاورة ثم تنحدر نحو الطريق الساحلية.

وقبل بلوغ موغز كريك شاهد الاطفائيون النار وقد سبقتهم الى هناك. وقرّ رأيهم على متابعة الطريق الى فيرهافن، وهي بلدة أخرى تبعد كيلومتراً شرقاً. وبينما هم يتقدمون خاطب آمر احدى الفرق الرديفة جماعته قائلا: "لقد قررتُ الانسحاب من القافلة. واني أطلب منكم التوجه الى قاعدتنا في آريز اينلت."

وفي فيرهافن وجدت بقية القافلة أنها وصلت متأخرة أيضاً. وفيما بوب يعاين المنازل المحترقة جاءه صوت جاك ريتشاردسون آمر فرقة آريز اينلت عبر المذياع: "هناك حرائق تهدد منازل ريفر رود في منطقتنا، ونحن في حاجة الى مساعدتكم." وأتاه جواب بوب: "نحن في الطريق اليكم، اذ لا شيء يمكننا فعله في فيرهافن."

وسقطت كرات النار على آريز اينلت مع وصول القافلة وسط ريح بلغت سرعتها ١١٠ كيلومترات في الساعة وهي تحمل معها كتلا من العشب وأكواماً من الحصى والحجار ضربت الشاحنات فكسرت مراياها الخارجية ونوافذها. وضربت الريح المنازل، وأمكن بوب ان يرى أربعة سطوح تطير في الهواء. وعلى بعد ثلاثين متراً أمامه صدمت كتلة حديد مصباحاً على الطريق ثم التفت حوله كأنها ورقة. والواقع ان الحريق الذي أصاب آريز اينلت خربها. وهوى ١٥٠ منزلا من أصل منازلها الثلاثمئة والسبعين بفعل النار والريح.

واذاع بوب الرسالة الآتية: "من آمر فريق انغليزيا الى القاعدة: يستحيل الوقوف في أي مكان في آريز اينلت. وعلى جميع السيارات العودة الى انغليزيا." وما أن انطلق بوب حتى شعر ان سيارته تطير. وحاول السيطرة عليها طوال ٢٠٠ متر من الطريق. وبعد قليل توقفت. فنزل منها لمساعدة رفقائه في اخماد بعض الحرائق الجانبية.

في انغليزيا ظنّ آلان مكفرلين،

وهو معماري قوي البنية في السادسة والثلاثين ويبلغ طوله ١٩٣ سنتيمتراً، أنه سوّى خلافاً عائلياً صغيراً. وكان ابنه غرانت (١٣ عاماً) رفض أن يذهب على درّاجته الخفيفة الى ملعب الغولف وراء المنزل ليتفقد وضع الحريق. وأعان مكفرلين زوجته وندي وابنه ستيوارت (١٥ عاماً) وابنته مليسا (١٠ اعوام) على جمع كل ما أمكنهم الوقوع عليه من أشياء ثمينة قبل مغادرة المنزل. وكانت الساعة السابعة والدقيقة العشرين مساء.

وبعد دقائق سألت وندي زوجها: "أين غرانت؟" وأسرع مكفرلين خارجاً حيث وجد الدراجة مكانها، لكنه لم يجد ابنه. وناداه بأعلى صوته لكنه لم يسمع جواباً. فدخل وقال لزوجته: "اسمعي، ليس ثمة ما يدعو الى القلق. خذي ستيوارت ومليسا الى الشاطىء، وسأتبعكم مع غرانت." إلا أن وندي رفضت الذهاب من غير أن يكون غرانت معها. وعاد مكفرلين يلحّ: "إنّ شخصاً واحداً يكفي للعثور على غرانت."

في تلك الاثناء مرّت سيارة شرطة وهي تذيع النداء الآتي: "على كل شخص أن يُخلي هذه المنطقة... النار تزحف نحو انغليزيا بسرعة ستين كيلومتراً في الساعة."

وتوجهت وندي وولداها على مضض الى سيارة العائلة. وقفز مكفرلين الى شاحنته الصغيرة. وقبل أن يقطع مسافة كيلومتر واحد أوقفه حاجز على الطريق. وقال للشرطي انه يبحث عن ابنه. فواكبته سيارة شرطة الى ملعب الغولف وهي تذيع الآتي: "أين هو غرانت مكفرلين؟ أين هو غرانت مكفرلين؟" وبعد خمس دقائق قال المسؤول للأب: "اعذرنا، إذ عليك أن تجد ابنك بوسائلك الخاصّة. فهناك الكثير من المواطنين الذين يجب تنبيههم الى إخلاء منازلهم."

وأسرع مكفرلين الى منزله، فلم يعثر على أثر لابنه. وأخذ طريقاً أخرى الى ملعب الغولف، وهناك صادف حاجزاً آخر. وما أن قال له الشرطي: "لا يمكنك التقدم، فالنار زاحفة على التلة" حتى اندلعت النار في قمة التلة كأمواج بحر متلاطمة. وعاد من جديد الى المنزل وهو يحسّ تشنجاً في معدته. ورأى نوراً في الداخل هذه المرّة حيث كان غرانت يجهز عدّة صيد السمك. وتمالك الأب انفعالاته وقال: "سنترك البيت في هذه اللحظة." وجمع ما أمكنه الوقوع عليه من أغطية وأكياس نوم ودفع ولده الى الشاحنة.

وبينما هما متجهان نحو الشاطىء شاهدا السيارات مصطفة عند ضفة النهر وفي كل خلاء ممكن. وظل مكفرلين دقائق حتى وجد سائر أفراد عائلته وسط المرأب العمومي الكبير الذي تجمهر فيه أكثر من خمسمئة شخص. وسرعان ما زال فرح اللقاء حين نظروا وجهة انغليزيا فلم يروا إلا ألسنة النار. وقالت وندي لزوجها: "اذا حدث شيء للمنزل، فسنمكث عند والديّ في ملبورن، ولن أفكر مطلقاً في العودة."

وبعد قليل باشر رجال الشرطة إبعاد الناس عن المرأب خوفاً من أن يمتدّ الحريق الى السيارات، وسألوهم أن

يقتربوا ما أمكن من الشاطىء، وذهل مكفرلين وخارت قواه، فهو عاش في انغليزيا طوال السنوات الاربع عشرة الاخيرة، وبنى بيديه نحو مئة من منازلها، وها هي تلك المنازل، بما فيها منزله هو، مهدّدة بالحريق، وهو أحبّ انغليزيا كثيراً ولم يصدّق أن الحريق يمكن أن يأتي عليها عام ١٩٨٣.

وازداد عويل الريح وباتت تنذر بأسوأ العواقب، وسكبت الرمل على جميع الواقفين في العراء، وحين رفع مكفرلين وأفراد عائلته الاغطية الى أجسادهم وهم على الشاطىء انصبّ الرمل من كل جانب على عيونهم وأنوفهم وآذانهم وشعرهم، ولم يستطيعوا التنفس إلا بعد كمّ أفواههم بالاغطية.

وحين نهض مكفرلين بعد ساعة لنفض الرمل عنه لم يتبين أول الأمر أفراد عائلته، ثم رآهم تحت تلال الرمل الذي ذرته الريح، وأيقظ وندي وأخبرها أنه ذاهب لتفقد المنزل.

وراح ينظر مشدوهاً الى المنازل المحترقة في طريقه، وعرف لاحقاً أن النار أتت على ١٤٢ منزلا من أصل ١٦٠٠ منزل في انغليزيا، ولما دخلت سيارته الشارع حيث يقوم منزله لم يجد أثراً للخراب، وغمره الفرح حين رأى بيته كما تركه، وظلّ ساعتين يرشّ الماء عليه وعلى بيوت الجيران.

لا مهرب

في الثامنة والدقيقة الخمسين مساء أُطفئت جميع الأنوار في قاعة الطعام داخل فندق غيزبورن الذي يبعد خمسين كيلومتراً شمال غرب ملبورن، وكان أعضاء الهيئة الادارية لنادي "الليونز"، وعددهم ١٤ شخصاً، اجتمعوا هناك مساء تلك الاربعاء للنظر في طريقة توزيع ١١ ألف دولار من المساعدات على ضحايا حريق وقع في بلدة ماسيدون القريبة قبل اسبوعين، وما أن بلغوا تلك النقطة في حديثهم حتى انطفأت الأنوار.

وانتاب القلق أمين سرّ النادي نيفيل فري (٤٧ عاماً) الذي يلاحق الشؤون القانونية لضحايا أحداث الطرق في مستشفيات ملبورن، وكان قلقه مسوّغاً، إذ لاحظ قوّة الريح وهو يقود سيارته من المدينة ذلك العصر، ولا بدّ من أن يكون انقطاع التيار نشأ عن سقوط بعض أعمدة الكهرباء، واستؤنف الحديث في ضوء الشموع، وبعد دقائق دخل اطفائي وقال: "إذا كان أحدكم يعيش في نيو غيزبورن أو ماسيدون، فنرجوه أن يذهب الى بيته حالا، ذلك بأن الحريق وصل الى طريق كالدر الرئيسية."

وفُضّ الاجتماع على عجل، وبينما كان فري يقود سيارته في اتجاه المنزل لم يصدّق ما سمع، وكانت زوجته دالسي أخبرته عن حريق يتجه جنوباً من ايست ترنتهام، لكن ذلك كان على بعد ١٤ كيلومتراً غرباً، ولا يمكن أن تكون النار عبرت الطريق.

وأخذ فري جهاز الارسال وقال: "هنا الوحدة ٣٢٣، ما هي حال الحريق في جوار ماسيدون؟" وجاءه جواب سائق شاحنة يتجه نحو الشمال: "منشرة الخشب تحترق، وبعض منازل

ماسيدون بات ركاماً." وسأله فري: "أيمكنك، والحال هذه، عبور طريق كالدر الرئيسية؟" فقال سائق الشاحنة: "في إمكانك أن تحاول يا صاح، وإني أتمنى لك حظاً سعيداً وأطلب أن يكون كل شيء على أحسن حال."

وإذ ذاك زاد فري سرعة سيارته وهو يشكر الله لأن أولاده الثلاثة في ملبورن. وصادف حاجزاً وأوقف سيارته وراء أربع سيارات أخرى. وهرع نحو شرطي وقال له: "زوجتي في ماسيدون، وعليّ متابعة طريقي فوراً." وأجابه الشرطي: "ليس في امكاني أن أردعك عن ذلك. ولكن كن حذراً الى أقصى الحدود."

واكتست السماء وهجاً زهرياً. وانطلق فري بسرعة مئة كيلومتر في الساعة. لكن حاجزاً آخر أوقفه وقد أقامه اطفائيون. وقال له آمر الفريق: "آسف إذ لا يمكنني السماح لك بالمرور." ورجاه فري: "لكنّ زوجتي في كوركس رود في ماسيدون." وهزّ الآمر رأسه. وفي تلك اللحظة تقدّم عدد من الاطفائيين ومعهم شرطي يعرفه فري واسمه هنري ستيفلر. إلا أنه أصرّ على أن يطيع فري الاوامر.

وحاول فري الارتفاع بقامته البالغة ١٦٠ سنتيمتراً نحو ستيفلر البالغ ١٩٣ سنتيمتراً وصاح فيه: "اذا لم تسمح لي بمتابعة طريقي يا هنري، فاني... سأرميك أرضاً." واعترضه اطفائي لتهدئة روعه، لكنه كان مضطرباً كثيراً.

وأخيراً قال له آمر فريق الاطفاء: "سأرافقك الى كوركس رود. ولكن إذا وجدنا الوضع سيئاً، فسنعود الى هنا. وإذا استطعتَ بلوغ المنزل، فاحمل زوجتك واخرجا حالا."

فاجعة ماسيدون

عندما وصل فري الى منزله رأى دالسي تسرع نحو سيارتها وفي يدها صندوق يحوي وثائق تأمين كانت نسيته حين خرجت للمرة الاولى. وكان معها في السيارة كلب الحراسة الالماني شيبا وكنار داخل قفصه و١٦ مجموعة من الصور الفوتوغرافية. ولما وصل فري برز الهرّ السيامي ميتزو فحمله ووضعه في السيارة. إلا أن سوكس، وهو هرّ ابنتهما، ظلّ مفقوداً.

وسأل فري زوجته: "كيف حالك؟" وقبل أن تجيب أضاف: "كيف حال باميلا وكلير؟" وفي تلك اللحظة فتحت جارتهما باميلا باب منزلها الخلفي وظهرت في رداء النوم. وصاح فري: "النار تزحف نحونا وعلينا الخروج من هنا سريعاً." وهرعت باميلا الى الداخل وأيقظت ابنتها كلير من النوم. ثم أسرعت الاثنتان الى سيارة فري. واتفق هذا مع دالسي على أن تتبعه الى فندق ماسيدون العائلي، وهو نقطة التلاقي التي حدّدها آمرو فرق الاطفاء.

وتذكر فري وهو على الطريق كيف كان وزوجته يتندّران مع أولادهما: "إذا شبّ حريق في ماسيدون وأضاع أحدنا الآخر، فاللقاء يكون في حانة الفندق." ولكن ها هي السخرية تستحيل حقيقة. وأوقف سيارته وراء الفندق، وشقّ طريقه مع الجارة

وابنتها وسط الريح القوية الى المدخل.

أما النار التي كانت تزحف نحو ماسيدون من الغرب فقويت حتى غدت عاصفة هوجاء ملتهبة، والتهمت الاوكسيجين في طريقها وحولت الهواء فرناً، وانطلقت منها أعاصير حارقة بسرعة ٢٤٠ كيلومتراً في الساعة قضت في طريقها على الاوراق والاماليد والاغصان وقذفتها مسافة ١٥٠٠ متر في الهواء، فيما ارتفع الدخان ٦٠٠٠ متر، وهوت الطيور محترقة من عليائها.

وكان معظم أهالي ماسيدون أخلوا منازلهم. لكن الاقلية التي تخلفت والتي صدتها زوابع النار شقت طريقها الى فندق ماسيدون العائلي المؤلف من طبقة واحدة، وهو من المباني القليلة التي صمدت وسط الحريق في مركز البلدة التجاري. وكان في الداخل ٢٥٠ شخصاً، وإذا قضى عليهم الحريق، فستكون هذه أكبر مأساة بشرية في تاريخ أوستراليا.

وكان النور الوحيد منبعثاً من مصباح في الحانة يعمل على الغاز، وبقي نيفيل ودالسي وقتاً قبل أن يعرفا أن قاعات الطعام والشراب تغص بمئتين وخمسين شخصاً مع كلابهم وقططهم وطيورهم.

إلا أن هدوءاً غريباً هيمن على المكان الذي غابت عنه الفوضى وحل النظام. وقد حرص على ذلك مدير المقصف، وهو بريان نيش القوي البنية والبالغ الثانية والثلاثين. وأوقف رجلا قوياً على كل من مداخل الفندق العشرة ليصد الريح العنيفة باتكائه على الباب. ووضعت على كل عتبة منشفة مبللة بالماء، وطلب من اثنين أن يراقبا الجمر الذي يحترق من غير لهب والذي يمكن أن يكون تسرب من الفتحات. وأنزلت جميع الستائر الى الارض خوفاً من احتراقها.

وفي الداخل عمدت والدة نيش وصديقة لها الى تنظيم الاولاد في فرق، وراح الجميع ينشدون الاغنيات، وإن في غير أوانها، مثل "ليلة عيد" و"سنة حلوة". وراحت إحدى النادلات توزع المرطبات مجاناً على الناس حتى فرغت الزجاجات جميعاً. وطفق صبي في الخامسة عشرة يحمل قطع الثلج الى الناس ليبردوا بها وجوههم.

وكان نيفيل ودالسي فري من الذين وصلوا متأخرين. لكنهما وجدا مكاناً في آخر قاعة الاحتفالات. ولم تتذكر دالسي إلا بعد حين أنها رأت ذلك المكان من قبل. وحملتها الاصوات التي انطلقت وسط الظلام أربعين سنة الى الوراء. وهي ولدت في بلدة كوفنتري الانكليزية في سبتمبر (أيلول) ١٩٤٠ قبل سبعة أشهر من انهيار معظم المدينة تحت القنابل خلال الحرب العالمية الثانية. وقد أمضت ليالي كثيرة في حداثتها داخل أحد الملاجىء مع امها واختين تكبرانها سناً. ولم يتبدل شيء عليها في تلك الغرفة. وأيقنت أن اهتمام الناس بعضهم ببعض هو اليوم كما كان سابقاً، وأن الجميع يتوقعون كارثة.

ووقف نيفيل بجانبها وهو يدري أنّ عليه أن يفعل شيئاً كي يطمئن الناس. وسمع في الظلام حديث امرأة لصديقتها عن منزلها الذي فقدته: "يخيل اليّ أني سأبدأ كل شيء من جديد. لكني لا أعرف كيف ستتدبر جارتي أمرها." وعندئذ عصفت النار خارجاً وأنارت المكان، فتبين فري أن تلك المرأة في مطلع سبعيناتها.

وفجأة اندلعت النار في إحدى بنايات شارع فيكتوريا على الجانب الآخر من الطريق، وحملت الريح بعض شظايا النار الى الفندق عبر باب من زجاج. وهبّ بعضهم يطفىء الجمر بالأقدام. وأُلقيت المناشف المبللة على العتبة أمام الباب.

وبلغت حرارة نوافذ الفندق الأمامية المطلة على شارع سميث درجة لا تطاق. وأبعد الناس عنها خوفاً من تكسُّر الزجاج. وتسرّب الدخان من المنافذ، فانبطح الناس أرضاً للحصول على المزيد من الاوكسيجين ولفوا رؤوسهم بالمناشف. وجلس فري وشدّ يد زوجته وقال: "إذا اقتحم الحريق هذا المكان، فلا تحاولي الهرب، إذ لا مكان يمكن الهروب إليه."

على حافة الكارثة

في التاسعة والنصف من ليلة أربعاء الرماد كان خارج فندق ماسيدون العائلي اسوأ مكان يمكن ان تطأه قدم انسان في اوستراليا. غير ان غاي بيرس كانت هناك، وهي امرأة قصيرة قوية ذات عينين زرقاوين هادئتين. وكانت في الثلاثين وأما لولدين، وقد قررت قبل زمن طويل ألا تتحكم المخاوف غير المنطقية بحياتها. وانضمت قبل اربع سنوات الى فريق ماسيدون الاطفائي.

وكان زوجها جو، وهو سائق شاحنة في الثامنة والثلاثين، متطوعاً في الفريق نفسه. وخرج عصر ذلك اليوم ليساهم في اطفاء حريق. وكانت شاحنة ماسيدون الوحيدة لمكافحة الحرائق في مكان آخر مع طاقمها. وأدركت غاي بيرس ان عليها العمل بمفردها في ماسيدون.

ولكن ما هو الا قليل حتى ظهر متطوعون آخرون أمام الفندق وعددهم يزيد على عشرة. ووزعت غاي المسؤوليات عليهم. وكان كل منهم يحمل حقيبة جلدية ملؤها الماء ومنشفة مبللة لاطفاء جُذى النار. إلا ان الحماية الرئيسية ستؤمَّن من أنبوبي ماء في شارع سميث غرب الفندق.

ووصل الاطفائيون المواسير بالانبوبين، وبكل فتحة ماسورة وصلوا خرطوماً بطول ثلاثين متراً وعرض ستة سنتيمترات. وسلمت غاي امر كل خرطوم الى رجلين، وأخذت مكانها عند الخرطوم الأقرب الى مدخل الفندق حيث يتلاقى شارعا سميث وفيكتوريا. ووقف وراءها الاطفائي جيم كيلي. وأُطلق الخرطومان الرئيسيان في اتجاه الفندق والمباني المجاورة.

ومع هبوب الريح بسرعة ٩٥ كيلومتراً في الساعة امتدت النار في التاسعة والدقيقة الأربعين ليلا من الاعشاب الجافة على خط القطار الى وسط البلدة كما من فتيل واحد طويل.



اطفائـي متطـوع يكافـح الحـريـق فـي فيكتوريا.

وسرعان ما احترقت احدى مباني محطة السكة الحديد وانطلقت حممها نحو دائرة الاطفاء الخالية المبنية بألواح الخشب. وهبت النار فيها وفي مستودع مجاور للورق. واصطخب الهواء بأوراق الشجر والحمم الملتهبة. وامتد الحريق الى سراويل بعض الاطفائيين. وطلبت غاري من احد الزملاء ان ينضحها بالماء هي وجيم كيلي.

وظل مدير المقصف بريان ناش يرتقي سلماً بحذر وسط الريح الهوجاء ويفرغ الدلاء على سطح الفندق بعد حمله الماء من البركة التي يلعب فيها أولاده. ولما أوشكت بركة التجذيف تلك على النضوب، وهي تبلغ مترين ونصف متر عرضاً، رفعتها الريح الى الهواء وطرحتها بعيداً كما لو كانت كيساً من ورق.

وفجأة اشتعلت النار في مكتب البريد الواقع قبالة الفندق مباشرة في شارع فيكتوريا. واصاخت غاي بيرس حسناً علها تسمع صوت استغاثة. وكانت اليانور غراي، صديقتها وزوجة مدير مكتب البريد، اخذت لها ولديها نيكولاس (١٩ اعوام) وتانيا (٧ اعوام) في وقت باكر من ذلك العصر، ولا بد من أن يكونا وجدا طريقهما نحو الفندق أسوة بالآخرين.

ولم تسمع غاي إلا صوت النار تلتهم الحجر والقرميد والخشب والزجاج. ثم علا صفير تلاه ارتفاع النار المتقدة ثلاثين متراً في الهواء. وكان ذلك ناتجاً من اصطدام النار بمستودع لوقود التدفئة يحوي ٤٥٠ ليتراً من المحروقات. كما هبت النار في قوارير الغاز التي انفجرت وارتفعت حممها عالياً في سماء

الليل، وعلى مقربة من مكتب البريد انفجر دكان الجزار كما لو كان محشواً قنابل.

وأحست غاي بيرس المآ في ذراعيها من فرط الشدّ على خرطوم الماء، ورأت النار تندفع نحو بناء آخر في شارع فيكتوريا يقوم على جانب الفندق، وراحت تتساءل كيف يمكن اخلاء الفندق اذا هددته النار، وما الذي يمكن فعله اذا نفد الماء بفعل تكسُّر الأنابيب.

وحصل دوي عنيف طرد تلك الأفكار من ذهنها، وكان آتياً من اصطدام سيارة وسط الدخان الكثيف بصف سيارات موقوفة أمام الفندق، وخرج راكبا السيارة منها وأسرعا داخلا، لكن سيارتهما كانت بعجت أربع سيارات أمامها وفجرت خزانات الوقود فيها، وتدفق البنزين في القناة الجانبية، ورأت غاي، لهولها، النار تهب في الوقود ثم تطير خزانات الوقود عالياً واحداً بعد الآخر.

وفيما هي تنضح هياكل السيارات بالماء سمعت زميلا يشهق خوفاً، وأخبرها ان النار زاحفة من الجنوب عبر شارع سميث، فنظرت لترى المنازل تلتقط النار واحداً واحداً، ومن أجل صدّ زحف النار سلطت الماء على أقرب المنازل الى الفندق، وفي تلك الأثناء سقط سطح محطة الاطفاء محدثاً صوتاً هائلا.

وأتى الارهاق على جسد غاي كله، وعشى الدخان والرمل بصرها، ومرّ بعض وقت قبل ان تدرك ان الخطر خفّ قليلا، وحين عرفت ذلك، وكانت الساعة ١١،١٥ ليلا، وجدت أنه لم يبقَ شيء كثير ليحترق في جوار فندق ماسيدون العائلي.

وإذ ذاك شقت طريقها الى داخل الفندق وقد وسخها الدخان وبللها الماء واحمرّت عيناها حتى كادتا ان تحترقا، وسمعت صوتاً يقول: "يا غاي، معي من يودّ مشاهدتك." وانحنت تحت الطاولة لتبصر ولديها تيانا ونيكولاس يحدّقان اليها بعيونهما الزرقاء.

وخرج نيفيل فري ليتفقّد سيارتيه خلف الفندق، وهاله ان يرى الخراب حوله وهو ينظر حيث كانت البيوت فلا يجد سوى المداخن فوق الركام المدخن بلا لهب، وتبين لاحقاً ان النار، التي قدّر العلماء حرارتها بألف درجة مئوية، أتت على ٢٣٠ منزلا من منازل ماسيدون، وعددها ٤٩٠ منزلا.

وفي وهج النار المنحسرة تبين فري ملامح رجل عجوز جالس تحت شجرة وهو يربت رأسي فرسين بهدوء، ولم يصدّق فري عينيه، ويبدو ان الرجل بقي مكانه وسط الحرائق التي حصلت حوله، ولكن لماذا لم يأت الى الفندق كالآخرين؟

حمل فري ذلك السؤال وذهب به نحو العجوز الذي قال: "لقد شئتُ ان أبقى مع هذين الصديقين."

صراع من أجل الحياة

توجهت سيارة الاسعاف البيضاء شمالا من طريق الامراء الى ملبورن بسرعة ٨٠ كيلومتراً في الساعة، وكان سائقها كينغسلي داون (٢٤ عاماً)

يعرف تلك الطريق بتفاصيلها. وفي الجزء الخلفي من السيارة، وهو غير منفصل عن المقعد الأمامي، أبقى زميله ليندسي روبنسون (٢٧ عاما) عينيه مفتوحتين على المريض الذي ينقلانه الى المستشفى. وينبغي في حال ضحايا الحروق ان يحرص المرء على ألا يحدث أي ارتجاج او اصطدام من شأنهما انقاص المزيد من السوائل في جسد المصاب.

وكان المريض كيفين غريغ عانى عذاباً شديداً. وبعد نقله الى المستشفى في تيمبون مع الفتى غاريث أندرسون الذي قضى وهو في السيارة، سلخ الاطباء ما امكنهم من ثيابه المحترقة، ثم نظفوا جروحه وطلوها بالمساحيق الضرورية وعلقوا له حقنة وريدية امدّوه عبرها بالمورفين المسكن. واستغرقت الطريق الى مستشفى كولاك الذي يبعد ٥٥ كيلومتراً تسعين دقيقة وسط سحب الدخان. وهناك اعطاه الأطباء المزيد من المورفين، لكنهم وجدوا ان حاله تستوجب نقله الى مستشفى ملبورن الملكي.

وانطلق روبنسون وداون في العاشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين ليلا. وتوقفا مرتين عمد خلالهما روبنسون الى ملء الحقنة بمصل الدم (بلازما) بعد فحصها. كما مسح وجه غريغ باسفنجة مبللة ماء بارداً ورطب شفتيه بالليمون. وكانت ذراع غريغ اليمنى انتفخت حتى غدت ضعفي حجمها الطبيعي. وظهرت القروح على يديه وذراعيه وصدره وظهره. وحاول الشابان ان يخففا عنه ما أمكن.

ولما دخلا المدينة وأرغمتهما حركة السير على تخفيف السرعة قال داون: "لا تقلق يا كيفين حين تسمع صفارة الخطر عما قليل." وأجابه غريغ: "أرجوك الا تفعل ذلك من أجلي." إلا ان داون لم يمتثل له، بل أطلق الصفارة وشق طريقه. وفي الساعة ١١،٣٣ ليلا وصلت سيارة الاسعاف الى مدخل المستشفى في ملبورن. وما ان رفع غريغ على الحمالة وسط حرّ الليل حتى غاب عن الوعي.

مفقودان

في مبنى فريق اطفاء فيكتوريا نظر بوب بوتس الى ساعة يده، فاذا بالوقت يقترب من منتصف الليل. وكانت غرفة العمليات التي يبلغ طولها تسعة امتار وعرضها عشرة مليئة بالخرائط التي تفصّل الحرائق الاثني عشر الرئيسية. وكان رئيس المركز لورنس نيوويل ومعاونوه يأتون كل ساعتين الى بوتس ليسألوه عما استجد في مختلف المناطق المنكوبة وعن فرق الاطفاء الخمسمئة.

وكان بوتس وزملاؤه صنفوا حريق أربعاء الرماد في عداد الحرائق التي "تجاوزت كل حد معقول." فالحرائق في بعض الشوارع اتت على ثلاثة منازل متلاصقة ثم قفزت عن الرابع لتحرق المنزلين الخامس والسادس. وفي بعض المناطق احترقت المنازل المبنية بالحجر ولم تمَسّ المنازل الخشبية.

وأدرك آمرو فرق الاطفاء ان ذلك النوع من الحرائق لا يخمد الا بالتهام

نفسه او بسقوط خمسة سنتيمترات من المطر على الأقل. والواقع ان الامطار التي هطلت في جنوب اوستراليا أطفأت جميع الحرائق الكبيرة في أول الليل. لكن المطر الفعال لا يأتي إلا بعد تبدل في الريح، كذلك الذي حصل في فيكتوريا في وقت سابق ذلك اليوم. الا ان التبدل الذي طرأ على الريح في ملبورن ملأ الجوّ بالدخان ورائحة الاوكاليبتوس المحترق في الثامنة والنصف من مساء ذلك اليوم. وفي مركز الاطفاء خلعت الريح احدى النوافذ وملأت المبنى المبرّد بالدخان الخانق.

إلا أن صدمة أقوى كثيراً حصلت بعد ساعتين، حين ورد تقرير مفاده ان شاحنتي اطفاء فقدتا في أخدود في تلال داندينونغ نحو الساعة التاسعة ليلاً. ومنذ ذلك الحين لم يستطع احد الاتصال بتينك الشاحنتين اللتين ظُنّ أنهما تحملان أحد عشر اطفائياً. وران صمت مطبق على مركز الاطفاء.

وذكر بوتس نفسه ان الكربون في الهواء لا بد من ان يكون عطل اجهزة الارسال، وربما امتد أثره الى الاجهزة داخل الشاحنتين المفقودتين.

أما كيفين غريغ فقد أصعد الى الطبقة السادسة في مستشفى ملبورن الملكي. وهناك قرر المسؤولون نقله الى غرفة ضحايا الحريق التي تتسع لثمانية اسرة. وبقوا ساعتين يحاولون نزع ما تبقى من ثيابه الملتصقة بجلده. وبعد ذلك غسلوا الجروح وطلوها بمطهر ديازين الكبريت الأبيض.

وفي الثانية فجراً أتى الجرّاح جون آلسوب بردائه الأخضر المعقّم ساتراً وجهه بقناع. والجرّاح رجل طويل اشقر في السابعة والثلاثين وهو رئيس قسم الحروق في المستشفى. وحزّ جميع اصابع يد غريغ اليمنى بمبضعه، كما شقّ ذراعه اليمنى في بضعة مواضع. والجلد المسفوع والمحروق من شأنه عرقلة الدورة الدموية وتسبيب الأكال المميت (الغنغرينا) ما لم تُفتَح فيه المنافذ.

وفيما هو يشخص حال مريضه لاحقاً في غرفة العناية الفائقة في الطبقة الثانية، عرف آلسوب أن الخطوة الرئيسية التالية تقتضي إمداده بالسوائل، ثم اعطاءه الأغذية بالطرق الطبية. غير ان كل شيء قائم على ارادة المريض في الحياة. وكان آلسوب يدري تماماً ان المريض الذي يخضع لزرع الجلد باستمرار يبلغ نقطة لا يتحمل بعدها المزيد، بل يقول لطبيبه: "أرجوك ان تدعني أموت." وكان الحريق أتى على ٥٣ في المئة من جلد غريغ ولم يترك له سوى ٣٠ في المئة من احتمالات الحياة.

أما الاطفائيون في مرتفعات داندينونغ فقد طافوا وسط ركام بلدة كوكاتو بحثاً عن الأحياء. وكان ١٢٠ مواطناً من الذين لم يستطيعوا الهرب في الوقت المناسب توجهوا الى حديقة الأطفال، وهي تحتل مبنى عصرياً دائرياً تملأه النوافذ من كل ناحية. واستطاعوا من هناك ان يراقبوا الجحيم حولهم. وقد حصدت النار دار البلدية مع كنيسة ومطعمين

وثلاثة محلات و٣٣٠ منزلا من أصل ٦٠٠ منزل في البلدة.

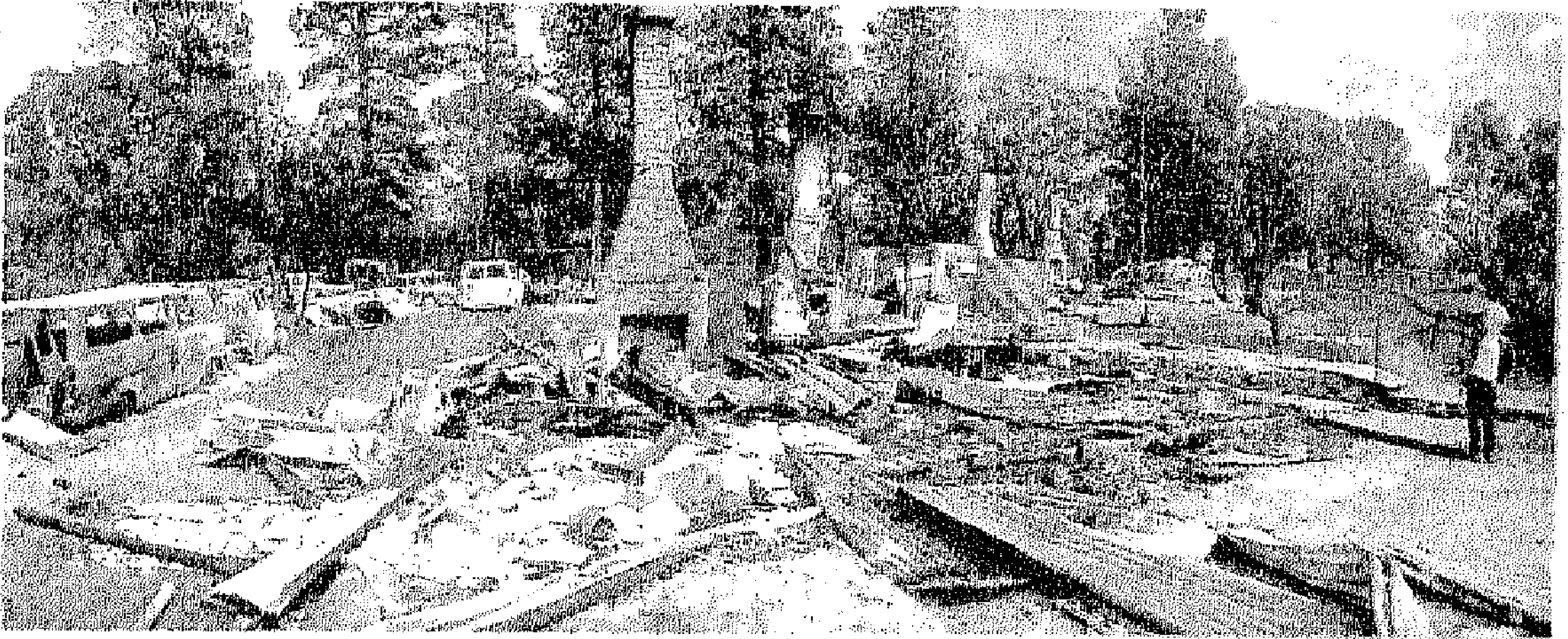
وفي الساعات الاولى من ١٧ فبراير (شباط) كان معظم الرجال والنساء والأطفال المئة والعشرين الذين لاذوا بحديقة الأطفال يقتعدون أرضها المفروشة بالسجاد. والعديد منهم لم يبقَ له منزل يأوي اليه. وكانت العائلات تفرّقت لحظة الهرب العشوائي. لكنهم على رغم الارهاق والقلق والنعاس ابتهجوا لكونهم أحياء. وكانت النار في الخارج تكسر شجرة أو عمود كهرباء أو سياج حديقة.

Ron Ryan/Photographic Agency of Australia

حوضا سباحة وسط دمار كوكاتو.

مأساة وسط التلال

شقّ المفتش لين تايمويل (٥٣ عاماً) طريقه صعوداً نحو بيكونزنفيلد العليا وهو يدوس تلال الغبار بحذائه الجلدي الثقيل. والواقع ان الحريق حوّل الطين والتراب غباراً أسود في نعومة مسحوق الوجه وبارتفاع سبعة سنتيمترات. وأدرك تايمويل، وهو شخص كئيب العينين عميق التفكير، انه يسير في اتجاه العاصفة النارية.



Ron Ryan/Photographic Agency of Australia

أطلال تركتها نار ماسيدون.

كانت الساعة السابعة والنصف صباحاً، وقد وعد الطقس بصباح رائع، ولم يصدّق تايمويل ما حدث في تلك المرتفعات حيث امضى معظم ايامه السابقة، وطالما خيم بين التلال مع ابنيه خلال السنوات الخمس عشرة التي امضاها قائداً للحركة الكشفية المحلية، ولكن ها هي الالوان الخضراء والزرقاء الزاهية تختفي من

وكان رجال الاطفاء قبل ساعة شاهدوا شاحنتي اطفاء تسقطان في أخدود قريب من غير ان يخرج احد من طاقمهما حياً، وكمدير معاون لمختبر شرطة فيكتوريا القضائي في ملبورن، ارتأى تايمويل ان من واجبه اعلام مركز تسجيل الضحايا بالأمر.

وللحال تبع تايمويل ستة من معاونيه، ووقفوا جميعاً ينظرون



ماشية نافقة قرب تيمبون.

تلك التلال، وتذكر وهو ينظر حوله الرسوم التي التقطت بالأسود والأبيض خلال الحرب العالمية الاولى. ولم يرَ سوى بقع جرداء من الارض سوّدها الرماد وتناثرت فوقها هياكل الاشجار، وقد فلعت بعض الاشجار نصفين وارتفع الدخان من الجذوع السوداء، وفضلا عن السواد والبياض لم يظهر ايّ لون آخر إلا مع سقوط غصن شجرة محترق.

امامهم بأسى، وهي المرة الاولى تخسر اوستراليا فريقي اطفاء كاملين، بينهما امرأة، وهي الاطفائية الاوسترالية الاولى التي تقضي اثناء تأدية واجبها.

وعندما رأى تايمويل الشاحنتين وقد تصاعد الدخان من عجلاتهما، ثم رأى الجثث المتراصة بالقرب منهما، أدرك ان الموت اتى على اولئك الشهداء سريعاً، وكان اطفائيان زحفا

تحت احدى الشاحنتين، لكن الموت لم يخطئهما. ولم يكن سهلا اخراجهما وقد احترقت أُطُر العجلات وبقيت هياكلها، الأمر الذي خفض مستوى الشاحنة. واخيراً هبّ عدد من المتطوعين مع جرافات ورفعوا الشاحنة من الأمام والوراء على مهل فيما سحب الآخرون الجثتين. وراح فريق تايمويل يلتقط الصور ويقيس المسافات ويجمع المقتنيات الشخصية التي خلفها الضحايا، مثل ساعات اليد والخواتم والمفاتيح، ويضع كل مجموعة في كيس نايلون الى جانب صاحبه. ولما انهوا عملهم وجدوا ان عدد القتلى ١٢ شخصاً وليس ١١ شخصاً كما قيل لهم. وتبين لهم من بقايا ساعة يد انها تعود الى كيث بسبريدج (٣٥ عاما) الذي قرّر التطوع مع الاطفائيين مساء أربعاء الرماد.

وفي تلك الاثناء عاد كولن كوك الى كوكاتو بعد انهاء العمل مع فريق الاطفاء المحلي. وشاهد وزوجته جوي مشهداً يفوق التصديق. فقد ذابت مصابيح الشارع حتى غدت كالجليد المدلى. ولم يبق من منزلهما الخشبي سوى حديد الارضية والسقف. وفي الاسطبل الذي اخلياه من الجياد تقلصت أوعية الماء من ٧٥ الى ٣٠ سنتيمتراً، لكن الماء بقي فيها.

وكانت أكياس الخيش التي تحمل الشوفان رمدت فيما بقي الشوفان محافظاً على هيئته. ولكن ما ان تلمسه اليد حتى يتحوّل غباراً. وفي ما تبقى من خزانة لحفظ الأوراق وجدت جوي وثائق أمكنها قراءة كل كلمة منها. لكنّ لمس تلك الاوراق كان كافياً لجعلها رماداً هي الاخرى. وغدت مسامير الفولاذ في طراوة العجين. وذاب فرن المطبخ ولم يبق اثر للثلاجة التي تسع ٤٠٠ ليتر.

وراحت جوي تنقب الركام الأسود علها تعثر على اثر من الماضي. ووقعت يدها على سلسلة منقّرة تدلى منها وساما ن حصلت عليهما هي وكولين لفوزهما في مباراة كبرى لركوب الخيل جرت في الثالث من سبتمبر (أيلول) ١٩٧٨، يوم تعارفهما. الا ان الحرّ اذاب الوسامين وجعلهما واحداً. وفرحت جداً لوقوعها على ذلك الأثر الجميل.

وفي ماسيدون لم يجد نيفيل ودالسي فري شيئاً يحتفظان به. ولم يقوَ اي منهما على التنقيب في بقايا بيتهما المسوّدة. وحين همّا بالانصراف سمعا مواء حنوناً. ونظرا ليجدا سوكس، هرّ ابنتهما، جالساً على جدعة محترقة وقد اجتثت النار مخالبه حتى بات عاجزاً عن الحراك. وحملته دالسي وظلت تمرّضه اسابيع حتى زال عنه الخطر.

وهكذا، في يوم واحد مروّع، محت الحرائق جزءاً لا يستهان به من ميراث اوستراليا القومي. وفي مرتفعات أديلايد اتت النار على كلية سانت مايكل الانكليكانية، بما فيها المكتبة التي تحوي خمسين الف مجلّد بينها كتب نادرة تعود الى القرن السادس عشر.

وبالقرب من هاندورف جنوب اوستراليا احترقت المنازل الثلاثة الباقية مما بناه المستوطنون نحو

العام ١٨٤٠. وفي آريز ايلنت (فيكتوريا) اندلعت النار في منزل مغنية الأوبرا المتقاعدة جوان هاموند وجعلت من كتبها، وعددها خمسة آلاف، ومن اشرطتها واسطواناتها ومفكراتها التي لا تعوّض رماداً. وهي مقتنيات جمعتها طوال حياتها الفنية الحافلة.

قلق مزارع

اليوم الذي تلا أربعاء الرماد كان عذاباً لبعضهم، ومن هؤلاء مربي البقر جون بل (٣٩ عاماً) الذي بقيت له زوجته كورال واولاده الأربعة ومنزله في ايكلن، غرب فيكتوريا، ولكن لم يبقَ من مزرعته التي تبلغ مساحتها ١٠٧ هكتارات سوى ثمانية هكتارات. واحترق المنزل المجاور الذي عاش فيه والداه وجدّاه وهو ايضاً في طفولته. وفقد آلة لرش المخصبات مع معداتها ومحراثاً وقطيرة تزن ثلاثة اطنان ومشغلا وحظيرة للماشية وأخرى للتبن. وترمدت بالات التبن جميعاً وعددها ٣٥٠٠ بالة تزن الواحدة منها ٤٠ كيلوغراماً. وذابت أنابيب الماء البلاستيكية على عمق ١٥ سنتيمتراً تحت الارض. وطفت العقاعق وطيور الماء النافقة، ومعها البط البري، فوق مجمعات الماء التي تسع ٤٥ الف ليتر.

لكن اسوأ ما في الأمر محنة الماشية. واكثرها حظاً تلك التي نفقت على الفور. اما المنكودة بينها فما زالت منتفخة البطون وقد اضطجعت على ظهورها ورفعت قوائمها في الهواء لتقدد لحمها الشمس اللافحة.

في ذلك الصباح وصل طبيب بيطري ومسؤول من وزارة الزراعة وشرطي ورجلان يحمل كل منهما بندقية الى مزرعة بل. وبعد فحص الرؤوس واحداً واحداً قرر الطبيب ايها ينبغي ارساله الى المسلخ وأيها يجب قتله حالا. وفيما اخذ الرجلان يطلقان النار على الحيوانات ادار بل ظهره وعاد الى المنزل. وفي النهاية بقي له ٧٨ رأس بقر من اصل ١٨٥.

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم: اتت خمس شاحنات وحملت أبقار بل النافقة. وكانت الجرّافات حفرت خندقاً عند تقاطع طرق قريب بطول مئة متر حيث تم طمر الأبقار الميتة. وحين هال العمال التراب على تلك المقبرة الجماعية كانت تحوي ٢٥٠٠ بقرة والف رأس غنم.

وطوال الاسبوعين اللذين تليا الحرائق اقفل بريان نيش فندق ماسيدون العائلي في وجه الزبائن وجعل منه دار بلدية غير رسمية ومركزاً للاسعافات الأولية وتوزيع المساعدات على ضحايا الحريق. كما حوّل مهجعاً ومطعماً على مدار الساعة لأعضاء فريق سانت جون للاسعاف وجيش الخلاص والصليب الأحمر ورجال الاطفاء الذين ما برحوا يكافحون الحرائق الجانبية ولعمال التنظيف والكهرباء. ومع انقطاع خطوط الهاتف راح العمال يتصلون بمراكزهم عبر أجهزة الارسال التي ركبها الهواة المحليون.

وكان سائقو الشاحنات يأتون يومياً

بأحمال مجانيـة مـن الخبـز واللحـم والبطيخ والعنب. وسأل احدهم نيش ان كـان يعانـي مشكلـة فـي حـفظ الهوالك، فعبر له عن صعوبة الوضع. وكان ذلك كافياً كي يعود الرجل بشاحنة ضخمة مبردة تزن ٢٥ طناً باتت الأطعمة تـُحفـَظ فيها.

وتبرّع المواطنون في أوستراليا بأسرها بالطعام واللباس وعدة النوم والأثاث والسيارات والخيم، كذلك بالرحلات والاقامة المجانية. وبلغ ما قدّموه من أموال ٣٠ مليون دولار أوسترالي (٢٧ مليون دولار امريكي).

وبعـد ايـام مـن وقـوع الكارثـة خصصت الحكومة الاوسترالية مبلغ ١٦ مليون دولار للاغاثة الأولية. وفي الاشهر القليلة التالية أمنت حكومتا الولايتين المنكوبتين مبلغ ٣٥ مليون دولار لأعمال الاغاثة اللاحقة.

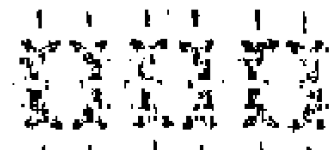
وفي مستشفى ملبورن الملكي حمل كيفين غريغ حوالة مالية بين ابهامه والاصبع الاخـرى الباقيـة مـن يـده اليمنى. وكانت الحوالة بقيمة ٤٥٠٠ دولار سلمته اياها الممرضة. لكن غريغ ظن ان في الأمر خدعة او طرفة. الا انه ما لبث ان عرف حقيقة الأمر، وهي ان زميلا في العمل نظم حفلة اجتماعية تخللها التبرع بالمال. وكان ان جـُمع ذلك المبلغ لتغطية مصاريف استشفاء غريغ. والواقع انه كان يحتاج الى المبلغ ليدفع ما عليه للمستشفى خلال خمسة اشهر تخللتها خمس عشرة جراحة.

أما في غرفة العمليات التابعة لدائرة الاطفاء في فيكتوريا فقد انتظر بوب بوتس بقلق ليتابع أخبار السيطرة على الحرائق الاثني عشر الرئيسية. واخيراً، في السابعة من صباح الأحد ٢٠ فبراير (شباط) بلغته الرسالة الآتية من غرفة الراديو: "لقد تمت السيطرة على حريق ووربرتون." وهكذا انتهى أربعاء الرماد الطويل.

وفي الخامسة من مساء الأحد ٢٧ فبراير (شباط) تجمع نحو ألف شخص في ملعب كرة القدم في بانتون هيل شمال شـرق ملبـورن. وهـم جـاؤوا لتكريم الاطفائيين الاثني عشر الذين انطلقوا من جيرتهم ولقوا حتفهم على مقربة من شاحناتهم المحترقة. واقيم احتفال تذكاري مؤثر تحت سماء زرقاء خالية من الغيم. وراح افراد العائلات الذين فقدوا ابناً او زوجاً او اباً او خطيباً، يعزي بعضهم بعضاً.

ووقف ٢٠٠ اطفائي يؤدون التحية لذكرى رفقائهم وقد احمرت اعينهم من الارهاق والدخان والحزن. وما ان انتهى الاحتفال حتى هبوا جميعاً لاخماد البقيـة الباقيـة مـن محرقـة أربعاء الرماد.

■ ديفيد مولر

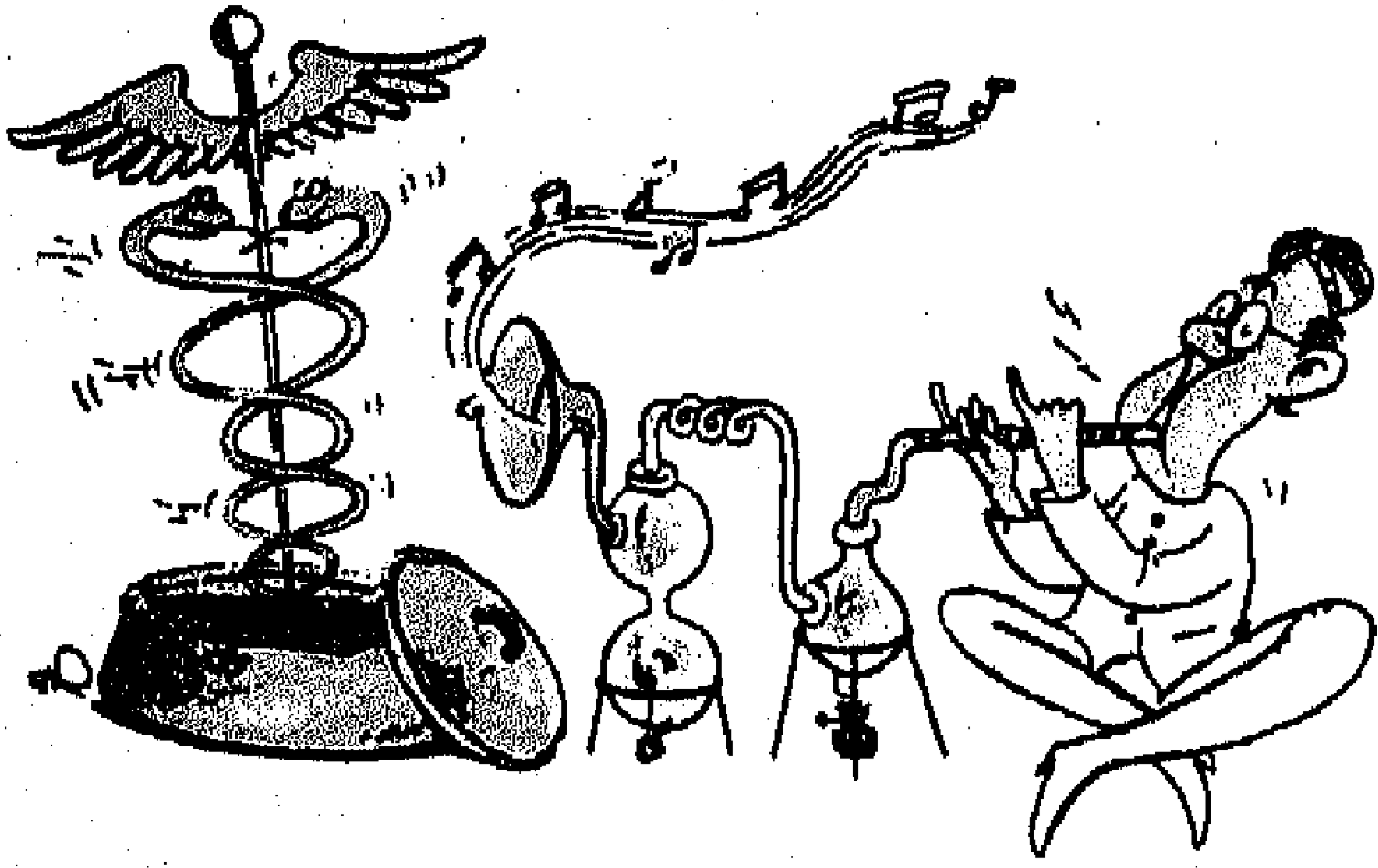


سجادة الحياة

تشبه حياة المرء سجادة محاكة من ألوف الخيوط، وان سحب خيط من مكانه يفسد السجادة كلها، كما يسلب الخيط قيمته.

ل.هـ.

أصداء من عالم الطب



زرع النخاع العظمي

النخاع العظمي هو أخطر أنسجة الجسم من ناحية زرعه لأنه يكون خلايا دموية، بما فيها تلك التي تؤدي الى مقاومة الانسجة. وهذا الاثر السلبي لا يقتصر على نبذ الشخص المتلقي للمادة الجديدة، بل في إمكان النخاع العظمي أيضاً نبذ بيئته الجديدة، مما يؤدي الى وفاة الشخص. وهذا يعني أن زرع النخاع العظمي غير ممكن عموماً إلا بين الأقرباء الذين يتمتعون بأنسجة مماثلة. غير أن الباحثين يعكفون حالياً على اختبار طرائق من شأنها إنجاح هذه العملية من غير أن تتم بين قريبين. فهذا النجاح يؤدي الى إنقاذ ألوف المصابين بسرطان الدم وفقر الخلايا الدموية المنجلية وسوى ذلك من أمراض.

ورفض النخاع المزروع بيئته الجديدة يحصل عندما تشن خلايا الدم البيضاء لدى المتبرع - وهي تدعى الخلايا "ت" - هجوماً على انسجة المتلقي. والطرائق الحديثة تقوم على استئصال الخلايا المذكورة الناضجة من عينة المتبرع، مبقية على الخلايا الصغيرة التي لا تشكل أي خطر لدى نضجها لاحقاً. وقد وجد الباحث يير رايزنر من مستشفى سلون كيتيرينغ للسرطان في نيويورك، ان مادة اللكتين المستخرجة من فول الصويا، ومن خصائصها جذب السكر، تلتصق بمعظم خلايا "ت" الناضجة في النخاع العظمي وتفصلها من هناك.

وفي مستشفى سلون كيتيرينغ تم حتى الآن زرع النخاع العظمي المنظف بمادة اللكتين في أجساد ثمانية أطفال يعانون نقصاً وراثياً في المناعة يجعلهم عاجزين عن مقاومة العدوى والالتهابات. ويقول الدكتور ريتشارد اوريلي رئيس فريق الزرع في المستشفى ان سبعة من هؤلاء يعيشون اليوم حياة طبيعية بفضل العلاج المذكور.

مجلة "نيوزويك"

مكافحة الخرف

أعلنت مارغريت هكلر وزيرة الصحة والخدمة الانسانية في الولايات المتحدة أن وزارتها شكلت لجنة لمكافحة مرض ألزهايمر، أشد أنواع الخرَف فتكاً. وهو يأتي في المرتبة الرابعة بين الاسباب المؤدية الى وفاة المتقدمين في السن في الولايات المتحدة، ويفسر

امتلاء مأوي العجزة. وتقول الوزيرة ان عمل اللجنة "تقرير الابحاث المفيدة في هذا النطاق، والانطلاق منها لرسم خطط عملية لتحسين أوضاع المسنين الأمريكيين."

وتضيف هكلر أن ثمة عقاراً اختبارياً باسم "نالوكسون" يؤمل أن يسفر عن ثمار طيبة. وفي اختبار أجراه مستشفى جامعة نيويورك في هذا المجال، تم حقن سبعة مرضى بهذا العقار. وجاءت النتيجة ايجابية لدى معظمهم، "وأظهر ثلاثة منهم تقدما ملحوظاً أدهش أفراد عائلاتهم." وتمكنت واحدة من الثلاثة، وهي في الثالثة والسبعين، من عدّ الارقام عكساً بعدما كانت تجد صعوبة بالغة في ذلك، كما استطاعت تذكر عنوان منزلها واسم الرئيس الأمريكي الحالي.

إلا أن الدكتور باري رايزبيرغ من المستشفى المذكور يقول "ان النتائج لا تزال أولية، ونحن لم نصل بعد الى علاج." والباحثون متفائلون في اكتشاف علاج لمرض آلزهايمر، وإن ارتأوا انه لا علاج واحداً يلائم المرضى جميعاً.

صحيفة "واشنطن بوست"

العداء والموت

الحسّ العدائي يمكن أن يؤذي القلب بالمقدار نفسه الذي يسببه التدخين وارتفاع ضغط الدم. هذا ما يقوله الدكتور ردفورد وليمس من جامعة ديوك في ولاية كارولينا الشمالية الأمريكية. وفي مؤتمر للاتحاد الأمريكي لأمراض القلب قدم الدكتور وليمس تقريراً عن الابحاث الجارية في هذا الحقل تبعاً لطريقة مينيسوتا في قياس الشخصية الشامل، وهي طريقة معتمدة على نطاق واسع. وقد أجرت جامعة ديوك الاختبار على ٢٥٥ طبيباً في مرحلة دراستهم الطبية الجامعية، فتبين أن نسبة الوفاة خلال السنوات الخمس والعشرين اللاحقة بلغت ١٤ في المئة بين اولئك الذين أظهروا حساً عدائياً قوياً، فيما اقتصرت على ٢،٥ في المئة لدى الآخرين. وتبين كذلك أن أمراض القلب لدى الفئة الاولى هي خمسة أضعاف أقوى منها لدى الاخرى.

ويصف وليمس حسّ العداء بكره الآخرين وعدم الثقة بهم. والذين يمتلكون هذا الحسّ أسرع الى الغضب من سواهم. وربما كان هذا الموقف مفسراً لعنصر الخطر لدى المعرضين لمرض القلب. ويبلغ معدل الوفاة بالسكتات القلبية لدى هؤلاء ضعفي نسبته لدى اولئك الذين يتمتعون بهدوء الاعصاب.

وكالة "اسوشيتدبرس"

السرطان على بعد خطوتين

عندما أعلن فريق من الباحثين اكتشافه إخلايا وراثية سرطانية من شأنها اصابة ما حولها، وقف العديد من المعنيين بالامر موقف شك حيال ذلك الاكتشاف، مستبعدين أن تؤدي خلية واحدة الى هذا الفساد.

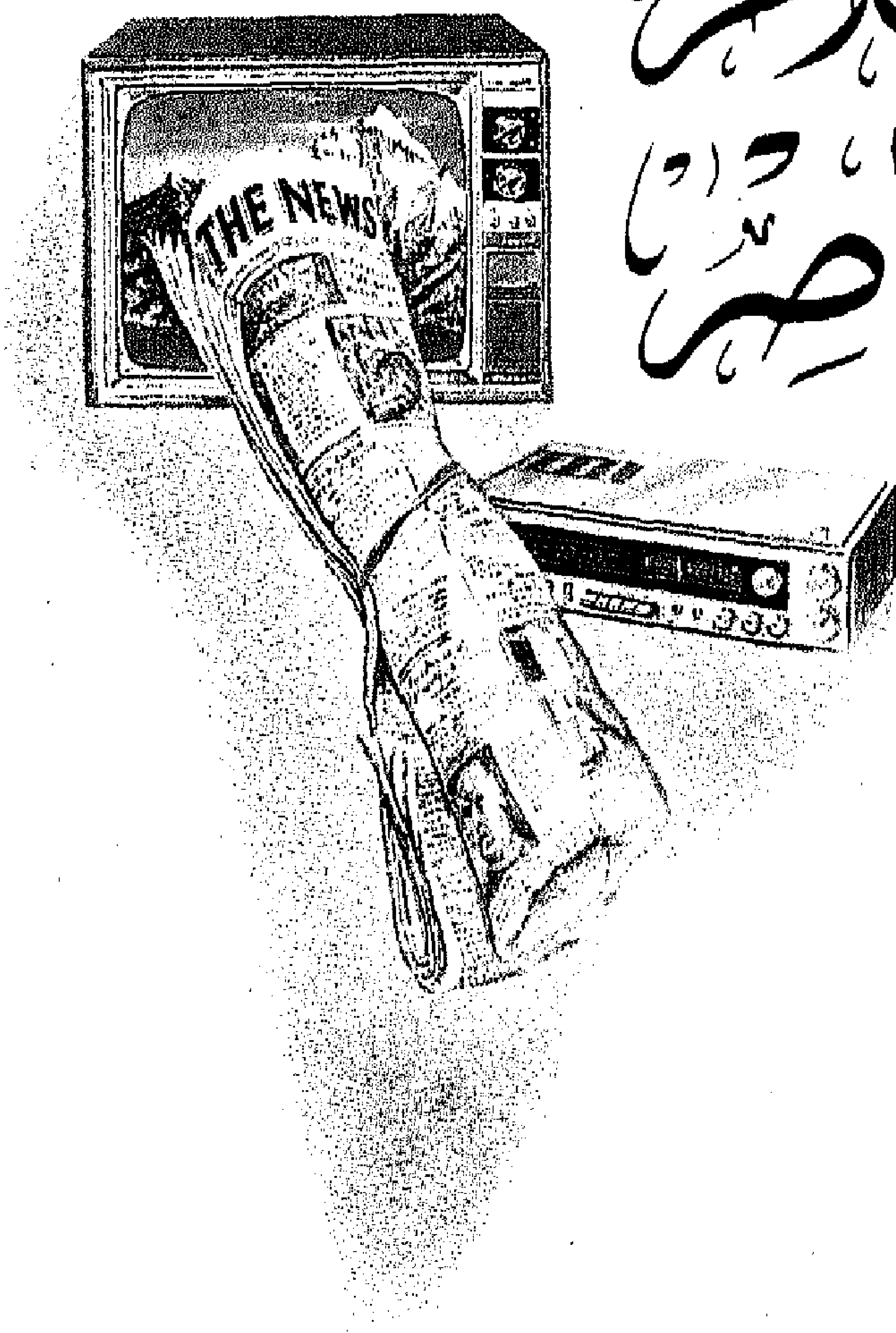
وفي مقال نشرته مجلة "الطبيعة" البريطانية أخيرا، وصفت ثلاث مجموعات من الباحثين اختباراتهم على خلايا سليمة. وتبين لهم أن خلية سرطانية واحدة لا تكفي لبث المرض في الخلايا الصحيحة، بل هناك حاجة الى خليتين على الاقل، وأحيانا الى ثلاث أو أكثر.

وقد أجري الاختبار على الجرذان في معهد مساتشوستس للتكنولوجيا وفي مختبر كولد سبرينغ هاربور في لونغ أيلند (نيويورك). وفي اختبار مماثل أجراه فريق طبي بريطاني، أكدت النتيجة الاولى، وهي أن وجود خلية سرطانية وراثية واحدة لا يكفي لاحداث السرطان فعلا.

مجلة "تايم"

كتاب الشهر

الإعلام المعاصر



مُلخّص من كتاب

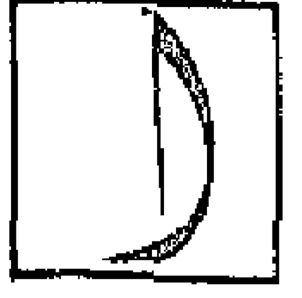
بقلم: بن واتنبرغ

الإعلام المعاصر



مارس المؤلف التعليق الصحافي والتربية، وعمل معاونا للرئيس الأمريكي السابق ليندون جونسون ولعضوي مجلس الشيوخ هيوبرت همفري وهنري جاكسون. وكمتفائل بطبعه، رفض على الدوام نظرات العصر الكالحة. لكنه، من ناحية واقعية، قلِق من أثر الأخبار السيئة التي تميز الاعلام المعاصر على المجتمعات الحرة في المدى البعيد.

وهو هنا يتناول بعض أبرز أخبار العقد الأخير وأخطرها، ويبين انها مخطئة وان العالم اليوم أفضل حالا مما يصوّر دعاة الشؤم، إن لم يكن أفضل من أي وقت مضى.



اننا نعيش وسط مرحلة من اليأس الظاهر. فثمة محافظون كثيرون يخبروننا بأسى ان قيمنا تتفتت، وتقدميون كثيرون يقولون ان نوعية الحياة على تقهقر. ويبدو أن هناك اجماعاً على ان الوضع الاقتصادي في جزء كبير من العالم ما زالت تغلفه الفوضى.

هذه هي فحوى القصة التي تحملها الينا وسائل الاعلام العصرية وتغلفها، معظم الاحيان، بالذعر الذي اكتسب أهمية تجارية في الآونة الاخيرة. وقبل عرضها على شاشات التلفزيون، يتم ربطها بالخطابة السياسية وفنون الكلام.

وعندي أن هذه الصورة المفعمة بالقتام واليأس مخطئة. والأكثر من هذا أنها خطرة. وفي رأيي اننا نعيش في عالم بات، في معظم جوانبه، أعظم من أي وقت مضى. فالناس اليوم يعمرون أكثر ويتمتعون بصحة ومال أوفر. وفي العالم الذي لا تسوده العقائد الشمولية على الأقل، يختبر الناس الحرية وتحقيق الذات أكثر من أي وقت مضى. وهذا كله يفضي بنا الى السؤال الآتي: كيف نستطيع العمل تحت الخطأ القائل بأن الامور تجري في عكس اتجاهها الصحيح؟

لقد انقضى ربع قرن على استئنافنا ذلك الموضوع القديم حول نوعية الحياة. ويمكن القول ان الاهتمام المعاصر بوقف تدهور البيئة بدأ مع نشر كتاب المؤلفة الامريكية راشيل كارسون الشائع "الربيع الصامت" عام ١٩٦٢.

وفي رأي كارسون ان المواد الكيميائية التي باتت تضاف الى المزروعات، وفي طليعتها مبيد الحشرات "د.د.ت"، تبقى حيث هي ويمكن ان تحمل أذى بالغاً الى النبات والحيوان والانسان. وفي مناقشة كارسون نقطة أكثر أهمية، وهي ان حياتنا العصرية تكاد تفلت من أيدينا، والأفضل أن نفعل شيئاً لدرء الكارثة.

هذا المذهب عُرف باسم "الحفاظ على البيئة". وقد وجد طريقه الى الكثير من الحركات الفكرية والعملية والسياسية اليوم.

والحق ان المدرسة الفكرية المذكورة قدمت معلومات غنية في حقول شتى. لكني أذهب الى أنها مخطئة وهدامة من حيث هي نظرة فلسفية شاملة. وللبرهان على ما نقول، يجدر، باديء الامر، ان نعرض هذه النظرة كما يطرحها دعاتها:

أولا: التلوث

كان تلوث النبات الذي تكلمت عنه كارسون حافزاً لبعضهم الى التحذير من تلوث الماء وتلوث الهواء والاشعاع والتسمم بالزئبق والفضلات الكيميائية والكيبون والمطر الحمضي.

ثانياً: الانفجار السكاني

بعد الحرب العالمية الثانية، شهد عدد السكان زيادة كبيرة، اذ أصبح اربعة مليارات و٧٠٠ مليون نسمة عام ١٩٨٣ بعدما كان مليارين و٤٠٠ مليون نسمة عام ١٩٤٥. وطالما أخبرنا جماعة البيئة ان المجاعات والاوبئة

والكوارث الاقتصادية والحروب تلي الانفجار السكاني.

ثالثاً: تضاؤل الموارد

واضح انه كلما زاد عدد السكان زادت الحاجة الى الموارد. وفي العام ١٩٧٢ عمد "نادي روما"، وهو تجمع دولي للعلماء والمربين والصناعيين والموظفين الحكوميين، الى نشر تقرير بعنوان "حدود النمو"، عوّل واضعوه على الادمغة الالكترونية لتعطيهم النتائج بعد امدادها بالمعلومات. وقد وضع ذلك التقرير بنظرة مستقبلية، وجاء فيه ان العالم المادي، اذا استمرت الاتجاهات المعاصرة مئة سنة اخرى، لن يقوى على منحنا الموارد الضرورية للمحافظة على مستوى معيشي مرتفع، وان اهدارنا الموارد المحدودة الحالية قد يؤدي الى "هبوط مفاجيء، لا يمكن وقفه، بالنسبة الى عدد السكان والطاقة الصناعية".

رابعاً: الاستهلاك

في تقدمنا عبر القرن العشرين، سمعنا ان نوعية حياتنا اعترضتها ايضاً المنتوجات الجديدة الخطرة. وغدت هذه المنتوجات، ومنها حبوب منع الحمل والمحليات الاصطناعية، عرضة لتساؤلات المستهلكين.

وهكذا طغت الاخبار السيئة على كل شيء: التلوث سيىء للصحة. المستقبل غير آمن لأن الموارد قليلة وعدد الناس كبير. منتوجات هذا العصر خطرة... ناهيك بالاخبار السيئة التي تنقلها الاذاعات وشبكات التلفزيون يومياً الى بيوت الناس.

هذه هي القضية باختصار. ولم أشأ اعتماد التضخيم في عرضها. وأود القول انه ما من انسان عاقل يعارض أهمية الحفاظ على البيئة وتحسين نوعية الحياة. ولا أحد يسعى الى السباحة في مياه ملوثة او يلتهم المواد التي تسبب الامراض. ولا شك في ان الكثير من صفارات الانذار أطلق في الاتجاه الصحيح.

الا ان هذا ليس لب الموضوع. والمهم في الامر ان أنصار الحفاظ على البيئة ادعوا ان نوعية حياتنا الحاضرة سيئة، وانها تتجه نحو الاسوأ. وهذا هو الرأي الذي أود دحضه.

حياة أغنى

لنبدأ بحقيقة حاسمة: في المجتمعات التي يقال ان السكان أكثر تعرضاً لاخطار البيئة، ألا وهي المجتمعات الصناعية، ارتفع معدل التعمير كثيراً خلال العقود الاخيرة. وقد نشر مركز البحوث الدولية التابع لمكتب الاحصاء الامريكي التقرير الآتي عن معدل التعمير بعد الاربعين في أربعة بلدان صناعية رئيسية هي الولايات المتحدة والمانيا الغربية واليابان واسوج (السويد) بين ١٩٥٠ و١٩٨٠:

السنة	الزيادة فوق الاربعين	معدل الزيادة
١٩٥٠	٣٢،٤	—
١٩٦٠	٣٤،٢	١،٨
١٩٧٠	٣٥	٠،٨
١٩٨٠	٣٧	٢

يضاف الى هذا ان المستقبل القريب يبدو مشرقاً كالماضي القريب. وتقول آيلين كريمينز، استاذة علم الشيخوخة المرموقة في جامعة جنوب كاليفورنيا: "لقد دخلنا مرحلة جديدة من قهر الموت، هي مرحلة التعمير حتى الشيخوخة". وهناك جان بورجوا - بيشا عميد علماء السكان الفرنسيين الذي يقدم رأياً أكثر تفاؤلا من رأي الاستاذة كريمينز اذ يذهب الى ان الشخص العادي الذي يعيش في بلد غربي ويبلغ الخامسة والستين عام ٢٠٠٠، يمكنه ان يتوقع بلوغ المئة.

ولكن ما الذي يحدث حقاً؟

أليست تلك العقود الاخيرة هي العقود عينها التي واجهتنا خلالها عناوين الصحف بالاخبار القائلة ان تلوث الهواء يتغلغل في رئاتنا والاشعاع يفتت أحشاءنا والمواد الحاملة السرطان في كل مكان حولنا؟ لكن الشواهد تشير الى عدم حدوث أي من هذه الامور. والواقع اننا بتنا نعمر أطول وقد تحرّرنا من أمراض كثيرة.

ولكن اذا شئنا توخي الدقة، لقلنا ان الارقام المذكورة تقتصر على طول الحياة ولا تتعداه الى النوعية. الا انها الخطوة الاولى لدحض ذلك الوجه الكالح للاخبار.

وهناك رابط حتمي بين ما نعتقده والقرارات الحياتية التي نتخذها. واذا اعتقدنا ان عالمنا موبوء وان الرواسب السمية تتسبب في ولادة الاطفال المشوّهين وان محطة نووية ما قد تنفجر في أي لحظة، فلا بد من أن ينطلق سياسيونا من هذه الامور لوضع تشريعاتهم.

ومن الامثلة على ما نقول "قرار الهواء النقي" الذي اتخذته الحكومة الامريكية عام ١٩٧٠. هذا يكلف القطاعين العام والخاص ٣٠ مليار دولار سنوياً. وقد أدى الى رفع جميع الاسعار بالنسبة الى الفقراء والاغنياء معاً. غير ان ثمة علماء مرموقين داخل الحكومة وخارجها يطرحون اليوم هذا السؤال: "هل هناك حقاً دليل على ان قرار الهواء النقي أسفر عن تقدم صحي يعادل المال المبذول من أجله سنوياً؟"

أليس من الافضل تحويل بعض ذلك المال الى مجال بحوث السرطان أو اعانة الفقراء؟

لكن أخبار الشؤم ولدت جواً من الجنون، في الولايات المتحدة وأمكنة اخرى، بحيث لم تعد هذه الاسئلة تُثار. وهكذا بات السياسيون يضعون خططاً قائمة ليس على معلومات مخطئة بالضرورة، بل على مغالات مضخمة.

ندرة المواليد

النموّ السكاني الذي شهده العالم في الخمسينات أدى الى ظاهرة أطلق عليها اسم "الانفجار السكاني". واذا شاء المرء تحليل هذه الظاهرة اليوم، فعليه ان يتناولها على حدة في كل من البلدان الصناعية والبلدان النامية.

لقد انتهت ظاهرة الانفجار السكاني في البلدان الصناعية، حيث هبط معدل الولادة بالنسبة الى المرأة

الواحدة، خلال العقود الثلاثة الاخيرة، من ٢،٨ الى ١،٩. والرقم الاخير يشير الى أمر مخيف، اذ انه أدنى من المطلوب للحلول محلّ عدد السكان الحالي، الامر الذي يعني ان العالم الصناعي يفقد سكانه مع الوقت اذا استمرّ معدل الولادة على هذا المنوال.

هل يمكن تصنيف هذا الخبر في عداد الاخبار الطيبة؟

الجواب: "نعم" قياساً بالمناقشة القائمة على "نوعية الحياة"، خصوصاً في المديين القريب والمتوسط. فاذا كانت كثرة السكان تستتبع تلويث البيئة واستنزاف مواردها، فلا شك ان قلة عددهم تلطف هذه الامور.

الا ان هبوط معدل الولادة المطرد من شأنه خلق مشكلة عويصة في المدى البعيد، خصوصاً في بعض البلدان من دون سواها.

وكان توماس مالطوس، أبو الاحصاء، لاحظ عام ١٧٩٨، ان التبدلات السكانية ذات طبيعة حسابية، مركزاً على الجانب المشرق من المسألة. وللتدليل على نظرته، لنأخذ زوجين لهما أربعة أولاد، ولكل من الاولاد والاحفاد وأحفاد الاحفاد أربعة أولاد. هذا يعني انه ما ان يأتي الجيل الخامس حتى يصير نسل الزوجين الاساسيَّيْن ١٠٢٤ فرداً. وهذا هو نوع الحساب الذي أدى الى فكرة "الانفجار السكاني".

ولكن غاب عن بال مالطوس ان ثمة جانباً آخر لمناقشته الحسابية هو الجانب الادنى. ولنأخذ الآن ١٠٢٤ زوجاً وزوجة، لكلّ منهما ولد واحد عوض اربعة اولاد، الامر الذي ينطبق على الاود والاحفاد حتى الجيل الخامس. فما ان يأتي هذا الجيل حتى تنحلّ الاسرة الرئيسية الى ٣٢ عضواً.

والمناقشة الحسابية ليست بالامر التافه، لكن لها وجهاً صاعداً وآخر نازلاً. واذا أخذنا مثل المانيا الغربية اليوم، وجدنا دراسة حديثة لعالم السكان كارل هاوب، تظهر سرعة عمل الحساب السلبي. واذا استمر معدل التوليد لدى نساء المانيا الغربية كما هو اليوم، أي ١،٤ (أطفال) للمرأة الواحدة، فان عدد سكان ذلك البلد سوف يتقلص من ٦٢ مليون نسمة الى ٥٢ مليوناً في نهاية القرن الحالي، والى ٤٠ مليوناً في منتصف القرن الحادي والعشرين، ثم الى تسعة ملايين في اواخره. واذا شئنا الاستمرار في هذا الضرب من المنطق، لقلنا ان عدد سكان المانيا الغربية سيغدو ربع مليون عام ٢٥٠٠.

وفي حين يكشف الوجه الآخر لنظرية مالطوس عن نفسه في البلدان الصناعية، الا انه بعيد عن البلدان النامية، على رغم تدني معدل التوليد للمرأة الواحدة من ٦،١ قبل ثلاثين سنة الى ٤،٢ اليوم. وهذا جيد في ذاته بالنسبة الى نوعية الحياة، لكنه ليس جيداً بالمقارنة مع البلدان الصناعية في المدى الطويل. واذا كان كل ثلاثة أفراد في البلدان النامية يقابلهم فرد واحد في البلدان الصناعية، كما هو عدد السكان الحالي، فاستمرار الوضع على ما هو يجعل النسبة ٨ الى واحد في نهاية

القرن. وفي ذلك الوقت، سيكون عدد سكان البلدان النامية ٨ مليارات و٨٠٠ مليون، وعدد سكان البلدان الصناعية ملياراً واحداً ومئة مليون. وهذا يعني الانتحار الجماعي لتلك البلدان.

واذا صحت هذه التوقعات، فهذا يجرّ الى خسائر اقتصادية وقومية وحضارية وسياسية، اذ يعني اضمحلال البلدان التي تمتلك الثروة والتكنولوجيا والانظمة السياسية المنفتحة. وكيف لهذه الانظمة ان تبقى اذا اختفى حماتها او باتوا أقلية ضئيلة؟

غير ان التخمينات ليست حقائق بالضرورة. وما قلناه ليس حتمياً اذا ارتفع معدل الولادات في العالم الغربي. وهذا الارتفاع سوف يحصل لانه ضروري. لكن المشكلة ان عكس التعاقب الحسابي، في أيّ اتجاهيه، يستغرق وقتاً طويلا جداً. ومن اليوم حتى حدوثه، وخلال حدوثه، قد تشهد طبيعة الكون تبدلا لغير مصلحتنا ومصلحة ذريتنا.

ومن الطرائق التي يمكن أن تلجأ إليها البلدان الصناعية لوقف الانخفاض التدريجي في عدد سكانها تشجيع الهجرة. لكن الهجرة تخلق مشكلات كثيرة، وإن تكن برهنت، بالنسبة الى المجتمع الامريكي التعددي الذي أسسه المهاجرون والذي ما برح يقبل المزيد منهم، عن جانبها الايجابي.

لقد حصلت الولايات المتحدة على مكاسب كثيرة، اقتصادية وغير اقتصادية، من مهاجريها الاوروبيين والمتحدّرين منهم. والسؤال اليوم هو: هل تستمر هذه المكاسب مع حلول مهاجري العالم الثالث محل المهاجرين الاوروبيين؟ لقد وفد ٨٢ في المئة من المهاجرين الى الولايات المتحدة بين ١٨٢٠ و١٩٦٠ من اوروبا، إلا ان ١٨ في المئة يفدون اليوم من اوروبا، فيما يأتي الآخرون من امريكا اللاتينية وافريقيا وآسيا.

وفي رأيي ان هذه الظاهرة ليست مخيفة، بل ايجابية. ولئن صح ان منطقة ميامي في ولاية فلوريدا تشهد موجة اجرام على أيدي مهاجرين كوبيين، الا ان وسائل الاعلام لم تكترث للازدهار التجاري الذي حققته الجالية الكوبية في ميامي، والذي حوّل المنطقة بوابة ذهبية بين شمال القارّة الأمريكية وجنوبها بعدما كانت مدينة راكدة اقتصادياً.

وكانت الهجرة المكسيكية الاولى خلفت تجمعات سكانية مستقرّة ومتدينة في الجزء الجنوبي الغربي من الولايات المتحدة. وليس من دليل على ان وفود المزيد من المسيكيين اليوم سيخلق مشاكل.

والواقع ان الولايات المتحدة غدت، بفضل الهجرة، المجتمع الأوّل في العالم الذي يتصف بالعالمية الحقّة. وإذا أخذنا السياسة الخارجية مثلا، لوجدنا كل فئة عرقية أو قومية في الولايات المتحدة تدّعي لنفسها حصة في السياسة الخارجية للبلاد. وكل ديبلوماسي يعرف ان ثمة "علاقة خاصة" أمريكية - بريطانية. وهذه الخصوصية تُعزى الى كون العديد من الأمريكيين متحدّراً من مهاجرين بريطانيين، والى ان جزءاً كبيراً من

الحضارة الأمريكية مستمدّ من الانكليز. وليس من قبيل المصادفة أن يكون الأمريكيون هبوا لنجدة بلدهم الأمّ لدى اندلاع أزمة جزائر فولكلاند (مالوين) بدل نجدة جارتهم اللاتينية الارجنتين.

ومن أسباب تصلّب السياسة الأمريكية حيال الاتحاد السوفييتي إخضاعه اوروبا الشرقية لحكمه، علماً ان عشرات ملايين الأمريكيين يتحدّرون من تلك البلدان. وعلى رغم كون تركيا عضواً في حلف شمال الاطلسي الذي تتزعمه الولايات المتحدة، إلا ان واشنطن لا تبيعها السلاح بسهولة لأنّ ثمة امريكيين كثيرين يتحدّرون من أصل يوناني، ومن شأنهم صبّ الغضب على ممثليهم في مجلسي النواب والشيوخ إذا هم أعانوا تركيا، عدوّة اليونان التقليدية. والشيء نفسه يقال على سياسة الولايات المتحدة تجاه افريقيا السوداء التي شهدت تبدلا ملحوظاً في السنوات الاخيرة تبعاً للأثر السياسي الذي اكتسبه الأمريكيون السود.

وها نحن نشهد أثراً كوبياً على السياسة الخارجية الأمريكية، كما نشهد أثراً مكسيكياً متزايداً لا بدّ من أن تظهر فاعليته في سياسة الولايات المتحدة تجاه المكسيك.

ولكن ماذا يمكن قوله عن المهاجرين الآخرين من بقية بلدان امريكا اللاتينية، وعن الهجرة الآسيوية الجديدة؟ وما هي المسائل التي ستثير المهاجرين الى الولايات المتحدة من امريكا الوسطى والعالم العربي والفيليبين والهند؟

مهما تكن طبيعة هذه المسائل، فلا شك ان كل جماعة قومية في الولايات المتحدة ستحمل مصالح بلدانها الأمّ الى القرار الأمريكي. ومن المؤكّد أن تبقى التعددية مصدر غنى وانفتاح وحرية، بعيداً من كل انعزالية سياسية أو حضارية.

ولئن تكن الهجرة الى الولايات المتحدة عاملا إيجابياً للتغلب على المشكلات الناجمة عن هبوط عدد المواليد في المدى الطويل، إلا انها لا تبدو حلّا فعالا بالنسبة الى المجتمعات غير التعددية، كما هي حال اليابان ومعظم البلدان الاوروبية. والحل الوحيد لتلك المجتمعات هو رفع معدّل الانجاب.

النفاد

ثمة جوانب اخرى من نظرية نفاد الموارد البشرية والطبيعية تمّ دحضها في الآونة الأخيرة. ولنأخذ النفط مثلا على ذلك. طالما أُشيع ان النفط على طريق النفاد الأمر الذي رفع سعر البرميل من ثلاثة دولارات الى ٣٩ دولاراً. وحقيقة الأمر أنّ النفط لم ينضب أو يخفّ البتة. وفي أوج سلطان منظمة البلدان المصدّرة للنفط (اوبيك)، لم تضخّ هذه البلدان أكثر من ثلاثة أرباع طاقتها النفطية يومياً.

وسرعان ما تبين أنّ نظرة "النفاد" تُعزى الى الانسان، لا الى الطبيعة. وظلت تلك النظرة فاعلة بضع سنوات الى أن تمكنت البلدان المستهلكة من ابتكار بدائل ووسائل للتوفير. ومن البدائل الطاقة النووية

فـي فرنسـا والغـاز الطبيعـي فـي الولايات المتحدة والنفط المصنوع من الفحم في جنوب افريقيا والغازوهـول في البرازيل والطاقة الكهرمائية في كندا، فضلا عن صنع سيارات أصغر حجماً في ديترويت وطوكيو وعن ادّخار مقادير من النفط واكتشاف كميـات أكبـر فـي معظـم الأمكنـة المعنية، مثـل الاتحـاد السوفييتـي والـولايـات المتـحـدة والمكسيـك وبريطانيا والنـروج وكنـدا. ولدينـا اليوم ما يمكن أن نسميه "تخمة نفطية".

وعندما لجأت "اوبيك" الى حربها النفطية عام ١٩٧٣، قيل آنذاك ان النفط الباقي في جوف الارض يبلغ ٦٦٤ مليار برميل. وبعد عشر سنين استهلك العالـم خلالهـا ٢١٦ مليـار برميل، تبين ان جوف الارض يحوي ٦٧٠ مليار برميل نفطاً. فكيف حصل هذا؟ وهل صحيح ان النفط يتجه نحو النفاد؟

كلا، هذا غير صحيح. والواقع ان الاساليب الحديثة تمكن العلماء من اكتشاف المزيد من النفط يوماً بعد يوم. وهذا يعني أنّ أعظم الموارد التي يحيا بها الانسان ليس دفيناً تحت قشرة الارض، لكنه مخبوء تحت قشرة الدماغ البشري.

ان السوائل التي انتفت الحاجة إليهـا أصبحـت نفطـاً، والصخـور المتفتتة صـارت فحمـاً، واستحالـت سواها معدناً ثميناً هو الاورانيوم، وهـذه كلهـا أُطلـق عليـهـا اسـم "الوقود". والحق ان العقل البشري هو المورد الـذي تتفـرّع منـه المـوارد الاخرى كلها، بما فيها "الطاقة". لذلك غدت الطاقة أغنى من أي وقت مضى.

عالم أقلّ خطراً

"حسَناً"، قد يقـول القـارىء، "لكنّ ثمة شيئاً لا يزال يخيفني... فماذا عن المواد الناقلة السرطان والعقـاقيـر الـخـطـرة والاشـعـاع والنفايات الكيميائية والتلوث؟ ألا تؤثر هذه الأشياء في حياتنا اليومية أكثر من عنصري السكان والموارد؟"

لنأخذ مكاناً يُقال انه من أكثر أمكنة العالم تسبّباً في التلوث، وهو "قنـاة الـحُب" الأمريكيـة. لـقـد أُجريت اختبارات كثيرة للتأكد مما إذا كانت المواد الكيميائية التي ألقتها "شركـة هوكـر للكيميائيـات واللدائن" في شلالات نياغارا بين ١٩٤٢ و١٩٥٣ أسفرت عن آثار صحية سلبية في قناة الحُبّ وجوارها.

وفي أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٨٠، خلصت هيئة أطباء أوكل إليها حاكم نيويورك هيو كاري دراسة الأمر الى انه "ليس من دليل على أعراض صحية سيئة ذات علاقة بالفضلات الكيميائية السامة في منطقة قناة الحُبّ". وأشار التقرير نفسه الى خطأ الانذار السابق من تسبّب تلك الفضلات في أخطار صحيـة جسيمـة، كـالأعطـال الصبغية الوراثية. وأصدر مدير دائرة مراقبة السرطان في نيويورك الدكتور دوايت جانيريتش تقريراً عام ١٩٨١ جاء فيه ان "الشواهد لا تشير الى اصابات غير اعتيادية بالسرطان في منطقة قناة الحب".

وهناك خوف آخر قائم على وجود كميات سامة من الزئبق في جوف السمك. ولكن تبين ان هذه الكميات ليست أكثر مما وُجد في المتحجّرات السمكية القديمة.

ومن ناحية اخرى، تبين ان الطائرات التي تفوق الصوت سرعة لا تؤدّي الى الجنون ولا تزيد سرطان الجلد كما أُشيع. كما تبين ان كميات السكرين التي يتناولها الناس ليست قاتلة.

هذا غيض من فيض. ولكن يجب ألا يعني ان كل عقار او عنصر كيميائي او استهلاكي كُتب عليه انه "خطر" ليس هكذا حقاً. ومن المواد الخَطِرة بنسب متفاوتة التاليدوميد والكيبون والاسبستوس (الحرير الصخري) والرصاص وغاز الفورمالديهايد والزرنيخ وملح الحامض البرومي والذرور الزراعية والصناعية والبنزين وأصباغ الطعام وتتراكلوريد الكربون.

ولكن مهما كثرت هذه المواد أو قلت، تَبْقَ الحجة قائمة، وهي ان المواد غير الخطرة تتجاوز المواد الخطرة عدداً، واذا لم تتجاوزها، ففي الامكان الاستغناء عنها أو تلافي خطرها.

ومن أجل عالم أكثر سلاماً ونظافة، يمكننا اعتماد الوصفة الآتية: ما ليس خَطِراً فهو آمن. وما هو خَطِر يمكن طرحه جانباً أو اجتناب خطره.

الأخبار العظيمة، الأخبار السيئة

ها نحن، إذاً، نعيش حياة أطول وأسلم ولا يواجهنا أيّ نفاد للموارد. ومهما بلغت أخطار الانفجار السكاني، فهي اليوم أقل كثيراً مما كانت. كما بات الوضع أفضل من ناحية "نوعية الحياة" والنواحي الاخرى المتعلقة بوجودنا العصري.

غير أن وسائل الاعلام لم تنقل إلينا قطّ أخباراً من هذا النوع. والواقع ان هذه الوسائل، وخصوصاً التلفزيون، تقدّم أخباراً غير صحيحة. وذلك يُعزى الى كونها قائمة على فلسفة إعلامية مخططة يمكن التعبير عنها بالآتي:

"الخبر السيىء خبر عظيم.
الخبر الجيد ليس خبراً.
الخبر الجيد هو الخبر السيىء."

لنعد الى نقطة انطلاقنا الاولى، وهي معدّل التعمير، للتمثيل على المقياسَين الأول والثاني: وسط جميع عناوين التلفزيون حول المواد الحاملة للسرطان، هل يذكر أحدنا انه سمع خبراً تلفزيونياً رئيسياً واحداً عن زيادة معدّل التعمير لدى البالغين؟

قد يقول قائل ان هذا الموضوع قائم على الاحصاء وانه، بالتالي، يقتضي متابعة زمنية طويلة، لا تصلح موضوعاً للتلفزيون. ولكن لو هبط معدّل التعمير في العقد الأخير من الزمن عوض الارتفاع، أما كانت زيادة الوفيات تشكل خبراً تلفزيونياً دسماً؟ أما كانت الحكومة تعمد الى ارصاد الأموال الطائلة لتحرّيه؟ أما كان أنصار البيئة يتبرّعون للقول بأنّ سبب الوفيات هو التلوث والاشعاع النووي؟

هكذا نجد أنّ الخبر السيىء هو الخبر العظيم المثير.

ولكن ألم يحاول أحد تغطية موضوع ارتفاع معدّل التعمير؟ أجل، لقد وجد هذا الموضوع أخيراً من يتصدّى له في الولايات المتحدة، ولكن على نحو غريب جداً، إذ تناولته شبكات التلفزيون كأمر سلبي حين اتضح انه يكبد مؤسسات الضمان الاجتماعي الأمريكية مصاريف اضافية باهظة.

وهذا، بدوره، مثل على ان الخبر الجيد هو، بمعنى، سيىء.

مدّ اقتصاديّ

لا شك في اننا سمعنا الكثير من الاخبار السيئة الاخرى. ولنتناول الآن ما سمعناه عن "مستوى المعيشة".

إذا جاء إنسان من المرّيخ لزيارة الأرض، ومكث فيها لا يفعل شيئاً سوى مشاهدة التلفزيون وقراءة الصحف، فماذا يكون انطباعه؟ لا بدّ من أن يجد الظرف صعباً، فيما الاوروبيون والأمريكيون يرزحون تحت نير انحسار اقتصادي رهيب، وسكان العالم الثالث يعانون الجوع والمرض والأُمية.

لا نكير ان العالم شهد انحساراً اقتصادياً يبدو اننا بدأنا نخرج من دائرته. ولكن هذا ليس بالامر الشاذّ، اذ ان النموّ الاقتصادي شأن دوريّ. والمهم في الامر ان الاتجاهات الطويلة المدى رفعت مستوى الحياة. وهي اتجاهات ظهرت في كلا العالمين الصناعي والنامي.

وهنا أمثلة من البنك الدولي عن البلدان ذات "الدخل المنخفض":

□ بين ١٩٦٠ و١٩٨١، أي خلال جيل واحد، ارتفع معدّل التعمير في الدول النامية من ٤٢ سنة الى ٥٨ سنة.

□ خلال الفترة نفسها، تضاعف عدد الأطباء بالنسبة الى عدد السكان في هذه الدول.

□ في السنوات الستّ الممتدّة بين ١٩٧٤ و١٩٨٠، ارتفعت نسبة الغذاء في أفقر بلدان العالم من ٢٠٣٦ سعرة حرارية يومية للفرد الواحد الى ٢٢١٨ سعرة، وهذا يرفع المعدّل اليومي المطلوب الى ٩٧ في المئة.

□ بين ١٩٦٠ و١٩٨٠، ارتفع عدد البالغين الذين يعرفون القراءة والكتابة في بلدان العالم الثالث من ٤٨٠ مليوناً الى مليار و٢٠٠ مليون.

□ أقوى التبدلات التي تشهدها البلدان النامية تحصل في حقل استهلاك الطاقة. وأهمّ علامة على تقدم مجتمع ما نحو العصرية هي حلول الطاقة الآلية محلّ الكدح البشري. وفي العقدين الأخيرين، شهد استهلاك الطاقة في البلدان النامية ارتفاعاً بنسبة ٦٩ في المئة.

□ في حقل الاتصالات، بدأ سكان هذه البلدان، حتى مزارعوهم الذين يعيشون في المناطق النائية، يعرفون ما يجري في العالم. وارتفع عدد أجهزة الراديو بنسبة ٢٦٦ في المئة بين ١٩٦٥ و١٩٨١.

□ وأخيراً يأتي الدخل الحقيقي. فقد شهد الدخل الفردي ارتفاعاً حتى في أفقر بلدان العالم، بغض النظر عن زيادة عدد السكان. وإذا استمر الارتفاع كما هو، أي بنسبة ٢،٩ في المئة سنوياً، فهذا يعني مضاعفة الدخل الفردي كل ٢٤ سنة.

وفي حين اني لم أتحمس لمحاولة

دول العالم الثالث تعديل النظام الاعلامي العالمي عبر منظمة التربية والعلوم والثقافة (الاونيسكو) التابعة للأمم المتحدة، لكني أقرّ ان سكان العالم الثالث كانوا على حق حين أخذوا على وسائل الاعلام العالمية اقتصارها على نشر الاخبار السيئة حول بلدانهم. والواقع ان تلك المجتمعات شهدت تطوراً ملحوظاً، على رغم المشاكل السياسية والاقتصادية الكثيرة.

وهناك ظاهرة صحافية مماثلة في البلدان الصناعية. فقد ركزت وسائل الاعلام خلال العقد الأخير على بطء النمو الاقتصادي. والحق ان ثمة شيئاً من هذا القبيل قياساً بالازدهار الذي شهدته الستينات. غير ان النمو يبقى نمواً، وإن تمّ ببطء. وهذا يعني ان الامور تشهد تحسناً، ولكن على نحو أكثر تواضعاً.

وهنا أمثلة حول البلدان المتقدمة، مبنية على أحدث الاحصاءات:

□ بين ١٩٧٠ و١٩٨١، ارتفع الدخل الفردي بنسبة ٢٣ في المئة (مع اعتبار القيمة الحالية للعملة)، أي بمعدّل ٢ في المئة سنوياً. ثم شهد النموّ بعض تدنٍّ، لكنه حافظ على ارتفاعه بغضّ النظر عن زيادة البطالة التي تكوّن مشكلة عويصة.

□ بين ١٩٧٠و١٩٨٠، ارتفع عدد السيارات لكل ألف شخص من ٣٦٤ الى ٥٣٤ سيارة.

□ من أواخر الستينات حتى أواخر السبعينات، شهدت العطل السنوية في معظم البلدان الاوروبية ارتفاعاً من اسبوعين حتى أربعة أسابيع، كما تدنت ساعات العمل الاسبوعية.

□ في هذا الوقت تضاءل الفقر. وفي الولايات المتحدة، على سبيل المثال، هبطت نسبة الفقر من ٢٢ في المئة عام ١٩٥٩ الى ١٢ في المئة عام ١٩٦٩، فالى ١٠ في المئة عام ١٩٨٢. وهي على هبوط مطرد.

□ ارتفعت نسبة الشباب المتخرّجين في الجامعات ٦٩ في المئة خلال العقد الاخير، مع ان نسبة الاشخاص الذين بلغوا السنّ الجامعية لم ترتفع أكثر من ٥ في المئة.

وهكذا يستمر فيض الاخبار الجيدة، في حين ان وسائل الاعلام لم تركز الا على الجانب القاتم من الامور.

أهمية العائلة

يذهب بعضهم الى ان المشكلة الحقيقية للعصر متعلقة بالقيم. ويقول هؤلاء ان الانسان المعاصر هجر القيم "التقليدية" وغرق في بحر "الاباحية".

وهذا يحدوني على طرح أسئلة ثلاثة:

- هل تبدّلت قيمنا؟
- إذا تبدّلت، فهل هذا سيىء؟
- إذا كان سيئاً، فهل ثمة تحسّن؟

وأجوبتي هي الآتية:

- أقلّ مما يُظَنّ.
- أفضل مما يُظَنّ.
- أسرع مما يُظَنّ.

وفي نطاق القيم الشخصية، ليس من برهان على ما نقول أفضل مما سمعناه حديثاً حول "العائلة". فالمنذرون بالسوء يتكلمون عن المزيد

من الطلاق والنساء العاملات خارج البيت والافراد غير المتزوجين، حتى بين اولئك الذين يعيشون حياة زوجية، والاولاد غير الشرعيين. وهذا كله أدى الى تفكك العائلة التقليدية.

غير ان هذا الاعتراض لا يتجاوز الاثارة المسرحية. فالعائلة كانت ولا تزال وستبقى أهم قيمة في حياتنا. وفي الولايات المتحدة، حيث بلغ الانذار بالسوء أشده، قدمت أدق التفاصيل الاحصائية التي تثبت العكس. ففي العام ١٩٨٢ طرح المركز القومي لاستفتاء الرأي سؤالا على عينة كبيرة من المواطنين حول أهمية العائلة والاولاد. وأجاب تسعون في المئة انها "مهمة جداً"، وواحد في المئة انها "غير مهمة"، فيما جاءت الاجابات الاخرى في درجات متفاوتة بين الاثنين.

وفي استفتاء أجراه في مطلع الثمانينات، وجد المركز ان الحياة العائلية تمنح ٨٧ في المئة من الأمريكيين "مقداراً ضخماً" أو "كبيراً" من الرضا والاكتفاء. وهذه النزعة لا تقتصر على الولايات المتحدة. ويقول الاستاذ ايفريت لاد من مركز روبر للرأي العام": "الشواهد الاحصائية من العالم أجمع تشير الى النتيجة الواحدة الآتية: ان العائلة هي الأساس".

لكن ثمة جانباً من الرأي القائل بانهيار العائلة يتعلق بالجنس.

لا شك في ان النظرة الى الجنس غدت أكثر انفتاحاً. إلا ان ثمة سؤالا كبيراً وراء ما يجري علناً: هل غدا الجنس أكثر نوعاً أم أكثر كماً؟

المعلومات الاحصائية تشير الى زيادة ممارسة الجنس خارج نطاق الزواج. لكن المهم هو السؤال الآتي: "هل هناك قيود على الاباحية؟" والجواب: "نعم، بالتأكيد". لكن هذه القيود تفعل فعلها على أفضل وجه حين يفرضها أصحاب العلاقة على أنفسهم بدلا من أن تفرض عليهم عنوة. كما ان هذه القيود الذاتية هي أقوى مما قد يتصور المرء. والوضع الحالي للجنس أقرب الى القيم التقليدية للزواج، أي الاقتصار على شريك واحد، منه الى الاباحية. ولئن صح ان الاباحية وجدت طريقها الى بعض المجتمعات، ففي رأي الكثير من خبراء الحياة الجنسية انها تشهد انحساراً واسعاً اليوم.

العمل والمتعة

لنتناول جانباً آخر متعلقاً بالقيم الشخصية، ألا وهو العمل.

طالما سمعنا من دعاة السوء أخباراً عن "انهيار الاخلاق المهنية"، يتجلى في تغيب الموظفين عن مراكز أعمالهم وفي نوعية أعمالهم ومصنوعاتهم الرديئة. وهذا يؤدي الى طغيان السلع المستوردة وافتقار سكان البلد المعني.

ترى هل تصح نظريتنا "أقل - أفضل - أسرع" في هذا المجال أيضاً؟ هل بلغ التغير هذا المقدار الضخم حقاً؟ هل ان بعض التبدل، أو الكثير منه، حصل في اتجاه الافضل؟ هل صحح بعض التبدل السلبي نفسه؟

ينبغي أن نشير، بادىء الأمر، الى ان معظم المعلومات حول معظم

البلدان تذهب الى ان الناس ما برحوا يعملون بجهد ويشعرون بأهمية عملهم. وهذه المعلومات معزّزة بما يسميه علماء الاجتماع "المصدر الشعبي"، أي ما يسمعونه على ألسنة الناس من أخبار وروايات وآراء.

وفي فترة الازدهار الاقتصادي، ركزت الاخبار على كسل القوة العاملة. وهذا لا يجافي المنطق اذا تذكرنا ان أرباب العمل لا يكترثون كثيراً للنوعية خلال اشتداد الطلب، وان العمال، في تلك الظروف، يكونون أكثر ميلا الى التغيب عن العمل بذريعة المرض.

لكن الانحسار الاقتصادي يحمل معه تبدّلا في الاخبار والروايات. ومن هذا القبيل ما نقرأه اليوم في الصحف ونسمعه على أجهزة الراديو والتلفزيون حول قبول العمال بخفض رواتبهم في مقابل الاحتفاظ بوظائفهم وحول لجوئهم الى تحسين نوعية إنتاجهم لكي تضاهي السيارات الأمريكية، مثلا، جودة السيارات اليابانية.

واذا صح ان الاخلاق المهنية لم تشهد الهبوط المزعوم كله وان ذوي العلاقة عمدوا الى التصحيح الذاتي لأخطائهم، بقي سؤال واحد للاجابة عنه: هل ان بعض التبدّل الثانوي في الاخلاق المهنية أمر سيىء؟

ثمة واحد من أهداف العمل في المجتمع الصناعي العصري هو نفعي برمته. فالناس يعملون بمشقة ليأكلوا ويُطعموا عائلاتهم ويؤمنوا لأنفسهم المسكن والملبس. وأحد أهداف العمل الشاقّ أن يتوصل المرء الى وقت يغدو العمل بعده أقلّ جهداً وتزداد أيام العطل وتقلّ ساعات العمل اليومية وأيامه الاسبوعية، مما يمنح العامل وقتاً للترفيه والقراءة وصرف فترات أطول مع أولاده.

ولا بدّ من أن تؤدي التكنولوجيا مع الوقت الى رفع الانتاج وزيادة الثروة، الأمر الذي يمنح العامل مجالا أكبر للاسترخاء والراحة. وهذا، في ذاته، مثل على التبدل الثانوي في الاخلاق المهنية. فهي اليوم مستمدّة من العمل والراحة معاً بعدما كانت قائمة على العمل الشاق وحده. وتضاؤل وقت العمل يعني زيادة وقت الترفيه. فمن يعدّ هذا الأمر سيئاً؟

النزعة الى الأخبار الرديئة

الصحافة ظاهرة رائعة، لا حياة للديموقراطية في غيابها. لكن ثمة مشاكل تلازمها. ولنبدأ بمشكلة اختيار الاخبار وتقديمها.

ان الذي نسمعه على التلفزيون أو نقرأه في الصحيفة ليس الخبر الخام بل ما بقي منه بعد الحذف والاختصار والتعديل والتوضيح والتنقية، وهي عملية تمارسها وسائل الاعلام لأسباب شتى. وفي النهاية، لا يعلق في ذهن المشاهد أو القارىء سوى خلاصة الخبر أو جانبه القوي.

والخلاصة التي علقت في أذهان الجمهور من الاخبار التي نشرتها وسائل الاعلام في مطلع السبعينات حول وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية هي أنها منظمة مسعورة عنيفة، هدفها قلب الحكومات واغتيال رؤساء الدول باستخدام أنواع

الأسلحة الخفية والخفيفة الحمل. أما زبدة الاخبار السياسية في مطلع ١٩٨٢ فكانت ان حركة السلام والحد من التسلح النووي باتت قوّة رئيسية تستطيع إسقاط كل مرشح سياسي لا يقرّ أهدافها ووسائلها. ولا يُستبعد أن تكون بعض المقالات نُشرت حول هذين الموضوعين من زاوية اخرى. لكن ما بقي في أذهان الناس هو ما ذُكر. وهو، في رأيي، خطأ فاضح في كلتا الحالين.

وهناك مشكلة اخرى متعلقة بوسائل الاعلام العصرية تتعدّى خطأ المعلومات الى التغافل عن الاخبار الحقيقية أو جهلها. هذا الاتهام ليس شاملا الجسم الصحافي كله، ولكن لنذكر أننا نتكلم عما يبقى من الموضوعات البارزة في أذهان القرّاء. وانطلاقاً من هذا المقياس، يمكن القول ان الصحافة مقصرة في عرض الجوانب المشرقة من الحضارة المعاصرة. ثمة، إذاً، نزعة نحو الأخبار الرديئة.

وإذا سُئل جهابذة الصحافة عن هذا الأمر، لهزّ واحدهم كتفيه وقال: "أجل، إننا ننقل الأخبار السيئة. ولكن ما الخطأ في الأمر؟"

لنحاول الاجابة عن هذا السؤال من أجل تقدير الخطر الراهن.

هَب أنّ ما أقوله عن نزعة الصحافة العصرية نحو الاخبار الرديئة صحيح، وان هناك مغالاة في ذلك، واننا لا نسمع سوى أخبار الفضائح والعنف والانهيار الاقتصادي وتلوّث البيئة والفسوق الخُلُقي. وهَب أيضاً ان هذه الاخبار تزداد انتشاراً مع زيادة أجهزة التلفزيون وعدد المستمعين، وان أثر الاخبار السيئة يتراكم مع الوقت حتى يتضخم كثيراً بعد عقدين من الزمن. والآن، هل يُعَدّ هذا النزوع الى الاخبار السيئة هدّاماً؟

لننظر في الحقائق الآتية:

□ **في الاقتصاد** – ان انخفاض نسبة الاستثمار التجاري يضعف القدرة على العمل ويبطىء النموّ الاقتصادي.

ولكن لنسأل، أوّلاً، ما هو "الاستثمار"؟ انه رهان على طبيعة المستقبل. فالمستثمر، سواء أكان فرداً أم شركة، يقول لنفسه ان الامور ستكون أفضل في المستقبل بحيث ان المبلغ الذي يستثمره اليوم يعود عليه بأرباح مضاعفة في الغد.

أما إذا بنى المستثمر حكمه على أخبار وسائل الاعلام القائلة أنّ الحاضر لا يزال سيئاً كالماضي، فماذا تكون النتيجة؟ الراجح انه لن يراهن اذذاك على المستقبل، لأنه لن يكون، كما قيل له، خيراً من اليوم والأمس. وهكذا يؤدي انخفاض الاستثمار الى نتائج سيئة في المستقبل.

□ **في السياسة** – افضل الصحافيين ينجزون فترة تدرّجهم بالتركيز على رؤساء الدول. فكلما قال الرئيس شيئاً تافهاً أو فعل أمراً تافهاً أو عيّن شخصاً يقول أو يفعل التوافه، كتبوا حوله مقالا رئيسياً واستمدّوا منه عنوان الصحيفة الكبير. والشيء

نفسه ينطبق على كبار الموظفين والمسؤولين. وما على القارىء إلا أن يتصوّر نفسه عرضة لهذه الملاحقة الدائمة، ويسأل نفسه: "هل يحبني جميع زملائي ومنافسيّ؟ أأنطق أحياناً بأشياء لا أعنيها حقاً؟"

إني لا أدعو الى تحصين السياسيين ضد كل نقد ممكن. لكنّ الكثير من النقد لا يخدم المصالح القومية ولا يعزّز إيمان المواطنين بدولتهم ونظامها.

كما لا أدعو الى نبذ الطريقة الديموقراطية القديمة في اقصاء الرؤساء والمسؤولين المخطئين. ولكن اذا كان سبب اقصائهم اقتناع المواطنين بالاشاعات الصحافية، فينبغي ان يعمد المواطنون الى التأكد من صحة احكامهم ومواقفهم بعيداً من الاثارة الصحافية.

□ **في السياسة الخارجية** – لا يُستبعد أن يكون نزوع وسائل الاعلام الى تضخيم الاخبار السيئة أضعف قدرة الدول الحرة على التدخل المجدي في الظروف التي تشكل عائقاً للحرية والديموقراطية.

لنأخذ، بادىء الامر، فكرة استخدام القوّة. وليتصوّر واحدنا انه ضابط أو ديبلوماسي شابّ. فما هي العبَر الصحيحة التي يمكن أن يستمدها من الحروب الحديثة؟

طالما قيل ان عنصر الجدّة في هذه الحروب يقتصر على الاسلحة الجديدة، كالصواريخ الفرنسيةالتي استخدمتها الارجنتين،لكن الواقع ان اهم اسلحة الحرب المعاصر هي آلات التصوير التلفزيونية الخفيفة والاقمار الاصطناعية التي تنقل الاحداث حول العالم لحظة حصولها.

وإذا عرضنا الحروب التي تجري حالياً، لوجدنا ان الامثولات التي يجب أن يخرج بها السياسيون والديبلوماسيون والعسكريون المعاصرون ترتكز على اربع قواعد.

القاعدة الاولى – في استطاعة الدول الشيوعية أن تشنّ حروباً عنيفة وطويلة الأمد من غير أن تنفق الكثير عليها. وها قد انقضى على دخول السوفييت الى أفغانستان أكثر من أربع سنوات واجهوا خلالها مقاومة أفغانية قوية. لكن حظر تصدير الحبوب الذي فرضته الحكومة الاميركية على الاتحاد السوفياتي رُفع اليوم، والعقوبات الحقيقية لم تُفرَض البتة، والاخبار اليومية حول العالم باتت تتجاهل هذه الحرب بعدما طال أمَدُها.

القاعدة الثانية – في إمكان دولة ديموقراطية أن تشن حرباً سريعة على جزيرة تمكنها من فرض سيطرة على الاخبار. ومن الأمثلة على ذلك الحرب البريطانية ضد الأرجنتين في جزر فولكلاند. فهي بدأت، صحافياً، بتغطية كبيرة للسفن التي انطلقت من الساحل الانكليزي. إلا ان أحداً لم يلتقط أي صورة تلفزيونية للجنود الانكليز الذين قضوا في البحر المتجمد على هياكل سفنهم المعدنية المحترقة. ولم يُسمح آنذاك للمراسلين الأجانب بمرافقة الحملة،

كما فُرضت رقابة شديدة على المراسلين البريطانيين القلائل الذين كانوا على متن السفن.

والسؤال الآن هو الآتي: "لو عرض التلفزيون الانكليزي مراحل الحرب تباعاً، أكانت رئيسة الوزراء السيدة مارغريت تاتشر استطاعت الاحتفاظ بالدعم السياسي الضروري حتى آخر الحرب؟"

الجواب: "كلا".

وهذه الولايات المتحدة في اجتياحها جزيرة غرينادا في البحر الكاريبي، لم تسمح للصحافيين بمرافقة الحملة، ولا هم عرفوا بها إلا بعد اندلاع القتال. ولم يكن هناك دم مُراق لتصويره. وكانت النتيجة ان ٨٠ في المئة من الشعب الأمريكي أيّد الاجتياح.

القاعدة الثالثة - إذا كانت ساحة المعركة أرضاً مفتوحة، فأدنى تدخل من جانب الدول الديموقراطية يكلفها كثيراً. ومن هذا القبيل التدخل الأمريكي في الحرب الاهلية في السالفادور إذ أرسلت واشنطن مساعدة عسكرية و٥٥ مستشاراً. غير ان الصحافة ضخمت عدد المستشارين كثيراً وعزت إليهم مهمات وهمية غير إنسانية. وانقضت أشهُر قبل أن يستطيع وزير خارجية الولايات المتحدة، بالنسبة الى الصحافة، "البرهان" على ان فدائيي السالفادور يتلقون العون من نيكاراغوا وكوبا والاتحاد السوفييتي. وهذا أمر واضح حتى للسياسيين المبتدئين، على رغم ان "برهانه" يصعب أمام محكمة.

وعملت التغطية التلفزيونية على إظهار التدخل الأمريكي بنقيض حقيقته، وبالتالي على تأليب الرأي العام ضده.

القاعدة الرابعة - خارج الجزر، تستطيع الدول الديموقراطية شن حروب قصيرة وسريعة، مع قول الحقيقة كلها على الفور. واذا استمرت الحرب وتبدلت الأهداف، أو إذا كانت الأهداف ضبابية وعمدت الحكومة الى تزوير الحقائق، فلنحذر عندئذ غضب العالم.

ويمكن أن نعطي مثالا على ذلك دور الدول الغربية في لبنان بين ١٩٨٢ و١٩٨٤، حين أرسلت الولايات المتحدة وفرنسا وإيطاليا وبريطانيا عدداً صغيراً من قواتها الى بيروت لما سُمي "حفظ السلام". وما لبث هدفها الحقيقي أن اتسع إذ عكس رغبة الدول الغربية في إعادة تأسيس حكم مستقل وديموقراطي في لبنان.

ولكن لنتذكر فحوى الروايات الصحافية خلال الأشهُر التي سبقت الانفجار الرهيب الذي أودى بالعديد من الأمريكيين والفرنسيين داخل ثكناتهم في بيروت. لقد عمدت القوى التي تناوىء حكومة لبنان المركزية الموحدة، ولكن الضعيفة، الى تحديد قوات البحرية الأمريكية كأعداء لها. وكلما استطاعت قتل بعضهم كانت محطات التلفزيون في طول الولايات المتحدة وعرضها تعرض جثة الجندي، وفي اليوم التالي تجري مقابلة مؤثرة مع أحد ذويه أو أصدقائه، ثم في اليوم الذي بعده

تعرض الجنازة بعد وصول جثمانه الى الوطن، وهكذا كان يتكرّر المشهد اسبوعاً بعد اسبوع.

ذلك كله حمل الجمهور والكثير من ممثليه السياسيين على معارضة الوجود العسكري الأمريكي في لبنان، وأخذ الضغط يزداد لسحب قوّات البحرية من هناك إلى أن تمّ سحبها فعلا. ولكن ما هكذا ينبغيأن تعقل السياسة الخارجية لقوّة عظمى. وإذا كان الحضور الأمريكي في لبنان مهماً، فهو لا يحصل في ظروف كهذه من غير تضحيات. ولماذا يضحي جنودنا لمحاربة العنف في الداخل ويحجمون عن التضحية لمحاربته في الخارج؟ ما معنى القوّة العظمى إذاً؟

لكن ثمة جانباً إيجابياً لاطلاع الرأي العامّ على أهوال الحرب. فهو قد يحمل الزعماء القوميين على اجتناب العنفكوسيلة لحلّ الخلافات. غير ان الامور لا تجري على هذا النحو. والواقع ان العرض المتكرّر للاخبار السيئة يؤذي البلدان الحرّة في نهاية المطاف. ونحن نعيش وسط عالم غدا استخدام القوة والتهديد باستخدامها جزءاً لا يتجزأ من المعادلة السياسية. وهو أمر يؤسَف له، لكنهالواقع الملموس.

وهكذا تقتضي طبيعة الصحافة في البلدان الحرّة المنحازة الى الاخبار السيئة عرض جميع الاهوال الحاصلة على القرّاء والمستمعين والمشاهدين، وعرض كل ما من شأنه تهديد النظام الحاكم معها. والفرق بيننا وبين الدول المنغلقة أنّ أهوالنا نحن ظاهرة على الدوام، في حين أن اهوالها هي مستترة. وفي استطاعتنا الوصول الى مسؤولينا الذين يتجنبون إظهار الحقائق (وهو تجنّب مشروع خلال الحروب). أما مسؤولو الطرف الآخر فيتعذّر الوصول إليهم. ويشاهد مواطنونا هذه الامور على شاشات التلفزيون داخل بيوتهم. أما مواطنو الدول المنغلقة فأنى لهم هذا الأمر؟

هذه الطريقة تمنح أعداءنا، على نحو غير متعمد، التفوّق علينا. فهم ينجحون إذا لجأوا الى التلويح بالقوّة. ذلك انهم يعرفون ان في استطاعتهم تنفيذ تهديدهم. وهذا أمر عسير جداً بالنسبة إلينا. وهم يدركون هذه الحقيقة أيضاً، الأمر الذي يعني ان العنف، الذي هو هدفعملهم، مستطاع لهم.

ولئن كان ثمة انحياز نحو نشر الاخبار السيئة في الولايات المتحدة، فالاخبار نفسها تجد تضخيماً غير طبيعي في بقية أنحاء العالم. ومن هذا القبيل ان أخبار الفقر فيالولايات المتحدة تتلقفها الصحافة ووسائل الاعلام الاخرى حول العالم وتمنحها أبعاداً غير واقعية. والشيء نفسه يقال على الاجرام وتعاطيالمخدرات والجنس في امريكا، وعلى امور كثيرة اخرى. وهكذا غدت الصحافة الأمريكية، التيهي من أمجادنا الحضارية، عبئاً علينا.

ان الأثر الهدّام للنزوع نحو الأخبار السيئة يذهب أعمق كثيراً من نطاق الاقتصاد والسياسة المحلية والدولية، لينفذ الى أهمّ ما في الحضارة. ولا يُستبعد أن يؤدّي

الاعـلام المعاصـر الـذي يتـزعـّمـه التلفزيون وتغلب عليه الأخبار السيئة السائـدة هـذه الأيـام، الـى هـدم معنويات العالم الحر. اجل، هذا لم يحدث بعد، ولكن من يضمن انه لن يحدث غداً؟

وهذا يفضي بنا الى مفارقة. فلقد بنينا هذا المقال على فرضية التقدم نحو الأفضل. لكن ما قلناه-الآن يشير الى الاتجاه نحو الأسوأ.

إلا ان هاتين النظرتين لا تعارض إحداهمـا الاخـرى. فلقـد استطعنـا التقدم على رغم نزوع ناشري الأخبار بيننا نحو الأنباء السيئة. لكن المنطق يخبرنا ان الكثير من الأخبار الكالحة لا بدّ من أن يفعل فعله.

وإذا كان هذا يحصل فعلا، فلا بدّ مـن اننـا نواجـه مـأزقـاً حـرجـاً. فالمجتمع الحرّ، في التحليل الأخير، لا يبقى له أكثر من الايمان بنفسه. وإذا كـفّ المجـتمـع عـن الايمـان بعظمته، فهل تبقى له الجرأة على ارسال النـاس الـى الـقمـر وابـعـد منه؟ أو هـل يحتـفظ مجـتمـع بـات يعتقد ان لا شيء مجدياً بقدرته على تجنيد إمكاناته لمحاربة السرطان؟ أو هل تبقى لدى أبناء مجتمع يُقال لهم كل مساء عبر التلفزيون انهم أصبحوا خارج التاريخ وانهم يقاومون التيار إرادة علـى دفـع المتوجـب عليهـم لحمايـة مصالحهـم وتعزيـز قيمهـم الديموقراطية فـي العـالـم؟ أو هـل تحافظ الدول الصناعية ـ وقد قيل لها تكراراً ان نزعتها العصرية سوف تفضي الى طريق مسدود ـ على حماستها لمساعدة البلدان النامية في مكافحـة المـرض والامية والفـقـر والانعزال عن العالم؟

وهناك جانب آخر للمفارقة: لا شـك ان الصحافة، على علاتها جميعاً، من أعظم إنجازاتنا الراهنة. غير ان الجمهور بات ينظر إليها بهزء. ولكم قال واحدنا لنفسه أو سمع شخصاً يقول: "كلما طالعتُ مقالا عن موضوع أعرفه، وجدتُ انه مخطىء".

لا شك في ان المغالاة في الصحافة أمر هدّام. والى حدّ كونه هكذا، لا بدّ للصحافة الحرّة من تصحيحه تلقائياً. ولكن أيفيد أُمة ما أن تكون صحافتها ممقوتة؟ أيفيد هذا المقت الجسم الصحافي نفسه؟ وإذا قويت الضغوط الشعبيـة والسياسيـة علـى الصحافة، ألا يمكن أن يؤدي هذا الى أمر أكثر هدماً، هو اعتماد الرقابة أو هيمنة الحكومة على الصحافة؟ على الجسم الصحافي نفسه أن يجيب عن هـذه الاسئلـة حتـى يتوصـل، فـي النهاية، الى التعديل المنشود الذي يعتمد الرقابة الذاتية.

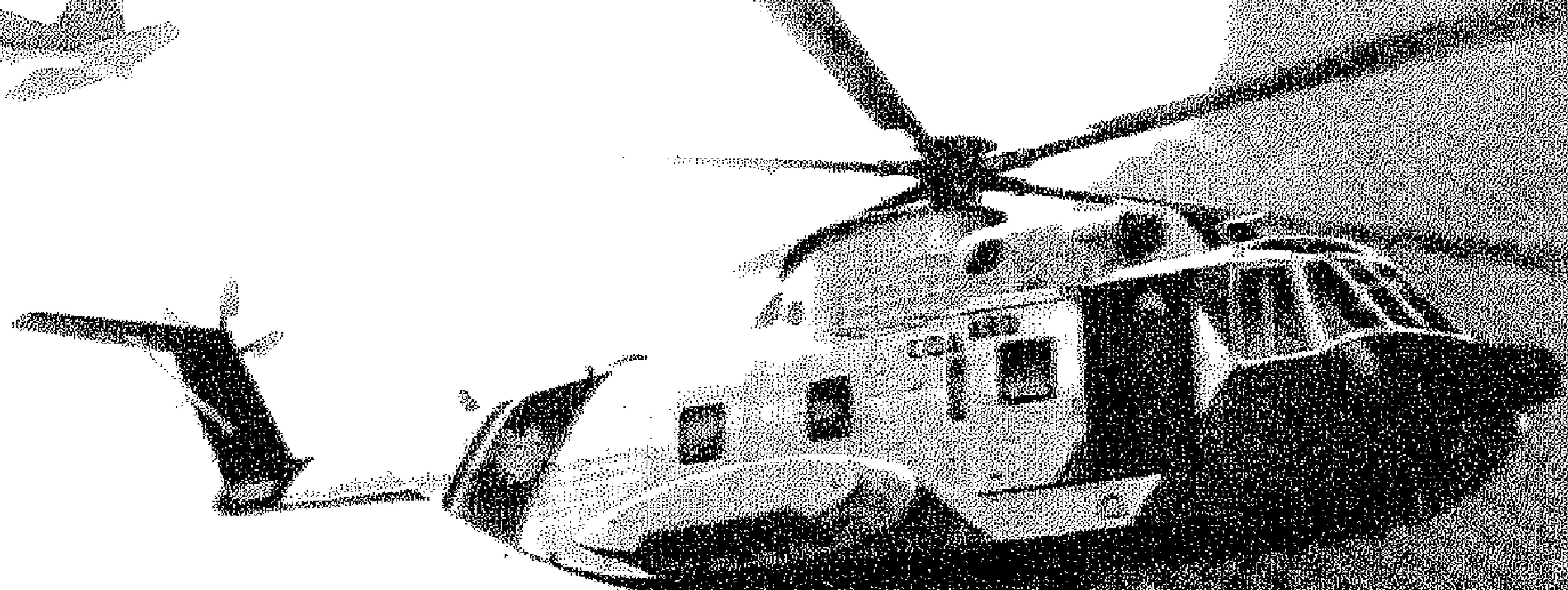
ولا يحاولن أحد تمييع الاسئلة المطروحة أو التقليل من شأن الاجابة المسؤولة عنها. فالأمر، في النهاية، يتعلق بفكرتنا عن ذواتنا. والمجتمع لا يمكن ان يكون سليماً ان هو قام على اساس غير سليم.

الاعلام هو ركيزة عالمنا المعاصر. وإذا كان قد أصابه خطأ، فيجدر بنا البحث عن سبل لتصحيح هذا الخطأ من غير أن نقضي على مكاسبنا الديموقراطية الجليلة، والصحافة جزء لا يتجزأ منها.

■ **بن واتنبرغ**

الرحلة الأخيرة

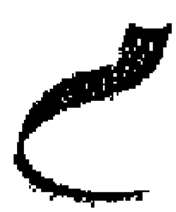


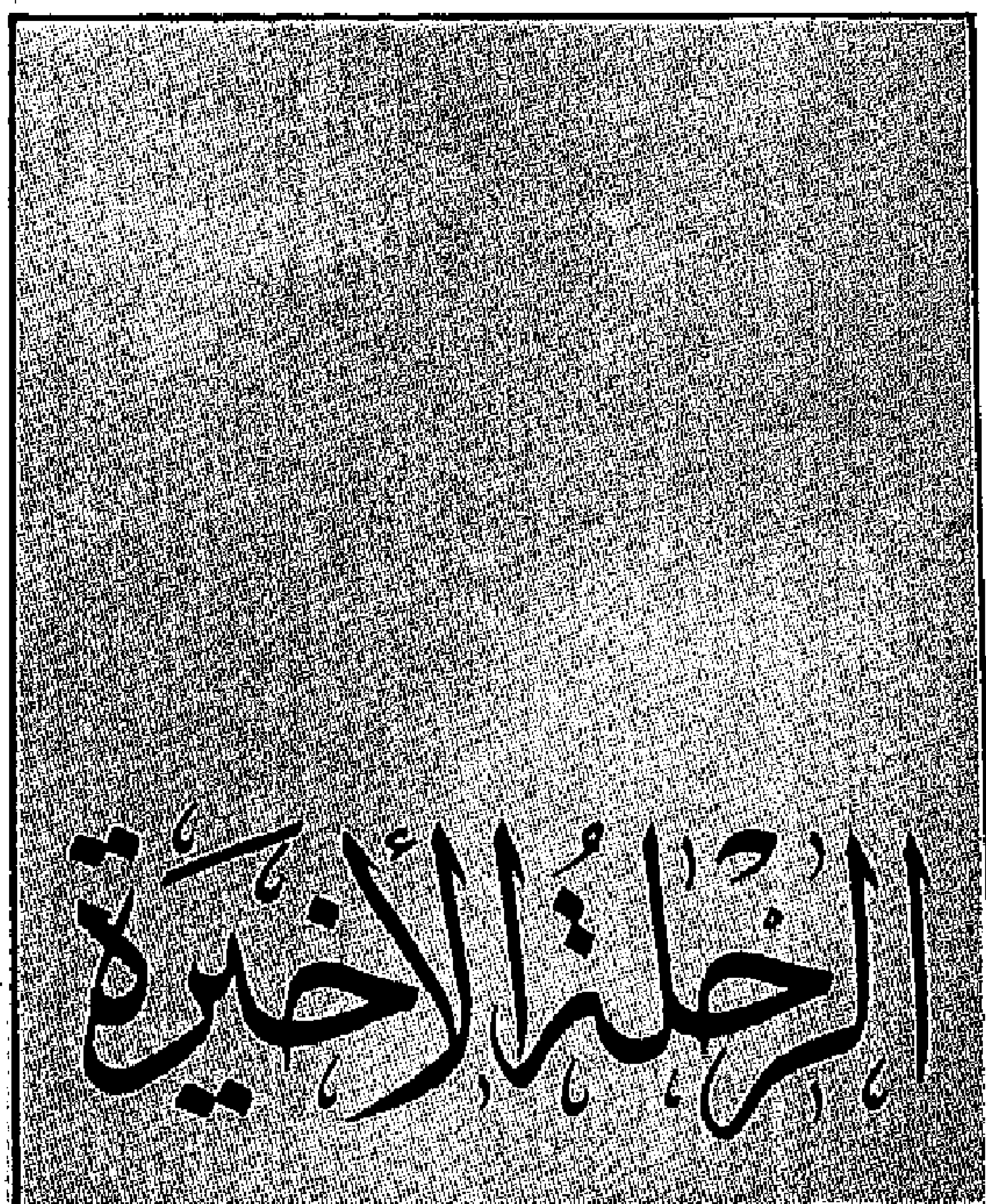


بقلم جوزف ب. بلاك

كانت مضت ثلاثة ايام فقط على مغادرة الباخرة السياحية الفخمة "برينسندام" المرفأ حين تحول نعيمها جحيماً، وبات الحريق - وهو أسوأ كابوس يمكن ان يعانيه بحار - يتهدد حياة ٥٢٤ شخصاً لا يمكن ان ينجوا الا بأعجوبة.

هنا قصة اضخم عملية انقاذ في تاريخ الملاحة





"مهما يكن عدد مغامراتك البحرية السابقة، فلا شك أن هذه المغامرة ستمحوها جميعاً من ذاكرتك."

هذا الاعلان جاء في كتيب للخطوط البحرية الهولندية - الامريكية حول رحلة الباخرة "برينسندام" من فانكوفر في كندا الى الشرق الاقصى. ومن غرائب المصادفات أن ذلك الوعد استحال حقيقة مرعبة، بالنسبة الى الذين استقلوا تلك الباخرة الفخمة المطلية بالازرق والابيض في ٣٠ سبتمبر (أيلول) ١٩٨٠، وعددهم ٣١٩ راكباً.

يبلغ طول "برينسندام" ١٣٠ متراً. وهي بُنيت عام ١٩٧٣ بكلفة ٢٠

مليون دولار لتكون من أفخم السفن السياحية. وقد بلغ عدد طاقمها ٢٠٥ ملاحين. وكان معظم الضباط والتقنيين بينهم من الهولنديين، وغالبية العمال من الاندونيسيين. وأصبحت الباخرة، بين أيديهم، عالماً قائماً في ذاته، معدّاً لتزويد الركاب بأفضل خدمة وسط البحر، كذلك لحماية حياتهم من الاخطار، وأوّلها الاصطدام والحريق.

وجُعل متن الباخرة في ستة أقسام، خُصص أكثرها لراحة الركاب. وكان أروعها القسم الاوسط الممتد من مقدم الباخرة حتى مؤخرها وهو يحوي غرفاً عمومية أنيقة. وكانت إحداها تضم "نادي برينسن" الواقع في الامام، تحت منصة الربان مباشرة، ويحوي مرقصاً صغيراً وحانة وعدداً من الارائك، ويمكن النظر من نوافذه الى تقدّم السفينة وسط المياه.

وخارج ذلك النادي ممرّ يؤدّي الى قاعة الجلوس الرئيسية المليئة بالمقاعد والطاولات والنباتات والازهار النادرة. وفي تلك القاعة مربع كبير للرقص والموسيقى والشراب. ومن هناك يعبر المرء الى المطعم الذي أُعطي اسم "الليدو"، وهو يشرف على بركة السباحة الكبيرة الواقعة عند مؤخر السفينة.

ويحيط بهذه الدائرة، من كلا الجانبين، سطح مكشوف، يستطيع الركاب الركض أو المشي أو الجلوس أو ممارسة الرياضة عليه.

أما مطعم السفينة الرئيسي فكان يقع تحت الليدو ويتسع لمئتي شخص. وفي إمكان الركاب تناول الطعام في أحد المطعمين والثناء على نوعيته الفاخرة هنا كما هناك. ولم تكن الكمية، منذ الصباح الباكر حتى منتصف الليل، تقلّ عن النوعية.

غير أن عالماً آخر كان يقوم في الباخرة وراء الابواب التي يدخل ويخرج منها النادلون الاندونيسيون وفي أيديهم أطباق الطعام. ذلك هو عالم الملاحين، حيث يعملون ويستريحون وينامون. والحكم هنا ليس للكماليات، بل للضروريات. إلا أن كل شيء كان نظيفاً وبراقاً. وكان المطبخ، بثلاجاته الكثيرة، يحوي الاطنان من المواد الغذائية لاشباع الركاب والبحارة. وكانت أناقة المظهر تخف تدريجاً مع عبور المرء وراء المطبخ، ثم مع نزوله الى الطبقات السفلى. هناك كانت الرسوم وألواح الخشب غائبة عن الجدران. وعلى رغم طلائها الجديد النظيف، إلا أن الجدران كانت من الصفيح الناعم والارضية من الصفيح المضلع الذي يمنع الانزلاق. ولم يُبذل أي جهد هناك لستر الابواب الكثيفة المقاومة للنار والحواجز الافقية التي تصد الماء.

ومع انحدار المرء الى قلب الباخرة يزداد الصوت الذي يبدأ ضعيفاً ثم يرتفع حتى يصم الآذان عند غرفة المحرك. هناك يعبق الجو برائحة الزيت التي لم تستطع التهوئة القوية محوها. أما غرفة المحرك، وهي قلب الباخرة النابض، فتحوي محركات ضخمة تعمل على الزيت وتدفع الباخرة بسرعة ١٩ عقدة عبر الامواج.

وككل مركب بحري، صُممت "برينسندام" بحيث تقاوم الاخطار. وكانت شركة "لويدس" لمراقبة سلامة السفن منحت الباخرة أرفع تقدير من هذه الناحية. وهي تحوي أمنكة تجمُّع خارج الغرف ومنافذ للهرب في حال اندلاع حريق. وقد استُعيض عن طريقة الرش التقليدية لاطفاء الحرائق بأحدث ما توصل إليه العلم، وهو استخدام الزغوة المطفئة وثاني اوكسيد الكربون، فضلا عن التحكم عن بعد بالتهوئة وضخ الوقود.

وقد تولت إدارة خفر السواحل الامريكية فحص الباخرة في مايو (أيار) ١٩٨٠، قبل خمسة أشهر من رحلتها الاخيرة. وثبت لها أن أجهزة مكافحة الحريق تطابق الشروط الامريكية، وأن صيانتها تتم على خير وجه.

ولكن على رغم هذه الاحتياطات كلها، فقد شهدت غرفة المحرك أحداثاً بدّلت مصير السفينة وحياة الركاب.

لقد باشرت "برينسندام" رحلتها كما هو مخطط. وعلى أثر عبورها مياه مقاطعة كولومبيا البريطانية في كندا، وصلت بعد يومين الى كتشيكان في ألاسكا. وفي اليوم التالي عبرت "خليج الجليد" بجدرانه المائية الزرقاء والبيضاء. ثم انحرفت نحو خليج ألاسكا. وعند منتصف الليل كانت على بعد ١٦٠ كيلومتراً من اليابسة.

وفي الدقيقة الاربعين بعد منتصف ليلة الثالث من اكتوبر (تشرين الاول)، باشر الحارس الليلي نوبته في غرفة المحرك. وكعادته، زرع المهندس المعاون روبرت كالف مصفاة في جهاز الوقود ذي الضغط المنخفض. وما أن أدار ظهره حتى سمع "خبطة" وراءه. ونظر ليرى نافورة من الزيت ترتفع متراً في الهواء وتنصب على أنبوب ساخن. وكان ذلك الانبوب، في ما مضى، ملفوفاً بغلاف عازل من ألياف الزجاج. لكن الوقاء انتُزع عنه في وقت ما، ربما خلال كشف عام على الاجهزة. ولأسباب لا يعرفها أحد، لم تتم إعادة الغلاف الى مكانه.

ونظراً الى حرارة الانبوب المرتفعة، وهي ٤٣٠ درجة مئوية، استحال الزيت المنصب عليه ناراً.

كانوا يغنون

كان ردّ فعل الموظفين فورياً. وما أن شاهد التقني الاندونيسي محمد علي النار حتى تسلق السلم الحديد الى غرفة التحكم المعزولة ونادى المهندس الثالث جاب فان هاردفلد بأعلى صوته. وللحال عمد فان هاردفلد الى اطلاق صفارة الانذار الخاصة بالمهندسين وأقفل المحرك الثاني الذي اندلعت فوقه النار. وتقديراً منه أن الزيت يرشح من خزان الوقود ذي الضغط المرتفع، وهو أمر حصل مراراً حتى ذلك الحين، ظن أن إطفاء المحرك الثاني من شأنه منع تدفق الوقود في ثوان.

وفي تلك الاثناء انحدر محمد علي الى أسفل، وسحب قارورة لاطفاء الحريق وعاد بها الى المحرك الثاني. وانضم إليه المهندس الثاني يوهان

ربكو الذي امتشق خرطوماً أخذ يرش به الانبوب المشتعل. وكانت سبع دقائق انقضت على بدء الحادث.

وكان رئيس المهندسين ألبرت بوت سمع صفارة الانذار وهبّ الى غرفة التحكّم. وهو في الرابعة والاربعين وقد أمضى سنوات كثيرة في البحر. وبعد تأمل سريع في الوضع، أمر بإقفال جميع منافذ الباخرة العازلة للماء، وعددها خمسة وعشرون. كما أمر بوقف التهوئة وصمامات النار في جهاز تكييف الهواء. وكانت سحب الدخان والابخرة السامة تتصاعد من الحريق.

وطلب كبير المهندسين من فان هاردفلد أن يأخذ مكان ربكو ويقف الى جانب محمد علي لمكافحة الحريق، فيما طلب من ربكو التوجه الى غرفة التحكّم. ولم يتوقف الزيت عن التدفق. وعُرف في ما بعد، على نحو شبه أكيد، أن مصدر الرشح لم يكن الخزان المرتفع الضغط، بل الخزان الآخر الذي لم يؤثر فيه وقف المحرك. ولم يتوقف الحريق هو الآخر. وأتت الحرارة والدخان على فان هاردفلد الذي غاب عن الوعي قليلا. وما أن استعاد وعيه حتى أسرع الى الطبقة "أ"، وهي تقع دون السطح بطبقتين، وقطع تدفق الزيت الى جميع الخزانات.

وبعد عشر دقائق من الحادث، والساعة تقارب الاولى فجراً، أعلم كبيرُ المهندسين قائد السفينة بالامر، وهو القبطان كورينليوس وابكي البالغ الثانية والخمسين: "لقد اندلع حريق في الباخرة، وهو يتحول من سيئ الى أسوأ. وبعيد ذلك سمع البرت بوت اصداء انفجارات في غرفة المحرك. وذهب بنفسه الى حجرة القيادة ليكلم وابكي وينصحه بأن يملأ غرفة المحرك بغاز ثاني اوكسيد الكربون لخنق النار. وصُعق الربان حين أدرك أن الحال على ذلك المقدار من الخطر. وإذا بذلك الربان الطويل والممشوق والقوي الشخصية يواجه أحد أخطر المواقف في مهنته كقائد سفينة. والمعروف أن إطلاق ثاني اوكسيد الكربون من عقاله يحظر دخول غرفة المحرك بضعة أيام، وبالتالي يعوق إصلاح الخلل. ولكن بعد مفاوضته مع بوت، تبنى وابكي نصيحته وأمر بوضع طاقم السفينة في حال الاستعداد.

وواجه الربان صعوبة اخرى، وهي إنذار الركاب بما يجري. غير أنه لم يشأ بعث القلق فيهم قبل التأكد التام من الوضع. وكان يظن أن معالجة الحريق بالغاز ستخنقه. كما كان يدري أن معظم الركاب، كما هي الحال في تلك الرحلات الطويلة، متقدمون في السن. ولئن تكن أكثريتهم في حال جسدية حسنة، فبعضهم لا يتنقل إلا على مقاعد متحركة والبعض مصاب بعلل تراوح بين السكري ومرض القلب.

وكان أحد الركاب، وهو تاجر عقارات اسمه وليم باول، يستعد للنوم حين سمع المذياع في غرفته الخاصة يعلن الآتي: "إلقبطان يكلمكم. لقد اندلع حريق صغير في غرفة المحرك. لكنه على وشك الاخماد، ولا داعي الى القلق. وإذا

كنتم تشمون رائحة الدخان، فيمكنكم الصعود الى مطعم "الليدو" أو الغرف المجاورة."

وقال باول على الفور: "يا للكارثة! لقد قُضي على هذه الرحلة."

وكان البحارة أنجزوا جميع تمارين النجاة أمام الركاب خلال اليوم الاول من الرحلة، فدَلّوا قوارب النجاة الستة الى الماء لايضاح طريقة استعمالها. غير أن الركاب نظروا الى ذلك التمرين كخطوة مسرحية لا بدّ منها، ووضعوا سترات العوم حول صدورهم كما طُلب منهم، وهم يضحكون ويستبعدون إمكان الغرق.

ولكن ما أن سمعوا نداء الربان حتى خرج بعضهم من الغرف وهو يحمل خرقة مبللة أو منديلا فوق أنفه اتقاء للدخان. وإذ رأوا البحارة في بزاتهم الفضية المقاومة للنار، أدركوا فداحة الحريق. وصعد العديد من الركاب الى متن الباخرة بسترات النجاة، وبعضهم يرتدي ثياب النوم. وحين بدأت الفرقة الموسيقية تغني للترفيه عن الركاب، قال أحدهم: "هكذا حصل على متن السفينة "تيتانيك" قبل غرقها."

ومع استنفار الملاحين، باشرت فرقتا إطفاء سحب خراطيم الماء التي لم يخرج منها سوى قطرات قليلة. فقد انقطعت الطاقة الكهربائية عن الخراطيم الثلاثة. ولكن كانت هناك مضخة إضافية تقوم وراء أحد الابواب العازلة، ويمكن تشغيلها بالتحكم من بعد. وفي الاولى والدقيقة الثلاثين، حاول المهندس ربكو تشغيلها، ولكن من غير جدوى. هناك، إذاً، خطأ آخر في الوضع.

وبعد دقيقة أُخليت غرفة المحرّك وأُحكم إقفالها، ثم سُرب ثاني أوكسيد الكربون إليها. وخلال الدقائق العشرين اللاحقة، طاف القبطان وابكي وكبير المهندسين بوت في أرجاء الباخرة بحثاً عن "نقاط ساخنة"، وأهمها المدخنة الممتدة من ردهة الطبقة الرئيسية الى مطعم الليدو الذي يرتفع طبقة واحدة فوقها. وما لبثت المدخنة، منذ اندلاع الحريق، تطرد الدخان والحرارة من تحت الى السماء المعتمة. وجاء في أحد التقارير حول الحادث أنها كانت "حمراء من فرط الحرارة". لكن وابكي وبوت وجداها فاترة، الامر الذي يعني أن النار كانت تذهب خارجاً. إلا أن قائد السفينة أمر بتوجيه إنذار الى محطة كودياك المولجة بالحراسة البحرية في تلك المنطقة، وهو نداء للمساعدة، لكنه يخلو من عنصر الاستغاثة المستعجلة.

ثم توجه نحو الركاب، وكانت غالبيتهم خرجت من مطعم الليدو الى سطح الباخرة المكشوف هرباً من الدخان. وكانت تلك الليلة شديدة البرد، غير أن القليل منهم ارتدى ثياباً واقية. وظن وابكي مناسباً فتح منافذ الغرف العمومية والمطبخ لتصريف الدخان، كيما يتسنى للركاب العودة الى الداخل وتناول المرطبات. ولكن ما أن فُتحت الابواب حتى تسربت النار الى غرفة الطعام الرئيسية. وهو أمر كان حدوثه مرجحاً على أي حال. ولكن لا أحد يدري ما إذا كان

الاوكسيجين المتسرب عبر الابواب هو الذي أدى الى حدوثه. والاكيد أن النار وجدت طريقها الى قسم الباخرة الرئيسي وباتت وراء حدود السيطرة. وفي الثانية والدقيقة الخامسة والعشرين فجراً، أُطلق إنذار استغاثة عاجلة، واستعد البحارة لمغادرة الباخرة.

الى القوارب

صحيح أن "برينسندام" عجزت، في ذلك الوضع المريع، عن إمداد ركابها بالراحة والرفاهية. غير أنها كانت من التجهيز بحيث استطاعت إنقاذ حياتهم.

وكانت الباخرة متجهة جنوب فالديز، وهي نقطة مصب النفط المنقول من ألاسكا في الانابيب. وصدف ذلك الصباح أن حُملت سفينة الشحن الضخمة "وليمسبورغ" مليوناً ونصف مليون برميل من النفط الخام وانطلقت في طريقها نحو كوربوس كريستي في ولاية تكساس. وعلى رغم أن تلك الناقلة البالغة ٣٣٥ متراً طولا تحتاج الى طاقم لا يتجاوز الواحد والثلاثين ملاحاً، إلا أنها تستطيع استيعاب بضع مئات من الركاب. وعندما تلقت المحطة نداء "برينسندام" العاجل، كانت "وليمسبورغ" على بعد ١٤٥ كيلومتراً منها. وللحال بدّل الربان آرثر فيرتيغ طريقه واتجه نحو السفينة المنكوبة.

ووصل النداء أيضاً الى مقر خفر السواحل الامريكية في سان فرنسيسكو الذي استنفر مركز الانقاذ في جونو (ولاية ألاسكا). وفي الثانية والدقيقة التاسعة والعشرين فجراً، كانت السفينة "باوتويل"، وطولها ١١٥ متراً، قد وضعت طاقمها في حال الاستعداد وانطلقت نحو موقع الحادث. أما أقرب محطة إنقاذ جوية تابعة لخفر السواحل فكانت في جزيرة كودياك، على بعد ٦٩٠ كيلومتراً غرباً. وأرسلت تلك المحطة طائرة استكشاف ذات أربعة محركات لتحديد مكان "برينسندام" وللاشراف على أي عملية إنقاذ عتيدة. وأرسل المركز نفسه طائرتين مروحيتين، فيما أرسلت محطة سيتكا الجوية طائرتين أيضاً.

وكانت "برينسندام" مزودة بستة قوارب نجاة، اثنان منهما آليان ويمكنهما استيعاب ٤٦ راكباً. أما الاربعة الاخرى فكل منها يستوعب ٩٩ شخصاً، وهو مجهز بعمود ذي مقبض افقي، يمكن دفعه وسحبه باليد لتسيير القارب. تضاف الى هذه القوارب سفينتان آليتان مسقوفتان واثنا عشر طوفاً يمكن نفخها بالهواء واستخدامها بسهولة. وقد عُلقت القوارب على أعمدتها تحت حجرة القيادة. وأمر الربان باعدادها وفَتح الحواجز عند حافة السفينة لانزال القوارب الى الماء. وبفضل البحارة والقبطان، تمت عملية إنزال القوارب وتحميلها بالركاب على خير وجه، علماً أنها بالغة التعقيد في العادة.

وكما يحدث في حالات الطوارىء المماثلة، تميز بعَض الركاب عن سواهم في الادوار التي اختاروها لأنفسهم. ومن هؤلاء العقيد المتقاعد

في الجيش هنري هاينكن وزوجته ليلى اللذان شاركا في غير رحلة لتلك الباخرة. وكان الزوجان في السرير عندما بلغهما نداء الربان. وللحال أسرعا الى متن السفينة خارج مطعم الليدو حيث تحلقا مع سائر الركاب. وكان المطبخ مقفلا. ولكن مع مرور الوقت، بذل الملاحون جهدهم لخدمة الركاب، فقدموا اليهم المثلجات، على رغم أن كثيرين منهم كانوا يعانون نوبات البرد. واحتج هاينكن بقوله: "هذا لا يجوز". وفي رأيه الاقتصار على المثلجات لا يليق بسمعة الخطوط الهولندية ـ الامريكية، مهما يكن من أمر الكارثة.

وانتحى هاينكن بأحد الخدّام وطلب منه فتح حانة الشراب. وأجاب النادل: "انها مقفلة يا سيدي".

وقال العقيد بلهجة الآمر: "إذاً اكسر ذلك القفل اللعين". فانصاع النادل فوراً. وللحال أشرف هاينكن على تزويد الركاب بالشراب المدفىء. وبعد ذلك نظم فرقة من الركاب عهد إليها في وضع الكراسي على متن الباخرة وتوزيع حرامات الصوف. وحين نفدت الحرامات، عمد بعض الركاب الى انتزاع أغطية الاثاث طلباً للدفء.

ووجدت الراكبة اودري غورال قارب النجاة الذي كانت فيه غاصاً، فتطوعت للانتقال الى طوف معدّ للبحارة. وهي تتذكر ما حدث: "نفخنا طوفاً يشبه الكوخ القببي، إذ له فتحتان عند طرفيه يمكن ولوج المرء عبرهما. وانتزعتُ حذائي لئلا يثقب الطوف عقبه. ومن حسن حظي أنني كنت أرتدي معطفاً وكنزة وسروالا وقفازين. وسُررت لكون الزورق مسقوفاً. وجلست نحو الوسط وقد أحاط بي نحو عشرين ملاحاً. ودُلّي الزورق الى الماء. إلا أن أحداً منا لم يغلق الثقبين، فتسرب الماء الى الداخل. وفجأة وجدتُني فوق طبقة من الماء ترتفع قرابة عشرين سنتيمتراً. ولبثتُ كذلك حتى خرجتُ من هناك."

وفي السادسة والنصف صباحاً، كانت الباخرة الأمّ قد أنزلت الى الماء ستة قوارب نجاة وأربعة أطواف وسفينة، وظل على متن الباخرة نحو أربعين شخصاً، بينهم القبطان وابكي. وبينماهو يشرف على عملية الانزال، راوده الخوف على حياة العديد من الركاب المسنين. ترى أيستطيعون الصمود في تلك القوارب الضعيفة وسط البحر المكشوف والبرد؟

وبدا الامر، بالنسبة الى هنري هاينكن الذي استقل قارب النجاة الرقم ١، خارج حدود التصديق. فقبل ساعات معدودات كان وزوجته ليلى يرقصان في مربع السفينة. وها هما الآن وسط الامواج.

ونحو السابعة والنصف صباحاً، رأى هاينكن في الأفق ما بدا له دخاناً. وسرعان ما تبين ملامح سفينة تقترب. وقال للملاح الذي يسير القارب: "هلم بدّل وجهتك وانطلق نحو تلك السفينة". ولم تكن تلك سوى الناقلة "وليمسبورغ" التي حُملت حتى لم يبقَ على متنها إلا ستة أمتار خالية، وبدت أشبه بالجزيرة المرجانية منها بالمركب.

ومع دنوّ الناقلة، دلى بحارتها السلم والحبال، ونزل اثنان منهم للمساعدة. غير أن إخلاء القارب استغرق وقتاً يزيد على الساعة، إذ كان على الركاب المذعورين أن يتمسكوا حسناً بالسلم ويتسلقوها واحداً واحداً الى متن "وليمسبورغ". وإذا بقي الامر هكذا، فإن إخلاء القوارب الاخرى سيطول. وكانت الاحوال الجوية تسوء باطراد ونوبات البرد تشكل خطراً حقيقياً على حياة الركاب. يضاف الى ذلك ان القوارب الاخرى كانت بعيدة عن الناقلة، وقد شرد كل منها في اتجاه.

وكانت القوارب الاخرى غاصة بالركاب الى حد عجزوا معه عن تشغيل أعمدة الادارة. أما الاطواف الصغيرة فلم يكن لها ما يحركها على الاطلاق، كما ان وصول باخرة "وليمسبورغ" الضخمة إليها يشكل خطراً عليها. وازداد الخطر مع مرور الوقت، وبات إنقاذ الركاب الآخرين يقتضي وسائل جديدة.

إنقاذ جوّي

الى الطائرات التي وُجهت الى موقع الحادث، أرسلت قاعدة المندورف الجوية في آنكوراج طائرة استكشاف مروحية وعلى متنها طاقم إنقاذ مختص. وبما أن السفينة المنكوبة كانت على بعد ٦١٠ كيلومترات من القاعدة، فقد أُردفت الطائرة المروحية بطائرة اخرى لتزويدها بالوقود جوّاً عند الحاجة. كما أعدّ مركز الانقاذ الكندي الجوّي في بلدة كوموكس (مقاطعة كولومبيا البريطانية) طائرتين مروحيتين وأربع طائرات اخرى لأرسالها عند الضرورة. والمركز يبعد ٩٧٠ كيلومتراً جنوب جونو.

وأُعطي الأمر الى الطاقم الجوّي بمباشرة رفع الركاب من القوارب ونقلهم الى "وليمسبورغ"، على أن تنضم الطائرات الكندية الواصلة عصراً الى عملية الانقاذ. وكانت سفينة خفر السواحل "باوتويل" في طريقها الى مكان الحادث المتوقع أن تبلغه عند الاولى والنصف عصراً. وهي ستهب الى النجدة إذا اعاق سوء الطقس مهمة الطائرات.

وبُعيد الشروق كان الجوّ يعج بطائرات خفر السواحل المروحية الأربع وطائرة الاشراف وطائرة القوات الجوية المروحية الاستكشافية مع رديفتها، "محطة الوقود الطائرة". والواقع أن عمليات الانقاذ تتطلب برودة أعصاب وتعاوناً. وتولى بروس ميلنك إنزال طائرته المروحية الكبيرة التابعة لخفر السواحل في كودياك، حتى أصبحت على ارتفاع عشرة أمتار فوق أحد القوارب، ثم على ارتفاع ثمانية أمتار فستة أمتار، كيما يتسنى له رؤية القارب حسناً. وطلب من مايكل اوليفرسون، الملاح المولج بتدلية الاسلاك، مباشرة مهمته.

ونزل اوليفرسون وهو مربوط الى طائرته بحزام من النايلون، ودُليت وراءه سلة إنقاذ بطول ١٢٠ سنتيمتراً وعرض ٧٥ سنتيمتراً وعمق ٤٦ سنتيمتراً. وهي تعمل بواسطة مرفاع آلي، ولكن يجب أن ينزلها اوليفرسون

يدوياً الى القارب لضمان وصولها الى النقطة المناسبة. أما إذا تُركت لتنزل آلياً فوق القارب، فهي قد تسحق رؤوس الركاب. وما أن يصعد الراكب الى السلة حتى يجد نفسه في الهواء. وقد راودت بعض الركاب الخشية وهم يُسحبون الى الطائرة، وأغمضوا أعيُنهم لئلا يروا المشهد.

واستغرقت كل رحلة من القارب الى الناقلة "وليمسبورغ" ثلاثين دقيقة على الأقل. وعند انتصاف العصر شعر الملاحون بالارهاق. والمسؤولون عن سحب الاسلاك مُزقت قفازاتهم الجلدية الكثيفة من فرط الاحتكاك، وتشنجت عضلات أيديهم من السحب. إلا أنهم ثابروا على العمل. واستطاع ملاحو ميلنك وحدهم إنقاذ ١١٠ أشخاص.

وأظهر العديد من الركاب شجاعة مماثلة، على رغم المحنة. ونظرت إلسا هاتسون، وهي فوق الثمانين، الى المسألة بروح المغامرة. وخلال الساعة الاولى التي أمضتها في البحر وهي في القارب الرقم ٣، لم تأبه على الاطلاق لبطء حركة القارب. وتقيأت وتسرب البرد الى عظمها وهدها العياء. غير أن ذلك كله لم يُدخل الخوف الى نفسها، بل حداها على اتخاذ موقف إيجابي مما يجري.

وتذكرت بعض أحداث حياتها الطويلة. واستحضرت الى الذاكرة تلك الصباحات من حداثتها حين كانت امها ترسلها الى المدرسة وهي تقول: "لترف روح الله عليك وتمهد لك السبيل...الرب راعي فَلا يعوزني شيء". وكثيراً ما تذكرت ذلك المشهد الطفولي الذي أمدها بالقوة. أما الآن فراحت تكرر آية المزامير: "الرب راعي فلا يعوزني شيء."

وكانت هناك راكبة اخرى هي مارجوري تشيكوفيتس، لم تبرأ رجلاها تماماً بعد النوبة القلبية التي أصابتها قبل سنتين ونصف سنة. لكنها وزوجها ريتشارد أحبا السفر، ولم يمنعهما عنه كون مارجوري طريحة كرسيها النقال. وثابرت على تناول عقار "فينوباربيتال"، لكنها أدركت أنها ستنجو من تلك الكارثة التي لن تثنيها عن الرحلات البحرية.

ونزلت طائرة مروحية فوق القارب الرقم ٤، حيث مارجوري وريتشارد يتضامان. وحين دُليت سلة الانقاذ، ضربت رأس مارجوري فغابت عن الوعي. وراح أحد الملاحين يهدئ روع زوجها ويقول: "لا تخف، فهي ستستعيد وعيها. ولكن اذهب في السلة أولا وأخبر طاقم الطائرة بما حدث."

واستعادت مارجوري وعيها وهي على متن "وليمسبورغ". وهناك تولى طبيب معاينتها ونصحها بالنوم على ظهرها. ولازمها طوال تلك الليلة خوفاً من حدوث مضاعفات.

وبقي نحو ثمانين راكباً على متن الزورق الرقم ٤، وبينهم مدرسة اسمها جيني غيلمور. وخلال ذلك الليل، خُيل إليها أن الركاب جميعاً أخذوا يتقيأون في الوقت نفسه. وحاول بعضهم تكلف الرفق بقوله: "أرجو المعذرة." إلا أن كلا منهم تقيأ وهو في مكانه. وكان القارب مكتظاً بحيث استحال الوصول الى

حافته. ولكن ما أن أشرقت الشمس حتى أخذت جيني غيلمور تغني: "يا له من صباح جميل". وهي أيضاً كانت واثقة من النجاة: "لم يكن في نيتي البتة أن أقضي في خليج ألاسكا."

وبُعيد الظهر اتجهت طائرة مروحية الى "برينسندام" التي تصاعد دخانها من غير لهب، لأخلاء الملاحين الباقين. وتبين أن ذلك أعسر من عملية الانقاذ الخاصة بالقوارب. فقد كان مؤخر الباخرة الخامدة يعلو فوق الماء ثم يهوي بقوة، مع انحراف ١٥ متراً عند كل ترَجُّح. وبذل ملاحو الطائرة محاولتين مخفقتين لتدلية الاسلاك الى الباخرة.

لكن العملية نجحت أخيراً. وكان آخر المنقذين القبطان وابكي. وكانت تلك اللحظات من أقسى مراحل خبرته المهنية. وقال قائد الطائرة ان الربان بدا بارداً وقَلقاً، "لكنه، على رغم المحنة التي عاناها طوال ساعات، كان يرتدي بزّته الزرقاء كاملة، مع منديل أبيض حول عنقه. وبدا جليلا وهو يصافحنا واحداً واحداً ويوجه إلينا عبارات الشكر."

ضيوف غير منتظرين

بعد ركوبه الطائرة من محطة المندورف العسكرية الجوية، قلق الضابط الجرّاح دون هدسون على المشاكل التي تنتظره، خصوصاً مضاعفات البرد بالنسبة الى المتقدمين في السن. وعبر عن قلقه لاحقاً: "مع سقوط حرارة الجسم، تصاب جميع الوظائف الحيوية ببطء ملحوظ، ويغدو القلب عرضة للانتكاس. وإذا أُصيب أحدهم بنوبة قلبية وطفقنا نعالجه، فإن رؤية سائر الركاب لهذا الامر من شأنه إثارة خوفهم."

ونصح مرضاه على متن الناقلة بإبقاء حرام صوف حول أجسادهم، وكانت الطائرات المروحية حملت عدداً كبيراً منها. كما نصحهم بالاكثار من شرب الماء والسوائل الساخنة. وطلب من جميع الركاب الذين فحصهم إبقاء أعيُنهم مفتوحة على الآخرين وطلب النجدة فور اكتشاف أي سوء.

وقد أصاب البرد بعض الناجين فأحالهم كالمرمر جموداً. وكان بعضهم يتكىء مترنحاً على الجدران. وقال أحد الذين أصابهم الدوار للطبيب: أظن أني سأتناول الكافيار أولا، ثم شريحة من لحم البقر."

ولكن مهما يكن الامر، فقد أُعجب الدكتور هدسون برباطة جأش المسافرين. وقال رجل ناحل متقدم في السن: "لا تقلق عليّ. فهذه النوبة من الملاريا تصيبني مرّة في السنة. وخير لك أن تعتني بالمرضى الآخرين". وقد بلغت حرارة ذلك الرجل ٤٠ درجة مئوية على أثر نوبة حمى.

وكانت إحدى النساء في حال من الاسى الشديد على أثر تركها خاتماً كبيراً من الالماس في الغرفة كانت اقتنته بالجزء الاكبر من مدخراتها. وبعد ساعات قالت وقد فارقها بعض الكآبة: "الحمد لله أني حية، وفي إمكاني البدء من جديد."

وفي ساعة متقدمة من العصر، كان

على ظهر الناقلة نحو ٣٧٠ مسافراً. وأعطى الدكتور هدسون قرابة مئة كبسولة من النيتروغليسيرين لمرضى القلب، وكل الحبوب التي في حوزته هي ضد الغثيان. غير أن المسكنات التي طلبها الركاب لم تتجاوز الحبوب الست، فيما بلغ عدد المنومات ١٢ حبة فقط.

وقال الطبيب: "الواقع أننا محظوظون. ولو بقي بعض المرضى في القوارب ساعات أطول، لما استطاعوا احتمال ذلك."

وتولى طاقم "وليمسبورغ"، وعدده ٣١ بحاراً، خدمة ٣٧٠ ضيفاً غير متوقعين كما لو كان الامر عادياً. وعاونهم طباخو "برينسندام" في تحضير الشطائر مع الشاي أو القهوة وتقديمها لكل راكب لدى وصوله. واستمرّت هذه الخدمة طوال النهار والليل، إضافة الى الوقعات الرئيسية.

ووُزعت الملابس من خزائن "وليمسبورغ" على الوافدين الجدد، كما أعطاهم ملاحوها ثيابهم الاضافية عندالاقتضاء. ووجدت بعض النسوة أنفسهن يرتدين سراويل الرجال وقمصانهم وأحذيتهم.

وفي السادسة والدقيقة العاشرة عصراً، أصدرت "باوتويل" البلاغ الآتي: "لقد أُخليت "برينسندام" من طاقمها كله. والنار لا تزال تضطرم فيها." وتهلل مسؤولو مركز خفر السواحل في جونو لذلك النبأ. وعقب آمر المركز ريتشارد شويل: "لقد خرج الكل حيا من تلك المحرقة. ولحسن الحظ ليس هناك أي قتيل أو جريح."

ولكن في السابعة والدقيقة العشرين أُذيع بيان مناقض من قاعدة المندورف العسكرية يقول إن موظفيها لم يعودوا جميعاً. وأعطت اسمي الرقيبين جون كاسيدي وجوزيه ريبوس. ترى ما حلّ بهما؟

وكان القبطان وابكي أعلم مراكز الانقاذ بأنه سينزل ستة قوارب الى الماء. والواقع أن القوارب الستة والاطواف الاربعة أوصلت جميع ركابها سالمين. غير أن عدّ الركاب لم يكن ممكناً، إذ أن أربع طائرات مروحية توجهت بركابها الى قواعدها بعد عجزها عن التزوّد بالوقود في الجوّ.

وتولى كبار المسؤولين في مراكز الانقاذ دراسة الصور الفوتوغرافية التي التقطتها الطائرات للباخرة المحترقة. ولدى تكبير تلك الصور، تبين أن هناك أعمدة لثمانية قوارب، بينها الستة التي ذكرها القبطان وقاربان آخران. وأظهرت الرسوم أن أحد القاربين ما زال معلقاً في عموده، وهذا يعني أن سبعة قوارب أُنزلت الى الماء، وأن واحداً منها ضائع. ولم يكن ممكناً ارسال طائرات استكشاف لامتلاء الجو ذلك المساء بالغيوم. وتُرك للسفينة "باوتويل" أمر العثور على ذلك القارب.

رجال شجعان

الواقع أن المركب المفقود، وهو القارب الرقم ٦، كان أنزل الى الماء قبل الفجر وهو مليء بالركاب. وقال ملاح هولندي مسؤول: "لننطلق بعيداً عن الباخرة قبل أن تندلع النار فيها كلها." وكمثل

القوارب الاخرى، بدا أن تحريك عمود الادارة اليودي مستحيل. وهكذا بات القارب تحت رحمة الريح.

وكان أحد الركاب، وهو ايرفينغ بريكس، انفصل عن زوجته ايزابيل وسط الجلبة الملازمة لمغادرة الباخرة. واشتد قلقه عليها، إلا أنه شاء اختبار قدرته على احتمال برد الليل. ونسي بريكس عقار الانسولين الذي يتناوله ضد داء السكر في غرفته. إلا أنه لم يتورع عن إعطاء إحدى كنزتيه لثلاث نسوة جثن في ثياب النوم وهن عاريات الاقدام.

ومع الضوء شاهد بريكس طائرة مروحية على بعد مسافة، وهي علامة حسنة. وما لبثت طائرة اخرى تابعة قاعدة المندورف، يقودها الطيار جون التزر، أن حلقت في اتجاه القارب. الى موظف السحب، كانت الطائرة تنقل خبيرين آخرين هما الرقيبان كاسيدي وريوس اللذان لبسا ثياب غوص عازلة للماء استعداداً للنزول من علو منخفض الى الماء إذا دعت الحاجة. والحق أن والترز احتاج الى خدماتهما لأن طائرته كانت خالية من سلة إنقاذ واستعاضت عنها بشبه كرسي يمكن طيه وفتحه. وطُلب من كاسيدي وريوس تأدية هذه المهمة والحرص على ألا يضرب الكرسي رؤوس الركاب.

ولما أصبحت الطائرة على ارتفاع ثلاثة أمتار فوق الماء، قفز منها الرقيبان. وصعد ريوس الى القارب لمساعدة الركاب، فيما بقي كاسيدي في الماء للاهتمام بأمر الكرسي. ولكن بعد إعادة الكرّة أكثر من عشرين مرة، أُرهق كاسيدي وأصابه الغثيان من ابتلاعه الماء المالح وارتطامه بالقارب مراراً. وحين أُصعد الى القارب، اتكأ على حافته وتقيأ مرة بعد اخرى. وأخذ موظف السحب دوره في النزول الى الماء.

وما لبث الكابتن والترز أن استُدعي الى "برينسندام" لانقاذ من بقي عليها. وتلك كانت المرة الاولى يُعلق خلالها أمر القارب الرقم ٦. وحين عاد والترز، كان الغيم قد غطى المكان واشتدّت الريح وأخذ المطر يسقط ممتزجاً بالجليد. وزاد الطين بلة ارتفاع الموج. وفيما ريوس يثبت الراكب الخمسين في الكرسي، أتت موجة على القارب ورفعته من الناحية الخلفية. وعلى الاثر استحالت متابعة المهمة. وكانت الساعة الاولى والدقيقة الخمسين عصراً.

وأعلم والترز الطائرة المشرفة أن القارب الرقم ٦ ما زال يحوي بين ٢٥ و٣٠ راكباً. وتولت طائرة مروحية تابعة لخفر السواحل رفع بعضهم قبل عودتها الى الشاطىء للتزود بالوقود. وبقي في القارب نحو عشرين رجلا وامرأة، إضافة الى ريوس وكاسيدي.

ولم يكف كاسيدي الذي أتى عليه البرد والعياء، عن التقيوء. غير انه ظل يعطي الاولوية للركاب. وراح ايرفينغ بريكس الذي ساءت حاله هو الآخر، يراقبه بإعجاب. وقال لاحقاً: "كان مريضاً حتى الموت. لكنه، كلما تقيأ، كان يعود إلينا ويبذل جهده للتخفيف عنا."

وفي وقت متقدم من العصر، حاول كاسيدي إرسال نداء عبر جهاز في

حوزته. وإذ لم يحصل على جواب، سمع أزيز طائرة حجبها الغيم. وهو تعلم من خبرته ألا يُضيع وقتاً على هدف غير مرئي، إذ أن الهدف لن يراه هو الآخر. لكنه أشعل مصباح الطوارىء الكهربائي الذي يحمله، غير أن النور لم يبقّ متألقاً ما فيه الكفاية ليرى طاقم الطائرة القارب.

ومع اقتراب الظلام، قال أحد الركاب: "لا شكّ في أنهم نسونا."

وطمأنه كاسيدي بقوله: "كلا يا صديقي. فان جماعتنا في القاعدة العسكرية يعرفون أننا هنا. والمسألة كلها مسألة وقت". ثم طلب من جميع الركاب التوجه الى مقدم القارب، ونشر بمساعدة ريوس وقاء مشمعاً فوق رؤوسهم لتأمين بعض الدفء.

وبقي كاسيدي وريوس في مؤخر القارب المكشوف تحت رحمة البرد. لكنهما كانا في أتم اليقظة. وانهمر عليهما المطر وارتفعت الأمواج نحو عشرة أمتار.

وبعد سبع ساعات من ركوب البحر وسط سواد الليل، لمح كاسيدي نوراً متذبذباً في الافق. وكان ذلك النور آتياً من السفينة "باوتويل" وهي تبحث عن القارب المفقود. وأشعل ريوس نوراً للاشارة، بينما تلقى كاسيدي إشارة السفينة الضوئية بمرآة وأعادها الى مصدرها. وهكذا توجهت السفينة نحو القارب وبلغته في الاولى والربع فجراً.

ورُفع بريكس أولا الى السفينة. لكنه سقط وهو يقول: "اني لا أقوى على الوقوف". وحمله ستة بحارة الى طاولة في المستوصف الطبي للسفينة.

وهناك جُرد من ملابسه وحُقن بالمصل المغذي وغُسل مرتين، ثم أطعم وأعطي عقاقير مقاومة لدوار البحر مع جرعة انسولين. ولُفّ بأغطية صوفية وحُمل الى سرير. وقال في ما بعد: "تلك كانت أفضل عناية أعرفها في حياتي".

أما الشخص الاخير الذي رُفع من القارب الرقم ٦ فكان كاسيدي، وذلك في الثانية والنصف فجراً.

نجاح تامّ

في العصر التالي وصلت السفينة "باوتويل" الى سيتكا وعلى متنها ٨٧ ناجياً انضموا الى ستين زميلا لهم تمّ نقلهم جواً. وفي مساء اليوم نفسه وصلت الناقلة "وليمسبورغ"، التي أمضى طاقمها ٤٤ ساعة عمل، الى فالديز وهي تحمل ٣٧٠ ناجياً. وكان المسؤولون في الخطوط الهولندية ـ الامريكية طلبوا من الصيدليات ومحلات الالبسة في البلدتين ان تفتح أبوابها تلك الليلة. وأُعطي المسافرون كل ما يحتاجون إليه على نفقة الشركة، فيما استقبلهم الاهالي بحفاوة بالغة.

وشعر معظم الناجين بالغبطة لأنهم وُهبوا حياة جديدة، على رغم فقدهم بعض المقتنيات الثمينة. وبعد اغتسالهم وارتدائهم الملابس الجديدة التي زوّدتهم بها المحلات التجارية وسكان ألاسكا الكرماء، جلس العديد منهم في حانات فنادقهم قبل العشاء وهم يضحكون ويتبادلون النكات كما لو كانوا يقضون عطلة ممتعة.

وفي مستشفى فالديز، فُحصت مارجوري تشيكوفيتس ووُجد أن الصدمة لم تحدث أي كسر في رأسها. وزودها أحد الصيادلة بالعقاقير التي وصفها لها الطبيب، فيما أعطتها ادارة المستشفى كرسياً نقالا ليرافقها حتى المطار.

وفي ٦ اكتوبر (تشرين الاول)، بعد مضي اسبوع على مغادرتها فانكوفر، ظل الدخان منبعثاً من داخل "برينسندام" وهي تتحرك على غير هدى بسرعة عقدتين في الساعة. ووقف بحارة السفينة "ميلون" التابعة لخفر السواحل يراقبونها عن بعد ٢٤٠٠ متر وهي ترقص رقصة الموت.

وفي الصباح التالي نُقل فريق من تسعة أشخاص، بينهم الربان وابكي وكبير المهندسين بوت، جواً الى الباخرة. وكان نائب رئيس الخطوط الهولندية - الأمريكية وربان "برينسندام" السابق، آري فان نورت، طار من نيويورك الى آلاسكا للاشراف على عملية إنقاذ الباخرة. وأُنزل الفريق الى جانب حوض السباحة خارج مطعم الليدو. وفي إشراف وابكي، أُرخيت سلسلة الربط ووُصلت بزورق قطر أُرسل خصيصاً من فانكوفر. وفي الرابعة والنصف عصراً، كانت تجهيزات القطر قد أُنجزت.

في تلك الاثناء ساءت الاحوال الجوية وتعذر إخلاء الفريق. واستغل أعضاؤه الفرصة للكشف السريع على الباخرة. وكانت غرفة المحرك حيث اندلعت النار قد أُوصدت، وهذا يعني احتمال انطفاء الحريق هناك. إلا أن النار انتشرت صعوداً ونزولا بعد امتدادها الى غرفة الطعام الرئيسية. ودُهش وابكي للخراب الذي أحدثه الحريق في ذلك الوقت القصير. ونصح زملاءه بنفخ أحد أطواف النجاة وتجهيزه بالقرب من حوض السباحة حيث أمضوا الليل فوق أطلال "برينسندام"، كما يعود اللاجئون الى قراهم الخربة. ولم يكن هناك أي صوت داخلي أو ارتجاف محرك ليسكن نومهم المتقطع. ولم يسمعوا سوى صوت الريح والموج.

ونحو الفجر اندلعت النار بشدة من الابواب الجانبية للباخرة وأحدثت صوتاً مريعاً. واتصل الفريق بالسفينة "ميلون". وفي السابعة والنصف صباحاً وصلت طائرة مروحية ونقلت الرجال التسعة الى شاطىء الامان. وكان الماء يتدفق من الكوى المخلعة ويزيد من مَيَلان السفينة ساعة بعد ساعة.

وبالنسبة الى فان نورت، بدت "برينسندام" في لحظاتها الاخيرة. وقد ارتبط اسمه بها منذ أن كانت حبراً على ورق. ورافق مراحل صنعها وإنزالها الى البحر وكان وكيلا لربانها قبل تسليمه زمام قيادتها. وما لبث أن تسلم مسؤولية إدارية في مركز الشركة الرئيسي. وهو يقول: "لقد كانت بمثابة طفلة لي".

وفي الساعات الاربع والعشرين اللاحقة، ازداد انحراف السفينة حتى بلغ ثلاثين درجة ونزلت الميمنة تحت الماء وانصبت مياه كثيرة في الداخل. وكانت الميسرة من السخونة بحيث استحالت الامواج بخاراً.

وفي الحادي عشر من اكتوبر (تشرين الاول)، بعد مضي اسبوع على اندلاع النار في غرفة المحرك، ازداد الانحراف الى أربعين درجة. وفي الثامنة والنصف من صباح ذلك اليوم أُعتق مركب القطر وتُركت الباخرة على جانبها الايسر وأخذت تغوص ببطء. ويقول وابكي: "كانت تلك اللحظات من أقسى ما عانيت".

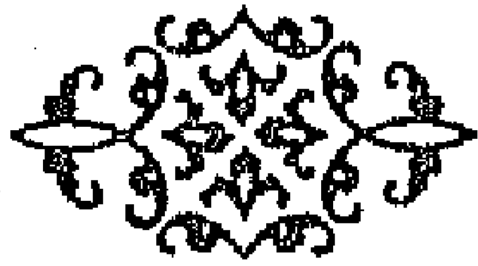
واليوم لم يبق أي دليل على إحدى أضخم الكوارث البحرية في هذا العصر وإحدى أضخم عمليات الانقاذ الجوي - البحري في تاريخ الملاحة. أجل، لم يبقَ شيء سوى الذكريات.

وفي نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨١، فتحت المحكمة البحرية الهولندية تحقيقاً حول حريق "برينسندام".

وفي السابع من الشهر التالي، تبين لهيئة المحكمة أن ربان السفينة ووكيله وكبير المهندسين ومعاونيه الاول والثاني اتخذوا مجموعة قرارات مخطئة بعد اندلاع الحريق. ومُنعوا جميعاً من العمل على متن أي سفينة تجارية هولندية فترات متفاوتة تراوح بين الاسابيع الثلاثة والشهرين.

ولئن بدت هذه العقوبات خفيفة، إلا أن الاحكام لوثت السمعة المهنية لاولئك الاشخاص. والحق أن أحكاماً من هذا النوع تتغاضى عن النواحي الايجابية وتقتصر على السلبيات، في حين أن الكثير من القرارات التي يتبين خطأها لاحقاً لا تكون هكذا وقت اتخاذها.

■ جوزف بلانك



شروق السينما

شاء مخرج شهير في هوليوود أن يصمم خاتمة قصيرة، ولكن مؤثرة، لأحد أفلامه، فتصوّر البطل والبطلة واقفين على حافة جبل والشمس تشرق من البحر وهما يتكلمان. وهذه المناظر لا تُصوَّر دائماً على الشاطئ، بل يتم تصوير الشروق ثمّ يُعرض على شاشة في محترَف التصوير حيث يؤدّي الممثلون أدوارهم أمامها.

واستعداداً لاتباع هذه الطريقة طلب المخرج من المصوّرين أن يأتوه بأجمل منظر ممكن للشروق. لكنهم عادوا صباح اليوم التالي ولما يلتقطوا تلك الصورة. فالشمس تغرب ولا تشرق من ساحل كاليفورنيا.

وسرعان ما حَلّ المخرج المسألة بقوله: "حسناً. صوّروا مشهد الغروب، وبعد ذلك نعكس الفيلم هنا، فنحصل على منظر للشروق."

ونُفذ التصوير على أحسن وجه. ولدى عرض الصورة معكوسة على الشاشة أبدى الجميع إعجابهم. ووقف البطل والبطلة يؤدّيان دورهما. ولكن سرعان ما صرخ أحدهم قائلا إنّ في الامر خطأ فادحاً.

أجل... فأسراب النورس كانت تحلق عكس وجهتها، وأمواج البحر تنطلق من الشاطئ الى الداخل.

هـ١٠ س١

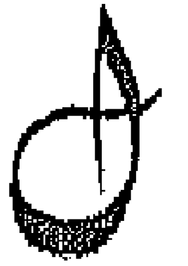
كتاب الشهر

افريقيا لا تعرف الاستقرار



ملخص من كتاب
بقلم ديفيد لامب

افريقيا لا تعرف الاستقرار



للدول الافريقية ثلث الاصوات في الأمم المتحدة، وهي نسبة لا تملكها اي قارة اخرى. ولا يستبعد ان الأرض الافريقية تنطوي على اغنى موارد العالم الطبيعية. وفي طاقة اراضيها الزراعية الفارغة ان تكفيها وتسد حاجة اوروبا الغربية. وتستطيع تربتها الخصبة انتاج عشرة اضعاف ما تنتجه اليوم، حتى مع عدم استصلاح اراض جديدة.

ولكن على رغم انهاء مرحلة الاستعمار فقد غدت افريقيا السوداء مجموعة دول تعيش على الهبات والقروض الخارجية. وهناك اسباب عدة لهذا الانهيار الاقتصادي. وفي هذا المقطع من كتابه الذي يحمل عنوان "الافريقيون" يحلل ديفيد لامب احد تلك العوامل، وهو عدم الاستقرار السياسي الذي يهدد مستقبل القارة الافريقية.

والمؤلف مراسل لصحيفة "لوس انجلس تايمس". وهو امضى اكثر من اربع سنوات في افريقيا الصحراوية حيث قطع اكثر من ٤٨٠ ألف كيلومتر بالطائرة والسيارة والقطار الى ٤٨ بلدا افريقيا.

افريقيا الثمانينات ليست بالمكان المبهج ولا هي تلك الارض التي يملأها الرجاء. وبعدما أعدّ المستعمرون الاوروبيون المسرح للكوارث، ها هم الافارقة يبذلون قصارى جهدهم لتحقيقها. واليوم، في طول القارة الافريقية وعرضها، ينهار الاقتصاد وتتقهقر المدن ويتضاءل الانتاج الزراعي ويقف الناس كالقصب في مهبّ الريح.

وكان آدم كودجو، الأمين العامّ لمنظمة الوحدة الافريقية، قال أمام مجموعة من القادة الافريقيين عام ١٩٧٨: "ان افريقيا تموت. واذا استمرّت الامور على هذه الحال، فلن يستطيع أكثر من ثماني دول افريقية أو تسع الصمود عبر السنوات الآتية. وبدلا من أن ينحسر الفقر، ها هو يكتسب سلطاناً مطلقاً. ولا يخفى أن اقتصاد قارتنا في الحضيض."

ان "الثورة" عبارة شائعة في القاموس السياسي الافريقي الذي حملها فوق ما تحتمله من المعاني. وكل رئيس جمهورية هناك يطيب له النظر الى نفسه كحصيلة احدى الثورات أو كمسبب لها. حتى عيدي أمين قال مرة: "بصفتي قائداً ثورياً، يحرمني برنامج عملي الراحة." لكن حمل البندقية لا يجعل من المرء ثائراً، لا ولا رصف الجمل الرنانة كفيل بالامر. ولا غنى للثائر عن نظرة الى المستقبل وخطة لاحداث اصلاحات جذرية. وقلائل هم الرؤساء الافارقة الذين يمتلكون رؤية ومنهجاً من هذا القبيل.

والحق أن افريقيا خالية من الثورات الشعبية. وما يحدث فيها كثيراً هو الانقلابات التي تنتقل فيها السلطة من يد الى أخرى داخل النخبة الحاكمة أو الجيش. وقد شهدت افريقيا عدداً كبيراً جداً من هذه الاحداث، حتى غدا الانقلاب بالنسبة اليها كالانتخاب بالنسبة الى الغرب، مع الفارق الآتي: ان المغلوب ينتهي في القبر او في السجن عوض احالته على التقاعد في مكان مريح.

ومن الامثلة على ذلك أن قادة الجيش في سيراليون أسقطوا الحكومة المدنية عام ١٩٦٧. ولكن ما هي الا أيام قليلة حتى قلبتهم زمرة أخرى من كبار الضباط ما لبثت أن قُلبت هي أيضاً بانتفاضة رقيب في الجيش. وهناك دولة افريقية هي بينين، وكان اسمها سابقاً داهومي، عرفت ستة انقلابات عسكرية وعشر محاولات انقلابية واثنتي عشرة حكومة وستة دساتير بين ١٩٦٣ و١٩٧٢. وفي العام ١٩٧٩ شنّ صغار الضباط في غانا انقلاباً أعدم خلاله ثلاثة رؤساء سابقين بتهمة الفساد. غير أن قادة الانقلاب لم يستطيعوا تحقيق أي اصلاح دائم. وسرعان ما استؤنف نشاط السوق السوداء وعاد موظفو الدولة يقبضون الرشاوى ويهربون الكاكاو الى البلدان المجاورة. وفي افريقيا ١٥ بلداً آخر عرفت انقلابين أو أكثر. ومع حلول العام ١٩٨٣ أصبح عدد الحكومات في بلدان افريقيا المستقلة التي قضت عليها الانقلابات العسكرية يتجاوز الخمسين وبلغ عدد البلدان التي شهدت هذه الانقلابات ثلاثين.

وهناك ثلاثة من هذه الانقلابات تستحق التمحيص، وكل منها حصل لأهداف تختلف عن الآخر وبوسائل فريدة.

الانقلاب الاول حصل في جزر القمر، وكان الدافع اليه سوء استخدام السلطة والقمع الذي عمدت اليه الحكومة. وجزر القمر ليست سوى أربع نقاط صغيرة وسط المحيط الهندي، واذا نظر اليها المرء من نافذة طائرة، فهي لا تتعدى جبل الجليد حجماً، وهذه الجزائر جميلة جداً وفقيرة جداً، وهي اشتهرت بزهرة "ايلانغ - ايلانغ" الغريبة التي يستخرج منها الفرنسيون العطر، لكن سكان هذه الجزر ليس لديهم الكثير باستثناء هذه الزهرة ولبّ جوز الهند المجفف والشطآن الرملية الجميلة ونسيم المحيط العليل، فهم يفتقرون الى المال والموارد ويعانون الامراض، وجمهوريتهم من مخلفات الاستعمار الفرنسي، وقد تبنتها حركة استقلالية وعدت بالكثير ولم تف الا بالقليل.

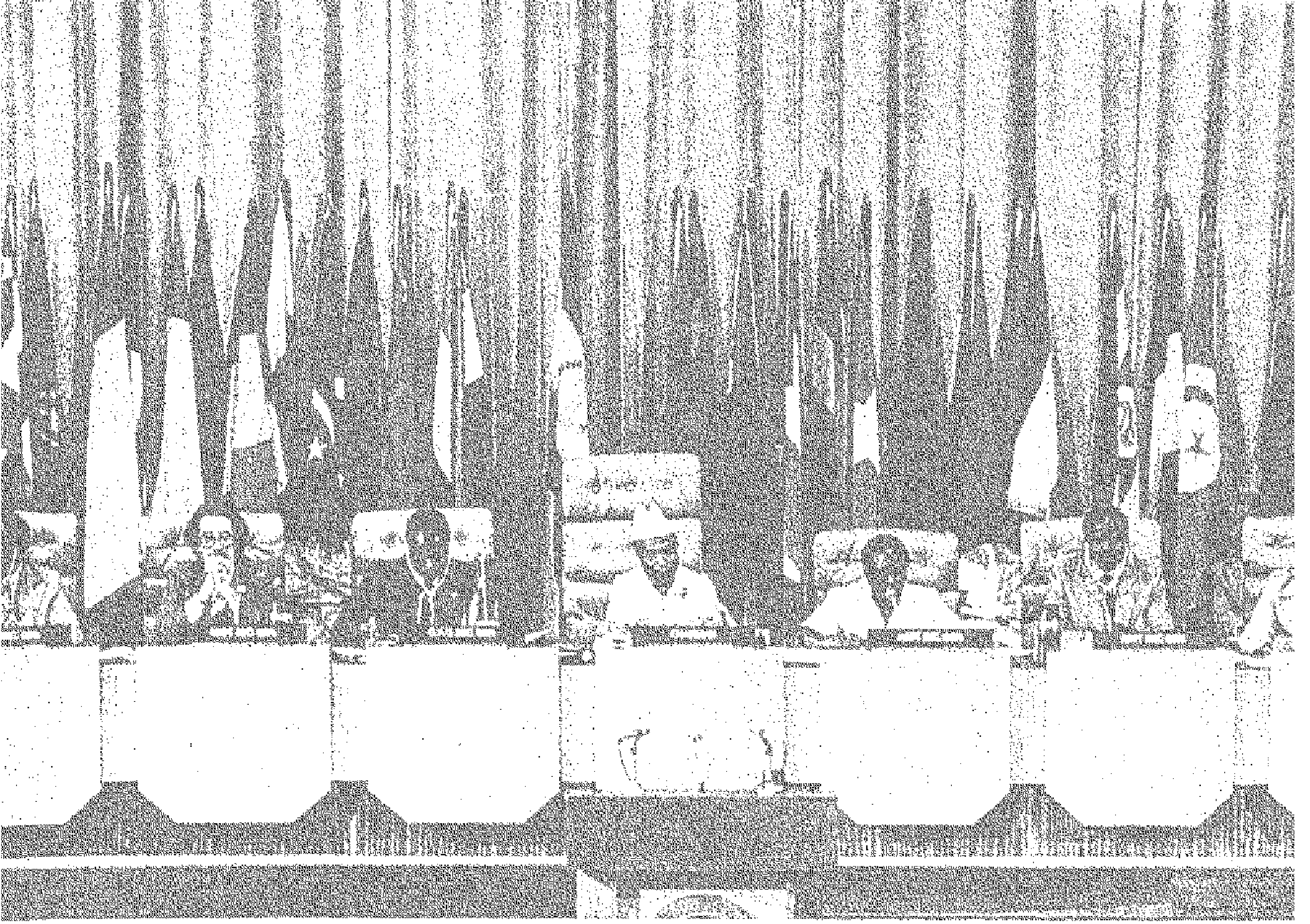
وماء الشرب لا يزالَ من الكماليات في جزر القمر، وهو يُجمع في صهاريج خلال موسم المطر، ونسبة الأمية بين سكان هذه الجزر الذين يقدر عددهم بأربعمئة ألف تبلغ ٨٠ في المئة، ونصف المواليد يقضي قبل الخامسة، وعدد الوظائف في البلاد كلها لا يتجاوز الـ٤١ ألفاً، وحين بلغت العاصمة موروني عام ١٩٧٨ كان عدد الاطباء تسعة فقط في الجزر الاربع، ولم تكن هناك أي آلة هاتف صالحة للعمل، وكان طبيب الاسنان الوحيد غادر قبل سنتين، ونصحني دليل سياحي محلي بأن أطير الى باريس اذا انتابني أي مرض.

وتبلغ مساحة جزر القمر ٢٢٣٦ كيلومتراً مربعاً، وهي أعلنت الاستقلال عن فرنسا من طرفها فقط في يوليو (تموز) ١٩٧٥، وهكذا غدت جمهورية، وأصبحت في ما بعد العضو الثالث والاربعين بعد المئة في الامم المتحدة، والجزر الاربع هي مايوت (ماهوري) وكومور الكبرى (نجازيدجا) وآنجوان (نزواني) وموهيلي (موالي)، وقد صوت سكان مايوت، وهم أربعون ألفاً وأغنى من سكان الجزر الاخرى، على البقاء تحت الحكم الفرنسي، غير ان منظمة الوحدة الافريقية حكمت بغير ذلك، بحجة أن بقاء السلطة الفرنسية فوق مايوت يشكل عملا استعمارياً وغير قانوني.

وهكذا سحبت فرنسا مساعدتها السنوية، ومقدارها ١٨ مليوناً و٥٠٠ ألف دولار، كما سحبت خبراءها الخمسمئة من تلك الجزر، وبعد ٢٨ يوماً فقط من انزال العلم الفرنسي عرفت جزر القمر انقلابها العسكري الاول، وفي السنوات الثلاث التالية حصلت محاولات انقلابية، فمات عدد من المواطنين وغصت السجون بالناس وعمّ الخوف الاهالي، ودخلت الجزر ما سُمي "العصر الاسود".

مجنون موروني

بدا علي صويلح شخصاً طبيعياً حين أتى الى السلطة بعد ستة أشهر من الاستقلال، وكان أجلح الرأس وذا بطن منتفخ قليلا وهو في التاسعة



قمة منظمة الوحدة الافريقية في مونروفيا: من من المشتركين سيبقى حيا في السنوات القليلة المقبلة؟

والثلاثين، وكانت له زوجة جذابة. وطالما تغنى بمثالية الثورة وفضائلها، ولم تصدر أي اشارة الى أن ذلك الرجل، وكان موظف دولة لطيفاً، سيغدو عما قريب "مجنون موروني".

ويذهب بعضهم الى أن المخدرات والكحول فعلت فعلها بعلي صويلح. ويقول آخرون انه عانى انهياراً عصبياً، ومهما يكن فلا شك في ان ضغوط الرئاسة تجاوزت مقدرته على التحمل. وما لبثت ملذاته وأهواؤه الشخصية أن كسفت أهدافه القومية. أما الرجال الذين يتمتعون بالذكاء أو بالجرأة على الكلام فقد سُجنوا جميعاً او قُتلوا ولم يبقَ سوى المتملقين الأذلاء. وأصبحت جزر القمر دمية بين يدي علي صويلح يلهو بها كما يشاء. فطرد موظفي الدوائر الرسمية، وعددهم ٣٥٠٠، وسلم مكاتبهم للمراهقين المرذولين. ثم جعل السن الانتخابية تبدأ في الرابعة عشرة.

وأمم صويلح جميع المرافق من سيارات الأجرة الى المخابز. واستقدم جنوداً من تانزانيا لتدريب جيشه وتأمين الحماية الشخصية له.

وكان يمكث أياماً داخل قصره المكسو بالجص الأبيض ويرفض مغادرته أحياناً، وطلق امرأته. وفي النهار كان يأخذ حبوب الفاليوم المسكنة. وغدت عيناه حمراوين كالدم وصار يهذي ويتكلم بمشقة.

وفي شوارع العاصمة موروني كان "لواء الاحداث"، وهم أولئك الأميون الذين أطلق صويلح أيديهم، يعبرون أمام الدكاكين الفارغة والمدرسة الثانوية المقفلة، فيقتلون ويروعون ويغتصبون. وكانوا يسوقون المجرمين العاديين في الشوارع الضيقة وقد ألبسوهم أكياس الخيش وحلقوا رؤوسهم وطلوا وجههم بالخطوط البيضاء.

وكان أعوان السلطة ينظمون مسيرة من هذا النوع في المطار لدى وصول ديبلوماسي من المانيا الغربية للبحث في مساعدة زراعية كانت حكومته تفكر في تقديمها الى جزر القمر. ووقف الديبلوماسي الالماني ينظر باترباك فيما الرعاع يسوقون أسراهم سوق الغنم. وبعد ذلك أخذ في سيارة الى موروني حيث قابل مسؤولين رفيعي المستوى. وكان الواحد منهما لا يتجاوز السابعة عشرة وليس لديه أي فكرة عما يجب بحثه مع الزائر الرسمي. ويتذكر الديبلوماسي تلك الزيارة قائلا: "كانت تلك خبرة مدهشة حقاً." وقد غادر موروني بعد ثلاث ساعات، ولم تحصل الجزر على المساعدة الالمانية.

وذات يوم قال وزير الخارجية عباس يوسف للرئيس صويلح: "لا يمكن أن ندير الدولة على هذا النحو. لقد بدأ المواطنون ينعتوننا بالجنون. والدولة تعاني الشلل التام."

وصاح صويلح: "اخرس! ألا تعرف أن لديّ رؤى عظيمة؟ ألستَ تدري أني أنا وليّ نعمتك ومصيرك؟" وفي اليوم التالي اقتيدت والدة يوسف البالغة الخامسة والسبعين وسط الشوارع وقد ألبست كيساً من خيش، ثم وُضعت في السجن لتهمة لم يعرفها أحد.

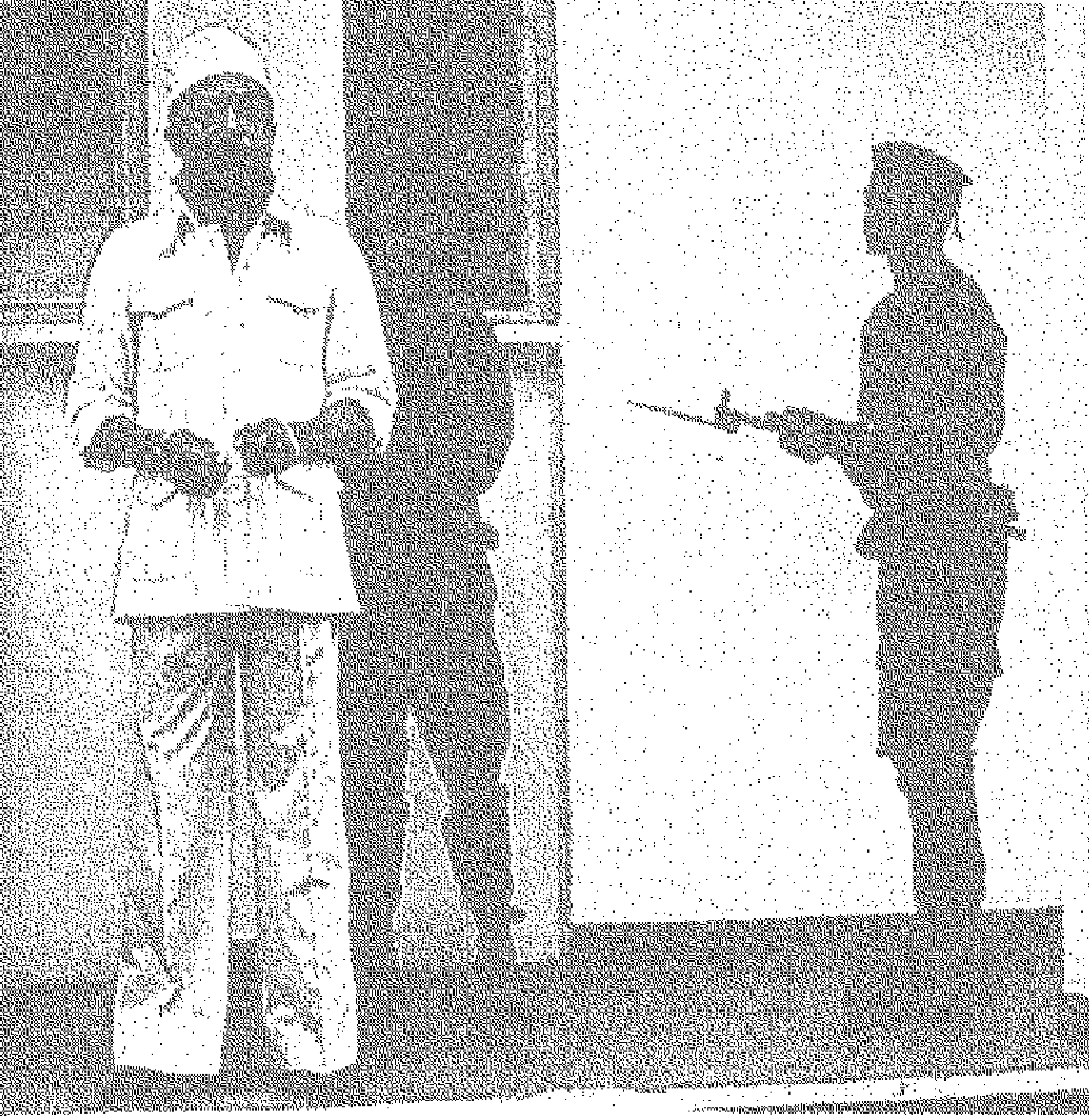
وقابل المواطنون ذلك الجنون بالصمت. وهذا الصمت لم يكن نسيج وحده في افريقيا، حيث يستطيع الرؤساء اختلاس الخزينة وتلويث أيديهم بدماء ألوف المواطنين وممارسة الحكم كأسياد القرون الوسطى، وفي الوقت نفسه اخضاع مواطنيهم واستعبادهم.

ولكن في وقت ما، بعد بلوغ العبودية والجنون حداً لا يطاق، تصبح حياة الرئيس ومنصبه في خطر. وفي ربيع ١٩٧٨ حانت ساعة علي صويلح.

بطولة عميل

كان بوب دينار في التاسعة والاربعين عندما قصده اعداء صويلح وعرضوا عليه قضيتهم. وقد أطلق دينار على نفسه لقب خبير عسكري. وحملته مهنته من الهند الصينية الى افريقيا خلال عقدين عرفت فيهما القارة السوداء الحروب. وفي بلدان افريقية كثيرة كان اسم بوب دينار يثير الكراهية والخوف اكثر من أي اسم آخر. كان ذلك الشخص الأبيض الفرنسي المولد عميلا مرتزقاً، وعلى استعداد لتنفيذ مؤامرات الافريقيين التي لا يستطيعون هم تنفيذها في مقابل أجر. وفي العام ١٩٧٨ كانت الحروب وضعت اوزارها، ولكن ما زال أمام دينار ما يستطيع انجازه.

ولم يكن دينار بالغريب على جزر القمر. والواقع انه ساعد في تنفيذ


علي صويلح في الاقامة الجبرية بعد الانقلاب


بوب دينار،

الانقلاب الذي حمل صويلح الى الحكم، وغادر الجزيرة قبل ان يفصح صويلح عن افكاره المتطرفة.

وأبرز الذين قصدوا دينار اثنان هما أحمد عبدالله رئيس الجزر الأول الذي يعيش في المنفى ومحمد احمد رجل الاعمال الثري الذي كان نائباً لعبدالله خلال فترة رئاسته.

وجمع الرجل فرقة من ٤٨ رجلا، جلهم من الفرنسيين والبلجيكيين ولكل منهم اختصاص عسكري معين. وفي ابريل (نيسان) ١٩٧٨ انطلق الرجال من أوروبا في سفينة صيد صدئة. وبعيد منتصف ليل الثالث عشر من مايو (أيار) رست السفينة قبالة شاطىء كومور الكبرى.

وكعادته كان فندق "ايتساندرا" فارغاً، وهو أكبر فنادق الجزيرة. وفي الثكنة العسكرية الواقعة هناك كان عبدالله مداهوما، أحد غلاة انصار الرئيس السابق، يمضي السنة الثانية من عقوبته في زنزانة خالية من النوافذ. وكان تناول وجبته اليومية من الرز والفاصوليا وقبع مع الوزراء الثلاثة السابقين الذين شاركوه في المهجع، وهو غرفة مربعة تبلغ مساحتها أربعة امتار. وجلس الرجال الاربعة يتحدثون عن صحة الاشاعات التي تتكلم عن انقلاب وشيك.

والحق ان علي صويلح سمع تلك الاخبار. لكن جان غيلسو طرد عنه المخاوف. وغيلسو هذا عميل فرنسي قصد جزر القمر مع دينار عام ١٩٧٥ وبقي لتدريب جيش صويلح. وهو الآن شريك في المؤامرة الجديدة. وأقنع صويلح بأن الخطر يأتي من جزيرة

آنجوان المجاورة. وهكذا وجه الرئيس جيشه الذي يضم ٢٠٠٠ رجل الى آنجوان، وبقيت العاصمة موروني من غير حماية.

وكان صويلح ساهراً في قصره الواقع على قمة تلة حتى وقت متقدم بعد منتصف الليل، ينادمه الفرنسي أولا شاري كريستيان وهو ممثل شركة ملاحة اخفقت على الدوام في ابرام صفقة مع صويلح. غير ان مهمة كريستيان هذه المرة كانت تختلف عنها في المرات السابقة. فقد اتجهت افكاره ناحية البحر حيث بوب دينار.

وقبيل الرابعة فجراً تبلغ دينار رسالة عبر الراديو تقول ان صويلح استسلم لنوم عميق. وسوّد رجال دينار وجوههم بالأصباغ وحملوا الرشاشات القديمة والقنابل اليدوية وانتقلوا في أطواف ثلاثة من سفينتهم الى الشاطىء بالقرب من فندق ايتساندرا.

وتوزع العملاء في فرق ثلاث توجهت احداها الى محطة الاذاعة عبر الطريق الساحلية. والاذاعة هي الهدف الاول في اي انقلاب افريقي. واتجهت الفرقة الثانية نحو القصر الرئاسي. أما الثالثة فذهبت شمالا الى الثكنة العسكرية. وهناك دارت معركة قصيرة بالسلاح قُتل فيها الحراس وفُتحت ابواب السجن الخشبية وأطلق المعتقلون الثلاثمئة.

وهكذا انتهت الحرب القصيرة واستطاع ٤٨ رجلا الاستيلاء على دولة في ثلاث ساعات. وبلغت الخسائر عشرة قتلى في صفوف الجنود المحليين. أما الآخرون فقد فروا او القوا سلاحهم. ولم تقع بين المغيرين اي اصابة. لكن احدهم رضّ كاحله.

وعند وقت الفطور تلقى الرئيس السابق احمد عبدالله وهو في باريس مخابرة هاتفية من معاونه محمد أحمد الذي قال له ان العملية نجحت وان صويلح اعتُقل داخل القصر. واستسلم الجيش ونزل المواطنون الى الشوارع راقصين.

وبعد اسبوعين عاد احمد عبدالله الى موروني ولقي استقبالا حافلا. وفي تلك الاثناء تولى المرتزقة قتل علي صويلح رمياً بالرصاص، وبرروا ذلك بحجة محاولته الفرار.

وكان رد الفعل الافريقي الرفض القاطع لما حصل. ورفضت قمة منظمة الوحدة الافريقية الاعتراف بالحكومة الجديدة. وبدا حضور العملاء البيض في جزر القمر كالملح في الجرح المفتوح، لأنهم ذكروا الحكومات الافريقية بأنها ليست سيدة مصيرها حقاً.

الا ان سكان جزر القمر نظروا الى بوب دينار كبطل انهى كابوساً مرعباً جثم زمناً فوق رؤوسهم. وجعلته الحكومة الجديدة قائداً للقوات المسلحة.

وأحكم العملاء البيض قبضتهم على المراكز الحساسة كوزارتي الدفاع والمواصلات. ونظموا البريد وباشروا اصلاح الهاتف. كما اتخذوا التدابير لرفع المهملات من الشوارع وأنشأوا مستوصفاً صحياً وعلموا الأهالي طلي منازلهم الحقيرة بالكلس. واقاموا جيشاً جديداً

وانتقلوا الى المنازل الفخمة التي احتلها أتباع صويلح يوماً.

ولقد وصلتُ الى جزر القمر بعد وقت قصير من مقتل صويلح. ووجدت ان عقلية الناس تبدّلت في اسابيع قليلة. وكان رجال الأمن العام الذين استقبلوني بحفاوة على المطار الأشخاص عينهم الذين كانوا يقابلون الصحافي الاجنبي بالاعتقال او بالضرب قبل شهر واحد. اما الاحداث الذين لم يكفوا عن الكلام على الفظائع في عهد صويلح فكانوا اعوانه انفسهم الذين اقتادوا المغضوب عليهم عبر الشوارع قبل وقت قصير. وقال لي احدهم: "كنا ننفذ ما يُطلب منا."

وعادت جزر القمر بسرعة الى ما كانت قبل حكم صويلح. وعمد عبدالله الى الغاء التأميمات وأعاد العلاقات مع فرنسا وأجرى انتخابات عامة وفتح المدارس وأعاد البالغين الى الادارات الرسمية.

أما بوب دينار فلم تسمح له ردود الفعل الافريقية بالبقاء في موروني. وقَبِلَ ان يغادرها على مضض. وأقام له الرئيس عبدالله مائدة سخية قبل مغادرته. وقال له: "مهما قال بعض الناس في العالم، فأنت تترك هذه البلاد بطلا قومياً. وفي امكانك ان تعود الى جزر القمر متى شئت. ولكن اذا عدت على الاطلاق، فالرجاء ان تعود سائحاً."

الدوافع

من أهم الحقائق عن الانقلابات الافريقية ليس كثرة عددها، بل قلة أثرها في المواطن العادي. وغالباً ما تحصل تلك الانقلابات تحت شعار الاصلاح الاقتصادي والعدالة الاجتماعية. غير انها نادراً ما تحقق هذا الهدف او ذاك. واذ يستيقظ المواطن الافريقي من نومه على صوت جنرال مجهول يعلن عبر المذياع اسقاط الحكومة، فهو يطمح الى الأفضل ويفعل ما يُطلب منه. لكن الواقع لا يلبث ان يخيبه معظم الأحيان.

ولا نكير ان الانقلابات العسكرية قد تحدث تبدلا جذرياً في التوجه السياسي للدولة، كما حصل بعد قلب حكومة الامبراطور هيلاسيلاسي الاقطاعية الموالية للغرب. فقد تسلمت شؤون اثيوبيا بعد ذلك حفنة من الجنود، ولكن باستثناء سياسة الاصلاح الزراعي التي انتهجها أولئك الجنود، لم يعرف الكثير من الفلاحين الاثيوبيين ان ثمة حكومة جديدة في أديس ابابا. وحتى في اوغندا لم يغير انتقال القيادة من ملتون أوبوتي الى عيدي أمين الحياة في المناطق الزراعية التي يسكنها نحو ٨٠ في المئة من الاوغنديين.

هذا الفاصل بين الحكام المتمركزين في المدن ورعاياهم الريفيين هو أحد الأسباب التي تفسر ترحيب الافريقيين بمعظم الانقلابات التي تشهدها بلدانهم. ذلك بأن حياة الريفيين من العسر بحيث يغدو كل تبديل في السلطة مجالا لتحسين الأوضاع.

وينبغي التنبه الى ان الدول الافريقية الواقعة ضمن الصحراء

الكبرى عرفت الاستقرار السياسي خلال السنوات الست التي اعقبت الاستقلال، اي في الفترة الممتدة بين ١٩٥٧ و١٩٦٢. ولكن في العام ١٩٦٣ اغتيل مؤسس توغو ورئيس جمهوريتها سيلفانوس اوليمبيو على باب السفارة الامريكية في العاصمة لومي التي قصدها طلباً للحماية. وكان الرئيس الامريكي الأسبق جون كينيدي وصف اوليمبيو بأنه "شخصية فذّة ليس في افريقيا وحدها، بل في العالم كله." وقد انتهج اوليمبيو خطاً سياسياً واقتصادياً معتدلا، وبذل جهده لبث الحياة في القطاع الزراعي ولسدّ عجز الخزينة وانهاء الاعتماد المالي على الحكومة الفرنسية. الا انه دفع حياته ثمناً لرفضه رفع رواتب افراد جيشه المئتين والخمسين. ولم يصدّق اولئك العسكر، كما لم تصدق افريقيا كلها، كيف استطاعوا تسلم السلطة بتلك السهولة. وكانت بضع طلقات نارية كافية لتأسيس حكم جديد. كما كان اغتيال اوليمبيو الأول من نوعه في افريقيا، ومعه بدأت مرحلة من عدم الاستقرار في القارة كلها لم يعرف العالم المعاصر مثيلا لها.

ومن العوامل التي تفسر الانقلابات الافريقية التنوع القبلي الذي يحمل معه صراعاً على السيادة. فهناك ما لا يقل عن خمسين قبيلة رئيسية تضم الواحدة منها مليون عضو او اكثر، ناهيك بالقبائل الأصغر حجماً وهي تتجاوز الألف. وهناك سبب آخر في الحدود المفتعلة التي رسمها المستعمرون بين بلد وآخر، وسبب ثالث في القاعدة الاقتصادية المضطربة. ولا شك في ان شخصية القادة تشكل عاملا آخر مهماً للأسباب الآتية:

□ الشعور بفقدان الأمان الذي لازم الرؤساء الافريقيين دفعهم الى اضطهاد المنشقين وذوي الافكار الخلاّقة، فقتلوا بعضهم وسجنوا البعض الآخر او أبعدوه. واخضعوا الصحف والاذاعات وجميع وسائل الاعلام الاخرى لسلطان الحكومة. وهكذا اشتدت المعارضة المستترة وقوي عدم الرضا. وغدا كل بلد افريقي كوعاء الطبخ المضغوط الذي انسدت منافذه. وكان لا بد من الانفجار.

□ استطاع الاستعمار تأمين الاستقرار والقانون والنظام واستمرار الحكم. ثم انتهت تلك الفترة وبدأت فترة الحكام المحليين. وكان ان الكثير من اولئك الحكام الذين امنوا الانتقال من مرحلة الاستعمار الى مرحلة الاستقلال اقصي في انقلابات عسكرية قام بها اناس طامحون ليس لهم من السلطة سوى ما يأتيهم من طريق السلاح والبطش.

□ فرضت القوى الاستعمارية على افريقيا نظاماً سياسياً غير عملي ضمن الاطار الافريقي، وهو النظام الديموقراطي التمثيلي حيث ينتخب الشعب مجالس نيابية. وكلما حصل بلد على استقلاله كان حكامه يلجأون الى حل المجالس التمثيلية من غير ان يقدّموا بدائل معقولة. حتى اذا أقصيت حكومة الاستقلال بانقلاب عسكري، عجز الانقلابيون عن تحقيق

اي شيء واقتصرت مهمتهم على تمهيد الأرضية لانقلاب آخر.

□ اذا استولى رجل على السلطة في افريقيا، فهو لا يتخلى عنها بارادته. وهذا يعني ان الرؤساء يسعون الى جعل ولايتهم تدوم مدى الحياة. ومن هؤلاء جان - بيديل بوكاسا رئيس جمهورية افريقيا الوسطى المخلوع الذي اعلن نفسه امبراطوراً. ومهما يكن تنحيه ملحاً، فالرئيس الافريقي يتشبث عادة بالحكم الى ان يُقتل او يُخْلَع. فهو يؤمن على غرار زعماء القبائل والقرى ان سلطانه مطلق ودائم.

يقول شخص عليم في حكام افريقيا اليوم: "ثمة أمور مشينة تحصل في افريقيا. وبعض السبب يكمن في الصفة المبتذلة التي يتمتع بها حكام تلك القارة. وفي اي مكان نظرت لا تجد سوى الاسلحة والناس التعساء."

هل عرف القارىء صاحب هذا الكلام؟

انه افريقي اسمه جيمس مانتشام. وهو حكم جزر سيشل أحد عشر شهراً وسبعة أيام، واعتاد أن يقول لشعبه: "سموني جيمي فقط." وسيشل هذه مجموعة جزر في المحيط الهندي تبعد ١٦٠٠ كيلومتر عن ساحل كينيا. وحين قال مانتشام هذا الكلام أمامي كان جالساً في مطعمه المفضل في لندن بعد أيام قليلة من اقدام رئيس وزرائه ألبير رينه على اطاحته بمساعدة ستين مسلحاً.

وراح مانتشام يتذكر أيامه في الحكم والاخطاء التي اقترفها. وربما



جيمس مانتشام.

كان أكبر تلك الاخطاء اعتقاده الساذج أن بلاده تتميز عن بقية البلدان الافريقية ببراءتها. غير أن انقلاب ١٩٧٧، وان يكن حصل من غير اراقة دماء، كان عملا أحمق لا لزوم له.

وكانت سيشل، بعدد سكانها البالغ ٦٥ ألفاً، أصغر بلدان القارة الافريقية. غير ان معدل دخلها الفردي، وهو ٦٥٠ دولاراً في السنة، كان من أعلى مداخيل افريقيا. والامر نفسه يقال في نسبة المتعلمين وهي ٦٥ في المئة بين الاشخاص الذين تراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والثلاثين، وفي معدل الحياة وهو ٧٠ سنة للنساء و٦٣ سنة للرجال. كما كانت الجزر خالية من حمى الملاريا وسواها من الامراض التي سببت الشقاء للبلدان الافريقية الاخرى. وكان هناك انسجام بين مواطني

سيشل، ومعظمهم متحدر من المستوطنين الفرنسيين وأرقائهم الافارقة. أما مانتشام نفسه فهو من أصول فرنسية وصينية. وكانت حياة الجزر هادئة بحيث لم تنشأ لديها حاجة الى جيش. وقال مانتشام: "ليس من البطولة الاستيلاء على سيشل. وفي وسع ٢٥ شخصاً مسلحين بالعصي أن يفعلوا ذلك."

وكنت قابلت مانتشام في سيشل للمرة الاخيرة قبل أيام من انقلاب يونيو (حزيران) ١٩٧٧ ضده. وكان مانتشام آنذاك في السابعة والثلاثين وقد أرخى لحيته. ودخل مكتبه الرئاسي وهو يرتدي قميصاً مكسيكياً مزركشاً فتحة عند الصدر وسروالا متسعاً بالتدريج من فوق الى تحت وحذاء ليناً من غير جوارب. وفرك عينيه المثقلتين بالنعاس من حفلة الليلة الفائتة ونظر الينا وقال: "اني لا أؤمن بالاماتة ونكران الذات. وأظن أن معظم قادة العالم يحبون أن يعيشوا كما أعيش لو استطاعوا ذلك."

وكان عليّ أن أذكر نفسي مراراً بأن تلك المقابلة تتم مع رئيس جمهورية. وهي مقابلة لم أعرف مثيلا لها قبل ذلك الحين. والسبب أني لم أقابل أحداً على غرار مانتشام.

واعتاد جيمي مانشتام الذي درس الحقوق في باريس ولندن من غير أن يمارس المحاماة، التجول في جزيرته بسيارة "رولز رويس" زرقاء مكشوفة أهداها الى الدولة أحد المعجبين البريطانيين. وكان طلق زوجته حديثاً ولم يخف رغبته في أن يبدل سيدة القصر آخر كل أسبوع، كما لم يبذل جهداً لفصل حياته الخاصة عن حياة الرئاسة. وكان يقول: "ما الخطأ في أن يكون المرء سعيداً ومرحاً".

وفي قصر الرئاسة وضع مانتشام حداً للكلوح الموروث عن المستعمرين البريطانيين. وأقام المآدب السخية والحفلات المترفة. وفي معظم الليالي كانت أرجاء القصر تضجّ بالغناء والضحك حتى الفجر.

وخلال رحلاته الكثيرة الى الخارج كان مانتشام يعدّ الاخبار الصحافية ويرسلها برقياً الى الصحف المحلية. واذا لاحظ وهو يستمع في قصره الى الاذاعة المحلية أن المسؤول عن الاسطوانات الموسيقية تغافل عن مهمته، لبس سروالا قصيراً وأسرع الى محطة الارسال وأمضى ساعتين يقرأ الاخبار ويختار التسجيلات الموسيقية ويلقي مختارات من شعره.

ولئن صح أن مانتشام تمتع بالحياة الى أقصى الحدود، فهو في الوقت نفسه عمل على نحو لا يعرف الكلل وكان بمثابة وكالة للعلاقات العامة مجتمعة في شخص واحد. وسافر حول العالم وهو يمتدح مفاتن وطن لم يسمع به معظم الناس من قبل. وهكذا أقيمت الفنادق الفخمة في الجزر وازدهرت السياحة وتوافد الناس من أنحاء المعمورة للاستمتاع بروائع تلك الجنة الاستوائية التي كانت غاية رئيسها المعلنة أن يضع فتى مع آلة موسيقية تحت كل شجرة نخيل.

ومما قاله مانتشام في تلك المقابلة في مكتبه: "اننا ننتمي الى بلد صغير

هادىء٠ولا يجوز أن ندعي ما ليس لنا (٠٠٠) اذاً لنكن ما نحن، وكفى٠"

بنادق تحت النخيل

هذا الهدف ليس سهلا بالنسبة الى بلد افريقي٠ وحين طار مانتشام الى لندن في الاول من يونيو (حزيران) ١٩٧٧ لحضور مؤتمر منظمة الكومنولث (رابطة الشعوب البريطانية) لرؤساء الدول، ودعه رئيس وزرائه ألبير رينه على المطار كأحسن ما يكون الوداع٠ وبعد أيام أربعة وجه رينه قواته التي تلقت تدريبها على أيدي التانزانيين الى محطة الاذاعة٠ وانتظروا هناك حتى الصباح الباكر حين أعلن رينه عبر ناطق باسمه أنه قلب حكم مانتشام ولن يسمح له بالعودة الى سيشل٠ وكان يفصل البلاد عن عيد استقلالها الاول ٢٣ يوماً٠

ووجه رينه النقد الى طريقة حياة مانتشام المتهورة والمترفة، وقال انه أمضى وقتاً طويلا في رحلاته ولم يرعَ شؤون البلاد كما ينبغي٠ وأضاف ان طريقة مانتشام تصلح لسفير متجول أكثر من صلاحها لرئيس جمهورية٠ ولكن لا شك في أن سيشل كانت بقيت موضعاً منعزلا ومجهولا لولاه٠

وما ان أزيح مانتشام من مكانه حتى أمم رينه الاقتصاد جزئياً وسجن بعض الخصوم السياسيين وأسس جيشاً يشرف على تدريبه ضباط من تانزانيا٠ وضعف الاقتصاد الوطني٠ وفي العام ١٩٨٠ احتفلت سيشل بالذكرى الثالثة لانقلاب رينه التي رافقها عرض عسكري في شوارع العاصمة فيكتوريا٠ وسار العسكريون ببزاتهم وسيروا الآليات وعرضوا أسلحتهم في كل مكان٠ وكانت أشجار النخيل على امتداد الطريق تميل مع الهواء٠ الا ان الشبان نسوا الآلات الموسيقية وامتشقوا البنادق٠

وفي نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨١ موّل مهاجرو سيشل الاثرياء مجموعة عملاء بيض من جنوب افريقيا لاطاحة رينه٠ غير أن المحاولة قضي عليها في المهد٠ وأنكر الرئيس السابق مانتشام أي علاقة له بذلك الحادث٠

وحين قابلته في لندن قال: "جاءني شخصان من الخارج، لن أذكر اسميهما، قبيل الانقلاب ونصحاني بابعاد رينه قبل ان يبعدني هو٠ وأضافا ان عليّ قطع رأسه اذا شئت البقاء في الحكم٠ لكن هذا أمر لا أستطيعه٠ وطوال فترة حكمي لم يكن في السجون أي أسير سياسي٠ وربما كان هذا الامر من علائم ضعفي٠ واذا شاء المرء أن يكون رئيساً في افريقيا ولم يكن قادراً على العنف، فلا بد من ان يفقد وظيفته عاجلا أم آجلا٠ ولكن ها أنا حي"٠ وليس هناك سوى أقلية ضئيلة من الرؤساء الافارقة السابقين على قيد الحياة٠ كما أن شعبي استمتع بالحياة خلال عهدي٠ وكم من الرؤساء الذين حكموا افريقيا يستطيع أن يقول ذلك؟"

الكراسي الموسيقية

في مطلع يوليو (تموز) من كل عام يجتمع نحو خمسين رجلا من الذين يشغلون أخطر المناصب السياسية في العالم في احدى العواصم الافريقية لتداول شؤون القارة السوداء٠ وهذا

هو اجتماع القمة السنوي لمنظمة الوحدة الافريقية يفسح في المجال امام الرؤساء لكي يواجهوا - أو يتجنبوا - المسائل الخطيرة التي تعوق تقدم افريقيا. ويبدأ الاجتماع بالعناق الاخوي والتعاهد على الوحدة وينتهي بعد أيام ثلاثة بعودة الرؤساء والجنرالات الى بلدانهم وهم يجرون أذيال الخيبة والغضب لعجزهم عن تأمين الاجماع المنشود ولاقتصار اتفاقهم على أمر واحد هو ألا يتفقوا.

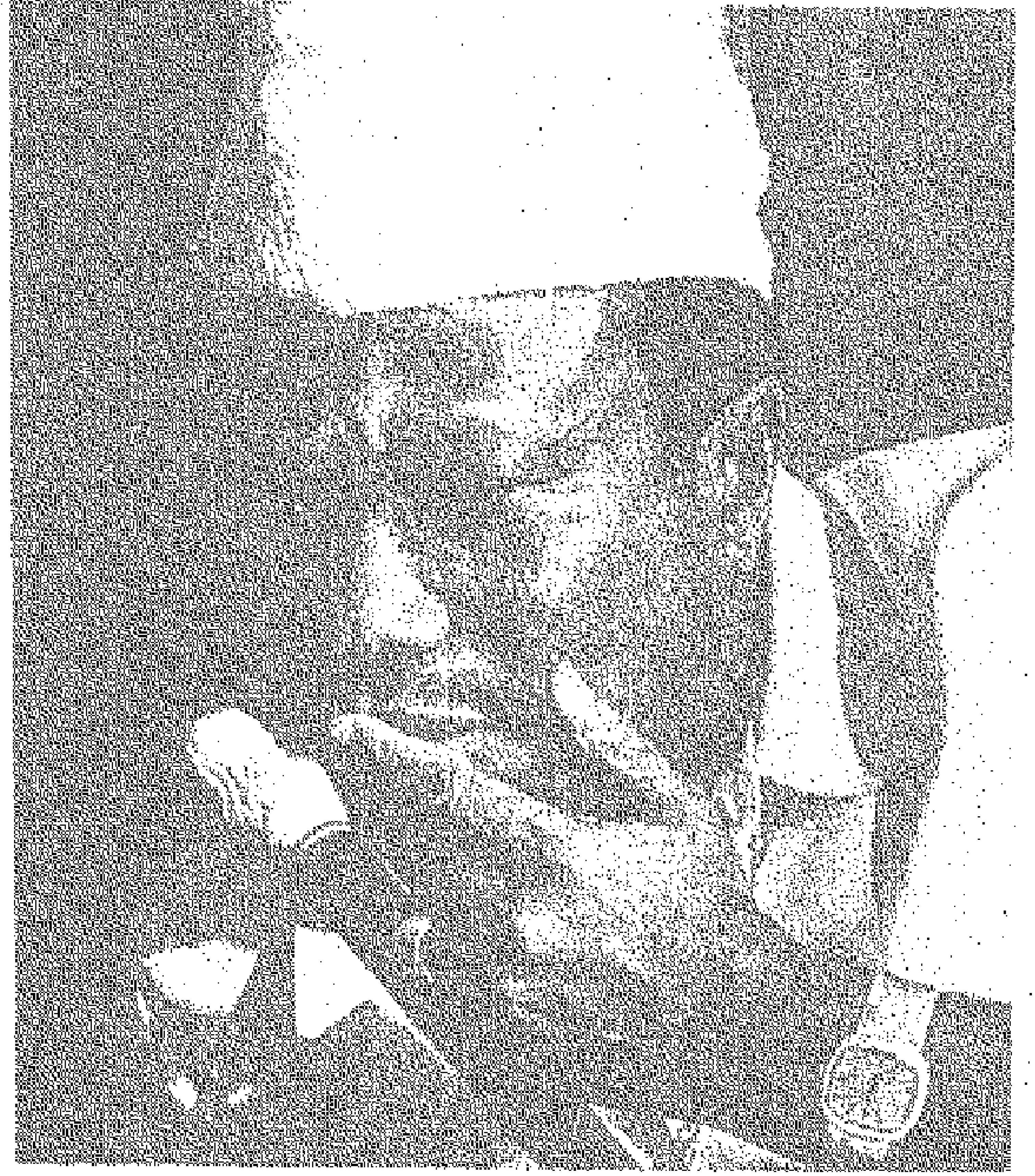
لقد أسست منظمة الوحدة الافريقية عام ١٩٦٣ باحتذاء الخطوط العامة التي قامت عليها الامم المتحدة. وانضمت جميع الدول الافريقية اليها باستثناء جمهورية جنوب افريقيا التي يحكمها البيض. غير ان هذه المنظمة تختلف عن الامم المتحدة من ناحية افتقارها الى الهيئات التي تمكنها من وضع توصياتها موضع التنفيذ. وتنص احدى مواد شرعتها الاساسية على أنه لا يحق لأي من الدول الاعضاء التدخل في الشؤون الداخلية لدولة أخرى. ولئن يكن القصد من هذه المادة شريفاً، فان الاجتهادات التي دارت حولها حظرت على منظمة الوحدة الافريقية اتخاذ التدابير العملية لانهاء الحروب وفرض العقوبات والضغط على الحكام المستبدين من أجل تحقيق العدالة.

ومن هذا القبيل أن ردّ فعل المنظمة كان الصمت المطبق حيال اقدام عيدي أمين على قتل ٣٠٠ الف أوغندي بين ١٩٧١ و١٩٧٩ وحيال الحروب التي قامت في بلدان افريقية عدة عام ١٩٨١.

وقد أدى التفسير المخطىء للبند المذكور الى اعتبار أيّ احتجاج من قبيل "التدخل في الشؤون الخاصة" وخرقاً لأحد المفاهيم الضمنية التي تقوم عليها "الاخوة" بين الرؤساء الافارقة. وهو مفهوم يمكن التعبير عنه بالآتي: "دعني أسيّر شؤون بلادي كما أريد، وسأدعك تسيّر شؤون بلادك كما يحلو لك. وهكذا نستطيع البقاء أطول في الحكم."

ان الهالة التي ينسجها الرؤساء الافريقيون حول ذواتهم فنّ أصيل. ولأن معظمهم ينظر الى نفسه كرئيس مدى الحياة، فهو يتبنى اسماً مستعاراً يجسد نظرته الى نفسه. وهكذا يسمي كل من رئيسي زائير وتوغو نفسه "المرشد". وقد سمى رئيس غانا الاول كوامي نكروما نفسه "المخلص". وعرف الرئيس الكيني الراحل جومو كينياتا بلقب "الرجل الكبير الحكيم". وكنى رئيس تانزانيا جوليوس نيريري نفسه "المعلم". واتخذ كاموزو باندا رئيس الملاوي لقب "رئيس الرؤساء". وتبنى فليكس هوفويه - بوانيي رئيس ساحل العاج اسم "المتقدم". وسمى رئيس غينيا الاستوائية فنرسيسكو ماسياس نغويما نفسه "المعجزة القومية". وطالما أشار عيدي أمين، طاغية أوغندا السابق، الى ذاته كـ"قاهر الامبراطورية البريطانية".

ولكن من أجل معرفة الاخطار المحيقة بالرؤساء الافارقة، لننظر في مصائر موقعي الوثيقة التأسيسية لمنظمة الوحدة الافريقية في أديس



وليم تولبرت ٠

أبابا عاصمة اثيوبيا عام ١٩٦٣، وعددهم ثلاثون رئيساً. فقد خُلع ١٧ من هؤلاء في انقلابات عسكرية وأقصي واحد في ثورة شعبية واستقال أربعة بارادتهم ومات ثلاثة على نحو طبيعي. وهناك خمسة فقط لا يزالون في السلطة.

والحق أن السبب الذي يحدو القادة الافريقيين على تحية بعضهم بعضاً بحرارة خلال لقاءات القمة السنوية هو عدم تأكد أحدهم من أنه سيرى الآخر في القمة المقبلة. وعندما استضاف الرئيس الليبيري وليم تولبرت قمة المنظمة في مونروفيا صيف ١٩٧٩ كانت صور الحكام تملأ الشوارع المؤدية الى قاعة المؤتمر. لكن الاحداث تلاحقت وأرغمت منظمي المؤتمر على انزال ست صور والاكتفاء بأسماء البلدان.

ويعقد المؤتمر في عاصمة مختلفة كل سنة. وتنفق عليه الدولة المعنية مبالغ طائلة لا تتحملها موازنتها. وما أن ينتهي المؤتمر حتى تقفل القاعة التي أوته لعدم الحاجة اليها وتقفر الفنادق من زبائنها فتضطر الدولة الى تعويض خسائرها.

وتتم الاجتماعات كلها في سرية كاملة، باستثناء الاجتماعين الافتتاحي والختامي. ويفترض المسؤولون عن المنظمة أن الصحافة الاجنبية لن تهتم باللقاء ما لم يزودوها هم بالاخبار. وما ان تقفل الابواب حتى تنهار أسس "الوحدة" التي بنيت المنظمة عليها. وسرعان ما يصبح الانقسام سيد الموقف. ويدرك الجميع اذ ذاك أن العوامل التي تمزق افريقيا تفوق العوامل التي تجمعها.

ولا عجب، والحال هذه، تبني اسم "منظمة اللاوحدة الافريقية". وربما كان الشيء الوحيد الذي يجمع اعضاءها اشتراكهم في بؤس الماضي وظلمة المستقبل. لكن وحدتهم الحقة تبدو أمراً حلّ وقته يوماً ثم انقضى. ففي الخمسينات ظهر عدد من الحكام الافارقة العظام، وفي طليعتهم نكروما وكينياتا، أملوا أن يظهر ما يشبه "الولايات المتحدة الافريقية". غير أن الاستقلال جعل كل بلد يرضى بالحدود التي رسمها له الاستعمار، متجاوزاً الاعتبارات القبلية واللغوية والاقتصادية، ويطرح حلم الوحدة جانباً. وجاءت النتيجة خليطاً من البلدان لا يفكر أحد اليوم في توحيدها ودمج عناصر غناها الهائلة.

ومعظم القادة الافارقة اليوم يذهب

في مجالسه الخاصة الى أن منظمة الوحدة الافريقية لا تحقق أهدافها. لكن المؤسف أن السياسة الافريقية، كما هي حال العالم الثالث ككل، تقوم على الشعارات الجاهزة. وأكثرية القادة الافريقيين يؤمنون ان مصداقيتها تأتي من طول الكلام وارتفاع الصوت.

ومما قاله لي أسقف أوغندي: "ان صمت منظمة الوحدة الافريقية أدى الى اراقة الكثير من الدم في افريقيا. ولم تتردد المنظمة في عقد قمة ١٩٧٥ في العاصمة الاوغندية كمبالا وجعل عيدي أمين رئيساً لها. وفي الوقت الذي كان رؤساء الدول الاعضاء يجتمعون وينعون غياب حقوق الانسان عن جنوب افريقيا، كانت غرف التعذيب القريبة تغص بمواطني الذين أجهز عليهم أعوان أمين."

وقد أبدى أحد خلفاء أمين، وهو الرئيس الاوغندي غودفري بينيزا، رأياً مماثلا حين قال في قمة ١٩٧٩ التي عقدت في ليبيريا: "ما المنفعة في فتح سجلات الآخرين الخاصة بحقوق الانسان حين لا تكون سجلاتنا نحن خيراً منها؟" وصعق الرؤساء بذلك الكلام ولم يصفقوا لصاحبه وهو عائد الى مقعده. وقال عضو في وفد بينين لاحقاً: "ان بينيزا هذا مخبول أو خائن". لكنه لم يكن هذا ولا ذاك. غير ان خطابه كان الاخير في قمة منظمة الوحدة الافريقية، اذ حصل انقلاب ضده بعد عشرة أشهر.

وما هي الا ثمانية أشهر بعد تلك القمة حين قتل مضيفها وليم تولبرت رئيس جمهورية ليبيريا على أيدي جماعة من العسكريين اقتحموا مخدعه.

"حب الحرية"

كان ظهور ليبيريا حدثا فذاً في افريقيا. لكن حالها اليوم لا تشذ عن حال بقية بلدان القارة. ففي العام ١٨١٧ أنشأ الكونغرس الأمريكي جمعية خيرية من المواطنين البيض باسم "جمعية الاستعمار الأمريكية" وخصص لها اعتمادا مقداره مئة ألف دولار. وشرعت الجمعية في تنظيم مجموعات من العبيد الذين تم إعتاقهم وعبروا عن رغبة في العودة الى أرض أجدادهم. وبعد خمس سنوات رست الباخرة الاولى التي تحمل أولئك الناس عند ثغر نهر ميزورادو على ساحل افريقيا الغربية وأقنعوا القادة المحليين بقبولهم هناك.

وفي السنوات الستين التالية عاد أكثر من عشرة آلاف عبد عتيق الى غرب افريقيا وقد دعوا أنفسهم "الروّاد السود". وسموا بلدهم الجديد "ليبيريا" نسبة الى "ليبرتي" التي تعني "الحرية"، وأطلقوا على العاصمة اسم "مونروفيا" تكريما لرئيس الولايات المتحدة جيمس مونرو. وفي العام ١٨٤٧ غدت ليبيريا الجمهورية الافريقية الاولى. وأسست فيها حكومة على غرار الحكومة الامريكية، وصمم لها علم مخطّط بالاحمر والابيض والأزرق وفي وسطه نجمة واحدة مع الشعار الآتي: "حب الحرية حملنا الى هنا."

وتبنى المستوطنون الجدد أفضل طريقة حياة عرفوها، وهي طريقة الأمريكيين البيض الذين حكموهم يوما. وجعلوا من قبائل البلاد الاصلية الست عشرة أقلية خاضعة لهم، وظلوا طوال السنوات المئة التالية يسمون أفرادها "البدائيين". وهكذا غدا "الروّاد" وذريتهم بمثابة نخبة استعمارية سوداء. وسيطروا على المرافق التجارية والحكومية وأرسلوا أولادهم الى الخارج لتلقي العلم. وأورثوا أولادهم أسماءهم الأمريكية. وقد حمل رئيس أركان الجيش في أواخر الستينات اسم جورج واشنطن.

وبقي الافريقيون طويلا يسخرون من ليبيريا وينتقصون من قدرها لتبنيها القيم والعقائد المستوردة التي لا تنسجم والتقاليد الافريقية. ولا تزال ليبيريا الحضرية حتى اليوم أشبه بأقصى الجنوب الأمريكي الذي صوّره وليم فولكنر في رواياته منها ببقية المناطق الافريقية. وعملة ليبيريا الرسمية هي الدولار الامريكي، ورجال الشرطة يرتدون بزّات مماثلة لما تقتضيه دائرة شرطة نيويورك من رجالها. وهناك مدن تحمل أسماء أمريكية مثل لويزيانا وماريلاند. والموسيقى الأمريكية تملأ محطات الاذاعة. وقسم كبير من السكاب يتكلمون بلهجة الجنوب الامريكي.

ولئن استخفّ الأفارقة بهذه العادات، فثمة أمر لم يرقْ استخفافهم اليه، وهو الاستقرار الذي تمتعت به ليبيريا.

وفي حين كانت الحكومات الافريقية تسقط كالدمى، بدت ليبيريا مثل صخرة صامدة وسط بحر جامح. وفي العام ١٩٨٠ كان مرّ على تأسيسها ١٣٣ سنة من غير انقلاب واحد. وعندما توفي وليم تبمان عام ١٩٧١ وهو رئيس للجمهورية وخلفه وليم تولبرت الذي عمل نائبا له طوال عشرين سنة، قال الرئيس الجديد للشعب: "في امكاننا الافتخار بأنّ هذه الأمة تقف اليوم شاهدا حياً على الاستقرار."

كان تولبرت ابن عبد محرَّر، وقد انتقلت اليه رئاسة ليبيريا وهو في الثامنة والخمسين. وكان راعيا دينيا. وهو أوّل رجل أسود يُنتخب رئيساً للاتحاد المعمداني العالمي. وسمى فلسفته السياسية "الرأسمالية الانسانية"، واعتاد ان يخاطب شعبه كمن يعظ.

الا أن وليم تولبرت لم يشذّ عن سائر الرؤساء الافريقيين في إغداق المناصب الرسمية على أقربائه. فكان أخوه فرانك رئيسا لمجلس الشيوخ وأخوه ستيفن وزيرا للمال وأمينا للخزينة وأخته لوسيا محافظة لمدينة بنتول وابنه ايبي سفيرا متجولا وابنته فلهلمينا طبيبة الرئاسة وابنته كريستين نائبة وزير التربية وابنة أخيه تولا المسؤولة الغذائية للرئاسة. كما منح أبناء اخوته الثلاثة مناصب رفيعة، فكان أحدهم وزيرا معاونا للشؤون الرئاسية، والآخر ملحقا زراعيا في روما والثالث نائبا لحاكم المصرف المركزي. وأوكل الى أصهرته الأربعة وزارة الدفاع ونيابة وزارة الاشغال العامة وادارة الهجرة وعضوية

مجلس الادارة في الخطوط الجوية الليبيرية. أما أزواج شقيقاته فكان أحدهم سفيرا في غينيا والآخر عضوا في مجلس الشيوخ والثالث محافظا للعاصمة مونروفيا.

وعلى رغم هذا كله كان تولبرت أقدر الحكام الافريقيين ومن أكثرهم حكمة. وكان عليه أن يواجه ثلاث مشكلات: الاولى وضع ليبيريا داخل التيار الافريقي والثانية حل الخلافات الداخلية بمنح السكان الاصليين المساواة والثالثة تدعيم الاقتصاد القائم على الحديد الخام والخشب والمطاط والملاحة. ولأن ليبيريا لم تكن مستعمرة قط، فهي لم تتمتع بفوائد الاستعمار من مدارس وطرق ومستشفيات واداريين مدرّبين، ولا بالفوائد التي أعقبت الاستقلال كالمساعدات المالية والاستثمارات. ويمكن القول ان الاستقلال الذي ميز ليبيريا عن بقية البلدان الافريقية حرم مواطنيها الكثير، وعدد هؤلاء مليون و٨٠٠ ألف نسمة.

وسجل وليم تولبرت نجاحا ملحوظا على الجبهات الثلاث التي ذكرنا. وذهب الى حفلة تنصيبه في سيارة صغيرة من نوع "فولكسفاغن" وهو يرتدي بذلة "سفاري" للتدليل على انتهاء عهد تبمان الذي تميز بالبذخ البيروقراطي. وعيّن في الحكومة أناسا من خارج دائرة "الروّاد" وأنشأ صندوقا ماليا لمحاربة حكم الاقلية العنصرية البيضاء في جنوب افريقيا. وفي الوقت نفسه انتقد فظاعات عيدي أمين، وهو من القادة الافريقيين القلائل الذين تجرأوا على التصدّي لسفاح أوغندا. ومنح مواطنيه جميعا حق الاقتراع ودعا الى التعليم المجاني وعدّل الدستور بحيث لا يحق للرئيس تجديد ولايته، وهو أمر لم يقدم عليه أي رئيس افريقي قبله.

قالت لي السيدة زوث فيليبس من مونروفيا التي تعمل في حقل التجارة والاعمال: "الحق اننا كنا محظوظين جدا في ليبيريا." والسيدة فيليبس من العاصمة الأمريكية واشنطن. وهي تزوجت رجل أعمال ليبيريا شابا ما لبث أن أصبح وزيرا للمال في بلده. وأضافت: "ان ليبيريا من البلدان القليلة جدا في افريقيا التي عرفت الاستقرار السياسي واحترام الحقوق الفردية. واذا صبّ المرء اللوم على الرؤساء الافريقيين لما فعلوه في بلدانهم، فلا يسعه الا الثناء على وليم تولبرت لما حققه في ليبيريا."

وخلال العقود الثلاثة التي أمضاها تولبرت نائبا للرئيس فرئيساً، لهجت ألسن الناس بمديحه. ولكن في غفلة من الدهر حلّ به ما يحلّ بالقادة الافريقيين معظم الأحيان، إذ خانه أحدهم فقتل.

من أجل الشعب

ذات ليلة ربيعية من ابريل (نيسان) ١٩٨٠ غادر تولبرت حفلة استقبال في وسط مونروفيا وعاد الى مقرّه. وكان الوقت نحو منتصف الليل. وارتدى ملابس النوم، والراجح أنه صلى كالمعتاد قبل أن يأوي الى سريره.

وبعد ساعتين حصلت فتنة افتعلها

بعض الثوار بين حرس الرئيس. واقتحم رقيب في الجيش اسمه صامويل دو أبواب القصر ومعه ١٦ عنصرا وجرّدوا الحرّاس من سلاحهم. وخلال تلك المعركة القصيرة اخترقت رصاصة طائشة خط الهاتف الذي يصل الرئيس بثكنة الجيش وقطعته، الأمر الذي منع تولبرت من استدعاء الجند. ودخل دو وزملاؤه غرفة تولبرت ووجدوه في السرير. فافرغوا ثلاث رصاصات في رأسه. واعلن دو في مؤتمر صحافي انه لن تتمّ ملاحقة أحد. وأضاف: "ان مسؤولياتنا هي بناء مجتمع جديد من أجل خير شعبنا كله." ولكن تبين أن الشعب "كله" هو "بعض" الشعب، وأن ثمة ديونا ينبغي تسديدها بادىء الأمر.

وهبّ الجنود الى الشوارع وهاجموا منازل مساعدي تولبرت وسلبوها واعتقلوا ٩١ شخصا من كبار معاونيه بتهم مختلفة بينها الرشوة والفساد وانتهاك حقوق الانسان.

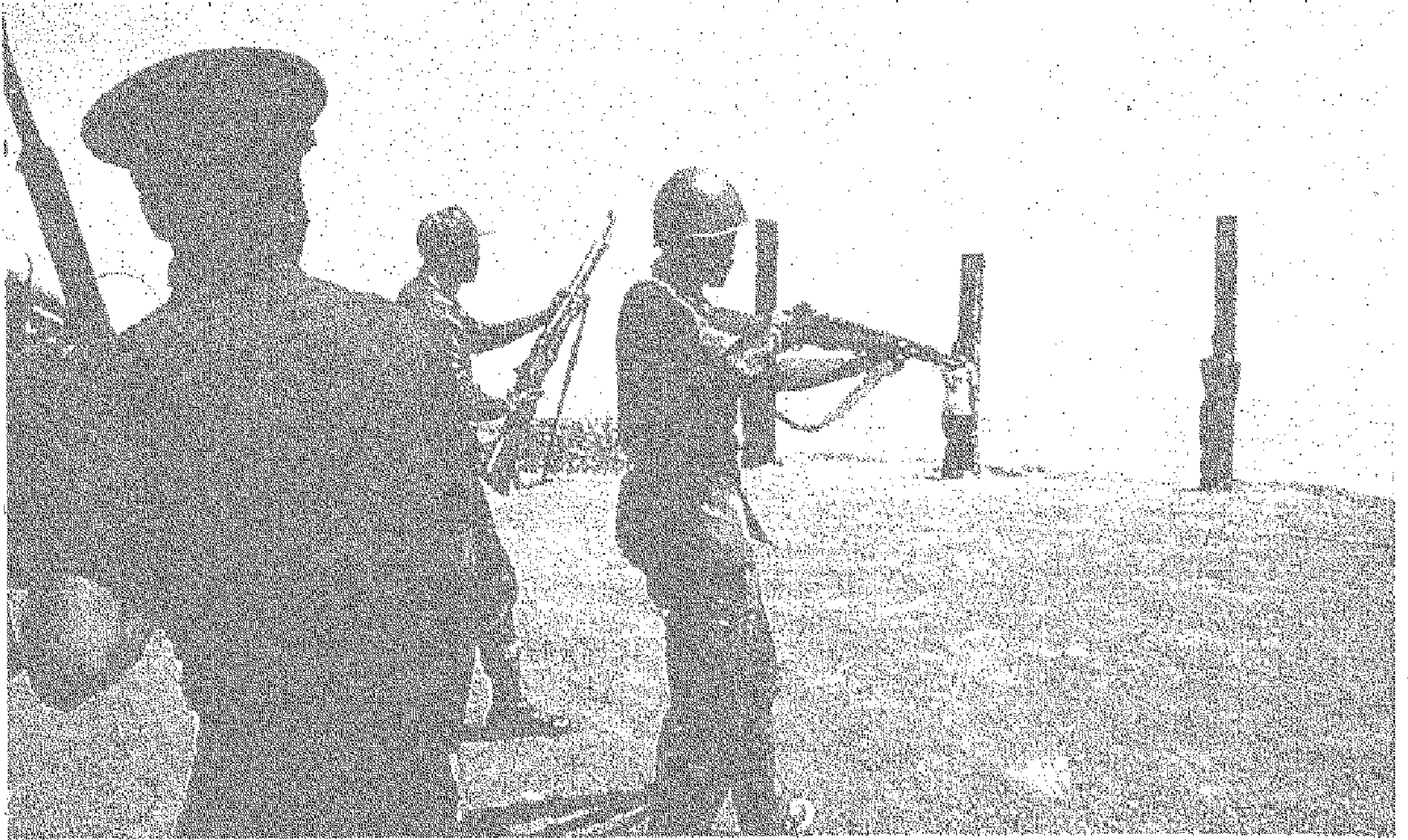
وأجريت المحاكمات في ثكنة عسكرية على أطراف العاصمة. وتجمهر العامة في القاعة الجرداء وهم يحدّقون مليّاً الى المتهّمين الذين حُرموا حق الدفاع. وراح المدنيون في الخارج يشيرون بالاصابع الى الوزراء السابقين وقد اقتادهم الجند عُراة. وعلى الشاطىء الرملي المجاور نصبت تسعة أعمدة هاتف، وهي علامة أكيدة على ان بعض المتّهمين حُكم عليه بالاعدام.

وداخل القاعة التي رُكّبت في سقفها المراوح وقف مدير الموازنة السابق فرانك ستيوارت يدافع عن نفسه. وكان شعر ستيوارت مغبرا بعد نومه عشرة أيام على الارض العارية. وراح ستيوارت ينظر بعينين نصف مغمضتين الى آلة التصوير التي تخص محطة التلفزيون الرسمية والعرق يتصبب منه. وكانت هيئة الاتهام مؤلفة من خمسة ضباط جلسوا على المنصة بوجوههم الصارمة وأحذيتهم البرّاقة. وجلس عن يسارهم موظف يسجل التفاصيل على آلة كاتبة.

وتبين للهيئة العسكرية أن ستيوارت رفع راتبه السنوي الى ١٨ ألف دولار وأنه كان يحصل على ٣٢ ألف دولار سنويا من ايجار ثلاثة مساكن وأنه يملك ٢٨ شقة ومخزنا كبيرا للاغذية ومزرعة . وأصرّ الرجل على شرعية أملاكه جميعا.

"الحرية أخيراً"

في ٢٢ ابريل (نيسان) استدعى الرقيب صامويل دو مراسلي الصحافة الاجانب، وعددهم نحو أربعين، الى قصر الرئاسة في مونروفيا. ودخل قاعة الرقص وهو يعتمر قبعة جندي ذات اطار عريض ويرتدي سروالا ضيقا وحذاء عسكريا، وقد امتشق سيفا تقليديا وعلق مسدّسا في خصره وحمل جهاز إرسال من نوع "ووكي توكي". وبانكليزية متعثرة قرأ بيانا وأجاب باختصار عن سؤالين وجلس. وعندئذ قال وزير الاعلام الجديد غابرييل نايملي على عجل: "أيها السيدات والسادة، انكم مدعوّون الى عملية إعدام في الثانية والنصف عصراً."



مونروفيا ١٩٨٠: جنود يتهيأون لاعدام مسؤولين حكوميين.

وكانت ساحة الاعدام تغص بالمدنيين الذين ملأوا الشاطىء. وراح مئات الجنود يرقصون حول حافلة صغيرة وُضع فيها ١٣ مسؤولا من عهد تولبرت. وأخذوا يقرعون النوافذ والابواب ويسخرون من الرجال المحتجزين.

ووصل موكب دو وسط هتاف الجماهير. وأُخرج الرجال من الحافلة وهم عراة الصدور وبعضهم لا يستره سوى سرواله الداخلي. ووقف العسكر يوبخونهم ويتهكمون عليهم خلال الدقائق العشرين التي استغرقها تنظيم فرقة مطلقي النار.

ووقف سيسيل دنيس جونيور، وزير الخارجية البارز الذي عرفته حسنا طوال السنوات الاخيرة، ينظر بهدوء الى جلاديه. وغاب فرانك تولبرت شقيق الرئيس الراحل عن الوعي. وراح فرانك ستيوارت يحدّق بملء عينيه كما لو كان ما يجري حلما لا بدّ أن يصحو منه.

وأخيرا صاح الآمر: "أطلقوا النار." وانهال الرصاص طوال الدقائق الثلاث التالية. وأُصيب فيليبس في ذراعيه وكتفيه قبل أن تضرب رصاصة جبينه. وأُصيب ستيوارت في بطنه وبعد نصف دقيقة في قلبه. وظل دنيس واقفا مغمض العينين والرصاص يئز حوله. وأخيرا صرعه أحد الجنود بوابل من رشاشه.

ومن التدابير الاولى التي لجأ إليها دو كرئيس للدولة زيادة أجور الجنود وموظفي الدولة ثلاثة أضعاف. وذلك كبدّ الخزينة ٣٤ مليون دولار سنويا وقوّى أزمة ليبيريا المالية. وبعد ذلك رقى الرقيب دو نفسه الى رتبة جنرال. وكان يأتيه كل صباح حلاق

ليضفي على رأسه تسريحة افريقية، وراح يجوس الشوارع في سيارة تولبرت السوداء من نوع "مرسيدس - بنز" يقودها سائق ويرافقها موكب حراسة، ولاحق خصومه السياسيين عبر محاكمات سرية واعدامات علنية، وفي وقت قصير جدا اطمأن الرقيب السابق الى سلامته على رأس الدولة،

بقتل تولبرت وأعوانه لم يقض دو وعسكريوه على أسباب التململ في ليبيريا، وسرعان ما وجدوا أن الحكم أصعب كثيرا من الانقلاب، وأن معالجة المشاكل الوطنية أكثر تعقيدا من اطلاق النار على المسؤولين السابقين بعد شدّهم الى أعمدة الهاتف، وأدرك الشعب أن الحرية لا تأتي من أعقاب البنادق، وبدا أمر واحد أكيدا بعد انقلاب ليبريا، وهو أنه لن يكون الاخير،

والواقع أن ذلك الانقلاب أخرج كل رئيس افريقي عن طوره، فمن ذا الذي يضمن سلامته؟

الجواب: لا أحد، والاستقرار السياسي خرافة في ذلك الجزء من افريقيا، وفي الامكان قلب أي حكومة بالسهولة والسرعة نفسهما كما قُلبت حكومة وليم تولبرت،

لقد ارتكب تولبرت الاخطاء نفسها التي أدت الى سقوط الكثير من الرؤساء الافارقة، فهو رفع تطلعات شعبه الاقتصادية والاجتماعية، لكنه لم يحقق سوى القليل مما وعد به، كما أنه أتاح للفساد الحكومي وللشقة بين الاغنياء والفقراء أن يتسعا أكثر مما يحتمله الناس في افريقيا، وأخيراً اساء تفسير الطاعة التي يمحضها الافارقة اي شخص في مركز مسؤولية على أساس أنها برهان على حب الشعب له وتعلقه به، وكمثل رؤساء كثيرين نطق تولبرت بالكلمات الصائبة، ولكن فاته أن يرى الغضب يرتفع والاستقرار يهبط، انه لم يتعظ بالعبر الافريقية،

والمؤسف عدم قيام الدليل على أن التاريخ لن يعيد نفسه، واذا كان من أمر أكيد، فهو أن القارة الافريقية ستشهد المزيد من الانقلابات خلال العقود المقبلة، اذ ان أقلية ضئيلة من رؤسائها عملت من أجل الاستقرار،

صحيح أن تولبرت أنجز بعض الاصلاحات، لكنها جاءت متأخرة وقليلة وكان أثرها الرئيسي تقوية المعارضة، لذلك يخشى معظم الرؤساء الافريقيين توسيع نطاق الحريات حول أنظمتهم، والمفارقة أن هذا الرفض يمهد الارضية لقيام الانقلابات ضدهم،

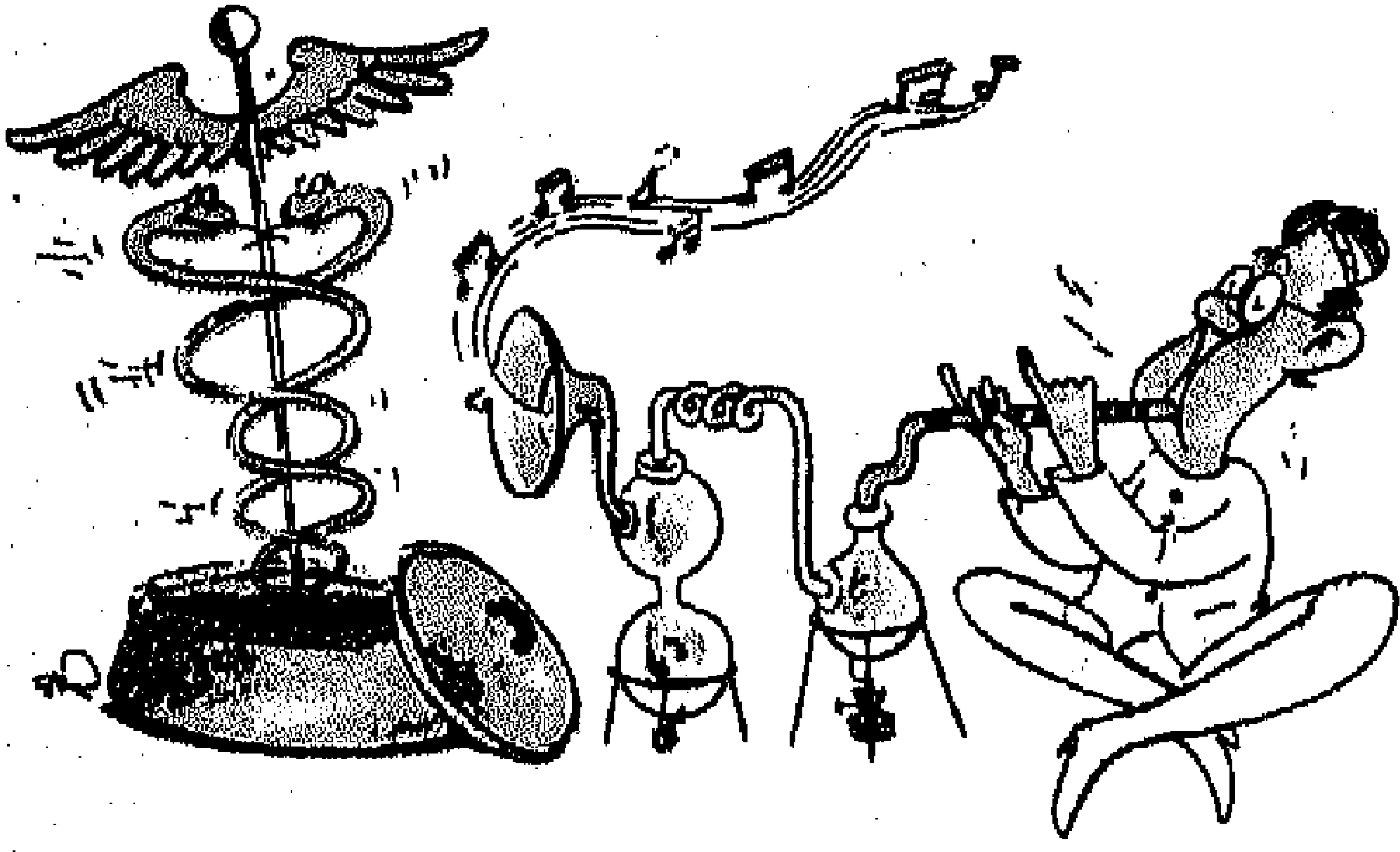
ان الاخطاء التي أدّت الى اغتيال تولبرت وحلول دو مكانه موجودة في بقية الدول الافريقية على نحو أقوى من وجودها في ليبيريا، واذا استمرّ التدهور الاقتصادي والقمع السياسي، فان افريقيا لن تعرف الاستقرار،

■ **ديفيد لامب**

٭٭٭٭٭

كلما قلت معرفتك قوي اقتناعك بأنك من كبار العارفين، وكلما زادت معرفتك ضعف ذلك الاقتناع لديك،

ف،هـ،



أصداء من عالم الطب

وقاية مبكرة

قلما تفعل أمراض القلب فعلها قبل منتصف العمر، لكن الشواهد تشير الى انها تبدأ في سن باكرة جداً. ومن هذا القبيل ان تشريح جثث الأطفال الذين قضوا نتيجة حوادث او من غير اسباب ظاهرة بيّن ان الوتين (الشريان الاورطي) لديهم تكسوه طبقة شحم، يظن العديد من الأطباء انها بداية لتصلّب الشرايين.

كما ان العادات الصحية تبدأ في سن مبكرة، ومنها اتباع نظام طعام دقيق. لذلك اقترح الاتحاد الامريكي لامراض القلب نظاماً غذائياً للأطفال الأصحاء الذين تجاوزوا السنتين، هدفه تجنّب أمراض القلب. ويقوم هذا النظام على خفض المواد الدهنية والكوليسترول والملح التي نجدها في اساس معظم الامراض التي يبتلى بها القلب.

ويقترح الأطباء ان يستمد الجسم ١٥ في المئة من سعراته الحرارية اليومية من البروتيين و٥٥ في المئة من المواد السكرية ـ النشوية كالحبوب و٣٠ في المئة من المواد الدهنية. وفضلا عن تخفيف الملح، ينبغي حدّ نسبة الكوليسترول اليومية بمئة مليغرام لكل ألف سعرة حرارية، على الا تتجاوز الكمية ٣٠٠ مليغرام.

وهذا النظام لا يحرم الأطفال ما يحبونه، ففي امكانهم تناول الحليب الناقص الدسم عوضا عن الحليب الكامل الدسم، وبدلا من التهالك اليومي على المثلجات والحلويات والبطاطا المقلية، يمكن الحد من تناول هذه المواد.

صحيفة "نيويورك تايمس"

إنّ مع العسر مرَضاً

تبين أن أولئك الذين يستخدمون أيديهم اليسرى معظم الوقت معرّضون لبعض الأمراض أكثر من سواهم، بحسب دراسة أنجزها الطبيبان المختصان بالامراض العصبية نورمان غيشويند من جامعة هارفارد الأمريكية وبيتر بيهان من جامعة غلاسكو الاسكوتلندية ونشرتها مجلة "محاضر الأكاديمية القومية للعلوم". والأمراض المعنية هي تلك التي يُجهز فيها نظام المناعة على أجزاء من الجسم كالمعدة والامعاء والغدّة الدرقية، وهذه لدى العُسر تزيد مرّتين ونصف مرّة عنها لدى الأيامن. كما تبيّن أنّ عوائق التعلّم لدى اولئك، ومنها عسر النطق والاسترسال في التخيّل المرَضي والتأتأة، هي عشر مرّات أكثر منها لدى هؤلاء.

ويفترض الدكتور غيشويند أنّ هذه الامراض ذات علاقة بالافراز الزائد للهورمون الذكريّ "تستوستيرون" خلال فترة الحمل. يُضاف الى هذا نشاط

الغدّة الصعترية، وهي غدّة صماء صغيرة قرب قاعدة العنق تقوّي جهاز المناعة في الجسم. ويقول الدكتور غيشويند إنّ الشواهد تشير الى أثر التستوستيرون الفعال في تجمّع الخلايا العصبية في دماغ الجنين. ومن شأن هذا الهورمون إبطاء انتقال الخلايا الى النصف الايسر من الدماغ الذي يسير حركة اليد اليمنى.

واستخدام اليد اليسرى لدى الذكور أكثر انتشاراً منه لدى الاناث، ربما لأنّ الأجنة الذكرية تفرز مقادير كبيرة من التستوستيرون. ونظراً الى ارتباط نصف الدماغ الأيسر بوظائف النطق واللغة، فانّ إفراز التستوستيرون المفرط في مرحلة دقيقة من تكوّن دماغ الجنين قد يولد خللا في الوظائف اللغوية نجده أكثر انتشاراً لدى الذكور.

ويؤكد الدكتور غيشويند أنّ هذه النتيجة لا تعني تفوّق الأيامن الصحي أو العقلي. والواقع أنّ المجلين الأياسر أكثر عدَداً في بعض الحقول، كالفنون والرياضيات والهندسة.

نشرة هارفارد الطبية

البكاء يطيل العمر

الافلام السينمائية كانت تصنف من حيث قدرتها على استدرار دموع النظارة. ومن المشاهد المعبرة عن ذلك ظهور البطلة وهي تبكي مع وقوف احدى الممثلات الجريئات الى جانبها قائلة: "هذا جيد يا عزيزتي! أخرجي الدمع كله من فؤادك الحزين." وكان النظارة، ولاسيما الاناث، يفعلون الشيء نفسه.

وقد أظهرت الأبحاث الطبية الحديثة أنّ البكاء من أسباب تعمير النساء أطول من الرجال. وفي رأي العالم البيوكيميائي وليم فراي أن البكاء من شأنه تحرير الجسم من المواد الكيميائية المؤذية التي يولدها الغمّ.

ويضيف فراي: "المعلومات المتوافرة لدينا تؤكد ما يذهب اليه الناس من أنهم يشعرون بالانفراج بعد نوبة بكاء." لكنّ ذلك الشعور يقلّ خمسة أضعاف لدى الرجال عنه لدى النساء.

صحيفة "نيويورك تايمس"

الحرارة ضد السرطان

أقرّت ادارة الغذاء والدواء الامريكية انتاج آلة حرارية لمعالجة السرطان. وهكذا تغدو الحرارة العلاج الرابع لهذا المرض، اضافة الى الجراحة والاشعة والعلاج الكيميائي.

وميزة الآلة الجديدة تقليص بعض الأورام السرطانية حين تعجز الوسائل الاخرى عن ذلك. ويقول احد المسؤولين في الادارة المذكورة ان عمل الآلة الأساسي هو التسكين، وليس ابراء المريض تماماً. لكنه يوافق بعض الأطباء على ان هذه الآلة ومثيلاتها قد تغدو رديفة للعلاج بالأشعة في الاصابات المبكرة.

وتستخدم الآلة الموجات الكهرطيسية الصغرى على غرار الأفران الحديثة. وبهذا ترفع حرارة الخلايا المصابة الى ٤٢ ـ ٤٥ درجة مئوية. ولئن لم تكن هذه الحرارة كافية لازالة الاورام، الا ان العديد من العلماء يظن انها تعمل على شق اغشية الخلايا ومنع تكاثرها. وقد اظهرت الاختبارات فاعلية الآلة في معالجة الاورام التي لا يزيد عمقها على خمسة سنتيمترات تحت سطح الجلد.

وقد تبين للدكتور جاي هوكيم من جامعة كورنيل الامريكية في نيويورك الذي عالج اكثر من مئة ورم لدى ٣٨ مريضاً العام الماضي، ان معدل النجاح لدى اولئك الذين عولجوا بالأشعة والحرارة في الوقت نفسه بلغ ٧٥ في المئة، في مقابل ٤٦ في المئة لدى الذين عولجوا بالأشعة وحدها.

صحيفة "واشنطن بوست"

كتاب الشهر



يوميات أب

ملخص من كتاب بقلم بوب غرين

عندما وُلدت أماندا سو غرين ارتأى والدها، وهو صحافي، ان يسجل احداث السنة الاولى من حياتها. وكانت النتيجة هذه اليوميات المليئة بالتسلية والحب والدهشة. ويقول بوب غرين: "لا اشك البتة في ان امورا مماثلة حصلت عبر القرون، الا ان احدا لم يخبرني بها."

واعتمد غرين الطريقة المباشرة الخالية من التعقيد والوصف البليغ ليبدع هذه الصور القلمية الموجزة ويقدمها الى كل جد وجدة ووالد ووالدة، والى كل من يزمع ان يكون ابا او اما ● انه سجل أدبي واقعي حميم ومثير للمشاعر ومضحك وأليف، لكنه على هذا كله يبدو كأنه يُكتَب للمرة الاولى



يوميّات أب

١١ يونيو (حزيران)

أماندا سو تعاني المتاعب وأنا لم أرَها بعد، وكانت زوجتي سوزان في الساعة العاشرة من المخاض، وأشارت آلة فحص الجنين الموصولة ببطنها الى أن نبض قلب ابنتنا ينخفض على نحو مخيف، وكنا قرّرنا قبل أشهر أن نطلق على مولودتنا اسم أماندا سو. لكن أوصالي تجمدت وأنا أنظر الى الآلة التي تسجل دقات قلبها الصغير.

كان في الغرفة ثلاثة أطباء وأربع ممرضات والغرفة هي غرفة التوليد التاسعة الواقعة في دهليز مستشفى مايكل ريز في شيكاغو. وقد غادرنا البيت في الثانية والنصف فجرا.

وتشاور الاطباء الثلاثة في ما بينهم وتبين لهم، لسبب يجهلونه، أن قلب الطفلة يعمل على نحو طبيعي بضع دقائق ثم يخفّ نبضه كثيرا. وافترضوا أن شيئا ما داخل سوزان يضغط على الجنين ويعرّض حياته للخطر. ولكن طمأنهم أن الاعراض المماثلة لا تلبث أن تزول من تلقائها، وإن لم يرقهم النظر الى ما تسجله الآلة.

وما انفكت سوزان تصرخ. وأدركت أن وجودي معها في غرفة التوليد أفضل من الانتظار خارجا كما كان يفعل آباؤنا. فلولا حضوري لانتابها الذعر من حديث الأطباء المتواصل عن وضع الجنين ومحاولتهم تخفيف آلامها.

وفي الثانية والنصف عصرا قال الدكتور آلان تشارلز انه سيحاول إخراج الجنين. وكان الطقس في الخارج مشمسا وحارا، غير اني لم أرَ ضوء النهار. وارتديت برنسا معقّما على غرار الاطباء والممرضات، ثم وضعنا كلنا الاقنعة والقلانس. ونُقلت سوزان الى غرفة التوليد. وقال لها الدكتور تشارلز: "ينبغي أن تساعديني. فالجنين لا يمكنه أن يرى النور من غير مساعدة الأمّ."

وراحت سوزان تضغط أحشاءها. وقال الطبيب: "هذه طفلتك تخرج الى النور." وبعد برهة كانت أماندا سو هناك. ولم تبكِ باديء الأمر، لكنها راحت تهزّ يديها ورجليها. وبدت في حال جيدة. وحملتها ممرضة الى طاولة خاصة بالتدفئة. وما هي الا ثوان حتى باشرت الصراخ. وبعد ثوان أخرى فحصها طبيب أطفال وقال ان وضعها طبيعي وقلبها سليم.

وصافحني الدكتور تشارلز قائلا: "يبدو أن مشكلة القلب آتت من انخفاض المشيمة التي ضغطت على الجنين وأدت الى هبوط معدل النبض. وذلك حداني ثلاث مرّات على التفكير في اجراء جراحة قيصرية."

ولم أتفوّه بكلمة، بل وقفتُ هناك مثل قصبة في مهبّ الريح.

وأضاف الطبيب: "أتظنّ أن ذلك يدعو الى القلق؟ انتظر الى أن تبلغ وتبدأ الخروج من المنزل. وإذ ذاك سوف تعرف ما هي المشاكل الحقيقية."

في تلك الاثناء كانت أماندا سو تتكيء على صدر أمها. ونظرت سوزان اليّ وتنهدت. وللمرة الاولى انحنيتُ ولمستُ طفلتي.

ان الناس يتكلمون عن المشاعر

التي يختبرونها لدى ولادة طفل، ومنها البهجة والطمأنينة والدوار والنشوة الخالصة. وأهمّ ما في الامر أن المرء يرى معجزة تحدث أمام عينيه.

وراودتني تلك المشاعر كلها في آن. ومعها راودني خوف حقيقي مما سوف يأتي وما قد يأتي. وإذ نظرت الى تلك الطفلة أحسستُ فجأة أن جزءا من حياتي انقطع وزال، وأن حياة جديدة تبدأ من غير أن أكون مستعدّا لها.

عالم متبدّل

١٢ يونيو (حزيران)

لتلك الطفلة أظفار صغيرة جدا، وشعر رأسها كالزغب في ذيل البطّ. وتجاعيد يديها الدقيقتين تذكر بيدي عجوز. وكانت تقبع في سلة ضمن الحجرة ٨٠٨ من مستشفى مايكل ريز ويفصلها عن غرفة سوزان حاجز من زجاج.

وحملت احدى الممرضات سجلا يحوي احصاءات حول أماندا، ومنها أن وزنها عند الولادة كان ٣،١٥ كيلوغرامات وطولها ٥٢ سنتيمترا.

وقلت متعجبا: "أيعقل أن يكون طولها هكذا حقا؟ فهي تبدو أقصر من زاويتي الصحافية التي يبلغ طولها ٤١ سنتيمترا."

وكانت هناك نسخة من صحيفة "شيكاغو تريبيون" على كرسي في الغرفة. فحملتها وذهبت بها الى سرير أماندا وفتحتُها على زاويتي ووضعتُها بجانب الطفلة. فتبين لي أنها أطول من المقال الذي أكتبه.

حملت سوزان طفلتنا كما لو كانت تفعل ذلك طوال حياتها. وعندما أعطتني اياها أحسست أني احاول تثبيت عشرين كأس زجاج على يديّ الاثنتين. وكلما تحرّكت الطفلة خُيل الي أنها على وشك أن تهوي مني. وعجبتُ كيف يعتاد الناس حمل الاطفال.

وبعد انتهاء مواعيد الزيارات في وقت متقدم من العصر وجدتني في أحد شوارع المدينة، والى جانبي امرأة تجر صبيا صغيرا في عربة. وسألتها: "كم عمر الطفل؟" فأجابت: "خمسة عشر شهرا."

يا للغرابة! انه سؤال لم أفكر في طرحه على أحد قبل ذلك الحين.

١٣ يونيو (حزيران)

طالما تساءلت عما اذا كانت حياتي الجديدة ستخنق طموحي، أنا الذي كنت على الدوام مصابا بداء الطموح. ولئن تكن هناك صفة يمكن أن أطلقها على ذاتي، فهي هذه الصفة بالذات. لقد أمضيتُ أيامي السابقة مرتحلا أجمع موادّ لمقالاتي. وكنت على استعداد دائم للسفر في أي وقت تدعو إليه الحاجة.

وتعاقدت مع اذاعة "اي.بي.سي" لتزويد برنامج "نايت لاين" (الخط الليلي) بالروايات. وفي مارس (آذار) وابريل (نيسان) أعددتُ تسع حلقات للبرنامج اقتضت كلها السفر. وكنت في العام الماضي، وهو سنة عملي الاولى، أنجزتُ اثنتين وثلاثين قطعة للبرنامج. وفي الوقت نفسه كنت اكتب زاوية في صحيفة

"شيكاغو تريبيون" وأخرى في "اسكواير".

غير اني في الشهر الذي سبق ولادة الطفلة طلبتُ اعفائي من السفر. وأعرف الآن أن وضعي النفسي لن يسمح لي بالسفر في المستقبل القريب وترك زوجتي وابنتي وحيدتين. ولكن كم سيطول هذا الامر؟ وماذا سيحدث حين تخابرني الاذاعة وتطلب مني التوجه الى المطار فورا؟

اذا شئت قياس المستقبل على الحاضر، فلا بدّ من الاعتراف بأني طوال الساعات الثماني والاربعين الفائتة كنتُ أخابر المستشفى كل ١٥ دقيقة للاطمئنان عن سوزان وأماندا.

لا شك لديّ في أن هذا المأزق واجهه الآباء الجدد قبلي عبر العصور. لكنني سأمقت ذاتي اذا اضطررت الى التخلي عن طموحي المهني. الا أن ثمة تبدّلا يحصل لديّ. ويبدو أن حياتي الجديدة سوف تكون شاقة.

لقد تغلبت على احدى الصعوبات وخرجتُ منتصرا. ذلك بأن أماندا بدأت ترضع وتتجشأ بعد الرضاعة، كما بدأت تبكي من غير أن تستطيع سوزان تهدئتها.

وانحنيتُ فوقها ورحت أهمس لها وألمس رأسها. ونظرت الي فيما تابعتْ همسي. وهكذا انقطعت عن البكاء.

١٤ يونيو (حزيران)

خلال فترة الحمل لا يعي الرجل ما يحدث حقا لزوجته. يعرف زملاؤك في العمل أنك ستصبح أبا، لكنهم لا يجعلون من ذلك الامر موضوع حديث.

غير أن سوزان طلبت مني اليوم الذهاب الى المحل الذي تتبضع منه. وما ان دخلت حتى سألني الموظف المسؤول عن اللحوم: "أيعني وجودك هنا أنك أصبحت أبا؟" كما سألتني بعض النسوة في المحل: "لقد وضعت سوزان مولودها، أليس كذلك؟" وسأل صاحب المحل: "صبي أم بنت؟"

وحين أجبت أن المولود فتاة أطلّ القصاب وقال: "لقد خسرتُ الرهان."

ولم أكن دخلت ذلك المحل قط طوال الاشهر التسعة الماضية، كما لم يراودني البتة أن ولادة طفل لنا تحمل أي معنى لأحد خارج البيت. لكن المرأة الحبلى تحمل أخبارها أينما ذهبت، من غير أن تتفوه بكلمة. فانتفاخ بطنها ينطق عنها. وأظن أني من اليوم فصاعدا سأغدو زبونا مداوما في هذا المحل.

لحظة لا تُنسى

١٥ يونيو (حزيران)

لا يهمّ كم كتابا تقرأ قبل ولادة طفلك. فهي كلها لن تهيئك لليلة الاولى التي يأتي الى البيت.

هذه الليلة ظلت أماندا تبكي من انتصاف الليل الى الصباح الباكر. ولئن تكن أفواه الاطفال الفاغرة تضحك في الرسوم المتحركة، فالامر يختلف تماما إذ يحدث لك للمرة الاولى وأنتَ لا تدري كيف تتصرّف. أما عرفتَ على الدوام أن الاطفال يبكون كثيرا؟ هذا عرفته ذهنيا، نعم، ولكن عندما يبكي طفلك على صدرك تدرك

أنه يعاني ألما لن تستطيع تخفيفه، وإذ ذاك تتألم معه.

وحين طلع الضوء بعد ليلة أماندا الاولى في البيت لم يكن النوم وجد طريقا الى أعيُننا الحمراء.

وكان أن وصلت والدة زوجتي من أوهايو. ومن الغريب كيف لا يلاحظ المرء بعض الحقائق حول الآخرين حتى تغدو هذه الحقائق ذات مغزى مباشر له. وما ان دخلت حماتي بيتنا حتى هيمن عليه الهدوء والسلام. وحملت الطفلة وراحت تمشي بها وتتحدث إليها. وظلت أماندا تبكي على عادتها، لكن وجود جدّتها معنا أزال خوفي واضطرابي. فأنا لا أعرف كيف أعامل طفلا. ولا شك في أن سوزان أكثر ادراكا مني، لكنها لا تزال حديثة العهد بالامومة.

والحق أن وجود حماتي معنا لقنني درسا ثمينا: اذا كنت تنتظر مولودك الاوّل، فاحرص على أن تكون جدّته هناك في أسرع وقت ممكن.

لقد كان مكتبي المنزلي يحوي آلة طباعة برقية في الزاوية ورسوما وجوائز على الجدران. أما اليوم فجدرانه تكسوها أوراق زرقاء سماوية تتخللها الغيوم البيض، وقد أُنزلت الرسوم وأُخرجت الآلة الكاتبة من الغرفة التي وُضع فيها مهد أبيض مع أشرطة بيضاء وخزانة صغيرة ذات أدراج مع تمثال طفل فوقها. ولم يبقَ في الغرفة أي تذكار من حياتي الماضية.

١٧ يونيو (حزيران)

أصغر الامور يحمل أهمية كبرى في عالم الطفولة. ومن هذه الامور التجشؤ بعد الرضاعة. لكن أماندا تعاني صعوبة في هذا المجال. وعدم التجشؤ يسبب لها الألم ويحملها على البكاء، واني لا أقوى على النظر إليها وهي تبكي في هذا الوضع.

لهذا بتنا بعد الرضاعة نتناوب حمل أماندا: سوزان وأمها وأنا، الى أن تتجشأ. ان أحدا لم يخبرني بهذه المشكلة من قبل، ولو فعل قبل اسبوع واحد لما صدّقتُ ما يقول. اما اليوم فهذا الامر يقلقني جدّا.

٢٦ يونيو (حزيران)

والد سوزان وصل اليوم وسيأخذ والدتها في سيارته غدا. وهو يرى أماندا للمرة الاولى.

الافكار التي راودتني حول الفوارق بين الرجال والنساء في ما يخص الاطفال أكدها حضور عمي. صحيح أنه بدا متحمسا جدا لرؤية أماندا، لكنه لم يعرف تماما ما يفعل.

وحين بدأت تبكي نظر حوله علّ شخصا آخر يهبّ إليها. وعندما تناوبت سوزان ووالدتها حمل أماندا جلس في مقعده يراقب. وعرفتُ جيدا طبيعة مشاعره لأنها تشبه مشاعري. فاذا بكت أماندا بلا انقطاع، بذلتُ ما في استطاعتي لتدارك الموقف. لكني أعرف أن المسؤولية في النهاية تقع على عاتق سوزان. ولئن بدا هذا الرأي طاعنا في القدم، الا انه لا يمكنني تجنُّبه.

وإذ تحمل سوزان أو والدتها أماندا يبدو الامر طبيعيا، ولكن إذ يحملها عمي أو أنا فالامر يبدو مجافيا

للواقع. وإذا بكت ولم تهبّ سوزان أو أمها اليها فورا، بدا انهما تهملانها. أما اذا تصرفتُ أنا أو جدّها هكذا، فتفسير هذا اننا لا نعرف ماذا نفعل.

أدرك تماما أن هذا يجري خلافا للنظريات العصرية. فالناس يخبروننا اليوم أن الرجل والمرأة ينبغي أن يتعاونا على الاعتناء بالاطفال. لكن البديهة تجري نقيض ذلك. والقرون الطويلة من عمر الحضارة عززت دور النساء المميّز في تربية الاطفال.

٢٧ يونيو (حزيران)

اليوم غادر والد سوزان ووالدتها، وبقينا وحدنا.

٢٨ يونيو (حزيران)

يقول طبيب الاطفال ان أماندا لا ترضع ما يكفي من الحليب. وكانت سوزان على قناعة بأنّ الطفلة تعاني صعوبات في النوم بسبب عدم تمكنها من التجشؤ بسهولة بعد الرضاعة. ولكن عندما وزنها الطبيب تبين له أنها فقدت نحو مئة غرام منذ ولادتها بدلا من أن تكسب ضعفي هذا الوزن. واقترح أن نعطيها قارورة حليب مرتين يوميا اضافة الى الرضاعة.

وهلعت سوزان، لكنني لم أدرك حقيقة رعبها. ويبدو أن الأمهات يقلقن إذا تبين أن حليبهنّ الطبيعي ناقص على نحو أو آخر. ولكن ما الداعي الى القلق اذا كانت التركيبة الاصطناعية تقوم مقام الخلل الطبيعي أو تسدّ العجز؟

الا ان سوزان قالت باكية: "انني لم أطعمها ما فيه الكفاية. وسبب بكائها انها كانت جائعة بسببي."

١ يوليو (تموز)

عندما تضع قائمة بالمعجزات التي شاهدتها في حياتك، لا تَنسَ أن تسجل في رأسها المرّة الاولى التي ابتسم لك طفلك.

لقد نامت أماندا حسَنا بفضل الحليب الاضافي. وفي الصباح أطعمتها سوزان ثم ذهبت لتستحمّ.

في تلك الأثناء كانت أماندا على ظهرها في عربة داخل غرفة الجلوس. وكما أفعل كل يوم انحنيتُ فوقها ونظرتُ إليها. ولمست بطنها وقدميها بأصابعي. منذ ولادتها حتى ذلك اليوم كان ردّ فعلها أن تطلق صوتا قصيرا وتحرف جسدها. أما اليوم فقد نظرت اليّ وابتسمت.

وفتحت فمها الخالي من الاسنان ورفعت وجهها وابتسمت فعلا.

وإذ ذاك بدا لي أن الليالي التي أمضيناها بلا رقاد والهموم التي عانيناها والدموع كلها أتت ثمارها. وناديتُ سوزان فأتت راكضة من الحمام لظنها أن هناك خطبا. وما زالت أماندا تبتسم، فنظرنا إليها كلانا وابتسمنا لها أيضا. انها لم تبقَ ذلك الكائن الصغير الذي نطعمه ونحمله فحسب، بل ان شيئا ما داخلها يؤكد لنا أنها معنا. والحق أنها لن تتذكر هذا، وأني لن أنساه.

١١ يوليو (تموز)

دخلتُ غرفة أماندا هذا الصباح، على عادتي كل صباح. نظرتُ الى

مهدها وقلت: "صباح الخير أيها الشروق السعيد." وهذا ما كنت أسمعه من أمي يوميا وأنا صغير. غير اني لم أسمع تلك الكلمات بعد السن الخامسة، أي منذ ثلاثين سنة. ولكن من غير تذكر أحد وجدتني أتفوه بتلك الكلمات ذلك اليوم. ولسوف أفضي بالامر الى والدتي اذا وجدت لدي الجرأة عليه.

خطط للمستقبل

١٣ يوليو (تموز)

في منتصف الليل بين الوقعة والاخرى، وفيما سوزان تغط في نومها المرهف هي وأماندا، كنت أستيقظ وأتساءل عما اذا كان كل شيء يجري حسنا.

وكنت أتسلل الى غرفة أماندا، فأراها في الجانب الأيسر من السرير ورأسها بين الوسائد. وأحشر اصبعي بتؤدة تحت أنفها لأتأكد من أنها تتنشق الهواء. وهي لم تكن تدري في نومها ما أفعل. كما اني لم أخبر سوزان بذلك. لكني كنت بعد تلك التحريات أعود الى النوم صافي الذهن.

١٤ يوليو (تموز)

حياتي المهنية تستأنف طبيعتها.

وإذ أعود الى البيت كل مساء أعرف من جديد أن سوزان وأماندا لم يشغل أياً منهما شاغل عن الاخرى.

وقد دخلت الشقة هذا المساء على صوت التلفزيون. وقلت السلام من غير أن أسمع جوابا. وتوجهت الى غرفة الجلوس لأرى سوزان نائمة على الأريكة بارهاق ما بعده إرهاق. كما غفت أماندا في عربتها على بعد أمتار من أمها.

وعندما أفاقتا أدركت أن ذلك النمط من الحياة بدأ يزعج سوزان. فهي احست للمرة الاولى التبديل الجوهري الذي أدخله وجود الطفلة على عالمها. وهي تعرف أن هذا التبدل طال عالمي أنا الآخر، لكنها تدرك أن عملي يربطني بعالمي القديم.

وتشعر سوزان أن أماندا ستكون أقرب اليها منها الي وحين أفاقتا ذلك اليوم أصيبت الطفلة بالفواق (الحازوقة) على عادتها. فقلت لها: "هذه العلة تصيبك على الدوام يا أماندا."

وحملتها سوزان قائلة: "هو لا يعرف أنك كنت تفعلين هذا طوال الوقت وأنت في أحشائي." وفتح كلام سوزان عيني على أن ثمة تاريخا مشتركا بينها وبين أماندا لم أكن أنا جزءا منه قط.

١٥ يوليو (تموز)

تتحرك أماندا كمن يقود درّاجة، وهي استهلت هذه الحركة اليوم، وتضطجع على ظهرها وترفع ذراعيها كأنما هي تهمّ بالسباحة، وفي الوقت نفسه تحرّك ساقيها.

وها هي باشرت إصدار أصوات تختلف عن البكاء، ولا أدري ما اذا كانت من بواكير النطق.

٣ أغسطس (آب)

يروقني أن أصغي الى سوزان وهي تخاطب أماندا. انها تنطق أطول

الجمل على مسمعها عندما تأخذها بين ذراعيها. وأنا متأكد من أن غايتها ملء الفراغ بينها وبين أماندا، لكن لكلامها محتوى. وهو في الغالب يدور على برنامج السنة المقبلة الذي صممته لها. الا ان سوزان تتفوه بكلماتها من غير أن تبذل جهدا أو تقصد ذلك.

وهذا المساء كانت الاثنتان على الأريكة فيما سوزان تراقب التلفزيون. وفجأة سمعتُها تقول: "قريبا سنشاهد برامج جميلة للاطفال." وراحت تسمي بعض الافلام. وأضافت: "ثمة أفلام لن تشاهدها لأنها لا تصلح لك، لكن الافلام الاخرى ستعلمك أمورا كثيرة."

ونظرتُ إليها، فسمعت سوزان تهمس في أذن اماندا، ولو سألتُها ماذا تقول لحارت جوابا. ولكن لا شك في أن الامر مهم جدا، وأنا اقدّره كثيرا.

٨ اغسطس (آب)

ذهبتُ الى أحد معارض شيكاغو اليوم، وهو معرض ريفي في المدينة يتخلله الكثير من الطعام والموسيقى.

كان المكان مكتظا بالمراهقين، وكان الصبيان يسيرون الهوينى ويتفوّهون ببذيء العبارة... يا إلهي! انه العصر الجديد.

ووقفتُ أتساءل: كيف يسعك أن تربي طفلك باختلاف عن هؤلاء؟ لا شك في ان والدي بعض المراهقين الذين صادفتُهم اليوم اهتموا بتربيتهم. ولكن أتكون عوامل التكيف الاجتماعي في مجتمعنا المعاصر الذي كافح جيلي من أجل اعطائه المزيد من الحرية أفسدت ما بناه الاهلون؟ أليس من سبيل الى السيطرة على هذه العوامل؟ ما الذي يكفل أن أماندا لن ترتاد بعد ١٥ سنة أمكنة عامة على غرار هذا المعرض؟

١٢ اغسطس (آب)

ارتأت سوزان أن الوقت حان لكي تجلس أماندا بانتصاب. فمنذ ولادتها قبل شهرين ما برحت تنظر الى العالم وهي مستلقية على ظهرها أو محمولة بين أيدينا. لكن سوزان اشترت لها اليوم كرسيا للاطفال مع حزام عند الخصر.

يا له من مشهد عظيم: أماندا تدير رأسها وتنظر في الغرفة! لقد غدت "صبية". وفي حين كان نظرها يقتصر على الاخيلة في سقف الغرفة، بات في استطاعتها أن تنظر الى الاشياء التي ننظر نحن إليها.

وتركتُ الاثنتين وحدهما في غرفة الجلوس وذهبت الى غرفة النوم لاجراء مخابرة هاتفية. ولدى عودتي وجدتهما هناك: سوزان على الارض وأماندا في كرسيها الجديد.

وسمعتُ سوزان تقول لها: "...وستجلسين حيث أنت، وسأهرس لك الطعام، وفيه أنواع الفاكهة والخضر. وأنا متأكدة من أنك ستعاندينني في أكلك. لكني سأقول لك اذ ذاك: "أرجوك يا حبيبتي أن تأكلي طعامك..."

ونظرت سوزان وارتبكت حين رأتني واقفا هناك. ويبدو أن ثمة

"أسرارا" بين الاثنتين يحسن أن أبقى بعيدا عنها.

عالم قديم، عالم جديد

١٣ اغسطس (آب)

للمرة الاولى بدت حياتي اليوم كما كانت من قبل.

استيقظت في السادسة صباحا، وكان علينا تسجيل المقابلة التلفزيونية المسائية في بلدة هينسديل احدى ضواحي شيكاغو، ورافقتني بتسي وست احدى مخرجات البرنامج الى حيث كان فريق التصوير في انتظارنا. وأجريت مقابلة اعتبرتُها ناجحة.

وبينما أنا مزمع أخذ الشريط الى محطة التلفزيون لوضع اللمسات الاخيرة قبل إذاعته، بلغتني مخابرة على جهاز الارسال الذي في حوزتي تقول ان الممثل هنري فوندا توفي وتطلب مني أن أتوجه للفور مع بتسي الى أوماها من أعمال ولاية نبراسكا لاعداد نبذة عن انطلاقة فوندا لتذاع ذلك المساء بعد الاخبار.

وخابرتُ بيل لورد منتج البرنامج لأعرف ماذا يريد حقا. وخابرت بتسي مكتبنا في أوماها لتسأل عن المراجع التي يملكها حول فوندا. ثم اتصلتُ بصحيفة "شيكاغو تريبيون" لتأجيل موعد تسليم المقال لذلك اليوم. واتصلت بتسي بمكتب شيكاغو لتحديد شكل الحلقة.

كان الوقت يقترب من الظهر، والطائرة الاولى التي تذهب الى أوماها تبلغها بعيد الرابعة عصرا. وذهبنا الى المدينة. وتركتني بتسي في مكتب الصحيفة بينما ذهبت هي الى محطة التلفزيون لاحضار ما تجده عن هنري فوندا.

واتفقتُ مع رئيس التحرير على تسليم مقالي في وقت لاحق، وتوجهتُ الى البيت وجهزتُ حقيبتي وودعتُ سوزان وأماندا. وكانت بتسي تنتظرني في المطار ومعها بطاقة سَفَري.

ولما وصلتُ الى هناك عرفتُ أن جيم ماهوني، وهو مصوّر يعمل على حسابه، سيطير معنا الى نبراسكا، وسيوافينا أحد التقنيين من نيويورك الى مكتب أوماها. وكانت بتسي أعدّت العدّة لمقابلة زميل قديم للمثل الراحل يبلغ الحادية والثمانين، وذلك في دار أوماها للتمثيل التي شهدت بداية فوندا الفنية. وفي الطائرة سألتني أن اكتب مقاطع النص التي سأظهر على الشاشة لدى قراءتها. أما النصوص الأخرى فسأكتبها بعد انجاز المقابلات.

وانتظرنا ماهوني على أحرّ من الجمر، لكنه لم يصل حتى قبل دقيقتين من موعد الاقلاع. واذا لم يسافر على تلك الطائرة، فلن يكون معنا مصور في أوماها. وفيما باب الطائرة يقفل وصل ماهوني ومعه آلة التصوير. لكن خبير الصوت لم يأت معه. وكان على بتسي أن تجد خبيرا محليا لضبط الصوت. وجلستُ في مقعدي أكتب النصوص المطلوبة.

وما ان نزلنا من الطائرة حتى هرعت بتسي وجيم الى مكتب لاستئجار السيارات. وانتظر جيم بعد ذلك انزال حقائبه جميعا، وعددها ١٥

حقيبة وضع فيها معدّاته الثيقلة. وخابرتُ مكتبنا لأعرف ما إذا كانت ثمة تعليمات اضافية، فقيل لي انهم يتوقعون حلقة ناجحة عن بدايات فوندا.

ولم نبلغ دار أوماها للتمثيل قبل الخامسة. وكان زميل فوندا القديم في انتظارنا. وأجلسناه في الردهة حيث عُلقت رسوم كثيرة على الجدران تعرض تاريخ الدار. ثم نقلنا الانوار والمعدات كلها الى قاعة المسرح واستظهرتُ قطعة عن بداية هنري فوندا المسرحية في مدينة أوماها.

وكانت الساعة تجاوزت السادسة ولم يبقَ لدينا وقت طويل. وانطلقنا نبحث عن مكان ملائم لالقاء القطعة الخاصة بنزعة الغرب الاوسط من الولايات المتحدة الطاغية على فوندا. وأخيرا عثرنا على المنزل المثالي لتحقيق غايتنا.

ووصلنا الى المكتب المحلي بعيد السابعة. وعرضنا بسرعة ما جمعناه. وكان هدف الحلقة الرئيسي إظهار أثر بيئة فوندا في تكوينه. وفي دقائق قليلة كتبتُ النص المرافق ودخلتُ غرفة التسجيل الصغيرة.

أنجزنا التسجيل في الثامنة والنصف، وبقي على بتسي أن تبثّ الشريط الى نيويورك في العاشرة ليلا بتوقيت نبراسكا، الحادية عشرة بتوقيت نيويورك، أي قبل نصف ساعة من عرضه.

وراحت تجمع بين النصوص والصور والوقت يمر بلا شفقة. وفي التاسعة والنصف خابرت بتسي مكتب نيويورك وقالت انها قد تحتاج الى ربع ساعة اضافية. وكنا نحاول تركيب خاتمة مؤثرة تظهر فوندا في زيارته الاخيرة الى دار أوماها للتمثيل ومعه حفيده جاستن. ويقول فوندا انه يريد أن ينحني حفيده للمرة الاولى في هذا المكان عينه حيث انحنى هو. وينحني جاستن ويضع فوندا ذراعه حوله. ويخرج الاثنان من دائرة النور الى الظلام.

وبلغت الساعة العاشرة ليلا، أي الحادية عشرة في الساحل الشرقي من الولايات المتحدة. بعد ثلاثين دقيقة فقط سيكون هناك عشرة ملايين مشاهد أمام شاشات التلفزيون ينتظرون برنامج "نايت لاين". وبث المسؤول التقني صوتي على لقطة تُظهر فوندا وجاستن على المسرح: "ما حدث ذلك المساء كان أوماها بالذات وهنري فوندا نفسه."

ولما هممنا ببثّ الشريط الى نيويورك وجدنا خطأ في أحد المقاطع. ولكن لم يبق لدينا مجال لاصلاح الخلل. وكانت الساعة العاشرة والدقيقة العشرين ليلا. وبثثنا الشريط كما هو، طالبين من المحطة في نيويورك إصلاح الخطأ.

وفي الدقيقة الرابعة والعشرين بعد العاشرة عدنا مسرعين الى غرفة الاخبار، وكانت النشرة المحلية على وشك الانتهاء. وسمعنا موسيقى الافتتاح لبرنامج "نايت لاين" وبعدها قال المذيع تيد كوبل: "من أوماها، مع رسالة من بوب غرين."

وشعرتُ أن طاقتي كلها تلاشت. وفجأة أدركتُ أني لم آكل شيئا بُعد

الفطور. وخيّل الي أني في مكان ناء جداً عن البيت.

١٤ اغسطس (آب)

نمت أربع ساعات، وكان عليّ أن أركب الطائرة الاولى الى شيكاغو لكي أستطيع كتابة مقالي للصحيفة. وفي مطار أوماها شاهدت طفلة في قرابة السنتين تسرع نحو أمها وتصفعها بشدّة. وقالت الأم: "لا تضربي. في امكانك أن تذهبي الى شخص ما وتلاطفيه، ولكن لا يجوز أن تضربيه."

وهكذا عدتُ الى عالمي الجديد، عالم أماندا.

السير في الحلم

١٨ أغسطس (آب)

كان رفّ المطبخ مكاناً أضع عليه زجاجات المرطبات بعد استعمالها وأصنع لنفسي الشطائر. أما اليوم فهو لم يبقَ هكذا.

لقد غدا المطبخ المكان الذي تستخدمه سوزان لغسل أماندا بعد أن تملأ وعاء أصفر ماء فاترا ثم تضع اسفنجة فيه. ولكن يبدو أن أماندا تكره الاسفنجة والماء والصابون.

ولا يروقني أن أدخل المطبخ فأرى أماندا احتلت الركن الذي كنت أضع فيه الزجاجات واحضر الشطائر. وإذا سألني أحد عن رأيي حول هذا الامر، لقلت انه لا يجوز أن يستحمّ طفل في المطبخ. الا ان أحدالم يطلب رأيي.

٢٧ أغسطس (آب)

أحيانا، وأنا مرهق في آخر الليل، يحدث شيء، لا أستطيع تفسيره.

ان أماندا تشبهني. والواقع أن جميع الآباء والامهات يظنون أن أولادهم يشبهونهم. الا ان هناك أجزاء من أماندا تشبهني حقا. وفي آخر الليل وأنا مرهق أذهب الى مهدها وهي تبكي. وبما أن تضخيم الامور يغدو سهلا مع الارهاق، فأنا أجد في ذلك الحين أن تلك القسمات في ابنتي تشبهني الى أقصى الحدود.

إذ ذاك أنظر الى المهد فأجدُني أنا نفسي أبكي هناك... ليس أنا اليوم، بل عندما كنتُ طفلا. وأشعر أن في استطاعتي أن أنظر عبر الزمن لأرى ذاتي وأنا في الاسبوع الحادي عشر من عمري. ولا يخالطني ريب في أن ذلك وهم، وأني لو كنتُ مرتاح الجسد لما خالجتني تلك الافكار. لكنها خبرة قائمة في ذاتها :أن ينظر المرء أمامه فيعود سنوات الى الوراء، الى طفولته. انها خبرة تشبه السير في الاحلام.

٩ سبتمبر (أيلول)

"انكِ خير صديقة لي." هذا ما قالته سوزان اليوم على مسمع أماندا. وكانت الطفلة بين ذراعيها، فنظرت إليها.

وتابعت سوزان: "اننا نبقى معا طوال النهار، نأكل معا ونذهب معا الى كل مكان. ولكن سوف يأتي يوم لن تبقي أفضل صديقة لي. عندئذ سأقول لكِ اني اريد أن تبقي معي. غير انكِ ستنظرين اليّ وتقولين: "ماذا يا أمي؟"

قالت سوزان هذا كله وهي لا تدري أني اصغي إليهما.

١٥ سبتمبر (أيلول)

لم تبقَ أماندا صلعاء الرأس كما كانت حين أبصرت النور، كان شعرها مثل ذيل بطة. أما اليوم فرأسها مغطى بزغب أملس بنيّ اللون. وهذا حصل تدريجيا فلم ألاحظه. لكنها اليوم طفلة ذات شعر، الا انها لن تحتاج الى تصفيف شعرها قبل أشهر، لا بل سنوات، وكل ما في الامر أنها بدأت تكتسب ملامح الفتاة.

١٧ سبتمبر (أيلول)

من النعم التي أغدقها علينا مجيء أماندا أننا بتنا نلاحظ أشياء لم نكن نكترث لها البتة.

عصر اليوم كنا في غرفة الجلوس نحمل أماندا والضباب يخيم على الجوّ. وفجأة شقت الشمس حجب الغيم وفاضت الشوارع بالنور.

وحملتها سوزان أمام النافذة وقالت: "انظري يا أماندا: ها هي الشمس تظهر من جديد... انظري الى الشمس."

ونظرنا نحن الثلاثة خارجا. ولا أذكر المرة الاخيرة قبل مجيء اماندا التي نظرتُ فيها الى الشمس تشقّ طريقها بين الغيوم.

١١ نوفمبر (تشرين الثاني)

قصد والداي مدينة نيويورك للاحتفال بذكرى زواجهما. وهما اعتادا الذهاب الى نيويورك قبل أن أولد وبعد ولادتي. وفي طفولتي كانا يقصان عليّ الروايات حول حي منهاتن. وأظن أن الصورة التي كونتها عن نيويورك كانت مستمدة من تلك الاخبار ومن أفلام السينما والتلفزيون.

أما اليوم فأنا الذي أذهب كثيرا الى نيويورك. وهي مدينة قد تكون قاسية ومجافية جدا. ومن يقطع شوارعها يراوده حس بخطر كامن. وعادتي أن أمضي وقتا طيبا هناك، لكنه يختلف كثيرا عما عهدناه في الغرب الاوسط من الولايات المتحدة.

لقد عاش أبي وامي في بلدة كولمبوس في ولاية اوهايو منذ ولادتي. وعلى رغم معرفتهما الحسنة بالحياة في المدن الكبيرة فان ذهابهما الى نيويورك أقلقني. فهما في الستينات، ولم تبقَ حياتهما كما كانت قبل ثلاثين عاما. كذلك لم تبقَ نيويورك على عهدها قبل ثلاثين عاما.

لذلك ظللت أخابر الفندق خلال الايام الثلاثة التي أمضياها هناك لأتفقد أمورهما. وفي مخابرتي الاخيرة أيقنتُ أن المرء مسؤول عن كل من حوله. وهذا الحس بالمسؤولية منحني إياه وجود أماندا وكنت بعد مخابرة والديّ كل يوم أنام بطمأنينة أكثر.

العالم المتسع

١٧ نوفمبر (تشرين الثاني)

باتت أماندا تجيد "السباحة" على ظهرها. وكنت كل مرة أعيدها الى وسط غرفة الجلوس فتعيد الكرّة وتدور حول الغرفة بسرعة وهي تدوس الارض بقدميها.

لم أكن أتوقع ذلك، بل ظننتُ أن

جميع الاطفال يتعلمون الزحف على بطونهم أولا. لكن أماندا تظن أن الاندفاع على ظهرها هو أكثر الامور طبيعية في العالم.

٢١ نوفمبر (تشرين الثاني)

في السابعة والدقيقة الحادية والعشرين من هذا المساء سألتني سوزان للمرة الاولى: "أتحبّ أن يكون لدينا ولد آخر؟"

٢٦ نوفمبر (تشرين الثاني)

جاء صديق وزوجته من نيويورك ومعهما ابنتهما باميلا التي تكبر أماندا بضعة أشهر. ورحنا نتحدّث في الامور المدهشة التي ترافق مجيء الولد الأول، فيما أماندا وباميلا على الارض تحاول احداهما اكتشاف الاخرى. في البداية وضعت باميلا يدها فوق رأس أماندا، ثم مدّت أماندا يدها الى خدّ باميلا. وبعد ذلك وضعت باميلا يدها على كتف أماندا ولا شك في أن كلتا الطفلتين لاحظتا أنهما مختلفتان عنّا.

وكففنا عن الكلام ورحنا نراقب. وللمرة الاولى فكرتُ في أماندا من حيث انتماؤها الى جيل الاطفال. وكنتُ شاهدتُ طفلا في مطعم مع أمه وأبيه، فتبادر الى ذهني أن في العالم آباء وأمهات كثيرين يختبرون أمورا مماثلة لما أختبره أنا وزوجتي. ولكن حين رأيت أماندا وباميلا تلمس إحداهما الاخرى عرفت أن هذا الجيل من الاطفال سيبقى طويلا بعدنا، يتفاعل مع عالم خاص به من يوم الى آخر. وسوف يصادف في عالمه أناسا كثيرين يحبّ بعضهم ويكره البعض الآخر. والتفاعل مع الآخرين جزء مهم من حياة كل إنسان. وهذا اليوم رأيت أماندا تتفاعل مع جيلها للمرة الاولى.

١٦ ديسمبر (كانون الاول)

أظنّ أني سأتوقف قريبا جدا عن الاشارة الى "ضحكة أماندا الخالية من الاسنان." فقد كانت أمي تزورنا، وقبل أن تغادر قالت انها أدركت لماذا أكثرت أماندا البكاء في الآونة الاخيرة. فهي لاحظت من وضع اصبعها في فم الطفلة أن سنا بدأت تنبت في فكها الاسفل.

وحاولنا النظر داخل فم أماندا لنرى السنّ، لكننا لم نبصر شيئا لأنها لم تدعنا نفتح فمها. غير انها أتاحت لنا وضع اصابعنا داخله. وأحسسنا أن في لثتها عظما ناتئاً.

وقالت سوزان: "عجيب أننا لم نفكر في هذا الامر قبل اليوم."

٢٠ ديسمبر (كانون الاول)

اني على يقين من أن قلق سوزان مما فعلته أماندا لعالمها القديم لا يقلّ عن محبتها لها.

وهي اليوم كانت تستعد لأخذها معها للتبضع، وأنا أهيىء نفسي للذهاب الى العمل.

وقالت سوزان: "لقد تم إصلاح المكنسة الكهربائية. وأنا أخذتها أمس الى المحل فأعادوها بعد أربع وعشرين ساعة."

وأجبتُها كما من عالم آخر: "هذا عظيم."

أما هي فتنهدت وقالت: "أعرف أن أحاديثي فقدت قيمتها هذه الايام. ولكن حاول أن تفهم وضعي."

٢٣ ديسمبر (كانون الاول)

جاءت سوزان اليّ في غرفة النوم وهي تحمل أماندا، وقالت: "لقد فعلتُ حسنا إذ اشتريتُ لها هذه الدمية اليوم." وتهجت عبارة "كلب" من غير أن تلفظها.

وقلت لها: "ماذا؟"

ـ كنت في محل الالعاب اليوم، واشتريتُ لها هذه اللعبة باكرا. وحين مررتُ من هناك عصرا كانت الالعاب كلها بيعت.

"اشتريت لها ماذا؟"

وعادت سوزان تتهجى عبارة "كلب" ولا تلفظها.

وبدأتُ أفهم ما يدور في ذهن سوزان فعيد الميلاد قريب، وهو أوّل ميلاد تشهده أماندا. وهي اشترت لها كلبا على عجلات صغيرة متحرّكة يمكنها ركوبه في المنزل. وسألتها: "لماذا تتهجين الكلمة؟ أتظنين أن أماندا تفهم معناها اذا لفظتها كما هي؟ ان أماندا في شهرها السادس، ولا تعرف معنى عبارة كلب."

وسدّت سوزان أذني أماندا بيديها وأخرجتها من الغرفة وهي تقول: "صه! اسكت."

٢٥ ديسمبر (كانون الاول)

في عيد الميلاد الاوّل خابرها الاهل والانسباء جميعا وكنا نضع السماعة على أذن أماندا فيتكلمون إليها. وهي أدركت أن أمرا ما يحدث، وارتسمت على وجهها أمارات الدهشة ونظرت الى سوزان واليّ كما لو كانت تريد تفسيرا.

وقدّمنا إليها الهدايا وبينها الكلب الذي بدا انها أحبته. أما هديتنا الخاصة فكانت كتبا من قماش. وهي كتب مطبوعة على نسيج. والحق أن أماندا لم تعرف شيئا عنها، بل أحبتها لأنها ناعمة الملس وملوّنة.

وكان هدفنا من اعطائها الكتب تعوديها وجودها في المنزل. فهناك عوامل عدّة هذه الايام تحمل الاولاد على مقت الكتب والقراءة. ونظريتنا أن عرض الكتب على أماندا في هذا الوقت الباكر يجعلها تجد فيها متعة وتحبها في مستقبل الايام وتطالعها بلذّة وشَغَف.

ولكم سررنا حين رأيناها تلعب بكلبها يوم الميلاد. لكننا سررنا أكثر لرؤيتها تتفحص كتبها، وإن هي حاولت بعد فحصها أن تأكلها.

البيت الخالي

١ يناير (كانون الثاني)

انه اليوم الاول الذي تدب حسناً.

جاءنا بعض الأصدقاء للتهنئة برأس السنة. وحملوا أماندا وراحوا يحرّكونها الى الأمام والوراء. وقد استجابت لهم اكثر من عادتها مع الغرباء، ولكن بدا واضحاً انها تريد العودة الى أمها.

وأعادها اليّ احدهم فوضعتُها على الأرض لأرى ان كانت تودّ اللعب. وما ان رأت امها جالسة على بعد عشرة امتار حتى قررت الذهاب اليها. وانطلقت على الارض مستخدمة

ذراعيها وكتفيها اولا وركبتيها ثانياً.

وإذ همت سوزان أن تهب لنجدتها قلت لها ألا تفعل. واستمرت اماندا في دبيبها دقائق، لكنها وصلت اخيراً الى حضن أمها.

ويبدو ان اصدقاءنا لم يجدوا في الأمر ما يدهش، إذ ليس لديهم اولاد. وأنا متأكد من كونهم يظنون أن الأطفال يدبون على اربعتهم طوال الوقت. لذلك ارتأينا ان نخفي حماستنا تجاه الظاهرة الجديدة الى ان ينصرفوا.

وما ان فعلوا حتى عادت أماندا تدب من غير توقف. ودخلت المطبخ وأدرت جهاز راديو. ولما سمعته استدارت نحو الصوت ودبت من غرفة الجلوس الى المطبخ. وهكذا، في يوم واحد، بدا أنها كبرت كثيراً.

١٧ يناير (كانون الثاني)

ظلت سوزان أشهراً تقول انها تحتاج الى فرصة للراحة. وهي قارنت بين نشاطها ونشاطي فوجدت ان الخروج من البيت والسفر يجددان افكاري، ولكن لم يكن لديها رغبة في ترك أماندا في عهدة مربية ومرافقتي، إذ انها ستشتاق الى الطفلة كل ثانية.

وعبرت عن رغبتها في الذهاب مع أماندا الى أوهايو والمكوث أسبوعين او ثلاثة مع والديها. هناك تعينها أمها في تدبُّر شؤون أماندا وتستريح هي من مسؤولية الطبخ والتنظيف.

ولم يكن في امكاني الذهاب معها، لكني وافقتُها على أن تلك الرحلة من شأنها تجديد نشاطها. لكني ارتأيتُ خيراً لهما ولي أن ارافقهما في الطائرة الى كولمبوس ثم أعود وحدي.

ولما وصلنا الى المطار كان أبي وأمي في انتظارنا للوداع. وقبع أبي قرب مخرج المسافرين مع آلة التصوير وهو يترقب بكل حواسه خوفاً من ان يختفي موضوع الصورة ولا يراه. وموضوعه كان أماندا.

١٨ يناير (كانون الثاني) ــ ١٣ فبراير (شباط)

أجل، عرفتُ أني سأشتاق الى سوزان وأماندا وان البيت سيبدو خالياً في غيابهما. لكني لم أقدّر ابداً حجم هذا الفراغ. وبما اني سافرتُ كثيراً خلال الاشهر الماضية فقد ظننتُ ان العودة الى المنزل مساء ستبقى هي هي.

غير اني اخطأتُ التقدير.

ففي الأيام العادية أعرف ان أماندا وسوزان هناك في انتظاري. وعندما أكون في مطار او في غرفة فندق يحضر بيتنا الى ذهني وهما فيه. وحين أرفع سماعة الهاتف للمخابرة اراهما وأرى بيتنا في عين مخيلتي.

لكن الأمر مختلف الآن. فقد عدت الى المنزل مساء ولم يكن أحد هناك. لكني وجدتُ لعب أماندا تملأ المكان، الأمر الذي هزّني من أعماقي. ووجدت الكلب الذي اشترته سوزان لمناسبة عيد الميلاد في الدار، والعربة في المدخل وعلبة الدمى على الأرض والمهد في الغرفة.

ولم أكن قبل ذلك عرفت الى أي حد

باتت أماندا جزءاً من حياتي. قبل ثمانية اشهر فقط لم تكن هناك. اما اليوم فأحس فراغاً كبيراً في حياتي وهي بعيدة عن البيت، حتى اني أتألم جسدياً لعدم رؤيتها.

ولكن يبدو أنها وأمها مسرورتان حيث هما في كولمبوس. ولم انفك عن مخابرتهما يومياً، لا بل مراراً كل يوم. وأخبرتني سوزان ان سني أماندا في اللثة العليا اخذتا تظهران. وشعرت أني اود ان أكون حاضراً لهذا الحدث.

١٤ فبراير (شباط)

بلغتُ كولمبوس بين المساء والليل، وكان الوقت حان كي تنام أماندا. وسألت سوزان: "أأستطيع الصعود لأراها قليلا؟"

وذهبنا معاً الى غرفة نومها، وقد وُضعت في مهد وسط الغرفة التي عاش فيها ديفيد شقيق سوزان وهو صغير. ووقفتُ فوق المهد ورحت أحدّق الى أماندا. وسألتني سوزان: "أتبدو لكَ أكبر مما تركتها؟"

وقلت اني غير متأكد من ذلك، ولكن حسبي أنها لا تزال أماندا هي هي.

وسقطت عليّ المفاجأة في وقت لاحق حين استيقظت للطعام.

وقالت: "دا... دا."

لم أصدق ما أسمع.

ومرة أخرى قالت: "دا.... دا."

وقالت لها سوزان: "أجل يا حبيبتي، ان أباك (دادي) هنا."

وعادت أماندا تقول "دا.... دا" وهي تضحك.

وسألتُ سوزان: "متى بدأت تتفوه بهذه الكلمة؟"

ـ قبل اسبوع تقريبا، وهي تقولها طوال الوقت.

"ماذا تفعلين عندما تنطق كلمتها؟"

ـ لا شيء، فقد كنت أنتظر قدومك لأعلمها معنى تلك الكلمة.

١٨ فبراير (شباط)

اليوم نطقت أماندا كلمة اخرى: "ماما." غير ان ذلك لم يحمل الى سوزان أي معنى خاص، لأن أماندا كانت تنظر مباشرة الى هرّتنا وهي تقول كلمتها الجديدة.

الخطوات الاولى

٢٤ فبراير (شباط)

جئت الى المنزل وتوجهت فوراً نحو غرفة الجلوس. هناك كانت أماندا واقفة، فنظرت اليّ.

انه أمر غريب حقاً. وها هي أماندا تقف معظم الوقت الآن. وهي تنتصب من غير مساعدة من سوزان أو مني، لكنها لا تستطيع البقاء واقفة من غير ان تستند الى رفّ او مقعد.

وهكذا دخل عنصر آخر عالمي الجديد. وبت أعود الى المنزل لأرى سوزان جالسة وأماندا واقفة. ولم يقتصر التطور على الناحية الجسدية، بل شمل الناحية الذهنية ايضاً.

في أيام وقوفها الأولى كانت اذا أوقعت شيئاً من يدها ظلت واقفة حتى يُعاد اليها ذلك الشيء. وغدت بعد ذلك تلتقط كل شيء يأتي ضمن مجال يديها ثم تتركه دونما اكتراث.

أما الآن فقد تبدلت الأمور، فاذا كانت تلعب بدمية ووقعت منها، راحت تراقبها بعينيها وتتساءل عما حدث لها. وهي معظم الوقت تذهب اليها وتلتقطها. لقد بدأت تدرك ان كل ما يفلت من يدها وقتياً يبقى جزءاً من عالمها.

٤ مارس (آذار)

أجل، أماندا تستطيع الوقوف، وهي تقف معظم الوقت. لكنها لا تعرف كيف تعود الى وضع الجلوس. وكلما تعبت من وقوفها نظرت حولها وارتسمت الدهشة على وجهها ثم أخذت تبكي.

ويقول لها أحدنا: "لا تخافي يا أماندا." ثم نقعدها على مهل حتى تستقر. ونعلمها بعد ذلك كيف تنحرف الى اليمين او اليسار كي تدب.

غير انها لم تتعلم بعد كيف تجلس من تلقائها. وقالت لي سوزان: "لا تكف" عن تلقينها بالطريقة عينها لئلا تضيع ما اكتسبته."

٨ مارس (آذار)

ربما أقعدنا أماندا خمسمئة مرة، لكنها لم تتعلم بعد ان تفعل ذلك وحدها.

الا أن أماندا نزلت الى الأرض وحدها اليوم. وكانت في غرفة الجلوس ويداها على طاولة الضيافة. وحين تعبت من الوقوف لم تبك كما اعتادت، ولا هي نظرت البناء بل طوت ركبتيها وانحنت حتى بلغت الارض. وبعد ذلك ألقت يديها على الأرض استعداداً للدبيب.

وسألتني سوزان: "أتذكر اننا علمناها كيف تثني ركبتيها؟"

ـ كلا، لم نعلمها شيئاً من ذلك.

ونظرنا الى أماندا، فاذا بها تقف مرة أخرى ثم تثني ركبتيها من جديد لتدب حول الغرفة.

٢٦ مارس (آذار)

كلما سمعت أماندا موسيقى تحبها راحت ترقص. ولم أعرف بادىء الامر ما تفعل، لأن الطفل الذي لا يمشي لا يرقص بالطريقة التقليدية.

لكنها كلما سمعت أغنية تحبها على الراديو أو التلفزيون تجمدت مكانها ثم بدأت تهز جسمها مع الموسيقى وتبتسم. وما ان تهدأ الموسيقى حتى تستأنف الدبيب.

٦ أبريل (نيسان)

عدت الى البيت متأخراً قليلا هذا المساء، فوجدت الدمى مبعثرة هنا وهناك في المدخل والصحف تملأ غرفة الجلوس. وفي الحمام كان ورق التنظيف مسحوباً على الأرض.

وقلت لزوجتي: "لن أسألك عما كانت أماندا تفعل طوال اليوم، فإني أعرف ذلك جيداً."

١٩ أبريل (نيسان)

جلسنا نحن الثلاثة نراقب فيلماً على التلفزيون. وظهرت على الشاشة عروس في ردائها الأبيض. وقالت سوزان لأماندا: "سوف تصبحين عروساً في أحد الأيام. ولسوف تلبسين رداء أمك عينه. في ذلك اليوم يسير أبوك الى جانبك

ويسلمك الى عريسك. وبعد ذلك تصدح الموسيقى في القاعة، فتذهبين مع أبيك الى وسط الحلبة وترقصان على مرأى الجميع."

ولما سمعتُ ذلك اكتفيتُ بالنظر من النافذة وأنا أفكر.

٤ مايو (أيار)

الأمر الذي أدهشني كثيراً هذه السنة نجاح سوزان السريع في دور الأمومة، وهو يفوق نجاحي كأب. ولكن يبدو ان سوزان أدركت كل شيء بالغريزة.

ومن الأمثلة على ذلك أنها لاحظت إعجاب أماندا بكل شيء له حافة يمكن التمسك بها. من هنا قالت لي اليوم: "لقد ذهبتُ الى محل الاواني المطبخية لأرى ان كان فيه علبة بلاستيك مع حافة مؤطّرة."

ـ ماذا فعلت هناك؟

"قلت لك انيَ كنت أبحث عن علبة ذات إطار من فوق."

ـ ولمَ تحتاجين اليها؟

"انها لأماندا، كي تلعب بها."

ـ وما الذي جعلك تفكرين في أمر كهذا؟ أهو ملاحظتك أن أماندا تحب الأشياء ذات الأطر؟

"أجل، هذا هو السبب."

انه مثل واحد عن محبة الام. وهناك الكثير الكثير سواه.

الرواية تستمر

٢ يونيو (حزيران)

الليلة الفائتة قبل ان نأوي الى النوم، وجدنا أنا وسوزان أننا كنا نفكر في الأمر نفسه: انه حفلة ميلاد أخذنا أماندا أليها. ومع وصولنا الى المنزل الذي أقيمت فيه الحفلة كانت ماغي المهرّجة واقفة في المدخل لتحية الضيوف. وكان معظم الأطفال بلغوا المكان قبلنا وتحلقوا في ركن صغير حول ماغي التي ظهرت في رداء ساحرة طويل. وسألتنا عن اسم ابنتنا. أجبناها قالت: "أماندا، تعالي مع ماغي وتعرّفي على سائر الأطفال."

ونظرت أماندا الينا قليلا ثم مدّت يدها الى يد ماغي وراحت تتمايل في مشيتها وهي تمر أمام الصبيان والبنات هناك. وكنت وسوزان على بعد أمتار منها، لكن المسافة بدت مئة كيلومتر وأكثر. وشعرتُ غصة في حلقي لبعد أماندا عني.

وتبين لي ان شعوراً مماثلا راود سوزان. وأدركنا ان تلك الدقائق لم تكن سوى بداية، وأن حياة أماندا هناك، اي أننا لن نكون الانسانين الوحيدين في حياتها. وحين أخبرتُ سوزان أني لم أكن اتوقع ان تأخذ أماندا يد ماغي، أقرّت بأن الشعور نفسه راودها هي أيضاً.

ان أماندا لم ترفض الذهاب مع ماغي. وحين أفكر في احداث السنة الأولى من حياتها أجد ان هذا الحدث لن يفارق أفكاري.

٧ يونيو (حزيران)

كانت أماندا تشرب الحليبَ من قنينتها هذا الصباح وهي في حضني وقد حملت الزجاجة بين يديها.

وفجأة أخرجت القنينة من فمها وأعطتني اياها. وضحكتُ وأعدتُها

اليها، لكنها عادت تقحمها بين يدي. واتضح انها تريدني ان اشرب منها.

وتظاهرتُ بوضع الزجاجة في فمي والشرب، فارتسمت ضحكة واسعة على وجه أماندا. وعندئذ أخذت الزجاجة وشربت منها جرعة ثم أعادتها اليّ. ورفضت ان تشرب هي حتى أشرب انا أو، على الأصح، أتظاهر بذلك. وظللنا عشر دقائق على هذا النحو. ولا أعرف من أين استمدت أماندا تلك الفكرة، لكنها منحتني شعوراً بجمال الحياة.

١١ يونيو (حزيران)

الساعة الآن الخامسة صباحاً وأنا في غرفة الجلوس بينما أماندا وسوزان نائمتان.

اليوم يصل والداي ووالدا سوزان لحضور عيد ميلاد أماندا الأول. وقد علقت سوزان اوراق الزينة والبالونات في أرجاء المنزل. وستُقدَّم الهدايا الى أماندا وتُلتَقَط الصور لها ولنا جميعاً.

لا أدري لماذا لم أغْفُ على النوم. ولكن ها أنذا هنا، أنظر من النوافذ وأحاول استجماع افكاري. غير اني لم اتوصل الى اي شيء حاسم. وربما استطعتُ في مستقبل الأيام ان اتبين معنى هذه السنة في حياتي.

كل ما أعرفه الآن أني داخل بيتي وقد اكتسبتُ شعوراً جديداً لم أتوقعه البتة من قبل. لقد تبدل كل شيء. ولئن كنت أتوقع تبدلا ما الا اني كنت أجهل طبيعته. ومختصَر القول اني بت شخصاً آخر بالمقارنة مع العام الماضي.

ودخلتُ غرفة أماندا ونظرتُ إليها. انها لا تعرف قطّ ما كنتُ قبل أن تولد، وربما لن تدرك البتة ان وجودها المحض بدّل حياتي. وربما استطعتُ يوماً ان أفسر لها ذلك، وربما حاولت هي ان تفهم ما أقول. غير انها سوف تصغي الى كلام شخص لم تعرفه سوى أب لها، وقد لا تفلح أبداً في تبين ملامح حياتي قبل ذلك الحين.

آه، يجب ان أعود الى السرير الآن، فأمامنا نهار طويل. لكن جزءاً مني يود ان يبقى وحيداً هنا في الظلام مطلقاً العنان لأفكاره.

وحين اسمع صوتاً آتياً من غرفة ابنتي سأهرع اليها وأحملها وأشدها الى صدري كما فعلتُ على الدوام في صباحات كثيرة وكما اتمنى ان افعل في صَباحات كثيرة مقبلة.

وعلى كعكة العيد ستكون هناك شمعة واحدة اليوم. ولقد اخترت ان أجعل من هذه الشمعة خاتمة لروايتي الحالية. غير ان الرواية تستمر بلا انتهاء، وهي تختلف عن كل قصة أخرى كنتُ جزءاً منها.

■ **بوب غرين**

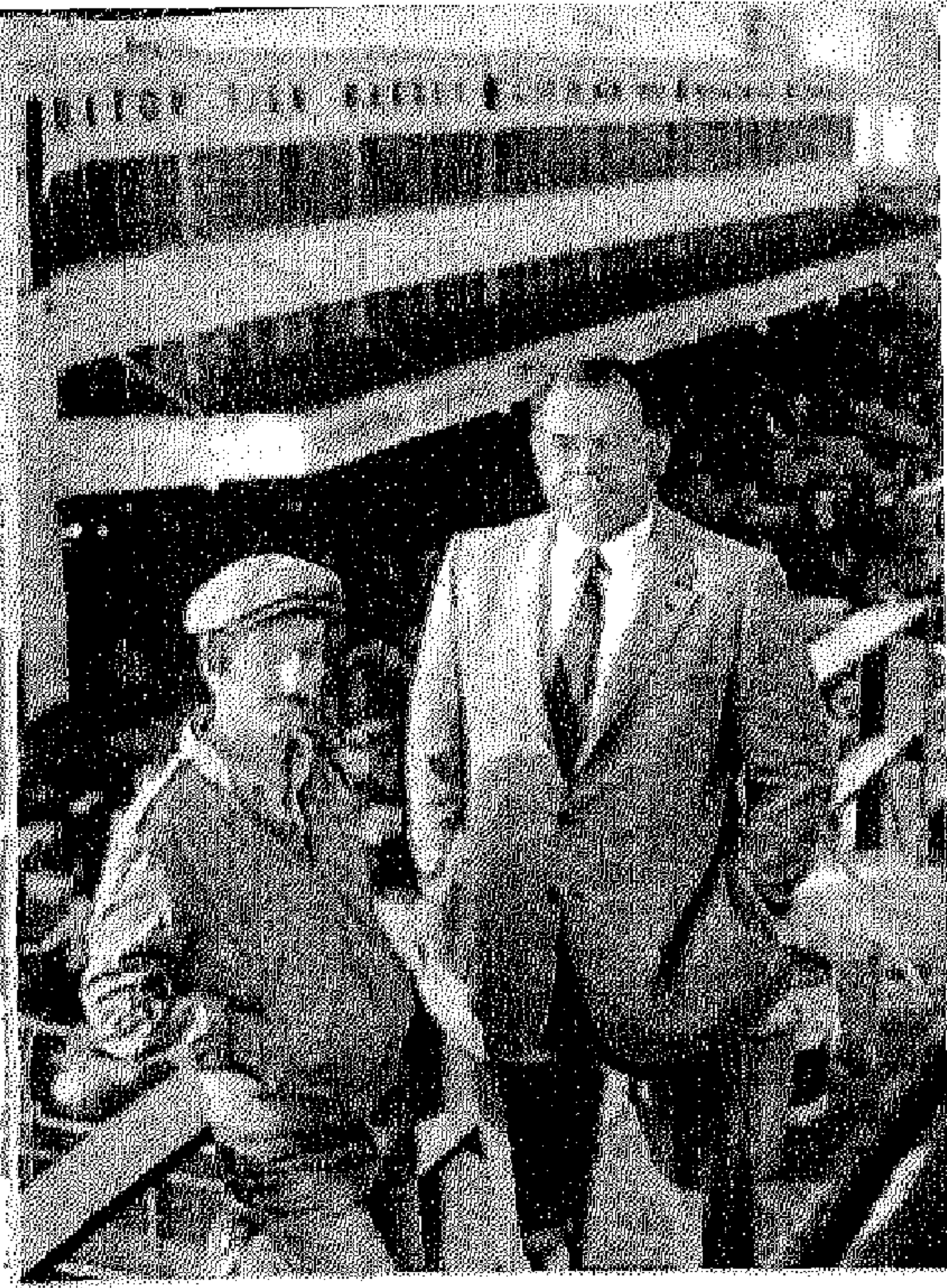


شباب سينمائي!

لماذا لا نقتدي بالافلام السينمائية، فنكفّ عن استعمال عبارات مثل "منتصف العمر" ونقول: "الجزء الثاني من الشباب"؟



تانشا أدامز



فريد فيرون ووسلي ووكر.

مافيا السمك

في مدينة نيويورك سوق تاريخية للسمك اسمها "سوق فولتون»، وهي تحتل مساحة كبيرة من شرق منهاتن الأدنى بين وول ستريت والنهر الشرقي وتطل على جسر بروكلين. والسوق، التي تعود الى العام ١٨٢٣، هي الأكبر من نوعها في الولايات المتحدة. وهي توزع السمك على التجار في النصف الشرقي من البلاد بحيث يصل مردودها الى ٥٠٠ مليون دولار سنوياً.

الا ان عمليات الابتزاز والاجرام المنظم نشطت في السوق على ايدي عصابات قوية، بحيث لم تخرج سمكة واحدة من دون خوّة. وفي نهاية السبعينات قُدر دخل "المافيا" السنوي بستين مليون دولار. لكن الشرطة لم تتدخل إلا نادراً بحجة ان اعمال السوق كانت تجري على نحو مقبول. غير أن أمر العصابة افتضح بدءاً من ربيع ١٩٧٩ مع وضع القضية في عهدة محقّقَيْن مخلصَيْن واجها عصابات السوق بمفردهما.

Photo: Enrico Ferorelli / Dot



تسلم وسلي ووكر، وهو في السابعة والاربعين ابن عامل من ولاية كارولينا الشمالية الامريكية، وظيفة جديدة بعد تقاعده من شرطة مدينة نيويورك التي عمل فيها تحرّيا على مدى سنوات. وهذه الوظيفة وقتية ومرتبطة بمقرّ مكافحة الاجرام ضمن مكتب المدّعي العام للولايات المتحدة في المقاطعة الجنوبية من نيويورك. وقد أرسلته الى هناك قبل أربعة أيام وزارة العمل كواحد من عشرة محققين انتدبوا لتلك المهمة.

كان ذلك يوم الجمعة الواقع فيه السابع والعشرون من ابريل (نيسان) ١٩٧٩. وموضوع التحقيق هو سوق فولتون للسمك التي كانت بعيدة جدا عن ذهن ووكر، مع قربها الى مكتبه. فقد اتجهت أفكاره الى الوظيفة الجديدة وراح يتساءل عما اذا كانت تناسبه وعن طبيعة مهمته الاولى.

ووضع رئيسه تقريرا مقتضبا على طاولته وقال: "أنظر يا وسلي ما يمكنك فعله بهذا الملف."

وما أن قرأه ووكر حتى أدرك أن المسألة لا تستحق هذا العناء كله. وكان ذلك التقرير صادرا عن المدعي العام في بلدة تومز ريفر في ولاية نيوجرزي، وهو يدور على رجل يدعى أنطوني أوكونر سبق أن طاردته الشرطة لرؤيته يجتمع مع أفراد الفئة الجنوية (نسبة الى جنوى في ايطاليا) من عصابة المافيا. ولم يكن ووكر سمع باسم أوكونر خلال عمله السابق.

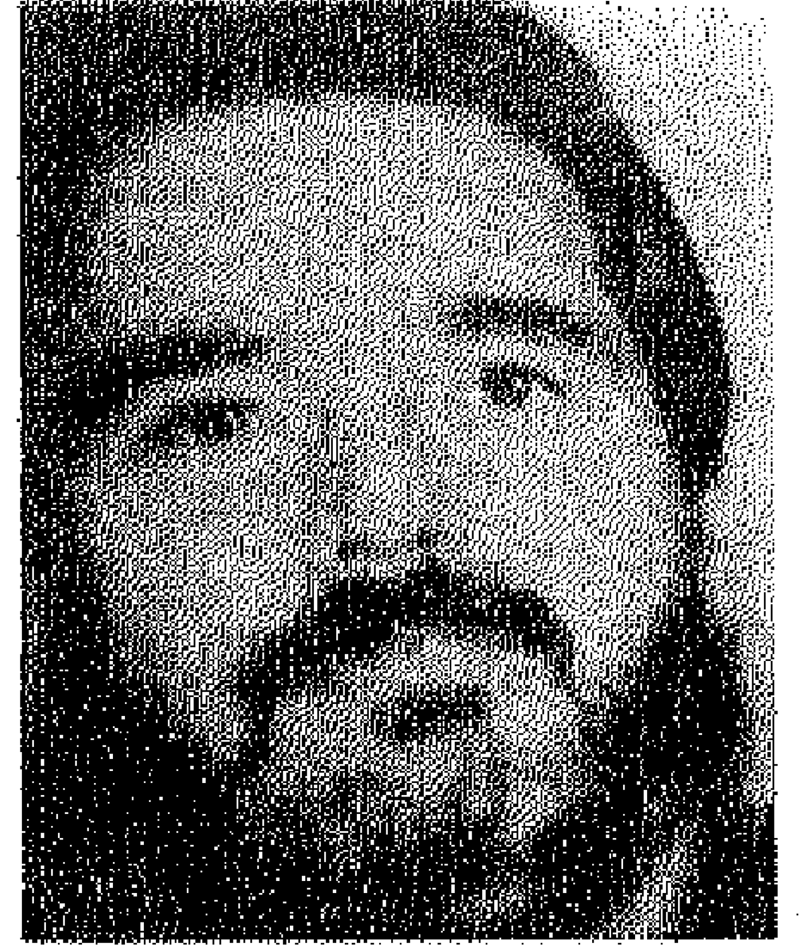
وجاء في التقرير أن أوكونر هو العميل التجاري للفرع ٣٥٩ من اتحاد توزيع السمك في مدينة نيويورك، وأنه دين قبل شهر في بلدة سيسايد بارك من ولاية نيوجرزي لحيازته سلاحا فتاكا. ولدى اعتقاله كان يقود سيارة تابعة للاتحاد. وهذا يشكل خرقا لقانون العمل الامريكي الذي يحظر استخدام المقتنيات النقابية لأهداف شخصية. لكن هذا الخرق القانوني ليس جريمة تستوجب كل هذه الضجة. من هنا ظنّ ووكر أن رؤساءه عهدوا اليه في تلك المهمة التافهة لئلا يملّ العمل في أيامه الاولى.

الا أن ووكر لم يتوان عن ملاحقة أنطوني أوكونر في الفرع ٣٥٩. وكخطوة أولى طلب من وزارة العمل أن تزوّده بنسخ عن تقارير الاتحاد الرسمية خلال السنوات الخمس الاخيرة. والمفروض أن يقدم كل اتحاد في طول الولايات المتحدة وعرضها تقريرا سنويا الى وزارة العمل في شهر ديسمبر (كانون الاول) من كل عام، يذكر فيه أسماء أعضاء مجلس ادارته والمنتسبين اليه ودخله ونفقاته وممتلكاته بما فيها تجهيز المكاتب والسيارات.

وبعدئذ خابر ووكر مكتب المدعي العام في الطبقة العليا وطلب معلومات عن الفرع ٣٥٩ وعن أنطوني أوكونر وسوق فولتون للسمك. ولم يكن لدى المكتب عن أوكونر أكثر من أنه وضع تحت مراقبة الشرطة لسجله الاجرامي. غير أن الملفّ الخاص بسوق السمك كشف عن أيد للاجرام المنظّم هناك.

استهلت العصابات عملها الدائم في سوق فولتون للسمك منذ مطلع العشرينات مع شخص يدعى جوزف لانزا أصبح في ما بعد زعيما للمافيا الجنوية. ومات لانزا عام ١٩٦٨، لكن طغيان المافيا الجنوية لم يمت معه. وهناك آخرون بسطوا سطانهم على السوق، وبينهم جوزف بونانو و"أبو العرّابين" كارلو غامبينو.

ولم يكن عدد دائني المال ومبتزيه في السوق يقلّ عن عدد السمك. وثلث أحداث الخطف في منهاتن كانت تحصل هناك. ولم ينقض شهر واحد من غير حدوث جريمة قتل على أيدي المافيا التي حاولت على الدوام إبقاء قبضتها على سوق السمك.



أنطوني أوكونر.

وعلى رغم كثرة أعمال العنف هناك فقد ظلت محاولات الشرطة المحلية والاتحادية لاختراق المكان محدودة. وهذا يعود الى أن الكثير من رجال الشرطة والمحققين ظنّ ذلك الاختراق غاية في الصعوبة. وربما غضّ المسؤولون النظر عن التجاوزات لرؤيتهم أعمال السوق تتم على الرغم منها. الا ان ووكر بات على قناعة بأنه أمام شبكة من الجرائم المنظمة تتجاوز انطوني أوكونر الى تركيبة السوق كلها.

ووصلت النسخ من وزارة العمل خلال الاسبوع نفسه. وتبين منها أن الفرع ٣٥٩ يضمّ ٧٣٢ عضوا معظمهم من العمال. ولم تَبْدُ مصاريف الاتحاد ضخمة. وكان مقرّه في الطبقة الثانية من مبنى يحمل الرقم ١٤٠ في شارع بيكمن وسط السوق. ولفت ووكر أن الشقة مؤجرة للاتحاد من مالكها كارمين روسو الذي ورد اسمه في القائمة بصفته "الممثل التجاري" للاتحاد. أما المنصب الاكثر نفوذا، وهو الامانة العامة وأمانة الصندوق، فقد شغله كارمين رومانو.

هذا أهمّ ما ورد في تلك الاوراق حول الفرع ٣٥٩، إضافة الى أن اسم أنطوني أوكونر لم يرد بعد ١٩٧٧. وخابر ووكر مكتب المدعي العام في تومز ريفر وحصل على موعد هناك، عله يعثر على معلومات اضافية حول أوكونر والفرع ٣٥٩.

شخصان غريبان

في ١٦ مايو (أيار) قاد ووكر سيارته الى تومز ريفر للحصول على ما يريد. وعرف أن ثلاثة من شركاء أوكونر يملكون أو يديرون شركات لبيع السمك بالجملة ضمن السوق. وله أصدقاء آخرون يملكون شركات لتفريغ حمولة السمك.

وحصل ووكر على معلومات أخرى حول توزّع المبتزين أدوارهم في السوق. فقد سيطرت المافيا الجنوية على أغنى المرافق، وهي الشركات والمباني والحماية والخوّة والفرع ٣٥٩. أما منظمة بونانو للاجرام فقد تولت المراهنات والاقراض بالفائدة.

وكانت شرطة مدينة نيويورك اقتحمت في ابريل (نيسان) ١٩٧٨ مقر "السوق الجنوية"، وهي ناد اجتماعي في شارع فرونت مهمته الاشراف على أكشاك بيع السمك. واعتقلت الشرطة آنذاك سبعة أشخاص. ومن الذين وجهت إليهم التهم أنطوني أوكونر وكارمين روسو. والتهمة في حال الاثنين كانت المقامرة. ونُقب المكان فوُجدت فيه خمسة مسدّسات و٣٨٠ رصاصة وعدّة مقامرة وكمية قليلة من الهيروين وحجار كريمة مسروقة بقيمة نصف مليون دولار. الا أن المعتقلين أنكروا أيّ علاقة لهم بالاشياء المصادرة وقالوا ان كثيرين سواهم يستخدمون النادي. وهكذا لم تستطع الشرطة رفع دعوى ضدّهم.

لكن ووكر تساءل عن سبب ختم التحقيق عند ذلك الحدّ. ووقع على ما يشبه الجواب في المقطع النهائي لأحد التقارير: "المنطقة التي تقوم عليها سوق فولتون للسمك تصعب كثيراً مراقبتها لأن كلّ شخص هناك يعرف كل شخص آخر. من هنا بات جماعة المحلة يفترضون أن كل غريب عنهم هو تحرّ أو رجل تابع للسلطة."

وفي ٢٧ مايو (أيار) كان ووكر في مكتبه عندما سمع صوتا يقول: "مرحبا! أنا فريد فيرون، وقد انتُدبت لمساعدتك في هذه المهمة."

نظر ووكر وراء طالوته ودُهش عندما رأى شابا يرتدي ثيابا مزركشة كما لو كان يمثل في ملهاة. وكان ذلك الشاب في الثانية والثلاثين وطوله ١٦٨ سنتيمتراً ووزنه ٥٥ كيلوغراما. وكان صوته صارخا كالغراب، وبدا أنه لا يستطيع الوقوف من غير حراك دائم.

حدق ووكر الى فيرون ثم أعطاه نسخا عن ملفات تومز ريفر حول القضية وخرج ليرى رئيسه. وبادره: "من هو هذا الشخص الذي أرسلته اليّ؟" فأجابه: "انه موظف في مصلحة الضرائب."

ولجم ووكر نفسه وهو متأكد من أن رؤساءه لا يقدّرون أهمية ما يجري في سوق السمك، والا انتدبوا لتلك المهمة أناسا متدرّبين قبل وقت طويل.

وعاد الى مكتبه ليرى أن فيرون ما زال مكبا على الاوراق. وقال هذا بحماسة: "يبدو أن المافيا متغلغلة في السوق." وسأله ووكر هل يعرف الكثير عن الاجرام المنظم وعن عصابتي بونانو وجنوى. فقال: "أجل! لقد شاهدتُ وزوجتي فيلم "العرّاب"."

كظم ووكر غيظه ولفت فيرون الى تقارير الفرع ٣٥٩ من جهة ما جاء فيها تحت "النقد الداخل" منذ ١٩٧٥، وخصوصا من حيث مصدره، وهو "صفائح الاتحاد" أي اللوحات التي تحمل اسمه. وتبين أن المبلغ للعام ١٩٧٧ هو ١٥١٢٥ دولارا. ولم يسبق أن رأى ووكر أو فيرون مصدرا مماثلا للدخل في تقارير الاتحادات الاخرى.

وفي الوقت نفسه أخذت معلومات اضافية تتسرّب الى ووكر عن المسؤولين في الفرع ٣٥٩ وهي معلومات عزّزت شكوكه حول ارتباطهم بالاجرام المنظّم. وأقرّ الشهود لاحقا أن كارمين رومانو

الامين العام" للاتحاد وأمين صندوقه هو ابن أخت كارمين روسو العضو الفعال في المافيا الجنوية والمسؤول السابق في الفرع ٣٥٩ الذي حوّل مسؤولياته عام ١٩٧٤ الى رومانو. وبلغ ووكر أيضا أن رومانو عضو في العائلة الجنوية، وأن تأثيره في تلك المنظمة يتجاوز بكثير مهماته الظاهرة.

وفي سبيل إتمام تقريره الاولي ارتأى ووكر في مطلع شهر يونيو (حزيران) أن يواجه فرع الاتحاد. وكان ووكر وفيرون كلاهما يدركان أن التهمتين الموجهتين الى الفرع ليستا بالجرمين الفادحين، وهما لجوء انطوني أوكونر الى استخدام سيارة الاتحاد لأغراض شخصية وقضية بيع اللوحات التي تحمل اسم الفرع. وتولى ووكر شرح سلبيات الاتهام لزميله، وهي أن أحدا لن يأخذها على محمل الجد"، وأنهما لن يتلقيا دعما من أحد، وهما سيفعلان ما لم تفعله أي وكالة حكومية من قبل: "لن يتصدّى أحد للأمر سوانا نحن الاثنين. وأنا شرطي سابق أستطيع الدفاع عن نفسي. أما أنت فماذا ستفعل لمواجهة الشدائد؟"

قال ووكر هذا الكلام وهو لا يدري أن أحد الزملاء في المكتب أطلق عليه وعلى فيرون اسم "الشريكين الغريبين."

وبعد أسبوع من مخابرة الاتحاد استطاع ووكر الحصول على جواب من محامي رومانو وهو أن هذا سيستقبلهما صباح ١٢ يونيو (حزيران).

تبقى سوق سمك فولتون هادئة طوال النهار، الى أن تدب" فيها الحياة قرابة الحادية عشرة ليلا مع وصول الشاحنات الضخمة المبرّدة التي تحمل الاسماك والحيوانات البحرية الاخرى من مناطق بعيدة مثل فلوريدا ومين. وعند الثالثة فجرا تكون السوق تحولت ما يشبه قفير النحل، يملأها عمال التحميل الذين ينقلون الصناديق والسلال من الشاحنات الى الرفوف التابعة لنحو ستين تاجرا. وفي ساعات قليلة يُباع معظم السمك لتجار الجملة وأصحاب المطاعم أو يُنقل الى شاحنات أخرى تذهب به نحو مناطق مختلفة على الساحل الشرقي. وفي ساعات الازدحام يتجمهر نحو ألف شخص في السوق بين عامل تفريغ وسائق وتاجر.

وتهدأ السوق مع الضُّحى. ويغيب السائقون وعمال التحميل والتفريغ ليحل مكانهم جمهور من مديري الشركات ومحاسبيها لادخال مبيعات الليلة السابقة في دفاترهم. وبعد ذلك لا يبقى في السوقُ غير رائحة السمك.

كانت الساعة العاشرة صباحا عندما شق ووكر وفيرون طريقهما عبر الرفوف الفارغة الى مقر الفرع ٣٥٩. ومع أن السوق بدت شبه مهجورة فان ووكر لاحظ أن حفنة من المارّة توقفت ونظرت إليهما بمزيج من الدهشة والعداء. ولم تنقض ثوان على وصولهما حتى عرف الجميع أنهما ينتميان الى السلطة.

أما الرقم ١٤٠ في شارع بيكمن فقد احتله مبنى رديء مؤلف من

طبقتين، وشغل الطبقة الارضية مطعم وحانة باسم "كارمين"، وكان هناك ممر شبه مظلم يؤدّي الى مكاتب الاتحاد، وعند المدخل ظهرت سكرتيرة رحبت بالرجلين وأدخلتهما عالما بدا مختلفا تماما عن عالم السوق الخارجي. فقد كانت الجدران مكسوة بالخشب الانيق ووُضعت الارائك والمقاعد الجلدية الوثيرة في الدار التي غطت أرضَها سجادات كثيفة، وفاض النور في كل ركن.

واقتيد الاثنان الى غرفة اجتماعات وقُدّما الى رجل هناك هو محامي الاتحاد الذي أعطى ووكر الموعد. وبعد نصف ساعة وصل المحاسب. وسأل ووكر: "أين هو السيد رومانو؟" فقيل له: "انه هنا."

واستدار ووكر نحو مصدر الصوت، وكاد أن يقف في مكانه حين رأى في الباب جثة ضخمة لا يقل وزنها عن ١٦٠ كيلوغراما، وكان طول الرجل نحو ١٨٥ سنتيمترا وعيناه الباردتان يحوطهما وجه طري كالعجين. وقال ووكر لنفسه: "انه يجسد شخصيته تماما، لا بل يبدو أشبه بالممثل الذي أوكل اليه ذلك الدور."

وبادره رومانو بصوت يشبه اصطدام صخرتين: "قبل أن أتفوّه بكلمة حول ما تريد، دعني أرَ أوراقك الرسمية."

وفحص رومانو الاوراق ثم جلس الى الطاولة والكرسي يكاد يرزح تحت وطأته. ولاحظ ووكر انه يضع في اصبعه خاتما يتوسطه فصّ كبير من الألماس، وأنه لا يكفّ عن حكه. وارتعد صوته فجأة: "حسنا أيها



مقر الفرع ٣٥٩ فوق حانة كارمين.

الصديقان! ما الذي تبغيانه هنا؟"

وأجاب ووكر: "الامر يتعلق بشخص يدعى أنطوني أوكونر." وروى قصة السيارة.

وانطلقت ضحكة من مكان ما في جثة رومانو الذي قال: "لقد وصلتما الى هنا متأخرين سنتين." ثم طلب من سكرتيرته احضار رسالة من المحفوظات. وكانت تلك الرسالة تحمل تاريخ ١٨ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٧ واستقالة أوكونر الرسمية من الفرع ٣٥٩. وكان ووكر لاحظ اختفاء اسم أوكونر من سجلات الاتحاد منذ ١٩٧٧، وها هو يحصل على البرهان ولكن اذا صحّ أن أوكونر استقال، فليس من تهمة ضدّ

الاتحاد. وانتقل ووكر الى الموضوع الآخر، وهو اللوحات التي ورد ذكرها في التقارير السنوية المرفوعة الى وزارة العمل.

هزّ رومانو كتفيه الضخمتين. وقال ان في السوق عددا كبيرا من الشركات العائلية التي لا ينتمي موظفوها الى الاتحاد. ولكن لاظهار تضامنها مع الاتحاد عمدت تلك الشركات الصغيرة الى "استئجار" لوحات الاتحاد في مقابل ٢٥ دولارا في الشهر. وأضاف: "ليس على هؤلاء الناس أن يستأجروا اللوحات بالقوة. لكنهم يفعلون ذلك تضامنا معنا."

وقال ووكر لنفسه: "ربما كان ما يقوله هذا الرجل صحيحا. لكنّ في الامر رائحة ابتزاز." وسأل رومانو: "أيقتصر استئجار اللوحات على الشركات العائلية الصغيرة؟" فهز رومانو رأسه ايجابا.

وعمد ووكر الى حساب ذهني، لكنه وقع على مفارقة. فقد ظهر في تقرير ١٩٧٧ المالي الذي رفعه الفرع الى وزارة العمل أن المال الداخل عن طريق اللوحات بلغ ١٥ ألف دولار. واذا كان بدل الايجار ٢٥ دولارا في الشهر كما قال رومانو، أو ٣٠٠ دولار في السنة، فهذا يعني وجود خمسين شركة عائلية على الاقل خارج الاتحاد. لكن ووكر كان يعلم أن عدد تلك الشركات لا يتجاوز الـ١٢.

وراود ووكر دافع الى الاستطلاع بعدما وجد أن رومانو كذب عليه. وقال له ان المبلغ المسجل أمام ايجار اللوحات هو ١٥ ألف دولار، الامر الذي يعني أن كل شركة في السوق اشتركت في اكتراء اللوحات. وعندئذ صرخ رومانو: "لقد حصلتما على ما أتيتما له. أليس كذلك؟"

وأجاب ووكر: "نعم، هذا صحيح." ووعده بأن يبقى على اتصال به.

وتبعهما رومانو الى الباب وقال: "مع السلامة يا فيرارا، أيها الفلاح."

ونظر فيرون وراءه وقال: "أرجوك، اسمي فيرون. وأنا لست فلاحا."

ولما بلغا الشارع قال فيرون: "أما لاحظت أن ذلك الرجل ضخم مثل بناية؟ فاذا تظنه أراد أن يسألني؟"

- ربما أراد أن يعرف من أين اشتريت ربطة عنقك المبهرجة هذه!

وعاد الاثنان الى المكتب وأطلعا زملاءهما على ما حصل. وطلبا منهم أن ينسوا قضية أوكونر والسيارة لأنّ ثمة قضية أهمّ كثيرا في ظنهما، وهي تلك المتعلقة بلوحات الاتحاد. الا أن بعض محامي المكتب ارتأوا أن تلك المسألة غير كافية لاقامة دعوى واستدعاء شهود ضد الاتحاد.

غير أن ذلك لم يثبط عزيمة ووكر وفيرون. وعاودا زيارة السوق لتحرّي قضية اللوحات. وطوال الايام الثلاثة التالية قابلا ممثلي الشركات الستين أو نحوها هناك. ومعظمهم رجال أعمال متصفون بالنزاهة، لكنهم واجهوهما كما يواجه مرضى الجذام. ورفض عدد من الموظفين والمديرين التحدث الى ووكر وفيرون، فيما طردهما عدد آخر. وبدوا كلهم مروّعين.

ولاحظ التحريان أن قلة من تجار السوق اهتمت لاظهار اللوحات، في حين أن كل شركة، بحسب ظنهما،

عمدت الى استئجار لوحة في مقابل ٤٥ دولارا شهريا • وقال أحد الموظفين الذين تجرّأوا على الكلام: "لقد تعهد المسؤولون في الاتحاد عدم مضايقتنا اذا نحن استأجرنا هذه اللوحات كل شهر • "

الا أن قانون الولايات المتحدة ينصّ على أن دفع المال للنقابات في مقابل هذه الاشياء يشكل جرما بالنسبة الى الموظف والاتحاد كليهما • لكن ذلك في ذاته لا يكفي لتجريم الاتحاد، إذ ان هناك حاجة الى اثباتات مالية تقدمها الشركات والى شهود أوتوا الجرأة الكافية للادلاء بشهاداتهم •

كما أن التحريين كليهما أحسا أن مسألة اللوحات ما هي إلا بداية في سلسلة من عمليات الابتزاز، وأن عليهما العمل طويلا من أجل كشف الحلقات المفقودة • وارتأيا الاكتفاء بمسألة اللوحات في الوقت الراهن • وفتحا ملفا باسم "قضية سوق فولتون للسمك" • وسرعان ما تراكمت أوراق الملفّ حتى ملأت غرفة بكاملها •

غنيمة يوم الجمعة

بدأ ووكر وفيرون في شهر يوليو (تموز) مراقبة سوق السمك بدقة • وفي النهار كانا يقتربان من المعاونين والمحاسبين وتجار السمك ويبادرانهم بالاسئلة • ومع وصول الشاحنات ليلا كانا يتخفيان بين الظلال ليراقبا التحركات المشبوهة • ولم يكن عليهما الانتظار طويلا • ففي الليلة الاولى ظنهما أحدهم تاجري سمك وحاول فرض خوّة عليهما •

وسمع ووكر ضربة قوية على سطح سيارته وصوتا يقول: "لا يجوز أن توقف سيارتك هنا من غير أجر • " وكان ذلك الشخص يحمل ايصالات •

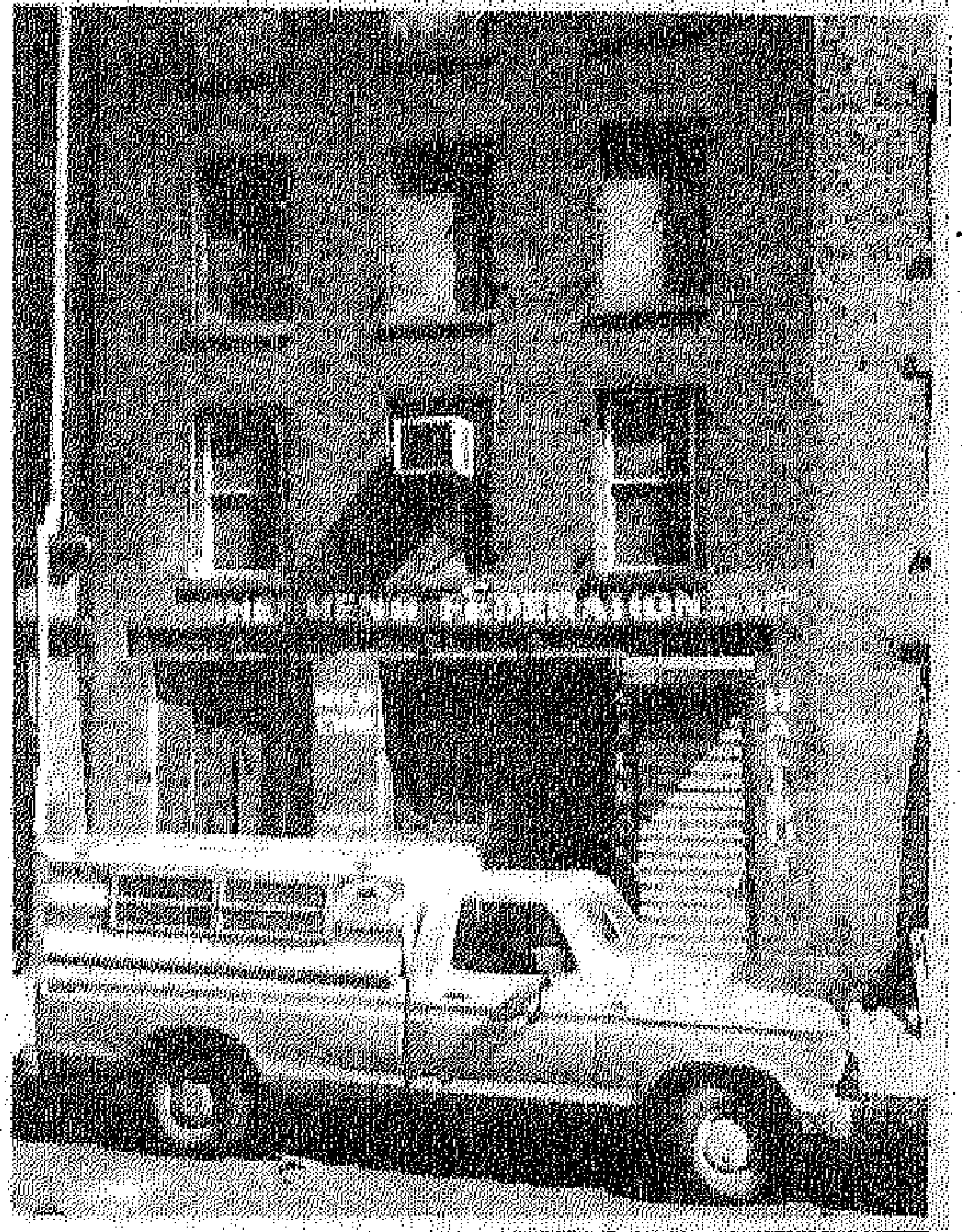
وسأله ووكر عن السبب الذي يمنع ايقاف السيارة، فأجابه أن ذلك المكان موقف عمومي: "لستَ وحدكَ الذي تدفع • كل صاحب سيارة هنا يدفع خمسة دولارات للتوقف ونسبة مئوية من السمك الذي يشتريه • "

وفقد فيرون صبره وصاح: "ماذا تقول؟ اذهب الى الجحيم أنتَ وإيصالاتك • "

وبعد دقائق وصلت شاحنتان وخرجت منهما جماعة من مفرغي السمك، دنا أفرادها من رجلي التحرّي • وعندئذ أدار ووكر محرك سيارته وأسرع خارجا • وهو افتقد آنذاك المسدس الذي اقتناه لدى عمله في الشرطة •

وعرف ووكر لاحقا المزيد من التفاصيل حول أولئك الذين يرفضون دفع الخوّة لوقف سياراتهم، ومنها الضرب بالانابيب والجلد بمقابض التعليق وكسر زجاج سياراتهم وإفراغ عجلاتها من الهواء • وتبين للتحريين لاحقا أن هناك ستة "مواقف عمومية" في السوق، وأن الموقف الذي وقع لهما الحادث فيه يسجل دخلا سنويا بمقدار عشرين ألف دولار •

وفي منتصف ذلك الشهر استطاع ووكر وفيرون أن يؤلفا رواية أكثر وضوحا انطلاقا من التفاصيل التي حصلا عليها، وهي أن السوق الجديدة تضم معظم شركات البيع بالجملة وتحتل جميع المساحة المؤدية الى



"النادي"، مقر المنظمة الجنوية.

الضفة. وكل من يعمل هناك عليه أن يتعامل مع كارمين رومانو والفرع ٣٥٩ والعصابة الجنوية.

وثمة مركز آخر، ولكن أصغر، عبر الشارع يدعى "السوق القديمة". هناك تقوم الرفوف التي يعرض عليها صغار الباعة أسماكهم لبيعها بالمفرّق. وهذا المركز يخضع لسلطان عائلة بونانو.

ولم ينقض وقت طويل حتى تعرف ووكر وفيرون على اسلوب العمل في سوق السمك. كان ذلك حين حاول زبون كوري المساومة على السعر مع أحد الباعة فضُرب حتى الموت وهو في مكانه. وليس عجيبا أن يخفق التحقيق في الجريمة اذا عرفنا أن معظم الناس هناك رفضوا الادلاء بشهاداتهم.

وذُهل التحرّيان أيضا لمعرفتهما أن أطنانا من السمك سُرقت من صناديقها علنا لدى إفراغها. وكان جماعة التفريغ يضعون السمك المصادر في سلال يأخذونها الى أسيادهم قادة العصابات. وبدا أن أي شاحنة في السوق لم تنجُ من السرقة.

وانتحى ووكر بأحد السائقين وراح يستجوبه. واعترف السائق بأنّ بعض حمولة شاحنته يُسرق، لكنه أقرّ بأنه لا يقوى على شيء. وقال انه اعترض مرّة على ما يجري وتعقب اللصوص الى الطبقة الثانية من مستودع. لكنهم ضربوه بقسوة ورموه من أعلى السلم. وبعد ذلك بات يغضّ الطرف عن التجاوزات.

وقدرت دائرة الشرطة في مدينة نيويورك أن ١٣٥٠ كيلوغراما من السمك كانت تُسرَق كل ليلة. وهذا يعني سرقة نحو نصف مليون كيلوغرام سنويا.

وأجمع الشهود على أن أكبر عملية ابتزاز كانت تحصل صباح الجمعة قبل إقفال السوق لعطلة الاسبوع. وفي نحو الساعة العاشرة اعتاد كارمين رومانو أن يغادر مكتبه في فرع الاتحاد ويمشي الهوينى الى "النادي" في شارع فرونت، وهو مقرّ المافيا الجنويّة. وهناك كان يجلس محاطا بمعاونيه ويتسلم حصته من الخوّات المختلفة. واعترف أحد الشهود لاحقا بأنه رأى رومانو يتسلم ذات مرّة أوراقا نقدية من فئة المئة دولار والخمسين دولاراً والعشرين دولاراً تتجاوز قيمتها كل ما رآه ذلك الشخص في حياته من مال.

وكان كل واحد في سوق السمك يسمي تلك العملية "غنيمة يوم الجمعة."

ومع هبوط حرارة الصيف بات ووكر وفيرون يعملان ١٦ ساعة يوميا في مراقبة السوق والتدقيق في التقارير المالية وفي لوحات الشاحنات. وذلك قاد ووكر الى كشف سرّ زعماء العصابة. وتأكد ظنه القائل بان عمال التفريغ هم أرباب الابتزاز.

والواقع أن السمك يتلف بسرعة. من هنا وجب الاسراع في تفريغ الحمولة. وبينت التحريات اللاحقة انه لم يكن يُسمح لأي سائق بتفريغ شاحنته. وكل من حاول ذلك كان يُضرب ضربا مبرحاً. وبما أن رومانو نفسه كان يعهد الى العمال في تفريغ الشاحنات، فقد كان في استطاعته أن يدع حمولة ما تتلف إذا هو شاء ذلك.

دليل آخر

"تعال يا وسلي وانظر الى هذا التقرير... اني لا أفهم منه شيئاً."

قال فيرون هذا الكلام وهو يحاول فكّ ألغاز التقارير المالية المتعلقة بالفرع ٠٣٥٩ وكان وقع على تقرير يقول ان رومانو عمد في مطلع ديسمبر (كانون الاول) ٧٤ الى سحب ١٦٨ ألف دولار من حساب الفرع الخاص بصندوق الاعانات والتقاعد من مصرف أريزونا وكاليفورنيا ووضعه في مصرف الجمهورية الوطني في نيويورك بفائدة أقل كثيراً. وعبّر فيرون عن دهشته بصوت مرتفع: "لماذا يلجأ أي شخص الى تدبير كهذا ينطوي على خسارة كبيرة من حيث الفوائد؟"

وحار ووكر جواباً. الا أن فيرون عثر على الجواب عرَضاً بعد أيام حين كان يقرأ صحيفة "نيويورك تايمس" التي حملت إعلاناً من مصرف الجمهورية الوطني يتعهد تقديم أجهزة تلفزيون مجانية الى المودعين الكبار.

ولفت فيرون زميله الى الأمر فقال ووكر: "يبدو ان رومانو حصل على عدد من اجهزة التلفزيون المجانية."

وصُعق فيرون للأمر. فإذا كان رومانو يحصل على الملايين التي تأتيه من سوق السمك عن طريق الخوّة، فلماذا يسعى الى المزيد؟ وعزا ووكر ذلك الى جَشَع رومانو الفطري. واذا كان لا يتورّع عن فرض اشتراك شهري بقيمة ٢٥ دولاراً على جميع تجار السوق في مقابل لوحات الاتحاد، فهل يتورّع عن الارتشاء بجهاز تلفزيون؟

وعلى الفور قال ووكر لمعاونه: "جهز مذكرة احضار للشهادة أمام المحكمة."

وفي ٨ اغسطس (آب) تبلّغ مصرف الجمهورية الوطني المذكّرة التي طلبت منه وضع جميع القوائم الحاملة أسماء أصحاب الحسابات المجمّدة فيه، ولاسيما أولئك الذين حصلوا على أجهزة التلفزيون المجانية، في تصرف التحقيق. وتجاهل المصرف المذكرة الأولى، فأُتبعت باخرى. وفي اواخر اغسطس (آب) قبل المصرف فتح سجلاّته، لكنه قال ان لوائح الزبائن الكاملة مفقودة.

وبقي احتمال اخير وهو الطبقة السفلى من المستودع الذي يقوم غرب منهاتن. هناك يحتفظ المصرف بالقوائم قبل إتلافها. وذهب المحققان الى هناك والتقطا أنفاسهما حين واجههما الهواء العفن والسجلات المشقوعة من الارض حتى السقف، وقد بلي الكثير من أوراقها. وراح ووكر وفيرون ينقبان بعناد في الصناديق واحداً بعد الآخر وهما يتفحّصان كل ورقة بمفردها.

وأرهقهما العمل الذي استغرق عشر ساعات يومياً. واختلط هواء الدهليز العفن بحبر الاوراق البالي. وعجت ملابس الرجلين بالعث الذي تناسل في الصناديق عاماً بعد عام. وظنّ ووكر ان ذلك العمل لن ينتهي. الا أنه انتهى بعد اسبوعين من الكدّ المضني. وكان الاكتشاف هذه المرة ايضاً من إنجاز فيرون الذي صاح فجأة وهو يسحب ايصالا من صندوق: "عظيم! لقد ربحنا الجائزة! انه اسم كارمين."

وانتزع ووكر الورقة من يد زميله: انها ايصال يحمل الرقم ١٠٨١٦٩ ويقول ان صندوق الاعانة التابع لسوق فولتون للسمك حصل على مكافأة في مقابل تجميده مبلغ عشرة آلاف دولار في ٤ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٧٤. والذي وضع المبلغ موظف في الفرع ٣٥٩ من الاتحاد. الا أن بهجة فيرون الحقيقية جاءت حين عرف ان المكافأة الاخيرة، وهي جهاز تلفزيون عرضه ١٩ إنشاً، ربحها كارمين رومانو الذي وقع اسمه ضمن خانة تقول انه تسلم الجائزة.

واتضح الأمر للمحققين، وهو أن رومانو طلب من معاونيه ايداع تلك المبالغ باسم الفرع في مقابل أجهزة التلفزيون. لكن معظم الجوائز ذهبت اليه شخصياً. وتوقيعه الخطي يثبت جرمه.

ومع نهاية نوفمبر (تشرين الثاني) كان المحققان أرسلا مذكرات إحضار الى نحو عشرين تاجراً للأدوات الكهربائية اشترى المسؤولون في المصرف أجهزة التلفزيون من محلاتهم. وبينت شهادات التجار ان موزّعيهم أوصلوا ١٧ جهاز تلفزيون ملوّناً الى كارمين رومانو وشركائه في الاجرام وأنسبائه.

شركات الشحن والتفريغ

خلال شهر ديسمبر (كانون الاول) تولى ووكر وفيرون توزيع مذكرات إحضار باليد على أكثر من عشرين شركة نقل بين مساتشوستس شمالا وفلوريدا جنوباً، في سعيهما الى كشف المزيد من التجاوزات المالية الحاصلة في سوق فولتون للسمك. وكان ووكر يأمل ان تكشف عينا فيرون المدرّبتان التجاوزات الضريبية في سجلات شركات النقل.

وفي تلك الاثناء ظل الاثنان يجوسان السوق وحدهما ومن غير سلاح ثلاث مرات أسبوعياً على الاقل. وحمل فصل الشتاء عواصف جليدية من النهر الشرقي. وكان ووكر وفيرون يستدفئان على نار النفايات مع صيادي السمك وعمال المرفأ. ولم يرفعا اعينهما عن اللصوص وحرصا على التسلّح بالصبر.

ولا شك في ان كل من في سوق السمك بات يعرفهما ويحذرهما. وفي صباح ٢ يناير (كانون الثاني) الباكر استطاعا ان يردا عنهما وابلا من المسامير الثقيلة والأحذية الضخمة ألقي عليهما من مكان مجهول وسط الظلام. وتلقّيا إنذاراً آخر في ١٤ مارس (آذار). فقد أحس ووكر حركة وراءه، فاستدار ليتلقى لكمة على الوجه من رجل بدين كادت ان تلقيه في النهر. وقال الرجل، وهو ينتمي الى عصابة تفريغ تعمل هناك: "المعذرة، لقد كنتُ ألقي ما في يدي الى الماء."

وازداد الكلام البذيء مع كل زيارة. ومرة سمع فيرون العبارة الآتية: "اسمع يا فيرارا! لماذا تأتي بالباذنجان الى هنا؟"

ولم يكن ووكر مطلعاً على العامية الامريكية المشتقّة من أصل ايطالي. لكن فيرون أوضح له ان "باذنجان" تعني "الزنجي" والزنجي هو ووكر.

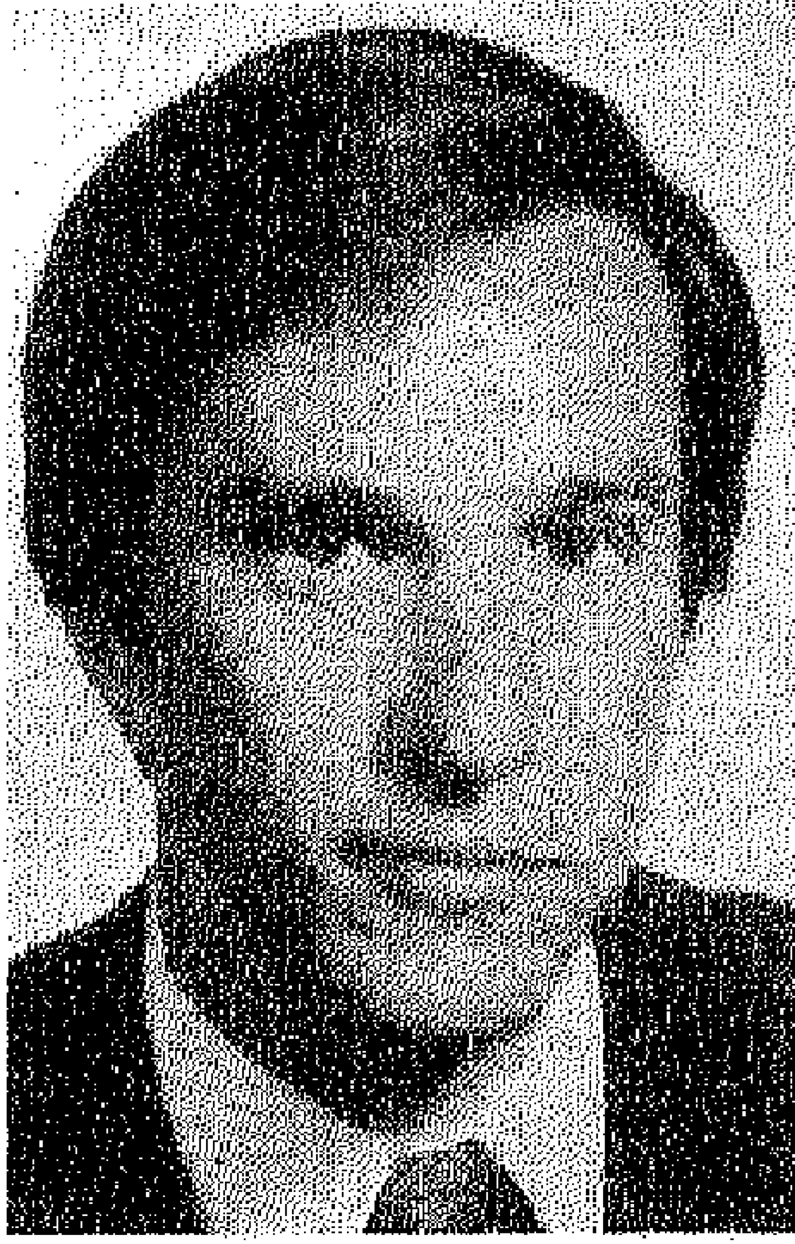
وفي اواخر مارس (آذار) كان فيرون مستغرقاً في الوثائق المالية التي أمدّته بها شركات الشحن. وتفحص الايصالات التي دُفعت لمصلحة شركات التفريغ المحلية بين ١٩٧٥ و١٩٧٩ وهي تدور على مئات ألوف الدولارات. وفي أحيان كثيرة حصل الدفع نقداً وسُجل ذلك. وكمحاسب سابق لدى مصلحة الضرائب عرف فيرون ان مبالغ كثيرة نقدية لم يتم تسجيلها.

واقترح ووكر ارسال مذكرات قضائية الى شركات التفريغ لمراقبة سجلاّتها المالية. وطلب بعد ذلك عقد اجتماع مع محامي المكتب وعدد من الزملاء الآخرين. وظن ووكر ان حيثيات الاتهام اصبحت كلها جاهزة لرفع دعوى، وهي مسألة اللوحات وأجهزة التلفزيون واحتمال تهرب شركات التفريغ من دفع بعض ما عليها لمصلحة الضرائب.

ودُهش ووكر لردّ فعل زملائه الذين أعربوا عن شكهم في أن يكون أحد من السذاجة بحيث يعرّض نفسه للملاحقة القانونية بتهربه من دفع ضريبة الدخل. وأوضح فيرون أنهما لم يحصلا بعد على سجلاّت عمال التفريغ الضرورية لفتح الدعوى. الا ان سائر الزملاء تمسّكوا بموقفهم المشكك.

وعمد ووكر بعد ذلك الى فتح مسألة اجهزة التلفزيون ولوحات الاتحاد. الا أن احد المحامين قال: "أنت لا تملك شيئاً ضدّهم هنا. ولا أظن ان أي محكمة يمكن أن تعدّ الحصول على أجهزة التلفزيون جريمة، وعبّر المحامي نفسه عن شكه في كون شراء اللوحات يشكل خَرقاً مهماً للقانون.

ولما عاد ووكر الى مكتبه قذف سلة مهملات بقدمه عبر الغرفة. وقال



دانيال بوكين.

لزميله: "دعني أخبرك شيئاً يا فريدي: الأفضل ان يسرع المسؤولون في إرسال أحد لنجدتنا."

ووصلت النجدة فعلا في شخص مساعد للمدّعي العام الامريكي اسمه دانيال بوكين، وهو شاب في السابعة والعشرين تولى التحقيق في الأمر. وحين سمع ما قاله المحققان وافق على أن الاتهامات المفردة الماثلة للعيان لا تكفي لفتح دعوى. لكنه وجد فيها مجتمعة مادة خصبة لالقاء شكوك كبيرة على رومانو وأعوانه.

وبتشجيع من بوكين باشر فيرون النظر في الوثائق التي ارسلتها شركات التفريغ. وبدأ يدقق في حسابات إحداها، وهي شركة "فولتون" للتوزيع. ووقع اختياره على تلك الشركة لأن اسمها ورد في دفاتر حسابات تابعة لشركة شحن في نيو بدفورد (مساتشوستس) تخصّ كارمين رومانو. ووجد ان شركة فولتون أبلغت مصلحة الضرائب أن مجموع الأموال التي حصلت عليها من شركات الشحن هو ٤٩٨٣٧٤ دولاراً. الا ان التدقيق في ايصالات ثماني شركات شحن فقط أظهر أنها دفعت لشركة فولتون مبلغ ٨٧١٥١٩ دولاراً. وهذا يعني، بما لا يقبل الشك، ان شركة فولتون زوّرت حساباتها لدى مصلحة الضرائب إذ انقصتها بمقدار ٤٠٠ ألف دولار على الأقل. أما "فولتون" هذه فهي شركة واحدة، وهناك الكثير سواها من شركات التفريغ.

وأفضى فيرون بتلك المعلومات الى الزملاء المشككين، فوافقوا على أن الاكتشاف الجديد مهم فعلا. وسرعان ما انتُدب ستة آخرون لتلك المهمة. وأصبحت شرطة نيويورك، التي أرسلت عدداً من رجالها الى سوق السمك، شريكاً في التحريات.

وأخذ المزيد من الصدوع يبرز في جدران تلك المؤسسة. وفي مايو (أيار) ١٩٨٠ استقال كارمين رومانو من الأمانة العامة وأمانة الصندوق ليتسلم وظيفة أُحدثت لمصلحته، وهي المدير التنفيذي لصندوق الاعانة والتقاعد التابع لسوق فولتون للسمك، براتب يبلغ ٦٥٠ دولاراً في الأسبوع. وخلفه في فرع الاتحاد أخوه بيتر، وهو حسب الشهود عضو في المافيا الجنوية ايضاً. وبدا للمحققين ووكر وفيرون ان رومانو استعفى من منصبه ليرفع يد العدالة قليلا عن الاتحاد.

جريمة الخوف

في مطلع يونيو (حزيران) رفع المحققان الغطاء عن عملية سرية أخرى تحمل اسم "مكتب فولتون الأمني". فقد فرض هذا المكتب على كل من النقابتين اللتين تمثلان تجار السمك مبلغ ١٣٠٠ دولار في الأسبوع لحمايتهما. ووجد القاضي ادوارد لمبارد لاحقاً ان كارمين رومانو هو الذي اسّس المكتب عام ١٩٧٥، وأن ذلك الجهاز ابتزّ منذ ذلك الحين ما يزيد على ٦٤٤ الف دولار من تجار السوق "لحمايتهم" ضد السرقة والنهب.

وفي ٩ يونيو (حزيران) طلب فيرون تزويده بسجلات مكتب فولتون الأمني. ووجد ان نحو ٣٥ موظفاً من

الذين تذكرهم الشركة لا وجود لهم، وأنها وضعت أمام اسمائهم أرقاماً مزوّرة تبين انتماءهم الى الضمان الاجتماعي. ومن الموظفين الوهميين انطوني أوكونر الذي عاد اسمه يظهر على قائمة المدفوعات بعيد استعفائه عام ١٩٧٧.

وعندما اكتشف التجار ان الحكومة جادة في تنظيف سوق السمك هذه المرة، بعد نصف قرن من المحاولات الفاترة، ارتأى بعضهم الادلاء بشهادته. ووافق احدهم على الشهادة العلنية. الا ان يده أخذت ترتجف وهو يوقع الوثيقة في مكتب بوكين. وقال: "لقد وقعت على حكم اعدامي."

الا ان الشهود انقطعوا بعد يوليو (تموز). وقال بوكين لووكر: "هؤلاء القوم يعيشون في ظل حكومتين، حكومة الولايات المتحدة و"حكومة" الاتحاد. وعليهم اختيار واحدة من الاثنتين."

واعتبر كل تاجر استأجر لوحة أو قدّم هدية الى رومانو والفرع ٣٥٩ متجاوزاً القانون من حيث دفعه اموالا غير مشروعة لنقابة عمال. ولم يكن بوكين يحب اتهام التجار الذين تصرفوا بدافع الخوف. لكنه لم يتورع عن ذلك الاتهام اذا كان السبيل الوحيد الى تجريم كارمين رومانو والفرع ٣٥٩.

وبرز ثلاثة رجال كشهود محتملين (١). وكان احدهم فرانك ماستر في الثامنة والخمسين، وهو يملك مع آخرين احدى كبرى شركات البيع بالجملة في سوق السمك. والشركة أسسها والده عام ١٩٣٠ وبات دخلها السنوي سبعة ملايين دولار، وهي تبيع ٨٠ في المئة من السمك الطازج الذي تستهلكه مدينة نيويورك. ومن أسباب هذا النجاح، كما جاء على لسان أحد الشهود، أن ماستر اعتاد تقديم مبلغ ٣٠٠ دولار في الاسبوع الى رومانو ليتركه وشأنه. واذا وافق ماستر على الادلاء علناً بشهادته، فهذا كاف لارسال رومانو الى السجن. ومما قاله لووكر: "أجل، اني أرشو كارمين. لكني غير مستعدّ للادلاء بشهادتي أمام هيئة محلّفين."

وهناك فيتو غاتي الذي أمضى أربعة عقود من سنواته الاثنتين والستين في العمل الشاقّ داخل السوق. وأدرك غاتي أن المصاعب شقت طريقها اليه منذ ارسال سجلاته الرسمية الى ووكر وفيرون في ١٩ ابريل (نيسان). وبات يصحو كل صباح على خوف اليم في معدته. وأظهرت الشهادات اللاحقة أنه كان شريكاً في مؤسسة للتفريغ يشرف عليها رومانو. لكن ذلك لم يكن خطأ غاتي الشخصي. والواقع أن شريكه ألفونس ريتشيو الذي رزح قبل سنوات تحت أعباء المقامرة، حوّل جزءاً كبيراً من حصته الى رومانو في مقابل اعتاقه من الديون. ووجد مدققو مصلحة الضرائب أن الشركة كتمت مبلغ ١٢٨ ألف دولار من مداخيلها للعامين ١٩٧٩ و١٩٨٠. وهكذا وجد غاتي نفسه، من غير ارادته، جزءاً من شبكة رومانو الارهابية التي كان مطلعاً على تجاوزاتها.

(١) أسماء الثلاثة مستعارة.

وفي ٢٤ سبتمبر (ايلول) وافق غاتي وريتشيو على الشهادة أمام المحلّفين المختصين بقضية سوق السمك٠ وكان ان تكلم ريتشيو قبل وصول غاتي٠ وسأله بوكين هل كان على علم بممارسة الابتزاز في السوق، فأجاب بالنفي٠

ووصل غاتي متأخراً ولم يستطع الاجتماع بمحاميه قبل الشهادة٠ وطرح عليه بوكين السؤال نفسه، فقال انه هو وكل شخص في السوق يعرف بذلك الامر٠ ولم يدرك غاتي فداحة اعترافه٠ الا أن ريتشيو أتهم على أساسه باليمين الكاذبة٠

وظل ووكر يوماً بعد يوم معتمداً على غاتي٠ غير ان هذا رفض في النهاية متابعة الطريق٠ وعرف أنه ارتكب خطأ فادحاً يستتبع أوخم العواقب٠ لكنه أقنع نفسه بأنّ في امكانه انكار كل ما قاله خلال محاكمة ريتشيو العلنية٠

وبرز شهود آخرون مستعدون للتعاون على نحو أكثر ايجابية، وبينهم اثنا عشر تاجراً وافقوا على الادلاء بشهاداتهم حول لوحات الاتحاد٠ ولم يكترثوا لكون استئجارهم الوحات يشكل خرقاً للقانون٠

يوم الباذنجان

في ٢٤ اكتوبر (تشرين الاول) زار ووكر وفيرون النادي الواقع في شارع فرونت ومعهما عدد من مذكرات الاستدعاء تحمل احداها اسم كارمين رومانو٠ وبدا المكان مجهوراً٠ ونظر المحققان حولهما وعادا الى الشارع٠

ودهش ووكر حين فتحت احدى نوافذ النادي وبرز منها رجل ضخم الجثة وصاح: "اذا عدتَ الى هنا يا فيرارا، فستكون هذه المرة الأخيرة٠"

وأجاب فيرون: "ماذا تقول؟ ومن أنت؟"٠

وقال الرجل قبل أن يغلق النافذة: "لا تعد الى هنا والاّ متّ"٠

وأراد فيرون أن يعرف ما اذا كان زميله كشف هوية الرجل٠ فقال ووكر: "أجل! انه أنطوني أوكونر٠"

وعاد المحققان الى النادي بعد أقلّ من أسبوع ومعهما عدد من رجال الشرطة المسلحين٠ ووجدوا رومانو مستلقياً على مقعد وثير وقد لفّ وجهه بمنشفة٠ وكان هناك رجل شرقي من ضاحية صينية قريبة يدلّك كتفيه العريضتين٠

وقال فيرون: "هذه مذكرة استدعاء لك٠"

وازاح رومانو المنشفة بهدوء عن عينيه ودفع الرجل الصيني بيده وقال: "آسف! لقد وقعت على الشخص غير المناسب٠"

وأجابه فيرون وهو يعطيه المذكرة: "هذا الشخص يكفينا٠"

واستجاب رومانو خلال أسبوع٠ واستند الى المادة الخامسة من الدستور ليقول انه يرفض الادلاء بشهادته لأن ذلك يجرّمه٠ واذ ذاك ارتأى ووكر وفيرون أن يحثا فرانك ماستر وفيتو غاتي على الشهادة٠

وفي يناير (كانون الثاني) ١٩٨١ تمّ لقاء بين ماستر وبوكين٠ وقال ماستر انه يرفض الادلاء بشهادته امام هيئة محلّفين، وانه لن يفرّ في

أي حال بمعرفة رومانو شخصياً. ووجد بوكين أنه لا بدّ من تحصين ماستر ضدّ التجريم الذاتي اذا هو شاء الحصول على اعترافه.

وما انفكّ ووكر يسأله مرة بعد أخرى: "لماذا تحمي هؤلاء القوم يا فرانك؟".

وذات مرة اجابه: "هل رأيت في حياتك أحداً يعمل بعقائف التحميل وأنابيب الرصاص؟ لو رأيت أولئك الناس كما أراهم أنا يومياً، لادركت عدم جدوى الحصانة التي تتكلم عنها، اذ في امكانهم الاجهاز عليك والتخلص منك متى شاؤوا."

وفهم بوكين وضع ماستر الدقيق. وكان بوكين، في دعوى سابقة، فقد شاهدين محتملين تعرّض أحدهما لمحاولة اغتيال وهو يقطع الشارع وخُطف الآخر واحتجز في قبو في بروكلين. وهناك أطلق خاطفوه النار عليه مراراً ثم قطعوا جثته كما يقطع الجزار اللحم.

وفي ٢٤ فبراير (شباط) ١٩٨١ وقف الفونس ريتشيو أمام المحكمة بتهمة الحنث باليمين. وحين اقتيد فيتو غاتي للشهادة ضدّ شريكه تذرع بادىء الامر بالمادة الدستورية الخامسة بحجة أن شهادته تدينه هو شخصياً. ثم أرغم على الاعتراف، فحاول الكذب على نحو مثير للشفقة. وقال انه لم يسمع قط بمسألة الابتزاز.

وعندئذ أراه بوكين شهادته السابقة أمام هيئة المحلفين، وطلب منه الاقرار بأنه ادلى بها على أثر حلفه اليمين. فقال غاتي: "اذا كانت الشهادة معك، فلا بدّ من أن أكون أدليتُ بها."

ولم يبقَ أمام ريتشيو أي خيار سوى الاقرار بجرمه. وحُكم عليه بالسجن سنتين. أما غاتي فعاد الى السوق ولم يدع شيئاً الا اعترف به أمام ووكر وفيرون.

وسرعان ما ضربت العصابة ضربتها. ففي ١٦ مارس (آذار) وجد ووكر وفيرون نفسهما محاطين بزمرة من عمال التفريغ يقودها جيمي رد مازاريز وهو عميل تجاري للفرع ٣٥٩. وبلغ عدد العمال نحو اثني عشر تسلحوا بالعقائف والهراوات وقضبان الرصاص. وأبعدوا ووكر وفيرون عن سيارتهما واقتادوهما الى حافة النهر. وكان ذلك في الرابعة صباحاً والمحققان لا يحملان أي سلاح.

وحث مازاريز جماعته على احكام الخناق. ووجد ووكر وفيرون أن لا خيار لهما سوى الدفاع عن النفس أو التملّص من الحلقة والهرب نحو النهر. وارتأى ووكر أن يوهم أفراد العصابة بأنه يحمل مسدساً، فوضع يده على خصره كما لو كان يهمّ بانتزاع سلاحه.

وتردد العمال ونظروا الى مازاريز الذي قال لهم ان الرجلين لا يحملان سلاحاً. وعندئذ قال مازاريز: "سيكون لك يوم يا باذنجان." واختفى العمال بسرعة كما ظهروا (٢).

وفي ١٩ مارس (آذار) ١٩٨١ وجهت

(٢) في ٢ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٨٣ وجدت جثة مازاريز في كيس القي قريباً من السوق. وهو قُتل بالرصاص.

محكمة اتحادية اتهاماً الى الفرع ٣٥٩ ببيعه لوحات الاتحاد بناء على شهادة ٤٦ شركة. وفي مايو (ايار) أصدر قاض اتحادي حكماً على الفرع يقضي بان يدفع غرامة بقيمة ٤٠٠ الف دولار. وهي المرة الاولى يصدر حكم من هذا النوع على اتحاد عمالي. وظنّ بوكين أن تلك الخطوة ستخرج ماستر من عزلته. لكنه ظل ملتزماً الصمت.

وفي اليوم الذي تلا الحكم على الاتحاد أصدرت وزارة العدل الامريكية قراراً بوضع ماستر تحت الحصانة في مقابل الادلاء بشهادته. وفي ٢٥ مارس (آذار) وقف أمام هيئة محلفين اتحادية وتفوّه بكلام لم ينسه أيّ من الحاضرين.

وبعد قسمه اليمين سأله بوكين: "هل تعرف شخصاً اسمه كارمين رومانو؟".

أجاب ماستر باكياً: "حضرة الرئيس، أيها السيدات والسادة. أني آسف جداً، وليس في نيتي أي سوء. لقد كنت مواطناً صالحاً على الدوام، ولم أخالف قانوناً قطّ. واني أودّ التعاون معكم الى أقصى الحدود بالاجابة عن أسئلتكم. لكنني أخاف مما يمكن أن يحدث لزوجتي وأولادي وأحفادي وتجارتي. ولست أريد الذهاب الى السجن الا اذا كان ذلك يرفع الشر عن عائلتي. واني على يقين من أن لديكم ما يكفي من شواهد لجرّ أولئك الناس الى المحكمة... كلا، انهم ليسوا أناساً. ولكن أرجوكم ألاّ تجبروني على دخول السجن."

وأصدر قاض اتحادي حكماً على ماستر بالسجن الاصلاحي في منهاتن، ضارباً بتوسلاته عرض الحائط. وقضى الحكم بأن يبقى هناك طالما بقيت المحاكمة جارية أو حتى يقبل بالاعتراف. وأعتق بعد تسعين يوماً ودفع ٦٦ ألف دولار غرامة.

الثأر السريع

قال بوكين لنفسه وهو يتأمل في ما يجري: "انها حرب حقيقية. ولا يمكن ان يحدث قتال من غير سقوط ضحايا." الا انه لم يهيىء نفسه لما حصل ليلة ٨ ابريل (نيسان) ١٩٨١. وكان بوكين نائماً في شقته عندما رن الهاتف بجانب سريره. وكلمه محقق من مكتبه قائلا: "لقد تعرّض فيتو غاتي لاعتداء أثيم."

وكان غاتي في طريقه الى السوق للعمل في الحادية عشرة والنصف من تلك الليلة عندما أطلق عليه مسلحان مجهولان خمس طلقات. وأصابته الرصاصتان الاوليان في صدره ويده، فزحف الى مطعم كارمين الواقع تحت مقر الفرع ٣٥٩. وفيما هو قابع هناك والدم ينزف منه أطلق المسلحان نارهما عليه ثلاثاً. وصوبت احدى الرصاصات الى رأسه من مسافة قريبة جداً. الا أنه نجا من الموت بأعجوبة. ونُقل الى مستشفى بيكمن القريب حيث وضع في غرفة العناية الفائقة.

وأدرك بوكين أن العصابة شاءت الثأر من غاتي لانه شهد ضد ريتشيو. وفي المساء التالي زار ووكر وفيرون المستشفى. وأدركا أن الحظ هو الذي أنقذ حياة غاتي، اذ ان الرصاصة التي

صَوبت مباشرة الى رأسه انحرفت قليلا عن الدماغ.

وفي العاشرة ليلا استعاد غاتي وعيه، وسمح الاطباء للمحققين بأن يدخلا عليه لوقت قصير. ووجداه مطبق العينين وهو يتنفس بصعوبة وقد وصل جسده بشبكة من الانابيب لتقويته بالمغذيات وامتصاص السوائل الملوثة.

وجلس ووكر الى جانبه على السرير وقال: "من الذي اعتدى عليك يا فيتو؟".

وارتعشت عينا غاتي وقال بصوت ضعيف: "أهلا يا وسلي... أتريد أن تشتري سمكة؟"

وكان ذلك كل ما حصل عليه ووكر من غاتي.

وفي تلك الاثناء وقف فيرون بعيداً وقد أتى عليه الخوف. فهو لم يبصر عنفاً من هذا النوع الا على الشاشة. واضطربت أمعاؤه وأسرع خارج الغرفة. وتبعه ووكر فبادره: "هذا كل ما أستطيع احتماله يا وسلي. اني محاسب ولستُ شرطياً. أضف الى هذا ان لا أحد يعنينا على عملنا غير بُوكين، واننا نعمل من غير سلاح يدفع عنا الاذى. وأرجوك ان تعتبرني مستقيلا منذ هذه اللحظة."

وكان ووكر يعلم أن زوجة فيرون ولدت طفلا قبل وقت قصير. ولمعرفته ما يفعله الارهاق حتى بالنسبة الى رجال الشرطة حاول تهدئة زميله. وفي اليوم التالي طلب فيرون موعداً مع روندا فيلدس مديرة مكتب وزارة العدل في مدينة نيويورك المختص بالاجرام المنظم وعمليات الابتزاز. ورافقه ووكر الذي جلس صامتاً فيما صبّ فيرون نقمته على سماح الوزارة له ولزميله بالعمل من غير تحصينهما بالسلاح والحماية. وعبّر عن خوفه من أن يكون هو الهدف المقبل للعصابة. وأضاف: "أرجو اعفائي من هذه المهمة يا سيدتي."

وسألت المديرة ووكر عما اذا كان يراوده شعور مماثل. وفكر ملياً في الأمر، ثم قال ان ما جاء على لسان زميله صحيح، وان الدعم الذي حصلا عليه أخيراً من السلطات لا يزال ناقصاً. لكن ووكر قال انه بدأ التحقيق وانه سيتابعه حتى النهاية.

ونظرت مديرة المكتب الى فيرون، فتململ في مكانه وقد تذكر الرابط الذي نشأ بينه وبين ووكر طوال السنتين الماضيتين. وعلى رغم اختلاف أحدهما عن الآخر تماماً فقد بات انفصالهما عسيراً.

وفجأة قال فيرون: "سأبقى حيث أنا بشرط أن أحصل على سلاح."

وأجفل ووكر لسماعه ذلك الكلام. فهو كان يعلم أن زميله يجهل استعمال السلاح. لكنه أقرّ ما قاله فيرون وأضاف أنه لن يعود هو أيضاً الى السوق حتى يحصل على قطعة سلاح.

وبعد الاعتداء على فيتو غاتي الذي لم تكشف هوية فاعليه لعدم توافر الشهود، أدرك بوكين انه لن يستطيع ارغام فرانك ماستر على الكلام. كما أدرك أن الآخرين الذين تطوّعوا للشهادة سيتخلون عن وعدهم ما لم يبادر الى اتخاذ التدابير الضرورية سريعاً.

وفي العاشر من ابريل (نيسان) بعد يومين من الاعتداء على غاتي أصدر بوكين اتهاماً رسمياً بالابتزاز ضد كارمين رومانو وأخيه بيتر. وفي اليوم نفسه تولت الشرطة اعتقالهما. وأطلقا بكفالة بعد يوم واحد انتظاراً لاستكمال القرائن في حقهما.

وأمر بوكين بانتداب مفرزة للحراسة الدائمة خارج غرفة غاتي في المستشفى. وظل القلق يلاحقه من أن



الأخوان رومانو: كارمين وبيتر.

يكون هو او ووكر هدف العصابة اللاحق.

وعلى رغم الحراسة المشددة أرغم غاتي مرة أخرى على دفع ثمن شهادته. وفي اجتماع للمفايا بعد الجريمة الاولى المخفقة اتخذ قرار بنقل حصة غاتي في شركة التفريغ الى تاجر ترضى به العصابة.

وتولى أحد أنسباء غاتي نقل الرسالة اليه. ولم يكن أمامه خيار سوى التوقيع لمعرفته أن المجرمين لن يخطئوا تصويب سلاحهم المرة الاخرى. وهكذا تخلى غاتي عن حصته في الشركة التي جهد طوال حياته لازدهارها من غير أن يجني قرشاً واحداً بدل أتعابه. وبجرّة قلم واحدة تحطم فيتو غاتي مالياً.

نهاية امبراطورية

أظهرت الايام اللاحقة أنه ما زال في يد غاتي ورقة اضافية يمكن ان يلعبها. ووجد ووكر وفيرون تلك الورقة مدفونة بين السجلات المالية للشركة.

وكان المحققان على علم بأن عدداً كبيراً من الحوالات المكتوبة لحساب الشركة بلغ جيوب أفراد العصابة في نهاية المطاف. وعبّر فيرون عن ذهوله حيال الحرفين المكتوبين على ظهر الحوالات المصروفة، وهما "ج.ر." ولم يعرف ما يمثلان.

وفي ٢٣ ابريل (نيسان) (١٩٨١)، قبل أربعة أيام من الذكرى السنوية الثانية لبدء التحقيق، قبض على مسؤول في احدى الشركات المحلية بتهمة الحنث باليمين. وبعد تهديده بالملاحقة القانونية حُمل على الاعتراف بما يمثله الحرفان "ج" و"ر" فقال انهما الحرفان الاولان من اسم جيمي رد مازاريز. وسأله ووكر عن سبب لجوء مسؤول في الاتحاد الى قبض حوالة أصدرت لحساب شركة محلية.

وأخبر ووكر على الفور أن مازاريز كان الجابي الاكبر الذي أوكلت اليه المافيا تحصيل "أموالها".

ومع الحصول على تلك المعلومات وجد فيرون أن مازاريز (أو سواه من ممثلي الاتحاد) اعتاد قبض الحوالات

المدفوعة لحساب معظم شركات التفريغ، وأنه كان يحسم عشرة في المئة من المبلغ قبل تسليمه نقداً للشركة.

وفي نهاية مايو (أيار) هبت وزارة العدل في واشنطن لتلبية طلب ووكر وفيرون. ومنحت كلا منهما الرتبة التي تخوّله حمل السلاح واعتقال المجرمين. وفي أسبوع واحد أعقب تسلمه السلاح تدرب فيرون حسناً على استعماله باطلاقه نحو ألف رصاصة في حقل تدريب للشرطة. وذات صباح دخل المكتب وهو يحمل ما اعتبره أعظم غنيمة. وبادر ووكر: "هيا نذهب الى السوق للبحث عن أنطوني أوكونر."

لكن أوكونر لم يظهر في أي مكان. وانتشر في السوق خبر يقول انه ذهب فجأة الى فلوريدا.

وصرف بوكين طوال يونيو (حزيران) وبعضاً من يوليو (تموز) في اعداد قضيته بدقة وبراعة لتشمل لوحات الاتحاد وهدايا العيد وأجهزة التلفزيون والابتزاز. وكان لقرار الاتهام أثر كبير في هيئة المحلفين التي أصدرت تهماً رسمية في ١٣ أغسطس (آب) ١٩٨١ ضد كارمين رومانو وأخيه بيتر وأنطوني أوكونر لاشتراكهم في أعمال الابتزاز وتبديدهم أموال الضمان الاجتماعي والتقاعد وفرضهم خوة على الشركات المتعاملة مع سوق السمك.

واعتقل الاخوان رومانو مرة أخرى. لكن اعتقالهما الجديد تمّ على يد ووكر وفيرون. وأطلقا هذه المرة أيضاً بكفالة. ولكن سرعان ما سُرّحا من الوظيفة بعد وضع ادارة الفرع ٣٥٩ في عهدة الاتحاد العام في واشنطن، وهو النقابة الدولية المتحدة لعمال الاغذية والتجارة.

وعلى الاثر بدأت العصابة تنهار. واختفى أوكونر عن الانظار وتستر الآخرون خوفاً من الملاحقة وتوقفت الخوّات على حين غرّة. وأخذ زعماء المافيا الجنوية يجتمعون في حانة ديكسي في بروكلين لتقدير خسائرهم. لكن الشرطة ما لبثت أن فضحت أمرهم.

ومن أجل تركيز اهتمام المحلفين على الأخوين رومانو ارتأى بوكين أن تجرى محاكمتهما بانفصال عن معاونيهما. وصدق ظنّ بوكين حين رأى الشهود يرتعدون من نظرات رومانو اليهم في قاعة المحكمة ويتلعثمون في كلامهم. وتبين له أن السلطان الذي فرضه زعماء العصابة على أعوانهم يتجاوز الجرائم التي ارتكبوها.

وفي ٣٠ اكتوبر (تشرين الاول) جرّمت المحكمة كارمين وبيتر رومانو بجميع التهم التي وجهت اليهما. وأصدر المحلّفون قراراً بوضع كارمين رومانو في السجن لأنه يشكل خطراً على المجتمع وعلى كل الذين أدلوا بشهاداتهم ضده. وبعد خمسة أشهر حكم عليه بالسجن اثنتي عشرة سنة. وكان ذلك في ٥ فبراير (شباط) ١٩٨٢. وهذه المدة، بالنسبة الى رومانو، أشبه بالسجن المؤبد، اذ انه لن يستطيع البتة أن يعود امبراطوراً على سوق السمك. وحكم على أخيه بيتر بالسجن ١٨ شهراً. وكان بوكين

يعلم ان بيتر هو ذيل الأفعى وكارمين الرأس. والذيل لا نفع له بعد قطع الرأس.

في تلك الاثناء كان جسد العصابة ينزف بلا انقطاع. وفي ٢٩ ابريل (نيسان) ١٩٨٢ أثبتت جميع التهم الموجهة ضد شركاء رومانو الخمسة، وحكم عليهم جميعاً بدفع غرامات لقبولهم خوات غير مشروعة. الا أن أثرهم في سوق فولتون للسمك زال.

وفي أواخر العام ١٩٨٣ جلس ووكر وبوكين وفيرون يحصون انجازاتهم، فوجدوا أن ٤٤ تهمة أثبتت من أصل التهم الثماني والاربعين التي وجهوها ضد أفراد عصابة سوق السمك، وأن المحكمة حكمت على ٢٤ شخصاً. ومن هؤلاء انطوني أوكونر الذي خرج من عزلته في اكتوبر (تشرين الاول) وسلم نفسه الى ووكر، ثم حكم عليه بالسجن ١٣ شهراً لتبديده أموال الخدمة الاجتماعية والتقاعد في مقابل الحصول على أجهزة تلفزيون مجانية لمصلحة رومانو.

وهكذا انتهى هذا التحقيق الذي يعتبره الكثير من المسؤولين في الحكومة الامريكية أنجح تحقيق ضد الاجرام المنظم والابتزاز خلال العقد الاخير. وتسلم وسلي ووكر وفريد فيرون المكافأة التي استحقاها طويلا، وهي تقدير الكونغرس على "الخدمة الممتازة التي أدياها لحكومة الولايات المتحدة". وتلقى دانيال بوكين تقدير المدعي العام.

أما هدف التحقيق الاول والاخير، وهو انطوني أوكونر، فقد أدخل السجن في ٣١ يناير (كانون الثاني) ١٩٨٤ بعد انقضاء أربع سنوات وتسعة أشهر على بدء التحقيق. وقال ووكر لنفسه: "انه وقت طويل." الا أنه ليس طويلا حقاً اذا تذكرنا أن المافيا أمضت ستين عاماً في بناء امبراطورية الرعب في سوق فولتون للسمك.

■ **ناثان آدمز**

الجيب والغيب

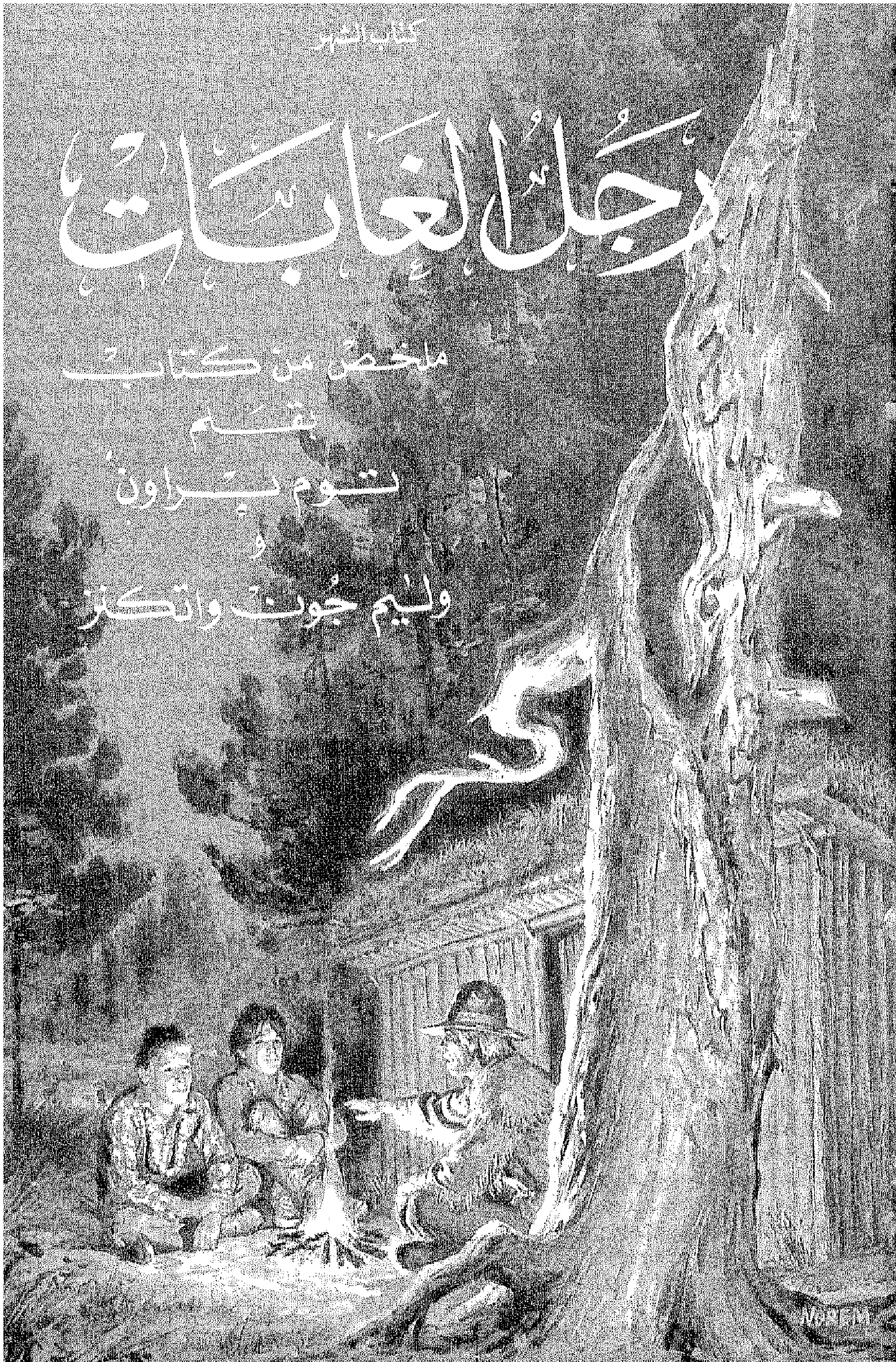
بينما كنت أنتظر دوري في محطة الوقود سمعت الشاب الذي أمامي ينادي العامل بصوت مرتفع: "املأها على سعتها." غير أن الرقم الذي سجلته الآلة لم يتجاوز الليترات الثلاثة.

وبعدما انطلق الشاب بسيارته سألت عامل المحطة: "أهذا كل ما تستهلكه تلك السيارة الكبيرة: ثلاثة ليترات؟" فابتسم موضحاً: "صاحبنا يستعمل سيارة والده، ومعه صديقته. وهو طلب أن أملأ خزان السيارة كي ينال اعجاب صديقته، ورفع ثلاث أصابع علامة الكمية الحقيقية التي يمكنه دفع ثمنها."

ا.ر.

لا يمكن أن تدوم أي علاقة تضع نفسك فيها في المقام الاول.

ب.ك.


كتاب الشهر
رجال الغابات
ملخص من كتاب
بقلم
توم براون
و
وليم جون واتكنز

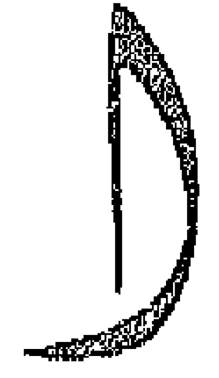
رجل الغابات

في ولاية نيوجرزي الصناعية المعروفة بكثافة سكانها تبدو منطقة غابات الصنوبر اشبه بالمفارقة. وهي ارض من الأشجار والمستنقعات تبلغ مساحتها نحو ٢٦٠٠ كيلومتر مربع. وهي لا تزال على حالها الطبيعية التي عُرفت بها منذ مئات السنين.

أما بالنسبة الى توم براون، فقد كانت تلك الغابات بمثابة الحديقة الخلفية لبيته ومدرسته وهو صغير. وشبّ في كنفٍ هندي احمر من الآباش، لقنه كيف يمكن تعقّب الارنب الى وجاره وتشمّم اوراق الاشجار واغصانها وقراءة آثار الخطى في الارض كما لو كانت جُمَلا في كتاب.

وحملت مغامرات براون الفريدة طابعا اسطورياً، وجاءت رحلة مستمرة لاكتشاف روح الطبيعة الذي يسري في جميع الاشياء

Condensed from «The Tracker,» copyright © 1978 by Tom Brown, Jr., and William Jon Watkins, published by Prentice Hall, Inc., Englewood Cliffs, N.J.



انك، إذ تتعقب آثار الاقدام في أحد المسالك، فانما تسعى الى لغز ترك جزءاً منه هنا وهناك. وما ان تبلغ الشخص الذي خلّف تلك الآثار حتى يكون اللغز أصبح جزءا منك الى الابد.

لقد تبعتُ كل اثر امكنني اقتفاؤه طوال السنوات العشرين التي تلت تدرّبي على رجل متقدم في السن من شعب الآباش الهندي اسمه ستوكينغ وولف. ولم تكن لي يد في ذلك، إذ ليس في وسعي مقاومة الالغاز. وفي اعتقادي ان الاثر ينبغي اقتفاؤه الى أن يفضي بسرّه.

اني أراقب آثار الاقدام على الدوام. فاذا خرجتُ الى المحلّ لشراء الحليب، امتدّ اثري نحو خمسمئة متر ورائي في الشارع. ولقد سحرتني الطبيعة قبل عهدي بذلك الهنديّ الاحمر. لكني كنتُ أجلس وقتا طويلا في مكان واحد، وأنظر منه حولي مترقبا حدوث شيء ما. أما ستوكينغ وولف فقد أمدّني بالعدّة لمتابعة ذلك الشيء حتى مصدره.

منذ ذلك الحين لم أتوقّف يوما واحدا عن العمل للتعلم اكثر فأكثر عن الطبيعة وعن اقتفاء الآثار. وهذا الكتاب يصوّر الطريق التي قطعتُها الى الآن. والقصّة تبدأ عندما كنتُ في السابعة.

آنذاك كانت أشجار الصنوبر تنزل كلها حتى النهر. والمدن نفسها في القسم الاكثر استواء من ارض الصنوبر كانت قليلة العدد ومتباعدة. ومن آسبري بارك الى كيب ماي، ثم الى وسط الولاية نحو الداخل، امتلأت المساحات الواسعة بالصنوبر الراتنجي والاشجار الخفيضة، وبينها عدد من المعابر الرملية والمسالك الوعرة التي يضيع فيها حتى السكان المحليون وقد عاش أجدادهم أجيالا هناك.

لقد كنا نعيش على طرف الغابة، وكان باب منزلنا الخلفي ينفتح على تلك الاراضي التي لا أعرف عنها شيئا. في البداية لم يكن لديّ سوى الفضول مع "كتاب الطبيعة الذهبي" دليلا الى تلك الفيافي. لكن ذلك كله تبدّل يوما وأنا أبحث عن المتحجرّات في حفر لالقاء الحصى بالقرب من نهر تومز على طريق بيتنا. وهناك صادفتُ فتى أسود الشعر ضئيل الجسم ولكن قويه. وكنتُ أظنني الصبي الوحيد في ولاية نيوجرزي الذي تهمه المتحجرّات أو يسعى إليها.

وسألت ذلك الفتى عما يفعل فأجاب: "اني أبحث عن المتحجرات." وأخذ قلبي يخفق بقوة... لقد وجَدتُ أخيرا من أتحدّث معه ويدرك اهتماماتي. وكان اسمه ريك.

انتصف العصر ونحن نتكلم. وبعد ذلك أخذني ريك الى بيته لأقابل جدّه الذي أصبح استاذي ودليلي طوال السنوات التسع التالية.

ذهب ستوكينغ وولف الى نيوجرزي للاقامة قريبا من ولده الذي



عاش مع عائلته هناك. ومنذ البداية وقفتُ منه موقف الاجلال. وكان متوسط القامة هزيل الجسم، وكان جده طبيباً يداوي بالاعشاب البرية، وقد مارس اقتفاء الآثار والصيد لمصلحة عشيرته من الآباش. وبالنسبة الى ريك والي أنا، كان ستوكينغ وولف يجسد روح الغابات. وأظن أنه درّبنا على غرار ما دُرّب هو نفسه في حداثته، خلال السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر.

ومرّة سألته لماذا يصمت ويجلس بلا حراك أحيانا، فقال انه يفعل ذلك ليرى أفضل. وربما بدت الدهشة عليّ، لكنني لم أقل شيئاً لأن ستوكينغ وولف اكتفى على الدوام بالاجوبة غير المباشرة عن ايّ سؤال.

وإذ رأى عدم فهمي أضاف: "إذهب أطعم العصافير."

وأخذت مع ريك بعض الحبّ وخرجنا. وخرج ستوكينغ وولف هو أيضا في آثرنا، ووقف ينظر إلينا ويقهقه. ورحنا نرمي الحبوب أو نلقيها أو نشقعها أكواما وهو ينظر إلينا ويهزّ رأسه.

وكلما رآني بعد ذاك الحين سألني عما اذا تعلمتُ إطعام العصافير. ومرة أجبتُه انني لا أعرف ماذا يريدني أن أفعل. فقال: "ماذا تفعل اذا طلبت منك ان تطعمني؟" ونظر اليّ كما لو كان على وشك الانفجار ضحكاً.

وهززتُ رأسي وانطلقت أبحث عن ريك. ولما وجدته سألته: "كيف تقدّم الطعام الى جدّك؟"

وكان ريك معتادا ذلك النوع من الاسئلة. لذلك لم ينظر اليّ باستغراب كما لو كنتُ مغفلا، بل قال: "اني اناوله الطعام بيدي. وهو يودّ أن نتبع الطريقة نفسها في إطعام العصافير لأنها أصدقاء لنا."

وكنت أخشى جوابا من ذلك النوع. وبعد ذلك انبسطنا على العشب وفتحنا أيدينا وفيها الحبوب. وبقينا هكذا طوال العصر. ودنت بعض العصافير منا، لكنها لم تجسر على مقاربة أيدينا. وعند الغسق عدنا أدراجنا. وهزّ ستوكينغ وولف رأسه كما لو كنا ولدين أحمقين. وقال: "متى تتعلمان إطعام الأصدقاء؟"

وفي الصباح التالي قبل الضحى خرجنا وتمدّدنا على العشب المبلّل بالندى ومددنا أيدينا وفيها الحب. وكنا تعلمنا أن نحقق شيئا من الهدوء عبر مراقبة الطبيعة. لكن إطعام العصافير يلزمه المكوث هكذا طويلا.

ومع تباشير النور الاولى باشرت العصافير الصداح. وبعد قليل أتى دوري صغير وازدرد حبة في عبوره. وانقضت ساعة قبل أن يأتي دوري آخر ويقف أرضا وينقر حبة من يدي. ثم قفز الى يدي وأحسست خدش براثنه الصغيرة.

البلوغ

بدأنا نقتفي المسالك ونحن في الثامنة. وقد وجدنا آنذاك أثر قدم وبراثن في الوحل على بعد ١٥٠٠ متر أو نحوها من منزل ريك. وأخبرنا ستوكينغ وولف عن ذلك الأثر، وأخذناه اليه ونحن لا نكفّ عن الكلام قائلين ان ذلك الاثر هو طبعة من حوافر "شيطان جرزي".

وكانت الاقاصيص الشعبية التي سمعناها في طفولتنا ملأى بالحكايات عن ذلك المخلوق الضخم الكثّ الشعر الذي دنس حرمات القبور. وبدا شيطان جرزي كائنا حقيقيا بالنسبة اليّ آنذاك، وأحببت الروايات التي تأتي على ذكره، مع أني بقيت في خوف دائم من مصادفته على حين غرّة.

نظر ستوكينغ وولف الى الدمغة ثم تقدّم كمن يتبع خطاً. ووقف ينظر حوله قبل أن يتجه نحو أجمة ويخترقها. ولما عاد كنا ننتظر، وقد حبسنا أنفاسنا، أن يخبرنا عن شيطان جرزي.

الا أن ستوكينغ وولف هزّ رأسه وقال ان ذلك الاثر خلفته قوائم كلب بني وأبيض لا يتعدّى وزنه ٤٥ كيلوغراما، وأن رائحة الارانب أثارت شهيته الى أقصى الحدود. وأخبرنا أمورا كثيرة أخرى عن ذلك الكلب وعن كلّ ما فعل. ولم أتمالك نفسي ورحت أصرخ أنا وريك: "ماذا تقول؟ الارانب؟"

لقد كانت الحماسة خطأنا الوحيد كمحبين للطبيعة. وهذا يعني توجيه أنظارنا نحو شيء معين الى حدّ التغافل عن الاشياء الاخرى.

ودلنا ستوكينغ وولف على معابر الارانب، وعلمنا أين ذهب كل أرنب وكيف عاد ولماذا. ودلنا كذلك على المكان الذي اكتشف فيه الكلب الرائحة وكيف تبدّلت خطواته للحال. وقد امتدّت آثار القوائم حتى الأجمة، ومنها الى حيث أسرعت الأرانب. وحدّد ستوكينغ وولف طريق الارانب وطريق الكلب والمكان على رأس التلة الذي ذهب الكلب منه خائبا وهو يهرّ.

وعاد بنا الى حيث انطلقنا، وأرانا وجار الارانب والصغار التي ردّت عنها الأم اعتداء الكلب. ووقفنا مذهولين ونحن لا نكفّ عن سؤال ستوكينغ وولف: "كيف عرفت ذلك كله؟" وأخيرا دلنا على المعابر وعلمنا كيف "نقرأ" كلا منها.

وفي البداية تولى هو رسم المعابر لنا. لكنه طلب منا لاحقا أن نفعل ذلك. وسرعان ما خرجنا وحدنا نبحث

عن المعابر ونحاول وصل أحدها بالآخر.

وكلما نجحنا في اعادة تكوين معبر ما، كان ستوكينغ وولف يلقننا كيف نعرف نوع الحيوان الذي مرّ من هناك والعائلة التي ينتمي إليها وقراءة شكل المعبر في كلّ وصلة منه. ومما علمنا إياه أن الهنود يمشون كالثعالب، فيقدّمون رجلا على أخرى في خط مستقيم.

هذه المعرفة لم تأت تلقائيا، بل استغرقت أشهرا وسنوات. وبات اقتفاء الآثار شغلنا الشاغل، نلاحقها أينما ذهبنا. وكلما رأينا حيوانا كنا نراقب ما يفعل، ثم نقتفي آثاره لنربط كل مرحلة منها بما عايناه.

والحق اني لم أكلّ البتة من ذلك العمل، تحدوني عليه رغبة جارفة في أن أكتسب يوماً مهارة ستوكينغ وولف.

وكان على الطريق المرصوفة بالحصى، وهي اكبر طريق ذو خطين في الجوار، محلّ قصاب يحفظ صاحبه اللحوم بطريقة التدخين. واعتدت أن أذهب مع ريك الى هناك بعدما نشأت لدينا رغبة في فن التحنيط. لكننا أحببنا ذلك المكان على نحو خاص لتلك البقعة العارية من التراب أمام بابه التي لم تجفّ أبداً. وهناك وجدنا ضروبا من آثار الاقدام غير معدودة.

وكنا نجلس أمام المحل ونراقب أحدهم وهو يدخل، ثم نهرع لاقتفاء آثاره ونحن نسجل أين وقف أو استدار أو انعطف أو ربط حذاءه. وكنا نرسم كل علامة على ورقة ونكتب تحتها عبارات من نوع: "هذا يظلع لأنّ قدمه تؤلمه" أو "هنا مرّ رجل بدين."

وفي الغابات كنا نسعى الى طبع آثارنا كلما صادفنا نوعا جديدا من التربة، ثم نغرز قضباننا للتعرف الى المكان لاحقا. ولدى مرورنا من هناك مرة بعد مرة كنا نقف لنرى ما فعل الطقس والزمن بآثار أقدامنا. وأحيانا كنا نقضي يوما كاملا ونحن نراقب زوال آثار أقدامنا مع اشتداد الريح. وفي أحيان أخرى كنا نحمي آثارنا بالقضبان لئلا تدوسها الحيوانات، ثم نراقب تبدّلاتها طوال أشهر.

وأحيانا كنا ننتظر ساعات خروج حيوان من وجاره. ولئلا نجلس هكذا متبطلين، كنا نغرز في الارض قدم غزال حملناها معنا،ونراقب تلاشي أثرها مع الوقت. وكلما مرّت بضع دقائق كنا نطبع أثرا جديدا ونراقب تلاشيه أيضا. ولم نكفّ عن ذلك التلقين الذاتي.

وكنا نراقب آثار أقدامنا وآثار أقدام الآخرين. كما راقبنا آثار الحيوانات والسيارات والحلازين. وفي بداية عهدنا بالمعابر كنا نعود من حيث أتينا عن طريق الذاكرة. ولكن مع تقدّمنا في المهنة أصبح في امكاننا اقتفاء خطانا في طريق العودة. وازدادت معرفتنا سنة بعد سنة.

ولدى بلوغنا السادسة عشرة لم يبقَ مكان واحد في تلك البقاع يمكن أن نضيع فيه. ولما أصبح أهلنا أكثر قبولا لمغامراتنا في الطبيعة بتنا نقضي أوقاتاً أطول خارج البيت. ولم نعمد الى التغيب عن صفوفنا

المدرسية الا في ما ندر اجتنابا للمشاكل. غير أننا كنا نصل متأخرين على الدوام. وأجدنا أقتفاء الآثار والمطاردة، وتدرّبنا على العيش في البرية وعلى الصمود وقتاً هناك. وبلغنا أشدّنا في الغابات وبقينا حيَّين. ولقد وجّهنا ستوكينغ وولف العجوز في أمورنا كلها.

مطاردة الدببة

في حين كانت المدرسة تعلمنا الانتباه التامّ، علمنا ستوكينغ وولف الانتباه المتقطع. وهذا معناه نقل أنظارنا من الجزء الى الكل، أي رؤية الأثر الذي نقتفيه كجزء من الطريق والطريق كجزء من الغابة.

لكنني أحسست نزعة قوية لديّ الى تركيز اهتمامي كله على الأثر الذي أقتفيه والتغافل عن كل ما عداه، كما يفعل الكلب وهو يتشمم طريقه.

وذات يوم جاء ستوكينغ وولف الى الغابة وقال لي: "اتبعني." وانحدر الى أسفل مخلفاً وراءه علامات واضحة. وكانت آثار قدميه من الوضوح بحيث رحتُ أبحث عن شيء آخر في طريقي لم أستطع تحديده.

وانعطفت الآثار قليلا ثم انحرفت يساراً. ورحتُ أتعقبها خطوة خطوة حتى وصلت الى شيء مضحك، لكنني لم أعرف طبيعته. وفجأة اختفت الآثار. وتوقفت وأنا في حيرة من أمري. ثم أحسست حركة ورائي فأدرت رأسي. لكن ستوكينغ وولف توارى عني ولم أتمكن من رؤيته. ولقد كانت له القدرة على الوقوف بجانب أحدهم من غير أن يراه.

وأخيراً أنفجر ضاحكاً. أما أنا فلم أصدق أنه هناك. وقلت: "كيف فعلت هذا؟" وكان عليّ الانتظار حتى يتوقف عن الضحك. وبعد ذلك سار بضع خطوات حتى الطريق. الا أن أثر تلك الخطوات لم يظهر. والواقع أنه سار الى الوراء وهو يطأ المواضع نفسها التي وطئها في صعوده، من غير أن يوجه عينيه الى الارض. ومع الوقت اكتسب ريك تلك الحيلة وبات ينجزها حسناً. أما أنا فلم أستطع محاكاة ستوكينغ وولف البتة.

وعدت أسأله: "ولكن قل لي أين كنت؟" وقفز من مكانه واتكأ على شجرة. فقلت له: "أيعقل أنك كنت هنا من غير أن أراك؟" وظننتُ أن لديه طريقة سرية للتخفي.

وأجاب: "المسألة أنك لم تنظر حولك." وعرفت انه كان على صواب. فأنا لم أنظر حولي. وهذا دليل على عجزي آنذاك عن ربط الجزء بالكلّ.

وبعد تلقيننا كيف يطارد أحدنا الآخر، طلب منا ستوكينغ وولف أن نطارده. ولما تعلمنا ذلك أرسلنا في أثر الحيوانات. وكان يأتي مرة في الشهر ليراقبنا ويصحح أخطاءنا، كأن يقول إننا جعلنا الحيوان يعي وجودنا أو أننا مشينا على غصن شجرة عوض رفعه والعبور تحته. وعلمنا مطاردة الغزلان، أي السعي في اثرها ساعات حتى نصل اليها ونستطيع لمسها او القبض عليها.

واذا رأى ستوكينغ وولف حيواناً مفترساً في الجوار، كان يضرب الغزال على قفاه لعدم انتباهه.

وتعلمنا سريعاً ان نتعقب الغزلان.

ولكن انقضت سنتان قبل أن يستطيع ريك لمس غزاله الاول. أما أنا فانتظرت ستة أشهر أخرى حتى انقضاء موسم الصيد واستقرار الغزلان في الغابة. وظلّ ريك يفوقني في تعقب الغزلان. لكنه سُرّ كثيراً هو وجده حين تمكنتُ من لمس غزالي الاول. ولم يصدق أهلي ما سمعوه مني، وكانت المرة الاولى أخبرهم عن مغامراتي في الغابات.

ورافقنا ستوكينغ وولف في آخر ذلك الاسبوع للاحتفال بالمناسبة. وبعدما أكلنا جلسنا حول نار المخيم وتملقناه لكي يروي علينا بعض القصص. وربما كان صاحبنا ينتمي الى الجيل الاخير من الهنود الذين شبوا على التقاليد القديمة. وأخبرنا كيف تعقب شجعان عشيرته غزلانهم الاولى كما فعلنا نحن. وانتقل الى صديقه الحميم مديسن دير والى خبرتهما المشتركة في تعقب الدببة.

وكان فتية القرية آنذاك يتحدى أحدهم الآخر على ذلك الأمر، فيتصدى واحد له من حين الى حين. وذات يوم وقع ستوكينغ وولف ومديسن دير على آثار جديدة أحدثها دب في الغابة. وكان لهما من العمر خمس عشرة سنة، وهما ينتميان الى قوم عانوا الهزائم ويتحينان فرصة لاظهار شجاعتهما. وهكذا قال مديسن دير ان تعقب الدب هو من حقه، بما انه كان السبّاق الى ملاحظة أثره. أما ستوكينغ وولف فجلس يراقبه.

وشقّ مديسن دير طريقه مع حفيف الاشجار وهو حريص على ألا يسمع أي كائن في الطبيعة وقع خطاه. وراح يقفز من شجرة الى أخرى. وتجمدت أوصاله عندما توقف حفيف الشجر. هناك كان الدب يقطف التوت من احدى الجنبات. وقطع مديسن دير المسافة القصيرة التي تفصله عن الدب بخطى قصيرة ولكن سريعة.

ولما وقف وراءه لم يضربه حالاً. ذلك بأن مقياس الشجاعة كان في اطالة الوقوف تحت رحمة الكائن الوحشي. وأخيراً أطلق صيحة حرب وضرب ذيل الدب. وجأر الحيوان واستدار استعداداً لمطاردة الفتى الذي كان عداء ماهراً. وراح الصبيّ يعدو وهو يطلق صيحات الظفر. لكنه ما لبث ان تعثر وسقط أرضاً. ووصل اليه الدب وافترسه.

وسألت ستوكينغ وولف عما اذا طارد دباً فقال انه فعل، ولكن ليس بعد مصرع صديقه مديسن دير. وأضاف ان بعض التصرفات تلائم الاحداث، وان رؤية صديقه يموت أمامه جعلته يهرم منذ ذلك الحين.

حجرة الدواء الصالح

مع بلوغي الحادية عشرة نقلنا المخيم الى مكان أبعد في وسط الغابة. ولم يكن ذلك المكان يبعد أكثر من ٢٥ كيلومتراً عن البيت. الا أن أحداً لم يتجرأ على قطع تلك المسافة، خصوصاً بعد حلول الظلام، سوى ستوكينغ وولف. وكنا من وقت الى آخر نقضي أياماً مع أهل ريك أو مع أهلي. ومرة اجتمع أهله وأهلي حين تأخرنا يوماً واحداً عن العودة لأننا غفلنا عن الوقت.

ومن السهل جداً ان ينسى المرء

مرور الزمن وهو في الغابات. فهناك أشياء لا تحصى تواجهك بالدهشة وتدعوك الى تحريّها ومعرفتها. وبقينا نحو سنتين نقصد المكتبة العمومية في بينتشوود ونحن نجرّ وراءنا النماذج البرّية لمقارنتها بما جاء في كتب العلوم الطبيعية. وكانت المرأة المسؤولة تصاب بالذعر كلما رأت الحشرات تزحف على صفحات الكتب حتى نعثر على الرسوم التي تجاريها. وأظن أن الذعر كان يلازمها بعد مغادرتنا خوفاً من أن نكون تركنا وراءنا شيئاً يحمل السمّ أو العدوى.

لكننا لم نتوقف عن حمل النماذج الحية الى المكتبة. وكنت أنقل مختبري الصغير حيثما ذهبت. وهو عبارة عن عدسة مكبرة طولها سبعة سنتيمترات وأنبوب لحفظ النماذج وملقط وسكين. وكنا نبدو، بالنماذج التي نحملها، كأننا رواد عائدون من كوكب الزهرة. ولم نكن نمشي من البيت الى المخيم الا ونتعلم بضع حقائق جديدة كل مرة.

وكنا نعدّها أعياداً تلك الايام التي يأتينا ستوكينغ وولف الى المخيم أو يخرج للتنزه معنا. واذا قال: "سآتي اليكما يوم الجمعة للبقاء أياماً في المخيم" كنا نقضي الوقت بين الاثنين والخميس ننظف داخل المخيم وخارجه. وطالما شدد صاحبنا على أهمية العيش على الارض من غير تدنيسها.

وقد أطلق ستوكينغ وولف على المخيم اسم "حجرة الدواء الصالح"، لكنه لم يوضح البتة ما يخفي هذا الاسم وراء معناه الظاهري. ولكن من ملاحظة المواقف التي استخدم فيها العبارة يمكنني القول ان الدواء الصالح، بالنسبة اليه، كان يشير الى أي خبرة يمكن أن نعتبرها هبة من الروح الذي يسري في جميع الاشياء.

أما مخيم الدواء الصالح فقد دلنا عليه نسر. وكانت تقوم وراءه شجرة صنوبر فلعها البرق وشققها النمل الابيض حتى لم يبق فيها سوى نصف جذعها وغصن رئيسي واحد. وكانت تلك الشجرة في ذاتها تكفي دليلا على الدواء الصالح، اذ انها ضُربت ولم تُهزم. ولقد أحببتها من النظرة الاولى. وكانت يابسة ومتآكلة ولم يبقَ سوى نصفها، لكن ذلك كان كافياً لتقف أمام الطبيعة وقفة تحد.

وفيما نحن تحتها نحاول تحديد البقعة الصالحة لاقامة الحجرة سمعنا اصطفاق أجنحة. ونظرنا الى فوق فرأينا نسراً على الغصن الاخير المصوّح ووراءه الشمس. ولبث النسر قليلا ثم طار. وراقبناه بانشداه. وكنتُ أتوقع أن يسرق الشمس بمخلبه ويهرب بها بعيداً. ووقفنا بلا حراك نراقب طيران النسر. ولم تساورنا الشكوك بعد ذلك حول مكان اقامة المخيم.

وبنينا الحجرة بعناية فائقة وبالقليل من الادوات. وكان لدينا مطرقة ومنشار قديم بليت أسنانه وعسر استخدامه على سوانا. وكان أبي علّمنا مزاوجة الاخشاب. ورحنا نقطع الواح الارز حتى رفعنا الجدران، ثم جعلنا فوقها سقفاً مائلا الى الوراء. ووضعنا فوق السقف

حصيرة من شجيرات الارز ورمينا عليها أغصان الصنوبر وذرونا فوقها التراب لسدّ الثقوب. وبعد وقت نما العشب هناك.

وأقمنا اطاراً حول الحجرة لمنع تسرب الماء. وعلقنا العشب بالجدران ودليناه من السقف. ولما انتهينا بدت حجرتنا أشبه بالقلعة منها بالكوخ.

الطين الأسود

بُنيت حجرة الدواء الصالح بالقرب من بركة كانت تجري منها ساقية وتخرج الى خلاء مقطوع الشجر. وأخذنا ما تبقى من شجرتي أرز وأقمنا جسراً فوق الساقية. وفيما نحن نبني الجسر فكرنا في اضافة منصة للمراقبة.

وهكذا جعلنا في أعلى الساقية منصة من ألواح الخشب تصل بين الضفتين. ووضعنا عليها مقاعد من خشب وأحطناها باطار. ومن هناك أمكننا أن نرى الساقية والبركة.

وكنتُ وريك عصر يوم ربيعي جالسين هناك نراقب غروب الشمس خلف أشجار الارز. وبرزت ضفدعة خضراء أمامنا كما لو كانت رسولا من قاع الساقية. ووقفت الضفدعة قليلا خارج الماء وهي تحدّق إلينا قبل أن تقفز الى جذع بشجرة. وبقيت هناك هنيهة ثم قفزت في الهواء ولم تبلغ الماء. فقد اعترضتها سمكة كبيرة من الكراكي والتهمتها.

وبدا ذلك أغرب ما يمكننا رؤيته. ورحنا نقفز ويضرب أحدنا الآخر على ظهره كما لو كان كل ما حصل من تصميمنا. وفجأة سقط ريك على حافة المنصة فانكسرت به وهوى. وغرزت رجلاه في الوحل. وكانت السقطة من القوة بحيث غرق في الوحل حتى ذراعيه. ونظرتُ اليه وضحكت. وضحك هو معي الى أن حاول الصعود من ذلك الموضع فلم يستطع.

وكان جيب الوحل الذي هوى فيه ذلك الجزء من الساقية الداخل في اليابسة. ويبدو أنّ أخدوداً كان هناك أصلا، وأن الماء ملأه عندما فاضت الساقية خارج الضفة. وظلت الاوراق الذاوية والطمي تتجمع حتى امتلأ الاخدود بالطين الاسود.

وتلوى ريك قليلا ثم قال انه يتلمس القاع بقدميه فلن يغرق أكثر من ذلك. الا انه لم يتمكن من الصعود، وكأنّ ثمة قوّة تشدّه الى أسفل.

وحاولتُ طوال ساعة إعتاقه، ولكن من غير جدوى. وازداد قلقي مع غياب الشمس. وهبط ريك نحو ثلاثة سنتيمترات أخرى، وخشيتُ مما قد يحصل اذا هو استسلم للنوم. ولم أجرؤ على تركه وحيدا والذهاب طلبا للنجدة. وحجبتُ عنه ظني لئلا يزداد خوفه، وهو أنه كان واقفاً ليس على القاع بل على لوح خشب، وأن الانزلاق عنه يعني الغرق.

وما لبث ريك يقول: "يجب أن أتحرّر من هذه القوّة الجاذبة." وذكرني كلامه بخبر سمعته قبلا عندما انزلق فتى في البركة القريبة من منزل ريك. وعلق مثلما علق ريك، وظل رجال الاطفاء نصف ساعة يحاولون رفعه عبثاً حتى فكر أحدهم في مدّ خرطوم ماء الى رجليه. فرفعه ضغط الماء القوي الى فوق.

ولم يكن لديّ خرطوم ماء، لكنني فكرتُ في القفز الى الساقية وتحريك المياه عند رجلي ريك. وهكذا كان. واستطاع صديقي أن يطفو بعدما يئس من حاله.

وعندما أصبح على الضفة قفز الى الماء لنفض الوحل عنه. وبعد ذلك خلع كل منا سرواله ووضعه خارجا ليجفّ، وذهبنا الى النوم ونحن نعرف ما الذي علينا فعله صباحا. وانطلقنا باكراً نحو غايتنا. وكنا ندري ان الورطة التي نجحنا في الخروج منها كان يمكن ان تستغرق يوما بكامله. وقد اخبرنا ستوكينغ وولف ان الطبيعة لا تؤذينا البتة اذا نحن جاريناها ولم نفتح للرعب بابا الى نفوسنا. وكان عملنا كله قائما على صحة هذا الرأي الذي بدأنا اختباره مع ذلك الحادث.

وهكذا توجهنا الى منصة المراقبة وقفزنا منها الى الوحل. وبعد نصف ساعة من الخوض في ذلك المستنقع اصابنا ما اصاب ريك قبل يوم. وامضينا ثلاث ساعات للخروج من هناك، ولكن امكننا بعدها ان نشرح الطريقة بعبارات بسيطة لكل من يسأل عن الامر. والواقع ان كلا منا راح يحرك احدى رجليه الى الوراء ثم الى الامام بحركات قصيرة ولكن قوية، حتى تولّد الضغط الضروري للارتفاع. وأردفنا حركة الرجل بحركة من اليد.

وقفزنا مرة أخرى الى الماء لمحاولة تحسين طريقتنا. ولكن بدا انها قائمة على قواعد أساسية غير خاضعة للتعديل. وأظنّ اني لجأت الى تلك الطريقة أكثر من عشر مرات بعد ذلك



الحين للخروج من المستنقعات الصلصالية.

وخرجنا من الوحل آنذاك وقد اسودّ جَسَدانا ووجهانا. والتقطنا أوراق الشجر وألصقناها على الوحل ثم سرنا نحو الطريق الرئيسية. ووقفنا على جانب الطريق لنحصي الناس الذين يمكن أن يلاحظونا، الا ان أقلية منهم التفتت إلينا. وقد أسرع هؤلاء خوفا من أن نكون من قطاع الطرق.

الريح الباردة

لا يستطيع المرء أن يجلس لمراقبة الثلج يلتفّ حول جذوع الصنوبر أو أن يقف وسط بحيرة متجمدة وهو ينظر الى النجوم تلتمع فوقها، اذا كان يخشى البرد. ولا هو يقوى على مشاهدة شمس يناير (كانون الثاني) وهي تذيب الجليد عن رؤوس الاشجار أو على فهم تحركات الغزلان البطيئة في ذلك الفصل.

أما نحن فكنا نودّ رؤية تلك الاشياء. وكان ستوكينغ وولف يعشق البرد. وكنا نحن الثلاثة في حجرة الدواء الصالح حين أقبل الميلاد وأدبر. ووقف ستوكينغ وولف يتلو صلاة العام الجديد على مسمع الغابات وذلك الروح الكلي الذي يسري في جميع الاشياء. وكان الطقس باردا بعد هبوب نسيم دافىء ينذر بوشوك العاصفة الثلجية. ولم نعرف أنا وريك أنها ستأتي قوية هوجاء، ولكن أظن أن ستوكنيغ وولف عرف ذلك.

ورحنا نتملقه لكي يقصّ علينا حكاياته. الا أنه ظل صامتاً كما لو كان يصغي الى أصوات نعجز نحن عن سماعها. وبدا أنّ افكاراكثيرة بلا كلمات تضجّ داخله. وحين باشر التعبير عنها راح يتحدث بشفتيه ويديه وكيانه كله. وقال: "نحن على عتبة سنة جديدة. لقد أبليتما حَسنا في أمور كثيرة. لكن ثمة أمورا سواها ينبغي فعلها... اخلعا ملابسكما."

ونهضنا بسرعة. وخلعتُ سترتي ووضعتُها على قدمي ستوكنيغ وولف. لكنه لم يبتسم. ثم خلعتُ كنزتي أيضا، فلم يحرّك ساكنا ولا هو أشار بالتوقف. وعندئذ نزعتُ عني القميص الداخلي وأحسستُ لسع الريح على ظهري. ووقفتُ أرتجف، الا أن ستوكينغ وولف ظلّ منتظرا. وخلعتُ سروالي ووقفتُ أمامه بالسروال الداخلي.

وفيما أنا أنظر الى ستوكينغ وولف وهو يطوي ملابسنا بكل ترتيب ويضع القطعة فوق الاخرى، عرفتُ أن أمراً مهماً على وشك الحدوث، وأنه من الامور التي لا تبقى حياة المرء بعدها مثلما كانت قبلها. ومدّ ستوكينغ وولف يده الى حقيبته وأعطى كلا منا سروالا قصيراً ليلبسه. وسمح باستبقاء حذاء المطاط الخفيف.

وهزّ رأسه فجلسنا. وقال: "الريح الباردة هي أخ لكما. لكنكما عاملتماها كما تعاملان عدوّاً. واذا قطعتما المسافة الى البيت كما أنتما، فلن تشعرا بلسع الريح بعد الآن."

وفتح ستوكنيغ وولف الباب وتسللت الريح الباردة على الفور. ونظرتُ خارجا فاذا بالثلج يتساقط في كل مكان. وخرج مدرّبنا وأغلق الباب وراءه وذهب.



وانتظرنا الوقت الذي يفضي به الى منتصف الطريق ثم خرجنا الى الثلج. وأمدّنا جمال المنظر بالدفء. وانطلقنا في الطريق الطويلة كما لو كان الطقس ربيعا. لكن الريح الباردة كمنت لنا في موضع لم نتوقّعه وأخذ جسدانا يرتجفان. الا أن الدرب ما زالت طويلة، وظلّ الثلج يتساقط فيغطي آثار الغزلان والكلاب ويمدّ طرقا بيضاء بين الاشجار.

وقبل بلوغنا منتصف الطريق أتى عليّ البرد وراح جسمي يرتعد بلا توقف. وضعف احتمالي مع كل خطوة. وما هي الا خمس عشرة دقيقة حتى أخذت أسناني تصطكّ ونحن على بعد ١٢ كيلومترا من منزل ستوكينغ وولف. الا أن الريح الباردة ما انفكت تأمرني أن أتوقّف وأستريح. وأردتُ ان أحدّث ريك بالامر، لكن صوتي خانني.

وبدا أن متابعة الطريق أمر مستحيل. فقد غطى الثلج حذائي وأحسست حريقاً في قدمي مع المشي. والحق انه لو لم نكن ننفذ ما ارتضاه لنا ستوكينغ وولف لكنا قضينا تحت الريح الباردة والثلج. وعندئذ فكرت في ما قاله لنا، وهو أن الطبيعة لا يمكن أن تؤذينا اذا صرنا واحداً وإياها. وهكذا كففت عن تحدّي البرد. وعلى الفور انعكست الآية، وبدأت الريح الباردة تضحك من خلل الاشجار وهي تنفخ الثلج في طريقها فينزل عن الغصون. ولم أشعر بالبرد بعد ذلك.

وأسرعنا قليلا علّنا نصل الى المنزل ونخبر ستوكينغ وولف بالمغامرة. وبلغنا المنزل ونحن نركض ونضحك ونغرف كتل الثلج ويرميها واحدنا على الآخر. وهمدت الريح قليلا وأسرعنا الى الداخل. وكان البيت دافئاً، واستقبلنا مدرّبنا بالابتسام وأعطانا ثيابنا. ولم أعرف البرد الحقيقي منذ ذلك اليوم.

شيطان جرزي

هكذا كان يختبرنا ستوكينغ وولف. وهو واجهنا بالامتحان الأهم عندما كنا في الثانية عشرة. وكان في الغابات موضع سميناه "الجحيم" لخلوّه من الماء. لذلك كان الاستكشاف هناك أعسر منه في المواضع الاخرى. ولا يمكن المرء أن يقضي الليل بملء ارادته في "الجحيم".

وأكثر ما أرعبني في ذلك الجزء من الغابات ذلك الكائن الضخم المكسو بالشعر والمسمى "شيطان جرزي". وكان التفكير فيه يملأني خوفاً. لكني استطعت التخلي عن خوفي عندما كنت أخيم مع ريك أو انطلق وحدي بين الاشجار. ولم أخيم وحدي ذلك الحين سوى مرة واحدة.

وأخبرنا ستوكينغ وولف أننا لو خيمنا في "الجحيم" أسبوعاً واحداً ومع كل منا سكينه، لما أخافنا شيء البتة بعد ذلك. وأعطانا تعليمات صارمة حول البقعة التي ينبغي التخييم فيها والمعابر التي يجب اقتفاؤها. ودلنا على موضع خارج "الجحيم" فيه ساقية نستطيع صيد السمك فيها وانتشال الماء منها، لكنه شدّد علينا لكي ننصب خيمتنا وسط المكان المرعب ونحاول استكشافه.

وحدّدت لكل منا طريقه المختلفة تماما عن طريق الآخر، وإن تكن تنطلق من الموضع نفسه عند شجرة صنوبر ضخمة ثم تفضي اليه. وتقرّر أن يلاقينا ستوكينغ وولف في اليوم الثامن. وتمنى كل منا الحظ السعيد لصاحبه وانطلق في سبيله.

كان ذلك في أواخر شهر يونيو (حزيران) بعيد انتهاء السنة الدراسية. وكان التخييم سهلا وكانت المعابر المؤدية الى الماء جميلة وتغري بالاستكشاف. الا أن الليالي كانت صعبة.

وأجّدت إضرام النار، يحدوني على ذلك خوفي من مكوث الليل وحيداً مع شيطان جرزي. وفي الليلة الثالثة سمعت غصناً يتكسر، وقلت لنفسي

ان ذلك الصوت آت من كائن يمشي مستقيماً، ونهضتُ للحال والسكين في يدي، ورأيتُ خلف النار كائنا يتحرّك، وهو ليس بغزال أو سواه من ذوات القوائم الاربع، ولم أشكّ في أنّ ذلك الكائن إن هو الا شيطان جرزي لكنه اختفى قبل أن أتمكن من تبيّن ملامحه، واختفى الصوت في ما تبقى من تلك الليلة.

ولما طلع الصباح بدا لي أن ما حدث أشبه بالحلم منه بالحقيقة، وعاودتني لذّة العيش، ومع اقتراب الظلام شغلتُ نفسي باعداد العشاء، وطهوتُ لحماً محشواً بالرز في هيكل سلحفاة قبضتُ عليها خلال يومي الاوّل في "الجحيم"، ورحت آكل على مهل وأتظاهر بأنني لا أرى الظلام يلف كل شيء.

وظهرت النجوم كما ظهر جانب من القمر، وبقيتُ وقتاً طويلا أُلقم النار بمقادير صغيرة من الاوراق اليابسة والاغصان، وفجأة سمعت صوت غصن فوق رأسي، ولم أدر أني وقفتُ الا حين وجدتني على قدميّ، وقبعتُ هناك والسكين في يدي والعصا في اليد الاخرى وأنا أنظر في الجهات الاربع بحثاً عن المعتدي، وأحسست حراكاً بين الشجيرات ووقع خطى في اتجاهي، وتجمدت اوصالي، ثم رحت أقفز في كل اتجاه وأنا الوّح بالسكين مهدّداً، ولم أتبين من ذلك الكائن سوى شبح ضخم أسود آت من بين الاشجار وحوله هالة بيضاء مخيفة، وأدركتُ انه شيطان جرزي.

وصرختُ فيه، لكنه دنا أكثر، وما هو الا قليل حتى لاصقني بحيث لم أستطع الهرب، وإذ ذاك حدث ما يشبه المعجزة، فقد خرج خوفي من الداخل واستحال غيظاً مجنوناً، ولم يكن غضبي سوى الوجه الآخر للخوف، وانقضضت وسط الظلام ملوحاً بالسكين وبالعصا وأنا أزعق أكثر فأكثر كلما تقدّمت.

الا ان ذلك الكائن العجيب تراجع من أمامي وأصبح بعيدا عن المتناول، وأظنّ أني طاردته مئتي متر بين الاشجار قبل أن أسقط مرهقا، وأكببتُ على يديّ وركبتيّ لاهثاً وقد تدلى رأسي أمامي، ولم يعد يهمني ذلك الكائن بعدما استنفدتُ غضبي وخوفي، أجل، لم يبقَ ما أخشاه، وأخيراً نظرتُ حولي فلم أجد شيئاً.

وعندما نهضتُ صباحا تعقبتُ آثار الليلة الفائتة، فاذا بخطاي نحو الغابة تدلّ على اهتياج شديد، وإذا بالخطى في طريق العودة الى المخيم تبدو ثابتة واعتيادية، ولم أعثر على غصون مكسورة أو على أثر خلفه "الكائن" الذي طاردتُه.

وعدتُ الى المخيم وتأملتُ في الامر طوال النهار، أجل، لقد رأيت شيئاً، لكنني لم أعثر له على اثر، ولو كان ذلك الكائن ستوكينغ وولف، لكنتُ مررتُ على آثاره أو على علامة تقول انه جاء ليتفقدني.

لكنني لم أجد أيّ اشارة الى أن أحدا كان هناك، ولم أتبين سوى آثاري، وعرفت أن ما رأيته كان ما زينه لي خوفي الذي استمسك بي ثم فكّ قبضته عني وتوارى.

وهكذا زال خوفي وسهلت إقامتي.

وغفوتُ الليل كله من غير أن أسمع صوتا، لا من العالم الخارجي ولا من أحلامي. ونمتُ بين أحضان أحاسيسي الطبيعية وأنا على يقين من انها لن تخذلني بعد ذلك الحين.

ولما جاء اليوم الثامن كان في استطاعتي أن أبقى سبعة أيام اخرى أو سبعين يوما. ولقد استطعتُ البقاء وحيداً حتى لم أشأ العودة. الا أني في اليوم الثامن حملتُ السكين. وأعدتُ الى مخيمي صورته الاولى وانطلقتُ نحو شجرة الصنوبر حيث كان ستوكينغ وولف ينتظر.

هدية الموت

عندما كنا نطارد الحيوانات كانت أحيانا تسمع وقع خطانا أو تشمّ رائحتنا. لكني لا أظنّ أن أياً منها رآنا نتقدم نحوه، في ما عدا الغزال. فهو يتمتع بحاسة نظر قوية وبحاسة شم أقوى. لكن الاقوى من هذه وتلك حاسة السمع لدى الغزال. وهو يتمتع بحسّ خارق لما يحدث حوله في الغابة.

هذه الخصائص لدى الغزلان تتيح لها وضع الحيوانات المعتدية موضع الاختبار. وهي كانت اختباراً لي ايضاً عندما خرجتُ لصيد احدها وليس في يدي إلا السكين. وظللتُ أطارده اسبوعاً حتى بات وقوعه في يدي محتوماً.

وجلست على شجرة صنوبر ورحت أقطع الاغصان الشائكة بسكيني. وبعد ذلك ساعدني ريك على جدل قضيب من الاغصان جاء أقوى من سوط المطاط.

وكان غصن الصنوبر يهتزّ قليلا كلما تحرّكت. وذلك أثار الخوف في زرياب أزرق على شجرة مجاورة، فأحدث جلبة من شأنها ترويع الكائنات الاخرى وحملها على الابتعاد. واذا لم يألف الزرياب حضوري طوال النهار، فلا بدّ من وجود شجرة أخرى على درب الغزلان.

ولم أشأ حقاً أن أبقى على الشجرة. لكني قدرتُ أن ذلك ضروري لتحقيق هدفي. وكنا عقدنا العزم على البقاء طويلا في الغابات. لذلك كانت حاجتنا كبيرة الى اللحم. وما يفيض عنا في الغاب يمكن استهلاكه بعد عودتنا الى البيت. ولم أجد ضيراً في قتل الحيوان من أجل الطعام.

لكني بقيتُ متحفظاً حيال هذا الامر. وكان انقضى عليّ يوم بلا طعام، لكن الجوع لم يهدّني. وظلّ في امكاني السير على قدميّ بحثا عن طعام لو كان سدّ الرمق هو الاعتبار الوحيد. ولكن كان علي البرهان عن رجولتي أيضا.

وتصبرتُ النهار كله. وكان هناك غصن اريح ذقني عليه. أما الزرياب فيبدو أنه اعتاد حضوري أو راقه الهدوء.

ثم حل الفسق، وجاء غزالي بهدوء وهو ينظر حوله كما لو كان يعلمأني هناك. لكنه ما لبث أن وقف تحت الشجرة، فارتميتُ بثقلي عليه.

وراح يترنح وأنا على ظهره وهو يهمّ بالوثوب، غير أني رفعتُ رأسه بقرنيه وطعنتُه في صدره. وعاجلتُه بطعنة أخرى جعلته يتلاشى. الا أن نزعه استغرق طويلا حتى ظننتُه لن

ينتهي. وسحبتُ السكين من صدره وغرزتُه في بلعومه. لكن ذلك لم يكن كافياً. وأدركتُ انني أمام غزال خارق.

وراح يرفس الارض بقوائمه ويلوي رأسه ذات اليمين وذات اليسار وهو يوجه قرنيه نحوي. وهممتُ بالنزول عن ظهره، فوثب حول قدمي وكأنه يحاول الوقوف عليهما. ورفسني مرّتين قبل أن أطرحه أرضاً وأوسعه طعناً.

وأحسستُ اذ ذاك أن يديّ تتحرّكان بضراوة، وعرفتُ كيف الغابات تجرّ الكائنات جرّاً الى لعبة القاتل والمقتول. وشكرتُ روح الغابات على إرسالها ذلك الخصم القويّ النبيل ليعلمني درساً ضرورياً.

أما العبرة من قتل الغزال فكانت أن الطبيعة لن تخذلني اذا اضطررتُ الى الدفاع عن نفسي ضد الخطر والمجاعة. وتوليتُ مع ريك سلخ جلده وصنعتُ به رداء كما كان يفعل أسلاف ستوكينغ وولف. وأكلنا بعض اللحم وملحنا البعض الآخر وحملنا جزءاً منه الى البيت. واحتفظنا بالقوائم لنتدرّب بها على اقتفاء الآثار. وصنعتُ خنجراً من قرنه ومن القرن الآخر قلادة لردّ الاذى والشرّ. أجل، لقد استعملنا كل جزء من الغزال مهما صغر. وأجللنا كل ما صنعناه من تلك الاجزاء لأنه كان مثالا على تضحية الغزال من أجلنا.

ومنذ ذلك الحين لم أقتل غزالا قطّ إلا للطعام، ولكن بعُد عجزي عن ايجاد الطعام في مكان آخر. وها أنذا اليوم "أصطاد" الحيوانات بآلة تصوير. الا أن الالم الذي يولده القتل لم يفارقني. وبتُ أعتقد أن الغابة، بحملها الغزال اليّ، إنما أهدت اليّ الموت كيما أتجنب القتل في المستقبل.

على الطريق

درّبنا ستوكينغ وولف أربع سنوات، لكن التدريب في السنتين الاخيرتين غدا قاسيا واستغرق الوقت كله حتى تسنى لنا الانتقال من طور المبتدىء الى طور العامل البارع. الا أن البراعة تكوّنت في مرحلتين، أولاهما لا تعدو كونها منزلة بين الطورين. فالمبتدىء في هذه المرحلة يُعطى المزيد من المعلومات والواجبات، لكنه ينفذها تحت عين استاذه الذي يبدأ الانسحاب رويدا رويدا. أما المرحلة الثانية فتقضي ارتحال صاحب العلاقة وحده على الطريق.

وكنت في الثانية عشرة عندما تجاوزت مرحلة الهواية، وفي السادسة عشرة عندما دخلتُ عالم الاحتراف. في تلك السنة غادر ريك وستوكينغ وولف منطقة الغابات نهائيا. وزرنا كلنا حجرة الدواء الصالح لمرّة أخيرة. وحدّثنا ستوكينغ وولف وهو يرفع يده ليؤكد لنا اننا سوف نتلاقى من جديد، في هذا العالم أو في العالم الآخر. وراح يحرّك يده ليصف لي كيف سيكون العالم بعد مفارقتهما. وأدركت أن الفراق بات محتوماً، لكن غياب ريك أحزنني وقتاً طويلا. وعلى رغم تأكيد ستوكينغ وولف أن الغابة ستحافظ على جمالها

وغناها، الا أن رفوف اليسنونو آثارت أشجاني وأنا أنظر إليها في غياب أخي ريك. ولم يبقَ هناك أحد يشاركني في ذلك الجمال والجلال.

ولدى بلوغي الثامنة عشرة عرفتُ أنه ينبغي الذهاب الى مكان آخر اذا شئت أن أغدو سيداً في ذلك الفنّ، على رغم أن غابات الصنوبر ظلت تمدّني بالجديد يوماً بعد يوم، وطوال السنين العشر التالية أمضيتُ معظم فصول الصيف في أنحاء مختلفة من الولايات المتحدة لتعزيز خبرتي. فذهبتُ الى قفار داكوتا الوعرة والى وادي الموت والوادي الكبير وجبال التيتون. وزرت الغرب للمرة الاولى وأنا في التاسعة عشرة، وذلك بايقافي السيارات العابرة لتأخذني. وعندما ذهبتُ الى كاليفورنيا أمكنني أن أرى معظم الولايات الاخرى في الذهاب والاياب. وفي بنسلفانيا نمتُ في حظائر الماشية وفي الغابات، كما نمتُ في حقول أوهايو وانديانا.

أما قفار داكوتا فهي اراض قاحلة ولكن جميلة، تملأها الاخاديد والصخور الملوّنة. والمشكلة الكبرى هناك كانت الماء. وعانيتُ الجوع او العطش، أو الاثنين معا، معظم الوقت، ولكن من غير أن أتجاوز طاقتي. ومع تعوّدي شظف العيش هناك بتّ أرغب في المكوث طويلا لاكتشاف الكثير من الاشياء الجديدة الفاتنة.

وبعد ذلك ذهبتُ الى وادي الموت. وتركتُ سيارتي مع هندي أحمر يملك محطة وقود، وقلت له اني سأبقى في تلك الصحراء ستة أسابيع، واني اذا لم أعُد بعد تسعة أسابيع فربما أكون قضيتُ في ذلك المكان. وتنهد وقال: "لا تقلق، اذ انك لن تستطيع الصمود هذا الوقت كله."

وحملتُ معي بعض المآكل المعلبة الغنية بالبروتيين وسكيناً وقطعة بلاستيك لأصنع بها آلة تقطير (انبيقاً) شمسية يمكن أن تعطيني ليتراً من الماء يومياً في أكثر المواضع جفافاً. وهي تلتقط الماء المتبخر من الهواء وتسكبه في وعاء خاص متصل بها.

وفقدتُ إحساسي بالزمن، وأمضيتُ هناك ثمانية أسابيع بدلا من ستة. وكان في استطاعتي أن أبقى عشر سنين من غير أن أتعلم عن المكان سوى أموره السطحية.

وأكلتُ السحالي والافاعي وبعض الحيوانات الاخرى. لكن أكثر ما أكلته هناك كان الرمل. ولم يكفني الماء المقطَّر، فعرفتُ ظمأ لم أعرفه في قفار داكوتا. الا أن الصحراء كانت مفعمة بالحياة والجمال بحيث نسيتُ عَطَشي.

وفي الوادي الكبير أمضيتُ شهراً، ولم أكن أدري أن مكاناً ضخماً وغنياً بتنوّعه كهذا المكان يمكن أن يوجد. وهناك استعدتُ كل ما أعرفه عن اقتفاء الآثار. وفي ذلك الوادي انفتح أمامي تاريخ الارض، حتى متى بلغتُ قاعه كنتُ خلفتُ ورائي ألفي مليون سنة.

أما جبال التيتون فذهبتُ اليها مرتين في تجوالي. والحق انها تبزّ في جمالها الوادي الكبير وكل مكان

آخر، بما في ذلك غابات الصنوبر. وكنتُ شاهدتُ السلاسل المتصلة في جبال روكي وظننتُني لن أبصر شيئاً في روعتها. غير أني وقفتُ مذهولا أمام جبال التيتون وهي ترتفع من السهل.

ثمة مشاهد تسخفها آلة التصوير، والوادي الكبير أحدّها. فهو من العرض والعمق والجلال بحيث لا تلتقطه عدسة. والكلام نفسه يقال على جبال التيتون. ولئن تكن ثمة جبال تفوقها ارتفاعا، الا أن أياً منها لا يضاهيها جمالا. وقد بدت لي كأنها مصنوعة من الغيم، وعلى ناحيتها الشرقية اختلط نهر الافعى بالشلالات وتحدّر بين الصخور في طريقه جنوبا وبدا مثل كائن حيّ.

واكتريتُ حصانا وبقيتُ في تلك الجبال الصيف بطوله. واذا كان من مكان يذهب اليه عشاق الطبيعة بعد الموت، فيجب أن يحاكي جبال التيتون. وجلتُ فيها وأنا أتسلق القمم وانحدر في محاذاة نهر الافعى حيث وجدتُ السياح المسحورين بتلك العظمة في قوارب كبيرة من مطاط.

وبدا النهر حديقة حيوان مفتوحة. وفيما أنا أسبح في مياهه كنت أرى حيوانات الموظ الضخمة ذات القرون على ضفتيه، والقنادس تجذّف بالقرب مني، والاسماك تقفز في هواء الصباح العليل.

ولما خرجتُ الى الضفة وقطعتُ نحو خمسين مترا وقعت على آثار حيوان من الموظ. وقلتُ لنفسي اني سأبقى هناك حتى يعود أو يعود الشتاء. لكني لم أنتظر أكثر من ساعة بالقرب من معبره. ولما جاء لم أصدّق أنه على تلك الضخامة. وكأن رأسه وحده في حجم حيوان. وأدهشني حجم جسمه وجعلني أخرج نحوه وألمس خاصرته. ولم أستطع أن أتبيّن شيئاً وراءه. وأسرعتُ الى الاختباء وأنا أتمنى ألا يكون رآني. وحين ولى عدتُ الى النهر. الا أن النهر لم يبقَ هو هو ولا أنا ذلك الشخص عينه. فقد عدتُ مليئاً بالاجلال أمام أسرار الطبيعة.

طريق تومي

أخيراً عدتُ الى نيوجرزي. وما لبث الناس يسألونني طوال السنين العشر الماضية لماذا لم أدخل الجامعة أو أرتبط بوظيفة ثابتة تقتضي الحضور بين التاسعة صباحا والخامسة مساء، ولماذا أضعتُ وقتاً طويلا وسط غابات الصنوبر. وذلك جعلني أتساءل عما اذا كانت حياتي حقاً مضيعة وقت وعما اذا كنتُ استعضتُ بالهواية الممتعة عن العمل الجدّي. وأشار بعضهم الى أن افتقاري لم يقتصر على المال والشهرة، بل تعدّاها الى الامور العادية، إذ لم يكن لديّ مهنة ولا منزل ولا عائلة ولا تأمين على الحياة ولا آلة لجزّ العشب. ورحتُ أتساءل عن هدفي وأبحث عن مكاني في الوجود. الا أن كل شيء تبدّل مع تعقّبي أثر شخص سأسميه تومي.

عندما كان تومي في الخامسة من عمره كان له جسد رجل. وبلغ الحادية والثلاثين من غير أن يخلع حياء الطفل

ذي السنوات الخمس. وكان يحب الخروج الى الغابات مع أبيه، ولكن أباه لم يكن يجد وقتاً لمرافقته. وذات يوم أحد جهز تومي طعام الغداء وارتدى سروالين وكنزتين وحمل كنزة أخرى معه، كما حمل حذاء اضافيا. وأخذ معه بعض أشرطة التسجيل خوفاً من أن يشعر بالوحشة.

ولما جاء يوم الاثنين كانت هناك طائرة مروحية وعدد من الكلاب البوليسية ونحو خمسين شرطياً وجندياً واطفائياً ومتطوعاً في مهمة لتمشيط المنطقة بحثاً عن رجل متخلف تاه في الغابات. ونشرت الصحف قصته وتكلمت عن حظه الضئيل في الصمود وسط الليالي الباردة.

كان ذلك في مطلع شهر مايو (أيار)، لكن الطقس ظل باردا كعادته في نهاية مارس (آذار). وهبطت الحرارة مرتين الى درجة التجمّد وانهمر المطر مراراً. وفي اليوم الرابع أعلن الباحثون اخفاق مهمتهم.

وعرفتُ بالامر ذلك الصباح، واتصلتُ بدائرة الشرطة عارضاً الخدمة. وقال لي الملازم المسؤول انه مسرور بتطوعي وانهم يحتاجون الى أي مساعدة ممكنة. لكنه أضاف: "ينبغي أن تعرف أن عدد الرجال الذين تولوا المهمة لا يقل عن الخمسمئة، وأن امكان العثور على الشاب المفقود ضئيل جداً."

وأعطوني خريطة يظهر عليها منزل تومي. وقيل لي أن الارض المنخفضة في الجنوب الغربي تمّ تفتيشها بدقة. وطلبتُ أن ارى فردتي حذاء له وأن يدلوني على آثاره التي تعقّبوها. وتبين أن أحداً منهم لم يتعقب آثاراً على الاطلاق. واقتادوني الى طريق قدّم قيل ان جاراً شاهد عليها تومي للمرة الاخيرة.

وأخذت تمطر من جديد وتُركتُ وحيداً. وبدأتُ تمشيط المنطقة المحيطة بالجزء الخلفي من المنزل بحثاً عن آثار. وفي الجولة الثانية عثرتُ عليها. وتأكدتُ من أنها آثار تومي بالذات لأنها تحمل حجم قدميه، وفي الوقت نفسه تدلّ على أن المشي حصل وثباً أو طفراً على نحو غير موزون. وانحرفت الآثار تسعين درجة عن الطريق، ومنها نزولا الى المنطقة التي فتشها الرجال. وقادتني الآثار الى غابة كثيفة اعتاد تومي أن يتنزه فيها مع والده.

ودلت الآثار على أن رحلة تومي تمت كلها باجهاد. فالاشجار كانت كثيفة وقد تخللتها شجيرات أكثر منها كثافة ارتفعت منها أغصان شائكة حتى مستوى الخصر. ولوكنتُ أسعى وراء آثار، لرحتُ أقفز على أربعتي وقد أنحنيتُ حتى ألامس الارض، وفعلتُ ذلك كله بسهولة. الا أن الآثار التي وجدتُني أمامها كانت أصعب من كل ما عرفته قبل ذلك الحين، ولم أجد بدّاً من ابتكار منطق خاص لقراءتها. غير أن منطق تومي كان مزيجاً من العقل وتقلّب المزاج وفهمه بالتالي ليس بالامر البسيط.

وابتسم لي الحظ من أحد جوانبه، إذ كانت الارض التي أطأها مبلّلة باعتدال، اي الى الحدّ الكافي

للمحافظة على آثار الخطى وقتاً طويلا على رغم تساقط الرذاذ، وكانت الساعة الثامنة مساء عندما باشرتُ العمل، ولم أخرج من الغابة الا وسط الظلام الحالك.

ووجدتُ قنّ دجاج على طرف الغابة، وعندما نظرتُ اليه تبيّنت علامات تشير الى جلوس تومي على القش. وافترضتُ أنه بلغ الخمّ المهجور نحو الرابعة من عصر الاحد، وأنه نام هناك بضع ساعات.

وزحفتُ خارج الخمّ واقتفيتُ الآثار علها تدلني على ما حصل بعد خروج تومي من هناك، وعثرتُ بسهولة على بغيتي. فالآثار تتجه جنوباً من الخمّ. لكن الظلام كاد أن يطبق على المكان، وأخذ القلق طريقه إليّ. وانحدرت الارض تدريجاً من قن الدجاج الى بقعة سبخة، واذا استمرّ سقوط المطر، فلن تبقى آثار الاقدام حتى الصباح. لذلك آثرتُ المضيّ قدماً، ورحت أدبّ على الاربع كما تفعل الحيوانات، وهذه الطريقة هي الاسرع والاقلّ إجهاداً في الغابات الكثيفة، والمرء يعتادها مع الوقت. لكن غياب خيوط النور الاخيرة أقلقني.

وكان الظلام خيم على الغابة عندما أفضت بي آثار الخطى الى تلة، ورحت أتلمس تلك الآثار برؤوس أصابعي كما علمني ستوكينغ وولف. ولم أشكّ، وأنا أقيس طول الخطى وعرضها، في أن تومي مرّ من هناك، ويبدو أنه اضطرّ الى غرز قدميه جيداً لانحدار الارض.

ولما بلغتُ قمة التلة وقعتُ أرضاً وأنا ألهث، لكنني عثرتُ على أثر آخر بالقرب من طريق فرعية، وتأكدَ لي أن تومي وصل الى ذلك المكان عرَضاً.

وخرجتُ الى الطريق ووضعتُ علامة على جانبها قبالة الأثر الاخير الذي وقعتُ عليه، علني أتابع طريقي صباحاً من هناك، وعدتُ الى أثر كنتُ وجدته سابقا حيث افترضتُ أن تومي استراح وتناول بعض طعامه، فهو ترك أوراقاً كان يلفّ بها الشطائر، فضلا عن ثياب اضافية وأشرطة تسجيل وضعها بعناية كما لو شاء العودة الى هذا الموضع بعد تعرّفه حسناً الى المكان. وجمعتُ تلك الاشياء وحملتُها الى والد تومي للتأكد من انها لابنه. وثبت الأب صحة نظريتي.

وحين عدت الى محطة الاطفاء حيث تجمع المتطوّعون وجدتُ أنهم انسحبوا باستثناء أربعين رجلا ذهب معظمهم الى بيته لتمضية الليل، وهم أمضوا نهاراً طويلا في الغابات من غير أن يعثروا على شيء، وكانت الاشجار من الكثافة بحيث لا يستطيع الكلب أن يتشمم شيئاً عبرها، وبات معظم الرجال على قناعة بأنّ تومي مات.

وظهرت آثار الرطوبة على ثيابي والخدوش في ذراعيّ، وحدّق الي الملازم من اعلى الى اسفل وقال: "حسناً ايها الرفيق! ماذا وجدت؟"

وفتحتُ أمامه كنزة تومي التي وضعتُ فيها بقية الاشياء وقلت: "هذا ما خلفه من طعامه، وهذه هي كنزته الاضافية وحذاؤه الآخر وأشرطة

التسجيل التي حملها معه. انه حي. وهو أمضى وقتاً في قن دجاج، وهناك تناول بعض شطائره."

وازداد الصمت مع كل شيء جديد كنت أضعه على الطاولة. وبدا أن الصمت دام ساعة كاملة قبل أن يهزّ الضابط رأسه وهو لا يصدّق ما يسمع. وفهمتُ موقفه حين تصوّرتُني مكان أولئك الرجال الذين عملوا نهارا كاملا في إشرافه.

وسألني الملازم وأنا أخرج عما اذا كنت أحتاج الى شيء. وحين أجبتُه بالنفي اضاف انه سيعطيني صباحا جهاز اتصال لاعلام سائر أعضاء الفريق بمكان وجود تومي. وبدا لي أن الشكّ زال من وجهه.

آخر الطريق

الصباح التالي كان المطر ينزل رذاذاً، لكنه توقف عند الظهيرة. وتبين لي أن الآثار ستفضي بي الى مكان ما، لكني اضطربتُ لمرور وقت طويل نسبياً على رحلة تومي.

وامتدّت الآثار على خط مواز للطريق. وفيما أنا أتبعها وقفتُ عند نقطتين أخريين بدا أن تومي استراح بالقرب منهما. وربما اختبأ حين سمع جلبة الرجال الذين يتعقبونه، كما دلت الآثار هنا وهناك. ولا بدّ من أن يكون الخوف تملكه حين سمع أولئك الغرباء جميعاً ينادونه فيما كلابهم تنبح والطائرة المروحية تهدر فوق المكان كما لو كانت تتعقبه. وهو قطع طريقاً مرصوفة بالحصى في وقت متقدم جداً من النهار. وأمضيتُ نصف ساعة وأنا أرسم تقدمه نحو الجانب الآخر من الطريق. وقادتني آثاره من هناك الى منزل وسط مزرعة.

وكان وراء ذلك المنزل قن دجاج آخر ومربط خيل. واقتفيتُ الخطى الى الخمّ، فوجدتُ علامات تشير الى أنه نام على القشّ في الداخل. ومن هناك أخذتني خطاه الى مربط الخيل. لكن الآثار بين قنّ الدجاج وزريبة الجياد أظهرت أن تومي ركض بين الموضعين جيئة وذهاباً على نحو مذعور وقد جلس القرفصاء هنا وهناك.

كما بينت لي تلك الآثار أنه ربما أمضى أيام الاثنين والثلثاء والاربعاء في ذلك المكان، مما يعني أنه قبع في مربط الخيل اتقاء للبرد، اذ هبطت الحرارة الى درجة التجمد.

ومع ادراكي أن العثور على تومي بات وشيكاً فقد أخذ قلقي يزداد. وما لم نجده قبل حلول الظلام فهو سيقضي الليل في العراء، وربما لم تبق له القوّة على الاحتمال. وبدا من آثاره أنه ما زال يحتفظ بمقدار من الحيوية، ولكن مع بعض تعب.

ثم اختفت تلك الآثار عند طريق أخرى من الحصى. ووقفتُ ألهث وقد فقدتُ كل أمل بعدما كنتُ متأكداً من أن ثمرة جهودي أينعت وحان قطافها. ووجدتُ نفسي أمام شبكة كثيفة من الشجيرات والنباتات المعترشة لم أخترق مثلها في حياتي. وأمضيتُ هناك سبع ساعات متواصلة أتى عليّ الارهاق بعدها. وتقطعت أنفاسي وسرى الخدَر في يديّ. ونظرتُ الى طريق الحصى ولعنت



حظي. أهذه هي ثمرة جهودي أخيراً؟ وسقطتُ فجأة على جانب الطريق. وما هي الا دقائق حتى رحت أتساءل عن هدف جلوسي هناك وعما اذا لم يكن ثمة شيء أفضل أفعله سوى التنهّد والاسى. ونهضت وعبرت الطريق، واذا بي أمام خطى تومي من جديد. ونظرت اليها بتهلّل... انها خطى جديدة، ومعناها أني أتعقبه مباشرة.

وزحفت تحت جَنَبة وأنا أطلق صيحة انتصار. واستعدتُ قوّتي الضائعة لعلمي أن تومي يجب أن يكون الآن في متناولي. الا أن ذلك الجزء من الغابة كان عسيراً جداً بشوكه النامي الذي يملأ المكان. لكن تومي لم يقفز فوق الاشواك. ويبدو أنه زحف تحتها كالغزال. وتبعتُه بالطريقة عينها مستخدماً يديّ وركبتيّ. وبما أني كنت أطول منه فقد وخزني الشوك في ذراعيّ ووجهي ومزّق قميصي.

ثم وقعتُ على آثار خطاه في الارض السبخة وقد كاد الماء أن يمحوها. وكظمتُ صحية فرح عندما أدركت أني وراءه مباشرة. وأسرعتُ عبر المستنقع ورأيت آثار الخطى من جديد. لكن الالم انتابني عندما عرفتُ الى أين تؤدّي تلك الآثار.

لقد وقفتُ أمام قطعة أرض يلتفّ فيها الشوك على مسافة خمسين متراً. وتبين لي أن تومي زحف تحت الاشواك، ولكن لا يعقل أن يكون تجاوز الطرف الآخر. واتصلت بقائد الطائرة المروحية وطلبتُ منه أن يقف على بعد مئة متر مني. وبعد ثانيتين هدرت الطائرة. وسمعتُ أحد ركابها يقول عبر المذياع انه شاهد تومي جالساً وهو على قيد الحياة. ثم أمر الرجال بتطويق المكان حول القطعة الشائكة من الجهة الاخرى.

وحلقت الطائرة فوق تومي وأخذ أحد رجالها يناديه بالبوق. ولم أكترث للأمر الا حين سمعتُ أحدهم يقول: "انه يركض! يا للعنة." وكان هناك مكان واحد يمكنه اللجوء اليه، وهو النباتات الشوكية.

وأسرعتُ الى الزحف تحت الاشواك الكثيفة. وأصبحت سترتي البرتقالية مزقاً لدى خروجي من الجانب الآخر. كما تمزق قميصي وملابسي الداخلية وغرز بي الشوك في كل مكان.

ورأيت الرجال يركضون وراء تومي. وتوقف الشاب فجأة عن الركض وسقط على بعد عشرين متراً مني. وانكمش خوفاً وهو يتوقع أن أنقضّ عليه بعنف كما يفعل الغرباء الذين يطاردون فاراً.

وتقدّم اليه الرجال أوّلا وقد سرّهم العثور عليه. لكنهم شاؤوا احكام النطاق حوله خوفاً من لجوئه الى الفرار من جديد. وسحبوه من قدميه، فأخذ ينظر اليّ مثل أرنب بريّ لم يبق أمامه سوى المقاومة بأيّ ثمن. ولما فتح فاه ليزعق عاجلتُه بقطعة حلوى حملتُها في جيبي لهذه الغاية. وهكذا استعاض بالأكل عن الصراخ وتبخر خوفه.

وكفّ عن المقاومة ورفع الجنود قبضتهم عنه. وطوّقني تومي بذراعيه كما لو كان ينتظر طويلا أن آتي اليه لانقذه. وطوّقتُه بدوري، فأخذ يبكي وقد اطمأنّ الى سلامته.

لقد قطع طريقاً طويلة وحده، وصمد حين لم يتوقع أحد أن يصمد. وتجاوز عقبات ظُنّت أبعد كثيراً من قدرته. وتحسّستُ الاطمئنان في نشيجه. وبكيتُ معه لأنه كان هناك، وكان حياً. ولو لفظتُ أنفاسي آنئذ، لقضيتُ راضياً لأني جنيتُ ثمرة السنين التي أمضيتُها في اقتفاء الآثار. وهكذا وجدتُني حيث ينبغي أن أكون.

■ رواية توم براون وكتابة وليم جون واتكينز

وقع حادث تومي في شهر مايو (ايار) ١٩٧٧. وبعيد ذلك تزوج توم براون. وهو يعيش مع زوجته جودي في بلدة آسبوري من اعمال ولاية نيوجرزي.

وفي صيف ١٩٧٧ أسس مدرسة تحمل اسمه لتعليم فن اقتفاء الآثار والصمود وسط الظروف الطبيعية القاسية. ويستغرق التعليم النظري اسبوعين، يعقبهما يومان من التخييم في منطقة غابات الصنوبر. وتقدم المدرسة اليوم برنامجاً متطوراً ينخرط فيه اكثر من الف طالب سنوياً.



الشيخوخة فكرة مجرّدة لا تتحقق ابداً، بل تبقى امامنا على الدوام. م.ف.ب.

كتاب الشهر

سابر الحوت السفاح

ملخص من كتاب
بقلم جيمس لوكاس

سابر الحوت السفّاح

"أورنيكوس أوركا" فصيلة حيتان يعرف واحدها باسم "السفّاح"، وهو حوت طويل أسود ضار تخشاه بقية الكائنات البحرية، من الحبّار (السبيدج) والانقليس الى صنوف الحيتان الاخرى.

ويتمتع الحوت السفّاح بدماغ متطور نسبياً ومقدرة على تحرّي الأصوات والأصداء الى مصادرها. وهو من الحيوانات الثديية الفتّاكة. ولكن عليه ان يصارع من أجل بقائه وأن يظل متأهباً لصدّ عناصر الطبيعة والجوع والبرد وجشع الانسان الذي يكاد فتكه بالكائنات الاخرى يسفر عن انقراض بعضها.

وفي صراعها من اجل البقاء تكشف هذه الحيتان عن ولاء وعطف كبيرين بين افرادها. وهنا يخبرنا العالم البريطاني جيريمي لوكاس قصة أحدها - سابر - وهو حوت ذكر وُلد في المياه الاسكوتلندية العاتية.

و

وحيداً كان طائر النورس يقطع البحر وهو يكاد يلامس ذرى الامواج، متجهاً نحو أرض في الأفق القصي توشحها غمامة ارجوانية. وضجّ في سمعه اصطفاق جناحيه وهدير المياه الدائم تحته.

وبرز طيفان متلاصقان على صفحة الماء. وانشقّ الموج ليكشف عن ظهرين برّاقين. وبانت في كل ظهر زعنفة،وكانت إحدى الزعنفتين أطول من الاخرى وأكثر انتصاباً. وانطلق صوت أجشّ كما من كهف عميق وسط سماء الصباح، فيما الحوتان السفاحان يندفعان بحركة واحدة. وتكثف بخار الماء في أنفاسهما على هيئة قوس غمام يتراقص فوق البحر.

ذلك الفجر وُلد لأنثى الحوت تلك صغير سندعوه سابر. وهو صعد من مهده في قاع المحيط الاطلسي ليأخذ أنفاسه الاولى في هواء الصباح العليل، بينما أمه نايتشادو تدفعه برفق الى فوق. ورويداً رويداً غدا تنفس سابر أبطأ وأقوى، وبات أكثر ثباتاً وسط الامواج الجائشة بعدما تعلم استخدام زعانفه وفصي ذنبه. ولم تسترح نايتشادو الا عندما وثقت من قدرة وليدها.

ودفعت الغريزة الجرو الى تلك الناحية من أمه التي احتاج اليها. وامتلأ فمه بالحليب الوافر وهي تُسمعه صوتها العذب. وعلا صوت آخر استقرّ في سمع الصغير، وهو صوت أبيه أوريون الذي عبر من هناك واختفى وسط الموج.

ولبثت العائلة في ذلك المكان خلال الأيام القليلة التالية التي بقيت من فصل الصيف. واستشعرت الحيتان الثلاثة، وهي تستحم في المياه الراكدة، تفاهة طعم المياه المتجمعة في المضيق الواسع الذي يفصل البر الاسكوتلندي عن جزيرة هبريديس.

وفي الليل كانت الحيتان تتجه نحو أحد الخلجان. وراح سابر الذي بلغ طوله مترين ونصف متر يتجرّع حليب أمه ويصغي الى تكسُّر الموج على الصخور. وبعد ثلاثة أيام بلياليها اكتسب القوة الكافية التي جعلت أوريون يقوده هو وأمه الى فجاج المحيط ثم شمالا عبر مياه الأطلسي الشمالية الشرقية.

وكان ذلك المكان يتميز بتقلّب أطواره ووعورة شاطئه. وكانت تحلق فوقه ملايين الطيور البحرية وتهرع فيه الفقم والدلافين والحيتان لتغتذي على أفواج السمك. وحيثما تجمعت الاسماك، سواء أكان ذلك وسط المياه المزبدة أم في قاع البحر، كثرت الحيوانات الصائدة.

وما لبثت العائلة الصغيرة أن بلغت رأس راث، وهو أقصى نقطة شمالية

غربية في البرّ الاسكوتلندي. وعلى بعد خمسة كيلومترات من ذلك الرأس، حيث المياه ساكنة والصخور كثيرة، استدارت الحيتان شمالا وشقت طريقها بهدوء نحو جزر أوركني. وسبحت في موازاة الشاطىء والمياه تحتها على عمق ثلاثين قامة (نحو ٥٤ متراً). وكان أوريون بين الحين والآخر يغوص الى القاع بحثاً عن طعام.

وغدا البحر هادئاً في ضباب الخريف، وتفرّقت قطعان السمك جنوباً، وتبعتها الطيور التي أخذت تغادر الأجراف يوماً بعد يوم. ولزمت الحيتان الضارية مكانها طمعاً في الفقم التي لم تغادر مستوطناتها بين صخور الشاطىء في ذلك الوقت من السنة، وطمعاً في الحيوانات المائية الأخرى. والذي أبقى أوريون هناك حسه بالمسؤولية تجاه صغيره، وهو سيبذل ما في وسعه لتأمين الغذاء لعائلته خلال أشهر الشتاء القاسية، حتى اذا جاء الربيع بات الغذاء أوفر والعيش أسهل.

معركة بقاء

تجمعت كتل الغيم السوداء الضخمة الآتية من الغرب وأسرعت النوارس الشاردة نحو الشاطىء فيما المحيط يتمخّض عن امواج هائلة، وفجأة التمع البرق على سطح الماء واختلط مع الريح المجنونة.

ولدى انفجار العاصفة كانت الحيتان الثلاثة وحدها وسط الامواج الطويلة المزبدة في عرض البحر. وراح سابر يلهث، وهو لما يبلغ الاسبوع، محاولا الارتفاع فوق الموج. وبقي أوريون ونايتشادو الى جانبيه لحمايته، وحاول أبوه ابقاءه عالياً، فيما دعته أمه الى الغوص وصوتها يغور في هدير العاصفة.

وأخذت الحيتان تقاوم العاصفة بضراوة وهي تتجه نحو جزيرة أوركني المنبسطة على بعد كيلومترات في مهب الريح. ومن كل ناحية كانت الفقم والدلافين والحيتان تتوافد على الجزيرة، كذلك الصيادون والسفن الحربية التابعة لحلف شمال الاطلسي، وهي تحاول بلوغ خليج سكابا في قلب الجزيرة الذي ظلّ ملاذاً للمسافرين منذ فجر التاريخ.

وبلغت العاصفة ذروتها مع هبوط الليل. وفي تلك الأثناء نفدت طاقة سابر على الاحتمال، فأوكل أموره كلها الى أبويه. وتناوب أوريون ونايتشادو العمل طوال الليل لحماية وليدهما من العاصفة. وتحت شعاع الفجر الاول حملاه ونشدا الامان في خليج سكابا.

هكذا اختبر سابر الشدائد في بحار الشمال. وظل طوال ذلك الشتاء يراقب أبويه وهما يصطادان الفقم والدلافين، أو يتبعهما الى حطام السفن وسلاسل الصخور في قاع البحر حيث يطاردنان كل ما يسدّ الرمق من انقليس وقد وكركند وسواها. ولما كان سابر لا يزال صغيراً على الصيد أو التهام الحيوانات البحرية النافقة، فهو كان يملأ بطنه على الدوام من حليب أمه.

ونما سابر سريعاً ولم يعد يخشى أكثر البحار عُتواً، ومع اشتداد البرد

قلّ الطعام. وبات أوريون ونايتشادو بجهزان على معظم ما يعترض طريقهما من حيوانات تبحث عن غذائها مثلهما. وهكذا بات سابر أكثر معرفة ببقية الكائنات التي تعيش معه في البحر.

وربما صادفت الحيتان الثلاثة يوماً قطيعاً من سمك القدّ متجهاً جنوباً على عمق ١٥ متراً تحت الماء، فأجهزت عليه وراحت تغتذي بالبروتيين الذي فيه والذي يمنح القوة والحياة. وربما كانت الوليمة في يوم آخر على فراخ الانقليس الكبيرة، فتلتهمها الحيتان قبل بلوغ مخابئها بين صدوع الصخور في القاع. وليس غريباً ان تلي ذلك أيام عجاف، لا شيء فيها سوى نورس أو طائر بحري آخر ينقضّ عليه أوريون على حين غرة. في تلك الايام كانت الحيتان تنزل الى القاع بحثاً عن جيف الاسماك أو نحو الشاطىء سعياً الى فقمة نافقة.

ومع اقتراب الربيع أضاف سابر الى معارفه معلومات جديدة متعلقة بالانسان وبصناعاته. ومما عرفه أزيز المحركات في الزوارق وزعيق صيادي السمك وجلبة شباكهم وآلات تعويمها. وغدا الصيد أسهل مع دنوّ الربيع وزوال البرد. وعادت أسراب الاسقمري ترعى البحر في اتجاه الشمال. ووصلت القروش ومنها التوب والقرش الازرق والبربجيل المقيت الوجه، وأسرعت ثم اختفت اذ لمحت طيفي أوريون ونايتشادو. وامتلأ الفضاء بالطيور الهاربة من الحر وسط الاطلسي وعلى تخوم الصحراء.

ووقف سابر على ذيله وذقنه فوق الموج وهو يراقب وفود الاسماك والطيور. وراح ينظر الى أوريون وهو يصرع أسماك القرش التي تقترب منه أو يطاردها. ومرة شاهد أباه وهو ينقض على حوت ذكر صغير سوّلت له نفسه الدنو من نايتشادو. وفرّ المعتدي وقد خلف في طريقه خطاً أحمر رفيعاً.

ذلك الصيف فُطم سابر عن حليب أمه. وبدأ يطارد أسماك الاسقمري الزرقاء المخضرة، فيضربها وهي على سطح الماء أو يتبعها الى تحت. وكان في بداية عهده بالصيد ضعيفاً، لكنه اكتسب القوة مع مجيء الصيف.

وعاد السلمون الى المياه الاسكوتلندية ليكون قريباً من الانهار التي أبصر فيها النور بين الخُث، وهو النسيج المتفحم المكوّن من تحلل النباتات. ومكثت الحيتان في مصبات الأنهر والخلجان انتظاراً للفيضان الوشيك الذي لا بد من أن يحمل اليها أسماك السلمون.

وحدد أوريون موضع السلمون وأخذ زوجته وابنه اليه وانتصبت الحيتان الثلاثة الضارية في الماء وراحت تراقب الاجراف المرتفعة فوق الامواج المزبدة. وعند انتصاف النهار وجدت الخليج الذي تبحث عنه وسمعت الاصوات الآتية من قطيع السلمون وهو يتجه نحو النهر.

وقفزت الحيتان على قاع البحر الرملي وأسراب السلمون تتطاير فوقها بكثافة. وبأمر من أوريون رفعت الحيتان أفواهها نحو السمك

وبدأت الوليمة، وظلت الأسماك تقفز عالياً في الهواء وهي تتلألأ تحت شمس العصر، فيما الحيتان تجاريها حماسة وتقفز في اثرها وتلتهم منها ما أمكن.

ثم هبت ريح الخريف الاولى وأنذرت الحيتان بنهاية الصيف. وكان سابر أكمل عامه الاول وبلغ طوله ثلاثة أمتار ونصف متر. وبات يشق طريقه وسط تلال الامواج والماء ينزلق عن ظهره العريض.

موت صياد

كان المزارع وزوجته يعيشان على جزيرة مهجورة قرب جزيرة هبريديس، وهما يقتنيان عدداً من رؤوس الغنم وبقرة وكلبي رعي ضخمين. وكانت تلك الجزيرة ملاذاً للفقم الرمادية التي تتناسل على شطآنها كل خريف.

وفي سبتمر (ايلول) سبحت اناث الفقمة الضخمة نحو الشاطىء وتخيرت كهوفاً دافئة في الرمال او تحت الصخور لتضع فيها مواليدها وتحميها خلال الايام الاولى من حياتها. وما ان حان منتصف اكتوبر (تشرين الاول) حتى ازدحم الشاطىء بالجراء.

وبعد ذلك جاءت الحيتان الثلاثة.

وذات صباح فوجىء الفلاح برؤية جيفة بنية تتقلب مع الموج. وهي كانت لفقمة انثى. وفي الصباح التالي، بينما هو جالس على الصخرة التي يراقب منها ما حوله، رأى أحد ثيران الفقمة يجهد نفسه للصعود من بين الامواج. وأخذ يلهث بمشقة وهو يتجه نحو الشاطىء وقد خلّف وراءه خطاً أحمر قانياً. ثم شاهده المزارع وقد أزيل قسم من زعنفة ظهره الطويلة.

والطريقة التي أسرع بها الثور نحو الشاطىء لاهثاً تدل على أنه وقع ضحية مطاردة. ونظر المزارع ناحية البحر فرأى أوريون يندفع نحو الشاطىء وقد لامس بطنه الارض. ولبث هناك قليلا قبل أن يعود الى البحر وقد أحاط به طيفان أصغر منه حجماً.

وجلس المزارع ذلك المساء يستدفىء على نار النبات المتفحم ويتذكر أقاصيص الدلافين والحيتان التي سمعها في حداثته. وأدرك أن أمثال تلك الحيتان الثلاثة هي التي زودت أسلافه رواياتهم.

وعند صيادي السمك أن الحيتان الضارية نعمة من السماء لانها تقتل الفقم التي تتلف شباك الصيد وتسرّح القسم الاعظم من الاسماك. لكن الصيادين لا يتجرأون البتة على الخروج بزورق صغير اذا عرفوا ان في الجوار حوتاً. فهناك روايات كثيرة عن البشر الذين صرعتهم الحيتان.

واستسلم الفلاح للنوم وهو يصلي لئلا تعود الحيتان. ولكن عندما هرع نحو الشاطىء صباحاً وجد بقع الدم فوق الرمل هنا وهناك، كما رأى الفقم تنظر الى البحر وتنبح. وعقد العزم، وهو يرى الحيتان الثلاثة تختفي بين الامواج، على قتلها او اقصائها عن الشاطىء.

وفي وقت باكر من الصباح التالي عاد الى صخور الشاطىء وشاهد نحو خمسين فقمة نائمة هناك بلا حراك.

وبينما هو ينظر اليها أخذت تصحو واحدة بعد الاخرى. ولم يلبث ان رأى رأس ذكرها يبرز من حين الى آخر فوق الماء وهو حريص على ألا يقترب اي خصم ذكر من اناثه ويحاول خطف احداهن.

وشنّ أوريون هجومه من ناحية الشمس ليعشي عيني غريمه. وأجال المزارع عينيه عبر الماء شمالا، لكنه عجز عن رؤية الحوت السفاح السريع الحركة. وطوال الامتار الاربعمئة الاخيرة من هجومه، أخفى أوريون جسده كلياً تحت الماء. وهكذا لم ينتبه له ذكر الفقمة الا متأخراً. وضربه أوريون بزعنفته فدار على نفسه مرات عدة وصعد الهواء من رئتيه المسحوقتين. ثم مدّ أوريون فصي ذنبه تحت الثور المهزوم ورفعه عالياً في الهواء مع سحابة من رذاذ المحيط. وصرّع الحيوان قبل أن يسقط بين الامواج.

والتهم أوريون ذكر الفقمة وهو لا يسمع صرخات زوجاته على الشاطىء ولا يعير بالا للنوارس المحومة فوقه. وكان مزمعاً أن يذهب في اثر طريدة جديدة.

ورفع المزارع بندقيته بهدوء وراح ينظر عبر جهاز التصويب، فيما أوريون يشق طريقه وسط موجة طويلة وقد ارتفعت زعنفته الضخمة فوقها وانزلق بطنه على الرمل. وتسنى للمزارع ان يتبين تفاصيل جسمه في تلك المياه الضحلة، بما في ذلك زعانفه المدوّرة والبقع البيض وراء عينيه.

وأصابت الرصاصة عنق أوريون وأحدثت ثقباً في دهنه. وتناثرت فقاره وأصابت بعض شظايا العظم رئته. وراح يهتز متشنجاً وظهر فصا ذنبه للمرة الاخيرة فوق الموج. وزفر الهواء الذي تنشقه مع زعيق يشبه صوت غواصة في غرقها. واندفع الدم والهواء من منخره وهو يجهد نفسه مبتعداً عن الشاطىء.

وكان سابر وأمه على بعد ٨٠٠ متر عن الشاطىء عندما بلغتهما الصيحة المروعة. وللحال اندفعا نحوه وهما غافلان عن أي خطر قد يعترضهما. وعندما وصلا الى أوريون كان يتخبط على أرض البحر وهو مغطى بالدم النازف من جرحه. وكان حجمه ضعفي حجمهما، لكنهما رفعاه وجعلا ظهره فوق سطح الماء.

ووقف المزارع يحدق الى المشهد وهو لا يصدق ما تراه عيناه. وكان يعرف أن الغزلان والارانب تهرب من أشباهها النافقة. ولكن كيف لوحش فتاك أن يتصرف على هذا النحو من العطف والحنان؟ ولماذا لم يهرب الحوتان الآخران الى الامان؟ وراح المزارع يمشي باضطراب وقد ذهله المشهد.

وطوال ذلك اليوم المريع صارع سابر ونايتشادو لابقاء أوريون فوق الماء. ومع الغروب أطلق الحوت الضخم صيحة قصيرة قبل ان يستقر على بطنه في قاع البحر. وأكمل سابر وأمه طريقهما في اتجاه الغسق.

القطيع المائي

خلّف موت أوريون فراغاً في كيان نايتشادو بعدما رافقته واعتمدت عليه

سنوات طويلة. وهو كان رفيقها ومرشدها وحاميها من الذكور الاخرى.

ومع الوقت أخذ سابر على عاتقه دور الصياد وباشر اعتماد طريقة الاستدلال بالصدى على مصدر الصوت. وعرف، من صوته هو، أن الموجات الصوتية ترتحل بعيداً وعميقاً. وكان اذا صرخ في العمق عاد اليه صدى صوته من القاع، فأدرك أن ثمة حدوداً في مكان ما. كما وجد أن الصدى يعود اليه مع بعض الاختلاط اذا هو أطلق صوته أفقياً.

وباعتماده على نفسه قويت حاسته السمعية.وبات في امكانه معرفة أصوات الدلافين وأفواج السمك وحتى فقاعات الماء. ووجد أن في امكانه تقصير المسافة بينه وبين فريسته بانزلاقه على أرض البحر أو بركوبه موجة طويلة. واكتسب سابر القوة وتجاوز طوله الامتار الاربعة حتى أصبح قريباً من طول أمه. ولازمها في رحلاتها، لكنه ظل أقل سرعة من أوريون في تلك المرحلة. ومع اقترابه من البلوغ انتصبت زعنفته الكبرى وباتت أشدّ فتكاً. وغدا في امكانه التعرف الى المزيد من الاصوات.

وركب سابر وأمه رياح أكتوبر (تشرين الاول) نحو جزر فيرو. ومع انسدال حجب الشتاء فوق المحيط بين شتلاند وآيسلاند، تناهت الى سابر ونايتشادو أصوات أمثالهما من الحيتان الضارية. وسرعان ما شاهدا تلك الحيتان بأجسادها السوداء والبيضاء ترقص حولهما في ريعان النهار. ونعما بالنظر اليها، وبينها الذكر والانثى والجرو. وسرّح سابر نظره، فرأى ذكراً ضخماً على طرف القطيع.

كان اسم ذلك الحوت فوركفين، وهو قائد سربه. وقد حمل ظهره آثار معارك كثيرة وانتصبت زعنفته الكبرى كالحربون، وهو الرمح الذي يُستخدم لصيد الحيتان. وبجرأة غريزية وقف سابر بين أمه وفوركفين فيما حاول هذا اعتراضهما. الا أن سابر كان من الحداثة بحيث لم يكترث له ذلك الحوت الجبار. وقبل فوركفين الحوتين الجديدين في قطيعه.

وهكذا لم يبقَ سابر ونايتشادو وحدهما. وصوّت الزعيم، فاندفع السرب وراءه جنوباً وقد انتصبت زعانف أفراده فوق الماء، تتقدمها وتعلوها جميعاً زعنفته الكبرى التي أحدثت فيها المعارك مزقاً هنا وشقوقاً هناك.

وكان فوركفين حوتاً قطبياً أبصر النور تحت جبال الجليد المشرئبة. وتعلم منذ الصغر كيف يصمد في البحار الجليدية. وما ان فُطم حتى قضى أبوه وأمه تحت انهيال الثلوج.

واكتسب فوركفين قوة عظيمة. ثم غادر حقول الجليد نحو رأس النروج الشمالي حيث جمع قطيعه الاول. وظل سنوات يقود سربه النامي بين المياه الايسلندية والنروجية الى أن جاء يوم تبعه صائدو الحيتان نحو زقاق بحري. وهناك شرد عن قطيعه وأصابه رمح في خاصرته فيما غرز آخر في ظهره. الا أن الصيادين لم يستطيعوا امساكه. وبعدما وجد نفسه وحيداً

للمرة الثانية، ابتعد عن ساحل النروج مخلفاً وراءه الاجراف السحيقة المغطاة بالثلوج.

وما لبث فوركفين أن جمع حوله قطيعاً آخر. وأطاعه أفراد القطيع على الدوام، مع أن الصغار لم تفهم أوامره كل مرة. وكان صدى المحركات البعيد كافياً وأتاح له جر القطيع كله نحو الامان.

وكان سابر أكثر ضموراً من معظم الحيتان التي في مثل سنه، لكنه كان أطول منها وأقوى. وفي الليالي المقمرة، فيما أفراد القطيع مستسلمة للنوم، كان سابر يجول سابحاً بينها، يضرب الماء ويلهو. وهو الحوت الذي لم يخش فوركفين أو يأبه لجثته الضخمة وهو يحاول فرض النظام على أفراد سربه.

وكان في استطاعة فوركفين جمع أفراد القطيع صفاً واحداً كلما احتاج اليها. وفي فترات الجوع، كان يصفها بانتظام حتى تغدو على أتم استعداد لتوجيه ضربتها القاضية في الوقت المناسب وضمن أكبر مجال ممكن.

وفي يوم شتاء بارد عثرت احدى الاناث على حطام سفينة في قاع البحر. وأوقف فوركفين أفراد القطيع، ثم أرسلها اثنين اثنين الى هناك للصيد.

كان ذلك حطام سفينة حربية غرقت وهي تعبر شمال المحيط الاطلسي. وبات جوفها يعج بالكائنات الحية من مرجان ومحار وسرطان وكركند وأخطبوط وسمك وحبار.

وفي مكان ما داخل السفينة، حيث أصابتها طلقة مدفع يوم كان رجالها يأكلون ويشربون ويحلمون بنهاية الحرب، عاش انقليس ضخم. ولم يجسر أي حيوان بحري على مهاجمة الانقليس بما في ذلك أسماك القرش التي كانت تزور ذلك الحطام صيفاً.

وسمع الانقليس في ظلمة وجاره جلبة الحيتان وشم رائحة الدم المنبعثة من فرائسها. ودفعته تلك الروائح والاصوات الى مكان أكثر أماناً في القاع.

ورأته احدى اناث الحوت ينزلق بين الصخور الارجوانية. وأحس الانقليس دنوها فتكور وأخذ رأسه يهتز مثل عشب البحر. وترددت أنثى الحوت وقد أدركت أن خطراً ما يحيق بها. لكن أصوات أفراد سربها في الجوار شجعتها على فتح فمها والاندفاع نحوه. ومن غير أن تبصر أي حركة أحست ألماً ساخناً في فمها. فزعقت ونفضت جسمها الى فوق، مخلّفة قطعة من لسانها بين فكي الانقليس وخطاً أحمر قاتماً وراءها. وخيم سكوت على البحر عندما أوقفت أفراد القطيع الصيد وهبت الى نجدتها.

أما فوركفين فترك الاناث الهرمات مع الانثى الجريح واقتفى آثار دمها نحو القاع. وهناك قبع بين الصخور وأخذ يحدّق أمامه. وفجأة لاح له طيف. ونظر فوركفين حسناً، فرأى الانقليس فاغر الفم استعداداً للانقضاض. وقبل ان يتحرك فوركفين صعد الرمل من القاع وانتصب سابر

أمامه وقد علق الانقليس هامداً بين أسنانه. ولم يوجه فوركفين أي ثناء الى سابر، لكنه، تبعاً لطريقة الحيتان، أبدى اعجابه الصامت.

وحيداً

بعد مرور ثلاثة فصول شتاء وفصلي صيف على انضمام سابر الى القطيع المائي حان الوقت لينطلق وحيداً. ومع سري دفء الربيع في تلك المياه الضحلة، بثت الهرمونات النار في أجساد ذكور الحيتان البالغة. وبات واحدها يتلهى بممارسة لعبة الحرب مع الآخر، فيعضه بأسنانه ويكزه بفصي ذيله. وأوقف فوركفين المعارك خشية أن يتحول اللهو حقيقة. وكانت صيحة واحدة منه تكفي معظم الاحيان للحصول على طاعة أفراد قطيعه. واذا استمر العصيان لجأ فوركفين الى ضرب خاصرة الحوت العنيد برأسه.

وفي تلك الاثناء ثارت الشهوة لدى سابر. وغدا لعبه مع الاناث أقرب الى الجد منه الى المزح. وأكثر ما ألحت عليه شهوته تلك في هدأة الليل. ولم يلحظ فوركفين ما يجري في بدايته، ولكن ما لبث أن عرف كل شيء وعيل صبره. وأفاق سابر صبيحة ذات يوم من ابريل (نيسان) ليرى الرأس الرمادي الضخم يقترب اليه.

واختلطت الهرمونات في دماغ سابر ولم يميز، فيما عراكه دائر مع فوركفين، بين ضرباته هو وضربات غريمه. أما فوركفين فسدد ضرباته بحكمة وحساب.

وأخيراً استدار سابر وسبح في المياه الخضراء تاركاً القطيع وشأنه. وراقبته أمد وفوركفين وهو يولي، وظلا يصغيان الى صداه بعد تواريه عن الانظار.

وللمرة الاولى في حياته وجد سابر نفسه وحيداً. وأحس دافعاً ملحاً لمتابعة طريقه شمالا، وكأن شيئاً ما ينتظره هناك تحت نجمة الشمال.

واستقبله بحر النروج البارد العميق. وانزلقت الامواج الطويلة على ظهره ووشت ذيله بالزبد الابيض. وأحس ألماً في جسمه القوي من عناء الرحلة. واذ لم يجد ما يكفيه من طعام فوق سطح الماء، اعتلى قمة موجة ثم قذف نفسه نحو ظلمة المحيط الاطلسي عند حافة الجرف القاري.

وكلما نزل سابر قامة تحت الماء ازداد الضغط عليه. لكن جسمه كان مصمماً لهذه الغاية. وانطبقت اضلاع صدره على رئتيه. ولما بلغ القاع استراح فوق صخر مغطى بالطمي.

وقبض على بعض الحبار (السبيدج) الذي حاول رش الحبر على وجهه لتحويل أنظاره. ولف واحد من الحبار قوائمه حول سابر كما تفعل الافعى وقبل ان يستطيع الافلات وجد نفسه مجروراً الى الصخور. وعندما حاول الدفاع عن نفسه بفصي ذيله تبين له ان الحبار طوق الذيل أيضاً. وأطبقت عليه رهبة المكان وأصابه الدوار. لكنه استجمع قواه وأخذ يضرب الخبار. ومر وقت قبل أن يستطيع الافلات.

نحو القطب

بعدما قطع سابر الدائرة القطبية نحو بحر النروج الذي تشرق فوقه

شمس منتصف الليل، لم يبقَ في السماء نجم قطبي يوجد مسراه، واستعاض عن ذلك باقتفاء التيارات الضعيفة الدافئة التي تهبّ من الجنوب الغربي. وهناك تحت شمس الليل البرتقالية صادف جبال الجليد للمرة الاولى، وهي أعمدة طويلة تنحدر مئات الامتار تحت سطح الماء. وبعد يومين وصل سابر الى حافة الجليد القطبي المرصوص. في ذلك المكان فقد فوركفين أبويه. وبدأ سابر فصل الصيف في المعابر الزرقاء وسط ثلوج لا تنتهي.

وكان سابر قطع كيلومترات كثيرة لبلوغ تلك الصحراء الجليدية. واذ لم يبصر علامة أو يسمع صدى لما حمله الى هناك، انتظر علّه يسمع صوتاً مع حركة البحر.

والواقع ان سابر كان فرداً واحداً من زوار المكان. فقد توجهت الى هناك أعداد لا تحصى من العوالق. ومع ذوبان الثلج في الربيع وفدت أسراب الطيور من أراضي الجنوب الاكثر دفئاً. وكان يبدو هنا وهناك دب قطبي يقطع طريقه بتثاقل فوق الاطواف الجليدية أو يصطاد السمك في الشقوق. كما كان يظهر حيوان آخر كالفظّ الثديي الملتحي أو نحوه، وهو يحدق الى الماء متحيناً الفرصة للانقضاض على فريسة.

واذا انطلقت بندقية من صياد، كانت الحيتان تصرخ بصوت واحد حتى يغدو ذلك الجزء من بحر الشمال ضاجاً بالاصوات. وتختلط قرقعة جبال الجليد المنشقة تحت حرارة الشمس القطبية بدفق الماء الصاعد في الهواء.

لقد كان الصيد ذلك الصيف وافراً، وكان سابر يتسلل تحت سقف الجليد الابيض ويختبىء في المغاور الجوفية، ومن هناك يصغي الى أصوات الطيور والاسماك والفقم ويحاول اتباع الصدى نحو مصدره وهو متخفّ تحت غطاء من جليد قبل انقضاضه على الفريسة.

وغدا طول سابر ثمانية أمتار واكتسب جسمه قوة هائلة بفعل السباحة والصيد. وكانت زعانفه ضخمة مدورة وزعنفته الكبرى بطول مترين وفصا ذنبه عريضين ومقعّرين. وحمل جسمه ندوباً، بعضها من الثلوج والصخور المستدقة وبعضها من معاركه مع الحبّار والانقليس والحيتان الضخمة التي صادفها في رحيله شمالا.

وحلّ الصيف القطبي القصير وقويت معه وحشة سابر الذي بات يطلق صيحات كئيبة، فلا يأتيه صوت أحد من جنسه، وان جاءته أصوات حيتان من فصائل أخرى.

وصارت الليالي أطول وأخذت العواصف الثلجية تهدد من بعيد. ونزحت أسراب الطير جنوباً وعادت الدببة القطبية نحو اليابسة، فيما حملت الفقم جراءها الى الجنوب. وسقط الثلج معلناً زحف الشتاء على القطب.

لكن سابر تجاهل تلك النذُر. وذات مساء استراح قليلا على صخرة تحت الماء ورأسه متجه نحو طوف جليد زاحف الى أسفل. ومع تكسر الثلوج ارتمى على جنبه. وسقط الجليد على خاصرته، فسحق أضلاعه وكاد أن

يطفيء النور في عينيه.لكنه عوضاً عن قذفه نحو القاع رفعه إلى فوق. ولو سقط الى أسفل لقضى غرقاً. واضطجع على جنبه والدم ينزف من جرح بالغ قرب منخره. وتجعد جلده في البرد وارتعش صدره وضاقت أنفاسه. وأوهنه الصقيع الصاعد من الثلج تحته وأفقده الالم الوعي مرة بعد مرة.

وبعد قليل سقط الطوف ومعه سابر. لكنه حرّك ذيله قليلا وحملته زعانفه الى فوق. وأصدر بعض أصوات حزينة قبل أن يهوي تحت صفحة الجليد.

وراح يحرّك فصي ذنبه الكبيرين بوهن وهو يتجه نحو جدار جليدي. وتمسّك بنتوء ليقي نفسه الغرق بعدما استنفد قواه. وانزلقت موجة على ظهره وسكبت بعض مائها في منخره. وحين سعل ليلفظ الماء أحس ألماً شديداً في صدره. وصاح مرة أخرى، لكنه حافظ على أنفاسه وعلى الحياة في عروقه.

سبريلاش

على بعد كيلومترات عدة جنوباً كان هناك قطيع من أحد عشر حوتاً ضارياً يسبح على حافة صحراء الجليد. وكان قائد القطيع ذكراً صغيراً أخذ مكان سيده الذي قضى قبل نصف عام. الا أن الحوت الناشيء لم يستطع إحكام قبضته على السرب. ولم يكن بين قطيعه سوى أنثيين تسبحان مع الجراء.

وبقيت احدى الانثيين، وهي سبريلاش، في مؤخر القطيع. وكان طولها ستة أمتار وقد تخللت جسمها نقاط بيضاء بديعة. لكنها لم تحب المياه القطبية، وظلت تتوق الى مسقط رأسها في الازقة البحرية العميقة الهادئة بين النروج وجزائر فيرو.

وبينما الانثى الشابة تهمّ بالغوص في اثر قطيع من الاسماك، بلغها صياح سابر. وللحال كفت عن الغوص وانتظرت الذكر الساعي الى نجدة. وأعطته صوتها عبر المتاهة البيضاء. وهذا يعني أنها طلبت منه البقاء حيث هو لتذهب اليه. ورفعت رأسها قليلا وهي تستعد للغوص، ثم نزلت تحت الجليد وأخذت تسبح. وبعد وقت نهضت من الماء وصرخت من جديد، لكن سابر لم يسمعها. وبقي حيث هو ومنخره فوق الماء، وظل يصيح طلباً للعون.

وخارت قواه وهوى الى أسفل. لكن سبريلاش سمعت استغاثته وراحت تشق طريقها نحوه. واذ وجدت نفسها تحته رفعته من بطنه الى فوق. وبقيت معه طويلا وهي تهدئه بأصوات مطمئنة لا تنقطع. أما هو فكان يغفو ويفيق.

وبعد أيام من الراحة في ذلك المكان استعاد سابر وعيه وفتح عينيه. وتنفس بعمق. وصعد الى الطوف الجليدي ونام. وكلما أرّقه الالم من جنبه كانت سبريلاش تتملقه للنوم.

وأخذ الثلج يذوب. وبات لزاماً على الاثنين الفرار قبل السقوط مع الجليد الهاوي. ودفعت سبريلاش مريضها الى الامام، لكن سابر كان من الضعف بحيث لم يستطع التقدم سريعاً. وظل

يتوقف من حين الى آخر قبل أن تأخذ سبريلاش زمام المبادرة وتشق الطريق لهما معاً. وأخيراً تحررا من الاطواف الجليدية ولم يبقَ سوى المحيط العاري بينهما وبين النروج.

واستعاد سابر قوته مع الوقت، وبرئت أضلاعه وتوقف نزفه الداخلي. الا أن ذهنه ظل خاملا طوال الشهر الذي تلا انعتاقه من الجليد. وما برحت سبريلاش تشق له الطريق.

حياة جديدة

بعد أسبوعين من شفاء سابر التام قطع الحوتان الدائرة القطبية ودخلا الازقة البحرية جنوب النروج. وكانا يصطادان نهاراً ويلهوان ليلا فوق سطح الماء ويقذفان الرذاذ نحو الاجراف. وأخذ أحدهما يلامس الآخر قبل جماعهما في الليالي الطويلة.

وحلّ الربيع وذابت الثلوج وخلعت الاشجار الدائمة الخضرة معاطف الثلج عن اغصانها، وتدفقت افواج السلمون وفي اثرها الفقم. وراحت الحيتان الضارية تصطاد السلمون والفقم جميعاً. ولم تتوقف سبريلاش عن الصيد لاشباع جوعها الشديد.

ولما غدا النهار أطول دبت الحياة في الازقة البحرية. وظهر الناس هناك في قواربهم البخارية وأخذوا يلقون شباكهم في الماء، وغادر سابر وسبريلاش الازقة والمضائق وعادا الى عرض البحر بعدما منحتهما النروج وثلوجها حياة جديدة وجعلت سابر يقود سبريلاش نحو مرتع طفولته.

وفي ليلة صافية من الغيم والضباب ارتفع البدر في قبة السماء وتوقفت سبريلاش في طريقها وقد أحست ألماً قوياً في بطنها. وقوّست جسمها مرة واثنتين وثلاثاً قبل أن تلد جرواً أنثى هي غلوتشين التي ظهرت البقع البيضاء حول فمها مثل أمها.

وتنفست الصغيرة من هواء الاطلسي البارد فيما دفعتها أمها نحو السطح ثم ادارت لها بطنها لترضع. وراح سابر ينظر بدهشة الى الصغيرة التي لم يتجاوز طولها المترين ونصف المتر وقد ملأت جسمها الخطوط البيض والسود بالتساوي. وبعدما فرغت من الرضاعة انطلقت في اثر أمها وهي تقلد حركاتها.

القاتل الاكبر

مع مجيء الشتاء أخيراً كانت الحيتان الثلاثة توجهت الى أقصى الجنوب حتى بلغت ساحل كورنوول الشمالي والمياه الاسبانية. وراح سابر وسبريلاش يصطادان بين حطام السفن وصخور الشاطىء ويأكلان كل ما وقعا عليه من لحم، فيما طاردت غلوتشين السمك المفلطح فوق الرمال الضحلة. لكنها بقيت تعتمد كلياً على حليب امها، ومارست الصيد من باب اللهو.

تلك كانت أوقاتاً هادئة عاشتها العائلة الصغيرة. الا أن قاتلا آخر كان يعبر المياه الزرقاء آنذاك، وهو مركب طويل أملس لصيد الحيتان يمكنه ان يزدرد ٥٠٠ طن من لحم الحوت قبل أن يعود الى الشاطىء. وقد اصطاد كل ما اعترض طريقه في شمال الاطلسي من حيتان على أنواعها.

ونظر مراقب المركب الى المياه فوجدها تتلألأ تحت الشمس. وبعد قليل رأى سابر يندفع نحو جزيرة قريبة. واستغرق توجه المركب نحو الحوت الضاري دقيقتين اثنتين قوي خلالهما ضجيج محركه. وتجمهر الملاحون على الدفة استعداداً للصيد، وأخذوا يدلون الحبال من الرافعة. وهرع ثلاثة منهم نحو المدفع المركز في مقدم المركب وهم يحملون رماحاً.

وبدا المركب مثل نمر يتحفز للوثوب. ووقف الصياد متأهباً على منصة المدفع. وكان هو ومعاونوه أبصروا قبل يوم حوتين شاردين عن قطيعهما، أحدهما من ذوات الحدبة والآخر من ذوات الزعانف. لكنهما، وقد جمعتهما المصيبة، راحا يمخران تلك المياه الزرقاء جنباً الى جنب.

ووصل مركب الصيد الى الحوت المحدّب. ولكن صادف في تلك الاثناء أن وصلت سفينة بريطانية تابعة لاحدى جمعيات المحافظة على الحياة البحرية. ومن قبيل المفارقة ان تكون بريطانيا من البلدان الاولى التي أظهرت للعالم الحسنات التجارية لصيد الحيتان ولكن ما لبثت، هي وسواها، أن دعت الى الحفاظ على ما تبقى من حيتان.

وحين تأكد طاقم السفينة البريطانية من عملية المطاردة، أرسل زورقين آليين نحو السفينة الاخرى لوقف الصيد. ولأكثر من ساعة ظل الوضع على حاله: زورقان صغيران في مواجهة مركب كبير للصيد، وبينهما حوتان. وأطلق المركب رمحه مرتين، لكن أحد الزورقين اعترضه. وعند الغسق اضطر المركب الى الابتعاد عن الموقع. أما اليوم فكان سابر وعائلته في مواجهة الخطر، من غير ان يلوح في الافق أي مدافع عن الحياة البحرية.

وسمع سابر أزيز المحرّك من بعيد، لكنه اعتاد تلك الاصوات ولم يجد فيها شؤماً. وما لبث أن أمر زوجته وصغيرتهما بالتوجه الى جزيرة في الشرق. وانطلق الثلاثة معاً نحو تلك المياه الضحلة.

عندئذ أسرع المركب في اثر الحيتان. وهو مُعدّ للاجهاز على الكائنات البحرية بعد ارهاقها. وأتى التعب على غلوتشين أولا. ونهضت من كبوتها بعياء، وحاول ابواها ابعادها عن خط المركب. لكن الجزيرة ما زالت بعيدة، وها هو المركب يقترب أكثر فأكثر. واذ ذاك حمى سابر صغيرته بجسمه الذي بات نصفه مقابلا لجانب المركب البارز فوق سطح الماء.

وفي خبرة صائدي الحيتان أن مطاردة الاناث هي التي تؤتي ثمارها، اذ تكفل بقاء الذكر قريباً للدفاع. لذلك تجاهل الصياد سابر وانطلق في اثر سبريلاش وغلوتشين.

ونظر سابر ليرى أن مسافة كيلومتر تفصله عن عائلته، وأن زوجته وصغيرتهما لم تبلغا الجزيرة بعد. لكن سبريلاش كانت على مقربة من مقدم المركب وكان هو بعيداً جداً عنها.

وأطلق صوتاً عظيماً ثم اندفع بكل قوته. وتركزت أعين البحارة عليه

وهو ينقض عليهم مثل قذيفة مدفع. وراح سابر يزيد سرعته حتى بلغ المركب. وهناك انتصب ورأى البحارة فصيه العريضين وزعنفة ظهره التي يتجاوز طولها قامة رجل بالغ. وارتجت السفينة كلها حين ضرب ميمنتها برأسه الضخم.

الا أن مراكب صيد الحيتان صُممت بحيث لا تتأثر هياكلها المعدنية بضربة حوت، وان يكن ذكراً ضارياً يهجم بسرعة ٦٥ كيلومتراً في الساعة. كما تستطيع مراكب الصيد شق طريقها وسط طوف جليدي. وشعر سابر بالدوار، لكن الغيظ وجد طريقه الى رأسه من جديد. وتأهب للانقضاض مرة أخرى فيما تحلق البحارة على الدفة وهم ينظرون اليه اعجاباً: لقد أفاق من الصدمة، وها هو الآن ينطلق في اثر عائلته.

وكان الصياد أكثر البحارة اعجاباً، الا أنه أراد تعويض الحوتين اللذين لم يتمكن من الاجهاز عليهما في اليوم السابق. وما عليه الآن الا تصويب رمحه حسناً الى ظهر سابر المنحرف.

وسمع الحيتان صوت الرمح. ودُليت الحبال وصعدت غمامة حمراء مع رذاذ الموج. غير ان الرمح أخطأ الموضع المقصود وانزلق على ظهر سابر كالمظفار محدثاً خدوشاً سطحية.

في تلك الاثناء كانت الحيتان الثلاثة بلغت شاطىء الامان، ولم يجرؤ المركب على متابعة طريقه نحو المياه الضحلة. ومع حركة الجزر ليلاً سبحت الحيتان على حافة الصخور ثم شقت طريقها نحو البحر. واذ بلغتها دمدمة المراكب من جديد خطّ لها سابر طريقاً شمالية في اتجاه بريطانيا. ومنذ ذلك الحين صار سابر يبتعد عن اصوات المحركات، خصوصاً محركات المراكب السريعة.

لقاء وفراق

كانت رائحة مياه الشمال حبيبة ومنعشة. والى الشرق انتصبت تلال هبريديس الزرقاء كالسنام فوق البحر. واطمأنت الحيتان الى وجودها في موطنها وسط تلك الجزائر الاسكوتلندية.

وخيم الظلام وغفا البحر، لكن أصواتاً كثيرة ظلت تنبعث من العمق. واندفعت التيارات عبر غابات العشب البحري وتدفقت الاسماك أفواجاً وسُمع صريف الكركند وصليل السرطان عن الصخور. واختلطت أصوات الدلافين والحيتان في الطبقات العليا من الماء.

وبقي سابر طوال الليل مستيقظاً، ولكن هادئاً ومطمئناً. فها هو أخيراً في موطنه بعدما قطع مئات الكيلومترات منذ مولده. ولم ينسَ قط أن الانثى التي تلازمه الآن هي التي ردت عنه الموت يوماً ثم ولدت له غلوتشين. لكن حياته بدأت في ذلك المكان، حيث أبصر أبوه النور وحيث أغمض عينيه للمرة الاخيرة.

ولبث الحيتان الثلاثة في ذلك المضيق شهراً. وذات يوم في أواخر يونيو (حزيران) فرغ البحر من كائناته التي فرّت جزعاً من سابر وعائلته. ولم يجد الثلاثة بدّاً من الانطلاق الى عرض البحر.

وأصبحت حركة سبريلاش بطيئة بعدما كبر بطنها، وأسلمت نفسها للموج كي يدفعها كيفما شاء، وعرفت أن الجنين في أحشائها يرغمها على الراحة.

وما لبث الطقس أن تبدل وأوشكت العواصف على الهبوب. وفي تلك الايام ولدت سبريلاش ذكراً اسمه ثندر، وحضنه أبواه حتى هدوء العاصفة وأخذاه نحو مضيق، واستدارت الام استعداداً لارضاع وليدها للمرة الاولى.

وكلما ابتعد ثندر عن أمه كانت غلوتشين تسبح الى جانبه وقد غدت أنثى بالغة. الا أن حفلات السمر بينهما لم تدم طويلا، اذ ان غلوتشين كانت تسعى الى شيء آخر.

وفي رحلة الصيد الاخيرة مع أبيها التهمت الحبّار الذي أجهزا عليه معاً، وعادت الى السطح فيما لازم أبوها القاع للمزيد من الصيد. وبقيت دقائق مع أمها، ثم نادت ثندر قبل ان تسرع غرباً. وحاول أخوها اللحاق بها، لكنه لم يستطع. وعاد ثندر الى أمه بينما هجرت غلوتشين عائلتها الى الابد.

الاتحاد والموت والتجدد

تردد فوق الماء صدى لم تسمعه سبريلاش على رغم رهافة سمعها، لكن سابر أدرك مصدر الصوت ولمس زوجته حبوراً. وسبح شرقاً وهو واثق من اتجاهه، وتبعته سبريلاش ومعها ثندر. وتوقف سابر ثلاث مرات للتأكد من مصدر الصوت. ولما اتضح له ذلك لبث مكانه منتظراً.

وأخذ الصوت يعلو حتى ملأ المكان.

ثم انتصب جسم رمادي ضخم أمام الحيتان الثلاثة وقد ترهل جلده الهرم وظهرت عليه آثار المعارك. وكانت العينان خاملتين والفم خالياً من الاسنان. ولم يقوَ الذيل على الحركة وانشقت زعنفة الظهر الكبيرة وتقوس شقاها.

ذلك الحوت الوافد كان فوركفين. ووقف هو وسابر يحدق أحدهما الى الآخر كما فعلا عندما كان سابر جرواً متمرداً على وشك البلوغ. ولقد مرّت سنوات بعد مغادرة سابر القطيع المائي تخللتها مغامرات وأحداث كثيرة. ولكن من المستحيل نسيان صداقات الماضي وعِبره.

واستطاع فوركفين، بما بقي له من قوة، حمل قطيعه الى تلك المياه على ساحل اسكوتلندا حيث سابر وعائلته. ثم خارت قواه وتسلمت ثلاثة ذكور صغيرة زمام القيادة. لكن سنها لم تسمح لأي منها بالسيطرة التامة. وذلك حدا فوركفين على السباحة في اثر الذكر الوحيد الذي اختبر قدرته حق الاختبار.

وللحال أدرك فوركفين أن مهمته انتهت، وعرف سابر أن ذلك يعني بدء مهمته هو. وأدار فوركفين جسده بمشقة ليواجه الناحية التي أتى منها. وارتفع ذيله قليلا وتحرك والى جانبه سابر. وتبعتهما سبريلاش ووليدها ولم يجسرا على الاقتراب اجلالا للموقف.

وكأنما لم يشأ فوركفين أن يموت وهو وحيد. وقطع الكيلومتر الاخير من رحلة حياته الطويلة ومعه سابر الذي عرفه قبل وقت طويل وارتأى ابقاء

القطيع في عهدته. وفجأة توقف الاثنان، ثم هوى فوركفين بهدوء الى الماء.

ومن عمق البحر اندفع سابر بقوة وبرز وسط القطيع بعدما ارتفع عالياً في الهواء ثم سقط. وران صمت عميق حوله فيما راحت الحيتان تنظر الى الندوب في انماء جسمه والى زعنفة ظهره المنتصبة وفصي ذنبه وزعانفه الاخرى الصغيرة. وعرفت الحيتان للحال أن ذاك هو قائدها الجديد.

الا أن ثلاثة منها رفضت الاقرار بسلطانه. واندفع اثنان من الثلاثة نحوه احتجاجاً، فضربهما بقوة. لكن الحوت الثالث رفض الرضوخ كما أحجم عن الهجوم. ووقف جانباً يراقب المعركة، ثم شقّ طريقه بعيداً عن القطيع. والواقع ان هذا هو الحوت الخطر الذي قد يعود يوماً بعد اشتداد ساعده ليحاول بسط نفوذه على أفراد القطيع. وتبعه الحوتان الآخران وقد جرّ أحدهما حبلا من دم.

أما موقف سابر فكان هو الاقوى. ذلك بأن كل صوت في القطيع من الآن فصاعداً بات مطيعاً له. واذا أخفق في قيادته، فربما خسر الحيتان جيمعاً. ولئن استطاع الافلات من مركب الصيد يوماً، الا أن ثمة أخطاراً أكبر تواجهه، بعضها آت من فصيلة حيتان أخرى هي العنبر، ذلك الحوت الضخم ذو الاسنان الهائلة الذي يستطيع أن يقسم الحيتان الاخرى اثنين وان تكن من الضواري. وهناك المزيد من الاخطار التي تحملها كائنات بحرية من نوع الحبّار العملاق والانقليس والقرش، كذلك حطام السفن والعواصف والصخور التي قد يقع الحوت ضحية عدائها. عليه أن يتنبه لهذه الاخطار جميعاً.

وراح سابر يسبح بين أفراد قطيعه فيلامسها ويصغي الى اصواتها. وسرعان ما عثر على الانثى التي يسعى اليها، وهي نايتشادو التي ولدته يوماً في ذلك المكان من الاطلسي. ووقفت الانثى الهرمة تحدق الى ابنها.

وما لبثت سبريلاش ان وصلت ومعها صغيرها الخائف. وقلدت سابر في السباحة بين افراد القطيع التي رحبت بها منذ البداية.

وسكن نسيم المحيط الدافىء. وحلقت النوارس عالياً في ما بقي من غسق تلك العشية. وفي محاذاة الافق البرتقالي الاغبش ارتفعت زعنفة قوية في الهواء وانطلق صوت. وشق سابر الطريق أمام قطيعه وعجّ البحر بالحياة. وتبعت الحيتان الضارية قائدها الجديد.

■ **جيريمي لوكاس**

قال أحدهم: "ظننتني أصطاد الفتيات بتنزيه كلبي خارجاً. لكنه سخرني ليتبع الاناث من جنسه."

ر.د.

كتاب الشهر

ألكسندرا



ملخص من كتاب
بقلم فرانك ديفورد

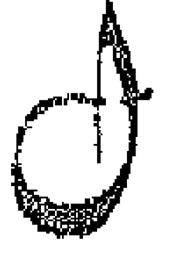
ألكسندرا



عندما أبصرت الطفلة ألكسندرا ديفورد النور أعلن الأطباء أنها تتمتع بصحة جيدة. الا أن ذلك لم يكن صحيحاً لاصابتها بالتليُّف الكيسي، وهو مرض فتّاك يزيد حدّة مع الوقت ويتحدى أي علاج.

ولقد كانت حياة ألكسندرا قصيرة ومفعمة ألماً. لكن جرأتها ومرحها فاضا على كل من عرفها وعاش معها وحاول الاقتداء بها.

وفي هذه الذكريات المثيرة للمشاعر يقصّ علينا فرانك ديفورد رواية ابنته، فيعمّق لدينا معاني الحُبّ والايمان والصلوات المستجابة.



لم تعش الكسندرا اكثر من ثماني سنوات. وهذا ليس بالعمر الطويل. ولكن حين أنظر الى الوراء أجد أن موتها استغرق أطول كثيرا من هذا الوقت. وعلى رغم معرفتي بوفاتها المحتومة طوال تلك السنوات فاني لم أستطع التسليم بموتها. كنت دائما أقول: "ستعيش أسبوعين آخرين."

وذات يوم كنتُ وزوجتي كارول في غرفة الجلوس نتحدث قبل أن نخلد الى النوم، فقلت: "يبدو لي الآن أن وفاة الكسندرا باتت جدية، وأنها لن تعمر أكثر من أسبوعين." وأجابت كارول: "وأنا كذلك أظنها ستموت في وقت ما من فبراير (شباط)."

في تلك اللحظة صرخت ابنتنا من الالم وهي لا تقوى على التنفس. وراحت تصيح: "النجدة! النجدة!" وهبت كارول إليها على جناح السرعة.

"النجدة! النجدة!"

تلك العبارة أصبحت جزءاً من حياتنا آنذاك. لكنها في تلك الاثناء اكتسبت بعدا اضافيا لمعرفتي أن ابنتي لن تصمد أسبوعين.

والحق أنها لم تصمد يوما كاملا. فهي قضت بين ذراعي عصر اليوم التالي، وكانت تمسك بيدي أمها. وجاء طبيب في ما بعد ووقع وثيقة الوفاة. وتبعه موظفون في مؤسسة الدفن. وطلبت منهم كارول الانتظار في ناحية أخرى من المنزل، فيما رفعتُ ألكسندرا من سريرها وحملتها للمرة الاخيرة من غرفتها الى الطبقة الارضية.

تلك الليلة خرجتُ وحدي الى العراء. وكان الجو قارس البرد والسماء صافية لا تشوبها غيمة، بل تتلألأ في قبتها النجوم. ومشيتُ وأنا أحدّق الى السموات فوق. وفجأة تذكرت ابياتا من الشعر كانت من محفوظات والدي المحبَّبة. وهي من مسرحية شكسبير الشهيرة "روميو وجولييت" وفيها تتحدث هذه عن حبها:

"بعد موته،
خذه وانثره نجوماً صغيرة،
فيجعلَ وجه السماء جميلا
الى حدّ أن العالم كله
يعشق الليل بعد ذلك الحين،
ويشيح وجهه عن وهج الشمس."

عندما كان أبي يكرر تلك الابيات أمامي لم أتمكن من استحضار الصور الذهنية التي تثيرها. لكني، تلك الليلة، رأيتُ ابنتي هناك وقد انتثرت نجوماً نجوماً. فقلتُ للنجوم "عمي مساء" وعدتُ أدراجي الى البيت.

بعد أشهر تلت ولادة ألكسندرا ظننتُني أملك كل ما يتوق رجل الى امتلاكه. فلديّ عمل أحبه ومنزل في ضاحية المدينة وزوجة جميلة وصبي وسيم. وجاءت تلك الطفلة لتكمل الصورة. ففي ضحى الثلاثين من اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٠ وافاني

أحد موظفي المستشفى يقول ان زوجتي ولدت طفلة جميلة ومعافاة.
لكن الواقع أنها لم تكن معافاة.
فمنذ البداية كانت ألكسندرا مريضة. وراحت تتجرع الحليب بنهم من غير أن تكسب وزناً. ولم تتحرر قط من الزكام او من التهاب الاذنين. غير أني لم أجد في ذلك كله نذير خطر، إذ بدا لي أن الطفلة متوعكة قليلا على غرار الاطفال الذين يتأخرون في المشي أو النطق.
الا أن قلق زوجتي أخذ يزداد على طفلتنا. فمع مرور الاسابيع تبين لها أن المولودة لم تعرف الصحة يوما. وبلغ قلقنا حدته لدى ادراك الكسندرا شهرها الرابع. فهي كانت شاحبة الوجه، وخلت عيناها من اي تعبير. وبدت عليلة حتى بالنسبة الي. وحملتها كارول الى طبيب الاطفال الذي وجد لديها اصابة قوية بذات الرئة وأحالها على اقرب مستشفى.
وخلال وجودها هناك قدّر الاطباء ظهور أعراض التليّف الكيسي وقرّروا إجراء الفحوص اللازمة. وفرحتُ كثيرا حين جاءت النتيجة سلبية، إذ كنتُ قرأتُ مقالا حول ذلك المرض يصفه بأنه فتاك.
لكن الاطباء اصروا على إجراء المزيد من الفحوص. فكانوا يفحصون الكلى يوما ليفحصوا الدماغ في اليوم التالي. وسرعان ما تبين لنا أن أطباء ذلك المستشفى يتخبطون وسط النتائج ولا يعرفون قراءتها على حقيقتها. وارتأينا نقل الكسندرا الى المكان الذي امتدحه معارفنا جميعا، ألا وهو مستشفى الاطفال في مدينة بوسطن، حيث سيحلل الاختصاصيون مرضها ويصفون لها العلاج الناجع الذي سيعتقها من الآلام.
وجاء متطوعون من دائرة الاطفاء في بلدة ريدينغ من أعمال ولاية كونتيكت حيث نعيش، وأخذوا الصغيرة وأمها الى مستشفى الاطفال في بوسطن. وتبعتُهم في سيارتي، وتوقفتُ قليلا في رود آيلند لأترك ابني كريس في عهدة عمته غايل، وكان في الثالثة من العمر.
ولم أكد أبلغ المستشفى حتى قيل لي ان ابنتي مصابة بالتليف الكيسي، وان الامر لا يقبل الشك. ودعانا الطبيب الى عيادته وكلمنا بصراحة قدّرتُها حق القدر. وأعلن أسفه وهو يقول ان ألكسندرا لن تعيش سوى ايام معدودة.
وسألته كارول: "أليس من حظ لها في الحياة على الاطلاق؟"
فأجاب: "اذا قدّر لطفلتك أن تبقى على قيد الحياة، فهي لن تعمر أكثر من سنتين في اي حال، لأن التلف الذي أصاب رئتيها كبير."

العلاج الاليم

مر يومان من غير أن تحقق ألكسندرا نبوءة الطبيب. فهي لم تمت، وإن بقيت تلك الطفلة الهزيلة التي لا يتجاوز وزنها الكيلوغرامات الثلاثة وهي في شهرها الخامس. ولكن للمرة الاولى ظهر بعض تعبير على وجهها، وهو يتجاوز الالم والبكاء.
وأخذت الفتاة تتحسن باطراد وقد

زادت جمالا ووزناً، وتمت عمادتها خريف ١٩٧٢ وهي ترتدي ثوبا أبيض طويلا مخرّماً. واستحالت عيناها الزرقاوان بنيتين، وهو لون ينسجم أكثر مع شعرها. وزادت جمالا على جمال خلال العامين اللاحقين. وأتمنى لو قُيض لقارىء هذه السطور أن يراها قبل أن يدور المرض دورته عليها.

وحين اشتدّ عليها المرض لم أحاول أن أخدع ذاتي وأتجاهله. فقد سبق أن انتُخبت عضوا في المؤسسة الامريكية لمرض التليف الكيسي، وكنت أدري ان هذا المرض متدرّج وقاتل، وأنه يُستبعد قيام طبيب يبتكر علاجاً له في القريب العاجل. الا أن معرفتي لم تدعني أُسلم بأن تلك الطفلة الجميلة ستتخلف حالها الى أن تموت يوماً فيما الاطفال في سنها يكبرون ويترعرعون.

ان التليف الكيسي داء لا علاج له. وهو مرض وراثي يصيب البيض على الخصوص. وهناك عشرة ملايين أمريكي يحملون جينة هذا المرض، مثلي ومثل زوجتي كارول. ولكن لا سبيل الى القول ان هذا او ذاك يحمل المرض حتى يتزوج الشخص المعني شخصا ناقلا مثله وينجبا طفلا تظهر لديه أعراض التليف الكيسي. واذا كان الوالدان يحملان جينة المرض، فاحتمال اصابة الطفل به هو ٢٥ في المئة، واحتمال خلوه منه هو ٢٥ في المئة. وهناك احتمال بنسبة ٥٠ في المئة أن يكون الطفل حاملا جينة المرض مثل ابويه.

وعلى رغم اسمه فالتليف الكيسي لا علاقة له بالكييسات. وهو مرض يصيب الرئتين أولا، لكنه قد يضرب البنكرياس (المعثكلة) وهو عضو رئيسي في الجهاز الهضمي، كما قد يحط رحاله في الخصيتين لدى الذكور. وهذا المرض يعطل وظائف التنفس والاكل والتناسل، اي انه يشل الحياة.

والعنصر المشترك في هذه الاصابات جميعا هو المخاط. فجسم المريض يفرز مقدارا كبيرا من المخاط، أو انه يفرز مخاطا كثيفا. والمخاط يسدّ مجرى الهواء في الرئتين ويصيب البنكرياس والخصيتين بالاحتقان. وإصابات بعضهم خفيفة بحيث تنقضي سنوات من غير أن تظهر أعراضها.

وفي حين أن بعض الامراض لا يلقي أثقاله على الاصحاء، الا أن التليف الكيسي يتحكم بافراد العائلة جميعا. ولئن استطاع أحدهم أن يدرك ذهنياً المشكلات والآلام التي ترافق هذا المرض، فهو لن يعرفها حق المعرفة ما لم يعش تحت سقف واحد مع شخص يعانيها. والتليف الكيسي يخلق آثاراً نفسية عميقة لدى والدي المصاب واخوته الاصحاء.

بدأت معالجة ألكسندرا بالتصدي لمشكلة التنفس لديها. فكانت تتنشق مادة مزيلة للاحتقان غايتها تسييل المخاط الذي استقرّ في رئتيها. وبعد ذلك نجلسها في الوضع الملائم لتصريف المخاط. وكان عليها احتمال أحد عشر وضعاً مختلفاً، فيما تتولى كارول أو أتولى انا الدق على صدرها او ظهرها او خاصرتيها أو راحتي

يديها لتسهيل خروج المخاط. وبعد ذلك يضغط أحدنا على رئتيها للهدف نفسه.

وكان بعض الاوضاع يقتضي من الكسندرا الجلوس وبعضها التمدد على حضن أمها أو حضني. لكن أربعة من تلك الاوضاع كانت تستدعي الوقوف رأسا على عقب مع ما يرافق ذلك من دوار وتدفق للدم الى الرأس، فيما أحدنا يقرع صدرها الصغير بعنف لاخراج ذلك السائل الكريه منه. ومن الجمل الاولى التي ركبتها الكسندرا: "لا يا بابا، لا أحب هذا الوضع." وما على كل منا الا أن يتصور نفسه مجبراً على تنفيذ هذا الامر وسماع هذا الكلام يوميا.

وبعد انتهاء ذلك العلاج كان علينا مباشرة تجريعها الادوية اليومية المؤلفة من مضادين حيويين وعقار ثالث مركب من خميرة حيوانية. وكانت الكسندرا تحتاج الى هذا الدواء، واسمه "فيوكاز"، لأنّ البنكرياس لديها عاجز عن إنتاج الخمائر الكافية. وأمضت معظم أيام حياتها القصيرة وهي تتناول ذلك الدواء على هيئة ذرور ممزوجة بالتفاح المهروس لعدم تمكنها من أبتلاع الحبوب. الا أن طعم التفاح لم يغلب طعم ذلك الدواء البغيض الذي عزته الكسندرا الى هريسة التفاح نفسها.

وكانت طفلتنا بادىء الامر تقبل بجرأة كل ما هو مطلوب منها لظنها أن تنشق دواء الرئتين والضرب على الظهر ومواضع الجسم الاخرى والتفاح المهروس أمور تدخل في تجربة كل طفل. وعندما كانت تلاعب الدمى كانت تعاملها بالمثل، ولكن تعفيها من الانقلاب رأساً على عقب اذا هي تصرفت حسناً. ولم تعرف الا مع الوقت أن تجربتها الاليمة تخصها وحدها ولا تلازم مرحلة الطفولة بالضرورة.

وذات يوم ربيعي دخلت ألكسندرا مكتبي وهي في الرابعة، وقالت ان لديها سؤالا واحداً تطرحه علي: "عندما أغدو صبية سأتخلص من هذا العلاج كله... أليس كذلك؟"

وبعد تفكير أجبتُها: "أجل يا حبيبتي." والحق أني لم أشأ الكذب عليها، لكني كنت أعرف انها لن تدرك سنّ الشباب ما لم يوجد علاج لهذا المرض اللعين.

تبادل الأنخاب

في صيف ١٩٧٤ كنا انتقلنا من بلدة ريدينغ الى بلدة وستبورت بالقرب من لونغ آيلند. وأخذ وضع ألكسندرا يتحسن على رغم عذابها اليومي الآتي من العلاج. ولكن بدا أن ذلك العلاج يؤتى ثماره الى حد تجاهلت معه كل ما أعرفه عن التليف الكيسي ووضعتُ رجائي في مستقبل ابنتي.

وذات يوم من شهر ديسمبر (كانون الاول) عادت كارول من عيادة التليف الكيسي في مستشفى ييل نيوهافن حيث كانت ألكسندرا تخضع لفحوص دورية. وقالت ان الطبيب أخبرها بوجود جراثيم في رئتي الفتاة. كما قالت لي كلاماً سمعتْه في أحد لقاءات المؤسسة الامريكية للتليف

الكيسي، وهو أن أسوأ حقيقة حول هذا المرض هي عمل المخاط على اجتذاب الجراثيم الى الرئتين. والطب لم يتوصل، على رغم أبحاثه الكثيرة، الى اكتشاف المضاد الحيوي الملائم لمكافحة هذا النوع من الجراثيم التي تتكاثر بعيداً عن اي رقابة.

وكنت أعرف أن الجراثيم التي تعشش في الرئتين بفعل المخاط هي نذير شؤم. ويبدو أن الطبيب هوّن الامر على كارول، فلم يخبرها القصة كلها. وهكذا فعلت أنا، إذ لم أجد سبباً لزيادة قلقها. وهي لن تلبث أن تدرك عاقبة هذه الجراثيم.

وكان عيد ميلادي السادس والثلاثين قريباً، وقد اعددنا حفلة عائلية لتلك المناسبة. وبينما أنا أقتل الوقت في مكتبي دخلت عليّ ألكسندرا وهي في أبهى حلة وقد تدلت منها الحلى وفاحت رائحة العطر.

وبدت غاية في السعادة والجمال. ولكن ما ان نظرت الى اصابع يديها حتى رأيت شيئاً لم الاحظه من قبل، وهو أن تلك الاصابع بدأت تتقوّس لعدم وصول ما يكفي من الاوكسيجين إليها. ورحت أبكي وأنا أحملها بين ذراعيّ وأقول لها ان تلك الدموع تعبر عن فَرَحي. وهي كانت من الصغر بحيث لا يمكنها اكتشاف حقيقة مشاعري.

وما هو الا وقت قصير حتى أخذت ألكسندرا تتبين مخاوفنا. وعرفت، بمعنى أو بآخر، أنها لن تعيش طويلا. ومنذ ذلك الحين بدأت تمر بفترات من الانقباض النفسي وتواجه الموت على طريقتها الطفولية.

الا أن الكآبة لم تدم أكثر من يوم أو يومين كل مرة. وكانت تزول ليحل مكانها المرح. ومع اشتداد المرض في السنوات التالية حملناها الى عدد من العروض المسرحية والموسيقية والرياضية. وأخذناها الى بعض المعالم السياحية في وليمسبورغ (ولاية فرجينيا) وأتلانتيك سيتي (ولاية نيوجرزي) وكاليفورنيا وجزر البحر الكاريبي. وهي زارت أمكنة قلما عرفتها طفلة أخرى قبل سنها الثامنة.

لكنها لم تزر هاواي البتة، على رغم توقها الدائم الى تلك الارض الساحرة. واستعاضت عن حلمها بحمل دماها الى هناك - في الخيال - وإعادتها وقد لوحتها الشمس. وظلت تقول: "عندما يكتشفون علاجاً لمرضي وأتحرّر من قيوده، فلا بد من السفر الى هاواي."

وبما أن هاواي كانت بعيدة جداً عن كونتيكت والذهاب اليها يكلف غالياً، فاني لم أعد ألكسندرا مطلقا بأخذها الى هناك. لكني قطعتُ لها عهداً بأن أحمل العائلة كلها - إذا وُجد العلاج - وأذهب بها الى هونولولو، وهناك نقف جميعاً على شاطىء وايكيكي ونتبادل الانخاب.

وهكذا بات في استطاعة الكسندرا أن تخبر الناس بذلك الحلم.

وواظبت ألكسندرا على الذهاب الى روضة الاطفال بين ١٩٧٥ و١٩٧٦ وهي في الرابعة والخامسة من عمرها. وفي التقرير المدرسي الاوّل

وجدتها المعلمة "تتمتع بروح المشاركة والطاعة." وأضافت أنها "تبذل جهداً كبيراً في برنامج الرياضة البدنية، وتسجل بعض تقدم." وهذه طريقة لائقة للقول انها لا تقوى على استخدام أعضائها الجسدية كما ينبغي. وهذا صحيح. فقد استغرق تعلمها حمل القلم وقتا طويلا. وحين امتطت للمرة الاولى دراجة ذات ثلاث عجلات سقطت عنها، ولم تجرؤ على اعادة الكرّة قبل انقضاء بضعة أشهر.

وكانت كارول تأخذها الى دروس في الرقص أطلقت عليها الكسندرا اسم "الباليه". وهي أحبت الرقص وتعلمته جيداً. ويبدو أنه فتنها إذ مكنها من تحريك جسمها. وأكثر ما أحبته تلويح المناديل البراقة خلال الرقص. وكلما طُلب منها أن تكتب على ورقة ما تحبّ فعله لدى بلوغها كانت تسمي الرقص.

داء الشيطان

لم يكد ينقضي شهر على تسلق ألكسندرا حافلتها المدرسية الاولى وهي في الخامسة حتى تعين عليها دخول المستشفى. وتلك كانت المرة الاولى التي تدخل المستشفى بعد الازمة الحادة التي عرفتها في طفولتها. ومنذ ذلك الحين كان على الكسندرا ان تخضع، كل ستة أشهر، لدورة علاجية تدوم عشرة أيام. وكل ما فعله الاطباء كان اعطاء الفتاة المضادات الحيوية عبر الاوردة وليس من طريق الفم. وتلك الطريقة أشد فاعلية في مكافحة الجراثيم.

وأهم ما في الامر وصل الابرة بالوريد، وبعد ذلك يغدو الامر سهلا. وسمحت لنا ادارة المستشفى باحضار كريس أيام الاحد لرؤية شقيقته. وذلك كان أسعد أيامها في المستشفى. واذ تراه آتياً كان وجهها يشرق حبوراً وتناديه باسمه. وهي كانت فخورة به حقاً. ولم تتفوه بكلمة واحدة أمامه عن مرضها، ولا هو قال شيئاً لها حول ذلك الموضوع.

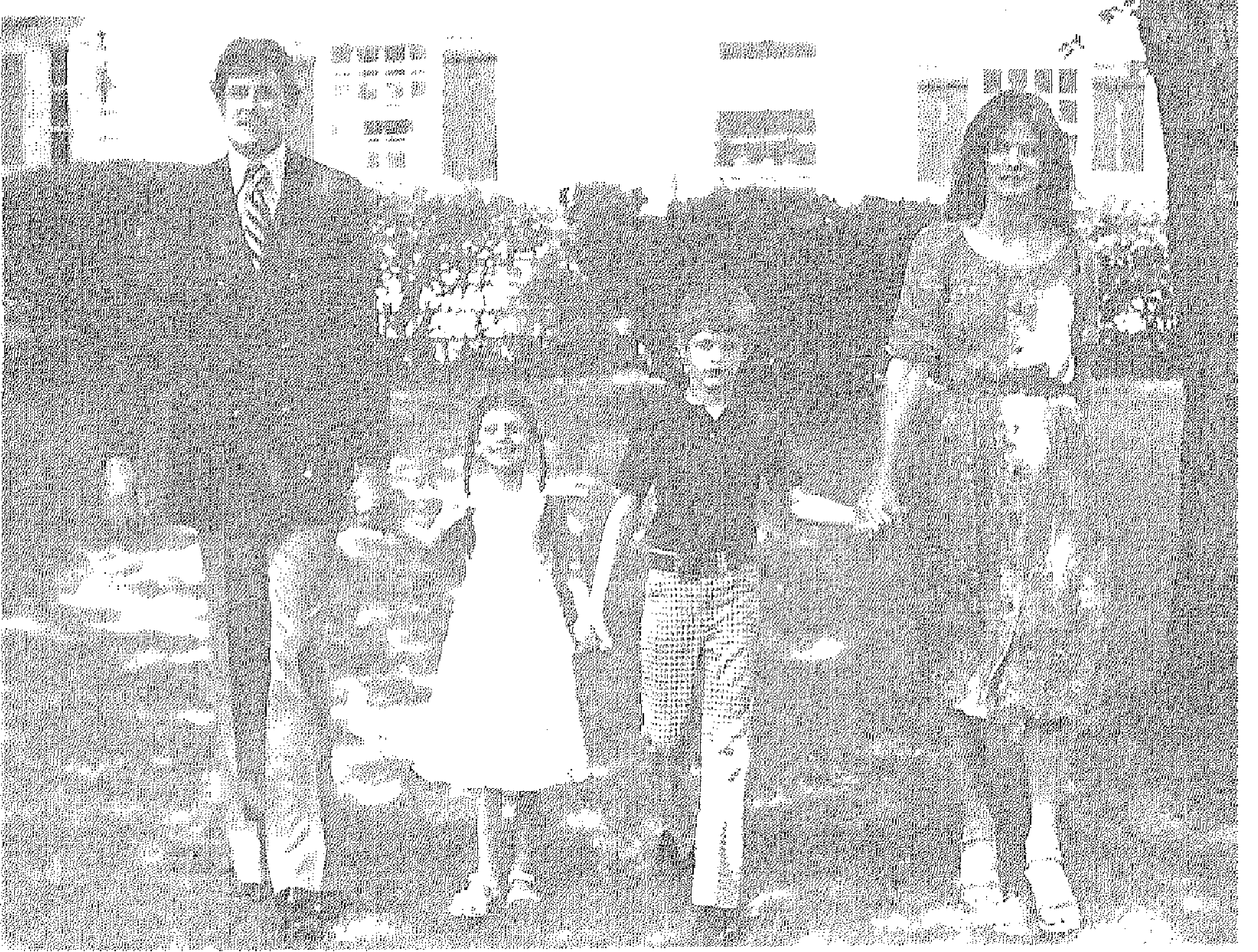
أما أنا فكنت أعود من ذلك المكان الى البيت وقد راودني شعور بكره نفسي وكرهنا جميعاً لأننا لا نستطيع أن نجتمع في تلك اللحظة تحت سقف واحد، أي لأننا عدنا الى البيت فيما بقيت الكسندرا في المستشفى.

وكنت وزوجتي نحتاج الى تعزية أحدنا الآخر، لكن أياً منا لم يمكنه أن يمنح الآخر العزاء. فكيف أطلب العزاء من كارول، وهي أم الفتاة التي تسير نحو موتها، وهي تحتاج الى العزاء كما أنا أحتاج اليه؟ وشعرت أني لا أقوى على مساعدة كارول، لكني أدركت في الوقت نفسه أنها عاجزة عن منحي العزاء متى احتجت اليه.

وراح الآخرون يمتدحون جرأتي، وسرني إطراؤهم. لكني لم أكن الشخص الذي يعاني الالم ويعيش موته. ذلك الشخص كان ابنتي وأنا الذي نقلت اليها جرثومة المرض والعذاب والموت. ولو لم تمدني الكسندرا بالمثل الصالح على احتمال الالم، لكنت رزحت تحت همومي وأحزاني قبل زمن طويل.

وظلت حال ألكسندرا تزداد سوءاً

Courtesy the Deford Family



ألكسندرا في سنها السادسة: وجهها يشع فرحاً وضحكتها تشيع الرجاء في عائلتها التي أحبتها كثيراً.

مع الايام. وبعد عودتها من المستشفى كنا نتابع لها العلاج في غرفة التلفزيون. وغالباً ما كنت أتسلى واياها في تلك الاوقات. وأظن أني تكلمت معها أكثر مما تكلم معظم الآباء مع صغيراتهم.

وعادت الكسندرا الى المدرسة. وفي مطلع ١٩٧٨، وهي في سنتها الابتدائية الاولى، دوّنت الآتي:

"لقد عرفنا على الدوام أن صحة الكسندرا ستسوء مرة أخرى. وجاءت المشكلة الجديدة على هيئة نزف داخلي سببه العلاج. ولم يكن النزف فادحاً، اذ لم يتجاوز انفجار بعض الاوعية الدموية الصغيرة هنا وهناك. الا أنه اخافها. والتئام الشرايين يفترض وقف العلاج. لكن هذا يعني تراكم المخاط وانتشار الجراثيم... فيا له من مرض لعين! انه داء الشيطان بالذات.

"اشترت كارول لابنتنا رداء جديداً لمناسبة عيد الحب" في فبراير (شباط)، وهو أبيض مطرّز بخطوط حمراء. وقد أحبته ألكسندرا حباً جماً. وقبل يومين كانت تذرع به المنزل وفي يدها مكبر الصوت الصغير الذي راحت تغني عليه وهي ترقص. وفي تلك الاثناء نزف منها الدم

وراحت تصرخ، وأسرعت من مكتبي لأجد كارول هناك. وكان الدم يملأ المكان. ورمت الكسندرا مكبر الصوت وأخذت تلتقط الدم بيديها الصغيرتين وهي تبكي وترتعش رعباً.

"أما كارول فحافظت على هدوء أعصابها كما لو كانت ممرضة متمرسة. وهدأت من روع الفتاة وألبستها ثياباً جديدة بعد مسح الدم النازف، ثم أعطتها بعض الدمى. وبعد ذلك دخلت كارول مكتبي وكنت أحدق من النافذة الى الثلج الابيض في الخارج. وبدت على وشك البكاء، ودافعها الغيظ اكثر مما هو الحزن. وصاحت بي: "أليس حراماً أن ينزف هذا الملاك الابيض الصغير ويملأ رداءه الجديد دماً في يوم الحب هذا؟"

ـ هذا صحيح، الحق معك.

"ولا أذكر ماذا فعلت بالضبط. وكل ما أذكره أني حرتُ في أمري ولم أعرف كيف أساعد كارول. ولكن اذا عجزت عن اعطائها العون في تلك اللحظة، فكيف لي أن أساعد أياً كان وفي مطلق الظروف؟"

نوارس البحر

آخر احتفال كبير عرفته ألكسندرا في عيد ميلادها السابع. وقد بدت رائعة الجمال في ردائها البنيّ المزركش بالابيض وشعرها الذي عقد على هيئة كعكة. وظل وجهها جميلا على ضموره. وكان كلبنا تشوسر هناك، فأوقفنا الكسندرا بجانبه لالتقاط صورة. وقبل أن أفعل نادتني وقالت: "انتظر يا بابا ريثما أسعل."

واستغرق سعالها طويلا لأن البلغم عاق تنفسها. وذلك أربكها وجعلها تعتذر للتأخير الذي سببته. وسعلت كثيراً خلال الحفلة لأنها أكثرت الضحك. وآلم ما في الامر أن يكون الضحك سبباً للسعال.

وبعد أشهر قليلة دخلت ألكسندرا مرحلة الانتكاس الاخير. وفي مايو (ايار) ١٩٧٩ اضطررنا الى ادخالها المستشفى من جديد. وعلى رغم بقائها أسبوعاً اضافياً في المستشفى هذه المرة، الا أن وضعها بلغ دركاً لا يجوز تخطيه. وفضلا عن الخلل في الرئتين والبنكرياس، ظهرت لديها علل جديدة في القلب والكبد، كما أصيبت بالتهاب المفاصل وذات الرئة.

وذات مساء زرتها وتكلمنا عن الصيف الرائع الذي سنمضيه معاً بعد خروجها من المستشفى. ولما كان كريس مزمعاً على التخييم مع أترابه مدة أسبوعين ذلك الحين، فقد وعدت الكسندرا بالذهاب الى مكان آخر مع أمها حيث نكون نحن الثلاثة وحدنا. وتهللت فرحاً بتلك الفكرة. وبدت أكثر جمالا حين فتحت فمها الذي اختفت منه سناها الاماميتان كأي فتاة في السابعة. لكنها قنطت فجأة، فسألتها: "ما الامر؟"

ـ أتظن أن كريس سيتألم لعدم وجوده معنا؟

وقلت لها: "كلا يا حبيبتي." ورحت أطمئنها وأخبرها عما سيفعل في المخيم. وانتابني الحزن حين تذكرت أن عبارة "نحن الثلاثة" ستحمل معنى آخر عما قريب.

وفي ما بعد جلست في مكتبي وطبعت ما يأتي على الآلة الكاتبة: "لقد ساءت حال حبيبتي الكسندرا كثيراً. وحين تعود الى البيت لن تستطيع النوم من غير آلة تمدها بالاوكسيجين عبر فتحتي الانف... ولم يبقَ لي سوى انتظار معجزة."

وغادرت الفتاة المستشفى واستطاعت اكمال سنتها الابتدائية الثانية في المدرسة. وكما وعدتها، ذهبنا نحن الثلاثة الى ساحل مين. الا أن ألمها ازداد في نهاية الصيف، وضعفت معنوياتها.

ومرة سألتني: "بابا، ما هو أسوأ مرض في العالم؟" وبحثنا في المسألة وقتاً وأنا أتجنب الاستخفاف بالآلام التي تعانيها، وفي الوقت نفسه أتحاشى أن أصور علتها على أنها الاسوأ خوفاً من القضاء على ما بقي لها من معنويات. وأخيراً قلت لها ان المرض الاسوأ هو الذي يشلّ ضحيته كلياً ويتركها بلا حراك.

وهزت الكسندرا رأسها. ثم نظرت اليّ عيناً بعين وعادت تقول: "وما هو ثاني أسوأ مرض في العالم؟"

فأجبتها: "انك تحرجينني كثيراً يا أميرتي وترغمينني على تمثيل دور البهلوان."

وعندئذ قالت: "أظن اني أعرف الجواب." واكتفت بالابتسام من غير أن تسمي مرضها.

ولما أخبرناها أن عليها دخول المستشفى في اليوم الذي يلي بدء عامها الدراسي الثالث، اشتدت كآبتها. ويبدو أنها أدركت أخيراً أبعاد مرضها الخبيث.

الا ان الكسندرا ذهبت الى المدرسة في يوم الافتتاح. ووقفت انتظرها خارجاً لدى نزولها من الحافلة. وراحت تجهد لقطع الممر بين الطريق والمنزل. وهرعت لملاقاتها. وتظاهرت بأني أريد عناقها، فحملتها وقطعت بها بقية المسافة.

ثم جلسنا، أنا وأمها، نسألها ما يودّ أي والدين معرفته بعد اليوم الاول من العام الدراسي الجديد: أين طاولتك؟ هل صادفت أصدقاء جدداً؟ وأجابت عن أسئلتنا كلها بلهفة وحماسة. ولكن ها نحن نتحدث عن عام دراسي لن ترى تتمته البنت، ولن تعيش حتى تبصر براعم الربيع الآتي.

وأخيراً سألتني: "بابا، هل عليّ حقاً الذهاب الى المستشفى غداً؟"

ـ أجل يا أميرتي، ان دخولك المستشفى ضروري.

وهزت رأسها وقفزت الى حضني. وبعد عناق طويل تركتني وقالت: "بابا، أتذكر حين تكلمنا عن أسوأ مرض؟"

ـ أجل، أذكر ذلك.

"انه التليف الكيسي، أليس كذلك؟"

ـ أظن أنه هو بالذات.

"كنت أعرف ذلك طوال الوقت. والآن أعرف اني لن أعيش."

تلك كانت المرة الاولى أسمعها تقول كلاماً من هذا القبيل. وقد عبَّرت عنه كمن يقرر أمراً، لا كمن يسأل عنه.

وأجبتها من غير تركيز على كلامي لئلا تشوبه هواجسي وأحزاني: "هذا

صحيح، انك ستموتين يوماً. الا أن كلا منا سيموت يوماً. ألسنا جميعاً متساوين في الموت؟"

وعادت تقول: "لكنك ستكون متقدماً في السن حين تموت."

- ليس بالضرورة. فربما قضيت في حادث لا يتوقعه أحد.

وعندئذ طوّقتني بذراعيها وقالت: "كلا يا بابا، أليس من الظلم أن تموت في حادث؟"

- أتسمين هذا ظلماً؟

أجل، هذا ما قالته حقاً. ثم طوقتني بكل طاقتها.

وبينما هي في حضني تذكرت حين كنا في مين قبل أسابيع. فذات مساء ذهبنا في السيارة الى مكان يدعى "سباوتينغ روك" (الصخر الناتيء) حيث يندفع الموج داخل كهف ثم يعود الى البحر عبر فتحة في الصخر. وكانت السماء صافية لدى بلوغنا المكان، لكن الضباب فاجأنا ومنعنا من الوصول الى الصخرة. وطلبت الكسندرا أن أتركها على الشاطىء، وتسلقت أنا الى حيث كارول تنتظر.

ونظرنا من فوق الصخور الى طفلتنا. وكانت تلبس قميصاً على سروال قصير بلون الزهر برزت منه ركبتاها الصغيرتان. وقد عُقص شعرها في ضفيرتين رُبطت كل منهما بشريطة. وراحت تعدو جيئة وذهاباً وهي تلوّح لنا بيديها وتضحك فرحاً، ولا يقطع ضحكها سوى السعال. وجلست كارول تبكي بصمت.

وبعد دقائق خيم الضباب على المكان وحجب الشجر والسماء والماء.

ولم نبصر الا ألكسندرا وهي تدوس الصخور. وهمست كارول: "يا إلهي! أنظر، أنظر اليها."

وللحال، كما من حجب الغيب، ظهرت نوارس أربعة في السماء. وانحدرت نحو الماء حيث لفها الغيم وطواها. وجاءت ألكسندرا الينا وقالت: "أرأيتما تلك النوارس؟ هل رأيتها يا ماما؟" وهزت كارول رأسها وهي تحاول اخفاء الدمع.

وظلت ألكسندرا تحدّق الى البعيد وتنظر حيث اختفت الطيور. وقالت: "أليس هذا عجيباً؟ أليس عجيباً أن تختفي النوارس هكذا؟"

في تلك الاثناء عبرت فكرة واحدة ذهن كارول وذهني، وهي أن أفضل طريقة تقضي بها الكسندرا هي أن تغيب كما النوارس.

كوّة في السماء

من حسن الحظ أن ألكسندرا استطاعت العودة الى المدرسة في الوقت الذي تؤخذ الصور التذكارية لكل صف. وكان ذلك أواخر سبتمبر (ايلول). وأوقفتها المعلمة في وسط الصف الامامي. وكانت ألكسندرا تلبس حذاء أزرق وجوربين أحمرين طويلين ورداء أحمر، وقد برز لها سنان جديدتان في مقدم فمها. وابتسمت للصورة كأجمل ما يكون الابتسام.

لكن انهياراً طرأ على رئتيها في الحادي عشر من أكتوبر (تشرين الاول). وأسرعت بها كارول الى مستشفى ييل نيوهافن. وأحدث الاطباء ثقباً في صدرها وأدخلوا فيه

أنبوباً. وهذا، بالنسبة الى معظم المرضى الذين يعانون الاحتقان، يعني تنظيف الرئتين من البلغم. أما بالنسبة الى ألكسندرا فكان يعني عدم جدوى العلاج العادي وخوفاً من انسداد الرئتين نهائياً.

واستغرق شفاؤها طويلا، لكنها عادت الى البيت في نهاية ذلك الشهر، وأقمنا احتفالا عائلياً هادئاً لمناسبة بلوغها الثامنة. وفي يوم الجمعة ذاك ذهبنا جميعاً الى مدينة نيويورك وشاهدنا مسرحية "بيتر بان" في برودواي. وأحبتها ألكسندرا كثيراً. لكنها شعرت بالعياء في النهاية. واذ لم نعثر حالا على سيارة أجرة، حملتها وقطعنا مسافة طويلة. وعانقتني وقالت: "أشكرك يا بابا لحملي، وآسف لازعاجك."

ـ ماذا تقولين يا أميرتي؟ ان كل شخص يستأهل أن نحمله يوم عيد ميلاده. ولن أتوانى عن حمل كريس الشاب في عيده.

وضحكت وقبلتني ثم قالت: "انها ذكرى ميلاد رائعة حقاً. وأنا أعرف جيداً أن أقلية من الاطفال تؤخذ الى برودواي في عيد ميلادها."

وفي اليوم التالي زارتها صديقاتها ولعبن طويلا. وأدت ألكسندرا دور الساحرة وصفقنا لها جميعاً. واستطاعت المشاركة مرتين في اللقاءات الكشفية ذلك الخريف. وفي أحدها سُئلت عما تحب، فقالت ان لونها المفضل هو الزهري، وأغنيتها الحبيبة "أنا لك على طول."

وسرعان ما أدخلت المستشفى من جديد. وفي غياب العلاج تدهور وضع رئتيها سريعاً واحتاجت الى المضادات الحيوية عبر الاوردة. ودوّنتْ الآتي في مطلع نوفمبر (تشرين الثاني): "خوفي أن النهاية باتت وشيكة. وأكثر ما أخشاه هو أن تتخلف حالها باستمرار وتقضي في المستشفى كسيرة القلب. وكل ما أتمناه لها الآن هو أن تستطيع العودة الى البيت وتمضية عيد الميلاد معنا والوفاة على سريرها.

"حقاً ان أحلامنا الحمقاء تتبدل سريعاً. فكل ما أطمح اليه الآن أن تعود يوماً واحداً الى البيت."

وأدركت ألكسندرا أن الوقت يمضي سريعاً وأن عليها تسوية بعض الامور. وقبيل انهيارها الاخير كنا ذهبنا الى ماريلاند لزيارة والديّ في أواخر سبتمبر (ايلول). وكان لنا لقاء عائلي رائع هناك. وكان أخي ماك هناك مع زوجته زهرة، وهو عرّاب ألكسندرا. ونادراً ما يزور ماك المنزل الوالدي لانه موظف في وزارة الخارجية، وكان يقضي معظم وقته في الخارج ذلك الحين.

وكانت ألكسندرا تحب زهرة كثيراً وتعجب بها. وفي تلك الزيارة تبعتها الى غرفة نومها وهي تنظفها وتسوّيها، وأرادت أن تطرح عليها أسئلة يبدو أنها وجدت حرجاً في طرحها على أمها أو عليّ.

واستهلت ألكسندرا أسئلتَها بالآتي: "أتعتقدين أن هناك إلهاً؟"

وكانت زهرة مسلمة مؤمنة. وأجابت على الفور: "أجل، ان الله تعالى موجود."

ـ وكيف تعرفين ذلك؟

"اني أشعر بوجوده وأخاطبه عبر الصلاة."

- ولكن أخبريني يا زهرة، كيف يموت المرء؟

وتوقفت زهرة عن عملها ونظرت الى ألكسندرا وهي تود مساعدتها الى أبعد حد ممكن. وقالت: "الموت مثل النوم. لحظة تكونين هنا في بيتك، ولحظة تصبحين في بيت الله، في السماء."

- ألن تشعري بالوحشة بعيداً عن عائلتك ؟

قالت ألكسندرا هذا الكلام وهي تدري أنها ستمضي أولا. وأجابتها زهرة: "كلا، لن أشعر بالوحشة، اذ سنكون جميعاً هناك في وقت قصير. ولكن قبل أن يوافيك الآخرون، يمكنك ان تنظري من كوة في السماء وتبصري كل من تحبين."

- أصحيح هذا؟

- انه عين الصحة يا ألكسندرا. فما معنى السماء اذا لم تتخللها النوافذ؟"

وفكرت الفتاة قليلا في الامر، ثم نهضت وشكرت زوجة عمها وتركتها تكمل التنظيف.

لمسة ملاك

خلال وجود ألكسندرا في المستشفى في أواخر نوفمبر (تشرين الثاني) انهارت رئتاها مرة اخرى. وبعد أسبوع أخرجت الانابيب من صدرها على أمل العودة الى البيت. لكن رئتيها خانتاها من جديد. وذلك آلمها كثيراً. فهي أمضت ستة أسابيع في المستشفى من أصل الاسابيع الثمانية الاخيرة، ولم تشأ أن تموت هناك. ولدى وصولي الى غرفتها تعانقنا طويلا قبل ان تبعد وجهها عني وتنظر اليّ. ولم أكن رأيت ذلك اليأس على وجهها قبل ذلك الحين. وأخيراً قالت لي: "بابا، لماذا يكرهني الله؟"

وكان الاطباء ينتظرون قدومي لثقب صدرها من جديد واقحام الانبوب. وحين أخفقت رئتاها في العمل للمرة الاولى، أعطيت جرعة كبيرة من دواء مسكن أفقدتها وعيها. لذلك خشيت هذه المرة، ان هي أعطيت الدواء نفسه، ألا تفيق أبداً من غيبوبتها. وتمنت على أطبائها الاكتفاء بالتخدير الموضعي.

وحملتها الى غرفة الجراحة. وعلى رغم اعداد نفسها للامر فلم تستطع مواجهة الوضع حين رأت الطاولة تتوسط تلك الغرفة. وجمدت بين يديّ وصرخت: "لا، ليس الآن." وتشبثت بي وهي تخشى الفكاك.

وبعدما استعادت رباطة جأشها قالت: "حسناً، اني حاضرة الآن." وهممتُ بوضعها على الطاولة تمهيداً لفتح الثقب في صدرها. واذ ذاك لم أعد أقوى على التجبُّر. وانبجست دمعة واحدة من البركة التي تجيش في عينيّ. ورأت ألكسندرا ذلك، وشاهدت وجهي وأنا أنحني لأضعها هناك. وقالت بهدوء ولكن بالحاح: "انتظروا قليلا."

وظننا كلنا أنها تحاول أرجاء الجراحة أكثر. غير أنها لم تفعل شيئاً من ذلك، بل نهضت بتأنٍّ، وبلمسة ملاك مسحت الدمعة عن وجهي.

والحق أني لن أعرف عذوبة كتلك العذوبة ما حييت·

وقالت: "آه، يا بابا، اني آسفة لازعاجك·"

وأشاحت احدى الممرضتين وجهها وأخذت تشهق وتبكي، فيما أسرعت الاخرى خارج الغرفة· وانقضى وقت قبل أن نستطيع استئناف العمل·

وبعد ذلك لم تعد ألكسندرا تتحاشى موضوع الموت على الاطلاق·

وذات يوم سألت ممرضتها: "هل سأموت حقاً يا بربارة؟"

ـ ليس الآن، ليس الآن· ولكن لماذا تطرحين هذا السؤال·

"أخشى أن تسبب وفاتي حزناً لامي وأبي· واني خائفة خصوصاً على أخي كريس الذي سأتركه وحيداً بلا أخ ولا أخت·"

كما خافت ألكسندرا ألا تغادر المستشفى البتة· وذات مساء قالت لي: "آه يا أبي، كم أود العودة الى البيت· لقد بقيت هنا طويلا حتى نسيت شكل بيتنا·" وأظن أن خشيتها من الموت في المستشفى فاقت خشيتها الموت في ذاته· ومنذ ذلك الحين بت أنا أو كارول ننام داخل غرفة ألكسندرا في المستشفى· فهي كانت تحتاج الى وجود شخص ممن تحب معها خوفاً من أن تموت وحيدة·

وبعد يومين طرحت موضوع الموت على نحو مباشر: "لماذا كتب علي أنا الموت الآن يا أمي؟"

ولم تقصد الكسندرا القول انها تقضي فيما نحن نبقى· لكنها كانت تسأل عما اذا كان موتها آنذاك أمراً محتوماً· ويبدو أن كارول كانت مستعدة لسماع ذلك السؤال، وأنها أعدت له الجواب الآتي: "لا بد من أن يكون لله تعالى سبب في ذلك· وربما هو شاء أن يجعلك قدوة للاخرين في الشجاعة حيال العذاب والالم والموت·"

واكتفت ألكسندرا بهز رأسها· ويبدو أنها اقتنعت بجواب أمها·

وكان علي تمضية بضعة ايام خارج المدينة بدءاً من ١١ ديسمبر (كانون الاول)· لذلك قصدت المستشفى لرؤية الكسندرا قبل رحيلي· الا أن الامور لم تكن تجري حسناً· وبدا أنها لن تخرج من ذلك المكان حية· ولكن ما ان دخلت عليها حتى استقبلتني بوجه طافح حبوراً وقد طُلي بالاصباغ على يد خبير تزيين دار على الاطفال المرضى كلهم· وراحت ألكسندرا تلعب دور المهرّج· وضحكنا معاً وتحدثنا عن الاحلام والآمال والصلوات· ثم دخلت كارول من غير أن نتوقعها· وسرّت ألكسندرا كثيراً لأن أمها رأتها في زي المهرج، وراحت تصفق بيديها مرحبة بها وهي تقول: "انها الماما! لقد تحققت أمنيتي·"

ومما لا شك فيه أن بعض الاماني يتحقق وبعض الآمال يزهر وينمو· وفي تلك الاثناء، ولسبب لم يعرفه أحد، عادت رئتا ألكسندرا تعملان بعد سحب الانابيب·

وذهبت كارول وأمها لزيارة ابنتنا يوماً ومعهما تنورة باليه مزخرفة· وسرعان ما لبستها ألكسندرا وانطلقت ترقص في الاروقة وقد جرّت الحقن

الوريدية معهـا، فيمـا خـرج الاهـل والممرضات من الغرف ينظرون اليها باعجاب.

وأسرّت اليّ كارول لاحقاً: "كان ذلك أمراً لا يُصدق. لقد رقصت باندفاع يفوق الوصف. كأنما أدركت أنها تؤدي رقصتها الاخيرة أمام جمهور شاءت أن تمنحه أفضل ما لديها. وهي نجحت في ذلك حقاً."

وبعد أيام أعتقت الكسندرا من المستشفى، وكان ذلك في الخامس عشر مـن ديسمبـر (كـانـون الاول) ١٩٧٩. وقال لي الطبيب: "لا يمكنني أن أفعل لها شيئاً. وهي تعرف ذلك."

وكانـت ابنتـنـا، كلمـا غـادرت المستشفى قبل ذلك الحين، قالت لممرضتها بربـارة: "سأراك المـرة المقبلة حيـن يحملوننـي الـى هـذا المكان الخسيس." لكنها هذه المرة طوّقـت بربـارة بذراعيهـا وقالـت: "وداعـاً! انـي ذاهبـة الـى البيـت لاموت. ولكن أرجوك ألا تخبري أمي أو أبي بذلك لانه سيحزنهما."

وحملتها أمها وأخوها الى البيت وأوهماها أني لا أعرف شيئاً عن عودتها. وعندما رجعتُ من رحلتي ذلك المساء كانت ألكسندرا مختبئة في خزانة ثياب. لذلك قلت بصوت مسموع: "سآكل على عجل ثم أذهب الى المستشفـى لرؤيـة الكسنـدرا." وعندئذ برزت من الخزانة وأسرعت نحوي وقد فتحت ذراعيها.

ولا تزال صورتها عالقة في مخيلتي بوضوح تام وهي تركض - أجل، تركض - وقد أشرق محياها فرحاً واحتوى ضحكها كل ما يمكن من رجاء وأمنيات وصلـوات، فيمـا حملتـهـا وقبلتهـا ورفعتـهـا الـى أعلـى مـا أستطيع، وكأنها نورس على وشك أن يغلفه الغيم.

"الحرية، ولو مرة واحدة"

كان كلب الصيد تشوسر الذي نملكه والذي بلغ الثانية عشرة كلباً لعوباً في مـا مضـى، يجلـس علـى قائمتيـه الخلفيتين دقائق وهو يلهو ويمرح. الا انه أخذ يتجه نحو الكسل وعدم المبالاة. وكان ابننا كريس اكتشف جرواً أبيض في محل قريب لبيع الحيوانات الأليفـة. وكـان نشيطـاً، عريض الاذنين، محباً للدلال. وأسرع كريس الى أخته يخبرها عنه. وجاءت النتيجة أن ألكسندرا كتبت رسالة الى سانتا كلوس (بابا نويل) قالت فيها: "أود الحصول على جرو أبيض في عيد الميلاد... أعرف أني أطلب كثيراً، ولكن ثق يا سانتا أن هذا الكلب سيقويني على احتمال مرضي. مع محبتي."

وذهبت مـع كريـس الـى المحـل واشترينا الجرو، وطلبنا من الموظف المسؤول ارساله ليلة عيد الميلاد. وفي تلك الاثناء كانت ألكسندرا تلاعب خروفها الكبير "تينك" المصنوع من الفرو. وتعين عليها أن تنام وقتاً طويـلا، ولكـن فـي وضـع الجلـوس وبالاتكاء علـى وسائـد عـدة وهـي منحنية فوق "تينك". والظاهر ان ذلك الوضع أعان على فتح صدرها قليلا لادخال المزيد من الهواء الى رئتيها.

وبات واحد منا، نحن الثلاثة، ينام

الى جانب الكسندرا٠ وصار تنفسها عسيراً بحيث قدرت أن أي نفس قصير يسبب لها الالم٠ وانتفخت ركبتاها من التهاب المفاصل٠ وتبين لي وأنا أحكّ ظهرها أن عظمها يكاد يخرج من جلدها٠ وازدادت حال كبدها سوءاً، ولا أحد سوى الله عرف ما بقي لها٠

لكن الاسوأ من هذا كله جاء عندما بدأت تعجز عن تنشق الهواء٠ واذ ذاك كانت تصرخ: "ساعدوني! ساعدوني!"ولكن لم يكن ثمة شيء نستطيع فعله من أجلها٠ وكان واحدنا يكتفي بتعزيتها والقول لها: "ماذا يمكنني أن أفعل يا حبيبتي؟"

وكانت أيام أربعة تفصلنا عن عيد الميلاد عندما قالت كارول: "أظن أنه يجدر بنا احضار الجرو اليوم٠" ولم أشأ تحقيق رغبتها بادىء الامر٠ وكنت عبر السنين شاهدت في الصحف رسوماً لاشجار الميلاد تقام أحياناً في الصيف لأن أحد الاطفال لن يعمرّ حتى عيد الميلاد٠ لكني نمتُ بجانب ابنتي تلك الليلة، فاقتنعتُ برأي كارول٠

ولما قمتُ صباحاً كتبتُ لها رسالة باسم سانتاكلوس تقول ان ذلك الجرو يعاني الوحشة في القطب الشمالي، وان سانتا وزوجته ارتأيا نقله الى وستبورت قبل أيام من الموعد المحدد كيما يتسنى له أن ينعم بالدفء مع طفلة جميلة هادئة٠

ورحبت ألكسندرا كثيراً باقتراح سانتا٠ وسمينا الجرو "بفالو"٠ وحين وضعناه في حضنها وأخذ يتحرك ويقفز ويجعلها تسعل وتلفظ البلغم من رئتيها، أدركنا انه أعطى ثمنه أضعافاً منذ اللحظة الاولى٠

وذهبنا ليلة الميلاد الى الكنيسة المجاورة للمشاركة في ترانيم العيد٠ وارتدت ألكسندرا ثياباً جديدة هي عبارة عن تنورة حمراء وقميص أبيض تتدلى منه ربطة عنق حمراء٠ وبدت أشبه بلعبة تشيع منها الانوثة، وأحبت ملابسها الجديدة٠

وسمعنا المزيد من ترانيم الميلاد المسجلة لدى عودتنا الى البيت٠ وكانت ألكسندرا متعبة كثيراً٠ وقبل أن تنام تلت صلاتها المعتادة وأردفتها بتضرّع ارتجلته من أجل جميع أطفال العالم الفقراء، علهم يستمتعون بعيد ميلاد سعيد كالذي نعمت به هي٠ ولم تكن المرة الاولى تفعل شيئاً من ذاك القبيل٠ وبعد ذلك اتكأت على وسائدها ونامت سريعاً٠

لقد كان ميلاداً بهيجاً حقاً ميلاد ١٩٧٩٠ وحرصت انا وكارول على جعله مناسبة خاصة جداً٠ حتى الكلبان تلقيا الهدايا في ذلك اليوم٠ وكل ما تمنيناه أن تبقى ألكسندرا معنا٠ وأمضينا صباحاً جميلا معاً٠ وبعد فتح جميع الهدايا أتى العياء على ابنتنا ولم تقوَ على التوجه الى غرفتها لتنام قليلا٠ الا أنها استلقت على الاريكة في غرفة الجلوس وغطت حالا في نوم عميق وهي تعانق الخروف "تينك"٠ ونظرنا اليها وهي في ردائها الازرق ونحن نبارك الجمال الذي بقي لها وهي في أوج المرض٠

وعندما أفاقت وجدت كارول في غرفة أخرى٠ وقالت لها: "اسمعي يا أمي: لقد كان هذا العيد رائعاً بالنسبة

الي. فأنا حصلت على كل ما أريد. ولئن يكن هذا المرض رهيباً، فلا شك في أن وجود بفالو سيرفع عني بعض العبء... يا لها من هدية رائعة جاءني بها سانتاكلوس."

ـ أنك تسعدينني جداً بهذا الكلام يا حبيبتي.

"أتعرفين يا أمي ما هو الامر الذي فكرت فيه كثيراً؟"

ـ كلا، ما هو؟

"طالما تساءلت يا أمي عن شعور الشخص المتحرر من المرض. ولكم أتمنى أن أعرف ذلك الشعور ولو مرة واحدة، ولو يوماً واحد. آه كم أحب أن أصحو يوماً من غير أن أشعر بالالم أو الدوار أو أي ازعاج آخر. آه لو تكون لي الحرية، ولو مرة واحدة."

قطـّع النجوم

أجل، لقد استطاعت الكسندرا الاستمتاع بعيد الميلاد. ولكن ما ان انقضى العيد حتى تبدّل الامر في اتجاهين: فمن ناحية ازداد ألمها، ولكن من ناحية أخرى عرفت سلاماً نفسياً لم تعهده من قبل. وعندما نمت بجانبها ليلة الميلاد انقطعت أنفاسها مرتين وجمدت في السرير حتى ظننتها ميتة. وفي المرتين كلتيهما كانت تسعل وتصرخ: "ساعدوني! ساعدوني!" وبعد هدوء نوبة السعال كانت تقول: "اعذرني يا أبي لايقاظك من النوم."

وهكذا عاشت ألكسندرا أياماً أخرى. لكنها غدت من الضعف بحيث لم تستطع اللعب مع كلبها الصغير بفالو، وإن ظلت تضحك للطرائف والنكات التي حملها كريس من المدرسة، كما لكل طرفة تكتشفها حولها. وفي وقت لاحق كتبت الينا احدى رفيقاتها في المدرسة: "أظن أنكم لا تزالون تسمعون ضحك الكسندرا. لقد أحببتُ هذا الضحك على الدوام، وهو يعبر عن مرحها ومحبتها. وطالما منحني ضحكها السرور."

وبعد أسابيع من عيد الميلاد كنت وكارول نتكلم في غرفة الجلوس. وتولدت لدينا قناعة، نحن الاثنين، بأن ابنتنا لن تعيش أكثر من اسبوعين. وفجأة صاحت ألكسندرا: "ساعدوني! ساعدوني!" وهرعت كارول الى فوق وقد تجاوزت عقارب الساعة نصف الليل وبدأ التاسع عشر من يناير (كانون الثاني) ١٩٨٠.

وكان عليّ أن أنام الى جانب ابنتي تلك الليلة. لكن كارول ارتأت أن ننام معا في سريرها. والواقع أن أياً منا لم يذق طعم النوم كثيراً. فقد كانت آلام ألكسندرا مبرحة، والحبوب التي أعطيناها اياها ظلت بلا مفعول. وأخيراً، نحو الثالثة والنصف فجراً، خابرنا طبيبها الذي حضر حالا وأعطاها حقنة مورفين جعلتها تنام حالا.

في تلك الاثناء كان كريس نائما في بيت أحد أصدقائه. وآثرنا عدم الاتصال بالعائلة ليلا. لكننا أسرعنا الى استدعائه مع طلوع الضوء. وبادرني وهو يدخل البيت: "هل سنعيد الكسندرا الى المستشفى يا أبي؟"

وهززت رأسي وقلت: "كلا يا

كريس، فالمسألة باتت تتجاوز المستشفى. وأظن أن أختك ستقضي في وقت ما هذا اليوم."

وحدّق الي وهو لا يصدّق ما يسمع. ثم ارتمى بين ذراعيّ وراح يبكي. ولما انقطع نشيجه قلت له: "تعال الآن، ان الكسندرا تودّ رؤيتك."

وتهللت كثيرا حين دخل أخوها، وقالت له: "آه يا كريس، يا أخي الصغير." وتحادثا قليلا. ثم وجدت ألكسندرا أنه منفعل كثيرا، فاقترحت أن يلعب بعض الوقت. ونصحناه أنا وكارول باللعب خارجاً والدخول لرؤية أخته كل ساعة أو نحوها.

وكانت ابنتنا تغفو من حين الى آخر. ومع انقضاء النهار فارقتها الحماسة وقلّ كلامها وأخذت تصغي أكثر مما تتكلم.

وراحت كارول تستعيد حياة ألكسندرا. وانضممتُ إليها منْ غير أن نكون هيأنا شيئاً من هذا الامر الذي جاء عفو الخاطر، ولكن في مكانه. وذكرنا الاشخاص الذين عرفتهم ابنتنا وأحبتهم والسعادة التي أدخلتها على حياتهم، وجميع الامكنة التي زارتها والاشياء الرائعة التي فعلناها معا. كما تحدثنا عن مدرستها ومنزلنا، وعن تشوسر وبفالو، وعن المستشفى والصداقات التي عرفتها فيه. وانتقلنا الى الاغنيات التي أحبتها ومسرحيات برودواي التي حضرتها والرقص. وما من ذكرى تطرقنا إليها إلا وتدور على الحب. وبقي ذكر الحب على شفاهنا طوال الوقت.

بعدئذ انتقل كلامنا الى السماء والله والارواح والملائكة. وقالت لها أمها ان الملائكة لا يعانون المرض، وانهم يرقصون ويمرحون بين غيوم السماء طوال الوقت. وابتسمت ألكسندرا وسألت أمها: "ماذا تعرفين عن الاجنحة؟"

- حسناً، جميع الملائكة لها أجنحة.

"أعني هل سيكون لي جناحان فور صعودي الى السماء؟"

- أجل، سيكون لك هذا منذ اليوم الاوّل. وإذ ذاك ستصبحين الملاك الحارس الذي ينظر إلينا من فوق.

وابتسمت ألكسندرا مرة أخرى. ولم ينقضِ وقت طويل حتى خارت قواها. وعندما دخل أخوها ليراها نحو الثانية عصراً فتحت عينيها وقالت للمرة الاخيرة: "اني أحبك يا كريس."

ويبدو أن كلامها كلفها جهداً كبيراً. وحين أرادت جرعة شراب مرطب لاحقاً اكتفت بالاشارة الى الزجاجة التي تحويه. ووضعت كارول قشة الشرب في فمها، فشربت قليلا وابتسمت علامة الشكر. وتلك كانت ابتسامتها الاخيرة. وبذلت البقية الباقية من جهدها في التنفس. وبعد ذلك تناوبنا حملها، أمها وأنا، ونحن لم نزل نحدثها عن الحب.

وقبيل الثالثة انتصبت الكسندرا. ولم تصرخ هذه المرة، إذ لم تبقَ لها طاقة لذلك. وظهر على وجهها ذهول فسرناه على أنه النهاية. الا أن شيئاً ما أبقاها معنا أطول قليلا. وربما هي شاءت أن تختبر الموت قبل أن تفقد

وعيهـا كليـاً، لذلـك استلقـت علـى صدري، فيما أمسكت كارول يديها وأخبرتها عن محبتنا لها التي لن تزول، وربما قالت ألكسندرا لنفسها في تلك اللحظة: "هكذا، إذاً، أموت: على صدر أبي وبين يدي أمي، هكذا، هكذا أموت،"

وبعدما عرفت ألكسندرا كيف يكون الموت عادت تتكىء على خروفها "تينك"،

وانقضت دقائق لم يتفوه أحدنا خلالها بكلمة، ثم انتصبت ابنتنا ثانية وأدركتُ هذه المرة، من غير شك، أن هذا هو سلطان الموت، واسترخت علـى صدري وقـد سقط جسمها الصغير على رجلي اليمنى التي ثنيتها فوق السرير، وأمسكت كارول يديها مرة أخرى وأخبرتها عن مقدار محبتنا لها، هذه المحبة التي لا يمحوها شيء، وابتعدت ألكسندرا عني قليلا ثم جلست وحدها وكأنها تحررت تماما من الالم ونظرت الينا عينا بعين، وراحت تنقل أنظارها بين أمها وأبيها حتى خيل الينا أن تلك النظرات تحفر جسدينا حفراً،

وليعذرني قارىء هذه السطور، فهكذا يموت الاطفال،

وها أنذا اليوم لا أزال أبصر تينك العينين وقد انفتحتا على اتساعهما كأنهما تقولان: "هل تصدّق يا بابا؟ هل تصدقين يا ماما؟ اني أموت في هذه اللحظة،"

مـاتـت ألـكسـنـدرا وعيـنـاهـا مفتوحتان، لقد انعتقت الحياة من قيود الجسد وباتـت طليقـة، وظـل الجسد منتصباً هنيهة أو اثنتين، لكنّ أنفاس ابنتي كانت توزعت أنجماً في السماء،

وهكذا قضت ابنتي الصغيرة بعد مرض طويل، عصر ذات يوم من شهر يناير (كانون الثاني) ١٩٨٠، ولها من العمر ثمانية أعوام، وهكذا تعذبت وتألمت طوال حياتها القصيرة، الا أن العذاب والألم لم يكن لهما أدنى أثر على شهامتها وحبها وكبريائها،

صلاة مستجابة

دفنا الكسندرا بعد ثلاثة أيام، وتجمع في الكنيسة أطفال كثيرون مع ذويهـم، وانطلقنـا ننشـد ترانـيـم الايمـان والرجـاء والمحبـة، وبعـد انتهاء القداس القصير أخذ رذاذ الثلج يتساقط ونحن في طريقنا الى المقبرة، ولما وصلنا الى هناك غدت حبات الثلـج كبيـرة مثـل التخريـم الابيض في ثوب أو شال، وظل الثلج ينزل هكذا طوال خدمة الدفن حتى رمـيـت وردة زهـريـة علـى كـفـن ألكسندرا، وعندئذ انحبـس الثلـج، وكأنّ الطبيعـة كانـت تبكـي عنّـا جميعاً،

وبعد ذلك استأنفنا حياتنا، وكانت أيام العطل والاعياد أقسى ما في تجربتنا الجديدة، وباتت كل حافلة مدرسية تعبر أمام المنزل تحمل إلينا ذكريـات ألكسـنـدرا، وحملـت الينـا صديقاتها البطاقـات التـي كتبتهـا إليهن في يوم المحبة، مع رسائل عنها، ومما قالتـه إحداهـنّ: "مـا أتذكره عن ألكسندرا أنها كانت دائمة الابتسام، على رغم الالم، وهي كانت تجسد معنى الصداقة على حقيقته، الا

أنها ذهبت من عالمنا، ولن يجمعني بها سوى الموت."

وجاءت اليّ كارول ذات يوم بعد انقضاء خمسة أشهر على وفاة ابنتنا، وسألتني عما اذا كنت ارغب في أن نتبنى طفلة. وقلت ان الامر لا يروقني، لكني وعدتُ باعادة النظر فيه. والحق أني كنتُ كمن يلعب على الوقت. غير أن كارول كانت جادّة في رغبتها، حتى أنها طرحت المسألة على كريس فوجدها فكرة عظيمة.

وحاولتُ التفكير في الدافع الذي جعلني أتردّد حيال فكرة التبني، الى أن جاء يوم ذهبتُ الى ضريح الكسندرا وطرحتُ المسألة أمامها. وإذ ذاك أدركتُ أن التبني ليس بالامر العادل تجاه ابنتنا الراحلة. فهي الطفلة التي وُلدت لتكبر وتشبّ بين جدران منزلنا. ومن المؤسف أنها مرضت طويلا وماتت. ولكن هل يجوز أن نأتي بطفلة غريبة تأخذ مكانها؟ هذا بدا ظلماً بالنسبة إليّ، لا بل الظلم الاكبر.

وراحت كارول تصغي الي. وكان ذلك في أمسية صيف جميلة ونحن جالسان تحت الشمس أمام حوض السباحة، بينما ذهب كريس الى الجيرة يلعب الكرة مع أترابه. هكذا اعتاد أن يفعل على الدوام، فيما كانت اخته تلبس أبهى الثياب والبهارج وتخرج لتشرب معنا كوباً من العصير أو المرطبات. وكان ذلك يحصل عادة بعد إعطائها العلاج عصراً، فلا تسعل الا اذا أرغمها شيء ما على القهقهة.

وقلت لزوجتي: "هل تفهمينني يا كارول؟ ليس في استطاعتي أن أتبنى من تأخذ دور ألكسندرا."

ـ اذا شئنا الحصول فعلا على طفل للتبني، فمن العسير أن يكون من الولايات المتحدة. والارجح أن يأتي من أحد بلدان أمريكا الجنوبية... ألا تذكر أن ألكسندرا كانت تتلو أحياناً صلاة شخصية ألفت كلماتها هي، وفيها تطلب من الله أن ينعم على أخيها كريس بأخ أو أخت؟



سكارلت فيث ديفورد.

وفي تلك اللحظة انهمر الدمع من عيني، وتبين لي أن التبني من شأنه ان يكون استجابة لصلاة حبيبتنا الراحلة.

وفي ذلك الوقت كان أخي ماك وزوجته زهرة يعيشان في مانيلا. وسألناهما إن كان في إمكانهما الحصول على طفلة لنا من الفيليبين. وأجابا أن هذا أمر سهل، وأن لديهما

معارف كثيرين. وفي الفيلبين العديد من الايتام، لكن السلطات لا تسهل إخراجهم من البلاد. ومرّت الاسابيع والاشهر. وبعد ذلك خابرنا أخي وزوجته ليقولا ان ذلك الامر مستحيل.

ولكن ما لبثا أن عثرا على ضالتنا المنشودة. وهي طفلة وُلدت في السابع من سبتمبر (ايلول). وأطلقنا عليها اسم "سكارلت" لأنه جميل وغير اعتيادي، وهو يشير الى اللون القرمزي. وانتقينا لها اسماً أوسط هو "فيث"، ومعناه الايمان، تيمّناً بالمعنى الذي أغدقته ابنتنا الراحلة على حياتنا.

الا أن إخراج سكارلت فيث من الفيلبين بدا أصعب كثيراً من العثور عليها. ومرّت ذكرى ميلاد ألكسندرا، وتلاها نوفمبر (تشرين الثاني) شهر تراكم المعاملات الادارية في مانيلا. واقترب عيد الميلاد. ولا شك في أنه سيكون كئيباً في غياب الكسندرا، وهو الاوّل بعد وفاتها. فلماذا لا نغادر البيت نحن الثلاثة؟ وهكذا قرّرنا الذهاب جميعاً الى مانيلا لاستقدام الطفلة.

وكان أن هبطنا في هاواي، حيث أرادت ألكسندرا الذهاب يوماً، لأخذ استراحة على الطريق الى الفيلبين. وكانت كارول انتزعت بعض الورود الزهرية عن ضريح ابنتنا. وذهبت وحدها الى شاطىء وايكيكي ونثرت غبار تلك الاوراد في البحر كما يُذَرّ الرماد. أجل، ذاك هو الجزء من الكسندرا الذي تسنى له زيارة هاواي أخيرا.

ووصلنا الى مانيلا لنجد بعض العراقيل في انتظارنا. ولم أجد بداً من العودة مع كريس الى وستبورت، حيث ذهب هو الى مدرسته وأنا الى عملي. وفي ١٩ يناير (كانون الثاني) اشترينا وروداً زهرية وضعناها على ضريح الكسندرا في الذكرى الاولى لوفاتها. ثم وقفنا ننظر الى مقبرتها. وقلت لابني: "هل تدري ماذا اكتشفتُ يا كريس؟"

ـ كلا، ماذا؟

"بعدما تأكدت أختك من طبيعة مرضها وحتمية وفاتها، لم تخشَ ملاقاة الموت بمقدار ما خافت أن تبقى أنت وحيداً بلا أخ أو أخت. وباتت تصلي لئلا تبقى هكذا."

وعانقني كريس وقال: "لم أعرف هذا البتة يا بابا."

وعدتُ أقول: "لقد أحببتك ألكسندرا حباً عظيماً."

ـ أظن أنها لو عرفت سكارلت لأحبتها كما أحبتني.

وفي اليوم التالي تلقينا مكالمة غير متوقّعة من كارول التي أخبرتنا أن جميع المسائل سُوّيت على نحو مفاجىء، وأنها ستحمل الفتاة وتأتي بها يوم الخميس في الثاني والعشرين من يناير (كانون الثاني).

ووصلت الطائرة في الوقت المحدّد. وذلك المساء نامت سكارلت فيث في غرفة الكسندرا للمرة الاولى، بعد مضي سنة ويوم على دفن ابنتنا في الثّرى. وهكذا غدونا أربعة أشخاص من جديد، لكن عائلتنا باتت تتجاوز مجموع أفرادها.

وبعد يومين حملتُ سكارلت وذهبتُ الى المقبرة. وقلتُ لها، وقد

طلبتُ من الكسندرا الاصغاء، اني لا أتوقّع البتة أن تصير سكارلت هي الكسندرا، واني أرفض هذا الامر. لكني وعدتُ سكارلت بأن اخبرها كل شيء عن أختها لكي تحاول الاقتداء بها. كما نفعل أنا وكارول وكريس.

وأضَفْت: "انـنـا مـحـظـوظـون بوجودكِ هنا معنا يا سكارلت، وانتِ أيضاً محظوظة. ونحن نشكر جميعَ الذين جعلوا وجودكِ هنا ممكناً. الا أنك مدينة حقاً لشخص واحد هو أختكِ، لأنها ملاكك الحارس. لقد استجاب الله صلاة الكسندرا، وكان الجواب أنت بالذات."

وكانت سكارلت طفلة سليمة الجسم قوية البنية. الا أن الوقت حان للعودة الى المنزل. وما ان بدأت طريقَ العودة وسط الجليد حتى شعرتُ بدافع مفاجىء الى الوقوف. ونظرتُ الى ضريح الكسندرا لأقول: "أليس هذا عظيماً يا حبيبتي؟ أتصدقين أن صلاتك استُجيبت فعلا؟"

وسمعتُها تضحك وتضحك وتضحك من غير أن تسعل مرة واحدة. وأتاني صوتها يقول: "أشكرك يا بابا، يا حبيبي."

أما أنا فقلت: "حسناً، إذاً، لنبدأ من جديد وننطلق من حيث نحن. غير اني اشكركِ كثيراً يا الكسندرا، لأنّ حياتنا أصبحت، بفضلكِ أنتِ، أغنى كثيراً مما كانت."

■ **فرانك ديفورد**



الماراثوني الاول

في مادة الحضارة الغربية راح المحاضر يروي قصة فيدييبيديس أحد ابطال الاغريق الذي، من أجل الحصول على مساعدة بني قومه لصدّ الفرس المغيرين على سهل ماراثون، ركض مسافة ٢٤٠ كيلومتراً الى اسبارطة. وحين استنكف الاسبارطيون عن المساعدة قطع المسافة نفسها ركضاً للدفاع عن سهل ماراثون. ولما تحقق النصر للاغريق ركض ذلك الرجل الى أثينا مسافة ٤٢ كيلومتراً لزفّ البشرى الى الحكومة. وبعد ذلك سقط ومات. والمسافة التي قطعها بين سهل ماراثون والعاصمة اليونانية أصبحت تميز "سباق الماراثون" للركض.

وفي نهاية المحاضرة رفع أحد الطلاب يده وقال: "هل سجل الوقت الذي استغرقه قطع تلك المسافة؟".

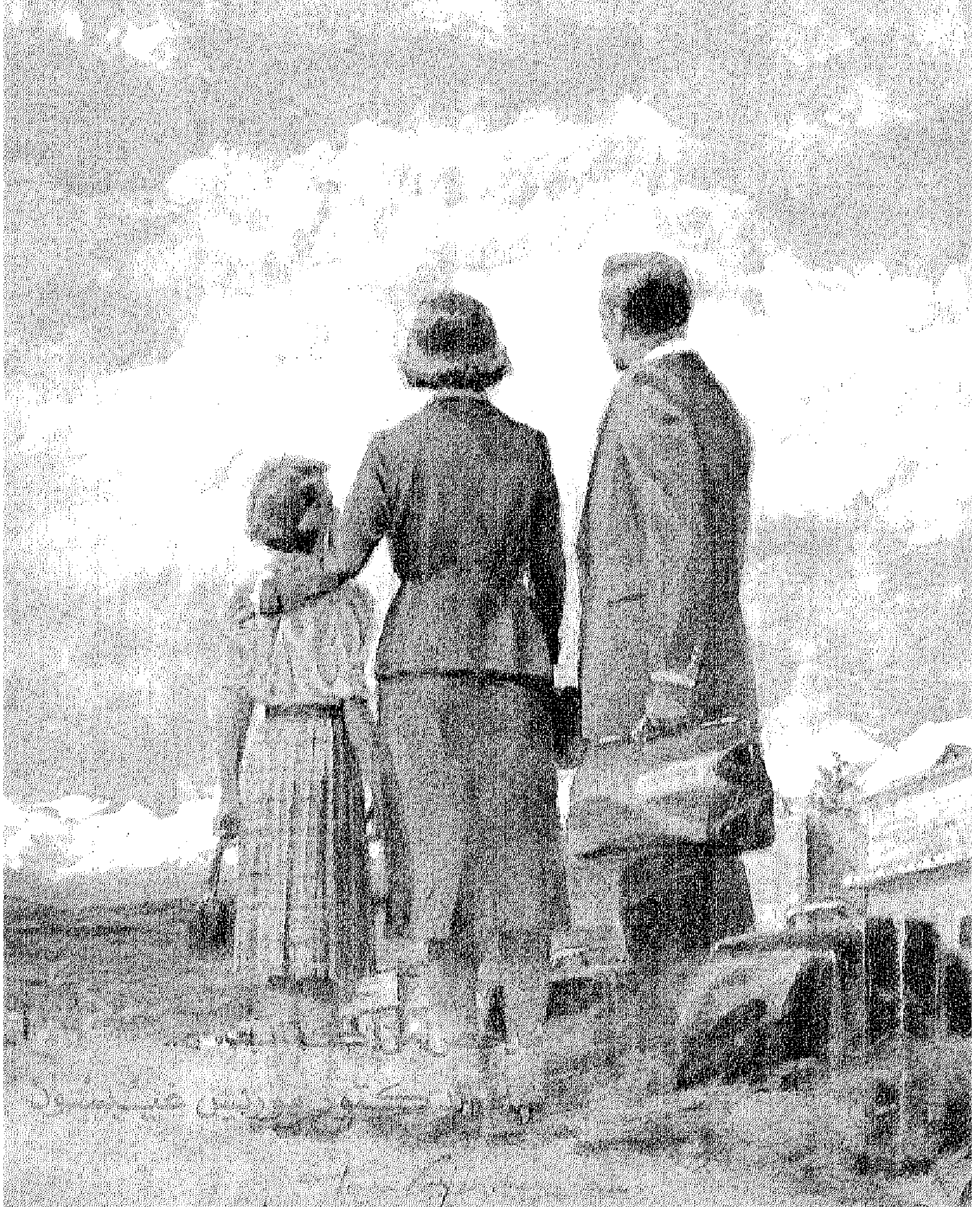
ب.ب.

لقد انتشرت استطلاعات الرأي العام على نطاق واسع، حتى تجاوز عدد الذين يطرحون الاسئلة عدد المجيبين عنها.

أ.و.

كتاب الشهر

طبيب في الريف



طبيب في الريف

في هذا الكتاب الذي يجمع بين العاطفة والمرح، يصف الدكتور موريس غيبسون كيف تخلى هو وزوجته عن عملهما الطبي المزدهر في بريطانيا وهاجرا الى كندا، ليستقرّا مع ابنتهما في بلدة صغيرة بحثا عن معنى جديد لحياتهم. وكان عليهما، في ذلك المكان المنعزل، ممارسة الجراحة والتوليد وقلع الأضراس ومعالجة الجياد الخائرة. وهذه القصص الممتعة تلقي ضوءاً محببا على تلك القرية الآمنة وحياة أهلها.



"ها نحن نبدأ المرحلة الاخيرة من رحلتنا." قال سائق سيارة الأجرة هذا الكلام فيما الطريق المفروشة بالحصى تنعطف يمينا لتقضي من تلة الى أخرى. وأضاف: "إنظروا الى اليمين."

وبعدما ارتقينا التلة الاولى انبسط أمامي منظر لن أنساه ما حييت. فعلى بعد ثمانين كيلومتراً غرباً انتصبت جبال روكي التي تمتد ما لا يقل عن ١٥٠ كيلومتراً الى الشمال والجنوب، وهي جلية ومشرئبة نحو السماء. وكانت رؤوسها المسننة مغطاة بالثلج، وقد توسطتها صخور قرمزية وزرقاء وبنية اللون.

وصاحت ابنتنا كاتريونا ذات الاحدى عشرة سنة: "بابا، أنظر! انها جبال روكي."

وقالت زوجتي جانيت: "لم أحلم أن أرى هذه الجبال قط في حياتي."

وظلت طريقنا تعلو وتنخفض حتى بلغنا أعلى تلة أشرفنا منها على واد. هناك كان نهر يجري متألقاً تحت الشمس ويشعب طريقه بين الاشجار. وظهرت بعض السطوح الملونة والمنازل المختبئة بين الشجر وشارع أو شارعان. وأكمل السائق طريقه الى البلدة ووصل الى تقاطع طرق. وهناك قال: "هذه هي أوكوتوكس! انها بلدتكم الجديدة."

وأوقفنا السائق عند رصيف في أحد الشوارع، ثم عاد أدراجه وقد خلف دوامة من الغبار. واتجه في الطريق المؤدية الى مدينة كالغاري عاصمة مقاطعة ألبرتا الكندية، فيما بقينا نحن هناك ومعنا حقائبنا. ونظرت الى عائلتي الصغيرة وسألت نفسي عما اذا كنت مجنوناً حقاً. فما الذي جعلني أستغني عن عملي الطبي المزدهر في بريطانيا وأجر زوجتي وابنتي ثمانية آلاف كيلومتر الى هذه البلدة الصغيرة؟

ان قرارنا الهجرة الى ألبرتا لم يكن سهلاً. فقد كنت وزوجتي نقترب من منتصف العمر، الامر الذي يبعد الانكليزي التقليدي عن طلب المغامرات ويشده الى حيث هو. وكلانا طبيبان، وقبل أسابيع قليلة كنا نمارس المهنة في عيادتنا المشتركة في بلدة هال وسط منطقة يوركشير الانكليزية. واتخذنا بيتاً لنا على بعد كيلومترات قليلة في قرية وست ايلا القديمة الجميلة. وكانت لنا صداقات متينة في الجسم الطبي وفي المستشفيات المحلية المرموقة. أما ابنتنا كاتريونا فأحبت مدرستها كثيراً.

وعملنا الطبي المشترك يعود الى ما بعد الحرب العالمية الثانية. وعندما استهلت بريطانيا برنامج الضمان الصحي عام ١٩٤٨ أيدناه بحماسة لأنه يحصن الفقراء ضد التكاليف الطبية الباهظة.

الا أن اشراف الدولة على المهنة الطبية جعل منها أمراً خاضعاً لمحدوديات الادارة. ومع الوقت خاب أملي وأمل زوجتي في نظام الضمان الذي دعمناه بكل قوانا يوماً. فالاشخاص الذين يحتاجون حقاً الى العناية المجانية لا يحصلون عليها، في حين ينالها بعضهم لامراض

تافهة مثل قشرة الرأس. وكلما زرت بيتاً لمعاينة احد المرضى كان أفراد العائلة الآخرون يستثيرون شفقتي لمعاينتهم واحداً واحداً.

وبعدما ضقت ذرعاً بالتوقيع على سيل لا ينقطع من المعاملات الطبية، باشرت دراسة القانون في أوقات فراغي. وذات ليلة دعتني قابلة لمساعدتها في توليد امرأة. ولما عدت فجراً جلست أقرأ في كتب القانون. وفجأة سمعت زوجتي تقول: "لا تقلق يا عزيزي، فانك ستحصل على شهادة الحقوق التي تسعى اليها. الا أنك ستبقى طبيباً على الدوام. وأفضل طريقة لانفاذ مهنتنا هي الهجرة."

وذات يوم بارد وماطر من شهر مارس (آذار) ١٩٥٥ عرّجت على نادي الاطباء لتناول الغداء. وانضمّ الي زميل وبادرني: "اذاً أنت ذاهب الى كندا يا غيبسون؟"

- هذا صحيح.

"وأظن أنك ستذهب الى مونريال، ذلك المكان البديع الذي تتلاقى فيه ثقافتان عظيمتان: الانكليزية والفرنسية."

- كلا، بل نحن ذاهبون الى بلدة صغيرة على سفح جبال روكي. وهي بلدة أوكوتوكس في منطقة ألبرتا، وعدد سكانها ٦٧٠ نسمة.

"يا إلهي! لماذا لا تقصدون تركيا؟ انها اقرب من أوكوتوكس الى الحضارة."

- ان رأينا، أنا وزوجتي، أن نذهب الى حيث الحاجة اكبر، بصرف النظر عن كون ذلك المكان مدينة أو قرية. وقد أعطانا المسؤولون في دائرة الهجرة ثلاثة أسماء، اختارت جانيت من بينها بلدة أوكوتوكس لأن حرفي الواو والكاف، اللذين يشيران الى "اوكي" (أي "حسناً") يتكرران فيها (★).

وتمنى الزميل لنا حظاً سعيداً وهو يبتسم على مضض.

خطأ فظيع

فيما نحن واقفون على قارعة الطريق بدا لنا أن أوكوتوكس ليست بالمكان السعيد. ونظرت بعينين نصف مغمضتين الى الشارع الرئيسي الذي تلفه الشمس، ورأيت عبره المباني ذات الواجهات المموهة والفندق القديم. وبدا لي انه لا يُستبعد خروج أبطال الكاوبوي من أفلامهم في أي لحظة وركوب جيادهم وسط ذلك الشارع.

وتكلفت المرح وأنا أقول لزوجتي وابنتي: "هيا بنا نحجز غرفة في الفندق، ثم نبحث عن غرفة التجارة."

وأسرعنا الى بهو الفندق حيث كانت الارض عارية وقد تردد فوقها وقع خطانا. وشاهدنا في الزاوية هناك أربعة رجال أو خمسة يرتدون السراويل الزرق وقبعات الكاوبوي العالية العريضة الاطراف وهم يلعبون الورق (الشدة). وتوقفوا عن اللعب ليتفحصوا أشكالنا بهدوء، ثم استأنفوا لعبهم كأن شيئاً لم يكن.

وحين أخبرت صاحب الفندق جو ميلر عمن نكون، ظهرت عليه أمارات الدهشة وقال: "يسرني أن أعرف أن

(★) Okotoks

لدينا طبيباً جديداً، لا بل اثنين."
وانحنى احتراماً أمام جانيت وأضاف: "أنت أول طبيبة أسمع بها."

وقلت له: "اني أحتاج الى مساعدتك للاتصال بغرفة التجارة التي دبرت قدومنا الى هذا المكان مع سلطات الهجرة الكندية."

وأجاب السيد ميلر: "لم أسمع بأي غرفة تجارة في هذه البلدة. ولكن دعني آخذكم الى غرفتكم أولا. وبعد ذلك أظنّ أن عليك أن تقطع الطريق وتبحث في المسألة مع الصيدلي. واذا كان ثمة غرفة من هذا القبيل، فلا بد من أنه يعرفها."

ودلنا السيد ميلر على غرفتنا. وبدا لي أن هياكل الاسرة النحاسية تعود الى أول عهد الفندق في مطلع القرن. والامر نفسه يصح على طلاء الجدران المزينة بالرسوم والتي تكشف عن حديقة انكليزية مع كوخ ريفي.

ولم أدرِ كيف وضعت الحقائب لأذهب الى الصيدلي السيد بيري وأعرّفه بنفسي ثم أقول: "أين أجد غرفة التجارة في أوكوتوكس؟"

– ليست هناك غرفة تجارة في البلدة.

"يا إلهي! لقد قطعنا مسافة ٨٠٠٠ كيلومتر لنمارس مهنتنا هنا، ولكن يبدو أن أحداً لم يسمع بنا."

ووعد السيد بيري بأن يتدبر الامر بنفسه.

وعدت الى غرفتنا في الفندق حيث كانت كاتريونا وجانيت تفرغان الحقائب بصمت. وجلست في كرسي ورحت أراقبهما. وانقضت ساعة بدت دهراً. وبعد ذلك سمعت طرقاً على الباب. ولما فتحت رأيت ثلاثة رجال، أحدهم السيد بيري الذي ما زال في بزته الصيدلية البيضاء. وكان أحد رفيقيه يرتدي بذلة رسمية والآخر ملابس صيفية. وبادرني الصيدلي: "لقد عثرت على غرفة التجارة."

وعندئذ دخل الآخران الى الغرفة. وكان الرجل الطويل الذي يرتدي الملابس الصيفية تاجر عقارات اسمه جاك مستون، والآخر مدير مصرف محلي اسمه فرانك بو.

وقلت: "لأبدأ بالتعبير عن فرحي بلقائكم. لقد راودنا الشك حول وجودنا في المكان الصحيح."

ورد جاك مستون: "دعني أصارحك يا دكتور بأنّ شكك في موضعه لأن ثمة خطأ في الامر. فنحن لا ننتظر قدوم أحد."

وفغرت فمي تعجباً. وعندئذ أسرع السيد مستون الى القول: "لا تخف. فنحن سعداء بوجودكم هنا. الا أننا لم نتلق أي خبر من السلطات حول قدومكم. ولم نعدّ لكم مكاناً."

وعدت أقول بتعجب: "ولكن ألم تقدموا طلباً الى المسؤولين لارسال طبيب الى أوكوتوكس؟"

– هذا صحيح. غير أننا لم نتلقّ جواباً البتة.

وهنا قال فرانك بو الذي ظل صامتاً حتى ذلك الحين: "سنحاول حل المسألة على نحو أو آخر. فهذه البلدة تحتاج الى طبيب، خصوصاً في الشتاء. فمدينة كالغاري تبعد ٤٠ كيلومتراً. أما أقرب مستشفى فهو في بلدة هاي ريفر التي تبعد ٤٥ كيلومتراً. الا أن هذه المسافة بعيدة

جداً في الشتاء، حين تكون الحرارة ٣٥ درجة مئوية تحت الصفر وتسد الثلوج جميع الطرق."

وسألته: "أتظن أن ممارسة الطب هنا تدرّ علينا ما نعيش به؟"

وأجاب بو: "أجل، هذا ممكن. ففي المنطقة نحو ألفي نسمة. وأظن أن صيت الطبيب القدير يذيع بسرعة. وأرجو أن تعطينا بضعة أيام نتدبر خلالها الامر كما ينبغي."

ولما انصرف زوّارنا رحت أذرع تلك الغرفة وأنا أنظر تارة الى كاتريونا وطوراً الى جانيت، وأتمنى ألا تكون أي منهما لاحظت أزدياد القلق لديّ. وفجأة صاحت ابنني: "أبي، أبي! تعال وانظر: هذا كاوبوي حقيقي وسط الشارع."

وأسرعنا الى النافذة لنرى حبّالا في لباسه التقليدي الكامل، وهو منظر لم نشاهده الا على الشاشة قبل ذلك الحين.

وحين أوى كل منا الى سريره لم أقوَ على النوم. وبعد ساعات من الارق نهضتُ لأجد جانيت تغطّ في نومها. أما كاتريونا فكانت مستيقظة.

ودعتني وقد وضعت اصبعها على شفتيها، وركعت بهدوء عند سريرها، وراحت تقول لي همساً: "اسمع يا بابا: مهما يكن قرارك، فقد اتخذته للأفضل. وكن على ثقة أني وأمي نساندك."

ولما قالت هذا طوقتني بذراعيها وقبلتني وأضافت: "أرجوك الآن أن تذهب الى السرير وتنام، لأن كل شيء سيكون على خير ما يرام."

في الصباح التالي انطلقنا لاستكشاف البلدة بدءاً بالشارع التجاري الرئيسي شرق فندق ويلينغدون. ولم نجد بشراً هناك. وكانت المحلات مقفلة، وهي مبنية بالخشب وتحمل واجهات شكلية تخللتها فجوات فارغة. ورأينا الاكواخ الخشبية القديمة التي سودتها العوامل الجوية وانحنى بعضها الى جانب واحد. وكان العشب أمامها أصفر ذاوياً. أما الشجيرات القليلة التي بدت هنا وهناك فكانت عارية من الورق وخالية من الثمر.

الابتسام الجريء

كانت جانيت وكاتريونا تبتسمان بجرأة. أما أنا فبلعت ريقي أسفاً حين عبرت ذهني صورة بيتنا وحديقتنا في وست ايلا، مع أزهار النرجس والساحة الدائمة الخضرة. وسألت نفسي عما اذا كان يحسن بنا أن نعود الى بريطانيا.

وفجأة توقفت سيارة بجانبنا وقال سائقها: "أتتفضلون بمرافقتي؟"

وأجبته: "كلا، شكراً، فنحن نودّ رؤية المكان عن كثب."

وعاد السائق البهيّ الطلعة يقول: "اسمي بوب ميتشل. وأنا وزوجتي نملك مخزن منوّعات. واذا كان لديكم الوقت، ففي ودي أن أريكم البلدة ومشارفها."

ولم نستطع مقاومة ذلك الرجل الكريم. وبعد قليل كنا خارج البلدة في أرض ريفية. هناك يستطيع المرء رؤية سفوح التلال غرباً وهي تجيش كموج البحر قبالة جبال روكي. والى

الشرق تنبسط الاصقاع الجرداء على مد النظر. وتطلعنا الى فوق، فاذا بنا تحت قبة السماء الغربية الزرقاء، وكنت في طفولتي عرفت أراضي اسكوتلندا السبخة التي يغلفها الضباب. لكني لم أعرف شبيهاً لهذه الارض من قبل. وغمرني الفرح اذ اكتشفت فيها جمالا نابضاً.

وعبّرتُ لبوب ميتشل عما يجول في فكري، فهزّ رأسه. وكان ينظر ناحية النهر المتلألىء تحت نور الشمس، حيث وقف صيادان على الضفة يرميان الشباك برباطة جأش. وقال بوب: "أنت على حق. لكن المشكلة أن يد الانسان بدأت تفسد جمال الطبيعة. ويكفي أن تنظر الى هذين الصيادين وهما يعبثان بماء النهر."

وللمرة الاولى في أيام حانت مني ابتسامة.

وأخذنا بوب ميتشل الى منزله حيث أعدّت لنا زوجته مايبل الشاي والحلوى. وفجأة اصطخب الجو بالحديث عن بريطانيا، حيث خدم بوب عسكريته خلال الحرب. وسرعان ما بدا أننا أصدقاء قدامى.

وبعد شهر أخبرتُ بوب كيف قدرنا لطفه صباح ذلك الاحد. وقلت له ان التعارف الذي يحصل بالمصادفة قد يؤدي الى نتائج عظيمة.

وابتسم بوب وقال: "مصادفة؟ ان لقاءنا لم يتم عبر المصادفة. وحين شاهدتكم من نافذة منزلنا قلت لزوجتي اني سأسعى كي أريكم أن أوكوتوكس لا تقتصر على الاكواخ."

وبقينا في فندق ويلينغدون أسبوعاً وجد جاك مستون لنا خلاله بيتاً نستأجره. وهو، كما وصفد، لم يكن خارقاً، لكنه جيد كبداية. وكان مؤلفاً من غرفتي نوم صغيرتين وغرفة جلوس ضيقة ومطبخ كبير جداً يمكن استخدام جزء منه كعيادة. وأوصينا على قطعة نحاس تحمل اسمينا: "الدكتور وليم غيبسون والدكتورة جانيت غيبسون". وفي انتظار وصولها علقنا قطعة خشب على المدخل تحمل الاسمين. وهكذا باشرنا العمل.

وكان أحد مرضانا الاوائل من رعاة البقر. وبينما هو راكب حصانه عبر أجمة بحثاً عن قطيعه الشارد، فرّ أحد الثيران التي معه فانطلق في أثره. الا أنه لم يفكر في ارتداء السروال الجلدي الواقي. وفيما هو يرتقي صهوة حصانه من جديد، شرط غصن سرواله وغرز في فخذه اليمنى. ودخل عيادتي وقد اصفر وجهه ومضه الالم، وغرق على الفور في أحد المقاعد.

ولو حصل أمر مماثل في بريطانيا، لكنا أرسلنا المريض الى قسم الطوارىء في أقرب مستشفى. ولكن من مهمات الطبيب الريفي في غرب كندا أن يتصدى لمثل هذه المواقف بنفسه وبسرعة. ونظر الكاوبوي الجريح الينا كمن يتوسل.

وعقدت وزوجتي اجتماعاً مقتضباً في غرفة الجلوس، أسرعنا بعده الى المطبخ لنعطي المريض حقنة ديميرول، وهي مادة مسكنة مشتقة من المورفين. وكان جرحه بالغاً، اذ ان الغصن انكسر على عمق خمسة

سنتيمترات في فخذه. وعقمنا آلات الجراحة على موقد المطبخ ثم سحبنا قطعة الخشب العالقة وقطعنا نثار العظم واللحم حول الجرح.

ولدى فراغنا من العمل نهض صاحبنا وشكرنا على جهودنا وانصرف. ولم نكن نحن أقل منه شكراناً لأن قوى الطبيعة التي سهلت عملية الشفاء أتاحت لنا اكتساب سمعة حسنة في الجوار.

"اقلع ضرسي"

وسرعان ما تعلمنا أن الربيع في كندا الغربية ليس أكثر من اسم. وفي الاسبوع التالي حلّ الصيف وبدّل الطبيعة كلها. واكتست الاشجار أوراقاً زاهية، وهي التي بدت يوماً قصيرة عجفاء. وارتفعت مياه النهر في جوف الوادي ونمت على ضفتيه الاعشاب الوافرة الخضرة.

كان ذلك أول سبت في بيتنا الجديد وأنا على وشك أن أدعو زوجتي وابنتي الى التنزه بين التلال. وقبل أن أفعل سمعنا طرقاً على باب المطبخ. وكان زائرنا رجلا ضخم الجثة يلبس حذاء ثقيلا وثياب كاوبوي مع القبعة التي تلائمها، وقد لفّ حزاماً جلدياً حول خصره. لكنه لم يكتفِ بذلك، بل وضع حزاماً آخر يمتد مِن الظهر الى البطن عبر الكتفين خوفاً من أن يتدلى سرواله عن بطنه العامر. وبانت في وجهه الكالح عينان زرقاوان قاسيتان كالصوّان.

ووقف في الباب وقال: "اسمي جاك سبارو. هل تسمح لي بالدخول؟"

وأجبته: "تفضل أيها السيد سبارو." ولما دخل رفع قبعته وانحنى قليلا أمام جانيت ومد يده مصافحاً. وعصر يدي بقوة حتى خشيت أن تنكسر مفاصلي. ولم أستطع مقاومته، بل تحملت الالم حتى تركني.

وقلت له: "ماذا يمكنني أن أفعل لك أيها السيد سبارو؟ "



ـ أريد أن تقلع ضرسي.

ولم أكن قلعت ضرساً في حياتي. وأوضحت له أن هذا العمل من اختصاص أطباء الاسنان. وأثنى السيد سبارو على كلامي، لكنه أجاب أن أوكوتوكس ليس فيها طبيب أسنان، وأن كالغاري بعيدة جداً، فضلا عن أن أطباء الاسنان لا يفتحون عياداتهم في السبوت والآحاد. وأضاف أنه كثير العمل ولا يستطيع الانتظار حتى الاثنين.

وعدت أقول له: "في امكاني أن أصف لك حبوباً مسكنة، تمكنك من الصمود حتى مطلع الاسبوع."

ـ لقد تحملت الالم طوال يومين، ولا أستطيع الانتظار حتى الاثنين. وبما أنك مؤهل لاجراء الجراحات البسيطة، فلن تعجز عن قلع ضرسي.

واشتدّ غيظي وبدأت أقول: "اسمع أيها السيد سبارو: هذه المهمة من شأن..."

وصاح فيّ: "ماذا تنتظر؟ ألم أطلب منك أن تسحب هذا الضرس اللعين؟"

وجلس في أحد كراسي المطبخ ورجع الى الوراء وأقحم إصبعاً في فمه وقال: "هذا هو الضرس المقصود."

وبدا ذلك الضرس الطاحن في عينيّ المرتعشتين في حجم صخرة جبل طارق وصلابتها. فكيف لي أن أقلعه من مكانه؟ وانتابني شعور بأنّ صاحبنا يجرّبني، فعقدت العزم على متابعة الطريق بكل ما أوتيت من ثقة. وأخيراً وجدت مخرجاً جعلني أبتسم وأقول كمن حقق نصراً: "هذا ضرس من الطواحن أصابه الاهتراء. وليس في وسعي قلعه من غير مخدر. ونحن لا نزال ننتظر وصول عدة التخدير. والافضل أن تنتظر أنت أيضاً حتى يفتح طبيب الاسنان عيادته صباح الاثنين."

وأجاب السيد سبارو: "لقد طرأ على ذهني هذا الاحتمال. لذلك حملت معي مخدري الخاص." وسحب زجاجة كحول من جيبه وفتحها وتجرّع كمية كبيرة منها، ثم سدها ووضعها على طاولة المطبخ وعاد الى وضعه السابق على الكرسي وقال مبتسماً: "لقد تخدرت كلياً الآن. فأرجوك قلع الضرس قبل زوال فعل المخدر."

وحداني اليأس على احضار عدتي. ورحت أشدّ ذلك الضرس وأنخعه وألويه. وكان عليّ أن أتوقف من حين الى آخر ليأخذ صاحبنا المزيد من "المخدر". وعرقت يداي من الجهد والخوف. وبدا لي أن ذلك الضرس قائم على أساس لا يتزعزع.

وأخيراً وقع الضرس في وعاء الجراحة الذي حملته، وبدا على حقيقته: أسود وكثير العقد مثل شجرة سنديان دهرية. وجلست وقد أتى عليّ الارهاق.

وكان السيد سبارو يتفحص فمه بلسانه. وهزّ رأسه راضياً وقال: "لقد قلعت هذا اللعين اذاً."

واكتفيتُ بهزّ رأسي اذ لم أقوَ على الكلام.

ومدّ صاحبنا يده من جديد نحو قنينة الكحول. وقبل أن يضعها على فمه وضعها بين يديّ وقال: "خذ جرعة من هذا المخدر. فالتعبير

الظاهر على وجهك يبين انك تحتاج اليه أكثر مني."

وهو كان على حق. الا أنه أخبرني لاحقاً، بعدما زادت معرفتي به، أني اجتزت الاختبار آنذاك.

وبعد شهرين أخذ المرضى يفدون بانتظام الى عيادتنا. ولم نتمكن، مع الجهود التي بذلناها، من تأمين عيادة حقيقية. وأخيراً تطوّع أحد أعضاء المجلس البلدي لحلّ المشكلة. وهو رجل طويل ناحل متقدم في السن اسمه غلين هاوس.

قال لي السيد هاوس يوماً: "لقد سمعت أنكما تعملان في مطبخ منزلكما. وهناك مدرسة قديمة ذات غرفة واحدة كبيرة تقوم على حقل قريب من البلدة. وفي امكاني شراؤها بمبلغ ٥٠٠ دولار."

– تقول ان المدرسة قائمة وسط حقل؟

"لا تقلق يا دكتور غيبسون، ففي امكاننا نقل هذا البناء الخشبي الى أي مكان نشاء. وأظن أن هذه العادة غير مألوفة في يوركشير. لكننا نمارسها هنا على الدوام. واذا راقتك الفكرة، ففي امكاننا استنفار الاهالي للعمل على نقل البناء الى البلدة فوق مزالق ذات عجلات. وفي هذه الاثناء نكون أعددنا ركيزة اسمنتية يوضع البناء عليها ليصبح عيادة طبية لك ولزوجتك."

وابتسم هاوس وأضاف: "اني على استعداد لتسليفك المبلغ المطلوب. وهذا القرض هو مساهمتي الشخصية لابقائكما بيننا. وكن على ثقة بأن أعضاء المجلس البلدي جميعاً يودون أن تبقى أنت وعائلتك معنا. وهم سيتبرعون بأرض شرق الفندق لاقامة العيادة فوقها اذا وافقت على جرّ مدرسة سكاي غلين اليها."

– مدرسة سكاي غلين! يا له من اسم رائع، انه يستحق وحده قبول العرض. فوالد جانيت ولد في جزيرة سكاي.

وبعد أسبوع وقفنا نراقب المزارعين الثلاثة الذين دخلوا البلدة وهم يجرون مدرسة سكاي غلين بجرّاراتهم. وبدت قديمة وسوداء بفعل الطقس. الا أن بادرة أهالي أوكوتوكس بثت فيها المحبة والدفء. ووقف الناس يصافحوننا ويتمنون لنا الخير. وكان ذلك اليوم نقطة تحول في حياتنا، اذ جعلنا نصمم نهائياً على البقاء.

"احضر سريعاً"

ما زال كثير من المتقدمين في السن يتذكرون الاطباء الاوائل الذين قدموا الى ألبرتا. وبالنسبة الى بعضهم بدا أولئك الاطباء أناساً خارقين. فهم استهلوا العمل الطبي هناك في مطلع القرن بجمعهم بين الجراحة والطب العام.

وسمعت قصصاً عن طريقة عمل أولئك الرواد الذين كانوا يحرصون، خلال الشتاء، على ابقاء نوبتين من الجياد على أهبة الاستعداد. وكان واحدهم يتلفع بالفراء ويركب عربة جليد مفتوحة وينطلق وحده وسط الثلوج، عائداً مريضاً في احدى المزارع ومجرياً عملية جراحية في مزرعة أخرى على طاولة مطبخ.

أما اليوم فـأن نقابـة الاطبـاء الجراحين في ألبرتا تفرض رقابة صارمة على كل من يمارس الجراحة. لكن قبل ثلاثين سنة كانت الكلمة الفصل لمجالس المستشفيات المحلية. ولقد أسعفني الحظ للعمل في مستشفى هاي ريفر مع عدد من الجراحين القدامى. واكتشفوا محدوديتي الجراحية، لكنهم أتاحوا لي كل فرصة ممكنة للتعلم. وسرعان ما ضممتُ جهودي المتواضعة الى جهود الجراحين وغدوت عضواً نافعاً في فريقهم.

وكثيراً ما كان المرضى يدعونني ليلا. لكن تلك الدعوات كانت تخف مع رداءة الطقس. وفي أحد أيام الشتاء سقط الثلج بكثافة. الا أن الغيم ما لبث أن انقشع وبرزت النجوم ليلا في السماء المحمرّة. وظل البرد قارصاً والحرارة ٣٠ درجة تحت الصفر والطرق مسدودة بالثلج. وقبل أن آوي الى السرير خابرت مخفر الشرطة المحلي لأعرف ما اذا كانت الثلوج أزيلت من طريق السيارات. وأجابني الشرطي بحبور: "لقد تم تنظيف الطرق الرئيسية. وفي امكانك الوصول الى هاي ريفر اذا كان عليك اجراء ولادة."

وشكرته وقلت له ان لا ولادات هذه الليلة، ثم خلدت الى النوم. وفي الاولى بعد منتصف الليل رنّ الهاتف وجاءني صوت زميل في المستشفى يقول: "هل يمكنك القدوم الى هنا سريعاً؟"

– أجل، فقد تمّ جرف الثلج عن الطرق هذه الليلة.

"اذاً انطلق فوراً."

ولبستُ ثياباً دافئة وأسرعت الى السيارة. وبعد قليل كنت على باب المستشفى، ووجدت ممرضة تنتظرني في الداخل. وبادرتني على الفور: "اني هنا لأقول لك أن تتوجه فوراً الى غرفة الجراحة."

– وهل هناك أمر جلل؟

"هناك امرأة حمّلت من مسافة ثلاثين كيلومتراً، واستغرق نقلها ساعتين. ويبدو أنها تحمل جنينها خارج الرحم."

وهذا النوع من الحمل يحصل في احدى القناتين اللتين تصلان المبيض بالرحم، وهو على جانب كبير من الخطر. وقد عانت تلك المرأة ألماً مبرحاً في بطنها أفقدها الوعي وحمل ذويها على نقلها الى المستشفى في شاحنة. لكن الشاحنة علقت وسط الثلوج. فما كان من الجيران الا أن سحبوا الشاحنة بجراراتهم وأوصلوها الى هاي ريفر بعد ساعتين من الجهود الشاقة. ووجد الجرّاح أن المرأة أُصيبت بنزف داخلي من جراء تمزق القناة التي حصل فيها الحمل.

وأسرعت الى وضع الرداء الطبي المعقم وتوجهت الى غرفة الجراحة حيث وجدت الجرّاح والممرضات في انتظاري. وبدت المريضة شاحبة مثل شبح وهي ممددة على طاولة العمليات.

وسألت زميلي: "ماذا تريدني أن أفعل؟ أأُساعدك في الجراحة أم أتولى تخدير المريضة؟"

وأجاب: "لا، بل خدّرها. فأن ماكولي في طريقه الينا، وهو

يجول في ذهني فقال: "اننا نحتاج الى مزيد من الدم. ونحن ننتظر أن تمدنا الشرطة بالمقدار الكافي من كالغاري. ولكن علينا الشروع في عملنا فوراً مهما كلف الأمر."

وأسرعتُ الى حقن السيدة جيمس بالمخدر، واستهل زميلي عمله، وفتح البطن المنتفخ وظهر الدم في كل مكان. وفجأة سمعت صفارات الشرطة من بعيد... لقد وصلت النجدة أخيراً.

وسألني الجرّاح: "كيف تجد حالها؟"

- ان ضغط دمها يرتفع. وهذا عظيم.

"يكفي الآن أن أحدد مصدر النزف لكي أوقفه ويزول الخطر عن هذه السيدة. وبعد ذلك يعود كل منا الى بيته."



وما كاد زميلي أن ينهي كلامه حتى نظر اليّ وقال: "لقد وجدتُ الينبوع. وهي لن تنزف بعد الآن. هيا نخرج القطن المدمى من بطنها ثم نرتق الجرح."

وحُملت أنابيب الدم الى الغرفة وتمّ حقن المريضة. وبعد ذلك أوقفت المخدر ونقلت المرأة الى غرفتها. ولما عدت الى غرفة الجراحة سألني زميلي: "كيف حالها الآن؟"

سيعينني على الجراحة. وقد وضعت ابرة المصل في أحد أوردتها، لكني واجهت صعوبة جمة في العثور على الوريد اذ انها قابعة لا تحرّك ساكناً."

وفيما أنا أجهز عدة التخدير نظرت الى وجه المرأة، فاذا به أبيض كأنما لا حياة فيه. ولم يظهر ضغط دمها على آلة القياس. وعرف زميلي ما

ـ انها على خير ما يرام، وأظن أننا محظوظان جداً.

"لا بل هي صاحبة الحظ. فلو كان عليها الذهاب الى كالغاري الليلة لاجراء الجراحة لما استطاع ذووها اجتياز ١٥ كيلومتراً على الطريق المسدودة بالثلج، ولكانت قضت بين أيديهم."

بغل خائر

عندما حللت وزوجتي في أوكوتوكس لم يكن هناك أي طبيب بيطري بين هاي ريفر وكالغاري. وكان يُطلب مني أحياناً معالجة كلب أو هر داسته سيارة في الشارع. الا أن أحداً من أصدقائي المزارعين لم يكلفني معاينة ماشيته أو جياده، وان أوكلوا الي شؤون عائلاتهم الطبية.

وفي وقت باكر من أحد أيام الربيع رنّ جرس الهاتف بجانب سريري على نحو متواصل ايقظني من نوم عميق. وكانت الساعة الخامسة والناس كلهم نيام. ورفعت السماعة وقلت: "غيبسون يتكلم." وقال الشخص على الخط الآخر: "هل أقلقت نومك يا دكتور؟ يبدو لي أنك استيقظت للحال."

وكان مكلمي جيسي هارتلاند الذي يملك مزرعة على بُعد كيلومترات خارج البلدة.

وقلت له: "انها الخامسة صباحاً يا جيسي."

فأجاب: "لقد انقضى نصف الصباح. اسمع: اني في حاجة الى مساعدتك، والامر ملحّ جداً."

وللحال فتحت عينيّ كأني لم أكن نائماً قبل ثوان. وأضاف جيسي: "أتعرف بغلي البني يا دكتور؟ لقد خارت قواه وارتمى أرضاً وهو يلهث مثل حوت ضخم. فماذا أفعل كي أجعله يقف على قوائمه من جديد؟"

ـ ماذا تفعل؟ ابحث عن طبيب بيطري يا جيسي!

وأجابني محدثي كما لو أصيب في الصميم وهو يحاول أن يستدر مني الشفقة: "لقد دعوتك أنت اذ ليس في امكاني دعوة طبيب بيطري. ولا بدّ من ان تبتكر حيلة ما لابراء هذا البغل المسكين."

ترى كيف أتجاهل توسلا كهذا؟ فهنا رجل يقدرني حق التقدير، حتى في شؤون الطب البيطري، ولا يجوز أن أخذله البتة. والجواد الخائر، في القاموس، يعاني التهاباً في الجزء الرخو من حافره. واذا كان الالتهاب شديداً، فلا يصحّ أن ندع الحيوان يتعذب.

وسألت جيسي: "هل تحتفظ بشيء من البنيسيلين؟"

ـ اجل، ان لديّ مقداراً منه على الدوام.

"اذاً احقنه عشرة ملايين وحدة في العضل."

وفي تلك اللحظة لمحت شعر جانيت الاشعث وهي تصحو من نومها وتهزّ كتفي بيدها. ونظرت اليّ والخوف يملأ عينيها الزرقاوين: "عشرة ملايين وحدة من البنيسيلين؟ أتريد أن تقتل أحداً؟"

وتجاهلتُ كلامها ورفعتُ يدي بسلطان وقلت لمحدثي: "ألديك شيء من الكحول يا جيسي؟"

ـ أجل، وأنت تعرف ذلك·

"اذا امزج كوباً من الكحول مع ليتر من الماء الساخن وأربع ملاعق كبيرة من السكر، واسكب المزيج في حلق البغل، اضافة الى حقنة البنيسيلين·"

وانطلق جيسي لينفذ ما قلت، فيما بقيت انا ممسكاً بسماعة الهاتف· وعندئذ نهضت جانيت من السرير مذعورة ووضعت السماعة ووقفت تنظر الي باستنكار· وقلت لها على الفور: "هدئي من روعك، فاني اعالج بغلا خائراً·"

وزال هلعها، لكن استنكارها زاد وهي تقول: "بغل خائر؟ وماذا تعرف عن البغال والجياد؟ هل فقدت صوابك؟"

وأجبتها: "خففي عنك يا حبيبتي· فهذا البغل معتل جداً· والمرض اليائس يقتضي علاجاً يائساً· واذا كان يعاني التهاباً قوياً، فالبنيسيلين كفيل باراحته منه· اما اذا كان أمضى وقتاً طويلا في المعلف وهو يلتهم الشوفان حتى انتفخ بطنه، فليس أنجع من الكحول في هذه الحال· لذلك أرجوك الخلود الى النوم ونسيان هذا الامر·"

وكنت غفوت أنا نفسي من جديد قبل أن يرن الهاتف ويأتيني صوت جيسي الذي لا يحتويه فرحه: "طالما سمعت أنك معجزة حية أيها الدكتور غيبسون· وها أنا أتحقق بنفسي من هذا الامر· لقد نهض بغلي على قوائمه، وأظن ان البنيسيلين هو الذي حقق الشفاء· وفي امكانك الآن أن تعود الى النوم·"

ولكن كيف لي أن أنام وأنا أكاد



أنفجر غيظاً؟ وأحضرتُ لنفسي الشاي ورحت أتأمل في الامر. وقدرتُ أن الكحول كان عامل الشفاء، وليس البنيسيلين. فهو مصنوع من الشعير المخمر الذي يطرد الغاز من البطن.

وعلى رغم الكدر الذي انتابني فقد أبهجني الاعتراف بمواهبي في الطبابة البيطرية.

التعاقد بالمصافحة

قبل أن يأتي شتاء آخر أدركنا أن علينا تأمين منزل جديد أو بناء منزل لنا. وقد خدم بيتنا الاول في أوكوتوكس غايته حسناً، لكنه لم يكن معزولا تماماً عن البرد، الامر الذي اضطرنا الى الجلوس أمام الموقد طوال أيام الشتاء القاسية.

وعندما سمع جيم ماكدونالد، مدير المخزن الرئيسي في البلدة، برغبتي في بناء منزل، نصحني بمقابلة السيدة كاترين هوغ التي بنت منزلها على تلة فوق البلدة والتي تملك أراضي تشرف على مناظر خلابة. لكن جيم قال: "لا أظن أنها مستعدة للتخلي عن أي قطعة من أرضها. ولكن لا خسارة في المحاولة. والسيدة هوغ قوية الشخصية وقديرة."

وعندما ذهبت لمقابلة تلك المرأة، وجدتني أمام جسم ناحل يشبه دمية، بعينين لم أرَ مثل زرقتهما قبل ذلك الحين. وهي لم تفقد جمالها على رغم سنيها الثمانين. وجلست بجلال في مقعدها وهي تصغي اليّ وأنا أخبرها أننا نودّ البقاء في أوكوتوكس وبناء منزل خاص بنا فوق قمة تشرف على منظر جميل.

وفجأة ابتسمت وقالت: "لا أدري لماذا يؤثر جميع الناس العيش تحت في الوادي.... تعال الى النافذة وانظر."

ورأيتُ البلدة والاشجار والنهر والوادي، والى الغرب شاهدت الجبال.

وأضافت السيدة ماكدونالد: "أنتم هنا في "أرض الله." وقد جئتُ الى هذا المكان عام ١٨٨٣، وكنت أول فتاة بيضاء تطأ هذا الجزء من العالم... ترى هل أخبرك أحد بذلك؟"

وأجبت مندهشاً: "كلا! ولكن ما الذي جاء بك الى هنا؟".

- كان أبي اسكوتلندياً مثلك. وانتقلنا من كيبيك الى وينيبيغ بالقطار، وقطعنا بقية المسافة على ظهور الجياد، وهي ١٣٠ كيلومتراً عبر النجاد المقفرة. وعشنا في عربة قطار وعانينا لسع البعوض طوال الصيف. وأمضينا شتاءنا الاول في خيمتين، نصبت احداهما داخل الاخرى.

"من العجيب أن المرض لم يزحف اليكم."

- لقد كان الجو نظيفاً وخالياً من الامراض على رغم البرد. الا اني فقدتُ أختاً ونحن نتابع طريقنا. وكنا آنذاك وسط البراري حين وقعت أنظارنا على عربات نقل كبيرة تجرّها الجياد. وكانت تلك العربات تحمل عدداً من الامريكيين الآتين من الجنوب. وتقدم ثلاثة رجال نحونا. وأوقفوا جيادهم وصاحوا بنا كي نقترب منهم. وكان المرض انتشر بينهم وقضى على عدد من الاولاد.

وتوسلوا الينا كي نعطيهم قليلا من الماء. وتشاورت نساؤنا في ما بينهن وارتأين انه لا يجوز ترك أولئك القوم من غير مساعدة. لذلك توجهت بعضهن الى القافلة ليرين ما يمكن فعله. وما هي الا أيام قلائل حتى أخذ المرض طريقه الينا. وهكذا ماتت أختي ميلي وآخرون. ودفنا موتانا في تلك الارض القاحلة. وبعد ذلك تابعنا طريقنا.

وأظن أن المرض الذي أصاب أولئك القوم كان الخُناق (الدفتيريا). وهو كان، في تلك الآونة، كفيلا بالقضاء على الطفل في أيام قليلة. ولا شك في أن انتشار الوباء في تلك الارض البلقع، بعيداً عن أسباب الراحة والنظافة، كان تجربة مخيفة.

وبعد سماعي رواية تلك السيدة اللطيفة ازداد تقديري لها. وتابعت: "يكفيك هذا الجزء من روايتي. والآن، هل تريد شراء قطعة أرض مني؟"

ـ أجل، اني أرغب في الشراء. لكني أترك لكِ وقتاً للتفكير في الامر.

"لقد فكرتُ في الامر وصممتُ أن أبيعك القطعة الواقعة شمال منزلي، ولكن بشرطين: أن تبني منزلا جميلا وألا تكثر من الاشجار. فأنا لا أحب الاشجار لأنها تصد المناظر الطبيعية."

ـ ولكن ما المبلغ الذي تطلبينه؟

"هذه هي الارض، وأنت تقرر المبلغ الذي تشاء. ولكن أود القول اني دفعت ٨٠٠ دولار ثمن أرضي كلها."

ـ أتظنين أنه من العدل أن أعطيك مبلغاً مماثلا في مقابل القطعة التي تكلمت عنها؟

وأجابت السيدة ماكدونالد: "لقد تمت الصفقة." ومدت يدها مصافحة.

لكني قلت لها: "سأكلف محامياً إعداد عقد الشراء."

وأجابت بحزم: "اني لا أحتاج الى محام. وليس من محام يستطيع إبرام عقد أفضل من مصافحة الانسان الشريف. وأنت رجل شريف، أليس كذلك؟"

ورافقتني الى المرج ودلتني على الارض التي باعتني اياها. وقالت وهي تبتسم: "الاهالي يؤثرون عني أني لا أبيع أرضاً. ولكن من الجميل أن يكون للمرء جيران. وأرجوك أن تأتي بزوجتك وابنتكما لزيارتي. وان لدي شعوراً بأن الامور بيننا ستجري على خير وجه."

وكنا مندفعين لمباشرة البناء. وسرعان ما اتصلت ببنَّاء محلي اسمه جاك براون وسألته ما اذا كان في استطاعته تلبية طلبي. وتأمل في الامر ثم قال: "الواقع أني لم أبنِ منزلا البتة، وان أكن بنيت مزارع وزرائب كثيرة. لكني أُقدر أن في استطاعتي قبول عرضك اذا كان المنزل الذي تطمح اليه متواضعاً."

ـ أجل، فزوجتي تريد منزلا بسيطاً من طبقة واحدة، مواجهاً للغرب ومؤلفاً من ثلاث غرف نوم وغرفة جلوس كبيرة ومطبخ.

"حسناً، في امكاني تلبية طلبك."

وبعد اجراء الحسابات تصافحنا وباشر جاك العمل على المنزل كما لو

كان يخصه هو. وفرغ منه قبل بدء الصقيع. وانتقلنا اليه وقد غمرنا الدفء. وكانت غرفة الاستقبال، التي شهدت الكثير من اللقاءات السعيدة في السنوات التالية، تطل على الجبال الشاهقة بمنظرها الفتان.

التفاح الفاسد

خلال سنتي الاولى في أوكوتوكس وُلد جوني بلاكني على يديّ، وشفيته لاحقاً من أمراض الطفولة. وكان جوني في العاشرة عندما وضع على طاولة المعاينة في عيادتي، وقد أصيب بألم في معدته يرافقه إسهال منذ المساء الفائت. وبدا جوني متجبراً على الالم. الا ان تعبير وجهه لم يخف عني ما يعانيه. وضغطتُ على الجانب الايمن من بطنه وسألته: "هل تشعر بألم في هذا الموضع يا جوني؟"

فقال: "لا."

وأعدتُ الفحص وأنا أقرأ على وجهه التعبير نفسه. وعلى رغم إصابته بالاسهال، قدّرتُ أن مرضه الفعلي آت من التهاب الزائدة الدودية، هذا الالتهاب الذي يرافقه أحياناً بعض اسهال.

وأخذتني أفكاري سنوات الى الوراء، حين كنت أتتلمذ على الجرّاح الدكتور أرشيبالد يونغ في سنتي النهائية في كلية الطب التابعة لجامعة غلاسكو الاسكوتلندية. هناك أدركت للمرة الاولى أن تشخيص الزائدة الدودية قد يكون أمراً عسيراً. وربما كان الدكتور يونغ آخر أستاذ في غلاسكو يرتدي الزي الجامعي التقليدي. وهو كان ناحلا ومتقدماً في السن وذا شعر أبيض. كما كان متقيداً بالنظام على نحو صارم، من غير أن يفقد العطف على الشباب وآرائهم.

وذات ليلة كنت أؤدي دوري في الخدمة حين تلقينا مخابرة من طبيب يدعى ساذرلاند.وهو اتصل بنا من احدى مناطق غلاسكو الفقيرة وقال انه يريد ان يرسل إلينا طفلا مصاباً، بحسب تقديره، بالتهاب شديد في الزائدة الدودية. وأضاف أنه كلم الدكتور يونغ بالامر.

وأدخل الصبي المستشفى على الفور وتولى الجرّاح المسؤول آنذاك فحصه بدقة متناهية قبل أن يقول: "انه يعاني التهاباً في الامعاء."

وانقضت ساعة. ثم رأيت الممرضة تنهض باندفاع لدى رؤيتها الدكتور يونغ يدخل وسترته الرسمية الطويلة تهتز وراءه. وتقدّم الي وقال: "لقد أرسل اليك الدكتور ساذرلاند مريضاً، أليس كذلك؟"

- نعم يا سيدي. وقد فحصناه وتبين لنا أن علته تعود الى التهاب في أمعائه.

"ان ساذرلاند صديق قديم ومحنّك في خبرته. واذا قدّر أن الاصابة متعلقة بالزائدة الدودية، فالراجح ان يكون على حق. ولكن دعني القي نظرة على المريض."

وقدت الدكتور يونغ في الممر الطويل حتى بلغنا غرفة الفتى المريض. وبعدما فحصه بصمت قال: "أريد الآن اجراء فحص شرجي." وطلب مني إحضار قفاز جراحي.

ووضعه في يده اليمنى وأضاف: "هذا اختبار حاسم بالنسبة الى تشخيص الزائدة الدودية."

وأقحم اصبعه المغلفة بالقفاز داخل شرج الصبي الذي لم يشعر بأي ألم، علماً أن ألم الحوض في هذا الوضع هو الدليل على التهاب الزائدة الدودية.

الا أن الدكتور يونغ ظل مشككاً. وانحنى فوق وجه الفتى وشم نفسه. ثم نظر الي وقال: "تعال الى هنا وشم نفسه أنت أيضاً."

وألقى يونغ يده على كتفي وسألني: "هل ذكرتك هذه الرائحة بشيء؟"

– لست متأكداً يا سيدي.

"انها رائحة التفاح العفن. ألا توافقني؟"

– أجل يا سيدي.

"لا تنسَ البتة يا بني أن هذه الرائحة برهان قاطع على تآكل الزائدة الدودية. وسأجري جراحة لهذا الصبي على الفور."

وأُجريت الجراحة. وبدا الالتهاب واضحاً في الزائدة المستأصلة القاتمة اللون.

الا أن جوني بلاكني، الذي أدخلتُه المستشفى بعد سنوات طويلة في ألبرتا، ظلّ معضلة بالنسبة الي. فأعراضه لم تكن واضحة، باستثناء الترهل البسيط في بطنه. وأجريت له الفحص الشرجي، لكنه لم يحسّ ألماً في الحوض. ودعوت أحد زملائي لابداء رأيه، فوافقني على أن الاعراض غير واضحة، وارتأى ابقاء جوني في المستشفى لاعادة الفحوص لكننا لم نقترح إجراء جراحة.

وقادتني أفكاري المبلبلة الى المستشفى مساء. وعلى رغم أن جوني بدا في حال جيدة، الا أني قررتُ الخطوة التالية فوراً. واتصلت بالدكتور أندرو ليتل في بلدة نانتون التي تبعد خمسين كيلومتراً جنوب أوكوتوكس، وطلبت منه أن يوافيني لنستأصل زائدة جوني بلاكني.

ووصل على جناح السرعة وباشرنا العمل، وشققنا بطن جوني فوق المصران الاعور الذي تتدلى منه الزائدة الدودية. الا أن ذلك المصران لم يكن في موضعه المعتاد، بل وجدناه في مكان أعلى. وربما كان ذلك سبباً لعدم شعور الصبي بأي ألم في الحوض خلال الفحص الشرجي. وكان تقديري قبل ذلك الحين أن جوني متجبر على الألم، وأنه يعدّ إظهار ألمه ضعفاً. لكنه كان على حق عندما قال انه لا يحس ألماً في منطقة الزائدة الدودية، إذ ان ذلك العضو لم يكن في موضعه.

وأخيراً كشفنا عن الزائدة وظهر التهابها واضحاً ولونها رمادياً قاتماً. واستؤصلت بعناية شديدة ونُقل جوني بلاكني الى قسم النقاهة.

وقال أندرو ليتل لاحقاً: "إنها حالة طريفة، خالية من الاعراض: فلا تقيؤ ولا حرارة مرتفعة ولا نبض يفوق المألوف. ولكن أخبرني كيف اكتشفت أن الامر متعلق بالزائدة الدودية؟"

– السرّ، يا صديقي، هو رائحة فم جوني التي ذكرتني بالتفاح الفاسد.

عملية ولادة

خلال إقامتي في أوكوتوكس أجريت مئات عمليات التوليد. لكن

ثمة واحدة منها منطبعة في ذهني بوضوح، وهي حصلت خلال عاصفة ثلجية رهيبة. وجاءتني المخابرة نحو الثانية فجراً: "هل يمكنك يا دكتور أن تأتي الى محطة وايت روز للمحروقات؟ هناك امرأة داخل سيارة على وشك ان تضع جنينها."

وانطلقت وسط العاصفة في سيارة جيب. وكانت الحرارة ٢٥ درجة تحت الصفر والريح تعول في المدى والرؤية شبه منعدمة. ولدى اقترابي من المحطة رأيت السيارات على جانبي الطريق وقد هجرها أصحابها. ومن حسن حظ مريضتي، التي كانت متوجهة وزوجها الى مستشفى في كالغاري، أنها بلغت ذلك المكان الدافىء الآمن في مرأب المحطة.

ودخلت المحطة فوجدت رجالا واقفين وبينهم شرطي أخذ على عاتقه تسيير الأمور. وبادرني: "انها في المقعد الخلفي من سيارة الفولكسفاغن هناك. وسيغطي هؤلاء الرجال السيارة بمعاطفهم لإضفاء جو من الخصوصية على عملية الولادة. وجرّافة الثلج في طريقها الى هنا ومعها سيارة إسعاف... حظاً سعيداً يا دكتور."

ودخلت ضمن ستار من المعاطف وباشرت العمل. وكانت المرأة نصف ممددة على المقعد الخلفي. وتبين لي ان الولادة مستحيلة في ذلك المكان الضيق. وارتأيت الوقوف خارج السيارة والاكتفاء بمدّ رأسي ويديّ وصدري الى الداخل. ولم يكن ذلك بالوضع المثالي، غير أن الجنين بدأ يخرج. وكانت المرأة في أتمّ السيطرة على نفسها. وبعد نفث ونفخ من كلا الجانبين، أُخرج الجنين بسلام. وسرعان ما تولت سيارة الاسعاف نقل الأم ووليدها الى كالغاري.

أما أنا فعدت بسيارتي الى المنزل. وكانت العاصفة ولت وظهر الليل ببهائه وسكونه.

حفظ العهود

حين قابلت بيتر دراسني للمرة الاولى، وجدت فيه مثالا صارخاً للرجولة. وكان في اواسط العشرينات، ذا قامة طولها نحو ١٨٣ سنتيمتراً وكتفين عريضتين وجسم رياضي. كما كان على ثقة قوية بنفسه وحاراً في علاقاته مع الآخرين. وأخبرني انه وُلد في هنغاريا (المجر) وأن أباه وقع في قبضة الأعداء بعد الحرب العالمية الثانية. وسار هو مع أمه أياماً حتى بلغا الحدود النمسوية. وبعد حين طارا الى كندا.

وأضاف بهدوء: "أجل، اني مدين بالكثير لهذه البلاد الكريمة. وأنا أكسب ما يكفي من المال لتأمين منزل لأمي يليق بها. ولولا أمي لخسرت حريتي ومستقبلي."

— قل لي ما الذي حداك على استشارتي؟

"ان التعب لا يفارقني منذ ستة أشهر."

— وماذا تفعل لتحصيل العيش؟

"اني متعهد بناء أعمل لحسابي الخاص. وقد بدأت عاملا يدوياً، ثم تعلمت طريقة استخدام الجرّافة.

وبعد ذلك اشتريت جرافة وباشرت عملي الخاص."

- هذا عظيم يا بيتر. وربما كانت مشكلتك سببها العمل الشاق.

"ان عملي هذه السنة لا يتجاوز عمل السنة الماضية. فمن أين أتى التعب؟"

ولدى فحص بيتر وجدت قلبه وضغط الدم لديه سليمين، كذلك جهازه العصبي. ولم يكن مصاباً بفقر الدم. وبعدما أظهرت الفحوص الاخرى خلوه من الامراض، ارتأيت إرساله الى اختصاصي في كالغاري.

ولم تأت الفحوص الدقيقة أوضح بياناً من فحوصي في البداية. ولكن تبين بعد أشهر أن بيتر يعاني مرضاً فتاكاً في جهازه العصبي المركزي. وما لم تحصل معجزة، فهو لن يعمر اكثر من سنوات معدودات.

وجاء اليّ من جديد ولم يتبدّل شيء جوهري في بنيته القوية وعينيه الواثقتين. لكنه أخبرني أن ضعفه يزداد يوماً بعد يوم. وقال انه سيعمل بكل قوته ليسدد ثمن المنزل الذي اشتراه لوالدته. وأضاف: "هل تعدني، حين أعجز عن الاستمرار في العمل، بإدخالي أحد المستشفيات والاعتناء بي حتى النهاية؟"

- نعم يا بيتر.

ولم يكن لديّ كلام آخر أقوله أو تعزية أمنحه إياها بعدما بات شفاؤه خارج نطاق الطب".

وانقضت سنتان كدت ان أنسى خلالهما بيتر. ثم دخلت الممرّضة مكتبي ذات يوم وقالت والدمع في عينيها: "لقد جاء بيتر دراسني وهو لا يقوى على الوقوف. وطلب مني إخبارك أنه حاضر لدخول المستشفى."

وأسرعت الى غرفة الانتظار حيث وجدت بيتر متكئاً على أحد المقاعد. ولو لم أعرف أنه هناك لما تعرفت اليه وهو على ذلك الضنى والهزال.

وقال: "ثابرتُ على العمل حتى الاسبوع الماضي. وبعد ذلك أدركت أني لا أقوى على الاستمرار. وبعت الجرّافة وسوّيتُ جميع أموري المالية والقانونية. وها أنذا أمامك لأذكرك بالوعد."

وأخذته من فوري الى المستشفى. ولم يطلب شيئاً خاصاً سوى السماح لأمه بزيارته متى شاءت.

كانت السيدة دراسني امرأة ريفية بسيطة تكاد لا تعرف شيئاً من اللغة الانكليزية. وبدت، بوجهها الكئيب والمنديل الذي غطت به رأسها، كأنها تجسد عذاب أوروبا بأسرها. وأخذت يوماً وراء يوم وساعة بعد ساعة، تجلس صامتة بجانب ابنها أو تنتظر في الممر. وذات يوم أوقفتني وقالت وهي تمسك بكمّ سترتي: "أرجوك أستدعاء كاهن. وأودّ أن تعلم أنه ليس هو الذي يريد ذلك، بل أنا. فهذا ضروري لراحة روحه."

وحين ذكرتُ الأمر لبيتر، قال انه لم يكن لديه وقت للصلاة، ورفض فكرة الكاهن على نحو قاطع. غير أني لم أنسَ توسلات أمه، بل قصدت كاهناً أكنّ له احتراماً كبيراً، وهو الأب ليفر الذي أصغى حسناً الى روايتي. وقلت له: "كما ترى أيها المحترم، ان قلقي ليس على بيتر بل

على أمه، فهي تعاني عذاباً أليماً."
– وماذا تقترح عليّ أن أفعل؟
"بيتر على وشك الموت، وهو لم يعرفني طوال اليومين الأخيرين. ولئن صحّ أنه يرفض الصلاة، الا أن امه تعلق أهمية قصوى على مسألة خلاصه."

ووافق الأب ليفر على التوجه الى المستشفى.

وفي اليوم التالي ساءت حال بيتر كثيراً، وأسرعت في اثر الأب ليفر وأنا أعتذر لأزعاجه في ذلك الوقت المتقدم من الليل. الا أنه طرح اعتذاري جانباً وأحضر حقيبته وهبّ الى مرافقتي وهو يرتدي ملابس الكهنوت. وما ان رأته السيدة دراسني حتى ظهر السرور على وجهها.

وقال الكاهن: "أود دخول غرفته لبرهة." وأكدّ لي أنه لن يقول كلاماً من شأنه مضايقة بيتر أو مضايقتي. وتبعني الى الغرفة حيث كان وجه بيتر في عكس اتجاهنا وهو فاقد الوعي. وحنى الكاهن رأسه وصلى بصمت، ثم أشار عليّ بأن نخرج معاً من الغرفة.

وبعد ذلك جئت السيدة دراسني أمام مرافقي وشكرته. وللمرة الاولى خلال أسابيع رأيتُ السلام الحقيقي في تقاطيع وجهها. وبينما أنا أعيد الكاهن الى بيته، قلت له: "أتمنى ألاّ أكون تسببتُ في أي ازعاج لك."

– وكيف يمكن ذلك؟ فأنا لم أخن ايماني ولا ضميري، ولا خنت مريضك. وكل ما فعلته أني صليت له كما قد تصلي أنت، ورجوتُ الله تعالى أن يتقبل روحه لديه.

وقدّرتُ بادرة الأب ليفر حق التقدير لأنه قبل الصلاة لشخص ملحد. الا أنه، بسعة إدراكه، كشف عن الايمان الحق ومنح تلك الام المسكينة سلاماً لن يفارقها مدى العمر.

"أرض الله"

على رغم أن سنوات كثيرة انقضت منذ أوقفنا سائق سيارة الأجرة على قارعة الطريق أمام فندق ويلينغدون في أوكوتوكس، فاني لم أنسَ ذلك اليوم قطّ.

ولا أزال أرى في عين ذاكرتي تلك الواجهات المموهة والارض المفروشة بالحصى وامتداد الريف على مدّ النظر. وعادت تلك السيارة الى كالغاري وغرقنا نحن في دوامة حنين الى الحياة التي هجرناها. الا أن أشهراً قليلة كانت كافية للقضاء على آخر ذرّة من الحنين. فقد وجدنا أنفسنا في مكان مفتوح شاسع مفعم بالدفء والصداقة والتفاؤل. وسرعان

ما فهمت قصد السيدة هوغ حين قالت لي: "لقد أتيتم الى أرض الله."

صحيح أن حياتنا الجديدة لم تَخْلُ من مشاكل، وأهمها أن جانيت وجدت نفسها غريبة، باديء الأمر، كطبيبة أنثى في حضارة يهيمن عليها الرجال. لكنها استطاعت الجمع بين دورها كأم ودورها كطبيبة بتحديد أوقات المعاينة خلال الدوام المدرسي. وكان علينا نحن الاثنين ان نبقى على أهبة لأيّ طارىء في تلك البلدة الصغيرة. وأحياناً كان المرضى يدفعون اتعابنا بيضاً أو لحماً الا أن أحداً منهم لم يحاول التهرب يوماً من دفع ما عليه.

غير أن ثمة حسنات جمة لممارسة الطب في بلدة صغيرة، وأهمها العلاقة الحميمة التي تنشأ بين الطبيب والعائلات التي يخدمها. ولئن يكن الطقس بارداً جداً في الشتاء، فقد عوّض برودته دفء المحبة لدى الأهالي.

وما برحت في ذاكرتي تلك الليلة الشتوية حين اتصل بي مزارع ليقول انه وحده في المنزل وان طفله يعاني نوبة حرارة مرتفعة. وهو لم يشأ اخراجه الى العراء وحمله اليّ، حتى في سيارة مدفّأة. وكان سمع أني ألبي دعوات المرضى حتى في منتصف الليل.

وطلبت منه أن يشرح لي طريقة الوصول الى مزرعته.

وأجاب: "من السهل أن تصل الى هنا يا دكتور: اذهب في خط مستقيم مسافة ٦٥٠٠ متر غرب البلدة، ثم انعطف شمالا. وبعد ١٥٠٠ متر توجه غرباً مسافة ثلاثة كيلومترات ثم..."

وإذ لم أفهم شيئاً مما قال أعاد الكرّة، ولكن بلا جدوى ايضاً.

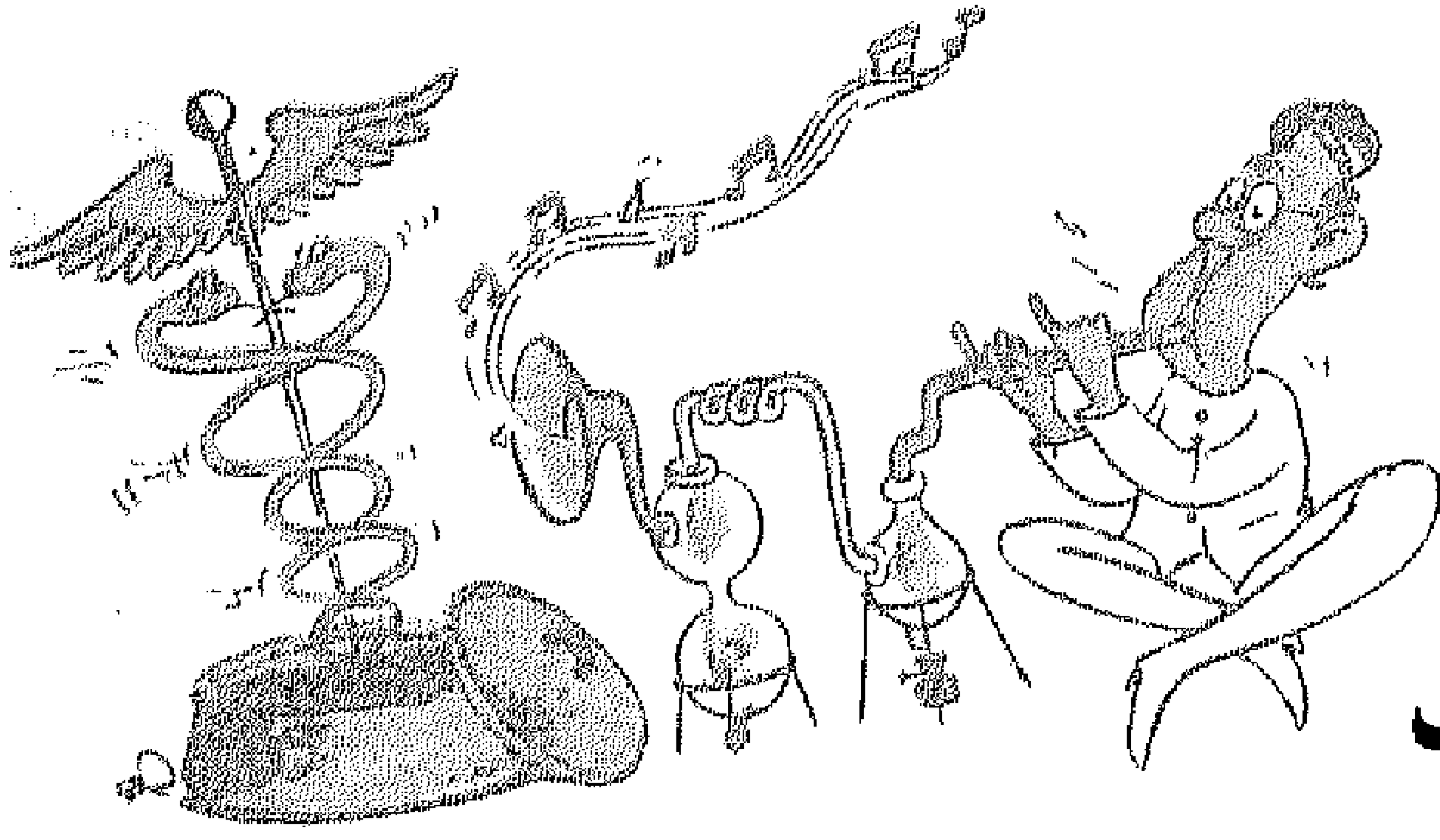
وأخيراً قال: "اسمع يا دكتور، ساتصل بجميع الجيران على الطريق بينك وبيني وأطلب منهم إشعال انوار منازلهم. أما أنا فسأشعل مصابيح شاحنتي الأمامية لتدلك هي على مزرعتي. وهكذا لن تضيع."

وقبل الانطلاق خرجتُ الى الهواء الطلق ورفعت عينيّ نحو قبة السماء التي تظلل ألبرتا. والعادة أن يتأكد المرء من عدم اقتراب العواصف العاتية شتاء لأنها تحمل معها الجليد والصقيع. والعلامة عليها الغيوم السود المتراكمة فوق الجبال. وطالما قضى الصقيع على الناس داخل سياراتهم.

وكما وعدني المزارع، وجدت أنوار المنازل كلها مضاءة في طريقي، وهي قادتني الى منزله، حيث تصدّيت للمشكلة التي دعاني من أجلها وانصرفت. لكني خشيت ان أضيع في طريق عودتي.

وسرعان ما تبين لي أن خشيتي كانت بلا مبرر. فقد ترك الأهالي أنوار منازلهم مضاءة. وكنت، كلما عبرت امام بيت، أرى أنواره أطفئت فأهتدي بأنوار البيت الآخر. والصوت الوحيد الذي سمعته تلك الليلة كان آتياً من محرك سيارتي ومن أنين الريح وانسحاق الثلج تحت العجلات. الا أني لم أشعر بالوحشة البتة. والحق أني لم أكن وحيداً تحت تلك السماء الشاسعة.

■ **الدكتور موريس غيبسون**



أصداء من عالم الطب

كشف السرطان

في تقرير نشرته مجلة تابعة لجمعية السرطان الامريكية تصف نتائج دراسة استمرّت خمس سنوات، تبين أن تصوير الصدر بالاشعة يمكن أن يكشف المراحل الاولى من السرطان لدى النساء الشابات وأولئك اللواتي تجاوزن الخمسين، وقد بلغ عدد النساء اللواتي أخذت لهنّ الصور والفحوص الطبية ٢٨٠ ألفاً تراوح أعمارهنّ بين الخامسة والثلاثين والرابعة والسبعين. ووجد لدى ٣٥٥٧ منهنّ اصابات سرطانية كشف التصوير بالاشعة نحو ٩٠ في المئة منها، علماً ان عدداً كبيراً من الاورام التي كشفتها الاشعة صغير الحجم ويمكن شفاؤه بمقدار ٩٥ في المئة من النجاح.

والدراسة التي استهلت عام ١٩٧٣ قصرت تسليط الاشعة أول الامر على المتقدمات في السنّ، خوفاً من تسبيبها سرطان الصدر بعد سنوات. ويقول كاتب التقرير الدكتور لاري بيكر من جامعة كنساس المختصّ بالامراض الجلدية، ان كمية الاشعة المستخدمة في التصوير خُفضت كثيراً بحيث تضاءلت أخطارها. وقد وجد هو وزملاؤه أنّ هذا التصوير مفيد جداً في حال النساء اللواتي تجاوزن الخمسين، وهم لا يزالون يختبرون حسناته لدى النساء الاصغر سناً.

صحيفة "نيويورك تايمس"

الاعضاء الالكترونية

ابتكر المهندسون البيولوجيون في مستشفى الجراحة الخاصة في مدينة نيويورك طريقة الكترونية لانتاج الاوراك والركب وسواها من المفاصل الاصطناعية في وقت أسرع ثلاث مرّات مما تؤمنه الطرق التقليدية المتبعة في الجراحة الترقيعية. ويقول مدير المختبر في المستشفى: "هذه الطريقة الجديدة ستقطع فترة المكوث في المستشفى وما يلازمها من تكاليف، كما ستمكننا من العناية بالرضى على نحو أفضل. وقد بات صنع العضو الاصطناعي يستغرق ١٥ ساعة بعدما كان صنعه اليدوي يتمّ في خمسين ساعة."

وهذا اول جهاز مبرمج الكترونياً يتم اعداده لانتاج الاعضاء الاصطناعية. وقد تمّ إنجازه بعد سنتين من العمل، وكلف ٣ ملايين و٤٠٠ ألف دولار. وأُلقم معلومات عن الوسائل التي استُخدمت على المرضى السابقين. ويتولى المهندسون تصميم العضو المطلوب بعد مقارنة المعلومات الخاصة بالمريض المعني مع المعلومات الملقمة. وبعد وضع التصميم في الدماغ الالكتروني، ينفذه عبر الآلات التي يتحكم بها والتي تستخدم مواد معدنية وبلاستيكية. ويقول المهندسون انهم سيضيفون برامج جديدة الى هذه الآلة المتطوّرة في المستقبل القريب.

صحيفة "أخبار نيويورك اليومية"

جراحة القلب

تمييل الشريان التاجي هو جراحة القلب الاكثر شيوعاً في الولايات المتحدة. وقد أجريت ١٧٠ ألف عملية من هذا القبيل عام ١٩٨٣. وغدا هذا النوع من العمليات تجارة تدر ثلاثة مليارات دولار سنوياً. إلا أن بعض الاطباء يخشى أن يكون لجوء زملائهم المفرط الى هذه الجراحة في غير موضعه أحياناً. وقد جاءت نتائج دراسة موّلها المعهد الوطني الامريكي للقلب والرئة والدم تؤكد مخاوفهم.

والدراسة لا تتحدّى جراحة التمييل بالنسبة الى المرضى الذين يعانون انسداداً في الشريان التاجي الايسر الرئيسي أو آلاما صدرية مبرحة ناتجة من انسداد شريان تاجي واحد أو اكثر، لكنها تركز على ما إذا كانت جراحة التمييل تطيل حياة المرضى الذين يعانون اعراضاً أقل حدّة، وهم واحد من ثمانية يخضعون لهذه الجراحة في الولايات المتحدة. وبعض الذين شملتهم الدراسة يشكون آلاماً صدرية خفيفة أو معتدلة. وبينهم من تعرّض لنوبة قلبية واحدة أو أكثر من غير أن تصيبه آلام صدرية. وعولج المتطوعون في الدراسة، وعددهم ٧٨٠ شخصاً تقلّ أعمارهم عن الخامسة والستين، إما بجراحة التمييل وإما بالعقاقير المسكنة. وبعد ستّ سنوات تبين أن معدّل التعمير في كلتا الفئتين بلغ ٩٠ في المئة.

والواقع أن للجراحة بعض حسنات. فالمرضى الذين أخضعوا لها تلاشت لديهم آلام الصدر وباتوا أكثر تحملا للحركة والرياضة وخفت حاجتهم الى العقاقير.

غير أنّ الكثير منهم يحتاج الى جراحة أخرى بعد مضيّ وقت معين، نظراً الى أن تصلب الشرايين يزداد بعد الجراحة الاولى بحيث تكثر فيها التراكمات الدهنية. ويقول الدكتور يوجين براونوالد وهو اختصاصي بالقلب في جامعة هارفرد: "ثمة احتمال قوي أن تكون الجراحة الثانية عسيرة وأشدّ خطراً لأن الانسجة تكون تعرّضت للتلف." ومن أجل تجنّب هذه الجراحة، يعتقد براونوالد وزملاؤه أن الجراحة الاولى ينبغي أن تؤجل ما أمكن، وأن يستعاض عنها بالادوية. وأظهرت الدراسة المذكورة أن العلاج بالدواء ممكن في حال عدم إصابة الشريان التاجي الايسر وخلو الجسم من الاعراض القوية.

مجلة "تايم"

أمل لمرضى البروستات

في لقاء للاتحاد الامريكي لأمراض المجاري البولية أعلن الدكتور باتريك والش، رئيس دائرة الامراض البولية في جامعة جونز هوبكنز في بالتيمور (ولاية ماريلاند)، أنه ابتكر طريقة لاستئصال البروستات كلياً، خالية من أهم الاعراض الجانبية للطرائق المتبعة، أي التسبب في عجز المريض جنسياً.

وتساءل والش عن السبب الحقيقي لهذا العجز لدى ٩٠ في المئة من الرجال الذين يخضعون للجراحة التي تعتقهم من سرطان البروستات. وكان جوابه أن الطريقة التقليدية تنطوي على قطع الاعصاب التي تلعب دوراً أساسياً في عملية الانتصاب. أما طريقته هو فتقوم على استئصال البروستات وابقاء تلك الاعصاب الحيوية لتؤدي وظيفتها. ويقول ان خمسة من مرضاه الستة المتزوجين استطاعوا، بعد فترة نقاهة دامت ستة أشهر، ممارسة نشاطهم الجنسي العادي.

ويأمل الدكتور والش أن تؤدي طريقته الى تشجيع الرجال على فحص جهازهم البولي من اجل استئصال الاورام السرطانية في مراحلها الاولى في حال وجودها.

صحيفة "نيوزداي"

كارثة فوق جبل الظلام

بقلم موريس شادبولت

Photo: Antarctic Division DSIR

كارثة فوق جبل الظلام

بدت تلك الرحلة فوق القطب الجنوبي من رحلات العمر. وراح ركاب الطائرة ٩٠١ التابعة للخطوط الجوية النيوزيلندية يتناولون الطعام والشراب ويتحادثون بمرح وهم ينظرون من النوافذ الى المناظر القطبية الرائعة تحتهم. وفي طرفة عين تحولت الطائرة النفاثة كومة حطام ودخان ورماد على جبل اريبوس المغطى بالثلوج. وقضى جميع ركابها وهم ٢٣٧ وأفراد طاقمها العشرون. ولكن كيف حصل ذلك؟

ألقت الخطوط الجوية النيوزيلندية - وهي من شركات الطيران العالمية ذات السمعة الممتازة - المسؤولية على الطيار. الا أن أحد كبار ربابنة الشركة تحدى تلك النظرية وضحى بوظيفته وصداقاته من أجل الحق وإكراماً لذكرى زميله. ولعل في كشف الحقيقة بعض عزاء لذوي الضحايا.

هنا يروي أحد أفضل كتاب نيوزيلندة المعاصرين قصة هذه الكارثة.

في ٢٨ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٩ حلقت طائرة من نوع «دي سي - ١٠» تابعة للخطوط الجوية النيوزيلندية فوق قارة القطب الجنوبي غير المأهولة الغارقة تحت أشعة الشمس. وكان على متن تلك الطائرة ٢٣٧ راكباً و٢٠ ملاحاً يحلقون فوق أرض تزيد مساحتها على ١٤ مليون كيلومتر مربع من الجبال وأنهر الجليد والبحار المتجمدة والثلوج القطبية الكثيفة.

وفي الثانية عشرة والدقيقة التاسعة والأربعين بعد الظهر بالتوقيت القطبي كانت الطائرة الضخمة تتحرك بسرعة ٢٦٠ عقدة (١) وسط الجو المشمس وفي مسارها المبرمج الكترونياً. وهي أكثر الطائرات تطوراً وأماناً. ناهيك بأن الخطوط الجوية النيوزيلندية لم تسجل حادثاً جوياً واحداً طوال السنوات الأربعين التي انقضت على تأسيسها.

وها هم السياح يستمتعون بأجمل رحلة نظمتها شركة سياحية خلال العقد الأخير، ألا وهي التحليق فوق القطب الجنوبي. وراح بعضهم يتحدث ويتناول الشراب فيما البعض الآخر يلتقط الصور من النوافذ.

وبعد خمسين ثانية فقط أصبحت الطائرة حطاماً يندلع منه الدخان على جبل تغطيه الثلوج. ولم ينجُ أحد من الموت، ولم يكن أحد هناك ليهبّ على الفور الى مكان الحادث. وسرعان ما غطى الثلج جثث الضحايا وتقاذفت الريح الأوراق والوثائق وحومت طيور الكركر فوق الحطام.

ومن حيث ضخامة الخسائر في الارواح احتل ذلك الحادث المرتبة الخامسة في تاريخ الطيران، وربما كان أكثر الحوادث مأسوية. وغدا موضوعاً لأربعة كتب كبيرة وألوف الصفحات التي تضمنت الشهادات القانونية وقرارات المحاكم. وبعد اكثر من خمس سنوات لا تزال تلك اللطخة السوداء فوق الجبل الأبيض حية في أذهان المعنيين.

وكان الطيران النيوزيلندي أعلن تنظيم تلك الرحلة تحت شعاره المعروف «لا أحد يبزنا في هذا المضمار.» وجاء في الكتيّب المعد عن الرحلة: «اتبعوا خطى كبار المستكشفين القطبيين حول القارة الجليدية... انظروا تحتكم الى أرض سكوت وشاكلتون وبيرد ومن جاء بعدهم من العلماء المستكشفين. ولا تنسوا أن تحملوا نظاراتكم الشمسية وآلات التصوير.»

واستهلت الشركة رحلاتها السياحية تلك، التي تقطع مسافة ٩٠٠٠ كيلومتر في ١١ ساعة، عام ١٩٧٧. وفعلت الدعاية وإطراء السياح فعلهما في ملء جميع الطائرات المتجهة الى هناك. وكانت الرحلة بالنسبة الى بعض الركاب تحقيقاً لأحلامهم، وبالنسبة الى آخرين مهرجاناً جوياً فوق أروع منظر في العالم. وكانت وسائل الراحة مكتملة ومقادير الطعام

(١) العقدة أو الميل البحري تساوي ١٨٥٢ متراً

والشراب سخية. ونظر الركاب تحتهم ليروا سهول الجليد الموشحة بالشمس، حيث عاني الكثير من المستكشفين القطبيين الأمرين وقضى عدد منهم. وكان يرافق بعض الرحلات أدلاء بينهم متسلقا الجبال النيوزيلنديان السير ادموند هيلاري وبيتر ملغرو، ليرووا على الركاب أقاصيص واقعية من خبرتهم وسط الصدوع والثلوج. ولم تكن الطائرة تهبط خلال تلك الرحلة، بل كانت تحلق على علو منخفض فوق القاعدة البحرية الأمريكية وقاعدة سكوت النيوزيلندية على شاطىء لسان مكموردو قبل عودتها الى نيوزيلندة.

ولم يكن على متن الطائرة ذلك اليوم من هو أكثر حماسة لرؤية القطب الجنوبي من ربانها جيم كولينز البالغ الخامسة والاربعين. وهو رجل أنيق مرح يحظى بتقدير الآخرين ويتمتع بضمير حي. واعتبر كولينز أن الحظ حالفه حين أوكل اليه أمر قيادة الرحلة ٩٠١. وطيارو الخطوط الجوية النيوزيلندية يصنفون الرحلات السياحية القطبية في عداد الكماليات. وقد سرت اشاعة أن الشركة قد ترفع تكاليف الرحلة نظراً الى ارتفاع ثمن الوقود.

ولو عرف كولينز بالاجتماع الاستشاري العاشر الخاص بالتحليق فوق القطب الجنوبي الذي عُقد في واشنطن قبل أسابيع، لكان أقل سروراً. ففي ذلك الاجتماع لوحظ أن الرحلات السياحية القطبية «تجري في جو محفوف بالأخطار» وانها «تتجاوز الامكانات الراهنة للمراقبة والاتصال والانقاذ.» والولايات المتحدة وحدها خسرت أكثر من خمسين طائرة و٢٩ موظفاً في عملياتها هناك. ومع ذلك أصرت الخطوط الجوية النيوزيلندية وطيران «كانتاس» الاوسترالي على المضي في تلك الرحلات السياحية فوق القارة الخطرة.

التدقيق في الخرائط

في ٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٩، أي قبل ١٩ يوماً من الرحلة، تلقى كولينز وثلاثة طيارين آخرين التعليمات النهائية عن الطريق المرسومة للرحلة القطبية. وبين أولئك الطيارين لسلي سيمبسون الذي حُدِّد الرابع عشر من نوفمبر (تشرين الثاني) موعداً لرحلته. وتلقى الطيارون التدريب مع عرض سمعي بصري للطريق، وأتيح لهم طرح الأسئلة التي يريدون. وعرضت الشرائح المصورة التي تبين معالم الطريق كما تبدو من الطائرة. وعُدَّ ذلك كافياً بالنسبة الى الطيارين الذين يجتازون تلك الطريق للمرة الاولى. وكان قسم الطيران المدني يشترط أن يحلّق الربان مرة واحدة على الأقل فوق القطب الجنوبي قبل ان يتولى قيادة طائرة الى هناك. غير أن الخطوط الجوية النيوزيلندية أقلعت عن تلك العادة بعد الرحلتين الاوليين عام ١٩٧٧. ولا يستطيع طيار عسكري التحليق فوق لسان مكموردو بطائرة تابعة للبحرية الأمريكية أو

السلاح الجوي النيوزيلندي ما لم يحلّق سابقاً فوق المنطقة في إشراف طيار قطبي متمرّس. ولكن يبدو أن التدبير الجديد الذي اتخذته الخطوط الجوية النيوزيلندية حصل بهدف توفير الوقت والطيارين والمال.

وعرف كولينز من الشرائح المصورة التي شاهدها أن الخط المرسوم للرحلة سيحمل طائرته «دي سي - ١٠» فوق بحر مكموردو الجليدي. وهذا يعني أن منطقة فيكتوريا الجبلية التي تتخللها الصدوع الجليدية ستكون الى يمينه، وجزيرة روس التي يتوسطها جبل اريبوس البركاني الذي يرتفع ٣٧٩٤ متراً الى يساره.

ولكن ما هو أدنى ارتفاع يُسمح به لالتقاط الصور؟

هبط معظم الطيارين الى ارتفاع يراوح بين ١٥٠٠ و٣٠٠٠ قدم (٤٥٧ متراً - ٩١٤ متراً) فوق مكموردو قبل إكمالهم الطريق الى القطب الشمالي حيث يعمل مئات العلماء والمتطوعين من الولايات المتحدة ونيوزيلندة. وذلك كله كان واضحاً في إعلانات الشركة عن الرحلة.

لكن ثمة شرطاً واحداً للنزول تحت نقطة الأمان، أي تحت ١٦ ألف قدم، وهو أن تكون الرؤية واضحة على امتداد ٢٠ كيلومتراً على الأقل والجو خالياً من الثلج بحسب ما يقتضيه الطيران المدني النيوزيلندي. ويتعين على الطيار أن يحصل قبل هبوطه على اذن من قسم مراقبة الطيران في محطة مكموردو الأمريكية.

وخلال الاجتماع الذي أعطيت فيه التعليمات حصل الطيارون على الخطة المفصلة للرحلة، بما في ذلك المواقع الأرضية الموافقة لكل نقطة جوية بالقياس الى خطوط الطول والعرض. والى ذلك لجأ جيم كولينز المعروف بدقته الى تدبير يغفله الطيارون الآخرون معظم الاحيان. فهو دون معلومات كثيرة مما رآه وسمعه في دفتر صغير كان يدعوه «ذاكرتي.»

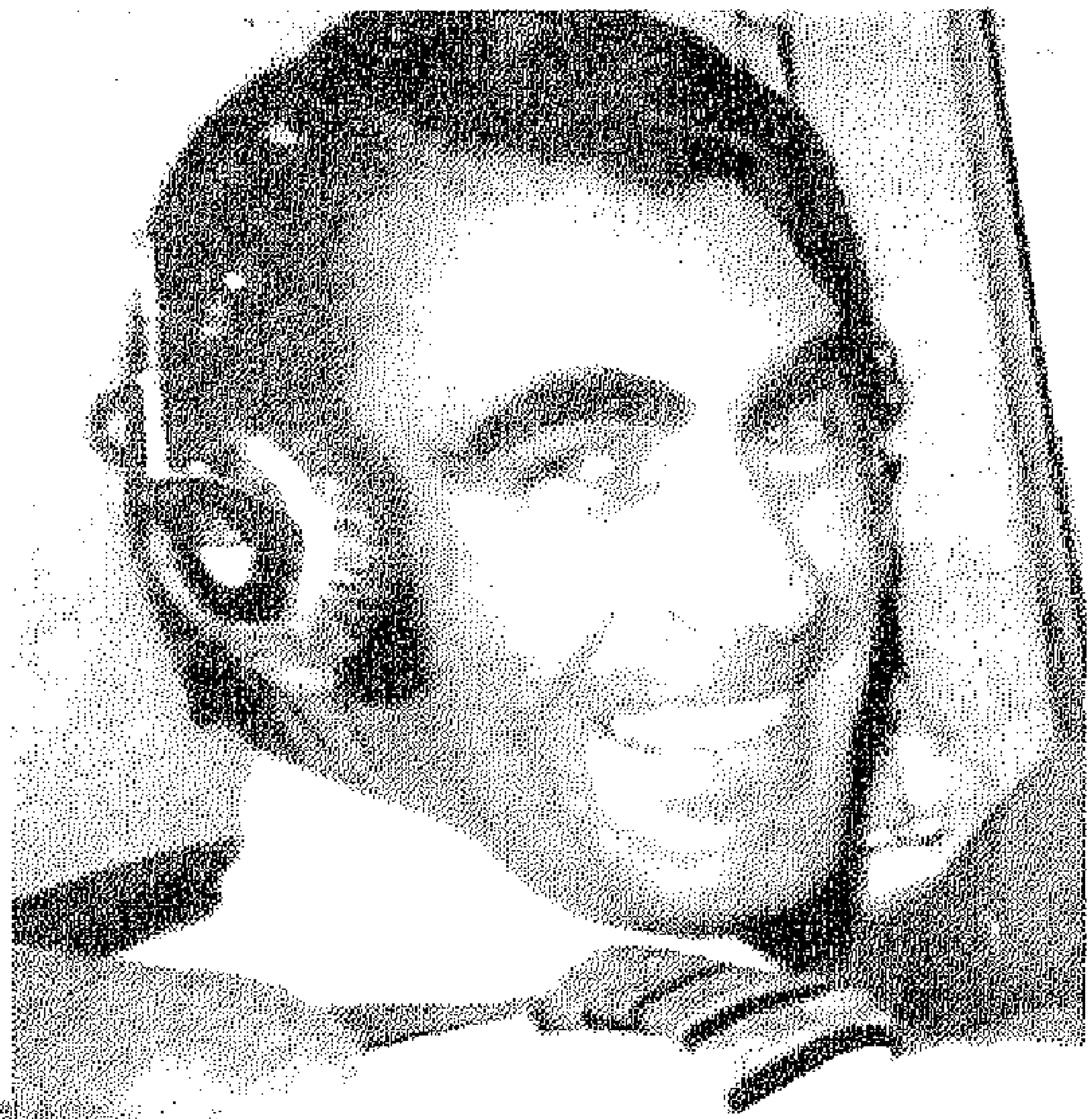
ولا شك في أنه دوّن النقطة الأخيرة في الطريق، وهي ٧٧ درجة و٥٣ دقيقة جنوباً، و١٦٤ درجة و٤٨ دقيقة شرقاً. ولم يخطر في بال أحد أن هذا الدفتر سيكتسب أهمية قصوى، خصوصاً من جهة الرقمين المتعلقين بالشرق.

وفات الادارة أن تزوّد الطيارين أمرين مهمين: أحدهما خريطة طوبوغرافية (٢) تحمل رسماً دقيقاً للطريق الى مكموردو، أي للمساحة الممتدة بين فيكتوريا وجزيرة روس، والآخر البحث في أحد الأخطار القطبية،وهو «انتشار البياض»، أي امحاء الافق الفاصل بين الأرض والفضاء. وأحياناً يظن الطيار أنه يرى حتى مسافة ١٥٠ كيلومتراً أمامه، لكنه لا يلبث أن يصدم جبلا. وظاهرة البياض الخادع هذه غابت عن بال المسؤولين في الخطوط الجوية

(٢) الطوبوغرافيا هي الوصف أو الرسم الدقيق للاماكن أو لسماتها السطحية

النيوزيلندية وقسم الطيران المدني. وقدروا أن تحذير الطيارين من تساقط الثلج كافٍ. الا أن المسؤولين عن الطيران العسكري في القطب الجنوبي يحذرون طياريهم على الدوام من ظاهرة البياض الخادع.

وفي أمسية السابع والعشرين من نوفمبر (تشرين الثاني)، قبل ١٢ ساعة من موعد

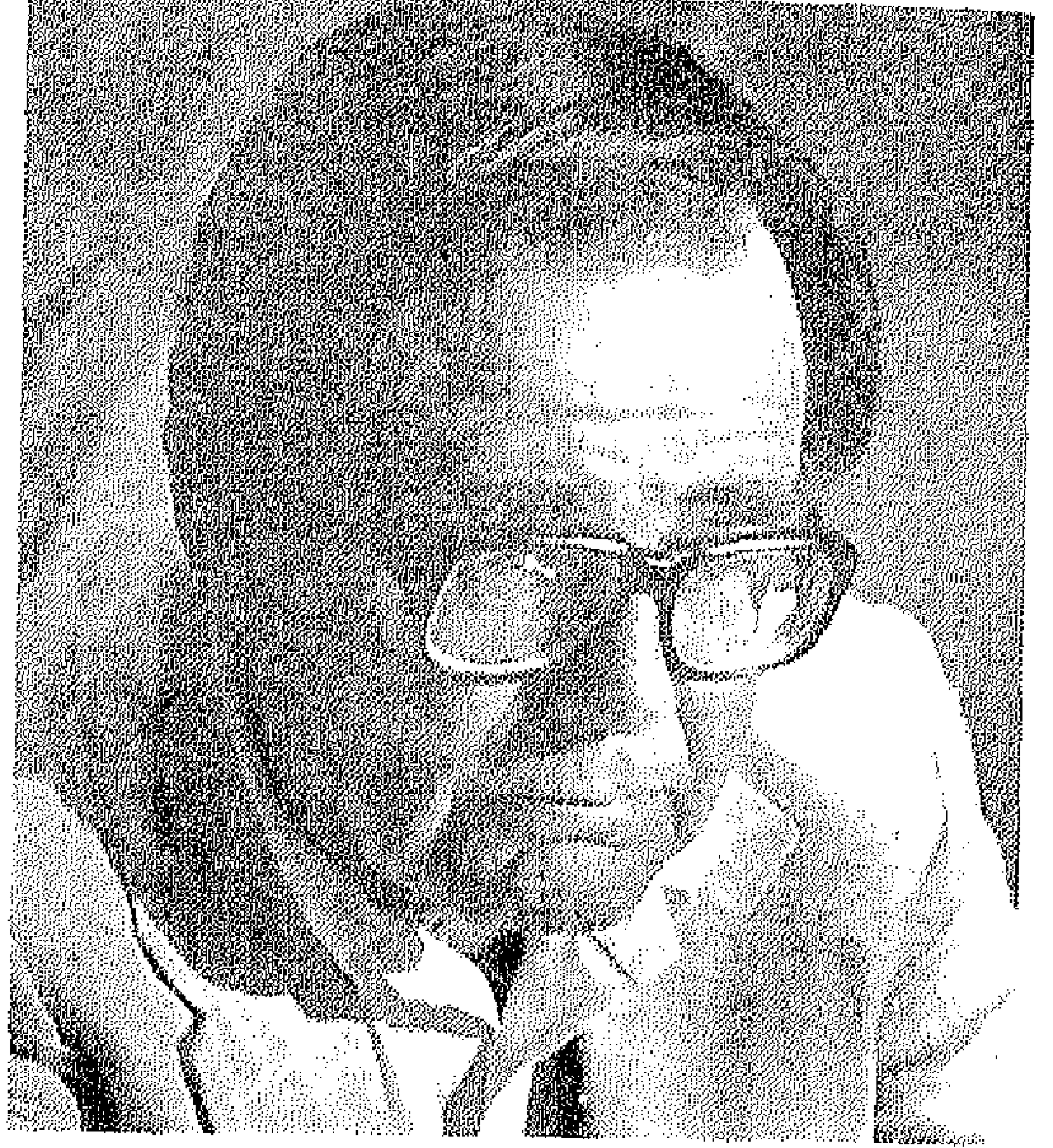


الكابتن حيم كولينز قائد الرحلة ٩٠١

الاقلاع، بسط كولينز الخرائط وأدوات الرسم البياني أمامه على مائدة الطعام في منزله في أوكلاند. وكولينز معروف بالحرص وبأنه لا يدع نفسه يعيش تحت رحمة الظروف غير المتوقعة. وكلما دعا أفراد عائلته الى الابحار في زورق حمل معه من لوازم النجاة ما يفوق المطلوب. وقد بدت تلك الرحلة فوق القطب الجنوبي متجاوزة للمعتاد في نظر كولينز. لذلك بسط خريطة كبيرة على الأرض ليدل اثنتين من بناته الأربع المتقدات الذهن - وهما كاثرين البالغة الخامسة عشرة واليزابيت البالغة الرابعة عشرة - على الطريق الى مكموردو، ولما فرغ من الخرائط رأته ابنتاه يدرس خريطة طوبوغرافية تفصيلية لمنطقة

Captain A.M. Foley

حطام الطائرة وأحد جناحيها.



موري ديفيس المدير التنفيذي لشركة الخطوط الجوية النيوزيلندية آنذاك

مكموردو في أطلس خاص نشرته دائرة مسح الاراضي في نيوزيلندة.

وأمضى ساعتين وهو يمحّص الطريق، كما شهد أفراد عائلته لاحقاً. وربما فعل ذلك تعويضاً لتقصير المسؤولين في الشركة في عرض الطريق على نحو مفصَّل دقيق، بما في ذلك جبال فيكتوريا ووهادها ومحطة مكموردو وجبل اريبوس البركاني. ولما انتهى لمّ كل شيء، بما في ذلك الأطلس النيوزيلندي، ووضعه في حقيبة يده. ثم شاهد أخبار الساعة العاشرة على التلفزيون مع زوجته قبل أن يخلد الى النوم.

أما الربان لسلي سيمبسون الذي استدعته الادارة مع كولينز وآخرين لاعطائهم تعليمات أساسية عن الرحلة، فحلّق فوق القطب في ١٤ نوفمبر (تشرين الثاني). وكانت تلك الرحلة بهجة لكل من شارك فيها. وأعطاه المراقبون الجويون في محطة مكموردو اذناً بالهبوط الى ألفي قدم (٦٠٩ أمتار) حيث أطلّ المسافرون من النوافذ يتأملون روعة المناظر ويلتقطون الصور. وفيما هو يحلق من الغرب الى الشرق في الجزء الأخير من الرحلة لاحظ أن المسافة بين النقطة الأخيرة ومحطة مكموردو للمراقبة الجوية هي حوالى ٤٣ كيلومتراً، وهذا أطول مما كان يتوقع. ودقق في جميع الأرقام والأجهزة أمامه، فوجد كل شيء كما ينبغي أن يكون. لذلك ارتأى تنبيه زملائه الطيارين الى الأمر لئلا تقلقهم تلك المفارقة بين الواقع والرقم الظاهر على الدماغ الالكتروني.

ولدى عودته ناقش الأمر مع مدير الطيران الكابتن روس جونسون الذي طلب من قسم الملاحة في الشركة تحرّي المسألة. ويبدو أن ذلك القسم فهم أن سيمبسون يطلب جعل النقطة الأخيرة فوق محطة المراقبة الجوية. لكن حقيقة الأمر أنه تمنى على الادارة تنبيه الطيارين الى تلك المسألة.

وفي الامسية عينها التي مد كولينز الخرائط ورسم عليها الملاحظات ودل ابنتيه على الطريق، كان قسم الملاحة في الشركة يعدل طريق الرحلة ٩٠١ على الدماغ الالكتروني بحيث يضع النقطة النهائية فوق محطة مكموردو للمراقبة. وقضى هذا التعديل باتباع الطريق ليس الى لسان

مكموردو كما هي العادة، بل فوق مرتفعات جزيرة روس حتى جبل اريبوس مباشرة.

وفي سجل كولينز أن خط الطول بالنسبة الى النقطة الأخيرة هو ١٦٤ درجة و٤٨ دقيقة شرقاً. الا أن المعلومات الجديدة التي ادرجت في الدماغ الالكتروني كانت ١٦٦ درجة و٥٨ دقيقة شرقاً.

وادعى موظفو قسم الملاحة لاحقاً أنهم، تبعاً لخطأ طباعي فاتهم اكتشافه طويلا، ظنوا أن إبدال النقطة النهائية لم يزد على ٢،١ ميل بحري (أو عشر دقائق على خط الطول)، وليس ٢٧ ميلا بحرياً أو درجتين و١٠ دقائق على الخط نفسه). ولم يحاول أي منهم الاشارة الى ذلك التعديل على خريطة طوبوغرافية، كما أنهم لم يحيطوا كولينز علماً بالأمر.

وفي الثانية من فجر ٢٨ نوفمبر (تشرين الثاني) بينما كولينز مستغرق في نومه، تمت برمجة التعديل لتلقيمه الدماغ الالكتروني في وقت لاحق من الصباح. وهكذا باتت الخريطة التي دوّن عليها كولينز التعليمات الدقيقة غير ذات فائدة. وهذا يعني أن الطائرة وضعت على خط معين والطيار على خط آخر.

نُذُر الكارثة

مع بروز الشمس في السماء الصافية جثمت الطائرة المجهزة للرحلة القطبية خارج البوابة ٢ في مطار أوكلاند الدولي، وقد رُسم على ديلها شعار الماوري وهو شعب نيوزيلندة الأصلي، وحملت على جسمها رقم تسجيلها. والطائرة تنتمي الى الفئة ٣٠ من طراز «دي سي - ١٠»، وقد صنعتها شركة ماكدونل - دوغلاس عام ١٩٧٤.

ومنذما اشترتها شركة الخطوط الجوية النيوزيلندية، حلقت تلك الطائرة أكثر من ٢٠ ألف ساعة بأمان. وتمت صيانتها على أدق وجه. وعلى رغم ذلك فلطائرات «دي سي - ١٠» سمعة سيئة لدى الجمهور، خصوصاً بعد سقوط طائرة من هذا النوع في شيكاغو قبل ستة أشهر من الرحلة وعلى متنها ٢٧٣ راكباً قضوا جميعاً. وبقيت جميع الطائرات من نوع «دي سي - ١٠» حول العالم جاثمة على الأرض طوال أسابيع أعقبت الحادث.

وذهب كولينز الى المطار باكراً للتدقيق في جميع الامور ومراقبة الأحوال الجوية. وكان معه معاوناه الطياران غريغوري كاسين وغراهام لوكاس. أما المهندسان غوردون بروكس ونك مولوني فانصرفا الى تحري عشرات الدقائق.

وكان يخيم على محطة الركاب جو غير عادي. فعلى رغم إدراج تلك الرحلة في عداد الرحلات الدولية، الا أن الركاب المتجهين نحو أقصى الارض لم يبرزوا جوازات سفر، والقليل منهم حمل حقيبة. ولم يمروا في المنطقة التجارية المعفاة من الضرائب. وعلى معظم بطاقات السفر

ظهرت عبارة «من أوكلاند الى أوكلاند» مع أن محطة هبوط الطائرة لدى عودتها كانت كرايستشيرش. وكانت غالبية الركاب في منتصف العمر فما فوق. ومعظمهم من نيوزيلندة، باستثناء ٢٣ أمريكياً و٢٤ يابانياً وأوسترالي واحد وخمس نساء بريطانيات وكنديين وآخرين من فرنسا وسويسرا وسواهما. وكان الكل متشوقاً الى بدء الرحلة.

ولم تكن متعة التحليق دافعهم جميعاً. فهناك كريستين نيكولسون، مثلا، وهي معلمة مدرسة نيوزيلندية في السادسة والعشرين كانت حضرت دورة تعليمية من عشرة أسابيع في جامعة كانتربري في كرايستشيرش حول القطب الجنوبي، وشاءت التقاط صور تعرضها على تلاميذها لاحقاً وهي تدرسهم تلك المادة. وهناك أيضاً بفرلي برايس وهي من أشهر متسلقات الجبال في نيوزيلندة، التي وجدت في الرحلة ٩٠١ فرصتها الوحيدة لمشاهدة الجبال القطبية. وقد أخذت معها والدتها البالغة السادسة والثمانين.

وكان على متن الطائرة عدد من الطيارين المتمرّسين. ومن هؤلاء الأمريكية جين فاريل من دنفر، وهي مدربة طيران تستطيع السيطرة على أي جسم طائر، من المقاتلة النفاثة الى طائرة «دي سي - ١٠». وجلس الى جانبها صديقها وزميلها ماريون بارنيك من سان خوسيه في كاليفورنيا.

ومن الركاب أيضاً الدكتورة كونستانس كوري وهي طبيبة نفسية أمريكية تعمل في نيوزيلندة. وكانت تلك رحلتها الثانية الى القارة الجنوبية. فقبل ثلاثة اسابيع كانت على متن طائرة اضطرتها الأحوال الجوية السيئة الى تحويل خطها بحيث تحلق فوق مجلدة نينيس والقطب الجنوبي المغناطيسي. لذلك ارتأت الذهاب الى هناك مرة أخرى كيما تتأمل روعة المنظر فوق لسان مكموردو.

وكان بين الركاب من أخذته المصادفة المحض الى هناك. ومن أولئك توم هيندمان البالغ الستين والذي فاز ببطاقتي سفر الى القطب الجنوبي لأنه أحسن تقدير وزن قطعة ثلج في مركز تجاري قريب من مكان إقامته. وأخذ معه احدى صديقاته. وهناك تريفور ماسكيلين الرقيب في الشرطة البالغ السادسة والعشرين والذي ربح الجائزة الاولى في يانصيب نظمته فرقته. وهناك نيكولاس جارفيس البستاني ومحب الأسفار الذي أهدت اليه زوجته الكسيحة بطاقة السفر تقديراً لتفانيه في خدمتها. وثمة ركاب آخرون حصلوا على بطاقات السفر لمناسبة عيد ميلاد أو للنجاح في امتحان.

وفي الثامنة والدقيقة السابعة عشرة صباحاً بالتوقيت المحلي تحركت الطائرة على مدرج مطار أوكلاند وقد تأخرت ١٧ دقيقة عن موعدها. وكان ذلك اليوم ذكرى ميمونة. فقبل خمسين سنة بالتمام، أي في ٢٨ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٢٩، أقلع

الأميرال ريتشارد بيرد من البحرية الأمريكية بطائرته «فلويد بينيت» الملقبة «الاوزة التنكية» في أول رحلة فوق القطب الجنوبي.

وكان على متن الطائرة أناس لازمهم بعض خوف قبل إقدامهم على الرحلة. ومن أولئك المضيفة سو مارينوفيك البالغة التاسعة والعشرين والتي تأخرت ذلك الصباح عن موعد حضورها الى المطار للمرة الاولى في ثماني سنوات. والسبب أن منبه ساعتها لم يرن. وهي تلقت مخابرة من قسم مراقبة الموظفين للسؤال عما اذا كانت تود أن تحل مكانها مضيفة أخرى. واذ لم تشأ إزعاج سواها أسرعت نحو المطار وبلغته في عشرين دقيقة. وفي حقيبة يدها التي أُعيدت الى زوجها بعد الحادث عثر على بطاقة خطت عليها رسالة عاطفية اليه وكأنها استشعرت أجلها المحتوم. وهناك مضيفة اخرى هي كاترينا موريسون هزها قبل أسابيع كابوس مقلق. وروت القصة لاحدى زميلاتها، وهي انها كانت تحلق في طائرة تحطمت على جبل مكلل بالثلوج. وبعد الحادث وجد والدا كاترينا أنها وضعت على سريرها جميع البطاقات والهدايا التي تلقتها لمناسبة عيد الميلاد.

قرارٌ حاسم

حلقت الطائرة على ارتفاع ٣٥ ألف قدم (١٠٦٨٨ متراً) فوق جزيرة نيوزيلندة الشمالية بشطآنها التي تتكسر عليها الامواج وأوديتها المغطاة بالأشجار ومراعيها الخضر، قبل أن تحلق فوق الجزيرة الجنوبية ذات الجبال العالية والبحيرات. وعبر جهاز الارسال الداخلي قدم كولينز نفسه بتواضع ومرح الى الركاب. ولما كانت طائرة «دي سي - ١٠» لم تصمم لمشاهدة المناظر الطبيعية والتقاط الصور، فقد طلب كولينز من الركاب الجالسين الى النوافذ تبادل مقاعدهم مع الآخرين كيما يتسنى للجميع كسب أكبر ما يمكن من الرحلة. وأزيح عدد من المقاعد من موضعه وتُرك سواه خالياً كي يتنقل الركاب بحرية من مكان الى آخر ويتعرف بعضهم الى بعض. ودُعوا جميعاً الى زيارة قمرة القيادة للتعرف الى طريقة عمل الطائرة عن كثب. وما لبثت الطائرة أن خلّفت نيوزيلندة وراءها وباتت تحلق فوق المحيط الجنوبي الجامح الذي تهب فوقه الرياح العاتية. ولا بد من ان يكون الركاب شعروا بابتعادهم عن الحياة والحضارة وهم متجهون نحو أشد مناطق الارض وحشة.

وعُرضت الأفلام التي التقطت من فوق القطب الجنوبي وفيه على الركاب. وكان بيتر ملغرو البالغ الثانية والخمسين على استعداد للاجابة عن أسئلتهم. وفي العام ١٩٥٨ كان ملغرو في رفقة السير ادموند هيلاري وآخرين وصلوا الى القطب الجنوبي عبر مكموردو بعد رحلة شاقة فوق الثلوج. وهي الرحلة الاولى على الاقدام بعد رحلة روبرت فالكون سكوت المخفقة

عام ١٩١٢. وفي رحلة استكشافية الى جبال حملايا مع هيلاري عام ١٩٦١ تعرض ملغرو لقضمة صقيع أدت الى بتر ساقيه الاثنتين تحت مستوى الركبة. الا أن ذلك لم يثبط عزيمته. ففي العام ١٩٧٢ أبحر الى نيوزيلندة في سباق عالمي لليخوت. ثم غدا مديراً لشركة كيميائية كبيرة. لكن ذلك لم يمنعه عن قبول مرافقة الركاب في رحلة يوم فوق القطب الجنوبي على متن الخطوط الجوية النيوزيلندية. وكان يروي، عبر جهاز الارسال الداخلي، الوقائع والطرائف والذكريات الشخصية المتعلقة بالقطب الجنوبي. كما كان يذرع الطائرة على رجليه الاصطناعيتين ويتوقف هنا وهناك للاجابة عن أسئلة الركاب.

وبعد انقضاء أربع ساعات على مغادرة أوكلاند بدأ الافق يتلبد بالجليد. ومع الدنو من الدائرة القطبية غابت جميع الألوان باستثناء اثنين: الأزرق الخالص والأبيض الخالص. وهو جو سماوي لا تشوبه الخطوط الرمادية أو الخضراء أو غيرها. وعن يمين الدائرة القطبية ظهرت جزيرة بالني لتسجل النقطة التاسعة من نقاط الرحلة الاحدى عشرة. وكان كولينز ينتظر تقريراً جوياً من مكموردو ليقرر ما اذا كان يستطيع متابعة الطريق الى لسان مكموردو أو يتجه نحو القطب الجنوبي المغناطيسي الأقل إثارة. وجاءه جواب مكموردو أن المسافة من الأرض الى ارتفاع ٣٠٠٠ قدم (٩١٤ متراً) خالية من الغيم، وأن مجال الرؤية ٤٠ ميلا (٦٤ كيلومتراً). وبحث كولينز في الأمر مع طاقم الطائرة وبيتر ملغرو، وقر الرأي على متابعة الطريق الى لسان مكموردو.

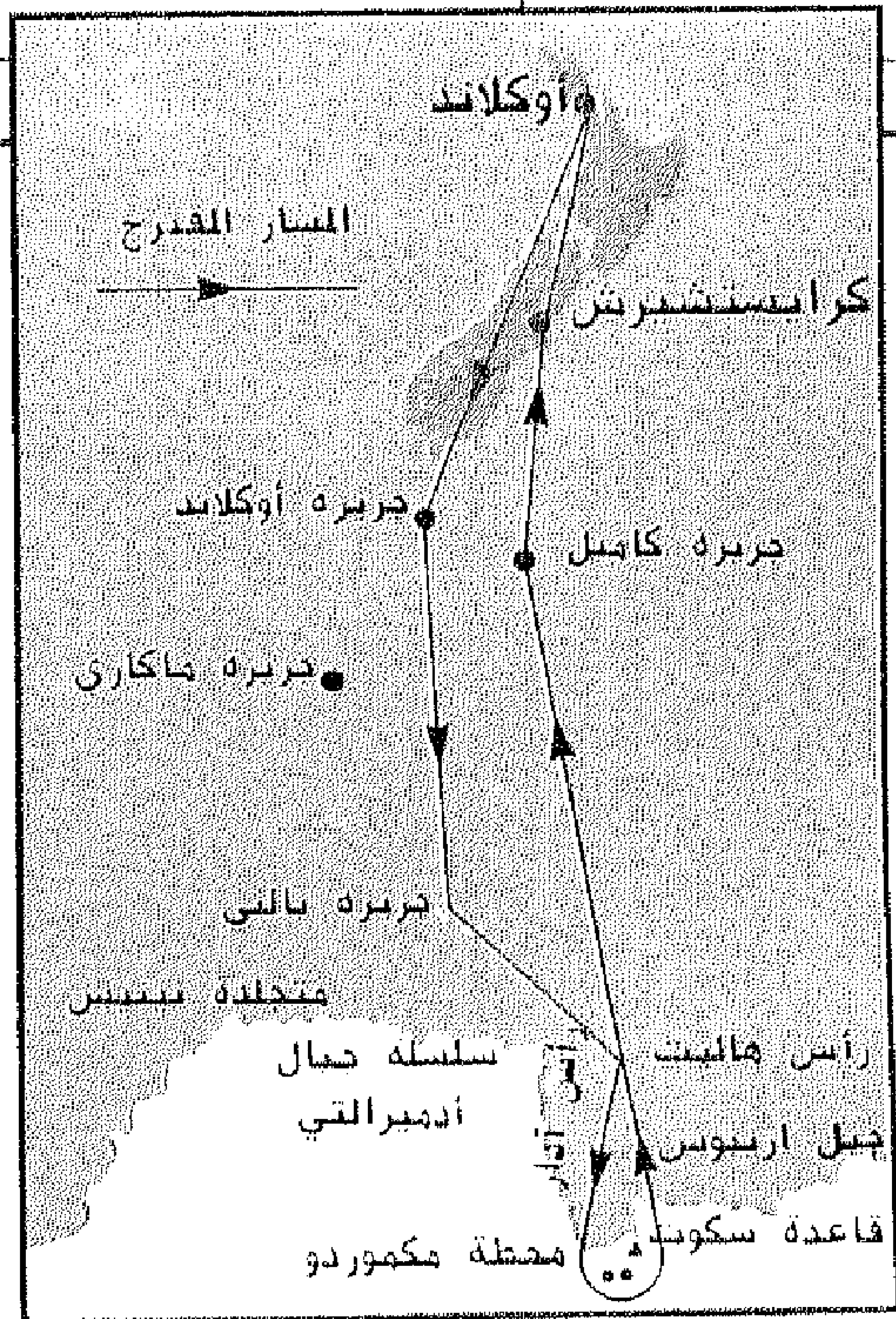
وما ان أصبحت الطائرة على الارتفاع المطلوب حتى تولى جهاز الطيران الذاتي حرفها بضع درجات شرقاً نحو كيب هاليت، النقطة التي تسبق مكموردو على الطريق. ولاحظ كولينز الاتجاه الصحيح مرتسماً على اللوحة أمامه. وككل طيار يستخدم طائرة «دي سي - ١٠» كان على ثقة تامة بكفاية جهاز الطيران الذاتي فيها. وهو جهاز يعفي الطيار تماماً من العمل لدى اشتغاله. وتدخل في تركيبه ثلاثة أقسام تعمل في حفظ توازن الطائرة. الا أن كولينز لم يعفِ نفسه من العمل في تلك الاثناء، بل راح يتابع اداء الأقسام الثلاثة كعادة الطيار الكفي. ومتى أصبحت الطائرة فوق مكموردو بات في الامكان تصحيح الاتجاه عبر الاتصال بالمحطة الارضية.

وسرعان ما ظهرت سلاسل الجبال تحت. وتجاوز مجال الرؤية ٣٠٠ كيلومتر من غير أن يحده سوى تقوّس الارض. وبعد عبور كيب هاليت وضع الركاب نظاراتهم الشمسية لئلا يؤذي لمعان الثلوج أعينهم

طريق الخطر

نظر كولينز ومعاونوه من حجرة القيادة الى لسان مكموردو الذي يفصله عنهم نحو

المسار الحقيقي
المسار المتوقع
77°
بحر روس
خليج لويس
نقطة الاصطدام
جبل اريبوس
جبل الرعب
جزيرة روس
لسان مكموردو
مكموردو
سكوت
متجلدة روس
164°
166°
168°
78°



نصف ساعة من الطيران. ولا بد من ظهور جبل اريبوس وجبل تيرور (الرعب) قريباً، وهما أعلى نقطتين في جزيرة روس اذ يبلغ ارتفاعهما ٣٢٦٢ متراً. غير أن سحائب من الغيم بسطت فوق الجزيرة سقفاً يرتفع ٤٥٧٢ متراً، (١٥ الف قدم). وما لم تهبط الطائرة تحت مستوى الغيم فلن يتمكن الركاب من رؤية منطقة مكموردو الرائعة بجلال تحت الشمس.

وفي الثانية عشرة والدقيقة الثامنة عشرة والثانية الحادية والاربعين أعطت محطة

Map Illustrations Rodney Scott

مكموردو اذناً للطائرة بالهبوط حتى ١٨ ألف قدم (٦٤٨٦ متراً). وبعد دقيقة واحدة خاطب المراقب الأمريكي الطيار كولينز: «على دائرة تمتد ٤٠ ميلا (٦٤ كيلومتراً) حول مكموردو لدينا جهاز رادار يستطيع إنزال الطائرة، اذا شئت، حتى ارتفاع ١٥٠٠ قدم (٤٥٧ متراً).»

وتنفس كولينز الصعداء وقال: «هذا هو الخبر السار الذي انتظرناه.»

وتابع طريقه نحو لسان مكموردو وهو يراقب جميع الأجهزة أمامه بتدقيق تام. ووجد البوصلات الثلاث كلها تعمل بانسجام. واستطاع عبر سحب الغيم رؤية مساحات الجليد الواسعة. وعاين فرجة في الغيم يمكنه النفاذ منها الى تحت.

وأعطته محطة المراقبة الأرضية اذناً بالانحدار. وقدّر أن وصوله الى ارتفاع ٦٠٠٠ قدم (١٨٢٨ متراً) يضعه ضمن مجال الرادار الأرضي. وأوقف جهاز الطيران الذاتي وقتياً وحرف الطائرة قليلا عن خطها المرسوم حتى غدت على ارتفاع ١٠ آلاف قدم (٣٠٤٨ متراً) ثم على ارتفاع ٢٠٠٠ قدم (٦٠٩ أمتار).

وأعلن بيتر ملغرو على المذياع: «لن نلبث حتى نحلق فوق المناظر الرائعة.»

وبعد إكمال هبوطه أعاد كولينز جهاز الطيران الذاتي الى العمل وفق الخط المرسوم. ومن حجرة القيادة ظهرت المناظر عن كلا الجانبين. وفهم الملاحون مما رأوه أن الطائرة تحلق ضمن خطها المرسوم فوق لسان مكموردو بعيداً عن الجبال والمرتفعات.

الا أن ذلك لم يكن صحيحاً.

فالمعلومات التي وضعت في الدماغ الالكتروني قبل الاقلاع من غير أن يحاط الربان والملاحون علماً بها وضعت الطائرة في اتجاه آخر. والرؤوس البحرية التي رأوها لم تكن على جانبي مكموردو، بل على جانبي خليج لويس الصغير في جزيرة روس. ولم يكن جبل اريبوس بعيداً الى اليسار. والراجح أن كولينز توقع ذلك الأمر حين وجد الاتصال بالرادار منقطعاً.

وكانت الرؤية واضحة وقد ظهرت في الأفق مساحات الجليد متصلة ببياض السماء. غير أن كولينز ظل قلقاً لعدم حصوله على رسالة الرادار المتوقعة. وقد قيل له أن ينتظرها حين يصبح على بعد ٤٠ ميلا (٦٤ كيلومتراً) من الرادار. ولكن ها هو على بعد ٢٦ ميلا (٤٢ كيلومتراً) من غير أن يحصل على شيء.

وأعلن كولينز: «علينا أن نعاود ارتفاعنا.» وربما قدر أن الارتفاع يصله بمحطة الرادار.

وكانت الساعة الثانية عشرة والدقيقة التاسعة والاربعين والثانية الثلاثين. وانقضت ١٤ ثانية فيها الملاحون يتداولون أمر الصعود على خط مستقيم أو الانحراف يميناً. وفجأة التمع النور الذي يشير الى الاقتراب من الأرض. وجاء صوت الكتروني يقول: «انتبه! انتبه! اصعد

حالا.» ولم يصدق المهندس غوردون بروكس رقم الارتفاع المرتسم على اللوحة أمامه: ٥٠٠ قدم (١٥٢ متراً)، ثم ٤٠٠ قدم (١٢٢ متراً).

وظن كولينز أن بروكس لم يقرأ الرقمين حسناً. ودقق في جهاز الطيران الذاتي فإذا به يعمل وفق الخطة المرسومة له.

وبعد ثانيتين اثنتين اصطدمت الطائرة التي تزن ٢٥٠ طناً بجبل اريبوس.

ولم يعرف الذين على متن الطائرة شيئاً عن مصيرهم المشؤوم، حتى في الثانية الأخيرة. وكان الاصطدام مفاجئاً بحيث لم يرتسم على صفحات أذهانهم. لذلك لم يأتِ عليهم الذعر ولم يبادروا الى الصياح. وحصدهم الموت وهم في عز ابتهاجهم.

أجساد فوق الثلج

ربما كان جبل اريبوس أشد مناظر القطب الجنوبي خرْقاً للمألوف. وأول من رآه كان الكابتن السير جيمس كلارك روس خلال رحلة ملحمية قام بها الى هناك بين ١٨٣٩ و١٨٤٣. واخترق روس بحار الجليد في إبحاره الى أقصى الجنوب قبل أن يبلغ لسان مكموردو. وهناك شاهد جبلا «يقذف النار والدخان بغزارة» وسط عالم يغطيه البياض من كل جانب. وأعطى الجبل اسم سفينته: «اريبوس». وهذه كلمة يونانية تعني «الظلام». وهي، في الأساطير الاغريقية، اسم ابن الفوضى.

وبعد احدى عشرة ساعة من سقوط طائرة الخطوط الجوية النيوزيلندية هناك، حلقت طوافة تابعة للبحرية الأمريكية فوق الجبل وأكدت المخاوف التي تناقلها المعنيون. وانتشر النبأ في العالم: «لقد حددنا مكان الحطام، وهو على ٢٦، ٧٥ درجة جنوباً و٢٧، ١٦٧ درجة شرقاً. ويبدو أنه ليس من ناجين.» وصُحح المكان بعد ذلك ليغدو ٣٠، ٢٥، ٧٧ درجة جنوباً و٣٠، ٢٧، ١٦٧ درجة شرقاً.

وازدادات الأحوال الجوية سوءاً بحيث لم تستطع الطوافة الهبوط. وانقضت تسع ساعات قبل أن تتمكن طائرة مروحية من إنزال ثلاثة متسلقي جبال من قاعدة سكوت النيوزيلندية، وهم هيو لوغان وداريل طومسون وكيث ودلفورد. وربط بعضهم بعضاً بالحبال وتقدموا بحذر في محاذاة الصدوع العميقة نحو الحطام.

وأذهلهم المنظر حين رأوا بطن الطائرة الذي اصطدم بالأرض مبقوراً وسط الثلج. وما زال المحرك الخلفي دائراً حين وثبت الطائرة ٥٧٠ متراً وراح الركاب يتساقطون منها قبل أن تتحطم شر تحطم وتتناثر على الثلج.

وعلى تلك الثلوج القطبية تناثرت الأجساد وقد شوه بعضها بتراً وسحقاً وحافظ البعض الآخر على شكله. وظل الرجال الثلاثة ساعتين يفتشون المنطقة بحثاً عن أحياء، ولكن من غير جدوى. وعثروا على حقائب يد ووسائد ومفكرات وكنزات صوف وساعات وحلى صغيرة.

والواقع أن سكان نيوزيلندة، وعددهم ثلاثة ملايين نسمة، لم يعرفوا كارثة طيران ضخمة كهذه من قبل. وفجأة بدا كأن كلا منهم فقد عزيزاً على تلك الطائرة.

وبعد ساعات من إعلان النبأ عرف كبار المسؤولين في قسم الملاحة في الخطوط الجوية النيوزيلندية أن المعلومات المدرجة في الدماغ الالكتروني عدلت قبل الاقلاع من غير إحاطة الربان وفريقه علماً. ولكن قبل أن تتسرب الحقيقة الى الجمهور أمر مدير الشركة موري ديفيس بوضع جميع الوثائق الخاصة بالرحلات القطبية في ملف واحد، خصوصاً الوثائق المتعلقة برحلة ٢٨ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٩، وإحالة جميع الوثائق الفائضة على آلة التمزيق.

وأعطي موظفو الشركة الحرية ليقرروا اي الوثائق هي «ذات علاقة» وأيها يجب أن تحال على الاتلاف. ومهما يكن فقد جاء الملف الخاص بالرحلات القطبية مفتقراً الى أهم المعلومات.

وفي اليوم الذي تلا الكارثة توجه موظف من الشركة الى منزل آن كاسين، أرملة الطيار المعاون، ليقدم اليها التعازي باسم اتحاد الطيارين التابعين للشركة. ولم تكن آن، وهي طيارة متمرسة، في البيت. ولدى عودتها أخبرها شقيق زوجها أن


طوافة تنتشل الجثث من بين الحطام

Captain A.M. Foley

مسؤولا في الشركة طلب وثائق الرحلة التي تسلمها زوجها قبل يوم من الحادث، وأنه أعطاه اياها. ولم يبصر أحد تلك الاوراق بعد ذلك الحين.

فرز الشواهد

ظل العمل جارياً في موقع الحادث لانتشال الجثث ودرس أسباب الاصطدام. وأول المتوجهين الى هناك كان رون تشيبنديل كبير خبراء حوادث الطيران لدى الحكومة النيوزيلندية، ومعه ممثل رفيع المقام للخطوط الجوية النيوزيلندية هو الكابتن ايان غيميل وعدد من رجال الشرطة ومتسلقي الجبال.

وكان هم تشيبنديل الأول العثور على شريط التسجيل الخاص. وهو يحوي كل ما قيل خلال الدقائق الثلاثين الاخيرة من الرحلة ويوجد ضمن علبة برتقالية. وهناك علبة برتقالية أخرى تحوي تفاصيل الطيران بالارقام، بما في ذلك السرعة والارتفاع طوال الطريق مع طريقة تشغيل أجهزة الضبط. ولا يستبعد ان يكون بين تلك الاشياء ما يدل على سبب الكارثة. وسرعان ما عثر أحد متسلقي الجبال على العلبة التي تحوي التسجيل الصوتي. ووجدت العلبة الاخرى في مكان قريب.

وطلب تشيبنديل من المفتشين أن يمشطوا المكان بحثاً عن كل وثيقة وورقة، فيما تولى مسؤولون في الخطوط الجوية النيوزيلندية إرشادهم الى الوثائق المتعلقة بالرحلة. وهذا يعني أن الشركة نفسها تفردت في تقرير أهمية الوثائق، دونما استعانة بمراقب خارجي موضوعي. وأثيرت الشكوك لاحقاً حين تبين أن «الوثائق» تصب كلها في اتجاه واحد، وهو تأكيد نظرية الشركة بإلقاء اللوم على الطيار.

ولم تظهر أي وثيقة ذات علاقة بخطأ الشركة، ألا وهو تعديل المعلومات في الدماغ الالكتروني من غير إطلاع الربان ومعاونيه على ذلك. ومما يزيد الشكوك حدة أن الجزء الوحيد من دفتر كولينز الذي دعاه «ذاكرتي» والذي أعيد الى زوجته كان الغلاف الخارجي، بحجة أن الحادث أتى على الاوراق في الداخل. كما أن الأطلس الذي أخذه كولينز معه بعد تخطيط طريق الرحلة عليه لم يظهر البتة. ومن الغريب أن يكون ذلك المجلد الكثيف تلف في حين عُثر على أعداد كبيرة من الاوراق العادية الرقيقة.

وبعد الفراغ من انتشال الجثث ارسلت جواً الى نيوزيلندة. وأمكن التعرف الى ٢١٤ جثة. أما البقية الباقية فدُفنت في مقبرة جماعية. وأتى الحزن على ضحية اضافية اذ انتحر زوج إحدى المضيفات.

وفي ظرف أيام اختفى شعار الخطوط الجوية النيوزيلندية «لا أحد يبزنا في هذا المضمار» عن لوحات الاعلانات. وأصدرت لجنة فرعية تابعة لمجلس ادارة الشركة أمراً داخلياً يحظر تدوين أي كلام

أو نشره عن أسباب الحادث. وبدا مدير الشركة موري ديفيس، وهو رجل فصيح وذو حيوية بالغة في العادة، مضنىً وقلقاً على شاشة التلفزيون. وهو أمضى أربعين عاماً في تلك الشركة، متدرجاً من ساع بسيط الى مدير. ولم يواجه طوال سنواته الأربعين مأزقاً كهذا. وفي مقال بعنوان «الحياة يجب أن تستمر» نشره في مجلة الشركة جاء: «الرعب الذي ولّده فينا حادث الرحلة ٩٠١ سيواجهنا يومياً الى حين لا نعرف متى ينقضي.» وفي المقال نفسه وردت العبارة الغريبة الآتية: «لا مهرب من تحمل أوهام أولئك الذين يودون التحري عن أسباب خيالية للحادث.»

وكان ديفيس على حق بالنسبة الى الرعب اليومي. وسرعان ما أسفر الحادث عن ضحايا أخرى بينها ديفيس نفسه وسمعة شركته. وبدأت التساؤلات في الوقت الذي كانت آلات التمزيق في الشركة تدور على الشواهد الحاسمة. واستمرت تلك التساؤلات يوماً بعد يوم، خصوصاً ضمن جدران الشركة.

التحليق المنخفض

كان الكابتن غوردون فيت يستعد لقيادة طائرة «دي سي - ١٠» من هونولولو الى لوس أنجلس حين سمع بالحادث. وفيت في السادسة والاربعين وقد أمضى أكثر من ثلاثين عاماً في الخطوط الجوية النيوزيلندية. وصعقه النبأ. وهو رجل



News Limited

الكابتن غوردون فيت جازف بمهنته ليكشف سبب الكارثة.

قصير مكتنز بليغ العبارة مفعم النشاط وذو مبادىء وذهن متقد. وقد كرس حياته لشركته ومهنته على نحو يعسر معه العثور على مثيل له. وفي ديسمبر (كانون الاول) ١٩٧٨ اكتشف فيت طيار «سيسنا» تائهاً فوق المحيط الهادىء الجنوبي وأرشده الى مهبط أمين في جزيرة نورفولك. وتلقى تهنئة موري ديفيس آنذاك على انجازه «البطولي الخارق.»

وكان فيت يعتبر طائرة «دي سي - ١٠» من أفضل الطائرات التجارية. وسبق له أن قاد احداها في رحلة سياحية الى القطب الجنوبي قبل سنتين. وكان له أصدقاء بين ملاحي الرحلة ٩٠١، منهم جيم كولينز نفسه الذي لقنه فيت مبادىء الطيران في السلاح الجوي النيوزيلندي. وكان على

الدوام معجباً بمعرفة كولينز وجرأته. ومرة ضرب البرق طائرة كولينز فور إقلاعها من لوس أنجلس. وتحطم بابان داخليان بفعل الحادث. الا أن كولينز استطاع إنزال طائرته الى الأمان من غير وقوع أي اصابة. ونال على ذلك ثناء الشركة.

أما المهندس غوردون بروكس الذي رافق الرحلة ٩٠١ فكان صديقاً قريباً جداً من فيت. وفي المشاورات التي تجرى بين الطيارين والمهندسين في الرحلات الجوية على الطائرات النفاثة الضخمة، كانت تعليقات غوردون وثيقة الصلة بالموضوع ومتصفة بالدقة والحذر على الدوام. وهو رافق فيت في رحلة قبل أسبوع أو نحوه.

والحق أن ملاحي الخطوط الجوية النيوزيلندية العاملين على الشبكة الدولية يشكلون عائلة متراصة. وبين الذين قضوا في الرحلة أصدقاء للملاحين الذين رافقوا فيت من هونولولو. وأفضى اليهم فيت بالنبأ وقال: «لا تتحدثوا في الأمر، وحاولوا الا تفكروا فيه... ركزوا كل اهتمامكم على الوصول الى لوس انجلس، وهناك نستأنف الموضوع.»

وتمت الرحلة على نحو لم يشبه شائبة، وان عاش الملاحون في جو متوتر. وفي السيارة التي أقلت فيت وملاحيه من المطار الى الفندق أجهش الكل بالبكاء على زملائهم. ولم ينفك أحدهم عن القول: «كيف حدث هذا؟ كيف يمكن أن يحدث؟»

ولم يطرح أي منهم الأسئلة كما طرحها فيت. والواقع أنه أمضى خمس ليال لا ينام وهو يستعيد رحلته القطبية مرة بعد مرة. وكان يذرع الفندق وهو ينظم أفكاره. وفي النهاية وجد بما لا يقبل الشك أن الخطأ عائد الى الطائرة نفسها أو الى خدعة ما، ولكن ليس الى ملاحي الرحلة ٩٠١ بقيادة كولينز. ولكن ما هو ذلك العامل المجهول الذي أدى الى الحادث؟ وكيف ظهر؟ ولماذا؟ أجل، هذه هي الأسئلة الصحيحة، اذ ان كولينز لا يجوز أن يتجه خطأ نحو جبل.

ولما عاد فيت الى نيوزيلندة أزعجه كثيراً الكلام الدائر في صفوف كبار المسؤولين في الشركة، ومؤداه أن كولينز وجه الطائرة وسط الغيم من غير أن يقدر مغبة ذلك. وأدرك فيت أن هذا الأمر مستحيل، إذ لا يعقل أن يصدر عن طيار اسمه جيم كولينز ومهندس طيران اسمه غوردون بروكس.

وسرى في أوساط الشركة أيضاً أن كولينز كان يحلق على ارتفاع منخفض جداً. وهذا غير صحيح كذلك. فالتحليق على ارتفاع ١٥٠٠ - ٣٠٠٠ قدم (٤٥٧ - ٩١٤ متراً) أمر معتاد فوق لسان مكموردو. وفيت نفسه حلق دون مستوى ٣٠٠٠ قدم. والمسؤولون في الشركة يعرفون حق المعرفة أن رؤية المناظر غير ممكنة الا من ارتفاع كهذا. ناهيك بأن مستوى الـ١٥٠٠ قدم لا يُعد منخفضاً اذا اهتدى الطيار بمحطة المراقبة الارضية. وهذا عين ما يحصل فوق أي مطار في العالم. أما الرحلة

٩٠١ فكانت تعمل بتوجيه محطة المراقبة الارضية في مكموردو. الا أن المسؤولين أصروا على عزو الحادث الى كولينز.

ولم يدر في خلد فيت أن شركته على استعداد للتضحية بسمعة كولينز بعد وفاته لانقاذ سمعتها هي. لكن ما رشح الى وسائل الاعلام أكد مخاوفه حين تبين أن المسؤولين لا همّ لهم سوى إلقاء اللوم كله على الطيار جيم كولينز.

والى حرصه على سمعة زميله وصديقه الراحل كان فيت مهتماً بالشق المهني للموضوع: فاذا أبقي سبب الحادث طي الكتمان، أفلا يعني هذا إمكان تكراره؟ ولم يألُ فيت جهداً في ساعات فراغه في جمع كل وثيقة خطية أو شفوية ذات صلة بتلك الرحلة المشؤومة.

وخلال تحريه الأمر عرف فيت أن الكثير من الحوادث الجوية فوق القطب الجنوبي متعلق بالرؤية. ومن الأخطار الرئيسية ظاهرة الابيضاض، أي امحاء الافق بين الأرض والسماء. الا أن الشركة لم تعمد مرة واحدة الى إنذار طياريها حول ذلك الخطر. واختراق حجاب الغيم للوصول فوق منطقة مكموردو - وهو ما طلبت الشركة من الطيارين فعله - هو هو ذاك الخطر بالذات.

رفض مذهل

لم يكتفِ فيت بنظرية الابيضاض تفسيراً للحادث. فإن طياراً محنكاً مثل كولينز، وإن فاتته رؤية جبل اريبوس عن بعد ١٥٠ متراً لوصوله خطأ الى هناك، لا يُحتمل أن يكون وصل من تلقائه الى الجبل. لذلك أراد فيت أن يعرف ما الذي وضع جبل اريبوس في مسار الطائرة.

ثم سمع بعض الكلام الدائر في الشركة حول التعديل الذي أدخل على الدماغ الالكتروني ووضع الجبل في طريق الرحلة ٩٠١. عندئذ قدر أن يكون كولينز، لدى مشاهدته الارض تحته، ظن أنه في الاتجاه الصحيح. وأكد ظنه رأي بيتر ملغرو متسلق الجبال والدليل المتمرس في منطقة مكموردو.

وهكذا اتضحت الامور أكثر في ذهن فيت. فالمسألة تعود أولا الى تعديل ملاحي أخفي على ملاّحي الطائرة ووضعها في مجال جبل اريبوس. وبعد ذلك يأتي دور كولينز الذي جعله عدم إطلاعه على الحقيقة مع ابيضاض المنظر أمامه وتحته لا يدري على الاطلاق أنه يدنو من الجبل.

وصمم فيت على الافضاء باكتشافه الى الشركة، مقدراً أن استمرار المسؤولين في إلقاء اللوم على الطيار سيضعهم جميعاً في موقف مربك لدى انجلاء الحقيقة عاجلا أم آجلا. وهذا ليس في مصلحة الخطوط الجوية النيوزيلندية. الا أن موقف المسؤولين ظلّ يقسو أسبوعاً بعد أسبوع حتى انقسمت الشركة كلها تحت شعارين: «خطأ الطيار» و«التحليق المنخفض وسط الغيم.»

ولم يبد رؤساء فيت أي اهتمام بما قاله. والأكثر من ذلك أن الكثير من زملائه وأصدقائه بات يواجهه بنظرة ملؤها التحامل والعداء. وسأله بعضهم: «ما غايتك في النهاية؟» و«إنس هذه المسألة، أتظن أن لك قضية في تحصيل حق أحد؟»

وجاء تقرير رون تشيبنديل في يونيو (حزيران) ١٩٨٠ بعد ستة أشهر من الحادث ليؤكد للطيار فيت أن لا سبيل الى التراجع عن مساعيه.

وتشيبنديل ذو خبرة طويلة في تحري أسباب حوادث الطيران الخفيف، ولكن تنقصه الخبرة في شؤون الطائرات النفاثة. وهو لا يعرف شيئاً عن المشاورة التي تحصل بين ملاحي تلك الطائرات في الجو. وخلص في تقريره الى أن الطائرة كانت تحلق على ارتفاع منخفض ولكن آمن، وأن سبب الحادث المحتمل هو «قرار الربان الاستمرار في ذلك الارتفاع والاتجاه نحو منطقة مجهولة الأفق والمعالم.»

وانتقد الطيار المساعد غريغوري كاسين لاخفاقه في تسجيل القياسات بدقة. ولم يجد التقرير أي مصدر للخطر في ظاهرة الابيضاض القطبي أو في تبديل نقطة الرحلة الاخيرة التي وجهت الطائرة نحو جبل اريبوس. وادعى تشيبنديل أن الجبل لا بد من أن يكون ظهر على رادار الطائرة. وعوّل على شريط التسجيل لتأكيد ما ذهب اليه المسؤولون في الشركة.

غير أن جزءاً كبيراً من تقرير تشيبنديل ظل مفتوحاً للانتقاد، خصوصاً من طيار متمرس مثل فيت الذي كان يعرف جيداً أن جهاز الرادار في طائرة «دي سي - ١٠» صُمم لتحري الرطوبة المنذرة ببعض الاضطرابات الجوية المحتملة. وهذا الجهاز لا يستطيع التقاط الشواهد من صخور اريبوس وثلوجه الجافة، الأمر الذي أكدته الشركة المنتجة لاحقاً.

كما أن الشريط الذي سُجلت عليه المحادثات خلال الدقائق الثلاثين الاخيرة من الرحلة لا يستطيع تفسيره جيداً الا شخص واسع الاطلاع على الدقائق التي تدور بين الملاحين في الجو. والكثير من التعليقات إشاري وليس كلامياً، أي أنه يحصل بإغماض عين أو رفع حاجب. وهذا يعني أن الملاحظات الصوتية لا تحمل كل ما يجري. وفي أي حال فالكلام المسجل على الشريط أعطي في ما بعد تفسيراً مختلفاً تمام الاختلاف عن ذاك الذي أعطاه تشيبنديل.

وبعد صدور التقرير المذكور كان غوردون فيت أول الزائرين صباحاً لمنزل ماريا كولينز، وهي أمضت الأشهر الستة الأخيرة تحت وطأة كابوس ثقيل بعد فقدها زوجها وتفردها بتربية بناتها الاربع.

وهناك أمر آخر أزعج ماريا، وهو سرقة غامضة حصلت في منزلها. واكتفى السارق باختلاس مجموعة مراسلات بينها وبين محاميها حول تقرير أولي أرسله اليها تشيبنديل طالباً رأيها فيه.

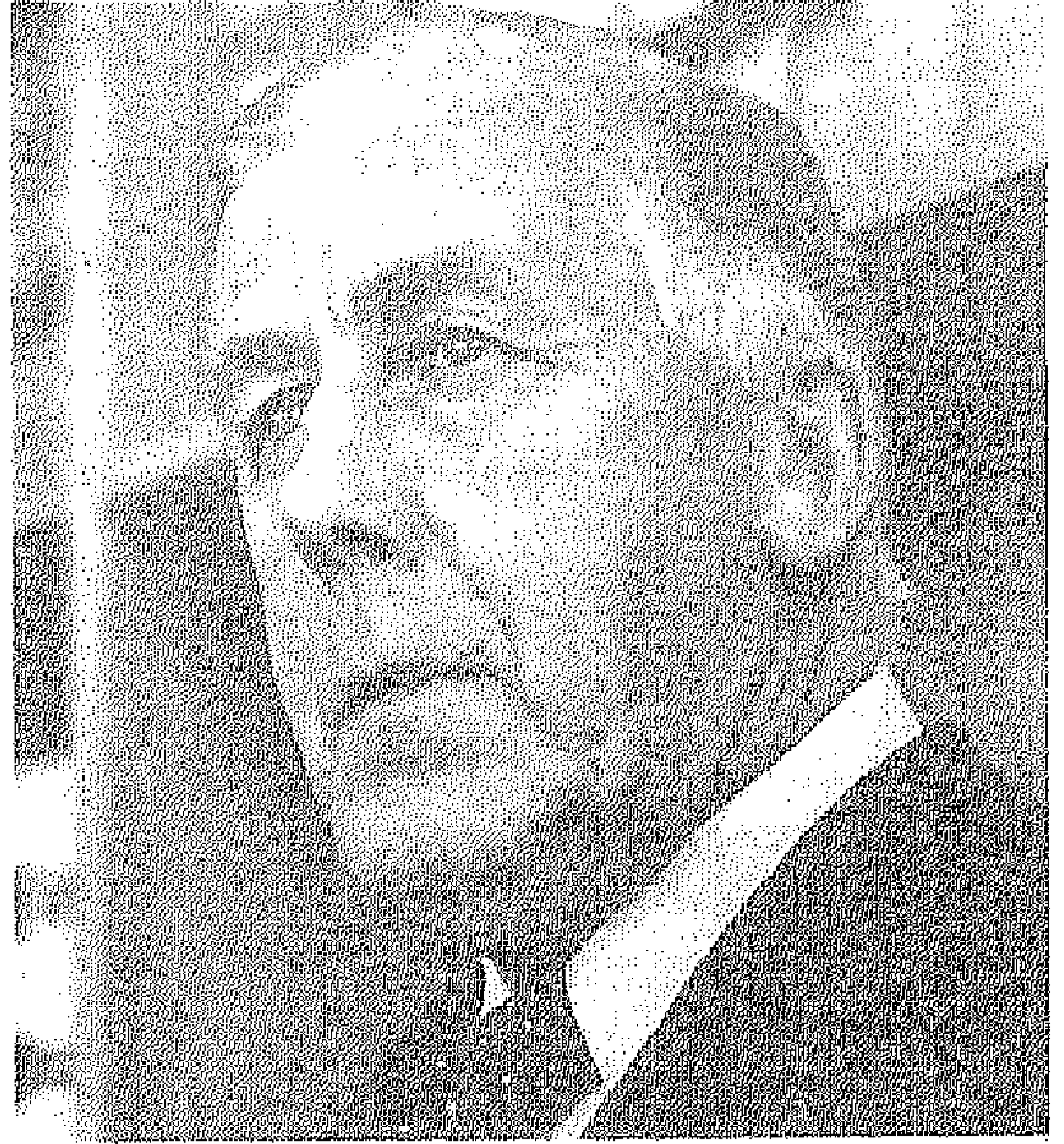
وبادرها فيت: «أود أن تعرفي أنه مهما قال الناس من كلام فليس جيم مسؤولا عن الحادث. وأؤكد لك أنه لم يكن مسؤولا عنه البتة، وأن ثمة أسباباً أخرى أعمق كثيراً من تلك التي أعلنت. وأنا أعرف هذه الاسباب. وسواي سيعرفها قريباً.» وكان ذلك أول تأكيد جازم تسمعه ماريا.

تحقيق طويل

في تلك الأثناء دعا عدد كبير من السياسيين والطيارين والمواطنين الذين لم يقنعهم التقرير الى فتح تحقيق قضائي شامل في الحادث. وعينت الحكومة المدعي العام بيتر توماس ماهون، البالغ السادسة والخمسين والذي أدى خدمات جلّى طوال عقد كامل أمضاه قاضياً في محكمة نيوزيلندة العليا، لترؤس لجنة التحقيق الرسمية. وقد عُرف ماهون بسلامة منطقه وهدوئه وسرعة خاطره وقوة ذكائه وذاكرته وحرصه على استقصاء أدق التفاصيل.

واعترف لاحقاً بأنه حين بدأ تحرياته كان يظن أنه لن يلبث حتى يؤكد نتائج تقرير تشيبنديل. وخبرة ماهون الوحيدة في الطيران كانت خبرة راكب. الا أنه أكب على كتب الطيران وسواها من الكتابات المتعلقة بالتكنولوجيا والادمغة الالكترونية والرادار وتوزيع العمل على الملاحين أثناء التحليق. وأمضى وقتاً في نموذج «دي سي – ١٠» مصغر وهو يطلع على كل شاردة وواردة فيه. وراجع معلوماته القديمة في علم المثلثات كيما يتسنى له حساب كل ما يتعلق بالمسافة والارتفاع واتجاهات الرادار الخاصة بالرحلة ٩٠١. وفي الذكرى السنوية الاولى للكارثة طار الى القطب الجنوبي وعاين جبل اريبوس من طائرة مروحية وهو يختفي ضمن وشاح من بياض. وفتح تحريات استغرقت ٧٥ يوماً، استمع خلالها الى ٦١ شاهداً اختيروا من الخطوط الجوية النيوزيلندية والطيران المدني واتحاد الطيارين ووزارة المواصلات ومؤسسات أخرى، فضلا عن ورثة الضحايا. وفي النهاية تجمعت لديه ٣٤٥١ صفحة من الشهادات والاعترافات مع ٢٨٤ رسماً.

وبدا أن أحداً لم يكن وثيق الصلة بذلك الموضوع أكثر من غوردون فيت. وقبل بدء التحريات هاله أن يرى بعض كبار المسؤولين في شركته يرسمون حول أنفسهم خطوطاً دفاعية. وانقسمت الشركة فريقين، أحدهما يضم الطيارين العاديين ومهندسي الطيران، والآخر مديري الشركة وطياريها المسؤولين إدارياً. وكانت صداقات فيت القوية حتى ذلك الحين لا تزال تميل الى الجانب الثاني. وآلمه، وهو طيار اداري مسؤول، أن يكون الوحيد في فئته يقدم شواهد لا تنسجم وموقف الشركة. الا أن اتحاد الطيارين أبدى إعجاباً شديداً بالتحريات المنفردة التي أجراها فيت حول الحادث والتي عول عليها الاتحاد في شهادات أعضائه أمام ماهون.



القاضي بيتر توماس ماهون الذي برأ طاقم الطائرة.

واحتوت بعض الشهادات التي سمعها القاضي على عناصر غريبة حقاً. ومنها اقتراح مدير الطيران المدني أن سبب الحادث قد يكون إصابة كولينز ومعاونه كاسين بداء غامض في الوقت نفسه. ولم يستطع ماهون إخفاء عجبه، بل قال فوراً باقتضاب جاف: «ماذا؟ ظاهرة شاذة جداً؟» وأنكر كبار المسؤولين في الخطوط الجوية النيوزيلندية أي علم لهم بالتحليق المنخفض فوق لسان مكموردو، على رغم افتخار دعاياتهم بهذا الامر وابرازه في الاخبار التلفزيونية والاذاعية والصحافية.

وكرر تشيبنديل ادعاءه أن الرادار من شأنه إظهار جبل اريبوس عبر تحريه الرطوبة. وأضاف أن خبيراً رفض تسميته أكد له ذلك الأمر. الا أن ماهون واجهه بأسماء خبراء معروفين في شركة «بنديكس» الأمريكية التي صنعت ذلك الرادار، وهم يقولون نقيض ذلك. وعاد تشيبنديل يقول، تأكيداً لادعائه أن الملاحين «لم يكونوا متأكدين من مكان وجودهم،» انه لم يستطع العثور في لسان مكموردو على أي مكان يحمل اسم «ويلسون» الذي سُمع بوضوح على الشريط. غير أن ناطقاً باسم اتحاد الطيارين أشار الى أن مجلدة «ويلسون بييد مونت» الممتدة على طول ٥٠ كيلومتراً هي معلم جغرافي بارز على جميع الخرائط.

وفي شهادته الخطية المقرونة بقَسَم أنكر ايان غيميل أي علم له بتعديل طريق الرحلة لدى جمعه الوثائق في مكان الحادث. وأضاف أنه عرف بالأمر لاحقاً، وأنه سقط عليه «سقوط قنبلة». ولكن ماهون رفض التسليم بصدق هذا الكلام. وأضاف غيميل أن جميع الوثائق التي تم جمعها من مكان الحادث قُدمت الى تشيبنديل. الا ان المستشار القانوني لاتحاد الطيارين اصرّ على ان الاوراق التي وضعت بين يدي تشيبنديل هي تلك التي تثبت نظرية الشركة بإلقاء تبعة الحادث على الطيار.

وصرف ماهون أطول وقت على استجواب الشهود من قسم الملاحة في الشركة الذين حاولوا تفسير التعديل في خط الرحلة. وأصروا كلهم على عزو الأمر الى خطأ طباعي لم يلاحظه أحد.

ووجد ماهون أن أولئك الشهود ومن

وراءهم يحاولون حمله على الاقرار بأنه يعقل ان يكون ٤٧ خطأ طباعياً ارتكبها ١٥ شخصاً خلال ١٤ شهراً فاتت جميع المعنيين. وتبين له أن تلك الأخطاء المعترف بها ما هي الا محاولة مخفقة لاخفاء الحقيقة المرة، وهي أن ٢٥٧ شخصاً لقوا حتفهم نتيجة تعديل خط الرحلة الذي أُلقم الدماغ الالكتروني فيما أبقي خارج دماغ الطيار جيم كولينز وزملائه.

فوق البركان

مع بدء الرحلات الجوية الى القطب الجنوبي عام ١٩٧٧ اتخذت دائرة الطيران المدني النيوزيلندية قراراً غريباً حين سمحت للطائرات بالتحليق على ارتفاع ١٦ الف قدم (٤٨٧٧ متراً) فوق جبل اريبوس، متجاهلة الأخطار البركانية التي ينطوي عليها ذلك المكان.

لكن مخططي الرحلات فعلوا حسناً بـإقلاعهم لاحقاً عن تلك الطريق والاستعاضة عنها بالتحليق فوق لسان مكموردو بمساعدة محطة المراقبة الأمريكية. وفي الخط الجديد كان جبل اريبوس الى اليسار. ولدى إقرار تلك الطريق نهائياً عام ١٩٧٨ لتلائم جهاز الطيران الذاتي، باتت جميع الرحلات السياحية القطبية تصل حتى لسان مكموردو على زاوية من ١٦٤ درجة و٤٨ دقيقة شرقاً. ولكن ها هم الشهود الناطقون باسم الشركة يقولون ان الرقم ١٦٤ هو خطأ طباعي أدرج مكان الرقم ١٦٦. ولكن أي خطأ طباعي هو هذا، وجميع الطيارين يعرفون أن الزاوية الطولية فوق منطقة مكموردو هي ١٦٤؟

وأنكر شهود قسم الملاحة معرفتهم بالخرائط الاعلانية التي حملت الرقم ١٦٤ أو مسؤوليتهم عنها. وقالوا ان أفضل معلوماتهم تشير الى أن جبل اريبوس كان دائماً من معالم الرحلة، وانهم لم يبدلوا شيئاً جوهرياً حين أدخلوا التعديل البسيط على الدماغ الالكتروني في الطائرة عشية الرحلة. والواقع أنهم عادوا الى الطريق التي أقرت عام ١٩٧٧ وهجرت منذ ذلك الحين، من غير أن يحيطوا كولينز أي علم بذلك.

الا أن أياً من شهود الخطوط الجوية النيوزيلندية لم يعترف بمسؤولية الشركة. واكتفوا بالقول انه ليس من دليل على تضليل جيم كولينز عمداً. وذهب بعضهم الى القول انه كان ينبغي على كولينز اكتشاف ذلك التعديل وهو في طريقه من نيوزيلندة الى القطب الجنوبي. وهذا يعني أن اللوم ما زال منصباً عليه.

ولما اعتلى غوردون فيت منصة الشهادة تكلم بالتفصيل عن خبرته في التحليق فوق القطب الجنوبي عام ١٩٧٧ ومعه بيتر ملغرو معلقاً ودليلا. وأضاف أنه أعطي اذناً بالتحليق في اتجاه لسان مكموردو على ارتفاع ٣٠٠٠ قدم (٩١٤ متراً). وقال انه يثق تماماً بدقة جهاز الطيران الذاتي الذي ادخل على طائرة «دي سي – ١٠». وانتقل

الى الكلام عن الركاب الذين رافقوه في تلك الرحلة، وبينهم جون بريزندين الذي كان آنذاك رئيساً لشركة مكدونل - دوغلاس منتجة الطائرة «دي سي - ١٠». وكتب بريزندين مقالا عن تجربته تلك ورؤيته لسان مكموردو من مسافة قريبة. وأرسل نسخة من ذلك المقال الى موري ديفيس الذي تولى نشره في مجلة «ترافيلينغ تايمس» التابعة للشركة. ووزعت مليون نسخة من تلك المجلة، الأمر الذي يعني أن كل عائلة في نيوزيلندة حصلت على واحدة.

وأوضح فيت أن أحداً من مدربي الشركة لم يطلعه على خطر التعمية الناشئة عن اختلاط البياض قبل رحلته القطبية عام ١٩٧٧ أو في أثنائها. وقال ان ملاحي الرحلات القطبية جميعاً تصرفوا على غراره، أي أنهم لم يعيروا ظاهرة الابيضاض اهتماماً لأن أحداً لم يلفتهم اليها. وهكذا تم التحليق فوق القطب كما لو كان يحصل في مكان اعتيادي. واستناداً الى صداقته مع كولينز وطاقمه والى خبرته الشخصية في قيادة طائرة «دي سي - ١٠» أعطى فيت تفسيره الخاص لشريط التسجيل الذي حوى ما قيل في حجرة القيادة خلال الدقائق الثلاثين الأخيرة من الرحلة المشؤومة. وأضاف أن خبير نيوزيلندة الرسمي المختص بحوادث الطيران «ضلّل الجمهور على نحو خطِر» عبر تقريره.

وقال فيت أخيراً: «ان تدريب ملاحي الرحلة ٩٠١ على رحلتهم القطبية جعلهم يتوقعون دخول منطقة مكموردو من لسانها البحري. وكانت تصرفاتهم كلها طوال الطريق منسجمة مع هذا التوقع.»

سلسلة أكاذيب

في ابريل (نيسان) ١٩٨١ بعد أشهر من الاستجوابات والتحقيقات والتأمل أصدر ماهون تقريره، وفيه يبرىء الملاحين. وغدا ذلك التقرير المكتوب بلغة موضوعية بليغة من أكثر الكتب رواجاً في نيوزيلندة.

ومما جاء في التقرير: «لقد وُجهت الطائرة بواسطة جهاز الطيران الذاتي نحو هلاكها. والسبب الفعلي الوحيد للكارثة هو الخطأ الذي ارتكبه المسؤولون في الشركة الذين وجهوا الدماغ الالكتروني الى التحليق بالطائرة فوق جبل اريبوس من غير إحاطة الملاحين علماً بالأمر. والخطأ عائد مباشرة ليس الى الأشخاص الذين ارتكبوه بمقدار ما هو عائد الى طريقة تسيير الاعمال الادارية في الشركة.»

ومما سجله ماهون أن الشهود الذين تكلموا باسم الخطوط الجوية النيوزيلندية اتفقوا في ما بينهم، كما يبدو، على خطة سابقة لتزوير الواقع. وتطرق الى إخفاء الشواهد الأساسية والسرقة التي حصلت في بيت كولينز. وقال ماهون: «أجد نفسي مرغماً على الاقرار بأني كنت أستمع الى سلسلة من الأكاذيب.»

وجاء ذلك التقرير بالنسبة الى ماريا كولينز وآن كاسين، أرملتي الطيارين اللذين ألقي عليهما اللوم، بمثابة نصر معنوي مبين. وكان فيت في الولايات المتحدة لدى نشر التقرير. وابتهج كثيراً لما عرف بالأمر وأحس أن ساحته بُرِّئت. وانتظر أن تعلن الشركة أسفها وتستمد عبرة من الماضي وتبني مستقبلها على أساس أفضل.

الا أن شيئاً من ذلك لم يحصل. وحين عاد فيت الى نيوزيلندة وجد شركته مصرة على موقفها القديم عينه. كما أن تشيبنديل لم يكن مستعداً للاعتراف بأي خطأ. وأعلن موري ديفيس في البداية أنه لن يتخلى عن منصبه كمدير للشركة. غير انه وجد نفسه مضطراً، بعد أسبوع، الى التقاعد «من أجل مصلحة الشركة.» وأمل أن يكون في تقاعده إسكات لمنتقدي الشركة: «لقد حصلوا على فِدية... فليصمتوا الآن.»

وعُلقت وظائف اثني عشر شخصاً من كبار المسؤولين في الشركة انتظاراً لانهاء تحقيقات الشرطة. لكنهم ما لبثوا أن بُرئوا جميعاً. الا أن استقالة ديفيس لم تحمل سائر المسؤولين على إعادة النظر في موقفهم، بل تمسكوا بنظريتهم الاولى.

وعندما زار غوردون فيت مقر الشركة أغلقت في وجهه الابواب التي كانت مفتوحة على الدوام. وحافظ معظم الطيارين والملاحين على صداقتهم معه. الا أن كبار المسؤولين والاداريين وجدوا فيه عدواً.

ولم يأبه فيت للأمر بعد تحقيق غايته، ألا وهي إنصاف جيم كولينز وطاقمه، وإن يكن ذلك تم على حساب وظيفته في الشركة. وقال يوماً لزوجته ايلي، وهي مضيفة سابقة في الشركة: «ربما كان أفضل لي أن ألزم الصمت.» وأجابته: «اذا كنت على حق، فلا يحق لك أن تصمت. ولا بد من أن يصغي الناس عاجلا أم آجلا الى ما تقوله.»

حكم على القاضي

حتى ذلك الحين لم يحاول أي من اداريي الشركة التشكيك في كفاية فيت. لكن رؤساءه باتوا ينتظرون أقل خطأ منه لاضعاف موقفه. وفي أغسطس (آب) ١٩٨١ كتب فيت الى مدير الشركة بالوكالة جون ويزدوم: «انه لمن دواعي خوفي وخيبتي أن الاحظ ازدياد الجو المعادي لي داخل الادارة. وهذا يخلّف أثراً سلبياً في معنوياتي وثقتي بنفسي وبمستقبل هذه الشركة.» واقترح البحث في حادث جبل اريبوس سراً مع المسؤولين من أجل سدل الستار عليه.

لكن تلك الرسالة بقيت بلا جواب. وفي مايو (أيار) ١٩٨٢ استقال فيت من الشركة قبل سبع سنوات من الموعد الذي وضعه لنفسه أصلا، بعدما فقد ايمانه بتلك المؤسسة ويئس من امكان إصلاحها.

وهكذا تخلى عن وظيفة تدرّ عليه مئة ألف دولار نيوزيلندي سنوياً. واعتزل وزوجته حياة المدينة وذهبا الى منطقة سياحية على بحيرة تاوبو ليديرا فندقاً.

وفي تلك الأثناء طعن مدير الشركة السابق موري ديفيس وكبير طياريها ايان غيميل في تقرير ماهون، وأحالا الطعن على محكمة الاستئناف النيوزيلندية. وأصدرت المحكمة المذكورة قرارها في ديسمبر (كانون الاول) ١٩٨١ من غير أن تشكك البتة في أسباب الحادث كما وصفها ماهون. وأكدت «العمل غير الدقيق داخل الشركة،» ولم تستبعد أن يكون بعض الشهود لجأ الى الكذب. الا ان محكمة الاستئناف برأت الشركة من «الخداع المتعمد وإخفاء الحقائق.» وعزت حكم ماهون الى حماسته المفرطة ضد الشركة، وقالت انه لم يستند الى أي حجة قوية حين تحدى صحة اعترافات الشهود.

وكان رد فعل ماهون فورياً ولا مثيل له في تاريخ بلاده القضائي. والذي دفعه اليه كان شعوره بأن كرامته جُرحت وسلطانه أُضعف. وأعلن بادىء الأمر أن اثنين من القضاة الذين شاركوا في اصدار قرار محكمة الاستئناف لا يحق لهما الاشتراك لعدم تجردهما. فللاثنين أنسباء في الشركة، وبالتالي يحق لهما السفر في طائراتها بحسم ٩٠ في المئة من التعريفة.

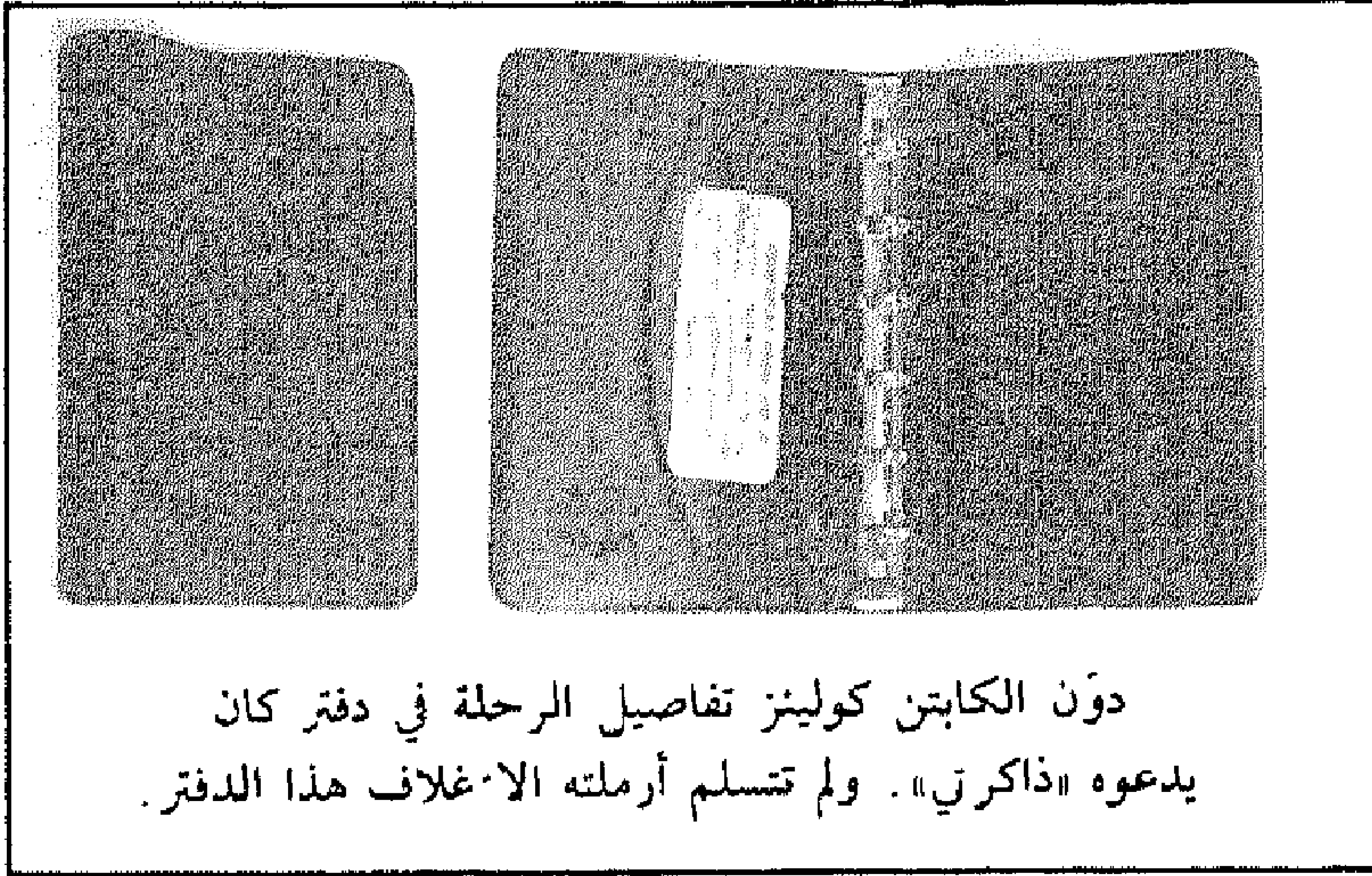
وبعد ذلك استقال ماهون من محكمة نيوزيلندة العليا كي يتسنى له الوقت الكافي لمتابعة القضية. ورفع دعوى على محكمة الاستئناف لإصدارها ذلك القرار. وموّلت الحكومة دعواه وأحالتها على أعلى هيئة ممكنة، وهي مجلس الشورى الملكي في بريطانيا.

وهناك اجتمع خمسة من كبار القضاة البريطانيين للنظر في مرافعات المحامين المدافعين عن ماهون وعن الخطوط الجوية النيوزيلندية. وامتدح القضاة «التحريات الدقيقة والرائعة» التي أجراها ماهون. وأكدوا من غير أدنى تحفظ كون المسؤولين في الخطوط الجوية النيوزيلندية وكبار طياريها أدلوا بشهادات كاذبة حول التحليق على علو منخفض، ورموهم بالسذاجة القصوى لعدم تورعهم عن الادلاء بشهادة من ذلك النوع. كما أقروا رأي ماهون الذي يعزو سبب الحادث الى تعديل برنامج الدماغ الالكتروني والى البياض الذي وصل الارض بالفضاء. وهذا يعني أنهم رفضوا ادعاء الشركة أن اللوم يقع على عاتق الطيار، وانهم وضعوا اللوم عليها في ذلك الحادث الذي أودى بحياة ٢٥٧ شخصاً.

وأضاف القضاة البريطانيون على نحو لاذع: «انه لضعف بشري مفهوم أن يلجأ بعض أفراد الادارة الى الانكار، حتى أمام أنفسهم، أن ما فعلوه أو عجزوا عن فعله هو سبب تلك الكارثة المروعة.»

الا أن قضاة مجلس الشورى الملكي لم يجدوا دليلا على تآمر ادارة الشركة. والحق

Anthony Henry Auckland



دوّن الكابتن كولينز تفاصيل الرحلة في دفتر كان يدعوه «ذاكرتي». ولم تتسلم أرملته الا غلاف هذا الدفتر.

أن ماهون بنى ذلك على تقديره الشخصي وليس على اعترافات الشهود. لكن المهم في الأمر أن المجلس أكد تقرير ماهون من حيث سبب الحادث. وعبّر القضاة البريطانيون عن أملهم في أن تبرد العواطف حول ذلك الموضوع.

والواقع أن المرارة انحسرت، لكن اهتمام الجمهور بالامر لا يزال كبيراً. ومما يلهب حماسة المواطنين التعليقات التي ما برحت تُنشر في الصحف والبرامج التلفزيونية والكتب عن الحادث، وبينها شهادات جديدة.

وبعد صدور قرار مجلس الشورى تابع الرقيب غريغوري غيلبين، وهو أحد الشرطيين الذين فتشوا مكان الحادث في القطب الجنوبي، شريطاً تلفزيونياً عنه.

وقرّبت آلة التصوير القاضي ماهون وهو يتفحص دفتر الطيار كولينز الذي سماه «ذاكرتي». ويقول غيلبين: «رأيت أن ذلك الدفتر يشبه الذي عثر عليه زميل في مكان الحادث وسلمني اياه. وكان الغلاف الخارجي يحمل اسم كولينز والصفحات الداخلية محفوظة كما هي وقد دُونت عليها معلومات وأرقام متعلقة بالرحلة كما أظن. وتقديراً من زميلي ومني أن ذلك الدفتر بالغ الأهمية، فقد وضعته بعناية ضمن كيس واق وأضفته الى الاشياء الاخرى المهمة التي وجدناها. لكني صُعقت حين رأيت ماهون على الشاشة وهو يحمل دفتراً خالياً من الاوراق.»

لماذا أعطيت أرملة كولينز غلاف الدفتر فقط؟ لماذا قيل لها ان الصفحات الداخلية تلفت؟ ترى أكانت تلك الصفحات تحمل الجواب القاطع عن سبب الحادث وهلاك ٢٥٧ شخصاً؟ هذه الأسئلة لن يقلع المعنيون عن طرحها، الا أن أحداً لن يعرف جواباً كاملا عنها.

وانصرف غوردون فيت الى وضع كتاب

حول الأمر بعدما برّأته أعلى هيئة قانونية في الكمنولث البريطاني. وهو يحمل عنوان «أثر اريبوس». وفي ديسمبر (كانون الاول) ١٩٨٣ بدأ العمل في فيلم من وحي هذا الكتاب. وقد خصص فيت أرباح كتابه في نيوزيلندة وخارجها لبرنامج دراسي حول سلامة الطيران تولى هو نفسه التخطيط له. وبين الاشخاص الذين اختارهم أمناء على المشروع الكابتن شيم داود الرئيس السابق لاتحاد الطيارين، والقاضي ماهون. ويضم البرنامج لجنتين، إحداهما مؤلفة من أطباء عيون وعلماء نفس وطيارين وغايتها مراجعة طرائق تدريب الطيارين حول العالم وتوحيد وسائل التعاون بين الطيارين والمهندسين أثناء التحليق، والاخرى مؤلفة من طيارين سابقين يتمتعون بمعارف هندسية والكترونية. وقد صمم هؤلاء آلة اختبارية لتحري أي خطأ في معلومات الدماغ الالكتروني وإنذار الملاحين.

وليس عجيباً أن تكون الخطوط الجوية النيوزيلندية أسرعت الى استعادة بعض سمعتها الضائعة. وقد أعيد تنظيم الادارة وطرائق عملها وعدلت مقاييس السلامة وبات العمل اليومي يتم بدقة غير معهودة.

ومع ذلك كله فإن ارواح الضحايا الذين قضوا فوق جبل اريبوس لم تسترح تماماً بعد. ويبدو أن شبح الرحلة ٩٠١ لا يزال مخيماً على نيوزيلندة وسياسييها وشعبها والشركة التي نظمت تلك الرحلة المشؤومة. لكن هذا الشبح لا يطارد احداً كما يطارد غوردون فيت. وفي يوم صاف كان يصطاد سمك التروتة في بحيرة تاوبو. ونظر الى قمة جبل روابيهو المغطاة بالثلج وتساءل من جديد: «ترى كيف سمح لتلك الكارثة بأن تحدث؟»

وعلى جبل اريبوس نفسه نصب من خشب تعبره العواصف الثلجية. وقد رآه المستكشف روبرت فالكون سكوت ذات مرة قبل أن يهلك في ذلك المكان وقال: «يا له من موضع رهيب.» وقد خيمت الرهبة من جديد على جبل اريبوس بعد الحادث. كما غابت الطائرات السياحية كلها عن سماء القطب الجنوبي.

■ **موريس شادبولت**

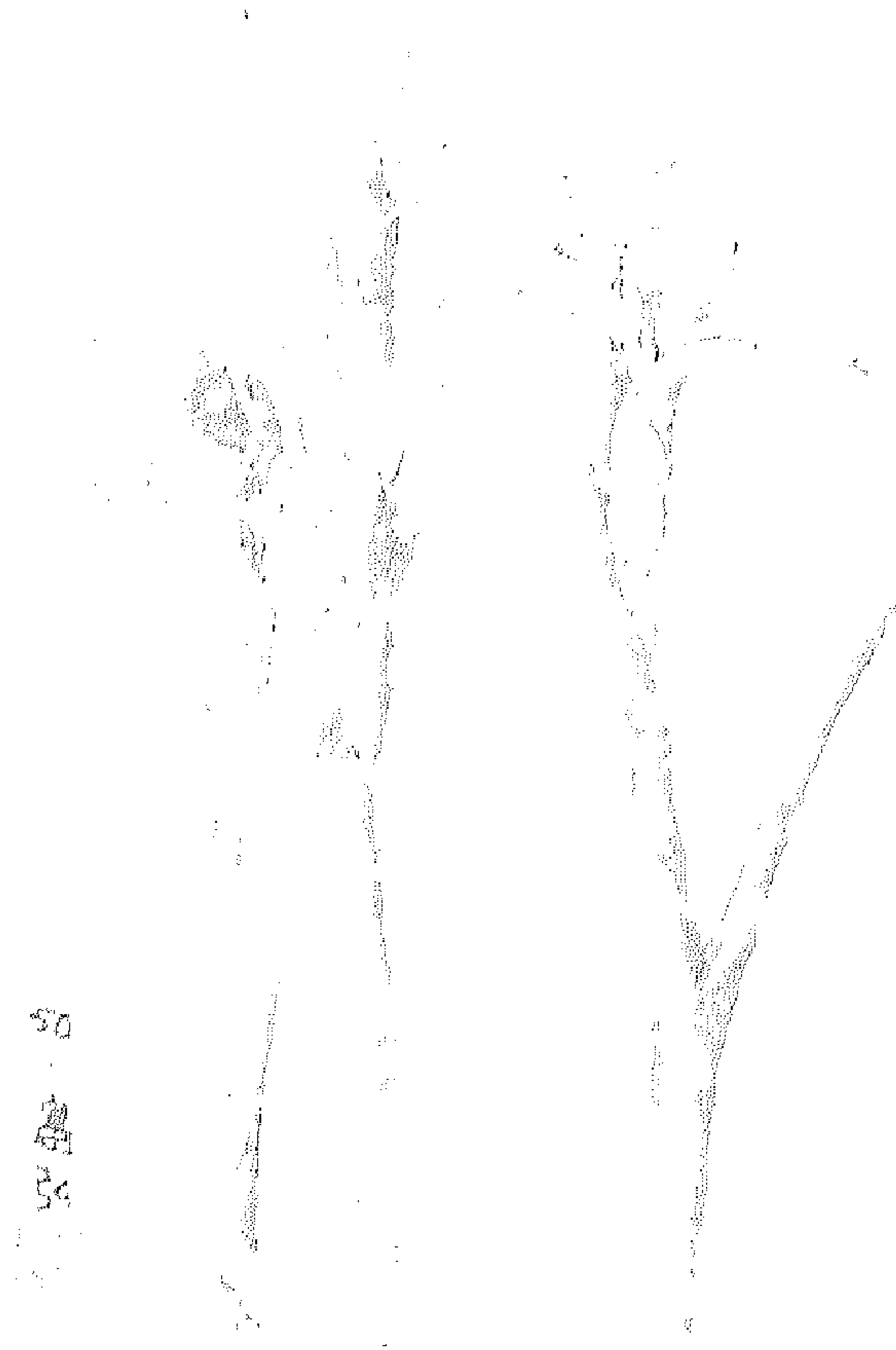


بعد العاصفة

تقول روز كينيدي، والدة الرئيس الامريكي الراحل جون كينيدي، عن مآسي حياتها وقد بلغت الثالثة والتسعين: "لم أتخلّ قط عن إيماني بأن الله تعالى لا يحملنا ما يتجاوز طاقتنا على الاحتمال. ومهما يكن فو يريد أن نكون سعداء. واذا كانت العصافير تغني بعد ركود العاصفة، فلماذا لا نغني نحن أيضاً؟"

مجلة "باريد"

كتاب الشهر



"سوسنات" .

ملخص من كتاب
بقلم توميهيرو هوشينو

Drawing by Tomihiro Hoshino/ Author

سأرفع رأسي عاليا



تومیهیرو هوشینو في كرسي نقال بين أمه وزوجته.

بعد شهرين من مباشرته تعليم الرياضة البدنية في إحدى المدارس الثانوية، ظل توميهيرو هوشينو البالغ الرابعة والعشرين يشعر أنه تلميذ هو أيضاً. وكان مفعَماً بالشباب والحيوية والحماسة والمرح، وهي مزايا جعلت تلاميذه يتعلّقون به كثيراً.

وذات يوم كان يؤدي حركة بهلوانية هي الانقلاب في الهواء، فسقط على رأسه وانكسر عنقه، وفي لحظة واحدة أصيب بالشلل. وهكذا تبدل مجرى حياته.

هنا يروي توميهيرو هوشينو قصته. وهو أمضى في كتابتها سبعة أشهر، حاملا القلم بين أسنانه. وسجل أحداث حياته خلال عقد من الزمن، بدءاً بيوم الحادث وانتهاء باليوم الذي عاد الى المجتمع عضواً فاعلا بفضل موهبته ومثابرته ورعاية أمه.

١٧ يونيو (حزيران) ١٩٧٠

أخيراً توقف المطر عن الهطول، ولاحت من نافذة غرفة الغسيل المعتمة سماء زرقاء لا تشوبها شائبة. وأنا لم أغسل ثيابي مرة واحدة منذ باشرت العمل كأستاذ للرياضة البدنية في مدرسة كوراغانو الثانوية في مدينة تاكاساكي (اقليم غونما، اليابان). لكني، وأنا واقفٌ أمام الغسالة الاوتوماتيكية في تلك الغرفة المظلمة وملابسي الداخلية المُعدّة للغَسْل ما زالت في كيس عند قدميّ، قلتُ لنفسي انه من الأفضل أن أذهب الى قاعة الألعاب الرياضية لأُدرّب تلاميذي على بعض الحركات. وهكذا تركتُ الكيس على الأرض وركضتُ الى الملعب.

كان المكان يعجّ بالحياة والحركة. واستقبلني التلاميذ بالابتسام. ووقفتُ وراء الذين كانوا على استعداد لتأدية تمارين "الشقلبة"، وهي حركة بهلوانية يقلب فيها المرء عقبيه فوق رأسه. وفيما أنا واقف على منصة الوثب اجتاحني شعورٌ بالسعادة.

ولم يستطع تلاميذي القفز عالياً. ولمساعدتهم على ذلك ابتكرت تمريناً من ثلاث خطوات هي الاستعداد والقفز والانقلاب في الهواء.

ورحتُ أثب على قدمي اليمنى ثم على اليسرى لاستجماع القوة. ورفعتُ ذراعيّ وقفزتُ عن المنصة نحو السقف. ومددتُ أطرافي قبل أن أدوّر جسدي كالكرة وأقلب عقبيّ فوق رأسي. وفجأة خُيّل اليّ أن صوتاً يضجّ في أعماق أذنيّ. وفي الوقت نفسه وجدتني مسطّحاً على ظهري وأنا أنظر الى سقف الغرفة.

وبدا الهيكل المعدني التي يرتكز عليه السقف أبعد من المعتاد. وترددت في سمعي أصداء الكرة من ملعب كرة السلة في الطرف الشمالي من القاعة. ولكن من أين يأتي هذا الصوت الصارّ؟ أيعقل أن يكون سقط شيء على السطح؟ ومهما يكن، فهل أبقى هكذا طويلا وعيناي تحدقان الى فوق؟

وانقضى وقت كالحلم وأنا هناك. وفجأة تبين لي أن الصوت الآتي من ملعب كرة السلة اختفى ليحلّ مكانه طنين وهرج من نواحي الغرفة. ورأيتُ حولي جماعة من الطلاب.

وحاولتُ أن أنهض على عجل. الا أن عضلات جسدي لم تستجب لرغبتي. وعدتُ أُجهد ذاتي على النهوض من غير جدوى. وأحسستُ سُخونة غير معهودة، وعَرَقاً في أطرافي يصعد منه البخار. وسرى خوف غامض في زاوية من ذهني.

وسألتُ تلميذاً في السنة الاولى: "هل لك أن ترفع يدي وتُريني إياها؟" وهو كان يتفحصني بقلقٍ ظاهر.

ولما استجاب لطلبي لم أُحس أن أصابعه تلامس يدي أو أن تلك اليد ترتفع. ودار في خلَدي اني قد أبقى على هذه الحال ما حييت. وأتى عليّ شعور باليأس المطلق.

وكانت عقارب ساعة الحائط تشير الى الخامسة والدقيقة الخامسة والأربعين عصراً.

في قسم الجراحة التقويمية في مستشفى جامعة غونما كانت غرفة المعـايـنـة تغصّ بـأنـاس متلفعين بالبياض. وتراءى لي أن بعضهم راح يدق

أنحاء جسمي بما يشبه المطارق. وكلما طرق أحدهم مكاناً سألني: "أيؤلمك هذا؟" وبعد ذلك راحوا يغرزون الابر هنا وهناك. لكني لم أحس بشيء.

وأخيراً رفعوني برفقٍ كما لو كنت مادة قابلة للكسر وحملوني الى سرير في غرفة خاصة. هناك أقحم أنبوب من مطاط في أحد منخريّ، وتدفق عبره الاوكسيجين بصوت ملحوظ. وتنفست الصعداء بعدما كان نفسي ضيقاً.

وكان أول الواصلين أختي وزوجها، وهما يسكنان بلدة ايزيساكي القريبة. وبعد ساعتين وصل أبي وأمي. وكانا معاً في حقل الرز عندما بلغهما النبأ. ورغبة مني في طمأنة أفراد العائلة قابلتهم بالابتسام. وحاولت في الوقت نفسه أن أرفع يديّ وأحرّك رجليّ وأجلس. غير اني كنت كمن يدوس دراجة بلا سلسلة. وهكذا وجدتني عاجزاً تماماً عن الحراك.

وقلت لنفسي انه حلم وينقضي، واني سأنهض صباحاً في غرفتي كالمعتاد، ولن أرى فوقي هذا السقف الأبيض والممرضات يدخلنَ ويخرجنَ دونما انقطاع مع آلة لقياس ضغط الدم أو سواها. وإذذاك سأتناول فطوري بسرعة كعادتي كل صباح، وأعجب للكابوس الذي زال.

الا أن صوت أمي القويّ النبرة أعادني الى الواقع: "هل أنت نائم؟"

وفتحت عينيّ ببطء وخوف لأجد نفسي في المستشفى. وقلت: "شكراً يا أمي على قطع هذه المسافة الطويلة لتفقّدي. أرجوكِ ألا تقلقي علي كثيراً."

ولم ينقطع سيل الأطباء والممرضات الليل كله وهم يحاولون قياس كل ما يمكن قياسه. وجسوا نبضي مراراً ومرروا المسماع فوق صدري غير مرة. وهذا العمل المتواصل برهان أكيد على جسامة الأمر. وأخبرني الأطباء لاحقاً أن الصدمة أعطبت اثنتين من العظام الفقارية السبع في مؤخّر عنقي، وهما الفقرتان الرابعة والخامسة.

١٨ يونيو (حزيران) ١٩٧٠

منذ أمس وأنا أظن أن ركبتيّ مطويتان وقدميّ مرتكزتان عمودياً على السرير. لذلك شعرت بالارهاق. وطلبت من شقيقتي أن تعيد رجليّ الى وضعهما الطبيعي. لكنها قالت انهما كانتا ممدودتين طوال الوقت. وصرخت مغتاظاً: "لا، هذا غير صحيح. اني لن أتحمل المزيد من هذا العذاب."

وانهمر الدمعُ من عينيّ. وتحلق الأطباء حول سريري. وآلمني كثيراً أن يراني الآخرون في تلك الحال الزرية. وحاولت أن أستر وجهي بيديّ، لكني لم أستطع رفعهما ولم احسّ أنهما هناك. وسطعت الأنوار الكهربائية من غير شفقة على وجهي، ذلك الوجه الذي لم أتمكن من إخفائه. وفجأة أتت عليّ رغبة في الانتقام بعدما تأكد لي أني معاقٌ كلياً.

نقطة تحوُّل

١٩ يونيو (حزيران) ١٩٧٠

دخلت ممرضة وفي يدها مقصّ وموسى حلاقة وهي تقول: "سنرفع رأسك بآلة سحب. لذلك جئت أقص شعرك."

وقيل لي لاحقاً ان سحب الرأس الى الوراء يتم بتعليق ثقل من قحف الرأس

الى الظهر. والهدف المرجو هو إعادة عظمتي العنق الى مكانهما.

ودخل الغرفة عدد من الأطباء. وبعد إعطائي البنج الموضعي سمعتُ هدير آلات. وشرع الأطباء يحفرون ثقبين في جانبي رأسي الحليق. وسدت رائحة العظم المحروق أنفي. ورُكّبت في الثقبين آلة تشبه المقلاع (النقافة التي تستعمل لقذف الحصى). ومن مقبضها دُلي الثقل ليستقر على حافة السرير ورائي. وهكذا تراجع رأسي الى الوراء. ولم أحس ألماً بالقياس الى عنف ما جرى. والواقع أن وضع عنقي بات أفضل قليلا. وقوّاني على احتمال الأمر أملي بالشفاء.

٢٠ يونيو (حزيران) ١٩٧٠

كنت أتنفس بصعوبة. وكلما أخذتُ نفَساً عميقاً انقطع تثاؤبي في منتصف الطريق وأحسستُ على صدري ما يشبه طوقاً من حديد. فكنت أحاول اعتصار طاقتي لكي آخذ نفَساً تاماً.

وأخذ الدم يسيل من أنفي ولا ينقطع بسبب الانبوب المحشور هناك. وأخيراً حُشي أنفي بالشاش ووضع على فمي قناع من الاوكسيجين. وحاولت التنفس من فمي، لكني عجزتُ عن أخذ الأنفاس الكاملة. وخيل اليّ اني اختنق كلما حاولتُ التثاؤب لادخال ما يكفي من الهواء. وسرعان ما أقلعتُ عن تلك العملية حين تبين لي انها أعسر من التنفس الناقص.

أتُراني بلغتُ نقطة تحوُّل أو أزمة ما؟ وأطلت النظر الى وجوه أهلي، أبي وأمي وأخواتي الخمس وأخي الذين كانوا معي في الغرفة.

لقد كان لي من الصحة ضعفا ما يمتلكه الشخص العادي، وكانت قوتي الجسدية تفوق المعدَّل. وكنتُ حديث السنّ، أليس كذلك؟ أما الموت الذي لا بد منه، فهو في المستقبل البعيد، لا بل هو خارج أفكاري تماماً.

٢٢ يونيو (حزيران) ١٩٧٠

في وسط الليل كانت الأنوار تتوهج فوق رأسي. وأرهقتني محاولاتي المتكررة التنفس العميق، فكنتُ أقطع أنفاسي أحياناً كي أستريح. وإذذاك تتفرّس فيّ أخواتي لمعرفة سبب توقفي عن التنفس. وفجأة اختفت وجوههن في غمامة، الى أن قال لي أحد الأطباء: "لا بد من فتح الرّغامى (القصبة الهوائية) لتسهيل عملية التنفس لديك. وستلبث وقتاً بعد ذلك لا تقوى على النطق. لكن النتيجة ستكون مُرضية."

وعُصبت عيناي وأُعطيت حقنة من البنج الموضعي. وسمعتُ صوت آلات معدنية آتياً من تحت ذقني. وفُتح ثقب في بلعومي أقحم فيه أنبوب. ودخل الهواء النقي صدري بقوة. وتعلمت كيف أدع الآلة تتنفس عني كلما ضاقت أنفاسي. وتحسنت حالي بسرعة فائقة. وتضافر عاملا الراحة المستجدة وإرهاق الأيام القليلة الماضية على منحي النوم العميق.

وتناوب أبي وأمي وأختي العزباء وأخي مع شقيقتين وزوجيهما على ملازمتي. لكن معظمهم لم يذق النوم، وبدت عليهم علائم التعب. ولم يرقني ذلك البتة لادراكي اني سبب عذابهم. وكان بعض معلمي مدرسة كوراغانو الثانوية يأتون

مساء بعد انتهاء الدروس ويبقون معي أربع ساعات أو نحوها، يعتقون خلالها اولئك الذين لازموني ساعات النهار. ودخلت عليّ السيدة موراكي المسؤولة عن القسم الداخلي لتقول: "لقد غسلت الثياب التي تركتها في الغرفة."

وكنت قبل ذلك الحين أجد عزاء في الكلام مع الآخرين. الا أن تجربة جديدة كانت تقف لي، وهي العجز الوقتي عن النطق. فوضع الانبوب في القصبة الهوائية حرمني القدرة على التعبير. وصرتُ أُحدق الى السقف مثل أبله وأنا أشعر بالضعف التام. لقد تملكتني إرادة قوية على التحادث مع الناس. وكنت أعبّر عن هذه الارادة بفتح شفتيّ وإطباقهما. ثم حاولتُ أن أرسم بشفتيّ شكل الكلمة التي أودّ قولها، مقطعاً مقطعاً. وكان عليّ أن أفغر فمي أحياناً. وحاولت أخواتي قراءة لغتي الجديدة بفغر أفواههن أيضاً لمحاكاة حركاتي. لكن النتيجة كانت الضياع لنا جميعاً في تلك المتاهة.

وظللنا كلنا نحاول. وبعد أيام غدت أخواتي خبيرات في قراءة حركات شفتيّ. وطرأ لي أن اطوّر عملية التعبير عن أفكاري بواسطة لوحة توضع قبالتي وهي تحمل أصوات اللغة اليابانية أو مقاطعها. ولكن كيف لي أن أنقل تلك الفكرة الى أخواتي؟

وفي أحد الأيام طرأت الفكرة نفسها لأختي الرابعة التي جهزت لوحة وحملتها الى المستشفى. وسرعان ما تبين لي أني لا أستطيع هز رأسي بالموافقة اذا أشارت إحداهن بإصبعها الى المقطع الصحيح. وكاد أملي أن يخيب لولا اكتشافي أن صوتاً بسيطاً من لساني كاف لاحداث ذلك الأثر.

وعلى رغم أن نقل أفكاري استغرق طويلا، فاننا تعودنا الأمر الذي بتنا نجد فيه ليس طريقة للبحث في ما يجب فعله فحسب، بل وسيلة لكسر الرتابة اليومية. وهكذا جعلتنا لعبة الكلمات نغفل عن شبح الموت المحيق.

أشعة الشمس

٢٧ يونيو (حزيران) ١٩٧٠

انه اليوم العاشر بعد الحادث. ولا شك في أن أفراد عائلتي أتى عليهم الارهاق بعدما عيل صبرهم.

أما أنا فكنت أعيش على السوائل أتلقاها من أنبوب وصل بين فمي ومعدتي. وهذا غير الانبوب الذي وصل قصبتي الهوائية بجهاز التنفس الاصطناعي. ولم تنته قصة الأنابيب عند هذا الحد، بل وُصل عدد منها بالأوردة عبر ذراعي وقدمي. وما برح الثقل مدلى من رأسي ومسترخياً على وسادة. كما وُصل أنبوب آخر بمجرى البول لتفريغ المثانة. وهكذا كانت الممرضات يأتين الى غرفتي على الدوام لمراقبة تلك الأدوات الغريبة، كذلك لتبديل الشاش في أنفي وسحب البلغم من مجرى الهواء وقياس الحرارة وضغط الدم.

وآلمني كثيراً أن يكون هؤلاء جميعاً، من أهل وممرضات وأطباء، مكبين على خدمتي ومحاولة إنقاذي. لكني في الوقت نفسه أيقنتُ ان صراعي من أجل البقاء هو خير مكافأة لجهودهم.

لقد كنت منذ طفولتي صحيح الجسم

قويّه، ولديّ ارادة قوية على الانتصار. وفي مرحلة دراستي الثانوية شاركت في النشاطات الرياضية وأحرزت المرتبة الاولى في مباراة اقليمية للقفز العالي بالعصا (الزانة). كما انضممت الى نادي الرياضة البدنية الثقيلة وكرّست الكثير من وقتي لتسلق الجبال وتدريب المبتدئين على ركوب تلك المغامرات.

وفي الجامعة كان اختصاصي بالرياضة البدنية، لأني شئت متابعة الألعاب الثقيلة. وأصبحت استاذاً للتربية الرياضية حتى قبل تخرجي. وفي مرحلة دراستي الجامعية اقتحمت أخطاراً عدة. وكنت أحمل مظلة وكيس نوم وقليلا من النقود، وأهيم على وجهي في أنحاء البلاد، فأنام ليلة تحت نافذة وأخرى على شاطىء البحر، وأستجدي الناس طعاماً كما لو كنت شحاذاً. وكنت أنطلق في الجبال حيث أبقى أياماً. وهذا كله نابع من كون الرياضة - والمغامرة جزء منها - شغل حياتي الشاغل. واستحوذ عليّ تسلق المرتفعات الصخرية، الأمر الذي لا يقلّ عن مغازلة الموت. وكنت أظن ان اقتحام الأخطار أعظم مدرسة لاكتساب القوة.

الا أن ما أبقاني حياً وسط محنتي لم يكن القوة التي جمعتها من خبرتي السابقة، بل الناس حولي - أبي وأمي وأخي وأخواتي وأصدقائي وزملائي والأطباء والممرضات، كذلك تلاميذي الذين ما انفكوا يبعثون إليّ بالبطاقات وفيها رسائل التشجيع والتضرّعات. الذي أبقاني حياً، نعم، لم يكن داخل ذاتي، بل كان نعمة الآخرين عليّ.

٣٠ يونيو (حزيران) ١٩٧٠

دخل الدكتور كيريو غرفتي وهو يقول بفرح: "لقد حصلنا على نتيجة فحص الأشعة، وتبين أن الفقرتين المنحرفتين في عنقك عادتا الى وضعهما الطبيعي." وكنت أمضيت الأيام الاثني عشر الأخيرة والثقل مدلى من رأسي، وظننتني سأبقى هكذا. لكن البشرى التي حملها الدكتور كيريو منحتني الأمل وأنارت ظلمة أيامي.

١٧ يوليو (تموز) ١٩٧٠

اليوم جاءني الدكتور ياماتو من قسم التخدير، كعادته كل يوم، لتثبيت آلة التنفس وسحب عينات من دمي. وقال بحماسة: "يبدو أن التحسن مستمر. وعليك أن تصمد أياماً قليلة أخرى قبل أن يعود تنفسك الى وضعه."

وفي هذا اليوم بدّل الانبوب الذي يصل آلة التنفس بمجرى الهواء. ولدى رفع الانبوب سرت أنفاس فاترة الى الخارج. ولفترة قصيرة عدت أتنفس من تلقائي.

وقال الطبيب: "لا شك في أنك تود أن تنطق بضع كلمات بعد صمتك الطويل." وسد الثقب في بلعومي بالشاش وأضاف: "هيا تكلم!"

وكان انقضى شهر على بكمي الموقت. ولكم وددت النطق طوال هذه المدة من غير أن أقوى على ذلك. أما وقد بات النطق في متناولي، فلم أجد ما أقوله، بل اختفت جميع الكلمات التي كانت تتزاحم في ذهني ولا أستطيع التعبير عنها. وخوفاً من أن تهرب تلك الثواني الثمينة قلت أخيراً: "أجل، اسمعوا، الطقس جميل اليوم."

وانطلقت عاصفة من الضحك تحية لذلك "الخطاب". وهي المرة الاولى أسمع ضحكاً في غرفتي يرفع شيئاً من ثقل الجو الضاغط.

٢٣ يوليو (تموز) ١٩٧٠

في الآونة الأخيرة بات الدكتور ياماتو ينصحني يومياً بالاستعداد للتخلي عن جهاز التنفس الاصطناعي. ولما نزع الجهاز أخيراً عدت أتنفس طبيعياً وأعبر عن أفكاري بالكلام.

٢٩ يوليو (تموز) ١٩٧٠

اليوم أخبروني أن الثقل الذي يشد رأسي الى الوراء سيُرفع. وهكذا، للمرة الاولى في ٤٢ يوماً، سيطرأ تبديل على وضع جسدي. وتطوع فريق من الأطباء والممرضات لتلك المهمة.

ولكن ما أن أصبحت على جنبي حتى تبين لي أني لا احس شيئاً. غير أن تبدلا طرأ على المكان، بحيث بات سقف الغرفة فوق أذني والجدار صار سقفاً وقد وقف الأطباء والممرضات على الجدران. وانتابني دوار ومعه ضيق نفَس. لذلك أعادوني فوراً الى وضعي السابق. ويبدو أن نظري تعوّد السقف والجزء الأعلى من الغرفة، بحيث فقدتُ توازني مع تعديل مجال النظر. وارتأى الأطباء أن يدربوني تدريجاً على الأوضاع الاخرى حتى آلفها مع الوقت.

رفيقة الطريق

٣٠ اغسطس (آب) ١٩٧٠

غياب الأحاسيس عنى، في ما عناه بالنسبة اليّ، عدم سيطرتي على وظائفي الجسدية. لكن الأطباء قدروا أن عضلات المثانة ستعود الى العمل تلقائياً. لذلك قرروا قطع الانبوب المطاط الذي يصل مجرى البول بالمثانة.

وحملت أمي زجاجة جمع البول في ملاصقة جسدي وانتظرت. وانقضت ثلاث ساعات. ولاحظت أمي أن ذلك الجزء من بطني الواقع فوق المثانة بات صلباً أكثر من المعتاد. وهرعت ممرضة وضغطت بشدة هناك. لكن ذلك لم ينفع في إخراج البول.

وأخيراً سمعنا صوتاً خفيفاً. وصرخت أمي بتهلل: "لقد فعلتها!" وتهللتُ أنا أيضاً لظنيّ اني أنجزتُ خطوة على طريق النجاح.

الا أن تلك الغبطة لم تدم طويلا. ومن أجل تسهيل جريان البول كان على امي أن تدلك بطني كل ساعتين أو ثلاث، حتى خلال الليل، وأن تضغط بكل قوتها. ولما كنت عاجزاً عن توقيت حاجتي الى التبويل، كان عليها أن تتفقد حال مثانتي من وقت الى آخر. وكان أنبوب التنفس معلقاً بمجرى الهواء. وهذا يعني تراكُم البلغم عند الثقب. وأمي التي لم تستخدم آلة من أي نوع قبل ذلك الحين، أغمي عليها حين رأت ذلك الثقب في بلعومي للمرة الاولى. ولكن ها هي الآن ترفع الانبوب بتؤدة لازالة البلغم ثم تعيده الى وضعه. وهي باتت تنجز هذا الأمر أفضل من أي ممرضة.

وقد وضعت أريكة في محاذاة سريري حوّلتها أمي مكاناً لنومها. الا أنها لم تكن تسترخي حقاً أو تذوق طعم النوم

الحقيقي. وسألت نفسي كم سيدوم هذا العذاب. وآلمني كثيراً أن تكون أمي، وهي ضئيلة الجسم، باتت أكثر ضآلة. لكنها غدت رفيقة الطريق في رحلة لا أعرف نهايتها.

١ سبتمبر (ايلول) ١٩٧٠

نُقلت الى غرفة أكبر تحوي ستة أسرَّة. ووُضعتُ في سرير عند نافذة. والغرفة التي كنت فيها وحيداً تواجه الشمال. اما الغرفة الجديدة فتدخلها الشمس وتملأها نوراً.

وللمرة الاولى منذ إدخالي المستشفى رأيتُ السماء. انها سماء أولِ الخريف الشفافة الزرقاء. ودُهشتُ كثيراً لاكتشافي أن تلك البناية التي عرفتُ فيها أياماً طويلة من الخطر والعذاب تقوم تحت سماء على هذا المقدار من البهاء والجلال.

وفي ذلك الحين أدركتُ طبيعة محنتي الى حد، إذ عرفتُ أني لن أعود البتة كما كنت قبل الحادث. لكن أنبوب التنفس وانبوب البول نُزعا، كما نُقلتُ الى غرفة أكبر حيث أرى الآخرين. وكان جسدي، بعد الحادث مباشرة، ضمر كثيراً حتى ان أظفاري سقطت. الا أنها عادت الى الظهور مع التحسن الأخير الذي طرأ على صحتي. وشعرتُ أن جسدي، على شلله، متجه نحو شفاء ما.

وفي أواخر نوفمبر (تشرين الثاني) رُفع الجزء الأعلى من جسدي للمرة الاولى بفضل سرير ذي مفاصل. وارتأى الطبيب أن أُرفع كل يوم أكثر من سابقه قليلا كيما أتعوّد الجلوس مع الوقت. أما رفع السرير مرة واحدة فيحمل معه إمكان الاغماء.

من ذاكرة أمي

"الانتقال الى غرفة أكبر بدّل الوضع من بعض الجوانب. صحيح ان شلل توميهيرو لا شفاء منه. لكن تلك الغرفة رفعت معنوياته.

"وفي نوفمبر (تشرين الثاني) صار يقوى على رفع ظهره قليلا بالاتكاء على السرير. لكن ذلك أقلقني، إذ باتت أدنى حركة تحرف رأسه تحمل معها ارتفاعاً في حرارة جسمه. وإذا انحبس البول ثلاث ساعات أو أكثر، انتفخ بطنه وشعر بالغثيان وازرقّت شفتاه وفقد القابلية للأكل. وهذا أمر كان يحدث أحياناً كثيرة. انها مسائل تافهة لم تكن تعني شيئاً حين كان طبيعياً. أما اليوم فهي تنطوي على خطر كبير يحمل تهديداً لحياته. لكن بعض الايام أشرق وسط دوامة العذاب تلك وحمل الرجاء الى قلوبنا.

"وفي الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين فجر التاسع من ديسمبر (كانون الاول) سمعت توميهيرو يقولِ كلمات بصوت غريب النبرة. ونظرتُ اليه وتملكني الذعر لرؤيتي بياض عينيه بارزاً ويديه وقدميه باردة كالجليد. ودعوته باسمه فلم يجب. وحاول الطبيب إنعاشه بوسائل شتى، لكنها لم تنجح. وأخيراً قال الطبيب: "من الأفضل أن تحيطي العائلة والأصدقاء علماً بدنو أجَله." أيكون الموت إذاً، نتيجة هذا العذاب كله؟ ورحت أرتجف وأنا لا أقوى على تحريك قرص الهاتف."

٩ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٧٠
أفقتُ وسط الظلام لأجد جماعة من الأطباء والممرضات حول سريري. وسمعت أمي تقول بانعتاق: "الشكر للسماء يا توميهيروا الشكر للسماء." ولم أعرف لماذا تشكر السماء، ولكن بدا لي أن أمراً رائعاً حصل.

وتذكرتُ لاحقاً اني أحسستُ خدراً مفاجئاً يزحف من قدميّ الى فوق. وفي الوقت نفسه طغت عليّ وحشة شديدة وسمعتني أقول: "لقد سرى الخدر في رجليّ." وبعد ذلك فقدتُ الوعي.

وفي اليوم التالي اهتزت أوصالي وأنا أسمع رواية أمي لما حدث. لقد أسعفني الحظ وتمكّن الفريق الطبي من إحيائي. وهكذا صمدتُ. ولكن راودني شعورٌ بأن الحياة مستمرة هناك، باستقلال عني، وأنها تنبعث نوراً وجمالا في كل ناحية.

مارس (آذار) ١٩٧١
انقضت أشهر تسعة على دخولي المستشفى. وللمرة الاولى أُخرجتُ على حمّالة. وكانت الرحلة الى قسم العيادات الخارجية لأخذ صور بالأشعة. وفي الامكان أخذ تلك الصور داخل الغرفة. لكن عنقي بات أقوى، وقدّر الطبيب أن تغيير الجو من شأنه رفع معنوياتي. وهكذا ركز رأسي ورفعت بحرص شديد وجرت الحمّالة خارج الغرفة. وشقت أمي الطريق. ولدى بلوغنا المكان المطلوب أعلنت بحبور: "هذه هي العيادة وهنا غرفة الحمام."

وفي الباحة الداخلية للمبنى انتصبت شجرة توت كبيرة. وأوقفت الممرضة كاميمورا العربة لتدعني أنظر الى الباحة.

وبعد أربع سنوات أو خمس بحث للآنسة كاميمورا بالشعور الذي انتابني في تلك اللحظة: "عندما رأيتُ تلك الشجرة، أدركتُ أن إعادتي الى الحياة بعد حادث الاغماء آتت ثمارها، إن لم يكن من أجل شيء آخر فمن أجل أن أمتع نظري بجمال تلك الشجرة."

لكن مشاعري طغت عليّ في تلك اللحظة بحيث لم أتمكن من التعبير عن أفكاري.

يونيو (حزيران) ١٩٧١
بدأت رئتاي العمل على نحو طبيعي. وهكذا أمكن سد الثقب في بلعومي. وسُرَّت أمي لمعرفتها أن في وسعها الآن أن تأكل وقعتها بسلام. وكانت قبل ذلك الحين تقطع طعامها مراراً كلما واجهتُ مشكلة في التنفس، كما كانت تلازم آلة التنفس ليل نهار خوفاً من أن أشرق بالبلغم المتراكم.

وبعد سحب الانبوب من الرغامى أخذ الثقب يلتئم تلقائياً. ومع انسداده في النهاية بات صوتي أقوى وأوضح.

أغسطس (آب) ١٩٧١
لاحظ أستاذ مساعد في المستشفى أن الأشخاص الذين يتعرضون لصدمة في عظم العنق يصبحون أشد تأثراً بالحرارة. وهذا صحّ في حالي أيضاً. ومع ارتفاع حرارة الطقس بت أشعر، على شللي، كأني فوق طبق ساخن. ولم تنفع أكياس الثلج في ازالة ذلك الشعور. وارتفعت حرارتي الى ٣٨ درجة مئوية وظلت كذلك وقتاً.

وكان السبب عجز جسمي عن نضح العَرق. فمع الحادث توقفت غدد العَرق عن الافراز. وأمكنني، عبر مرآة، أن أرى الجفاف والذبول في بطني ورجليّ. وعرفت، إذ رأيت جسمي للمرة الاولى بعد الحادث، مقدار الأذى الذي أصابه.

وقال الطبيب: "يجب أن تبقى أكياس الثلج على جسمك وأن تتجرّع أكبر مقدار ممكن من الماء. ومع خروج البول تهبط الحرارة." ومددتُ لساني ورحتُ ألهث بسرعة. وهبّت أمي اليّ متعجبة وهي تريد أن تعرف ما حدث. وأجبتُها وأنا أضحك: "ألا ترين اني كلب؟ اني احاول التخلص من حرارتي الزائدة كما تفعل الكلاب."

فبراير (شباط) ١٩٧٤

ذات عصر سقط الثلج. وكنت كلما أثلجت أخرج الى الطبيعة وألعب مثل طفل. وأقنعتُ امي بإحضار الحمّالة وإخراجي الى الرواق، علّني ارُاقب تساقط الثلج عن كثب من النافذة الكبرى هناك. وبينما أنا أنظر، أحسستُ جسدي يطير الى فوق ويهيم في الفضاء.

ولما أعادوني الى الغرفة كان البلغم يسدّ حلقي ويعوق تنفّسي. وربما جاء ذلك من الهواء البارد الذي تنشقتُه في الممر. ولما كان الثقب اختفى من بلعومي، وضعت الممرضة أنبوب التنفس في فمي. وخُيّل اليّ أن الهواء يأتيني من ثقب ابرة.

وأسرع الدكتور نيشيمورا وقال: "افتح فاك." ووضع فمه فوق فمي ونفخ الهواء في رئتيّ مراراً. وهكذا زالت الغشاوة عن بصري.

وفي اليوم التالي ثقب بلعومي من جديد وحُشر عبره أنبوب التنفس، على أن يبقى هناك حتى زوال الخطر.

مارس (آذار) ١٩٧٤

ها هو الربيع يأتي للمرة الثانية منذ دخولي المستشفى، ومعه أشعة الشمس المعتدلة. وغدا النهار أطول وأكثر دفئاً. وحملت تباشير الربيع جديداً من الرجاء. وشهدت صحتي تحسناً مطّرداً وراودني شعور بالخفة والنشاط على نحو لا أستطيع وصفه. وكعادتي رحت أتحدث بانفتاح وحرارة الى كل من أجده في طريقي، وأروي عليه نكاتي.

لكن ثمة أوقاتاً أخرى كنت أُحدق الى السماء، فأجد أني سوف أبقى هكذا بعد سنة، وبعد عشر سنين، وربما الى النهاية، أي أن شيئاً لن يتبدَّل. وبت أعضّ لساني كما يفعل بعضهم للانتحار. غير أني سرعان ما كففتُ عن تلك العادة.

أُريد أن أكتب!

صيف ١٩٧٤

في المستشفى تعرّفتُ الى تاكاكو، وهو طالب في المرحلة الثانوية عولجت كليتاه في هذا المكان قبل نقله الى مستشفى في طوكيو. وذات يوم جاءت أمه لعيادتي وعيادة سائر المرضى. وقالت ان ابنها يشعر بالوحشة في مكانه الجديد، حيث لا معارف ولا أصدقاء. وحملت معها شريطاً لكي نسجل عليه تحياتنا، وقبعة ثمينة من قماش أوصى تاكاكو أن يكتب كل منا رسالة عليها. وكان الفتى صديقي، وأدركتُ أن كلمة مكتوبة مني ستروقه كثيراً.

واقتديتُ بغريزتي لأفعل شيئاً لم أُفكر فيه البتة من قبل. فقد طلبتُ من أحدهم وضع قلم بين أسناني. وحملت والدتي القبعة أمامي. وركزت كل ما في رأسي وعنقي من قوة على أسناني. وظهر مقدار ضئيل من الحبر على القبعة. ولكن كان يكفي أن أرفع رأسي بضعة سنتيمترات لتفارقني قوتي.

وضاق نفَسي كما لو كنت أركض في سباق للمسافات الطويلة، وسرى الخَدَر في أسناني من فرط الاجهاد، وسال اللعاب القبيح من فمي مدراراً. يا للتعاسة! حتى رأسي لا يمكنني أن أحركه قليلا من غير أن يتحول الأمر شراً. وأنزلت أمي القبعة قليلا لتلامس القلم الذي ما زال في فمي. وراحت تحركها يميناً ويساراً حتى تمكنت أخيراً من كتابة اسمي.

وبعد أيام اتصل بي تاكاكو. وحملت أمي سماعة الهاتف ووضعتها على أذني وفمي. وعبّر صديقي عن فرحه لقراءته توقيعي على القبعة. وبينما أنا أسمعه سُررتُ لسروره واجتاحتني رغبة قوية في الكتابة... بأسناني!

ان كل نزيل مستشفى يغمره الفرح حين ترد عليه رسالة من الخارج. ولكم وددتُ لو أستطيع كتابة بطاقات الشكر الى جميع من كتب اليّ من تلاميذي ورفقائي في تسلق الجبال والممرضات المتدربات في المستشفى والكثيرين سواهم. واستحوذت تلك الفكرة عليّ حتى سألت أمي أن تحمل اليّ دفتراً كبيراً وبعض الأقلام الكثيفة الرؤوس.

وانقضت أيام وأشهر قبل أن أستطيع رسم خط مستقيم. وحين كنت أظن أني رفعتُ رأسي عالياً، لم يكن ارتفاعه فوق الوسادة يتجاوز المليمترات الثلاثة. كما ان تحريك رأسي يميناً ويساراً للكتابة اقتضى قوة خارج طاقتي كلياً. غير اني لم أكفّ عن المحاولة. فالاستسلام لا يعني هجر الكتابة فحسب، بل التخلي عن أملي في أن أحقق شيئاً، وربما عن الأمل في الحياة أيضاً.

ديسمبر (كانون الاول) ١٩٧٣

لمنع القروح من الانتشار في ظهري بحكم ملازمتي الفراش، كنت أدار الى جنبي مرتين أو ثلاثاً يومياً. وذات يوم وأنا في ذلك الوضع، قالت لي طالبة التمريض الآنسة شينوهورا: "لماذا لا تحاول الكتابة وأنت هكذا؟"

وأحضرت دفتراً حملته أمام وجهي. وغُلّف القلم بالشاش لاتقاء اللعاب. ولما حركتُ رأسي قليلا أحدث القلم علامة على الورقة. يا لها من طريقة عظيمة للكتابة، لا تلزمها القوة لأنها لا تقتضي رفع الرأس.

ورحت أخطّ الحروف والمقاطع. وبعد قليل سال اللعاب من الشاش الى الوسادة. لكن ذلك لم يسلبني الفرح بقدرتي المستجدة تلك. والحق اني لم أستطع التوقف على رغم التعب في عنقي. وفي المساء ارتفعت حرارتي، غير أني انتظرتُ اليوم التالي بشوق لاجراء المزيد من التمارين في جو نفسي أكثر هدوءاً. ولم تمنعني الحمى من النوم عميقاً تلك الليلة. وهي المرة الاولى في وقت طويل أذوق طعم النوم الصحيح.

مارس (آذار) ١٩٧٣

مرّت أشهر أربعة منذ بدئي الكتابة. وغدا في إمكاني أن أفعل ما رغبتُ في فعله طويلا، وهو كتابة الرسائل الى تلاميذي وأهلي وأصدقائي. وكنت أحياناً أصرف أسبوعاً كاملا على رسالة واحدة، لكني كنت أشعر أن كل حرف أخطه يتجاوز كونه حبراً على ورق ليصير قطعة من نفسي ترتحل الى أماكن بعيدة.

صعود وهبوط

مايو (ايار) ١٩٧٣

جاءت الآنسة واتانابي لزيارتي ومعها باقة زهر، بعدما سمعت عني من رئيسة جمعيتها الخيرية. وسحرني جمال تلك الأزهـار النجمية الصفـراء المطوَّقـة بـالأبيض، وأحببتُ أن أُبقيها حيـة على صفحات دفتري. وهكذا شرعتُ في العمل.

واستغرق رسم الزهور ثلاثة أيام. وعلى رغم أن الرسم لم يتجاوز السنتيمترات العشرين طولا والعشرة عرضاً، الا أنه بدا لي أكثر حياة من أي رسم أنجزتُه بيديّ يوم كنتُ صحيحاً. وبلغ إعجابي به حداً جعلني أُدون رسالة على الورقة نفسها وأهديها الى صديق. وسرعان ما امتلأت أوراق الدفتر بالرسوم الصغيرة التي تمثل أنواع الزهر التي وجدت طريقها الى غرفتي.

١٠ يوليو (تموز) ١٩٧٣

نُقلتُ الى قسم المجاري البولية لاستئصال حصى المثانة عبر جراحة. وكنت أعاني صعوبة في التبويل وارتفعت حرارتي الى ٣٩ درجة مئوية، وبقيت هكذا عشرة أيام. وأظهرت الفحوص أن عدداً من الحصى تجمع في مجرى البول. وهذا أمر معتاد بالنسبة الى طريحي الفراش مثلي، إذ ان البول المتجمع في الداخل والذي لا يخرج كله يؤدي الى تكوُّن الحصى.

وعملية استئصال الحصى هي من أبسط عمليات المجاري البولية ولا تدعو الى القلق. غير اني كنت ضعيفاً ولا أقوى على الكلام، بسبب الوهن الجسدي وارتفاع حرارة الجو يوماً بعدَ يوم. وكبرت القروح في ظهري ولم أعرف ما الذي يمكنني فعله للانعتاق من ضعف الجسد وكآبة النفس.

١٦ اغسطس (آب) ١٩٧٣

أعادوني الى غرفتي السابقة في قسم الجراحة التقويمية. وذلك أعاد إليّ بعض الفرح. ووُضعتُ من جديد الى جانب النافذة بفضل رئيسة الممرضات التي قالت ان تعريض ظهري للشمس من شأنه إزالة القروح. وربما شاءت أيضاً أن تفعل شيئاً لرفع معنوياتي بعدما رمتني الظروف الأخيرة في القنوط.

وراودتني فكرة، وهي أنه لا يجوز الاتكال على الناس كما فعلت حتى الآن. ويجدر ابتكار وسائل تمكنني من تسيير بعض شؤوني بنفسي، مهما تكن تلك الشؤون متواضعة. ولكن سرعان ما تبين لي أني لستُ أكثر من مريض قذر يعيش تحت رحمة الحمى والغثيان. وبتّ أعبرّ عن غيظي أمام والدتي وأصرخ في وجهها أحياناً.

نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٣

كانت أمي تطعمني ثلاث مرات في اليوم وانا مستلقٍ على ظهري. ولم أقبل على الطعام بشهية لقصر الوقت بين الوقعة والاخرى ولأن البقاء بلا حراك لا يزيد سرعة عملية الهضم. ومرة جاءت أمي بطبق الطعام وأنا لا أريد الأكل. وزاد غيظي أن الحساء وقع على وجهي بحركة غير ارادية من أمي. وبصقت ملء فمي من



قبل الحادث، توميهيرو يتمرن.

الرز وصرخت: "اسمعي أيتها العجوز الحمقاء: اني أرفض كل شيء اسمه طعام."

وراحت أمي تبكي وتمسح الرز عن السرير والأرض. وقالت: "أن أدعى عجوزاً حمقاء وأنا أحاول جهدي فعل أفضل ما يمكن..."

ولم أدعها تكمل كلامها، بل صحت: "اخرسي واتركيني وحدي، ولن أكثرت لما يحدث لي... أما كان أفضل ألا تلديني البتة؟"

ومسحت أمي دمعها وخرجت من الغرفة. ولم تعد الا بعد مضيّ وقت. وفي تلك الأثناء كان الذباب حائماً على وجهي. ورفعت يدها اليمنى فيما انتظرت أن تقع ضربتها عليّ ظناً مني أن دورها حان للتعبير عن حنقها هي أيضاً. الا أن يدها نزلت برفق وحنان على وجهي الذي سرى فيه دفئها ونعومتها على رغم قسوة يديها من كثرة العمل. وبعد حين خيل اليّ أن ذلك الاحساس الجميل انتقل من وجهي الى جسدي كله.

والحق أنه لولا أمي لما صمدت بعد الحادث.

ومنذ ذلك اليوم استأنفت الرسم بعدما توقفت عنه الى حين.

اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٤

دخلت أمي ووجهها طافح حماسة. وكانت رأت كرسياً نقالا جديداً أمام مخزن المستشفى وقد تحلّق حوله الأطباء. كان ذلك الكرسي فريداً في نوعه لاحتوائه على مسند للرأس. وربما كان الكرسي الذي أوصي به لي.

وكنت ذكرت للطبيب اني أودّ أن أتعلّم استخدام الكرسي النقّال. الا أن النوم الطويل مدد ركبتيّ بحيث بات ثنيهما شاقاً. وكان عنقي لا يقوى على حمل رأسي وأنا في وضع الجلوس. ناهيك بأنّ الاغماء كان يصيبني كلما تحركت أو بُدّل وضعي. الا أن الطبيب أوصى لي بكرسي نقال خاص.

والواقع أن الكرسي الذي شاهدته أمي كان هو المقصود. وبدا أنه يلائمني تماماً. وقد صُنع بحيث يمكن ثني ظهره بزاوية من ٤٥ درجة. وعندما جرّتني أمي فيه للمرة الاولى كان ابتهاجي عظيماً ورحت أدعو كل من أراه في الممرّ. وبعدما جرّتني جيئةً وذهوباً مرات عدة، أدركت أني


هوشينو يرسم
احدى لوحاته.

أكتشف الفرح الحقيقي للمرة الاولى منذ إدخالي المستشفى قبل أربع سنوات.

قرارات للمستقبل

مارسِ (آذار) ١٩٧٥

أجبتُ عما استطعتُ من الرسائل. وكانت رسائلي أنا عبارة عن كلمات قليلة الى جانب رسمِ زهرة. وكانت كل باقة زهر يحملها صديق اليّ تتحوّل رسماً على ورقة. ولم أُعرف شيئاً عن مبادىء الرسم، لكني قدرتُ أنه يكفي نقل تلك الاشكال على الورق من غيرِ زيادة ولا نقصان.

وكنت كلما عملتُ على رسم زهرةٍ أو سواها بكل ما لديّ من تركيز، ظننتني صرتُ صغيراً جداً مثل نملة تتحرّك في الداخل بين البتلات وقد غطاها اللقاح الأصفر.

وسألت أخي أن يبتدع آلة يمكن وضعها بجانب سريري لتحمل لوح الرسم وتحرّكه في أي اتجاه مطلوب، على أن تكون في الوقت نفسه من الصغر بحيث يمكن وضعها في احدى زوايا الغرفة في أوقات الراحة.

وجاء أخي فعلا بأنابيب من فولاذ وقطع أخرى وصنع بها آلة تلبي حاجاتي كلها من هذا القبيل. وهكذا بتّ أقضي وقتاً أطول في الرسم، تساعدني أمي في إعطائي اللون المطلوب. وامتلأت صفحات الدفتر برسوم الزهر على أنواعه.

مايو (ايار) ١٩٧٦

من نافذة غرفتي في الطبقة السابعة من الجناح الجديد في المستشفى أمكنني أن أرى جبل آكاغي وقد توشح بخضرة الربيع. وشعرتُ بشوقٍ غامر يدعوني للعودة الى البيت.

وأخيراً وجدتُ لديّ الشجاعة كي أسأل الطبيب: "أتسمح لي يا دكتور بالذهاب الى بيتنا والبقاء ليلة واحدة؟"

وأجاب: "أنت تود زيارة البيت اذاً. أظن أن هذا ممكنٌ الآن."

وفي اليوم التالي جاء أخي في سيارته

وكانت المرة الاولى أزور بيتنا خلال ستة أعوام. وكانت الرحلة الى منزلنا تستغرق ساعة ونصف ساعة. وبعد قلقٍ من ألا أقوى على الصمود، جاءت مناظر الطبيعة الخلابة، وبينها حقول القمح وأشجار التوت، لتنفذ الى صميم قلبي.

وحملني أخي وزوجته وأمي من السيارة الى أريكة على الشرفة. وسمعت صوت المياه المرقرقة في القناة بالقرب من منزلنا، ومعها حفيف أوراق القصب. وملأت حواسي رائحة الحصر الأليفة التي حاكتها أمي.

وسألتني أمي: "ماذا تريد أن تأكل؟"

قلت: "ان أفضل ما يمكنني تصوره هو الطعام الذي يأكله أبي عادة."

وسرّحت أنظاري في الحديقة، فرأيت زهر الأزاليّة الفتان ووراءه الجبال التي انتصبت فطاولت السماء. وطالما حدّقت الى تلك المرتفعات في طفولتي حتى ملّتها عيناي. لكني الآن كنت كمن يكتشف جمالها للمرة الاولى.

ومنذ ذلك الحين بت أزور البيت أربع مرات في السنة، حتى اذا وجدتني في طريق العودة الى المستشفى انتابتني الكآبة والرغبة في الرفض. وأدركتُ اني بلغتُ مرحلة تخوّلني البقاء وقتاً غير محدود خارج المستشفى.

وبدأت أفكر في ما يجب فعله ليس من أجلي فحسب، بل من أجل أمي أيضاً. ألا تكفي هذه السنوات التي أمضتها وهي تنام ليلياً على مقعد ضيق لا يتجاوز عرض حصيرة، ممدّد بين سريري ونافذة الغرفة؟ أما آن ليديها أن تستريحا بعدما كانتا بمثابة يدين لي وقدمين طوال هذه السنوات؟ أجل، لا بد من اتخاذ قرارات حاسمة في شأن المستقبل.

يوليو (تموز) ١٩٧٨

كان الدكتور نيشيمورا والدكتور كويزومي من قسم الجراحة التقويمية في طريقهما الى مركز المعاقين جسدياً لمشاهدة معرض رسم، واقترحا أن أرافقهما. وكانت جدران المركز تحمل لوحات زيتية رسمها أحد المعاقين بفمه، واسمه واشيزوكا. وقرأتُ في الصحف عن ذلك المعرض وأحببتُ الاطلاع على الأمر عن كثب.

ولما بلغنا المكان قال الدكتور نيشيمورا لمدير المركز السيد كوبوتا: "يسعدني أن أخبرك أن السيد هوشينو يصنع رسوماً ممتازة بفمه أيضاً."

واحمرّ وجهي خجلا، وكنت رأيت لوحات واشيزوكا وبينها ما يبلغ ٧٣ سنتيمتراً طولا و٦١ سنتيمتراً عرضاً، كذلك ٩١ سنتيمتراً طولا و٧٣ سنتيمتراً عرضاً. ومن المستحيل أن يعرفِ الناظر اليها أنها أُنجزت بالفم. وغادرتُ المكان وأنا مفعمٌ أملا.

معرض خاص بي!

فبراير (شباط) ١٩٧٩

جاءني الدكتور نيشيمورا ومعه رسالة شفوية من السيد كوبوتا: "لقد اقترح مدير المركز أن تعرض لوحاتك عنده. فما رأيك؟"

وهالتني الفكرة ورجوت الطبيب أن يبلّغ المدير عدم قبولي. وجاء الدكتور

كويزومي محاولا إقناعي هو أيضاً. وأخيراً تبين لي أن الطريقة الوحيدة لثني السيد كوبوتا عن الفكرة هي عرض رسومي عليه. لذلك لم أمانع البتة حين حمل الدكتور كويزومي تلك الرسوم وخرج.

وفي أواخر شهر مارس (آذار) جاء السيد كوبوتا شخصياً وقال: "لقد أدهشتني رسومك حقاً. انها رائعة، ولا يجوز ألا تعرض. وسنعلّقها على الجدران في ممرات المركز. وستكون غالبية الزوار من النزلاء والمرضى الذين يقصدوننا للمعالجة."

وقرّ الرأي على عرض الرسوم في سياقها الزمني، من غير تركيز على كونها رُسمت بالفم. هكذا تظهر سجلا يومياً لحياة شخص في آلامه وذكرياته وعواطفه.

ابريل (نيسان) ١٩٧٩

أتى السيد كوبوتا للبحث في تفاصيل المعرض. وسألني: "ما رأيك في كتابة تعليق لوضعه الى جانب كل من الرسوم؟ فهذا من شأنه إلقاء ضوء على أعمالك الفنية وعلى أفكارك عموماً."

ولم أدرك، وأنا أوافق على الاقتراح، أن من العسير جداً التعبير عن حقيقة مشاعري. وتبين لي أن كشف الذات للآخرين يقتضي جرأة تفوق ما يحتاج اليه المرء للاقدام على مغامرة جديدة مهما بلغت خطورتها.

١٥ مايو (أيار) ١٩٧٩

أخيراً افتتح المعرض. وقبعتُ في سريري داخل المستشفى وأنا أحدق الى سقف الغرفة وأتمنى لو أختفي من الوجود. وكان السيد كوبوتا وعدني بأن تمر المسألة بهدوء. الا أن الصحف تناولتها بحماسة، وبرزت احدى شركات التلفزيون لتتدخل في الأمر هي أيضاً.

٢٠ مايو (ايار) ١٩٧٩

كنت في كرسي النقال في بهو المستشفى عندما دنت مني ممرضات متدربات. وقالت إحداهن: "لقد رأينا رسومك وبكينا جميعاً. ولكن لا تظن أننا فعلنا ذلك عن شفقة. والواقع أن أمك امرأة رائعة هي ايضاً. وقد فكرتُ في شراء أحد رسومك، لكنها كلها تحمل علامات حمراء، اشارة الى أنها بيعت."

وعدت سريعاً الى غرفتي لأتصل بالسيد يوتاكا ايشيدا، وهو صاحب صالة عرض أشرف على تعليق رسومي. وسألته عن حقيقة شراء الرسوم، فقال:"أجل، لقد اشترى الناس أعمالك لأنها حركتهم، لا لأنك أرغمت أحداً على الشراء. لذلك أقول لك أن ترفع رأسك وتعتزّ بنفسك. وليس هناك ما تقلق عليه."

وكان السيد كوبوتا يأتي يومياً ومعه صور لصفحات دفتر الزوار الذي وُضع في احدى زوايا المعرض لكتابة الملاحظات والانطباعات فيه. وبادرني يوماً: "العظيم في الأمر أن المكان يغص بالزوار على الدوام. وأحياناً تأتي جماعات منهم في حافلات صغيرة. ولم أتوقع البتة أن يلاقي المعرض هذا النجاح كله."

من دفتر الزوار

■ "أنا كذلك معاق جسدياً. ولقد شعرت أن السيد هوشينو، في كل من رسومه، عبّر تماماً

عن أحاسيسه وعذابه وحزنه وفرحه. اني مصاب بالشلل النصفي. والحق أن هذه الأعمال منحتني الشجاعة والأمل."

كورودا

■ "لقد زال عجبي من أن السيد هوشينو أنجز هذه اللوحات والكتابات بفمه. وما هزني من الأعماق قوته الذهنية وثباته النفسي.. اني أشكر لك حقاً هذا العمل."

كو سيكيغوتشي

ان الرسوم التي طالما اقتصرت ملكيتها عليّ وعلى أمي لم تبقَ لنا وحدنا. وهي غادرت غرفتنا الصغيرة في المستشفى لتدخل قلوب الناس. لكن سفر تلك الرسوم الستين التي تجمعت خلال السنوات الخمس الماضية الى أماكن بعيدة أنعشني وولّد لديّ توقعات فاقت تصوراتي.

وطالما تساءلت بقلق عن المكان الذي أذهب اليه بعد خروجي من المستشفى: أيكون هو البيت أم مؤسسة للمعاقين؟ ولما طرحت القضية على السيد كوبوتا جاءني جوابه سريعاً ومطمئناً: "اذا استعاد جسدك قوته، فالطبيعي أن تذهب الى البيت. وان أي مؤسسة تبقى، في النهاية، مؤسسة."

غير أني، في الوقت نفسه، خشيت الابتعاد عن المستشفى. لكن السيد كوبوتا شجعني بقوله: "ان لديك عملا الآن، أليس كذلك؟ فأنت فنان، ويجب أن تذهب الى البيت وتعبر عن أفكارك ومشاعرك على الدوام بالرسم."

ولما سمعت كلام السيد كوبوتا أيقنت أني كنت محظوظاً لمعرفتي هذا الرجل الفاضل المخلص. ولكن ألست أنا خارج المستشفى حقاً، بعدما ارتحلت رسومي وكلماتي من هذه الغرفة الصغيرة لتعلّق على جدران المنازل؟ ألم يُعدْني المجتمع الى حظيرته ويرحب بي أيما ترحيب؟

جذور جديدة

١٤ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٩

في ابريل (نيسان) تلقيت كرسياً جديداً يعمل على الكهرباء عبر حركات الذقن، أي الجزء الوحيد من جسمي الذي يتحرك. ومنذ ذلك الحين بتّ أجلس فيه يومياً وأتنقل كما لو أن لي قدمين صحيحتين. وكانت أمي اكتسبت مهارات لتسيير شؤوني لا تقل عما تعرفه أي ممرضة ممتهنة. وهكذا حان الوقت لمغادرتي المستشفى.

وفي اليوم الأخير دخلت رئيسة الممرضات غرفتي أربع مرات. وعبّرت عن فرحها من أجلي، كما اعربت، في الوقت نفسه، عن أسفها لذهابي. وجاءت ممرضة لقياس نبضي قبل الذهاب. وأحسست حرارة تسري من أصابعها الى يدي، وهي كانت بمثابة الغفران لأنانيتي وتذمري في السنوات التسع الماضيات.

وعندما خرجت من الغرفة وجدت الممرضات في الأقسام الاخرى واقفات في البهو لوداعي. وراحت كل منهن تصافح أمي وتبكي. وانتابني دافع ملح الى البكاء، لكني لجمته خوفاً من أن يشق على أمي أن تكفكف دموعي.

ووصلنا الى البيت. ومن الوادي عند سفح جبل آكاغي حيث يسيل نهر

واتارازي انبعثت روائح أليفة. وعلى منازل القرية خيمت شعاب الجبل التي كوّنتها ملايين السنين. صحيح اني لن أستطيع أن أبعث شيئاً يحاكي أحلام طفولتي هناك، ويا لها من أحلام رائعة. لكن ظهري سيبقى منتصباً ورأسي مرفوعاً. وشعرت أن العذاب والألم واليأس، وقد خبرتها حتى النهاية، منحتني شيئاً ذا قيمة باقية، وإن خفي عن عين الجسد. وهو أنشب جذوره في أعماق قلبي.

ومنذ اليوم لن أتوقف عن كتابة كل ما يمكنني كتابته ورسم كل ما أستطيع رسمه.

إن المستقبل مفتوح أمامي.

الجذع والزهرة

بسهولة تامة انكسر
جذع تلك الزهرة
كما انكسر الجذع
الذي كان عنقي.
غير أن جذع الزهرة المكسور
أفرع جذوعاً جديدة
تفتحت منها مع الأيام
زهرة جديدة.
اني أشرب الماء نفسه
الذي ترتوي منه هذه الزهرة.
والنور الذي يشرق عليها
يشرق عليّ أنا أيضاً.
واني سأغدو جذعاً قوياً
أنا أيضاً.

■ **توميهيرو هوشينو**

عاد المؤلف الى بيته في ابريل (نيسان) ١٩٨١. وتزوج ماساكو واتانابي التي حملت اليه يوماً باقة زهر ألهمته الرسم. وهما يعيشان في منزل ذويه في غونما. وفي العام ١٩٨٢ نشر كتاب توميهيرو الثاني بعنوان "رحلة الريح". ولا تزال رسومه وكتاباته تظهر في الصحف. وأمه تومونو لا تزال تأمل بشفائه التام يوماً.



الفنان لا يتقاعد

النحات الامريكي هنري مور بلغ الخامسة والثمانين ولم يتوقف عن العطاء. وحين سُئل عما اذا كان يعتزم التقاعد قال:

"الفنان لا يستطيع التقاعد. ولنذكر أن رمبرانت بقي يرسم حتى اليوم الأخير من حياته. وهكذا فعل مايكل آنجلو وبيكاسو... وهل فكر أحدنا أن يسأل شاعراً عما اذا كان سيتقاعد؟ أتراه يكفّ عن كونه شاعراً وهو لا يكتب؟ ان الأفكار التي تدور في وجدان الشاعر والفنان تجعل فكرة تقاعدهما مستحيلة."

مجلة "جيو"

قانون الاخلاق

عندما تغدو الأخلاق الحسنة طبيعة ثانية لدى المرء، يصبح في امكانه ان يواجه أي موقف مع الثقة التامة بذاته. وحين سُئل أحدهم كيف يستطيع جبه المواقف غير المتوقعة، أجاب: "ثمة قانون خُلقي واحد يرشد حياتي."

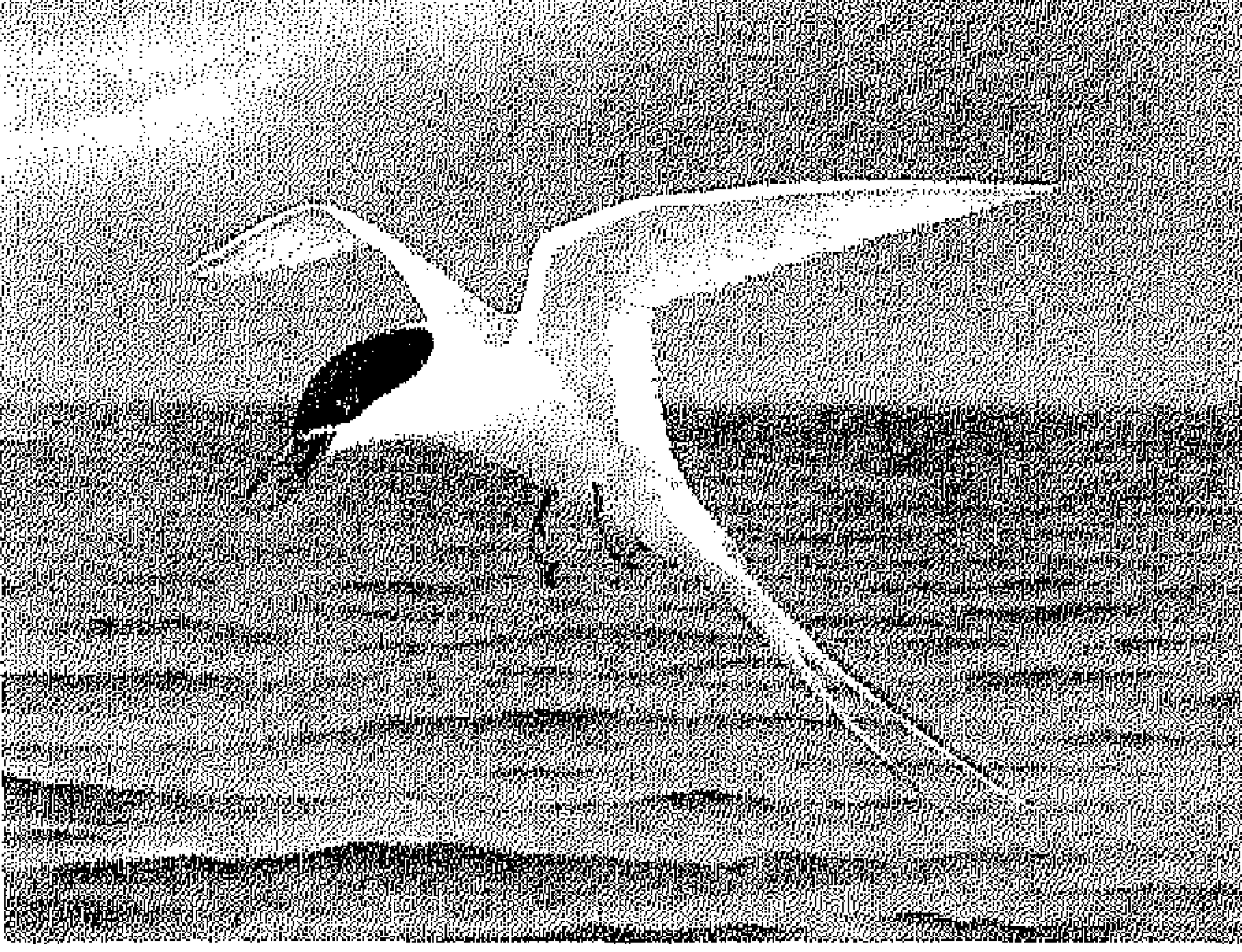
ا.ب.

كتاب الشهر

عابرو القارات

ملخص من كتاب
بقلم جيريمي لوكاس





عابرو القارات

تهاجر الخراشن القطبية في أطول رحلة للطيور مهتدية بغريزتها وبالشمس والنجوم. ومرتين كل سنة تجتاز أكثر من ١٥ ألف كيلومتر من البحار الزرقاء الرمادية الممتدة من السواحل الشمالية لأوروبا وكندا الى ثلوج قارة القطب الجنوبي. وتتضمن هذه الرواية الملحمية وصفاً لارتحال هذه الطيور وشجاعتها في صراعها من أجل البقاء

Condensed from «The Longest Flight,» © 1982 By Jeremy Lucas, and published by Jonathan Cape, London. Illustrations by Roger Gorringe

راح موج المدّ يترجج ويزبد بين صخور الشاطىء، والريح تحمل رذاذه وتعيده الى البحر شلالا من بياض تضيئه أشعة الشمس. وحلقت نوارس الرنكة عالياً فوق مياه الاطلسي الغاضبة وأعينها المتفتحة تخترق الماء الهادىء في البرك بين الصخور.

وفي عش من أعشاب ونباتات بحرية لا يبعد كثيراً عن الشاطىء أقعت نايتوينغ وهي خرشنة قطبية أنثى. والخراشن طيور بحرية تشبه النوارس. وما فتئت نايتوينغ تراقب أسراب النوارس المحوّمة فوقها، وقد استقرت تحت بطنها بيضة وحيدة. وكانت عند الفجر أحست حركة داخل البيضة فطمأنت الفرخ في الداخل بصوتها الهادىء.

وبعد قليل برز طيف مشقوق الذيل وسط شمس الصباح محدثاً في الهواء صوتاً حاداً. وما ان شعرت النوارس باقترابه حتى تبددت أسرابها. ذلك كان شوكسيلفر زوج نايتوينغ الذي لم ينزل الى العش قبل ان يطمئن الى خلو المكان من كل خطر.

وكمثل أنثاه كان طوله من رأس منقاره الى ذيله الخطّافي المزدوج ٣٨ سنتيمتراً. والاثنان مكسوان بالريش الأبيض المنقط بالرمادي البرّاق. أما القوائم والمنقاران فحمراء قانية كالدم. وقد حمل كل من الطائرين في أعلى رأسه بقعة سوداء صقيلة.

وكان شوكسيلفر غادر العش منذ الفجر باحثاً عن صيده فوق المياه. وعودته تعني أن في امكان نايتوينغ الذهاب الى صيدها هي أيضاً. وهكذا هبت من مكانها، وبعد لحظات كانت تحلّق فوق شاطىء جزيرة أوك على ارتفاع ١٥٠٠ متر. وكان جناحاها مثل هلالين يشقّان الريح بسرعة. وارتفعت عشرة أمتار ثم هبطت. واستأنفت الارتفاع وهي تحمل بمنقارها انقليساً رملياً.

وجلس زوجها يراقبها والبيضة تتحرك تحته، وهو يسمع بين الحين والآخر نقراً منبعثاً من داخلها. وقبل ١٨ سنة خرج شوكسيلفر نفسه من بيضة في مكان قريب من هناك. وقطع المسافة الطويلة الى نصف الكرة الجنوبي ست عشرة مرة. وكان بعد كل رحيل يعود الى هذا الجرف الاسكوتلندي مع نايتوينغ. والخراشن من الكائنات التي تتخذ لنفسها شريكاً واحداً. والتعارف بين شوكسيلفر ونايتوينغ تمّ فوق الجرف القطبي الجليدي في الطرف الجنوبي من العالم. والآن انقضى شهر على وجودهما في موطنهما الأصلي وهما يتناوبان صيد السمك وحضنَ البيضة من ضمن صراعهما للبقاء فوق تلك الاراضي السبخة على الساحل الاسكوتلندي.

ذلك المساء، فيما نايتوينغ جاثمة على البيضة، أحست صوت تكسُّر تحتها. ونهضت وألقت نظرة على بيضتها البنية

المرقطة، فرأت منقاراً صغيراً لماعاً يكسرها ويهزها برفق. ثم تكوّن صدع في القشرة وخرجت كرة من الزغب. وأسرع الهواء الى رئتي الفرخ وهو يحاول الوقوف. ولفته أمه بجناحيها وراحت تنظّف بمنقارها ما علق فيه من البيضة. ومع الصباح كان دفئها أزال الرطوبة من جسده الصغير وأحاله كرة بنية منقطة تحت صدر أمه.

الطيران الأول

في نصف إشراقة الفجر راح شوكسيلفر يرفرف فوق الصخور ويطلق أصواتاً صارة لانذار الطيور الأخرى التي تحاول الاقتراب من العش. وفي تلك الاثناء ظهر هوكويند الصديق القديم. وعرفه شوكسيلفر من عنقه المعقوف وعينه الوحيدة. وكان هوكويند وأنثاه في السنين الخوالي بنيا عشهما بالقرب من ذلك المكان. ولاحظت نايتوينغ للحال ان هذا الصديق يحلّق وحيداً. والواقع ان أنثاه قضت خلال الرحلة الشاقة تلك السنة.

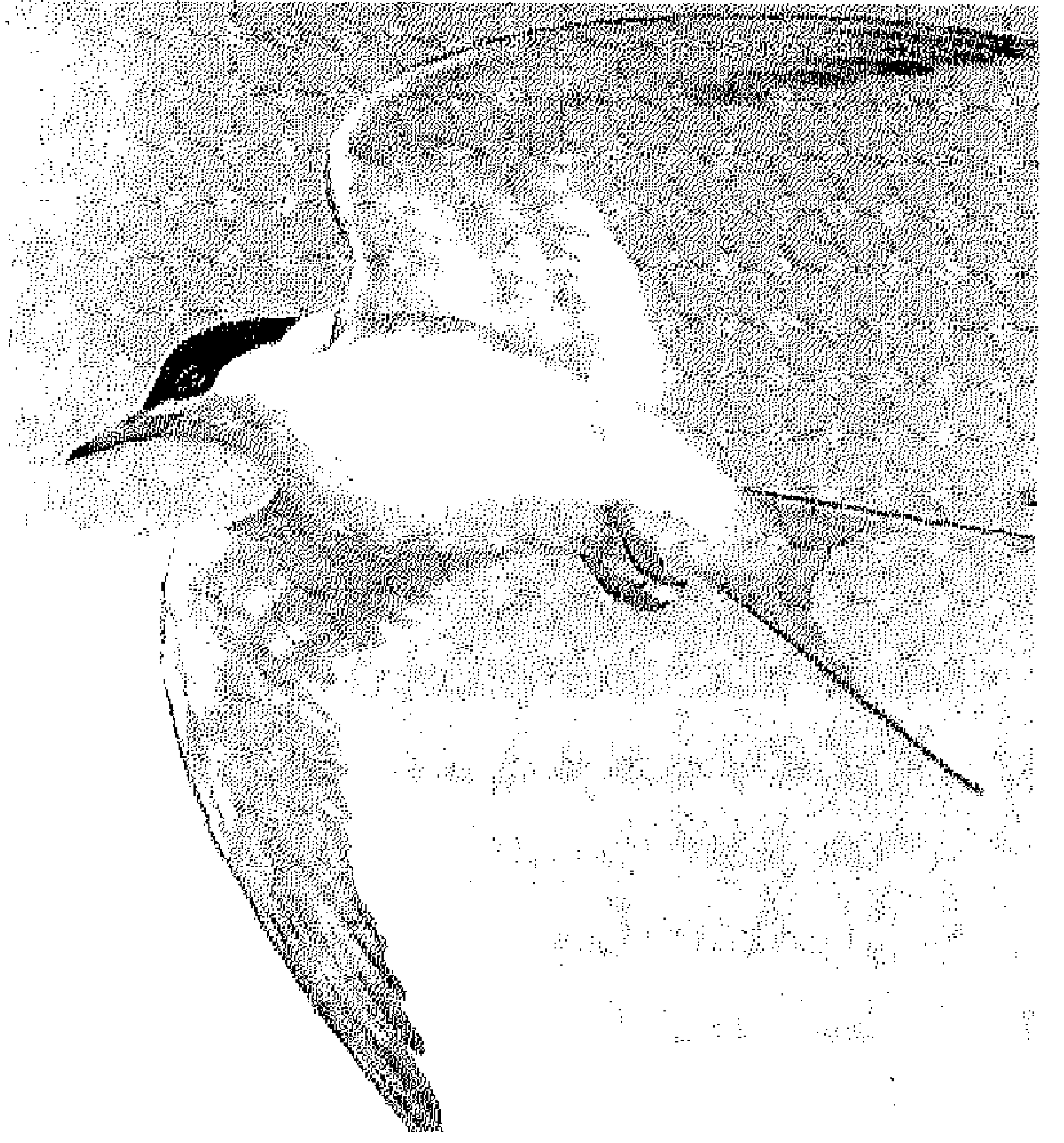
وراح الصديقان يتكلمان بأصوات مختلفة، لكن واحدهما استطاع تبليغ الآخر ما يريد، علماً أن شوكسيلفر ينتمي الى فصيلة الخراشن القطبية فيما ينتمي هوكويند الى الفصيلة العادية الشائعة. ومن العسير التمييز بين أفراد الفصيلتين من حيث المظهر الخارجي. الا ان الخراشن العادية لا تستطيع التحليق طويلا كطيور الفصيلة الأخرى.

واتجه الاثنان نحو الجبال القريبة من الساحل، ومن هناك تابعا التحليق فوق المستنقعات الملونة. وما لبثت مياه احدى البحيرات ان انبسطت تحتهما. وانحدر هوكويند حتى بات على ارتفاع سنتيمترات قليلة من المياه المتموجة. وطعن سمكة في خاصرتها، ثم حرف جناحيه مع الريح واندفع الى فوق والغنيمة في منقاره. وطار الصديقان جنباً الى جنب وكل منهما يحمل سمكة طولها ثمانية سنتيمترات.

وفي العش التهمت نايتوينغ السمكة التي حملها اليها شريكها. وألقى هوكويند سمكته أيضاً أمامها، فمددتها على حجر وغرزت فيها منقارها ودلتها في منقار صغيرها من ناحية رأسها. وللحال اختفت السمكة داخل الجسد الصغير.

في تلك الاثناء لم تكن حاجات الوليد تتجاوز البقاء في عشه والاغتذاء، فيما الريح تعبر ومياه الاطلسي تموج. وكان يمضي نهاره وهو يأكل ويراقب البهلوانات المجنّحة وهي تعلو وتهبط في الفضاء. ونما سريعاً وأخذت علائم الزغب الاول تزول من ريشه. وغدا شكله شبيهاً بالسنونو. وغطت النقط البنية والبرتقالية رأسه وعنقه وظهره... انه ينمو حقاً. والوقت حان كي يغادر العش الذي كان عالمه حتى ذلك الحين. وكثرت النوارس والكراكي الباحثة عن غنائمها في كل مكان، خصوصاً في العشاش.

وعيل صبر الفرخ. وطالما مدّ جناحيه ليختبر قدرته على الارتفاع. لكنه كان يتعثر فيلزم مكانه. ثم اكتشف الاندفاع الى الأمام الذي يرافق فتح مقدم الجناحين حيث الريش الكبير. وذات صباح وقف على حافة الصخرة والمحيط يزبد تحته. وفجأة نزل شوكسيلفر من عل



وهو يزقو بصوت حاد: "كيـ...ياه!" ثم اندفعت نايتوينغ أمام صغيرها.

في تلك اللحظة هز الفرخ جناحيه واندفع الى الهواء وهو يتحسس حركة الريح والموج. وارتفع قليلا فوق الماء وأحس القوة النامية في جناحيه. وهكذا بات المدى الازرق والشمس والامواج ملكاً له.

وانقضت ساعات وهو يطير ويحاول ان يحاكي طيران أبويه. وهما ظلا يناديانه عن ارتفاع ٨٠٠ متر ويتملّقانه للتحليق، وهدفهما بث القوة والثقة لديه استعداداً لرحلة عبور المحيط. ولن ينقضي وقت طويل حتى ينشر الشفق القطبي الشمالي إنذاراته الزرقاء الفولاذية في سماء الشمال، فيقصر النهار ويحين وقت الرحيل الى الجنوب. لكن شوكسيلفر لم يكن على عجلة من أمره. فمياه الجزائر الباردة ما زالت تعج بالاسماك الصغيرة، وجناحا صغيره يلزمهما المزيد من البأس.



ذات يوم نهضت الطيور الأربعة من مكانها على الشاطىء واتجهت نحو البرّ. ودنت من مرتفعات فاشفن والجبال الواقعة شمال غرب سذرلاند. وبدت لها أزهار الخلنج الذاوية فوق خطوط الشاطىء البيضاء. وكلما سمعت الطيور البالغة اصواتاً قصيرة حادة كانت تغير اتجاهها من غير أن يعرف الصغير سبباً لذلك.

وكان هناك رجلان يعبران المستنقعات، وقد حمل كل منهما بندقية صيد وارتدى سترة من الصوف الخشن ودلى جعبة من خصره حوت عدداً من طيور الطيهوج التي تشبه الدجاج وعدداً آخر من الارانب البرية. وهما قصدا ذلك المكان لصيد طيور البحر.

موت في المستنقعات

هبطت الخراشن الأربعة من قمة الجرف الى المستنقعات. ورأت نايتوينغ فراشة ترفرف هناك، فأبطأت حركتها وأطبقت عليها. ولم تسمع الخرشنة طلق البندقية في غبش المساء، بل أحست ضربة ساخنة في صدرها ولظى نار في رأسها. وانحرف جناحاها وأسرع شوكسيلفر والصغير لتغطية جسمها الذي يتدفق منه الدم. وبدا انها عرفت بوجودهما هناك، اذ انها فتحت جناحيها وارتفعت قليلا في الهواء قبل ان تهوي الى الارض. وهكذا انطفأت نايتوينغ جوّالة الآفاق.

وصاح أحد الصيادين في رفيقه: "أرأيت ما حدث؟ لقد صلبتُ ذلك الطائر على الشمس الآفلة. وكانت تلك طلقتي الأخيرة."

وأجابه الصياد الآخر: "انها خرشنة. والحق اني لم أصد واحدة منها قط."

ولم يُنْهِ كلامه حتى برزت ثلاثة طيور من المستنقع واتجهت مباشرة نحو الصيادين. وشرع هذان في الركض فسقطا أرضاً وأخذا يشتمان. وانقضّ منقار على وجه أحدهما وأحدث شقاً في خده طوله خمسة سنتيمترات. وانطلق الرجل بسرعة وهو حاني الرأس فيما عبر طائر آخر ضارباً وجهه. وظل الطائران يتعقبان الصيادين مسافة كيلومتر عبر المستنقع. وفجأة اختفيا كما ظهرا.

وطار الاثنان ببطء في قبة السماء وبينهما مسافة ثلاثين سنتيمتراً. وعلى ارتفاع ٣٠٠ متر حاذَيا جناحاً بجناح وأخذا يهبطان نحو المكان الذي قضت فيه نايتوينغ وقد أتى عليهما الغيظ والضياع. واحتضنها كل منهما بدفء جناحيه الممدودين. وبعد حين سمعا صوت هوكويند يدعوهما من ظلمة السماء فانضما اليه. ولما بلغا المدى الفسيح الأدكن أخذت السماء تمطر.

وأحس شوكسيلفر دافعاً ملحاً الى الهجرة، وأيقن أنه لا يستطيع إرجاءها هذه المرة. وشاركه صغيره في هذا الشعور. ومدّ جناحيه وسط الريح العاصفة فأحسّ القوة فيهما وفي عضلاته. وذات فجر رمادي من شهر سبتمبر (أيلول) انضم اليهما هوكويند وبدأ الرحيل جنوباً. وكان ذلك موسم الهجرة الاول والاخطر بالنسبة الى الصغير.

الانفجار الكبير

كان طول ناقلة النفط "فايردراغون" ٣٠٠ متر وقد حُمِّلت ١٤٠ الف طن. وخلال

عبورها المحيط الاطلسي نجت من الامواج الجبارة والرياح العاتية التي لا تكف عن الهبوب. وبقي أمامها يومان لبلوغ محطات التكرير عند مصب نهر التيمس. الا ان احداً من بحارتها المرهقين لم يلاحظ الانبوب الراشح تحت الوقاء الفولاذي في مقدمها ولا رائحة بخار النفط الخام المتجمع هناك.

وفجأة حصل انفجار تبعه اندلاع نار. وأخذ النفط يتدفق بالاطنان على دفة السفينة. وارتج بدنها واندفعت حمولتها الى الماء.

وقبل حدوث الانفجار كان الطائر الصغير يراقب السفينة. ودنا من الزبد الأبيض المتراكم عند مقدمها كما لو كان يتوقع العثور على انقليس رملي عند الامواج المتكسرة. ورأى شوكسيلفر ما يجري، فأطلق صيحة انذار لصغيره: "كي!" واتجه نحو اليابسة. وتردد الصغير قليلا وهو يعلو رويداً رويداً حتى كاد ان يلامس ألسنة النار. الا أن الانفجار الذي حدث أرغمه على الهبوط وهو لا يعي الا الخدر في جسمه وظلمة البحر حوله.

موعد بين الغيوم

على الساحل الى الشرق من بنزانس قرية صغيرة يسكنها صيادو السمك. الا أن الصيد لم يكن ممكناً قبل ازالة النفط الذي لوث المياه. وهكذا شرعت العائلات الاربع والعشرون التي تعيش هناك في العمل. وبين القرويين فتى يدعى جيمس كان يعمل النهار كله وهو يحمل مجرفة ودلواً لرفع الاوحال والرواسب. وخلال مدّ العصر ذات يوم رأى جيمس عصفوراً صغيراً أسود يصفق جناحيه في بركة من الماء الصافي. والتقطه بيده وركض به على الشاطئ بعدما احتضنه في دفء ثيابه. وما لبث ان وصل الى البيت، وهو كوخ قديمٌ في أعلى البلدة.

وأمضى جيمس ساعتين مع أمه وهما يحاولان ازالة النفط عن ذلك الجسم الضئيل بخرقة أشبعت مادة لتنظيف الثياب. وفاضت عينا العصفور دمعاً حين لسع المنظف والقار جلده. وفتح منقاره ليندلق منه سائل أسود. ولما فرغ الفتى وأمه من عملهما استحال العصفور كتلة بنية مصفرة وهو من الضعف بحيث لا يستطيع الوقوف أو رفع جناحيه او فتح عينيه.

وقالت الأم: "انه من فصيلة الخراشن، ولا أظنه سيعيش. ولكن احمله حالا الى زريبة الارانب وضعه على سرير من التبن النظيف. وغداً نرى كيف تصير حاله."

ولما طلع الصباح أسرع جيمس الى الزريبة وقلبه يخفق، وتسلل الى الداخل بين الاسلاك. وهناك وجد عينين مشرقتين تحدقان اليه. ولئن ظل الفرخ غير قادر على الوقوف لكن رأسه كان منتصباً. وما ان شاهد الفتى حتى أطلق صيحة دفاع.

وعلى طاولة الفطور سأل جيمس أمه: "أأنتِ متأكدة من أنه ينتمي الى الخراشن؟ انه يبدو لي أشبه بالسنونو. فذيله مزدوج وطويل."

وأجاب والد جيمس: "هذا هو الفرق بين الخراشن والنوارس."

لكن جيمس قال باصرار: "انه يبدو كالخطّاف. فلماذا لا نسميه خطافاً بحرياً؟"

وفي اليوم الثالث قبل العصفور طبقاً من سمك الاسقمري. ولدى نهاية الاسبوع الاول صار يأكل عند الفجر والغسق وحاله تتحسن باستمرار. غير انه غدا هادئاً على بعض نكد في الاسبوع الثالث وهو يحرن امام السمك المقدم اليه. وفي نهاية ذلك الاسبوع ظهر الخمول في عينيه.

وسأل جيمس أباه عما يجري. فأخذ الرجل يد ابنه بيده وقال: "ألا تتذكر يا جيمس ذلك الكتاب الذي قرأته عن طيور البحر؟ ألم تجد فيه أن الخراشن تقطع مسافات تتجاوز ما يقطعه أي طائر آخر؟ انها تتبع الشمس سنوياً من القطب الى القطب. ولقد مكث عصفورك هذا طويلا في الشمال."

وبعد هنيهة قال جيمس: "أظن أني عرفت المشكلة يا أبي: هذا العصفور يحتاج الى الحرية."

وربت الوالد كتف ابنه وقال: "أجل يا بني، أنا أوافقك الرأي."

وقبل ان يستيقظ الوالدان في الصباح التالي هرع جيمس الى زريبة الارانب وفي عينيه غشاوة حمراء. لقد شق عليه التخلي عما أحبه واعتنى به. ومد يده الى العصفور وتحسس حرارة صدره. وتبللت عيناه دمعاً.

وهمس: "اعذرني لابقائك هذا الوقت كله أيها العصفور الصغير." ووضعه على راحته وأضاف: "أرجوك أن تطير الآن."

وبرفّة جناح حلق العصفور الى السماء. وراح يعلو ويحوّم دائرياً وسط الريح.

وقال جيمس: "حقاً انك تبدو مثل سنونو. ولم أخطىء حين دعوتك خطافاً بحرياً."

وأجهد نفسه لملاحقة الطائر الصغير وهو يختفي بين الغيوم. ولم يصدق ما رآه من خلال دمع عينيه، اذ لاح له طائران آخران يندفعان نزولا نحو الصغير. وبعد قليل اختفى الثلاثة في قبة السماء.

الريح والرمل والبحر

شقّ شوكسيلفر الطريق جنوباً وانطلق الطائران الآخران وراءه كالسهم. وعلى الميمنة امتد الجزء الاخير من اليابسة وهو منطقة وولف روك حيث حلقت الطيور نحو ساعتين قبل ان تبلغ المحيط. وظهرت كوكبة الجوزاء، وهذا يعني أن الطيور تأخرت في هجرتها. الا ان ذلك لم يجعل شوكسيلفر يضلّ الطريق. فالمسافة التي قطعها في حياته فوق الاطلسي شمالا وجنوباً بلغت ٨٠٠ الف كيلومتر. وتولدت لديه حاسة تمييز دقيقة بين الشمال الجغرافي والشمال المغناطيسي.

ولو باشرت الخراشن رحلتها في اول الموسم لتوقفت أياماً في منطقة بريتاني الفرنسية طلباً للغذاء والراحة قبل اجتيازها خليج بيسكاي. لكن الرحيل المتأخر منعها من ذلك. وهكذا حلقت فوق الخليج حتى ظهرت أمامها جبال غاليسيا في طرف اسبانيا الشمالي الغربي. وتوقفت هناك قليلا لصيد السمك، ثم طارت وسط هواء الخليج الدافىء. وتوجه شوكسيلفر الى الشرق بعيداً عن قلب المحيط. وبعد قليل برز خط بني يشبه ظهر حوت أفضى الى أهوار خضراء. انه هور لاس ماريسماس الضخم جنوب مدينة اشبيلية الاسبانية. وهو نقطة الاستراحة

الاخيرة لطيور البحر المهاجرة في اوروبا الاطلسية. وبعدما تأكد شوكسيلفر من أن فرخه استجمع القوة الكافية، انطلق الثلاثة نحو شمال افريقيا وهي البوابة المفضية الى أرض الشتاء.

وحلّقت الطيور فوق رمول الصحراء الغربية القاتمة. وكان الهواء رطباً فوق سهول الساحل، الامر الذي جعل الطيران شاقاً. وامتدت في المدى أشجار المنغروف الاستوائية في دلتا النيجر. وكانت الطيور قطعت مسافة ٦٥٠٠ كيلومتر منذ بدء رحلتها، ولكن بقي عليها ان تقطع مسافة أطول. والحق ان هذا يصح على شوكسيلفر وفرخه. أما هوكويند فبات على قاب قوسين من مقره الشتائي. ولما صار بين صحراء ناميبيا ورأس الرجاء الصالح خارت قواه وابتعد عن البحر نحو اليابسة. وبلغته من فوق أصوات رفيقيه: "كيراي... كي... كي!" لكنه بات عاجزاً عن التحليق معهما. وهوى الى العشب. وتلك كانت المرة الثانية والعشرين يذهب الى مأوى الشتاء.

ولما اجتاز الطائران الآخران افريقيا صبّ عليهما المحيط الجنوبي جام غضبه. وجعلا يصارعان رياح ديسمبر (كانون الاول) العاتية التي يتميز بها ربيع القطب الجنوبي. وأتى الارهاق على الصغير، لكن المياه تحته ما لبثت ان أصبحت زرقاء فاتحة. وبانت أعشاب البحر تحت صفحة الماء، علامة على بلوغ المياه الضحلة. وكان ذلك عند جزيرة درايغالسكي التي تطفو حولها الثلوج... لقد بلغت الرحلة نهايتها.

وكان الطائر الصغير الذي سماه الصبي جيمس خطّاف البحر بلغ شهره السادس وقطع ١٥ ألف كيلومتر من مسقط رأسه الاسكوتلندي. وهكذا أكمل رحلته الاولى الرئيسية وهو يتبع الشمس والغريزة وإرشادات أبيه شوكسيلفر. وراح الاثنان يرعيان المياه الغنية بالسمك حتى استعادا قوتيهما. واسترد جسداهما الوزن المفقود في صيف الجنوب القصير.

وفي مطلع يناير (كانون الثاني) سقط عنهما الريش القديم، الامر الذي ولّد لديهما مشقة في التحليق. ولكن بعد الدفء الضئيل الذي بثه صيف القطب نبت لهما ريش جديد. ومع انتهاء فبراير (شباط) استأنفا التحليق اليومي وظلا يفتذيان على الاسماك فيما النور لا يبارح السماء. وفي تلك الاثناء غدت الخراشن الصغيرة فضية اللون بحيث لا يمكن تمييزها عن الكبيرة، لكنها لم تكتسب القدرة على التناسل بعد. وحل شهر مارس (آذار) وهو موعد العودة شمالا.

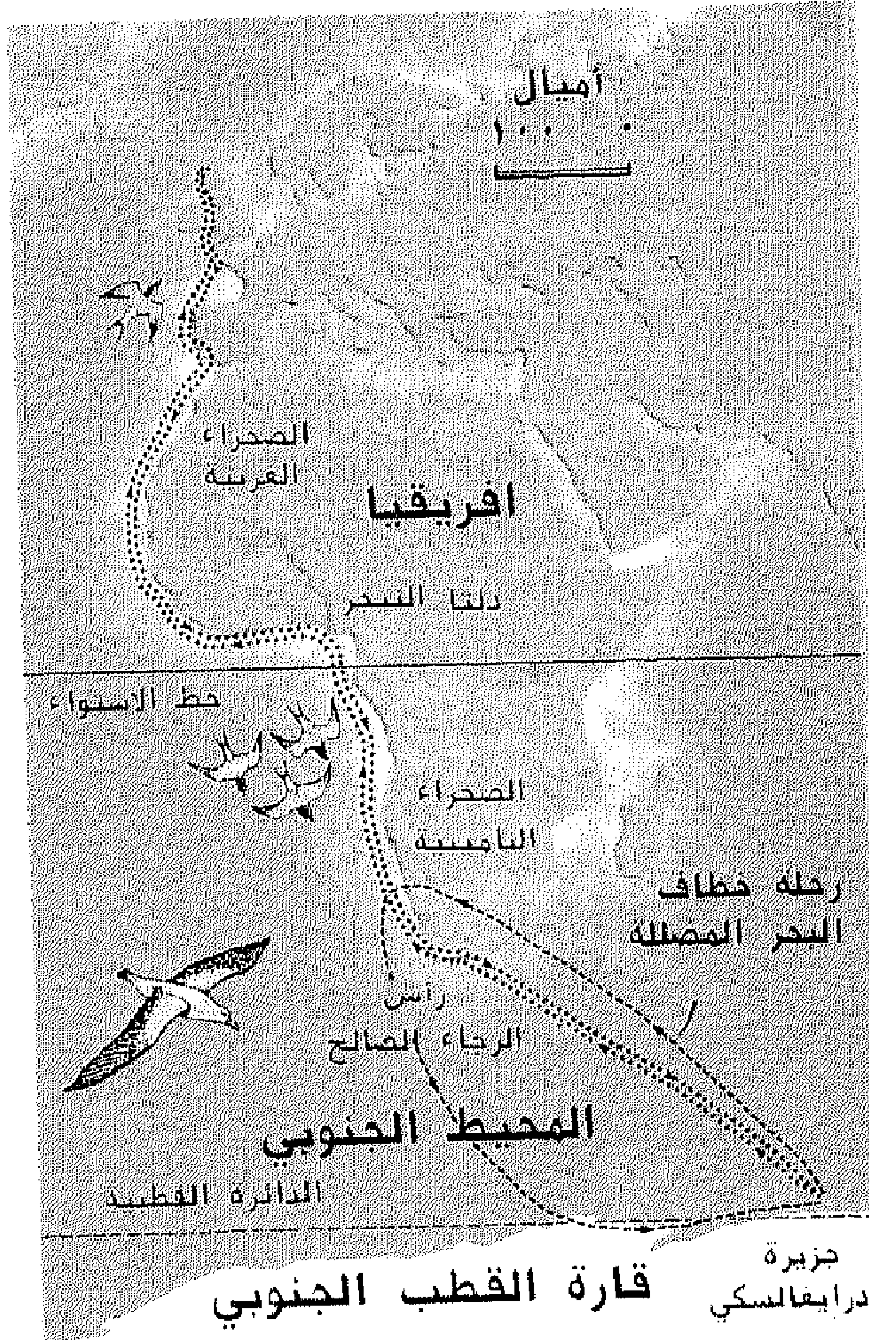
الطائر الضال

فوق صخور درايغالسكي التي يغطيها الثلج، راحت الخراشن الكبيرة تبحث عن شريكاتها وعن رفقاء السفر استعداداً للرحيل وسط الريح الغربية الشديدة. الا أن خطّاف البحر وأمثاله لم يَعْنِ الشمال لها شيئاً. لذلك آثرت البقاء فوق الشطآن الجنوبية المنعزلة.

وقطع خطّاف البحر مسافة قصيرة مع أبيه. لكن شوكسيلفر ما لبث أن اندفع الى الامام فيما وجد الصغير نفسه وحيداً.

والواقع ان خطّاف البحر طار شمالا،

ولكن ببطء وبلا هدف. وضلّ طريقه فوق المياه الباردة بين القطب الجنوبي والقارة الافريقية. وطوال مايو (أيار) ويونيو (حزيران) ويوليو (تموز)، وهي



أشهر الشتاء الجنوبي، تابع رحلته الشاردة. وتردد قليلا في الريح الشديدة فوق جنوب افريقيا قبل ان يتابع طريقه شمالا حتى مدار الجدي هرباً من ليل الجنوب وسعياً الى اسراب السمك في تيار بنغويلا على ساحل افريقيا الغربي.

وفي سبتمبر (ايلول) حمل الطقس المعتدل وتغير الريح خطّاف البحر بعيدا عن خط الاستواء. وطار بخفة نحو الهواء المنعش طمعاً بصيف جنوبي جديد. وفي بداية نوفمبر (تشرين الثاني) ركب الرياح الدائمة عبر خط بحري ضيق يمتد بين ٤٠ و٥٠ درجة من خطوط العرض. وهناك أخذ التعب اليه سبيلا. فهو استهل رحلته باكراً ولم يكن معه رفيق من جنسه. لكنه كان يجد الى جانبه أحياناً طائرا بحرياً من فصيلة الجلَم او النَّوء لا يلبث ان يختفي كما ظهر.

وشعر الطائر الصغير بالجوع وهو يحلق وحيداً في الغسق الجنوبي ويجهد للوصول الى تلك البقعة الشاسعة التي يتلاقى عندها الجليد والماء وتبلغ مساحتها ٣٠ مليون كيلومتر مربع. وهي عينها نقطة الاتصال بين المياه الجنوبية الباردة والمياه شبه القطبية الدافئة. وأخذ الثلج يتساقط ومجال الرؤية يقصر. وأجهد خطّاف البحر نفسه لمتابعة طريقه جنوباً.

وفجأة اختفى الثلج، لكن الريح بلغت أشدها. وخار الطائر الصغير وسقط نحو الامواج. واستراح فوقها وهو يصغي الى هدير المحيط الاطلسي الذي يهزأ به وبكل شيء.

القطرس

لم تكن الريح العاتية تعني شيئاً لطائر القطرس الكبير غريباك الذي تبلغ المسافة بين طرفي جناحيه ثلاثة أمتار وخلال سنيه الاربعين بات يعرف عن الاجراف الثلجية أكثر مما عرفه أي طائر سواه. وكانت الاطراف الجنوبية للمحيطات الثلاثة الكبرى أرضا أليفة

بالنسبة اليه. وظل يقطع المدى وينظر الى الثلوج المتكسرة على الشواطىء تحته. وعلى بعد ١٥ كيلومتراً من الشاطىء لاحظ جسماً صغيراً بين الزبد الابيض. ورأى ذلك الجسم يتحرك. وباشر هبوطه وهو ينحرف من جانب الى آخر، ثم أطلق صيحة حادة: "غراه!"

وسمع خطّاف البحر الصوت. ونظر الى مصدره ليرى الطائر الضخم. وهاله المنظر، ونشر جناحيه ثم أطلق صيحة الدفاع الخاصة بالخراشن: "تشي... تشي... تشي!" وبعد ذلك دلى رأسه بوهن. وارتج الهواء فوقه فيما عبر القطرس.

وعاد غريباك ليطلق صيحة جديدة. لكنه لم يسمع جواباً هذه المرة. ونظر الى الطائر الصغير وهو يحاول الارتفاع ثم يهوي الى الماء. وكان القطرس شاهد ذلك المنظر مراراً، وهو منظر الطيور الصغيرة المهاجرة التي تستسلم للارهاق من غير ان تدري أنها قريبة جداً من الامان.

واستدار غريباك وخفف سرعته كثيراً وهو يجد نفسه بين جدارين من المياه الخضراء. وكان ذلك ينطوي على خطر كبير بالنسبة الى طائر كالقطرس ليست لديه المرونة الكافية في عضلات الصدر لتبديل حركاته بسرعة. ولكن طالما واجه الاخطار البحرية قبل ذلك الحين.

ولم يدرِ خطّاف البحر كيف وقع تحت التأثير المغنطيسي للقطرس. وضربت قائمتاه صفحة الماء وانتصبت كتفاه، ثم طار وفي جناحيه المرتجفين بعض ألم. غير انه استطاع مرافقة الطائر العملاق وسط الريح العاصفة. ووجد القطرس مكاناً على اليابسة يأوي اليه. واستسلم خطّاف البحر ساعات للنوم فيما الشمس تدفىء الهواء. ولما أفاق في ذلك الغسق الجنوبي وجد غريباك الى جانبه.

وخلال الشهر التالي بينما خطّاف البحر يستعيد قوته راح يسعى الى السمك مع غريباك على الساحل الممتد بين جبال نابيير وجرف شاكلتون الجليدي. وكانت معظم الاسماك من القشريات البحرية التي اغتذت عليها طيور البطريق ايضاً. وذات يوم شاهد الطائران الرفيقان سرباً من البطريق يندفع عن الجليد. وراحت أفراده تؤدي حركات بهلوانية وهي تتجه نحو الاسماك لتضربها بمناقيرها.

وكان هناك ذكر فقمة يختبىء في الظلام بانتظار اللحظة المناسبة للانقضاض على الطيور. وما ان عبر سرب البطريق فوقه حتى قضى على ثلاثة منه وأخذ الرابع بين أسنانه.

في تلك الاثناء كان خطّاف البحر والقطرس بالقرب من الطوف الجليدي يلتهمان القشريات. ولم يلاحظ أي منهما ذكر الفقمة وما فعله. وطار غريباك وحيداً بينما ظل فرخ الخرشنة على الجليد وهو غافل عن ظل الحيوان البحري المفترس. ومن حسن الحظ ان غريباك رآه وحاول تأجيل هجومه بنزوله الى الماء ووقوفه على بعد متر او نحوه منه. وفي تلك اللحظة نهض خطّاف البحر وطار بعيداً.

وغدا غريباك هو الهدف. وكان صادف عدداً من آكلات اللحوم ولاحظها وهي تلتهم ضحاياها بسرعة. وكاد ذكر الفقمة أن يجهز عليه لو لم يهب خطّاف البحر الى



نجدته في الوقت المناسب بمروره سريعاً فوق رأس الفقمة. واستغل غريباك الفرصة لنشر جناحيه والفرار من هناك.

ولبث غريباك وخطّاف البحر أشهرا ثلاثة يطيران معاً. وفي أواخر شهر فبراير (شباط) أحسّ الخطّاف دافعاً يقصيه عن ذلك المكان وعن طائر القطرس.

شراكة حياة

من مكان ما في سماء العشية جاء صوت خرشنة وحيدة. وكانت قبل عام، خلال هجرتها الطويلة الاولى جنوباً، فقدت افراد سربها واحداً واحداً. فهناك ثلاثة منها لم تستطع الذهاب أبعد من خليج بيسكاي لأن الريح كانت أقوى من أجنحتها الصغيرة. وقضى رابعها بين مخالب صقر والخامس في جوف سمكة قرش في خليج بنين.

وحدها كيلدا وصلت الى القطب الجنوبي وهي في قياد الخراشن الكبيرة التي رافقتها من جزيرة درايغالسكي وسط العواصف الثلجية قبل ان تضلّ الطريق. ومع شمس آخر مارس (آذار) الضعيفة بات لزاماً على كيلدا أن تعود الى الجزر الاسكوتلندية. لذلك راحت تطلق صيحاتها وهي تنتظر ان تجد أحداً من جنسها.

وانطلق خطّاف البحر في أثر صوت الانثى. ورآها فوق فاندفع عالياً وخلّف غريباك على الطوف الجليدي. ولما رأته يقترب حيته بصوت لم يسمع مثيلا له منذ سنة. وأطلق صوته وهو يحلّق في دائرة تبعد ستة أمتار عن كيلدا. ثم انطلق الاثنان معاً في اتجاه الشمال.

ونظر خطّاف البحر مراراً نحو الطوف الجليدي. الا أن القطرس لم يتدخل، بل تركه يحلق مع رفيقته بحرية وهو يعرف انه لن يعود. ونشر غريباك جناحيه وطار في الفضاء الواسع.

لم يكن اجتياز بحار الجنوب بالامر السهل. وشق الطائران طريقهما شمالا عبر إعصار رافقه سقوط وابل من البرَد، الامر الذي أفقدهما القدرة على التحليق المنخفض الثابت. غير أن الرفقة منحتهما العزم. وفي تلك الهجرة تأسست بين الاثنين شركة دامت مدى الحياة.



شمالا نحو المحيط الاطلسي. وأحس خطّاف البحر غريزياً أنه على وشك انهاء هجرته الطويلة، اذ لم يفصله عن غايته أكثر من ١٥٠٠ كيلومتر. وكان عليه اجتياز بحر المانش (القناة الانكليزية) والساحل الغربي لبريطانيا. وهناك تستطيع الطيور الاربعة تحرّي أسراب السمك على امتداد الطريق الى اسكوتلندا.

ولم يلبثا أن بلغا الاجواء الافريقية التي امتلأت ذلك الوقت بأسراب الطيور المهاجرة. وفي مكان لا يبعد عنهما كثيراً حلق زوجان آخران من الخراشن يجمع بينهما رباط من نوع آخر. وكان ذانك الطائران هوكويند وشوكسيلفر. أما هوكويند فقد أتى عليه عياء السفر وهو في رحلة العودة الثالثة والعشرين. وأما شوكسيلفر فقد حلّق أمامه بجلال وهو يراقب كل شيء حوله ويتنصت الى كل صوت. وفيما هما يبتعدان عن الفضاء الافريقي شاهدا طيفين في شمس العصر الآفلة وسمعا أصواتاً ضعيفة: "كيـ...ياه!" وبعد قليل باتت الطيور الاربعة معاً وهي ترتفع في قبة السماء.

وتابعت الخراشن الاربعة طريقها

نهاية وبداية

قاد شوكسيلفر جماعته شرقاً. وهبت ريح صيفية من الجنوب. وارتفعت الامواج المزبدة فوق الصخور عند الاجراف الاسكوتلندية المظلمة. لكن هبوب الريح اعتدل بالقرب من الشاطىء، وشقت الشمس حجب الغيم. ولدى الاقتراب من مصب نهر الرجاء أمكن الطيور الاربعة أن ترى أسراب السمك من اللبروس والقُد فوق آلاف الاصداف. وظهرت شقائق البحر الهلامية كالازهار بين الاعشاب البحرية.

على ارتفاع ٨٠٠ متر فوق البحر كانت أنثى من فصيلة الباز الجوّال تحلّق مع فرخها بعدما راقبت الخراشن الأربعة على مسافة طويلة. ولم يخفَ الأمر على شوكسيلفر، لكنه لم يجد فيه خطراً الا بعد فوات الأوان. وكانت كيلدا مسترخية وهي

تراقب حركة السمك في الماء. وسمعت صيحة خطاف البحر، غير أنها تجاهلتها الى حين.

ونزلت أنثى الباز من السماء وانقضت على كيلدا ثم أنشبت براثنها في عنقها وصدرها. وارتفعت بها ستة أمتار قبل أن ينقرها خطاف البحر في عينيها. وانضم اليه شوكسيلفر وهوكويند الذي نسي ارهاقه وأنشب منقاره في عنقها في الوقت الذي ضرب خطاف البحر عينها اليمنى بكتفه. وهكذا تركت ضحيتها وعادت الى الفضاء.

وهوى جسد كيلدا على المياه المزبدة تحت الأجراف. واستقرت على صخرة هناك. وحرّكت رأسها وفتحت عينيها، لكنها أحست ألماً شديداً في عنقها وصدرها. وغسل الموج المالح جرحاً في ظهرها. وحملتها موجة الى أعلى تلك الصخرة. ولما انحسر الزبد وجدت خطّاف البحر بجانبها، فاطمأنت وزال خوفها.

وفي تلك الاثناء انطلق شوكسيلفر وهوكويند في أثر الباز الصغير وهما يضربانه بقوة. وغفل هوكويند هنيهة استطاعت الام خلالها أن تظفر بقطعة لحم من عنقه. وبعد ذلك اندفعت نحو الارض مسافة ٣٠٠ متر.

وترنح هوكويند على أثر الضربة وتدفق الدم من عنقه الى ظهره.

وهكذا انتهت رحلته الطويلة.

وذات يوم من يونيو (حزيران) عبرت كيلدا فوق بحيرة لوبال وهي تضرب صفحة الماء ببطنها مخلّفة خطاً مزدوجاً وراء ذيلها. وتبعها خطاف البحر وهو يقلد حركاتها كما لو كان ظلاّ لها. وأخذ ينقر جسدها برفق وهما يتابعان طريقهما في شمس الصباح.

وبلغا الطرف الجنوبي حيث برزت لهما جزر خليج تونغ. وقفزت سمكة من السلمون تحتهما وأسرع سرب من الاسماك مذعوراً تحت صفحة الماء. وفي تلك اللحظة انقضّ خطاف البحر وقد عين هدفه.

وقبل ان تستطيع كيلدا الدوران كان شريكها الى جانبها. وراحت تنقل انظارها باعجاب من الغنيمة الفضية التي حملها معه الى جلال جسده. وازداد اعجاب كل من الطائرين بالآخر، الا أن الجماع بينهما لن يبدأ قبل سنة. والمهم أولا ان يبرهن واحدهما عن ولائه للآخر. واذا قيضت لهما النجاة خلال موسم الهجرة التالي، فسيصبحان زوجين تامين.

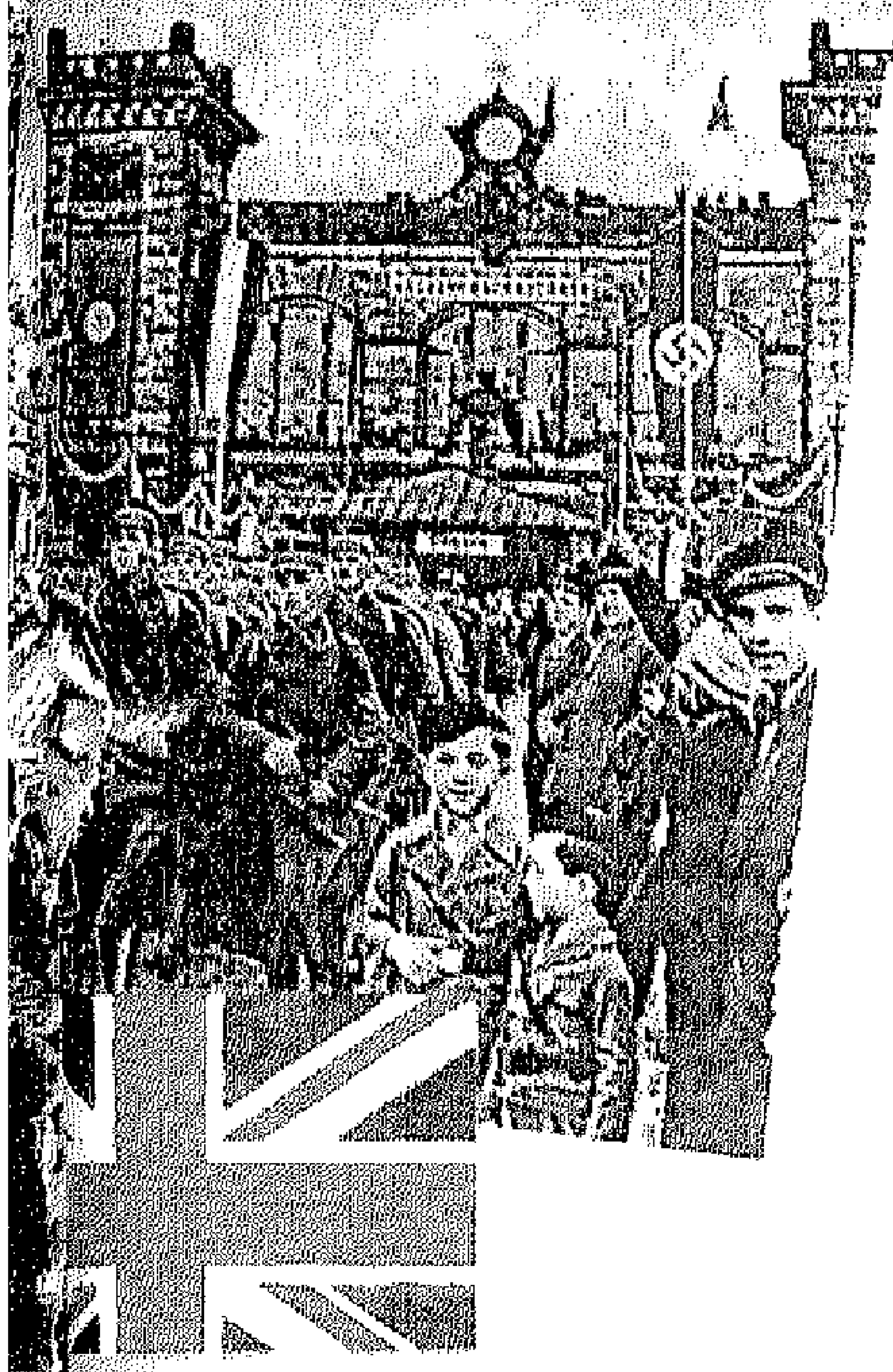
وبعد أشهر ثلاثة ارتفع خطّاف البحر عالياً في الهواء حتى شاهد شمس الضحى ترسل أشعتها البرتقالية الى الجبال والبحر. واتجه نحو اليابسة لالقاء نظرة أخيرة على المستنقعات والتلال. وفي تلك الآونة كانت شمس سبتمبر (أيلول) تفقد حرارتها. وأدرك خطّاف البحر أن وقت العودة حان بعدما رحلت أسراب الطيور.

وسمع نداءً من البعيد وهبّ الى ملاقاته. وكان ذلك نداء كيلدا آتياً من قمة الجبل، وجنباً الى جنب انحدرا الى الوادي استعداداً للرحيل جنوباً. وربما جمعتهما تلك الرحلة بأفراد من فصيلتهما، وربما لم تفعل.

ومهما يكن الأمر، فلن يبقى أي منهما وحيداً.

■ جيريمي لوكاس

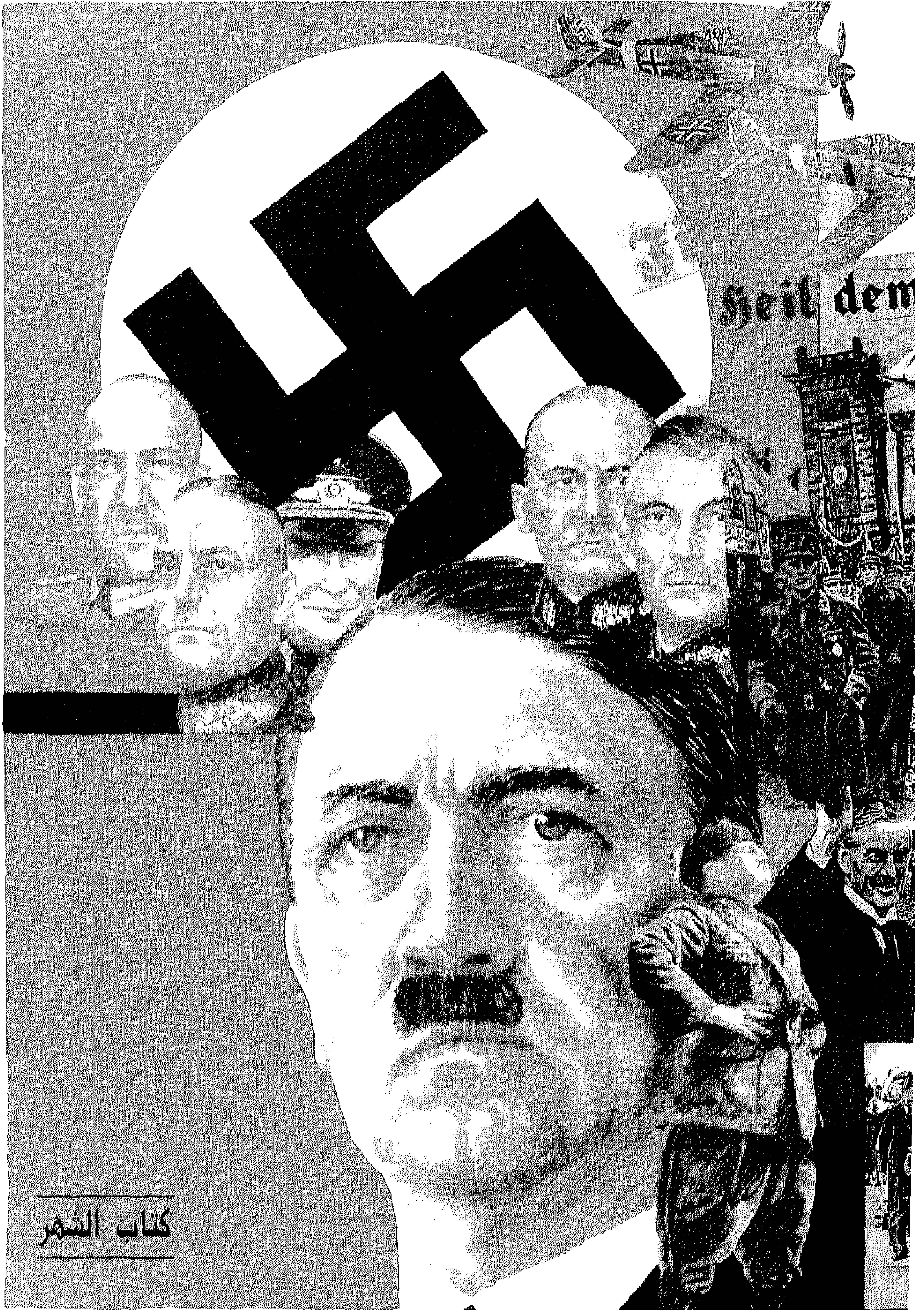
زمان هتلر

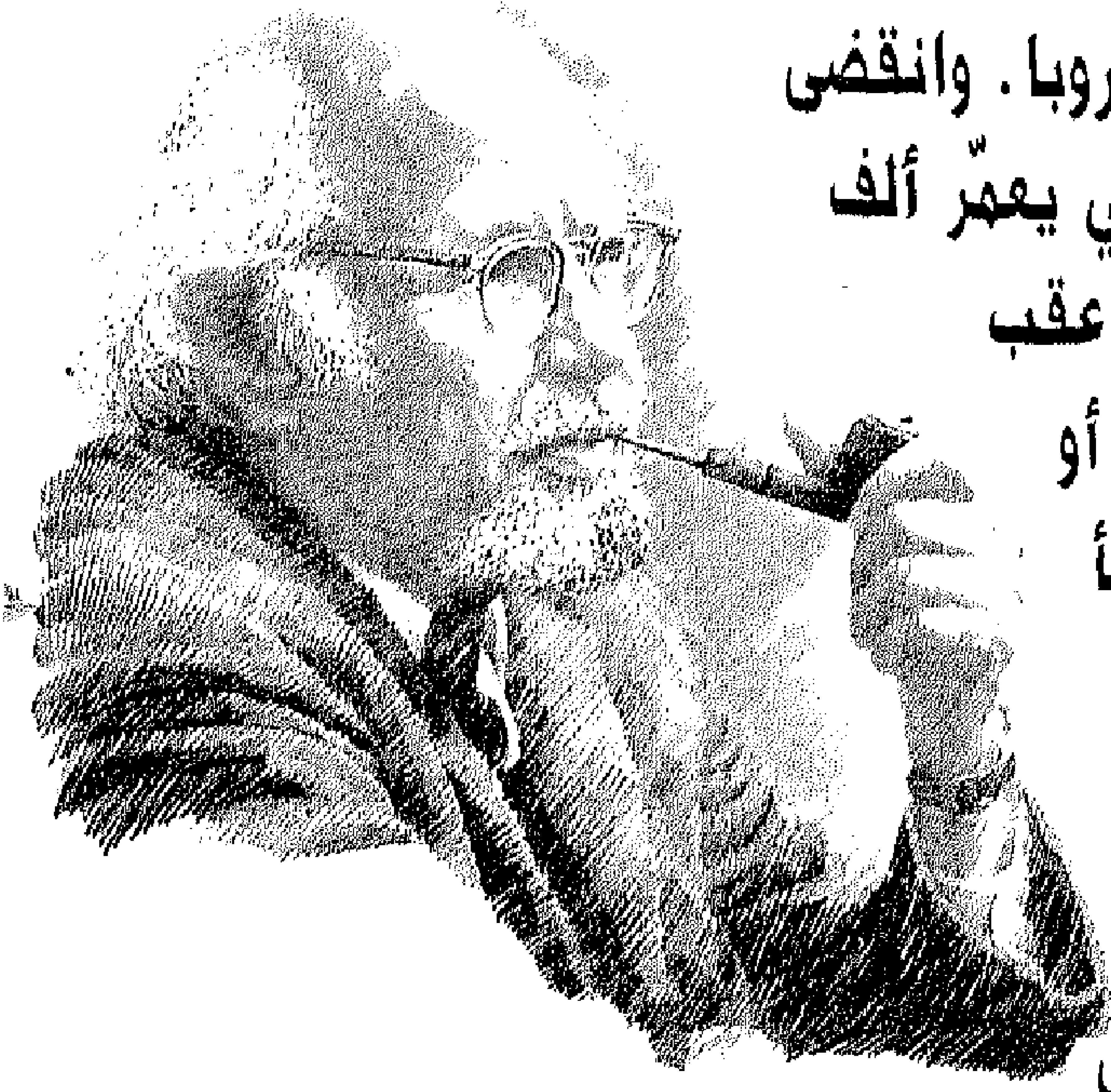


ملخص من كتاب بقلم وليم شايرر



Condensed from «20th Century Journey, Vol II The Nightmare Years, 1930-1940,» copyright © 1984 by William L. Shirer, published by Little, Brown and Co., Boston, Mass.


Heil dem
كتاب الشهر



في مايو (أيار) من هذا العام مرّت أربعون سنة على انتهاء الحرب العالمية الثانية في أوروبا. وانقضى حلم أدولف هتلر بإقامة نظام سياسي يعمّر ألف سنة، وغدت مدن المانيا حطاماً عقب الحرب، ولقي القادة النازيون حتفهم أو زُجوا في السجون. ولكن كيف نشأ الصراع وما هي جذوره؟ مؤلف هذا الكتاب من أكثر الاشخاص جدارة بالاجابة عن أسئلة من هذا النوع. وهو كان مراسلا صحافياً واذاعياً في تلك الأثناء، وتنقل بين فيينا وباريس وجبهات الحرب المختلفة. لكنه أمضى معظم وقته في برلين، يغطي أخبار هتلر وانتصاراته الاولى. وغدا كتابه "قيام الرايخ الثالث وانهياره" حجة في الموضوع. وفي هذا الجزء الثاني من مذكراته التي لقيت رواجاً كبيراً، يعود الى الأحداث التي رافقت بداية حياته كزوج وأب وصحافي يشق طريق النجاح. وهذه الذكريات كلها مرتبطة بالزعيم النازي ومحاولته السيطرة على أوروبا والخراب الذي جرّته تلك المحاولة

زمان هتلر

Illustrations: Christopher Calle. Photo Insets: Wide World Photos; UPI / Bettmann; U.S. Army Signal Corps; Ullstein Bilderdienst

"برلين، ٢٥ أغسطس (آب) ١٩٣٤ - غداً يبدأ فصل جديد بالنسبة اليّ..."

لم أعرف وأنا أكتب ذلك السطر على عجل في مفكّرتي مساء وصولي وزوجتي من باريس الى برلين أنه سيكون فاتحة فصل طويل ومرعب. وبالنسبة اليّ والى الملايين سواي على هذا الكوكب الصغير، كان العقد الممتد بين ١٩٣٠ و١٩٤٠ زمناً من الاضطراب المتفاقم. وغدا عملي كمراسل صحافي أمريكي في أوروبا وآسيا متعلقاً أكثر فأكثر بالثورات والانتفاضات والتعصب والعنف. ولا بد للمراقب من أن يجد في هذه الامور دلائل حتمية على وشوك اندلاع الحرب.

تلك السنوات كانت أشبه بكابوس. وكان لي من العمر ست وعشرون سنة في بداية العقد. وخلال السنوات الخمس السابقة عملت مراسلا صحافياً في معظم العواصم الاوروبية الرئيسية، بدءاً بباريس التي وصلت اليها بعيد تخرجي في احدى جامعات ولاية آيوا.

وفي فيينا تزوجت وخسرت وظيفتي. ومكثت سنة في قرية اسبانية ساحلية. ومن هناك راقبت تداعي الجمهورية الاسبانية اليانعة وقرأت في الصحف أخبار أدولف هتلر وتوليه شؤون المانيا. وعدت الى باريس في الوقت المناسب لتغطية أخبار انتفاضة فاشية. ومن هناك توجهت الى برلين، وكانت مصدراً للأخبار آنذاك. وقد احتلت أخبار هتلر ونظامه عناوين الصحف في العالم الى حد طمسها أخبار فرنسا وبريطانيا وايطاليا الموسولينية وروسيا الستالينية.

ولم نكد نصل الى العاصمة الالمانية عام ١٩٣٤ حتى طُلب مني الذهاب الى نورمبرغ لتغطية الاجتماع السنوي الحاشد للحزب النازي. وكان ذلك خير مدخل الى عالم الرعب الذي باشر أدولف هتلر تأسيسه. وطوال أسبوع من شهر سبتمبر (أيلول) ذاك تسنى لي أن أراقب عن كثب ذلك الرجل الغريب الذي عدّه الكثير من الالمان عبقرياً ومنقذاً، وفي طليعتهم مئات الالوف من قادة حزبه وأعضاء فرقه الشعبية ذوي القمصان البنية وفرقه الخاصة أو النخبوية ذوي المعاطف السود.

وتوقع الكل أن يكتسي اجتماع سبتمبر (أيلول) أهمية خاصة، لا بل أن يكون متفجراً. فقد كان صيف ١٩٣٤ دموياً وحاسماً بالنسبة الى الديكتاتور النازي. وفي ٣٠ يونيو (حزيران) أقدم هتلر على تصفية قادة الفرق الشعبية، وأولهم رئيسها ارنست روهم صديق هتلر الحميم الوحيد. وبعد ذلك أمر باغتيال عدد من قدامى الاعداء السياسيين، وبينهم سلفه في المستشارية الجنرال كورت فون شلايخر وزوجته.

وقبل مغادرتي برلين الى نورمبرغ تحسست مخاوف المواطنين من ذلك الاجتماع. وقيل لي ان هتلر كان يخشى انتقام اعضاء الفرق الشعبية لقادتهم المغدورين. وكانت تلك الفرق على الدوام بمثابة العمود الفقري للحركة النازية بعدما أعانت زعيمها على تسلم مقادير البلاد. اما الآن فقد تولد لديها شعور بأنه خانها.

والواقع ان الايام الاولى التي أمضيتها في برلين ولدت في نفسي انقباضاً ربما

كان مصدره معرفتي المدينة في عزها السابق. وعجت في رأسي الذكريات، حين كنت أصرف الليل بطوله في مقاهي الارصفة مع شبان من جيلي ونبحث في أي موضوع بلا قيد ودونما اكتراث. وبدا لي أحياناً أن الحياة في برلين أكثر حرية وإثارة منها في لندن وحتى في باريس. اما الآن فقد هيمنت الفكرة النازية على عقول الكثيرين من معارفي القدامى وباتوا يحدثونني بجدية حول ضرورة تأسيس مجتمع قوي متحرر من سموم الليبرالية والاشتراكية والشيوعية. ولم أصدق أول الامر ان اولئك الالمان هم الأشخاص أنفسهم الذين أحببتهم وأعجبت بهم يوماً. وبدا أن الحرية – حرية المرء في ان يقول ويكتب ما يود ويصوّت لمن يشاء وينتمي الى الجمعية التي يختار – لم تعد تعني لهم ما كانت تعنيه. ومن حسن الحظ ان قلة منهم لم تتبدل. لكن معظم هذه القلة ظلت حريصة في ما تقول ولم تضع ثقتها في الآخرين.

[illegible]

رأيت أدولف هتلر للمرة الاولى عند غروب الشمس في الرابع من سبتمبر (أيلول). وهو دخل نورمبرغ مثل امبراطور روماني، وعلى جانبي الطريق كتائب الالمان تؤدي له التحية وتهتف بحماسة بالغة. وارتفعت في المدينة ألوف الرايات النازية، يتوسطها الصليب المعقوف، وقد رفرفت فوق المباني القوطية البديعة. وامتلأت الشوارع باللونين البني والأسود.

وارتدى هتلر معطفاً واقياً من المطر لا يختلف كثيراً عما كنا نرتديه نحن المراسلين الأجانب آنذاك. ولم يحمل وجهه المترهل أي تعبير متميز. وتساءلت عن الدافع الذي حدا تلك الجماهير المحمومة على التعلق حتى الموت بصاحب ذلك الوجه العادي الوضيع. والحق ان حماسة الناس الملتهبة صعقتني. وكنت رأيت الألوف المؤلّفة في الهند تهب لرؤية المهاتما غاندي وفي روما تزحف لتحية بنيتو موسوليني. لكن هذا الحشد كان يختلف عنها جميعاً.

ودوّنتُ في مفكرتي الآتي: "بعد أحداث اليوم الأول، بدأت أدرك بعض عوامل النجاح الرائع الذي أحرزه هتلر."

وكان الاجتماع الصباحي في قاعة لويتبولد الضخمة أكثر من عرض غني، إذ تميز بما يشبه الاندفاع الجهادي او الصوفي.

بدت القاعة بحراً من الأعلام الزاهية الملونة. وفجأة توقفت الفرقة الموسيقية عن العزف. وران سكون عميق على الالوف الثلاثين الذين غصت بهم القاعة على رحبها. ثم أدت الفرقة معزوفة عسكرية رافقت دخول الزعيم. وسار هتلر وسط القاعة وقد شخصت اليه ستون ألف عين وارتفع عدد مماثل من الأيدي.

والتمعت أنوار المصابيح المتوهجة على المنبر. وارتفعت وراء هتلر وحاشيته الراية النازية نفسها التي حُملت خلال مسيرة ميونيخ المخفقة عام ١٩٢٣. ووقف هناك نحو خمسمئة عنصر من الفرق الشعبية. ولما سكتت الموسيقى وقف رودولف هس نائب الفوهرر وتلا بجلال أسماء الشهداء النازيين من ذوي القمصان البنية الذين قضوا في الشوارع

إبان الصراع على السلطة. ولفّ القاعة صمت رافقه إحناء الرؤوس إجلالا.

ووسط ذلك الجو قرأ أحد الرسميين إعلان هتلر للشعب، الذي وصفه مكتب الاعلام النازي بأنه أخطر تصريح للفوهرر حتى ذلك الحين والذي جاء فيه: "ان طريقة الحياة الالمانية تقررت للسنين الألف المقبلة."

وصعقتني كلماته، الا أنها أثارت حماسة الجماهير داخل القاعة. ونهض الثلاثون ألفاً كلهم يحيون زعيمهم.

وفي اليوم الخامس من المهرجان عرض الفوهرر القوات الصاعقة التابعة للفرق الشعبية، وذلك للمرة الاولى بعد حملة التطهير الدموية في يونيو (حزيران).

الا أنه لم يتعرّض لأي محاولة اغتيال ذلك اليوم، كما لم يتعرض لمحاولة من هذا النوع، على حدّ علمي، طوال السنوات الست ونصف السنة التي تقيّد خلالها بالسلام. وطالما تساءل الديبلوماسيون والمراسلون الأجانب عن السبب. فقد كان اغتياله سهلا. أما عدم الاقدام عليه من جانب أقرباء ضباط الفرق الشعبية وأصدقائهم، بمن فيهم خاصة الجنرال فون شلايخر وزوجته، فيكشف الكثير عن هذه البلاد وعن سيطرة هتلر عليها.

ولدى عودتي الى برلين حاولت إعادة النظر في انطباعاتي الأولية. والواقع أن هتلر، من حيث المظهر، كان مختلفاً عما توقعت. والسر يكمن في عينيه. فهما ثاقبتان ولهما فعل المنوّم المغناطيسي. وبدا أنهما تجمدان الشخص الذي تنظران اليه، فترعبان بعضهم وتسحران البعض الآخر، ولاسيما النساء. لكنهما، في الحالين، تهيمنان على من تحدقان اليه.

وخلال وجودي في نورمبرغ كنت أرى قادة الحزب المتقدّمين في السن والذين صرفوا سنوات طويلة في رفقة هتلر تجمد أوصالهم اذا همّ الفوهرر بمخاطبة أحدهم. وظننت بادىء الأمر أن الالمان وحدهم يتصرفون في حضرته على هذا النحو. غير أني ذات يوم، خلال حفلة استقبال للديبلوماسيين الأجانب، لاحظت المندوبين الرسميين، وأحداً بعد الآخر، يقعون أسرى عينيه الثاقبتين. وكانت مرتا دود ابنة السفير الأمريكي الصغرى أوصتني، قبل مغادرتي نورمبرغ، بأن أراقب عيني هتلر. قالت: "انك لن تنساهما بعد ذلك الحين."

صوت الفوهرر

كمثل نظراته، كانت كلمات هتلر مهيمنة هي أيضاً، على الأقل بالنسبة الى الالمان. وطالما بدت لي أفكاره تافهة. لكن الاسبوع الذي أمضيته في نورمبرغ جعلني أدرك أن المهم ليس ما يقوله، بل طريقة قوله اياه.

كان يبدأ بصوت منخفض رتيب، وهو يزن كل كلمة من كلماته. ويتحدث عن الماضي وعن بدايته الوضيعة كجندي عادي فقير في نهاية الحرب العالمية الاولى. وينتقل الى فترة الصراع التي ميزت السنوات الاولى من زعامته للحزب النازي والفوضى التي أعقبت الحرب العالمية الاولى في ألمانيا وعزمه القوي على ايقاظ أرض الآباء من ذل الانكسار ورد عظمتها الجرمانية الأصيلة إليها.

وأخبرني صحافي ألماني خبير أن صوت الفوهرر العميق ليس عطية من الله. فصوته الأصلي رفيع. لكنه تدرب خلال السنوات على تعميقه ومنحه مقداراً من الترجيع والدويّ على غرار منشدي الاوبرا.

ومع بلوغه ذروة كلامه كان صوته يرتفع تدريجاً، فيكتسب نغمة صاخبة. ثم يباشر الصياح على نحو هستيري حتى يبلغ، كما قال صحافي ايرلندي بتعبير غير محتشم، "الرعشة الصوتية الكبرى." وكان يصيب المستمعين شيء كبير من تلك العملية.

ولقد تأكدت من أمر واحد على الأقل بعد ذلك الاسبوع في نورمبرغ، وهو أننا جميعاً - ولاسيما زعماؤنا السياسيون وصحافتنا - قلّلنا من شأن هتلر وسلطانه على الأرض الالمانية. ولئن بدت أفكاره غير واقعية وشريرة في الغالب، الا انه آمن بها، لا بل تعصب لها، كما حمل شعبه على الايمان بها والتعصب لها أيضاً.

ولم أسمع شيئا في نورمبرغ عن فقدان الحرية الشخصية وبقية الحقوق الديموقراطية. ويبدو أن الالمان لم يجدوا في ذلك الأمر تضحية تذكر. فهم كرّسوا أنفسهم للفوهرر ونظامه المتسلّط. غير أن الغرب الليبرالي الديموقراطي لم يتنبه للأمر، ولا تنبّه له كذلك الاتحاد السوفييتي.

وعجبت لدى وصولي الى برلين كيف ان رسائلنا الصحافية لم تراقب، علماً أن الاعلام الالماني خضع لرقابة صارمة. وشرح لي زميل أمرا لم ألبث أن تحققت منه بنفسي، وهو أن على المراسل الصحافي أن يتحفظ حيال كل كلمة يكتبها عن النظام النازي، وإن لم يكن عليه إحالة رسالته على أي رقابة قبل إبراقها. واذا وجد هتلر أو وزير الدعاية في حكومته جوزف غوبلز لاحقاً أن الرسالة غير مقبولة من حيث كلامها عن النظام، فهذا معناه ترحيل كاتبها نهائياً من البلاد. وقررت منذ البداية أن أقول الحقيقة كما هي، على أن أرحل من تلقائي متى وجدت ذلك مستحيلا.

دائماً على حق

في ذلك الخريف والشتاء الأولين بدأ تعرُّفي الى الرجال المحيطين بالفوهرر، وأحدهم هيرمان غورينغ الرجل الثاني في النظام، وهو بدين ومحب للعيش، ويواكيم فون ريبنتروب الذي أصبح وزيراً للخارجية، وهنريك هيملر الذي أخفى تحت قناع البساطة والتواضع شخصية عنيفة. وكان هيملر هذا قائداً للفرق النخبوية الخاصة التي تتألف منها حرس هتلر والتي كانت في طور التحول شرطة قوية. ولم يكن هيملر يرتاح الى غير الألمان. وبدا لي انه غير مؤهل للترقي في منصبه. أما وزير الدعاية غوبلز فكثيراً ما كنت أراه وهو يعقد المؤتمرات الصحافية المهمة. ولم أتحمله شخصياً، ولم أختلف في هذا الأمر عن معظم الرجال المحيطين بالفوهرر. الا أن هتلر نفسه قدر ولاء غوبلز التام له، كما أكبر مواهبه وقدرته على إنجاز المهمات التي توكل اليه.

وكان سلطان غوبلز كبيراً بسيطرته على وسائل الاعلام من صحافة وإذاعة واليه كان يعود القرار الأخير في الموسيقى والكتب المسموح بها وفي معارض الرسم والنحت، كما في

المسرحيات والأفلام. وهكذا غدا الانتاج الثقافي مسيّراً من الدولة، لا بل من غوبلز بالذات.

وخلافاً لمعظم الرجال المحيطين بالفوهرر كان غوبلز ذا ثقافة جامعية رفيعة. لكن المصغي الى خطبه او قارىء كتاباته لم يكن يعثر على أثر تلك الثقافة. وبدا أنه لا يعرف شيئاً البتة عن الشعوب الاخرى. وذلك ضعف شارك فيه جميع النازيين النافذين. وطرأ لي أن ذلك الضعف لن يلبث أن يخلّف عواقب سيئة للرايخ الثالث وبقية العالم. وليس أخطر من الجهل في صياغة السياسة الخارجية. وهذا أمر أعطى ريبنتروب البرهان البيّن عليه. ومنذ معرفتي الاولى به قدرت عدم كفايته وخموله وحماقته وافتقاره الى المرح. وكان يتكلم الفرنسية والانكليزية اللتين اكتسبهما في حداثته وهو يتجول على القدمين في سويسرا وفرنسا وبريطانيا وكندا. الا أن اطّلاعه على تينك اللغتين لم يرافقه ادنى علم بتلك البلدان.

لماذا اذاً وقع اختيار هتلر عليه كوزير للخارجية؟

جوابي عن هذا السؤال كان ولاءه الأعمى لسيده. وهناك من الجنرالات من عبّر أمام هتلر عن آراء مخالفة لرأيه. لكن ذلك بالنسبة الى ريبنتروب كان بمثابة خيانة. وهو لم يشك أبداً في أن الفوهرر كان دائماً على حق.

بعد أربعة أشهر من وجودي وزوجتي في ألمانيا حان عيد رأس السنة. واجتمعنا مع عدد من الزملاء لاستقبال العام الجديد. وقر رأينا على أن هتلر، بعد إحكام قبضته على الاوضاع الداخلية في المانيا، لن يلبث حتى يوجه أنظاره الى الشؤون الخارجية. وطالما قال انه سيعيد الى المانيا مكانها الصحيح تحت الشمس. ولكن كيف؟

صبيحة ١٦ مارس (آذار) ١٩٣٥ أقدم هتلر على مفاجأة من "مفاجآت السبوت" عندما ألغى تقيده بالبنود العسكرية لمعاهدة فرساي. وأعاد فرض الخدمة العسكرية التي ألغتها المعاهدة. وأعلن عزمه على إنشاء جيش شعبي من نصف مليون متطوّع، متحدياً شروط فرساي التي حصرت الرقم بمئة ألف كحد أعلى. وكانت المعاهدة حظّرت على المانيا اقتناء الدبابات والمدفعية الثقيلة والطائرات الحربية. لكن هتلر تجاهل تلك القيود.

خطاب "سلمي"

في مفكرتي دوّنت الآتي ذلك المساء: "ما الذي ستفعله لندن وباريس في ضوء هذه الخطوة؟"

ولكن يا له من تساؤل غبي! فإن باريس ولندن لم تفعلا شيئاً. وكان في استطاعة الجيش الفرنسي وحده أن يجتاح ألمانيا، الأمر الذي يعني نهاية الرايخ الثالث ونهاية أدولف هتلر. وهذا حق للفرنسيين في حال خرْق معاهدة فرساي.

ومن أجل تهدئة الخواطر في الخارج، خصوصاً في لندن وباريس وروما، قرر هتلر اعلان تقيده بالسلام. وكان خطابه مساء ٢١ مايو (ايار) من أفصح خطبه وأبرعها وأكثرها تضليلا. وأستطيع قول مثل هذا

الكلام لأني سمعت معظم خطبه وهو كان يقول شيئاً ويفعل شيئاً آخر.

وفي صبيحة خطابه "السلمي" ذاك كان هتلر اتخذ تدابير سرية في شأن الدفاع والاقتصاد، قائمة على التنظيم العسكري الصارم والاقتصاد الحربي المتقشف. وهو تعمد حديث السلام لدغدغة مشاعر العالم الخارجي، لكنه في الوقت نفسه كان يستعدّ لشن الحرب في أسرع وقت ممكن.

قرار الاحتكام

ثم ان هتلر، قبل ثلاثة أسابيع من خطابه "السلمي" الذي تعهد فيه أن تحترم المانيا "من غير قيد ولا شرط" الالتزامات التي فرضتها عليها معاهدة لوكارنو، بما فيها جعل أرض الراين منطقة منزوعة السلاح، أصدر تعليمات لقيادته العسكرية العليا تقضي باعداد الخطط اللازمة لاحتلال أرض الراين عسكريا. ومعاهدة لوكارنو التي وقّعت في اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٢٥ تضمن سلامة حدود بلجيكا وفرنسا مع ألمانيا، بما في ذلك منطقة الراين المنزوعة السلاح وهي قطعة من الأرض الالمانية على الضفة الغربية لنهر الراين، تضاف إليها قطعة بعرض خمسين كيلومترا على الضفة الشرقية. وفي كلتا القطعتين لا يحق لألمانيا حفظ الوحدات العسكرية أو إقامة التحصينات الحربية. وهذه المنطقة المحايدة منحت فرنسا وبلجيكا بعض الحماية في وجه غزو الماني مفاجىء كمثل الذي حدث عام ١٩١٤

وكنا نحن المراسلين، لحسن الحظ، جاهلين نيات هتلر. وتناهى اليّ من حين الى آخر ان ثمة استعدادات عسكرية سرية تقوم بها المانيا في أرض الراين. وجاءني معظم تلك الاشاعات من السفارة الفرنسية على هيئة تقارير تتحدث عن مخازن سرية للأسلحة والذخائر ومطارات حربية وسكك حديد جديدة. وعلى رغم أن السفير الفرنسي كان في نظري أفضل المبعوثين الأجانب اطّلاعا في برلين، فاني لم أحمل تلك الأخبار محمل الجدّ لأسباب مختلفة.

أما اليوم فقد كشفت لنا الوثائق الالمانية التي صودرت بعد الحرب أن هتلر، في الأول من مارس (آذار) ١٩٣٦، اتخذ قرار اجتياح الراين، الأمر الذي ولّد خوفا في قيادته العسكرية العليا من أن تقضي فرنسا بسهولة على القوة الالمانية الصغيرة المعدة للتوجه الى الراين. وهزىء هتلر بمحاذير جنرالاته. وفي اليوم التالي أصدر أمرا نهائياً بالاجتياح. وعلمت في ما بعد أن الجيش الالماني كان مستعداً للانسحاب اذا واجه مقاومة فرنسية.

واستهل الالمان زحفهم فجر السابع من مارس (آذار) ١٩٣٦.

ووصف مراسلنا في مدينة كولونيا الالمانية ذلك الزحف بأنه أشبه بعرض عسكري فقد سار الجنود الالمان وراء نافخي الأبواق.

وفي كولونيا كما في سواها من المدن وقفت الجماهير المحمومة تحييهم وترشقهم بالزهر. ولم تصدر أي اشارة الى رد فعل من القوات الفرنسية عبر الحدود.

وكان اليوم سبتاً، ويبدو أن هتلر اعتاد

ترك مفاجآته للسبوت. وبما أن صحف الأحد الصباحية في الولايات المتحدة كانت تطبع باكراً، فلم أنفك عن إرسال تقريري مقطعاً مقطعاً بالهاتف الى مكتبنا في باريس كيما يتم توجيهه الى نيويورك في الوقت المناسب. وكنت كل مرة أسأل عما يزمع الفرنسيون فعله، فيأتيني جواب المراسل في باريس: "لا شيء حتى هذا الحين." وعند تحويل المقطع الأخير من تقريري ذلك المساء، جاءني الجواب:

"أن الحكومة الفرنسية اتخذت قراراً بعد الاجتماع طوال النهار بالقيادة العسكرية."

وهنا قلت: "إذاً قرّ قرارهم على الهجوم."

– لا، بل ارتأوا ألا يفعلوا شيئاً من هذا القبيل، وأن يكتفوا بالاحتكام الى عصبة الأمم.

ولم أُصدق ما سمعت.

التحدي المنير

إذ تعود بي الذاكرة الى تلك الأيام، أجد أن غزو الزعيم النازي أرض الراين كان ضرباً من المغامرة. لكنها مغامرة ضمنت له النصر. وهو نصر لم أتوقع نتائجه الطويلة المدى آنذاك. فإن قعود فرنسا عن رد الهجوم الالماني وعدم إقدام بريطانيا على مساعدتها في ذلك جرّا هزيمة على الغرب تفرّعت منها الهزائم اللاحقة جميعاً

أجل، ففي مارس (آذار) ١٩٣٦ كان في إمكان فرنسا وبريطانيا إسقاط الطاغية النازي ونظامه بأهون الوسائل ومن غير اللجوء الى حرب حقيقية. لكن ذلك لسوء الحظ لم يحصل.

وفي يوليو (تموز) ١٩٣٧ ذهبتُ وزوجتي تس في إجازة الى لندن وباريس والجنوب الفرنسي. وتحدثنا في شؤون مستقبلنا وشجونه ونحن على وشك أن نصبح ثلاثة، إذ كانت زوجتي حبلى.

وعدت الى برلين في مطلع أغسطس (آب) على أن تنضم الي تس في سبتمبر (أيلول). وفي ٢٤ أغسطس (آب) أُعفيتُ من وظيفتي.

وأحسست حجَراً ثقيلا في معدتي وأنا في طريقي الى المكتب. وعلى طاولتي رأيت برقية تقول: "أتستطيع أن توافيني مساء ٨/٢٧ للعشاء في آدلون؟" وقد ذيلت بتوقيع اد مارو من شبكة كولومبيا الاذاعية «CBS» . وقد حدد المكان في محلة آدلون.

وفيما أنا أسير الى موعدي ذلك المساء نحو الرجل الذي افترضت أنه مارو، وجدت في وجهه الوسيم وشعره الأسود وعينيه القاتمتين ما ذكّرني بنجوم هوليوود وسرعان ما اكتشفت في وجهه وصوته أمراً مختلفاً.

وبدأنا الحديث عن المؤسسات الاذاعية في الولايات المتحدة. قال ان أهمّ شيء حولها هو إمكاناتها المستقبلية التي لن تلبث أن تتحقق يوماً وأضاف: "اني أبحث عن مراسل متمرّس لنسلّمه مكتباً سنفتحه في أوروبا، اذ لا أستطيع تغطية جميع الأخبار الاوروبية من لندن. فهل يهمّك الأمر؟"

واجبت وأنا أُحاول كبح الحماسة التي انتابتني: "أجل، ان الأمر يهمني."

- لقد نسيتُ أمرا صغيرا، وهو متعلّق بالصوت. انه عنصر لا يمكن تجاهله في الاذاعة. والشركة تود معرفة طبيعة صوتك أولا. وسنعالج ذلك الاسبوع المقبل.

ولا بد من أن يكون القلق ظهر على وجهي. فقد واجهني هذا الرجل، في اللحظة النهائية الحاسمة، بما بدا إنقاذا لمستقبلي. الا انه عاد وجعل من الصوت شرطا ضروريا لقبولي.

وكنت متوتر الأعصاب وأنا أخضع لاختباري الاذاعي في برلين يوم الأحد الواقع فيه الخامس من سبتمبر (أيلول). وتكلمت أمام المذياع بأوضح ما أستطيع وأنا أحاول تذكّر التعليمات التي أعطانيها مارو في آخر الاسبوع الماضي، وأهمها ألا أقرأ كما من كتاب.

وكنت متأكدا من ضعف موقفي. وقلت لنفسي: "لتذهب شبكة CBS الى الجحيم. فأني سأركب السفينة الاولى المتجهة الى نيويورك وأباشر البحث عن عمل هناك."

موقفات أطفال

رن جرس الهاتف في منزلي مساء الجمعة. وكان مارو على الخط من لندن وقال: "لقد جاءنا الجواب من نيويورك. وهم يعتقدون أنك شخص رائع لهذه المهمة."

وأثار لديّ كلام مارو انطباعا أن في الامكان تحقيق الكثير عبر طريقة الاذاعة العصرية هذه. وكانت التقارير الاذاعية أمراً جديداً في ذلك الحين. وهي تتفوّق على الأخبار الصحافية لأنها تبلغ المستمع لحظة حدوث الخبر. وفي الامكان نقل أصوات تظاهرة في باريس أو احتفال في الفاتيكان أو خطاب يلقيه هتلر في برلين أو موسوليني في روما وقت الحدث نفسه. لذلك كنت أنتظر مباشرة عملي الجديد في أسرع وقت.

وسرعان ما خبا ذاك الأمل. وكتبت في مفكرتي: "ثمة أمر محبط حول هذا العمل، وهو أنه لا يحق لزميلي مارو أو لي اذاعة التقارير مباشرة. وتقضي تعليمات المكتب الام في نيويورك بأن نوكل ذلك الأمر الى مراسلين. أما نحن فندير العمل ونشرف عليه."

وشرح مارو موقف الشركة قائلا ان قراءة التقارير بأنفسنا تعني أننا نتبنى ما يرد فيها. لكن ذلك لم يقنعني.

وسألني عما اذا كنت أختار جنيف أو فيينا مقرا. ووقع خياري على فيينا. فهي مدينة أكبر وتحوي أقواما أكثر وموقعها يقرّبها من العواصم الاوروبية الاخرى، فضلا عن أنها مسقط رأس زوجتي وفيها تم لقاؤنا وزواجنا. ووافق اد على الأمر، وذهبنا الى فيينا.

وفي الأشهر الاولى التي تلت عودتي بدا واضحا أن نظام المستشار النمسوي كورت شوشنيغ يرزح تحت أثر المدّ النازي الآتي من المانيا. ومن المؤسف أن تكون مدينة فيينا الجميلة الجليلة المتمدنة غدت مكانا بائساً خلال السنوات الماضية. وكما دونت في مفكرتي يوم عيد الميلاد عام ١٩٣٧، بدت المدينة وأناسها على "فقر رهيب... العمال يخيم عليهم التجهّم، بمن فيهم أولئك الذين لم يخسروا وظائفهم. والشحّاذون يظهرون عند كل قارعة طريق "

وانهمكت وزميلي في بث جوقات الأطفال. وفي الوقت نفسه حاولت تتبّع الأخبار، خصوصاً في برلين وفيينا، تينك العاصمتين القديمتين اللتين ظهرتا في فبراير (شباط) ١٩٣٨ على وشك السقوط. وكان هتلر الذي أمضى ردحاً من شبابه في فيينا، يحث النازيين النمسويين على اغتصاب السلطة. وذلك ضروري لتحقيق هدفه الأول، ألا وهو وحدة النمسا والمانيا.

"هتلر يأتي غداً"

قلت لنفسي. "ربما استطعت إقناع الشركة بتغطية أخبار النمسا في أيامها الأخيرة. واذا أفلح هتلر في غزوها، فهو سيحقق أكبر انتصاراته حتى ذلك الحين." وطلبت السماح لي بفترة إذاعية من ١٥ دقيقة. لكن طلبي رُفض، وأمرت بمتابعة تقديم جوقات الاطفال، على أن تنقل الحفلة التالية من صوفيا عاصمة بلغاريا في ٢٤ فبراير (شباط).

ولدى عودتي من صوفيا في السادس والعشرين من ذلك الشهر استقبلني زميل في محطة القطار قائلا اني غدوت أباً لطفلة وُلدت ذلك الصباح. وأضاف أن الولادة تمت بجراحة قيصرية لانقاذ حياة الام والوليدة، وأن حال زوجتي ليست خطرة. وأسرعت الى المستشفى.

وأعترف بأني وقفت أمام طفلة من أجمل الأطفال لكن منظر تس آقلقني. وهي لم تصحُ بعد من آلامها لكي تستطيع النطق بوضوح وأمضيت معظم الايام اللاحقة بجانبها وراودني شعور بأن العناية التي يقدمها المستشفى ليست جيدة. ويبدو أن المستوى هبط لأن المسؤولين تأثروا بما يجري في العالم.

وبذل شوشنيغ محاولة أخيرة لانقاذ النمسا من هتلر. وألقى خطاباً في اينسبروك في ٩ مارس (آذار) أعلن فيه أن استفتاءً سيجرى حول ما إذا كان المواطنون في النمسا يريدون "بلداً حراً، مستقلا، اشتراكياً، مسيحياً، متحداً."

وفاتني ذلك الاعلان التاريخي، إذ كنت في المساء نفسه أركب قطاراً الى يوغوسلافيا لنقل حفلة أطفال أخرى. وعدت في ١١ مارس (آذار). وقرابة الرابعة عصراً هرعت الى المستشفى لرؤية تس. ولما قطعت الطريق لركوب القطار الجوفي أوقفني حشد من نحو ألف شخص، جلّهم من الذين يرتدون البزات النازية. الا انهم لم يكونوا من ذوي البأس. وصرخ شرطي واحد فيهم، فتفرّقوا في لحظات.

ولدى عودتي في السادسة مساء أدهشني أن أجد الوضع تبدل فجأة. فقد كان هناك جمع من النازيين المتحمسين الذين وقفوا يصخبون في الظلام. ووجدتني أشق طريقي بينهم الى أن بلغت المكتب "السياحي" الالماني الذي غدا بمثابة مقرّ للنازية النمسوية وقد ارتفعت فوقه صورة هتلر مؤطرة بالزهر. ولم تبدُ الوجوه غريبة علي، أنا الذي حضرتُ احتفال نورمبرغ. فالعيون والأفواه والوجوه هي هي، بحماستها وعصبيتها، تهتف بحياة هتلر وتدعو الى شنق شوشنيغ. والحق أن أعضاء الفرق الشعبية في نورمبرغ لم يهتفوا بهذه الحماسة.

وتساءلتُ عما حدث بهذه السرعة.

ونظرتُ الى الوجوه القريبة وسألتُ أصحابها عما يجري. الا أن اندفاعهم حال دون اي جواب. واخيراً قالت امرأة في منتصف عمرها: "الاستفتاء... ألغي. وفي تقديرنا أن هتلر سيأتي غداً. انه أمر رائع."

ولكن ماذا لو قررت بريطانيا وفرنسا وايطاليا، بمساعدة تشيكوسلوفاكيا، إعلان الحرب ضده وإيقافه عند حده؟

وهكذا وجدت نفسي وسط الشارع في فيينا أمام قصة هي أهم حدث صحافي في حياتي حتى ذلك الحين.

وفي ساعة متقدمة من ذلك المساء. اتصل بي اد مارو من فرصوفيا (بولونيا). ولما رويت له ما يجري قال: "طر الى لندن صباح غد، وأنا آتي الى فيينا."

ولم يتطرّق أي منا الى السماح لنا بنقل الأخبار، بل أخذنا الأمر كما لو كان مفروغاً منه.

وطوال اليوم التالي، وهو السبت الواقع فيه الثاني عشر من مارس (آذار) ١٩٣٨، حاولت أن أجد مكاناً على طائرة متجهة الى لندن. وعند بلوغي المطار في السابعة صباحاً، وجدت الشرطة السرية الالمانية (الغستابو) احتلت المبنى الرئيسي في المطار. الا أن أحد قادة الطائرات الحربية نصحني بأن أجرّب حظي في طائرة للخطوط الجوية البريطانية، وهي تقلع الى لندن بعد وقت قصير. لكن تلك الطائرة كانت ملأى بالركاب. ثم وجدت مكاناً لي على طائرة لشركة "لوفتهانزا" الالمانية تقلع الى برلين في التاسعة صباحاً. ومن هناك أخذتُ طائرة هولندية الى لندن. ولما وصلت الى المكتب أخبرتني السكرتيرة الانكليزية أن شركة «CBS» تنتظر أن أقدم تقريري في الحادية عشرة والنصف تلك الليلة، أي السادسة والنصف مساء بتوقيت نيويورك.

وكان ذلك انجازاً، فللمرة الاولى تسمح الشركة لأحد مديريها بأن يذيع خبراً بنفسه. ولم أصدق ما يجري، حتى بعد ذهابي الى استديوهات الاذاعة البريطانية «BBC» التي نقلت الخبر الى

اذاعتنا. وفي تمام الحادية عشرة والنصف سمعتُ معلق الاذاعة يقدمني بالآتي:

"قبل ٢٤ ساعة أو نحوها اقتحمت القوات النازية النمسا. وفي وقت الاجتياح كان وليم شايرر، مدير إذاعتنا في أوروبا الوسطى، موجوداً في فيينا. وقد طار عصر اليوم الى لندن ليقدّم شهادة عيان لا رقابة عليها لما حدث... ويسرنا أن ننقل مستمعينا الى لندن."

وهكذا بدأت رسالتي الهوائية السياسية الاولى منذ انضمامي الى شبكة «CBS».

[illegible]

غادرت لندن في نهاية أسبوع محموم، أحزنني خلاله أن يكون هتلر حقق مرة أخرى ما يصبو إليه من غير أن يحرّك البريطانيون والفرنسيون ساكناً. واستقبلني مارو ذلك المساء في المطار. وعرفت منه أيضاً أن ذلك الاسبوع في فيينا أحدث كآبة لديه بعد رؤيته الجماهير الصاخبة والجنون الهتلري وسادية الصبية الألمان في الشوارع.

والمؤسف أن النمسويين، وهم عاطفيون بطبعهم، باتوا يتصرفون بقسوة تتجاوز قسوة الالمان. وقد أنساني منظرهم في الشوارع مناظر رفقائهم في برلين ونورمبرغ.

واتفقتُ ومارو على أن أنتظر حتى تتعافى زوجتي، ثم أنقل مقري الى جنيف كيما أستطيع البث من غير رقابة نازية. ولا بد من أن تكون مرحلة تحرُّك أدولف هتلر مصدراً غنياً للأخبار. ومن الواضح أين ستكون ضربته التالية. وقد سجلت الآتي في مفكرتي بتاريخ ١٤ ابريل (نيسان):

"لا شك في أن تشيكوسلوفاكيا هي هدف هتلر الآن، اذ ان المانيا باتت تطوّقها من ثلاث جهات."

وكان خروجنا من فيينا أشد مأسوية مما توقعنا، إذ لم يبق سهلا مغادرة البلاد بعدما احتلتها القوات الهتلرية. وكانت الشرطة السرية تطوف أنحاء البلاد خلسة بحثاً عن الأشخاص المشبوهين، وبينهم الأجانب الذين يحاولون تهريب أموالهم متحدين القانون. وفي ظهيرة العاشر من يونيو (حزيران) توجهت مع تس وطفلتنا الى المطار. وأوضحت لرئيس الغستابو هناك أن زوجتي تعاني ضعفاً جسدياً يمنعها من الوقوف، وأن علي أنا الحضور لتفتيش حقيبة ثيابها فيما تنتظر هي على مقعد. وطلبت من تس أن تبقى هناك حتى يحين وقت التوجه نحو الطائرة.

الا أن رئيس الشرطة السرية ارتاب في أمري حين وجد أن تس لا تحمل جواز سفر أمريكياً على رغم أنها زوجتي. والتزاماً مني الحفاظ على هدوء أعصابي وصفتُ له بهدوء قانون الجنسية الأمريكي آنذاك. لكنه صاح في وجهي: "إذا كانت نمسوية، فأين جواز سفرها الألماني؟" لكن تس كانت رفضت الحصول على جواز ألماني. وهنا رجوته أن يلقي نظرة على تأشيرة الخروج التي ختمها رئيس الغستابو في فيينا. ومن حسن الحظ أن أثر ذلك كان كبيراً عليه. لكنه عاد يقول ان على تس الوقوف اسوة بسائر الركاب ليتم تفتيش حقيبتها.

وهممت برفع صوتي، فأشار الشرطي على أحد المفتشين كي يقتادني بعيداً.

وأُخذت الى غرفة سمعت فيها الاهانة من ضابطين. وبعد ذلك نُقِلتُ الى غرفة مجاورة حيث قيل لي: "انتظر هنا." وأغلق الباب في وجهي وسمعت صوت القفل. ومرت دقائق خمس، ثم عشر، ثم خمس عشرة، بدت مثل ساعات. وخُيل اليّ ان الوقت حان كي تقلع طائرتنا الى جنيف.

وفي تلك اللحظة سمعت بكاء تس وهي تقول: "اسمع يا بيل، انهم يأخذونني عنوة... أين أنت؟"

وطرقت على الباب. وأمكنني أن أسمع وأرى من النافذة طاقم الطائرة السويسرية يتجه نحوها. وبعد وقت بدا طويلا جداً دخل رجل في ملابس مدنية وأخذني عبر رواق يصل غرفة الانتظار بمدرج الطائرات. وحاولت العودة لأرى تس، لكن الباب أُقفل.

وبعد قليل فتح باب آخر خرجت منه زوجتي وقد أمسكتها ممرضة بيد وحملت الطفلة باليد الاخرى. وكانت تس تصرّ أسنانها وهي تحاول أن تكظم غيظها. وصاحت: "لقد جردنني من ملابسي ومزقن بعض الضمادات عن جروحي. يا لهن من بغايا." ولم أكن سمعتها تلعن أو تشتم قبل ذلك الحين.

ودفعنا الباب المؤدي الى الخارج. وكانت الطائرة جاثمة على بعد خمسين متراً وقد انطلق الهدير من محرّكيها الاثنين. وبعد قليل كنا داخلها وبدأت تتحرك.

ها نحن، بعد الكابوس النازي المقيت، نتجه نحو سويسرا - سويسرا الصحة والمدنية والحرية. أجل، ها نحن ذاهبون الى جنيف الأنيقة النظيفة الرصينة التي طالما نظرت اليها كما لو كانت جنة أرضية.

ووافانا مارو من لندن. ولا أنسى عصر ذلك اليوم من يونيو (حزيران) حين ركبنا نحن الثلاثة زورقاً بخارياً عبر البحيرة الى لوزان. وبعد غداء متأخر وقفنا على دفة الزورق ورحنا نتجاذب أطراف الحديث ونروي الطرائف ونفكر في المستقبل، وأحسسنا أننا في ريعان الشباب ولا هم في حياتنا.

ولكن تبين في ما بعد أن ذلك اليوم كان من أيام الهدوء الأخيرة قبل سنوات سبع طويلة سنشهد فيها حرباً لم تشهد البشرية مثيلا لها.

خيانة في ميونيخ

أخبر هتلر العالم الخارجي أن المانيا لا تضمر نيات عدوانية تجاه تشيكوسلوفاكيا. لكننا عرفنا لاحقاً أنه استعمل لغة أخرى مع جنرالاته. ففي ٢٨ مايو (أيار) ١٩٣٨ قال في برلين: "لديّ إرادة راسخة في محو تشيكوسلوفاكيا عن الخريطة." وأمر قادة جنده بإعداد الخطط لانجاز هذه المهمة قبل الاول من أكتوبر (تشرين الاول). وما ان لجأ الألمان الذين يعيشون في المنطقة الحدودية الواقعة بين مقاطعتي بوهيميا ومورافيا، وعددهم ثلاثة ملايين ونصف مليون، الى أعمال الشغب ضد حكومة براغ حتى أصرّ الفوهرر على وجوب ضم تينك المقاطعتين الى المانيا.

والتنازل عن المقاطعتين يعني هدم الاقتصاد التشيكوسلوفاكي لأنه يحرم

البلاد من المناجم والصناعات، كذلك من حدودها الحصينة مع ألمانيا. وعلى رغم هذا كله علمت في الاول من يونيو (حزيران) أن رئيس الوزراء البريطاني نيفيل تشامبرلين قرر دعم هتلر في مطالبته بتلك الأراضي. وفي تقديره أنه لا الفرنسيون ولا السوفييت سيبرّون بتعهدهم تجاه تشيكوسلوفاكيا حمايتها في حال تعرضها لهجوم ألماني، الأمر الذي يعني أن بريطانيا لن تستطيع تأمين هذه الحماية بمفردها.

وظلت بريطانيا طوال شهر أغسطس (آب) تحث الحكومة التشيكوسلوفاكية على تقديم مزيد من التنازلات. وفي مطلع سبتمبر (أيلول) كان الرئيس التشيكي ادوارد بينيش منح مندوبي التشيكيين الألمان كل ما طالبوا به. الا أن هتلر لم ينشرح للنتيجة، فهو استغل تلك القضية لاخفاء نيته الحقيقية، الا وهي تحطيم تشيكوسلوفاكيا.

وانتظرت أوروبا كلها بقلق فيما تابع تشامبرلين وهتلر فصول المسرحية. وتم عرض الفصل الاول في ١٥ سبتمبر (أيلول) عندما طار تشامبرلين الى بيرختشغادن، وهو منتجع هتلر في جبال الألب. وأحس التشيكيون خيانة في الأمر، وهم كانوا على حق. وجلّ علمهم كان أن هتلر اقترح إجراء استفتاء لتقرير مصير التشيكيين الألمان، وأن تشامبرلين أقر بذلك في حين "رفضه" التشيكيون.

وبدأ الفصل الثاني في غودسبرغ إحدى أجمل مدن الراين التي بلغتها في ٢١ سبتمبر (أيلول). وكان هتلر حلّ في فندق دريسن. ووجدته في مزاج عصبي لا يُحسد عليه. وكنت أتناول فطوري على شرفة الفندق نفسه في الثاني والعشرين من ذلك الشهر عندما مر بي الفوهرر فجأة. وكلما خطا بضع خطوات كان يرفع كتفه اليمنى بنزق ومعها تهتز ساقه اليسرى. وقلت لنفسي: "لا شك في ان هذا الرجل على وشك الاصابة بانهيار عصبي."

في ذلك اليوم تم لقاء بين تشامبرلين وهتلر. وبعدما أمضى رئيس وزراء بريطانيا ساعة يفاخر بنجاح البريطانيين والفرنسيين في الضغط على التشيكيين لتقديم التنازلات المطلوبة، سأله هتلر: "هل أفهم من هذا أن البريطانيين والفرنسيين والتشيكيين جميعاً وافقوا على التنازل عن هذه الارض للألمان؟"

وأجاب تشامبرلين مبتسماً: "نعم"

قال هتلر: "اني آسف جداً. لكن هذه الخطة لم تعد ذات بال."

وتذكر مترجم هتلر لاحقاً أن تشامبرلين جلس مندهشاً وقد بان الغضب على وجهه الشبيه بالغراب.

لقد أصرّ الزعيم النازي على احتلال ذلك الجزء الالماني من تشيكوسلوفاكيا احتلالا عسكرياً قبل الأول من اكتوبر (تشرين الاول) الذي يفصله عنه تسعة أيام.

تحذير بريطاني

لدى عودتي الى برلين في نهاية ذلك الاسبوع الواقع فيها الرابع والعشرون والخامس والعشرون من سبتمبر (ايلول)، وجدت الجو مشبعاً بالتفاؤل. ولكن مع حلول الاثنين غاب ذلك الشعور، إذ أعلن أن الحكومة التشيكية رفضت طلبات هتلر

الصادرة من غودسبرغ، كما وجدتها فرنسا غير مقبولة ودعت في نهاية الاسبوع الى تعبئة عسكرية جزئية. ونتيجة لتلك التطورات انتابت الفوهرر نوبة غيظ من أشد ما عاناه في حياته الصاخبة. وعبّر عن ذلك الغيظ في خطاب ألقاه في قصر الرياضة مساء اليوم نفسه.

وكنت جالساً في المقصورة فوق منصة الخطباء مباشرة وأنا أترجم تلك الكلمات الالمانية العاصفة وأنقل الترجمة مباشرة عبر الموجة القصيرة الى نيويورك. وأكد هتلر مرتين أن تلك كانت مطالبته الجغرافية الأخيرة في أوروبا: "اننا لا نريد احتلال تشيكوسلوفاكيا. لكننا نريد استعادة الجزء الالماني منها قبل الأول من أكتوبر (تشرين الاول)." وهذا يعني أن لدى الرئيس بينيش خمسة أيام يتنازل خلالها عن تلك المنطقة.

ومن مقعدي أمكنني أن أرى أن الحركات العصبية ما زالت ظاهرة في قسمات هتلر. وظننت غير مرة أنه على وشك الاصابة بسكتة قلبية أو دماغية. وكتبت في مفكرتي ذلك المساء: "للمرة الاولى طوال سنوات مراقبتي إياه، بدا لي أن هتلر فقد السيطرة على نفسه كلياً هذا المساء."

دودتان مطيرتان

في اليوم التالي وجه المبعوث البريطاني تحذيراً يقول فيه ان بلاده ستقف الى جانب فرنسا اذا هي جُرّت الى الحرب بسبب المسألة التشيكية. وصاح هتلر: "سأحطم تشيكوسلوفاكيا شرّ تحطيم. واذا ضربت فرنسا وإنكلترا، فلتفعلا ذلك. لكنه أمر لا يعنيني من قريب او من بعيد."

واتصل بي اد مارو من لندن ليقول أن الخنادق تحفر في حديقة هايد بارك في قلب العاصمة البريطانية، كما يتم إبعاد الأطفال وإخلاء المستشفيات من نزلائها كيما يتسنى لها استقبال الجرحى في حال نشوب حرب. وأضاف اد أن الأوامر العسكرية أصدرت في الثامنة من مساء اليوم الفائت لتعبئة البحرية، وأعلنت عبر الأثير في الحادية عشرة والدقيقة الثامنة والثلاثين قبيل منتصف الليل.

وكان هتلر حدد موعداً أخيراً لتنفيذ طلبه، وهو الثانية عصر الثامن والعشرين من سبتمبر (أيلول). وقرابة الظهر لاحظتُ الديبلوماسيين يتسارعون الى مقر المستشارية. وكان واضحاً أنهم يبذلون المحاولات الأخيرة لتجنب الحرب. ومع انتهاء المهلة بعد الظهر أعلن هتلر تأجيل هجومه ووافق على الاجتماع في اليوم التالي بالزعيم الايطالي موسوليني وبرئيسي الوزراء البريطاني والفرنسي ولم يُدع التشيكيون الى ذلك الاجتماع.

وولد لدي ذلك الاجتماع المرتجل كآبة تفوق الوصف. وبدأ الرياء مع بداية اللقاء في مكتب هتلر الخاص في المستشارية. وقال موسوليني انه حمل معه من روما "اقتراحاً محدداً". ولم يخفَ على تشامبرلين ونظيره الفرنسي ادوار دالادييه أن ذلك الاقتراح صيغ بإيعاز من هتلر نفسه وأنه يعكس مطالبه التي أعلنها في غودسبرغ وسبق أن رفضها التشيكيون والبريطانيون والفرنسيون.

وفي إمكان المرء أن يعذر هتلر على

النتيجة التي خلص بها بعد الاطراء الذي أغدقه على اقتراح الدوتشي كل من دالادييه وتشامبرلين. وقد وصفهما لاحقاً بأنهما "دودتان حقيرتان."

وفي الدقيقة الثلاثين بعد منتصف الليل فرغ المختصون من ترجمة بنود "اتفاق ميونيخ"، وجلس الزعماء الأربعة لتوقيعه. وهكذا حصل هتلر على كل ما طلبه وحقق نصراً بيّناً. وبينما هو يهمّ بالانصراف أمكنني أن أقرأ علامات الانشراح عليه. فقد التمعت عيناه وراح ينزل السلم مختالا وقد غاب القلق عن وجهه.

"انصرفوا بوحشية"

رحّب البريطانيون، صحافة ونواباً وشعباً، برئيس وزرائهم العائد واستقبلوه كبطل. وقال لدى وصوله: "ها نحن نعود من ألمانيا حاملين السلام المشرّف. وأقدّر انه سلام لزمننا كله." غير أن ونستون تشرشل وقف في مجلس العموم ليصف اتفاق ميونيخ بأنه "إخفاق ذريع شامل." وأرغم على الصمت حتى سكتت الأصوات المستنكرة. وبعد ذلك نال تشامبرلين ثقة النواب بأكثرية ٣٦٦ صوتاً في مقابل ١٤٤.

وفي فجر الخامس عشر من مارس (آذار) ١٩٣٩ أرسل هتلر قواته لاحتلال تشيكوسلوفاكيا وتنفيذ وعيده بمحو تلك الديموقراطية الصغيرة عن الخريطة. ولم تبذل بريطانيا العظمى ولا فرنسا أقلّ جهد لانقاذها.

ومن أجل أعطاء تشامبرلين حقه، لا بد من الاعتراف بأنه اكتشف خداع هتلر له أخيراً. وفي ٣١ مارس (آذار)، بعد انقضاء ستة عشر يوماً على دخول النازيين العاصمة التشيكية، وقف الزعيم البريطاني في مجلس العموم ليقول: "في حال أي إجراء يهدد استقلال بولونيا، سيكون لحكومة صاحب الجلالة ملء الحرية في منح الحكومة البولونية كل دعم ممكن."

ودُهش هتلر باديء الامر ثم اغتاظ للضمان المفاجيء الذي قدمه تشامبرلين الى بولونيا وتبعته الحكومة الفرنسية في تقديمه. وبلغته الأخبار وهو مع الاميرال فيلهلم كناريس رئيس الاستخبارات الالمانية المضادة الذي قال لاحقاً ان الفوهرر راح يذرع الغرفة والغيظ يقلّص عضلات وجهه وهو يتوعّد البريطانيين صارخاً: "سأضعهم على سفّود يتقلّبون على نار كاوية."

وفي الأول من ابريل (نيسان) أعلن على الملأ: "لا نية لدى المانيا في مهاجمة الشعوب الأخرى."

انه هراء حقاً... فبعد يومين فقط أعطى هتلر، في اجتماع أحيط بالكتمان الشديد، اسم "القضية البيضاء" لعملية غزو بولونيا.

وبعد أسبوع في بولونيا تولدت لديّ قناعة بأن شعبها لا يستطيع صدّ عدوان ألماني، وإن يكن سيحاول ذلك اعتماداً على بأس جيشه. ولكن هل يضع البولونيون جيادهم في مواجهة المصفحات الالمانية؟ لقد بدا الجنود البولونيون الذين رأيتهم على ثقة كبيرة بأنفسهم.

وكمثل معظم الناس بقيت متمسكاً

بأمل السلام. ولو عرفت ما كان هتلر مزمعاً قوله لقادة جنده الشهر التالي، ولو أدركت أن ثمة ريحاً جديدة تهب من موسكو، لما راودتني تلك الأحلام الخادعة.

وفي ٢٣ مايو (أيار) من ذلك العام جمع هتلر في مكتبه ضمن مركز المستشارية في برلين قادة الوحدات العسكرية الثلاث وكبار مساعديهم وأخبرهم على نحو مباشر أن الحرب باتت أمراً محتوماً. وقال ان عليهم الانقضاض على بولونيا "في أول فرصة سانحة" واحتلال بلجيكا وهولندا المحايدتين من أجل تأمين قواعد جوية وبحرية لشن هجوم شامل على بريطانيا. وأضاف: "الحرب مع بريطانيا وفرنسا ستكون حرب حياة وموت. ومن الخطر الظن أن في استطاعتنا ربحها بسهولة."

وصدرت اشارات علنية عن موسكو كان ينبغي أن تجعلنا نعي ان الاتحاد السوفييتي لن يقف تلقائياً الى جانب فرنسا وبريطانيا في حال تعرضهما لعدوان ألماني.

وفي ٢٥ مايو (أيار) وجه هتلر أوامره الى وزارة الخارجية الالمانية للمضيّ في محادثاتها مع الاتحاد السوفييتي. وأعلن سفيره في موسكو أنه ليس ثمة تصادم مصالح في الشؤون الخارجية بين ألمانيا والاتحاد السوفييتي، وأن الوقت حان من أجل "تطبيع" العلاقات بين البلدين، وأنه في حال نشوء عدم تفاهم حول المسألة البولونية، فإن المانيا "ستضع المصالح الروسية في الحسبان ما استطاعت الى ذلك سبيلا."

وفي أغسطس (آب) وردت برقية تفيد أن ستالين كان يدري جيداً ما يبيّت هتلر من نيات. وما قصده هتلر لم يكن يقلّ عن قسمة أوروبا الشرقية، بما فيها بولونيا، بين ألمانيا والاتحاد السوفييتي. وأدرك الفوهرر تمام الادراك ان الحلفاء لن يستطيعوا منع تلك الخطوة.

وهلل ستالين للاقتراح. وقال السفير الالماني ان وزير الخارجية السوفييتي فياشيسلاف مولوتوف استفسره عما اذا كانت الحكومة الالمانية مهتمة لعقد معاهدة عدم اعتداء بين البلدين. الا أن هتلر لم يجرؤ حتى ذلك الحين على بلوغ هذا الحد في العلاقات. غير أن الأمر راقه لأن معاهدة من هذا النوع تعني إبقاء الاتحاد السوفييتي خارج العمليات الحربية والتهويل على بريطانيا وفرنسا للبقاء خارجاً وتمكينه من أخذ بولونيا وحده. وأعلن هتلر المعاهدة في ٢١ أغسطس (آب) قبل عشرة أيام من تصميمه على غزو بولونيا.

وفاتني ذلك النبأ، ولم أصدقه بادىء الأمر حين نقله اليّ اد مارو هاتفياً في المساء. ولم يسبق إعلان المعاهدة أي تلميح بإمكان ابرامها.

ووقعت المعاهدة في ٢٣ أغسطس (آب). وكان هتلر قبل يوم واحد جمع قادته العسكريين وخطب فيهم بحماسة وهم على وشك اجتياح بولونيا. ومما قاله: "أقصوا الشفقة عن قلوبكم وتصرفوا بوحشية. ان المسألة متعلقة بثمانين مليون شخص يجب أن يحصلوا على حقوقهم. وكل من يتأمل في نظام هذا العالم يدرك أن مغزاه يكمن في تحقيق الأفضل من طريق القوة."

هذا اذاً موقف أدولف هتلر من الوجود. وهو لم يعبّر عنه على هذا النحو الواضح قبل ذلك الحين.

سقوط باريس

"الهجوم المضاد"!

هكذا سمى أدولف هتلر وقادته العسكريون عدوانهم ضد بولونيا فجر الجمعة في الفاتح من سبتمبر (أيلول) ١٩٣٩.

وفيما اندفعت ألوف الدبابات التي تقل الجنود الالمان عبر الحدود، راحت مئات الطائرات الحربية الالمانية تمطر الموت والدمار من السماء دونما تمييز بين أهداف عسكرية وغير عسكرية. وطاولت قذائفها ملايين المدنيين في المدن والقرى البولونية. وكان ذلك أضخم أعمال التخريب الآتية من الجو.

وبعد يومين وأنا واقف تحت شمس الظهر المشرقة في شارع فيلهلم قبالة مركز المستشارية، بثت مكبرات الصوت فجأة أن بريطانيا أعلنت الحرب ضد المانيا. وبعد وقت ليس بطويل برّت الحكومة الفرنسية أيضاً بتعهدها تجاه بولونيا. وكان يحيط بي نحو ٢٥٠ شخصاً أصغوا بانتباه الى الاعلان. ولدى انتهاء تلاوته ظلوا واقفين بوجوم وهم لا يدرون أن هتلر دفعهم دفعاً الى حرب أوروبية.

وبدا واضحاً منذ أيام القتال الاولى في بولونيا أنه لن تكون ثمة "جبهة" كما كانت الحال في الحرب العالمية الاولى. وكان لواء المدرعات يتقدم بضعة كيلومترات يومياً، فيما تدهشنا الأنباء الواردة يوماً بعد يوم. وقد وُصفت تلك الحرب بأنها "حرب خاطفة". وفي أيام ستة سيطر الالمان على كراكوف، المدينة الثانية في بولونيا. وفي ٨ سبتمبر (أيلول) دخلوا فرصوفيا. ودوّنت الآتي في مفكرتي: "فيما يتم اجتياح بولونيا، يقول الالمان انهم لم يسمعوا طلقة رصاص واحدة في الجبهة الغربية."

وبعد ركود القتال العنيف في بولونيا دعا الألمان المراسلين الأمريكيين الى زيارة "الجبهة". و"صادف" أن كنا في دانزيغ لنسمع هتلر يلقي خطابه السلمي الأول. ومما قاله: "ليست لديّ أهداف حربية في بريطانيا وفرنسا." وسأل الله العلي "الذي نصر الألمان في حربهم أن يمنح الشعوب الاخرى ادراك عدم جدوى الحروب والتفكير في السلام."

خطاب سلمي، نعم، من ذاك الذي قضى على بولونيا بالحرب.

وفي تلك الأثناء باشر الجيش الأحمر عملياته في اتجاه بولونيا صباح السابع عشر من سبتمبر (أيلول).

واستمرت الحرب على ذلك المنوال طوال العام ١٩٣٩. وباستثناء بعض الهجمات البحرية لم يحصل أي هجوم أرضي أو جوي. وعندما تجرأت المقاتلات البريطانية على التحليق فوق برلين، لم تفعل ذلك بهدف إلقاء القنابل، بل لرمي المناشير. وهي كانت مكتوبة بلغة المانية ركيكة. ولكن مع اقتراب ربيع ١٩٤٠ بدا أن الحرب على وشك اكتساب الزخم وربما الانتشار. وهنا مقاطع مما دوّنته في مفكرتي وأنا في برلين:

"٩ أبريل (نيسان) - عند الفجر

اجتاحت القوات النازية دولتي الدانمرك والنروج المحايدتين بهدف "حماية حريتهما واستقلالهما" كما جاء في بيان رسمي... يا له من نبأ مذهل."

وفي فجر العاشر من مايو (أيار) ضرب هتلر غرباً. وجمع أقوى جيش شهدته تلك الجبهة لاجتياح ثلاثة بلدان صغيرة كان وعد بعدم التعرض لها، وهي هولندا وبلجيكا واللوكسمبور. وفي مفكرتي وصف مختصر لما حدث يوماً بعد يوم:

"١٤ مايو (ايار) - صعقتنا جميعاً الأخبار هذا المساء. فالجيش الهولندي استسلم بعد خمسة أيام فقط من المقاومة."

"١٥ مايو (أيار) - وجوه المراسلين والديبلوماسيين الأجانب تحمل اليوم علامات الانشداه، بعدما أعلنت القيادة الالمانية العليا أنها اخترقت خط ماجينو بالقرب من سيدان."

"٢٩ مايو (أيار) - استولى الالمان على مدن ليل وبروج واوستند. وقصفوا ايبر ودنكيرك... والأخبار اليوم تتوالى بلا انقطاع."

لقد أمّن هتلر لنفسه قواعد جوية في فرنسا وبلجيكا وهولندا، يمكن استخدامها لقصف بريطانيا. غير أني ما زلت متمسكاً بالأمل، وإن ظننت أنها النهاية بالنسبة الى الفرنسيين.

جاءتنا أنباء الاذاعة في الاولى بعد ظهر الرابع عشر من يونيو (حزيران) ببيان صادر عن القيادة العسكرية العليا قرأه أحد المذيعين: "الجبهة الفرنسية الممتدة من القناة الانكليزية (بحر المانش) الى خط ماجينو انهارت تماماً، الأمر الذي قضى على نية القادة الفرنسيين الأساسية الرامية الى الدفاع عن العاصمة. لذلك تمَّ إعلان باريس مدينة مفتوحة. وقد باشرت القوات المنتصرة الزحف عليها."

ثأر هتلر

بينما أنا أغادر مكتبي في الاولى فجراً بعد رسالتي الاذاعية الأخيرة، طلب مني هارالد ديتريتش، وهو ألماني شريف وصديق ومدير قسم الارسال بالموجة القصيرة، مرافقته الى باريس في سيارته المرسيدس. وعرفت أنه دعاني على رغم معارضة وزارة الدعاية لذهابي، وهي منظمة تلك الرحلات الى الجبهة.

والذهاب الى باريس في ذلك اليوم الصيفي الجميل الواقع فيه السابع عشر من يونيو (حزيران) لم يكن بالأمر المبهج. وفيما نحن نقطع الشوارع الأليفة حيث أمضيت سنوات حياتي الذهبية وأنا في أواسط العشرين، أحسست ألماً ناخراً في معدتي. ووددت لو أني لم آتِ. ومما زاد ألمي أن مرافقينا من العسكريين الالمان كانوا مغتبطين.

أما شوارع باريس، وهي عادة تعج بالناس في هذه الساعة من أيام الصيف، فكانت مهجورة وقد سدلت الستائر بإحكام على واجهات المحلات المقفلة. ولم يظهر في الطرق أي رجل أو امرأة أو طفل.

وفجأة برز أمامنا منظر لا يُنسى: ساحة الكونكورد ونهر السين ومجلس النواب. وفوق بناء المجلس رفرف الشعار النازي وقد بدت وراءه قبة الانفاليد حيث ضريح نابوليون.

اشترك في يانصيب كندا العالمي الشهير

مليون دولار نقداً*
قد تكون من نصيبك

جوائز فورية تصل الى ١٠،٠٠٠ دولار!

■ ١١٦ سحباً في السنة! ■ جوائز مقدارها ٣٠ مليون دولار كل شهر!

٣٦٠ مليون دولار يربحها المشتركون سنوياً في ثلاثة سحوبات كندية رئيسية. وفي كل شهر يربح المشتركون أربع جوائز بقيمة مليون دولار. أكثر من ٥٠٠ من حاملي أوراقنا السعيدي الحظ صاروا أصحاب ملايين خلال السنوات الخمس الماضية. والآن بات في امكانك الاشتراك في سحوبات اليانصيب الكندي، وهي السحوبات التي تعتبر صاحبة الرقم القياسي في المبالغ التي تدفعها للرابحين في العالم. اشترك لمدة سنة واحدة ويصبح لك الحق في الاشتراك في ١١٦ سحباً. ففي كل شهر، ولمدة ١٢ شهراً متتالية، تتسلم البطاقات المشروحة في ما يأتي:

الـ ٦٠٠ دولار، قيمة اشتراكك، تخولك في كل شهر ولمدة ١٢ شهراً الاشتراك في عدد مدهش من سحوبات يبلغ مجموعها ١١٦ سحباً:

- بطاقة يانصيب "سوبر".
- بطاقتان اقليميتان (بروفنجال).
- خمس بطاقات "وسترن - اكسبرس"
- بطاقات جوائز فورية تصل قيمتها الى ١٠،٠٠٠ دولار، وهي تبقى في حوزتك للاشتراك في السحوبات السنوية.

تصلك بطاقاتك في كل شهر ضمن مغلف مختوم... وهي تختم حال طباعتها بواسطة نظام الكمبيوتر الخاص بيانصيب الحكومة الكندية الاقليمية. والبطاقات لا تحمل اسماء او عناوين، والارباح لا تخضع للضرائب.

فبطاقات اليانصيب الكندية هذه هي فريدة في نوعها، اذ ان جميع السحوبات تجرى على البطاقات المبيعة فعلاً، وليس على ارقام كمبيوترية قد تكون بينها ارقام بطاقات غير مبيعة.

نسبة حظك في الربح هذه السنة هي واحد من أربعة!

اليانصيب الكندي يقدم احتمالات غريبة مستحبة. فخلال الـ١٢ شهراً المقبلة تكون لديك:

- ٤٨ فرصة لربح مليون دولار.
- ١٢٠ فرصة لربح نصف مليون دولار.
- ٤٨٠ فرصة لربح ١٠٠،٠٠٠ دولار.
- ٤٨٠ فرصة لربح ٥٠،٠٠٠ دولار.
- ١٥٢٤ فرصة لربح ١٠،٠٠٠ دولار.
- آلاف الفرص لربح ٥٠ دولاراً حتى ٥،٠٠٠ دولار.

زائداً، جوائز فورية تصل الى ١٠،٠٠٠ دولار بالاضافة الى السحوبات المنتظمة. وبخلاف سحوبات اليانصيب الاخرى، من المضمون اشتراك رابحي الجوائز الفورية وبصورة متتابعة في جميع السحوبات الشهرية.

كيف تعرف انك ربحت؟

في كل شهر تتسلم نشرة رسمية تتضمن الارقام الرابحة خلال الاسابيع الاربعة الاخيرة. وما تربحه لا يخضع لأي ضريبة، وفي امكانك تقديم ورقة اليانصيب الرابحة الى المصرف آو آي عنوان تختاره. وتتم معاملة القبض بالكتمان، ويبقى اسمك غير معروف. وتبقى جميع البطاقات الرابحة صالحة للاشتراك في السحوبات لمدة سنة واحدة.

★ يجرى دفع المبالغ التي تربحها بالعملة الكندية الثابتة. وارباحك تكون معفاة من الضريبة وترسل مكتومة الى المصرف او اي عنوان تختاره. وقد تخضع هذه الارباح لقوانين الضرائب في مكان اقامتك

تسلم ارباحك المعفاة من الضرائب بسرية تامة

اشترك فيه الآن واستمتع بالاثارة طوال العام!

لا يمكنك ان تربح من دون بطاقه. اشترك اذن الان. ولن يكلفك الاشتراك لمدة سنة اكثر من ٦٠٠ دولار امريكي وهذه القيمة تشمل جميع رسوم الخدمات بما فيها اجور البريد وغلافات البطاقات وقوائم الارقام الرابحة المصادق عليها. ولكي تحصل على فرصة العمر للربح الوفير. املا القسيمة وارسلها مرفقة بشيك (بالدولارات الامريكية فقط)

الشيك مدفوع لامر **International Lottery Distributors**

ارسل الشيك والقسيمة الى

Capital Distribution Services 1009
220 Portage Avenue
Winnipeg. Manitoba R3C OA5 CANADA
TELEX 07-55-871 PHONE 204-947-6743

او ادفع بواسطة بطاقة **AMERICAN EXPRESS**

املا القسيمة. وارفق شيكا مدفوعا لامر **International Lottery Distributors**

ارسل الشيك والقسيمة الى **Capital Distribution Services 1009**
220 Portage Avenue
Winnipeg, Manitoba R3C OA5 CANADA

- ٦٠٠ دولار لمدة ١٢ شهرا للاشتراك في برنامج السحب الكندي.
- ٣٥٠ دولارا اشتراكا تجريبيا لمدة ٦ اشهر.

الرجاء الكتابة بوضوح او على الآلة الكاتبة

الاسم الكامل ______________________

____

الشارع ______________________

____

ص ب ________ المدينة ________

هاتف ________ تلكس ________

او ادفع بواسطة بطاقة:

American Express
☐ **Card N°** ______________________

Expiration
Month ________ **Year** ________

Signature ______________________

ARRD 08 85

SERVICES
CANADIAN GOVERNMENT LOTTERIES.

▶ واجتمعت بصديقين قديمين هما ديماري بس من صحيفة "ساترداي ايفنينغ بوست" وولتر كير من صحيفة "هيرالد تريبيون" الصادرة في نيويورك. وهما المراسلان الأمريكيان الوحيدان اللذان لم يتبعا الحكومة الفرنسية في فرارها الى بوردو. ومما جاء في مفكرتي:

"قال ديماري ان الذعر في باريس كان يفوق الوصف. وعجزت الحكومة عن استخدام نفوذها. ولم يقلّ عدد الذين هربوا من المدينة عن ثلاثة ملايين من أصل ملايينها الخمسة. وهم فروا على أقدامهم نحو الجنوب من غير حقائب ولا أمتعة."

وبعد إصغائي الى صديقيّ انطلقتُ الى الشوارع ورحت أتحدث الى الفرنسيين القلائل الذين بدأوا يظهرون هنا وهناك. وخرجت بالنتيجة الآتية:

"ما نشهده هنا في باريس هو الانهيار التام للمجتمع الفرنسي. أجل، انه انهيار الجيش والحكومة ومعنويات المواطنين. وهو أمر جللٌ يفوق التصديق."

وفي اليوم التالي سرت الى فندق كريون الذي اتخذه الالمان مقراً عسكرياً لهم، علّي أحصل على أخبار. وعرفت من الضباط الالمان المتهللين أن الهدنة ستُعلن سريعاً. وقال أحد أصدقائي انه قد يتمكن من تزويدي بعض الأنباء الأكيدة في الغد. وقد وفى بوعده. وعوّلتُ على ما أعطانيه كي أستهل مفكرتي لمساء ١٩ يونيو (حزيران):

"سيتم توقيع الهدنة في بلدة كومبيان. وهذا سيجرى في القاطرة نفسها حيث وقع الماريشال فوش هدنة الحادي عشر من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٨ في غابة كومبيان. لكن الالمان لم يعلنوا هذا الأمر بعد."

انه الثأر بالنسبة الى الزعيم النازي.

ولن أنسى ما حييت عصر الحادي والعشرين من يونيو (حزيران) ١٩٤٠ حين وقفت في غابة كومبيان لأراقب عن كثب انتصار هتلر الأخير والأعظم. وغمرت المكان شمس قوية ملأت المعابر ظلالا جميلة. وهي معابر متفرعة من خلاء دائري صغير تقوم في وسطه قاطرة الماريشال فوش. ها هو المسرح اذاً، هُيىء لكي يتذوق هتلر طعم انتصاره الكبير.

سبق صحافي

في الثالثة والربع عصراً وقفت أراقب الفوهرر وأتباعه وهم يفدون في قافلة من سيارات المرسيدس. ووصل هتلر الى وسط الخلاء بينما رايته الخاصة تُرفع على عمود. ثم رأى حجر صوّان ضخماً مع كتابة عليه، فاتجه نحوه. وتساءلت عما يكون رد فعله وهو يسمع ترجمة ما كُتب عليه (بالفرنسية). أما أنا فقد حفظت تلك الكلمات البسيطة عن ظهر قلب. وكانت، كلما تذكرتها، تثير فيّ رعشة:

"هنا في الحادي عشر من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٨ انهارت كبرياء الامبراطورية الألمانية الجائرة بعد دحرها على أيدي الشعوب الحرة التي حاولت استعبادها."

ودوّنتُ في مفكرتي ما يأتي:

"هتلر قرأ تلك الكتابة، كما قرأها مرافقوه جميعاً وهم واقفون هناك بصمت تحت شمس يونيو (حزيران). ونظرت الى وجه هتلر عليّ أعرف انطباعه. وطالما راقبت ذلك الوجه في ساعات حياته الكبيرة. لكنه اليوم ملتهبٌ حقداً وغيظاً ومقتاً وثأراً... وانتصاراً.

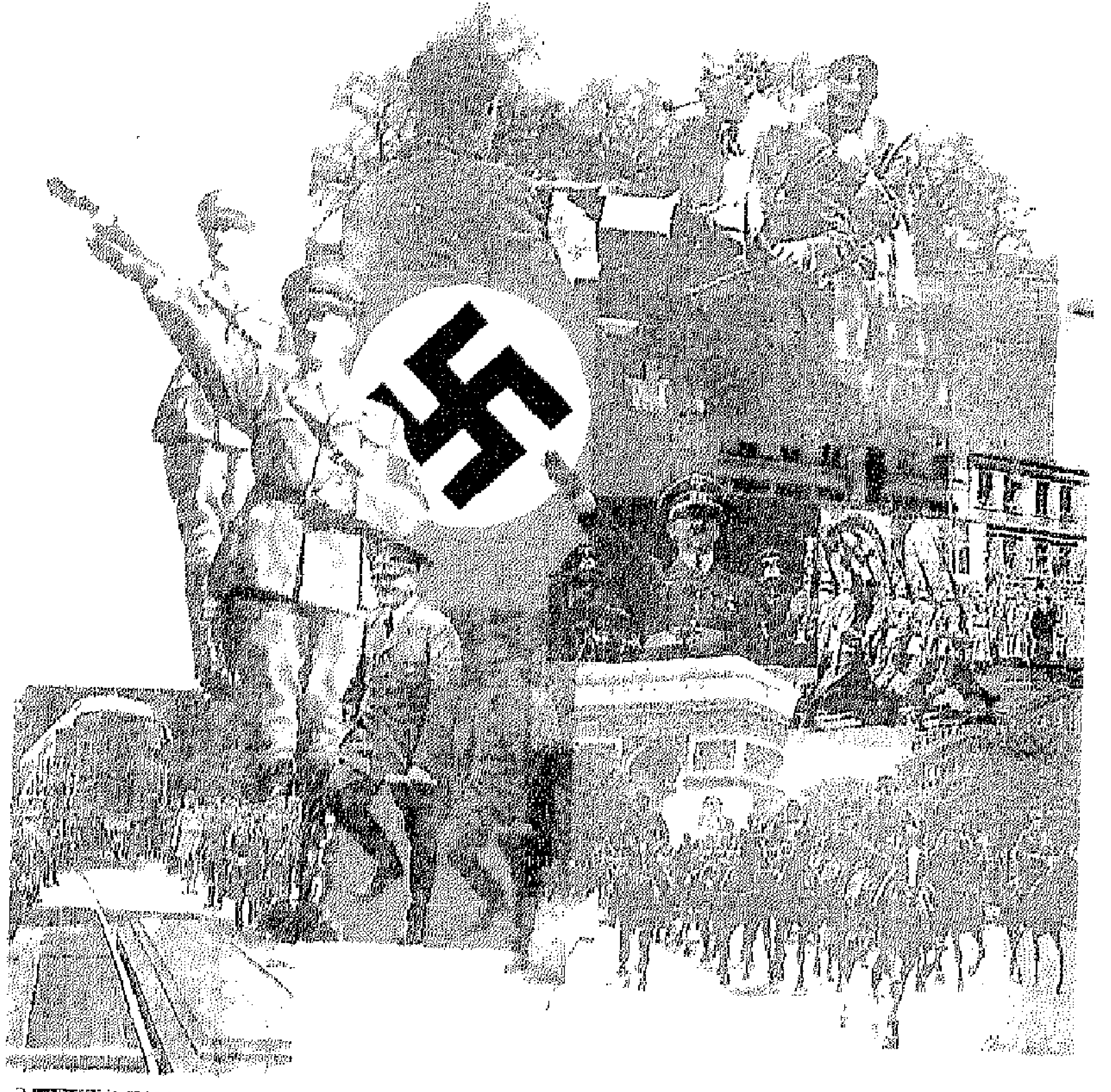
هتلر أمر بإعادة جميع المراسلين الأجانب والألمان الى برلين حيث كان سيذهب هو نفسه لاحقاً، على أن يصدر الخبر الرسمي من هناك عما حل بالهدنة. وجميع مراسلي الصحف الأمريكية الذين تحدّثت اليهم قالوا انهم سيتقيدون بالتعليمات ويعودون أدراجهم الى العاصمة الالمانية. أما أنا فارتأيت البقاء.

وسر أحد أصدقائي الضباط لقراري إذ وجد فيه تحدياً للفوهرر الذي يمقته. لكنه نبّهني الى أن هتلر أمر بمراقبة جميع المراسلات الاذاعية ذلك اليوم في برلين، وعدم إرسالها الى الولايات المتحدة قبل اعطاء موافقته الشخصية.

ومهما يكن فان تقريري قائم على شهادة عيان.

وفي الثامنة والربع مساء باشرت قراءة التقرير بعدما فتح الجيش والاذاعة الالمانية الخط الى برلين. وجاءت رسالتي ارتجالا من نقاط دوّنتها في نصف ساعة بعد توقيع المعاهدة. وأنساني الموقف الحماسي أن ما أفعله لا يتجاوز تسجيلا صوتياً ستتم مراقبته في برلين. ولكن ربما ألهمني حدسي ان السلطات الالمانية ستتساهل في الأمر وتبث الرسائل من غير مراقبة.

ونمت طويلا في الصباح التالي واستيقظت على قرع الباب. وكان زائري



"وفجأة ارتعش جسمه كله ليعكس مزاجه في تلك اللحظة. ومرر يديه على شفتيه وهز كتفيه وباعد بين قدميه... انها وقفة التحدي الكبير لهذا المكان وما جسّده طوال السنوات الاثنتين والعشرين التي أعقبت إذلال الامبراطورية الالمانية."

بهذه النفسية قاد هتلر وفده الى القاطرة وجلس في مقعد الماريشال فوش. وبعد خمس دقائق وصل المبعوثون الفرنسيون. وعلى رغم الارتباك الظاهر على وجوههم فهم حافظوا على كبريائهم. وكان هتلر يقصد تحقيرهم.

وفي اليوم التالي توجهت باكراً الى كومبيان بعدما زوّدني صديق من القيادة الالمانية العليا معلومات مفادها أن الهدنة التي ستضع فرنسا خارج الحرب ستوقع في وقت باكر من هذا اليوم. وهناك سبب آخر دفعني الى الذهاب باكراً. فقد علمت وأنا أتناول الفطور أن

الزميل ولتر كير الذي بادرني: "لقد حققت سبقاً صحافياً عالمياً أمس. واني أهنئك من صميم قلبي."

وأوضح أنه لبث في مكتب "الهيرالد تريبيون" يصغي الى اذاعات نيويورك، خصوصاً شبكة «CBS» ، على الموجة القصيرة. وأضاف أن تقريري حول توقيع الهدنة ووصف ما جرى في كومبيان كان سبقاً من حيث محتواه وتوقيته، وأن التقارير التي تلته جاءت بعده بساعات.

والحق أن ما أنجزته كان ضربة حظ. فالمراقبون في برلين بثوا رسالتي خطأً على الموجة القصيرة فور قراءتها من كومبيان. لكن أصدقاء لي في القيادة العليا لمّحوا لاحقاً بأن هتلر نفسه شاء نقل أخبار الهدنة الى الولايات المتحدة في أسرع وقت ممكن لكسب الشعبية هناك.

وتلبثت قليلا في باريس. وكانت أيام يونيو (حزيران) الأخيرة على ضفاف السين مشرقة جميلة. الا أن كآبة أتت عليّ، مصدرها أني لم أعد أفهم الفرنسيين الذين أُعجبت بهم وأحببتهم خلال إقامتي الماضية وعملي في باريس. أجل، لم أفهم لماذا لم يحاربوا كما فعل آباؤهم في الحرب الماضية ضد الغزاة الالمان. ولم أفقه ترحيبهم أو ترحيب غالبيتهم بالهدنة وغفلتهم عن الذل الذي لن يلبثوا أن يختبروه تحت النير النازي.

وبعد ٤٣ سنة عادت بي الذكريات الى تلك الايام الجميلة من يونيو (حزيران) في باريس، حين استسلم الفرنسيون للألمان من أجل الحفاظ على وجه عاصمتهم الفاتن. وكنت عصر ذلك اليوم المشمس والبارد الواقع فيه الحادي والثلاثون من أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٨٣ في مقبرة بيسكاريوفسكوي التذكارية في لينينغراد. هذه المدينة كانت هي أيضاً فاتنة، لا بل كانت أجمل مدن روسيا على الاطلاق. ولكن حين اقترب منها الالمان بعد سنة، في سبتمبر (أيلول) ١٩٤١، عقد الروس العزم على الدفاع عنها. وقد استماتوا فعلا في دفاعهم خلال أيام الاحتلال التسعمئة التي شهدت ثلاثة فصول شتاء لا يذكر الناس مثيلا لقسوتها والتي قضى فيها السكان جوعاً وبرداً كما يقضي الذباب. ودفن نصف مليون منهم في مقبرة بيسكاريوفسكوي. وفيما أنا أسير بين تلك المدافن الجماعية، لم أملك الا أن أتساءل: ما الذي دفع هؤلاء الناس الى الدفاع ثلاث سنوات عن مدينتهم ورفض الاستسلام؟ ومن ذا الذي يفعل فعلهم على أرضنا هذه؟ بالطبع، الفرنسيون الذين شاهدتهم في باريس صيف ١٩٤٠ لا يفعلون شيئاً من هذا القبيل. هل يفعله بنو قومي إذاً؟"

الوداع

في ١٦ يوليو (تموز) ١٩٤٠ أعلن على الملأ للمرة الاولى في برلين أن هتلر بات مستعداً لغزو بريطانيا. غير أن الالمان ترددوا حيال تنفيذ ذلك الأمر. فجيشهم المنتصر لن يستطيع سحق القوى البريطانية الضعيفة ما لم يعبر بحر المانش أولا. وهذا البحر ضيّق جداً بين بلدة كاليه الفرنسية وبلدة دوفر البريطانية بحيث يتمكن المرء في الايام

الصافية الجو من رؤية الجهة المقابلة. واضطر الالمان الى إرجاء ذلك الاجتياح الى أجل غير محدد بعد إخفاق محاولتهم في ١٧ سبتمبر (أيلول) التي سموها "عملية النسر". وهي محاولة حشدوا لها أضخم قوة جوية مغيرة عرفها العالم.

وكانت معلومات موثوق بها وردتني، مؤداها أن هتلر سيستولي على مضيق جبل طارق في اسبانيا اذا أخفق هجومه على بريطانيا واضطر الى تأجيله. وهذا يعني أن عائلتي في جنيف لن تستطيع الفرار منها. والطريقة الوحيدة الباقية لبلوغ الولايات المتحدة هي اختراق الجزء غير المحتل من فرنسا وصولا الى اسبانيا، ومنها الى العاصمة البرتغالية لشبونة. ووافقت زوجتي على مضض انه من المفضل اغتنام الفرصة المتاحة ومغادرة جنيف مع طفلتنا آيلين. ورافقتهما الى الحافلة السويسرية التي أقلتهما الى مطار جنيف فجر ٢٣ اكتوبر (تشرين الثاني).

كان ذلك كل ما أمكنني فعله ليتسنى لي الذهاب الى المانيا في اليوم التالي. وفي الآونة الأخيرة راودني شعور بأنه لم يعد في مقدوري قول الحقيقة من ذلك المكان، الى شعوري بأن السلطات الالمانية تضيّق الخناق عليّ. ولم يكن ذلك بالوهم. فقد حصل صديق ألماني حميم يعمل في الاذاعة على برقيات عني وردت من السفارة الالمانية في واشنطن، كما حصل على ردود الفعل التي أثارتها تلك البرقيات في برلين. وأهم ما جاء فيها أن سفارة المانيا في العاصمة الأمريكية، ولاسيما ملحقها العسكري، على قناعة بأني جاسوس يستخدم بعض الكلمات الرمزية في تقاريره الاذاعية.

ولم تكن لدي نية السماح للنازيين بتصنيفي في خانة الجواسيس.

ولأسبوع كامل لم أسمع خبراً من تس. وأخيراً في مطلع نوفمبر (تشرين الثاني) اتصلت بي سفارتنا لتقول انها وصلت الى البرتغال سالمة. وذلك طمأنني كثيراً.

وفي الخامس من نوفمبر (تشرين الثاني) أضفتُ الى مفكرتي المزيد من الأخبار الطيبة: "اذا سار كل شيء حسناً، فسأغادر هذا المكان بعد شهر."

وظللت أسبوعاً أنعم النظر في طريقة تهريب الدفاتر التي دونت فيها يومياتي. وهي تحوي من المعلومات ما يكفي لتعليقي على عود مشنقة. وفجأة اتضح لي الحل صباح تسلمي جواز سفري مع تأشيرة الخروج، وإن كان ينطوي على خطر.

أنوار أوروبا

وضعت دفاتري في حقيبتين كبيرتين من معدن، وفوقها تقاريري الاذاعية التي ختمت الرقابة العسكرية والمدنية كل صفحة من صفحاتها. ووضعت فوق ذلك كله بعض خرائط القيادة العامة التي حصلت عليها من أصدقائي. ثم اتصلت بمقر الشرطة السرية في ساحة الكسندر، وقلت ان لدي حقيبتين مليئتين بالمراسلات والتقارير التي أريد إخراجها معي. وأضفت اني مسافر فجر اليوم التالي، وان ضباط الشرطة في المطار لن يكون لديهم الوقت للتدقيق في المحتويات. وسألتهم ما اذا كان في

استطاعتهم مراقبة الحقيبتين وختمهما ان أنا حملتهما اليهم في تلك اللحظة.

وجاءني جواب أحد المسؤولين: "احمل الحقيبتين وسنلقي نظرة عليهما."

وبعد المكالمة قلت لنفسي: "أليس ما أفعله تحدياً للأقدار؟ وكيف لجماعة الغستابو الصارمين إلا أن يتشمموا اليوميات تحت الأوراق المختومة؟" واذا حصل ذلك فهو يعني نهايتي. وربما كان أفضل حل أن ألقي تلك الدفاتر في المرحاض وأفتح عليها الماء. ومن ناحية أخرى خمنت أن الغستابو لن يسمحوا بأخراج الخرائط من البلاد، خصوصاً في ظل الحرب، لأنها تحمل ما يعد أسراراً عسكرية. وهكذا تركت الخرائط فوق المواد جميعاً حتى يكون لضباط الشرطة ما يصادروه فيشفي غليلهم.

وتم كل شيء كما توقعت. وبادر المسؤولان اللذان استقبلاني الى مصادرة الخرائط. واعتذرت على حملها قائلا اني نسيت تركها في اللحظة الاخيرة. وبعد ذلك دقق الاثنان في أختام الرقابة على الاوراق. وبدا عليهما التقدير. أما انا فقلت لنفسي انهما لن يلبثا حتى يصلا الى تحت.

وسأل أحدهما: "ان رسائلك تدور على الجيش الالماني... أليس كذلك؟"

وأجبت: "أجل، فأنا رافقت الجيش الالماني الى باريس ومن هنا الى كومبيان حيث تم توقيع الهدنة. وهو جيش عظيم حقاً، وقد استوحيت منه أعظم التقارير التي ستدخل صفحات التاريخ."

ويبدو أن ذلك حسم الأمر.

وقال أحدهما: "أوكي." وبدا فخوراً بنطقه تلك العبارة الانكليزية، فيما أحضر الآخر سلكاً معدنياً وربط الحقيبتين اللتين مهرهما بأختام كثيرة. وحاولت ألا اسرف في التعبير عن شكري. وفي الخارج أوقفت سيارة أجرة أقلّتني الى المطار. وهناك أرسلت الحقيبتين فوراً الى الطائرة.

ومن مفكرتي:

"استوريل، جوار لشبونة، ٧ ديسمبر (كانون الاول) – لشبونة والنور والحرية والصحة... أخيراً!"

وأعلمتني شركة "بان أميركان" ان الاحوال الجوية السيئة تمنع إقلاع طائرتها. ونصحني المسؤولون بأخذ باخرة "اكسبورت لاين" الاسبوعية، وبجعل رحلتي في الثالث عشر من ذلك الشهر اذا شئت بلوغ نيويورك قبل عيد الميلاد.

وكان ألوف اللاجئين ينتظرون دوراً لهم على تلك السفن الصغيرة. ووعد المدير المحلي للشركة بتأمين مكان لي، وان تعيَّن علي النوم على مقعد في غرفة الجلوس. فقلت له ان ذلك لا يهمني.

وبدا القمر بدراً كاملا فيما السفينة تبتعد عن مرساها. ووقفت طويلا على حافتها أراقب الانوار الخافتة في القارة الاوروبية التي كانت مأواي ومركز عملي لأكثر من خمس عشرة سنة والتي أمدتني بالكثير من السعادة الشخصية وتحقيق الذات. اما الآن فقد خيم عليها ليل طويل حالك وقاس. ولقد راقبت دنوه سنوات وحاولت وصفه وهو يتجاوز كل تعبير. ولكوني غريباً أسعفني الحظ في الهرب بعيداً عن ذلك السواد. لكن الذين خلّفتهم ورائي حُرموا نعمة الفرار. وكل ما أمكنهم



فعله هو الصمود من يوم الى يوم تحت قنابل النازيين واضطهادهم، علّ يوماً يأتي حاملا النور من جديد.

وبقيت مسمّراً الى حافة السفينة وقتاً لا بد من أن يكون استغرق ساعات حتى انحلّت انوار الشاطىء الى ظلام وغابت أوروبا عن الانظار.

بعد سنوات خمس، وكانت الحرب انتهت وحل العام ١٩٤٥، زرت المانيا. وكان "حكم الألف سنة" الذي طمح اليه هتلر تلاشى في بدايته ومات صاحبه بعدما خسر الحرب التي منحته انتصارات كثيرة. وغرقت المانيا في بحر من دمار. وبدا الناس في ذهول واستسلموا للبرد

والجوع. والقادة النازيون الذين لم يقدموا على الانتحار كما فعل الفوهرر باتوا أسرى في نورمبرغ، انتظاراً لمحاكمتهم على الجرائم التي ارتكبوها في حق الانسانية بعدما أفلتوا زمناً من قبضة العدالة.

وفي برلين، حيث راقبتهم عن كثب خلال حكمهم المتهوّر الطائش، رحت أجوس الشوارع وسط تلال الحطام وأنظر عن جانبيّ فأرى الأبنية المقصوفة وأتأسف لكل ما جرى. وسرّحت نظري الى أبعد مجال فلم أجد مبنى واحداً سالماً من الأذى. وكان الركام في كل مكان والغبار يتطاير. ورأيت الجرّافات تعمل على تنظيف الشوارع كيما يتسنى لسيارة واحدة المرور في كل اتجاه.

ولم يبقَ الكثير من مقر المستشارية حيث عاش أدولف هتلر وعمل ومات. ونتأت بعض القضبان المعدنية من بين الحطام. ووقف حارس من الجيش الأحمر في الباب المؤدي الى غرفة هتلر المحصنة تحت الارض. وتأكد لي أن هتلر لم يقضِ كما قالت أبواق الدعاية النازية "على نحو بطولي وهو يدافع حتى الرمق الأخير ضد البولشفية."

والواقع أن أدولف هتلر انتحر في غرفته المحصّنة بجانب عشيقته ايفا براون التي اتخذها زوجة شرعية في الساعات الأربع والعشرين الأخيرة من حياته. وهي تناولت السم وقضيا معاً. وقد انتحر هتلر عند إطباق القوات السوفييتية على المستشاريّة وقصفها من مسافة قريبة جداً. وكانت وفاته في الثالثة والنصف عصر الاثنين الواقع فيه الثلاثون من ابريل (نيسان) ١٩٤٥، بعد مرور عشرة أيام على عيد ميلاده السادس والخمسين واثنتي عشرة سنة وثلاثة أشهر على اليوم الذي أصبح مستشاراً لألمانيا.

■ وليم شايرر




التعليق الصحافي

قال الصحافي الأمريكي رصل بيكر: "أصعب ما في التعليق الصحافي اليومي العثور على موضوع يهم القراء في يوم معين من غير ان يخرج عن اهتمام الكاتب. الا اني أحب كتابة التعليقات مهما بلغت مشقتها. فالذي يلقي همومه على مليون قارىء لا يحتاج الى طبيب نفسي."

مجلة "جيو"

سوف يبقى على الدوام من يقلق على العالم فيما بيته ينهار ومن يقلق على بيته فيما العالم ينهار.

ا.س.



وادي السراب

عام ١٩٧٤ ذهب مارك وديليا اوينز الى قلب صحراء كالاهاري من غير أي دعم رسمي وهما لا يحملان سوى القليل من المتاع والنقود. ودفعهما الى ذلك المكان حبهما دراسة الحيوانات البرية التي تسرح فيه. وبشجاعة قلَّ نظيرها وقدرة خارقة على تحمل الصعاب، أمضيا سبع سنوات هناك أضافا خلالها صفحات مشرقة الى تاريخ العلم



الكاتبان يتقيان حر كالاهاري اللاهب بالتظلل تحت مناشف مبلله، والحراره هنا ٥٠ درجة مئويه.

مارك:

اتجهنا في السيارة شمالا مساء أمس مهتديين بأصوات الأسود. لكن الزئير انقطع نحو الثالثة فجراً، الأمر الذي قد يعني أن الاسود حصلت على فريستها. ولكن كيف لنا أن نبلغ مكان الاسود إلا اذا جأرت لنتبعها؟ وهكذا فرشنا كيسي النوم وغفونا حتى مطلع الشمس.

وأيقظني صوت رفيقٍ، فرفعت رأسي ونظرت أمامي. وحبست أنفاسي لرؤيتي لبوءة ضخمة جداً يزيد وزنها على ١٣٥ كيلوغراماً. وراحت تتقدم نحونا من مسافة خمسة أمتار ورأسها يترجح ذات اليمين وذات اليسار وشعرِ ذيلها الأسود ينتفض بإرادتها. واقتلعت بعض العشب وجمدت في مكاني خوفاً. واقتربت اللبوءة اكثر فأكثر وقد فغرت ما بين فكيها وسال اللعاب الفضي حتى عثنونها وهي تتفرس فيّ.

وعندما بلغت قدميّ تراجعت قليلا. وقلت لزوجتي: "ديليا، قومي! الأسود جاءت الينا."

ورفعت ديليا رأسها وفتحت عينيها. وكاد ذلك الجسد البالغ المترين ونصف المتر طولا أن يلامسنا وهو يتجه نحو أجمة تبعد ثلاثة أمتار. وقبضت ديليا على ذراعي وأشارت الى اليمين. وأدرت رأسي قليلا لأجد لبوءة أخرى على بعد أربعة أمتار، ثم ثالثة فرابعة. وكان هناك تسع لبوءات حولنا، معظمهن هاجعات. وهكذا بتنا محاطين فعلا بالاسود.

بعد ذلك عرفنا مواقف كثيرة مع الاسود، لكنها لم تكن جميعاً أنيسة. الا أن تلك الجماعة منها قبلت بنا كلياً حتى انها نامت بجانبنا، الأمر الذي أمدنا بأفضل التجارب منذ مباشرة أبحاثنا في صحراء كالاهاري الواسعة في بوتسوانا. وهذه الصحراء الواقعة في قلب افريقيا الجنوبية تسمى أحياناً "الظمأ الأكبر".

وكنت وزوجتي طالبين شابين في المرحلة المثالية من العمر. وهكذا ذهبنا الى افريقيا من غير دعم بهدف دراسة الحياة البرية هناك. وبعد أشهر من البحث عن منطقة محتفظة بنقائها الأصلي، وجدنا طريقنا أخيراً الى قلب صحراء كالاهاري، وبالتحديد الى أرض قصيّة واسعة تسرح فيها الحيوانات البرية وتمرح كما تشاء. وباستثناء بعض رجال القبائل الذين يعيشون حياة العصر الحجري، لم يكن من بشر سوانا في ذلك القفر الذي تبلغ مساحته ٥٢ ألف كيلومتر مربع. ونصبنا خيمتنا في مكان لا حانوت حوله ولا قرية، وحتى لا طريق. وكان علينا ان نحمل الماء مسافة ١٦٠ كيلومتراً عبر الآجام. وأحيانا كنا ننقطع أشهرا عن العالم الخارجي.

وكان الذهاب الى افريقيا رغبة مشتركة بيننا كما أظن. فنحن على الدوام أحببنا الأماكن البرية المنعزلة التي طالما أمدتنا بالبأس والسلام والسكينة وجعلنا من حمايتها مبدأ لنا وقضية.

وقد جمعني وديليا صف في علم الأحياء في جامعة جورجيا بالولايات المتحدة مخصص لدراسة الحيوانات الوحيدة الخلية. ولم ينقضِ وقت طويل حتى وجدنا أن أهدافنا واحدة. وفي نهاية الفصل الدراسي عرفنا ان أحدنا لن يذهب الى افريقيا الا برفقة الآخر.

وبما أننا لم ننل شهادة الدكتوراه، فان حظنا كان في الحصول على منحة دراسية من احدى الهيئات المختصة بالمحافظة على الحياة الطبيعية. وارتأينا تعليق دراستنا الجامعية والعمل على جمع المال اللازم لرحلتنا، وكل أملنا أن تمدنا احدى المؤسسات بمال اضافي بعد تحديد مكان عملنا ومباشرته.

ودرّسنا أشهراً ستة لم نستطع ادخار شيء خلالها. وبعد ذلك عملت انا في مقلع حجار فيما اشتغلت ديليا في الطباعة على الآلة الكاتبة. وانقضت ستة أشهر أخرى تجمع لنا خلالها ٤٩٠٠ دولار فضلا عن أجور السفر الى جوهانسبورغ في جنوب افريقيا. لكن ذلك لم يكن كافياً.

وفي محاولة منا لجمع المزيد من المال بعنا ما لدينا من أجهزة، بما فيها الستيريو والراديو والتلفزيون وعدّة صيد السمك والسيارة وبعض أمتعة المطبخ، وذلك كله في مقابل ١١٠٠ دولار.

ليلة آكلات اللحوم

في الرابع من يناير (كانون الثاني) ١٩٧٤، بعد سنة من زواجنا، ركبنا الطائرة ومعنا كيسان يُحملان على الظهر وكيسان للنوم وخيمة صغيرة لشخصين وعدة طعام وآلة تصوير وغيار واحد من الثياب الداخلية لكل منا و٦٠٠٠ دولار. أجل، هذا كل ما حملناه معنا الى افريقيا.

من المشكلات الاولى الملحة التي واجهتنا لدى وصولنا الى غابورون عاصمة بوتسوانا العاجة بالغبار، تأمين سيارة لاستعمالنا اليومي. وأفضل ما استطعنا الحصول عليه سيارة لاندروفر مستعملة غدا سقفها مقعَّراً وجانباها مطرَّقيْن. واشتريناها بـ١٥٠٠ دولار وأصلحنا محركها وأضفنا اليها خزاناً آخر للوقود. وبقي لدينا ٣٨٠٠ دولار، علماً اننا نحتاج الى ١٥٠٠ دولار منها للعودة الى الولايات المتحدة اذا لم نحصل على المنحة المرتقبة. وهذا يعني ضرورة تحديد مكان البحث على الفور والشروع فيه.

وقال لنا ليونيل بالمر وهو صياد خبير: "لماذا لا تذهبان الى كالاهاري؟ لقد شاهدتُ من الجو مكاناً هناك اسمه وادي السراب وفيه حيوانات كثيرة. لكني لم أتصيد في ذلك المكان لأنه يقع في قلب الصحراء."

والواقع أن قلب كالاهاري ليس بالصحراء الحقيقية، اذ يبلغه ٤٥ سنتيمتراً من المطر سنوياً. وهو خال من الكثبان المتحركة التي تميز الصحراء الكبرى وسواها من الصحارى الرئيسية في العالم. لكن الرطوبة -هناك تتبخر سريعاً او يمتصها الرمل أو النبات. والاسوأ من هذا ان المطر قد ينحبس طوال سنوات.

ووادي السراب نفسه هو البقية الباقية من نهر قديم انقطعت مياهه قبل ١٦ الف سنة. وكانت الأمطار في ذلك الزمان الغابر أشد كرَماً منها في يومنا هذا. وارتفعت من الضفاف القديمة كثبان الرمل التي نما فيها العشب والشوك على امتداد كيلومترين. والنمو النباتي يمنع هذه الكثبان من الزحف والانتشار.

هناك تعرفنا الى بيرجي بيرغوفر الذي عاش في منطقة كالاهاري ما يربو على العشرين عاماً وهو يحفر الآبار بحثاً عن

الماء والمعادن. وذات يوم أخذنا عبر وادي السراب جنوباً أبعد مما بلغناه سابقاً. ووقفنا أخيراً فوق كثيب مشرف على أرض مستديرة واسعة تشبه مقلاة من طين. وبفعل ترابها الرمادي القاتم بدت كأن في جوفها ماء. وهذا يحمل طيور الماء المهاجرة على التوجه اليها خلال أيام الجفاف. وأخبرنا بيرجي أن رجال القبائل سموا الوادي كله باسم تلك "المقلاة" الخادعة.

وتبين أن وادي السراب هو المكان المثالي لاستهلال دراستنا. وكانت أنواع من النبات تمتد بين حوض النهر والمرتفعات الرملية وتغتذي عليها الطيور والحيوانات. ومن أكثر انواع الحيوانات انتشاراً هناك الظباء والمها الصغيرة والكبيرة والزرائف والأبقار الوحشية. ولا شك في أن اجتماع الحيوانات هناك من شأنه اغراء الحيوانات المفترسة كالأسد والنمر وابن آوى والضبع.

ومن أجل اختيار أحد تلك الحيوانات المعتدية لدراستها، رحنا ندوّن الملاحظات عن كل ما يقع عليه نظرنا. ومن جملة ما لاحظناه أمر وجّه أنظارنا طوال سنيّ الدراسة، الا وهو أن آكلات اللحوم في صحراء كالاهاري هي من الكائنات الليلية.

وذات ليلة كنا عائدين من جولة مراقبة، فسلّطنا أنوار السيارة على مخيمنا. وشاهدنا عينين لم نعرف مثيلا لهما، خضراوين كالزمرد وواسعتين لحيوان قاتم اللون طويل الشعر يشبه الدب. وهو طويل عند الكتفين وذو رأس مربع، لكن قائمتيه الخلفيتين قصيرتان جداً وذيله طويل وكثّ. ولما أبصرنا أخذ يعدو سريعاً. وأسرعت في اثره ونهدنا معاً الى زجاج السيارة الأمامي علّنا نراه جيداً. وبدا كالشبح المخيف وهو يقفز في البطاح.

وما ان بلغنا الخيمة حتى رحنا نقلّب المجلّد الذي في حوزتنا حول الحيوانات الكبيرة في افريقيا. ولم نقع على أي وصف أو رسم يحاكي ذلك الوحش. والواقع أننا لم نتأمله ما فيه الكفاية. ومهما يكن فهو ليس بالحيوان الشائع. وأخيراً قرّ رأينا نحن الاثنين على أنه واحد من فصيلة الضباع البنية، وهو من اللواحم الكبيرة النادرة على الأرض هذه الأيام.

يا لها من ضربة حظ! هذه فصيلة من الكائنات الطبيعية المهددة بالانقراض التي لم تُدرس جيداً فبقيت شبه مجهولة. وكل ما نسجّله عنها سيُعدّ مساهمة علمية جيدة ومحاولة للحفاظ عليها. انه موضوع مثالي للدراسة.

"السيارة تحترق"

الضباع البنية كائنات ليلية متكتمة. لذلك كنا كل ليلة نمشط حوض النهر بواسطة أنوار السيارة وننقل أنظارنا تارة الى اليمين وأخرى الى اليسار طوال ساعات. وكنا نجد بنات آوى وذئاباً وقططاً برية بين الأعشاب في كل مكان. وأحياناً قليلة نرى واحداً من الضباع البنية، ولكن بعيداً عنا وهو يعدو سريعاً في الظلام. وكاد ذلك أن يقودنا الى اليأس.

أمطار ١٩٧٤ أحدثت فيضانات في

أنحاء كثيرة من البلاد، وهي من أغزر الأمطار التي سُجلت في بوتسوانا. ونما العشب على أثرها أطول من قامة إنسان، وامتد مئات الكيلومترات كالقمح المذهب. وفي يوليو (تموز) بعد ثلاثة أشهر من وصولنا الى وادي السراب،



الحريق يزحف على مخيم مارك وديليا أوينز.

استحال العشب قشاً بفعل الشمس ثم غدا مادة سريعة الالتهاب. ويقول بعضهم ان أشعة الشمس المتسربة عبر قطرة ندى كافية لإشعال حريق.

وذات صباح رأيت غيمة رمادية غريبة ترتفع في سماء الشرق أكثر من ألف متر وهي تتلاطم وتنتفخ حتى جزّت الريحُ رأسها على هيئة ذيل من البخار امتد جنوباً... انها النار التي سرت في الصحراء حتى مسافة بعيدة جداً لم نستطع تقديرها.

وانقضى اسبوعان. وفي هدأة الليل باتت التماعات النور المفاجئة تظهر في السماء. ها هو الحريق يزحف من جديد. وكلما أطفأته الكثبان عادت الريح تضرمه. وعرفتُ أخيراً أنه حريق عملاق يمتد في صحراء كالاهاري ثمانين كيلومتراً من الشمال الى الجنوب.

ومرّ أسبوعان آخران. وفي صباحٍ في مطلع شهر أغسطس (آب) نهضت من السرير لأجد ورقة عشب استقرت على ظاهر يدي هيكلا أسود. ونظرت الى السماء فرأيتها ملأى برماد العشب المحترق الذي غطى كل شيء حولنا مثل ثلج أسود. انها النار تكاد أن تأكلنا.

والى تهديدها سلامتنا الشخصية وسلامة الحيوانات، فهي تهدد الدفاتر التي دوّنا فيها ملاحظاتنا،كذلك السيارة. وغطيت اللاندروفر بشجرة ساقطة لتصدّ عنها النار. وأخذتُ وديليا مجرفة وفأساً وأزلنا القش اليابس المتراكم حول مخيمنا. وفكت ديليا الخيمة وبسطتها أرضاً ووضعت حولها أوعية الماء. والواقع أن هذا كل ما استطعناه.

وفي منتصف العصر وصلت الشرارة الاولى الى الكثيب الشرقي وقد حملتها ريح الصحراء الشديدة. والتهمت جميع النباتات الطويلة والأغصان القصيرة من احدى الأشجار ثم تسلقت قمة الشجرة وحوّلتها مشعلا طوله عشرة أمتار. وعبرت شرارة أخرى الكثيب وتبعتها اخرى. وأتت النار على المكان وانفجرت الأشجار كالبركان. وتولد من الحرّ الشديد ريح غذّت النار ودفعت ألسنتها نحو حوض النهر بسرعة لا تُصدَّق.

وصرخت بأعلى صوتي: "ان الوقاء الذي جعلناه للسيارة لن يصدّ عنها زحف النار. وهرعت الى اللاندروفر وسحبتُها الى مسافة أقرب لتغدو في وسط المخيم.

وكنت أؤمّل أن تعمل المعابر التي حفرتها عجلات سيارتنا بالقرب من النهر، أي عند مسافة ٤٠٠ متر من المخيم، على إرجاء زحف النار. لكن ألسنة اللهب لم تتوقف عن الامتداد وركضتُ بأقصى سرعتي الى السيارة في محاولة أخيرة لاتقاء النار. وصعدتُ اليها وقدتها أبعد ما استطعت. وفجأة رأيت ديليا تركض نحوي وتصرخ وهي تلوّح بيديها: "السيارة تحترق! أخرج يا مارك حالا قبل أن ينفجر خزان الوقود." وكان الصهريج ورائي يتسع لمئتي ليتر وقوداً. واشتعاله يعني انفجار السيارة. ودست الكابح وقفزتُ خارجاً، ثم ركضتُ حوالى ثلاثين متراً الى حيث وقفت ديليا لنراقب الانفجار معاً.

وصرخت زوجتي: "ان دفاترنا جميعاً وآلة التصوير وكل شيء ثمين هو هناك في الداخل."

وتذكرت قارورة إطفاء الحريق القديمة المعلقة بسقف السيارة فوق المقعد الأمامي. وعدت الى هناك، لكن مفتاح القارورة كان صدئاً ولم يتحرك. ونخعته بقوة ورميت القارورة من النافذة. ثم أدرت محرك السيارة وقدتها بسرعة حتى سقطت بقايا الشجرة المحترقة أرضاً. وأكملت طريقي نحو أرض صخرية صغيرة وهناك رميت الرمل على أجزاء السيارة السفلية التي علقت بها النار.

بعد ذلك عدنا الى الخيمة وسكبنا فوقها الماء. وتحمّلنا الدخان اللاذع الذي تسرّب الى أنفاسنا في محاولة لابعاد النار عن بيتنا وسط الصحراء. وأخيراً نجحت المحاولة ودُحرت النار.

وخررنا عياء على ركبنا ونحن نسعل ونتنهد ونحس النار في رئتينا. وتقرّحت شفاهنا وأيدينا وجبهتانا وسُفعت أجفاننا وأهدابنا. وبقينا أيّاما نتفّ السخام الأسود.

وكنا قبل شهر بعنا تذكرتي العودة واشترينا بثمنهما مزيداً من المؤونة في انتظار الحصول على المنحة. لكننا لم نحصل على شيء. ولم يبقَ لدينا سوى مئتي دولار أو أقل.

فريق صادق

أجل، نفد المال منا، ولكن بقيت لنا مؤونة من الطعام والوقود تكفي أسابيع. واذا أحسنّا استخدامها ففي امكاننا إطالة دراستنا وقتاً كافياً للعودة الى قرية مون التي تبعد ١٦٠ كيلومتراً شمالا. ومهما تكن الفكرة ساذجة، فقد قرّ قرارنا على المثابرة.

وبدا أن خوفنا من إتيان النار على سجلاتنا العلمية لا مبرر له. والحق أن الحريق سهّل لنا مطاردة الحيوانات ومراقبتها. الا أن قرارنا البقاء في وادي السراب لم يُتخذ بسهولة. فقبل أسابيع من الحريق بتنا نعيش على القليل من الطعام، ومعظمه من الذرة والشوفان مع الحليب المجفف. وخسرت انا ١٦ كيلوغراماً من وزني فيما خسرت ديليا سبعة كيلوغرامات. وأصابنا الضعف الجسدي والخمول، وبتّ على يقين أن ديليا تعاني فقر الدم.

وذات صباح في بداية سبتمبر (أيلول) حلّقت فوقنا طائرة بيضاء وزرقاء صغيرة. وفيما هي على وشك الهبوط رأيتُ فيها

نوربرت دراغر وهو طبيب بيطري ألماني يسكن بلدة مون. وقد جلست زوجته كيت الى جانبه بينما جلست ابنتهما لوني في المقعد الخلفي.

ونزلت كيت من الطائرة وفي يدها سلة قصب ملأى بالمآكل البيتية من خبز وفطائر لحم وسمك طازج وجبن وخضر وحلوى. ولا بد من أن نكون بدونا كشخصين جشعين ونحن نلتهم تلك الطيبات بأعيُننا.

وعندما غادرنا أولئك الأصدقاء أتت علينا وحشة لم نعرف مثيلا لها من قبل. أما الرسائل التي حُملت الينا فبدا أنها لم تنطو على بارقة أمل. وأخذت ديليا مبادرة فضّها وقراءتها. وقالت بنبرة ترقّب: "هذه رسالة من جمعية ناشونال جيوغرافيك الأمريكية." وكانت تلك الرسالة أملنا الأخير.

وبعد هنيهة قفزت عن الأرض وهي تلوّح بالرسالة وتقول: "اسمع يا مارك! لقد أعطونا منحة."

هكذا آمنوا بعملنا أخيراً، ومنحونا مبلغ ٣٨٠٠ دولار، قائلين اننا فريق عمل أصيل ومخْلص.

عيد في الصحراء

كان في تلك الأثناء أن غفلنا عن وضع علامة في تقويم العام ١٩٧٤ تبين التاريخ. واستناداً الى زيارة بلدة مون الأخيرة أدركنا أن عيد الميلاد ليس بعيداً. ولم يكن لدينا وقت للاحتفال بالعيد في القرية. وهكذا ابتدعنا تاريخاً وهمياً وانتظرنا حلول العيد لنبتهج به على طريقتنا.

وفي اليوم المحدد نخلتُ بعضَ الطحين لأفصل عنه السوس وأعددتُ رغيفاً بالكَرْوياء، فيما هيأت ديليا فطيرة لحم. وتحلّينا على فطيرة أخرى صنعناها بالتوت البري الذي قطفناه من الجوار.

وفي ليلة الميلاد تلك تعقّبنا اثنين من بنات آوى هما كابتن وميت، مع صغيريهما هانسل وغريتل، الى دغل في منطقة الأشجار الشمالية. وكان سبقها الى ذلك الموضع ستة أفراد من بنات آوى جاءت تقتات على جيفة ظبي من نوع القوْفَز (نسبة الى قفزه) خلّفها نمر هناك.

وفجأة توقفت جميع بنات آوى المتحلقة حول الجيفة عن الأكل ونظرت الى الظلمة شرقاً. ثم استأنفت الأكل على نحو أسرع من الأول. ووجّهتُ النور الكاشف الى الشرق. وشاهدت ضبعاً بنياً فاتحاً عينيه الواسعتين وهو ينظر عن بعد ١١٥ متراً. وجلسنا بلا حراك ونحن نأمل أن يأتي ذلك الضبع الى المكان على رغم وجودنا.

ودار الضبع مراراً حول اللاندروفر ووقف ينظر طويلا. وأخيراً انتصب شعر عنقه وسار نحو الجيفة. وعرفنا من الضروع في صدره أنه انثى. وظلت بنات آوى تلتهم البقايا بسرعة، ولم تبتعد عن الظبي حتى صار هيكلا عظميا. وعندئذ تقدمت أنثى الضبع. واذ لم تجد سوى العظام راحت تأكل من لحم الجمجمة.

وعدنا الى الخيمة بعد منتصف الليل. وظهر وسط النور المنبعث من السيارة ضبع بني آخر واقف بالقرب من براميل الماء على مسافة تقل عن ١٥ متراً. وكان

ذلك الضبع أنثى هو الآخر. ولم تكترث لنا، بل راحت تتشمم الروائح حول المخيم. ولما وصلت الى الموقد، وكانت ناره انطفأت قبل ساعات، أخذت وعاء الماء من مقبضه وسارت متبخترة. ووضعت الوعاء على بعد بضعة أمتار من الخيمة ورفعت غطاءه بخطمها وشربت الماء من الداخل. وبعد ذاك رفعت ذيلها وأخذت تبتعد. ولكن قبل أن تختفي عن المكان توقفت قليلا ونظرت الينا مباشرة. وظهرت غُرة بيضاء صغيرة على جبينها. وهكذا كان لنا عيدنا في صحراء كالاهاري. وأجمل هدية تلقيناها للمناسبة كانت قبول الضباع البنية بنا في آخر المطاف.

ديليا:

استيقظنا باكراً صباح اليوم التالي ونحن مفعمان بالنشاط وعلى استعداد لمباشرة العمل. وشربنا الشاي الساخن وتحدثنا عما حصل الليلة الفائتة. ثم انطلقنا شمالا، على عهدنا في الصباحات ذات البرد المنعش، نحو مكان أطلقنا عليه اسم "نقطة السنط" (والسنط هو شجر الأكاسيا).

وقال مارك وهو يشير الى طرف الأجمة الكثيفة على تلة الخليج الشمالي التي تبعد نحو ٣٠٠ متر: "أنظري هناك، اني لا أصدق ما تراه عيناي." ونظرتُ فرأيت ضبعاً بنياً يسير مباشرة نحو الأخاديد التي حفرتها سيارتنا ويوشك أن يصل إلينا.

وجمدنا في مكاننا ونحن لا ندري ماذا نفعل. ثم قبع كل منا بهدوء في حفرة دولاب ونحن نتوقع ظهور أنثى الضبع في أي لحظة. وعندما بلغت الاخدود على بعد خمسين متراً وقفت قليلا ثم اتجهت نحونا. وكانت الغرّة البيضاء الصغيرة تتمايل على جبينها. انها الضُبْعانةُ عينها التي شربت من مائنا الليلة الماضية.

وظلت تتقدم حتى وقفت على بعد خمسة أمتار منا. وكنا على مستوى واحد من الارض نحن وإياها. ورأينا عينيها الدامعتين، ربما بفعل الشمس القوية. وبدا خداها مجَّرحين من المعارك وتدلى وشاح من الشعر الأشقر الأملس على كتفيها. وكانت قائمتاها الأماميتان طويلتين ورفيعتين وقد تخللتهما خطوط سوداء ورمادية انتهت عند قدمين غليظتين مستديرتين. وفغرت فكيها على هيئة مربع، وهي تستطيع أن تسحق بهما ساق ظبي وتحملها.

وخطت خطوة أخرى ومدت أنفها نحوي لتشمني. ولم يكن وجهها يبعد عن وجهي أكثر من ٤٥ سنتيمتراً. وسمينا تلك الانثى "ستار." ولا شك في أن وجودها أمامنا يعني نشوء الالفة بينها وبيننا.

ودنت أكثر ورفعت خطمها قليلا وشمت طرف شعري. وبعد ذلك راحت تشم لحية مارك. ثم استدارت وعادت أدراجها على الطريق نفسها.

وكانت ستار هي التي علّمتنا أسرار مجتمع الضباع البنية. والكتابات عن تلك الضباع حتى ذلك الحين - وهي قليلة ومبعثرة - تصفها كحيوانات محبة للعزلة، تعيش على الجيف وأحياناً تصطاد الحيوانات الثديية الصغيرة التي تصادفها. وظننا أن هذا الوصف دقيق

بادىء الامر حين شاهدنا ستار. ولكن سرعان ما تبين لنا أن الضباع البنية ليست حيوانات متوحدة بالضرورة.

وذات ليلة تقفينا ستار بعدما ابتعدت عن جيفة. ورأينا أنها لم تذهب على غير هدى، بل تبعت طريقاً بدت مرسومة. ووقفت أولا عند كتلة عشب وتشممت نقطة قاتمة اللون. وبحركة غريبة وطئت العشب ورفعت ذيلها. ودارت على قائمتيها الخلفيتين حتى لامست سويقة عشب بإستها، ودمغت تلك السويقة بنقطة بدت كالصمغ الأبيض. ثم دلت ذيلها وابتعدت عن المكان.

وخلال الأسابيع التالية أبصرنا ضباعاً أخرى تجتاز تلك المعابر. وكانت تتوقف لتشم الأثر الذي خلّفته ستار وسواها على العشب. وقبل أن يتابع الضبع طريقه كان يقف ليضيف أثره هو أيضاً. وهكذا غدا ذلك الموضع شبيهاً بتقاطع طرق بعدما خلّف فيه ١٣ ضبعاً أثره.

مجتمع الضباع

عندما وجدنا ستار المرة التالية لم تكن وحيدة، بل كان يتبعها ضبعان يبلغ حجم كل منهما ثلاثة أرباع حجمها. وأطلقنا عليهما اسمي بوغو وهوكينز. وكلما عثرت ستار على بقايا جيفة كانا يهرعان اليها ويصرّان اسنانهما انتظاراً. وتجاوباً مع ذلك الاصرار كانت ستار تقاسمهما الغنيمة. من هنا افترضنا انهما ولداها. لكننا في الليلة اللاحقة وجدنا بوغو وهوكينز مع باتشز، وهي ضبعانة بالغة أخرى ذات أذنين ممزقتين.

وفي ليلة اخرى تبعنا ستار الى جيفة ثَيْتَل. خلّفتها الأُسُد. وسرعان ما انضم اليها بوغو وهوكينز. وما ان باشرت الثلاثة الأكل حتى جمدت ورفعت رؤوسها وسط الظلام. وكانت باتشز تتجه نحوها مهتدية بالنور الكاشف الذي سلّطناه على المكان. وتابع الصغيران الأكل، لكن الانثيين وقفتا تحدق إحداهما الى الاخرى. وخفضت ستار رأسها وأذنيها وانتصبت كل شعرة في جسدها. وفجأة انقضت عليها باتشز وعضتها في عنقها عضاً عنيفاً. وزعقت ستار حين انغرزت أسنان باتشز عميقاً في لحمها وتدفق الدم من عنقها وسال على شعرها الأشقر. وسقطت الاثنتان على العشب اليابس، ورفعت ستار خطمها في محاولة لاقصاء باتشز عنها.

وبعد عشرين دقيقة من العذاب أعتقتها باتشز. ولم أتحمل منظر الجروح في عنق ستار ولا الجروح الكبيرة في جسدها. الا أنها نفضت شعرها وهزت ذيلها كما لو كان الأمر شجاراً بسيطاً. وسارت جنباً الى جنب مع باتشز نحو الجيفة.

وبقينا أسابيع نرى الضباع التي وُصفت بالعزلة تمر من ذلك الموضع المعشب وتترك أثرها الصمغي فوقه وتحيي بعضها بعضاً بانحناءة غريبة. ورأينا بوغو وهوكينز يرعيان مع أنثيين اثنتين. وها هما الانثيان، بعد معركة حامية، تأكلان معاً من جيفة واحدة... يا لها من علائم مربكة! لكنها في أي حال ليست دلائل على حب العزلة. وزاد اقتناعنا بأن للضباع البنية حياتها الاجتماعية الغريبة.

لكن الحيوانات تتلاقى لوظيفة ما. فالأسود والكلاب البرية والذئاب والناس البدائيون والضباع المرقّطة، كل من هذه الفصائل، تجتمع أفرادها معاً فتستطيع الفتك بضحية لا يجسر عليها واحد بمفرده. الا أن الضباع البنية تقتات على الجيف ونادراً ما تعمد هي الى الصيد والقتل. فما الذي يفسر وجودها جنباً الى جنب؟ ولماذا يحتاج واحدها الى الآخر؟ وما فائدة الحياة الجماعية بالنسبة اليها؟

ثمة جواب واحد عن هذه الأسئلة جميعاً. وهو جواب عثرنا عليه لاحقاً.

زوّار من القفار

بعد وقت قليل من شبوب الحريق وجدنا أن الارض التي أقمنا فوقها خيمتنا معرضة دائماً للريح القوية. لذلك بحثنا عن مكان آخر داخل جزيرة من الأشجار. وقطعنا ثلاثة أغصان ذاوية كي نوسع مكاناً لخيمة أكبر من خيمتنا الاولى، أعطانا اياها صديق في مون.

وكانت الجزيرة الشجرية كثيفة وقد تخللت أعشابها الطويلة جنبات النبق السدرية وأشجار السنط وبعض الشجيرات الخفيضة. وكان هناك ممر ضيق يفضي من المطبخ الى طرف بستنان. وخلال عامنا الاول هناك كان النبات مورقاً بعد مطر غزير، الأمر الذي أبعد الحيوانات عن خيمتنا. وكنا نرى من حين الى آخر عنق زرافة يطل فوق سقف الخيمة.

وفي وقت باكر من فصل ١٩٧٥ الماطر أخذ مارك السيارة وذهب الى مون طلباً للمؤونة. وشاء أن أرافقه لأنه سيغيب أربعة أيام. غير أني أصررت على البقاء لانهاء دراسة كنا نعدّها حول الضباع البنية.

وعلى رغم عزلتي التامة عن البشر تلك الايام الأربعة فاني لم أشعر بالوحدة. وفي عصر اليوم الاول جمعت ملاحظاتنا الميدانية وقطعت لنفسي جزءاً من رغيف كروياء طازج وجلست في "غرفة الشاي"، وهي المختلى المظلّل تحت أغصان النبق. وفي لحظة تحلقت حولي أسراب البوقير وهو طائر ضخم المنقار. وأخذ أحدها، وقد سميته "تشيف"، ينظر من شجرة السنط بعينين مترقبتين. ثم بسط جناحيه وحط على رأسي وراح ينفض جناحيه حول أذني. وحط طائران آخران على كتفيّ. ورابع في حضني. وبدأ هذا ينقر يديّ وأصابعي.

وهناك رفيق آخر لم يفارقني هو ذكر عظاءة سميته "لارامي." وكان يبيت كل ليلة في علبة فارغة فوق الصندوق البرتقالي الى جانب الطاولة. وكان ترحيبي به قوياً لأن شهيته الجبارة كفيلة بتخليصي من الذباب الذي يغزو الخيمة. وكان يطاردها واحدة واحدة بلا كلل ويلتهمها محدثاً صوتاً عالياً.

ولم تكن الحيوانات الصغيرة الكائنات الوحيدة التي ظهرت في جوار المخيم. بل كانت الاسود والنمور والضباع البنية وبنات آوى تأتي الينا كل ليلة خلال الفصل الماطر. وحاولنا حماية خيمتنا الصغيرة والمطبخ باستحكامات أقمناها من براميل الماء والغصون الشائكة والعجلات الاضافية وموقد النار. وعلى رغم هذا كله كنا نفيق مراراً في الليلة الواحدة لنذود الحيوانات عن المخيم.

ولما فرغت من نسخ الملاحظات

أمضيتُ اليوم الرابع أُنظف المكان. وبلغت الساعة الخامسة عصراً من غير أن يعود مارك. وأخذ القلق طريقه الي.

وفي أول المساء، بيْنا أنا أحرّك العشاء فوق النار، اتجهت أسود سبعة نحو المخيم مباشرة. وأخذ قلبي يخفق وذهبتُ الى وسط الأجمة. ونظرتُ من خلل الأغصان فرأيتُ الاسود تتحرك نحوي وهي لا تبعد أكثر من مئة متر. وهي جماعة اللبوءات وصغارها البالغة التي طالما شاهدناها. لكننا لم نبصرها الا والسيارة قريبة منا. أما الآن فشعرتُ أني في قلب الخطر، مثل سلحفاة خرجت من وقائها الصدفي. وزحفتُ الى الخيمة. ولما صرتُ داخلا نظرتُ من النافذة.

وسرعان ما حلّ الظلام. وظللتُ وقتاً لا أرى الأسود ولا أسمعها. فأين تراها تكون؟ وما الذي تبتغيه؟ وفجأة سمعتُ وقع قوائمها الثقيلة خارج الخيمة.

وكان عليّ رسم خطة للنجاة. ووقع نظري على صندوق الملابس المعدني ففتحته بسرعة وأفرغت محتوياته على السرير استعداداً للاحتماء داخله في اللحظة التي تبدأ الاسود العبث بالخيمة.

وانقضى ما خلتُه دهراً وأنا لا أسمع أي صوت. أتستطيع الاسود الاستدلال على وجودي بالشم؟ أأدخل الصندوق وأسدل الغطاء؟ وانقصف أملود وبدأ أحد جوانب الخيمة ينتفخ. ثم سمعتُ رنين أحد حبال التثبيت. ومن النافذة رأيت لبوءة تشد الحبل بأسنانها. وسمعت وقع خطى بين الاوراق وأصوات شم قوية. انها الاسود تتشمم الارض حول خيمتي ولا تفصلها عني سوى سنتيمترات.

ثم سمعتُ أزيزاً من بعيد. أتكون اللاندروفر؟ يا إلهي! لماذا لا يكون ذلك صوت سيارتنا؟

وسمعت وقع أقدام قرب الباب. وفكرتُ في ما عساه يحدث لو اني نهضت وصرخت بأعلى صوتي لتجفيل تلك الوحوش. غير أني لم أتزحزح من مكاني. ولو كان مارك معي لما انتابني ذلك الضعف.

ومرة أخرى صوّتت السيارة عن بعد. ولا بد من أن يكون مارك آتياً. وبعد وقت خلته دهراً تبدل مصدر الصوت وبدا أنه يتحرك من حوض النهر نحو المخيم.

وسمعت حساً في الخارج جعلني أقفز على قدميّ. وأتاني صوت مارك: "ديليا، ديليا، أأنتِ بخير؟" وقلت وأنا أحبس أنفاسي: "أجل، أجل، انني بألف خير. والحمدلله على عودتك."

وكان وصول مارك سلب الاسود مزاجها وحملها على الفرار جنوب النهر. ونهضت أرحب بعودة زوجي ترحيباً كبيراً.

مارك:

من الامور التي عرفناها أن الحيوانات التي تصطادها الاسود هي الغذاء الرئيسي الذي تعيش عليه الضباع في فصل المطر. وهكذا ارتأينا ان نعير جماعات الاسود انتباهاً أكبر.

وأفضل طريقة لمعرفة كل أسد هي وضع علامة على اذنه. وأنجزنا ذلك عبر تخدير الأسد باستخدام حقنة طائرة. وبعد ذلك كنا نعلّم أذنه وهو غائب عن الوعي. وفعلنا ذلك أولا مع جماعة أُسود قابعة في موضع ترتاده النمور، وهو أجمة من السنط

والنّبق على الطرف الغربي للمقلاة الشمالية. وكنا رأينا تلك الاسود مراراً وأعطينا كلا منها اسماً. فالانثيان الكبيرتان هما بلو وتشاري. وكانت بلو على الدوام تعلك عجلات السيارة. ومن حسن الحظ أن العجلات قوية وعسيرة التلف. ولم تستطع بلو أن تثقبها. أما تشاري فكانت كبرى اناث المجموعة، وهي ذات ظهر واهن متدلٍ. وبدا أنها لم تعرنا انتباهاً كبيراً.

ولم نكن خدرنا أسوداً قبل ذلك الحين. من هنا لم نعرف كيف سيكون رد فعلها بعد ثقب آذانها. الا أنها عادت في المساء التالي الى المخيم وتحلقت حول اللاندروفر وراحت تشم عجلاتها وأجزاءها المختلفة. لكن تشاري لم تظهر مع الجماعة. وبدا أن الاسود ليست على علم بالعلامات البلاستيكية الزرقاء في آذانها التي تحمل كل منها رقماً. وهكذا باتت تلك العائلة من الاسود "الجماعة الزرقاء".

وذات صباح باكر بعد مضي أيام قليلة برز أسد على بعد ٣٠٠ متر شرق المخيم. وكان ذكراً وجثم على بقايا ظبي ظلت أشهراً هناك. والعادة ألا تعير الاسود بالا لجيفة تقادم عهدها. لكن ذلك الذكر راح يصارع كي يجر الجيفة النتنة الى ظل الاشجار المواجهة للمخيم. وبالمنظار أمكننا أن نرى أنه أسد أعجف وضعيف جداً. وعلى رغم أن وزن الجيفة لم يتجاوز الأربعة عشر كيلوغراماً فانه كان يجرّها أقل من متر ويقف ليستعيد قوته الذاوية. وكان ضعفه يزداد بعد كل محاولة حتى خرّ أخيراً من عيائه.

وركبنا السيارة واتجهنا ببطء نحوه. ولما اقتربنا منه لاحظنا أكثر من عشر ريشات غارزة في عنقه وكتفيه وخاصرتيه، وهي من حيوان قارض شائك يدعى الشيهم. وفي سعي الأسد الى الغذاء ربما حاول قتل ذلك الحيوان من غير أن يستطيع. وتركناه وشأنه لكننا عدنا اليه عصراً ومعنا عدة الحقن. وعندما وخزته الابرة لم يتحرك، بل تراخى حتى الأرض. وأخذنا ننزع الريش الذي سبب له التهاباً، وقد غرز ١٥ سنتيمتراً في لحمه.

وكدنا أن ننتهي مع الغسق. وكنت أبذل جهدي لسحب ريشة انغرزت تحت ركبة القائمة اليمنى الخلفية. الا أنها لم تتحرك من مكانها. وأحضرت كماشة من السيارة وحاولت انتزاع الريشة. ووجدت تحت النور الساطع اني لا أسحب ريشة، بل جزءاً من عظم الساق نتأ الى الخارج. وهكذا تبين لي ان الاسد أصيب بجرح بالغ.

بونس

لو تقيدنا بمبادىء العلم الموضوعية الصارمة لتركنا ذاك الأسد الخائر يموت. لكننا ارتأينا ان نبذل كل محاولة لتمريضه. واستعنا ببعض الأدوات التي جعلنا منها آلات جراحية وفتحنا الجرح مسافة أعمق. وبعد تطهيره أعدنا العضلات والعظام الى مواضعها وخطنا الجرح. ثم حقنا الأسد جرعة كبيرة من مضاد حيوي وثقبنا أذنه اليسرى وأعطيناه الرقم "٠٠١"، ووقفنا ننظر اليه ونرثي لحاله. وقررنا أن نعطيه اسم "بونس" إن هو عاش.

ومن المخيم كنا نرمقه وهو مقع ٍ بين الاشجار. وكنا كل صباح ومساء نجلس في السيارة قريباً منه ونراقبه وهو يكتسب الوزن بعدما اقتات أياماً من جيفة ظبي حملناها اليه. وأخذ ينهض على قوائمه. لكن تقديرنا كان أنه لن يستطيع الابلال من الحادث تماماً ولن يقوى على تأمين عيشه بمفرده.

وفي الليلة التاسعة التي أعقبت العملية أفقنا على صوته يدوي عبر الوادي وهو يتجه الى جنوب حوض النهر. وقدرنا أننا لن نراه بعد ذلك الحين.

وغاب بونس عشرة أيام. وفي صباح باكر كنت أقتفي أثر ضبع بني على أربعتي فيما رافقتني ديليا في السيارة. وقادتنا الآثار الى الشمال الغربي حتى بلغنا كثيباً ناعم الرمل تقاطعت عند قمته أقدام الضبع بأقدام أسد ضخم عبَر المكان حديثاً. وتعقبنا الأسد بين الأشجار حتى وجدناه تحت شجرة سنط وهو ينظر من خلال المطر الى الوادي الدهري تحته. ووجدنا علامة على أذنه اليسرى تحمل الرقم ١٠٠١ انه بونس. وقد اكتسب وزناً لائقاً. ومع أن رجله لم تبرأ كلياً، الا أن الجرح انقشر وغدا في طور الاندمال. ومكثنا معه قليلا وقد فرحنا لأن علاجنا فعل فيه.

عدنا الى المخيم في وقت متقدم من الليل بعد جولة مراقبة. وأفرغنا بعض الماء وغسلنا وجهينا وذهبنا الى الخيمة للنوم. وغضبتُ عندما اقترحت ديليا ان أترك حذائي خارجاً.

وكان ذلك الحذاء القماشي مثقّباً في غير موضع. لكنه خدمني كثيراً في برية لا تصمد فيها أمتن الأحذية. ومع كل خطوة كانت ثقوبه تتسع فتحسّن التهوئة وتسهل السير. ومنعاً لتسرب رائحة الحذاء الى الخيمة خلال النوم كنت أضعه على سطحها حيث لا تستطيع بنات آوى الوصول.

روائح شائعة

عندما استيقظت قبيل الفجر كانت الظباء تطفر بنشاط قرب المخيم وهي تطلق صيحات الذعر. ويبدو أنها لمحت حيواناً قوياً في حوض النهر. وفتحت الخيمة ولبستُ حذائي ووقفت في برد الضحى. وكنا الليلة الفائتة أضعنا الكلب البري بانديت وجماعته في الأجمة. وربما عاد هو وقطيعه للصيد.

وركبنا اللاندروفر وانطلقنا وسط قطيع الظباء. وفجأة استدارت الظباء كلها شمالا. ورفعت منظاري وأمكنني أن أرى بانديت وزمرته عبر الوادي.

وبعد دقائق كانت الكلاب تجر ظبياً. وعندما وصلنا اليها كانت تنتفه مِزقاً. وفور التهامها الجيفة غرزت خطومها الملوثة دماً في العشب ثم انقلبت على ظهورها طلباً للنظافة.

وكان الفك الأسفل للظبي على بعد ١٥ متراً. واذا استطعنا الحصول عليه أمكننا تحديد عمره. وعلماً مني أن تلك الكِلاب البرية لا تهاجم إنساناً قط، ترجلتُ من السيارة وأنا أحمل آلة التصوير.

وما كدت أن أتقدم قليلا حتى رأيت كلبين يركضان بيني وبين السيارة ويشد كل منهما أذن الآخر. وأخذت ألتقط الصور واحدة بعد الاخرى فيما الكلبان البريان

بونس الأسد الجليل
الذي أنقذه مارك وديليا
من الموت المحقق.



المخيم الثاني وسط جزيرة
شجرية ترتادها الحيوانات
الكبيرة والصغيرة.

يركضان بأقصى نشاط وقد التمعت أشعة شمس الصباح على فروهما الذهبي والأسود. وبدا أنهما لا يعيرانني أي اهتمام. ولكن عندما انحنيت لالتقاط عظمة الظبي تبدّل مزاج أفراد القطيع.

واستدار كلب صغير نحوي ورفع رأسه عالياً ثم أدناه كأنما هو يراني للمرة الاولى. وتقدم حتى غدا على بعد ثلاثة أمتار مني. ووقف هناك يحدّق الي. ونبح بأعلى صوته وتبعه أفراد القطيع جميعاً. وفي ثانية طوّقتني الكلاب على هيئة نصف دائرة ورفعت أذيالها فوق ظهورها واستمرت في النباح وهي تطبق عليّ أكثر فأكثر. وانحدرت حبات العرق على وجهي. وعرفت انه يستحيل علي بلوغ السيارة. لكن الكلاب قد تهاجمني ما لم أفعل شيئاً سريعاً.

وكان ان نهضت. وفي اللحظة نفسها استرخت الكلاب كما من فعل مخدر. ودلت أذيالها وسرّحت النظر الى البعيد وتفرّقت.

وهكذا علّمتُ نفسي السيطرة على قطيع الكلاب البرية. فكنت أقرفص أو أجلس لأُثير لديها حسّ الخطر وأنهض لأمنحها الطمأنينة. وبعد تكرار تلك التجربة خلال دقائق دفعني الفضول الى تحري ما يحدث اذا ما اقتعدتُ الأرض.

وما ان فعلت حتى نبح ذاك الكلب الصغير مرة أخرى. وأتت ستة كلاب نحوي وأذيالها فوق ظهورها وهي تنبح بشدة. وكانت على مسافة متر أو نحوه مني عندما مددت ظهري. لكن ذلك الوضع خلق لدى الكلاب حساً بالفضول لا بالخطر. ووضع اثنان منها خطميهما أرضاً واتجها بحذر نحو رأسي فيما اتجه آخران نحو قدميّ.

ووجدت أن هزة من رأسي أو من قدمي بين الحين والآخر تولد لدى تلك الكائنات المزيد من الحذر. وظل كل شيء حسناً الى ان لمس أحد الكلاب إصبعاً في قدمي مرتين بأنفه. وكان كل مرة يدير رأسه وينظر بغرابة كما لو أدهشه شيء ما. لقد كان يحاول أن يُغرِق حذائي في التراب.


عذاب الهزيمة: كلب بري ينشمم حذاء مارك.

أما الضباع البنية فقد حيَّرنا أمر حولها، وهو أننا لم نعرف الكثير عن تناسلها مع أننا تتبّعناها كل ليلة تقريباً. وباستثناء بوغو وهوكينز لم نرَ أحداً من صغراها. فأين مخبأها؟

وذات ليلة ظهرت أنثى شديدة الحياء سميناها شادو عند جيفة ظبي. ولاحظنا ان ضروعها ملأى بالحليب. وحملت فخذاً من الجيفة وتوارت في الأجمة، فتبعناها على الأثر بعدما طوّقناها بموجة راديو.

وعند قاعدة الكثيب الغربي تبدّلت الموجة ثم اختفى أثرها. وقلت: "يبدو أنها دخلت كهفاً تحت الأرض." وانقضت ثلاث ساعات من غير أن تظهر شادو أو أن نسمع علامتها على الراديو. وخاب أملنا وعلّقنا بعض ورق المراحيض للتعرف الى المكان وعدنا الى المخيم.

وعند الفجر كنا هناك من جديد. وبعيد الشروق سمعنا علامة شادو على الراديو. انها تتجه نحو الكهف أيضاً. وبعد ذلك اختفت العلامة. وبقينا ساعتين لا نرى أو نسمع أثراً لها.

وعقدنا العزم على اكتشاف ذلك الكهف. وقدت السيارة على مهل عبر الأجمة فيما جلست ديليا على سطحها تراقب المكان حرصاً على ألا نتقدم أكثر مما ينبغي. وكانت تنقر بأصابعها على السطح فأتوقّف. ووجدنا أمامنا مدخل الكهف الصغير المحفور وسط مستعمرة للظباء. ورأينا فوق الاستحكام الترابي على مدخل الكهف آثار الضباع الصغيرة.

"صفر صفر واحد"

جلسنا بالقرب من ذلك الكهف طوال الايام العشرة التالية. لكني لم ألاحظ قط ان شادو خرجت من هناك. وبعد أشهر عرفنا خبرة مماثلة عندما تعقّبنا باتشز الى كهفها. ودُهشنا لما تفعله اناث الضباع البنية بجرائها. ولم ندرِ آنذاك ان الجواب عن تساؤلنا متعلقٌ بالسرّ الملازم للحياة الاجتماعية لتلك الكائنات.

مرةً اخرى كاد مالنا أن ينفد. وهذه المرة أنقذتنا جمعية أوكافانغو لحماية الحياة البرية. ومكّنتنا المنحة من اقتناء سيارة جيب أفضل من نوع "تويوتا"، فضلا عن خيمة جديدة. والأعظم من هذا وذاك أننا استطعنا تمضية أسابيع أربعة في الولايات المتحدة مع أهلنا.

وفي أوكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٦ عدنا بالطائرة من نيويورك. وجلسنا على قمة الكثيب الشرقي مرة أخرى وسرّحنا النظر الى الشمس والى وادي السراب تحتنا. وهبّت الزوابع عبر السهول الجافّة. وقطعنا حوض النهر وقد احمرّت أعيننا من الحرّ ووقفنا على ما بقي من مخيّمنا. وكانت هناك كومة من أعمدة ملويّة وبعض القماش الممزّق الذي حال لونُه بفعل الشمس، وعدد من علب التنك الصدئة تحت طبقة من الرمل والأغصان المكسورة. ووقفنا وسط صمت رهيب لا تقطعه الا أصوات الريح الصافرة بين الأشجار.

ولم يبدُ أثرٌ للظباء ولا للأسود ولا للضباع. لم يكن هناك سوى الريح والشوك والرمل والحَرّ. ولففنا وجهينا بالخرَق اتّقاءً للرمل الحارّ الطائر مع الريح والتقطنا وعاء من هنا وعلبةً فارغة من هناك... ترى ما نحن فاعلان في هذا المكان؟ ولأيّ غاية؟

وانحدرت الشمس وانحسرت الحرارة وقعدت الريح. وأفلت بقايا الشمس بتثاقُل مضجر وراء الكثيب الغربي. ومن الغابة جاء صوت الضباع عبر الوادي، هذه هي صرخة كالاهاري الحقّة التي أقنعتنا من جديد بجدوى عودتنا.

وحلّ المطر في مطلع ١٩٧٧ ليخلّصنا من الحَرّ. وعادت قطعان الظباء الى الوادي كما عادت أسراب البوقير الصادحة باكراً في الصباح، وحطّت على

طاولتنا تستجدي فتات الخبز. وأيقظنا زئير أسد في صباح يوم آخر، ومن السرير أمكننا أن نرى أسداً ذكراً يقطع حوض النهر باتئاد نحونا. ولما بات على مسافة ثلاثين متراً منا رأينا العلامة البرتقالية على أذنه وفوقها الرقم ٠٠١: انه بونس يعود الى وادي السراب بعد فصل الجفاف. واستراح عند شجرة السنط تحت النافذة ونظر إلينا بلامبالاةٍ، ثم رفع ذيله المجدول وبال على الغصون.

وفي سبتمبر (ايلول) ١٩٧٧ عاد الحَرّ، وأرهقتنا ملاحقة الضباع البنية بواسطة الراديو، ولم نَرَ أسَداً مذ زارنا بونس للمرة الاخيرة في يونيو (حزيران). وكادت مؤونتنا أن تنفد، فذهبنا الى مون للتزوّد. وفي طريق العودة الى المخيم صادفنا الصيّاد ليونيل بالمر برفقة اثنين من زبائنه وهما صيدلي أمريكي وزوجته. وإذْ أتى علينا التعب والحَرّ قبلنا دعوتهم الى تمضية الليل في مخيّم سياحي يبعد ١٦٠٠ متر عن مرتع للحيوانات البرية.

وكانت هناك خمس خيم نُصبت بين الاشجار، تحوي كل منها غرفة نوم كبيرة. ووُضعت الأرائك وطاولات الضيافة الصغيرة حول النار وسط خلاء رملي. وكانت خيمة الطعام على بعد بضعة أمتار وقد توسّطتها طاولة كبيرة ووُضعت داخلها ثلّاجة وبرّاد يعملان على الغاز.

وقادنا نادلٌ أسود ارتدى سترة حمراء وقبعة ذات شرّابة الى مقرّنا، وهو عبارة عن خيمة خضراء قاتمة طولها ٤٥٠ سنتيمتراً وعرضها ٣٥٠ سنتيمتراً. وكان في الداخل سريران من حديد مع فراشين عاليين وملاءات نظيفة.

ومرّرت ديليا يديها بتوق على جوانب الخيمة. وقالت: "هب أنّ لدينا خيمةً مثل هذه في وادي السراب."

– وهل تظنّين أن الاسود تبول تحت نافذة هذه الخيمة؟

"الحق معك. اني لن أستعيض عن مخيمنا بأيّ مكان."

وارتدينا ثياباً نظيفة وانضممنا الى الآخرين قرب نار المخيَّم. وبإيعازٍ من ليونيل سألتنا المرأة أن نقصّ رواية بونس الذي اكتسب أبعاداً اسطورية في شمال بوتسوانا. وعندما سمعت المرأة كيف أنقذ ذلك الأسد من الموت المحتوم وعاد الى جماعته قوياً لم تتمالك دمعها.

جواب لكلّ سؤال

في وقت باكر من صباح اليوم التالي وَدَّعْنا الصيادين وعدنا عبر الغابة البرية في الجنوب الشرقي وبلغنا مخيمنا قبيل الظهر. ووضعت الراديو العالي الذبذبة على حافة السيارة وراحت ديليا تنتظر مخابرة من مكتب ليونيل في مون.

وجاء صوت دوغلاس رايت، وهو صيّاد آخر، من مخيم ليونيل. وقالت ديليا: "طبتَ مساءً يا دوغلاس، كيف حالك؟"

– أخشى أن أُفضي اليكِ بخبرٍ قد يكون سَيئاً يا ديليا. لقد أطلق ليونيل وضيفه النار على أحد أسودكما اليوم.

وكدت ألا أسمع صوت ديليا وهي تسأل: "أتَعرف لون العلامة على أذنه ورقمها؟"

– انها علامة برتقالية في اذنه اليسرى، تحمل الرقم صفر صفر واحد.

"يا إلهي! أسمعت يا مارك؟ انه بونس! لقد صَرَعوا بونس."

وغصّت ديليا وتركت المذياع يسقط من يدها. وقبل أن أستطيع الوصول إليها كانت اختفت عبر النهر، ورجعت اليّ تنهُّداتها مع الريح.

لقد قُتل بونس في فصل الجفاف، حين ينقطع الماء في صحراء كالاهاري. وكانت أُلوف الظباء عبرت الغابات واجتازت وادي السراب وتابعت طريقها شرق المحمية الى أراضي الصيد الجنوبية. ويبدو أن بونس تبع تلك الظباء طمعاً بلحمها وهرباً من الحرائق.

وأدركنا نحن الاثنين أن الخطأ لا يقع على أحد في مصرع بونس. لقد كان غنيمة يسمح بها القانون في تلك الاراضي التي لاذ بها والتي لم يكن ذهابه إليها خطأ الصيّاد. ومن سوء الحظ ان المحمية التي هجرها لا تؤمّن الطمأنينة في موسم الجفاف والحَرّ.

وعقدنا العزم على إعداد دراسة مستفيضة حول الأُسود تشمل آلاف الكيلومترات المربعة من القفار. ولم يكن بدٌّ من اقتناء طائرة وأجهزة راديو لتعقب تلك الحيوانات. الا أن أياً منا لم يعرف فن الطيران، كما أن تشغيل طائرة في افريقيا أمر مكلف كثيراً، ناهيك بشرائها.

وحُلّت المشكلة الثانية حين موّلت جمعية فرانكفورت لعلم الحيوان شراء طائرة وتشغيلها. وقصدنا جوهانسبورغ سعياً الى حل المشكلة الاولى. وبعد ستة أسابيع هناك حصلتُ على رخصة طيّار. وشاهدنا عدداً من الطائرات، واخترنا منها طائرة "سيسنا" زرقاء وبيضاء.

وانقضى شهر يناير (كانون الثاني) ١٩٧٨ قبل أن نعود الى المخيم ومعنا الطائرة ووقودها. وكان هدفنا ملاحقة جماعات الضباع البنية والاسود على امتداد وادي السراب وجزء من الشمال، ووضع أجهزة ارسال لاسلكية في أعناقها للتعرف الى أمكنتها بواسطة الراديو. واستطعنا إنجاز هذه العملية على ١٦ حيواناً تنتمي الى خمس مجموعات مختلفة من الأسود وعلى ستة ضباع بنية. لقد انصرمت الايام التي كنا نزحف فيها كالسلاحف أو نحمل مختبرنا في السيارة المتثاقلة ونقودها بحرص شديد. وبات في استطاعتي أن أجد القافلة التي أريد من الجو ومن غير ارتكاب أي خطأ في معظم الحالات أو فيها جميعاً. وهكذا تحقق لنا حلمٌ يتوق اليه كل عالم أو فريق علمي.

ديليا:

تابعنا دراسة الضباع البنية ومراقبة الاسود طوال موسم ١٩٧٨ الماطر وأشهر الشتاء التي تلته. وكانت الضبعانة ستار بلغت الحادية عشرة من عمرها وسقط معظم شعرها الأشقر. وظهرت في عنقها الندوب من آثار المعارك وتأكّلت أسنانها حتى باتت كتلاً صغيرة من جرّاء سحق العظم سنواتٍ وسنوات.

ومن الفضاء استطاع مارك أن يعثر على ستار في المكان نفسه ضمن الكثيب الغربي أربعة أيّام متتالية. والبقاء في موضع واحد أمر غير مألوف بالنسبة الى الضباع البنية. ووضعنا الراديو في السيارة واتجهنا نحو المكان المحدَّد. وأطلّ علينا وجه ستار الشائخ من شجيرة.



لحظة نادرة من المشاركة الطبيعية الحميمة: الضبعانة بيبر "تحيي" ديليا المترقبة والمفتونة.

واتجهت نحو فتحة في استحكام رملي وحنت رأسها فوقها وأحدثت صوتاً يشبه الخرخرة. وللحال خرجت ثلاثة ضباع صغيرة... ها هي حظيرة الجراء إذاً، وهي لا تبعد أكثر من ٣٠٠ متر عن مخيمنا!

وأخيراً تسنّى لنا أن نراقب أماً بين الضباع تعتني بصغارها. وخشينا أن تكون باتشز وشادو تركتا صغارهما لأننا حاولنا مراقبتها. الا أن ستار اعتادت وجودنا. وسمينا الجرو الانثى "بيبر" والذكرين "كوكو" و"توفي".

وذات ليلة، وكان عمر الجراء شهرين ونصف شهر، أخذت ستار صغيرها كوكو من عنقه وحملته غرباً عبر الأجمة. وتبعناها في السيارة ورأيناها تتجه نحو جوف الوادي ومن هناك شمالا وقد تدلّى الجرو من فمها مثل شلْو لا حياة فيه.

وقطعت ستار ثلاثة كيلّومترات شمالا. وليس غريباً أن تبدّل بعض آكلات اللحوم، كالثعالب وبنات آوى، أوجار صغارها مرّتين أو ثلاثاً في مرحلة نموّها. لكننا لم نعرف لماذا شاءت ستار أن تأخذ كوكو بعيداً جداً.

واجتزنا الأجمة التالية التي أفضت بنا الى خلاء واسع. وأطفأنا محرك السيارة بسرعة لرؤيتنا منظراً يفوق الوصف. فقد امتدّ أمامنا وجار ضخم يزيد طوله على ١٥ متراً وتقوم فيه استحكامات كثيرة من الرمل البنّي. وعلى كل استحكام وقفت ضباع بنية صغيرة من أعمار مختلفة وتنتمي الى ضَباعينَ مختلفة. ها هي اذاً الجراء التي افترضنا خطأً أن شادو

وبانشز هجرتاها. انها جراء القبيلة مجموعةً كلها في مكان مشترك. وهو أوّل مكان من نوعه يعثر عليه فريق علمي.

ها نحن حصلنا أخيراً على الجواب الذي طالما انتظرناه، وهو جوابٌ عن أسئلة عدّة متعلقة بالحياة الاجتماعية لتلك الضباع. فهذه الحيوانات تعيش كجماعة واحدة وتشترك في الأكل والمأوى. وهي تربّي صغارها جماعياً وبتعاون وثيق من أجل مواجهة التقلبات الطارئة على بيئة كالاهاري.

وعرفنا لاحقاً أن انثى واحدة في كل جماعة تلد الجراء عادةً، وأنها تتبدّل كل سنة فتأخذ أنثى أخرى دورها. وهذا ما يفسّر العدد المحدود للجراء في كل حظيرة جماعية. وللانثى البالغة الحرية في مغادرة الحظيرة ليلياً لحمل الطعام الذي تأتي به ليس الى صغارها فقط بل الى الجراء كلها. وأحياناً تشارك الذكور في حمل الغذاء.

ولأنّ الضباع البنية تسعى الى الطعام إفرادياً ولكن تربّي صغارها جماعياً، يمكن القول بأنّ حياتها خليط من الجماعية والانعزالية.

الميتم

جاء فبراير (شباط) ١٩٧٩ ونحن ننتظر علامة من السماء لسقوط المطر. وكنا انتظرنا أشهراً بلغت الحرارة خلالها ٤٣ درجة مئوية في الظل وقت الظهيرة. وكانت الغيوم تتراكم أحياناً عند الأفق الشرقي، لكنها لا تلبث أن تمطر فوق أرض أخرى بعيدة عنّا. ومع بداية ابريل (نيسان) انكشح الغيم وفقدنا كل أمل في الحصول على قطرة مطر. ومرّت أشهر من غير أن تتلقى الحيوانات والنباتات في وادي السراب أي رطوبة. والمتوقّع أن تمر عشرة أشهر أخرى قبل أن تمطر. وهكذا بات الجفاف يطوّق صحراء كالاهاري.

وذات ليلة عاصفة ذهبت ستار شمالا مقتفيةً طريق النمور. وعبرت حوض النهر ثم اتجهت الى الشمال الشرقي. وعند منتصف الليل كانت قطعت أكثر من ١٩ كيلومتراً من غير أن تعثر على ما تقتات به أو ما تحمله الى جرائها. وأتى عليها التعب واستلقت أرضاً لتستريح بالقرب من بستان ذي أشجار وارفة يبعد كيلومتراً عن النهر.

ويبدو أنها سمعت صوت أُسودٍ في المسافة. الا أنها تأخّرت في النهوض، فاجتاحتها الأُسود وداستها وقضت عليها في ثوانٍ.

وبالطبع لم يكن ممكناً أن تعرف الجراء الثلاثة بمصير أمها. وظلت ليلةً بعد ليلة تجلس على تلة الرمل وذقونها ضمن مخالبها وهي ترقب المعبر الذي اعتادت الام أن تسلكه. وازداد خمول الجراء مع الوقت وكفّت عن المرح واللعب. ونقص وزنها وسقط شعرها.

وفي الليلة الرابعة التي أعقبت موت ستار لم تخرج بيبر وكوكو وتوفي من وجارها. وسهرنا الليالي الثلاث التالية ننتظر إشارة حياة من ذلك الوجار، ولكن لم يظهر شيء، وظننّا أن الجراء قضت جوعاً أو عطشاً.

وفي منتصف الليلة الثالثة سمعنا حفيفاً قوياً من العشب غرب الحظيرة.

وبرز بيبين، وهو نصف أخ للجراء الثلاثة، وقد تدلّى من فمه أرنب برّي ما زال يتخبّط بدمه. ووضع الجيفة التي تزن كيلوغرامين على الرمل وسار نحو مدخل الوجار محدثاً صوتاً قوياً. وللحال خرجت الجراء الثلاثة الضعيفة تحيّيه بترحاب. والتهمت الأرنب البرّي ثم عادت من حيث أتت.

وقلت: "مارك! ربّما عمد بيبين الى تبنّي الجراء الثلاثة."

وفي وقت باكر من مساء اليوم التالي جاءت انثى في شهرها الثامن عشر الى الحظيرة، وهي داستي، حاملةً قطعة كبيرة من لحم الزرائف. وتبعها ذكر أكبر منها سناً هو تشيب. وخرجت بيبر مع كوكو وتوفي باندفاع. وأخذ كوكو قطعة اللحم واختفى الثلاثة داخل الوجار. ولو شاهدنا ذلك من غير أن نعرف هويّة الضباع، لافترضنا أن ثمّة والدين يطعمان صغارهما.

وفي الايام التالية هبّت أفراد أخرى من الحظيرة لمساعدة الجراء الثلاثة اليتيمة. وأمدّنا ذلك بمعلومات بارزة حول الضبـاع البنية. فـالتبنّي نادر بين الحيـوانـات.

وبقينا نراقب تلك الحظيرة الجماعية ثلاث سنوات. وخلال تلك الفترة وجدنا أن ٧٠ في المئة من الجراء التي صمدت وسط ظروف الصحراء الصعبة كانت يتيمةً وتمّ تبنّيها.

مارك:

ذاتَ صَباحٍ من العام ١٩٧٩ كنت في الجوّ قبل طلوع الشمس. وجاءني عبر الراديو صوت لبوءة، فنزلت فوق رؤوس الأشجار نحو وادٍ رملي. ودُهشت إذ رأيت تلك اللبوءة تقتات على جثّة ثيتل من النوّ، وهو حيوان له رأس كرأس الثور وقرنان معقوفان وذيل طويل. وطوال الوقت الذي أمضيناه في وادي السراب لم نجد هذا النوع من الظباء الا نادراً. ولم نعثر على أي منها في السنوات الثلاث الأخيرة.

وارتفعتُ قليلا في الفضاء حتى بات الوادي ورائي الى الجنوب. ومن هناك شاهدتُ سحباً من الغبار، أو ربّما من الدخان، ترتفع عبر البطاح أمـامي. وتابعت التحليق، فرأيت ألوف النقاط السود تتحرّك في مجموعة واحدة عبر القفار. وخاطبتُ ديليا بالمذياع وكانت في المخيم: "ديليا، اسمعي! لقد عثرتُ على قافلة من عشرات ألوف الثياتل. ورؤوسها تتجه شمالا."

ومع أننا لم نعرف ما يجري آنذاك فانها كانت المرّة الثانية تُسَجَّل هجرة ضخمة للثياتل: وربما تحـرّكت تلك الحيوانات كما فعلت بدافع الغريزة أو بدافع خبرة اكتسبتها من أسلافها. وهي كانت تتجه شمالا سعياً الى الماء وهرباً من الجفاف القاتل.

وكانت الثياتل تقطع نحو خمسين كيلومتراً كل ليلة. ومن الجو كانت صفوفها تبدو كالأصابع الكثيرة العقد وهي تتحرّك نحو البحيرات والأنهار. وكان بعضها قطع أكثر من ٥٠٠ كيلومتر حتى خارت قواه وخرّ صريعاً، ولاسيما الرؤوس الهرمة أو الحديثة العهد. وتمدّدت الجيف وسط الصحراء طعاماً للحيوانات الاخرى.

وفجأةً توقفت الثياتل عن متابعة طريقها وقد واجهت شيئاً لم تعرف مثيلا له. كانت هناك أسلاك مشدودة من الفولاذ تمتدّ ١٣٠ كيلومتراً على الحدود الشمالية لمحمية الحيوان وسط صحراء كالاهاري. وغاية ذلك السياج وقاية الحيوانات من مرض الحمّى القلاعية الذي يحدث قروحاً حول اظلافها وأفواهها. وهو يتصل عند طرفيه الشرقي والغربي بأقسامٍ أخرى من سياج يمتد ٨٠٠ كيلومتر.

وهكذا عُزلت الثياتل عن الماء الذي ظلّت دهوراً تجده هناك وقت الجفاف. ولم يكن في غرائزها أو في معارفها ما يدلّها على السلوك المناسب حيال تلك الورطة.

رحلة الموت

هكذا أُرغمت القطعان على عدم متابعة طريقها شمالا حيث نهر بوتيتي على مسيرة يوم واحد أو يومين، واتّجهت شرقاً على امتداد السياج. وكل يوم كانت تنضمّ اليها الزرائف والظباء الساعية هي أيضاً الى الماء.

وأَرغَم السياج أُلوفاً مؤلّفة من الحيوانات الظامئة على اتباع الطريق نفسها. وسرعان ما استحال العشب غباراً تحت حوافرها ولم يبقَ لها ما تأكل. وأخذت تسقط بفعل الجوع والعطش والارهاق، وملأت الجيف السهول.

وبداية تلك المأساة في بوتسوانا ترقى الى الخمسينات. وهي سنوات شهدت ارتفاعاً هائلا في تصدير لحم البقر، الأمر الذي حدا المزارعين على إقامة الأسيجة لحماية قطعانهم من الحمّى القلاعيّة. وساهمت وزارة الصحة الحيوانية في تلك الحملة وأقامت ١٣٠٠ كيلومتر من الأسيجة لتفصل مزارع الأبقار عن حيوانات القفار الشاردة. وتتولى الوزارة حالياً اقامة ٥٦٠ كيلومتراً من الأسيجة الجديدة.

وكانت تلك الأسيجة تشكّل خطراً على الحياة البرية قبل وقت طويل من مباشرة دراستنا. وفي العام ١٩٦١، ثم في العام ١٩٦٤، قضت ألوف الثياتل في منطقة بحيرة كساو.

وسقطت أمطار في الصحراء أواخر ١٩٨٠ وأعادت بعض الثياتل الى البطاح بعد هلاك الألوف منها. لكن زمن السعد لم يَدُم طويلا، وباستثناء بعض الأمطار الضئيلة استمرّ الجفاف حتى نهاية ١٩٨٤. ولا تزال قطعان الثياتل تهاجر الى بحيرة كساو التي نضب معظمها.

وفنيت حُمرُ الوحش التي طالما رعت في وادي السراب في فصول المطر. ونقص عدد الثياتل على نحوٍ هائل.

وإذا كان الموت مصير الظباء الضخمة، فهو ليس بعيداً عن الاسود والنمور والسعادين والكلاب البرية وآكلات الجيف كالضباع البنية. ومع أننا لا نعرف عدد آكلات اللحوم قبل إقامة الأسيجة فان ذلك التدبير أنقص عددها كثيراً.

وتجدر الاشارة الى أن موقف حكومة بوتسوانا ايجابي بالنسبة الى الكائنات البرية. والواقع ان سدْس مساحة البلاد هو عبارة عن حدائق حيوان مطوّقة أو طليقة.

أما المسؤولون الحكوميون فما انفكوا يقدمون الينا كل مساعدة ممكنة. وهم سمحوا لنا بالعمل هناك. ولكن كان علينا حَضّ الجهات المعنيّة دائماً على اتخاذ

التدابير الضرورية لحماية الحياة البرية.

ولم تقتصر نداءاتنا على بوتسوانا، بل وَجّهناها الى العالم الخارجي في محاولة للحصول على دعم أناس مرموقين يستطيعون هم أيضاً التأثير في حكومة بوتسوانا لعدم ادّخار اي جهد من شأنه إنقاذ تلك الثروة التي تمتلكها.

خاتمة

شئنا أن تستمرّ الأبحاث حول الثياتل. لذلك طلبنا اعتمادات كي يبقى مخيم وادي السراب قائماً ويتحوّل محطة أبحاث صغيرة. ووافقت جمعية فرانكفورت للحيوان على تمويل المحطة وإرسال فريق من الباحثين لمتابعة العمل. وتابع دوغلاس وجيمس وليمسون عملنا الأوّلي على ذلك النوع من الظباء وأردفاه بدراسة أكثر تفصيلا. وجاء لديهما أن أكثر من ستّين ألفاً من الثياتل نفقت عام ١٩٨٣ في المنطقة المحيطة ببحيرة كساو وحدها.

وتلقّت حكومة بوتسوانا اتصالات من مختلف أنحاء العالم تعبّر عن القلق حيال مصير الثياتل. وخصصت وزارة الزراعة نحو عشرين ألف دولار لدائرة الحياة البرية والمحميات الوطنية من أجل استخدامها لاقامة مناهل ترتادها ظباء كالاهاري. وفي العاصمة غابورون أُسّست جمعية كالاهاري للمحافظة على الحيوان.

نحن الاثنين كان في استطاعتنا تمضية بقية أيام حياتنا في وادي السراب، نملأ دفتراً بعد آخر بالملاحظات. لكن ذلك لم يكن ليفيد كالاهاري أكثر. بل كانت هناك حاجة ماسّة الى تصنيف تلك المعلومات ومقارنتها والخروج منها بنتائج تكون ذات فائدة للعلم ولمحبّي الطبيعة.

لقد عشنا مراحل عسيرة وسط الصحراء. لكن أعسرها جميعاً كانت مغادرة وادي السراب.

وذات صباح باكر من ديسمبر (كانون الأوّل) ١٩٨٠ انطلقنا بالطائرة في سماء الصحراء. وراحت ظبية سمّيناها "بوينغ" تخبّ أمام الطائرة التي أدهشتها كثيراً، فيما نفرت الطيور عن أشجار المخيّم. ولم يَقْوَ أيٌّ منا على الكلام ونحن ننحرف شمالا لنحلّق قليلا فوق الوادي. وانحدرنا قليلا لنغدو في محاذاة رؤوس الشجر حيث أنقذنا بونس بالجراحة، ثم فوق حظيرة الضباع الصغيرة حيث شاهدنا بيبر تستريح تحت شجرة سنط. وارتفعنا فوق كتف الكثيب الشرقي حيث قضت الأُسود على ستار. ثم انعطفنا جنوباً على زاوية من ١٦٣ درجة وابتعدنا عن وادي السراب في اتجاه عالم آخر.

مارك وديليا أوينز ■

يعمل الكاتبان على شهادة الدكتوراه في جامعة كاليفورنيا في ديفيس. وقد عادا حديثاً الى وادي السراب لاستئناف دراستهما ومساعيهما للمحافظة على الحياة البرية هناك. وتتولى جمعية "ناشونال جيوغرافيك" انتاج شريط تلفزيوني حول عودتهما. وقد غدا كتابهما "نداء كالاهاري" من أكثر الكتب رواجاً، ونالا عليه جائزة جون باروز للابداع في الكتابة عن الطبيعة.